

رواية



كين فوليت

مكتبة سر من قرأ

عَمُودُ نَارٍ



ترجمة: عزة حسون

عَمُودُ نَارٍ

لزنسى تشرين . . 23

لزنسى غزوة والشهداء

بلغ عدد الشهداء مع نهاية العمل على الكتاب

18608 شهيد و 50594 مصاب

غير المفقودين تحت الأنقاض

اللهم تقبلهم عندك وكن في عون الأحياء منهم

مكتبة سُرْمَن قَرَأ



رواية

Author: **Ken Follett**

اسم المؤلف: كين فوليت

Title: **A Column of Fire**

عنوان الكتاب: عمودُ نارٍ

Translated by: **Azza Hassoun**

ترجمة: عزة حسون

Cover Designed by: **Majed Al-Majedy**

تصميم الغلاف: ماجد الماجدي

P.C.: **Al-Mada**

الناشر: دار المدى

First Edition: **2020**

الطبعة الأولى: 2020

جميع الحقوق محفوظة: دار المدى

Copyright © Ken Follett 2017



للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

+964 (0) 770 2799 999 +964 (0) 780 808 0800

بغداد: حي أبو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141

+964 (0) 790 1919 290

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار

بيروت: بشامون - شارع المدارس

Damascus: Karjih Haddad Street - from 29 Ayar Street

Beirut: Bchamoun - Schools Street

+963 11 232 2276

+963 11 232 2275

+961 175 2617

+961 706 15017

+963 11 232 2289

ص.ب: 8272

+961 175 2616

14 12 2023

مكتبة

t.me/soramnqraa

كِين فُولِيْت

مَلْتَبَة سُرْمَنْ قَرَأ

عَمُودُ نَارٍ

تَرْجَمَة : عَزَّة حَسُون



انضم لـ مكتبة .. اصحح الكود

telegram @soramnqraa



إلى إيمانويل
إلى تسعة وأربعين عاماً من التألق

«وكان الرَّبُّ يسيرُ أمامهم نهاراً في عمودٍ
من سحابٍ ليهدِيهم في الطريقِ، ولبلاً في
عَمودِ نارٍ ليضيءُ لهم لكي يمشوا نهاراً ولبلاً».

سفر الخروج 13:21

قائمة شخصيات الرواية

أضع هذه القائمة في متناول القارئ كتذكير لطيف في كل مرة قد ينسى فيها إحدى الشخصيات، وأرجو ألا يحتاجها أبداً. أعلم أنّ القراء أحياناً يضعون الكتاب جانبا، ولا يعودون إلى قراءته إلا بعد أسبوع أو أكثر، كما يحدث معي أيضاً، وينسون الشخصيات، ولذلك، وكإجراء احتياطي، وضعت قائمة بالشخصيات التي ستظهر في هذا العمل بين الحين والآخر.

إنكلترا

عائلة ويلارد

نيد ويلارد

أخوه بارني

أليس، والدتهما

مالكوم فايف، السائق

جانيت فايف، مدبرة المنزل

إيلين فايف، ابنة مالكوم وجانيت

عائلة فيتزجيرالد

مارجوري فيتزجيرالد

رولو، أخوها

السير ريجنالد، والدهما

الليدي جاين، والدتهما

الخادمة ناعومي

الأخت جوان، عمّة والد مارجوري

عائلة شايرنغ

الفيكونت بارت شايرنغ
الإيرل سويذن شايرنغ، والد بارت
سال برندن، مدبرة المنزل

البيورتانيون

فيلبرت كوبلي، مالك سفن
دان كوبلي، ابنه
روث كوبلي، ابنته
دونال غلوستر، عامل لدى فيلبرت كوبلي
الأب جيرمايا، كاهن كنيسة سانت جون في لفرزفيلد
الأرملة بولارد

آخرون

فريز موردو، واعظ متجول
سوزانا، كونتيسة بيرنوك وصديقة مارجوري ونيد
جوناس بيكون، قبطان سفينة «ذا هو».
جوناثان غرينلاند، مساعد الربان على سفينة «ذا هو».
ستيفن لينكولن، كاهن
رودني تيلبري، قاضي

شخصيات تاريخية حقيقية

ماري تودر، ملكة إنكلترا
إليزابيث تودر، أخت الملكة غير الشقيقة والملكة اللاحقة
السير ويليام سيسيل، مستشار إليزابيث
روبرت، ابن ويليام سيسيل
ويليام آلن، قائد الإنكليز الكاثوليك المنفيين
السير فرانسيس ويلزنهايم، رئيس الجواسيس

فرنسا
عائلة بالو

سيلفي بالو
إيزابيل بالو، والدتها
غيلز بالو، والدها

آخرون

بيير أوموند
الفيكونت فيلنوف، أحد زملاء بيير أيام الدراسة
الأب موينو، معلم بيير
نات، خادمة بيير
غيوم، قس متجول من جنيف
لويز، ماركيزة نيم⁽¹⁾
لوك موريس، سمسار بضائع
أفروديت بيلو، ابنة الكونت بيلو
رينيه دوبوف، خياط
فرانسواز دوبوف، زوجته الشابة
ماركيز دو لاني، أرسوقراطي بروتستانتي
برنار أوس، أحد رجال الحاشية الشباب
أليسون ماكي، وصيفة ملكة إسكتلندا ماري
أفراد متخيلون في عائلة غيز
غاستون لوبان، قائد الحرس في منزل عائلة غيز
بروكار وراستو، قاطعا طريق يعملان تحت إمرة غاستون
فيرونيك
أوديت، خادمة فيرونيك
جورج بيرون، جاسوس

1- مدينة في جنوب فرنسا

شخصيات تاريخية حقيقية في عائلة غيز

الدوق فرانسوا غيز

هنري غيز، ابن فرانسوا

شارل غيز، كاردينال لورين وأخو فرانسوا

شخصيات تاريخية حقيقية: عائلة بوربون وحلفاؤهم

أنطوان ملك نافار

هنري بوربون، ابن أنطوان

لويس، أمير كونديه

غاسبار دي كوليني، قائم مقام فرنسا

شخصيات تاريخية حقيقية: آخرون

هنري الثاني، ملك فرنسا

كاترينا دي ميديتشي، ملكة فرنسا

أولاد هنري وكاترينا

فرانسيس الثاني، ملك فرنسا

شارل التاسع، ملك فرنسا

هنري الثالث، ملك فرنسا

مارغو، ملكة نافار

ماري ستيوارت، ملكة إسكتلندا

شارل دي لوفزيبه، قاتل

إسكتلندا

شخصيات تاريخية حقيقية

جيمس ستيوارت، الأخ غير الشقيق لملكة إسكتلندا ماري

جيمس ستيوارت، ابن الملكة ماري

جيمس السادس، ملك إسكتلندا

جيمس الأول، ملك إنكلترا

إسبانيا عائلة كروز

كارلوس كروز
العمة بيتسي
عائلة رويز
جيرونيما
والدها بيدرو

آخرون

روميرو، رئيس الشمامسة
الأب ألونسو، رئيس محكمة التفتيش
غوميز، القبطان «ذو القبضة الحديدية».

هولندا

عائلة ولمان

جان ولمان، نسيب إدموند ويلارد
إمكي، ابنته
عائلة ويلمسون
ألبرت
بيتتي، زوجة ألبرت
درايك، ابنتهما
الأرملة إيفي، أخت ألبرت
ماتيسوس، ابن إيفي

جنسيات أخرى

إيرما دابو، عبد أفريقي من العرق الماندنكي⁽¹⁾
بيلا، صانعة مشروب الرُم في إسبانيولا⁽²⁾

-
- 1- مجموعة عرقية أفريقية (ثالث أكبر مجموعة عرقية في القارة السوداء) يبلغ عدد أفرادها 11 مليون نسمة وهم موزعون في غامبيا وغينيا وغينيا بيساو ومالي. (المترجمة)
- 2- إحدى جزر الكاريبي. (المترجمة)

مكتبة

t.me/soramnqraa

أعدمناه أمام كاتدرائية كينغزبريدج حيث تُنفذ الإعدامات عادة؛ فإن لم تكن قادراً على قتل رجلٍ أمام الربِّ لن تنجح في قتله أبداً.

أحضره الشريف من الزنزانة أسفل مبنى غيلد هيل ويداها مُقيّدتان خلف ظهره. مشى بانتصابٍ وبوجهٍ شاحبٍ يفور بالتحدي والشجاعة.

سخر منه الحشد وشتمه، ولكنه بدا كأنه لا يرى أحداً سواي. تلاقى عيوننا، وفي هذا التبادل اللحظي للنظرات مرَّ عمرٌ بأكمله. كنتُ المسؤول عن إعدامه وهو يعلمُ بهذا.

طارده لعقودٍ من الزمن، فقد كان من زرع المتفجرات، ولو لم أوقفه لكان قتل نصف حُكّام بلدي - بمن فيهم العائلة المملكيّة - بكل وحشية وتعطشٍ للدماء.

قضيت حياتي في تقفي أثر المجرمين أمثاله، وقد أوصلت الكثيرين إلى المقصلة. لم يُعدموا فحسب بل أُغرقوا وقُطعوا، أما أحكام الموت الأكثر ترويعاً فقد كانت من نصيب أسوأ المجرمين. قمتُ بهذا مراتٍ عديدة، وراقبتُ كل رجل يموت وأنا على علم تام أنني - وأكثر من أيّ أحدٍ آخر - من أوصله إلى هنا لينال عقاباً رهيباً وعادلاً في آنٍ معاً. قمتُ بهذا خدمةً لبلدي الغالي، ومن أجل المملكيّة التي أعمل لمصلحتها، ومن أجل مبدأ آخر

وهو الإيمان بأن آتي شخص يملك حق اختيار طريقه إلى الرب.
كان آخر الرجال الكثر الذين أرسلتهم إلى الجحيم، ولكنه
جعلني أعتقد أنه أولهم...

الجزء الأول

1558

عادَ نيد ويلارد إلى منزله في كينغزبريدج وسط عاصفة ثلجية. كان قد أبحرَ شمالاً من ميناء كومب في قُمرَة مركب بطيء محمل بالأقمشة من مدينة أنتويرب وبالنيذ من بلدة بوردو. عندما أيقن أن المركب يقترب من كينغزبريدج أحكم عباءته الفرنسية حول كتفيه، وسحب القلنسوة حتى أذنيه ثم خرج إلى ظهر المركب، ونظر إلى الأمام.

شعرَ نيد في البداية بخيبة الأمل لأنه لم يرَ سوى الثلج المتساقط، وشعرَ بالحنين إلى رؤية المدينة، كان حينئذٍ أشبه بالألم، وحدّق بأمل عبر نُدفِ الثلج الغزير. عندما أخذت العاصفة تنقش تحققت أمنيته أخيراً، وظهرت أمامه فجأة بقعة سماوية زرقاء. وبينما كان يتأمل ذؤابات الأشجار المجاورة رأى برج الكاتدرائية البالغ ارتفاعه أربعمئة وخمسة أقدام، وهذه المعلومة يعرفها كل طالب في مدرسة النحو. كان الثلج قد غطى أجنحة الملاك الحجري الذي يطل على المدينة عند قمة البرج، واكتست أطرافه الريشية بلونٍ أبيض ناصع. حدّق نيد إلى التمثال الذي سقط شعاع عليه فجأة فلتلاً للثلج فوقه كبركة ماء. وأغلقت العاصفة الرقعة السماوية ليغيب التمثال عن الأنظار.

مرَّ وقتٌ لم يعد فيه نيد قادراً على رؤية شيءٍ سوى الأشجار، ولكن ضجّت مخيلته بالصور، وبفكرة لم شمله مع والدته بعد غياب عامٍ بأكمله. لن يخبرها كم افتقدها؛ فعلى أي رجلٍ بالغ في الثامنة عشرة أن يكون مستقلاً ومكتفياً بذاته.

كان يفتقد مارجوري أكثر من أي أحد، فقد وقع في غرامها في وقتٍ كارثي، وذلك قبل أسابيع من مغادرة كينغزبريدج لقضاء عامٍ في كاليه - المدينة الواقعة على الساحل الفرنسي الشمالي والخاضعة للحكم

البريطاني. كان نيد يستلطف ابنة السير ريجنالد فيتزجيرالد المشاغبة والذكية منذ الطفولة، إلا أنها عندما كبرت اصطبغ شغبتها بسحرٍ جديد جعله يحرق نحوها في الكنيسة بغم جافٍ وأنفاس مضطربة. تردد كثيراً حيال القيام بأي شيء ما عدا التحديق نحوها فقد كانت أصغر منه بثلاثة أعوام، ولكن هذا لم يكن ليُثني مارجوري. قبلاً بعضهما في مقبرة كينغزبريدج خلف الكتلة الكبيرة لضريح رئيس الدير فيليب، ذلك الناسك الذي أسس الكاتدرائية منذ أربعة قرون. لم تكن قبلتهما الطويلة والحارة طفولية قط، إلا أن مارجوري ضحكت وهربت بعيداً.

قبلته مرة أخرى في اليوم التالي، وفي الليلة السابقة لمغادرته إلى فرنسا اعترفاً ببعضهما لبعض بأنهما واقعان في الغرام.

تبادلا رسائل الحب في الأسابيع الأولى من سفره، ولم يُخبرا أهلها عن مشاعرهما فقد كان الوقت مبكراً على هذا. لم يكونا قادرين على كتابة رسائل صريحة، إلا أن نيد كان قد أفضى إلى أخيه الأكبر بارني بسرّه، وأصبح بارني الوسيط بينهما، ولكن بارني غادر كينغزبريدج لاحقاً متوجهاً إلى مدينة إشبيلية. لمارجوري أخ أكبر منها أيضاً يدعى رولو، ولكنها لا تثق به كما تثق نيد بأخيه بارني، ولهذا انتهت المراسلات بينهما.

لم يكن لقلّة التواصل بينهما أيُّ أثر على مشاعر نيد رغم أنه على دراية تامة بما يقوله الناس عن الحب في عمرٍ مبكرٍ، وانتظر أن تتغير مشاعره إلا أنها لم تتغير. بعد مرور عدة أسابيع على استقراره في كاليه اعترفت له نسيبته تيريز أنها تعبه وأنها مستعدة للقيام بأي شيء يريده لتثبت له حبها، ولكن هذا لم يُغرنيد، ودُهِش عندما فكر بأنّه لم يفوت قط فرصة تقبيل فتاة حلوة بشدين جميلين.

ولكن كان هناك أمرٌ آخر يقلقه حالياً. بعد رفض نيد لتيريز أصبح واثقاً من أن مشاعره نحو مارجوري لن يُغيرها البُعد عنها، إلا أنه أخذ يتساءل عما سيحدث عندما يراها. هل ستكون مارجوري بلحمها ودمها ساحرة كما يتذكرها؟ هل سينجو هذا الحب عندما يلتم شملهما؟ ماذا عن مارجوري؟ إن فترة عام طويلة جداً لأية فتاة في الرابعة عشرة، أو في الخامسة عشرة الآن، وقد تكون مشاعرها قد تغيرت بعد توقف الرسائل، أو ربما قبلت

شخصاً آخر خلف ضريح رئيس الدير فيليب. سيُشعرُ نيد بالخيبة الشديدة إن لم تعد مارجوري تبالي بأمره، وحتى وإن كانت ما تزال تحبه. فهل ستتذكر مارجوري نيد عندما تراه؟

انحسرت العاصفة مجدداً، وانتبه نيد إلى أنّ القارب يمر عبر قناة الضواحي الغربية لكينغزبريدج حيث الورش الصناعية موزعة على كلتا الضفتين. تستخدم هذه الورش الكثير من المياه لدباغة وغسل الأقمشة، وصناعة الورق، وذبح الماشية. ولأنّ هذه الصناعات تُطلق روائحاً فقد كانت الإيجارات في الأحياء الغربية منخفضةً.

لاحت جزيرة لبير⁽¹⁾ أمام أنظارهم. كان الاسم قديماً، ومنذ قرون لم يعد فيها مجذوم واحد. يقع مشفى كاريس على الطرف الأخير من الجزيرة، وقد أسسته راهبة أنقذت المدينة خلال وباء الطاعون. ومع اقتراب المركب استطاع نيد رؤية ما هو أبعد من المشفى. رأى التعرجين الجميلين لجسر ميرتن الذي يربط الجزيرة بالبر الشمالي والجنوبي. كانت قصة الحب التي جمعت كاريس بميرتن أسطورةً محليةً انتقلت جيلاً بعد جيل حول مدافئ الشتاء.

شقّ المركب طريقه نحو المرسى عند الرصيف المائي المُكْتَظ بالسفن. لم تبدُ المدينة مختلفة كثيراً عما كانت عليه في العام الماضي. يعتقد نيد أنّ أماكن ككينغزبريدج تتغير ببطء، فالكاتدرائيات والجسور والمشافي تُبنى لتبقى إلى الأبد.

وضع حقيبة على كتفه، وناوله قبطان السفينة متاعه الأخير والوحيد، وكان عبارة عن صندوق خشبي يحوي بعض الثياب والكتب ومسدساً. حمل نيد الصندوق ونزل من القارب باتجاه حوض السفن.

توجه نيد إلى المستودع الحجري على الرصيف المائي الذي كان المركز الذي تدير منه عائلته أعمالها، ولكنه بالكاد خطا بضع خطوات حتى سمع صوتاً إسكتلندياً مألوفاً:

«حسناً، ألسنتَ نيد خاصتنا؟ أهلاً بعودتك إلى الوطن.»

1 - وتعني جزيرة الجُذام (المرجمة)

كان المتحدث جانيت فايغ مدبرة منزل والدته. ابتسم نيد ابتسامة عريضة فرحاً برؤيتها.

«كنت أشتري السمك من أجل عشاء والدتك»، قالت له. كانت جانيت امرأةً نحيلةً جداً كأنها مصنوعة من العيدان، ولكنها أحبت إطعام الناس. «وستحظى بحصتك من العشاء أيضاً».

ونظرت نحوه بعينين حنونتين ثم قالت: «لقد تغيرت، ويبدو وجهك أكثر نحولاً ولكن كتفيك أكثر عرضاً. هل كانت عمته بلانش تطعمك جيداً».

«أجل، ولكن عمي ديك كان يكلفني بجرف الصخور».

«هذا عمل غير مناسب لطالب».

«ولكني لا أمانع القيام به».

رفعت جانيت صوتها. «مالكوم، مالكوم. انظر من وصل».

كان مالكوم زوج جانيت وسائس الخيل لدى عائلة ويلارد. قطع مالكوم حوض السفن وهو يعرج، فقد ركله حصان على قدمه عندما كان شاباً غرماً. صافح مالكوم نيد بحرارة وقال له: «لقد توفي أو كورن العجوز».

«كان حصان أخي بارني المفضل»، وأخفى نيد ابتسامته، فقد اعتاد مالكوم الاهتمام بأخبار الحيوانات قبل أخبار البشر.

«هل أمي بخير؟» سأله نيد.

«السيدة في وضع جيد والحمد لله»، قال مالكوم. «وكذلك أخوك كما وصلنا في آخر رسائله. إنه ليس بكاتب رسائل عظيم، فضلاً عن أن وصول الرسائل من إسبانيا يستغرق شهراً أو شهرين. دعني أساعدك في حمل متاعك أيها الشاب نيد».

لم يرغب نيد بالعودة إلى المنزل فوراً فقد كانت لديه نوايا أخرى.

«هل يمكنك أن توصل صندوقي إلى المنزل؟» قال لمالكوم، واختلق قصة برر فيها عدم ذهابه إلى المنزل على الفور.

«أخبرهم أنني سأذهب إلى الكاتدرائية لأقدم شكري للربّ على وصولي سالمًا، وسأعود بعدها إلى البيت على الفور».

«هذا جيد جداً».

سار مالكوم، ولحقه نيد على مهل وهو يُمتع ناظره بذلك المنظر الأليف للأبنية التي كبر بينها. كان الثلج ما يزال يتساقط وبدت الأسطح بيضاء، ولكن الشوارع اكتظت بالناس والعربات وبالثلج المتسخ على الأرض. مرّ نيد بالقرب من حانة وايت هاوس الشهير حيث تقع المشاجرات ليالي السبت، وتوجه إلى الشارع الرئيسي حيث تقع ساحة الكاتدرائية. عبر قصر الأسقف، ووقف لبعض الوقت وبشيء من الحنين أمام مدرسة النحو. ومن النوافذ الضيقة والمستدقة الشكل تمكن من رؤية رفوف الكتب المُضاءة بنور المصابيح. لقد تعلم هنا القراءة والحساب، وكيف يقاتل ومتى يهرب، وكيف يمنع نفسه من البكاء وهو يُجلد بحزمة من أغصان شجرة البتولا.

يقع دير الراهبات على الجهة الجنوبية من الكاتدرائية، فبعد أن ألغى الملك هنري الثامن كل الأديرة، أصبح دير كينغزبريدج في وضع يُرثى له. كانت سقوفه متصدعة وجدرانه آيلة للسقوط وخرجت نباتات عالية من النوافذ. أصبحت مُلكية المباني الآن بيد العمدة الحالي، السير ريجنالد والد مارجوري، ولكنه لم يفعل شيئاً لإنقاذ الأبنية.

لحسن الحظ كانت الكاتدرائية مصونة بشكل جيد، وترتفع بقوة وشموخ كرمزٍ حجري شاهد على المدينة الحية. دخل نيد من الباب الغربي الكبير إلى صحن الكنيسة. سيقوم بتقديم الشكر للربّ على وصوله بالسلامة وبالتالي لن يكون قد كذب على مالكوم.

ما زالت الكنيسة، كما كانت دوماً، مركزاً لإدارة الأعمال وللعبادة أيضاً. حمل فريير مورودو طبقاً من قارورات زجاجية تحوي تراباً مكفولاً من فلسطين. قدّم له رجلٌ لم يعرفه أحجاراً حارةً ليدفئ يديه مقابل بنسٍ. كانت بوس لافجوي في ثوبٍ أحمر ترتجف من البرد وتبيع ما تبيعه عادةً.

نظر نيد إلى دعامات القنطرة الشبيهة بسواعد حشدٍ من الناس يرفعونها نحو السماء. كلما أتى إلى هذا المكان فكر بالرجال والنساء الذين بنوه. خُلدت ذكرى العديد منهم في كتاب تيموثي الذي يؤرخ الدير، وقد درس عنهم في المدرسة، ومن بينهم البناء توم بيلدر وابن زوجته جاك ورثيس الدير فيليب وميرتن فيتزجيرالد الذي بنى الجسر والبرج الرئيسي، وكل النساء العاملات في رصف الملاط والنجارين والقزازين والناس العاديين

الذين قاموا بعمل استثنائي رغم إمكاناتهم المتواضعة، وصنعوا شيئاً بهذا الجمال الخالد.

ركع نيد أمام المذبح لدقيقة، فالوصول بالسلامة من أيّ رحلة أمرٌ يستحق شكر الربّ عليه، حتى ولو كانت رحلة عبور قصيرة بين فرنسا وإنكلترا فالسفن قد تواجه المتاعب ويمكن أن يحصد الموت أرواح الناس. ولكنه لم يُطل ركوعه، فمحطته التالية بيت مارجوري.

على الجانب الشمالي من ساحة الكنيسة وقبالة قصر الأسقف يقع نزل بيل وبقره بيت جديد ما زال قيد البناء. تعود ملكية الأرض التي يُبنى عليها المنزل إلى الدير ولهذا افترض نيد أنّ والد مارجوري المسؤول عن عمليات البناء. وبالحكم على شكله الآن سيكون المبنى مُبهراً، فقد رأى نيد مشربيات والعديد من المداخن. سيكون أفخم بيت في كينغزبريدج.

تابع نيد طريقه في الشارع الرئيسي إلى التقاطع حيث يقع منزل مارجوري الحالي على إحدى الزوايا قبالة الطريق القادم من غيلدهيل. رغم أنّ البيت الحالي ليس بعظمة البيت الآخر الذي يتم إنشاؤه، لكنه بيتٌ كبيرٌ مُؤطر بالخشب، ويشغل مساحة فدان كامل من أعلى الأراضي في البلدة. توقف نيد عند الباب قليلاً، فقد كان يتطلع قُدماً إلى هذه اللحظة منذ عام. وما هو الآن أمام الباب والخوف يملأ قلبه.

قرع نيد الباب، وفتحت له خادمة عجوز تدعى نعومي ثم دعتّه للدخول إلى القاعة الكبيرة. تعرفُ نعومي نيد منذ صغره، ولكنها بدت قلقة عندما رآته وكأنّه غريب مثير للريبة. وعندما سأله نيد عن مارجوري أخبرته أنها ستذهب وترى إن كانت موجودة.

حدّق نيد في لوحة المسيح على الصليب المُعلقة فوق الموقد. هناك نوعان من اللوحات في كينغزبريدج؛ لوحات تصور مشاهد من الإنجيل ولوحات البورترية الخاصة بالنبلاء. عندما كان نيد في بيوت الأثرياء الفرنسيين فوجئ برؤية لوحات لآلهة وثنية كفينوس وباخوس في غابات أسطورية وفي أودية رخوة وكأنها ستسقط عن أجسادها.

ولكن الغريب في الأمر هنا أنّه على الجدار المُقابل للوحة صلب المسيح خريطة لكينغزبريدج. لم يرَ نيد مثل هذا قبلاً، وحدّق باهتمام في الخريطة

التي توضح انقسام البلدة إلى أربعة أقسام يفصلها شارع رئيسي يتجه شمالاً وجنوباً، وشارع رئيسي آخر يتجه شرقاً وغرباً. احتلت الكاتدرائية والدير السابق القسم الشرقي الجنوبي، وامتدت المنطقة الصناعية ذات الرائحة النتنة في القسم الغربي الجنوبي من البلدة. كان هناك علامات على كل الكنائس وبعض البيوت أيضاً بما في ذلك منزل عائلة فيتزجيرالد ومنزل عائلة ويلارد. يرسم النهر الحدود الجنوبية أيضاً، ولكن البلدة امتدت إلى ما بعده وهناك الآن ضاحية كبيرة على الضفة البعيدة منه وهذا بفضل جسر ميرتن.

لاحظ نيد أن اللوحتين تمثلان والدَي مارجوري؛ لا بد أن والدها المعني بالسياسة قد علّق الخريطة، ووالدتها الكاثوليكية الورعة من علّق لوحة صلب المسيح.

لم تكن مارجوري من دخل إلى القاعة الكبيرة بل أخوها رولو الذي كان أطول من نيد ووسيماً وبشعر أسود. يرتاد نيد ورولو المدرسة نفسها، ولكنهما لم يصبحا أصدقاء قط. كان رولو أكبر منه بأربع سنوات، ومن أذكى الأولاد في المدرسة ومسؤولاً عن الطلاب الأصغر عمراً، ولكن نيد رفض أن يعتبره أستاذاً، ولم يقبل بسلطته. ولكن عاجلاً ما بدأ نيد يُظهر ذكاءً بمستوى ذكاء رولو، وهذا زاد الطين بلّة بينهما. استمرت الشجارات والجدالات بينهما إلى أن التحق رولو بكلية كينغزبريدج في أوكسفورد.

حاول نيد أن يخفي كُرّه لرولو وكبح غيظه ثم قال:

«انتبهت إلى المبنى الجديد بالقرب من نزل بيل. هل يبني والدك منزلاً جديداً؟».

«أجل، هذا البيت قديم الطراز».

«لا بد أن الأعمال مزدهرة في كومب».

كان السير ريجنالد المسؤول الجمركي عن ميناء كومب وهو منصب يدُرُّ مالاً كثيراً. كانت ماري تودر قد أوكلته به عندما أصبحت الملكة كمكافأة له على دعمه لها.

«إذاً لقد عدت من كاليه، كيف سارت الأمور؟» قال رولو.

«تعلمت الكثير. بنى أبي رصيفاً بحرياً ومستودعاً هناك والعم ديك يديرهما الآن».

توفي إدموند والد نيد منذ عشرة أعوام، ووالدته تدير الأعمال منذئذ.
«ن شحن الحديد الخام والقصدير والرصاص الإنكليزي من ميناء كومب
إلى كاليه، ومن هناك إلى جميع أنحاء أوروبا». كانت كاليه المركز الذي تتم
فيه كل أعمال عائلة ويلارد.

«هل أثرت الحرب على الأعمال؟».

كانت هناك حربٌ بين إنكلترا وفرنسا، ولكن من الواضح أنّ اهتمام رولو
بالأمر مزيف بل واستساغ فكرة أن تكون ثروة عائلة ويلارد في خطر.
حاول نيد أن يقلل من شأن الفكرة وقال:

«إن كاليه مُحصّنة جيداً»، بدا واثقاً أكثر مما كان يشعر في الحقيقة. «وهي
محاطة بالحصون لحمايتها منذ أن أصبحت جزءاً من إنكلترا منذ مئتي عام». «كان
صبر نيد قد نفذ. «هل مارجوري في المنزل».

«هل لديك سببٌ لرؤيتها؟».

كان سؤالاً وقحاً، ولكن تظاهر نيد أنّه لم يُلاحظ هذا، وفتح حقيبته
المدرسية وقال: «لقد أحضرت لها هدية من فرنسا». وأخرج قطعة حرير
لامعة بلون الخزامى مطوية بعناية.
«أعتقد أنّ اللون سيناسبها».

«لن ترغب برؤيتك».

تجهم نيد وقال: «لماذا؟ أنا واثق من أنّها تريد مقابلتني».

«لا يمكنني أن أفكر بسببٍ يدعوها إلى هذا».

اختار نيد كلماته بعناية. «أنا أقدر أختك يا رولو، وأعتقد أنّها مغرمة بي».

«ستكتشف أنّ الأمور قد تغيرت مذ رحلت أيها الشاب نيد». قال رولو

بتعجرف.

لم يأخذ نيد رده على محمل الجد، ونظر إلى تصرف رولو على أنّه نابع
من خبيثٍ ومكبر.

«لا فرق، فلتسألها من فضلك».

ابتسم رولو وأثار هذا قلق نيد، فقد كانت كابتسامته عندما يمنح الإذن
بجلد أحد الطلاب في المدرسة.

«مارجوري مخطوبة»، قال رولو.
«ماذا؟» حدّق نيد نحوه مصدوماً ومتألماً وكأنّ أحدهم ضربه من وراء.
لم يكن واثقاً مما ينتظره، ولكن لم يحلم قط أن يكون هذا ما ينتظره.
أخذ رولو ينظر إلى وراءه وبتسم.
قال نيد أول شيء خطر في باله:
«لمن خطبت؟».

«ستزوج الفيكونت شايرنغ».

«بارت!» قال نيد. كان الأمر صادماً له، فمن بين جميع الشباب في المدينة كان بارت شايرنغ الغبي والسخيف آخر شخص قد يخطف قلب مارجوري.
كانت فكرة أنه سيصبح إيرل شايرنغ يوماً ما سبباً كافياً ليأسر قلوب الكثير من الفتيات ولكن ليس مارجوري. كان نيد واثقاً من هذا، أو ربما كان واثقاً من هذا العام الماضي.

«هل اختلقتَ هذا الكلام؟».

أدرك نيد على الفور أنه سؤالٌ غبي، فقد يكون رولو ماكرأً وحقوداً إلا أنه ليس غيباً، ولن يخترع مثل هذه القصة خوفاً من أن يبدو غيباً عندما تظهر الحقيقة.

هز رولو كتفيه بلا مبالاة.

«سيُعلن عن الخطبة غداً أثناء الوليمة التي يقيمها الإيرل».

في الغد سيكون قد بقي على حلول عيد الميلاد اثنا عشر يوماً وإن كان إيرل شايرنغ سيقوم احتفالاً فستكون عائلة نيد مدعوة، وإن كان رولو يقول الحقيقة فسيكون نيد حاضراً أثناء إعلان الخطوبة.

«هل تحبه؟» سأل نيد من دون التفكير بما يقوله.

لم يتوقع رولو السؤال، وكان دوره الآن أن يقع في الحيرة.

«ليس هناك من سببٍ يدفعني لمناقشة الأمر معك».

فهم نيد من مراوغة رولو أن الجواب لا.

«لماذا تراوغ؟».

كبح رولو نفسه وقال لنيد: «من الأفضل أن تغادر، قبل أن أضطر إلى ضربك كما كنت أفعل سابقاً».

«لم نعد في المدرسة، وقد تُفاجأ بمن قد يضرب الآخر»، قال نيد وانتابته رغبة في العراك مع رولو. كان غاضباً جداً إلى درجة لم يعد يهمله معها إن كان سيفوز في العراك أم لا.

كان رولو حذراً أكثر منه. توجه إلى الباب وفتحه ثم قال لنيد: «وداعاً». تردد نيد فلم يكن يرغب بالمغادرة قبل رؤية مارجوري. لو أنه يعلم فقط أين تقع غرفتها لكان صعد السلالم متوجهاً إليها، ولكنه سيبدو غيباً لو أخذ بفتح أبواب غرف النوم في بيت شخص غريب.

أخذ القطعة الحريرية ووضعها في الحقيبة المدرسية التي يحملها. «لم ينته الأمر. لا يمكنكم حبسها لوقتٍ طويل، وسأتحدث إليها». تجاهل رولو ما قاله نيد ووقفَ بصبرٍ عند الباب.

انتابت نيد رغبة بلكم رولو، ولكنه كبحها بجهدٍ كبير. إنهما رجلان بالغان الآن، ولا يُمكنها البدء بالعراك بسبب استفزاز بسيط كهذا. شعر نيد بالهزيمة، وتردد لوقتٍ طويل في الخروج فهو لم يكن قادراً على التفكير بما عليه القيام به، ثم غادر.

«لا تستعجل في العودة»، قال له رولو فيما كان يخرج.

قطع نيد مسافة قصيرة من الشارع الرئيسي باتجاه البيت الذي ولد فيه. يقع منزل عائلة ويلارد قبالة الواجهة الغربية للكاتدرائية. لقد تمّ توسيعه من دون تخطيط على مدار السنوات وهو الآن يمتد بشكل غير منظم على مساحة تبلغ آلاف الأقدام المربعة. كان منزلاً مريحاً بمدافئ عملاقة وغرفة طعام كبيرة مخصصة لوجبات الطعام الاجتماعية وأسرة من الريش. سكنت أليس وويلارد وابناها في المنزل بالإضافة إلى جدة نيد من جهة أبيه المتوفى. دخل نيد ووجد أمّه في غرفة الاستقبال الأمامية التي تستخدمها كمكتب لها عندما لا تكون في المستودع على الواجهة البحرية. وقفت أمّه على قدميها بسرعة من وراء طاولة الكتابة وحضنته ثم قبلته. لاحظ أنها أكثر امتلاءً من العام الماضي، ولكنه قرر ألا يقول شيئاً حيال الأمر.

نظر نيد حوله. لم يطرأ أيّ تغيير على الغرفة، مازالت اللوحة المفضلة لدى أمّه مُعلّقة على الحائط. كانت اللوحة تصور المسيح مع العاهرة وهما

محاطان بحشدٍ من الأتقياء المُرائين الساعين إلى رجمها حتى الموت. أُحِبَّت
أليس كلمات المسيح المقتبسة من تلك الحادثة: «من كان منكم بلا خطيئة
فليرمها بحجر». كانت لوحة مثيرة أيضاً لأن المرأة عارية الشدين. وفي
إحدى المرات أثار مشهد المرأة العارية في اللوحة حُلماً رطباً في نوم نيد.

نظر عبر نافذة غرفة الاستقبال إلى ساحة السوق والكنيسة الكبيرة بواجهتها
الراقية ذات الصّف الطويل من النوافذ الطولانية الشكل والأقواس المستدقة.
رافقت هذه الكنيسة على مدار حياته، ولم يتغير شيء فيها سوى السماء فوقها
التي كانت تتقلب مع الفصول. بعثت فيه الكنيسة شعوراً غامضاً، ولكن قوياً،
بعودة الطمأنينة. ولد ومات أناسٌ كثير، قامت مدنٌ ثم أفلت، وشنت حروب
وانتهت، ولكن كاتدرائية كينغزبريدج باقية حتى يوم الدينونة.

«إذا ذهبت إلى الكاتدرائية لتقدم شكرك على الوصول بأمان»، قالت أمّه.
«أنت فتى صالح».

لم يكن قادراً على خداعها.

«ذهبت إلى منزل عائلة فيتزجيرالد أيضاً»، قال لها ولاحظ نظرة الخيبة
السريعة التي علت وجهها ثم تابع: «أرجو أنك لا تمانعين ذهابي إلى هناك
أولاً».

«قليلاً»، اعترفت له. «ولكنني أعرف ما معنى أن يكون المرء شاباً وواقعاً
في الحب».

كانت والدته في الثامنة والأربعين، وبعد وفاة إدموند أخبرها الجميع أنّ
عليها الزواج مجدداً. كان نيد الصغير في الثامنة من عمره آنذاك، وارتعب
من فكرة الحصول على زوج أم قاسٍ، ولكن والدته أرملة منذ عشر سنواتٍ،
ولهذا افترض أنها ستبقى عازبةً.

«أخبرني رولو أنّ مارجوري ستتزوج من بارت شايرنغ».

«آه يا عزيزي، أخشى أنّ هذا صحيح. أيها المسكين نيد، أنا آسفة
على هذا».

«لَمْ يملك والدها الحق في اختيار من تتزوجه؟».

«يتوقع الآباء أن يملكوا بعض السيطرة على أولادهم. لم نكن أنا ووالدك
قلقين حيال هذا. لم أحظ بابنة... على قيد الحياة».

كان نيد يعلم هذا. أنجبت أمه فتاتين قبل أخيه بارني، وهو يعرف شاهدي القبرين الصغيرين في المقبرة التي تقع على الجانب الشمالي من كاتدرائية كينغزبريدج.

«يجب أن تحب المرأة زوجها. لم تكوني لتجبري ابنتك على الزواج بشخصٍ فظٍ مثل بارت».

«أعتقد أنني ما كنت لأفعل هذا».

«ما مشكلة هؤلاء الناس؟».

«يؤمن السير ريجنالد بالتراتبية والسلطة، وبوصفه عمدة يعتقد أن عمل الحاكم اتخاذ قرارات وفرضها. عندما كان والدك العمدة اعتاد القول إن على الحاكم إدارة المدينة من خلال خدمتها».

«تبدوان كنظرتين مختلفتين تماماً، في أي أمر»، قال نيد بنفاد صبرٍ.

«ليس الأمر كذلك، بل هما عالمان مختلفان»، قالت والدته.

«لن أتزوج بارت شايرنغ!» قالت مارجوري فيتزجيرالد لوالدتها.

كانت مارجوري متضايقة وغازبة، فهي تنتظر عودة نيد منذ عام، وتفكر به كل يوم، وتتوق إلى رؤية ابتسامته الساخرة وعينه العسليتين الجميلتين. أخطرها الخدم أنه عاد إلى كينغزبريدج، وزار منزلهم وغادره ولكنهم لم يعلموها بالأمر! كانت غاضبة جداً من عائلتها على خداعهم لها وبكت من شدة الإحباط.

«لا أطلب منك الزواج من الفيكونت شايرنغ اليوم. كل ما أريده أن تذهبي وتحديثي معه»، قالت الليدي جاين.

كانت مارجوري ووالدتها في غرفتها. هناك مقعد للصلاة في إحدى الزوايا حيث تجثو مارجوري مرتين يومياً أمام الصليب على الجدار، وتتلو صلواتها بمساعدة مسبحة من خرزٍ عاجيٍ مُزخرف، أما بقية أثاث الغرفة فقد كان مترفاً. هناك سريرٌ مع أربعة أعمدة وفراشٍ من الريش وستائر تضح بالألوان وخزانة كبيرة من خشب البلوط المزخرف من أجل فساتينها الكثيرة وسجادة على الجدار تصور مشهد غابة.

على مدار سنوات شهدت هذه الغرفة جدالات كثيرة مع والدتها، ولكن مارجوري الآن امرأة. كانت صغيرة الحجم ولكن أطول وأكثر امتلاءً من والدتها الشرسة والضئيلة البنية. شعرت مارجوري أنّ هذا الجدل مع أمها سيُفضي إلى النهاية عينها ألا وهي إذلالها وانتصار الليدي جاين.

«ما الفائدة من هذا؟» قالت مارجوري. «أتى إلى هنا للتودد إلي. وإن تحدثت إليه سيسعر بالتشجيع، وسيغدو أكثر غضباً عندما يُدرك الحقيقة.»
«يمكنك أن تكوني مهذبة.»

لم تشعر مارجوري بالرغبة في الحديث مع بارت. «لمّ لم تخبريني أنّ نيد كان هنا؟ هذا تصرف غير نزيه»، قالت مارجوري.
«لم أعرف بحضوره إلى أن غادر! قابله رولو.»
«نقذ رولو مشيتك.»

«يجب أن يُنقذ الأولاد مشيئة أهلهم»، قالت أمها. «أنتِ تدركين الوصايا: احترم أباك وأمك». إنه واجبك نحو الربّ.»

تصارعت مارجوري مع هذا طوال حياتها. تعرف أنّ الربّ يريد أن تكون مطيعة، ولكنها، وكما أخبرها الجميع، تملك طبيعة عنيدة ومتمردة، ولطالما واجهت صعوبة كبيرة في أن تكون سالحة. وكلما أشاروا إلى هذه الطبيعة فيها كبحت نفسها وأذعنت. كانت تعلم أنّ إرادة الربّ أهم من أي شيء آخر.

«أعتذر يا أمي»، قالت مارجوري.

«فلتذهبي ولتحدثي مع بارت»، قالت الليدي جاين.
«حسناً»،

«فلتمشطي شعرك يا عزيزتي.»

وأظهرت مارجوري محاولة تمرد أخيرة.

«شعري بحالٍ جيدة»، قالت هذا وقبل أن تجادلها أمها غادرت الغرفة.

كان بارت في الردهة في سروالٍ أصفر جديد، ويضايق أحد الكلاب بتقديم قطعة لحمٍ له وسحبها في آخر لحظة قبل أن يلتقطها الكلب.

لحقت الليدي جاين بمارجوري عبر الدرج وقالت لها:

«خُذِي اللورد شايرنغ إلى المكتبة ولتريه الكتب».

«إنه غير مهتم بالكتب»، قالت مارجوري بلهجة ساخرة.

«مارجوري».

«أرغب برؤية الكتب»، قال بارت.

هزّت مارجوري كتفيها بلا مبالاة وقالت: «الحقني». وقادته إلى الغرفة

التالية. تركت الباب مفتوحاً، ولكن والدتها لم تنضم إليهما.

كانت كتب والدها مرتبة على ثلاثة رفوف.

«يا إلهي! تملكون الكثير من الكتب!» تعجب بارت. «سيُضيع المرء

حياته في قراءتها كلها».

هناك ما يُقارب الخمسين كتاباً، وهذا عدد كبير لا يتوفر عادةً خارج

مكتبات الجامعات أو الكاتدرائيات، ويُعدّ علامة على الثراء. كان بعضها

باللغة اليونانية والفرنسية.

جاهدت مارجوري في لعب دور المضيفة. أخذت كتاباً باللغة الإنكليزية.

«قد تشير قصيدة «هواية المتعة»⁽¹⁾ اهتمامك»، قالت له.

نظر بارت شزراً واقترب.

«إن المتعة هواية عظيمة»، وبدا سعيداً بهذا التلميح.

تراجعت مارجوري إلى الوراء.

«إنها قصيدة طويلة عن التعليم الذي تلقاه أحد الفرسان».

«آه»، قال بارت وقد فقد اهتمامه بالكتاب ثمّ تفحص الرف والتقط كتاباً

بعنوان «كتاب الطبخ».

«هذا كتاب مهم»، قال لها. «يجب أن تحرص الزوجة على أن يحظى

زوجها بطعام جيد، ألا تتفقين معي؟».

«بالطبع»، قالت مارجوري وهي تحاول جاهدة أن تفكر بموضوع

للتحدث به. ما الذي قد يثير اهتمام بارت؟ قد يكون موضوع الحرب.

1- وهي عبارة عن قصيدة طويلة كتبها الشاعر ستيفن هاوس الذي كان أحد رجال حاشية

الملك هنري السابع. نُشرت القصيدة في عام 1509، ويتحدث فيها هاوس عن التعليم

والحج من خلال حياة الفارس غراندي أموري. (المترجمة)

«يلوم الناس الملكة على الحرب مع فرنسا».

«لم قد يكون هذا خطأها؟».

«يقولون إن إسبانيا وفرنسا تتنازعا على ممتلكات في إيطاليا، وإنه لا شأن لإنكلترا في هذا النزاع، ولكننا متورطون به بسبب زواج الملكة ماري من ملك إسبانيا فيليبي واضطرارها لمساندته».

هزّ بارت رأسه.

«يجب أن تسير الزوجة بإمرة زوجها».

«ولهذا يجب أن تختار الفتاة زوجها بحذر»، لم يلتقِ بارت بالأل لهذه الملاحظة الثاقبة، وتابعت مارجوري كلامها:

«يقول البعض إنّه لم يكن على الملكة الزواج من ملكٍ أجنبي».

كان بارت قد ضجر من الموضوع.

«لا يجب أن نتحدث في السياسة، فعلى النساء أن يتركن مثل هذه المواضيع لأزواجهن».

«لدى النساء واجبات كثيرة نحو أزواجهن»، قالت مارجوري عارفةً حق المعرفة أنّ بارت لن يفهم لهجتها الساخرة. «يجب أن يطبخن لهم، أن يتركن القيادة والسياسة لهم... يسعدني أنني لست متزوجة. إنّ الحياة أبسط بهذه الطريقة».

«ولكن المرأة تحتاج إلى رجل».

«لتتحدث عن أمرٍ آخر».

«أعني ما قلته». أغلق بارت عينيه بتركيز ثمّ فتحهما وأدلى بخطابٍ

مدروس.

«أنت أجمل امرأة في العالم، وأنا أحبك. فلتكوني زوجتي من فضلك».

«لا!» أجابت بلا وعي.

بدا بارت حائراً، ولم يعرف كيف كان عليه أن يتصرف حيال الأمر. ومن الواضح أنّه كان يعتقد بأنّه سيحصل على إجابة مغايرة. وبعد مرور فترة صمّت قصيرة قال:

«ولكن زوجتي ستصبح كونتيسة في يومٍ من الأيام».

«ولهذا يجب أن تتزوج فتاة تتوق إلى هذا من كل قلبها».
«ألا تتوقين إلى هذا؟».

«لا!» حاولت أن تبدو إيجابتها قاسية إلا أن الأمر كان صعباً فهو لم يفهم المعنى المضمّر في هذا الجواب.

«بارت، أنت رجلٌ قوي ووسيم، وأنا واثقة من أنك شجاع أيضاً، ولكن لا يُمكن أن أحبك». وخطر ببالها نيد في هذه اللحظة، فعندما تكون معه لا تضطر إلى التفكير بموضوع للتحدث عنه. «سأتزوج رجلاً ذكياً ولطيفاً ولا يفكر بزوجه كرئيسة خدمه». اعتقدت مارجوري أنه حتى شخص كبارت لن يفشل في فهم ما رمت إليه.

تحرك بسرعة مفاجئة، وأمسك بها من ذراعيها. كانت قبضته قوية.
«تحب النساء أن يُقدن»، قال لها.

«من أخبرك بهذا؟ صدّقني أنا لا أحبّ هذا!» حاولت أن تفك نفسها من قبضته، ولكنها لم تتمكن من ذلك.
شدّها نحوه وقبلها.

لو حدث هذا في أي يوم آخر لأشاحت بوجهها بعيداً عنه، فالشفاه لا تؤلم، ولكنها لم تزل تشعر بالحزن والمرارة لأنّها لم ترَ نيد. امتلاً رأسها بالأفكار عما كان سيحدث، وكيف كانت ستقبله وتتحمس شعره وتشد جسده إلى جسدها. كان وجوده الخيالي قوياً كثيراً، وأثار احتضان بارت لها نفورها الشديد إلى درجة الهلع. ومن دون تفكير ركلته على خصيته بأقصى قوّة.

صرخ بشدّة من الألم والصدمة، وأفلتها من قبضته ثم ركع على ركبتيه وتأوه متوجعاً وقد أحكم إغلاق عينيه ويداها على فخذيه.

هرعت مارجوري إلى الباب، ولكن قبل أن تصل إليه دخلت والدتها إلى المكتبة فمن الواضح أنّها كانت تنصت إلى حديثهما من وراء الباب.

نظرت الليدي جاين إلى بارت، وفهمت على الفور ما حدث ثم التفتت إلى مارجوري وقالت:

«أيتها الطفلة الغبية».

«لن أتزوج هذا الغبي!» صرخت مارجوري.

دخل والد مارجوري. كان رجلاً طويلاً وبشعرٍ أسود مثل رولو باستثناء النمش الكثير على وجهه، وقال ببرود: «ستزوجين من يختاره والدك».

أثار هذا الإعلان المشؤوم رعب مارجوري، وبدأت تشك بأنّها قللت من شأن قوة عزم والديها. لقد ارتكبت خطأ ترك غضبها يسيطر عليها، وحاولت أن تهدأ وتفكر بطريقة منطقية. كانت ما تزال منفعة، ولكنها أكثر انضباطاً الآن ثم قالت: «أنا لست أميرة! نحن من الطبقة العليا ولكننا لسنا أرستوقراطيين. لن يكون زوجي تحالفاً سياسياً فأنا ابنة تاجر، والناس أمثالنا لا يتزوجون زيجات مُدبرة».

زاد كلامها من غضب السير ريجنالد واحمرّ وجهه تحت النمش الذي يملأه.

«أنا فارس».

«ولكنك لست إيرلاً».

«أنا مثل بارت أنحدر من سلالة رالف فيتزجيرالد الذي كان إيرل شايرنغ منذ قرنين. كان رالف فيتزجيرالد ابن السير جيرالد وأخا ميرتن الذي بنى الجسر. إنّ الدماء الإنكليزية النبيلة تجري في عروقي».

ارتعبت مارجوري لدى رؤيتها أنّ ما تواجهه ليس إرادة والدها التي لا تلين، فقط، بل كرامة العائلة أيضاً. ولم تعرف كيف تتغلب على هذا، ولكنها كانت واثقة من أمرٍ واحد وهو أنّه يجب ألا تبدو ضعيفة.

التفتت مارجوري نحو بارت فهو حتماً لن يتزوج من عروسٍ لا ترغب به، وقالت له:

«أنا آسفة يا لورد شايرنغ ولكنني سأتزوج نيد ويلارد».

كان السير ريجنالد مصعوقاً:

«أقسم بالصليب أنك لن تتزوجه».

«أنا مغرمة بنيد ويلارد».

«أنت صغيرة جداً على الوقوع في غرام أيّ أحد. علاوة على هذا فإن عائلة ويلارد عائلة بروتستانتية».

«لكنهم يذهبون إلى القديس كجميع الناس».

«لا فرق، ستتزوجين من الفيكونت شايرنغ».

«لن أتزوجه»، قالت مارجوري بإصرار هادئ.

كان بارت قد بدأ يتعافى من صدمة الضربة وقال متمتماً: «كنت أعلم أنها تجلب المتاعب».

«تحتاج فقط إلى من يقودها بيد من حديد».

«تحتاج إلى سوط».

تدخلت الليدي جاين.

«فكري بالأمر يا مارجوري. ستصبحين كونتيسة في يومٍ من الأيام، وسيكون ابنك إيرلاً».

«هل هذا كل ما يهملك؟» سألتها مارجوري وسمعت صوتها يتصاعد ويتحول إلى صرخة تحدٍ، ولكنها لم تكن قادرة على التوقف. «تريدين أن يكون أحفادك من الأرستوقراطيين».

عرفت مارجوري من النظر إلى وجوههم أنّ ملاحظتها أصابت صلب الحقيقة، ثمّ قالت في احتقار:

«حسناً، لن أكون فرس استيلاد من أجل أوهام النبالة التي في رؤوسكم». عندما انتهت من قول هذا أدركت أنّها تجاوزت حدّها كثيراً، فلقد أصابت هذه الإهانة والدها الذي كان حساساً جداً.

نزع السير ريجنالد حزام سرواله.

تراجعت مارجوري إلى الخلف في خوفٍ إلى أن أصبحت عند طاولة الكتابة. أمسكها السير ريجنالد بيده اليسرى من عنقها من الخلف. رأت مارجوري أنّ لنهاية الحزام قطعة نحاسية. خافت جداً إلى درجة دفعته للصراخ.

ثبتها السير ريجنالد فوق الطاولة. قاومت بشدة ولكنه كان أقوى منها بكثير لذلك ثبتها بسهولة. سمعت والدتها تقول: «فلتغادر الغرفة من فضلك أيها اللورد شايرنغ». وأثار هذا رعبَ مارجوري أكثر.

سمعت مارجوري خبطة الباب ثمّ صفير الحزام في الهواء الذي استقر

على فخذيها من الخلف. كان ثوبها رقيقاً جداً ولم يؤمن لها أيّ حماية، وصرخت مجدداً ولكن بألم هذه المرة. جلدها والدها مرة ثانية وثالثة، ثم تحدثت والدتها: «أعتقد أنّ هذا يكفي يا ريجنالد».

«التعليم الجيد يتطلب العقاب والانضباط»، قال السير ريجنالد. كان مثلاً شعبياً مألوفاً جداً، فالجميع يؤمن أنّ جلد الأطفال مفيد لهم باستثناء الأطفال أنفسهم.

«في الحقيقة هناك آية في الإنجيل توصي بشيءٍ مختلف»، قالت الليدي جاين. «مَنْ كَفَّ عَنْ تَأْدِيبِ ابْنِهِ يَمُوتُهُ، وَمَنْ أَحَبَّ ابْنَهُ يَسْعَى إِلَيْ تَأْدِيبِهِ». (1)

وهنا الإشارة إلى الفتیان وليس الفتيات».

واجهها السير ريجنالد بآية مختلفة: «هناك آية أخرى تقول: «لَا تَمْنَعِ عَنْ تَأْدِيبِ الْوَلَدِ. إِنْ عَاقَبْتَهُ بِالْعَصَا لَا يَمُوتُ». (2) أليس هذا صحيحاً؟».

«لم تعد مارجوري طفلة وكلانا يعلم أنّ هذه الطريقة غير مُجدية معها، فالعقاب يزيد من عنادها».

«إذاً ماذا تقترحين؟».

«اتركها لي. سأحدث معها عندما تهدأ».

«حسناً»، قال السير ريجنالد، واعتقدت مارجوري أنّ الأمر انتهى، ولكنها سمعت صفير الحزام مجدداً الذي لسع قدميها المتألمتين، وصرخت مجدداً، ثم سمعت وقع جزمة والدها على الأرضية وهو يخرج من الغرفة، وانتهى الأمر.

كان نيد واثقاً من أنّه سيرى مارجوري خلال الوليمة التي يقيمها الإيرل سويذن، فلا يمكن لأهلها أن يسجنوها، وإن فعلوا هذا فسيكون الأمر أشبه بإعلان رسمي بأنّ هناك خطباً ما في منزلهم، وسيحدث الجميع عن غياب مارجوري عن الوليمة.

كان هناك آثار عجلات مجمدة على الطريق، لذلك وطئت مُهرة نيد

1- الأمثال 13:24

2- الأمثال 23:13

الطريق بلطفٍ. شعر بالدفء من حرارة جسد حصانه، ولكن ما زالت يدها وقدماه مخدرة من البرد، وإلى جانبه أمّه أليس على مهرة سوداء كبيرة.

كان منزل الإيرل شايرنغ عبارة عن قلعة تبعد اثني عشر ميلاً عن كينغزبريدج. استغرقت الرحلة نصف نهار شتائي تقريباً، وأثار هذا غضب نيد لأنّ صبره قد بدأ ينفد. كان يجب أن يرى مارجوري ليس لأنّه يتوق إلى رؤيتها فقط بل ليعلم أيضاً ما الذي كان يجري بحق الجحيم.

لاحق القلعة أمامهما. كانت تدعى نيوكاسل (القلعة الجديدة) إلا أن عمرها مئة وخمسون عاماً. بنى الإيرل مؤخراً منزلاً على أنقاض هذا الحصن القروسطي، وزُيّنت شرفاته المبنية من نفس الحجارة الرمادية التي بُنيت منها الكاتدرائية بالشرائط وأعلام الزينة. وكلما اقترب نيد علت أصوات الاحتفال أكثر. انساب صوت تحياتٍ وضحكٍ صاحب وعزف الفرقة الريفية بأنغام الطبل العميقة والكمنجة النابضة بالحياة والصرير المزمزمي للقربة عبر الهواء البارد. حملت الضجة معها وعداً بنيران متوقدة وطعام ساخن ومشروب مُبهج. وكز نيد حصانه ليخبّ بسرعة أكبر فقد كان يتوق للوصول ووضع حدٍ لشكوكه. هل كانت مارجوري واقعة في غرام بارت؟ هل ستتزوجه؟

قادهم الطريق إلى المدخل. استقبلت الغربان المتبخثرة على جدران القلعة الزوار بنعيبٍ حقود. كانوا قد أزالوا الجسر المعلق منذ زمن، وردموا الخندق المائي، ولكنّ النوافذ الطويلة والضيقة عند المدخل ما زالت موجودة. عبر نيد الفناء الصاخب وهو يستعجل الزوار في ثيابهم الزاهية والأحصنة والعربات وخدم الإيرل المشغولين للابتعاد من طريقه. عهد نيد بمهرته إلى سائسٍ، وانضم إلى الحشود المتوجهة إلى المنزل.

لم يرَ مارجوري.

هناك قصر حجري عصري الطراز في أقصى الفناء، وقد ربطوه بأبنية القلعة القديمة وبالكنيسة الصغيرة من جهة وبمصنع الجعة من جهة أخرى. بُنيت القلعة منذ أربع سنوات، ولم يأتِ نيد إلى هنا سوى مرة واحدة، وسحرته مجدداً صفوف النوافذ الكبيرة وسلسلة المداخن الكثيرة. كانت القلعة أبهى من منزل أغنى تاجر في كينغزبريدج وأكبر منزل في المقاطعة، لكن قد يكون في لندن منازل أكبر فهو لم يزرها قبلاً.

فقد الإيرل شايرنغ مكانته خلال عهد الملك هنري الثامن لمعارضته انقطاع العلاقات الودية بين الملك والبابا، ولكن تمّ تجديد حصن الإيرل منذ خمس سنوات عندما أصبحت ماري تودر الكاثوليكية جداً ملكة، وعاد الإيرل ليكون صاحب حظوة وغنياً وقوياً مجدداً، ولهذا يُفترض أن تكون هذه الوليمة مترفة.

دخل نيد إلى المنزل ووصل إلى قاعة عظيمة بارتفاع طابقين. كانت النوافذ الطويلة توفر إضاءة جيدة للمكان حتى في مثل هذا اليوم الشتائي، والجدران مغطاة بألواح بلوط مصقولة، وعُلقت عليها أقمشة مزدانة برسوم لمشاهد صيد، وعند جهتين متقابلتين من الغرفة الطويلة احترقت قطع الخشب في مستوقدين عملاقين، وعلى منصة تمتد على طول بثلاثة جدران من أصل أربعة عزفت بهمة الفرقة التي وصل عزفها إلى مسامع نيد عندما كان في طريقه إلى هنا. وعلى الجدار الرابع لوحة تصور والد الإيرل سويذن يحمل شيئاً ما يرمز إلى القوة.

كان بعض الضيوف يؤدون رقصة ريفية مفعمة بالحياة في مجموعات من ثمانية أشخاص، ويُمسكون بعضهم بأيدي بعض في حلقات ثم يتوقفون ويقومون بوثبة داخل الدائرة وخارجها. انخرط آخرون في أحاديث جماعية، وعلت أصواتهم فوق أصوات الموسيقى وضربات أقدام الراقصين. أخذ نيد كوباً خشبياً من عصير التفاح، ونظر في أرجاء الغرفة.

وقفت مجموعة من الضيوف بعيداً عن ساحة الرقص وكانت مؤلفة من مالك إحدى السفن ويُدعى فيلبرت كوبلي وعائلته، وجميعهم في ثياب رمادية وسوداء. كان البروتستانتيون في كينغزبريدج مجموعة شبه سرية. رغم معرفة الجميع بوجودهم وبهوياتهم فإنه لم يُعترف بهم علناً، وفكر نيد أن الأمر أشبه بمجتمع شبه سرّي من الرجال الذين يفضلون النوم مع رجال. لم يُجاهر البروتستانتيون بمعتقداتهم مخافة أن يتعرضوا للتعذيب إلى أن يرتدوا، أو يُحرقوا أحياءً إن لم يفعلوا. إن سُئلوا عما يؤمنون به فسيراوغون في إجاباتهم. كانوا يحضرون الطقوس الدينية الكاثوليكية كما فرض عليهم بالقانون، ولكنهم لم يفوتوا فرصة الاعتراض على أيّ أغنية فاسقة أو فساتين تُبرز الأثداء أو كهنة ثملين، فلم يكن هناك قانون يمنع الثياب الغامقة اللون.

يعرف نيد كل شيء عن جميع الحاضرين في القاعة. كان الضيوف الأصغر عمراً فتيةً ذهب معهم إلى مدرسة النحو في كينغزبريدج، وفتيات اعتاد شدّ شعرهن أيام الآحاد بعد الكنيسة. أما الجيل الأكبر عمراً فقد كانوا من النبلاء المحليين وهم معروفون أيضاً لأنهم زوار مثابرون لمنزل والدته. خلال بحثه عن مارجوري وقع نظره على غريب بين الحضور. كان رجلاً بأنفٍ طويل في أواخر الثلاثينيات من عمره وقد بدأ خط الشعر الأمامي على رأسه بالتراجع. كانت ذقنه مُشدبة جيداً وبشكل مستدق كما هي الموضة الدارجة، وبنيته قصيرة ونحيلة. ارتدى الرجل معطفاً داكن الحمرة يوحي بشكل غير مباشر أنّه معطف باهظ الثمن. كان يتحدث إلى الإيرل سويذن والسير ريجنالد فيتزجيرالد، وصُعق نيد من الطريقة التي يتصرف بها قطبان محليان في حضور زائرٍ غريب. بدا واضحاً أنهما لم يُحبا هذا الزائر المميز فقد أرجع ريجنالد ظهره إلى الورا وقاطع ساعديه على صدره، بينما وقف سويذن بقدمين متباعدتين ويداه على وركيه. ولكن رغم الطريقة التي وقفا بها فإنهما كانا يُصغيان إليه بانتباه.

أنهى الموسيقيون عزف إحدى المقطوعات بقفلةٍ ناجحة وخلال الهدوء النسبي الذي تلا انتهاء المقطوعة تحدث نيد إلى دانييل بن فيلبرت كوبلي، الذي كان أكبر منه بستين. كان فيلبرت فتىً سميناً بوجهٍ شاحبٍ ومدور. «من ذلك الشخص؟» سأله نيد، وأشار إلى الغريب في المعطف الأحمر. «السير ويليام سيسيل. إنه المسؤول عن عقارات الأميرة إليزابيث». كانت إليزابيث تودر الأخت غير الشقيقة للملكة ماري. «لقد سمعت عن سيسيل»، قال نيد. «ألم يكن وزيراً للخارجية لفترة من الزمن؟».

«هذا صحيح».

حدث هذا عندما كان نيد طفلاً صغيراً جداً على متابعة الأخبار السياسية عن كذب، ولكنه يذكر أنّ والدته ذكرت اسم سيسيل بكل إجلال. لم يكن سيسيل كاثوليكياً كفاية وبما يناسب ذوق ماري تودر، وعندما أصبحت ماري الملكة طردته، ولهذا يحظى الآن بوظيفة أقل شأنًا وهي الاهتمام بشؤون ممتلكات إليزابيث.

«إذا ما الذي يفعله هنا؟».

ستحب أمه فكرة اللقاء بسيسيل فالزائر يحمل الأخبار، وأليس مهووسة بها. لطالما علّمت ولديها أن المعلومات قد تصنع الثروة وتنقذ من الدمار. ولكن أثناء بحث نيد عن أليس عثر على مارجوري، ونسي على الفور أمر ويليام سيسيل.

صُقع نيد من شكل مارجوري، فقد بدت أكبر عمراً ولكن ليس بعام واحد بل بخمسة أعوام. كانت قد سرّحت شعرها الأسود المجعد عالياً وبأثقان، وارتدت قبعة رجالية مع ريشة أنيقة. أضفت الكشاكش البيضاء الناعمة حول عنقها نوراً على وجهها. بدت ضئيلة الحجم ولكن لم تبدُ نحيلة، ولم يُخفِ الصدّار المشدود والأنيق لستانها المخملي الأزرق قوامها الممتلئ بشكل جميل. وكالعادة بدا وجهها مُعبراً، ابتسمت ورفعت حاجبيها وأمالت رأسها ثم علت مُحيّاهَا نظرات الحيرة ثم السخرية ثم الابتهاج، الواحدة تلو الأخرى. اكتشف أنه حدّق إليها بنفس الطريقة التي اعتاد التحديق إليها في الماضي، وشعر لبرهة أنّ ما من أحد في الغرفة غيرهما.

بعد أن استفاق من دهشته اندفع عبر الحشد نحوها. رآته قادماً فأضاء وجهها من السعادة، وأسعده هذا، ثم تغير وجهها بشكل أسرع من تغير حالة الطقس في يوم ربيعي وغشّى قلقٌ وجهها، وبينما تقدّم منها اتسعت عيناها في خوفٍ، وبدت وكأنها تطلب منه أن يبتعد، ولكنه تجاهل هذا فقد كان عليه أن يخاطبها.

فتح فمه ليتحدث، ولكنها تحدثت أولاً وبصوتٍ خفيضٍ.

«الحق بي عندما يبدوون لعبة صيد الأيل. لا تنفوه بشيء الآن.».

كان صيد الأيل لعبة غمिضة يلعبها الشباب في الولايم. كان نيد مأخوذاً بدعوة مارجوري، ولكن لم يكن مستعداً للابتعاد عنها دون بعض الأجوبة.

«هل أنت مغرمة ببارت شايرنغ؟».

«لا، فلتذهب الآن. يمكننا أن نتحدث لاحقاً.».

كان نيد مهتاجاً من السعادة ولكن أسئلته لم تنته بعد.

«هل ستزوجين به؟».

«لن أفعل ولو بقي من عمري يوم واحد».

ابتسم نيد. «حسناً، يمكنني أن أصبر الآن»، ثم ابتعد سعيداً.

راقب رولو بوجل اللقاء بين أخته ونيد ويلارد. ربما لم يدم اللقاء طويلاً ولكنه كان عاطفياً حتماً، وبدا رولو قلقاً. كان قد استرق السمع من خارج باب المكتبة البارحة، وسمع والده يضرب مارجوري، واتفق مع والدته على أن الضرب يجعل مارجوري أكثر عناداً.

لم يُرد أن تتزوج أخته من نيد، فلطالما كرهه ولكن لم يكن هذا السبب الأساسي لرفضه؛ فعائلة ويلارد تميل إلى البروتستانتية، وكان إدموند ويلارد راضياً تماماً عن انقلاب الملك هنري على الكنيسة الكاثوليكية، ولم يبد منزعاً جداً عندما عكست الملكة ماري العملية، ولكن هذا أيضاً أزعج رولو؛ فهو لا يطيق من يأخذون الدين بخفة لأن سلطة الكنيسة يجب أن تكون كل شيء بالنسبة إليهم.

والأهم من كل هذا فإن الزواج من نيد ويلارد لن يعود بأي فائدة على عائلة فيتزجيرالد، ولن يكون سوى زواج بين عائلتين من التجار المُقتدرين. أما الزواج من بارت شايرنغ فسيرفعهم إلى مرتبة النبلاء. بالنسبة إلى رولو فإن أهم شيء - باستثناء إرادة الرب - مكانة عائلة فيتزجيرالد.

توقف الرقص، وأحضر خدم الإيرل ألواحاً خشبية وقواعد ثم بنوا طاولة لها شكل الحرف T بلوحتين خشبيتين متقاطعتين من جهة، ولوح آخر بطول الغرفة، ثم بدأوا بتجهيز الطاولة. انتبه رولو إلى أنهم كانوا يقومون بعملهم بشيء من اللامبالاة، وأنهم كانوا يلقون بأكواب الفخار وأرغفة الخبز على غطاء الطاولة الأبيض بشكل عشوائي، وهذا يعود إلى غياب امرأة مسؤولة في المنزل، فالكونتيسة متوفاة منذ عامين، ولم يتزوج سويذن مرة أخرى.

تحدث أحد الخدم إلى رولو.

«والدك يستدعيك يا سيد فيتزجيرالد، إنه في غرفة الجلوس الخاصة بالإيرل».

قاد الخادم رولو إلى غرفة جانبية تحوي طاولة ورفاً من دفاتر الحسابات. بدا واضحاً أنه المكان الذي يجري فيه الإيرل سويذن أعماله.

جلس سويذن على كرسي كبير أشبه بعرش. كان رجلاً طويلاً ووسيماً

كابنه بارت رغم أن الطعام الجيد والشراب الكثير لسنواتٍ كثيرةٍ زاداً من محيط خصره واحمرار أنفه. لقد فقد منذ أربع سنوات جميع أصابع يده اليسرى خلال معركة هارتلي وود. لم يقم بأيّ محاولة لإخفاء هذا العجز بل بدا فخوراً بجرحه.

جلس والد رولو السير ريجنالد بجانب سويذن، وبدا في جلسته المائلة والنمش على وجهه كنمرٍ قرب دُب.

كان بارت شايرنغ في الغرفة أيضاً، ولكنه ذُعر عندما رأى أليس ونيد ويلارد في الغرفة أيضاً.

جلس ويليام سيسيل على المقعد الواطئ قبالة ستة أشخاص محلين، ولكن ورغم رمزية هذه الجلسة بدا لرولو أن سيسيل المسيطر على اللقاء.

«لن تمنع انضمام ولدي إلينا؟ لقد ارتاد جامعة أوكسفورد، ودرس القانون في إحدى هيئات القانون الأربع في لندن»، قال ريجنالد لسيسيل.

«يسعدني انضمام الجيل الشاب إلى اللقاء»، قال سيسيل بدمائة. «أحضر ابني إلى الاجتماعات رغم أنه في السادسة عشرة فقط. كلما انخرطوا في العمل باكراً تعلموا بشكلٍ أسرع».

تفحص رولو سيسيل ولاحظ أنّ هناك ثلاثة تآليل على خده الأيمن، وأنّ الشيب غزا لحيته البنية. يبدو أنه كان رجلاً قوياً في عشرينياته، فقد شغل منصب أحد رجال حاشية الملك إدوارد السادس. ورغم عدم بلوغه الأربعين بعد فإن مظهره يوحي بالحكمة العريقة التي يملكها رجالٌ أكبر منه عمراً.

تحرك الإيرل سويذن بنفاد صبر وقال:

«لدي مئة ضيف في القاعة يا سيد ويليام. من الأفضل أن تسرع وتخبرني بهذا الأمر الهام جداً الذي حدا بك إلى سحبي من حفلي».

«في الحال يا سيدي»، قال سيسيل. «إن الملكة حامل».

نخر رولو متفاجئاً ومُحبطاً.

استماتت الملكة ماري والملك فيلبي للحصول على وريثة لعرشيهما في إنكلترا وإسبانيا، ولكنهما بالكاد يلتقيان بسبب انشغالهما في إدارة مملكتيهما الواسعتين والمنفصلتين، ولهذا عمّت الفرحة عندما أعلنت ماري أنّها تتوقع

ولادة طفلها في آذار/ مارس القادم. ولكن هناك خطباً ما من كل بد.

«لقد حدث هذا قبلاً»، قال والد رولو السير ريجنالد بحدّة.

هزّ سيسيل رأسه وقال:

«هذا ثاني حمل كاذب لها».

بدا سويذن مضطرباً وقال:

«كاذب؟ ما الذي تعنيه؟».

«لم يحدث إجهاض»، قال سيسيل برزانة.

«إنها تريد طفلاً بشدة، ولهذا تُقنع نفسها أنّها حامل بينما هي ليست

كذلك»، شرح ريجنالد الأمر.

«فهمت. إنه الغباء الأنثوي»، قال سويذن.

نخرت أليس ويلارد في ازدراء عندما أبدى سويذن هذه الملاحظة ولكنه

لم يتبّه إليها.

«يجب أن نواجه احتمال عدم إنجاب الملكة لطفل أبداً»، قال سيسيل.

شعر رولو برأسه يدور من التفكير بالعواقب. إن ولادة هذا الطفل المرجو

من الملكة ماري الكاثوليكية جداً وملك إسبانيا الورع بالمثل، وتربيته تربية

كاثوليكية صارمة سيعود بالكثير من المنفعة على عائلات كعائلة فيتزجيرالد.

ولكن إن توفيت ماري من دون وريث فستسقط جميع الرهانات.

افترض رولو أنّ سيسيل فهم الأمر منذ وقتٍ طويل.

«يُعدّ الانتقال إلى ملكية جديدة أكثر الأوقات خطورة على أيّ بلد»،

قال سيسيل.

كان على رولو أن يقمع شعوره بالرعب من احتمال عودة إنكلترا إلى

البروتستانتية، وما ينجم عنها من خسارة كل ما كسبته عائلة فيتزجيرالد على

مدار الأعوام الخمسة الماضية.

«أريد التخطيط لانتقال سلس من دون سفك دماء»، قال سيسيل بلهجة

عقلانية. «أنا هنا لأتحدث إلى ثلاثة من أقوى القادة المحليين؛ إيرل

المنطقة وعمدة كينغزبريدج وأهم تاجر في البلدة. أتيت لأتحدث إليكم

ولتساعدوني».

بدا سيسيل-ولكن بشكل خادع- كخادم دؤوب يضع خططاً دقيقة، ولكن رولو فهم على الفور أن شخصيته الحقيقية ثورية وخطيرة.

«وكيف يمكننا أن نساعدك؟» سأله سويدن.

«من خلال التعهد بالولاء لمولاتي إليزابيث».

«إليزابيث من سيجلس على العرش؟» سأله سويدن بتحدٍ.

«أنجب هنري الثامن ثلاثة أطفال»، قال سيسيل ما هو واضح بتحدلق.

«توفي ابنه الملك إدوارد السادس قبل إنجاب وريث، ولهذا أصبحت أخت

هنري الأكبر عمراً ماري ملكة. هذا منطق صريح. ولكن إن ماتت الملكة

ماري من دون أن تنجب طفلاً كما توفي الملك إدوارد فإنّ ولي العهد

سيكون من كل بد أخت هنري الأخرى، إليزابيث تودور».

قرر رولو أن الوقت قد حان ليتحدث، فهو لن يسمح بمرور مثل هذا

الهراء الخطير من دون مجادلة. لقد كان المحامي الوحيد في الغرفة. حاول

أن يتحدث بالهدوء والعقلانية اللذين تحدث بهما سيسيل، ولكن رغم كل

الجهد الذي بذله لم ينتبه إلى أنه كان يتحدث بلهجة مرتاعة.

«إن إليزابيث ابنة غير شرعية، فالملك هنري لم يتزوج من والدتها والبابا

رفض طلاقه من زوجته السابقة».

«لا يُمكن أن يرث الأولاد غير الشرعيين المُلْكِيَّة أو الألقاب، الجميع

يعلم هذا»، أضاف سويدن.

جفل رولو مما قاله سويدن فالقول إنّ إليزابيث ابنة غير شرعية أمام

مستشارها وقاحة غير ضرورية. لسوء الحظ فإنّ التصرف بخشونة من طباع

سويدن. وشعر رولو أنّ إبداء العداء نحو سيسيل الرابط الجأش عملٌ متهور.

صحيح أن الرجل فقد حظوته السابقة، ولكنه ما زال يمتلك مظهر رجل

سلطة هادئ.

تجاوز سيسيل فظاظة سويدن.

«صادق البرلمان الإنكليزي على الطلاق»، أصرّ سيسيل بتهديب.

«سمعت أنّها تملك نزعاً بروتستانتية»، قال سويدن.

كان هذا جوهر كل ما في الأمر من وجهة نظر رولو.

ابتسم سيسيل وقال:

«أخبرتني مراتٍ عديدة أنّها عندما تصبح الملكة فسيعرّز على قلبها أن يخسر أيُّ رجلٍ إنكليزي حياته من أجل المعتقدات التي يؤمن بها». «هذه إشارة جيدة»، قال نيد ويلارد. «ما من أحد يرغب بإعدام المزيد من الناس».

فكر رولو بأنّها ملاحظة متوقعة من عائلة ويلارد المستعدة لفعل أي شيء من أجل حياة هادئة.

اغتاظ الإيرل سويذن من المواربة في الحديث وقال:

«إمّا أن تكون كاثوليكية أو بروتستانتية».

«على العكس»، قال سيسيل. «إنّ عقيدتها التسامح».

اغتاظ سويذن وقال في احتقار: «التسامح؟ أم الهرطقة؟ أم التجديف؟ أم الإلحاد؟».

كان غضب سويذن مبرراً برأي رولو، ولكنه لم يكن بديلاً عن المجادلة القانونية. تملك الكنيسة الكاثوليكية رأيها الخاص فيمن سيكون الحاكم التالي لعرش إنكلترا. وبرأي الجميع فإنّ الوريثة الحقيقية للعرش هي ماري الأخرى، ملكة إسكتلندا.

«ليست الوريثة من كل بد»، جادل سيسيل ومن الواضح أنّه توقع هذا. «إنّ ماري ستوارت ابنة أخي الملك هنري الثامن بينما إليزابيث ابنته». «ابنته غير الشرعية».

تحدث نيد ويلارد مجدداً.

«قابلت ماري ستوارت عندما ذهبت إلى باريس. لم أتحدث معها، ولكنني كنت في إحدى الغرف الخارجية لقصر اللوفر عندما مرّت فيه. إنّها امرأة طويلة وجميلة».

«ما علاقة هذا بالأمر؟» سأل رولو بنفاد صبر.

«إنّها في الخامسة عشرة»، أصرّ نيد على كلامه ونظر بقسوة إلى رولو. «إنّها بعمر أختك مارجوري».

«هذا ليس مقصد...»،

رفع نيد صوته ليطنغي على مقاطعة رولو له.

«يعتقد بعض الناس أنّ فتاةً في الخامسة عشرة صغيرة جداً على اختيار زوج فما بالك بأن تحكم بلداً».

أخذ رولو نفساً سريعاً ونمّت عن والده زمجرة سخط. عبس سيسيل فعبارة نيد بلا شك لها مضمون خاص وخفي عنه هو الغريب.

«أخبروني أنّ ماري تتحدث الفرنسية والإسكتلندية، ولكنها بالكاد تتحدث الإنكليزية»، أضاف نيد.

«لا أهمية لهذه الاعترافات في نظر القانون»، قال رولو.

«ولكن هناك ما هو أسوأ من هذا»، ثابر نيد. «إنّها مخطوبة إلى الأمير فرانسيس وريث العرش الفرنسي. امتعض الشعب الإنكليزي من زواج الملكة الحالية بالملك الإسباني، وسيكون عداؤهم أكبر إن تزوجت الملكة من ملك فرنسا».

«مثل هذه القرارات لا يأخذها الشعب الإنكليزي»، قال رولو.

«هذا غير مهم، فعندما تقع الشكوك سيكون نشوب صراع أمراً محتملاً، وقد يحمل الناس مناجلهم وفؤوسهم ويصّرحون بأرائهم».

«وهذا ما أحاول تجنبه»، تدخل سيسيل.

غضب رولو على هذا التهديد الصريح، ولكن قبل أن يتمكن من التحدث تكلم سويدن:

«كيف هي شخصية هذه الفتاة إليزابيث؟ لم ألتق بها قبلاً».

اغتاظ رولو وامتقع وجهه لحرف مسار الحديث عن موضوع الشرعية، ولكن سيسيل أجاب عن سؤال سويدن بطيب خاطر: «إنّها من أكثر النساء اللواتي التقيت بهنّ ثقافة. تستطيع التحدث باللاتينية بالسهولة نفسها التي تتحدث فيها بالإنكليزية، وهي تتحدث بالفرنسية والإسبانية والإيطالية وتكتب باليونانية. قد لا تكون على جمالٍ عظيم، ولكن لديها أسلوباً كفيلاً بسحر أيّ رجل وبما يكفي ليراها جميلة. لقد ورثت قوة الإرادة عن والدها الملك هنري، وهذا سيجعلها ملكة حازمة».

فكر رولو أنّ سيسيل واقع في غرامها حتماً، ولكن لم يكن هذا أسوأ ما

في الأمر. كان على خصوم إليزابيث الاحتكام إلى الحجج القانونية، ولكن هناك القليل مما يمكنهم الاعتماد عليه. يبدو أن إليزابيث كبيرة وحكيمة وحازمة كفاية لتحكم إنكلترا. قد تكون بروتستانتية، ولكنها بارعة في إخفاء الأمر، ولا يملك خصومها دليلاً على اعتناقها البروتستانتية.

ارتعب رولو من فكرة وصول ملكة بروتستانتية إلى الحكم، فهي من كل بد ستحرم العائلات الكاثوليكية من أي حظوة، وقد تخسر عائلة فيتزجيرالد ثروتها.

«ولكن إن تزوجت زوجاً كاثوليكياً قوياً يبقىها تحت السيطرة فقد تكون خياراً مقبولاً»، قال سويذن وضحك ضحكة ماجنة دفعت رولو إلى قمع الارتجاف الذي انتابه. من الواضح أن فكرة إبقاء أميرة تحت السيطرة تثير سويذن.

«سأحاول ألا أنسى هذا»، قال سيسيل بجفاف. رنّ الجرس فقد حان الوقت ليأخذ الضيوف أمكتهم حول الطاولة. وقف سيسيل وقال: «كل ما أطلبه هو عدم الاستعجال في إصدار أيّ أحكام مسبقة. فلتعطوا الأميرة إليزابيث فرصة».

غادر الجميع وبقي رولو وريجنالد وحدهما في الغرفة. «أعتقد أننا وضعناه على الصراط المستقيم»، قال ريجنالد. هزّ رولو رأسه، فقد كان هناك أوقات تمنى فيها أن يكون والده أكثر دهاءً. «يعلم سيسيل قبل قدومه إلى هنا أن الكاثوليكيين المُخلصين من أمثالك أنت وسويذن لن يقدموا الولاء لإليزابيث».

«أعتقد هذا»، قال ريجنالد. «إنه رجل حسنُ الاطلاع».

«من الواضح أنه رجل ذكي».

«إذاً لماذا أتى إلى هنا؟».

«كنت أتساءل عن الشيء نفسه»، قال رولو. «أعتقد أنه أتى لتقييم قوة أعدائه».

«آه»، قال والده. «لم أفكر بهذا».

«لنذهب لتناول العشاء»، قال رولو.

تململ نيد طوال الوليمة، ولم يطق صبراً حتى ينتهي الجميع من تناول الطعام والشراب وبدء لعبة الغمضة. ولكن عندما أزالوا أطباق التحلية نظرت إليه أمه في دعوة لموافاتها.

لاحظ أنّ والدته منخرطة في حديث مع السير ويليام سيسيل. كانت أليس ويلارد امرأة بدينة وقصيرة وحيوية، وقد ارتدت لهذه الأمسية ثوباً باهظ الثمن من قماش كينغزبريدج القرمزي المطرز بالخیوط الذهبية، ووضعت حول عنقها ميدالية بأيقونة لمريم العذراء لدحض أي شكوك باعتناق البروتستانتية. شعر نيد بإغراء الادعاء أنّه لم يرَ دعوتها له. ستبدأ اللعبة أثناء تنظيف الطاومات واستعداد الممثلين لأداء المسرحية. لم يكن يعرف ما الذي خططت له مارجوري، ولكن أياً تكن مخططاتها فهو لن يفوتها. من جهة أخرى يدرك نيد أنّه رغم محبة والدته له فإنّها حازمة جداً، ولن تسمح بمثل هذا العصيان، ولهذا ذهب إليها.

«يريد السير ويليام أن يسألك بضعة أسئلة»، قالت أليس.

«هذا شرفٌ لي»، قال نيد بتهديب.

«أريد أن أستعلم عن كاليه»، استهلّ سيسيل حديثه. «لقد علمت أنك عدت مؤخراً من هناك».

«غادرتها قبل أسبوع من عيد الميلاد، ووصلت إلى هنا البارحة».

«أحتاج بشدة إلى أن تخبرني أنا وأمك عن الحيوية التجارية بين كاليه وإنكلترا. إنّ للأمر علاقة بالعزة الوطنية وبفكرة أننا ما زلنا نحكم جزءاً صغيراً من فرنسا».

هزّ نيد رأسه وأجاب: «إنّ الأمر مزعج جداً للفرنسيين».

«كيف هي معنويات المجتمع الإنكليزي هناك».

«جيدة»، قال نيد ولكن القلق قد بدأ يتابه لأنّ سيسيل لم يكن يستجوبه بدافع فضول عادي. كان هناك سبب وراء هذه الأسئلة. ولكن الآن وبعد التفكير بالأمر انتبه إلى أن وجه أمه بدا متجهماً، وتابع كلامه: «تركتمهم وهم ما زالوا سعداء بهزيمة الفرنسيين في سان كونتن في آب/أغسطس، وهذا جعلهم يشعرون أنّ الحرب بين إنكلترا وفرنسا لن تؤثر عليهم».

«قد يكونون واثقين أكثر من اللازم»، دمدم سيسيل.

عبس نيد وقال: «كاليه محاطة بثلاث قلاع؛ سانجيت وفرون ونيلي...».

قاطعها سيسيل: «وإن سقطت القلاع».

«تملك المدينة ثلاثمئة وسبعة مدافع».

«لديك ذاكرة جيدة في حفظ التفاصيل، لكن هل يُمكن أن يتحمل الناس

حصول أيّ حصار».

«لديهم طعام يكفيهم لثلاثة شهور». حرص نيد على أن تكون حقائقه

موثوقة قبل أن يغادر كاليه، فقد كان يعلم أنّ والدته تتوقع منه تقريراً مفصلاً.

التفت نيد إلى أليس وقال: «ماذا هناك يا أمي».

«استولى الفرنسيون على قلعة سانجيت في الأول من كانون الثاني/

يناير»، قالت أليس.

كان نيد مصعوقاً وسأل: «كيف حدث هذا؟».

أجاب سيسيل على سؤاله: «تعرضت حامية كاليه إلى اعتداءٍ مُباغت».

«من يقود القوات الفرنسية؟».

«الدوق فرانسوا غيز».

«صاحب الندبتين! إنه أسطورة»، قال نيد. كان الدوق من أعظم

الجنرالات في فرنسا.

«لا بدّ أنّ المدينة تحت الحصار الآن».

«ولكنها لم تسقط».

«على حد علمنا. لم تصلنا معلومات منذ خمسة أيام».

التفت نيد نحو أليس مجدداً: «ألم يصلنا أيّ خبر من العم ديك؟».

هزّت أليس رأسها بالنفي: «لا يمكنه أن يرسل رسالة من مدينة محاصرة».

فكر نيد بمعارفه هناك كالعمة بلانش وطباختهم الأكثر مهارة من جانيت

فايف، رغم أن نيد لم يقل لجانيت هذا قط، وبنيبيه ألبن الذي كان في مثل

عمره، وعلمه كل الكلمات الفرنسية التي تشير إلى الأجزاء الحميمة من

الجسم وأشياء أخرى لا يُمكنه ذكرها، وهناك أيضاً تيريز المُغرمة به، وتساءل

إن كانوا سينجون؟

«كل ما نملكه تقريباً مرهون بما يحدث في كاليه»، قالت أليس بهدوء.
عبس نيد وتساءل إن كان الأمر ممكناً ثم قال: «أليس لدينا حمولة متوجهة إلى إشبيلية؟».

يعد ميناء إشبيلية الإسباني ترسانة الملك فيليبي حيث تُصنع الأسلحة بكثرة. يشتري أحد أنسباء نيد ويدعى كارلوس كروز المعدن بكل المال الذي ترسله أليس، ويحوّله إلى مدافع وقذائف للحروب الإسبانية التي لا تنتهي. عاش بارني أخو نيد في إشبيلية، وعمل مع كارلوس ليتعلّم إدارة الجانب الآخر لأعمال العائلة كما كان نيد يفعل في كاليه. ولكن الرحلة البحرية طويلة وخطيرة، ولم تُرسل السفن لنقل الحمولات إلا عند امتلاء المستودع في كاليه.

أجابت أليس على سؤال نيد:

«لا، لا يوجد حالياً أيّ سفن متجهة أو قادمة من إشبيلية».

«إن خسرتنا كاليه...».

«خسرتنا كل شيء تقريباً».

اعتقد نيد أنّه فهم سير الأعمال، ولكنه لم يدرك أنّ الأمور قد تسوء بسرعة. انتابه شعور مشابه لشعوره عندما ركب حصاناً متمرساً، وتعثر الحصان مما جعله يفقد توازنه على السرج. كان الأمر أشبه بتذكير مفاجئ بأنّ الحياة قد تسير بشكل غير متوقع.

رنّ جرس إيذاناً ببدء اللعبة. ابتسم سيسيل وقال:

«شكراً لك على المعلومات يا نيد. من النادر أن نرى شاباً دقيقين في توصيفهم».

شعر نيد بالإطراء وقال: «يسعدني أن أكون ذا عون».

مرّت أخت دان كوبلي روث الجميلة ذات الشعر الذهبي بالقرب منهم وقالت:

«هيا يا نيد، لقد حان الوقت لنلعب لعبة صيد الأيل».

«إنني قادم»، قال نيد ولكنه لم يتحرك. كان محتاراً فهو يتوق جداً للتحدث إلى مارجوري، ولكن بعد سماعه هذه الأخبار لم يكن في مزاج اللعب.

«أعتقد أنه لا يوجد شيء يمكننا القيام به»، قال نيد لأمه.

«يسعنا فقط انتظار وصول المزيد من المعلومات، وقد يأخذ هذا وقتاً طويلاً».

حلّ صمتٌ كئيبٌ ثم قطعته سيسيل بقوله:

«بالمناسبة أنا أبحث عن مساعدٍ يُقدم لي العون في عملي مع السيدة إليزابيث. أحتاج إلى شاب يقطن في قصر هاتفيلد كفرّدٍ من طاقمها، وينوب عني عندما أكون في لندن أو في أيّ مكانٍ آخر. أعلم أن قدرك العمل مع والدتك في تسيير أعمال العائلة يا نيد، ولكن إن كنت تعرف شاباً يشبهك، ذكياً وموثوقاً وينتبه جيداً إلى التفاصيل فلتعلمني».

هزّ نيد رأسه وقال: «بالطبع». وخامره شكٌ بأنّ سيسيل يعرض العمل عليه.

«يجب أن يُشاطر الشاب إليزابيث نفس الموقف الديني المتسامح. لقد أحرقت الملكة ماري تودر مئات البروتستانتيين»، تابع سيسيل كلامه.

كان يملك نيد الموقف الديني نفسه الذي تملكه إليزابيث، ولا بدّ أن سيسيل أدرك هذا خلال الجدل الذي وقع في مكتبة الإيرل حول وراثة العرش واشتمتزاز الشعب الإنكليزي بالملايين، كاثوليكين وبروتستانتين على حد سواء، من هذه المذابح الدينية.

«قلت قبل قليل إن إليزابيث أخبرتني مراتٍ عديدة أنّها عندما تصبح ملكة فسيعرّز على قلبها أن يخسر أيّ رجل إنكليزي حياته من أجل المعتقدات التي يؤمن بها»، أعاد سيسيل ما قاله قبلاً. «أعتقد أنّ هذا مثالي ويستحق إيمان أيّ رجل».

بدت أليس ممتعضة قليلاً، «كما قلتَ يا سير ويليام إن قدر ابني العمل في مجال أعمال الأسرة. انصرف يا نيد».

التفت نيد إلى الوراثة ونظر إلى مارجوري.

استأجر الإيرل سويذن فرقة جواله من الراقصين، وها هم الآن بينون منصة قبالة الجدار الطويل للقاعة الكبيرة. وفيما كانت مارجوري تراقبهم وقفت السيدة بيرنوك قربها تراقبهم أيضاً. كانت سوزانا بيرنوك نسيبة الإيرل

سويذن امرأة جذابة في أواخر الثلاثينيات وذات ابتسامة دافئة، وهي من الزوار الدائمين إلى كينغزبريدج وتملك منزلاً فيها. قابلتها مارجوري قبلاً، واكتشف أنها لطيفة وغير متعالية جداً.

كانوا يصنعون المنصة من ألواح الخشب والبراميل.
«تبدو المنصة متزعزعة بعض الشيء»، قالت مارجوري.
«هذا ما أعتقد أيضاً!» قالت سوزانا.
«هل تعلمين ما المسرحية التي سيؤدونها؟»
«مسرحية عن حياة مريم المجدلية».

«يا إلهي! كانت مريم المجدلية القديسة الراحلة للعاهرات، ولطالما صحح الكهنة هذا الأمر بالقول إنهن عاهرات تائبات، ولكن هذا لم يجعل القديسة أقل جاذبية. لو كان كل الممثلين رجالاً فكيف سيقومون بهذه المسرحية».

«ألم تشاهدي مسرحية قبلاً؟».

«لم أشاهد مسرحية يؤديها ممثلون محترفون على خشبة مسرح. شاهدت مواكب ومهرجانات».

«في هذه المسرحيات لا يسمحون للنساء بالتمثيل، ويؤدي الرجال أدوار الشخصيات النسائية».

«لم لا يسمحون لهن؟».

«آه، أعتقد أن السبب يعود لكوننا كائنات دونية ضعيفة جسدياً وواهنة عقلياً».

تحدثت مارجوري بطريقة ساخرة. كانت تحبّ سوزانا لأسلوبها الصريح في الحديث. يجيب معظم البالغين على الأسئلة المحرجة بتفاهات فارغة، ولكن يمكن قول الحقيقة لسوزانا. وبجسارة عبّرت مارجوري عما يجول في رأسها.

«هل أجبروكِ على الزواج من اللورد بريكنوك؟».

رفعت سوزانا حاجبيها.

أدركت مارجوري على الفور أنها تجاوزت حدها وقالت بسرعة:

«آسفة، لا أملك الحق بطرح هذا السؤال، فلتسامحيني من فضلك». وانحدرت الدموع من عينيها.

هزّت سوزانا كتفيها وقالت:

«حتماً لا تملكين الحق في طرح مثل هذا السؤال علي، ولكنني لم أنسَ ماذا يعني أن يكون المرء في الخامسة عشرة»، ثم أخفضت صوتها وسألت مارجوري: «من يريدونك أن تتزوجي؟».

«بارت شايرنغ».

«يا إلهي! يا لك من مسكينة»، قالت سوزانا رغم أن بارت ابن نسيبها. جعلها التعاطف الذي أبدته سوزانا نحوها تشعر بالأسف على نفسها أكثر. أطرقت سوزانا في التفكير لوهلة ثم قالت: «ليس سراً أن زوجي كان زواجاً مدبراً، ولكن لم يُجبرني أحد. لقد قابلته وأحببته».

«هل تحببته؟».

ترددت سوزانا مجدداً، وتمكنت مارجوري من رؤية حيرتها بين التحفظ والتعاطف.

«لا يجب أن أجيب عن هذا السؤال».

«لا، بالطبع لا، أعتذر... مجدداً».

«ولكنني أرى أنك في كربٍ، ولهذا سأبوح لك ولكن بعد أن تقدمي لي وعداً ألا ترددي ما قلته».

«أعدك».

«أنا وبيرونوك أصدقاء»، قالت سوزانا. «إنّه لطيف معي وأنا أقوم بكل ما في وسعي لأرضيه. لدينا أربعة أولاد رائعين وأنا سعيدة». توقفت قليلاً، وانتظرت مارجوري الجواب عن سؤالها، ثم قالت سوزانا أخيراً:

«ولكنني أعلم أنّ هناك نوعاً آخر من السعادة. تلك النشوة المجنونة النابعة من الوله بين شخصين».

«أجل»، قالت مارجوري بسعادة كبيرة لأنّ سوزانا فهمت ما تعنيه.

«ولكن لا يحظى الجميع بهذه السعادة الخاصة»، قالت برزانة.

«ولكننا يجب أن نحظى بها!» لم تتحمل مارجوري فكرة أن يُحرم أيّ إنسان من الحب.

بدأت سوزانا مخذولة لوهلة ثمّ قالت بهدوء: «ربما... ربما». ومن فوق كتفي سوزانا رأت مارجوري نيد يقترب في جاكيت فرنسية خضراء اللون. نظرت سوزانا إلى حيث نظرت مارجوري، وقالت بنفاذ بصيرة:

«هل نيد ويلارد الرجل الذي تريدينه؟».

«أجل».

«خيار جيد. إنه لطيف».

«إنه رائع».

ابتسمت سوزانا ولكن بمسحة حزن.

«أرجو أن تسير الأمور كما تريدان».

انحنى نيد لسوزانا، وحيّته بهزة من رأسها ثمّ انسحبت بعيداً عنهما. كان الممثلون يعلقون ستارة في إحدى زوايا الغرفة، وقالت مارجوري لنيد:

«لمَ برأيك يضعون الستارة؟».

«سيرتدون الأزياء خلف الستارة كما أعتقد»، ثمّ أخفض صوته قائلاً: «متى يمكننا أن نتحدث؟ لا يسعني الانتظار لوقتٍ أطول».

«توشك اللعبة على البدء، فلتلحقني فقط».

تمّ اختيار دونالد غلوستر الموظف الوسيم الذي يعمل لدى فيلبرت كوبلي ليكون الصياد. كان يملك شعراً أسود متموجاً ووجهاً شهبانياً. لم تكن مارجوري معجبة به فقد كان أحمرّ جداً، ولكنها كانت واثقة من أن هناك العديد من الفتيات اللواتي يأملن أن يعثر عليهن دونالد.

كانت نيوكاسل المكان المثالي لهذه اللعبة، ففيها أماكن سرية أكثر مما هناك في أراضي تكاثر الأرناب. كانت الأجزاء الجديدة حيث بُنيت القلعة الجديدة واتصلت بالقلعة القديمة مليئة بالخزائن والسلالم الخفية وكوات وغرف بأشكالٍ غريبة. كان صيد الأيل لعبة للصغار، ولطالما تساءلت

مارجوري عن السبب الذي قد يدفع من يبلغون التاسعة عشرة إلى الانضمام إليهم. وأدركت الآن أن اللعبة تؤمن للبالغين فرصة لتقبيل واحتضان بعضهم بعضاً.

أغلق دونالد عينيه، وبدأ يتلو تسيحة باللاتينية بينما انتشر الشباب للاختباء.

عرفت مارجوري أين ستختبئ فقد استكشفت بعض المخابئ مُسبقاً، وحرصت على أن يكون مكاناً خاصاً تستطيع فيه التحدث مع نيد. تركت القاعة، وهرعت عبر الرواق باتجاه غرف القلعة القديمة وهي على ثقة من أن نيد يلحق بها. دخلت عبر الباب، واتجهت إلى نهاية الرواق.

حدقت إلى الوراء، ورأت نيد ولكن مع أشخاص آخرين. كان الأمر مزعجاً فقد أرادت نيد لها وحدها. عبرت المخزن الصغير، وصعدت الدرج الحجري الحلزوني ثم نزلت درجاً قصيراً، وانعطفت إلى دهليز علمت أنه سيُفضي إلى نهاية مسدودة. كان المكان مضاءً بشمعة واحدة على رف دعامة الجدار. في وسط المكان موقد كبير جداً، إنه المخبز القروسطي الذي لم يُستخدم منذ وقت طويل، وقد هدموا مدخله عندما بنوا المنزل الحديث المُتصل بالقلعة. بجانب المخبز باب مخفي خلف دعامة حجرية يقود إلى داخل المخبز العملاق، وهو عملياً غير مرئي في العتمة. رفعت مارجوري تنورة فستانها ودخلت. واستغربت نظافة المكان عندما استكشفتها. سحبت الباب ولكن لم تغلقه تماماً، وأخذت تراقب من الشق.

اندفع نيد عبر الدهليز ولحقه بارت ثم روث كوبلي الجميلة التي كانت على الأغلب تلاحق بارت. تأوهت مارجوري من اليأس فكيف لها أن تنفرد بنيد بعيداً عن الآخرين؟

مروا جميعاً بالقرب من الفرن، ولكنهم لم يروا الباب. وصلوا إلى النهاية المسدودة ثم رجعوا من نفس الطريق بترتيب عكسي: روث أولاً ثم بارت وأخيراً نيد. رأت مارجوري فرصتها السانحة.

اختفى بارت وروث عن أنظارها فنادت: «نيد».

توقف نيد وبحث حوله مذهولاً.

فتحت باب الفرن وقالت: «هنا».

لم تضطر إلى مناداته مرتين. اندفع إلى الداخل، وأغلقت الباب.
كان الظلام حالكاً ولكنهما كانا فوق بعضهما؛ الركبة على الركبة والذقن
على الذقن، وكان بإمكان مارجوري الإحساس بطول جسده. قبلها نيد.
قبلته بكل شوق. يبدو أنه وبغض النظر عما حدث ما يزال مغرماً بها،
وفي تلك اللحظة لم يعد يهمها أي شيء آخر. خافت من أن يكون قد نسيها
خلال إقامته في كاليه، واعتقدت أنه سيقابل فتيات فرنسيات أكثر أناقة
وإمتاعاً من مارجوري فيتزجيرالد الصغيرة من كينغزبريدج، ولكنها عرفت
أنه لم ينسها من الطريقة التي احتضنها بها وقبلها وداعها. كانت السعادة
تغمرها، ووضعت يدها على رأسه وفتحت فمها للسانه، ودفعت بجسدها
أكثر نحو جسده.

صعد فوقها، وفي تلك اللحظة كانت مستعدة لفتح جسدها له بكل
سعادة، وتسمح له بأخذ عذريتها، ولكن شيئاً ما قد حدث. سمعا خبطة ما
وكأن قدمه اصطدمت بشيء ثم صدرت ضجة خشب يسقط على الأرض،
وفجأة تمكنت مارجوري من رؤية جدران الفرن حولها.

كانا متفاجئين جداً وبما يكفي ليتوقفا عما كانا يقومان به وينظرا إلى
الأعلى، وشاهدا القسم الأسفل من الفرن يتداعى. بدا واضحاً أنه كان متصلاً
بمكان آخر ذي إضاءة ضعيفة، وأدركت مارجوري في رعب أنه قد يكون
هناك أناسٌ رأوا ما كانت تفعله هي ونيد. جلست ونظرت عبر الثقب.

لم يكن هناك أحد بل مجرد جدار مع نافذة طولانية تسمح لقليل من
ضوء شمس ما بعد الظهر بالدخول. هناك مساحة صغيرة خلف الفرن القديم
وقد كانت مغلقة بسبب بناء المنزل الجديد، ولكنها لم تكن تؤدي إلى أي
مكان والطريق الوحيد هو عبر الفرن. استقر على الأرض لوح خشبي أغلقت
به الفجوة وكان نيد قد ضربه بقدمه من شدة حماسه. سمعت مارجوري
أصواتاً قادمة من الحديقة الخلفية في الخارج. تنفست براحة عندما أدركت
أن ما من أحد قد رآهما.

زحفت مارجوري عبر الفجوة ووقفت في هذه المساحة الصغيرة. لحقها
نيد، ونظرا حولهما في عجب ثم قال نيد: «يمكننا أن نبقى هنا إلى الأبد».
أعدت هذه الملاحظة مارجوري إلى عالم الواقع، وأدركت أنها كانت

قريبة من ارتكاب خطيئة مميتة. كادت الرغبة تسحق معرفتها بالصواب والخطأ، وها هي الآن تحظى بفرصة نجاة من ارتكاب خطيئة. كانت نيتها في إحضار نيد إلى هنا التحدث إليه وليس تقبيله. «نيد! يريدون تزويجي من بارت. ما الذي ستفعله؟» «لا أعلم»، قال نيد.

أدرك رولو أن الإيرل سويذن مخمور تماماً وقد انهار على أحد الكراسي المقابلة لخشبة المسرح وهو يحمل كأساً بيده اليمنى. وبينما كانت إحدى الخادמות تملأ كأسه أمسكها بيده اليسرى المشوهة من ثديها. صرخت الخادمة في رعب، وتراجعت بعيداً فسكبت النبيذ، وضحك سويذن. صعد أحد الممثلين على الخشبة، واستهل بداية المسرحية موضحاً أنه ولكي نقصّ حكاية التوبة فمن الضروري أولاً أن نعرض الخطيئة، وأنه يعتذر مقدماً إن كان في الأمر إساءة للحاضرين.

شاهد رولو أخته مارجوري تنسل إلى الغرفة مع نيد ويلارد، وعبس في استنكار. لقد استغلا لعبة صيد الأيل ليختليا معاً، وأدرك رولو أنّهما ومن دون أدنى شك قاما بأمر مشينة.

لم يكن رولو يفهم أخته فهي كانت تأخذ الدين على محمل الجد، ولكنها لطالما كانت متمردة، كيف يمكن أن يحدث هذا؟ بالنسبة إلى رولو فإن جوهر الدين هو الخضوع للسلطة، وهذه مشكلة البروتستانتيين؛ فهم يعتقدون أنهم يملكون الحق في أخذ القرارات، ولكن مارجوري كاثوليكية تقيّة.

ظهرت على خشبة المسرح شخصية تدعى «الخيانة» وما ميز الممثل الذي يؤديها القطعة القماشية الكبيرة التي تغطي أعضائه التناسلية. غمز وتحدث من وراء يده، وأخذ ينظر يساراً ويميناً ليتأكد أنّ بقية الشخصيات لا تسمعه. ضحك الجمهور من هذه النسخة المبالغ فيها لهذه الخطيئة التي يعرفونها جميعاً.

شعر رولو بالإحباط بعد حديثه مع السير ويليام سيسيل، وهو يعتقد الآن أنّه بالغ في ردة فعله. قد تكون الأميرة إليزابيث بروتستانتية، ولكن الوقت

مبكر ليهتم المرء بأمرها، فالملكة ماري تودر في الحادية والأربعين من العمر وهي بصحة جيدة، باستثناء حالات الحمل الكاذبة، وقد تحكّم لعقود. ظهرت مريم المجدلية على خشبة المسرح، كان واضحاً أنّها القديسة نفسها ولكن قبل توبتها. اختالت في ثوب أحمر ولعبت بطوقها، واستقر نظرها على الشخصية التي تدعى «الخيانة». كانت شفتاها ملونتين بصباغ أحمر من نوع ما.

دُهِش رولو من هذا فهو لم يلمح امرأة بين الممثلين. ورغم أنّه لم ير مسرحيةً قبلاً فهو كان واثقاً من أن مشاركة النساء فيها ممنوعة. يبدو أن الفرقة كانت مؤلفة من أربعة رجال وصبي بحدود الثالثة عشرة. عيس رولو عندما رأى مريم المجدلية، وشعر بالحيرة، ثمّ فكّر بأنّها قد تكون بحجم وبنية ذلك الصبي.

بدأت الحقيقة تنكشف أمام الجمهور، وكان هناك الكثير من مهمات الإعجاب والمفاجأة، ولكن سمع رولو أيضاً ضجيج أصوات احتجاج واضحة. تطلع حوله واكتشف أنّها قادمة من المكان الذي وقف فيه فيلبرت كوبلي مع عائلته. كانت الكاثوليكية أكثر تحراً فيما يخص المسرحيات، وهذا يعود إلى نظرتها إلى أن المسرحيات تحمل رسالة دينية، ولكن بعض البروتستانتين المتطرفين رفضوها. أثارت فكرة ارتداء صبي لثياب امرأة سخطهم خاصة أنّه يُمثل الشخصية الأنثوية بطريقة مثيرة. خلت وجوههم جميعاً دون استثناء من أيّ تعابير، ولاحظ رولو أنّ الفتى الذكي الذي يعمل لمصلحة فيلبرت والمدعو دونالد غلستر يضحك من قلبه كالبقية. يعلم رولو وجميع شباب البلدة أنّ دونالد مغرم بروث أخت فيلبرت الجميلة. توقع رولو أن دونالد تحول إلى البروتستانتية ليفوز بقلب روث فقط.

على المسرح أخذ الممثل الذي يؤدي شخصية «الخيانة» مريم بين ذراعيه، وقبلها قبله طويلة ماجنة أثارت ضحكاً عالياً بين الجمهور وصيحات استهجان وشفيراً خاصة من الشبان الذين اكتشفوا الآن أنّ من يلعب دور ماري هو صبي.

ولكن فيلبرت كوبلي لم يجد الأمر مضحكاً. كان رجلاً قوياً وقصيراً ولكنه سمين بشعرٍ خفيف ولحية شعناء. احمرّ وجهه الآن، ولوح بقبضته

وأخذ يصرخ بشيء ما لم يكن بالإمكان سماعه. في البداية لم يعره أحد أي اهتمام، ولكن عندما انتهى الممثلان من التقبيل، وتراجع الضحك التفت الناس بحثاً عن مصدر الصراخ.

انتبه رولو إلى أنّ سويدن لاحظ الاضطراب في الحفلة وبدا غاضباً، وقال في نفسه ها هي المتاعب قادمة.

توقف فيلبرت عن الصراخ، وتفوه بشيء للناس حوله ثم انطلق باتجاه الباب. لحقته عائلته ثم جرى دونالد في إثرهم أيضاً، ولكن رولو انتبه إلى أنّ خيبة الأمل بادية على وجه دونالد.

نهض سويدن عن كرسيه وتوجه نحوهم.

«قفوا حيث أنتم!» صاح بأعلى صوت. «لم أعطِ أي إذنٍ بالمغادرة».

توقف الممثلون، والتفتوا لمشاهدة ما كان يجري بين الجمهور، وفكر رولو في نفسه أنّ هذا الانقلاب في الأدوار مثير للسخرية.

توقف فيلبرت، والتفت ثم صرخ نحو سويدن:

«لن نبقي في قصر الرذالة!» ثم تابع طريقه نحو الباب.

«أيها البروتستانت المتفاخر!» صرخ سويدن ثم ركض باتجاه فيلبرت.

وقف بارت في طريق والده سويدن ووضع يده عليه ليهده ثم صرخ قائلاً:

«دعهم يذهبون يا أبي، إنهم لا يستحقون عناء الأمر».

أبعد سويدن ابنه واندفع بقوة ثم ألقى نفسه على فيلبرت قائلاً: «سأقتلك، بحق الصليب سأقتلك». ثم أمسكه من رقبته وبدأ يخنقه. سقط فيلبرت على ركبتيه، وانحنى سويدن فوقه، وأطبق قبضته عليه رغم التشويه في يده اليسرى.

أخذ الجميع يصرخون في آنٍ معاً، وأمسك العديد من الرجال والنساء بأكماس سويدن في محاولة لتخليص فيلبرت من قبضته، ولكن خوفهم من إيذاء الإيرل أعاقهم حتى وإن كان هذا الإيرل مُقدماً على جريمة. بقي رولو بعيداً فهو لم يكن يكثرث إن عاش فيلبرت أو مات.

كان نيد وويلارد أول من تصرف بحزم، حيث قام بلفّ ذراعه اليمنى على

رقبة سويدن إلى أن أصبح باطن مرفقه تحت ذقن الإيرل ثم رفعه إلى الأعلى وسحبه إلى الخلف. لم يعد بوسع سويدن سوى الابتعاد إلى الوراء وإفلات عنق فيلبرت.

فكر رولو أن نيد يتصرف هكذا على الدوام، حتى عندما كان فتى صغيراً ونحياً في المدرسة كان مُقاتلاً شرساً وعلى استعداد دوماً لمواجهة الصبية الأكبر عمراً، واضطر رولو مرة أو مرتين إلى تلقيه درساً بحزمة من الأغصان. ولكن بعد أن كبر نيد، وكبرت معه يدها وقدماه، رغم أنه ما زال قصيراً، تعلمت الصبية الأكبر احترام قبضتيه.

أفلت نيد سويدن وبذكاء ابتعد عنه عائداً إلى الحشد مجدداً. صرخ سويدن بصوت عالٍ، واستدار حوله باحثاً عن المعتدي ولكن لم يعرفه. فكر رولو أنه لربما عرفه، ولكنه بحلول ذلك الوقت كان قد استفاق من ثمالة. نهض فيلبرت على قدميه وفرك رقبته، ومشى مترنحاً إلى الباب من دون أن يلاحظه سويدن.

أمسك بارت بذراع والده وقال له: «لنتناول كأساً آخر من النبيذ ولنشاهد المسرحية، فبعد قليل ستصعد الشخصية التي تؤدي «الشهوة الجنسية»». وصل فيلبرت ومرافقه إلى الباب.

ولبرهة من الزمن حدّق سويدن بغضبٍ نحو بارت ثم بدا وكأنه نسي من أغضبه.

غادرت عائلة كوبلي الغرفة، وشفقت الباب الكبير المصنوع من خشب البلوط خلفها.

«أكملوا المسرحية!» صرخ سويدن، ورجع الممثلون إلى تأدية أدوراهم.

مكتبة

t.me/soramnqraa

الفصل الثاني

عاش بيير أوموند على سلب الباريسيين أموالهم الفائضة، وهي مهمة سهلة جداً في أيام كهذه عندما يكونون في جو احتفالي. ساد الفرح أرجاء باريس، فالجيش الفرنسي غزا كاليه واستعادها من البرابرة الإنكليز الذين سرقوها منذ قرنين. شرب الرجال في جميع البارات نخب التضحية ونخب دوق غيز ذلك الجنرال العظيم الذي أزال تلك اللطخة القديمة عن كبرياء الأمة الفرنسية.

لم تكن حانة سان إيتيه الواقعة في حي ليزال استثناءً عن بقية الحانات. احتشدت في أقصى الحانة مجموعة من الشباب يلعبون النرد ويشربون نخب التضحية في كل مرة يفوز فيها أحدهم. هناك طاولة قرب الباب جلس عليها رجال يتأبطون بعضهم أذرع بعض ويحتفلون كأنهم من استرجعوا كاليه. وفي زاوية أخرى أغمي على عاهرة، وغرق شعرها في بركة من النيذ. كانت مثل هذه الاحتفالات فرصة ذهبية لرجل مثل بيير.

بيير طالبٌ في جامعة السوربون، وقد أخبر زملاءه أنه يحصل على مصروفٍ سخّي من والديه القاطنين في إقليم شمبانيا. أمّا الحقيقة فهي أنّ والده لم يُعْطه شيئاً، وأنفقت والدته مدخرات حياتها على شراء ثياب جديدة له ليرتديها عنه. ما يذهب إلى باريس وهي مفلسة الآن. من المفترض أن يقوم بيير بأعمال مكتبية كتنسخ الوثائق القانونية لإعالة نفسه كما يفعل العديد من الطلاب، ولكن بيير يدفع ثمن بذخه على ملذات المدينة بطرقٍ أخرى. ارتدى بيير اليوم صداراً ضيقاً على الموضة بلونٍ أزرق وقد تركه مفتوحاً حتى تبرز الثياب الداخلية الحريرية البيضاء تحته. لم يكن بوسعها شراء مثل هذه الثياب ولا حتى براتب عامٍ كامل في نسخ الوثائق.

راقب بيير لعبة النرد، كان المقامرون أبناء مواطنين أثرياء، وتكهن أنهم قد يكونون أبناء صاغة ومحامين وبنائين. فاز أحدهم ويدعى برتراند بكل الجولات. في البداية ساورت بيير الشكوك في أن يكون برتراند مخادعاً مثله وراقبه بدقة ليفهم كيف يقوم بالمرأوغة، ولكنه اقتنع في النهاية أن برتراند لا يمارس أيّ خدع بل حالفه الحظ الجيد بكل بساطة، وهنا رأى بيير الفرصة سانحة.

عندما ربح برتراند أكثر من خمسين جنيهًا بقليل غادر أصدقائه الحانة بجيوب فارغة. طلب برتراند زجاجة نبيذ وصحن جبنة وهنا تقدم منه بيير.

«كان أحد أنسباء جدي محظوظاً مثلك»، قال بيير بلهجة ودية لطيفة أفادته كثيراً في الماضي. «في كل مرة قامر فيها فاز. حارب في ماريانو ونجا». اختلق بيير هذا وتابع كذبه. «تزوج من فتاة فقيرة لأنها كانت جميلة وأحبها ثم ورثت مطحنةً من أحد الأعمام. لاحقاً أصبح ابنهما أسقفاً». «لا يحالفني الحظ على الدوام».

فكر بيير في نفسه أن برتراند ليس غيباً تماماً ولكنه أحمق كفاية. «أراهن أن هناك فتاة لم تحبك إلى أن قبلتك في يوم من الأيام». اكتشف بيير أن معظم الرجال مروا بهذه التجربة خلال سنوات المراهقة. ذهل برتراند من ملاحظة بيير وقال:

«أجل! وتدعى كلوتيلد. كيف عرفت بهذا؟» سأله برتراند. «أخبرت أنك محظوظ». اقترب بيير منه وتحدث بصوتٍ خفيض وكأنه ييوح بسراً.

«عندما كبر نسيب جدي في العمر أخبره متسولٌ في أحد الأيام عن سر حظه الجيد».

لم يكن برتراند قادراً على المقاومة وسأله: «ماذا كان السر؟».

«قال له المتسول إن أمه عندما كانت حاملاً به أعطته بنساً ولهذا السبب أصبح محظوظاً طوال حياته. إنها الحقيقة».

بدا برتراند وكأن أمله قد خاب.

رفع بيير إصبعه في الهواء كساحر يوشك على القيام بحيلة سحرية. ثم خلع المتسول رداءه القدر وكشف عن نفسه... كان ملاكاً».

بدا برتراند نصف مشكك ونصف مصعوق بما قيل له.

«بارك الملاك نسيب جدي ثم حلق إلى السماء». أخفض بيير صوته وهمس: «أعتقد أن والدتك أعطت ملاكاً صدقة».

«ربما»، قال برتراند الذي لم يكن ثملاً تماماً.

«هل والدتك عطوفة؟» سأل بيير وهو على علم أنّ قلة من الرجال ستجيب بالنفي.

«إنها قديسة».

«ألم أقل لك؟» وفكر بيير لبعض الوقت بوالدته وكم ستشعر بالخيبة لو علمت أنّه يعيش على خداع الناس وسلبهم أموالهم. حاورها في مخيلته وأخبرها أنّ الرجل مُقامر وسكير ولكن عذره لم يرضها حتى في مخيلته. دفع بيير الفكرة بعيداً. لم يكن الوقت مناسباً ليشك بنفسه فقد بدأ برتراند بابتلاع الطعام.

«أعطاك رجلٌ أكبر عمراً منك - ولم يكن والدك - نصيحة مهمة مرة واحدة على الأقل». تابع بيير.

اتسعت عيننا برتراند في دهشة وقال: «كان السيد لافيير ذا عونٍ كبير».

«أرسله ملاكٌ. هل نجوت من إصابة أو موتٍ وشيك؟».

«نُهِتُ عندما كنت في الخامسة من عمري. وعندما قررت أنّ طريق العودة يمر عبر النهر كُدت أغرق ولكن راهباً عابراً أنقذني».

«لم يكن راهباً، بل ملاكاً».

«هذا مذهل. أنت على حق».

«قدمت والدتك صدقة إلى ملاكٍ متخفٍ، وهو يردك مندثراً. أنا واثق من هذا».

قبل بيير بكأس النبيذ مع شريحة جبن. لطالما كان الطعام المجاني موضع ترحيب لديه.

درس بيير الكهنوت لأنّه الطريق الذي سيوصله إلى أعلى السلم الاجتماعي، ولكن لم يمضِ على دخوله الجامعة سوى بضعة أيام عندما أدرك أنّ الطلاب منقسمون إلى مجموعتين وكل مجموعة قدرها مختلف جداً؛ فآباء النبلاء والتجار الأغنياء سيصبحون رؤساء أديرة وأساقفة وبعضهم كان

يعرف مسبقاً أيّ ديرٍ أو أبرشية سيتسلمها، لأنّ مثل هذه المناصب تتوارثها عائلاتٌ معينة في أغلب الأحيان. أمّا الأبناء الأذكىاء لأطبّاء الأقاليم وتجار النيذ فسيصبحون كهنة أرياف.

كان بيير ينتمي إلى المجموعة الثانية، ولكنه قرر أن يصبح من المجموعة الأولى.

لم يكن هذا التقسيم صريحاً. خلال الأيام الأولى تقرب بيير جداً من النخبة، وسرعان ما تحرر بيير من لهجته المحلية، وتعلم التحدث كمتشددٍ أرسوقراطي. حالفه الحظ عندما طلب منه الفيكونت فيلنوف الذي غادر المنزل دون مال استدانة عشرين جنيهاً حتى الغد. كان هذا المبلغ كل ما ملكه بيير في العالم، ورأى في الأمر فرصة نادرة.

قدّم المال إلى الفيكونت فيلنوف وكأنّه مبلغٌ تافه.

كان بيير يائساً، ولكنه لم يقل شيئاً. تناول العصيدة في تلك الليلة لأنّه لم يكن قادراً على شراء الخبز، ولكن فيلنوف نسي الأمر في اليوم التالي. لم يقل بيير شيئاً، كان يعلم أنّه لو طلب استعادة ماله فسيفهم فيلنوف وأصدقاؤه على الفور أنه ليس منهم أبداً. كان يشتهي قبولهم له أكثر من أي طعام. مرّ شهر عندما قال له الشاب النييل بلا مبالاة:

«أوموند، لا أعتقد أنني أعدت لك العشرين جنيهاً، صحيح؟».

أجابه بيير بعد أن بذل قدراً كبيراً من التحكم بإرادته: «صديقي العزيز، ليس لدي أدنى فكرة. فلتنس الأمر من فضلك». ثمّ شعر بإلهام ما دفعه إلى الاستفاضة والقول: «من الواضح أنك كنت بحاجة إلى المال».

ضحك بقية الطلاب فهم كانوا يعلمون كم مدى ثراء فيلنوف، ورسخ هذا التلميح الذكي مكانة بيير كعضوٍ في المجموعة.

أعطاه فيلنوف حفنة من النقود الذهبية، ووضعها في جيبه من دون أن يعدها.

لقد تمّ قبول بيير، ولكن هذا يعني أن يلبس مثلهم، ويستأجر العربات للرحلات، ويُقامر بتهور، ويطلب الطعام والنيذ في الحانات وكأنّها لا تكلف شيئاً.

كان بيير يستدين طوال الوقت، ويدفع فقط عندما يُجبر على ذلك. قام

بتقليد لامبالاة فيلنوف المالية، ولكن كان عليه أحياناً أن يحصل على المال.
شكر بيير السماء على وجود الأغبياء من أمثال برتراند.
وبينما تجرع برتراند ما تبقى من زجاجة النبيذ ببطء وبثبات، قدّم بيير في حديثه تلك الفرصة الرابعة المميزة.

لم يكن بيير يستخدم الشخصية عينها في كل مرة، فقد اخترع اليوم شخصية ألماني غربي. لطالما كان الغبي في قصصه أجنبياً ورث بعض المجوهرات من إحدى العمّات، وأراد بيعها إلى بيير مقابل خمسين جنيهاً من دون أن يدرك أنها تساوي مئات الجنيهات. أخبر بيير برتراند أنه لا يملك خمسين جنيهاً، ولكن إن تمكن أحد من شراء المجوهرات فسيتمكن من مضاعفة المبلغ الذي دفعه بعشر مرات. قد لا تكون القصة قابلة للتصديق بالضرورة، لكن طريقة تقديمها عنصر حاسم؛ فعلى بيير أن يتظاهر بالتردد في توريث برتراند في الأمر وبالتوتر من فكرة شراء المجوهرات، ويُظهر قلقاً من اقتراح برتراند بأنه يعطيه خمسين جنيهاً من أرباحه والذهب لشراء المجوهرات من أجله. توسل برتراند من بيير ليأخذ ماله، وعندما كان بيير جاهزاً لأخذ المال والاختفاء من حياة برتراند دخلت الأرملة بوشين. حاول بيير أن يحافظ على رباطة جأشه.

باريس مدينة يقطنها ثلاثمئة ألف شخص، ولم يخطر بباله أن يكون في خطر الالتقاء بأحد الضحايا القدامى صدفة خاصة مع حرصه على الابتعاد عن الأماكن التي يترددون إليها عادة.
كان دخول الأرملة حظاً سيئاً حقاً.

أشاح برأسه بعيداً، ولكنه لم يكن سريعاً بما يكفي ورأته: «أنت!»
صرخت وأشارت إليه.

كان بإمكان بيير قتلها في تلك اللحظة.
كانت الأرملة بوشين امرأة في الأربعين من عمرها ولها ابتسامة عريضة وجسد قوي. كان بيير أصغر منها بعشرين عاماً، ولكنه قام بإغوائها عن طيب خاطر، وبالمقابل علمته، بكل حماسة، كيف يمارس الحب بطرق جديدة عليه، والأهم من هذا، أقرضته مالاً في كل مرة طلب فيها.
عندما بدأت حرارة العلاقة تتراجع كانت الأرملة قد ضاقت ذرعاً من

إعطائه النقود. ولو أنها كانت امرأة متزوجة لحسبت خسائرها وودعته، ولأخبرت نفسها أنها تعلمت درساً مكلفاً. لا يمكن لامرأة متزوجة أن تفضح خداع بيير لها لأن هذا سيعني اعترافها بالخيانة الزوجية، ولكن وضع الأرملة مختلف كما أدرك بيير عندما انقلبت السيدة بوشين عليه. كانت تشتكي بصوت عالٍ وطويلاً لأي شخصٍ قد يسمعاها.

تساءل إن كان يستطيع منعها من إثارة شك برتراند. سيكون الأمر صعباً، ولكنه قام بالكثير من الأمور الغريبة.

كان عليه أن يخرجها من الحانة بأسرع ما يمكن.

قال بيير لبرتراند بصوتٍ خفيض: «هذه المرأة المسكينة مجنونة تماماً». ثم وقف وانحنى وقال في لهجة مهذبة جداً: «أيتها السيدة بوشين أنا في خدمتك دوماً».

«في هذه الحالة أعد إلي المئة والخمسين جنيهاً التي استندتها مني». كان الوضع سيئاً، وأراد بيير بشدة أن ينظر إلى برتراند ويعرف ردة فعله، ولكن هذا سيفضح خوفه، ولذلك أجبر نفسه على عدم النظر. «سأحضر لك المال غداً صباحاً إن تفضلتِ بتسمية مكان اللقاء». «أخبرتني أنك لا تملك خمسين جنيهاً!» قال برتراند بثمالة. كان الوضع يزداد سوءاً.

«لمَ غداً؟» سألت السيدة بوشين. «ما المشكلة إن دفعت لي الآن؟». جاهد بيير ليحافظ على لامبالته. «من سيحمل مثل هذا المبلغ في محفظته؟». «أنت كاذبٌ ماهر»، قالت الأرملة. «ولكنك لن تخذعني بعد الآن». سمع بيير برتراند يُطلق صيحة استغراب، فقد بدأ يفهم الأمر. استمر بيير بالمحاولة، ووقف باستقامة وبدا كأنه تعرض للإهانة. «أيتها السيدة، أدعى بيير أو موند دي غيز، ولا بد أنك تعرفين هذه العائلة. كوني واثقة من أن شرفنا يمنعنا من خداع أحد».

حدّق أحد العسكريين الذين جلسوا إلى الطاولة قرب الباب يشربون نخب عودة كاليه إلى حضن فرنسا إلى بيير بقسوة. رأى بيير أنّ الرجل قد فقد كامل أذنه اليمنى تقريباً في شجارٍ. اضطرب بيير للحظة ولكن كان عليه أن يركز على الأرملة.

«لم أكن أعرف اسمك، ولكنني أعرف أنك بلا شرف أيها الشاب المحتال. أعد إليّ مالي».

«ستحصلين عليه، أضمن لك هذا».

«خذني إلى منزلك الآن إذاً».

«أخشى أنه لا يمكنني أن أقوم بهذا. فوالدتي، مدام دي شاتونوف، لن تعتبرك زائرة لاثقة».

«والدتك ليست سيدة»، قالت الأرملة بازدرء.

«اعتقدت أنك طالبٌ تعيش في الجامعة». قال برتراند وبدأ أقل ثمالة مع مرور الوقت.

أدرك بيير أنّ اللعبة انتهت، وخسر فرصته مع برتراند. التفت بيير نحوه وقال له بغضب: «فلتذهب إلى الجحيم». ثم التفت إلى مدام بوشين، وشعر بوخز الندم على جسدها الدافئ والممتلئ وعلى عهرها المُبهِج، ولكنه اتخذ سلوكاً قاسياً وقال لها: «أذهبي إلى الجحيم أنتِ أيضاً».

ارتدى عباءته، كم كان كل هذا مضيعةً للوقت! وعليه أن يبدأ من جديد غداً، ولكن ماذا لو التقى بأحد ضحاياه القدامى؟ تعكر مزاجه بسبب هذه الليلة المزعجة. سمع صيحة أخرى تقول: «كاليه فرنسية»، وفكر بيير في نفسه «ليأخذ الشيطان كاليه»، وتوجه إلى الباب.

ولمفاجأته نهض الرجل ذو الأذن المبتورة من على الطاولة التي جلس عليها العسكريون، وقطع عليه الطريق. فكر بيير في نفسه: «بحق الربّ ما الأمر الآن».

«تنحّ جانباً»، قال بيير بغطرسة. «لا علاقة لك بالأمر».

بقي الرجل مكانه. «سمعتك عندما قلت أنّ اسمك بيير أو موند دي غيز».

«أجل، ولذلك من الأفضل أن تبعد عن طريقي إن لم تكن تريد أيّ

متاعب مع عائلتي».

«لن تسبب لي عائلة غيز أيّ متاعب»، قال الرجل بثقة هادئة بلبت بيير.

«أدعى غاستون لوبان».

فكر بيير بدفع الرجل جانباً والركض نجاهةً بحياته. نظر إلى لوبان من

الأعلى للأسفل. كان الرجل في الثلاثين تقريباً وأقصر من بيير ولكن بكتفين

عريضتين. لديه عينان زرقاوان، وأوحت الأذن المبتورة أن القيام بأفعالٍ عنيفة أمرًا ليس غريباً عليه، ولذلك لن يكون من السهل دفعه جانباً.
صارع بيير للحفاظ على لهجة التفوق.
«ما الأمر يا لوبان؟».

«أعمل لدى عائلة غيز، وأنا رئيس حرس المنزل». انخلع قلب بيير من مكانه. «وسأعتقلك بالنيابة عن الدوق غيز لانتحالك اسمه الأرسطوقراطي».
«علمت هذا»، قالت الأرملة بوشين.

«أيها الرجل الطيب سأخبرك...». قال بيير.
«وفر كلامك للقاضي»، قال لوبان باحتقار. «راستو، بروكار أمسكاه».
ومن دون أن ينتبه بيير نهض رجلان عسكريان عن الطاولة، ووقفوا بهدوء إلى جانبه ثم أمسكاه من ذراعيه. شعر بأيديهما كأطواق حديدية. لم يكلف بيير نفسه عناء المقاومة. أوماً لهما لوبان برأسه ليخرجا بيير من الحانة.
سمع بيير الأرملة تصرخ خلفه: «أرجو أن يعدموك».

كان الظلام قد خيم ولكن الشوارع الضيقة والمتعرجة القروسطية الطراز اكتظت بالمحتفلين وبالآغاني البطولية وبالصيحات: «عاش الرجل صاحب الوجه ذي الندبتين».

خطا راستو وبروكار بسرعة. كان على بيير أن يُسرع ليجاريهما، ويتجنب أن يجراه على الطريق.

ارتعد بيير من فكرة العقاب الذي قد يلقاه، فالتظاهر بأنه رجل نبيل جريمة خطيرة. حتى وإن نجا من هذا فما الذي يخبئه له المستقبل؟ يستطيع أن يعثر على آخرين ليخدعهم كبرتراند ويمكنه إغواء نساء متزوجات، ولكن كلما خدع أكثر كان عليه أن يبرر أكثر، وتساءل إلى متى يمكنه الاستمرار بأسلوب حياته هذا.
نظر بيير إلى مرافقيه. يكبره راستو بأربع أو خمس سنوات وبدلاً من الأنف كان لديه فتحتان أنفيتان محاطتان بنسيج ملتئم بسبب عراك بالسكاكين من دون أدنى شك. انتظرهما بيير حتى يصابا بالملل ويفقدا حذرهما وترتخي قبضتاهما. عندها سينطلق مسرعاً هرباً منهما ويختفي بين الحشود، ولكنهما بقيا يقظين وقبضتاهما محكمتين.

«إلى أين تأخذانني؟» سألهما، ولكنهما لم يكلفا نفسيهما عناء الإجابة

على سؤاله، وبدلاً من هذا أخذنا يتحدثان عن القتال بالسيف، ويبدو أنها محادثة قد بدأ بها في الحانة. «لا توجه إلى القلب»، قال راستو. «فرأس السيف قد ينزلق إلى الضلوع ولن يصيب الرجل سوى بخدشٍ». «إلى أين تصوّب؟ إلى الحنجرة».

«الحنجرة هدف صغيرٌ جداً. أصوّب نحو البطن، قطعته في الأمعاء قد لا تقتل الرجل على الفور ولكنها ستصيبه بالشلل. ستؤلمه الطعنة أكثر من أي شيء آخر يمكنه التفكير به». وأطلق ضحكة حادة غير متوقعة من رجل له هذا المظهر القاسي.

أدرك بيير أخيراً إلى أين كانا يأخذانه. التقّا باتجاه شارع فييل دو تامبل حيث بنت عائلة غيز قصرها الجديد الذي يشغل مساحة شارع بأكمله. غالباً ما حلم بيير بصعود هذه الأدراج الصقيلة، والدخول إلى القاعة الكبرى، ولكن بدلاً من هذا أقتيد إلى بوابة الحديدية ثم إلى مدخل المطبخ. هبطا به درجاً باتجاه القبو العابق برائحة الجبن والمكتظ بالبراميل والصناديق. ألقياه بقسوة في الغرفة، وأغلقا الباب عليه، ثم سمع صوت المزلاج يُغلق. حاول أن يفتح الباب ولكن لم ينجح.

كانت الزنزانة باردة وتفوح منها رائحة نتنه كرائحة مرحاض حانة. ألقّت شمعةً في الرواق خارجاً نوراً ضعيفاً عبر النافذة ذات القضبان على الباب. لاحظ أن الأرضية ترابية والسقف حجري مُقرب. لم يكن هناك أيّ أثاث سوى مَبولة مستخدمة وممتلئة وهذا مصدر الرائحة.

من المذهل حقاً كيف أصبحت حياته في الحضيض فجأة.

افترض أنه سيبقى في هذا المكان لليلة، جلس وظهره إلى الحائط ففي الصباح سيأخذونه إلى قاضيٍ ولذلك عليه أن يُفكر بما سيقوله. كان يحتاج إلى قصة ليضلل المحكمة، فما زال بإمكانه تجنب العقاب الشديد إن كان أدائه جيداً، ولكنه كان مكتئباً جداً للتفكير بحكاية ما. استمر بالتفكير بما سيفعله عندما ينتهي كل هذا. لطالما عاش حياته كفردي من الطبقة الثرية، وخسر المال في الرهان على نزالات الكلاب، وإعطاء نصائح مبالغ بها للساقيات في الحانة، وشراء قفازات مصنوعة من جلود صغار الماعز. لقد أعطاه كل لهذه متعةً لن ينساها، فهل سيخسر كل شيء؟

كان الشعور الأكثر إرضاءً له وسط هذا كله، ذلك الناجم عن الطريقة التي تقبله بها الآخرون ممن لم يكن لديهم أدنى فكرة أنه فتى لقيط. لم يكن في سلوكهم أي تعالٍ، وفي الحقيقة غالباً ما دعوه إلى نزاهات ترفهية من نوع ما، وإن تخلف عن الآخرين لسبب ما وهم ينتقلون من حانة إلى أخرى في الحي السكني التابع للجامعة سيقول أحدهم: «أين أوموند؟» وسينتظرونه ليلحق بهم. كاد يبكي عندما تذكر هذا الآن.

أحكم لفّ عباءته حوله أكثر، وتساءل إن كان بمقدوره النوم على الأرض الباردة. أراد أن يبدو كفردٍ حقيقي من عائلة غيز عندما يمثل أمام المحكمة. ازداد وهج الضوء داخل زنزانته، وسمع ضجة في الرواق. رُفع مزلاج الباب ثم فُتح.

«فلتنهض على قدميك»، أمره صوتٌ خشنٌ.

هرع واقفاً على قدميه.

كُبلت يده بقوة مجدداً بما يكفي لإحباط أيّ فكرة قد تراوده بالهرب. وقف غاستون لوبان خارج الباب. استعاد بيير بقايا غروره القديم وقال: «أفترض أنكم ستطلقون سراحي. أطلبكم باعتذار.» «أغلق فمك»، قال لوبان.

قادوه عبر الممر إلى الدرج الخلفي ثم عبروا الطابق الأرضي باتجاه الدرج الكبير. في هذه اللحظة انتاب بيير شعور بالحيرة، فقد عومل كمجرم، ولكنهم يأخذونه الآن إلى الطابق الأول من القصر كضيف.

قاده لوبان إلى غرفةٍ مؤثثة بسجادة مزخرفة وستائر مُقصبّة ثقيلة تتلألأ بألوانٍ ولوحة كبيرة لامرأة عارية مثيرة معلقة فوق الموقد. جلس رجلان مُهندمان جداً على كرسيين بمساند ووسائد يتجادلان بهدوء وتفصلهما طاولة صغيرة عليها إبريق من النبيذ وقدحان وطبق عامر بالمُكسرات والفواكه المجففة وكعكات صغيرة. تجاهل الرجلان القادمين الجدد، وتابع حديثهما من دون أن يباليا إن سمعهما أحدٌ.

من الواضح أنهما كانا أخوين، فكلاهما يملكان بنية متينة وشعر رأس ولحية شقراء. عرفهما بيير على الفور فقد كانا أشهر رجلين في فرنسا بعد الملك. كان لأحدهما نديتان رهيبتان على الخدين سببهما رمح اخترق فمه.

تقول الأسطورة إنّ الرُوح بقي مكانه بينما عاد راكباً على جواده إلى خيمته، ولم يصرخ عندما سحب الجراح النصل. إنّه فرانسوا دوق غيز والمعروف بذي الندبتين، وهو يقترّب من عيد ميلاده التاسع والثلاثين بأيام.

كان شارل الأخ الأصغر والمولود في اليوم نفسه الذي ولد فيه أخوه الأكبر ولكن بفارق خمس سنوات، وهو يشغل منصب كاردينال اللورين. وها هو أمام بيير الآن بثوبه الكهنوتي الأحمر الزاهي. لقد أصبح شارل رئيس أساقفة ريمس عندما كان في الرابعة عشرة من عمره، ويشغل حالياً العديد من المناصب الكنسية المُربحة. يُعد من أغنى الرجال في فرنسا، ويبلغ مدخوله السنوي ثلاثمئة ألف جنيه.

حلّم بيير بلقاء هذين الرجلين لسنواتٍ فقد كانا من أقوى الرجال في البلد بعد العائلة المَلَكِيّة. وفي أحلامه أثنيا عليه، وأعطياه منصب مستشار، وتحديثاً معه وكأنّه من طبقتهما، وطلباً نصيحته في القرارات السياسية والمالية وحتى العسكرية.

ولكن ها هو الآن يقف أمامهما كمجرم.

أصغى بيير إلى حديثهما. كان الكاردينال شارل يقول:

«لم يستعد الملك هيئته حقاً بعد الهزيمة في سان كوينتن».

«ولكن لا بدّ أنّ انتصاري في كاليه كان ذا عونٍ!» قال الدوق فرانسوا.

هزّ شارل رأسه وقال: «ربحنا المعركة ولكننا نخسر الحرب».

رغم خوف بيير فإنّه كان مأخوذاً بالحديث. كانت فرنسا وإسبانيا تتقاتلان على من سيحكم مملكة نابولي ومقاطعات أخرى في شبه الجزيرة الإيطالية. انحازت إنكلترا في الحرب إلى جانب إسبانيا. استعادت فرنسا كاليه، ولكنها لم تستعد المقاطعات الإيطالية. كانت صفقة سيئة، ولكن القلة فقط ستجرؤ على قول هذا. كان الأخوان واثقين جداً من قوتهم.

استغل لوبان الصمت الوجيز ليقول: «هذا هو المدعى عليه أيها

السيدان». ونظر الأخوان نحوه.

تمالك بيير نفسه، لقد نجا من مواقف صعبة قبلاً بالكلام السريع والأكاذيب القابلة للتصديق. أخبر نفسه أن ينظر إلى مشكلته كفرصة، فإن بقي يقظاً وسريع البديهة قد يخرج رابحاً من المواجهة.

«مساء الخير أيها السيدان»، قال بيير بلهجة مُفخمة. «يا له من شريف مفاجئ لي».

«لا تتحدث إلا عندما يوجه الحديث إليك أيها الحثالة»، قال لوبان. التفت بيير نحوه وقال: «فلتكف عن استخدام كلماتٍ فظةٍ في حضرة الكاردينال أو سأحرص على أن ألقنك درساً». اشتعل لوبان غضباً، ولكنه تردد في ضرب بيير أمام سيديه. تبادل الأخوان النظرات، ورفع شارل حاجبه متعجباً، لقد فاجأهما بيير، وهذا جيد.

كان الدوق أول من تحدث.

«تدعي أنك فردٌ من عائلتنا، وهذه تهمة خطيرة».

«أطلب عفوكم بكل تواضع»، وقبل أن يُكمل أيُّ من الأخوين تابع بيير: «والذي ابنٌ لقيطٍ لحالبة أبقار في تونوس لي جوانفيل». كره بيير اضطرابه للإفصاح عن قصته لأنها حقيقية ومخجلة، ولكنه كان يائساً ثم تابع: «تقول الأسطورة العائلية أن عشيقها كان شاباً وسيماً جداً من جوانفيل وأحد أنساب عائلة غيز».

نمت عن الدوق فرانسوا نخرةً مشككة فقد كانت منطقة جوانفيل في إقليم شمبانيا مسقط رأس عائلة غيز، وقرية تونوس لي جوانفيل قريبة من المنطقة كما يوحي الاسم. رغم ادعاء الكثير من الأمهات العازبات أن عُشاقهن من الأرستوقراطيين، فإنهن كُنَّ صادقات في ادعائهن أحياناً. «كان والذي رجلاً متعلماً وقد درس في مدرسة النحو ثم أصبح كاهناً محلياً، ويعود الفضل إلى توصية من سيادتكم. والذي الآن في الجنة فلتردد روحه في سلام».

علم بيير أن ما قاله قابلٌ للتصديق جداً؛ فالعائلات النبيلة لم تعترف علنياً بأولادها اللقطاء، ولكنها قدمت يد المساعدة لهم في معظم الأحيان ولكن بتلك الطريقة العرضية التي سيقوم بها رجلٌ ما بالانحناء وسحب شوكة في براثن كلبٍ أعرج.

«كيف يُمكن أن تكون ابن كاهن مُتبتل؟» سأل الدوق فرانسوا.

«والدتي مدبرة منزله». لم يكن يُسمح للكهنة بالزواج ولكنهم غالباً

ما اتخذوا محظيات، وكانت صفة «مدبرة منزل» تورية متعارفاً عليها لإخفاء الأمر.

«إذا أنت لقيط من الجهتين».

احمر بيير خجلاً، وكان خجله حقيقياً، فلم يكن مضطراً للدعاء أنه يشعر بالحرج من محتده، ولكن تعليق الدوق شجعه أيضاً لأن هذا يعني أنهم أخذوا قصته على محمل الجد.

«حتى وإن كانت هذه الخرافة العائلية حقيقية لا يحق لك استخدام اسمنا كما تعرف».

«أعلم أنني اقررت خطأ»، قال بيير. «ولكنني كنت طوال حياتي أتطلع إلى عائلة غيز كقدوة، وأنا مستعدٌ لتقديم روحي من أجل خدمتكما. أعلم أن واجبكما يقتضي معاقبتي، ولكن استغلاني، من فضلكما. فلتعطيني مهمة وسأؤديها بكل دقة، أقسم لكما. سأقوم بأي شيء تطلبانه مني... أي شيء». هز الدوق رأسه بازدراء.

«لا يمكنني التفكير بأيّ خدمة قد تؤديها لنا».

شعر بيير باليأس، فلقد وضع قلبه وروحه في هذا الحديث ولكنه فشل، إلا أن الكاردينال شارل تدخل قائلاً:

«في الحقيقة قد يكون هناك أمرٌ يسعك القيام به». قفز قلب بيير أملاً.

بدا الدوق فرانسوا مغتاضاً قليلاً وقال: «حقاً؟». «أجل».

قام الدوق بإيماءة بيده وكأنه يقول: «تفضل».

«هناك بروتستانتيون في باريس»، قال الكاردينال شارل.

كان شارل كاثوليكياً متعصباً، وهذه ليست حقيقة مفاجئة نظراً إلى الأموال التي يكسبها من الكنيسة. كان الكاردينال محقاً بشأن البروتستانتين، فعلى الرغم من أن باريس مدينة كاثوليكية جداً حيث يرغي الوعاظ ويزبدون عن الهرطقة من على المنابر كل أحد فإن هناك أقلية تتوق إلى سماع الاتهامات الموجهة إلى الكهنة الذين يسرقون مال الكنيسة ولا يقومون بأي شيء من

أجل رعيّتهم. كان يضمّر البعض منهم عداً كبيراً بما يكفي تجاه فساد الكنيسة إلى درجة المخاطرة باقتراف جُرم حضور المراسم الدينية البروتستانتية.

تظاهر بيير بأنّه غاضب جداً: «يجب أن يُعدم مثل هؤلاء».

«سُيُعدمون»، قال شارل. «ولكن علينا أن نعثر عليهم أولاً».

«يمكنني القيام بهذا!» قال بيير على عجل.

«يجب الحصول أيضاً على أسماء زوجاتهم وأطفالهم وأصدقائهم

وأقاربهم».

«هناك العديد من زملائي في جامعة السوربون ممن يملكون ميولاً

هرطقية».

«اسأل عن الأماكن التي يشترّون منها الكتب والمنشورات التي تنتقد

الكنيسة».

كان بيع الأدبيات البروتستانتية جريمة عقابها الموت.

«سأقوم ببعض التلميحات، وسأتظاهر بأنّ لدي شكوكاً حقيقية».

«علاوة على هذا أريد أن أعرف أين يتجمع البروتستانت لتأدية طقوسهم

التجديفية».

عبس بيير فقد صعقته الفكرة. من المحتمل أنّ الحاجة إلى هذه

المعلومات لم تخطر على بال شارل في الدقائق الأخيرة. «لا بدّ أن لنيافتك

أناساً يقومون بمثل هذه التحقيقات».

«يجب ألا تعرفهم ولا أن يعرفوك أيضاً».

إذاً سيصبح بيير من الجواسيس السريين.

«سأكون أفضلهم».

«ستكافأ جيداً إن كنت كذلك».

بالكاد صدّق بيير حظه الجيد. شعر بالراحة وأراد المغادرة فوراً قبل أن

يغير شارل رأيه ولكنه تصنّع ثقةً هادئة.

«شكراً على وضع ثقتك بي أيّها الكاردينال».

«رجاءً لا تفكر بأنّي أثق بك»، قال شارل باحتقار شديد. «ولكن عندما

يريد المرء أن يقضي على المهترطين فعليه أن يستخدم كل الأدوات التي

تقع في يده».

لم يرغب بيير بالمغادرة بعد سماعه لهذه العبارة، فقد كان عليه أن يُذهل الأخوين بطريقة ما. تذكر المحادثة التي كانت تدور بينهما عندما أحضره. وقال بعد أن رمى بالحذر أدراج الرياح: «أتفق معكما على ما كُتبتما تتحدثان عنه أيها الكاردينال حول الحاجة إلى تعزيز شعبية جلالة الملك». بدا شارل كأنه حائر بين شعوره بالإهانة أو بالسعادة حيال وقاحة بيير وقال: «حقاً؟».

تابع بيير حديثه باندفاع: «ما نحتاجه الآن احتفال كبير وباذخ ومرح حتى ينسى الناس عار خسارة سان كوينتن». أوماً الكاردينال برأسه قليلاً، وشجع هذا بيير على متابعة كلامه. «احتفال ما كحفل زفاف ملكي». تبادل الأخوان النظرات وقال الدوق فرانسوا: «أتعلم، أعتقد أن هذا المتشرد على حق». أوماً شارل برأسه. «أعرف رجالاً أفضل منه ولكنهم لا يفهمون في السياسة».

ابتهج بيير وقال: «شكراً يا سيدي». فقد شارل اهتمامه ببيير ورفع قذح النبيذ ثم قال: «يمكنك الانصراف». توجه بيير إلى الباب. وقعت عيناه على لوبان، وصعقته فكرة مفاجئة فعاد أدراجه وتوجه بالحديث إلى شارل:

«يا صاحب النياقة، عندما أحصل على المعلومات عن الأماكن التي يقيم فيها البروتستانتيون طقوسهم هل أحضرها إليك أو أسلمها إلى أحد خدمك». صمت الكاردينال لوهلة وقذح النبيذ على شفثيه وقال: «أحضرها إليّ شخصياً. انصرف الآن». وشرب من قذحه.

التقت عيناه ببيير بعيني لوبان، وعبس في وجهه بانتصار وقال: «شكراً لك يا سيدي»، ثم خرج.

لفت الشاب الجذّاب انتباه سيلفي بالو في سوق السمك البارحة. لم يكن بائع سمك بل شاباً حسن الهندام في صدار مفتوح برزت من تحته بطانة بيضاء حريرية. رآته البارحة يشتري سمك السلمون ولكن بطريقة غير

مبالية ومن دون اهتمام ذلك الشخص الذي سيأكل ما يشتريه. ابتسم لها عدة مرّات، جاهدت حقاً حتى لا تشعر بالرضا عن هذا.

كان رجلاً وسيماً بشعرٍ أشقرٍ ولحيةٍ شقراءٍ ناعمة. خمنت أنه في العشرين، أي أكبر منها بثلاثة أعوام، وقد أحاطت به هالة من الاعتداد بالنفس.

تملك سيلفي معجباً وهو من عائلة موريس الذين كانوا من معارف أهلها. كان الأب والابن قصيري القامة ومرحين جداً وكأنهما يعوضان بمرحهما عن قصر قامتيهما. كان الأب لوك فاتناً وأحبه الجميع، وربما لهذا السبب كان ناجحاً جداً كسمسار بضائع، ولكن ابنه جورج، المعجب بسيلفي، كان نسخة رديئة عن والده بدعاباته السخيفة واندفاعه الأخرق. أرادته سيلفي أن يسافر لعامين وينضج.

تحدث معها المعجب الجديد في سوق السمك لأول مرة في صباح بارد من شهر كانون الثاني/يناير. كان الثلج متراكماً على ضفاف نهر السين، وتشكلت طبقات رقيقة من الجليد على الماء في براميل تجار الأسماك. حامت النوارس الجائعة شتاءً عالياً في دوائر تزعق بيأس أمام منظر الطعام الكثير.

«كيف تعرفين إن كانت السمكة طازجة أم لا؟» سأل الشاب.

«من العينين»، أجابته. «إن لم تكونا صافيتين فالسمكة غير طازجة. يجب أن تكون العينان نقيتين».

«كعينيك»، قال لها.

ضحكت. لقد كان ذكياً على الأقل على عكس جورج موريس الذي يقول أشياء غبية كسؤاله لها إن قبلها أحدٌ قبلاً.

«تفقد الغلاصم أيضاً، يجب أن تكون رطبة وبلونٍ وردي. أوه يا إلهي!» ورفعت سيلفي يدها إلى فمها. بدا كلامها كتلميحٍ بذيءٍ عن شيءٍ آخرٍ رطبٍ وورديٍ من الداخل، وشعرت بخديها يتوردان خجلاً.

بدا سعيداً بعض الشيء ولم يقل شيئاً سوى: «لن أنسى هذا». أعجبت بلباقته ومن الواضح أنه لا يشبه جورج موريس.

وقف بالقرب منها بينما اشترت ثلاث سمكات صغيرة من السلمون المرقط، ودفعت ثمنها فلساً وستة بنساتٍ. بقي معها ورافقها وهي تغادر سوق السمك.

«ما اسمك؟» سألته.

«بيير أوموند. أعلم أنك سيلفي بالو».

أحبت طريقة حديثه المباشرة وقالت له: «هل كنت تراقبني؟».

تردد بيير وبدا مُحرجاً ثم أجابها:

«أجل، أعتقد أنني كنت أراقبك».

«لماذا؟».

«لأنك جميلة جداً».

علمت سيلفي أنها تملك وجهاً واسعاً لطيفاً ببشرة نقية وعينين زرقاوين، ولكنها لم تكن واثقة من كونها جميلة لذلك قالت له: «هل هذا السبب الوحيد؟».

«أنتِ سريعة البديهة».

إذاً هناك سببٌ آخر، ولم يسعها سوى الشعور بالخيبة. كان من العيب أن تُصدق ولو للحظة أنه كان مأخوذاً بجمالها، وعرفت أنه سينتهي بها المطاف مع جورج موريس.

«من الأفضل أن تخبرني»، قالت وهي تحاول ألا تفضح خيبة أملها.

«هل سمعتِ قبلاً عن إيراسموس من روتردام؟».

بالطبع سمعت عنه، وشعرت سيلفي بشعر ساعديها يقف. لقد نسيت لوهلة أنها وعائلتها من المجرمين ومعرضين للإعدام إن أمسك بهم، ولكنها شعرت الآن بعودة ذلك الخوف المؤلف.

لم تكن بذلك الغباء لتجيب على السؤال حتى وإن كان سؤالاً من رجلٍ وسيم. وأخذت تفكر لدقائق بجوابٍ مراوغ.

«لم تسأل هذا السؤال؟».

«أنا طالبٌ في الجامعة، وعلمونا أن إيراسموس رجلٌ شرير أسس البروتستانتية، ولكني أرغب بقراءة أعماله، وهم لا يملكون كتبه في المكتبة».

«كيف لي أن أعلم بمثل هذه الأمور».

هزَّ بيير كتفيه وقال: «والدك يطبع الكتب، أليس كذلك؟».

راقبها ولكن لم يكن بإمكانه معرفة الحقيقة.

كانت سيلفي وعائلتها في مهمة إلهية؛ فواجههم الديني يُملي عليهم

مساعدة مواطنيهم في تعلم الدين الحقيقي، وأدوا هذا الواجب من خلال بيع الكتب، وبالتحديد الإنجيل بالفرنسية حتى يفهمه الجميع، ويرون بأنفسهم حجم الخطأ الذي ترتكبه الكنيسة الكاثوليكية، ولكنهم باعوا أيضاً شروحاً لمعلمين من أمثال إيراسموس الذي شرح كل شيء بوضوح للقراء الذين قد لا يصلون إلى الاستنتاجات الصحيحة من دون مساعدة.

يخاطرون في كل مرة يبيعون فيها كتاباً، فعقوبة ما يفعلونه الإعدام. «ما الذي يدفعك إلى الاعتقاد أننا نبيع مثل هذه الكتب؟ إن بيعها مخالف للقانون»، قالت سيلفي.

«هناك طالب قال إنكم قد تبيعونها. هذا كل ما في الأمر».
إذاً الأمر مجرد إشاعة فقط، ولكن هذا أمر مقلقٌ بحد ذاته.
«أخبره من فضلك أننا لا نبيعها».
«حسناً»، قال وبدا خائب الظن.

«ألا تعلم أن المطابع عرضة لتفتيش الكتب الممنوعة في أي وقت؟ لقد تمّ تفتيش مطبعتنا عدة مرات، وسمعتنا لا تشوبها شائبة».
«تهاني».

خطا بضع خطواتٍ بجانبها ثمّ توقف.
«على أيّ حال إنه لمن دواعي سروري أن أقابلك».
«انتظر»، قالت سيلفي.

كان معظم زبائنهم الذين يشترون المنشورات الممنوعة أناساً يعرفونهم، رجالاً ونساءً يؤدون معهم، وجنباً إلى جنب، الصلوات المحظورة في مواقع سرّية، وبعضهم يأتون بناءً على توصية من مناصر ديني معروف. كانوا خطرين لأنهم إن اعتقلوا فغالباً ما سيترفون بكل شيء.

يخاطر البروتستانتيون جداً في الحديث مع الغرباء عن دينهم، ولكنها الطريقة الوحيدة لنشر كلام الإنجيل. كان عمل سيلفي كسب الكاثوليكين ليتحولوا إلى البروتستانتية، وها هي الفرصة تُتاح أمامها لفعل هذا، وإن تركته يذهب قد لا تراه مجدداً.

بدا يبصر صادقاً، وقد اقترب منها بحذر وكأنه خائفٌ بحق، علاوة على

هذا فهو لا يبدو كشخصٍ ثرثارٍ أو مخادعٍ أو أحمقٍ أو سكيرٍ. لم يكن بوسعها التفكير بسببٍ يدعوها إلى رفضه.

هل السبب الذي دفعها لتكون أكثر استعداداً للمخاطرة، مقارنة بالأحوال العادية، أنّ هذا الشخص الذي قد يهتدي جذاب ويبدو أنّه منجذبٌ إليها؟ قالت في نفسها إنّ هذا السؤال لا صلة له بالموضوع.

كان عليها أن تضع حياتها على المحك وتصلي لله أن يحميها. «تعال إلى المتجر بعد ظهر اليوم»، قالت له. «أحضر معك أربعة جنيهاً. اشترِ نسخة من كتاب قواعد اللغة اللاتينية، ولا تذكر اسم إيراسموس بأيّ حالٍ من الأحوال».

بدا مشدوهاً من الحسم المفاجئ الذي أبدته ولكنه قال: «حسناً». ثمّ وافيني في سوق السمك عند هبوط الليل. ستكون الواجهة المائية خالية في مثل ذلك الوقت. أحضر معك كتاب القواعد». «ثمّ ماذا؟».

«ثمّ ضع ثقتك في الله». استدارت وابتعدت دون انتظار جواب. بينما توجهت إلى منزلها عائدة أخذت تصلي للرب أن يكون ما قامت به الصواب.

إنّ باريس مقسّمة إلى ثلاثة أقسام. يدعى القسم الأكبر منها «البلدة» ويقع على الجانب الشمالي من نهر السين والمعروف باسم «الضفة اليمنى». أمّا القسم الأصغر الذي يقع جنوب النهر على الضفة اليسرى فيسمى «الجامعة» وأحياناً بـ«الرُبع اللاتيني» لأنّ معظم الطلاب فيه يتحدثون باللاتينية. تدعى الجزيرة في الوسط بـ«المدينة» وهناك عاشت سيلفي.

يقع منزل سيلفي بالقرب من كاتدرائية نوتردام، ويحتل المتجر الطابق الأرضي من المنزل حيث وضعت الكتب في خزائن بواجهة شبكية وأبواب مُقفلة. عاشت سيلفي مع والديها في الطابق العلوي، وفي الخلف جرت عمليات الطباعة. تناوبت سيلفي مع والدتها إيزابيل على الاهتمام بالكتب عندما يعمل والدها غيلز الذي لم يكن بائعاً ماهراً في ورشة الطباعة.

قامت سيلفي بطهي السلمون مع البصل والثوم في المطبخ بالأعلى، ووضعت الخبز والنيذ على الطاولة. ظهرت هرّتها فيفي فجأة، ورمت لها

سيلفي رأس سمكة. أخذت الهرة تأكل بهدوء وبدأت بالتهام العينين أولاً. شعرت سيلفي بالقلق حيال ما فعلته هذا الصباح. هل سيأتي الطالب؟ أم سيأتي بدلاً منه مأمور مع مجموعة من الرجال المسلحين لاعتقال كل العائلة بتهمة الهرطقة؟

بدأ غيلز بتناول الطعام الذي قدمته سيلفي. كان رجلاً قوياً ويعود هذا إلى حمل ألواح الطباعة الثقيلة المصنوعة من خشب الصنوبر والمليئة بالحروف المطبعية المصنوعة من مزيج الرصاص. إن كان مزاجه سيئاً فهو قادر على ضرب سيلفي والإطاحة بها إلى الجانب الآخر من الغرفة بساعده الأيسر، ولكن سمك السلمون كان جيداً وطرياً وغيلز في مزاج مرح.

عندما أنهى تناول طعامه جلست سيلفي في المتجر بينما تناولت إيزابيل طعامها ثم تبادلنا الأماكن ولكن لم تكن لدى سيلفي شهية للطعام. بعد انتهاء الوجبة عادت سيلفي إلى المتجر. لم يكن هناك زبائن وقالت إيزابيل على الفور:

«ما الذي يُقلقك؟».

أخبرتها سيلفي عن بيير أوموند.

بدأت إيزابيل قلقة وقالت لها: «كان يُفترض بك أن ترتبي معه موعداً آخر للقاءه لتعرفي المزيد عنه قبل أن تطلبي منه القدوم إلى المتجر.»

«أعلم، ولكن ما السبب الذي قد أقدمه لأدعوه إلى لقاءٍ آخر؟» حدقت إيزابيل نحوها بنظرة خبيثة. تابعت سيلفي كلامها: «لست ماهرة في المغازلة وأنت تعلمين هذا. أنا آسفة.»

«يسعدني هذا»، قالت إيزابيل. «وذلك لأنك صادقة جداً. على أي حال يجب علينا أن نُخاطر، هذا هو الصليب الذي علينا أن نحمله.»

«أرجو فقط ألا يكون من ذلك النوع الذي يؤنبه ضميره، ويفصح بكل شيء إلى كاهن الاعتراف.» قالت سيلفي.

«يُحتمل أنه من النوع الذي يخاف ويتراجع، وعلى الأغلب لن تريه مجدداً.»

لم يكن هذا ما أملت به سيلفي، ولكنها لم تقل شيئاً.

توقف حديثهما بسبب دخول زبون، ونظرت سيلفي إلى الزبون بفضول.

كان معظم الناس الذين يدخلون إلى المتجر أشخاصاً متأنقين؛ فالفقراء لا يستطيعون شراء الكتب. كانت ثياب هذا الشاب عملية ولكنها عادية ومهترئة جداً، ومعطفه الثقيل مُلطخاً وجزمته المتينة مُغبرة، لا بدّ أنه مسافر. بدا مرهقاً وقلقاً، وشعرت سيلفي بالشفقة عليه.

«أرغب بالتحدث إلى غيلز بالو»، قال بلهجة غريبة عن المنطقة.
«سأخبره»، قالت إيزابيل وغادرت المتجر متوجهة إلى المعمل في الخلف.

شعرت سيلفي بالفضول حيال ما يريده هذا المسافر من والدها عدا شراء كتاب ما. أخذت تحقق معه وسألته: «هل أتيت من مكان بعيد».

قُبِل أن يجيب الرجل دخل زبونٌ آخر عرفته سيلفي. كان كاهناً في الكاتدرائية. حرصت سيلفي وأُمّها على الانحناء باحترام للكهنة. لم يكن غيلز ينحني لهم ولكنه كان شكساً مع الجميع.

«طاب نهارك يا رئيس الشمامسة رافيل، تسعدنا رؤيتك على الدوام».
بدا الشاب في العباء القدرة قلقاً على حين غرة، وتساءلت إن كان هناك سبب يدفعه إلى كره رؤساء الشمامسة.
«هل لديك نسخة من المزامير؟».

«بالطبع»، قالت سيلفي وفتحت خزانة ثمّ أخرجت نسخة لاتينية من الكتاب وقد افترضت أنّ رافيل لا يريد نسخة بترجمة فرنسية حتى وإن كانت الكلية اللاهوتية في السوربون قد وافقت عليها. افترضت أنّ رئيس الشمامسة يرغب بشراء هدية فلا بدّ أنّه يملك الإنجيل كاملاً.

«ستكون هدية جميلة»، قالت سيلفي. «صفحة الغلاف الخارجي ذهبية وتمت الطباعة بلونين».

قلّب رافيل الصفحات وقال: «إنّها ظريفة جداً».

«ثمّنها خمسة جنيهات»، قالت سيلفي. «وهذا سعر منطقي». كان المبلغ يعتبر ثروة صغيرة للناس العاديين، ولكن رؤساء الشمامسة لم يكونوا من الناس العاديين.

في هذا الوقت دخل زبون ثالث وميزت سيلفي بيير أوموند. شعرت ببعض السعادة لدى رؤيتها لوجهه المبتسم، وأملت أنّها على حق باعتقادها

آته حذر. سيكون الوضع كارثياً إن أخذ يتحدث عن إيراسموس أمام رئيس الشمامسة ورجل غريب.

ظهرت والدتها من القسم الخلفي من المتجر، وأخذت تتحدث مع المسافر.

«سيوافيك زوجي خلال دقيقة». عندما رأت إيزابيل أن سيلفي مشغولة في خدمة رئيس الشمامسة التفتت إلى الزبون الآخر وقالت له: «هل تريدني أن أحضر لك شيئاً يا سيدي؟».

لفتت سيلفي انتباه أمها بأن فتحت عينها قليلاً في تحذير إلى أن آخر الداخلين إلى المتجر هو الطالب الذي كانتا تتحدثان عنه. استجابت إيزابيل بإيماءة غير ملحوظة دلالة على أنها فهمت ما رمت إليه سيلفي. أصبحت الأم والابنة بارعتين في التواصل الصامت في حياتهما مع غيلز. «أحتاج إلى نسخة من كتاب قواعد اللاتينية»، قال بيير.

«فوراً»، قالت إيزابيل وتوجهت إلى الخزانة المناسبة، عثرت على الكتاب وأحضرتة إلى المنضدة.

ظهر غيلز من القسم الخلفي للمتجر. أصبح عدد الزبائن الآن ثلاثة واثان منهم تتم خدمتهما، ولهذا افترض أن الثالث هو الشخص الذي طلب رؤيته. «ماذا تريد؟» سأل غيلز. كان سلوكه في العادة فظاً، ولهذا السبب حاولت إيزابيل على الدوام أن تبقى بعيداً عن المتجر.

تردد المسافر وبدا مضطرباً.

«هل طلبت رؤيتي؟» قال غيلز بنفاد صبر.

«آه... هل لديك كتاب مصور عن قصص الإنجيل بالفرنسية».

«بالطبع لدي»، قال غيلز. «إنه من أفضل الكتب مبيعاً لدي، ولكن كان بإمكانك أن تطلبه من زوجتي بدلاً من جرّي إلى هنا وتعطيلي عن عملي في المطبعة».

تمنّت سيلفي وقتها، ولم تكن هذه المرة الأولى، لو كان والدها أكثر لطفاً مع الزبائن. ولكن كان من الغريب أن يطلبه المسافر بالاسم قبل أن يخترع مثل هذا الطلب العادي. حدقت نحو والدتها ورأت على وجهها تقطية بسيطة تشير إلى أنها سمعت طلباً غير طبيعي.

لاحظت سيلفي أن بيير يصغي إلى المحادثة باهتمام واضح كاهتمامها. «يجب على الناس أن يسمعون قصص الإنجيل من كاهن أبرشيتهم. إن بدؤوا بالقراءة بأنفسهم، فلن يصلوا إلى العبرة الصحيحة». قال رئيس الشماسة متذمراً، ووضع العملات الذهبية على المنضدة ثمناً لكتاب المزامير الذي اشتراه.

قالت سيلفي في نفسها إنهم قد يفهمون العبرة الصحيحة بأنفسهم. فيما مضى عندما لم يكن بوسع الناس قراءة الإنجيل، كان الكهنة قادرين على قول ما أرادوه، وهذه الطريقة التي أحبوها. شعروا بالرعب من أن يشع نور كلمة الرب في تعاليمهم وممارساتهم.

«تماماً يا صاحب النيافة. أعتقد، وأنا الطالب المتواضع، أن موقفنا يجب أن يكون قوياً أو سننتهي بطائفة خاصة لكل إسكافي وحائك». قال بيير صاغراً.

كان الحرفيون المستقلون كالإسكافيين والحائكين أكثر الناس استعداداً لدخول البروتستانتية؛ فعملهم يمنحهم وقتاً للتفكير وحدهم، كما افترضت سيلفي، وهم لا يخافون من الكهنة والنبلاء كما يخاف الفلاحون، ولكن فوجئت سيلفي بهذه الملاحظة الاعتراضية الماكرة من بيير بعد أن أظهر اهتمامه بالأدبيات التي تدحض ما جاءت به الكنيسة الكاثوليكية. نظرت بفضول نحوه، وغمز لها بعينه غمزة كبيرة.

كان سلوكه جذاباً حقاً.

أشاحت سيلفي نظرها بعيداً وتابعت تغليف كتاب رئيس الشماسة بقطعة كتانية خشنة ولفتها بخيط.

بدا كأن النقد الذي أبداه رئيس الشماسة قد قمع المسافر.

«لا يلتقي نصف الناس في فرنسا بكهنتهم»، قال المسافر بتحديد. وفكرت سيلفي في نفسها أن هذه مبالغة ولكن الحقيقة هي أن الكثير من الكهنة يستغلون منصبهم ويأخذون مدخول الكنيسة ولا يزورون رعيتهم أبداً.

كان رئيس الشماسة يعلم هذا، ولكن لم يكن لديه جواب. تناول الكتاب الذي اشتراه وغادر غاضباً.

«هل أغلّف لك كتاب القواعد؟» توجهت إيزابيل بالسؤال للطالب.

«أجل، من فضلك». وأعطاهما أربعة جنيهات.

«هل تريد هذا الكتاب المصور أم لا؟» سأل غيلز المسافر.

انحنى المسافر فوق الكتاب الذي عرضه عليه غيلز وتفحص الرسومات. «لا تستعجلني»، قال بحزم. لم يكن خائفاً من مجادلة رئيس الشمامسة وبدا غير متأثر بسلوك غيلز المتمرم.

كان الرجل يخفي أكثر مما يوحي به مظهره القدر.

تناول بيير الرزمة وغادر، ولم يبق في المتجر سوى زيون واحد. شعرت سيلفي وكأنّ المدّ قد تراجع.

أطبق المسافر الكتاب بقوة واستقام في وقفته ثمّ قال:

«أنا غيوم من جنيف».

سمعت سيلفي إيزابيل تشهق قليلاً.

تغير سلوك غيلز، وتناول يد غيوم وقال: «أهلاً بك، أنت على الرحب والسعة. تفضل إلى الداخل». وقاده إلى الطابق العلوي حيث يقع القسم العائلي.

لم تفهم سيلفي كل شيء، فقد كانت تعرف أنّ جنيف مدينة بروتستانتية مستقلة يسيطر عليها جون كالفن العظيم، ولكنها تبعد مئة وخمسين ميلاً، وهي رحلة تتطلب بضعة أسابيع أو أكثر.

«ما الذي يفعله الرجل هنا؟» سألت سيلفي.

«تُدرب كلية القساوسة في جنيف المُبشرين، وترسلهم إلى جميع أنحاء أوروبا ليعشروا بالإنجيل الجديد»، شرحت لها إيزابيل. «كان آخرهم ألفونسي عندما كُنْتُ في الثالثة عشرة».

«ألفونسي!» قالت سيلفي وتذكرت شاباً متحمساً تجاهلها. «لم أفهم حقاً

لماذا عاش هنا».

«إنهم يحضرون لنا كتابات كالفن وأعمالاً أخرى حتى ينسخها والدك

ويطبعها».

شعرت سيلفي بنفسها غيبة فهي لم تتساءل يوماً عن مصدر كُتب

البروتستانتيين.

«لقد حلّ الظلام في الخارج»، قالت إيزابيل. «من الأفضل أن تأخذي

نسخة من كتاب إيراسموس إلى الطالب».

«ما رأيك به؟» قالت سيلفي بينما ارتدت معطفها.

ابتسمت لها إيزابيل ابتسامة العارف. «إنه شيطانٌ وسيم حقاً».

كان سؤال سيلفي لأمها عن شخصية بير وليس عن مظهره، ولكن بعد التفكير لم تحرص على متابعة الحديث خوفاً من أن تتعاضم مخاوفها. تمتت بجوابٍ مبهم وغادرت.

توجهت شمالاً وقطعت النهر. كان الصاغة وصانعو القبعات على جسر نوتردام يستعدون لإغلاق متاجرهم. مشت سيلفي على طول شارع سان مارتان في القسم الذي يطلق عليه «البلدة» في باريس، وتجاوزت التقاطع الشمالي الجنوبي الرئيسي. وصلت بعد مرور عدة دقائق إلى شارع دو مير الذي كان أشبه بزقاق مما هو شارع. من جهة كان هناك جدار المدينة، ومن الجهة الأخرى بضعة مخارج منزلية خلفية وسياج عالٍ يطوق حديقة مهمة. توقفت سيلفي بالقرب من إسطلب خلف منزل عاشت فيه عجوز لا تملك أحصنة. كان الإسطلب من دون نوافذ وغير مطلي وله مظهر بيت شبه مهمل أعيد ترميمه ولكنه مبني بشكل متين مع باب قوي وقفلٍ مُحكم وثقيل كان قد اشتراه غيلز منذ سنوات.

قرب عضادة الباب هناك نصف قطعة طوب متحركة، وقبل أن تقوم سيلفي بأي شيء حرصت أولاً على تفقد المكان خوفاً من أن يكون مراقباً، وسحبت قطعة الطوب ثم مدت يدها إلى داخل الفجوة وتناولت مفتاحاً، وأعدت قطعة الطوب إلى مكانها. أدارت المفتاح في الباب، ودخلت ثم أغلقت وأوصدته جيداً خلفها.

كان هناك مصباح بداخله شمعة على حاملٍ عند الحائط. أحضرت سيلفي معها علبة تحوي على أدوات لإشعال نار كحجر صوّان، وقطعة فولاذية لها شكل حرف D كبير تلتف تماماً حول أصابعها النحيلة، وبعض قطع الخشب الجاف، وقطعة من الكتان. عندما قدحت حجر الصوّان بالحرف، تطايرت الشرارات إلى العلبة وأشعلت القطع الخشبية التي بدأت تحترق بسرعة، ثم أشعلت نهاية القطعة الكتانية، واستخدمتها لإشعال المصباح.

أضاء الضوء المتذبذب للمصباح المكان وكشف عن جدار من البراميل القديمة المكدسة من الأرضية وحتى السقف. كان معظمها مملوءاً بالرمل

وثقيلاً جداً على شخصٍ واحد لكي يحمله، ولكن بعضها فارغ. بدت جميع البراميل متشابهة، ولكن سيلفي تعرف الفرق بينها. تحركت بسرعة ونقلت بضعة براميل ثم دخلت من الفجوة. خلف البراميل كان هناك صندوق من الكتب.

كانت أعظم لحظات الخطر التي تحدد بعائلة بالو هي عند طباعة الكتب الممنوعة، وتنظيفها في ورشة غيلز، لأن مصيرهم سيكون الموت إن تمت الإغارة على المكان في هذا الوقت غير المناسب. ولكن عندما ينتهي العمل على الكتب يتم توضيها في صناديق مع طبقة علوية من الكتب القانونية التي توافق عليها الكنيسة الكاثوليكية كنوع من التمويه، ثم تُنقل في عربة إلى المخزن، وتعاود الورشة العمل على طبع الكتب القانونية. كانت معظم الكتب المسموح بها من قبل الكاتدرائية قانونية تماماً.

هناك ثلاثة أشخاص فقط يعلمون بأمر هذا المخزن وهم غيلز وإيزابيل وسيلفي. لم تعرف سيلفي بأمره إلى أن بلغت السادسة عشرة، وحتى العمال في معمل الطباعة لم يعلموا بأمره رغم أن جميعهم من البروتستانتين، وقد تم إخبارهم جميعاً أن الكتب تُسلم إلى تاجر سري يبيع الكتب بالجملة.

عثرت سيلفي على الصندوق الذي يحمل الحرفين سين وألف وهما اختصار للكلمتين سيليني ألتشيبيدس⁽¹⁾ المأخوذتين من عنوان أهم أعمال إيراسموس. أخرجت نسخة وغلفتها بقطعة من القماش الكتاني أخذتها من كومة قماش قريبة منها، ثم ربطتها بخيط. أعادت ترتيب البراميل كيلا تظهر صناديق الكتب للعيان، وعادت الغرفة مجرد غرفة ممتلئة حتى نصفها بالبراميل.

عادت من نفس الطريق الذي أتت منه عبر شارع سان مارتان، وتساءلت إن كان الطالب سيأتي. لقد أتى إلى المتجر كما اتفقا، ولكن قد يتراجع الآن، أو قد يحدث ما هو أسوأ، فقد يأتي مع موظف رسمي ويُلقى القبض عليها. لم تكن خائفة من الموت بالطبع كما هي حال أي مسيحي حقيقي، ولكنها ارتعبت من فكرة التعرض للتعذيب. كان لديها تصورات عن كماشات حارة جداً تخرق لحمها، وكانت تدفع بهذه الصور بعيداً عن مخيلتها بتلاوة صلاة في صمت.

كانت الواجهة البحرية هادئة ليلاً، وأكشاك تجار السمك مقفلة، والنوارس قد غادرت المكان لتنبش في القمامة بمكان آخر، فيما النهر يلثم الشاطئ بهدوء. انتظرها بيير هناك ويده مصباح. كان وجهه مضاءً من الأسفل، وبدا وسيماً بشكل مخيف. كان يقف وحده.
رفعت الكتاب، ولكن لم تعطه إياه ثم قالت:
«لا يجب أن تخبر أحداً أنك تملكه، فقد أواجه عقوبة الإعدام على بيعه لك».

«أفهم»، قال لها.
«أنت أيضاً ستعرض حياتك للخطر إن أخذته مني».
«أعلم».
«إن كنت واثقاً من أنك تريده، خذه وأعد لي كتاب قواعد اللغة اليونانية».
تبادلا الكتابين اللذين كانا يحملانهما.
«وداعاً»، قالت سيلفي. «وتذكر ما قلته لك».
«سأفعل»، وعدها ثم قبلها.

هرعت أليسون ماكي عبر الأروقة المفتوحة لقصر تورنيل تحمل أخباراً صادمة إلى أعز صديقاتها.
كان على صديقتها أن تفي بوعدٍ لم تقدمه قط. ورغم أن حدوث الأمر متوقع منذ سنوات فإنه كان صادماً. كانت أخباراً جيدة وسيئة في آنٍ معاً.
كان القصر المبني على الطراز القروسطي على الجانب الشرقي من باريس كبيراً ومتهاكماً. رغم أنه الباذخ فإنه كان بارداً وغير مريح. كان مبني مهيباً ولكنه مُهمل كقاطنته الحالية ملكة فرنسا كاترينا دي ميديتشي زوجة الملك الذي فضّل عشيقته عليها.
دخلت أليسون إلى غرفة جانبية وعثرت على من تبحث عنها.
جلس مراهقان على الأرضية قرب النافذة يلعبان الورق في ضوء الشمس الشتائية الغادرة. أوحى ملبسهما ومجوهراتهما بأنهما من أغنياء العالم، ولكنهما كانا يُقامران بحماسة مقابل بنسات ويمضيان وقتاً رائعاً.
كان الفتى في الرابعة عشرة ولكن بنيته غير مكتملة النمو بعد وبدا

ضعيفاً. كان في بداية سن البلوغ، ويتلعثم عندما يتحدث بصوته المتكسر. إنه فرانسيس وهو أكبر أبناء الملك هنري الثاني والملكة كاترينا ووريث عرش فرنسا. أما الفتاة فكانت صهباء جميلة وطويلة جداً بعمر الخامسة عشرة وتفوق بطولها الرجال. كان اسمها ماري ستوارت وهي ملكة إسكتلندا.

عندما كانت ماري في الخامسة وأليسون في الثامنة انتقلتا من إسكتلندا إلى فرنسا. كانتا مجرد فتاتين خائفتين في بلد غريب لا تفهمان فيه أي كلمة تُقال لهما. أصبح فرانسيس المريض صديقها في اللعب، ونما بين الثلاثة ارتباط قوي كالارتباط الذي ينشأ بين من يواجهون محنةً معاً.

كان لدى أليسون شعور أمومي نحو ماري التي تحتاج إلى الحماية أحياناً بسبب نزعتها للتصرف بعفوية وطيش. كانت كلتا الفتاتين مغرمتين بفرانسيس وكأنه جرو أو هرة صغيرة مسكينة، أما فرانسيس فكان يعبد ماري وكأنها إلهة.

أما الآن فمثلث الأصدقاء يواجه خطر التفكك أو ربما التدمير.

نظرت ماري وابتسمت ثم رأت تعابير أليسون وشعرت بالخطر ثم قالت: «ما الأمر؟» تحدثت بفرنسية خالية من أي لكنة إسكتلندية. «ماذا حدث؟».

باحث أليسون على الفور بكل شيء.

«ستتزوجان يوم الأحد بعد عيد الفصح».

«قريباً جداً!» قالت ماري ونظرت الفتاتان إلى فرانسيس.

أعلنت خطوبة ماري إلى فرانسيس عندما كانت في الخامسة وقبل أن تنتقل للعيش في فرنسا. كانت الخطوبة لأغراض سياسية ككل الخطوبات الملكية، والهدف منها تعزيز التحالف بين فرنسا وإسكتلندا في مواجهة إنكلترا. لكن عندما كبرت الفتاتان أخذتا تشكان باحتمال حصول الزفاف أصلاً؛ فالعلاقات بين الممالك الثلاث تتغير باستمرار.

لطالما تحدث الوسطاء السياسيون في لندن وإدنبره وباريس عن أزواج آخرين لماري ستوارت، ولكن لم يُحسم الأمر حتى هذه اللحظة.

بدا الكرب على وجه فرانسيس.

«أحبك»، قال لماري. «أريد أن أتزوجك عندما أصبح رجلاً».
مدّت ماري يدها لتمسك يده بتعاطف ولكنه كان قد انهار وانخرط في
البكاء ثم نهض مترنحاً على قدميه.

«فرانسيس-» قالت أليسون.

هزّ رأسه بيأس ثم هرع راكضاً من الغرفة.

«يا إلهي»، قالت ماري. «فرانسيس المسكين».

أغلقت أليسون الباب، وأصبحت الفتاتان وحدهما الآن. مدّت أليسون
يدها إلى ماري وساعدتها على النهوض عن الأرض. جلستا على أريكة
مغطاة بقطعة مخملية نفيسة ذات لون كستنائي وأيديهما مازالت متشابكة.
جلستا بهدوء لدقيقة ثم قالت أليسون:

«كيف تشعرين؟»

«لطالما أخبروني بأنّي ملكة»، قالت ماري. «لم أكن ملكة حقاً. لقد
أصبحت ملكة إسكتلندا عندما كان عمري ستة أيام، ولم يتوقف الناس عن
معاملتي كطفلة. ولكن إن تزوجت فرانسيس، وأصبح الملك سأصبح ملكة
فرنسا، وهذا شيءٌ حقيقي». لمعت الرغبة في عينيها. «وهذا ما أريده».

«ولكن فرانسيس...»

«أعلم، إنّه لطيف وأحبه، ولكن أن أنام معه في سرير وكما تعلمين...»

أومأت أليسون بقوة ثم قالت: «بالكاد يُمكن التفكير بالأمر».

«ربما نتمكن أنا وفرانسيس من الزواج والتظاهر».

هزّت أليسون رأسها: «سيُطل الزواج عندها».

«ولن أصبح ملكة».

«تماماً».

«لم يحدث هذا الآن؟ ما الذي استجد؟»

علمت أليسون من الملكة كاترينا، أكثر الأشخاص اطلاعاً على مجريات
الأمر في فرنسا، أن الرجل صاحب الوجه ذي الندبتين اقترح الأمر على
الملك. كان الدوق غيز خال ماري، وقد ارتفعت مكانة العائلة بعد النصر
الذي حققته في كاليه.

«لماذا يهتم الخال ذو الندبتين بالأمر؟».

«فكري كيف أنّ مكانة عائلة غيز ستعزز إن أصبح أحد أفرادها ملكاً لفرنسا».

«ذو الندبتين جندي».

«أجل، لا بدّ أنّها فكرة شخصٍ آخر».

«ولكن فرانسيس..».

«الأمر كله يتوقف على فرانسيس الصغير، أليس كذلك؟».

«إنّه صغيرٌ جداً»، قالت ماري. «ومريضٌ أيضاً. هل هو قادر على القيام

بما يُفترض على الرجل أن يفعله مع زوجته؟».

«لا أعلم»، قالت أليسون. «لكنك ستعرفين هذا يوم الأحد بعد عيد

الفصح».

الفصل الثالث

حلّ شهر شباط/ فبراير ومارجوري ووالداها ما زالوا في ورطة؛ فالسير ريجنالد والليدي جاين مصممان على تزويج مارجوري من بارت ولكن مارجوري أعلنت أنّها لن تقدم أيّ نذور زواج في حفل الزفاف. كان رولو غاضباً منها لأنّها تملك فرصة رفع مكانة العائلة إلى مصافي النبلاء الكاثوليكين، ولكن بدلاً من هذا أرادت أن تتحالف مع عائلة ويلارد ذات الميول البروتستانتية. لم يكن بوسعه تخيل مثل هذه الخيانة منها خاصّة أنّ الملكة تفضّل الكاثوليكين على جميع الصعد.

تُعد عائلة فيتزجيرالد من العائلات الرئيسية في البلدة ومظهرها الخارجي يوحي بهذا، هذا ما فكر به رولو فيما وقفت العائلة في الردهة لارتداء المعاطف الدافئة والجرس العظيم في برج الكاتدرائية يدعو الناس إلى القداس. السير ريجنالد رجلٌ طويل ونحيل، ومنحه النمش الذي شوه وجهه علامة فارقة من نوع ما. ارتدى ريجنالد عباءة ثقيلة من قماش بلون كستنائي، أمّا الليدي جاين فكانت ضئيلة البنية ونحيلة بأنفٍ حادٍ وعينين تتحركان بسرعة ولا يفوتهما شيء، وقد ارتدت معطفاً مبطناً بالفرو. وكوالدتها كانت مارجوري قصيرة القامة إلا أنّها أكثر امتلاءً منها، وارتسم على محياها الغضب لأنّها مُنعت من الخروج من المنزل منذ حفلة الإيرل، ولكن لم يكن بالإمكان حبسها إلى الأبد. سيكون أسقف كينغزبريدج في القداس هذا الصباح، وهو حليفٌ قوي لن تُخاطر عائلة فيتزجيرالد بالإساءة إليه بعدم أخذ مارجوري إلى القداس.

عقدت مارجوري العزم بكل وضوح على ألا تُظهر الحالة المزرية التي تشعر بها، ولذلك ارتدت معطفاً من قماش كينغزبريدج القرمزي وقبعة

باللون نفسه. كانت قد كبرت خلال العام الماضي، وأصبحت من أجمل فتيات البلدة، حتى رولو كان يعتقد أنها أجملهن.

كان العضو الخامس في العائلة عمّة رولو الكبيرة والراهبة السابقة في دير كينغزبريدج، وهي تعيش مع عائلة فيتزجيرالد منذ إغلاق الدير بأمر من الملك هنري الثامن. حولت غرفتها في الطابق العلوي من المنزل إلى دير، حيث أصبحت غرفة النوم صومعة وغرفة الجلوس كنيسة صغيرة. شعر رولو بالاحترام الشديد تجاهها بسبب ورعها، والجميع ناداها باسم الأخت جوان. ورغم أنها الآن طاعنةٌ جداً في السن وضعيفة وتمشي على عكازين، فإنّها تصرّ على الذهاب إلى الكنيسة عندما يأتي الأسقف يوليوس. كانت الخادمة نايومي تحمل كرسيّاً إلى الكاتدرائية من أجل الأخت جوان لأنّها لم تكن قادرة على الوقوف لساعة كاملة.

وخرجوا من المنزل معاً. كانوا يعيشون عند مفترق طرق أعلى الشارع الرئيسي قبالة غيلد هول الذي يُعد موقفاً بارزاً في المدينة. توقف السير ريجنالد للحظة وتأمّل الشوارع المتراصة والقريبة كسلالم باتجاه النهر. هطل ثلجٌ خفيف على الأسطح القشبيّة والمداخن التي خرج منها الدخان. وعلا وجه ريجنالد تعبير يشي بفخره بمدينته.

تقدّم عمدة البلدة مع عائلته في موكب مهيب عبر الشارع الرئيسي وحيّاهم الجيران باحترام. ألقى عليهم الجيران الأثرياء التحية، وتمنوا لهم صباحاً جيداً، بينما لمس الجيران من الفقراء قبعاتهم بهدوء كنوع من التحية. لاحظ رولو في ضوء النهار أنّ معطف والدته مهترئ وقد أكله ألعت قليلاً، وتمنى ألا يلاحظ أحد هذا. لسوء الحظ لم يملك والده المال لشراء ملابس جديدة؛ فالأعمال لم تكن تسير على ما يرام في ميناء كومب حيث عمل السير ريجنالد مسؤولاً جمركياً عن استلام البضائع. لقد استولى الفرنسيون على ميناء كاليه، والحرب مستمرة، ولذلك تراجعت جداً الحركة في قناة الشحن. وعند اقترابهم من الكاتدرائية، مروا بالقرب من السبب الآخر لأزمة العائلة المالية ألا وهو المنزل الجديد الذي سيطلق عليه اسم برايوري غيت. يقع المنزل على الجانب الشمالي من ساحة السوق على أرضٍ قريبة من منزل رئيس الدير قديماً عندما كان هناك دير. تراجعت وتيرة العمل على بناء

المنزل إلى درجة أنها توقفت، فقد انتقل معظم البناؤون إلى أمكنة أخرى للعمل لدى أناسٍ آخرين يملكون المال ويدفعون لهم. ارتفع سياجُ خشبي مرتجل لمنع الفضوليين من الدخول إلى البناء غير المكتمل.

امتلك السير ريجنالد أيضاً مجمعاً من أبنية الدير على الجانب الجنوبي من الكاتدرائية: الأروقة المسقوفة ومطبخ الرهبان والمهجع ودير الراهبات والإسطبلات. عندما حلَّ الملك هنري الثامن الأديرة تمَّ التصرف بملكياتها إمّا بالمنح أو البيع إلى أقطاب محلّيين وقد حصل السير ريجنالد على الدير. كانت معظم هذه الأبنية القديمة والمهملة لعقود متداعية حالياً فقد عششت الطيور بين عوارض الأسقف الخشبية، وتسلق نبات العليق الأروقة المسقوفة، ولهذا قد يقوم السير ريجنالد ببيع العقار إلى الكنيسة.

ارتفعت الكاتدرائية بأبهة بين قطعتي أرض مهملتين ومن دون أدنى تغيير منذ مئات السنين كالإيمان الكاثوليكي الذي تمثله. حاول البروتستانتيون على مدار أربعين سنة ماضية تغيير العقيدة المسيحية التي تُعلّم هنا منذ وقتٍ طويل، وتعجب رولو من مدى وقاحتهم على فعل هذا. كان الأمر أشبه بتركيب نوافذٍ عصريةٍ على جدران الكنيسة. إنّ الحقيقة أبدية كهذه الكاتدرائية تماماً. دخلوا جميعاً عبر المدخل المُقنطر من الجهة الغربية، وبدا أكثر برودة من الداخل مما يوحي به من الخارج. ولدى رؤيته لمنظر صحن الكنيسة الطويل بصفوف الأعمدة والأقواس المكررة والمنظمة بدقة انتاب رولو ذلك الإحساس الواثق بدقة الكون الذي يديره إلهٌ عاقل. في أقصى نهاية صحن الكنيسة أضواء نور النهار النافذة الكبيرة التي لها شكل الزهرة، وعكس زجاجها الملون حقيقة أنّ كل شيء إلى زوال إلى أن يأتي يوم الدينونة حيث الرّبّ متربع على العرش والأثمون يتعذبون في الجحيم، أمّا الأخيار فيدخلون الجنة، ويستعيد العالم توازنه.

تقدّمت عائلة فيتزجيرالد عبر الممر إلى نقطة التقاطع مع ممراتٍ أخرى عندما بدأت الصلوات. راقبت العائلة من بعيد الكهنة يؤدون المراسم على المذبح العالي، ومن حولهم اجتمعت العائلات البارزة في البلدة بمن فيها عائلتا ويلارد وكوبلي، وأتى من الريف الإيرل سويذن شايرنغ وابنه بارت واللورد بريكنوك وزوجته.

كان مستوى الغناء متوسط الجودة. لقد وصلت مئات السنين من الموسيقى الكورالية الحماسية في كاتدرائية كينغزبريدج إلى نهايتها عندما أُغلقت الأديرة وحُلَّ الكورس. بدأ بعض الرهبان السابقين بتأسيس كورس جديد، ولكن حماسهم حيال الأمر تراجع. لم يكونوا قادرين على إعادة بناء ذلك الانضباط الحماسي في مجموعة ستكرس حياتها للتلهيل للربّ مع الموسيقى الجميلة.

كانت الأبرشية بأكملها في حالة صمّت بانتظار اللحظات الدرامية لصعود رئيس المراسم، وأصغوا بتهذيب وبدافع الطاعة إلى عظة الأسقف يوليوس، ولكنهم تابعوا الحديث إلى بعضهم طوال الوقت تقريباً.

انزعج رولو لدى رؤيته لمارجوري تنسل خلسةً بعيداً عن العائلة، وتحدث بحيوية إلى نيد وويلارد والريشة على قبعتها تهتز بقوة في تأكيد على ما كانت تقوله. كان نيد أنيقاً أيضاً، وقد ارتدى معطفاً فرنسياً أزرق، وبدا سعيداً بوجوده قرب مارجوري. أراد رولو أن يركله على هذه الوقاحة.

توجه رولو إلى بارت شايرنغ لإصلاح ما قامت به مارجوري، وأخبره أنّ الأمور ستوضع في نصابها أخيراً. تحدثا عن الحرب وكيف أنّ سقوط كاليه قاد إلى خسارات في مجال التجارة وغيرها من المجالات، وأنّ شعبية الملكة ماري وزوجها الأجنبي تتراجع بشكل مطّرد. لم يستطع رولو التفكير باحتمال أن تحكم ملكة بروتستانتية إنكلترا، ولكن ماري تودر لم تكن تُبلي جيداً وبما يخدم الدين الكاثوليكي.

وعندما قاربت الصلاة على نهايتها تقدّم رولو من ابن فيلبرت كوبلي السمين الذي يُدعى دان. كان رولو واثقاً من أنّ عائلة كوبلي البيورتانية موجودة هنا اليوم رغماً عن إرادتها، وافترض أنهم يكرهون التماثيل واللوحات، وأنهم سيسدون أنوفهم أمام رائحة البخور. وما أثار جنون رولو فكرة أنّ الناس العاديين الجاهلين وغير المثقفين والأغبياء يملكون الحق في اختيار دينهم. إن أصبحت هذه الفكرة السخيفة مقبولة فستنهال الحضارة؛ فلا يمكن للناس أن يقرروا ما يفعلونه بل عليهم أن يرضخوا لما يُملى عليهم.

وقف رجلٌ يدعى جوناس سيكون بالقرب من دان. كان دان رجلاً قوي البنية ببشرة سفعتها أشعة الشمس ويعمل قبطاناً تحت إمرة تجار كينغزبريدج.

«لدينا حمولة نريد بيعها. هل يهملك الأمر؟» توجه دان بالسؤال إلى رولو. غالباً ما يبيع مالكو السفن كعائلة كوبلي حمولتهم مقدماً، أو يوزعون الحمولة أحياناً في أرباع أو أثمان على عدة مستثمرين، وهي إحدى الطرق المستخدمة لجمع الأموال، وتمويل الرحلة، وتوزيع الخسارة على عدد أكبر في الوقت نفسه. يحصل أصحاب الأسهم أحياناً على عشرة أضعاف قيمة مساهمتهم أو قد يخسرون كل شيء. حققت عائلة فيتزجيرالد في أيام ازدهار أعمالها أرباحاً هائلة بهذه الطريقة.

«قد يهمننا الأمر»، قال رولو ولكنه لم يكن صادقاً فوالده لا يملك مالاً للاستثمار في أي حمولة، ولكن أراد الاستعلام عن أمر الحمولة بأي حال. «إن سفينة القديسة مارغريت في طريق عودتها من بحر البلطيق، وهي مُحتملة بالفراء الذي تصل قيمته إلى أكثر من خمسمئة جنيه بعد إفراغ الحمولة»، قال دان. «يمكنني أن أريك بيان الشحنة».

عبس رولو وسأله: «كيف تعرف هذا والسفينة ما تزال في البحر». أجاب القبطان بكون على السؤال بصوتٍ أجش أكسبته إياه سنواتٌ من الصراخ في ظروفٍ عاصفة.

«مررت بالسفينة صدفة على الساحل الهولندي. إن سفيتي التي تدعى «ذا هوك» أسرع منها. سعدت إلى السفينة وعلمت بتفاصيل الحمولة، وقد كانت متوجهة إلى الميناء من أجل بعض الإصلاحات البسيطة، ولكنها ستصل إلى ميناء كومب خلال أسبوعين».

يملك القبطان بكون سمعة سيئة كالعديد من قباطنة السفن. لا يعرف أحد ما الذي يفعله البحارة في البحر، ويتداول الناس أقاويل عن أنهم لصوص وقتلة، ولكن قصة القبطان بكون قابلة للتصديق. هزّ رولو رأسه والتفت نحو دان: «لم تريد بيع الحمولة الآن؟».

ظهر تعبير ماكر على وجه دان الأبيض والمدور.

«نحتاج إلى المال من أجل مشروع آخر».

لم يكن دان ليقول أي شيء عن طبيعة هذا المشروع، وهذا أمر متوقع لأنه إن علم بأمر عملٍ جيد فهو لن يقول للآخرين ويفوت على نفسه

فرصة الحصول عليه أولاً. ولكن هذا لم يكن مهماً لأن الشكوك ساورته
حيال الأمر.

«هل هناك خطبٌ ما في حمولتك؟».

«لا. يمكنني أن أثبت لك هذا بإعطائك ضماناً على أن قيمة الفراء تصل
إلى خمسمئة جنيه، ولكن سنبيعها لك مقابل أربعمئة جنيه».

كان المبلغ كبيراً. يمكن لأيّ مزارع يملك الأرض التي يزرعها جني
مدخول سنوي يصل إلى خمسين جنيهاً، وسيفخر أي تاجر ناجح من
كينغزبريدج بجني مدخول سنوي يصل إلى مئتي جنيه. كان مبلغ خمسمئة
جنيه استثماراً كبيراً، ولكن تحقيق ربح يصل إلى مئة جنيه خلال أسبوعين
فقط فرصة نادرة وكفيلة بتسديد كل ديون عائلة فيتزجيرالد أيضاً. ولكن
ولسوء الحظ لا يملكون أربعمئة جنيه ولا حتى أربعة جنيهاً.

«سأطلع والدي على الأمر»، أجابه رولو رغم ثقته من عدم قدرتهم على
إجراء الصفقة، ولكن قد يشعر السير ريجنالد بالإهانة إن تحدث ابنه بالنيابة
عن العائلة.

«لا تتأخر»، قال له دان. «تحدثت إليك أولاً بدافع احترامي لكم فالسير
ريجنالد عمدة كينغزبريدج، ولكنّ هناك آخرين يسعنا عقد الصفقة معهم.
يجب أن يكون المال جاهزاً غداً». قال دان هذا وترك رولو.
نظر رولو حوله، ولمح والده متكئاً على عمود ذي أخاديد محفورة
فتوجه نحوه.

«كنت أتحدث مع دان كوبلي».

«حقاً».

لم يُحب السير ريجنالد - كما كان حال الكثيرين - عائلة كوبلي التي
تعتبر نفسها أكثر قداسة من الناس العاديين، وانزعج الجميع من الطريقة التي
غادروا فيها العرض المسرحي.

«ما الذي كان يريد؟» سأل السير ريجنالد.

«أن يبيع حمولة». وأخبر رولو والده بكل التفاصيل، وعندما انتهى قال
السير ريجنالد: «هل هم على استعداد لتقديم ضماناً على قيمة الفراء؟».

«خمسمئة جنيه مقابل استثمار بقيمة أربعمئة جنيه. أعلم أننا لا نملك المال، ولكن اعتقدت أنك قد ترغب بالاطلاع على الأمر».

«أنت على صواب فنحن لا نملك هذا المال». ثم بدا ريجنالد مستغرقاً في التفكير. «ولكن قد أتمكن من الحصول على هذا المبلغ».

تساءل رولو عن الطريقة التي سيحصل بها والده على المال، ولكنه يعلم أنّ والده واسع الحيلة. لم يكن من ذلك النوع من التجار الذي يؤسس عملاً بالتدريج، بل من النوع الذي يتحين الفرص، ويحرص على انتهاز صفقات مفاجئة. هل سيتمكن والده من حل مشاكل العائلة بضربة واحدة؟ ولم يتجرأ رولو على التفاؤل حيال الأمر.

استغرب رولو عندما رأى والده يتوجه بالحديث إلى عائلة ويلارد. كانت أليس تاجرة بارزة وغالباً ما تكون هناك أمور يناقشها معها العمدة رغم أنّ الاثنين لم يُحبا بعضهما، ولم تتحسن علاقتهما بعد رفض عائلة فيتزجيرالد نيد كصهرٍ لها. لحق رولو والده وقد أثار الأمر اهتمامه.

«لو سمحت سيدة ويلارد هل يمكنني التحدث معك قليلاً؟» تحدث السير ريجنالد بهدوء.

كانت أليس امرأة قصيرة القامة بينية قوية وسلوكٍ مترفع وعصامي.

«بالطبع»، أجابت أليس بتهذيب.

«أريد أن أستدين أربعمئة جنيه لمدة قصيرة».

بدت أليس متفاجئة. «قد تضطر للسفر إلى لندن»، قالت أليس بعد فترة صمتٍ وجيزة، «أو إلى أنتويرب». كانت المدينة الهولندية أنتويرب العاصمة المالية لأوروبا. «لدينا نسيبٌ في أنتويرب، ولكن لا أعتقد أنّه قد يرغب بإقراضك مثل هذا المبلغ الكبير».

«أحتاج إلى المبلغ اليوم»، قال السير ريجنالد.

رفعت أليس حاجبيها استغراباً.

انتاب رولو شعور بالحرج فقد رأى أن استجداء قرض من العائلة التي وجه إليها إهانة مؤخراً أمر يبعث على الخجل.

تابع السير ريجنالد كلامه وقد غصّ النظر عما قالته أليس: «أنت التاجرة الوحيدة في كينغزبريدج التي يمكن أن تملك مثل هذا المبلغ يا أليس».

«هل يمكنني أن أعرف لمَ تريد هذا المبلغ؟» سألته أليس.

«عرضوا عليّ فرصة شراء حمولة ثمينة».

تكهن رولو أن ريجنالد لم يكن ليفصح عن هوية صاحب العرض خوفاً من أن تحاول أليس شراء الحمولة.

«ستصل السفينة إلى ميناء كومب خلال أسبوعين». أضاف السير ريجنالد.

في هذا الوقت انضم نيد إلى الحديث. افترض رولو أن نيد سيستمع بمنظر عائلة فيتزجيرالد تطلب المساعدة من عائلة ويلارد، ولكن نيد تحدث بطريقة عمليّة.

«لمَ يريد المالك بيع الحمولة الآن؟» قال نيد بارتياح. «ليس عليه أن ينتظر سوى أسبوعين لتصل إلى الميناء وسيحصل على القيمة الكاملة للحمولة بعد إفراغها».

بدا ريجنالد منزعجاً من فكرة أن يكون في موضع شك أمام صبي، ولكنه لجم انزعاجه وأجاب:

«يحتاج المالك إلى المال فوراً من أجل مشروع آخر».

«لا يمكنني أن أخاطر بخسارة مثل هذا المبلغ الكبير من المال. أعتقد أنك تتفهم هذا».

«لا يوجد أيّ مخاطرة»، قال ريجنالد. «سأعيد لك المال خلال أسبوعين أو أكثر بقليل».

ما قاله ريجنالد غير منطقي وعرف رولو هذا، فالمخاطرة حاضرة على الدوام.

أخفض ريجنالد صوته وتابع كلامه:

«نحن جيران يا أليس، ونساعد بعضنا، وأنا أساعدك في تسهيل أمور حمولاتك في ميناء كومب كما تعلمين، وأنت بدورك تقدمين لي المساعدة. إنّها الطريقة التي تسير بها الأمور في كينغزبريدج».

بدت أليس كأنها بوغتت، وبعد مرور بعض الوقت أدرك رولو سبب هذا. كان كلام والده اللطيف عن أنهم جيران مجرد تهديد خفي؛ إن لم تتعاون أليس فسيسبب لها ريجنالد متاعب في الميناء.

حلّ صمتٌ طويل بينما كانت أليس تفكر، ورأى رولو أنّها كانت تدرس الأمر. لم تكن تريد إعطاء والده القرض، ولكنها لا تستطيع معاداة شخص يملك مثل هذه السلطة.

«أريد ضماناً»، قالت أليس أخيراً.

هنا ضاعت كل آمال رولو، فرجلٌ لا يملك شيئاً لا يسعه تقديم أيّ ضمانات. لم يكن ما قالته أليس سوى طريقة أخرى للرفض.

«سأرهن منصبى في الجمارك».

هزّت أليس رأسها رفضاً.

«لا يمكنك أن تقدمه من دون موافقة ملكيّة، ولا تملك الوقت للحصول عليها».

أدرك رولو أنّ أليس على حق فيما قالته، وكان ريجنالد على شفا الوصول إلى حافة اليأس.

«ماذا عن الدير كضمانة؟» قال ريجنالد.

هزّت أليس رأسها رفضاً مرة أخرى. «لا أريد بيتك غير المُكتمل».

«ما رأيك إذاً بالقسم الجنوبي ذي الرواق المسقوف ومساكن الرهبان ودير الراهبات».

كان رولو واثقاً من أنّ أليس لن تقبل هذا كضمانة، فالأبنية في الدير القديم قد هُجرت منذ أكثر من عشرين عاماً، وهي غير قابلة للإصلاح الآن.

فوجئ رولو عندما بدا الاهتمام فجأة على وجه أليس وقالت: «ربما».

تدخل رولو في الحديث هنا قائلاً: «ولكن يا أباي أنت تعرف أنّ الأسقف

يوليوس يريد أن تسترد الكنيسة الدير، وقد وافقت على بيعها له».

حاولت الملكة الورعة ماري استعادة الممتلكات التي انتزعت من الكنيسة على يد والدها الجشع هنري الثامن، ولكن أعضاء البرلمان لم يوافقوا على التشريع، فقد كان العديد منهم مستفيدين من هذه الممتلكات،

ولهذا كانت الكنيسة تحاول استردادها بأرخص سعر. واعتقد رولو أنّه من واجب أي كاثوليكي صالح المساعدة في هذا الأمر.

«لا بأس بهذا»، قال ريجنالد. «فأنا لن أتخلف عن سداد القرض ولن تؤخذ الضمانة، وسيحصل الأسقف على ما يريد».

«جيد»، قالت أليس.

حلّ صمتٌ قصير. من الواضح أنّ أليس تنتظر شيئاً، ولكنها لن تبوح به. عرف ريجنالد ما كانت تفكر به وقال لها:

«سأدفع لكِ فائدة جيدة».

«أريد فائدة عالية»، قالت أليس. «ولكن تقاضي فائدة على القروض يعدّ ربا وهو جريمة وخطيئة في نفس الوقت».

كانت على حق، ولكنها كانت تراوغ؛ فالقوانين التي تحارب الربا في المدن التجارية الأوروبية تتغير كل يوم. كان اعتراض أليس الصريح على فكرة الفائدة اعتراضاً ظاهرياً.

«حسناً، أنا واثق من أننا سنجد طريقة للالتفاف على الأمر»، قال ريجنالد بتلك اللهجة الممازحة التي يتحدث بها شخص يقترح القيام بخدعة بريئة. «ما الذي تفكر به؟» قالت أليس بحذر.

«فلنقل إنني أمنحك حق الاستفادة من الدير خلال فترة القرض ومن ثمّ سأستأجره منك بعده».

«أريد ثمانية جنيهات فائدة كل شهر».

بدا نيد قلقاً فهو لم يكن يريد أن تدخل والدته في هذه الصفقة، وعرف رولو السبب. هل ستغامر أليس بخسارة أربعمئة جنيه مقابل ثمانية جنيهات كل شهر.

تظاهر ريجنالد بأنه غاضب.

«لماذا؟ هذا أكثر من أربع وعشرين بالمئة أو أكثر في العام».

«إذاً فلننسَ الفكرة برمتها».

بدأ رولو يشعر بالتفاؤل. ولكن لماذا تجادل أليس بخصوص معدل الفائدة؟ هذا يعني أنّها واثقة من استرداد القرض. انتبه رولو إلى أنّ نيد ينظر بشيء من الرعب، وحزر أنّه يُفكر بما فكر به هو أيضاً، فقد كان يعتبر العرض مخيباً للأمل.

فكر ريجنالد لبعض الوقت، ثمّ قال في النهاية:

«حسناً، فليكن كذلك». مدّ ريجنالد يده فصافحته أليس.

صُدم رولو من ذكاء والده. أن يقوم رجلٌ مفلس تماماً باستثمار مقداره أربعمئة جنيه فهذا انتصار للجرأة. سَتُحسن حمولة سفينة القديسة مارغريت من الأوضاع المالية للعائلة. شكراً للسماء على حاجة فيلبرت كوبلي الطارئة للمال.

«سأجهز الأوراق عصراً»، قالت أليس ويلارد ثم ابتعدت.

ظهرت الليدي جاين في هذه اللحظة وقالت لهم:

«حان موعد العودة إلى المنزل. سيكون العشاء جاهزاً».

نظر رولو حوله بحثاً عن أخته، ولكن مارجوري لم تكن في الجوار.

عندما غابت عائلة فيتزجيرالد عن الأنظار قال نيد لوالدته:

«لَمْ وافقتِ على إقراض السير ريجنالد هذا المبلغ الكبير من المال؟».

«لأنه سيسبب المتاعب لنا إن رفضت».

«ولكن ماذا لو لم يستطع إيفاء القرض؟! قد نخسر كل شيء».

«لا، سيكون لدينا الدير».

«مجموعة من الأبنية المتداعية».

«لست مهتمة بالأبنية».

«إذا...». عبس نيد.

«فكر»، قالت له والدته.

تساءل نيد عما كان يهّم والدته المكان إن لم تكن مهتمة بالمباني.

«الأرض؟» سألها نيد.

«تابع التفكير».

«إنها تقع وسط المدينة».

«بالضبط، وهذا الموقع الأهم في كينغزبريدج، وقيّمته تزيد على الأربعمئة جنيه بالنسبة إلى شخصٍ يعرف كيف يستغله تماماً».

«فهمت»، قال نيد. «ولكن ما الذي ستفعلينه بالمكان، هل ستبنين منزلاً

كما فعلت عائلة فيتزجيرالد؟».

بدت أليس ممتعضة. «لا أحتاج إلى قصرٍ. أريد أن أبنى سوقاً داخلياً يفتح

يوميًا وعلى مدار الأسبوع أياً تكن حالة الطقس. سأؤجر المكان إلى باعة الأكشاك وصانعي الحلويات والخبز والقفازات والأحذية. سيكون قريباً من الكاتدرائية، وسيدرّ المال لألف عام».

رأى نيد أنّ فكرة المشروع عبقرية، ولهذا خطرت الفكرة لأمه ولم تخطر له. ولكن ما يزال نيد مرتاباً من الأمر فهو لم يكن يثق بعائلة فيتزجيرالد، وخامرته فكرة أخرى.

«هل هذه خطة بديلة في حال خسرتنا كل شيء في كاليه؟».

قامت أليس بجهود مفضية للحصول على أخبار من كاليه، ولكن لم يصل أيّ خبر بعد سيطرة الفرنسيين على المدينة. ربما صادروا كل الممتلكات الإنكليزية بما في ذلك مستودع عائلة ويلارد المكتظ ببضائع كثيرة. قد يكون العم ديك وعائلته في طريقهم إلى كينغزبريدج خالي الوفاض. ازدهرت مدينة كاليه بشكل أساسي بفضل التجار الإنكليز الذين حولوها إلى مدينة تجارية، ومن المحتمل أن يفكر الملك الفرنسي بأنّه من الذكاء ترك الأجانب يحتفظون بما يملكون وبأعمالهم.

ولكن ولسوء الحظ فإن عدم وصول أيّ أخبار يعني أنّ الأخبار سيئة. في الحقيقة لم يهرب أي إنكليزي من كاليه ليعود إلى الوطن حاملاً معلومات رغم مرور شهر على ما حدث، وهذا يعني أنّ القليل فقط ما زالوا على قيد الحياة. «إنّ فكرة السوق الداخلي صالحة لكل الظروف»، أجابت أليس. «ولكن أعتقد أننا ربما سنحتاج إلى مهنة جديدة تماماً في حال كانت الأخبار القادمة من كاليه سيئة كما أتوقعها أن تكون».

هزّ نيد رأسه موافقاً. كانت والدته تخطط مسبقاً على الدوام.

«في أيّ حال قد لا يحصل كل هذا»، ختمت أليس كلامها. «ريجنالد لن يذلل نفسه ويستجدي قرضاً ما لم تكن الصفقة التي يسعى وراءها مغرية حقاً». كان نيد يفكر بشيءٍ آخر؛ فالمفاوضات مع ريجنالد شغلت تفكيره قليلاً عن الفرد الوحيد في عائلة فيتزجيرالد الذي يهتم لأمره.

نظر حوله بين حشود المُصلين، ولكنه لم يرَ مارجوري. لقد غادرت وعلم إلى أين ذهبت. عبر صحن الكنيسة وحاول ألا يبدو كأنّه على عجلة من أمره.

كان باله مشغولاً ولكنه ورغم هذا تأمل بإعجاب، كما اعتاد دوماً، التناغم «الموسيقي» للقناطر، وكيف أن القناطر الخفيضة أشبه بنغمات جهيرة تتكرر في إيقاع ثابت، أما القناطر الأصغر في الرواق ذي الأعمدة وعلى الجدار العالي ذي النوافذ فكانت أشبه بإيقاعات عالية على ذات الوتر.

أحكم عباة حوله عندما خرج وتوجه شمالاً باتجاه المقبرة. كان الثلج يتساقط بغزارة أكبر آنذاك، وقد استقرت الندف على سطح القبر التذكاري لرئيس الدير فيليب. كان الضريح كبيراً جداً ويسمح لنيد ومارجوري بالوقوف في الجانب القصي منه وعناق بعضهما بعضاً دون الخوف من أن يشاهدهما أحد. وفقاً للأسطورة فإن رئيس الدير فيليب كان متسامحاً مع من يستسلمون للإغواء الجنسي، ولهذا تخيل نيد أن روح هذا الراهب الميت منذ زمنٍ طويل لن يُفلقها وجود هذين الحبيين الشابين قرب القبر. ولكن مارجوري فكرت بمكان لقاء آخر غير الضريح، ومررت فكرتها إلى نيد خلال الصلاة. اتبع نيد التعليمات التي أعطته إياها، وهو الآن يتجه إلى موقع قصر والدها الجديد. نظر حوله باتجاه أقصى جانب من القصر بحثاً عن أحد قد يراقبه. كان هناك فتحة في السياج فدخل منها.

كان لقصر السير ريجنالد الجديد أرضيات وجدران وسلام وسقف ولكن من دون أبواب أو نوافذ. دخل نيد وصعد السلم الكبير المصنوع من الرخام الإيطالي ركضاً نحو منصة خشبية. هناك انتظرته مارجوري، كان جسدها مُدثراً بمعطفٍ أحمر كبير ولكن وجهها يفيض باللهفة. احتضنها وقبلها بعضهما بعضاً بشغفٍ. أغمض عينيه وتنشق رائحتها؛ ذلك العطر الدافئ المنبعث من بشرة عنقها.

عندما توقفا عن التقبيل لالتقاط أنفاسهما قال لها: «أنا قلق». لقد أقرضت والدتي والدك أربعمئة جنيه».

هزت مارجوري كتفيها وقالت: «إنهم يقومون بهذا على الدوام». «تقود القروض إلى نزاعات وقد يؤدي هذا إلى مفاقمة الأمور في غير مصلحتنا».

«كيف يمكن أن تتفاهم أكثر؟ قبلني مجدداً». قبل نيد فتيات عديدات قبلاً، ولكن هذه القبلة لم تشبه قبلة السابقة. كانت

مارجوري الفتاة الوحيدة التي أتت وعبرت له عمّا تريده. من المفترض أن يقود الرجال النساء خاصة في العلاقات الجسدية، ولكن يبدو أن مارجوري لا تعرف هذا.

«أحب الطريقة التي تُقبلين بها»، قال نيد بعد برهة ثمّ أضاف: «من علمك؟».

«لم يُعلمني أحد! من تعتقدي؟ على أي حال لا يوجد طريقة صحيحة واحدة، فالأمر لا يشبه القيام بحسابات».

«أعتقد أنك على حق، فكل فتاة تختلف عن الأخرى. تحب روث كوبلي أن تضغط ثديها بقوة شديدة حتى يرافقها الإحساس لوقتٍ أطول، بينما سوزان وايت».

«توقف! لا أريد أن أعرف شيئاً عن فتياتك الأخريات».

«أحاول إغاظتك فقط فلا يوجد فتاةً أخرى مثلك ولهذا أحبك».

«أحبك أيضاً»، قالت له، وقبلًا بعضهما بعضاً مجدداً. فك نيد عباءته وحلّ أزرار معطفها ليضغط جسدها إلى جسده، وبالكاد شعرا بالبرد. ثمّ سمع نيد صوتاً مألوفاً يقول: «توقفا عن هذا فوراً». كان المتحدث رولو.

جفل نيد وكأنه ارتكب ذنباً ثمّ قمع هذا الشعور؛ فلم يكن هناك سببٌ يمنعه من تقبيل الفتاة التي يحبها. أفلت نيد مارجوري ثمّ التفت ببطء حذر، لم يكن خائفاً من رولو وقال له: «لا تحاول إعطائي أيّ أوامر يا رولو، فنحن لم نعد في المدرسة».

تجاهله رولو وتحديث إلى مارجوري بسخطٍ وعظي.

«ستعودين معي إلى المنزل الآن».

عاشت مارجوري لوقتٍ طويل مع أخيها الكبير المتمنر، وتدربت على مقاومة إرادته.

«فلتسبقني»، قالت بلهجة عرضية بدت مفتعلة بعض الشيء. «سألحق بك بعد قليل».

احمرّ وجه رولو وقال: «قلتُ لكِ الآن». ثمّ أمسك بمارجوري من ذراعها.

«أبعد يدك عنها يا رولو، فما من داع لاستخدام العنف»، قال نيد.

«اصمت أنت، سأفعل ما يحلو لي بأختي الصغيرة».

حاولت مارجوري أن تسحب ذراعها، ولكن رولو أطبق قبضته عليها.

«توقف، إنك تؤلمني»، قالت مارجوري له.

«لقد حذرتك يا رولو». لم يرغب نيد باستخدام العنف ولكنه لن يسمح

بأيّ تنمر.

هزّ رولو ذراع مارجوري. أمسك نيد رولو من معطفه وأبعده عن

مارجوري ثمّ دفعه دفعة قوية جعلته يترنح على الأرضية.

انتبه نيد إلى أنّ بارت يصعد الدرج الرخامي. استعاد رولو توازنه ورفع

إصبعه مُحذراً ثمّ اندفع نحو نيد قائلاً: «أصغ إليّ الآن!» ثم ركل نيد. وجه رولو

ركلته إلى خصيتي نيد، ولكن نيد تحرّك قليلاً فأتت الركلة في فخذه. كانت

الركلة مؤلمة، ولكنه لم يهتم بها لأنّه كان غاضباً جداً. توجه نيد نحو رولو

بقبضتيه، وضربه على رأسه وصدره ثلاث مرات، ثمّ ضربة رابعة وخامسة.

تراجع رولو إلى الوراء، وحاول أن يردّ الضربة. لكن وعلى رغم طول

قامته وذراعيه فإنّ غضب نيد كان شديداً.

سمع نيد بشكل غير واضح مارجوري تصرخ: «توقفا! توقفا».

جرّ نيد رولو على الأرضية ثمّ شعر فجأةً بأحد يمسكه من الخلف،

وأدرك أنّه بارت. شعر نيد بذراعيه تضغطان على جانبيه وكأنّه مربوطٌ بحبل.

كان بارت أكبر وأقوى من نيد ورولو. قاوم نيد بقوة، ولكنه لم يستطع الفكّك

منه ثمّ أدرك أنّه على وشك التعرض إلى ضربٍ مُبرح.

أمسك بارت بنيد وبدأ رولو يضربه. حاول نيد أن يتفادى ويناور ولكنه

كان مُثبّتاً في مكانه. تمكن رولو من ضربه على وجهه وبطنه وركله على

خصيتيه بشكل مؤلم مراراً وتكراراً. ضحك بارت باستمتاع. صرخت

مارجوري وحاولت إيقاف أخيها ولكن من دون فائدة. كانت قوية ولكن

حجمها الصغير لم يساعدها على إيقافه.

بعد مرور دقيقة على بدء الضرب شعر بارت بالتعب وتوقف عن

الضحك. دفع بنيد جانباً فسقط على الأرض. حاول نيد أن يقف، ولكن

فشل في النهوض. كانت إحدى عينيه مغلقة، ولكنه رأى بعينه الأخرى رولو وبارت يجران مارجوري من ذراعيها ويدفعان بها عبر السلالم. سعل نيد ويصق دماً. خرجت إحدى أسنانه مع الدماء، واستقرت على الأرض. رأى هذا بعينه السليمة ثم أخذ يتقيأ. شعر بالألم في كل أنحاء جسمه. حاول مجدداً أن ينهض، ولكنه كان يتألم بشدة. استلقى على ظهره على الرخام البارد منتظراً أن يخفّ ألمه وهو يقول: «اللعنة! اللعنة».

«أين كنتِ؟» سألت الليدي جاين مارجوري عندما أحضرها رولو إلى المنزل.

«أبرح رولو نيد ضرباً بينما ثبته بارت. يا له من حيوان»، صرخت مارجوري.

«اهدئي»، قالت لها أمها.

«انظري إلى رولو كيف يفرك أصابعه. إنه فخورٌ بنفسه».

«أفخر أنني قمتُ بالعمل الصائب»، قال رولو.

«لم تتشاجر مع نيد وحدك، صحيح؟» قالت مارجوري وأشارت إلى بارت الذي دخل مع رولو. «لا بد أنك تلقيت مساعدة».

«هذا غير مهم»، قالت الليدي جاين. «هناك أحدٌ في انتظارك».

«لا أريد التحدث إلى أحد الآن»، قالت مارجوري، ولم ترغب بشيء سوى البقاء وحدها في غرفتها.

«لا تعصيني»، قالت أمها. «تعالى معي».

ذوت قدرة مارجوري على المقاومة. لقد شاهدت الرجل الذي تحبه يتعرض إلى الضرب المبرح، وكل هذا لأنها تحبه. شعرت بأنها فقدت القدرة على القيام بما هو صائب. هزت كتفيها بلا مبالاة ولحقت بوالدتها. دخلتا إلى غرفة الجلوس الخاصة بالليدي جاين حيث كانت تدير المنزل وتوجه الخدم. كان للغرفة مظهر صارم مع كراس وطاولة ومصلى صغير مصنوع من خشبٍ قاسٍ. اصطفت على الطاولة مجموعة الليدي جاين من منحوتات عاجية لقسيسين.

جلس أسقف كينغزبريدج إلى الطاولة يكتب.

كان الأسقف يوليوس رجلاً عجوزاً نحيلاً، رغم أنه يبلغ الخامسة والستين فإنَّ حركته سريعة. كان الأسقف أصلع ولطالما فكَّرت مارجوري أنَّ وجهه يبدو كجمجمة. اتقدت عيناه الزرقاوان ذكاءً.

بوغت مارجوري عند رؤيته، وتساءلت عمَّا أَراده منها.

«لدى الأسقف شيء ليقوله لك»، قالت الليدي جاين.

«اجلسي يا مارجوري»، قال يوليوس.

فعلت مارجوري ما طُلبَ منها.

«أعرفك منذُ ولادتك»، قال لها. «لقد رُبيتِ كمسيحية وكاثوليكية

صالحة. يُمكن لوالديك أن يفخرا بهذا».

لم تتفوه مارجوري بشيء وبالكد كانت قادرة على رؤية الأسقف ففي عقلها كانت ترى مجدداً الضرب الوحشي الذي وجهه رولو إلى وجه نيد العزيز.

«أنتِ تُصلين وتذهبين إلى القُداس وتعترفين بخطاياك مرّة في العام. إنَّ الرّب راضٍ عنك».

كان ما قاله الأسقف صحيحاً، ولكن كل شيء في حياة مارجوري لم يكن صحيحاً؛ فأخوها شخصٌ حاقِد، ووالداها قاسيان، وهي مجبرة على الزواج من وحش، ولكنها شعرت بأنَّ علاقتها مع الرّب صائبة، وحقق لها هذا بعض العزاء.

«ومع ذلك»، قال الأسقف. «يبدو أنك تنسين فجأة كل ما تعلمته».

حظي الأسقف الآن باهتمامها وقالت له بسخطٍ: «لا لم أنس».

«تحدثي عندما يطلب منك الأسقف التحدث وليس العكس أيتها الطفلة الوقحة»، قالت أمّها.

ابتسم يوليوس بسماحة. «لا بأس يا ليدي جين. أنفهم أنّ مارجوري متضايقة».

حدقت مارجوري إليه. كان الأسقف أيقونة حيّة عن المسيح وعن الراعي الدنيوي للرعية المسيحية، ويتحدث بكلمات الرّب فبماذا إذا كان يتهمها؟
«يبدو أنّك نسيتِ الوصيّة الرابعة»، قال الأسقف لها.

شعرت مارجوري فجأة بالخجل، فقد عرفت ما الذي كان يقصده بكلامه، وأطرقت بنظرها نحو الأرض.

«قولي لي يا مارجوري، ما هي الوصية الرابعة؟».

«احترم أباك وأمك»، قالت مارجوري متلعثمة.

«قولها بصوت أعلى وأوضح من فضلك».

رفعت رأسها ولكنها لم تنظر في عينيه وقالت: «احترم أباك وأمك».

هزّ يوليوس رأسه. «لم تحترمي أباك وأمك خلال الشهر الأخير، هل هذا صحيح؟».

هزّت مارجوري رأسها فقد كان ما قاله صحيحاً.

«إنّ واجبك المقدس يقتضي منك أن تفعلني ما يُقال لك».

«آسفة»، همست مارجوري ببؤسٍ.

«لا يكفي أن تتوبي، أليس هذا صحيحاً يا مارجوري؟ أنت تعرفين هذا».

«ما الذي عليّ فعله؟».

«عليك التوقف عن ارتكاب المعاصي. عليك أن تطيعني».

رفعت نظرها للأعلى وحدّقت في عينيه أخيراً. «أن أطيع؟».

«هذا ما يريدُه الرّب».

«هل هذا صحيح؟».

«أجل».

إنّه الأسقف ويعرف ما الذي يريدُه الرّب، وقد أخبرها بهذا.

أطرقت بنظرها إلى الأرض مجدداً.

«أريدك أن تتحدثي مع والدك الآن»، قال يوليوس.

«هل عليّ فعل هذا؟».

«تعرفين أنّه عليك فعل هذا. أعتقد أنك تعرفين ما عليك قوله، أليس كذلك؟».

شعرت مارجوري أنّها تختنق وغير قادرة على الكلام، ولكنها هزّت رأسها.

أعطى الأسقف إشارة إلى الليدي جاين التي توجهت إلى الباب وفتحته. كان السير ريجنالد ينتظر خارجاً ودخل إلى غرفة الجلوس. نظر إلى مارجوري وقال:

«حسناً».

«أنا آسفة يا أبي»، قالت له.

«من الأحرى بك أن تكوني آسفة». قال لها.

حلّ صمتٌ وجيز، كانوا بانتظارها لتحدث.

«سأتزوج من بارت شايرنغ»، قالت مارجوري أخيراً.

«فتاةٌ صالحةٌ»، قال لها والدها.

وقفت مارجوري وقالت: «هل أستطيع المغادرة؟».

«ربما عليك شكر الأسقف لأنه قدّم لك النصّح لتعودي إلى جادة رحمة

الرّب»، قالت لها الليدي جاين.

التفت مارجوري إلى يوليوس وقالت له: «شكراً لك أيّها الأسقف».

«حسناً»، قالت الليدي جاين. «يمكنك أن تُغادري الآن».

غادرت مارجوري الغرفة.

صباح الإثنين نظر نيد من النافذة ورأى مارجوري وشعر بضربات قلبه

تتسارع.

كان يقف في غرفة الجلوس وقطته المرقطة مادي تحكّ رأسها بكاحله.

كان قد أسماها «مادكب» عندما كانت صغيرة، ولكنها الآن أشبه بسيدة كبيرة

ومسرورة بكل رصانة لرؤيته في المنزل. راقب نيد مارجوري تعبر الساحة

باتجاه مدرسة النحو التي كانت تذهب إليها صباحاً ثلاثة أيام في الأسبوع

لتُعلم الأطفال الأعداد والأحرف ومعجزات المسيح وتجهزهم لارتياذ مدرسة

حقيقية. غابت عن أداء هذا الواجب طوال شهر كانون الثاني / يناير، وافترض

نيد أنّها عادت الآن. كان رولو معها، من الواضح أنّه يرافقها لمراقبتها.

انتظر نيد هذه الفرصة. لقد عاش علاقاتٍ عاطفية قبلاً، ولكنه لم يرتكب

خطيئة الزنا من قبل رغم أنّه اقترب من فعل هذا مرة أو مرتين. بالتأكيد شعر

بنفسه مُغرماً بسوزان وايت وروث كوبلي في أوقاتٍ مختلفة، ولكنه عندما وقع في غرام مارجوري عرف على الفور أن الأمر مختلف. لم يكن يرغب فقط بأخذ مارجوري إلى وراء ضريح رئيس الدير فيليب وتبادل القبل معها وملاستها. كان يريد هذا حتماً، ولكنه تاق إلى قضاء ساعات طويلة معها من دون القيام بأي شيء سوى التحدث معها عن المسرحيات واللوحات والإشاعات في كينغزبريدج والسياسة الإنكليزية، أو الاستلقاء بالقرب منها تحت أشعة الشمس على ضفة جدول معشوشبة.

كبح نفسه حتى لا يهرع خارجاً ويبادرها بالكلام في السوق. سيتحدث إليها عندما تنتهي من درسها ظهراً. كان قد قضى الصباح في المستودع يدون أرقاماً في دفاتر الحسابات، لطالما كره أخوه بارني هذا الجزء من العمل، وتصارع مع الأحرف دوماً، ولم يُتقن القراءة إلى أن بلغ الثانية عشرة، ولكن نيد يحب هذا العمل مع الفواتير ووصلات الاستلام وكميات القصدير والرصاص والحديد الخام والرحلات إلى إشبيلية وكاليه وأنتويرب والأسعار والفوائد. بمجرد الجلوس إلى طاولة مع ريشة ومحبرة وكتاب سميك مليء بالقوائم يستطيع رؤية كامل إمبراطورية التجارة الدولية. على أي حال فإنها إمبراطورية على حافة الانهيار، فمعظم ما تملكه عائلة ويلارد في كاليه قد صودر الآن من قبل ملك فرنسا. كانت المواد هنا في مخازن كينغزبريدج قيّمة ولكن بيعها صعب في مثل هذا الوقت الذي تقيد فيه الحرب حركة الشحن عبر القناة الإنكليزية، وقد اضطروا إلى تسريح بعض العمال بسبب توقف الأعمال التي يقومون بها. إن عمل نيد في الحسابات يقوم على جمع ما تبقى والتأكد من أنه كافٍ لدفع ديون هائلة.

قاطعته الناس باستمرار أثناء القيام بعمله لسؤاله عن سبب الضربة على عينه. أخبرهم بالحقيقة الصرفة التي أخبر بها والدته أيضاً. أخبرهم أنه تعرّض للضرب المبرح على يد بارت ورولو لأنّه قبل مارجوري. لم يُصدم أحد أو يُفاجأ بما قاله، لم يكن العراك بالأيدي غريباً بين الشبان خاصة في فترة نهاية الأسبوع، والناس معتادون على رؤية الرضوض صباح أيام الإثنين.

قالت جدته التي كانت ممتعضة: «ذلك الفتى رولو ثعلبٌ ماكراً».

وصرخت أليس عندما رأيت أن نيد فقد سناً: «لطالما كان فتىً حقوداً منذ صغره وقد أصبح الآن رجلاً كبيراً يحب الانتقام. كُنْ حذراً منه».

عندما أصبح الضوء في منتصف النهار مبهوراً جداً ترك نيد المستودع وتوجه إلى الشارع الرئيسي الموحد، ولكن بدلاً من العودة إلى منزله، توجه إلى مدخل مدرسة النحو. عندما وصل نيد إلى المدرسة دق جرس الكاتدرائية مؤذناً بأن الوقت ظهر. بدت له الآن كل الدراما التي أحاطت في يوم من الأيام بالامتحانات والرياضة والمنافسات تافهة جداً.

تقدم رولو من السوق باتجاه المدرسة. افترض نيد أنه أتى لمرافقة مارجوري إلى المنزل. عندما رأى رولو نيد بدا مرتاعاً وخائفاً قليلاً وصرخ مهدداً: «ابتعد عن أختي».

كان نيد مستعداً لمواجهته: «حاول أن تُبعدي عنها أيها الفلاح الأبله».
«هل تريدني أن ألكم عينك الأخرى؟»
«أريدك أن تحاول هذا».

تراجع رولو وقال: «لن أتساجر معك في مكان عام».
«بالطبع لن تفعل»، قال نيد باحتقار. «بخاصة الآن ورفيقك الضخم بارت ليس معك ليساعدك».

خرجت مارجوري من المدرسة وقالت: «رولو! هل تحاول افتعال شجار آخر بحق السماء؟».

حدق بها نيد وشعر بقلبه يخرج من صدره. بدت مارجوري وهي تتحدث بصوتها الأمر صغيرة جداً ولكن بديعة بذقتها المرفوع للأعلى وعينيها الخضراوين اللتين تشعان بالتحدي.

«ممنوع عليك التحدث مع ابن عائلة ويلارد»، قال رولو لها. «رافقيني إلى المنزل الآن».

«ولكنني أرغب بالحديث معه»، قالت له.
«أمنعك من هذا».

«لا تُمسك بذراعي يا رولو»، قالت له مارجوري وقد قرأت ما يجول في رأسه. «بدلاً من هذا فلتكن أكثر عقلانية. قف قرب قصر الأسقف، تستطيع مراقبتنا من هناك دون سماع حديثنا».

«لا شيء يمكنني قوله لأيّ أحد من عائلة ويلارد».
«لا تكن غيبياً. يجب أن أخبره بما حدث البارحة، لا يمكنك أن تنكر هذا، صحيح؟».

«هل هذا كل ما في الأمر؟» سألتها رولو في ريبة.
«أعدك. يجب أن أخبر نيد بما حدث بكل بساطة».
«لا تدعيه يلمسك».

«اذهب وقف عند باب قصر الأسقف».
راقب نيد ومارجوري رولو يبتعد عشرين خطوة ثم يلتفت ويقف مُحدقاً.
«ما الذي حدث البارحة بعد العراك؟» سألتها نيد.
«أدركت شيئاً»، قالت مارجوري وسقطت الدموع من عينيها.
انتاب نيد شعور بأنه هالك وسألها: «ما الذي أدركته؟».
«أنه لدي واجب مقدس في إطاعة والدي».

كانت تبكي ومدّ نيد يده إلى جيبه ليأخذ منديلاً كتانياً صنعته والدته له.
كان منديلاً بحواف مهدبة ومطرزاً ببذور البلوط. مسح خدها بلطفٍ وجفف دموعها، ولكنها خطفته من يده ومسحت دموعها بقسوة ثم قالت: «ليس هناك المزيد لأضيفه، صحيح».

«ولكن هناك ما يمكن إضافته»، استعاد نيد صوابه. كان يعرف أن مارجوري بطبيعتها تقيّة جداً رغم أنها انفعالية وذات إرادة قويّة.
«أليس الكذب على الرجل الذي تكرهينه خطيئة؟».

«لا، لا تذكر تعاليم الكنيسة هذا».
«حسناً، إذاً يجب أن تذكرها».

«أنتم البروتستانتين ترغبون على الدوام بعكس شرائع الرّب».
«أنا لست بروتستانتياً! هل هذه مشكلتك؟».
«لا».

«ما الذي فعلته؟ كيف تمكنا من السيطرة عليك؟ هل هددوك؟».
«لقد ذكروني بواجبي».
شعر نيد بأنها كانت تُخفي شيئاً.

«من فعل هذا؟ من ذكرك؟».

ترددت وكأنتها تريد أن تجيب عن السؤال ثم هزّت كتفيها قليلاً كأنّ الأمر لن يُشكل أيّ فرق ثمّ قالت: «الأسقف يوليوس».

اغتاظ نيد جداً.

«حسناً إنه يقوم بمعروف لوالديك! إنه أحد أصدقاء والدك المقربين».

«إنه أيقونة حيّة للمسيح».

«المسيح لا يقول لنا من علينا أن نتزوج».

«أعتقد أنّ المسيح يريدني أن أكون مطيعة».

«لا علاقة لهذا بإرادة الرّب. إن والديك يستغلان تقواك للتلاعب بك

ولتقومي بما يريدانه».

«يؤسفني أن تفكر على هذا النحو».

«هل ستتزوجين حقاً من بارت شايرنغ لأنّ الأسقف أخبرك أن تفعلي هذا؟».

«أفعل هذا لأنّها رغبة الرّب. سأغادر الآن يا نيد. أعتقد أنّه من الأفضل

في المستقبل لو كان الكلام بيننا قليلاً».

«لماذا؟ نحن نعيش في نفس المدينة، ونذهب إلى نفس الكنيسة، لماذا

علينا ألا نتحدث مع بعض؟».

«لأن قلبي سيتقطع»، قالت مارجوري ثمّ ابتعدت.

الفصل الرابع

سار بارني ويلارد على طول واجهة إشبيلية المائية المزدهمة يبحث عن أي سفينة إنكليزية قادمة عبر نهر غوادالكيفير مع المد البحري الباكر. أراد بشدة أن يعرف إن كان العم ديك ما زال على قيد الحياة، وإن كانت عائلته قد خسرت كل شيء.

عصفت ريحٌ باردة من جهة النهر رغم صفاء السماء التي ازدانت بزرقة داكنة، وغمرت أشعة شمس الصباح الحارة وجهه الملوّح. شعر بارني أنه وبعد كل السنوات التي قضاها هنا لن يعود قادراً بعد الآن على تحمل البرودة الرطبة والعتمة التي يضيفها الجو الإنكليزي الغائم.

بُنيت إشبيلية بشكل مفتوح على خليج نهري، وامتد داخل هذا الخليج شاطئ رملي موحد وعريض. كان الشاطئ أعلى من مستوى الحافة المائية ويصل إلى أراضٍ أكثر قساوة حيث استقرت آلاف المنازل والقصور والكنائس قريبة جداً بعضها من بعض في إحدى أكبر مدن إسبانيا.

اكتظ الشاطئ بالرجال والأحصنة والثيران فيما السفن تُفرغ حمولاتها على عربات النقل أو تُحمّل بالبضائع. ساوم الشارون والباعة بأعلى أصواتهم، بينما تفحص بارني السفن الراسية، وأصاخ السمع بحثاً عن تلك الحروف الصوتية الطويلة والحروف الساكنة الخفيفة للغة الإنكليزية.

هناك شيءٌ ما في منظر السفن يجعل قلبه يُغني من السعادة. لم يكن أكثر سعادة في حياته مما كان عليه في رحلته إلى هنا، لأنه أحبّ البحر رغم الطعام الفاسد ومياه الشرب القذرة والمياه الآسنة التنتنة على ظهر المركب والعواصف المرعبة. أثار فيه الإحساس بالسرعة عبر غمار الأمواج والرياح تعبٌ الأشربة متعة تعادل متعة النوم مع امرأة، حسناً... تقريباً.

اكتظت السفن قريية بعضها من بعض عند الرصيف المائي بنفس الكثافة التي اكتظت فيها بيوت هذه المدينة. كانت جميعها ترسو بمقدمتها باتجاه الرصيف والمؤخرة نحو البحر. في ميناء كومب اعتاد بارني التجول على أرصفة السفن حيث ترسو من خمس إلى عشر سفن في يوم مزدحم إلا أن ميناء إشبيلية يستقبل خمسين سفينة يومياً وبشكل منتظم.

كان وراء زيارة بارني الرصيف المائي باكراً سبب حقيقي، فهو يعيش مع أحد أنسباء والده ويدعى كارلوس كروز، وكارلوس يعمل في الحدادة. تُصنع إشبيلية الأسلحة اللازمة لحروب الملك فيليبي الثاني التي لا تنتهي، ولكن لم يكن المعدن الضروري لصنع الأسلحة متوفراً بما يكفي لذلك اشترى كارلوس كل شيء واستورده من والدته بارني، فقد اشترى الرصاص من منطقة مينديب هيلز لصنع القذائف، والقصدير من مناجم كورنوول لصنع حاويات الطعام وأدوات المطبخ على السفن. كان خام الحديد أبرز ما استورده كارلوس، ولكن خامات الحديد والمعادن تصل إلى إشبيلية بحراً عن طريق مُصدّرين آخرين في إنكلترا وجنوب إسبانيا لذلك اضطر كارلوس إلى الشراء منهم أيضاً.

توقف بارني ليراقب سفينة جديدة ترسو بعناية، فقد بدت سفينة مألوفة وطار قلبه فرحاً وأملاً. يبلغ طول السفينة مئة قدم وعرضها عشرين قدماً. راج هذا الشكل الطولاني والضيق للسفن بين القباطنة الذين يجون الإبحار بسرعة، وتكهن بارني أنها تحمل ما يعادل مئة طن. تتكون السفينة من ثلاث صواري وخمسة أشرعة مربعة من أجل قوة الدفع، بالإضافة إلى شراع مثلثي على الصارية الوسطى من أجل المناورة، ولهذا السبب تعد سفينة خفيفة الحركة.

فكر بارني بأنّها ربما تكون سفينة ذا هوك التي يملكها فيلبرت كوبلي من كينغزبريدج، وعندما سمع البحارة ينادون بعضهم بالإنكليزية تأكد من الأمر. ثم رأى بارني رجلاً أصلع في حدود الأربعين من العمر بشرة رأسه برونزية ولحيته شقراء يخوض في المياه الضحلة للشاطئ. عرفه بارني على الفور. كان الرجل يدعى جوناثان غرينلاند وهو غالباً ما يُبحر كمساعد للقبطان ليكون.

انتظر بارني إلى أن أحكم جوناثان الحبل على وتد بعيد عن الشاطئ. عادة ما يحصل الرجال من أمثال جوناثان في كينغزبريدج على كأس أو كأسين من النبيذ عند زيارتهم منزل عائلة ويلارد الذي يقع قبالة كاتدرائية كينغزبريدج؛ فوالدته تتمتع بشهية طيبة للأخبار القادمة من كل مكان. عندما كان بارني صغيراً أحبّ الإصغاء إلى جوناثان وهو يتحدث عن أفريقيا وروسيا والعالم الجديد، تحدث عن أماكن لا تغرب فيها الشمس أو لا يذوب فيها الثلج أبداً. اختلطت التقارير التي قدّمتها عن الأسعار والسياسة بحكايات عن الخيانات والقرصنة والعصيان وخطف السفن.

كانت القصة المفضّلة لدى بارني قصة كيف أصبح جوناثان بحاراً. عندما كان جوناثان في الخامسة عشرة ثمّل في حانة جولي سيلر في ميناء كومب مساء السبت، واستيقظ في صباح اليوم التالي على بعد ميلين من الشاطئ وعلى سفينة متجهة إلى لشبونة. لم ير إنكلترا مجدداً إلا بعد أربع سنوات، ولكنه عندما عاد كان لديه ما يكفي من المال ليشتري منزلاً. كان جوناثان يقصّ هذه الحكاية كتحذير لكن الفتى بارني رآها مغامرة مدهشة، وتمنى لو أنّها حدثت معه. رغم أنّ بارني أصبح رجلاً في العشرين فإنّه ما زال يؤمن أنّ خوض البحر أمرٌ ممتع.

عندما أحكم جوناثان ربط سفينة ذا هوك، تصافح الرجلان.

«أنت ترتدي قرطاً!» قال جوناثان متفاجئاً وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة. «أصبحت شخصاً غريباً. هل هذه موضة إسبانية؟».

«ليس تماماً»، قال بارني. «إنّها أقرب للموضة التركية. فلتسمّها نزوة من نزواتي».

ارتدى بارني القرط لأنّه يضيف على مظهره لمسة رومانسية تجدها الفتيات مثيرة للاهتمام.

هزّ جوناثان كتفيه وقال: «لم أزر إشبيلية قبلاً، كيف الوضع هنا».

«أحبّ المدينة. النبيذ هنا قوي جداً والفتيات جميلات»، أجاب بارني. «ولكن هل لديك أيّ أخبار عن عائلتي؟ ما الذي حدث في كاليه؟».

«يحمل القبطان بيبكون رسالة لك من أمك، ولكن ليس لدي الكثير لأخبرك به. ما زلنا بانتظار أخبار موثوقة».

انتاب بارني شعور بالاكتئاب وقال: «لو كان الإنكليز في كاليه يتلقون معاملة رحيمة ويُسمح لهم بمتابعة العيش والعمل هناك لكانوا أرسلوا أخباراً الآن. كلما طال انتظارنا ازداد احتمال أنهم تعرضوا للأسر أو ربما للأسوأ».

«هذا ما يقوله الناس».

صرخ أحدهم منادياً جوناثان من على سطح السفينة فقال جوناثان لبارني معتزراً: «يجب أن أعود إلى السفينة».

«هل تحملون على السفينة خام الحديد؟ أريده من أجل نسيبي كارلو».

هزّ جوناثان رأسه بالنفي وقال: «حمولة هذه السفينة من القطن فقط».

ناداه أحدهم بنفاد صبرٍ مرة أخرى.

«سأحضر لك رسالتك لاحقاً»، قال جوناثان.

«فلتأتِ لتناول العشاء معنا الليلة، نحن نقطن في أقرب حي إلى المدينة حيث يتصاعد دُخان الأفران، ويدعى الحي إل أرينال وهو المكان الذي تُصنع فيه كل أسلحة الملك. فلتسأل عن كارلوس كروز».

اندفع جوناثان يتسلق الحبل وابتعد عن أنظار بارني.

لم يُفاجأ بارني بعدم وصول أيّ أخبار من كاليه ولكنه شعرَ بوهن في عزمته. قضت والدته أفضل سنوات حياتها تؤسس لأعمال العائلة، وشعر بارني بالغضب والحزن حيال تعرّض كل هذا الجهد الذي بذلته إلى السرقة.

انتهى من جولته على الرصيف المائي من دون أن يعثر على من يبيع خام الحديد. قطع جسر تريانا ومشى عائداً إلى المدينة عبر الشوارع الضيقة المتعرجة التي اكتظت الآن بالناس ممن غادروا منازلهم لبدء أعمالهم لهذا اليوم. كانت مدينة إشبيلية أكثر ثراءً من مدينة كينغزبريدج، ولكن مقارنة بها بدا الناس في إشبيلية أكثر بؤساً. إن إسبانيا أغنى بلد في العالم، ولكنه الأكثر تحفظاً أيضاً، فقد كان هناك قوانين تمنع الثياب المُبهرجة لذلك كان الأغنياء يرتدون ثياباً سوداء والفقراء ثياباً بنية كالحمة. اعتقد بارني أنّ هذا التشابه بين المتعصبين الكاثوليك والبروتستانتين أمر باعث على السخرية.

يُعتبر التجول في المدينة في مثل هذا الوقت من النهار أقل خطورة فالسارقون ونشالو الجيوب نائمون صباحاً ولا يبدوون ممارسة أعمالهم إلا بعد الظهر ومساءً عندما يغدو الرجال أقل حذراً تحت تأثير النبيذ.

لدى اقترابه من منزل عائلة رويز أبطاً بارني في سيره. كان منزلاً حجرياً جديداً ومثيراً للإعجاب بصف من أربع نوافذ كبيرة في الطابق العلوي. تغطي النوافذ بستائر شبكية في وقت لاحق من النهار، ويجلس السنيور بيدرو رويز السمين جداً خلف إحداها كضفدع وراء حزمة من القصب يراقب العابرين من وراء الستارة الشبكية. لا بد أنه نائم في مثل هذا الوقت المبكر؛ فجميع النوافذ والستائر الشبكية مفتوحة حتى يدخل هواء الصباح اللطيف.

نظر بارني إلى الأعلى وعثر على ما كان يبحث عنه. رأى جيرونيما ابنة السنيور رويز ذات السبعة عشر ربيعاً، فتباطأ بارني في مشيته أكثر وحدق نحوها وهي واقفة ببشرتها الشاحبة وتموجات شعرها الداكن والكثيف تشرب، والأهم من هذا حدق في عينيها العسليتين الكبيرتين والمُشعنتين بقوة تحت حاجبين أسودين. ابتسمت له ولوحت تلويحةً حذرة.

لم يكن يُفترض بالفتيات ذوات المحتد الأصيل أن يقفن بالقرب من النوافذ أصلاً ناهيك عن التلويح إلى فتیانٍ عابرين، وستقع جيرونيما في ورطة إن اكتشفوا أمرها. لكنها كانت تخاطر بهذا كل صباح وفي مثل هذا الوقت. شعر بارني بالإثارة لمعرفة أن هذا أقصى ما يمكنه فعله لمغازلتها. تجاوز المنزل ثم استدار وبدأ يمشي باتجاه عكسي والابتسامة لا تفارق وجهه، فتعثر وكاد يقع واصطنع تكشيرة على وجهه. ضحكت جيرونيما ووضعت يدها على شفيتها الحمراروين.

لم يكن بارني يخطط للزواج من جيرونيما فهو في العشرين من عمره ولم يكن جاهزاً للزواج بعد. وحتى إن كان جاهزاً فلم يكن واثقاً من أن جيرونيما هي الزوجة المناسبة، لكنه رغب بالتعرف إليها ومغازلتها سراً عندما لا يكون أحد في الجوار واستراق القبل منها. على أي حال تخضع الفتيات في إسبانيا لرقابة صارمة أكثر من الفتيات في إنكلترا، ثم أرسل لها قبلة في الهواء دون أن يكون واثقاً من أنه سيحصل على قبلة حقيقية منها يوماً ما.

أدارت جيرونيما رأسها وكأنها سمعت أحداً ينادي باسمها وخلال دقيقة اختفت وابتعد بارني على مضض.

لم يكن منزل كارلوس بعيداً، وانتقل بارني بأفكاره من التفكير بالحب إلى التفكير بالفطور بسرعة جعلته يشعر ببعض الخجل.

يزدان مدخل منزل عائلة كروز بقطرة واسعة تُفضي إلى فناء تجري فيه أعمال الحدادة. وعند جدران الفناء تكدست أكوام خامات الحديد والفحم والكلس تفصلها حواجز خشبية. في إحدى الزوايا رُبطَ ثورٌ واستقر وسط الفناء فرن الصهر.

كان إبرما دابو - عبدُ كارلوس الأفريقي - يُذكي النار ويجهزها من أجل أول دفعة لهذا اليوم وقد تجمعت قطرات العرق على جبهته العريضة والغامقة. التقى بارني بأفارقة كثر في إنكلترا خاصة في الموانئ كميناء كومب، ولكنهم كانوا أفارقة أحراراً، فالقانون البريطاني لم يُشرع العبودية. أما في إسبانيا فكانت الأمور مختلفة، فهناك آلاف العبيد في إشبيلية، وخبّن بارني أن نسبتهم تصل إلى واحد من عشرة وكانوا من العرب والأفارقة الشماليين وبعضهم من سكان الأمريكتين الأصليين. أتى بعضهم كإبرما من منطقة مانديكا في أفريقيا الغربية. كان بارني ماهراً في تعلم اللغات بسرعة، وتعلّم بضع كلمات من اللغة المانندية. كان يسمع إبرما يُحيي الناس بعبارة: «آي بي نيايدي؟» التي تعني «كيف حالك».

وقف كارلوس وظهره إلى مدخل المنزل يدرس الكتلة الحجرية المبنية حديثاً. كان قد سمع عن أنواع مختلفة من الأفران، ومنها ما كان يسمح بنفخ الهواء من الأسفل فيما تُلقى خامات الحديد والكلس من الأعلى. لم يرَ أيّ من الرجال الثلاثة مثل هذا الفرن قبلاً، ولكنهم بنوا نموذجاً تجريبياً، وعملوا عليه في أوقات فراغهم.

«لم أجد خام الحديد على الرصيف المائي اليوم»، تحدث بارني مع كارلوس بالإسبانية.

كان عقل كارلوس مشغولاً بالفرن الجديد. حكّ ذقنه السوداء المُجعدة ثم قال وهو ما يزال مستغرقاً في التفكير: «علينا أن نجد طريقة لربط الثور حتى يعمل الكبير».

عبس بارني وأجاب: «لا أرى مشكلة في الأمر. يمكنك أن تجعل أيّ حيوان يعمل بأيّ آلية تريدها ما دام لديك العجلات الكافية».

سمع إبرما ما كانا يقولانه وقال: «يمكننا أن نستخدم كيرين؛ واحداً للنفخ وآخر لسحب الهواء».

«فكرة جيدة»، قال كارلوس.

كان قسم الطبخ في الفناء قريباً بعض الشيء من المنزل. حرّكت جدة كارلوس قدراً وقالت لهم: «اغسلوا أيديكم أيها الفتیان فالطعام جاهز». كانت جدة كارلوس أخت جدة بارني، ودعاها بارني بالخالة بيتسي رغم أنّها معروفة في إشبيلية باسم إليسا. كانت امرأة طيبة القلب رغم أنّها لم تكن جميلة فوجهها يتوسطه أنفٌ كبير ملتوٍ وظهرها عريض وقدمائها ويدها كبيرة. ورغم بلوغها الخامسة والستين من العمر فإنها كانت موفورة الصحة والنشاط. تذكّر بارني جدته في كينغزبريدج التي اعتادت القول له:

«عندما كانت أختي بيتسي فتاةً أثارت الكثير من المتاعب، ولهذا أرسلوها إلى إسبانيا».

لم يكن من السهل تصديق هذا الكلام فالعمة بيتسي الآن امرأة حذرة وحكيمة، وقد حدّرت بارني سراً من أنّ جيري ونيما رويز لا تهتم إلا بمصلحتها الشخصية، وأنّها من كل بد ستزوج من شخصٍ أغنى من بارني.

توفيت والدة كارلوس بعد ولادته وربته بيتسي، وتوفي والده منذ عام أي قبل بضعة أيام على وصول بارني إلى إشبيلية. عاش الرجال في قسمٍ بينما شغلت الخالة بيتسي التي تملك المكان النصف الآخر من المنزل.

وضعت بيتسي الطاولة في الفناء فهم عادة ما يتناولون الطعام خارجاً في النهار ما لم يكن الطقس بارداً جداً. جلسوا وتناولوا بيضاً مطبوخاً مع البصل وإلى جانبه خبزٌ أبيض وإبريق من النيذ المخفف، ولأنهم رجال أقوياء يقومون بأعمالٍ مُجهدة طوال اليوم أكلوا كثيراً.

تناول إبرما الطعام معهم رغم أنّه يُمنع على العبيد في العائلات الكبيرة الغنية تناول الطعام مع مَلاكهم، ولكن كارلوس حُر في يعمل بيديه وإبرما يكدح إلى جانبه، رغم هذا لم يُظهر إبرما أيّ قلة احترام نحو سيده؛ فلم يكن هناك أي ادعاء بالمساواة بينهما.

صُعق بارني من اقتراح إبرما الذكي خلال حديثهم عن الفرن الجديد. «أنت تعرف الكثير عن الحدادة»، قال له بارني أثناء تناول الطعام. «هل تعلمت هذا من والد كارلوس؟».

«كان والدي حداداً»، قال إبرما.

«أوه»، قال كارلوس متفاجئاً ثم تابع: «لم يُخيل لي قط أن الأفارقة يمارسون الحدادة».

«كيف تعتقد أننا نحصل على السيوف لنقاتل في الحروب؟».

«بالطبع... ولكن كيف أصبحت عبداً؟».

«أسرتُ أثناء حربٍ مع مملكة مجاورة. في موطني يتحول سجناء الحرب إلى عبيد، ويعملون في حقول الطرف الرابع، ولكن سيدي توفي وباعني أرملة إلى تاجر عبيد عربي... وبعد رحلةٍ طويلةٍ انتهى بي المطاف في إشبيلية».

لم يسأل بارني إبرما عن ماضيه قبلاً ولكنه شعر بالفضول الآن، وتساءل إن كان إبرما يشاق إلى وطنه أو يفضل البقاء في إشبيلية؟ يبدو أنه في الأربعين من عمره. ترى في أيِّ عمرٍ أصبح عبداً؟ هل يفترق عائلته؟ ولكن إبرما قال في هذه اللحظة:

«هل يمكنني أن أسألك سؤالاً يا سيد ويلارد؟».

«بالطبع».

«هل لديكم عبيد في إنكلترا؟».

«ليس تماماً».

تردد إبرما. «ما الذي تعنيه بـ ليس تماماً؟».

فكر بارني لبعض الوقت.

«في مدينتي كينغزبريدج صائغٌ برتغالي يدعى رودريغو. يشتري رودريغو أقمشة ومخرمات وحريراً فاخراً ويطرزها باللالئ ليصنع منها قبعات وأوشحة وخمراً وثياباً مُبهرجة. تثير هذه الأشياء جنون النساء، وتأتي زوجات الأثرياء من جميع أنحاء غرب إنكلترا لشرائها من متجره».

«وهل كان عبداً؟».

«عندما وصل رودريغو منذ خمس سنوات كان برفقة سائس خيل مغربي يُدعى أحمد. كان أحمد ذكياً في تعامله مع الحيوانات، وانتشرت هذه المعلومة بين أهالي كينغزبريدج، فقدم الناس المال لأحمد كي يعالج أحصنتهم. بعد مرور فترة من الزمن اكتشف رودريغو هذا وطالبه بالمال، ولكن أحمد لم يعطه شيئاً، فتوجه رودريغو إلى محكمة الجُنح وقال إن

المال ماله لأن أحمد عبده ولكن القاضي تَلبري قال لرودريغو: «لم يخرق أحمد أيّ قانون إنكليزي». وبهذا خسر رودريغو واحتفظ أحمد بماله، وهو الآن يملك منزلاً ويعيش من عمله كطبيب بيطري».

«إذا يُمكن للإنكليز أن يملكوا عبيداً، ولكن إن اختار العبد المغادرة لا يستطيع المالك إجباره على العودة».

«بالضبط».

لاحظ بارني أنّ هذه الملاحظة أثارت اهتمام إيرما. وربما حلمَ بالسفر إلى إنكلترا ليصبح رجلاً حرّاً.

توقف الجميع عن الحديث فجأة، وظهر التوتر على كل من كارلوس وإيرما فجأة بينما حدقا باتجاه المدخل ذي القنطرة.

تتبع بارني نظراتهما ورأى ثلاثة أشخاص يقتربون منهم. سار في المقدمة رجلٌ قصير عريض المنكبين بثياب باهظة الثمن وشارب دهني. خلفه بخطوة أو خطوتين وعلى كلا جانبيه سار رجلان طويلان في ثياب رخيصة يبدوان كخادمين أو حارسين شخصيّين. لم يرَ بارني أيّاً من الرجال الثلاثة من قبل ولكنه ميّز نوعهم. كانوا من قُطاع الطرق.

تحدث كارلوس بلهجة حيادية حذرة: «صباح الخير يا سانشو سانشيز».

«صديقي كارلوس»، قال سانشو.

بدا لبارني أنهما لم يكونا صديقين.

وقفت الخالة بيتسي وقالت: «فلتجلس من فضلك يا سنيور سانشيز».

كانت كلماتها ترحيبية، ولكن لم تكن لهجتها كذلك. «دعني أعدّ لك الفطور».

«لا شكراً لك يا سنيورا كروز»، قال سانشو. «ولكن سأتناول كأساً من

البيذ». وجلس على كُرسي الخالة بيتسي بينما بقي مرافقاه على وقفتهما.

بدأ سانشو يتحدث عن أسعار الرصاص والقصدير، وفهم بارني من

حديثه أنّه حداد أيضاً. تابع سانشو حديثه، وأخذ يُناقش الحرب مع فرنسا ثمّ وباء الحمى الارتعاشية التي اكتسحت المدينة، وحصدت حياة الأغنياء

والفقراء على حد سواء. تحدث كارلوس معه ببرود، وتوقف الجميع عن تناول الطعام. وأخيراً بدأ سانشو الحديث عن الأعمال.

«لقد أبلت حسناً يا كارلوس»، قال سانشو بتعالٍ وتابع: «عندما توفي

والدك، فلترقد روحه في سلام، لم أتصور أنك ستنجح بالاستمرار في العمل وحده، إذ كنت في الحادية والعشرين وقد انتهيت للتو من تدريبك، ولكنك كنت جاهزاً للمحاولة مع أنني اعتقدت أنك ستفشل. فوجئنا جميعاً بك». بدا كارلوس متحفظاً وقال بحيادية: «شكراً لك».

«عرضت عليك منذ عام شراء ورشتك مقابل مئة قطعة من الفضة».

عدّل كارلوس ظهره وكتفيه ورفع ذقنه ويده بشكل دفاعي بينما تابع سانشو كلامه: «أعرف أنه مبلغ قليل ولكنني اعتقدت أنّها القيمة الحقيقية للورشة بعد أن توفي والدك».

«كان العرض مهيناً»، قال كارلوس ببرود.

تصلب الحارسان الشخصيان في وقتها، فالحديث عن الإهانات قد يقود بسرعة إلى أعمال عنف.

حافظ سانشو على سلوكه اللطيف، أو ربما ما بدا سلوكاً لطيفاً باعتقاد بارني. لم يعتذر عن إهانة كارلوس بل تحدث بتسامح وكأنّ كارلوس هو من أهانه: «اتفهم شعورك على هذا النحو، ولكن لدي ولدين وأريد أن أؤمن عملاً لكل واحد منهما. أنا على استعداد الآن لأدفع لك ألف قطعة فضية». وأضاف سانشو وكأنّ كارلوس يعجز عن فهم هذا المقدار من المال: «إنّه عشرة أضعاف المبلغ الذي عرضته قبلاً». «ما زال المبلغ قليلاً جداً».

تحدث بارني مع سانشو للمرة الأولى: «لم لا تبني فرناً آخر لابنك الثاني؟». حدّق سانشو نحو بارني بتكبير وكأنّه لم يلاحظ وجوده قبلاً، وبدا غير راضٍ عن انخراط بارني في حديث لم يكن موجهاً إليه، إلا أن كارلوس من أجاب على السؤال الذي طرحه بارني: «كما هو حال معظم الصناعات في إسبانيا هناك شركة واحدة تتحكم بكل أعمال مهنة معينة، إن الأمر أشبه بالنقابات المهنية الإنكليزية ولكنها أكثر تحفظاً، وتعمل الشركة على تحديد عدد الأفران».

«تحافظ اللوائح على معايير عالية وتطرد العاملين المخادعين»، قال سانشو.

«أعتقد أنها تحرص أيضاً على عدم بخس أسعار المواد البديلة»، قال بارني.

«إنّ سانشو في مجلس نقابة حدادي إشبيلية يا بارني»، أضاف كارلوس. لم يكن سانشو مهتماً ببارني وقال: «يا صديقي وجاري كارلوس أجنبي عن سؤال بسيط: ما السعر الذي يناسبك لبيع ورشتك؟».

هزّ كارلوس رأسه: «إنّها ليست للبيع». بدا واضحاً أن سانشو كبح رداً سريعاً غاضباً وأجبر نفسه على الابتسام ثم قال: «يمكن أن أدفع لك ألفاً وخمسمائة قطعة فضية». انتبه بارني إلى أنّ الخالة بيتسي بدت خائفة من سانشو وتشعر بالقلق من أن يثير كارلوس غضبه.

انتبه كارلوس أيضاً إلى نظرتها المرتعبة، وأجبر نفسه على التحدث بلهجة أكثر لطفاً: «ولكنني أشكرك على لطف عرضك أيها الجار سانشو». كانت محاولة جيدة من قبل كارلوس ولكنها لم تكن مقنعة. «قد تندم على هذا يا كارلوس»، قال سانشو وقد تخلى عن مظهره اللطيف الخادع.

أصبح صوت كارلوس أكثر ازدراءً: «لمّ قد تقول شيئاً كهذا يا سانشو؟ يبدو لي كلامك كنوع من التهديد».

لم يؤكد سانشو أو ينفي نية التهديد وقال: «إن ساءت أمور العمل فسيتتهي بك المطاف تتحسر على عدم أخذ المال الآن».

«سأقوم بهذه المخاطرة، ويجب أن أعود إلى العمل الآن فدرع الملك ينتظرني».

بدا سانشو غاضباً جداً لأنّه تعرض للطرد بهذه الطريقة ونهض على قدميه. «أرجو أن تكون قد تمتعت بالنيذ يا سنيور سانشو. إنّه من أفضل ما لدينا»، قالت الخالة بيتسي.

لم يكلف سانشو نفسه عناء الإجابة على هذه الملاحظة الروتينية من امرأة وقال لكارلوس: «سنتحدث لاحقاً في وقت قريب».

رأى بارني أن كارلوس لجم نفسه من أن يُدلي بردّ سريع ساخر واكتفى بإيماءة صامتة.

وعندما كان سانشو على وشك المغادرة لفت الفرن الجديد انتباهه وقال: «ما هذا؟ فرن آخر».

«حان الوقت لاستبدال فرني القديم». نهض كارلوس وتابع كلامه: «شكراً على مرورك يا سانشو».

لم يتحرك سانشو. «يبدو لي أنّ فرنك القديم سليم تماماً». «عندما يجهز الفرن الجديد سنهدم الفرن القديم، فأنا أعرف القوانين كما تعرفها أنت. وداعاً».

«يبدو الفرن الجديد غريباً»، ألح سانشو. «أقلت كارلوس العنان لغضبه وقال: «أقوم ببعض التعديلات على التصميم التقليدي، فليس هناك من قانون يمنع هذا». «حافظ على هدوئك يا بني. ببساطة أنا أطرح عليك أسئلة». «وأنا ببساطة أقول لك وداعاً».

لم يبدُ على سانشو الغضب من وقاحة كارلوس، وتابع التحديق نحو الفرن الجديد لبرهة ثم التفت وغادر ولحق به حارساه الشخصيان دون أن يتفوها بكلمة طوال الوقت.

عندما أصبح سانشو بعيداً عن مرمى السمع قالت الخالة بيتسي: «سانشو عدو سيء». «أعلم»، قال كارلوس.

في تلك الليلة نام إبرما مع جدة كارلوس. في قسم الرجال نام بارني وكارلوس على أسرة في الطابق العلوي، بينما نام إبرما على فراش في الطابق الأرضي. في هذه الليلة بقي إبرما صاحباً لنصف ساعة بعد أن خلد بارني وكارلوس إلى النوم، وعندما تأكد من أنّ البيت هادئ نهض وعبر الفناء إلى القسم الذي تنام فيه إيلسا، انسل بقربها ومارسا الجنس.

رغم أن إيلسا عجوز بيضاء وبشعة فإنّ جسدها في الظلام ناعم ودافئ، والأهم من هذا كانت تعامل إبرما بلطفٍ على الدوام. لم يحبها إبرما ولن يُحبها أبداً، ولكن لم يكن صعباً عليه أن يعطيها ما أرادت.

غفت إيلسا بعد أن انتهيا من ممارسة الجنس، وبقي إبرما صاحباً يتذكر المرة الأولى التي مارس فيها الجنس مع إيلسا.

أحضر إبرما إلى إشبيلية على متن سفينة تحمل عبداً، ويبيع إلى والد كارلوس منذ عشر سنين. كان وحيداً ويائساً، ويشعر بالحنين إلى الوطن. وفي يوم من أيام الأحاد وبينما كان الجميع في الكنيسة رآته جدة كارلوس التي يُسميها بارني بيتسي فيما يناديها إبرما بإليسا، وهو يبكي في أسى، وفوجئ إبرما عندما قبّلت دموعه، وضمت وجهه إلى صدرها الناعم، فدفعه توفقه إلى العاطفة البشرية إلى ممارسة الجنس معها بجوع.

أدرك إبرما أنّ إليسا تستغله، فهي تستطيع إنهاء العلاقة متى أرادت ولكنه لا يستطيع القيام بهذا. على أي حال كانت إليسا الكائن البشري الوحيد الذي يستطيع ضمه بين ذراعيه، وقد منحته العزاء في منفاه الوحيد على مدار عشر سنوات مضت.

عندما أخذت إليسا تشخر عاد إبرما إلى سريره.

في كل ليلة وقبل أن ينام يُفكر إبرما بحريته. تخيل نفسه في بيت يملكه مع زوجة وربما بعض الأطفال أيضاً، وفي هذا الحلم رأى في جيوبه مالا كسبه من عمله، وملابس اختارها بنفسه ودفع ثمنها من ماله ولم تكن ملابس مستعملة. تخيل أنّه قادر على مغادرة المنزل والعودة إليه متى أراد دون أن يجلده أحد، فلطالما اشتهى النوم للغوص في هذا الحلم الذي يراوده أحياناً. نام إبرما لبضع ساعات واستيقظ مع أول خيوط الفجر. اليوم هو الأحد وسيرافق كارلوس إلى الكنيسة، ومساءً سيرتاد حانة يملكها عبد أفريقي حُر ليُقامر بالقليل من المال الذي جناه من الإكراميات. ولكن قبل أي شيء عليه أن يؤدي واجباً خاصاً، ولذلك ارتدى إبرما ثيابه وغادر المنزل.

مرّ بالقرب من البوابة الشمالية للمدينة واتخذ مسار النهر صعوداً وضوء الشمس يزداد توهجاً. بعد مرور ساعة وصل إلى بقعة منعزلة زارها قبلاً حيث تحفّ بالنهر غيضة من الأشجار، وهناك أدى طقس الماء.

لم يشاهده أحدٌ هنا من قبل، ولكن الأمر غير مهم لأنّه سيبدو كأنّه يستحم فقط.

لم يكن إبرما يؤمن بالرّب المصلوب، وهو يتظاهر بهذا لأنّ الحياة ستغدو أسهل إن تظاهر. عمّد كمسيحي هنا في إسبانيا، ولكن لم يكن عليه أن يكون كذلك. لا يدرك الأوروبيون أنّ هناك أرواحاً في كل مكان، في

نوارس البحر، وفي الريح الغربية، وفي أشجار البرتقال، وكانت روح النهر أعظم هذه الأرواح. يعلم إيرما هذا لأنه تربي في قرية على ضفة نهر، لكن هذا النهر مُختلف عن نهر قريته، ورغم عدم معرفة إيرما بالمسافة التي تفصله عن مسقط رأسه فإن روح الماء هي نفسها هنا أيضاً.

بينما خاض إيرما في المياه متمتماً بكلماتٍ مقدسة تدفقت السكينة إلى روحه وسمعَ لذكرياته بالخروج من أعماق عقله. تذكّر والده الذي كان رجلاً قوياً بندوب حروق سوداء على جلده الأسمر جراء عمله بالمعدن المصهور، وتذكّر والدته بصدرها العاري تنظف حديقة الخضار خاصتها من الأعشاب الضارة، وأخته تحمل ابنها الذي لن يراه يكبر ليصبح رجلاً. ما من أحد فيهم يعرف اسم المدينة التي يعيش فيها إيرما الآن، ولكنهم جميعاً يعبدون نفس الروح.

غمرته روح النهر بالراحة رغم حزنه، وبينما كان ينتهي من أداء الشعيرة نفحته الروح عطيتها الأخيرة... منحته القوة. خرج إيرما من النهر وجلده يقطر ماءً، ورأى أن الشمس قد بزغت، وعرف أنه سيكون قادراً على التحمل قليلاً بعد.

يذهب بارني مع كارلوس والخالة بيتسي وإيرما إلى الكنيسة أيام الأحاد. رأى بارني أنهم كانوا يبدوون كمجموعة غريبة من الأشخاص فمظهر كارلوس اليافع جداً لا يوحي أنه رب العائلة رغم لحيته الكثّة وكتفيه العريضتين، أما الخالة بيتسي فلم تبدُ صغيرة أو كبيرة، ورغم الشيب الذي غزا رأسها فإن قوامها ما يزال رشيقاً، وبدا إيرما بقامته الممشوقة أنيقاً في ثياب كارلوس المستعملة. كان لبارني لحية صهباء وعينان عسلتان كجميع أفراد عائلة ويلارد وقد ارتدى قرطاً في أذنه. بدا مظهره غريباً بما يكفي لإثارة نظرات الاستغراب، وبخاصة نظرات الشابات وكان هذا ما أراده بالضبط.

كانت كاتدرائية إشبيلية أكبر من كاتدرائية كينغزبريدج وهي تعكس ثراء رجال الدين الإسبان. أحاط بصحن الكنيسة الرئيسي والعالى جداً ممران جانبيان بالإضافة إلى صفين من الكنائس الصغيرة الجانبية، وهذا ما ساهم في جعل عرض المبنى يبدو بطوله. كانت الكاتدرائية كبيرة جداً إلى درجة أنها

تسرع وبسهولة لأيّ كنيسة أخرى في المدينة. وبدا التجمع المكون من ألف شخص أمام المذبح العالي صغيراً جداً، وضاع كلامهم أثناء تلقي القربان في فراغ القناطر فوقهم. كان المذبح عظيماً ومزيناً بالكثير من الزخارف المذهبة رغم أن العمل عليه لم ينته حتى بعد خمسة وسبعين عاماً من العمل.

يُعتبر القداس حدثاً اجتماعياً هاماً وفرصةً لتحقيق خلاص الروح أيضاً، والجميع مُجبر على الذهاب وبخاصة المواطنين المُهمون؛ فالقداس يؤمن للناس فرصة التحدث مع أشخاص لا يُمكن للمرء أن يلتقيهم بالحالة العادية، ويُمكن لفتاةٍ محترمة أن تتحدث إلى رجلٍ عازب دون أن تُخاطر بسمعتها رغم أن أهلها سيراقبونها عن كثب.

ارتدى كارلوس معطفاً جديداً بياقة فرائية. كان قد أخبر بارني مسبقاً أنه يخطط اليوم للتحدث مع والد فالتينا فيلايردي التي يعشقها. بقي كارلوس لعام متردداً في القيام بهذا؛ فهو يعلم أن مجتمع الأعمال يراقبه ليعرف إن كان سيحقق النجاح في العمل الذي ورثه عن والده، ولكنه بات يشعر الآن أنه انتظر طويلاً بما يكفي. وإن كان لزيارة سانشو دلالة فهي أن الناس يعترفون بالنجاح الذي حققه كارلوس، وأن هناك رجلاً واحداً على الأقل يريد شراء عمله منه. كان هذا الوقت المناسب لطلب يد فالتينا، وإن قبلت الزواج به فلن يكون كارلوس قد تزوج من عروسٍ يُحبها فقط بل تزوج من نخبة إشبيلية الكفيلة بحمايته من المفترسين أمثال سانشو.

التقوا بعائلة فيلايردي أثناء مغادرتهم البوابة الغربية الكبيرة للكاتدرائية. انحنى كارلوس بشدة أمام فرانيسكو فيلايردي ثم ابتسم بشوق لفالتينا. لاحظ بارني أن بشرتها وردية اللون وشعرها أشقر وتشبه الفتيات الإنكليزيات أكثر مما تشبه الإسبانيات. أفضى كارلوس لبارني قبلاً أنه في حال تزوج منها فسيبني لها منزلاً عالياً وجميلاً بنوافير وحديقة بأشجار وارفة حتى لا تسفح الشمس خديها الورديين.

ابتسمت له فالتينا بسعادة. كانت الفتاة خاضعة لحماية صارمة من قبل والدها وأخيها وأمها، ولكن لم يكن باستطاعتهم منعها من إظهار سعادتها برؤية كارلوس.

كان لدى بارني مهام تودد خاصة به أيضاً. تفحص الجموع ورأى بيدرو

رويز وابنته جيرونيما. أما زوجة بيدرو فهي متوفاة. اندفع بارني عبر حشود المُصلين باتجاه المكان الذي وقفا فيه، وانحنى أمام بيدرو الذي كان يلهث بعد قطع المسافة القصيرة التي تفصل منزله عن الكاتدرائية. كان بيدرو رجلاً مُفكراً، وتحدث إلى بارني عن كوكب الأرض وعن احتمال دورانه حول الشمس أو العكس.

كان بارني مهتماً بابنته أكثر من اهتمامه بآرائه. التفت بابتسامته المُشعة نحو جيرونيما وابتسمت له بالمقابل.

«أرى أن صديق والدك رئيس الشمامسة روميرو هو من تولى أداء المراسم اليوم»، قال بارني. صعد بسرعة نجم روميرو كرجل دين، ويُقال إنّه كان قريباً من الملك فيليبي. يعلم بارني أنّ روميرو أحد الزوار الدائمين إلى منزل عائلة روز.

«يحبّ والدي مناقشته في أمور اللاهوت»، قالت جيرونيما، وعلت وجهها تكشيرة تتمّ عن الاشمئزاز ثمّ أخفضت صوتها وتابعت: «إنّه يزعجني».

«روميرو؟» نظر بارني بحذر نحو بيدرو الذي انحنى في تلك اللحظة لشخصٍ مر بقربه وأبعد عينيه عن ابنته لدقيقة. «ما الذي تعنيه بقولك إنّه يزعجك؟».

«يقول لي إنّه يأمل أن يصبح صديقي بعد أن أتزوج ويتحسس عنقي وهذا يجعلني أقشعر قرفاً».

فكرّ بارني بأن لرئيس الشمامسة شغفاً دينياً وواضحاً بجيرونيما. شعر بارني بالتعاطف فقد كان يشعر بالمثل نحوها ولكنه رأى أنه من الأفضل ألا يقول شيئاً.

«هذا مقزز! يا له من كاهنٍ شبق».

انتبه بارني إلى أن شخصاً ما في رداءٍ أبيض وعباءة سوداء كالتّي يرتديها النُساك الدومينيكيون يصعد إلى المنبر وهذا يعني أن هناك عِظّة. لم يميز بارني المتحدث الذي كان طويلاً ونحيلاً بخدينٍ شاحبين وشعرٍ كثيفٍ مسترسل. بدا في حدود الثلاثين وشاباً جداً على أن يكون واعظاً في كاتدرائية. لفت الرجل انتباه بارني خلال الصلاة لأنّه بدا مأخوذاً بالنشوة المقدسة، وهو يكرر الكلمات اللاتينية بشغفٍ وبعينين مغلقتين وقد رفع وجهه الأبيض نحو السماء على عكس بقية الكهنة الذين تصرفوا كأنهم يؤدون مهمةً روتينية.

«من هذا؟» سأل بارني.

أجابه بيدرو بعد أن عاد بانتباهه إليه: «الأب ألونسو رئيس محكمة التفتيش الجديد».

ظهر كارلوس وإيرما وبيتسي إلى جانب بارني وقد تقدموا ليحظوا بنظرة أقرب من الواعظ.

استهل ألونسو كلامه بالحديث عن الحمى الارتعاشية التي قتلت مئات المواطنين خلال فصل الشتاء. قال إنها عقاب من الرب، وأنه على أهل إشبيلية أن يتعلموا الدرس من هذا وأن يراجعوا ضمائرهم، وتساءل عن تلك الخطايا المريعة التي ارتكبوها ليغضب عليهم الرب. كان جوابه على هذا أنهم تعاملوا بتساهل مع الوثنيين الذين يعيشون بينهم. احتد الكاهن الشاب أكثر وهو يُعدد التدنيسات التي يرتكبها المُهرطقون، ونطق بكلمات كاليهودي والمسلم والبروتستانتية وكأنه يستشعر طعماً سيئاً في فمه.

ولكن عمن كان يتحدث؟ يعرف بارني تاريخ إسبانيا جيداً. في عام 1492 أعطى كل من فيرديناند وإيزابيل - الملكين الكاثوليكين - يهود إسبانيا إنذاراً بالاختيار بين المسيحية أو مغادرة البلد، وعرض على المسلمين لاحقاً هذا الخيار الوحشي أيضاً، ومذاك تحولت جميع دور العبادة اليهودية والإسلامية إلى كنائس، وعلى حد علم بارني فإنه لم يرَ بروتستانتياً واحداً في إسبانيا. رأى بارني أن العظة مجرد كلام فارغ، ولكن الخالة بيتسي بدت مضطربة وقالت بصوتٍ خفيض: «هذا سيء».

«لماذا؟ لا يوجد مهرطقون في إشبيلية»، أجابها كارلوس.

«إن بدأت بالبحث عن الساحرات فستعثر على بعضهن».

«كيف سيعثر على المهرطقين إن لم يكونوا موجودين؟».

«انظر حولك. سيقول إن إيرما مسلم».

«إيرما مسيحي!» احتج كارلوس.

«سيقولون إنه ارتد إلى دينه الأصلي، وإنه ارتكب خطيئة الارتداد عن الدين وهذا أسوأ من أن يرتد وهو بالأصل مسيحي».

فكر بارني بأن بيتسي قد تكون على حق، فبشرة إيرما الداكنة ستثير الشكوك حوله بغض النظر عن الحقيقة.

أومأت بيتسي برأسها باتجاه جيرونيما ووالدها ثم قالت: «يقرأ بيدرو كتب إيراسموس ويتجادل مع رئيس الشمامسة روميرو حول تعاليم الكنيسة». «ولكن إبرما وبيدرو هنا ويحضران القداس!» قال كارلوس. «سيقول ألونسو إنهما يمارسان الشعائر الوثنية في المنزل بعد هبوط الليل خلف النوافذ المغلقة بإحكام والأبواب موصدة». «ألن يحتاج ألونسو إلى دليل؟». «سيعترفان».

شعر كارلوس بالحيرة وسأل: «لمّ سيعترفان؟».

«سيعترفان بأنهما مُهرطقان إن جُردا من ملابسهما ورُبطا بحبالٍ تُشدّ عليهما ببطء إلى أن تنغرز في جلدتهما وتأخذ بسليخ لحم جسديهما..». «توقفي، فهمت الأمر»، قال كارلوس مُرتعداً.

تساءل بارني كيف تعرف بيتسي عن التعذيب الذي تقوم به محكمة التفتيش.

وصل ألونسو إلى الذروة في عظته، ودعا كل مواطن للانضمام إلى حملة صليبية جديدة على الكافرين الذين يعيشون بينهم. عندما انتهى ألونسو من عظته بدأت المناولة، وبالنظر إلى وجوه جموع المُصلين رأى بارني أنهم جميعاً يشعرون بالارتباك بسبب العظة. كانوا كاثوليكين صالحين، وأرادوا حياةً هادئة وليس حملة صليبية، وكالخاله بيتسي رأوا المتاعب تلوح في الأفق.

عندما انتهى القداس، وغادر رجال الدين صحن الكنيسة الواحد تلو الآخر قال كارلوس لبارني: «فلترافقني بينما أتحدث إلى عائلة فيلافيدي. أشعر أنني بحاجة إلى دعم صديق معي».

رافقه بارني عن طيب خاطر بينما اقترب من فرانسيسكو وانحنى له.

«هل يمكنني أن آخذ قليلاً من وقتك يا سنيور لمناقشة أمرٍ مهم».

كان فرانسيسكو فيلافيدي من عمر بيتسي، وفالتينا ابنته من زوجته الثانية. وكان رجلاً عذباً ومعتداً بنفسه ولكن دون أن يكون عدائياً. ابتسم فرانسيسكو بلطفٍ وقال: «بالطبع».

انتبه بارني إلى أنّ فالتينا احمرت خجلاً فقد تكهنت بما سيحدث حتى لو لم يتكهن والدها بعد بما سيحدث.

«مرّ عامٌ على وفاة والدي»، قال كارلوس.

توقع بارني أن يدمدم فرانيسكو بصلاة من أجل راحة روحه، الأمر الذي كان تقليداً لبقاً في كل مرّة يُذكر فيها قريب ميت، ولكنه ولدهشة بارني، بقي صامتاً.

«يشهد الجميع أنّ مشغلي يعمل بشكل جيد والعمل مزدهر»، تابع كارلوس.

«أهنتك على هذا»، قال فرانيسكو.

«شكراً لك».

«ماذا تريد أيها الشاب كارلوس؟».

«أنا شاب في الثانية والعشرين وبصحة تامة ووضعي المالي آمن. أنا جاهز للزواج وستلقى زوجتي كل الحب والرعاية».

«أثق بهذا، وماذا بعد؟».

«أطلب وبكل تواضع إذنك بالقدوم إلى منزلك على أمل أن أخطب ابنتك الرائعة فالتينا».

غدا لون بشرة فالتينا قرمزيّاً من الخجل، وصدر عن أخيها صوتٌ ينمّ عن السخوط.

تغير سلوك فرانيسكو على الفور وقال بوجه تعلوه الدهشة: «بالطبع لا».

صُقع كارلوس وعجز عن الكلام لبعض الوقت.

«كيف تجرؤ على طلب هذا؟» تابع فرانيسكو. «ابنتي أنا».

استعاد كارلوس صوته وسأله: «هل يمكنني أن أعرف السبب؟».

سأل بارني نفسه السؤال ذاته، فلم يكن لدى فرانيسكو أيّ سبب يخوّله الشعور بالتفوق على كارلوس. كان فرانيسكو صانع عطور، وهي مهنة قد تكون أكثر رقيّاً بقليل من مهنة الحداد. ولكنه مثل كارلوس، يصنع بضائعه ويبيعها، ولم يكن من طبقة النبلاء.

تردد فرانيسكو ثمّ قال: «دماؤك ليست صافية».

بدا كارلوس مُربكاً وقال: «هل لأنّ جدتي إنكليزية؟ هذا سخيف».

اتخذ الأخ مظهراً عدوانياً وقال: «كُنْ حذراً فيما تقوله».

«لن أقف هنا وأسمع أحدهم يدعوني بالسخيف»، قال فرانسيسكو.
رأى بارني أنّ فالتينا بدت مُضطربة. من الواضح أنّها صُدمت أيضاً بهذا
الرفض الغاضب.

«انتظر قليلاً»، قال كارلوس بيأس.

بدا فرانسيسكو عاقد العزم وقال: «هذه المحادثة انتهت». ثم انصرف
متأبطاً ذراع فالتينا ومتجهاً إلى البوابة الغربية، ولحق بهما الأخ والأم. عرف
بارني أنّه ما من فائدة ترجى من اللحاق بهما، فهذا سيجعل كارلوس يبدو غيباً.
رأى بارني أنّ كارلوس يشعر بالألم والغضب، فقد كان الاتهام بعدم
صفاء الدم شيئاً غيباً ولكنه جارح. تُشير كلمة «غير صافٍ» في هذا البلد إلى
اليهود أو المسلمين، ولم يسمعها بارني قبلاً تُطلق على شخصٍ له أصل
إنكليزي، ولكن يُمكن للناس أن يكونوا مُتغطرسين حيال أيّ شيء.

انضمّ إيرما وبيتسي إليهما، ولاحظت بيتسي على الفور التغيّر في مزاج
كارلوس، فنظرت إلى بارني مستفسرة. دمدم لها بارني قائلاً: «رفضه والد
فالتينا».

«اللعنة»، قالت بيتسي.

كانت غاضبة رغم أنّها لم تبدُ متفاجئة، وخطر ببال بارني أنّها توقعت
حدوث هذا.

شعر إيرما بالأسف على كارلوس، وأراد أن يقوم بشيءٍ ليروّح عنه،
ولذلك عندما عادوا إلى المنزل اقترح على كارلوس تجريب الفرن الجديد.
فكر إيرما أنّ هذا الوقت مناسب كأيّ وقتٍ آخر، وأنّ الأمر قد يشغل تفكير
كارلوس عن الإذلال الذي تعرض له، ومع أنّه يُحرّم على المسيحيين العمل
يوم الأحد بالطبع، لكن هذا ليس عملاً بل مجرد تجربة.

أحبّ كارلوس الفكرة وأشعل الفرن بينما ثبتّ إيرما الثور إلى المربط
الذي صنعوه، وخلط بارني مزيج خام الحديد مع الكلس.

كان هناك نتوء في الكبر ولذلك كان عليهم إعادة تصميم الآلية التي
سيعمل بها الثور. تخلت بيتسي عن خطتها بتحضير عشاء يوم الأحد الفاخر،

وأحضرت خبزاً ولحم خنزير مجففاً. أكل الرجال الثلاثة واقفين. كان ضوء ما بعد الظهر قد بدأ يتراجع عندما انتهوا من تجهيز كل شيء، ثم أشعلوا النار التي غداها الكيران، وبدأ إيرما بإلقاء خام الحديد والكلس بالمجرفة.

لم يحدث شيء لبعض الوقت. أخذ الثور يدور على مهل وبصبر والكيران ينفثان ويسحبان الهواء بقوة، وشغّت المدخنة بالحرارة. انتظر الرجال بترقب.

سمع كارلوس عن هذه الطريقة في صنع الحديد من رجلين أحدهما فرنسي من النورماندي والثاني من الوون في هولندا. كان بارني قد سمع بأمر مشابه من رجل إنكليزي من منطقة ساسكس، واتفق الجميع على أن هذه الطريقة كفيلة بإنتاج الحديد بسرعة مضاعفة. قد يكون كلامهم مبالغاً به إلا أن الفكرة كانت مثيرة للاهتمام. قالوا جميعاً إن الحديد المصهور سيصعد من أسفل الفرن ولذلك قام كارلوس ببناء قناة حجرية مائلة لنقل الصهارة إلى فجوات على شكل سبائك على أرضية الفناء. ولأن ما من أحد يعرف كيفية رسم مخطط الفرن بنوا الفرن من مخيلتهم.

انتظروا ولكن لم يخرج شيء. أخذ إيرما يتساءل عما قد يكون الخطب، وما إن كان عليهم بناء المدخنة بشكل أطول، وفكر أن الحرارة هي الحلقة الأهم في هذا التصميم. ربما كان عليهم استخدام الفحم النباتي الذي يحترق بحرارة أفضل من الفحم العادي، رغم أن الفحم النباتي باهظ في بلد يحتاج إلى كل أشجاره لبناء سفن الملك.

ثم بدأ الفرن يعمل وظهرت صهارة حديد هلالية الشكل عند فم الفرن واندفعت عبر القناة الحجرية. تحولت التموجات المتذبذبة إلى موجة بطيئة ثم إلى تدفق. ابتهج الرجال وأتت إليسا لإلقاء نظرة.

ظهر السائل المعدني في البداية بلونٍ أحمر ثم تحول سريعاً إلى الرمادي. نظر إليه إيرما بدقة واعتقد أنه أشبه بالحديد الخام أو ما يُسمى بـ«تماسيح الحديد» وأنه يحتاج للتذويب مرة أخرى حتى يكون أكثر نقاءً، ولكن هذا لم يكن بالمشكلة العظيمة. تشكلت فوق الحديد طبقة أشبه بالزجاج الذائب وهو من دون شك ناتج عن بقايا عملية الصهر، وعليهم أن يجدوا طريقة لإزالته عن السطح.

كانت العملية سريعة، فحالما خرج الحديد بدا كأنه يخرج من صنوبر، وكل ما كان عليهم فعله هو الاستمرار بإلقاء الفحم وخام الحديد والكلس من الأعلى وستخرج هذه الثروة السائلة من الجهة الأخرى.

هنا الرجال الثلاثة بعضهم بعضاً، وأحضرت لهم إلیسا زجاجة من النبيذ. وقفوا جميعاً والكؤوس في أيديهم يشربون ويحدقون بمتعة إلى الحديد وهو يتصلب. بدا كارلوس أكثر ابتهاجاً، فقد كان قد بدأ يتعافى من صدمة الرفض. فكر إبرما أن كارلوس قد يختار هذه اللحظة الاحتفالية ليقول له إنه رجل حر.

بعد مرور عدة دقائق قال كارلوس: «غذ النار في الفرن يا إبرما». وضع إبرما كأسه وقال: «على الفور».

كان الفرن الجديد نصراً كبيراً لكارلوس، ولكن لم يكن الجميع سعداء بهذا النصر.

عمل الفرن من الفجر وحتى المغيب لسته أيام أسبوعياً. باع كارلوس الحديد الخام المسكوب إلى ورشة حدادة تعمل على تنقيته حتى لا يضطر لفعل هذا بنفسه، وليركز على الإنتاج بينما أمّن بارني احتياجاتهم المتزايدة من الحديد.

كان صانع دروع الملك مسروراً فقد كان في صراع دائم لتأمين ما يكفي من الأسلحة من أجل الحروب مع فرنسا وإيطاليا والمعارك البحرية مع أسطول السلطان وحماية السفن الشراعية القادمة من أمريكا من القرصنة. لم تكن دكاكين الحدادة والورشات في إشبيلية قادرة على إنتاج ما يكفي، وعارضت الشركات أيّ زيادة في القدرة، ولهذا اضطر صانع الدروع إلى شراء الكثير مما احتاجه من البلدان الأجنبية بالفضة الأمريكية التي وصلت إلى إسبانيا وهذا ما جعلها تنفذ بسرعة، ولهذا السبب كان سعيداً حقاً بإنتاج كارلوس السريع للحديد. ولكن لم يكن بقية الحدادين في إشبيلية سعداء بقدره، ولم ينظروا بعين الرضا إلى كارلوس الذي كان يكسب ضعف ما يكسبون. لا بد أن هناك قانوناً يمنع هذا. فتقدّم سانشو سانشيز بشكوى بحقه إلى الشركة ولهذا كان على المجلس أن يأخذ قراراً بهذا الأمر.

كان بارني قلقاً إلا أن كارلوس قال له إنّ الشركة على الأغلب لن تقوم بشيء ضد صانع دروع الملك، ثم تلقوا زيارة من الأب ألونسو. كانوا يعملون في الفناء عندما دخل ألونسو مع حاشية صغيرة من الكهنة الشبان في إثره. اتكأ كارلوس على المجرفة، وحدّق في محقق محاكم التفتيش، وفكر بارني أنّ كارلوس حاول أن يبدو قلقاً ولكنه فشل. خرجت الخالة بيتسي من المنزل، ووقفت ويدها الكبيرتان على وركيها العريضين استعداداً للقضاء على ألونسو.

لم يستطع بارني تخيل كيف يُمكن اتهام كارلوس بالهرطقة، ولكن من جهة أخرى لا يمكن أن يكون هناك سببٌ آخر لقدم ألونسو. قبل أن يتفوه ألونسو بأي شيء نظر حوله في الفناء وأنفه الضيق المستدق مرفوعاً للأعلى كطيرٍ جارح. استقر نظره على إبرما وتحدّث أخيراً: «هل هذا الرجل الأسود مسلم؟».

أجاب إبرما بنفسه على سؤال ألونسو: «في القرية التي ولدت فيها أيها الأب لم يسمعوها عن إنجيل المسيح أو ينطقوا باسم النبي المسلم قط. رُبيت على الجهل الوثني كأجدادي. ولكن خلال رحلة طويلة أرشدتني فيها يد الرب وصلت إلى هنا، ولُقنت بالحقيقة المقدسة لأصبح مسيحياً، وأُعمد في الكاتدرائية، وأقدم الشكر لربي في صلواتي كل يوم». كان خطاباً جيداً وتكهن بارني أن إبرما قد كرره قبلاً. ولكن هذا لم يكن كافياً لألونسو الذي قال: «إذا لم تعمل أيام الأحد؟ هل لأنّ يومك الإسلامي المقدس هو الجمعة».

«لا أحد يعمل أيام الأحد والجميع يعمل أيام الجُمع»، قال كارلوس. «هناك شهود يقولون إنك عملت في فرنك يوم الأحد الذي قدمت فيه موعظتي الأولى هنا في الكاتدرائية».

لقد اكتشف أمرهم، وأطلق بارني لعنةً في سره، ثم تفحص الأبنية المجاورة ورأى عدة نوافذ مُظلمة على الفناء. لا بدّ أنّ أحد الجيران قام بهذا الاتهام وقد يكون حداداً غيوراً، أو ربما يكون سانشو من فعل هذا. «ولكننا لم نكن نعمل»، قال كارلوس. «بل نقوم بتجربة فقط».

بدا التفسير واهياً حتى بالنسبة لبارني.

تابع كارلوس بلهجة يائسة: «كما ترى أيها الأب، هذا النوع من الأفران يتطلب نفخ الهواء فيه من أسفل المدخنة..».

«أعلم كل شيء عن فرنك»، قاطعه ألونسو.

تحدثت الخالة بيتسي: «أتساءل كيف يُمكن لكاهن أن يعرف كل شيء عن الأفران؟ ربما كنت تتحدث مع منافسي حفيدي. من اهتمامه في حضورك أيها الأب؟».

بالنظر إلى وجه ألونسو عرف بارني أنّ الخالة بيتسي على حق، ولكن الكاهن لم يُجب على سؤالها، وبدلاً من هذا تابع اتهامه: «أيتها المرأة العجوز أنت مولودة في إنكلترا البروتستانتية».

«أنا واثقة من أنني لست كذلك»، قالت بيتسي بحماس. «كان الملك الكاثوليكي الصالح هنري السابع متربعاً على عرش إنكلترا عندما ولدت، وابنه البروتستانت هنري الثامن كان ما يزال يتبول على سريره عندما غادرت عائلتي البلد وأحضرتني إلى إشبيلية، ولم أعد منذئذ».

التفت ألونسو نحو بيتسي وشعر بارني برعشة خوفٍ عظيمة. يملك هذا الرجل القوة على تعذيب وقتل الناس: «هذا ليس صحيحاً البتة»، قال ألونسو. «لا بدّ أنّك ولدت وتربيت بروتستانتية».

لم تكن لغة بارني الإسبانية جيدة بما يكفي لفهم هذا الجدل الديني، ولهذا أبقى رد فعله بسيطاً: «لم تعد إنكلترا بروتستانتية وأنا كذلك أيضاً. إن فتشت هذا البيت أيها الأب فلن تجد أيّ كتب ممنوعة أو نصوص مُهرطقة أو سجاجيد صلاة إسلامية. فوق سريري صليب، وعلى حائطي صورة للقديس هوبير لسيج شفيح الحدادين. كان القديس هوبير من..».

«أعرف من هو القديس هوبير». من الواضح أنّ ألونسو شعر بالإهانة من فكرة أن يكون لدى أي أحد شيء ليعلمه إياه. فكر بارني بأنّ صبر ألونسو قد فرغ حتماً فلقد دُحضت جميع اتهاماته. وكل ما لديه الآن التهمة بأنّ هؤلاء الرجال قد عملوا أو لم يعملوا يوم الأحد. ولكن لم يكن كارلوس وعائلته الوحيدين في إشبيلية من التفوا حول هذا القانون.

«أمل أن يكون كل ما قلموه لي اليوم الحقيقة الصرفة»، قال ألونسو. «أو ستلقون المصير الذي تلقاه بيدرو روز».

التفت ألونسو ينوي المغادرة، ولكن بارني أوقفه فقد كان قلقاً على جيرونيما ووالدها: «ما الذي حدث لبيدرو روز؟».

بدا ألونسو سعيداً لأنه صدم بارني بهذا الخبر وقال: «لقد تمّ اعتقاله. عثرنا في منزله على ترجمة للعهد القديم إلى الإسبانية وهذا غير قانوني، وعثرنا أيضاً على نسخة من كتاب الهرطقات «مؤسسات الدين المسيحي» لجون كالفن، القائد البروتستانتي لمدينة جنيف الملعونة. وكما هو متوقع فقد صادرت محكمة التفتيش كل ممتلكات بيدرو روز».

لم يبدُ كارلوس متفاجئاً إذ لا بدّ أنّ ألونسو يقول الحقيقة عندما قال إنّ هذا الإجراء المتوقع، ولكن بارني كان مصدوماً وقال: «كل ممتلكاته؟ وعلى ماذا ستعتمد ابنته».

«على رحمة الرّب كما نفعك جميعاً»، قال ألونسو ثمّ غادر وحاشيته في إثره. بدا كارلوس مرتاحاً وقال: «يؤسفني ما حصل لوالد جيرونيما، ولكنني أعتقد أننا هزمتنا ألونسو».

مكتبة

t.me/soramnqraa

«لا تكن واثقاً جداً»، قالت بيتسي.

«لمَ تقولين هذا؟» سألتها كارلوس.

«أنت لا تتذكر جدك».

«لقد توفي عندما كنت طفلاً».

«فلترقد روحه في سلام. جدك تربى كمسلم».

حدّق الرجال الثلاثة نحوها بدهشة وقال كارلوس في ارتياب: «كان زوجك مسلماً؟».

«في البداية فقط».

«جدي خوسيه ألانو كروز».

«كان اسمه الحقيقي يوسف الخليل».

«كيف تزوجتِ بمسلم».

عندما طُرد المسلمون من إسبانيا قرّر أن يصبح مسيحياً بدلاً من المغادرة. تلقى تعاليم الدين المسيحي وعمد وهو بالغ كإبرما، وأصبح «خوسيه» اسمه الجديد، وليثبت مسيحيته كان عليه الزواج من فتاة مسيحية وكنت أنا هذه الفتاة. كنت في الثالثة عشرة من عمري وقتها».

«هل تزوج الكثير من المسلمين بمسيحيين؟» سأل بارني.

«لا، تزوجوا من مجتمعاتهم حتى بعد أن أصبحوا مسيحيين، ولكن زوجي خوسيه كان مُختلفاً».

كان كارلوس مهتماً أكثر بالجانب الشخصي للحكاية: «هل كنت تعلمين أن تربيته إسلامية؟».

«ليس في البداية فقد انتقل من مدريد ولم يخبر أحداً بهذا. ولكن الناس يأتون من مدريد إلى هنا طوال الوقت، وفي النهاية أتى أحد يعرف أنه مسلم. لم يعد هذا سرّاً رغم أننا حاولنا التكتّم على الأمر».

«كنت في الثالثة عشرة؟ هل أحببته؟» لم يتمكن بارني من كبح فضوله.
«كنت أعبده. لم أكن يوماً فتاةً جميلة ولكنه كان وسيماً وساحراً. كان عطوفاً جداً ولطيفاً وحنوناً. عشت معه وكأني أعيش في الجنة». بدا كأن الخالة بيتسي في مزاج البوح.

«ثم توفي جدي...» قال كارلوس.

«بوفاته لم يُعزّني شيء»، قالت بيتسي. «لقد كان حب حياتي، ولم أرد زوجاً آخر غيره». هزّت كتفيها. «ولكن كان لدي أطفالٍ لأعتني بهم ولهذا انشغلت بهم وأنسوني الحزن، وأتيت أنت يا كارلوس وقد أصبحت يتيماً وعمرك يومٌ واحد».

كان لدى بارني حدسٌ بأن بيتسي ورغم حديثها الصريح فإنها كانت تُخفي شيئاً. لم تكن تريد أن تتزوج مرة أخرى، ولكن ما هي القصة الكاملة؟
«ألهذا السبب رفض فرانسيسكو فيلافيردي السماح لي بالزواج من ابنته؟» سأل كارلوس.

«أجل. إنّه لا يهتم بأمر جدتك الإنكليزية بل بدم جدك المسلم وهو ما يعتبره دماً غير نقي».
«اللعنة».

«هذا ليس أسوأ ما في الأمر. يبدو أن ألونسو يعرف أيضاً بقصة يوسف الخليل، وزيارته اليوم ليست سوى البداية. صدّقني فهو سيعود مرة أخرى».

بعد زيارة ألونسو توجه بارني إلى منزل عائلة رويز ليتفقد أحوال جيرونيما.

فتحت الباب امرأة بملامح أفريقية شمالية وكان واضحاً أنها عبدة. ربما في وقت ما كانت عبدة جميلة، ولكن وجهها الآن متورم وعينيها حمراوان من الحزن.

«يجب أن أقابل جيرونيما»، قال لها بارني بصوتٍ عالٍ.

وضعت المرأة إصبعها على شفيتها في إشارة ليخفض صوته، ثم دعتة للحاق بها وقادته إلى القسم الخلفي من المنزل.

توقع بارني أن يرى الطباخ ويضع خادمتان يحضرون العشاء، ولكن المطبخ كان بارداً وهادئاً. تذكر ما قاله ألونسو بشأن مصادرة محكمة التفتيش لممتلكات المشتبه به، ولكن لم يخطر ببال بارني أن يحصل الأمر بهذه السرعة، وأن يكون موظفو بيدرو قد سُرحوا فعلاً. من المحتمل أن هذه العبدة معروضة للبيع ولهذا السبب تبكي.

«اسمي فرح»، قالت له.

«لم أحضرتني إلى هنا؟ أين جيرونيما؟» قال بارني بنفاد صبرٍ.

«من فضلك تحدث بهدوء»، طلبت منه فرح وتابعت: «جيرونيما في الأعلى مع رئيس الأساقفة روميرو».

«لا يهمني هذا. أريد أن أتحدث معها»، قال بارني وخرج من الباب.

«من فضلك لا تفعل»، قالت فرح. «إن رأك روميرو فستقع متاعب».

«أنا جاهز للمتاعب».

«سأحضر جيرونيما إلى هنا. سأقول إنَّ إحدى الجارات أتت وأصرّت على مقابلتها».

تردد بارني، ولكنه أوماً برأسه موافقاً، ثم ذهبت فرح.

نظر حوله ولم يرَ أيّ سكاكين أو قنطرة أو أباريق أو صحون، كان المكان فارغاً تماماً. تساءل بارني إن كانت محكمة التفتيش تصدر أدوات المطبخ أيضاً.

ظهرت جيرونيما بعد عدة دقائق. بدت مختلفة وأكبر عمراً من أن تكون في السابعة عشرة. علا وجهها الجميل قناعاً من اللامبالاة وبدت عيناها

جافتين، وتحولت بشرتها الزيتونية إلى اللون الرمادي وجسدها النحيل يرتعش وكأنها ترتجف. رأى بارني بوضوح الجهد العظيم الذي تبذله لتكبح حزنها وغضبها.

توجه بارني نحوها ينوي احتضانها، ولكنها تراجعت إلى الوراء ورفعت يديها وكأنها تدفعه بعيداً.

نظر نحوها عاجزاً وقال: «ما الأمر؟».

«أنا فقيرة جداً»، قالت له. «والدي في السجن، وليس لدي أحد».

«كيف حال أبيك؟».

«لا أعلم. لا يُسمح لسجناء محكمة التفتيش بالتواصل مع عائلاتهم أو أي أحدٍ آخر، ولكن حالته الصحية سيئة. لا بد أنك سمعته يلهث بمجرد السير لمسافة قصيرة. وقد يخضعونه...» عجزت جيرونيما عن إكمال كلامها ولكنها تابعت بعد دقيقة. نظرت إلى الأسفل، وأخذت نفساً وتمالكت نفسها وتابعت: «قد يخضعونه لتعذيب بالماء».

كان بارني قد سمع عن هذه الطريقة حيث يتم إغلاق فتحتي أنف الضحية لمنعها من التنفس، ويُفتح فمه عنوة ثم يسكبون إبريقاً تلو الآخر من الماء عبر حلقة، وتتفخ معدته بشكل مؤلم، وإن دخل الماء إلى قصبته الهوائية اختنق. «هذا كفيل بقتله»، قال بارني مرتعباً.

«وضعوا أيديهم على كل أمواله وممتلكاته».

«ما الذي ستفعلينه الآن؟».

«عرض عليّ رئيس الأساقفة روميرو أخذني إلى بيته».

شعر بارني بالحيرة. كانت الأمور تتطور على نحوٍ سريع، وخطرت بباله عدة أسئلة في نفس الوقت ثم قال: «بأيّ صفة؟».

«كنا نناقش هذا الآن. يريدني أن أتولى مسؤولية ثيابه وترتيبها والاهتمام بردائه الكهنوتي والإشراف على غسله».

من الواضح أن الحديث عن الأمور العملية ساعدها على التحكم بمشاعرها.

«لا تذهبي»، قال بارني. «تعالني معي».

كان عرضاً طائشاً وعلمت جيرونيما بهذا: «إلى أين؟ لا يمكنني أن أعيش مع ثلاثة رجال رغم أن جدتك لن تجد مشكلة في هذا».

«لدي منزل في إنكلترا».

هزت رأسها وقالت: «لا أعلم شيئاً عن عائلتك، وبالكاد أعرف شيئاً عنك. علاوة على هذا أنا لا أتحدث الإنكليزية». انفرجت أساريرها لوقتٍ قصير. «لو لم يحدث كل هذا لربما سنحت لك فرصة خطبتي رسمياً من والدي، وربما كنت تزوجت بك وتعلمت التحدث بالإنكليزية... من يعرف؟ أعترف أنني فكرت بهذا. ولكن أن أهرب معك إلى بلدٍ غريب؟ لا». رأى بارني أنها كانت تتصرف بعقلانية أكثر منه ولكن ومن دون تفكير قال لها: «يريد روميرو أن يجعلك عشيقته السرية».

نظرت جيرونيما إلى بارني، ورأى في عينيها الكبيرتين قساوة لم يرها قبلاً، وتذكر كلمات الخالة بيتسي: «تضع جيرونيما رويز مصالحها الشخصية قبل أي شيء». ولكن لا بد أن هناك حدوداً؟ ثم قالت جيرونيما: «وما المشكلة فيما لو كان هذا صحيحاً؟».

كان بارني مصعوقاً. «كيف يمكنك أن تقولني هذا».

«فكرت بالأمر طوال يومين عشتهما في أرق، ولا أملك بديلاً آخر. أنت تعلم ما الذي يحلّ بالنساء المتشردات».

«يُصبحن عاهرات».

يبدو أنّ هذا الكلام لم يهزها وقالت: «إذاً، خياراتي هي الهرب معك إلى المجهول، أو التحول إلى عاهرة في الشوارع، أو أن أكون في وضع مشبوه في منزل مترف يملكه كاهن فاسد».

«هل خطر ببالك»، قال بارني مفترضاً، «أنّ روميرو قد يكون وراء التهمة التي ألحقت بوالدك حتى يفرض عليك هذا الوضع؟».

«أنا واثقة من أنّه فعل هذا».

بدا بارني مُندهشاً للمرة الثانية. كانت تسبقه في افتراضاته على الدوام. «علمت لأشهر أنّ روميرو يريد أن يحولني إلى عشيقه له. كانت هذه أسوأ حياة قد أتخيلها لنفسني، ولكنها الآن أفضل حياة يمكنني أن آمل بها».

«ولكنه السبب فيما حدث لك الآن».

«أعلم».

«وستقبلين بهذا وتنامين في سريره وتغفرين له».

«أغفر له؟» قالت له وقد شعت عيناها العسليتان بنور جديد، بنظرة حقدٍ أشبه بالأسيد المغلي. «لا، قد أظاھر، ولكن في يومٍ من الأيام سيكون لدي سلطة عليه، وعندما يحلّ هذا اليوم سأخذ بثأري».

ساهم إيرما في بناء القرن الجديد بقدر الجميع، وعاش على أمل سري بأن يكافئه كارلوس على هذا بمنحه حريته. ولكن مع استمرار العمل على القرن لأيام وأسابيع تراجعت آماله، وأدرك أنّ الفكرة لم تخطر لكارلوس قط. وبينما حمّل قوالب الحديد على عربة مسطحة ورتبها على شكل شبكة متداخلة حتى لا تتحرك خلال الصبّ فكر إيرما بخطوته التالية.

كان يأمل أن يمنحه كارلوس حريته بشكل تلقائي، ولكن بما أنّ هذا لم يحدث كان عليه أن يطلب هذا صراحة. لم يكن يحب الاستجداء، ففعل الاستجداء بحد ذاته يعني أنّه لا يستحق ما يطلبه، ولكنه كان يستحق ما يطلبه وشعر بهذا بقوة.

ربما سيحاول تجنيد إيسا لمساعدته فهي مغرمة به. كان واثقاً من أنّها تريد الأفضل له، ولكن هل سيكون حبها له كبيراً بما يكفي لتحرره وبالتالي لن يكون بقربها عندما تحتاج إلى الحب ليلاً؟

بعد أخذ كل شيء بعين الاعتبار ربما من الأفضل له لو يحدثها سرّاً قبل التحدث إلى كارلوس، فعلى الأقل سيكون قادراً على معرفة الطريقة التي ستصرف بها عندما يؤخذ القرار.

تساءل إيرما في نفسه عن الوقت الملائم لإخبارها. فهل يفعل هذا بعد ممارسة الجنس معها في إحدى الليالي؟ أو ربما سيكون من الأفضل لو أنّه يفاتحها بالموضوع قبل ممارسة الجنس حيث سيكون قلبها مليئاً بالرغبة. هزّ رأسه في موافقة على الخيار الثاني وفي تلك اللحظة بدأ الاعتداء.

كان هناك ستة رجال وجميعهم يحملون الهراوات والمطارق. لم يتحدثوا بل سارعوا من فورهم إلى ضرب إيرما وكارلوس بالهراوات. «ما الذي يحدث؟» صرخ إيرما. «لَمْ تقومون بهذا».

لم يجيبوه ورفع إيرما ذراعه ليحمي نفسه فتلقى ضربة على يده وواحدة أخرى على رأسه ثم سقط أرضاً.

توجه المعتدون بعد ذلك نحو كارلوس الذي تراجع إلى الفناء. راقبهم إيرما وهو ما يزال يتعافى من الدوار الذي سببته الضربة على رأسه. أمسك كارلوس بمجرفة وغطسها في المعدن المنصهر الخارج من الفرن ثم ألقى رشاشاً من القطرات على المعتدين. صرخ اثنان منهم من الألم.

وللحظة اعتقد إيرما أنه وكارلوس سيفوزان رغم عدم توازن القوى، ولكن قبل أن يتمكن كارلوس من اغتراف المزيد من الحديد المنصهر، أمسك به رجلان وصرعاه أيضاً.

انطلق المعتدون بعد هذا إلى الفرن الجديد وحطموا حجارتهم بمطارق ثقيلة. رأى إيرما إبداعه يُدمر واستجمع قوته لينهض على قدميه. هرع إلى المهاجمين صارخاً بهم: «لا، لا يمكنكم أن تفعلوا هذا!» ثم ضرب أحدهم بالمجرفة فسقط على الأرض، وأبعد الآخر عن الفرن العزيز على قلبه. استخدم يده اليمنى فقط لأنه كان عاجزاً عن الإمساك بيده اليسرى إلا أنه كان ما يزال قوياً. اضطر إلى الرجوع إلى الورااء بسرعة، وتفادي ضربة قاتلة من مطرقة ثقيلة.

ولعجزه عن إنقاذ الفرن أخذ مجرفة خشبية وانطلق في إثرهم مجدداً. ضرب أحدهم على رأسه، ثم تعرّض إلى ضربة استقرت على كتفه اليمنى وأسقطت المجرفة من يده. التفت ليووجه المعتدي ولتفادي الضربة التالية. وبينما كان يتراجع إلى الورااء محاولاً القفز متفادياً ضربة هراوة، رأى من زاوية عينه الفرن يتعرض للتخريب. انسكبت محتويات الفرن من فحم ومعادن مشتعلة على الأرض. بدأ الثور يشخر بصوتٍ أجش من الخوف. كان صوته مثيراً للشفقة.

خرجت إليسا راكضة من المنزل تصرخ على الرجال: «اتركوهما وشأنهما! اخرجوا من هنا!» ضحك المعتدون على المرأة العجوز، ونهض أحد الرجال الذين ضربهم إيرما، وأمسك بها من الخلف ورفعها. كان رجلاً كبيراً - جميعهم كانوا كذلك - وتمكن بسهولة من كبح مقاومتها.

كان هناك رجلان يجلسان على كارلوس، وواحد يُمسك إليسا، والآخر يحاصر إيرما، أما الرجلان الباقيان فتابعا عملهما بالمطارق الثقيلة. هدموا بناء الكيرين الذي حير إيرما وكارلوس وبارني لوقتٍ طويل، كان بوسع إيرما البكاء أمام هذا المنظر.

عندما سوّي الفرن والكيران بالأرض، سحب أحد الرجال خنجرًا طويلًا وحاول نحر الثور. لم يكن الأمر سهلاً فعضلات رقبة الحيوان غليظة، واضطر الرجل للقطع في اللحم بسكينه، بينما حاول الثور أن يحرر نفسه من الردم حيث رُبط. في النهاية نجح الرجل بقطع وريده الوداجي. توقف الثور عن الخوار فجأة، واندفع الدم كنافورة من الجرح ثم وقع الثور على الأرض. وبالسرعة التي أتى فيها الرجال غادروا المكان.

بمجرد مغادرة بارني في زهول لمنزل عائلة رويز أصبحت جيرونيما بالنسبة إليه امرأة سيئة وماكرة. ربما كانت تحمل خصلة القساوة طوال الوقت إلا أنه لم يلحظ هذا، أو ربما يتغير الناس عندما يقعون في محن سيئة. لم يكن قادراً على معرفة الحقيقة، وشعر بأنه لا يعلم شيئاً البتة. يُمكن لأي شيء أن يحدث، أي شيء، كأن يفيض النهر ويُغرق المدينة.

سار وهو غافل عن كل شيء حوله وقادته قدماه إلى منزل كارلوس ليلقى هناك صدمة أخرى برؤيته لكل الضرب المبرح الذي تعرض له كارلوس وإبرما. كان كارلوس جالساً على كرسي في الفناء والخالة بيتسي تهتم بجروحه. كانت إحدى عينيه مغلقة وشفثاه متورمتين تنزفان، وقد جلس منحنيًا نصف انحناءة وكأنّ بطنه يؤلمه. استلقى إبرما على الأرض ويده تحت إبطه ورأسه ملفوف بضمادة مُدماة. وخلفهم كان ركام الفرن الجديد وقد أصبح الآن مجرد كومة من الطوب، أما الكيران فكانا عبارة عن كومة من الحبال والحطب. تمدد الثور على الأرض ميتاً وسط بركة من الدماء. وفي سياق منفصل، أخذ بارني يفكر بأن الثور يملك دماً غزيراً.

كانت بيتسي تغسل وجه كارلوس بقطعة قماش كتانية منقوعة بالبيذ. وقفت ورمت القطعة القماشية على الأرض في حركة تشي بتقززها.

«أصغ إلي»، قالت بيتسي، وأدرك بارني أنّها كانت تنتظر عودته قبل أن تقوم بخطابها. بادرها بارني سائلاً: «ما الذي حدث هنا؟».

«لا تسأل أسئلة غبية». قالت بنفاد صبر. «يمكنك أن ترى ما الذي حدث هنا». «أعني من الذي قام بهذا؟».

«كانوا رجالاً لم نرهم قبلاً، وأكاد أجزم أنهم ليسوا من إشبيلية. السؤال

الحقيقي هو من استأجرهم، والجواب هو سانشو سانثيز. إنه المسؤول عن إثارة استياء الناس من نجاح كارلوس، وهو من كان يريد شراء عمله. ليس لدي أدنى شك بأنه هو الذي أخبر ألونسو أن إبرما مسلم ويعمل أيام الأحد». «ما الذي سنقوم به؟».

كان كارلوس من أجاب على سؤال بارني. نهض وقال: «سنستسلم». «ما الذي تعنيه؟».

«يمكننا أن نحارب سانشو أو نواجه ألونسو، ولكننا لا نستطيع محاربتهم معاً». توجه كارلوس إلى حيث يتمدد إبرما وأحكم قبضة يده اليمنى، من الواضح أن يده اليسرى مصابة فسحبه من قدميه. «سأبيع ورشتي». «قد لا يكون هذا كافياً حالياً»، قالت بيتسي. «لماذا؟».

«سيرضى سانشو بالحصول على عملك ولكن ألونسو لن يرضى بهذا. إنه يحتاج إلى ضحية بشرية. لا يمكنه الاعتراف بأنه قام بعمل خاطئ، وبما أنه وجه إليك اتهاماً فسيقوم بعقابك».

«لقد قابلت جيرونيمو للتو. تعتقد بأنهم سيخضعون والدها للتعذيب بالماء. سنعترف جميعاً بالهرطقة إن حدث هذا لنا»، قال بارني.

«بارني على حق»، قالت بيتسي.

«ما الذي يمكننا فعله؟» سأل كارلوس.

تأوهت بيتسي وقالت: «مغادرة إشبيلية وإسبانيا اليوم».

كان بارني مصعوقاً رغم علمه أنها على حق. قد يباغتهم رجال ألونسو في أي وقت. وعندما يحدث هذا، سيكون الوقت قد تأخر كثيراً على الهرب. نظر إلى المدخل ذي القنطرة المؤدي إلى الفناء خوفاً من أن يكونوا قد وصلوا، ولكن ما من أحد أتى... بعد.

تساءل بارني إن كان بالإمكان الهرب اليوم، وإن كانت هناك سفينة مغادرة مع مد ما بعد الظهر، وإن كانت هذه السفينة بحاجة إلى طاقم. ربما لن يكون بوسعهم اختيار المكان الذي سيذهبون إليه. حدق بارني عالياً إلى الشمس، كان الوقت منتصف النهار وقال:

«إن كان علينا أن نقوم بهذا فعلينا التحرك بسرعة».

رغم الخطر الذي كان يحدق به فإنّ معنوياته ارتفعت لدى تفكيره بأنه سيُبحر على متن سفينة اليوم.

تحدث إبرما للمرة الأولى قائلاً: «إن لم نغادر سنموت وسأكون أولكم». «ماذا عنك أيتها الخالة بيتسي؟» سأل بارني.

«أنا مسنّة جداً على السفر الطويل، علاوة على هذا فإنهم لا يهتمون بأمرى فأنا لست سوى امرأة». «ما الذي ستفعلينه؟»

«أخت زوجي تعيش في كارمونا». تذكر بارني أنّ بيتسي ذهبت إلى هناك لبضعة أسابيع خلال الصيف. «يمكنني أن أمشي إلى كارمونا في الصباح حتى لو عرف ألونسو مكاني فإنني أشك أنّه قد يفعل بي أي شيء». «قد كارلوس عزمه وقال: «بارني، إبرما، أحضرا ما تحتاجانه من المنزل وعودا بلمح البصر».

لم يملك أيّ من بارني وإبرما الكثير من الممتلكات. طوى بارني محفظة صغيرة من المال على خصره تحت قميصه، وانتعل أفضل جزمة لديه وارتدى عباءته الثقيلة. لم يكن يملك سيفاً، فالسيف الطويل والثقيل مخصص للمعارك ومصمم لاختراق الأماكن الضعيفة من درع العدو، ولكنه غير فعال على الأجزاء المُحصنة. استلّ بارني خنجرًا إسبانياً بطول قدمين وبمقبض على شكل قرص ونصل فولاذي ذي حدّين، ففي مشاجرات الشارع ستكون هذه السكين أكثر فتكاً من السيف.

عاد بارني إلى الفناء ووجد كارلوس يثبت سيفاً تحت معطفه الجديد ذي الياقة الفرائية. عانق بارني بيتسي التي كانت تنتحب وقبلها على وجنتيها.

«قبلني للمرة الأخيرة يا حُبي»، قالت بيتسي لإبرما.

أخذها إبرما بين ذراعيه.

عبس بارني وقال كارلوس: «...».

قبّلت الخالة بيتسي إبرما بشغف وغرقت يدها في شعره الداكن بينما حدّق بارني وكارلوس نحوهما باستغراب. عندما انتهيا من قبلتهما قالت بيتسي: «أحبك يا إبرما ولا أريدك أن تغادر، ولكنني لا أريدك أن تبقى هنا لتموت في غرفة تعذيب محكمة التفتيش».

«شكراً لك يا إيلسا على حنوك علي»، قال إبرما.
قبلاً بعضهما مجدداً، والتفت بيتسي إلى الوراء وركضت باتجاه المنزل.
فكر بارني في نفسه: «ما كان هذا بحق الجحيم؟»
بدا كارلوس مدهوشاً، ولكن لم يكن هناك وقت للأسئلة فقال لهم:
«لنذهب».

«مهلاً»، قال بارني وأراهما خنجره ثم قال: «إن أمسك بي رجال ألونسو
في الطريق فلن يأسروني حياً».

«ولا أنا»، قال كارلوس وهو يتلمس مقبض سيفه.

أزاح إبرما عباءته جانباً وكشف عن مطرقة برأس حديدي كان قد حشرها
في حزامه.

غادر الرجال الثلاثة متوجهين إلى الرصيف البحري. كانوا متيقظين
لرجال ألونسو، ولكن كلما ابتعدوا عن المنزل أكثر أصبح الخطر أقل.
على الرغم من هذا حدّق الناس نحوهم، وأدرك بارني أنهم كانوا ينظرون
في خوفٍ إلى رضوض كارلوس وإبرما، وحقيقة أنهما كانا ما يزالان ينزفان
بسبب العراك.

بعد مرور عدة دقائق قال كارلوس لإبرما: «جدتي».

تحدث إبرما بهدوء: «يُستغل العبيد جنسياً على الدوام. أنت تعرف هذا».
«لم أعلم هذا»، قال بارني.

«يتحدث العبيد مع بعضهم في السوق. الجميع تقريباً عاهر أو عاهرة
أحدهم، ولكن ليس العجائز منا، فالعبيد لا يعيشون حتى يطعنوا في السن»،
ثم نظر إلى بارني: «على سبيل المثال والد صديقتك بيدرو رويز يضاجع
عبدته فرح رغم أنها هي التي تكون فوقه أثناء المضاجعة».
«ألهذا السبب كانت تبكي؟ لأنها فقدته».

«كانت تبكي لأنها ستباع الآن إلى غريب سيُضاجعها أيضاً». التفت إبرما
نحو كارلوس. «أما فرانسيسكو فيلافيدي المتكبر الذي لم يقبل بك صهراً
له فهو يشتري صبياناً صغاراً ويلوط بهم إلى أن يكبروا ثم يبيعهم إلى مزارع».
كان كارلوس ما يزال مرتاباً مما قاله إبرما: «هل كنت تذهب إلى غرفة
جدتي كل ليلة عندما أخلد للنوم».

«ليس في كل ليلة. فقط عندما تطلب مني».

«هل كنت تمنع؟» سأله بارني.

«إليسا امرأة عجوز دافئة ومُحبة، ويسعدني أنّها لم تكن رجلاً».

شعر بارني أنّه كان حتى هذه اللحظة طفلاً. كان يعلم أنّ الكهنة يأخذون الرجل إلى السجن ويعذبونه حتى الموت، ولكنه لم يعلم أنّهم كانوا يضعون أيديهم على كل ممتلكاته، ويجعلون عائلته تعاني من الفاقة. لم يكن يتخيل أن رئيس أساقفة قد يأخذ فتاةً إلى منزله ويحولها إلى عشيقه له. ولم تكن لديه أدنى فكرة عمّا كان يفعله الرجال والنساء بعيدهم. كان الأمر أشبه بالعيش في منزلٍ بغرفٍ لم يدخلها ويتشاركها مع غرباء لم يرهّم قبلاً. أثار اكتشافه لغبائه اضطرابه وأفقده توازنه. وها هي حياته الآن قد أصبحت في خطر، وهو يحاول مغادرة إشبيلية وإسبانيا في عجلة لا هوادة فيها.

وصلوا إلى الرصيف المائي. كان الرصيف مكتظاً كعادته بعمال التحميل والتفريغ والعربات. وب نظرة سريعة أحصى بارني ما يُقارب أربعين سفينة راسية. كان المدّ الصباحي أفضل وقت لتغادر فيه السفينة الميناء لأنّها ستكسب يوماً كاملاً من الإبحار، ولكن عادة ما تغادر سفينة أو سفينتان بعد الظهر. على أيّ حال لن يطول الوقت حتى يحدث المدّ وستبحر هذه السفن عما قريب.

هرع الرجال الثلاثة إلى الرصيف المائي، وتفحصوا السفن باحثين عن إشاراتٍ لسفني على وشك المغادرة كحركة إغلاق النوافذ الصغيرة وصعود القبطان إلى سطح السفينة والطاقم على حبال الأشرعة والصواري. كانت هناك سفينة تدعى سيرفو تتحرك من مرساها، ويستخدم طاقمها عصياً طويلة لإبعادها عن مركبٍ قريب بثلاث صواري. ما زال هناك وقت للصعود على متنها. وضع كارلوس يديه حول فمه وصرخ: «أيها القبطان! هل تريد ثلاثة رجال أقوياء؟».

«لا»، أتاه الجواب. «طاقمي كامل».

«ماذا عن ثلاثة ركاب؟ يمكننا أن ندفع».

«لا مساحة لكم».

توقع بارني أنّ القبطان يخطط لشيءٍ غير قانوني، ولا يرغب بأن يشهد أناسٌ لا يعرفهم أو يثق بهم على هذا. كانت الجريمة الأكثر شيوعاً في هذه

البحار وعلى الأرصفة البحرية، هي المتاجرة غير الشرعية بالفضة الأمريكية تجنباً لدفع ضرائب الملك عليها في إشبيلية، ولكن القرصنة المباشرة لم تكن أمراً غير اعتيادي أيضاً.

هرعوا على طول ضفة النهر القريب من الرصيف المائي، ولكن يبدو أن حظهم قد نفذ فلم يكن هناك أي إشارة على سفينة مغادرة. شعر بارني باليأس وتساءل عما كانوا سيفعلونه الآن؟

وصلوا إلى نهاية التيار السفلي للنهر حيث يعلو حصن يُدعى غولدن تاور. في هذه النقطة بالتحديد كانت تُستخدم سلسلة حديدية لوصل ضفتي النهر معاً فلا يستطيع الغزاة القادمون عبر التيار الأعلى للنهر من مهاجمة السفن الراسية.

خارج الحصن وقف عامل التطوع على برميل يدعو الشباب للانضمام إلى الجيش. «هناك وجبات ساخنة وزجاجة نبيذ لكل رجل يتطوع الآن»، صرخ الرجل في حشدٍ من المتفرجين. «هناك سفينة تدعى خوسيه وماريا وكلا القديسين يحميانها ويحرسان من يُبحر عليها»، قال مشيراً بإصبعه إلى السفينة. لاحظ بارني أن لديه يداً حديدية. لا بد أنها طرف صناعي بديل ليده الحقيقية التي فقدتها في معركة ما.

نظر بارني في الاتجاه الذي كان يشير إليه، ورأى سفينة شراعية ضخمة راسية تحمل مدافع وقد اكتظ سطحها بالشباب.

«سنبحر عصر هذا اليوم إلى حيث يعيش وثنون أشرار وفتيات طيعات وجميلات. أيها الفتية، أنا أقول لكم الحقيقة وهي من تجربة شخصية إن كنتم تفهمون ما أقصده». تابع عامل التطوع كلامه. انطلقت ضحكة إقرار من الحشد.

«لا أريدكم إن كنتم ضعفاء»، قال بازدراء. «لا أريدكم إن كنتم جناباء. لا أريدكم إن كنتم مغناجين، وأنتم تعلمون ما الذي أقصده بهذا. التطوع للأقوياء والشجعان والقساء فقط. إنه مكان للرجال الحقيقيين».

صرخ أحد ما من على سفينة خوسيه وماريا: «اصعدوا».

«آخر فرصة أيها الشبان»، صرخ عامل التطوع. «ما الذي سيكون عليه الأمر؟ هل ستبقون في المنزل مع أمهاتكم تأكلون الخبز وتشربون الحليب

وتقومون بما يُطلب منكم؟ أم ستأتون معي أنا القبطان غوميز ذو القبضة الحديدية، لأجل حياة من السفر والمغامرة والشهرة والثروة. كل ما عليكم فعله هو صعود سلم السفينة وسيكون العالم ملككم».

نظر بارني وكارلوس وإبرما بعضهم إلى بعض ثم قال كارلوس: «أجل أم لا؟».

«أجل»، قال بارني.

«أجل»، قال إبرما.

توجه الرجال الثلاثة إلى السفينة وصعدوا السلم إلى متنها.

بعد مرور يومين أصبحوا في البحر المفتوح.

كان إبرما قد أبحر قبلاً لمسافات طويلة ولكن كأسير مكبل بالسلاسل. وبالنظر إلى البحر من على سطح السفينة كانت التجربة بالنسبة له جديدة وممتعة.

لم يكن لدى المجندين شيء ليفعلوه سوى التكهن بوجهتهم التي ما زالت مجهولة لهم حتى الآن. كانت الوجة سراً عسكرياً. أما إبرما فلم يكن لديه سوى سؤال واحد من غير جواب: ما الذي يخبئه المستقبل له؟

عندما صعدوا على متن سفينة خوسيه وماريا قابلوا ضابطاً يجلس إلى طاولة ومعه سجل.

«ما اسمك؟» قال الضابط.

«بارني ويلارد».

كتب الضابط في السجل ثم نظر إلى كارلوس: «الاسم».

«كارلوس كروز».

كتب الضابط الاسم وحدّق نحو إبرما ثم وضع قلمه ونقل نظره بين كارلوس وبارني ثم قال: «لا يسمح لكما الجيش باصطحاب عبد. يمكن للضابط أن يأخذ عبداً ما دام قادراً على إطعامه وإلباسه من ماله، ولكن لا يمكن لجندي متطوع أن يفعل هذا».

درس إبرما وجه كارلوس عن قرب ولاحظ نظرة اليأس التي في عينيه،

ورأى مسار نجاته يُغلق. بعد مرور عدة دقائق من التردد قال كارلوس الشيء الوحيد الذي يمكن أن يقوله: «إنه ليس عبداً، إنه رجل حر».

توقف قلب إيرما عن الخفقان.

أوما الضابط برأسه. إن العبيد الأحرار متطوعون نادرون ولكنهم موجودون.

«حسناً»، قال الضابط ثم نظر إلى إيرما وقال: «الاسم».

حدثت الأمور بسرعة كبيرة، وعندما انتهى كل شيء لم يكن إيرما واثقاً من أنه نال الحرية أم لا. لم يهتته بارني على نيله حرته، ولم يتصرف كارلوس كرجلٍ قدّم عطيةً كبيرة. من الواضح أن إيرما سيُعامل كرجلٍ حر في الجيش، ولكن إلى أيّ درجة سيكون هذا حقيقياً لاحقاً؟ هل هذا حقيقي أم لا؟ هذا ما لم يكن إيرما واثقاً منه.

الفصل الخامس

تأجل حفل زفاف مارجوري.

بعد سقوط كاليه توقع الإنكليز أن يتعرضوا للغزو، وأوكلت إلى بارت شايرنغ مهمة تجنيد مئة رجل، وتجهيز حامية كومب هاربر، ولذلك تم تأجيل الزفاف.

رأى نيد ويلارد في هذا التأجيل بادرة أمل.

عجلت مدن عديدة ككينغزبريدج بإصلاح أسوارها وعزز كل إيرل قلعته. وعلى الجبهات البحرية تمّ تنظيف مدافع المرافئ القديمة من الصدأ، وكان لازماً على النبلاء المحليين القيام بواجبهم والدفاع عن الناس من الفرنسيين المروعين.

ألقي الناس اللوم على الملكة ماري تودر، وقالوا إن كل هذا غلظتها لأنها تزوجت من ملك إسبانيا، فلولا زوجها لبقيت كاليه إنكليزية حتى الآن، ولم تكن إنكلترا لتدخل في حربٍ مع فرنسا، أو تحتاج إلى تعزيز أسوار مدنها وتنظيف مدافع المرافئ.

كان نيد سعيداً، ففي حال بقاء زواج مارجوري وبارت عالماً يمكن لأي شيء أن يحدث. ربما سيغير بارت رأيه، أو قد يُقتل في معركة، أو يموت من الحمى الارتعاشية التي تكتسح البلاد.

كانت مارجوري المرأة التي أرادها نيد وهذه حقيقة قطعياً بالنسبة إليه، ورغم امتلاء العالم بالفتيات الجذابات فإنه لم يكن مهتماً بهن فمارجوري المرأة التي يريدتها. لم يفهم حقاً سبب ثقته الشديدة بهذا، ولم يكن واثقاً من شيء كما كان واثقاً من أنّ مارجوري امرأته وأنّ كاتدرائية كينغزبريدج باقية في مكانها.

اعتبر نيد خطبتها نكسة وليست هزيمة. تركز بارت وكتيبة الخيالة التابعة له في كينغزبريدج استعداداً للسفر على قارب إلى كومب هاربر في السبت السابق لأسبوع عيد الفصح المقدس. في ذلك الصباح، احتشد جمهور من الناس عند النهر لوداع الرجال، وانضم إليهم نيد حتى يرى بارت يغادر بأمر عينه.

رغم برودة الطقس فإن الشمس كانت ساطعة والجو احتفالياً على الرصيف البحري. أسفل جسر مرتين رست القوارب والمراكب على كلا الضفتين وحول جزيرة ليدر، ومن البعيد عند ضاحية لفريلد بدت المستودعات والمحال كأنها تندافع فيما بينها للحصول على مساحة. كان نهر كينغزبريدج الذي يصب في البحر صالحاً لملاحة السفن التي تبحر في المياه الضحلة. لطالما كانت كينغزبريدج أكبر أسواق إنكلترا، وهي الآن تتعامل تجارياً مع أوروبا أيضاً.

عندما وصل نيد إلى حانة سلوترهاوس وارف كان هناك مركبٌ كبير يرسو بالقرب من الضفة، لا بدّ أنه المركب الذي سيحمل بارت وفيلقه إلى كومب هاربر. كان هناك عشرون رجلاً يجدفون المركب بمساعدة شراع واحد من أعلى النهر، وهم الآن متكئون على مجاديفهم فيما المركب يُدفع إلى المرسى باستخدام العصي. إن الرحلة أسفل النهر سهلة حتى بوجود مئات الركاب.

تجمعت عائلة فيتزجيرالد في الشارع الرئيسي لتقدم وداعاً حماسياً للرجل الذي سيصبح صهرهم. سار السير ريجنالد ورولو جنباً إلى جنب، كانا أشبه بنسختين، قديمة وجديدة، من الرجل الطويل والنحيل والمتعالي نفسه. حدّق نيد نحوهما بحقدٍ وازدراء، وتبعتهما مارجوري والليدي جاين، الأولى ضئيلة الحجم ومثيرة والثانية ضئيلة أيضاً ولكن وضيعة.

كان نيد واثقاً من أن مارجوري لم تكن بالنسبة لرولو سوى أداة للحصول على السلطة والمكانة. هناك الكثير من الرجال ممن لديهم نفس الموقف تجاه فتيات عائلاتهم، ولكن في عيني نيد كان هذا نقيضاً للحب. إن كان رولو يحبّ أخته فهو شعور مشابه لشعوره نحو حصان ما؛ قد يحبه ولكن سيبيعه أو يتاجر به عند الضرورة.

لم يكن السير ريجنالد أفضل من ابنه، أما الليدي جاين فرأى نيد أنها لا يمكن أن تكون عديمة الرحمة تماماً، ولكنها ستضع مصالح العائلة أمام سعادة أي فردٍ من أفرادها، وهذا بدوره قادها لتكون قاسية مثلهم.

راقب نيد مارجوري تصعد نحو بارت. كان بارت متباهياً بنفسه وفخوراً لأنّ أجمل فتاة في كينغزبريدج خطيبته.

راقبها نيد وبدت له شخصاً آخر مختلفاً تماماً في معطف زاهٍ من قماش كينغزبريدج القرمزي وقبعة صغيرة بريشة. وقفت بانتصاب وبهدوء، ورغم أنّها كانت تتحدث إلى بارت فإن وجهها بدا جامداً كتمثال، فقد كان كل شيء فيها يشي بالثبات وليس بالحياة، وشيطان الشغب فيها قد اختفى. لكن لا يمكن لأحد أن يتغير بهذه السرعة، لا بدّ أن ذلك الشيطان ما زال في مكان ما في داخلها.

علم نيد أنّها كانت تعيسة وهذا أغضبه وأحزنه في آنٍ معاً. أراد أن يحملها ويهرب بها بعيداً. ليلاً، كان يحلم بأنهما هربا من كينغزبريدج عند الفجر واختفيا في الغابة. ويتخيل أحياناً أنهما سارا حتى وينشستر وتزوجا تحت اسمين مزيفين، أو توجها إلى لندن وأتسا عملاً هناك، بل وتخيل أنهما ذهبا إلى كومب هاربر وصعدا إلى سفينة متوجهة إلى إشبيلية. لكن لن يكون بوسعه إنقاذها ما لم ترغب هي بأن ينقذها.

غادر المجدفون القارب، وتوجهوا إلى حانة سلوترهاوس القريبة لإطفاء ظمئهم. نزل أحد الركاب من المركب وحدّق نحو نيد في دهشة، كان الراكب يرتدي عباءة قدرة ويحمل محفظة جلدية بالية ولديه ذلك المظهر الحازم والضجر الذي يملكه مسافر الرحلات الطويلة.

كان المسافر ألبن نسيب نيد الذي يسكن في كاليه.

كانا في نفس العمر وقد أصبحا قريبين بعضهما من بعض عندما عاش نيد مع العم ديك.

هرع نيد إلى رصيف الميناء قائلاً: «ألبن؟ هل هذا أنت حقاً».

أجاب ألبن بالفرنسية: «نيد. يا للراحة».

«ما الذي حدث في كاليه؟ لم تصل بعد أيّ معلومات مؤكدة، حتى بعد مرور كل هذا الوقت».

«الأخبار سيئة»، قال آلبن. «توفي والداي وأختي وخسرنا كل شيء. استولى الفرنسيون على المستودع وسلموه للتجار الفرنسيين». «كُنَّا خائفين من حدوث هذا».

كانت هذه الأخبار التي توجس منها آل ويلارد لوقتٍ طويل، وشعر نيد بالاكتئاب الشديد، وانتابه حزن خاص على أمه التي خسرت عمل حياتها. ستتحطم لدى سماعها بهذه الأخبار، ولكن تبقى خسارة آلبن أعظم من خسارة أمه.

«يؤسفني ما حدث لوالديك وتيريز».

سار الشابان في الشارع الرئيسي.

«نجحت بالهروب من البلدة رغم أنني لم أكن أملك أي نقود»، قال آلبن. «العبور من فرنسا إلى إنكلترا مستحيل الآن بسبب الحرب، ولهذا السبب لم تصلكم أي أخبار». «إذاً، كيف وصلت إلى هناك؟».

«كان علي مغادرة فرنسا أولاً ولهذا قطعت الحدود إلى هولندا. لم أكن أملك أجرة السفر إلى إنكلترا ولهذا قصدت عمّنا في أنتويرب». هزّ نيد رأسه. «نسيب والدينا جان ولمان».

زار جان كاليه عندما كان نيد هناك ولهذا يعرفه الشابان.

«لهذا السبب مشيت إلى أنتويرب».

«إنها مسافة كبيرة وتصل إلى مئة ميل».

«مشيت وأنا أشعر بكل خطوة أقطعها. أخذت الكثير من المنعطفات الخطرة وكدت أموت جوعاً، ولكنني وصلت إلى هناك في النهاية». «أحسن. لا بد أن العم جان آواك».

«كان رائعاً. قدّم لي لحماً ونيبداً وضمتد الخالة هيني قدمي. اشترى لي جان تذكرة من أنتويرب إلى ميناء كومب وزوجين من الأحذية الجديدة وأعطاني مالاً للرحلة».

«وها أنت هنا»، قال نيد وقد وصلا إلى مدخل منزل عائلة ويلارد، ورافق نيد آلبن إلى غرفة الجلوس. جلست أليس إلى طاولة قرب نافذة من أجل إضاءة أفضل وكانت تدون في سجل ما. ورغم النار القوية في المدفأة فإن

أليس تدرت بمعطفٍ ذي خوافٍ من الفراء. لطالما قالت إن من يعمل في تسجيل الحسابات يجب أن يبقى دافئاً.

«أمي، ألبن هنا. لقد وصل من كاليه».

وضعت أليس قلمها وقالت: «أهلاً بك يا ألبن». ثم التفتت إلى نيد. «أحضر لنسيك ما يأكله ويشربه».

توجه نيد إلى المطبخ وسأل المدبرة جانيت فايف أن تقدم النيذ والكعك. في غرفة الجلوس أخبرهم ألبن بقصته وتحدث بالفرنسية وترجم نيد الأجزاء من حديثه التي لم تفهمها أمه.

ترقرقت الدموع من عيني نيد عندما رأى جسد أمه المهيب ينكمش على الكرسي عندما سمعت التفاصيل المريعة عن موت أخي زوجها وزوجته وابتتهما واستيلاء تاجر فرنسي على المستودع بكل محتوياته وأن هناك غرباء يعيشون في منزل ديك.

«ديك المسكين»، قالت بهدوء. «ديك المسكين».

«أسف يا أمي»، قال نيد.

جاهدت أليس لتجلس باستقامة ولتكون إيجابية.

«لم تُدمر تماماً. ما زال لدي هذا المنزل وأربعمئة جنيه. أملك أيضاً ستة منازل بقرب كنيسة سان مارك».

ورثت أليس البيوت قرب كنيسة سان مارك عن والدها وحصلت على دخل صغير من تأجيرها.

«وهذه ثروة أكبر مما قد يحصل عليها معظم الناس طوال حياتهم». ولكن كانت هناك فكرة تُقلقها: «رغم أنني أتمنى لو أنّ الأربعمئة جنيه لم تكن قرصاً للسير ريجنالد فيتزجيرالد».

«ولكن هذا أفضل من أن تكون بين أيدينا»، قال نيد. «إن لم يُعد السير ريجنالد المال سنحصل على الدير».

«بالحديث عن هذا»، قالت أمه. «ألبن هل تعرف سفينة باسم سانت مارغريت».

«أجل، لماذا؟» سأل ألبن. «لقد وصلت إلى كاليه من أجل الإصلاحات قبل يوم على وقوع الهجوم الفرنسي».

«ما الذي حدث لتلك السفينة؟».

«سلبها التاج الفرنسي مع بقية الممتلكات الإنكليزية في كاليه كغنائم حرب. كانت مليئة بالفرو وبيعت البضائع بالمزاد العلني على رصيف الميناء. باعوها بمبلغ يفوق الخمسمئة جنيه».

نظر نيد وأليس بعضهما إلى بعض. كانت هذه قبلةً أخرى تنفجر في وجههما.

«إذاً، خسر ريجنالد استثماره. يا إلهي، لا أعتقد أنه سينجو من هذا»، قالت أليس.

«وسبخسر الدير»، قال نيد.

«ستقع المتاعب»، قالت أليس بتجهم.

«أعلم»، أجاب نيد. «سيولول السير ريجنالد حتماً ولكن سيكون لدينا عملٌ جديد». وبدأت أساريه تنفجر. «يمكننا أن نبدأ بداية جديدة».

قالت أليس التي تتصرف بدمائه دائماً: «ألبن يمكنك أن تغتسل وترتدي ثياباً نظيفة. ستعطيك جانيت فايف كل ما تحتاجه ثم سنتناول العشاء».

«شكراً أيتها الخالة أليس».

«أنا من أشكرك لأنك قمت بهذه الرحلة الطويلة ولإيصالك الأخبار أخيراً على الرغم من أنها أخبار سيئة».

درس نيد وجه أمه، ورأى أنّ الأخبار قد دمرتها رغم أنّ ما حدث كان متوقفاً. شعر برغبة قوية في القيام بشيء لرفع معنوياتها.

«يمكننا الآن الذهاب إلى الدير وإلقاء نظرة عليه والتفكير بكيفية تقسيم المساحة وما إلى هناك».

بدت أليس غير مهتمة إلا أنها حاولت أن تبدو كذلك وقالت: «لا أرى مانعاً فهي مُلكنا الآن». ونهضت على قدميها.

غادرا المنزل وعبرا ساحة السوق إلى القسم الجنوبي من الكاتدرائية. كان إدموند والد نيد يشغل منصب عمدة كينغزبريدج عندما بدأ هنري

الثامن حملة إقفال الأديرة. أخبرت أليس نيد أنّ إدموند ورئيس الدير بول-آخر رئيس دير في كينغزبريدج- كما تبين لاحقاً، توقعوا حدوث هذا وتآمرا معاً

لحفاظ على المدرسة، ولذلك فصلا المدرسة عن الدير وجعلها مستقلة

في الإدارة والتبرعات. منذ مئتي عام حدث أمرٌ مشابه لهذا لمشفى كاريس، ولهذا السبب أخذ إدموند ما حدث للمشفى عبرة، وبفضل ما فعله ما زالت المدينة تحتفظ بمدرستها ومشفاها، أما بقية الدير فقد تعرض للتدمير.

كان الباب الأساسي مغلقاً، ولكن لأنّ الجدران متداعية عثرا على مكان خلف المطبخ القديم حيثما يمكنهما تسلق الأنقاض إلى المبنى.

كانت فكرة التسلق عبر الأنقاض قد خطرت لأناسٍ آخرين، ورأى نيد رماد نارٍ حديثة وبعض العظام المتناثرة وجعبة نبيذ متعفنة. لا بدّ أن أحدهم قضى الليلة هنا، ربما كانا عاشقينٍ سرّيين. فاحت من المكان رائحة تحلل وانتشرت فضلات الطيور والقوارض في أرجائه.

«كان الرهبان مهتمين بنظافة المكان على الدوام»، قالت أليس بحزنٍ وهي تنظر حولها.

«لا شيء دائم باستثناء التغيير».

رغم كل الخراب حولهما فإنّ نيد شعر بإحساس قوي بالترقب، فكل هذا الآن ملكٌ لعائلته، ويمكن أن يتأتى عنه شيءٌ رائع. تصرفت والدته بذكاء عندما فكرت بهذا خاصة في الوقت الذي كانت فيه العائلة تحتاج إلى خطة إنقاذ.

شقاً طريقيهما عبر الرواق ذي القناطر، ووقفا وسط حديقة من الأعشاب الطبية الكثيفة ونافورة مُدمرة حيث اعتاد الرهبان غسل أيديهم. نظرا حولهما في الممر المُقنطر، ورأى نيد أنّ الكثير من الأعمدة والسراريب والدعامات والقناطر ما زالت بحالة سليمة رغم مرور عقودٍ من الإهمال. لقد أتقن بناؤو كينغزبريدج بناء هذا المكان.

«يجب أن نبدأ هنا»، قالت أليس. «سنهدم أحد المداخل المقنطرة إلى الجدار الغربي حتى يُمكن للناس رؤية داخل ساحة السوق. يمكننا تقسيم الممرات المقنطرة إلى متاجر صغيرة... متجر بين كل عمودين».

«سيكون لدينا أربعة وعشرون متجراً، أو ربما ثلاثة وعشرون إن استخدمنا أحدها كمدخل».

«يمكن للشرطة أن تدخل وتلقي نظرة على المكان من الساحة».

تخيل نيد الصورة كما رآها أمّه تماماً حيث الأكشاك التي تبيع الأقمشة

الزاهية والفواكه والخضروات الطازجة والأحذية والأحزمة والجبن والنيذ، والباعة ينادون على بضائعهم ويفتون زبائنهم ويأخذون المال ويقدمون الفكة، والمتسوقون في أفضل حللهم يمسكون بمحافظهم وينظرون ويتلمسون ويتشممون وهم يثرثرون مع جيرانهم. كان نيد يحب الأسواق بسبب جو الوفرة الذي يكتنفها.

«لا يحتاج المكان إلى كثير من العمل في البداية»، تابعت أليس. «علينا أن ننظفه، ولكن يمكن للباعة أن يُحضروا طاولاتهم وأي شيء يحتاجونه. عندما يصبح السوق جاهزاً للعمل ويدرّ المال سنفكر بإصلاح البناء وتجديد السقف ورفص الساحة».

فجأة شعر نيد أنّ أحداً ما يراقبهما والتفت حوله. كان الباب الجنوبي للكاتدرائية مفتوحاً والأسقف يوليوس يقف في الممر المُقنطر ويده كالمخالب على وركيه النحيلين، ويحدّق نحوهما بحقدٍ. شعر نيد بالذنب رغم عدم وجود سبب يدفعه لهذا، ولاحظ أنّ الكهنة يولدون مثل هذا الشعور على الدوام.

انتبهت أليس إلى وجود الأسقف بعد مرور دقيقة، ونخرت متفاجئة ثمّ تمتت: «أعتقد أنّه علينا أن ننتهي من هذا أيضاً».

«ما الذي تفعلانه هنا؟» صرخ يوليوس بسخطٍ.

«طاب يومك يا سيدي الأسقف»، قالت أليس بينما مشت نحوه وتبعها نيد. «أتفحص هذه الملكية التابعة لي».

«ما الذي تعنيه بقولك هذا؟».

«أنا مالكة هذا المكان الآن».

«لا، إنّهُ ليس لكِ بل للسير ريجنالد». وارتسم الازدراء على وجه الأسقف الشديد الشحوب، ولكن نيد انتبه إلى القلق الكامن تحت نوبة غضبه.

«رهن ريجنالد الدير كضمانة مقابل قرضٍ لا يمكنه أن يفیه. لقد اشترى حمولة على سفينة تدعى سانت مارغريت والسفينة صودرت من قبل الملك الفرنسي، ولذلك لن يتمكن من استعادة ذلك المال، وبالتالي أصبح هذا المكان ملكي. بطبيعة الحال أرغب بأن نبقى على وفاق كجيران أيها الأسقف وأتطلع لمناقشة مخططاتي...».

«انتظري، لا يمكنك أن تأخذي الرهن».

«على العكس. إن كينغزبريدج مدينة تجارية لها سمعة في احترام العقود التي تُبرمها ورفاهنا يعتمد على هذا، كما أثق أن رفاهك يعتمد عليه أيضاً». «وعد ريجنالد ببيع الدير إلى الكنيسة، إلى مالكته الشرعية».

«إذاً، السير ريجنالد حث بوعده لك عندما رهنه كضمانة على قرضه. رغم هذا يسعدني أن أبيع المكان لك إن كان هذا ما تريده».

حبس نيد أنفاسه، فهو يعرف أن أمه لا تنوي فعل هذا.

تابعت أليس كلامها: «ادفع لي المبلغ الذي استدانه ريجنالد مني، وسيكون المكان لك. أربعمئة وأربعة وعشرون جنيهاً».

«أربعمئة وأربعة وعشرون جنيهاً»، كرر الأسقف يوليوس وكأنّ هناك شيئاً غريباً في هذا الرقم.

«أجل».

فكر نيد أنّ قيمة الدير أكبر من هذا بكثير، وإن كان لدى يوليوس الحس السليم فسيشتره على الفور، ولكن لم يكن بحوزة الأسقف مثل هذا المبلغ. «عرضه ريجنالد عليّ بالمبلغ الذي اشتراه وهو ثمانون جنيهاً!» قال الأسقف بحقد.

«إذاً، كان الدير هدية ورعة من قبله وليست صفقة تجارية».

«عليك أن تقومي بالمثل».

«إنّ عادة ريجنالد في بيع الأشياء بأقل من ثمنها الحقيقي هي السبب في إفلاسه».

غير الأسقف الموضوع وسألها: «ما الذي تنوين القيام به في هذه الخرابة؟».

«لست واثقة»، كذبت أليس. «دعني أعمل على بعض الأفكار ومن ثمّ سأتي وأتحدث معك».

تكهن نيد بأنّها لم ترغب بإعطاء يوليوس فرصة بدء حملة ضد السوق قبل انتهاء العمل عليه.

«سأحاول إيقافك أيّاً يكن ما ستفعلينه».

فكر نيد أنّ هذا لن يحدث لأنّ كل عضو في المجلس التشريعي للمدينة

يعرف تماماً أنّ المدينة تحتاج إلى مساحة أكبر للمواطنين حتى يبيعوا منتجاتهم، والبعض منهم كان في حاجة شديدة إلى المساحة، وسيكونون أوائل المستأجرين في السوق الجديد.

«أتمنى أن ننجح في حلّ الأمور بيننا»، قالت أليس على نحوٍ مُهادن.

«ستُطردين من الكنيسة على قيامك بهذا»، قال يوليوس بتهور.

حافظت أليس على هدوئها.

«جربت الكنيسة استعادة الأديرة بكل الطرق، ولكن البرلمان لم

يسمح بهذا».

«هذا انتهاك».

«أصبح الرهبان أغنياء وكسولين وفسادين وفقدوا احترام الناس لهم،

ولهذا تمكن الملك هنري من الإفلات بفعلته بحلّ الأديرة».

«كان هنري الثامن رجلاً شريراً».

«أريد أن أكون صديقةً وحليفةً لك يا سيدي الأسقف، ولكن من دون أن

يكون الثمن إفقاري أنا وعائلتي. إنّ الدير ملكٌ لي».

«لا، ليس لك»، قال يوليوس. «إنّه للرب».

حرص رولو على تقديم الشراب لجميع مقاتلي بارت شايرنغ قبل

انطلاقهم إلى ميناء كومب. لم يكن قادراً على دفع ثمن الشراب، ولكنه أراد

إرضاء خطيب أخته فهو لا يريد أن تُفسخ الخطوبة. سيساهم هذا الزواج في

تغيير حظوظ عائلة فيتزجيرالد وستصبح مارجوري كونتيسة، وإن أنجبت

ولداً فسيكبر ليُصبح إيرلاً وستصبح عائلة فيتزجيرالد عائلة أرستوقراطية...

حسناً أرستوقراطية بطريقة ما.

على أيّ حال لم تقم عائلة فيتزجيرالد بعد بهذه القفزة المنشودة فالخطوبة ليست

زواجاً وربما تُجدد مارجوري العنيدة تمردها بتشجيع من نيد وويلارد البغيض، أو

قد يشعر بارت بالإهانة من نفورها الواضح منه، ويدفعه كبرياؤه المجروح إلى

إلغاء الخطوبة، ولذلك أنفق رولو مالاً لا يملكه لترسيخ صداقته ببارت.

لم يكن الأمر سهلاً، فالصداقة الحميمة مع الأصهار يجب أن تكون

ممزوجة بالاحترام والمداهنة، ولكن رولو قادر على فعل هذا.

رفع رولو الإبريق المعدني وقال: «إخوتي النبلاء! فليحِمِ الرَّبُّ أذرعكم القوية، ويساعدكم على طرد الفرنسيين الكريهين».

كانت خطبة ناجحة ورفع الرجال الأنخاب عالياً وشربوا.

دوى رنين جرس فأفرغ الرجال كؤوسهم وصعدوا على متن المركب. لوحث لهم عائلة فيتزجيرالد من مكانهم على الرصيف البحري. عندما غاب المركب عن الأنظار عادت مارجوري وأهلها إلى المنزل باستثناء رولو الذي توجه إلى حانة سلوترهاوس.

في الحانة انتبه رولو إلى رجلٍ لا يحتفل مع البقية بل يجلس في زاوية وحده ويبدو مكتئباً. تعرف رولو على دونالد غلوستر من شعره الداكن واللامع وشفتيه الممتلئين. بدا الاهتمام على رولو فدونال رجلٌ ضعيف والرجال الضعفاء قد يكونون مفيدين.

اشترى رولو كأسين جديدتين من الجعة وتوجه للجلوس مع دونالد. كانا هناك فارق اجتماعي كبير بينهما يمنعهما من أن يكونا صديقين مقربين، ولكنهما كانا في العمر نفسه كما أنهما ارتادا مدرسة النحو في كينغزبريدج. رفع رولو كأس الجعة وقال: «الموت للفرنسيين».

«لن يغزونا»، قال دونالد ولكنه شرب على أي حال.

«ما الذي يجعلك واثقاً من هذا؟».

«لا يمكن لملك فرنسا تحمّل تكاليف الغزو. قد يتحدثون عن غزو ويقومون بغارات سريعة، ولكنهم لا يملكون المال من أجل أسطول حربي عابر للقناة».

فكر رولو أنّ دونالد يعرف تماماً عمّا كان يتحدث فرييس عمله فيلبرت كوبلي يعرف جيداً تكاليف السفن أكثر من أي شخصٍ آخر في كينغزبريدج، ولأنّه تاجر عالمي أيضاً فهو يعلم بالموارد المالية التي يملكها التاج الفرنسي. صدرت عن دونالد نخرة هازئة.

«تبدو كرجلٍ يحمّل أخباراً سيئة يا زميل الدراسة القديم»، قال رولو.

«حقاً».

«هذا ليس من شأني بالطبع...».

«سأخبرك، فالجميع سيعلمُ عمّا قريب. تقدمت لخطبة روث كوبلي ورفضتني».

كان رولو متفاجئاً. لقد توقع الجميع زواج دونال من روث فزواج العامل من ابنة رئيس عمله أمرٌ شائع.
«ألا يُحبك والدها؟».

«سأكون صهراً جيداً له لأنني أتقن العمل جيداً، ولكنني لست متديناً كفاية بنظر فيلبرت».

«آه»، وتذكر رولو المسرحية التي عُرضت في نيوكاسل، وتذكر كم كان دونال مستمتعاً بها ومترددأ في الانضمام إلى عائلة كوبلي في خروجهم الغاضب.

«ولكنك قلتَ إن روث من رفضتك»، قال رولو وفكر بأن دونال كان جذاباً بنظر الفتيات بمظهره الأسمر الرومانسي الجميل.

«قالت لي إنها تراني كأخ لها».

هزّ رولو كتفيه. لم يكن هناك أيّ منطق في الحب.

نظر إليه دونال بدهاء وقال: «أنت لست مهتماً كثيراً بالفتيات».

«ولا بالفتية أيضاً، إن كان هذا ما ترمي إليه».

«لقد خطرت هذه الفكرة ببالي».

«لا لست مهتماً».

في الحقيقة لم يفهم رولو سبب كل هذه العجبة حيال الموضوع، فالاستمناء بالنسبة له مصدر متعة لطيفة كتناول العسل، ولكن فكرة ممارسة الجنس مع امرأة أو رجل آخر بدت مقززة قليلاً. كان يفضل التبتل، ولو أنّ الأديرة ما زالت موجودة لأصبح راهباً.

«أنتَ محظوظ»، قال دونال بمرارة. «عندما أفكر بكل ذلك الوقت الذي قضيته أحاول أن أكون الزوج المناسب لها... أن أظهار بأنني لا أشرب ولا أرقص ولا أشاهد المسرحيات وأذهب إلى مراسمهم الدينية المملة وأتحدث إلى أمها».

شعر رولو بالشعرِ على عنقه يقف لدى سماعه جملة «أذهب إلى مراسمهم الدينية المملة». يعلم رولو منذ وقتٍ طويل أنّ عائلة كوبلي تنتمي إلى تلك

الطبقة التي تعتقد أنها تمتلك الحق في تكوين آرائها الدينية الخاصة، ولكنه لم يرَ دليلاً على ممارستهم التجديف في كينغزبريدج قبلاً. حاول رولو ألا يُظهر حماسه المفاجئ وقال محاولاً أن تبدو لهجته عادية: «أعتقد أن هذه المراسم مملّة جداً».

تراجع دونالد عما قال على الفور، «كان يجب أن أقول لقاءات، فهم بالطبع لا يقيمون مراسم فهذه ستكون هرطقة».

«فهمت قصدك»، قال رولو. «ولكن لا يوجد قانون يمنع الناس من الصلاة معاً أو القراءة من الإنجيل أو الترتيل».

رفع دونالد كأسه إلى فمه ووضعها على الطاولة مجدداً.

«أنا أتحدث بالترهات»، قال وظهر في عينيه ظلٌ خوفٍ. «لا بدّ أنني شربت كثيراً». نهض على قدميه بجهدٍ وقال: «سأعود إلى المنزل».

«لا تذهب»، قال رولو الذي تاق لمعرفة المزيد عن لقاءات عائلة فيلبرت كوبلي. «فلتنه كأسك».

ولكن دونالد كان خائفاً، فهناك شكوك كبيرة تحوم حول عائلة كوبلي وأصدقائهم وبأنهم يملكون معتقدات بروتستانتية إلا أنهم كانوا حذرين، ولم يكن هناك دليل واحد على أيّ سلوك غير قانوني. فما داموا يحتفظون بهذه الأفكار لأنفسهم فهم لا يرتكبون أيّ إساءات. على أيّ حال إن إجراء أيّ مراسم بروتستانتية سيكون شأناً آخر. كان الأمر خطيئة وجريمة وعقوبتها الحرق حياً. وها قد أزاح دونالد الثمل والساخط الستار قليلاً عما يجري.

لم يكن هناك الكثير مما يمكن لرولو فعله حيال الأمر لأنّ دونالد سينكر كل شيء حتماً في الغد وسيقول إنه كان ثملاً، ولكن قد تكون هذه المعلومة مفيدة في يوم من الأيام.

قرر رولو أن يُخبر والده عن الأمر، ولهذا أنهى شرابه وغادر.

وصل إلى منزل عائلته في الشارع الرئيسي في الوقت نفسه الذي وصل فيه الأسقف يوليوس.

«قدمنا لجنودنا وداعاً جيداً ومرحاً»، قال رولو بابتهاج للأسقف.

«لا تُلقِ بالألهذا»، قال يوليوس بعصبية. «لدي خبر للسير ريجنالد».

بدا غاضباً بشكل واضح إلا أنه ولحسن الحظ، لم يكن هناك علائم على أن هذا الغضب موجه إلى عائلة فيتزجيرالد. قاده رولو إلى القاعة الكبيرة وقال له: «سأحضر أبي على الفور. فلتجلس هنا قبالة النار من فضلك».

لوح يوليوس بيده غير مبالٍ وأخذ يذرع المكان جيئةً وذهاباً في نفاذ صبر. كان السير ريجنالد يأخذ قيلولة. أيقظه رولو وأخبره أن الأسقف في الأسفل. زمجر ريجنالد ونهض من سريره ثم قال لرولو: «قدم له كأساً من النبيذ بينما أرتدي ثيابي».

بعد مرور عدة دقائق كان الرجال الثلاثة جالسين في القاعة. بدأ يوليوس حديثه على الفور:

«وصلت أليس ويلارد أخبار من كاليه. لقد صودرت سفينة سانت مارغريت من قبل الفرنسيين وبيعت حمولتها».

اجتاح اليأس رولو وقال: «علمت أن هذا سيحدث». كانت هذه آخر رمية نرد لوالده وخسرها، فما الذي سيفعلونه الآن؟

احمرّ السير ريجنالد من الغضب وقال: «ما الذي كانت تفعله السفينة في كاليه بحق الشيطان؟».

أجابه رولو: «أخبرنا جوناكس ببيكون أنه عندما التقى بالسفينة عرف من قبطانها أنه ينوي المرور بمرفأ ما لإجراء بعض الإصلاحات البسيطة ولهذا تأخرت في الوصول».

«ولكن ببيكون لم يقل إن هذا المرفأ مرفأ كاليه».
«لا».

اربد وجه ريجنالد الغزير النمش بالكراهية التي اعتملت في داخله وقال: «كان يعلم. وأراهن أن فيلبرت علمَ هذا أيضاً عندما باعنا الحمولة».
«بالطبع فيلبرت كان يعلم، ذلك المخادع البروتستانتى المُهرطق». كان رولو يغلي غضباً وقال: «لقد سُرقنا».

«إن كان هذا صحيحاً، هل يمكنك أن تسترد مالك من فيلبرت؟» سأل الأسقف.

«مستحيل»، قال ريجنالد. «في مدينة ككينغزبريدج لا يستطيع الناس

التراجع عن عقودهم حتى وإن كان هناك خديعة خبيثة في الأمر، فالعقود مقدسة».

عرف رولو الذي درس القانون أن كلامه صحيح وقال: «إن محكمة الالتماس ستؤيد شرعية الصفقة».

«إن خسرت ذلك المال هل ستكون قادراً على ردّ دين أليس ويلارد؟»
سأل الأسقف.

«لا».

«وقد رهنت الدير كضمانة على القرض؟».

«أجل».

«أخبرتني أليس هذا الصباح أن الدير مُلِّكٌ لها الآن».

«فلتحلّ اللعنة على عينيها»، قال ريجنالد.

«إذا هي على حق؟».

«أجل».

«كنت ستسمح للكنيسة باسترداد الدير يا ريجنالد».

«لا تطلب مني أن أتعاطف معك الآن يا يوليوس. لقد خسرتُ للتو

أربعمئة جنيه».

«أربعمئة وأربعة وعشرون جنيهاً. هذا ما أخبرتني به أليس».

«صحيح».

تساءل رولو عن سبب اهتمام يوليوس بالمقدار الدقيق للمبلغ، ولكنه

لم يحظَ بفرصة طرح السؤال. وقف والده متوتراً وذرع الغرفة جيئةً وذهاباً.

«أقسمُ أنني سأنال من فيلبرت على فعلته هذه، وسيعرف أن ما من أحد

يخدع ريجنالد فيتزجيرالد وينجو بفعلته. سأسبب له المعاناة ولكن لا أعرف

كيف...».

سقط إلهامٌ مفاجئ على رولو وقال: «أعلم كيف».

«ماذا؟».

«أعرف كيف يمكنك أن تنتقم من فيلبرت».

توقف ريجنالد عن ذرع الغرفة وحدّق نحو رولو بعينين ضيقتين.

«بماذا تُفكر؟».

«كان دونالد غلوستر الذي يعمل لمصلحة فيلبرت ثملاً في حانة سلوترهاوس بعد ظهر اليوم. لقد رفضت ابنة فيلبرت روث عرضه للزواج، وفكّ الشراب عقدة لسانه وجعله الاستياء حقوداً. أخبرني أنّ عائلة كوبلي وأصدقاءهم يقيمون مراسم دينية».

اشتعل الأسقف يوليوس غضباً. «مراسم دينية؟ من دون كاهن؟ هذه هرطقة».

«وعندما حاولت جرّه للتحدث أكثر غير قصته وقال إنها لقاءات فقط، ثمّ بدا كأنه يشعر بالندم وتوقف عن الحديث فجأة».

«كنتُ أشكّ ومنذ وقتٍ طويل أنّ هؤلاء الجرذان يقيمون شعائر دينية بروتستانتية خفية. ولكن أين؟ ومتى؟ ومن يحضرها؟».

«لا أعلم»، قال رولو. «ولكن دونالد يذهب إليها».

«هل سيُفشي الأمر؟».

«ربما، بما أنّ روث قد رفضته الآن فهو لا يدين بأيّ ولاء لعائلة كوبلي».

«لنكتشف الأمر».

«دعوني أذهب لمقابلته. سأخذ معي أوزموند كارتر».

كان أوزموند كارتر رئيس الحرس وهو رجلٌ كبير بنزعة جلفة.

«ما الذي ستقوله لدونال؟».

«سأشرح له أنّه متهم بالهرطقة، وأنّه سيخضع للمحاكمة ما لم يبع بكل شيء».

«هل سيخيفه هذا؟».

«سيبرز في ثيابه من الخوف».

تابع الأسقف يوليوس كلامه مُفكراً: «قد تكون هذه فرصة جيدة للهجوم على البروتستانتين، فالكنيسة الكاثوليكية في حالة دفاعية للأسف. لم يعد للملكة ماري تودر شعبية بعد سقوط كاليه، ووريثتها الشرعية ماري ستيوارت، ملكة إسكتلندا، على وشك الزواج في باريس وسيؤلب زوجها الفرنسي الشعب الإنكليزي عليها. وها هو السير ويليام سيسيل يجوب البلاد مع أصدقائه في محاولة لجمع الدعم لمصلحة إليزابيث تودر اللقيطة لتصبح

وريشة للعرش. إذاً، أيّ محاولة لضرب المهرطقين في كينغزبريدج ستكون جيدة وترفع معنويات الكاثوليكيين».

فكر رولو بأنهم سيُنفذون إرادة الرّب وسيحصلون على انتقامهم في آنٍ معاً، وشعر بضراوة كبيرة تغلي في قلبه.

من الواضح أنّ والده شعر بهذا أيضاً وقال له: «قُم بهذا يا رولو، قُم بهذا الآن».

ارتدى رولو معطفه وغادر المنزل.

تقع غيلد هول قبالة منزلهم، ويملك الشريف ماثيوسن غرفة في الطابق الأرضي ويعاونه موظفٌ يدعى بول بتيت المسؤول عن كتابة الرسائل وترتيب الوثائق في خزانة وفق نظام دقيق. لم يكن ماثيوسن شخصاً يُعتمد عليه في تنفيذ مطالب عائلة فيتزجيرالد، فهو عادة ما يتحدى السير ريجنالد ويقول إنّه يخدم الملكة وليس عمدة كينغزبريدج. لحسن الحظ لم يكن الشريف في غرفته اليوم، ولم يكن لدى رولو أيّ نية في الإرسال بطلبه، وبدلاً من هذا توجه إلى القبو حيث يُنجز أوزموند وبقية الحراس مهام ليلة السبت. ارتدى أوزموند خوذة جلدية مناسبة له تقريباً جعلته يبدو أكثر غلظة، وأحكم أربطة حدائه الذي يصل إلى ركبته.

«أريدك أن تأتي معي لنستجوب أحدهم»، قال رولو لأوزموند. «لن تكون مُضطراً لقول أيّ شيء». وكان على وشك أن يضيف بقوله: «حاول أن تبدو مخيفاً»، ولكن بدا هذا غير ضروري.

سارا معاً عبر الشارع الرئيسي في ضوء أواخر فترة ما بعد الظهر. تساءل رولو إن كان قد فعل الصواب بإخبار والده والأسقف أنّ دونالد كان منهاراً وأفشى سراً. إن أفاق دونالد من ثمالة الآن فقد يكون أكثر اتزاناً، وقد يعتذر عن قول التفاهات وهو ثمل، ويُنكر تماماً أنّه قد ذهب إلى أيّ مراسم دينية بروتستانتية، وسيكون من الصعب عندئذٍ إثبات أيّ شيء.

أثناء مرورهم برصيف الميناء حيّت ابنة أحد الخبازين وتدعى سوزان وايت رولو الذي كان في مثل عمرها. كان وجهها يشبه القلب وتملك طبيعة حلوة، وقد تبادلا القبيل عندما كانا أصغر سناً، وقاما بأمرٍ أخرى. في ذلك الوقت أدرك رولو أنّ الجنس لا يملك عليه السيطرة التي يملكها على الفتية

كدونال غلوستر ونيد ويلارد، ولم يقد عبثه مع سوزان إلى أي شيء. قد يتزوج في أحد الأيام لأنه سيحتاج إلى من يُنظم بيته، ولكن إن حدث هذا فهو يأمل أن تكون من طبقة أعلى وليست مجرد ابنة خباز.

لم تحمل سوزان أيّ ضغينة تجاهه فقد كان لديها الكثير من الأحبة. بدت عطوفة وقالت له: «أسفة على خسارتك لحمولتك. إن الأمر غير مُنصف».

«إنه غير مُنصف». لم يُفاجأ رولو من انتشار القصة. كانت نصف مدينة كينغزبريدج تتعامل بطريقة أو بأخرى، بالتجارة في البحر، والجميع مُهتم بالأخبار السيئة والجيدة.

«ستحظى بحظٍ جيّد في المرة القادمة»، قالت سوزان. «هذا ما يقوله الناس على أيّ حال».

«آمل أن يكون الأمر صحيحاً».

نظرت سوزان في فضولٍ إلى أوزموند في تساؤل واضح عمّا يخططان للقيام به.

لم يرغب رولو بأن يضطر للشرح لها ولهذا وضع حداً للحديث.

«عذراً منك ولكنني في عجلة من أمري».

«وداعاً».

تابع رولو وأوزموند مسيرهما. كان دونال يعيش على الجانب الغربي الجنوبي من المدينة في القسم الصناعي المعروف بمنطقة المدابع. كانت الأقسام الشمالية والشرقية أحياءً سكنية مرغوبة وقد امتلك الدير الأرض في المنطقة التي تقع أعلى جسر ميرتن حيث المياه نقية. يدير مجلس المنطقة الإدارية المنطقة الصناعية أسفل النهر وكل الصناعات القذرة في كينغزبريدج كدبغ الجلود وصباغة الأقمشة وتنقية الفحم وصناعة الورق التي تُصرّف نفاياتها في النهر هناك كما هي الحال منذ قرون.

فكّر رولو أنّ غداً سيكون يوم الأحد وسيبادل الناس الأخبار في الكنيسة. وبحلول المساء سيعرف كل شخص في كينغزبريدج ما حدث لسفينة سانت مارغريت. قد يتعاطفون كما فعلت سوزان، أو ربما يعتبرون ريجنالد غيباً لأنه سمح لنفسه بالتعرض للخداع، ولكن أيّاً يكن رد الفعل سينظرون إلى

عائلة فيتزجيرالد بمزيج من الشفقة والاحتقار. كان بإمكان رولو سماعهم يقولون بتذالك في تعقيب على الحدث: «إن ذلك المدعو فيلبرت رجل ماكر فهو لم يبع صفقة لأحد قبلاً. كان على السير ريجنالد أن يعرف هذا». دفعت هذه الفكرة رولو للانكماش على نفسه، فقد كره فكرة ازدراء الناس لعائلته. ولكنهم سيغيرون لهجتهم عندما يُعتقل فيلبرت بتهمة الهرطقة، وسيراه الناس كعقاب له ويقولون: «لا منفعة تأتي من خداع السير ريجنالد، وكان الأحرى بفيلبرت أن يعرف هذا».

ستستعيد العائلة شرفها، وسيعلو صدر رولو فخراً عندما يسأله الناس عن اسمه. لا يحتاج سوى إلى إجبار دونال على الكلام.

توجه رولو وأوزموند إلى منزل صغير يقع خلف حوض السفن. كان للمرأة التي فتحت الباب نفس المظهر الوسيم والشهواني الذي يملكه دونال. عرفت المرأة أوزموند وقالت:

«الرحمة! ما الذي فعله ابني؟».

دفعها رولو إلى داخل المنزل، ولحق به أوزموند.

«أعتذر لأنّه ثمل»، قالت لهم. «لقد تلقى خيبة أمل كبيرة».

«هل زوجك في المنزل؟» سألها رولو.

«زوجي متوفى».

كان رولو قد نسي هذه الحقيقة التي جعلت الأمور أسهل. «أين دونال».

«سأحضره»، قالت واستدارت مبتعدة.

أمسك رولو بذراعها وقال لها: «عندما أتحدث إليك عليك أن تُصغي إلى ما أقول. لم أطلب منك أن تُحضره بل سألتك عن مكانه».

اشتعلت عيناها العسلتان غضباً، واعتقد رولو للحظة أنّها ستقول له إنّها حرة فيما تفعله في منزلها. تمالكت نفسها فقد كانت بلا شك خائفة من أن يؤدي تحديدها له إلى تصعيب الأمور على ابنها. أشاحت بعينيها إلى الأسفل وقالت: «إنّه في سريره، أول باب في الطابق العلوي».

«انتظري هنا. تعال معي يا أوزموند».

نام دونال منبطحاً على سريره بكامل ثيابه باستثناء حذائه. عبقت في المكان رائحة قيء رغم أن والده دونال قد نظفت أسوأ ما فيه. هزه رولو

ليستيقظ فالتفت دونال بنظرٍ زائف، وعندما رأى أوزموند جلس باستقامة وسرعة وقال: «أنقذني أيها المسيح».

جلس رولو على حافة السرير وقال: «سينقذك المسيح إن قلت الحقيقة. أنت في ورطة يا دونال».

كان دونال مذهولاً: «ما هي الورطة؟».

«ألا تتذكر حديثنا في حانة سلوترهاوس؟».

بدا دونال مذعوراً وهو يحاول أن يتذكر. «إمم... بشكل ضعيف...».

«أخبرتني أنك حضرت مراسم بروتستانتية مع عائلة كوبلي».

«لم أقل هذا قط».

«تحدثت منذ قليل مع الأسقف يوليوس، وستذهب للمحاكمة بتهمة

الهرطقة».

«لا».

نادراً ما يُبرأ المرء في مثل هذه المحاكمات، من وجهة نظر العامة إن كان

المرء بريئاً لم يكن ليقع في المتاعب أصلاً.

«ستكون بحال أفضل إن قلت الحقيقة».

«أنا أقول الحقيقة».

«هل أبرحهُ ضرباً حتى يقول الحقيقة؟» قال أوزموند.

بدا دونال مرتعباً.

سُمع صوت والدته دونال في الردهة تقول: «لن تضرب أحداً يا أوزموند.

إن ولدي مواطن منضبط وكاثوليكي صالح، وإن لمستته ستكون أنت من يقع

في ورطة».

كان الأمر جعجعة لا فائدة منها لأن أوزموند لم يقع في المتاعب بسبب

ضربه للناس، ولكن الجملة منحت دونال شجاعة فقال وقد بدا أكثر قوة: «لم

أحضر أي مراسم دينية بروتستانتية مع فيلبرت كوبلي أو أي شخصٍ آخر».

«لا يمكنك أن تأخذ كلام رجل ثمل على محمل الجد، إن حاولت فعل

هذا فستجعل من نفسك أضحوكة أيها الشاب رولو»، قالت السيدة غلوستر.

أطلق رولو السباب في نفسه، فقد بدأت السيدة غلوستر بالتفوق عليه،

واكتشف أنه أخطأ باستجواب دونال هنا في المنزل بحضور والدته التي

زادته شجاعةً. لم يكن رولو مستعداً للسماح لامرأة بالوقوف في طريق انتقام عائلة فيتزجيرالد.

نهض رولو وقال: «فلتتعل حذاءك يا دونالد. يجب أن تأتي معنا إلى غيلد هيل».

«سأتي معكم أيضاً»، قالت السيدة غلوستر.

«لا لن تأتي»، قال رولو.

اشتعلت عينا السيدة غلوستر تمرداً.

أضاف رولو: «إن رأيتك هناك فستعرضين للاعتقال أيضاً. لا بد أنك كنت تعرفين أن دونالد يرتاد مراسم دينية تجديدية. أنت مذنبه لأنك أخفيت جريمته».

أطرقت السيدة غلوستر عينيها مجدداً.

قاد رولو وأوزموند دونالد عبر الشارع الرئيسي إلى تقاطع طرق ثم إلى غيلد هيل وبعدها إلى مدخل القبو. أرسل رولو أحد الحراس ليُحضر السير ريجنالد الذي وصل خلال دقائق بمرافقة الأسقف يوليوس.

«حسناً أيها الشاب دونالد»، قال ريجنالد بلطفٍ مزيف. «أمل أن تكون قد عرفت أهمية الاعتراف بكل شيء».

ارتعش صوت دونالد، ولكن خرجت الكلمات من فمه بشجاعة كافية. «لا أتذكر ما قلته وأنا ثمل ولكنني أعرف الحقيقة. لم أذهب إلى أي مراسم دينية بروتستانتية».

بدأ رولو يقلق من ألا ينهار دونالد ويعترف في النهاية.

«دعني أريك شيئاً»، قال ريجنالد وتوجه إلى باب كبير جداً، ورفع مزلاجاً ثقيلًا وفتح الباب. «تعال وألق نظرة».

أطاعه دونالد على مضض وتبعه رولو. نظروا جميعاً داخل غرفة من دون نوافذ وبسقف عالٍ وأرضية ترابية تفوح منها رائحة دمٍ وغائطٍ قديم كما في المسالخ.

«أترى الخطاف الذي في السقف؟» قال ريجنالد.

نظروا جميعاً إلى الأعلى.

«سُربط ويداك خلف ظهرك، ثم سيُعلق الحبل الملفوف حول معصميك على الخطاف وتُرفع للأعلى».

تأوه دونال.

«سيكون ألماً لا يُطاق بالطبع، ولكن لن تخلع كتفك في البداية فالأمر لا يحدث بهذه السرعة. ستُعلق حجارة ثقيلة بقدميك، وستزيد من الآلام في مفاصلك. عندما يُغمى عليك سيُلقي الماء البارد على وجهك لتستيقظ، ولن تحظي بدقيقة من الراحة. ومع ازدياد الثقل سيصبح الألم أسوأ، وفي النهاية ستخرج ذراعاك من محاجرهما. وسيكون هذا الجزء الأكثر ترويعاً».

شحب لون دونال إلا أنه لم يستسلم: «أنا مواطن في كينغزبريدج، لا يمكنك تعذيبني من دون أمر ملكي».

كان هذا صحيحاً، فمجلس مستشاري الملك هو من يمنح التصاريح بالتعذيب. تُكسر القاعدة أحياناً لكن سكان كينغزبريدج يعرفون حقوقهم، وسيقع احتجاج كبير إن عُذّب دونال بشكل غير قانوني.

«سأحصل على التصريح أيها الشاب الأحمق».

«افعلها إذا»، قال دونال في صوتٍ حاد يشوبه الخوف والحزم في آن معاً. أصيب رولو بالكدر عندما فكر بأنهم قد يضطرون للاستسلام. كانوا يملكون كل شيء كفيل بإخافة دونال ودفعه للاعتراف، ولكن لم ينجح الأمر حقاً. ربما لن يلقى فيلبرت العقاب في النهاية.

ثم تحدث الأسقف يوليوس: «أعتقد أننا يجب أن نتحدث حديثاً هادئاً أنا وأنت فقط أيها الشاب دونال ولكن ليس هنا. تعال معي».

«حسناً»، قال دونال بعصبية فقد كان خائفاً، ولكن رولو خمن بأنه سيوافق على أي شيء يُخلصه من هذا القبو.

رافق يوليوس دونال خارج غيلد هيل، ولحقه رولو وريجنالد على بعد عدة ياردات عنهما. تساءل رولو بما كان يُفكر به الأسقف، وإن كان سينجح في إنقاذ كرامة عائلة فيتزجيرالد في نهاية المطاف.

ساروا نزولاً عبر الشارع الرئيسي إلى الكاتدرائية. قادهم يوليوس عبر بابٍ صغير إلى الجانب الشمالي من صحن الكنيسة. كان الكورس يُنشد

صلاة العصر، وأضاءت شموع تُطلق ظلالاً راقصة على القناطر داخل الكنيسة بشكل ضعيف.

التقط يوليوس شمعةً، وأخذ دونال إلى مصلى جانبي بمذبح صغير ولوحة كبيرة للمسيح مصلوباً. وضع الشمعة على المذبح لتضيء اللوحة. وقف يوليوس وظهره للمذبح وجعل دونال يقف قبالة حتى يرى المسيح على الصليب.

طلب يوليوس من رولو وريجنالد أن يبقيا بعيداً. رغم بقائهما في الخارج فإنه كان بوسعهما رؤية ما يحدث في المصلى وسماع ما يُقال.

«أريد أن تنسى أمر العقاب الأرضي»، قال يوليوس لدونال. «قد تتعرض للتعذيب أو تُحرق على العمود بتهمة الهرطقة، ولكن لا يجب أن يكون هذا سبب خوفك لهذه الليلة».

«لا؟» كان دونال مُربكاً وخائفاً أيضاً.

«يا بني إنَّ روحك في خطر مهلك. لا يهم ما قلته قبلاً في حانة سلوترهاوس لأنَّ الرَّبَّ يعرف الحقيقة ويعلم ما الذي قُمت به. سيكون العذاب الذي ستعرض له في الجحيم أسوأ بكثير من أي شيء قد يحدث لك على الأرض».

«أعلم».

«ولكن الرَّبَّ دوماً يمنحنا الأمل بالمغفرة كما تعلم».

لم يتفوه دونال بكلمة. حدَّق رولو إلى وجهه في ضوء الشمعة غير المتذبذب إلا أنه عجز عن قراءة تعابيرهِ.

«عليك أن تُخبرني بثلاثة أمور يا دونال. إن فعلت هذا سأمنحك المغفرة على خطاياك، والرَّبَّ سيغفر لك أيضاً. أمّا إن كذبت عليّ فستذهب إلى الجحيم. هذا هو القرار الذي يجب أن تأخذه هنا والآن»، قال يوليوس.

رأى رولو رأس دونال يميل جانباً قليلاً عندما نظر إلى صورة المسيح. «أين يقيمون مراسمهم الدينية؟» متى؟ ومن يذهب إليها؟ يجب أن تجيبني على هذه الأسئلة الآن». قال يوليوس.

شهق دونال وحبسَ رولو أنفاسه.

«فلتبدأ بالمكان»، قال يوليوس.

لم يقل دونال شيئاً.

«هذه فرصتك الأخيرة للحصول على المغفرة»، قال يوليوس. «لن أسألك مجدداً. أين تقام المراسم؟».

«في زريبة الأرملة بولارد»، قال دونال.

أطلق رولو زفيراً بصمتٍ فيها هو السرّ قد فُضح.

كان لدى السيدة بولارد مزرعة صغيرة جنوب المدينة على طريق شايرنغ. لم تكن هناك أيّ منازل بالقرب من المزرعة ولهذا السبب لم تُسمع صلوات البروتستانتيين قبلاً.

«ومتى؟» قال يوليوس.

«الليلة»، قال دونال. «يجتمعون مساء السبت عند المغيب دوماً».

«ينسلون عبر الشوارع في الغسق حتى لا يراهم أحد»، قال يوليوس وتابع مقتبساً من الإنجيل: «أحب الناس الظلمة أكثر من النور، لأن أعمالهم كانت شريرة، ولكن الرب ليس بغافل عنهم». وحدّق نحو القنطرة المدبية للنافذة. «لقد غربت الشمس تقريباً. هل سيكونون هناك الآن؟».

«أجل».

«من؟».

«فيلبرت والسيدة كوبلي، ودان وروث، أخت فيلبرت وأخو السيدة كوبلي وعائلتهما، والسيدة بولارد وإيليس صانع الجعة، والإخوة ماسون وإيليجا كوردوينر. هذا كل ما أعرفه. قد يكون هناك آخرون».

«فتى مطيع»، قال يوليوس. «سأمنحك الآن مباركتي وبعدها يمكنك العودة إلى منزلك». ورفع إصبعاً تحذيراً ثم تابع كلامه: «لكن لا تُخبر أحداً بهذه المحادثة بينما لا أريد أن يعرف الناس من أين أحصل على معلوماتي. عدّ إلى ممارسة حياتك الطبيعية، هل تفهم؟».

«أجل سيدي الأسقف».

نظر يوليوس إلى حيث يقف رولو وريجنالد خارج المصلى. تغير صوته على الفور وأصبح خشناً وأمراً: «اذهبا إلى الزريبة الآن واعتقلا جميع المهرطقين. انطلقا».

عندما استدار رولو ليُغادر سمع دونال يقول في صوتٍ منخفض: «يا إلهي لقد خنتهم جميعاً».

«لقد أنقذت أرواحهم وروحك»، قال يوليوس بلطفٍ.

غادر رولو وريجنالد الكاتدرائية في عجلة. توجهها إلى الشارع الرئيسي حيث يقع غيلد هيل، واستدعيا رجال الحراسة من القبو، ثم عبرا الشارع إلى منزلهما وأخذا سيوفهما.

حمل رجال الحراسة مضارب منزلية الصنع بأشكال وأحجام مختلفة فيما حمل أوزموند حزمة من الحبال القوية لربط المتهمين، وأحضر رجلان آخران مصابيح على عصي.

كان منزل الأرملة بولارد على بعد ميل واحد. «لو امتطينا الأحصنة سنصل بسرعة أكبر»، قال رولو.

«لن يسمح لنا الظلام بالتحرك بسرعة أكبر»، أجابه والده. «ثم إن صوت الأحصنة سيُحذر البروتستانتين. لا أريد أن يُفقد أيٌّ من هؤلاء الشياطين من يدي».

تقدموا عبر الشارع الرئيسي وتجاوزوا الكاتدرائية. نظر الناس نحوهم في رعبٍ، وبدا واضحاً أن أحدهم واقع في ورطة.

شعر رولو بالقلق من أن يتكهن أحد أصدقاء البروتستانتين بما يحدث فأبى عذاءً سريع كفيلاً بتحذيرهم، ولذلك عجل رولو في سيره.

عبروا جسر ميرتن ذي الاتجاهين إلى ضاحية لوفرزفيلد ثم أخذوا طريق شايرنغ المتجه جنوباً. كانت ضواحي المدينة أكثر هدوءاً وعتمةً، ولكن لحسن الحظ كان الطريق مستقيماً.

يطل منزل الأرملة بولارد على الشارع أما الزريبة فتقع خلف المنزل وتشغل مساحة فدان أو أكثر. أقام المرحوم والتر بولارد مزرعة أبقار هنا، وبعد وفاته باعت أرملة القطيع وأبقت على الزريبة المبنية من الحجارة فارغة.

فتح أوزموند البوابة العريضة، وساروا جميعاً على الدرب الذي كانت تُقتاد عليه الأبقار لتُحلب فيما مضى. لم يروا أيّ ضوء في الزريبة فلم يكن هناك نوافذ. همس أوزموند لأحد حاملي المصابيح: «جُل في المكان وابحث عن أيّ مخرج آخر».

توجهت البقية إلى الباب المزدوج العريض، ووضع السير ريجنالد إصبغه على شفثيه، ثم أوماً للجميع بالتزام الصمت والإصغاء جيداً. وصلتهم همهمة أصواتٍ عديدة تُرتل شيئاً ما في الداخل. وبعد وهلة مَيِّز رولو كلمات صلاة الرَّبِّ... ولكن بالإنكليزية.

تُعتبر الصلاة باللغة الإنكليزية هرطقة، ولم تكن هناك حاجة إلى مزيد من البراهين.

عاد حامل المصباح وهمس قائلاً: «لا طريق آخر للخروج».

حاول ريجنالد فتح الباب ولكن يبدو أنه كان موصداً من الداخل. تغير صوتُ الناس داخل الزريبة ثم حل الصمت.

دفع أربعة حراس الباب وخلعوه، ثم اندفع ريجنالد ورولو إلى الداخل. جلس عشرون شخصاً على أربعة مقاعد وأمامهم طاولة مربعة عادية مغطاة بقطعة قماشية بيضاء وعليها رغيف من الخبز وإبريق من المفترض أن يحتوي على النبيذ. ذُعر رولو من فكرة أنهم يحتفلون بنسختهم الخاصة من القداس! كان يعرف بأن هذا يحدث ولكن لم يخطر بباله قط أن يراه بأم عينيه.

وقف فيلبرت من وراء الطاولة. كان يرتدي ثوباً فضفاضاً أبيض فوق صدّاره وسرواله، لا بدّ أنه يلعب دور الكاهن رغم أنه لم يُرسم كاهناً قط. حدّق الرجال المتطفلون إلى هذا الفعل التجديفي الذي أمامهم، وحدّق بهم المُجتمعون أيضاً. كان الطرفان مذهولين بالقدر نفسه.

وأخيراً تمالك ريجنالد نفسه وقال: «هذه هرطقة واضحة. جميعكم رهن الاعتقال»، توقف قليلاً ثم تابع: «وبالأخص أنت يا فيلبرت كولي».

الفصل السادس

في اليوم السابق لحفل الزفاف استُدعيت أليسون ماكي لمقابلة ملكة فرنسا. عندما وصلت الدعوة كانت أليسون برفقة العروس ماري ستوارت ملكة إسكتلندا تحلق إبطيها بعناية، وقد نجحت بإزالة الشعر من دون جروح، ثم وضعت زيتاً لترطيب الجلد. طُرق الباب، ودخلت إحدى وصيفات ماري. كانت فيرونيك غيز فتاةً في السادسة عشرة وهي نسيبة بعيدة وبالتالي لم تكن صاحبة مكانة عالية ولكن جمالها الرزين والأسر عوّضها عن هذا.

«وصلت وصيفةٌ من طرف الملكة كاترينا»، توجهت بكلامها إلى أليسون. «ترغب جلالتها برؤيتك على الفور».

لحقت فيرونيك بأليسون التي غادرت جناح ماري وهرعت عبر الغرف المظلمة لقصر تورنيل القديم باتجاه جناح كاترينا.
«ما الذي تريده جلالتها برأيك؟» سألت فيرونيك.

«ليس لدي أدنى فكرة»، قالت أليسون وفكرت بأن فيرونيك قد تكون فضولية أو ربما تضمّر في سؤالها شيئاً أكثر شراً؛ قد تكون جاسوسة تنقل الأخبار إلى أعمام ماري الأقوياء.

«الملكة كاترينا تحبّك»، قالت فيرونيك.

«إنّها تحبّ أيّ شخص يتعامل بلطفٍ مع فرانسيس المسكين». إلا أن أليسون كانت تشعر بالخوف. لم تكن الشخصيات المملكيّة مضطرة للحفاظ على مبادئها وآرائها، والاستدعاءات قد تعني أخباراً سيئة أو جيدة.

في طريقهما إلى الملكة أوقفهما شابٌ لم تعرفه أليسون. انحنى الشاب باحترام شديد وقال لفيرونيكا: «تسعدني رؤيتك آنسة غيز. أنتِ نورٌ يضيء هذه القلعة الموحشة».

لم تلتقِ أليسون بهذا الشاب قبلاً. وإلا لكانت تذكرته فهو شاب وسيم
بشعر أشقر مجعد وبدا حسن الهندام بسترته الخضراء والذهبية. كان فاتناً
حقاً رغم أنه أظهر اهتماماً أكبر بفيرونيك.

«هل يمكنني مساعدتك يا آنسة فيرونيك».

«لا شكراً»، قالت فيرونيك بشيء من نفاذ الصبر.

التفت إلى أليسون وانحنى لها مجدداً ثم قال: «يُشرفني لقاءك يا آنسة
ماكي. أدعى بيير أوموند. ويشرفني أن أخدم الآنسة غيز ابنة العم شارل
كاردينال اللورين».

«حقاً؟» قالت أليسون. «وكيف ستخدمه؟».

«بمساعدته في مراسلاته الكثيرة».

بدا في كلامه كأنه مجرد موظف وتودده من فيرونيك دي غيز لم يكن
سوى إرضاء لطموح ما. وإن كان الحظ يحالف الجسورين فقد كان السيد
أوموند جسوراً بلا شك.

وجدت أليسون الفرصة مواتية لتلمص من هذا وقالت: «من غير اللائق
أن أبقى جلالتها منتظرة، وداعاً يا فيرونيك.» وانسحبت قبل أن تجيب
فيرونيك.

وجدت أليسون الملكة متكئة على أريكة وبجانبها ست قطط صغيرة
تشقلب وتركض وتتعثر وهي تلاحق نهاية الشريط الوردي الذي تحركه
كاترينا أمامها. نظرت الملكة إلى الأعلى، وابتسمت ابتسامة ودودة لأليسون
التي تنفست الصعداء بعد أن تأكدت أنها لم تكن في ورطة.

لطالما كانت الملكة كاترينا قبيحة في شبابها ومازالت كذلك حتى الآن
وهي في الأربعين من عمرها. كانت سمينّة أيضاً ولكنها أحبّت الأناقة،
وارتدت اليوم فستاناً أسود تغطيه لآلئ كبيرة. كان فستاناً بسيطاً ولكنه مترف.
ربت على الأريكة فجلست أليسون إلى جانبها والقطط الصغيرة بينهما.
سرت أليسون من هذه الإشارة الحميمة وأمسكت بقطعة صغيرة سوداء
وبيضاء. أخذت القطعة الصغيرة تعلق الحجر على خاتمها ثم عضته أليسون
وكانها تختبرها. وعلى الرغم من أن أسنانها الصغيرة حادة فإن فكّها ضعيفٌ
وعاجز عن العض إلى درجة الأذية.

«كيف حال العروس المستقبلية؟» سألت كاترينا.

«هائلة بشكل مفاجئ»، أجابت أليسون بينما مسدت على القطة الصغيرة.
«متوترة قليلاً، ولكنها تتطلع إلى حدث الغد».

«هل تعلم أنها ستفقد عذريتها أمام شهود؟».

«أجل تعلم. إنها مُخرجة ولكنها ستحمل الأمر.» وعلى الفور مرّ بيال أليسون خاطراً. هل سيكون فرانسيس قادراً على فعل هذا؟ كبحت أليسون نفسها ولم تعبر عنه مخافة إثارة حفيظة الملكة، ولكن كاترينا عبرت صراحة عن هذا القلق: «لا نعلم حقاً إن كان المسكين فرانسيس قادراً على القيام بهذا».

انحنت كاترينا إلى الأمام، وتحدثت بصوتٍ منخفض ومنفعل: «أصغي إليّ. أيّاً يكن ما سيحدث يجب على ماري التظاهر أنّ الزواج قد اكتمل».
شعرت أليسون بالسرور العظيم لهذه المحادثة الحميمة والخاصة مع ملكة فرنسا، ولكنها رأت المشاكل تلوح في الأفق.
«قد يكون هذا صعباً»، قالت أليسون.

«لن يكون الشهود قادرين على رؤية كل شيء».

«ولكن...» رأت أليسون أنّ القطة الصغيرة قد غفت في حضنها.

«يجب أن يصعد فرانسيس فوق ماري وعليه أن يضاجعها أو يتظاهر بذلك».

فوجئت أليسون من جرأة كلمات كاترينا، ولكنها أدركت أنّ الموضوع مهمٌ جداً واستخدام كلمات تورية مواربة غير مفيد.

«من سيُخبر فرانسيس بما عليه القيام به؟» قالت أليسون بنفس النبرة العملية.

«أنا، ولكن عليكِ أنتِ أن تُخبري ماري فهي تثق بكِ».

كان الأمر صحيحاً. سرت أليسون لأنّ الملكة لاحظت هذا وشعرت بالفخر.

«ما الذي عليّ قوله لماري؟».

«عليها أن تُعلن بصوتٍ عالٍ أنّها فقدت عذريتها».

«ماذا لو طلبوا حضور الأطباء لفحصها؟».

«سأخذ كل الاحتياطات اللازمة ولهذا قُمت باستدعائك.» تناولت كاترينا شيئاً صغيراً من جيبها وقالت: «انظري إلى هذا»، وناولته لأليسون. كان كيساً صغيراً بجحم كرة صغيرة أو إبهام والكيس مصنوعٌ من نوع رقيق من الجلود وله عُنُقٌ ومربوطٌ بخيطٍ.

«ما هذا؟»

«مثانة بجعة.»

شعرت أليسون بالارتباك.

تابعت كاترينا كلامها: «إنها فارغة الآن. غداً مساءً سأعطيك إياها ممتلئة بالدم. سيُرَبط الخيط بإحكام تجنباً لحدوث أي تسرب. يجب أن تُخفي ماري المثانة تحت ثوبها الليلي. بعد أن ينتهيا من العملية، سواء كانت حقيقية أو مزيفة، عليها أن تسحب الخيط وتسكب الدم على الأغذية وتحرص على أن يراه الجميع.»

هزّت أليسون رأسها. كان هذا جيداً. كان وجود الدم على الأغذية هو الدليل التقليدي على إتمام الزواج. يعرف الجميع ماذا يعنيه وجود الدم ولن تساور أحداً أيّ شكوك.

كانت هذه إحدى الطرق التي تُمارس فيها نساء من أمثال كاترينا السلطة. أدركت أليسون هذا بكثير من التقدير. كُنَّ يتحركن بذكاء ولكن بخفية أيضاً، ويعملن من وراء الستار، ويُدرن الأحداث في الوقت الذي يعتقد فيه الرجال أنهم أصحاب السلطة الكاملة.

«هل ستقوم ماري بهذا؟» سألت كاترينا. «أجل»، قالت أليسون بثقة فهي تعلم أن الشجاعة لا تنقص ماري. «ولكن... قد يرى الشهود المثانة.»

«عندما تفرغ المثانة من الدم على ماري أن تدفعها تحت فرجها بأقصى ما يمكنها وتركها هناك إلى أن تحظى بدقيقة خاصة وتخلص منها.»

«أمل ألا تسقط.»

«لن تسقط. أعلم هذا.» قالت كاترينا هذا وابتسمت ابتسامة جادة. «لن تكون ماري أول فتاة تستخدم هذه الحيلة.»

«حسناً.»

أخذت كاترينا القطة الصغيرة من حضن أليسون ففتحت القطة الصغيرة عينيها.

«هل كل شيء واضح؟» سألت كاترينا.

وقفت أليسون. «أجل واضح تماماً. سيتطلب الأمر شجاعة، ولكن ماري شجاعة جداً ولن تخذلك.»

«جيد. شكراً لك»، قالت كاترينا مُبتسمةً.

فكرت أليسون بشيء ما وعبست. «يجب أن يكون الدم حديثاً. من أين ستحضرينه؟»

«لا أعلم.» قالت كاترينا وربطت الشريط الوردي حول رقبة القطة الصغيرة المرقطة بالأسود والأبيض. «سأفكر بشيء ما.»

اختار بيير يوم الزفاف الملكي ليتحدث مع والد سيلفي بالو المخيف بشأن الزواج من ابنته العزيزة.

كان الجميع في باريس متأنقين صباح الرابع والعشرين من نيسان/ أبريل من عام 1558. ارتدى بيير سترة زرقاء مفتوحة حتى تظهر بطانتها البيضاء الحريرية. كان يعرف أن سيلفي تحبّ هذه الثياب الجميلة جداً فهي لا تشبه الثياب الرزينة جداً التي يرتديها أصدقاء والديها. خامره الشك بأن إعجابها به آتٍ من إعجابها بشبابه.

غادر بيير كُليته في حرم الجامعة على الضفة اليسرى من النهر، وتوجه شمالاً إلى منطقة الجزيرة. تشبّع هواء الشوارع الضيقة والمكتظة بحالة ترقب لهذا الحدث المنتظر. نصب باعة خبز الزنجبيل والمحار والبرتقال والنيذ أكشاكاً مؤقتة مُستغلين الحشود التي اكتظت بها الشوارع. عرض بائع متجول على بيير كُتيباً من ثماني صفحات يتحدث عن الزواج الملكي مع عبارة محفورة على الغلاف الخشبي وبورتريه يحاكي شكل العروسين السعيدين. سار المتسولون والعاهرات وموسيقيو الشارع في نفس الاتجاه الذي مشى فيه بيير. إن باريس تحب الأبهة حقاً.

كان بيير مسروراً بالزواج الملكي، الذي سيكون ضربة موفقة لمصلحة عائلة غيز. يعد نسيبا ماري، الدوق ذو الندبتين والكاردينال شارل، قويين

حقاً، ولكن ليس من دون منافسين. كانت عائلتا مونت مورانسي وبوربون، اللتان تربطهما قرابة عائلية، تعاديان عائلة غيز. على أي حال، سيعزز هذا الزواج من مكانة عائلة غيز، ووفق المسار الطبيعي لسير الأمور، ستصبح نسيبتهم ماري ملكة فرنسا، وعائلة غيز جزءاً من العائلة الملكية.

كان بيير يتوق إلى مشاركة عائلة غيز سلطتها، ومن أجل تحقيق هذا كان عليه أن يقوم بعمل عظيم لمصلحة الكاردينال شارل. كان بيير قد جمع أسماء العديد من البروتستانتين الباريسيين، وبعضهم أصدقاء لعائلة سيلفي. وضع أسماءهم جميعاً في دفتر بغلاف جلدي أسود، فهذا كان مناسباً لأن جميع من فيه مصيرهم الإعدام حرقاً. ولكن ما أراد شارل أن يعرفه أكثر من أي شيء آخر هو المكان الذي يقومون فيه بالمراسم، إلا أن بيير لم يتوصل بعد إلى معرفة موقع كنيسة سرية واحدة.

كان اليأس قد بدأ يصيب بيير، فقد دفع له الكاردينال مقابل الأسماء التي سلمها له، ووعد به علاوة إن حصل على اسم أحد المواقع. لم يكن للأمر علاقة بالمال فقط رغم حاجة بيير الشديدة والدائمة له. كان لشارل جواسيس آخرون، ولكن بيير لا يعرف عددهم إلا أنه لم يرغب بأن يكون واحداً من الفريق، بل كان عليه أن يتميز وأن يكون الأفضل بلا منازع. لم يكن عليه أن يكون مفيداً فحسب بل أساسياً بالنسبة للكاردينال.

تختفي سيلفي وعائلتها بعد ظهر كل أحد. لا شك أنهم يحضرون مراسم بروتستانتية في مكان ما، ولكن ما يدعو إلى الإحباط أن غيلز بالو لم يوجه دعوة إلى بيير للحضور حتى الآن رغم وجود تلميحات صريحة بالدعوة. وبناءً على هذا قرر بيير أن يأخذ خطوة راديكالية اليوم وأن يتقدم لطلب يد سيلفي. ففكر بأن قبول العائلة به كخطيب لسيلفي سيضمن له حضور هذه المراسم.

كان بيير قد سأل سيلفي قبلاً إن كانت تقبل به زوجاً، وأبدت استعدادها للزواج منه على الفور، ولكن خداع والدها لم يكن بالأمر السهل. سيتحدث بيير إلى غيلز اليوم وقد أبدت سيلفي موافقتها على هذه الخطوة. كان يوماً جيداً لطلب يدها، فالزواج الملكي سيجعل الجميع في مزاج رومانسي - حتى غيلز نفسه على الأرجح.

بالطبع لم يكن بيير ينوي الزواج من سيلفي، فالزواج من فتاة بروتستانتية

سيقضي على عمله الحالي مع عائلة غيز. علاوة على هذا، لم يكن بيير مغرمًا بها أصلاً لأنها جديّة جداً. لا. كان يريد زوجة ترفع من مكانته الاجتماعية، ولذلك وضع نصب عينيه الزواج من فيرونيك غيز التي وعلى الرغم من كونها فرداً مغموراً في العائلة فإنها من عائلة غيز، وتكهن بيير أنّ الفتاة فيرونيك تفهم معنى الطموح مثله. إن تقدّم لخطبة سيلفي اليوم فعليه أن يُعمل عقله ويفكر بأسباب لتأجيل الزواج، ولكنه كان على ثقة من أنه سينجح باختراع هذه الأسباب في نهاية المطاف.

كان هناك صوتٌ هادئ ولكن مزعج يصدح في رأسه ويقول له إنه سيكسر قلب امرأة شابة لطيفة جداً وهذا أمرٌ شرير وسيء. بالنسبة لضحاياه السابقات كالأرملة بوشين فقد كنّ يقبلن بطريقة أو بأخرى تعرضهن للخداع، ولكن سيلفي لم تقم بشيء تستحق من أجله ما يحدث لها. لم تفعل شيئاً سوى الوقوع في غرام هذا الرجل الذي يدعى بيير الذي نجح بمهارة في الادعاء بأنه رجلٌ آخر.

لن يُغير هذا الصوت مخططاته فقد كان على الطريق السريع إلى الثروة والسلطة، ولن يسمح بأن تعيق طريقه مثل هذه المهارات. كان الصوت دلالةً على التغيير الكبير الذي حصل له منذ مغادرته تونوس لي جوانفيل وانتقاله إلى باريس، فقد أصبح شخصاً مختلفاً تماماً. كان يأمل أن يصبح شخصاً مختلفاً فقد اعتاد أن يكون نكرة، ابناً غير شرعي لكاهنٍ قروي فقير، ولكنه الآن سيغدو رجلاً ذا مكانة مرموقة.

عبر بيير الجسر الصغير إلى المدينة باتجاه المنطقة على نهر السين حيث ترتفع كاتدرائية نوتردام. سيتزوج فرانسيس وماري في الساحة قبالة المدخل الغربي للكنيسة العظيمة. بُنيت منصة هائلة من أجل المراسم بارتفاع اثني عشر قدماً، وامتدت من قصر رئيس الأساقفة في الساحة حتى باب الكاتدرائية كي يتمكن شعب باريس من مشاهدة المراسم من دون الاقتراب من العائلة الملكيّة وضيوّفها. كان المشاهدون قد بدأوا بالتجمع حول المنصة حرصاً على الحصول على مواقع أفضل لمشاهدة المراسم. عند نهاية الكاتدرائية ارتفعت مظلة كبيرة غطت مساحة كبيرة وكانت مصنوعة من الحرير المطرز بزهور الليلك لتحمي العروسين من الشمس. ارتعش بيير عندما فكر بكلفة كل هذا.

رأى بيير ذا الندبتين الدوق غيز على المنصة فهو المسؤول عن المراسم اليوم. بدا كأنه يتجادل مع رجالٍ غير مهمين أتوا باكراً ليحصلوا على أماكن جيدة، ويطلب منهم تغيير أماكنهم. اقترب بيير من المنصة، وانحنى بشدة للدوق فرانسوا ولكن الدوق لم يره.

شق بيير طريقه باتجاه صفٍ من المنازل شمال الكاتدرائية. كانت مكتبة غيلز بالو مغلقة فاليوم سبت وقد أوصد الباب المُطل على الشارع، ولكن بيير يعرف الطريق الذي يؤدي إلى مدخل المطبعة من الخلف.

هرعت سيلفي على السلالم للقاءه، ومنحهما هذا بعض الوقت بعيداً عن الأنظار في المطبعة الهادئة. ألقت بذراعيها حول رقبتة وقبلته بفمها المفتوح. وجد بيير صعوبة مفاجئة في التصنّع بأنه يبادلها الشعور. دفع بلسانه داخل فمها بحماس وعصر ثدييها فوق صدر فستانها إلا أنه لم يشعر بالإثارة. أنهت القبلة وقالت بحماس: «إنه في مزاج جيد! تعال معي إلى الأعلى». لحقها بيير إلى الطابق الثاني حيث تسكن العائلة. كان غيلز جالساً مع زوجته إيزابيل إلى الطاولة برفقة غيوم.

كان غيلز برقبتة وكتفيه أشبه بالثور، وبدا كأنه يملك القوة لرفع منزلٍ. علم بيير من التلميحات التي قدمتها سيلفي أنّ غيلز يُمكن أن يغدو عنيفاً مع عائلته والعاملين لديه. ما الذي سيفعله غيلز إن اكتشف أنّ بيير جاسوس كاثوليكي؟ حاول بيير ألا يفكر بالأمر.

انحنى بيير لغيلز أولاً احتراماً لمكانته كرتب العائلة وقال: «صباح الخير سيد بالو. أرجو أن تكون بصحة جيدة».

أجاب غيلز بزمجرة غير مهينة على وجه الخصوص؛ فهو يرد على تحية الجميع بهذه الطريقة.

كانت إيزابيل أكثر استجابةً لسحر بيير، فابتسمت عندما قبل يدها، ودعته إلى الجلوس. كان لإيزابيل أنفٌ مستقيم وذقنٌ قوية كابنتها سيلفي، وهاتان الصفتان تشيان بقوة الشخصية. قد يقول عنها الناس إنها وسيمة إلا أنها لم تكن جميلة، وتخيل بيير أنها تستطيع أن تكون مغوية إن كانت في المزاج المناسب. تشابه الأم والابنة في الشخصية؛ فكلتاهما حازمتان وجسورتان. نظر بيير إلى غيوم كشخصية غامضة؛ فقد كان رجلاً شاحب البشرة في

الخامسة والعشرين وتحيط به هالة من الصرامة. وصل إلى متجر الكتب في اليوم الذي أتى فيه بيير، وانتقل على الفور إلى القسم العائلي في الطابق الثاني. كانت أصابعه ملطخة بالحبر، وقالت إيزابيل بشيء من الغموض إنه طالب رغم أنه لم يكن مسجلاً في أي كلية من كليات السوربون ولم يره بيير في أي صفٍ إطلاقاً. ولم يعرف بيير إن كان غيوم مستأجراً يدفع ثمن إقامته أم أنه ضيفٌ لدى عائلة بالو. أثناء المحادثات بينه وبين بيير لم يتوصل بيير إلى معرفة أي شيء عنه، ورغم رغبته بالقاء المزيد من الأسئلة فإنه خاف من أن يبدو متطفلاً وبالتالي يصبح موضع شبهة.

عندما دخل بيير إلى الغرفة لاحظ أن غيوم أغلق كتاباً بحركة عرضية إلا أنها لم تكن مقنعة تماماً. بقي الكتاب على الطاولة واستقرت يد غيوم عليه وكأنه يحرسه من أي أحد يحاول فتحه. ربما كان يقرأ بصوت عالٍ للعائلة. تكهن بيير أنه كتاب بروتستانتى ممنوع، وتظاهر بأنه لم يلاحظ شيئاً. عندما انتهوا من تبادل التحية قالت سيلفي: «أبي لدى بيير شيء ليقوله لك». ونجحت في قول هذا بوضوح وصراحة.

«حسناً هيا يا فتى»، قال غيلز.

كره بيير أن يُعامله أحد بدونية ويخاطبه بكلماتٍ كـ«فتى»، ولكنها لم تكن اللحظة المناسبة ليُعبّر عن هذا.

«ربما من الأفضل لو تحدثتما على انفراد»، قالت سيلفي.

«لا أرى سبباً يدعو إلى هذا»، قال غيلز.

كان بيير يُفضل الخصوصية ولكنه تظاهر باللامبالاة.

«سيسعدني سماع الجميع لما أريد قوله».

«حسناً، ما الأمر؟» قال غيلز.

كان غيوم ينهض عن كرسيه ثم عاد وجلس مجدداً.

«سيد بالو أطلب منك وبكل تواضع يد سيلفي»، قال بيير.

نمت عن إيزابيل صرخة قصيرة، لم تكن صرخة مفاجأة فقد كانت تتوقع حدوث هذا بل صرخة فرح. رأى بيير أن غيوم ينظر إليه مصدوماً، وتساءل إن كان لديه أي مشاعر رومانسية خفية نحو سيلفي. أما غيلز فقد بدا منزعجاً من تعكير صفو يوم الأحد الهادئ.

ركز غيلز مع تهيدة بالكاد تمكّن من كبحتها، على المهمة التي أمامه الآن وهي استجواب بيير.

«أنت طالب»، قال بتهكم. «كيف يمكنك التقدم بطلب زواج».

«أفهم مخاوفك»، أجاب بيير بلطف. لم يكن سيتراجع بسبب فظاظة غيلز، ولهذا بدأ يقول بعض الأكاذيب وكان يبرع في هذا. «تملك أُمِّي أرضاً صغيرة في منطقة شامانيا، بضعة كروم من العنب ولكن الإيجارات جيدة ولدينا مدخول».

كانت والدة بيير ربة منزل مُعدمة في منزل كاهن ريفي، وعاش بيير على عمليات الخداع التي يقوم بها.

«عندما أنتهي من دراستي آمل أن أعمل في مهنة المحاماة، وسأرعى زوجتي بشكل جيد.» كان هناك شيء من الحقيقة في قوله هذا. لم يصدر عن غيلز أيّ تعليق على هذه الإجابة بل سأل سؤالاً آخر. «ما هو دينك؟».

«أنا مسيحي يسعي للتنوير»، قال بيير وقد توقع أن يطرح غيلز هذا السؤال فتدرب على إجابات خادعة راجياً ألا يبدو جوابه جاهزاً. «أخبرني عن التنوير الذي تسعى إليه».

كان سؤالاً مأكراً. لم يكن بوسع بيير الادعاء بأنه بروتستانتي لأنه لم يكن يوماً عضواً في رعية، ولكن كان عليه أن يوضح لغيلز أنه جاهز ليتحول إلى البروتستانتي.

«يهمني أمران»، قال محاولاً أن يبدو مغموماً جداً. «هناك أولاً مسألة القداس. علمونا أنّ الخبز والنيذ يتحولان إلى لحم ودم المسيح، ولكنهما لا يبدوان كلحم ودم، وليس للخبز والنيذ رائحتهما ولا طعمهما. إذاً بأيّ طريقة يتحولان؟ يبدو الأمر لي كفلسفة مزيفة.» سمع بيير هذه المحاججات من زملائه الطلاب ممن كانوا يميلون إلى البروتستانتي. أمّا بالنسبة له شخصياً فقد وجد فكرة جدال الرجال حول هذه الأمور المجردة أمراً غير مفهوم بالمرّة.

بالطبع كان غيلز موافقاً تماماً على هذه المحاججات إلا أنه لم يُعبّر عن هذا بشكل مباشر وقال: «ما الأمر الثاني؟».

«الطريقة التي يأخذ بها الكهنة أغلب الأحيان ضريبة العُشر⁽¹⁾، التي يدفعها المزارعون الفقراء ويستخدمون المال ليعيشوا حياة الرفاهية دون أن يكلفوا أنفسهم القيام بواجباتهم المقدسة.» كان هذا الأمر مصدر شكوى دائم حتى من قبل أكثر الكاثوليكين ورعاً.

«قد تُلقى في السجن على قولك مثل هذه الأمور. كيف تتجرأ على التحدث بهذه الهرطقات في منزلي؟» لم يكن تمثيل غيلز متقناً إلا أن تهديده بدا حقيقياً.

«فلتكف عن التظاهر يا أبي. إنه يعلم من نكون»، قالت سيلفي بشجاعة. بدا غيلز غاضباً: «هل أخبرته؟» وأحكم قبضة يده السمينة. «لم تخبرني ولكن الأمر واضح»، قال بيير على عجل. احمرّ غيلز قائلاً: «واضح؟».

«بالنظر إلى منزلك يُمكن لأي شخص رؤية الأمور المفقودة فيه، فلا صليب فوق سريرك أو تمثال للعدراء على مشكاة قرب الباب، أو لوحات مقدسة فوق المستوقد، ولا لآلئ مُحَاكَة على قماش أفضل أثواب زوجتك مع أنك تملك القدرة على شراء البعض منها. ترتدي ابنتك معطفاً بنياً.» اقترب من الطاولة وبحركة سريعة انتزع الكتاب من تحت يد غيوم، وقال بينما فتحه: «وتقرأ إنجيل متى بالفرنسية صباح الأحد.»

تحدّث غيوم لأول مرّة: «هل ستُبلِّغ عنا؟» وبدا خائفاً.

«لا يا غيوم. إن كنت أنوي فعل هذا لأتيت إلى هنا مع حرس المدينة.» وأشاح بيير بنظره إلى غيلز. «أريد أن أنضم إليكم. أريد أن أصبح بروتستانتيّاً وأريد الزواج من سيلفي.»

«من فضلك وافق يا أبي»، قالت سيلفي بعد أن ركعت أمام والدها. «بيير يحبني وأنا أحبه. سنكون سعداء معاً، وسيشارك بيير في عملنا بنشر تعاليم الإنجيل الحقيقي.»

1- وهي ضريبة تُقدَّر قيمتها بعُشر ما يجنيه المرء خلال العام ويقوم بدفعها من أجل دعم الكنيسة. بدأ العمل بهذه الضريبة في أوروبا في القرن الثامن الميلادي، وبعد الإصلاح استمرت الضريبة لمصلحة الكنيسة البروتستانتية والكاثوليكية. ألغيت هذه الضريبة في فرنسا (1789) وفي إيرلندا (1871) وفي إيطاليا (1887) وفي إنكلترا (1939). (الترجمة)

ارتخت قبضة يد غيلز وعاد لون وجهه إلى طبيعته ثم قال لبيير: «هل ستفعل هذا؟».

«أجل»، أجاب بيير. «إن قبلت بي».

نظر غيلز إلى زوجته، وقامت إيزابيل بإيماءة سريعة برأسها. تكهن بيير أنها صاحبة السلطة الحقيقية في العائلة رغم أن المظاهر لا توحى بهذا. ابتسم غيلز وكان هذا أمراً نادر الحدوث ثم تحدث إلى سيلفي: «حسناً إذاً، تزوجي بيير وليبارك الرب زواجكما».

قفزت سيلفي وحضنت والدها ثم منحت بيير الكثير من القبل وبالمصادفة سُمعت أصوات تهليل الحشد أمام الكاتدرائية.

«لكنهم يهللون لخطبتنا»، قال بيير وضحك الجميع.

توجهوا جميعاً إلى النوافذ المطلّة على الساحة. تقدم موكب الزفاف على طول المنصة ترافقه مجموعة من الجنود تدعى «السويسريين المئة»، ويُعرفون من ثيابهم ذات الأكمام المُقلّمة والريش على خوذهم. راقب بيير مجموعة كبيرة من الموسيقيين تتقدم وتعزف على الناي والطبول ثم تقدم سادة البلاط جميعهم في ثياب جديدة لافتة تتدرج بين الأحمر والذهبي والأزرق الفاتح والأصفر والبُنفسجي. قالت سيلفي بحماس: «كأنهم يحتفون بنا يا بيير».

صمت الحشد وأحنوا رؤوسهم عندما ظهر الشمامسة يحملون الصليبان المزدانة بالجواهر والذخائر المقدسة في صناديق ذهبية جميلة. لمح بيير الكاردينال شارل في ردائه الأحمر يحمل كأس قربان ذهبية مرصعة بالحجارة الكريمة.

وأخيراً ظهر العريس. بدا فرانسيس ذو الأربعة عشر ربيعاً خائفاً. كان نحيلاً وضعيفاً ورغم كل الجواهر على قبعته ومعطفه فإنه لم يملك هيئة ملك. مشى بجانبه ملك نافار أنطوان وربّ عائلة بوربون وكلاهما كانا من ألد أعداء عائلة غيز. تكهن بيير أن أحداً ما - ربما تكون الملكة كاترينا الحذرة جداً - من أعطى أنطوان هذه المكانة المميزة لموازنة قوة عائلة غيز التي طغت بوجودها على المراسم.

اهتاج المشاهدون عند رؤية الملك هنري الثاني وبطل الحرب الدوق ذي الندبتين يمشيان بالقرب من العروس في فستانها الأبيض الناصع.

«أبيض؟» قالت إيزابيل التي وقفت خلف بيير تنظر من فوق كتفيه. كان اللون الأبيض لون ثياب الحداد. «إنها ترتدي اللون الأبيض».

عارضت أليسون ماكي فستان الزفاف الأبيض. كان الأبيض لون ثياب الحداد في فرنسا، وخافت أن يُصدم الناس عند رؤيته. علاوة على هذا بدت ماري باللون الأبيض أكثر شحوباً من العادة، ولكن ماري عنيّدة، وأصرّت على رأيها كأَيّ فتاة في الخامسة عشرة من العمر خاصّة عندما يتعلق الأمر بالثياب. أرادت ارتداء فستان باللون الأبيض ولم ترغب حتى بمناقشة خياراتٍ أخرى. على الرغم من هذا كان الفستان مناسباً لماري، وبدا القماش الحريري الأبيض كأنّه مُضاء بنقاء عذرية ماري. ارتدت فوقه عباءة من المُخمل الأزرق الرمادي الذي لمع تحت أشعة شمس نيسان/ أبريل كسطح نهر يجري على طول الطريق إلى الكاتدرائية. كان ذيل العباءة ثقيلًا، وهذا ما أدركته أليسون جيداً فقد كانت الفتاة الأخرى التي تقف خلف العروس وتحمله.

ارتدت ماري تاجاً صغيراً مرصعاً بالألماس واللاّليّ والياقوت الأحمر والأزرق. تكهنت أليسون أنّ ماري تبذل جهداً لتوازن رأسها تحت هذا التاج. وكانت حول عنق ماري قلادة مزدانة بجواهر كبيرة وقد أسمتها قلادة «هنري العظيم» فقد كانت هدية من الملك هنري.

بدت ماري بشعرها الأحمر وبشرتها البيضاء كملك وأحبّها الناس. تقدّمت على المنصة المرتفعة متأبطّة ذراع الملك، وتحركت أصوات الاستحسان كموجة بطيئة على طول صفوف حشود المتفرجين. صدحت الأصوات على إيقاع تقدّم العروس على المنصة.

كانت أليسون شخصية ثانوية في هذه المجموعة الكبيرة من الشخصيات المملّكية والنبيلة، ولكنها كانت سعيدة بتألّق صديقتها المُقربة. تحدثت ماري وأليسون وحلمتا بيومي زفافهما منذ الصغر، ولكن هذا الزفاف طغى على كل شيء تخيلتاه. كان حفلاً يليق بمكانة ماري، وشعرت أليسون بالسعادة من أجل صديقتها ومن أجل نفسها.

وصلت العروس إلى المنصة المُظللة حيث ينتظرها العريس.

عندما وقف العروسان جنباً إلى جنب بدا فارق الطول بينهما الذي يبلغ قدماً مثيراً للضحك. تناهت ضحكات وبعض الملاحظات الساخرة من بعض الأفراد غير المنضبطين في الحشد. ركع العروسان أمام رئيس أساقفة روين، وغدا المشهد أقل إثارة للضحك.

خلع الملك خاتمه من إصبعه وناوله لرئيس الأساقفة وبدأت المراسم. خرجت إجابات ماري بصوت عالٍ وواضح، بينما تحدّث فرانسيس بصوتٍ منخفض حتى لا يضحك الجمهور إن سمعوه يُتأتى.

استعادت أليسون ذكرى لقائها بماري وكيف أنها كانت ترتدي لونا أبيض أيضاً. مات والدا أليسون من الطاعون وعاشت في منزلٍ بارد مع عمّتها الأرملة جانيس التي كانت صديقة لوالدة ماري، ميري دي غيز. وكبادرة عطف أخذت ميري الطفلة اليتيمة لتلعب مع ملكة إسكتلندا ذات الأربعة أعوام. كانت غرفة ماري مكاناً دافئاً بناًرٍ مشتعلة في الموقد ووسائد ناعمة وألعاب جميلة، وهناك نسيت أليسون أن والديها متوفيان.

أصبحت زيارات أليسون متكررة، وتطلّعت ماري إلى قدوم صديقتها ذات الستة أعوام. شعرت أليسون أنها أنقذت من الجو الصارم الذي يسود منزل العمّة جانيس. بعد مرور عام كامل على هذه السعادة أخبروها أنّ على ماري مغادرة إسكتلندا والانتقال إلى فرنسا. فُطر قلب أليسون، ولكن ماري التي كانت قد بدأت بإظهار أولى علائم تحولها إلى بالغة متعنتة غضبت وأصرّت على أن ترافقها أليسون إلى فرنسا، وحصلت على ما أرادته في النهاية.

تشاركت الفتاتان سريراً واحداً خلال رحلتها البحرية القاسية، وتشبّثتا ببعضهما ببعض بحثاً عن الطمأنينة ليلاً، وهذا ما استمرت في فعله في كل مرة تقعان في ورطة أو تشعران بالخوف. أمسكتا الواحدة بيدي الأخرى عندما التقتا بفرنسيين كُثر في ثياب ملونة ويضحكون على لهجتهما الإسكتلندية الخشنة. كان كل شيء غريباً بشكلٍ مخيف، وأصبح الآن دور أليسون لتكون من ينقذ ماري ويساعدها في تعلّم الكلمات الفرنسية الغريبة، وتهذيب سلوكها الملكي وتطمينها عندما تبكي ليلاً. عرفت أليسون أنهما لن تنسيا إخلاصهما بعضهما لبعض منذ أيام الطفولة.

انتهت المراسم واستقر الخاتم الذهبي أخيراً في إصبع ماري وأعلنا زوجها وزوجة، وعلت أصوات التهليل.

رفع مُناديان ملكيان كيسين جلديين وبدأ برمي قطع النقود على الحشد. هتفت الحشود تهليلاً. قفز رجالٌ في الهواء ليلتقطوا القطع النقدية، وسقطوا على الأرض ليلتقطوا ما أفلت من قبضتهم. علت جعجعة الناس في الأجزاء الأخرى من الساحة مطالبين بحصتهم. نشبت الشجارات، سُحق من سقط على الأرض وطئاً بالأقدام بينما تعرّض من بقي واقفاً إلى السحق من التدافع، وصرخ المصابون من الألم. وجدت أليسون الأمر مثيراً للاشمئزاز، ولكن ضيوف حفل الزفاف من النبلاء ضحكوا بصوتٍ عالٍ وهم يتفرجون على اقتتال العامة بوحشية للحصول على القطع النقدية. كان هذا برأيهم أفضل من مصارعة الثيران. رمى المناديان المال إلى أن فرغ الكيسان.

سار رئيس الأساقفة في المقدمة متوجهاً إلى الكاتدرائية من أجل قداس الزفاف ولحِقَه العروسان اللذان كانا أشبه بطفلين واقعين في شركٍ زواج غير مناسب أبداً. مشت أليسون خلفهما تحمل ذيل فستان ماري. عندما خرجوا من تحت المظلة إلى ضوء الشمس ومن ثم إلى الظلام البارد للكنيسة العظيمة فكّرت أليسون بأن الأطفال الملكيين يستمتعون بكل الأشياء الجيدة في الحياة باستثناء الحرية.

تأبطت سيلفي ذراع بيبير بقوة في طريقهما جنوباً وعبرا جسراً صغيراً. أصبح بيبير ملكاً لها الآن، وستأبط ذراعه إلى الأبد. كان ذكياً كوالدها إلا أنه كان أكثر سحراً ووسامة بشعره الكثيف وعينه العسليتين وابتسامته الفاتنة. أحبّت ثيابه رغم أنها شعرت بالذنب لتأثرها بشيابه المُبهجة التي يزدريها البروتستانتيون.

رغم هذا كله أحبّته لأنه كان جاداً بقدرها حيال نشر تعاليم الإنجيل الحقيقي، ولأنه يخضع جميع التعاليم الخادعة للكهنة الكاثوليكين للشك. بقليل من التشجيع منها أصبح قادراً على رؤية الطريق إلى الحقيقة، وأظهر استعداداً لتعرض حياته للخطر بمرافقتها إلى الكنيسة البروتستانتية السريّة.

انتهى حفل الزفاف، وتفرّق الحشد، وتوجهت عائلة بالو مع بيير أوموند الآن إلى كنيستها البروتستانتية السرية.

الآن وبعد أن أصبحت سيلفي خطيبة أحدهم اكتشفت أن لديها مخاوف أخرى، وتساءلت كيف سيكون النوم مع بيير؟ منذ سنوات عندما بدأت تحيض أخبرتها والدتها عما يفعله الرجال والنساء في السرير إلا أن إيزابيل تحدثت بخجل على غير العادة عن الشعور الذي تولده ممارسة الحب. تاقت سيلفي إلى معرفة هذا الشعور حين يضع بيير يديه على جسدها العاري وتشعر بثقله فوقها وكيف تبدو أعضاؤه الحميمة.

لقد ربحت بيير ولكن هل ستمكن من الاحتفاظ بهذا الحب إلى الأبد؟ قالت إيزابيل إن غيلز لم يُغازل امرأة أخرى غيرها رغم أن بعض الرجال مع مرور الوقت يفقدون الاهتمام بزوجاتهم. ولأن بيير سيقى جذاباً في نظر نساء أخريات على الدوام ستعمل سيلفي بجد لإبقائه مفتوناً بها كما هو الآن. سيساعدهما إيمانها وهما يعملان معاً على نشر الإنجيل الحقيقي.

تساءلت في نفسها متى سيكون زفافهما فقد أرادت الإسراع فيه. قال بيير إنه أراد إحضار أمه فيما لو كانت بصحة جيدة من منطقة شامبانيا من أجل حضور المراسم. تحدث بغموض بعض الشيء، وترددت سيلفي في الضغط عليه فقد شعرت بالخجل من استعجاله.

ابتهجت إيزابيل بالخطوبة. كان لدى سيلفي شعور بأن والدتها سترغب بالزواج من بيير أيضاً. ليس بالمعنى الحرفي ولكن...

بدا والدها أكثر سعادة مما أراد أن يُظهر كما تكهنت سيلفي. فقد بدا مسترخياً وفي مزاج جيد وكان هذا أقصى تعبير عن السعادة لديه.

كان غيوم غاضباً، وأدركت سيلفي أنه معجب بها، وربما كان يخطط سراً للتقدم بطلب يدها. حسناً، لقد تأخر كثيراً على فعل هذا. لو لم تُقابل بيير ربما كانت أحبّت غيوم الذي كان ذكياً وجدياً، ولكنه لم يكن لينظر إليها بطريقة تدوّخها وتربكها وتجعلها بحاجة إلى الجلوس. على الرغم من كل هذا كانت سعادة بيير هذا الصباح أكثر ما أثار بهجتها. مشى بيير بخطى وثيدة والابتسامة لا تفارق وجهه، وجعلها تضحك بملاحظاته الساخرة عن

الناس والأبنية التي مرّ بها في طريقهما على طول شارع سان جاك عبر منطقة الجامعة. من الواضح أنّه كان مسروراً جداً بخطوبتهما.

علمت أيضاً أنّه كان سعيداً بشكل خاص لتلقّيه دعوة لحضور مراسم بروتستانتية. كان قد سألها أكثر من مرة عن مكان الكنيسة، وبدا متألماً عندما أخبرته بأنّه لا يُسمح لها بإخباره، ولكن لم يعد هناك داع لهذه السريّة الآن. كان صبرها قد بدأ ينفد فقد أرادت استعراض بيير أمام الجميع. شعرت بالفخر به، وتطلعت إلى تعريفه على الجميع. لا بدّ أنّهم سيحبونه، وأمّلت أن يحبهم بيير بدوره أيضاً.

عبر الجميع من بوابة سان جاك إلى الضواحي حيث انصرفوا عن الطريق واتخذوا درباً مخفياً إلى الغابة. قطعوا مسافة مئة ياردة بعيداً عن الطريق ورأوا رجلين ببنية ضخمة لهما مظهر حارسين رغم أنّهما لم يحملتا أيّ أسلحة. أوماً لهما غيلز ثمّ أشار بإبهامه نحو بيير: «إنّه معنا.» تجاوزت المجموعة الحارسين من دون توقف.

«من هؤلاء الرجال؟» سأل بيير سيلفي.

«مهمتهما إيقاف أي شخص لا يعرفانه»، شرحت له. «إن رأيا أي متزهين يعبرون في هذا الاتجاه سيخبرونهم بأنّ الغابة ملكية خاصة.»
«لمن هذه الغابة.»

«إنّها للماركيز نيم.»

«هل هو أحد أبناء الرعية.»

ترددت سيلفي في الإجابة في البداية ولكن لم يعد هناك ما يمنعها القيام بهذا الآن فلم تعد هناك أيّ أسرار بينهما: «أجل.»

تعلم سيلفي أنّ الكثير من الأرستوقراطيين البروتستانتيين أتوا اليوم، وأنهم معرضون للحرق بتهمة الهرطقة مثلهم تماماً. كان أمام النبلاء فرصة التملص من العقاب من خلال علاقاتهم بأصدقاء متنفذين.

وصلت المجموعة الصغيرة إلى ما يشبه كوخ صيد مهجور. كانت نوافذ الطابق الأول مغلقة، ونمت الأعشاب الضّارة عند الباب الأمامي وهذا يعني أنّ الباب لم يُفتح منذ سنوات.

علمت سيلفي أنّ البروتستانتيين في بعض المدن الفرنسية، حيث كانوا

أكثرية، وضعوا أيديهم على كنائس حقيقية، وأقاموا المراسم علناً رغم وجود الحراس المسلحين. ولكن الوضع في بارس لم يكن هكذا. ما زالت العاصمة معقلاً كاثوليكياً تعجّ بالناس الذين يعيشون على خدمة الكنيسة والمملكة. كان البروتستانتيون مكروهين هنا.

التفوا حول المبنى باتجاه باب جانبي صغير، ودخلوا إلى القاعة الكبرى حيث كانت تقام ولائم مترفة لمجموعات الصيادين الأرستوقراطيين. كانت القاعة الآن هادئة ومعتمة وقد نُصبت الكراسي والمقاعد في صفوف قبالة طاولة بغطاءٍ أبيض. اجتمع في المكان ما يُقارب المئة شخص، ووضع خبز على صحنٍ فخاري بسيط بجانب إبريق من النيذ.

جلس غيلز وإيزابيل وتبعهما سيلفي وبيير. جلس غيوم على كرسي وحيد قبالة الرعية.

«هل غيوم الكاهن؟» همس بيير.

«قيس»، صححت له سيلفي. «ولكنه مجرد زائر، أما القسيس الدائم فهو برنار». وأشارت إلى رجل طويل ذي مظهرٍ وقورٍ في الخمسين من العمر بشعرٍ رمادي خفيف.

«هل الماركيز هنا».

نظرت سيلفي حولها ولمحت ماركيز نيم المهيّب ثم تمت لببير: «إنه في الصف الأمامي... الرجل ذو الياقة البيضاء الكبيرة».

«هل المرأة في العباءة والقبعة الخضراء الغامقة ابنته».

«لا، إنها الماركيزة لويز».

«إنها شابة».

«إنها في العشرين وهي زوجته الثانية».

كانت عائلة موريس حاضرة: لوك وجين وابنتهما جورج الذي يُحب سيلفي. لاحظت سيلفي أنّ جورج يحدق نحو بيير بدهشة وحقّد. وقرأت على وجهه إقراراً بأن بيير منافس أقوى منه. سمحت سيلفي لنفسها أن تشعر بذلك الإحساس الأثم بالفخر؛ فقد كان بيير جذاباً أكثر من جورج.

بدأت المراسم بغناء أحد المزامير. همس بيير لسيلفي: «ألا يوجد كورس».

«نحن الكورس.» أحببت سيلفي غناء التراتيل بالفرنسية بأعلى صوتها. كانت هذه إحدى متع أن يكون المرء من أتباع الإنجيل الحقيقي. لطالما شعرت في الكنائس العادية أنها مجرد متفرج على أداء الكورس، ولكن هنا يسعها المشاركة.

«لديك صوتٌ جميل»، قال بيير.

كان الأمر صحيحاً وعلّمت سيلفي بهذا. في الحقيقة كان صوتها جيداً جداً إلى درجة أنها غالباً ما شعرت أنها على شفا الوقوع في خطيئة الغرور بسبب هذا.

بعد الغناء أقيمت الصلوات والقراءات من الإنجيل وكلها كانت بالفرنسية ثم بدأت المناولة. لم يكن الخبز والنبيد هنا يعينان اللحم والدم حقاً بل كانا مجرد رمزين وبدا الأمر أكثر منطقية. وأخيراً ألقى غيوم عظة نارية حول شرور البابا بول الرابع. كان بول الذي يبلغ من العمر واحداً وثمانين عاماً مُحافظاً متعصباً، وقد عزز من سلطة محاكم التفتيش وأجبر اليهود في روما على ارتداء قبعات صفراء، وكرهه الكاثوليكيون والبروتستانتيون على حد سواء. عندما انتهت المراسم صُفت الكراسي على شكل دائرة وبدأ نوع آخر من الاجتماعات.

«يدعى هذا الجزء بالاجتماع الأخوي» شرحت سيلفي لبيير. «تبادل الأخبار وناقش كل الأمور، ويمكن للنساء المشاركة أيضاً».

بدأ غيوم الحديث بإعلانٍ مفاجئ لسيلفي وللجميع. كان سيغادر باريس. قال إنه سُرّ جداً لتمكّنه من مساعدة القسيس برنار وكبار القوم في إعادة هيكلة الأبرشية بما ينسجم مع الخطوط العريضة التي وضعها جون كالفن في جنيف، وأن الانتشار اللافت للبروتستانتية في فرنسا خلال السنوات الأخيرة يعود بجزءٍ منه إلى التنظيم والانضباط الشديد للمجمعات الكالفنية، كهذا المجمع في ضاحية سان جاك في باريس. عبّر غيوم عن سعادته بشكل خاص لأن هذا المجمع يملك جرأة مناقشة إقامة أول مجلس كنسي وطني في العام القادم. اعتذر عن عدم بقائه بحجة أن عليه الطواف بين الأبرشيات الأخرى التي تحتاج إلى مساعدته، ولذلك يجب أن يغادر الأحد القادم. لم يتوقع الحضور بقاءه إلى الأبد، ولكن الأمر كان مفاجئاً فهو لم يتحدث

عن مغادرته قط حتى الآن. وفكرت سيلفي أن سبب قراره المفاجئ قد يعود إلى إعلان خطوبتها، ثم فكرت في نفسها بأنها تواجه مجدداً خطر الوقوع في خطيئة الغرور، ولذلك تلت صلاةً سريعة من أجل أن تتحلى بمزيد من التواضع.

تقدّم لوك موريس بملاحظة معارضة: «يؤسفني أنك ستغادرنا بهذه السرعة يا غيوم فلدينا أمرٌ مهم لم نناقشه بعد. إنها قضية الهرطقة في حركتنا.» كان لدى لوك حبٌّ للمجادلة التويخية وهي صفة يملكها العديد من الرجال الوضيعين رغم أنه في العلن ينادي بالتسامح، وتابع كلامه قائلاً: «صُدم الكثيرون في رعبنا عندما أمر كالفن بحرق اللاهوتي الإسباني ميشيل سيرفيت».

علمت سيلفي كبقية الحاضرين في الغرفة عما يتحدث عنه لوك. كان سيرفيت مثقفاً بروتستانتياً وقد اختلف مع كالفن حول عقيدة الثلاث، فأعدم في جنيف، وهذا ما أثار الرعب بين البروتستانتين من أمثال لوك موريس الذي صدّق أنّ الكاثوليكين فقط يقتلون من يخالفونهم الرأي. «حدث هذا منذ خمسة أعوام»، قال غيوم بنفاد صبرٍ.

هزت سيلفي رأسها بحمية فقد كان لديها مشاعر قوية حيال الأمر. إن كان البروتستانتيون يطالبون الملوك والأساقفة الذين يختلفون معهم بالتسامح فكيف لهم أن يضطهدوا الآخرين؟ رغم هذا كان هناك الكثيرون ممن تصرفوا بقسوة كالكاثوليكين بل وأسوأ منهم.

لوح غيوم بيده رافضاً وقال: «يجب أن يكون هناك انضباط في حركتنا.» بدا واضحاً أنه لا يرغب بالخوض في هذا الجدل.

أثارت نبرته الحذقة غضب سيلفي التي قالت بصوتٍ عالٍ: «ولكننا لا يجب أن نقتل بعضنا.» لم تتحدث سيلفي خلال اجتماعات المتابعة قبلاً رغم أنه يُسمح للنساء بالتحدث، ولكن أن تقوم الشابات منهن بمدخلات يعبرن فيها عن آرائهن فهذا ما لم يكن مسموحاً، إلا أن سيلفي ستصبح امرأة متزوجة الآن، ولا يمكنها أن تبقى صامتة عندما يُطرح مثل هذا الموضوع للنقاش. تابعت كلامها: «عندما حارب سيرفيت بالمنطق والكتابة كان بالإمكان رده بالمنطق والكتابة... وليس بالعنف».

هزّ لوك موريس رأسه بموافقة حماسية وقد سرّ لأن أحدهم يدعمه بهذه القوة رغم أنّ بعض النساء العجائز أبدين اعتراضاً أيضاً.
«هذه ليست كلماتك. أنت تقتبسين عن كاستيلو وهو مهرطق آخر»، قال غيوم باحتقار.

كان كلامه صحيحاً، فلقد اقتبست سيلفي جملة من كتيب لسيباستيان كاستيلو بعنوان «هل يجب اضطهاد المهرطقين؟» إلا أن لسلفي مصادر أخرى، فقد قرأت الكتب التي طبعها والدها، وعلمت، بقدر ما يعلم غيوم، عن أعمال اللاهوتيين البروتستانتين.

«سأقتبس عن كالفن إن أحببت»، ثم تابعت: «كتب كالفن: «أن تُستخدم الأسلحة مع من رفضتهم الكنيسة أمرٌ منافٍ للتعاليم المسيحية». طبعاً قال هذا عندما كان مُضطهداً ومتهماً بالهرطقة».

رأت سيلفي أن العديد من الحاضرين يعسون بشدة، وأدركت أنّها تجاوزت حدها كثيراً بالتلميح إلى أنّ جون كالفن العظيم منافق.
«أنتِ صغيرة جداً على فهم ما يجري»، قال غيوم.

«صغيرة جداً؟!» استشاطت سيلفي غيظاً. «لم تقل إنني صغيرة جداً على المخاطرة بحياتي وأنا أبيع نسخ الكتب التي أحضرتها من جنيف».

بدأ العديد من الحاضرين بالتحدث بعضهم مع بعض، ووقف القسيس برنار يطلب منهم الهدوء: «بما أنه لا يسعنا حل القضية في هذا الاجتماع دعونا نطلب من غيوم أن يوصل همومنا إلى جون كالفن عندما يصل إلى جنيف».

لم يكن لوك موريس راضياً عن هذا وقال: «ولكن هل سيستجيب لنا كالفن».

«بالطبع سيفعل»، قال برنار دون أن يبرر سبب ثقته الشديدة. «دعونا الآن ننهي اجتماعنا بصلاة». وأغلق عينيه ثم رفع وجهه إلى السماء وبدأ يرتل صلاة مرتجلة.

خلال الصمت الذي ساد هدأت سيلفي وتذكرت كم كانت تتطلع قدماً إلى تقديم بيري إلى الجميع، وتسمع نفسها وهي تقول: «هذا خطيبي». بعد أن نطقت الأبرشية بآخر أمين أخذ المجتمعون يتحدثون فيما بينهم.

قادت سيلفي بيير في أرجاء الغرفة بكل فخر لأنها بصحبة هذا الرجل الجذاب، وحاولت جاهدة ألا تبدو مزهوة جداً، ولكن هذا كان صعباً عليها فهي تشعر بسعادة كبيرة.

بدا بيير جذاباً كعادته. تحدث باحترام إلى الرجال، وغازل النساء الأكبر عمراً بحذر، وفتن الفتيات الشابات. أبدى اهتماماً كبيراً بتقديم سيلفي، وركز على تذكّر كل الأسماء، وأبدى اهتماماً مهذباً بتفاصيل أماكن سكنهم والأعمال التي يزاولونها. يُسرّ البروتستانتيون بانضمام أي مرتد جديد، ويرحبون به بحرارة كبيرة.

سارت الأمور على ما يرام باستثناء عندما قدّمت سيلفي بيير إلى لويز ماركيزة نيم التي كانت ابنة تاجر نبيذ ميسور في إقليم شامبانيا. كانت الماركيزة امرأة مثيرة بشدين كبيرين وهذا على الأغلب ما جذب انتباه الماركيز إليها رغم فارق العمر الكبير بينهما. كانت لويز فتاةً عصبية ومتعجرفة، وقد تبنت هذا السلوك حديثاً كما تكهنت سيلفي، فهي لم تكن أرستوقراطية المولد، وشعرت بعدم الثقة في دورها كماركيزة. وكانت تتحدث بتهمك قاتل إن أزعجها أحد. ارتكب بيير خطأً التحدث معها بود وكأنها من أبناء مسقط رأسه: «أنا من منطقة شامبانيا أيضاً»، قال ثم أضاف بابتسامة: «كلانا أشبه بيقطينتين ريفيتين في هذه المدينة».

لم يكن يعني حرفياً ما قاله فلم يكن هناك ما يوحي بالسذاجة فيه أو في لويز. كانت ملاحظته مجرد دعابة ظريفة، ولكنه اختار الشخص الخطأ لهذه الدعابة. لا يعرف بيير طبع لويز، ولكن سيلفي تعلم أن أعظم مخاوف لويز أن ينظر الناس إليها كريفية ساذجة.

كان رد فعلها سريعاً فقد شحب لونها وعلا وجهها تعبير الازدراء. أمالت رأسها إلى الورا وكأنها تشم رائحة سيئة. رفعت صوتها حتى يتمكن الناس بقربها من سماع كلامها ثم قالت ببرود: «حتى في شامبانيا يجب أن يُعلموا الشباب احترام أسيادهم».

احمرّ بيير خجلاً.

التفتت لويز بعيداً، وأخذت تتحدث إلى شخص آخر تاركةً بيير وسيلفي يحدقان إلى ظهرها.

شعرت سيلفي بالحرج فيها هي الماركيزة تكره خطيبتها الآن. لم تكن سيلفي واثقة من أن لويز لن تغير رأيها وحسب بل وستخبر جميع الحاضرين هنا وقبل أن يغادروا بما حدث. خشيت سيلفي ألا يقبلوا بيير الآن كواحد منهم، وشعرت بالخيبة.

نظرت إلى بيير، ورأت على وجهه تعبيراً لم تره من قبل. ارتسمت على فمه حركة تنم عن الامتعاض ولمع الكره في عينيه، وبدا مستعداً لقتل لويز. «يا إلهي، أمل ألا ينظر إلي بهذه الطريقة»، قالت سيلفي في نفسها.

بحلول موعد النوم كانت أليسون قد أنهكت، وعلمت أن ماري مُنهكة مثلها أيضاً إلا أن الامتحان الكبير لم يأت بعد.

كان الاحتفال باذخاً حتى وفق معايير باريس الملكية. أقاموا وليمة بعد حفل الزفاف في قصر رئيس الأساقفة وبعدها حفلة راقصة، ثم انتقل المحتفلون - وقد تطلب الانتقال ساعات - إلى قصر الملك لحضور حفلة تنكرية راقصة مع ألعاب مسلية ومميزة للأطفال الملكيين ومن بينها لعبة مؤلفة من اثني عشر حصاناً متحركاً. في الختام مُدت طاولة عشاء مفتوحة تحوي كمية كبيرة من المعجنات لم تر أليسون مثلها قبلاً. ولكن الآن وبعد كل هذا لم يبق سوى طقس واحد وأخير ليكتمل الزواج.

شعرت أليسون بالشفقة على ماري التي كان عليها أداء هذا الواجب الأخير. بدت فكرة النوم مع فرانسيس كما تنام أي امرأة مع رجل بغيض؛ كان الأمر أشبه بالنوم مع أخ. إن وقع أي خطب ستكون الكارثة علنية، وستصبح حديث كل المدن في أوروبا، وسترغب ماري بالموت بسبب هذا. شعرت أليسون بالرعب من فكرة تعرض صديقتها لمثل هذا الإذلال.

كان واجباً على الطبقة الملكيةّ تحمل مثل هذا النوع من الأعباء، وعلمت أليسون أنه جزء من الثمن الذي عليهم أن يدفعوه مقابل حياة بامتيازات، وفوق كل هذا ستخوض ماري هذه التجربة من دون والدتها إلى جانبها. حكمت ميري دي غيز إسكتلندا بالنيابة عن ماري، ولذلك لم يكن بوسعها المخاطرة بمغادرة البلد حتى من أجل حضور حفل زفاف ابنتها فقبضة العائلة الملكية الكاثوليكية على الإسكتلنديين المتمردين والمثيرين للمتاعب هشة

جداً. تتساءل أليسون أحياناً إن كان من الأفضل لها لو أنها كانت ابنة خباز مرتاحة البال، وتُغازل من وراء الباب في مخبز والدها عاملاً شبقاً.

كانت أليسون إحدى وصيفات البلاط اللواتي حَمَّمن وألبسن العروس وحضرنها لفض عذريتها، ولكن أليسون لم تكن بحاجة سوى إلى دقيقة واحدة على انفراد مع ماري قبل الحدث الكبير.

نزعن ثياب ماري التي رغم خوفها وتوترها بدت جميلة. كانت طويلة القامة وشاحبة ونحيلة بثديين صغيرين مثاليين وساقين طويلتين. حَمَّمتها النساء بماءٍ دافئ، ورتبن شعر عانتها وضمَّخنها بالعطر، وأخيراً ساعدنها على ارتداء ثوب النوم المُطرز بالخیوط الذهبية. انتعلت خُفَّين من الساتان وقبعة نوم من القماش المُخرم وعباءة أخرى من الصوف لتبقى دافئة أثناء انتقالها من غرفة الملابس إلى غرفة النوم.

رغم أن ماري غدت جاهزة فإنَّ النساء اللواتي ساعدنها لم يُغادرن، ولهذا اضطرت أليسون للتحدث معها همساً: «أخبريهن أن ينتظرن خارجاً، يجب أن نتحدث على انفراد».

«لماذا؟».

«ثقي بي من فضلك».

كانت ماري على مستوى الحدث وقالت: «شكراً لكنّ جميعاً. من فضلكن اتركنني لبعض الوقت مع أليسون لأستعد نفسيّاً».

بدت النساء ممتعضات فمعظمهن أعلى مكانة من أليسون، ولكن لم يكن بوسعهن رفض طلبٍ للعروس، وغادرن الغرفة على مضض. وأخيراً أصبحت أليسون وماري وحدهما.

تحدثت أليسون بنفس اللغة الواضحة التي تحدثت بها الملكة كاترينا. «إن لم يُضاجعك فرانسيس لن يكون الزواج مُكتملاً، وهذا يعني أنه سيكون باطلاً».

فهمت ماري ما عنته أليسون: «وإن حدث هذا فلن أصبح ملكة فرنسا».

«تماماً».

«لا أعرف إن كان فرانسيس قادراً على فعل هذا»، قالت ماري وقد بدت مضطربة.

«لا أحد يعرف»، قالت أليسون. «إذاً، أيّاً يكن ما يحدث الليلة، عليك التظاهر بأنّ الزواج قد تم».

هزّت رأسها وعلا وجهها تعبير عازم. كانت جسارة ماري أحد أسباب حُب أليسون لها.

«حسناً ولكن هل سيصدقني الناس؟».

«أجل، ولكن إن عملتِ بنصيحة الملكة كاترينا».

«ألهذا السبب استدعتك البارحة؟».

«أجل. قالت لي إنّه عليك جعل فرانسيس ينام فوقك ويتظاهر بأنّه يُضاجعك».

«يمكنني أن أقوم بهذا، ولكنه لن يكون كافياً لإقناع الشهود».

وضعت أليسون يدها في ثوبها، وسحبت ما كانت تحمله.

«أعطتني الملكة هذا من أجلك. في رداء النوم جيب يمكنك وضعه فيه».

«ما هذا؟».

«دم».

«دم من؟».

«لا أعلم»، قالت أليسون رغم أنّها تكهنت بمصدره. «لا تهتمي بمصدره، ما يهم الآن المكان الذي سيكون عليه وهو أغطية سرير الزفاف». وعرضت على ماري الخيط المربوط حول طرف الكيس.

«اجذبيه قليلاً وسيتمّ الزواج».

«وسيعتقدون جميعاً أنني فقدت عذرتي».

«ولكن لا يجب أن يرى الكيس أحد، ولهذا خبثيه فوراً حتى تتخلصي منه لاحقاً».

هزّت ماري رأسها بهدوء. «أجل»، قالت وهي تفكر. «أنت على حق. إنّ

الصمت الأبديّ هو الطريقة الوحيدة للحفاظ على سرّ».

احتضنت أليسون ماري وقالت لها: «لا تقلقي. سيفعل فرانسيس أيّ

شيء تطليبه. إنّه يعبدك».

تمالكت ماري نفسها وقالت: «فلنذهب».

هبطت ماري الدرج إلى الطابق الرئيسي بكل بطء ومحاطة بالوصيفات.

كان عليها أن تمر بالقرب من غرفة الحراسة الكبيرة التي يستقر فيها المرتزقة السويسريون، ثم مرّت بالقرب من حجرة انتظار الملك ونظرات الجميع تلاحقها إلى أن وصلت إلى حجرة النوم المملّكية.

استقر سرير بأربعة أعمدة مُغطى بأغطية بيضاء فاخرة في وسط الغرفة. وتدلّت من كل زاوية قطع قماشية مُزركشة وستائر مخرمة مربوطة إلى الأعمدة. وقف فرانسيس هناك مُنتظراً في رداء جميل فوق ثياب النوم القطنية الناعمة. بدا ضئيلاً جداً في قبعة نوم كبيرة جداً على رأسه.

تحلق حول السرير ما يقارب الخمسة عشر رجلاً ومجموعة من النساء، من بينهم أخوال ماري والدوق فرانسوا والكاردينال شارل مع الملكة ومجموعة من رجال الحاشية وكبار الكهنة.

لم تدرك أليسون أنّه سيكون هناك الكثير من الأشخاص.

كانوا يتحدثون بأصواتٍ خفيفة، وصمتوا عندما رأوا ماري.

توقفت وتحدثت: «هل سيسدلون الستائر».

هزّت أليسون رأسها بالنفي: «فقط الستائر المخرمة، يجب أن يشهد الجميع على الحدث».

ابتلعت ماري ريقها وخطت إلى الأمام بشجاعة. تناولت يد فرانسيس وابتسمت له بتشجيع فقد بدا خائفاً.

خلعت خفيها وتركت عباءتها تسقط على الأرض. بدت ماري لأليسون كأضحية في ثوبٍ ليلي فاخر وسط أناس بكامل ثيابهم.

أما فرانسيس فقد بدا مشلولاً. ساعدته ماري على خلع ثوبه وقادته إلى السرير. صعد الشابان السرير العالي وسحبا غطاءً واحداً فوقهما.

أسدلت أليسون الستائر المخرمة حولهما، ولم يمنحهما هذا سوى بعض الخصوصية. كان رأسهما واضحين وبرز شكل جسديهما من تحت الأغطية.

حبست أليسون أنفاسها عندما شاهدت ماري تحضن فرانسيس وتهمس في أذنه كلمات لا يُمكن لأحدٍ أن يسمعها، ربما كانت تخبره بما عليه فعله أو التظاهر بفعله.

قبلاً بعضهما. تحركت الأغطية ولكن لم يكن بالإمكان رؤية ما يحدث. شعرت أليسون بالأسف الشديد على ماري، وتخيلت نفسها تمارس الحب

لأول مرة أمام عشرين شاهداً. بدأ الأمر مستحيلاً ولكن ماري كانت شجاعة. لم تتمكن أليسون من قراءة المشاعر على وجه العروسين، ولكنها خمنت أن ماري تحاول تهدئة فرانسيس ودفعه للاسترخاء.

ثم نامت ماري على ظهرها وصعد فرانسيس فوقها.

كان التوتر الذي أحسّت به أليسون لا يطاق. هل سيحدث الأمر؟ إن لم يحدث هل ستنجح ماري في الادعاء بأنه حدث؟ هل يمكن خداع كل هؤلاء العجائز؟

كان الصمتُ في الغرفة مُطبقاً باستثناء الكلمات التي تهمسها ماري لفرانسيس ببطءٍ شديد جعل من الصعب فهم فحواها. لربما كانت كلمات تعجب أو إرشادات مُفصلة.

تحرك جسدهما بشكلٍ أخرق، وبالنظر إلى ذراعي ماري بدت وكأنّها ترشده ليدخل بها أو ليتظاهراً بهذا.

أطلقت ماري صرخة قصيرة وحادة. ولم تعرف أليسون إن كانت صرخة حقيقية، ولكن الجمهور دمدم في استحسان. بدأ فرانسيس مصعوقاً، وتوقف عن الحركة ولكن ماري حضنته من تحت الأغطية في تشجيعٍ وشدّت جسده نحو جسدها، ثم بدأ الجسدان يتحركان معاً. لم تشاهد أليسون أحداً يقوم بهذا من قبل ولذلك لم يكن لديها فكرة إن كان الأمر حقيقياً. حدّقت في وجوه الرجال والنساء حولها. بدوا متوترين ومذهولين ومخرجين ولكن لم يبدوا مُشكّكين وكأنهم صدقوا أنّ ما يشاهدونه جماعٌ حقيقي وليس عرضاً إيمائياً. لا تعلم أليسون متى سينتهي الأمر، ولم تفكر بطرح هذا السؤال. وماري أيضاً لم تفكر بطرحه. ولكن حدس أليسون أخبرها أنّ المرة الأولى ستكون سريعة.

بعد مرور دقيقة أو اثنتين حدثت حركة مفاجئة وكأنّ جسد فرانسيس تشنج أو أنّ ماري تهز جسدها لتجعل جسده يبدو وكأنّه يهتز، ثم استرخى كلاهما وتوقفت الحركة.

حدّق الجمهور في صمتٍ.

توقفت أليسون عن التنفس. هل قاما بالأمر؟ إن قاما بالأمر هل ستتذكر ماري الكيس الصغير؟

بعد توقّفٍ وجيزٍ دفعت ماري فرانسيس عنها وجلست. تلوت تحت الأغطية، من الواضح أنها كانت تشدّ ثوبها حول ساقها، وقام فرانسيس بالمثل.

تحدثت ماري بصوتٍ أمرٍ: «اسحبوا الستائر المخرمة».

هرعت العديد من الوصيفات إلى سريرها.

عندما رُبطت الستائر المخرمة رفعت ماري الغطاء عنها بطريقة درامية.

كان هناك بقعة دم صغيرة على الغطاء السفلي.

صفق رجال الحاشية. لقد أنجز الأمر والزواج اكتمل وسار كل شيء

على ما يرام.

شعرت أليسون بالعجز من شدة الارتياح. صفقت وهللت مع البقية وهي

تتساءل في نفسها إن كان ما حدث حقيقياً أم لا، إلا أنها لن تعلم هذا أبداً.

الفصل السابع

استشاط نيد غضباً عندما رفض السير ريجنالد فيتزجيرالد توقيع أوراق نقل ملكية الدير القديم إلى أليس ويلارد.

كان ريجنالد عمدة مدينة تجارية ولهذا سيكون لعمله هذا تأثير سيء جداً على سمعة المدينة. وقف معظم المواطنين في صف أليس، فجمعهم وقعوا عقوداً لا يستطيعون الإخلال بها.

كان على أليس التوجه إلى المحكمة لإجبار السير ريجنالد على تنفيذ وعده.

لم يكن لدى نيد شك في أن المحكمة ستؤيد العقد، ولكن ما أثار غضبه تأخير البت في الأمر. تاق نيد ووالدته إلى تدشين السوق الداخلي الذي يخططان لبنائه، وفي انتظار جلسة الاستماع مرّت أيام وأسابيع لم تجنّ فيها عائلة ويلارد أي مال. لحسن الحظ كان لأليس مدخول آخر رغم أنه كان متواضعاً من الأكواخ التي تؤجرها في أبرشية سان مارك.

«ما الفائدة من كل هذا؟» سأل نيد في يأسٍ. «فالسير ريجنالد لن يريح شيئاً».

«خداع الذات»، أجابت أليس. «لقد قام باستثمار سيء، ويريد لوم الجميع باستثناء لوم نفسه».

تُعقد جلسات الاستماع أربع مرّات سنوياً في محكمة الجُنح برئاسة قاضي صلح وبمساعدة موظف معه. حُدد موعد الاستماع إلى قضية أليس في حزيران وستكون أول قضية يُبت فيها في ذلك اليوم.

تقع محكمة كينغزبريدج، التي كانت منزلاً فيما مضى، على الشارع الرئيسي بجانب غيلد هيل. احتلت قاعة المحكمة غرفة الطعام في المنزل

فيما توزعت مكاتب القضاة والموظفين على الغرف الأخرى باستثناء السجن الذي كان في القبو.

وصل نيد مع والدته إلى المحكمة. اجتمع حشد من سكان المدينة في القاعة وكانوا يتحدثون بعضهم مع بعض. كان السير ريجنالد حاضراً مع ابنه رولو. سُرّ نيد لأنّ مارجوري لم تكن حاضرة لأنّه لم يكن يريد أن تشهد على إذلال والدها.

هزّ نيد رأسه لرولو بجفافٍ فهو لم يعد قادراً على التصرف بودٍ مع عائلة فيتزجيرالد؛ فالدعوة القضائية قد وضعت حداً للتظاهر رغم أن نيد استمر بإلقاء التحية على مارجوري التي كانت ترتبك كلما رأته في الشارع لكن نيد استمر بحبها، وآمن بأنّها مازالت تبادله الحب رغم كل ما حدث.

كان دان كوبلي ودونال غلوستر في المحكمة أيضاً فقصة سفينة سانت مارغريت العائرة الحظ ستذكر في قاعة المحكمة، وسترغب عائلة كوبلي بسماع أيّ شيء يُقال عنهم.

أطلق سراح دان وبقية البروتستانتين الذين اعتقلوا في حظيرة الأرملة بولارد بكفالة باستثناء فيلبرت الذي كان زعيمهم كما اتضح. كان فيلبرت في السجن ويخضع لاستجواب الأسقف يوليوس. سيُحاكمون جميعاً في الغد، ولكن ليس في محكمة الجُنح بل في محكمة كنسية مُستقلة.

نجا دونال غلوستر من الاعتقال فهو لم يكن مع رب عمله في حظيرة الأرملة بولارد في ذلك اليوم، وانتشرت قصة في المدينة أنّه كان، ولحسن حظه، ثملاً في منزله. كان نيد سيسك بأنّ دونال من خان وأفضى باسم موقع البروتستانتين باستثناء أنّ العديد من الناس أكدوا القصة، وأنهم رأوه يخرج مترنحاً من حانة سلوترهاوس بعد الظهر.

طلب موظف المحكمة بول بتيت من الحضور التزام الصمت ثم دخل القاضيان، وجلسا على كرسيهما في إحدى زوايا الغرفة. يُدعى القاضي الأساسي رودني تيلبري وهو تاجر أقمشة متقاعد. كان يرتدي سترة زرقاء مترفة ويضع الكثير من الخواتم. وضعت الملكة ماري تودر في هذا المنصب لأنّه كاثوليكي وفيّ، ولكن نيد لم يعتقد أنّ هذا سيسكل فرقا اليوم لأنّ القضية لا علاقة لها بالدين. يدعى القاضي الثاني سيب تشاندلر وكان يتصرف بود

مع السير ريجنالد إلا أن نيد لم يرَ أيَّ أهمية لهذا بالنظر إلى الوقائع الفعلية للقضية.

حلفت هيئة المحلفين اليمين. كانت الهيئة مؤلفة من اثني عشر رجلاً وجميعهم من مواطني كينغزبريدج.

تقدّم رولو إلى الأمام على الفور وقال: «سأتحدث بالنيابة عن والذي هذا الصباح من بعد إذن سيادتكم».

لم يتفاجأ نيد فقد كان السير ريجنالد سريع الغضب، ومن المحتمل أن يُفسد الأمر بعصبيته. كان رولو ذكياً كريجنالد ولكنه أكثر انضباطاً.

هز القاضي تيلبري رأسه: «إن لم أكن مخطئاً فقد درست القانون في جامعة غراي إن يا سيد فيتزجيرالد».

«أجل سيادتك».

«حسناً».

عندما بدأت مجريات المحاكمة دخل الأسقف يوليوس في ردايه الكهنوتي. لم يكن حضوره أمراً غريباً فقد أراد مباني الدير لنفسه، وقد وعده ريجنالد ببيعها له مقابل مبلغ رخيص. لا بدّ أنه كان يأمل بأن يعثر ريجنالد على طريقة للتملص من عقده.

تقدّمت أليس، وعرضت القضية بنفسها ثم سلّمت العقد الموقع والمختوم إلى الموظف.

«لا يُمكن للسير ريجنالد أن ينكر الحقائق الأساسية الثلاث». تحدثت أليس بتلك النبرة الهادئة والعقلانية التي يملكها شخص يتحدث بالحقائق. «أولاً، توقيعه على العقد. ثانياً، أخذه للمال. ثالثاً، عدم تسديد المبلغ في الموعد المحدد. أطلب من المحكمة أن تحكم بخسارته للرهن. ففي النهاية يعلم الجميع الغرض من وجود رهن».

كانت أليس واثقة من الانتصار، وبرأي نيد لم يكن هناك أيّ محكمة ستحكم لمصلحة ريجنالد ما لم تتم رشوة القضاة، ولكن من أين سيحصل ريجنالد على المال لرشوتهم؟

شكر القاضي تيلبري أليس بتهديب والتفت إلى رولو: «ما الذي لديك

لتقوله رداً على هذا يا سيد فيتزجيرالد رغم أن الأمور تبدو واضحة تماماً بالنسبة إليّ».

ولكن ريجنالد لم يُعْطِ ابنه الوقت ليحجّب، وأخذ يصرخ وقد احمرّ وجهه المليء بالنمش: «لقد تعرضت للخداع! كان فيلبرت كوبلي يعرف حق المعرفة أنّ سفينة سانت مارغريت متوجهة إلى كاليه ومن المحتمل أن تضيع».

فكّر نيد في أنّ ما قاله ريجنالد قد يكون صحيحاً. كان فيلبرت مراوغاً كسمكة تحاول التملص من الشباك، ولكن ما يطلبه ريجنالد أمر غير معقول. لم على عائلة ويلارد أن تدفع ثمن خداع فيلبرت؟ «هذه كذبة! كيف لنا أن نعرف نوايا الملك الفرنسي؟» صرخ ابن فيلبرت دان كوبلي.

«لا بدّ أنكم كنت تعلمون شيئاً!» صرخ ريجنالد.

أجاب دان باقتباس من الإنجيل: «جاء في كتاب الأمثال: الرجل الذكي يستر المعرفة وقلب الجاهل ينادي بالجهل».

أشار الأسقف يوليوس بإصبع نحيلة إلى دان وقال مُحتدّاً: «هذا ما يحدث عندما يقرأ الحمقى الإنجيل باللغة الإنكليزية ويقتبسون كلام الرب ليبرروا جرائمهم».

وقف موظف المحكمة وأمرهم بالتزام الهدوء فهذا الجميع.

«شكراً لك يا سير ريجنالد. لكن حتى وإن احتال عليك فيلبرت كوبلي أو أي طرف ثالث وسلبك المال فهذا لا يحركك من عقدك مع أليس ويلارد. إن كان هذا أساس حججتك فأنت على خطأ وستحكم المحكمة ضدك»، قال تيلبري. «تماماً»، فكّر نيد.

تحدث رولو على الفور: «لا يا سيادتك، هذه ليست حججتنا، وأطلب عفوك على تدخل والدي، وأرجو أن تتفهم سبب شعوره بالغضب الشديد». «ما هي حججتك؟ أتوق لسماعها وأعتقد أنّ هيئة المحلفين تتوق لسماعها أيضاً».

كان نيد تواقاً لسماعها أيضاً. هل يُخفي رولو شيئاً؟ لطالما كان متمنراً كريهاً إلا أنه لم يكن غيباً.

«ببساطة أليس مذنبه بتهمة المراهبة»، قال رولو. «لقد أقرضت السير ريجنالد أربعمئة جنيهه ولكنها طالته بدفع أربعمئة وأربعة وعشرين جنيهاً. إنها تتقاضى الفائدة وهذه جريمة».

تذكر نيد فجأة المحادثة بين والدته والأسقف يوليوس في الرواق المسقوف للدير المُهدم. يومها أخبرت أليس يوليوس عن مقدار مبلغ الدين بالتحديد، وبدا يوليوس مصعوقاً لوهلة بالرقم رغم أنه لم يُدلِ بأي تعليق في النهاية، وها هو يوليوس قد أتى إلى المحكمة لحضور جلسة الاستماع. فكر نيد بهذا وارتسمت تقطية تنم عن القلق على وجهه. إن شروط العقد بين أليس والسير ريجنالد موضوعة بحذر حتى لا تكون هناك أي إشارة إلى الفائدة التي ستقاضاها أليس، ورغم هذا ما يزال تعريف المراهبة قانونياً قضية شائكة.

أجابت أليس بثبات: «لم تكن في العقد أي إشارة إلى وجود فائدة فالنص يقول إن على السير ريجنالد دفع ثمانية جنيهات كل شهر لقاء استخدامه للدير إلى أن يدفع الدين أو يُسلم العقار».

احتج ريجنالد: «لِمَ سأدفع إيجاراً؟ لم أستخدم المكان! هذا كله ليس سوى مراهبة مقنعة».

«ولكنك من اقترح هذا!» قالت أليس.
«كنتُ مضللاً».

قاطعهما الموظف قائلاً: «من فضلكما توجهها بالكلام إلى المحكمة وليس إلى بعضكما».

قال القاضي تيلبري: «أنتَ على حق يا سيد بيتيت، شكرًا لك».
«لا يُمكن للمحكمة أن تفرض تنفيذ عقد يطلب من أحد الأطراف ارتكاب جريمة»، قال رولو.

أجاب تيلبري: «أجل، لقد فهمت الأمر. إذاً، أنت تطلب من المحكمة أن تُقرر إن كان المال الإضافي المذكور في العقد بدل إيجار أو مراهبة مقنعة».
«لا يا سيادة القاضي، أنا لا أطلب منك أن تقرر. هل تسمح لي باستدعاء شاهد رسمي مستعد للشهادة بأن هذا ربا».

بدا نيد محتاراً، وتساءل عما كان يخطط له رولو. وبدا القاضيان محتارين أيضاً.

«شاهد رسمي؟ من هو الشخص؟» سأل تيلبري.

«أسقف كينغزبريدج».

تصاعدت دمدمة استغراب من الحشد. لم يتوقع أحد حدوث هذا. بدا القاضي تيلبري مذهولاً أيضاً كالبقية، وبعد مرور عدة دقائق قال تيلبري: «حسناً، ما الذي لديك لتقوله يا سيادة الأسقف؟».

شعر نيد بالرعب فلا يخفى على أحد إلى أي صف يميل يوليوس.

خطا يوليوس إلى الأمام ورأسه الأصلع مرفوع للأعلى في إقرار على رفعة مكانته. وكما كان متوقفاً بدأ كلامه قائلاً: «إن هذا الإيجار المزعوم ما هو إلا فائدة مُقنّعة. لم يستخدم السير ريجنالد الأرض والمباني خلال فترة سداد الدين المحددة، ولم يكن ينوي استخدامها، وهذا الشرط في العقد ليس سوى تغطية واهية على خطيئة وجريمة الربا».

«أعترض. إنَّ الأسقف شاهد متحيز لأنَّ السير ريجنالد وعده بالدير»، قالت أليس.

«بالطبع أنت لا تتهمين الأسقف بالخداع؟» سألها رولو.

«أتهمك أنت بسؤال القبط إن كان يُسمح للفأر بالهرب»، أجابته أليس. ضحك الحشد الذي يبدو أنه يتمتع بهذه الحذقة في المحاججة إلا أن القاضي تيلبري لم يكن كذلك.

«لا يمكن للمحكمة أن تُناقض الأسقف في مسألة الخطيئة»، قال تيلبري بحدة وتابع: «يبدو لي أن هيئة المحلفين ستحكم ببطلان العقد». بدا القاضي غير سعيد بهذا فهو يعرف حق المعرفة وكأي شخص آخر هنا أن العديد من عقود تجار كينغزبريدج قد تتأثر بهذا الحكم إلا أن رولو حاصره.

«لم تعد القضية قضية بطلان العقد يا سيادة القاضي»، قال رولو مع نظرة رضا خبيثة على وجهه أثارت قلق نيد. «ها هي تتم إدانة أليس ويلارد بارتكاب جريمة. أعتقد أنه من واجب المحكمة أن تفرض العقوبة المحددة بالقانون 1552».

لم يكن لدى نيد أدنى فكرة حول تحديد القانون لهذه العقوبة.

«سأعترف بتهمة المراباة لقاء شرط واحد؟» قالت أليس.

قال تيلبري: «حسناً، ما هو».

«هناك شخصٌ آخر في هذه المحكمة متهم بالمراباة مثلي، ويجب أن يُعاقب أيضاً».

«إن كنت تشيرين إلى السير ريجنالد فإنَّ الجريمة تقع على عاتق المُقرض وليس المُقرض...»

«ليس السير ريجنالد».

«من إذاً».

«أسقف كينغزبريدج».

بدا يوليوس غاضباً وقال: «حاذري مما تتفوهين به يا أليس ويلارد».

«في شهر تشرين الأول/ أكتوبر الماضي اشترت منك الأرملة ميرسر مقدماً صوف ألف خروف لقاء عشر بنسات لكل خروف». كانت الأرملة ميرسر أكبر تاجرة صوف في المدينة. «تمَّ جَزَّ صوف الخراف في نيسان/ أبريل هذا العام، وباعت السيدة ميرسر الصوف إلى فيلبرت كوبلي مقابل اثني عشر بنساً لكل خروف، وهذا أكثر بنسين مما دفعته لك. لقد خسرت بنسين عن كل خروف كي تحصل على المال قبل ستة أشهر. وهذا يعني أنك قمت بدفع فائدة قدرها أربعين بالمئة سنوياً».

سرت دمدمة بين الحضور تقر بصحة هذا الكلام، فمعظم كبار المواطنين تجار ويفهمون النسب.

«أنا لا أخضع للمحاكمة هنا بل أنتِ يا أليس»، قال يوليوس. أتجاهلت أليس ما قاله وتابعت: «في شهر شباط/ فبراير اشتريت حجارة من مقلع حجارة الإيرل لتوسيع قصرك. بلغ سعر الحجارة ثلاثة جنيهات، ولكن رئيس المقلع عرض عليه تخفيضاً قدره شلناً على كل باوند مقابل دفعة أولية، وقبلت هذا. قامت عربة لنقل البضائع بإيصال الحجارة بعد شهر، لذلك وبناءً على هذا فأنتَ قد فرضت على الإيرل فائدة مقدارها ستين بالمئة على المال الذي دفعته مقدماً».

بدأ الحشد يتمتع بهذا الجدال، وتناهى إلى سمع نيد أصوات ضحك وموجة تصفيق.

«هدوء!» صرخ بيتيت.

«في نيسان/ أبريل بعث مطحنة في ويغلي...» قالت أليس.

«كل هذا لا علاقة له بالموضوع»، قال يوليوس. «لا يمكنك أن تبرري ما فعلته من خلال الادعاء صراحةً أو تلميحاً إلى أن أناساً آخرين ارتكبوا جرائم مشابهة».

«الأسقف على حق فيما يقوله. أتوجه بالطلب إلى هيئة المحلفين لإدانة أليس ويلارد بتهمة المراباة».

كان لدى نيد أمل ضعيف بأن يحتج رجال الأعمال في هيئة المحلفين، ولكنهم لا يملكون الجرأة على تحدي هذا الطلب الصريح والمباشر من القاضي. وبعد مرور دقيقة هزّوا رؤوسهم جميعاً في موافقة على طلب القاضي. «سندرس مسألة العقوبة الآن»، قال تيلبري.

تحدث رولو مجدداً: «إن القانون 1552 واضح جداً يا سيادة القاضي. يجب أن يخسر المتهم الفائدة والرهن بالإضافة إلى، وهنا أقتبس نصّ القانون بحرفيته، فرض (غرامات وتعويضات وفقاً لمشيئة أو رغبة الملك)». صرخ نيد: «لا!» لم يكن نيد قادراً على التصديق أن والدته ستخسر الفائدة ومبلغ الأربعمئة جنيه.

شعر الحاضرون من سكان كينغزبريدج بالمثل، وتصاعد صخبٌ احتجاجي، فاضطر بول بتيت إلى الطلب منهم الترام الهدوء مجدداً.

هدأ الحشد في النهاية، إلا أن تيلبري لم يتحدث على الفور. التفت إلى زميله القاضي سيب تشاندلر وتحدثا معاً بصوت منخفض، ثم استدعى تيلبري بول بتيت لينضمّ إليهما. غدا الصمت أكثر إثارة للتوتر. تحدث القاضيان مع بتيت الذي كان محامياً مؤهلاً كجميع موظفي محكمة الصلح. بدوا كأنهم يتجادلون وبتيت يهزّ رأسه في رفض. أخيراً، هزّ تيلبري كتفيه والتفت بعيداً، وأوماً سيب تشاندلر في موافقة، وعاد بتيت إلى مقعده.

تحدث تيلبري أخيراً: «القانون هو القانون». عرف نيد على الفور أن أمر والدته قد انتهى. «يجب أن تخسر أليس ويلارد الرهن والإيجار الإضافي». اضطر لرفع صوته حتى يطغى على ضجة الاحتجاج التي سرت في القاعة. «ولكن لن يكون هناك داعٍ لفرض عقوباتٍ إضافية».

حدّق نيد نحو أمّه. بدت أليس مصعوقة، رغم نجاحها حتى الآن في التصرف بشجاعة، فإنها كانت في مواجهة سلطة الكنيسة القوية من دون

أن يكون هناك أمل في التغلب عليها. بدت مضطربة وشاحبة ومذهولة، وأخذت تنكمش تدريجياً على نفسها وكأنها وقعت عن حصان جامع. «القضية التالية»، قال الموظف.

غادر نيد ووالدته المحكمة، وسارا عبر الشارع الرئيسي الذي يقود إلى منزلهما من دون التفوه بكلمة. ها هي حياة نيد تُقلب رأساً على عقب، من دون أن يكون قادراً على استيعاب ما جرى. منذ ستة أشهر كان واثقاً من أنه سيقضي حياته كتاجر وأنه سيتزوج مارجوري. أما الآن، فقد أصبح بلا عمل ومارجوري مخطوبة لبارت.

توجه نيد ووالدته إلى غرفة الجلوس. «لن نتصور جوعاً على الأقل»، قالت أليس. «مازال لدينا البيوت في سانت مارك».

لم يتوقع نيد أن تكون والدته بهذا التشاؤم وقال لها: «ستجدين طريقة للبدء من جديد».

هزت أليس رأسها بسأم: «سأبلغ الخمسين عمّا قريب، ولم يعد لدي الطاقة على بدء أي شيء. علاوة على هذا، عندما أفكر بأحداث العام الماضي يبدو لي أنني فقدت حكمي الجيد على الأمور. كان عليّ أن أنقل بعض البضائع في كاليه عندما اندلعت الحرب في حزيران الماضي، وأن أطور علاقاتي في إشبيلية أكثر، ولم يكن عليّ قط أن أقرض ريجنالد فيتزجيرالد المال أياً تكن الضغوط التي سيفرضها علي. وها قد أصبحت أنت وأخوك بلا عمل».

«لن يكون الأمر مشكلة لبارني»، قال نيد. «فهو يفضل الإبحار على أيّ حال».

«أتساءل أين هو الآن؟! يجب أن نخبره عندما نعرف مكانه».

«إنه في صفوف الجيش الإسباني على الأغلب».

كانت أليس ونيد قد تلقيا رسالة من الخالة بيتسي تخبرهما فيها بأن بارني وكارلوس قد تورطا مع محكمة التفتيش، وأجبرا على مغادرة إشبيلية على عجل. لا تعرف بيتسي إلى أين توجهها، ولكن أحد الجيران قال إنه رأهما يتحدثان إلى ضابط تجنيد عند حوض السفن.

«أما بالنسبة لك يا نيد فلا أعلم كيف ستتدبر أمورك»، قالت أليس بحزن وتابعت: «لقد ريبتك لتصبح تاجراً».

«قال السير ويليام سيسيل إنه يحتاج إلى شاب مثلي ليعمل معه».

أضاء وجه أليس وقالت: «أجل، لقد نسيت الأمر تماماً».

«وربما نسي السير ويليام أيضاً».

هزت أليس رأسها: «أشك أنه ينسى شيئاً أبداً».

تساءل نيد كيف سيكون العمل لدى سيسيل، وأن يكون أحد العاملين في

منزل إليزابيث تودر.

«أتساءل إن كانت إليزابيث ستصبح الملكة يوماً ما؟».

تحدثت والدته بمرارة مفاجئة: «إن أصبحت ملكة، فقد تتخلص من

بعض هؤلاء الأساقفة المتعجرفين».

بدأ نيد يرى بريق أمل.

«سأكتب إلى سيسيل من أجلك إن أحببت»، قالت أليس.

«لا أعلم»، قال نيد. «قد أذهب وأطرق بابه بكل بساطة».

«وقد يطلب منك أن تعود إلى منزلك ببساطة».

«أجل»، قال نيد. «قد يفعل هذا».

استمر انتقام عائلة فيتزجيرالد حتى اليوم التالي.

كان الطقس حاراً إلا أن جناح كاتدرائية كينغزبريدج الجنوبي يغدو أكثر

برودة خلال فترة ما بعد الظهر. اجتمع جميع الوجهاء هناك من أجل المحاكمة

الكنسية؛ فالبروتستانتيون الذين اعتقلوا في حظيرة الأرملة بولارد يُحاكمون

بتهمة الهرطقة، ويعلم الجميع أن ساحة القلعة منهم فقط قد بُرئت. ولكن

السؤال الحقيقي الذي طرحه الناس كان ما هو العقاب الذي سيلقاه من أدنوا.

يواجه فيلبرت كوبلي تهماً خطيرة. لم يكن حاضراً في الكاتدرائية عندما

وصل نيد، ولكنه رأى السيدة كوبلي واقفة تبكي بيأس، وكانت عينا روث

كوبلي حمراوين ووجه دان متجهماً على نحو غريب، وأخت فيلبرت وأخو

السيدة كوبلي يحاولان مواساتهم.

كان الأسقف يوليوس المسؤول هنا فهذه قاعة محكمته، وقد أخذ دور

المدعي والقاضي في نفس الوقت. لم يكن هناك هيئة محلفين. جلس بالقرب من يوليوس صديقه المقرّب والكاهن الشاب ستيفن لينكولن يسلمه الوثائق ويدون الملاحظات، وإلى جانب ستيفن كان كبير كهنة كينغزبريدج لوك ريتشاردز. كان كبار الكهنة مستقلين عن الأساقفة ولا يتبعون أوامرهم على الدوام. كان لوك الأمل الوحيد للمدّانين اليوم.

اعترف البروتستانتيون الواحد تلو الآخر بذنوبهم، وأعلنوا ارتدادهم عن معتقداتهم لكي ينجوا من العقوبة الجسدية. وصدرت بحقهم غرامات مالية دفعها معظمهم إلى الأسقف بشكل مباشر.

كان دان كوبلي نائب قائدهم، ولهذا أصدر يوليوس بحقه حكماً إضافياً مهيناً. كان على دان أن يجوب شوارع كينغزبريدج في ثياب النوم حاملاً الصليب ومرتلاً صلاةً باللاتينية. إلا أن فيلبرت كان القائد، وانتظر الجميع الحكم الذي سيتلقاه في ترقب.

على حين غرة تحول انتباه الحشد إلى صحن الكنيسة.

نظر نيد في الاتجاه الذي كانوا ينظرون إليه، ورأى أوزموند كارتر يقترب مرتدياً خوذة جلدية وجزمة بأربطة حتى الركبة. كان بصحبته رجل آخر وقد حملاً كرسيّاً خشبياً تكوم فوقه شيء يشبه الصُرة. أمعن نيد النظر ورأى أنّ هذه الصُرة لم تكن سوى فيلبرت كوبلي.

قبل حدوث كل هذا كان فيلبرت رجلاً ممتلئاً ومهيباً رغم قصر قامته. ولكن اليوم بدت قدماه عاجزتين على حافة الكرسي وكذلك يدها على الجانبين أيضاً. لم يتوقف عن الأنين في ألم وعيناه مغلقتان. سمع نيد السيدة كوبلي تصرخ عندما رآته.

وضع رجلا الحراسة الكرسي أمام الأسقف يوليوس وتراجعا إلى الوراء. كان للكرسي مسندان حتى لا يقع عنه فيلبرت ولكنه عجز عن الجلوس باستقامة، وبدأ ينزلق عن الكرسي.

هرعت عائلته، وأخذه دان من تحت ذراعيه ثم رفعه وأجلسه مجدداً. صرخ فيلبرت من الألم، ودفعت روث وركي فيلبرت ليقى على وضعية الجلوس. أخذت السيدة كوبلي تنوح: «آه يا فيل، حبيبي فيل ما الذي فعلوه بك».

أدرك نيد ما الذي حدث لفيلبرت؛ لقد تعرّض إلى التعذيب على المخلعة: ثبتوا معصميه إلى عمودين، وربطوا كاحليه بحبال ملفوفة على عجلة مسننة. وبينما تحركت المسننات شدّت العجلة الحبل وجسد الضحية بشكل مؤلم. اخترع هذا الأسلوب في التعذيب لأنّ سفك الدماء محرم على الكهنة.

بدا واضحاً أنّ فيلبرت قاوم ورفض الارتداد عن إيمانه رغم الألم الشديد الذي تعرض له، ولهذا استمر التعذيب إلى أن انخلع كتفاه ومفاصل وركه تماماً، وأصبح الآن كسيحاً بلا حول ولا قوة.

«اعترف فيلبرت كوبلي أنّه قاد مجموعة من الحمقى السذج إلى الهرطقة»، قال الأسقف يوليوس.

لوح كانون لينكولن بوثيقة: «ها هو الاعتراف».

تقدّم دان كوبلي من طاولة القاضي وقال: «أرني إياها».

تردد دان كوبلي ونظر إلى يوليوس. لم تكن المحكمة ملزمة بإثبات نفسها أمام ابن المتهم إلا أن الأسقف هزّ كتفيه في لا مبالاة، وقدم لينكولن الأوراق إلى دان.

نظر دان إلى الصفحة الأخيرة وقال: «هذا ليس توقيع والدي». وعرضه على رجالٍ يقفون بالقرب منه. «سيُدرِك أيّ شخص يعرف والدي أنّ هذا ليس توقيع».

هزّ العديد منهم رؤوسهم في موافقة على ما قاله دان.

قال يوليوس بنزق: «من الواضح أنّه لم يكن قادراً على التوقيع من دون مساعدة».

«لقد شدت...» غصّ دان وانحدرت الدموع على وجهه، ولكنه أجبر نفسه على المتابعة. «لقد شدت أطرافه إلى درجة لم يعد قادراً على الكتابة... ومع هذا تتظاهر أنّه وقع على الاعتراف».

«أتظاهر؟ هل تتهم الأسقف بالكذب؟».

«أقول إنّ والدي لم يعترف بالهرطقة».

«كيف لك أن تعرف هذا؟»...

«لم يكن يؤمن بأنّه مهرطق، والسبب الوحيد الذي قد يدفعه لقول العكس تعرضه للتعذيب».

«بعد أداء الصلوات اللازمة اقتنع بخطأ الطريق الذي مشى عليه».
أشار دان إلى شكل والده المريع بطريقة درامية: «هل هذا ما سيؤول إليه
حال المرء عندما يصلي له أسقف كينغزبريدج».
«لا تقبل المحكمة سماع المزيد من هذه الكلام الوقح».
«أين المخلعة؟» تحدّث نيد ويلارد.
نظر الكهنة الثلاثة إليه في صمت.

«من الواضح أنّ فيلبرت وضع على المخلعة، ولكن أين هي؟» قال
نيد. «هنا في الكاتدرائية؟ في قصر الأسقف؟ تحت المحكمة؟ أين تضعون
المخلعة؟ أعتقد أنّه يحق لمواطني كينغزبريدج أن يعرفوا. يعد التعذيب في
إنكلترا جريمة إلا عندما يسمح به مجلس شورى الملك. من أعطى الإذن
باستخدام التعذيب في كينغزبريدج؟»
بعد فترة صمتٍ طويلة قال ستيفن لينكولن: «ليس في كينغزبريدج
مخلعة».

قال نيد مُلخصاً الفكرة: «إذاً، تعرض فيلبرت للتعذيب في مكان
آخر. هل تعتقد أنّ هذا سيجعل الأمر مقبولاً أكثر؟» وأشار بإصبعه إلى
الأسقف يوليوس. «ولكن لا يُهم حتى وإن عُذب في مصر فمن أرسله إلى
التعذيب مجرم».
«هدوء».

عندما اقتنع نيد أنّه أدلى بوجهة نظره استدار وخرج.
في هذه اللحظة وقف رئيس الكهنة لوك. كان رجلاً طويلاً محدودباً في
الأربعين من العمر بشعر رمادي خفيف وسلوكٍ لطيف.
«يا سيادة الأسقف أحنك على أن تكون رحيماً». قال لوك. «إنّ فيلبرت
مهرطق وغبي من دون شك، ولكنه مسيحي أيضاً، ويسعى لعبادة الرب بطريقته
المضللة. ولا يجب أن يُعدم أي شخص بسبب هذا». أنهى كلامه وجلس.
علا صوت المواطنين المتفرجين في موافقة على ما قاله لوك. كان
معظمهم من الكاثوليكين، رغم أنهم كانوا بروتستانتين عندما كانوا تحت
حكم الملكين البروتستانتين السابقين، ولذلك لم يشعر أيّ واحد منهم
بالأمان على نفسه.

ألقى الأسقف يوليوس نظرة احتقار شديد نحو رئيس الكهنة ولم يُجب على التماسه ثم قال: «فيلبرت كوبلي مذنب ولكن ليس بتهمة الهرطقة بل بنشرها. وفي مثل هذه الحالات يُحرم الشخص من حقوقه الكنسية ويُحرق حتى الموت. سيجري الإعدام غداً فجرأ على يد السلطات المدنية».

هناك أساليب عديدة للإعدام: يستفيد النبلاء عادة من الطريقة الأسرع وهي قطع رؤوسهم. إنها طريقة سريعة ولا تأخذ سوى دقيقة إن كان الجلاد ماهراً. أما إن كان الجلاد أخرق فسيحتاج إلى ضربات إضافية بالفأس حتى يقطع الرقبة تماماً. كانت عقوبة الخائنين الشنق أو بقر بطونهم وهم أحياء ثم تقطيعهم إلى قطع. وبالنسبة لمن يسرق من الكنيسة فسيُسلخ جلده بسكين حادة جداً وهو حيّ، ويمكن لمنفذ السلخ الخبير أن يسلخ الجلد قطعة واحدة، أما المهترقون فكانوا يُحرقون أحياء حتى الموت.

لم يتفاجأ سكان المدينة بهذا الحكم، إلا أنهم تلقوه في صمّ رهيّب؛ فلم يُحرق أحدٌ في كينغزبريدج قبلاً. أخذ نيد يفكر أنّ هذا الخط الأحمر الرهيّب قد قطع، وشعر بأنّ جيرانه أحسوا بالأمر عينه.

سُمع فجأة صوت فيلبرت عالياً وقوياً بشكل مفاجئ. لا بدّ أنّه كان يحتفظ بما تبقى من طاقته من أجل هذا: «أشكر الربّ لأنّ الألم سينتهي يا يوليوس، ولكنّ ألمك بدأ لتوه أيّها الشيطان المُجدف». ترددت بين الحاضرين شهقة صدمة على هذه الإهانة، ووقف يوليوس على قدميه غاضباً، ولكن يمكن لأيّ رجلٍ محكوم بالموت أن يقول ما يشاء. «قريباً ستذهب إلى الجحيم حيث تنتمي يا يوليوس، وعذابك لن ينتهي. فلتحل لعنة الربّ على روحك إلى الأبد».

تقول الخرافات إنّ لعنة الرجل المحتضر فعالة حقاً، ورغم ازدياد يوليوس لمثل هذه الخرافات فإنّه ارتجف من الغضب والخوف وصرخ: «خذوه! وليغادر الجميع الكنيسة. لقد انتهت المحكمة!» ثم التفت وهرع خارجاً من الباب الجنوبي.

عاد نيد ووالدته إلى البيت في صمّ كئيب. ها هي عائلة فيتزجيرالد تريح مجدداً؛ لقد قتلوا الرجل الذي خدعهم، وسرقوا ثروة عائلة ويلارد، ومنعوا ابتهم من الزواج بنيد. كانت هزيمة ساحقة حقاً.

قدّمت لهما جانيت فايف عشاء خفيفاً مكوناً من اللحم المقدد. شربت أليس كؤوساً كثيرة من النبيذ الإسباني، وسألت نيد فيما كانت جانيت تنظف الطاولة: «هل ستذهب إلى هاتفيلد؟».

«لم أحسم أمري فمارجوري لم تتزوج بعد».

«ولكن حتى وإن قُتل بارت في الغد لن يسمحوا لك بالزواج منها».

«بلغت مارجوري السادسة عشرة الأسبوع الماضي، وبعد مرور خمس سنوات يمكنها الزواج بمن تريد».

«ولكن لا يجوز أن تقف مكتوف اليدين كسفينة راسية لوقتٍ طويل بانتظار هبوب ريح. لا تدع هذا يُفسد حياتك».

علم نيد أنها كانت على حق.

في تلك الليلة خلد نيد إلى النوم باكراً إلا أنه لم يُغمض له جفن. بعد مجريات اليوم المريعة أصبح يفكر ملياً بالذهاب إلى هاتفيلد، ولكنه ما يزال غير قادر على حسم أمره الذي سيعني أنه تخلى عن أي أمل.

غفا نيد فجراً إلا أنه استيقظ على وقع أصواتٍ في الخارج. نظر من نافذة غرفته ورأى رجالاً يتحركون في ساحة السوق على ضوء ستة مشاعل. كانوا يحضرون الحطب من أجل الإعدام. أتى الشريف ماثيوسن الذي كان رجلاً ضخماً يحمل سيفاً ليُشرف على التحضيرات. يمكن للكاهن أن يحكم بالموت، إلا أنه لا يستطيع تنفيذ الحكم بنفسه.

ارتدى نيد معطفاً فوق ثوبه الليلي وخرج. كان الصبح عابقاً برائحة دخان الحطب.

اجتمعت عائلة كوبلي في المكان، ووصل معظم البروتستانتين بعد مدة وجيزة وكبر الحشد. ومع أول خيوط الفجر خبا ضوء المشاعل وبلغ عدد الحاضرين في الساحة أمام الكاتدرائية حوالي الألف شخص. قام رجال الحراسة بدورهم في إبقاء الناس بعيداً عن مكان الإعدام.

علا الصخب بين الحشود إلا أنّ الهدوء استتب أخيراً عندما ظهر أوزموند كارتر قادماً من جهة غيلدهيل مع حارس آخر. كان الرجلان يجران فيلبرت على كرسي خشبي. شقاً طريقهما بين الحشد الذي ابتعد على مضض وكأنه يريد منع تقدم الكرسي إلا أنه لم يملك الشجاعة على فعل هذا.

ناحت نساء عائلة كوبلي بشكلٍ مثيرٍ للشفقة عندما رأين الرجل العاجز يُربط إلى وتد خشبي على الأرض. استمر فيلبرت بالانزلاق على قدميه العاجزتين، واضطر أوزموند إلى ربطه بشدة ليثبتته في مكانه.

كۆم رجال الحراسة الحطب حوله ويوليوس يرتل صلاةً باللاتينية. أخذ أوزموند أحد المشاعل التي يستخدمونها في أعمالهم الليلية، ووقف أمام فيلبرت ثم نظر إلى الشريف ماثيوسن الذي رفع يده في إشارة لأوزموند حتى ينتظر. ونظر ماثيوسن بدوره إلى يوليوس. خلال فترة الصمت التي لم تدم طويلاً أخذت السيدة كوبلي تصرخ، واضطرت عائلتها إلى الإمساك بها.

هزّ يوليوس رأسه، وأنزل ماثيوسن ذراعه، ووضع أوزموند الشعلة على الحطب حول قدمي فيلبرت.

اشتعل الحطب الجاف على الفور وطققت النار بمرحٍ شيطاني. صرخ فيلبرت بضغفٍ أمام النار، واختنق المتفرجون القريبون من الدخان فسارعوا إلى التراجع للوراء.

سرعان ما انتشرت رائحة أخرى، كانت رائحة مألوفة ومثيرة للغثيان، إنّه رائحة اللحم المشوي. بدأ فيلبرت يصرخ في ألم، وبين الصرخات صاح: «خُذني الآن يا يسوع! خُذني يا ربي! الآن من فضلك، الآن». إلا أن يسوع لم يأخذه بعد.

سمع نيد أن بعض القضاة الرحماء يسمحون لعائلة المُدان أحياناً بوضع كيس من البارود حول رقبة الرجل المحكوم حتى يكون موته سريعاً. ولكن من الواضح أن يوليوس لن يسمح بهذا العمل الرحيم. احترق القسم السفلي من فيلبرت وهو ما يزال حياً. كان صوته وهو يتألم لا يحتمل وأشبه بصرخة حيوان مرعوب أكثر مما كانت صرخة بشري.

وأخيراً صمت فيلبرت، ربما توقف قلبه، أو ربما خنقه الدخان، أو ربما غلى دماغه بفعل الحرارة. استمرت النيران وتحولت جثة فيلبرت إلى بقايا سوداء. ورغم الرائحة المقرفة فإن الصراخ توقف في النهاية. شكر نيد الرب لأن الأمر انتهى أخيراً.

خلال حياتي القصيرة لم أر شيئاً بهذه الفظاعة. لم أعلم أنه يُمكن للرجال أن يقوموا بمثل هذه الأمور، ولم أفهم سبب سماح الربّ لهم بفعل هذا.

قالت والدتي أمراً بقيت أتذكره طوال الأعوام التالية: «عندما يكون المرء واثقاً من معرفته بإرادة الربّ، ويقرر فرضها بغض النظر عن ثمن فعلته، فإنه حتماً سيكون من أخطر الأشخاص في العالم». عندما بدأ المتفرجون يتراجعون ويتعدون عن ساحة السوق بقيت هناك. أشرقت الشمس إلا أنها لم تضيء البقايا المحترقة التي استقرت في الظل البارد للكاتدرائية. كنت أفكر بالسير وويليام سيسيل وحديثنا عن إليزابيث في اليوم الثاني عشر من عيد الميلاد. قال لي وقتها: «أخبرتني إليزابيث مرّاتٍ عديدة أنها فيما لو أصبحت ملكة فإن أعزّ أمنية لديها هي ألا يخسر أي رجل إنكليزي حياته على المحرقة بسبب معتقداته. أعتقد أن مثل هذا المِثال الأعلى جدير بأن يكون إيماناً».

صعقني هذا الكلام آنذاك وبدا كأمل ورع جداً، ولكن بعد كل ما رأيته فكّرت به مجدداً. هل يُمكن لـإليزابيث التخلص من هؤلاء الأساقفة الدوغمائيين كيوليوس والقضاء على تلك المشاهد كالمشهد الذي رأيته منذ قليل؟ هل سيأتي وقت يتوقف فيه الناس ذوو العقائد الدينية المختلفة عن قتل بعضهم بعضاً؟

هل ستصبح إليزابيث ملكة عند وفاة ماري تودر؟ أعتقد أنّ هذا يعتمد على نوع المساعدة التي ستحظى بها. لديها ويليام سيسيل المهيب، ولكن رجلاً واحداً لا يكفي، بل تحتاج إلى جيشٍ من الداعمين... ويمكن أن أكون واحداً منهم.

أشعر بالتفاؤل عندما أفكر بهذا. فعندما حدّقت إلى رفات فيلبرت كوبلي أصبحت واثقاً من أنّ الأمور لا يجب أن تأخذ هذا المسار، وأن هناك أناساً كثيراً في إنكلترا يريدون لهذا أن يتوقف. وأردت أن أكون معهم؛ أردت أن أحارب من أجل قيم التسامح التي تنادي بها إليزابيث، ومن أجل إيقاف الإعدام بالحرق حتى الموت بسبب الدين، ولهذا قررت... الذهاب إلى هاتفيلد.

الفصل الثامن

توجه نيد من كينغزبريدج إلى هاتفيلد سيراً على الأقدام في رحلة تمتد لمئة ميل من دون أن يكون لديه أدنى فكرة عما ينتظره، فهل سيستقبلونه ويعطونه عملاً، أم سيرسلونه خالي الوفاض إلى المنزل؟

خلال أول يومين من رحلته رافق نيد مجموعة من الطلاب المتوجهين إلى أوكسفورد. كان معظم الناس يسافرون في مجموعات لأن سفر المرء وحده أمر خطير؛ فقد يتعرض الرجال إلى خطر السرقة والنساء إلى خطر أسوأ.

عمل نيد بنصيحة أمه وتحدث مع جميع من قابلهم، وحصل على معلومات قد تكون أو لا تكون مفيدة كأسعار الصوف والجلد والحديد الخام والبارود وأخبار الأوبئة والعواصف والفيضانات وحالات الإفلاس والعصيان وحفلات الزفاف والجنائز الأرستوقراطية.

نزل في الحانات ليلاً وتشارك السرير، ولم تكن هذه بالتجربة المريحة لفتى من طبقة التجار ويملك غرفة خاصة به في منزله. على أي حال، كانت رفقة الطلاب ممتعة فلديهم أسلوب خاص في الكلام والانتقال بكل بساطة من الدعابات القاسية إلى الجدالات اللاهوتية. كان الطقس في شهر تموز/ يوليو دافئاً، إلا أن السماء أمطرت.

خلال فترات الصمت الوجيزة في المحادثات مع رفاق السفر شعر نيد بالقلق مما ينتظره في قصر هاتفيلد. كان يأمل أن يستقبلوه كمساعد ينتظرون وصوله، إلا أن سيسيل قد لا يتذكره وربما سيسأله: «من أنت؟» لم يكن واثقاً مما يتوجب عليه فعله إن رفضوه. ستكون عودته إلى كينغزبريدج وهو يجر أذيال الخيبة مخزية. يستطيع الذهاب إلى لندن وتجريب حظّه في المدينة الكبيرة.

عندما وصل نيد إلى أوكسفورد نزل في جامعة كينغزبريدج التي تأسست

على يد رئيس الدير فيليب حتى تكون قاعدة رئيسية لدير كينغزبريدج، ورغم حصول الجامعة لاحقاً على استقلالها من الدير، فإنها استمرت بتقديم وسائل الراحة للطلاب من كينغزبريدج وأحسنت استضافة مواطني كينغزبريدج.

كان أصعب شيء واجهه نيد هو إيجاد رفاق سفر في رحلته من أوكسفورد إلى هاتفيلد؛ فمعظم المسافرين توجهوا إلى لندن التي كانت على طريق مختلف عن طريق نيد. وأثناء انتظاره في الجامعة وقع تحت سحرها. أحب تلك المحادثات الحيوية التي تناول شتى المواضيع؛ من موضوع جنة عدن إلى فكرة كروية الأرض وعدم سقوط البشر عنها. سيصبح معظم الطلاب كهنة والقليل منهم فقط سيمتهن المحاماة والطب. أخبرته أمه أن الجامعة لن تعلمه أي شيء مفيد له كتاجر، وأخذ نيد يتساءل الآن إن كانت على حق فيما قالته. كانت والدته حكيمة إلا أنها لم تكن مُلمة بكل شيء.

بعد مضي أربعة أيام انضم إلى مجموعة من الحجاج المتوجهين إلى كاتدرائية سانت ألبانز. أخذت منه الرحلة ثلاثة أيام، ثم غامر وقطع وحيداً الأميال السبعة الأخيرة من سانت ألبانز إلى هاتفيلد.

كان الملك هنري الثامن قد صادر قصر هاتفيلد من الأسقف إيلاي، واستخدمه بيتاً لأولاده في بعض الأحيان. يعلم نيد أن إليزابيث قضت معظم طفولتها هنا، وأن الملكة ماري تودر أخت إليزابيث غير الشقيقة تحبذ إبقاءها هنا. تبعد هاتفيلد عشرين ميلاً شمال لندن، وهي مسيرة يوم أو نصف يوم على ظهر حصانٍ سريع. كانت إليزابيث بعيدة عن لندن وبالتالي لا يمكن أن تكون مصدر إزعاج إلا أنها قريبة بما يكفي لتكون تحت الأنظار. لم تكن إليزابيث سجيناً إلا أنها أيضاً لم تكن حرة في المغادرة متى شاءت.

بدأ القصر يلوح من بعيد وعلى قمة كحظيرة عملاقة من حجارة حمراء ونوافذ بقضبان متشابكة. لاحظ نيد وهو يصعد التل باتجاه المدخل الرئيسي أن القصر مكون من أربعة أبنية يربطها فناء مربع الشكل ومغلق. كان كبيراً بما يكفي لبناء عدة ملاعب تنس.

شعر بخوفه يكبر عندما رأى الحشود المفعمة بالنشاط في الفناء. رأى سائسي الخيل والغازلات وصبيان التوصيل، وأدرك نيد أن إليزابيث قد لا تكون محبوبة كثيراً إلا أنها تحمل دماً ملكياً في عروقتها ولديها منزل كبير،

وربما يرغب الكثير من الناس بالعمل لديها، وأن هناك الكثيرين ممن يتم رفضهم كل يوم.

دخل إلى الفناء ونظر حوله. كان الجميع مشغولاً ولم يلاحظه أحد، وأدرك في لحظتها أن سيسيل قد يكون مسافراً. إن السبب الوحيد الذي قد يدفع سيسيل للاستعانة بمساعد هو التغييب عن هاتفيلد متى أراد.

توجه نيد إلى امرأة عجوز تقشر البازلاء بكل وداعة. «طاب يومك يا سيدتي»، قال بتهذيب. «أين يمكنني أن أجد السير وويليام سيسيل؟».

«اسأل الرجل السمين»، قالت وأشارت بإبهامها إلى رجل سمين حسن الهندام لم يلاحظه نيد عندما دخل، وتابعت العجوز: «اسأل توم باري». اقترب نيد من الرجل وقال: «طاب يومك يا سيد باري. أنا هنا لمقابلة السير وويليام سيسيل».

«يريد الكثيرون مقابلة وويليام سيسيل»، قال باري. «أخبره أن نيد ويلارد من كينغزبريدج هنا، وسيكون سعيداً بهذه المعلومة».

«حقاً؟ الآن؟» قال باري مشككاً. «من كينغزبريدج».

«أجل. مشيت إلى هنا».

لم يبدو باري مبهوراً بما قاله نيد: «حسناً، لا أعتقد أنك سافرت طيراناً إلى هنا».

«هلاً تفضلت وأعطيته اسمي».

«وإن سألتني عن الغرض الذي أتى من أجله نيد ويلارد فبماذا أجيبه؟». «القضية السرية التي ناقشناها مع إيرل شايرنغ في اليوم الثاني عشر من عيد الميلاد».

«السير وويليام والإيرل وأنت؟» قال باري. «ما الذي كنت تقوم به؟ تقدم النيذ».

ابتسم نيد وقال: «لا، ولكن كما قلت لك فإن الموضوع سري». وقرر نيد أنه إن خضع أكثر لهذا الاستجواب الوقح فإنه سيبدو يائساً ولهذا أنهى المحادثة. «شكراً لك على لطفك»، ثم استدار.

«حسناً، لا تشعر بالإهانة. رافقني هيا».

لحق نيد بباري إلى داخل المنزل. كان المكان كئيباً ومتداعياً. قد يكون لإليزابيث دخل ملكي، ولكنه حتماً لم يشمل ترميم القصر.

فتح باري باباً ونظر إلى الداخل ثم قال: «هل ترغب باستقبال المدعو نيد ويلارد من كينغزبريدج يا سير ويليام؟».

«أجل بالتأكيد»، أجاب صوتٌ من الداخل.

التفت باري إلى نيد وقال: «ادخل».

كانت الغرفة كبيرة ومؤثثة على نحو باذخ، وتشبه مكتباً بسجلات مرتبة على الرفوف أكثر مما تشبه غرفة استقبال. جلس سيسيل إلى طاولة كتابة عليها أقلام ومحابر وأوراق وشمع أختام. كان في سترة مخملية سوداء وبدا متدثراً جداً على هذا الطقس الصيفي أو ربما لم يكن، فقد كان نيد يشعر بالحر لأنه كان يمشي تحت الشمس طوال الوقت.

«أجل تذكرتك»، قال سيسيل عندما رأى نيد. «أنت ابن أليس ويلارد». لم تكن لهجته ودية أو غير ودية بل يشوبها بعض الحذر. «هل والدتك بخير؟». «لقد خسرت كل أموالها يا سير ويليام»، أجاب نيد. «فمعظم ثروتنا كانت في كاليه».

«واجه العديد من الرجال الطيبين المصير عينه. كنا حمقى بإعلاننا الحرب على فرنسا، ولكن ما سبب قدومك لمقابلتي؟ لا يمكنني أن أستعيد كاليه».

«عندما التقينا في قلعة الإيرل شايرنغ قلت إنك تبحث عن شاب يشبهك قليلاً ليساعدك في عملك مع السيدة إليزابيث. أخبرتك والدتي آنذاك أن قدرتي العمل في تجارة العائلة، وبالتالي لم يكن بإمكانني العمل معك، ولكننا الآن خسرنا العمل. لا أعلم إن كنت قد عثرت على أحد..».

«لقد فعلت»، قال سيسيل، وشعر نيد بالخيبة، ثم أضاف سيسيل: «ولكن تبين لاحقاً أنه خيار سيء».

أضاء وجه نيد مجدداً. «سيكون شرفاً لي لو أخذتني بعين الاعتبار من أجل هذا المنصب»، قال نيد بحماسة.

«لا أعلم»، قال سيسيل. «إنه ليس ذلك النوع من المناصب الذي يؤمن مدخولاً معتبراً لرجل حاشية. فالمنصب يتطلب العمل بجد».

«أنا جاهز للعمل».

«ربما، لكن ولكي أكون صريحاً معك لا أعتقد أن فتى من أسرة ثرية واجهت أوقاتاً عصيبة سيكون مساعداً جيداً، فهو معتاد على إلقاء الأوامر، وسيستغرب أن يتوقع منه أحد فعل ما يُطلب إليه على الفور وبأمانة. إن مثل هؤلاء المساعدين يريدون المال فقط».

«أريد ما هو أكثر من المال».

«حقاً؟».

«أيها السير ويليام، منذ أسبوعين أُحرق رجل بروتستانتي حتى الموت في كينغزبريدج. إنه أول رجل يلقي هذا المصير». علم نيد أنه لا يجب أن يتحدث بشكل عاطفي، إلا أنه لم يكن قادراً على تمالك نفسه: «وبينما شاهدته يموت وهو يصرخ من الألم تذكرت ما قلته لي عن أمنية إليزابيث بألا يموت أي إنكليزي بسبب معتقده».

أوما سيسيل برأسه موافقاً.

«أريدها أن تصبح الملكة يوماً ما»، قال نيد بحماس. «أريد أن يصبح بلدنا مكاناً لا يقتل فيه الكاثوليكيون والبروتستانتون بعضهم بعضاً. وعندما يحين هذا الوقت أريد أن أكون معك وأنت تساعد إليزابيث في الوصول إلى العرش. هذا السبب الحقيقي لقدومي إلى هنا».

نظر سيسيل بإمعان إلى نيد وكأنه يحاول اختراق قلبه والتأكد من صدق كلامه، وبعد فترة صمتٍ طويلة قال: «حسناً، سأجربك».

«شكراً لك»، قال نيد بحماس. «أعدك أنك لن تندم على هذا أبداً».

كان نيد ما يزال مغرماً بمارجوري فيتزجيرالد إلا أنه كان مستعداً للنوم مع إليزابيث من دون تردد.

لم تكن إليزابيث جميلة؛ فأنفها كبير وذقنها صغير والمسافة بين عينيها ضيقة. ولكن وللمفارقة كانت مغوية جداً وبشكل لا يقاوم، ولم تقلل نزعتها الاستبدادية ومزاجها السيئ أحياناً من هذا التأثير. عشقها الرجال والنساء على حد سواء حتى وإن كانت توبخهم بقسوة. لم يلتق نيد بشخصٍ يشبهها لا من قريب ولا من بعيد، فقد كانت تملك قوة طاغية.

تحدثت معه بالفرنسية، وهزئت من لغته اللاتينية الركيكة، وشعر بالخيبة لأنه لم يكن قادراً على مساعدتها في التدريب على الإسبانية. سمحت له بقراءة الكتب التي أرادها ولكن بشرط أن يناقشها فيها. استفسرت منه عن أموالها وحرصت على فهم الحسابات كما فهمها هو.

وخلال أيام قليلة عرف نيد الإجابة على سؤالين أساسيين.

أولاً، لم يكن لدى إليزابيث أي خطط ضد الملكة ماري تودر. في الحقيقة كانت تتحدث عن هول جريمة الخيانة وبدا كلامها صادقاً، إلا أنها وفي الوقت عينه كانت تُحضر نفسها وبشكل ممنهج، لتطالب بحقها بالعرش بعد وفاة ماري ومهما طال الوقت. إن رحلة سيسيل خلال عيد الميلاد إلى كينغزبريدج هي جزء من البرنامج الذي وضعه مع حلفاء آخرين لإليزابيث، وهذا البرنامج يتضمن زيارة أهم المدن في إنكلترا لتقييم وضع الدعم والمعارضة لها. كبر إعجاب نيد بسيسيل على الفور؛ فالرجل يفكر بطريقة استراتيجية ويدرس كل قضية وآثارها على المدى الطويل وعلى مصير الأميرة التي يخدمها.

ثانياً، أن إليزابيث بروتستانتية رغم ادعاء سيسيل عدم امتلاكها لمعتقدات دينية قوية. كانت تذهب إلى القديس وتؤدي جميع الطقوس الكاثوليكية المتوقعة منها، ولكنها كانت تفعل هذا من باب الحفاظ على المظاهر فقط. أما كتابها المفضل فقد كان إعادة صياغة العهد الجديد لإيراسموس. لكن الأهم من هذا كله هو اكتشاف نيد أن إليزابيث تستخدم ألفاظاً نابية؛ فقد كانت تستخدم كلمات السباب التي يعتبرها الكاثوليكيون مهينة. عندما تكون في صحبة مهذبة تختار إليزابيث كلمات لا تبدو تجديفية للوهلة الأولى ككلمة «سحقاً» بدلاً من «بحق دم الرب»، وكلمة «اللعة» بدلاً من «بحق جروح الرب» و«ميري» بدلاً من «ماري». أما عندما تكون في صحبة خاصة فكانت تتلفظ بأمر أكثر تجديفاً كأن تقول: «بحق القديس»، وكان قسمها المفضل «بحق جسد الرب!».

في الصباح تدرس إليزابيث مع معلمها فيما يجلس نيد في مكتب سيسيل ويعمل على السجلات. لدى الأميرة الكثير من الممتلكات، والجزء الأكبر من عمل نيد يقوم على ضمان حصولها على الإيجارات كاملة وفي موعدها.

بعد وجبة منتصف اليوم ترتاح إليزابيث، وقد تحب أحياناً التحدث مع خادوماتها المفضلات. يجلسن جميعاً في غرفة تُعرف بـ«غرفة الأسقف» وتحوي على كراسٍ مريحة جداً ورقعة شطرنج وآلة تشبه البيانو تدندن عليها إليزابيث أحياناً. تكون مربيتها نيل بينسفورد برفقتها في الغرفة دوماً، وأحياناً يحضر أمين الخزانة توم باري.

لم يكن نيد جزءاً من هذه المجموعة الخاصة والحصرية، ولكن في أحد الأيام عندما كان سيسيل غائباً أُستدعي لمناقشة خطط عيد ميلاد إليزابيث الخامس والعشرين في السابع من أيلول/سبتمبر الموافق بعد أسبوعين. ناقشوا أمر تنظيم حفل كبير في لندن ولكن هذا سيتطلب موافقة الملكة، ثم اقترحوا القيام بشيء أكثر بساطة هنا في هاتفيلد حيث يمكنهم القيام بكل ما يريدون.

كان النقاش في ذروته عندما وصل ضيفٌ مُفاجئٌ. سُمع صوت وقع حوافر أحصنة تعبر المدخل إلى الفناء الرئيسي. توجه نيد إلى النافذة ذات القضبان المعدنية ونظر عبر زجاجها ذي اللون الدخاني. كان هناك ستة رجال على أحصنة قوية وباهظة الثمن. خرج سائسو الخيل من الإسطبلات للاهتمام بالأحصنة. أمعن نيد النظر إلى قائد المجموعة وذهل عندما تعرف عليه.

«إنه الإيرل سويذن!» قال نيد. «ما الذي يريده؟».

وكان أول ما خطر على بال نيد أنّ للأمر علاقة بزواج ابن الإيرل بارت من مارجوري الفتاة التي يحبها. ولكن هذا لا يمكن أن يحدث حتى في أحلام نيد، فحتى لو فسخوا الخطوبة فلن يُكَلَّف الإيرل نفسه عناء إخبار نيد. «ما الأمر إذًا؟» تساءل نيد في نفسه.

رافق الخدم الزوار إلى المنزل، وساعدوهم على خلع عباءاتهم المعفرة بالتراب. وبعد مرور بعض الوقت دخل خادم إلى غرفة الجلوس ليعلن أنّ الإيرل يرغب بالتحدث إلى الأميرة إليزابيث، وطلبت منهم إليزابيث السماح للزائر بالدخول.

كان الإيرل سويذن رجلاً ضخماً له صوت جهوري، وعندما دخل ملاً الغرفة بحضوره. وقف كل من نيد ونيل وتوم إلا أن إليزابيث بقيت جالسة،

وربما فعلت هذا قصداً لتثبت لسويدن أن دماءها المملّكية أهم من فرق العمر بينهما. انحنى سويدن بشدة وتحدث بصوتٍ ودود وكأنه عم أو نسيب: «تسعدني رؤيتك بصحة جيدة وفي قمة الجمال».

«إنها لمسرة غير متوقعة»، قالت إليزابيث. كانت مجاملة تنم عن البغض والحذر معاً. من الواضح أنها أساءت معاملة سويدن بهذا الرد، ولكن نيد رأى أنها أصابت فيما فعلت. كانت حياة الكاثوليكيين المخلصين مزدهرة في كنف ماري تودر، ولأنهم كانوا خائفين من عودة البروتستانتية لم يرغبوا بأن تصبح إليزابيث الملكة بعد ماري.

«يا لجمالكِ وأنتِ في الخامسة والعشرين من عمرك!» تابع سويدن. «إن رجلاً بدمٍ حارٍ مثلي لا يسعه إلا أن يفكر كم من المؤسف ضياع هذا الجمال. أرجو أن تسامحيني على قول هذا».

«هل سأفعل؟» أجابت إليزابيث ببرود. لم تكن تحب التلميحات الجنسية الخفية التي تُقال بلهجة مرحة.

عندما أحسّ سويدن ببرودة إليزابيث نظر إلى الخدم الواقفين في الخلف. من الواضح أنه كان يفضل المتابعة وهم خارج الغرفة، ودُهش قليلاً عندما وقعت عيناه على نيد، ولكنه لم يحاول أن يتوجه إليه بأي كلام. التفت الإيرل إلى إليزابيث مرة أخرى وقال: «هل يمكنني أن أتحدث معك على انفراد يا عزيزتي».

لم يكن ادعاء الود الطريقة المناسبة لإغواء إليزابيث. كانت شابة وقال البعض عنها إنها لم تكن شرعية، ولهذا السبب كانت حساسة جداً تجاه أيّ بادرة تنم عن قلة الاحترام، ولكن سويدن كان غيباً جداً ولم يفهم هذا.

«لا يجب أن تبقى السيدة إليزابيث وحدها مع رجل. هذه تعليمات الملكة»، قال باري.

«هراء!» قال سويدن.

تمنى نيد لو أنّ سيسيل كان حاضراً ليتعامل مع الإيرل، فلا يجرؤ الخدم على الوقوف في وجهه. عبرت فكرة في رأس نيد وهي أنّ سويدن قد خطط لزيارتها في هذا اليوم بالتحديد حيث لا أحد من موظفيها الكبار في المنزل. تساءل نيد عمّا كان يخطط له الإيرل.

«ليس لدى إيزابيث ما تخاف منه معي»، قال سويذن ضاحكاً بشدة، وهذا جعل نيد يرتعد.

ولكن إيزابيث شعرت بالإهانة وقالت بصوت عالٍ: «أخاف؟» كانت تستاء من أي تلميح بأنها امرأة هشة وتحتاج إلى الحماية. «لم سأخاف؟ بالطبع سأتحدث إليك على انفراد». غادر الخدم الغرفة على مضض. عندما أُغلق الباب قال توم لنيد: «أنت تعرفه، كيف هو».

«سويذن رجلٌ عنيف»، قال نيد. «يجب أن نبقي على مقربة من الباب». أدرك نيد أنّ توم ونيل ينتظران منه تعليمات، ولذلك فكر بسرعة وقال: «نيل هلاً ذهبت إلى المطبخ وأحضرت النبيذ لضيفنا؟ إن أصبح دخولنا الغرفة حتماً سيكون تقديم النبيذ حجتنا».

«ما الذي سيفعله إن عُدنا إلى الداخل؟» سأل توم. فكر نيد برودة فعل سويذن عندما غادر البيورتانيون في استنكار على المسرحية. «لقد رأيتّه يحاول أن يقتل رجلاً تجراً على إهانتته». «فليحمننا الربّ».

وضع نيد رأسه على الباب، وتمكن من سماع صوتين: صوت سويذن العالي وصوت إيزابيث الحازم. لم يتمكن من فهم الكلمات لكن النبرات كانت هادئة بل وودية، وشعر لوهلة أنّ إيزابيث لم تكن في خطر. حاول نيد أن يفهم ما يحدث. لا بدّ أنّ لزيارته المفاجئة علاقة بالعرش. هذا هو السبب الوحيد الذي سيجعل رجلاً قوياً من رجال العاشية يهتم بإيزابيث.

تذكر نيد الحديث المسهب عن مشكلة العرش، واقتراح زواج إيزابيث من كاثوليكي قوي يقود زوجته في الأمور الدينية. يعرف نيد إيزابيث بما يكفي الآن ليُدرك أنّ مثل هذه الخطة لن تنجح كما تصور الآخرون. كان الملك فيلبي قد اقترح زواج نسيبه دوق سافوي من إيزابيث ولكنها رفضته. هل يرغب سويذن بالزواج من إيزابيث؟ هذا ممكن، أو ربما يأمل بإغوائها في هذه الزيارة. فهو على الأغلب يعتقد أنه لو قضى وقتاً بمفرده معها فإنّ الشك بوقوع علاقة جنسية سيجعل الزواج الطريقة الوحيدة لإنقاذ سمعتها.

لن يكون سويذن أول من سيحاول القيام بهذا. عندما كانت إليزابيث في الرابعة عشرة حاول توماس سيمور التودد إليها جنسياً وخطط للزواج منها، ولكن الأمر انتهى بإعدام سيمور بتهمة الخيانة، فلم تكن خططه بالنسبة إلى إليزابيث التهمة الوحيدة التي وجهت إليه. فكر نيد أن الإيرل سويذن المتهور ربما خطط لملاقة نفس المصير.

وفجأة تغيرت نبرة الأصوات في الغرفة، وأصبح صوت إليزابيث أمراً. تغير صوت سويذن الذي واجه برودتها بصوتٍ ودود جداً ويكاد يكون داعراً.

إن حدث أمر غير مقبول فإنَّ إليزابيث ستصرخ طالبة المساعدة، ولكن إليزابيث لا تعترف بحاجتها إلى المساعدة، وربما يقوم سويذن بإسكاتها أيضاً.

أتت نيل تحمل صينية عليها إبريق من النيذ وكأسان وصحن من الكعك. رفع نيد يده ليمنعها من دخول الغرفة ودمدم: «لم يحن الوقت بعد».

وبعد وهلة صدرت ضجّة عن إليزابيث أشبه بالصرخة، وتبعها صوت تحطم ورنين، وتكهن نيد أن صحن التفاح قد وقع على الأرض. تردد في الدخول، وانتظر سماع صراخ إليزابيث، ولكن صمتاً عمّ الغرفة. لم يعلم نيد ما الذي يتوجب عليه فعله، ووجد الصمت نذير شؤم أكثر من أي شيء آخر. لم يعد نيد قادراً على تحمل التوتر. فتح الباب بينما أخذ الصينية من يد نيل ودخل إلى الغرفة.

في أقصى الغرفة كان الإيرل سويذن يحضن إليزابيث في عناقٍ محموم ويقبلها. وها هي أسوأ مخاوف نيد قد تحققت.

أدارت إليزابيث رأسها من جهة إلى أخرى في محاولة للإفلات من فمه، ورأى نيد قبضتها الصغيرة تين تضربان بعجز ظهر سويذن العريض. من الواضح أنّها كانت عاجزة، وفكر نيد أنّ هذه طريقة سويذن في التودد؛ فقد كان يعتقد أنّ المرأة قد ترضخ لقوة شغفه، وتستسلم لعناقه، وتقع في حبه بسبب رجولته العنيفة.

لا يمكن كسب إليزابيث بهذه الطريقة حتى لو كان سويذن آخر رجلٍ على الأرض.

وقال نيد بصوتٍ عالٍ: «أحضرت بعض المرطبات من أجلك أيها الإيرل». كان يرتعش من الخوف، ولكنه تمكن من الحفاظ على صوته مرحاً. «قد ترغب بكأس من النبيذ الإسباني؟» ووضع الصينية على الطاولة بجانب النافذة.

التفت سويدن إلى نيد إلا أنه حافظ على قبضة قوية بيده اليسرى المشوهة على معصم إليزابيث النحيل وقال: «أخرج من هنا أيها الأبله الصغير». صُدم نيد من إصراره. كيف يُمكن لسويدن أن يتابع ما يقوم به حتى بعد ضبطه بالجرم المشهود؟ حتى الإيرل يُمكن أن يعدم بتهمة الاغتصاب خاصّة إن كان هناك ثلاثة شهود. وها هما توم ونيل يقفان عند الباب ويشاهدان رغم رعبهما من دخول الغرفة.

ولكن سويدن كان شخصاً عنيداً.

أدرك نيد أنّه لا يستطيع المغادرة الآن على الإطلاق.

بذل جهداً في التحكم بيديه بما يكفي ليسكب النبيذ في الكأس ويقول: «وأرسل لنا المطبخ بعض الكعك. لا بد أنك جائع بعد رحلتك».

«دع ذراعي يا سويدن»، قالت إليزابيث.

حاولت إليزابيث سحب نفسها إلا أن سويدن أمسكها بيده المشوهة، التي ينقصها إصبعان ونصف، ولم تتمكن من تحرير نفسها.

وضع سويدن يده على الخنجر المثبت على حزامه وقال: «غادر الغرفة فوراً أيها الشاب ويلارد أو سأنحر عنقك».

علم نيد أن سويدن لن يتردد في تنفيذ تهديده. فخلال نوبات غضبه في نيوكاسل كان خدمه يتعرضون إلى جروح وإصابات في حوادث عديدة تم حلّها في النهاية بالتهديد والتعويض. وإن حاول نيد أن يدافع عن نفسه فقد يُسَنق بتهمة جرح إيرل.

لم يكن قادراً على ترك إليزابيث الآن، ولكن إشارة سويدن إلى الخنجر أعطته فكرة.

«نشب عراكٌ في الإسطبلات»، ارتجل نيد. «تجادل اثنان من مرافقيك، وقد تمكن ساسة الخيل من تفريقهما، ولكن أحدهما أصيب بجرح سكين خطير».

«كاذبٌ لعين»، قال سويدن ولكنه بدا غير واثق من أن نيد يكذب، وكبح هذا الشك بعضاً من اندفاعه.

وأخيراً دخلت نيل وتوم الواقفان بتردد خلف نيد إلى الغرفة. ركعت نيل وبدأت تجمع قطع صحن التفاح المكسور، وقال توم الذي فهم ما الذي يرمي إليه نيد في كذبه: «رجلك يتزف بشدة أيها الإيرل سويدن».

بدأ الحسّ السليم يطغى على سويدن الذي أخذ يدرك أنه لا يستطيع طعن ثلاثة من خدم إليزابيث من دون الوقوع في متاعب، وتداعت خطته في إغواء إليزابيث. ورغم أنه بدا غاضباً جداً فإنه أفلت إليزابيث التي ابتعدت عنه بسرعة وهي تفرك معصمها.

خرج سويدن من الغرفة وهو يزمجر في يأس. كاد نيد ينهار من شدة الراحة، وبدأت نيل تبكي، وأخذ توم باري رشفة عاجلة من إبريق النيذ.

«سيدتي يجب أن تذهبي إلى غرفتك الخاصة مع نيل وتوصدي الباب خلفك»، قال نيد. «سنختفي أنا وتوم أيضاً».

«أوافقك الرأي»، قالت إليزابيث ولكنها لم تغادر على الفور بل اقتربت من نيد وقالت له في هدوء: «لم يقع شجار في الإسطبلات، صحيح؟».

«لا، ولكنه كان الحل الوحيد الذي خطر لي في وقتها».

ابتسمت وسألته: «ما عمرك يا نيد».

«تسعة عشر عاماً».

«وخاطرت بحياتك من أجلي!» وقفت إليزابيث على رؤوس أصابعها وقبلته على شفتيه بسرعة ولكن برقة وقالت له: «شكراً لك». ثم غادرت الغرفة.

يستحم الناس مرتين سنوياً، في الربيع والخريف، ولكن، ولأن الأميرات كُنَّ انيقات، كانت إليزابيث تستحم مراتٍ أكثر. كان حمامها حدثاً كبيراً حيث تحمل الخادמות أحواض غسيل كبيرة من الماء الحار من على موقد المطبخ مباشرة ويهرعن بها على السلالم قبل أن يبرد.

استحمت إليزابيث في اليوم التالي لزيارة سويدن وكأنها ترغب بغسل قرفها منه. لم تتحدث عن سويدن بعد قبلتها لنيد الذي اعتقد أنه فاز بثقتها.

علم نيد أنه أصبح عدو الإيرل القوي، ولكنه كان يرجو ألا تدوم هذه العداوة طويلاً. إن سويدن شخصٌ سريع الغضب وانتقامي إلا أنه يفتقر إلى التركيز، كما يعتقد نيد، وبمساعدة القليل من الحظ سيظل حاقداً على نيد إلى أن يأتي أحد آخر أفضل منه يستفز حقه.

وصل السير ويليام سيسيل بعد فترة قصيرة على مغادرة سويدن، وفي صباح اليوم التالي جلس مع نيد لمتابعة أمور العمل. كان مكتب سيسيل يقع في جناح إليزابيث الخاص. أرسل سيسيل نيد إلى مكتب توم ليحضر له سجل نفقات بيتٍ آخر من بيوت إليزابيث، وفيما كان نيد عائداً من مكتب توم يحمل السجل الثقيل ويعبر رواق جناح إليزابيث رأى الماء الذي سكبته الخادومات على أرضية الرواق. وبينما كان يتابع طريقه رأى الباب مفتوحاً ومن دون تفكير نظر إلى الداخل.

كانت إليزابيث قد خرجت لتوها من حوض الاستحمام الذي كان محاطاً بستارة، ولكنها عبرت الغرفة لتأخذ ملاءة من الكتان الأبيض لتجفف نفسها. كان يجب أن يكون هناك خادومات بانتظارها قرب الحوض يحملن منشفة والباب مغلق، ولكن أحدهم كان بطيئاً في عمله وإليزابيث لا تنتظر الخدم الكسالى. لم يرَ نيد امرأة عارية قبل ذلك فليس لديه أخوات، ولم يغامر مع أي فتاة أو يتردد على بيوت البغاء.

تجمد في مكانه فيما تابع التحديق إلى الداخل. كان بخار ماء الحمام يتصاعد خفيفاً، والماء يتقطر من كتفيها الجميلتين على ثدييها الصغيرين حتى وركيها المكورين وفخذيها القويين بسبب ركوب الأحصنة. كانت بشرتها بيضاء كريمية وشعر عانتها بلونٍ أحمر ذهبي مذهل. علم نيد أن عليه إشاحة نظره بعيداً على الفور إلا أنه كان مسحوراً وعجز عن الإتيان بأي حركة.

انتبهت إليه إليزابيث وجفلت ولكن لم يدم هذا سوى للحظات، ثم توجهت نحو الباب وأمسكت بطرفه وابتسمت لتغلق الباب بعدها بكل عنف. هرع نيد على طول الممر وقلبه يخفق بقوة كطبل كبير. ما فعله الآن كفيل بالتسبب بطرده من عمله أو التعرض للتعذيب أو الجلد أو ربما يتعرض لكليهما معاً.

إلا أن إليزابيث ابتسمت له. كانت ابتسامة دافئة وودودة رغم أنها لعوبة بعض الشيء. تخيل نيد أنّ أيّ امرأة عارية لن تبتسم بهذه الطريقة سوى لزوجها أو حبيبها. ابتسمت وكأنها تقول له إنّ هذه النظرة الخاطفة إلى جمال محرم عطية وقد أسعدها تقديمها له.

لم يخبر نيد أحداً عما حدث.

في تلك الليلة انتظر نيد موجة غضب عارمة ولكن لم يحدث شيء. لم تذكر إليزابيث الحادثة أمامه أو أمام أي أحد آخر، وشيئاً فشيئاً بات نيد واثقاً من أنّه لن يلقي عقاباً على ما فعله، بل بدأ يعتقد أنّ الأمر برمته لم يحدث أصلاً، وكأنه مجرد حلم راوده، إلا أنّه كان واثقاً من أنّه سيتذكر هذه الرؤية لبقية حياته.

قبل بارت مارجوري لأول مرة في المنزل الجديد في برايبوري غيت. كان السير ريجنالد والليدي جاين ورولو يأخذون الإيرل سويذن في جولة داخل البيت الجديد ويعرضونه عليه بكل فخر. رافقتهم مارجوري وبارت الذي عاد من مرفأ كومب بعد أن تراجع خطر الغزو الفرنسي. علمت مارجوري أنّ والدها باع ما تبقى من الدير إلى الكاتدرائية تماماً كما وعد الأسقف يوليوس، وأن السعر الذي تقاضاه زهيد جداً إلا أنّه كان كافياً لإنهاء أعمال البناء في البيت الجديد.

ارتفع المنزل بشكل مهيب ومثير للإعجاب في ساحة السوق، وقد بُني من نفس الحجارة الكلسية الفاتحة اللون التي بُنيت منها الكاتدرائية، وبصفوف من النوافذ الكبيرة ومجموعة من المداخل الطويلة. في الداخل، كان هناك سلالم في كل مكان والكثير من المدافع، وعقب الجو برائحة الطلاء الجديد، وتصاعد الدخان من بعض المداخل. رغم أنّ بعض الأبواب لم تكن جاهزة بعد إلا أنّ البيت كان قابلاً للسكن، وقد بدأ الخدم بالفعل ينقلون الأثاث من البيت القديم في الشارع الأساسي.

لم ترغب مارجوري بالعيش في منزل برايبوري غيت لأنه سيفوح دوماً برائحة الدم والخداع. فمن أجل أن تنتهي أعمال بناء هذا المنزل أحرق فيلبرت كوبلي حتى الموت، وقُضي على أليس ويلارد. بالطبع ارتكب فيلبرت وأليس خطايا وكان يجب معاقبتهما، ولكن الحسّ الأخلاقي العالي

لمارجوري لم يسمح لها بإقناع نفسها بأن الأحكام القاسية التي وقعت عليهما كانت نتيجة دوافع نقية. فها هو الأسقف يوليوس قد استعاد الدير لمصلحة الكاتدرائية، وكسب والد مارجوري مالاً كثيراً لم يكن من حقه.

لم تكن أي فتاة عادية غيرها لتفكر بمثل هذه الأفكار، إلا أنها لم تتمكن من كبح نفسها، وهذا جعلها غاضبة. إن التصرفات السيئة للأساقفة وزعماء الكاثوليكين هي السبب في ازدياد شعبية البروتستانتية، فكيف لهم ألا يروا هذا؟ ولكن لم يكن بمقدورها فعل شيء سوى الغضب.

وفيما كانوا يدخلون إلى البهو الطويل تلكأ بارت وأمسك مارجوري من مرفقها وسحبها إلى الورا، وعندما غاب البقية عن الأنظار قبلها.

كان بارت فتىً طويلاً ووسيماً وحسن الهندام، وعرفت مارجوري أنها يجب أن تحبه لأن والديها، اللذين منحهما الرب السلطة عليها، قد اختاراه ليكون زوجها، ولهذا رضخت لقبته وفتحت فمها، وسمحت له باستكشاف جسدها وتحسس ثدييها بل وحتى بإقحام يده بين ساقها. كان الأمر صعباً فقد تذكرت قبله نيد في هذا المنزل الذي لم يكن مكتمل البناء وقتئذ. حاولت استعادة المشاعر التي انتابتها عندما كانت برفقة نيد، ولكنها لم تنجح ولم تساعدها المحاولة إلا في جعل المحنة أقل وطأة.

أفلتت من عناقه، وانتبهت إلى أن سويذن كان يراقبهما.

«كنا نتساءل أين ذهبتما أنتما الاثنين»، قال مبتسماً ابتساماً تواطؤ وغمز بطريقة داعرة. رأت مارجوري في وقوفه ومراقبته لهما أمراً مخيفاً.

جلسوا في الغرفة التي صُممت لتكون غرفة جلوس خاصة لريجنالد، وتحدثوا عن حفل الزفاف الذي سيُقام بعد شهر. سيتزوج بارت ومارجوري في كاتدرائية كينغزبريدج، وستقام وليمة هنا في المنزل الجديد. طلبت مارجوري ثوب زفاف حريري بلون أزرق فاتح، وأصرت على تفصيل غطاء رأس وفق تصميم تريده. أراد الإيرل سويذن أن يعرف كامل تفاصيل ثوبها وكأنه من سيتزوجها. اضطر والداها أيضاً لشراء ثياب جديدة. هناك مئات القرارات التي عليهم أخذها، فهناك عروض ترفيهية وطعام وشراب للضيوف، وسيقدم السير ريجنالد الجعة المجانية للجميع بمن فيهم الواقفون عند البوابة.

وفيما كانوا يناقشون المسرحية المناسبة التي سيختتمون بها الاحتفال دخل رئيس سائسي الخيل بيرسي ومعه شاب في ثيابٍ معفرة بالتراب من السفر.

«هذا رسول من لندن يا سير ريجنالد»، قال بيرسي. «وقد أكد لي أنك سترغب بسماع ما يحمل من أخبار دون تأخير».

نظر السير ريجنالد إلى الرسول. «ما الأخبار؟».

«لدي رسالة من ديفي ميلر يا سيدي».

كان ميلر وكيل أعمال ريجنالد في لندن. وقد حمل الرسول الرسالة معه في حقيبة جلدية رقيقة.

«أخبرني ما جاء في الرسالة يا رجل»، قال ريجنالد بنفاد صبر.

«الملكة مريضة».

«ما خطبها؟».

«يقول الأطباء إن ورماً خبيثاً على أعضائها الأنثوية يسبب انتفاخ بطنها».

«آه، حالات الحمل الكاذب..». قال رولو.

«إنّ الحالة سيئة جداً وتسبب لها الإغماء أحياناً».

«يا للملكة المسكينة»، قالت مارجوري رغم أنها تملك مشاعر مختلطة

نحو ماري تودر. رأت مارجوري في الملكة امرأة قوية الإرادة وتقية وتستحق الاحترام إلا أن إحراقها للبروتستانتين أمرٌ خاطئ. وتساءلت في نفسها عن سبب عدم تصرف الناس بورع ورحمة كال المسيح.

«إلى متى ستعيش؟» سأل رولو بقلق.

«أخبرونا أنها قد تعيش لبضعة أشهر فقط، ولكنها لن تتعافى».

رأت مارجوري الشحوب على وجه رولو، وبعد قليل فهمت بالسبب.

«هذا أسوأ خبر على الإطلاق»، قال رولو. «ليس لماري تودر أطفال،

وقد أصبحت ماري ستيوارت وريثة أقل جاذبية بعد زواجها من ذلك الفتى الفرنسي البائس. وهذا يعني أن إليزابيث تودر، التي فشلت كل محاولات السيطرة عليها، هي المرشحة الرئيسية».

كان رولو مصيباً في تحليله. لم تفهم مارجوري الأمر بالسرعة التي

فهمها، ولكن عندما قال ما قاله فهمت الأمر هي ووالدها والإيرل. إن إنكلترا

الآن على حافة العودة إلى مستنقع الهرطقة. ارتعدت مارجوري هلعاً عندما فكرت بهذا.

«يجب ألا تصبح إليزابيث ملكة! سيكون الأمر كارثة»، قال سويدن. نظرت مارجوري إلى بارت الذي بدا ضجرًا. لم يكن زوجها المستقبلي يحب الدخول في المسائل السياسية، ويفضل الحديث عن الأحصنة والكلاب. شعرت بالانزعاج منه فالموضوع يخص مستقبلهما.

«ماري ستيوارت متزوجة من رجل فرنسي، والشعب الإنكليزي لا يريد ملكاً أجنبياً آخر»، قال ريجنالد.

«لا رأي للشعب الإنكليزي في هذا الأمر»، قال سويدن مزمجرًا. «أخبروهم منذ الآن أن ملكتهم القادمة ستكون ماري ستيوارت. وعندما يحين الوقت سيعتادون على الفكرة».

رأت مارجوري أن كلامه نابع من رغبة أكثر مما هو نابع من واقع، وبدا أن والدها متفق معها عندما أبدى ملاحظته التالية: «يمكننا أن نخبرهم بأي شيء ولكن هل سيصدقوننا؟».

أجاب رولو على سؤاله ولكن بلهجة مشككة: «قد يصدقوننا». أدركت ماري أن رولو أجاب بتعجل إلا أن ما قاله منطقي، «وبخاصة إن دعم الملك فيلبي هذا الإعلان».

«ربما»، قال السير ريجنالد. «ولكن علينا أولاً الحصول على موافقة الملك فيلبي».

مكتبة

t.me/soramnqraa

بدأت ماري ترى بارقة أمل في الأفق.

«إذاً، سنذهب ونقابل الملك فيلبي»، قال رولو.

«أين هو الآن؟».

«في بروكسل. يقود جيشه ضد الفرنسيين إلا أن الحرب في نهايتها».

«ربما علينا التصرف بسرعة ما دامت الملكة مريضة جداً».

«أجل. يمكننا أن ننطلق من مرفأ كومب إلى أنتويرب. إن سفن دان كوبلي تتوجه إلى هناك كل أسبوع. لا تبعد أنتويرب عن بروكسل سوى مسيرة يوم واحد على الجياد ولذلك ستمكن من العودة قبل الزفاف».

رأت مارجوري أنّ اضطرابهم للاعتماد على البروتستانت المتشددين كويلي لنقلهم في هذه المهمة أمر مثير للسخرية.

«هل سيستقبلنا الملك فيليبي؟» قال رولو.

«سيستقبلني. إنّ إنكلترا إحدى ممالكه وأنا من أهمّ النبلاء فيها. لقد زارني في نيو كاسل بعد زواجه من ماري تودر عندما كان في طريقه من وينستر إلى لندن»، أجاب سويذن.

نظر ريجنالد ورولو وسويذن بعضهم إلى بعض.

«حسناً»، قال ريجنالد. «سنذهب إلى بروكسل».

انتاب مارجوري الآن شعور أفضل فهم على الأقل سيقومون بشيء ما حيال الأمر.

وقف رولو وقال: «سأذهب وأسأل دان عن موعد مغادرة السفينة. لا يجب أن نضيع الوقت».

لم يرغب نيد بالعودة إلى كينغزبريدج بسبب حفل زفاف مارجوري ولكنه كان مضطراً للقيام بهذا؛ فالزفاف سيكون التغطية المناسبة لمهمته السرية التي جاء من أجلها.

في شهر تشرين الأول/أكتوبر عاد نيد إلى كينغزبريدج، واتخذ الطريق نفسه الذي سار عليه في رحلته السابقة في تموز/يوليو، ولكنه سافر هذه المرة على ظهر جواد فقد كانت الملكة تحتضر والتوتر على أشده.

بدت له والدته كأنها قد انكشفت، ولكن ليس جسدياً لأنها كانت سميئة بل معنوياً. لم يصدقها نيد عندما قالت له في شهر حزيران/يونيو الماضي: «سأبلغ الخمسين ولم يعد لدي القدرة على القيام بشيء». وها هي قد مرّت ثلاثة أشهر وما زالت يائسة وكسولة. كان نيد واثقاً من أنّ أليس لن تنجح في إنعاش تجارة العائلة، وهذا جعل الغضب في داخله يستعر بقوة أكبر.

ولكن الأمور ستتغير عما قريب، فهذا هو قد أصبح جزءاً من القوة التي ستكسر شوكة رجال من أمثال الأسقف يوليوس والسير ريجنالد. كان سعيداً لأنّه جزء من حاشية إليزابيث. أحبه سيسيل وإليزابيث أكثر بعد وقوفه في

وجه سويذن، وشعر بدفق ترقب وتوق للوقت الذي سيتمكنون فيه من تغيير العالم، إلا أن عليهم أولاً إيصال إليزابيث إلى عرش إنكلترا.

وقف نيد بجانب أمه في ساحة السوق بانتظار ظهور العروس. عصفت ريحٌ شمالية عابرة في الساحة المفتوحة. وجرياً على العادة، سيتبادل العروسان النذور أمام رواق الكنيسة وبعدها سيدخلان من أجل قداس الزفاف. حياً سكان كينغزبريدج نيد بحرارة فمعظم الناس يشعرون أن عائلته لاقت معاملة سيئة جداً.

وقف سويذن وبارت، الذي كان في سترة صفراء، أمام الحشد. لم يكن هناك أيّ علامة على وصول العروس، وتساءل نيد إن كانت ستبدو سعيدة أم حزينة، وهل ستبدو مفضرة القلب لأنها لن تتزوج، أم تجاوزت حبها له وبدأت تستمتع بدورها الجديد مع الفيكونت بارت. ولم يعرف نيد أيّاً من هذه الاحتمالات سيكون الأقسى عليه.

ولكن نيد لم يأت من أجل مارجوري، ولهذا أخذ يعاين الحشد بحثاً عن البروتستانتين ثم رأى دان كوبلي وانطلق في مهمته.

تظاهر نيد أنه يعبر الساحة بشكل عرضي ليتحدث إلى دان الذي وقف عند الزاوية الشمالية الغربية من الكاتدرائية. بدا دان مختلفاً، رغم أنه لم يمر سوى ثلاثة شهور على إحراق والده حياً، إلا أنه كان قد خسر بعض الوزن، وبدا وجهه أكثر قساوةً وضموراً. سرّ نيد من هذا التغيير فقد كانت مهمته تجنيد دان ليصبح قائداً عسكرياً.

ولكن لن يكون الأمر سهلاً.

بعد تبادل التحيات أخذ نيد دان وراء دعامة كبيرة ثم تحدث بصوت خفيض: «إنّ الملكة تحتضر».

«سمعت هذا»، قال دان بحذر.

انتاب نيد اليأس عندما رأى أنّ دان لا يُبدي ارتياباً نحوه إلا أنه كان يتفهم موقفه. لقد تحولت عائلة ويلارد من الكاثوليكية إلى البروتستانتية وعادت إليها بسهولة شديدة لم يستسغها دان، وهو الآن لا يعرف مع من تقف عائلة ويلارد.

«إن وراثة العرش محصورة الآن بين إليزابيث تودر وماري ستوارت.

ماري الآن في الخامسة عشرة و متزوجة من رجل مريض وأصغر منها عمراً. ستكون ملكة ضعيفة، وسيسيطر عليها أخوالها الفرنسيون من عائلة غيز، وهم متشددون كاثوليكيون ويجب أن تخاف من ذلك»، قال نيد.

«ولكن إليزابيث تحضر القداس».

«لا أحد يعرف فقد تستمر بفعل هذا حتى بعد أن تصبح ملكة».

كان هذا الكلام دقيقاً. يعرف نيد وجميع المقربين من إليزابيث أنها ستعلن على الملأ أنها بروتستانتية حالما تتاح لها الفرصة لأنها الطريقة الوحيدة لكسر قبضة الكنيسة القوية، ولكنهم كانوا يتظاهرون بعكس هذا حتى يجردوا المعارضة من أسلحتها ضدهم. ووسط عالم الملوك ورجالات البلاط تعلم نيد أن ما من أحد يقول الحقيقة أبداً.

«في هذه الحالة لم اهتم إن كانت الملكة القادمة إليزابيث تودر أو ماري ستوارت؟» سأل دان.

«إن أصبحت إليزابيث ملكة لن تحرق البروتستانتين بسبب معتقداتهم». كان هذا التفصيل في كلام نيد صحيحاً.

لمعت عينا دان غضباً عندما تذكر موت والده المريخ، ولكنه تحكم بمشاعره وقال: «من السهل قول هذا».

«كُن واقعياً. أنت تريد أن يتوقف ذبح البروتستانتين. إن إليزابيث ليست أفضل خيار بل الخيار الوحيد».

تكهن نيد أن دان لا يريد تصديق هذا إلا أنه رأى في عيني دان إقراراً بصدق ما قاله للتو، وشعر بالرضا لأنه أحرز تقدماً باتجاه هدفه.

«لم تخبرني بهذا؟» سأل دان على مضض.

أجاب نيد عن سؤال دان بسؤال: «كم يبلغ عدد البروتستانتين هنا في كينغزبريدج حالياً؟».

تشبث دان بعناده ولم يقل شيئاً.

«يجب أن تثق بي»، قال نيد بعجل. «بالله عليك».

«ألفان على الأقل»، قال دان أخيراً.

«ماذا؟» تفاجأ نيد إلا أنه كان مسروراً بسماع هذا. «كنت أتخيل أن عددهم لا يتجاوز بضع مئات».

«هناك أكثر من مجموعة، والعدد في تزايد منذ حزيران/ يونيو».
«وهل ذلك بسبب ما حدث لوالدك؟».

بدا دان وكأنه يشعر بالمرارة وقال: «بل بسبب ما حدث لوالدتك فالجميع بات يخاف من القيام بأي صفقة لعدم وجود صفقة آمنة حالياً. قد لا يكثر مع معظم الناس لأمر الشهيد البروتستاني إلا أنهم يكثرثون لمسألة العيش مع كنيسة تسرق أموالهم».

أوما نيد برأسه موافقاً، ورأى أنّ دان كان محقاً في كلامه؛ فالمهتمون بالجدالات العقائدية قلائل مقارنة بالمهتمين بجني لقمة عيشهم، والكنيسة التي تقف في طريقهم لتحقيق هذا لا بد من أن تقع في متاعب.

«أتيت من هاتفيلد إلى هنا بسؤال واحد يا دان، وقد أقع في المتاعب لمجرد طرحه عليك، ولهذا من فضلك فكر قبل أن تجيب»، قال نيد.
بدا دان مرتعداً وقال: «لا تورطني في عمل فيه خيانة».

ولكن هذا بالضبط ما كان نيد يوشك على القيام به.

«ما هو عدد الرجال، من بين الألفي بروتستاني هنا، القادرين جسدياً ومن يمكن حشدهم ليحاربوا إلى جانب إليزابيث في مواجهة مؤيدي ماري ستوارت عندما تموت الملكة الحالية؟».

أشاح دان بنظره بعيداً وأجاب: «ليس لدي أدنى فكرة».

علم نيد أنّ دان يراوغ، فاقرب منه وشدد على كلامه قائلاً: «ماذا لو قامت مجموعة من النبلاء الكاثوليكيين، ربما بقيادة بارت سويذن، بحشد جيش إلى هاتفيلد بنية أخذ إليزابيث سجيناً إلى أن تصل ماري ستوارت وأخوالها الأشداء من فرنسا؟ هل ستقف جانباً وتسمح بحدوث هذا؟».

«أربعمئة رجل من كينغزبريدج لن يُحدثوا أي فرق».

إذاً، يبلغ العدد أربعمئة رجل. كانت هذه المعلومة التي أراها نيد، وسرّ لسماح هذا فقد كان العدد أكبر مما توقعه وقال: «هل تعتقد أنّك البروتستاني الشجاع الوحيد في إنكلترا؟» ثم أخفض صوته وتابع: «في كل مدينة على أرض هذه البلاد هناك مجموعة كمجموعتك بانتظار إشارة من إليزابيث للانطلاق إلى هاتفيلد والدفاع عنها».

ولأول مرة أضاء وجه دان أملاً، وإن كان هذا الأمل أملاً بالانتقام.

«هل هذا صحيح؟» سأل دان.

كان ما قاله نيد مبالغاً، ولكنه ليس غير صحيح بالمرة.

«إن كنت تسعى إلى حرية التعبد بالطريقة التي تؤمن بقوة أنها الحقّة، ومن دون خوف أبداً من أن تلقى عقوبة الحرق حياً، فيجب أن تكون جاهزاً للقتال، وأعني هنا القتال بالسيوف».

أوماً دان برأسه مفكراً بما قاله نيد.

«وهناك أمرٌ آخر عليك القيام به»، تابع نيد. «عليك بمراقبة ما يخطط له الإيرل سويذن والسير ريجنالد. أرسل رسولاً سريعاً إلي في هاتفيلد حالما تراهم يفعلون أمراً مريباً، كتكديس الأسلحة مثلاً. إن وصول المعلومات باكراً مفتاح النجاح».

لم يقل دان شيئاً. حدّق نيد نحوه ينتظر جوابه، ويأمل أن يكون بالموافقة. وأخيراً قال دان: «سأفكر بما قلته». ثم ابتعد.

شعر نيد باليأس إلا أنه واثق من أنّ دان يتوق للأخذ بثأره لمقتل والده، ويرغب بقيادة ميليشيا من كينغزبريدج للقتال من أجل إليزابيث، وقد أكد للسير ويليام سيسيل أن دان سيقوم بالأمر. ربما بالغ في ثقته بنفسه.

شقّ نيد طريقه مُحبطاً عبر الساحة متوجهاً إلى المكان الذي وقفت فيه والدته. وفي منتصف الطريق التقى برولو الذي قال له: «ما أخبار الملكة؟». بالطبع يشغل الموضوع بالجميع.

«إنها مريضة جداً»، قال نيد.

«هناك إشاعات تقول إن إليزابيث تنوي السماح بالبروتستانتية في حال أصبحت ملكة». قالها رولو هذا كأنه يوجه اتهاماً.

«إشاعات، حقاً؟» لم يكن لدى نيد النية في الانخراط في ذلك النوع من النقاشات، وتحرك ليتجاوز رولو، ولكن رولو وقف في طريقه وتابع كلامه قائلاً: «بل إنها تريد إعادة الهرطقة إلى إنكلترا كما فعل والدها». ثم رفع رولو ذقنه عالياً وقال: «هل هذا صحيح؟».

«من أخبرك بهذا؟».

«فكر بالأمر»، قال رولو الذي يستطيع تجاهل أيّ سؤال بالسهولة عينها

التي يتجاهل فيها نيد الأسئلة. «إن حاولت هذا فمن سيعارضها؟ روما بالطبع».

«حقاً»، قال نيد. «يتعامل البابا مع البروتستانتية بسياسة الإبادة». وضع رولو يديه على وركيه، وانحنى إلى الأمام مُهدداً. كانت هذه الحركة مألوفة لنيد منذ أيام المدرسة حين كان رولو يلعب دور المتمرم. «وحتماً ستواجه معارضة ملك إسبانيا الذي يُعد أغنى وأقوى رجل في العالم». «ربما».

لم تكن مكانة إسبانيا بالمكانة العادية، وحتماً سيحاول الملك فيليبي القضاء على إليزابيث إن فعلت هذا. «وربما ملك فرنسا، ثاني أقوى ملك». «حقاً؟».

وهذا خطر حقيقي آخر أيضاً. «هذا إن لم نذكر ملك البرتغال وملكة إسكتلندا». كان نيد يتظاهر باللامبالاة حيال الخوض في هذا الجدل، ولكن للأسف كان رولو على حق. ستقلب معظم أوروبا تقريباً على إليزابيث إن فعلت ما يعرف نيد تماماً أنها تنوي فعله. كان يعلم كل هذا، ولكن الخلاصة التي قدمها رولو أثارت كل هذه النقاط بقوة.

تابع رولو كلامه: «من سيدعمها؟ ملك السويد ومملكة نافار؟». كانت نافار مملكة صغيرة تقع بين إسبانيا وفرنسا. «أنت ترسم صورة سوداوية».

اقترب رولو منه إلى درجة غير مريحة. كان طويلاً ولوح مهدداً نحو نيد: «ستكون غبية حقاً إن تنازعت مع كل هؤلاء الرجال الأقوياء». «ابتعد يا رولو»، قال نيد. «إن لم تتبعد فسأعدك أنني سأرفعك وأرميك أرضاً».

بدا رولو مشككاً. وضع نيد يده على كتف رولو بطريقة قد تبدو ودودة وقال: «لن أعيد كلامي».

دفع رولو يد نيد بعيداً عن كتفه ثم ابتعد.

«هكذا تتعامل إليزابيث مع المتتمرين»، قال نيد.

سُمع صوت أبواق وظهرت العروس.

حبس نيد أنفاسه. بدت مارجوري رائعة في ثوب سماوي عند الصدر وأزرق غامق من منتصفه وحتى أسفله. كان للستان ياقة عالية جداً ارتفعت وراء عنقها كمروحة مؤطرة شعرها المُجمعد، ومن غطاء رأسها تدلت ريشة بزواوية مائلة.

سمع نيد مجموعة من الفتيات بالقرب منه يهتمن في استحسان. نظر إلى وجوههن ولم ير فيها سوى الحسد، وفكر بأن مارجوري حصلت على الرجل الذي كُنَّ يردنه. لا بدَّ أن بارت أكثر العازبين المرغوبين في المنطقة. كُنَّ يعتقدن أن مارجوري حصلت على جائزة، كم كُنَّ مخططات.

سار السير ريجنالد بجانبها، وبدا فخوراً جداً في سترته الحريرية الحمراء المذهلة والمطرزة بالخيوط الذهبية. فكر نيد بغضب أن السير ريجنالد دفع ثمن كل هذا من مال والدته.

درس نيد حركات مارجوري وهي تتقدم عبر الساحة. بدت ضئيلة البنية وعاجزة عندما اقتربت من الواجهة الغربية للكاتدرائية ذات الحجارة الهائلة. ما الذي كانت تفكر فيه؟ ارتسم على شفيتها شبح ابتسامة وهي توزع نظراتها على كلا الجانبين، وتومئ برأسها للأصدقاء. بدت واثقة وفخورة، إلا أن نيد يعرفها جيداً. لم يكن الهدوء من طباعها؛ فمارجوري الحقيقية لعبت ومشاكسة ومرحة ومسلية إلا أن الضحكة غادرتها اليوم، وتصنعت دوراً كما فعل الفتى الذي لعب دور مريم المجدلية في المسرحية.

مرّت قريباً من مكان وقوفه والتقت أعينهما.

لم تكن تعلم أنه سيكون حاضراً وصدمة الأمر. اتسعت عيناها في رعب. أشاحت بنظرها بعيداً على الفور إلا أنها فقدت رباطة جأشها، واضطربت ابتسامتها الثابتة ثم تعثرت.

تقدّم نيد إلى الأمام بطريقة آلية لمساعدتها إلا أنها كانت تبعد عنه خمس ياردات تقريباً. أمسك بها السير ريجنالد الذي كان بجانبها، إلا أن رد فعله أتى متأخراً، ولم تكن ذراعه قوية لإنقاذها، وفقدت توازنها ثم سقطت على ركبتيها. شهق الحشد عالياً، فهذا يعتبر نذير حظ سيئ. إن السقوط في الطريق إلى مراسم الزفاف نذير الشؤم الأسوأ على أي حياة زوجية مقبلة.

بقيت مارجوري راكعة على ركبتيها لبضع ثوانٍ، التقطت أنفاسها وحاولت أن تستعيد هدوءها فيما تحلقت عائلتها حولها. كان نيد من بين العديد من الناس الذين كانوا يحاولون أن ينظروا من فوق الأكتاف للاطمئنان عليها. أمّا من كانوا أبعد فكانوا يسألون بعضهم بعضاً عما يجري.

وقفت مارجوري مجدداً، وبدت ثابتة تماماً على قدميها. استعاد وجهها نفس التعبير السابق المضبوط. نظرت حولها، وابتسمت بأسفٍ وكأنها تعتذر لكونها خرقاء.

وأخيراً تقدمت وتابعت طريقها نحو رواق الكنيسة.

بقي نيد في مكانه، لم يكن يرغب برؤية المراسم عن قرب؛ فالمرأة التي يحبها ستسلم حياتها إلى رجل آخر وللأبد. كانت مارجوري جادة في وعودها، فهي تعتبر الوعد أمراً مقدساً. وعندما تقول إنها موافقة فهي كانت تعني ما تقوله، وعلم نيد أنه فقدتها إلى الأبد.

بعد تبادل النذور تقدم الجميع إلى داخل الكاتدرائية من أجل حضور قداس الزفاف.

أخذ نيد يترنم بالتراتيل في رأسه ونظر إلى الأعمدة المنحوتة والأقواس العالية، إلا أن ذلك الإيقاع السرمدى للأعمدة والانحناءات المكررة فشل اليوم في هدهدة روحه الكسيرة. يعلم نيد أن بارت سيجعل حياة مارجوري تعيسة، ولكن الفكرة التي لم تفارقه قط، والتي لم يتمكن نيد من كبها مهما حاول، هي أنّ بارت، ذلك الأحمق الغبي في سترته الصفراء، سينام الليلة إلى جانب مارجوري ويفعل معها كل شيء تاق نيد لفعله معها.

ثمّ انتهى الأمر وأصبح بارت ومارجوري زوجاً وزوجة.

غادر نيد الكاتدرائية، ولم يعد هناك الآن أي شك أو أمل. سيمضي نيد بقية حياته من دونها.

كان واثقاً من أنّه لن يُحبّ امرأة أخرى، وأنه سيبقى عازباً طوال حياته. كان سعيداً لأنّه حظي بمهنة جديدة تشغله بقوة؛ فعمله مع إليزابيث يمتلكه تماماً. إن لم يستطع أن يقضي حياته مع مارجوري فيسكرس نفسه لإليزابيث. بالطبع كان تسامحها الديني المثالي متطرفاً جداً. يعتقد معظم الناس أنّ فكرة السماح للجميع بالعبادة كما يشاؤون متساهلة بشكلٍ مغثٍ ومجنونة

بالكامل. ولكن نيد يعتقد أن الغالبية مجنونة، وأن من يؤمنون بما تؤمن به إليزابيث هم العقلاء الوحيدون.

ستكون الحياة من دون مارجوري حياةً حزينة لكنها لن تكون عديمة الجدوى.

لقد نال نيد إعجاب إليزابيث من الطريقة التي تعامل فيها مع الإيرل سويذن، ويحتاج الآن لفعل هذا مجدداً من خلال تجنيد دان كوبلي والبروتستانتين في كينغزبريدج جنوداً في جيشها.

توقف في الساحة المكتظة، أخذ يجول بنظره باحثاً عن دان الذي لم يدخل الكاتدرائية لحضور قداس الزفاف. من المفترض أن يكون دان قد فكر بعرض نيد، ولكن كم من الوقت يحتاج ليقرر؟ رآه نيد في المقبرة فتوجه نحوه للانضمام إليه.

لم يكن ليفلبرت كوبلي قبر بالطبع؛ فالمهرطقون لا يمكنهم أن يحظوا بدفن مسيحي. وقف دان عند قبر جديه: آدم ودييرا كوبلي.

«بعد الحرق جمعنا بعض الرماد سراً»، قال دان. كان وجهه رطباً من الدموع. «أحضرناه إلى هنا في تلك الليلة، ودفناه عند الفجر. سنراه مجدداً في يوم القيامة».

لم يكن نيد يحب دان، ولكنه لم يتمكن من كبح شعوره بالأسى عليه وقال له: «آمين. ولكن يوم القيامة بعيد، ولذلك علينا في هذه الأثناء أن نقوم بعمل الربّ هنا على الأرض».

«سأساعدك»، قال دان.

«رجل صالح!» كان نيد سعيداً، فقد أنجز مهمته، وستكون إليزابيث راضية. «كان يجب أن أوافق على عرضك فوراً، ولكنني أصبحت حذراً بعد ما حدث لأبي».

فكر نيد أنّ حجة دان منطقية، ولم يرغب بالإسهاب في الحديث عن الماضي بما أنّ دان قد ألزم نفسه بالوعد الآن. تحدث نيد بنبرة عملية فورية قائلاً: «عليك باختيار عشرة قادة وتكليف كل واحد منهم بقيادة أربعين رجلاً. لن يحملوا سيوفاً ولكن عليهم أن يحملوا خناجر ومطارق جيدة، وقد تكون السلاسل الحديدية سلاحاً مفيداً».

«هل هذه النصيحة التي تقدمها إلى الميليشيات البروتستانتية؟».

«أجل. نحتاج إلى رجالٍ منضبطين. يجب أن تأخذهم إلى حقلٍ في مكانٍ ما وتدريبهم على السير بطريقة عسكرية. قد يبدو الأمر غريباً، ولكن هذا سيجعلهم يعتادون على التحرك بانسجام جيد».

لم يكن نيد يتحدث بناءً على معرفته أو تجربته، بل كان يكرر ما أخبره به سيسيل.

«قد يروننا ونحن نتدرب على المشية العسكرية»، قال دان في تشكيك.

«لن يحدث هذا إن عملت بسريّة».

هزّ دان رأسه وقال: «هناك أمرٌ آخر. أنت ترغب بمعرفة ما يفعله سويدن وعائلة فيتزجيرالد؟».

«أرغب بشدة».

«لقد ذهبوا إلى بروكسل».

صُدم نيد عندما سمع هذا وقال: «ماذا؟ متى؟».

«منذ أربعة أسابيع. أعلم هذا لأنهم سافروا على إحدى سفني. أخذناهم إلى أنتويرب، وسمعنا أنهم استأجروا دليلاً ليأخذهم إلى بروكسل، وعادوا على إحدى سفني أيضاً. كانوا خائفين من أن يضطروا لتأجيل الزفاف ولكنهم وصلوا منذ ثلاثة أيام».

«الملك فيلبي في بروكسل؟».

«هذا ما فهمته».

حاول نيد أن يحلل هذا كما يفعل ويليام سيسيل، وفي عقله تساقطت أحجار الدومينو، الواحد تلو الآخر. تساءل عمّا قد يدفع سويدن وعائلة فيتزجيرالد لمقابلة الملك فيلبي. هل كان من أجل مناقشة مستقبل إنكلترا بعد وفاة ماري تودر؟ ما الذي قالوه لفيلبي؟ هل تحدثوا عن خلافة ماري ستيوارت للعرش بدلاً من إليزابيث؟

لا بدّ أنهم طلبوا من فيلبي دعم ماري.

وإن وافق فيلبي على طلبهم فإن إليزابيث في خطر.

تصاعد قلق نيد جداً عندما رأى رد فعل سيسيل.

«لم أتوقع أن يدعم الملك فيليبي إليزابيث إلا أنني كنت أمل ألا يتدخل في الأمر على الأقل»، قال سيسيل بقلق.

«ولكن لم لا يريد دعم ماري ستيوارت؟».

«يخاف من أن تصبح إنكلترا تحت سيطرة أخوالها الفرنسيين. إن قوة رغبته بعدم ازدياد قوة فرنسا كقوة رغبته بعدم عودتنا عن الكاثوليكية، ولذلك هو حائر بين الرغبتين. لا أريد لأحدهم أن يقنعه بأخذ قرار لمصلحة ماري ستيوارت».

لم يفكر نيد بهذا. من المذهل حقاً كيف أن سيسيل يشير إلى نقاط لم تخطر مطلقاً على بال نيد. كان يتعلم بسرعة، ولكنه شعر بأنه لن يبرع أبداً في فهم تعقيدات الدبلوماسية الدولية.

بقي سيسيل في مزاج مضطرب طوال اليوم وهو يحاول التفكير بشيء يفعله أو يقوله لإحباط محاولة تدخل الملك الإسباني. ثم توجه سيسيل مع نيد لزيارة الكونت فيريا.

كان نيد قد قابل رجل البلاط الإسباني فيريا قبلاً، وحدث هذا في الصيف عندما قدم الأخير إلى هاتفيلد. كانت إليزابيث مسرورة برؤيته، ورأت في زيارته إشارة إلى أن سيده الملك فيليبي لا يعارضها بشدة. وبذلت كل ما لسحرها من قوة للتأثير على فيريا الذي غادر وهو شبه مغرم بها. ولكن ظاهر الأمور ليس كباطنها في العلاقات الدولية. لم يعرف نيد ما الذي يعنيه أن يكون فيريا مغرمًا بإليزابيث. كان دبلوماسياً متملقاً ودمثاً مع الجميع إلا أنه كان قاسياً في الحقيقة.

عثر سيسيل ونيد على فيريا في لندن.

مقارنة بأنتويرب وباريس وإشبيلية كانت مدينة لندن صغيرة، ولكنها كانت القلب النابض للحياة التجارية الإنكليزية النامية. هناك طريق غرب لندن يمتد على طول النهر ويمر بالقصور والبيوت الفخمة ذات الحدائق التي تصل إلى ضفة النهر. وهناك مدينة ويستمنستر المنفصلة عن لندن بمسافة ميلين وتعد مركز الحكومة. وفي قصر وايت هول ويستمنستر يارد

وقصر سانت جيمس عاش النبلاء وأعضاء المجلس ورجال البلاط الذين يجتمعون لمداولة القوانين التي من شأنها تسهيل أعمال التجار.

لدى فيريا شقة في منطقة قصر وايت هول المعروفة بمبانيها المتناسقة. كان سيسيل ونيد محظوظين فقد التقيا به وقد عاد لتوه من بروكسل.

لم يكن سيسيل طليقاً في الإسبانية إلا أن فيريا ولحسن الحظ، يتحدث الإنكليزية بشكل جيد. تظاهر سيسيل أنه كان ماراً في الجوار وأراد إلقاء التحية عليه. وبكل تهذيب تظاهر فيريا بأنه صدّقه ثم تحدثا بأمر عادية لبعض الوقت. تحت ظاهر هذه المجاملات كان الكثير على المحك؛ فالملك فيلبي يعتقد أنّ دعم الكنيسة الكاثوليكية واجبه المقدس، ومن المحتمل حقاً أن يكون سويذن والسير ريجنالد قد تحدثا إلى الملك الإسباني، وأقنعه بمعارضة إليزابيث.

عندما انتهت الشكليات قال سيسيل: «بصراحة كانت إنكلترا وإسبانيا توشكان على هزيمة فرنسا وإسكتلندا».

استغرب نيد هذا التأكيد في كلام سيسيل فلم يكن لإنكلترا دور كبير في الحرب، وإسبانيا وحدها هي التي تريح الحرب الآن، ولم يكن لإسكتلندا أيّ علاقة بالأمر، إلا أن سيسيل كان يُذكر فيريا بأصدقائه الحقيقيين.

«نكاد نحرز النصر في الحرب»، قال فيريا.

«لا بدّ أن الملك فيلبي سعيد».

«وممتن جداً لشعبه الإنكليزي على المساعدة».

أوما سيسيل برأسه إقراراً بهذا وبدأ حديثه الجدي: «بالمناسبة أيها الكونت هل تواصلت مؤخراً مع ماري ستيوارت ملكة إسكتلندا؟».

تفاجأ نيد بالسؤال لأنّ سيسيل لم يطلعه على ما كان يخطط لقوله.

تفاجأ فيريا أيضاً وأجاب: «يا إلهي، لا! لم بحق الرّب تريدني أن أتواصل معها؟».

«أوه، أنا لا أقول إنّه عليك فعل هذا رغم أنني سأفعل لو كنت في مكانك».

«لماذا؟».

«حسناً، قد تصبح ملكة إنكلترا المستقبلية رغم أنّها ما زالت مجرد فتاة

صغيرة».

«ويمكن للمرء قول نفس الشيء عن الأميرة إليزابيث».

امتقع وجه نيد. إن كان فيريا يعتقد أن إليزابيث مجرد فتاة فقد أساء الحكم عليها. ربما لم يكن متوقداً الذهن كما يقول الناس عنه.

تجاهل سيسيل ملاحظة فيريا وقال: «في الحقيقة لقد علمت أنه طلب من الملك فيلبي دعم مطلب ماري الإسكتلندية بالعرش».

توقف سيسيل عن الكلام قليلاً ليعطي فيريا فرصة إنكار هذا إلا أن فيريا لم يقل شيئاً.

استنتج نيد أن ما تكهن به صحيح: إذاً، لقد طلب سويذن وريجنالد من فيلبي دعم ماري ستوارت.

تابع سيسيل: «لو كنت مكانكم لطلبت من ماري ستوارت التزاماً صريحاً. كنت لأطلب منها أن تضمن عدم تغيير موقف إنكلترا تحت حكمها، وألا تضم قواتها إلى فرنسا وإسكتلندا في مواجهة إسبانيا. ففي النهاية وفي هذه المرحلة، إنه التطور الوحيد في الأحداث الذي قد يمنع إسبانيا من كسب هذه الحرب».

كان نيد مذهولاً؛ فمخيلة سيسيل تفتقت عن الفكرة الصحيحة والكفيلة بإثارة رعب فيريا وسيده ملك إسبانيا.

«بالتأكيد أنت لا تعتقد أن هذا قد يحدث؟» قال فيريا.

«أعتقد أنه لا مفر من الأمر»، قال سيسيل. كان نيد واثقاً من أن سيسيل لا يعتقد هذا. «عملياً، ماري ستوارت ملكة إسكتلندا رغم أن والدتها تتصرف كوصية على العرش بالنيابة عنها، وزوج ماري ولي عرش فرنسا. كيف يمكن لها أن تكون غير مخلصه لبلديها؟ حتماً ستؤلب إنكلترا على إسبانيا ما لم تفعل شيئاً الآن لمنع هذا».

أوماً فيريا رأسه مفكراً: «أفترض أنك تملك اقتراحاً».

رفع سيسيل كتفيه: «بالكاد أجرؤ على تقديم نصيحة إلى أكثر الدبلوماسيين تميزاً في أوروبا». يُمكن لسيسيل أن يكون متملقاً إن اقتضت الضرورة. «ولكن إن كان الملك فيلبي يفكر حقاً بمطلب الكاثوليكين الإنكليز بدعم ماري ستوارت كوريثة لعرش بريطانيا، أعتقد أن على جلالته

أن يشترط عليها أولاً تقديم ضمانات أنها، وعندما تصبح ملكة إنكلترا، لن تعلن الحرب على إسبانيا. يمكنه أن يجعل هذا شرط دعمه لها».

«يمكنه أن يقوم بهذا»، قال فيريا بحيادية.

شعر نيد بالحيرة. من المفترض أن يُقنع سيسيل فيريا بعدم دعم الملك فيليبي لماري ستيوارت. ولكن بدلاً من هذا يبدو كأنه يقترح عليه كيف على الملك فيليبي أن يتغلب على عقبتة الوحيدة لدعم ماري ستيوارت. تساءل نيد إن كان قد فوت في مكان رؤية الهدف من هذا.

وقف سيسيل وقال: «يسعدني أنني حظيت بفرصة التحدث معك. أتيت لأتمنى لك رحلة موفقة».

«إنه لمن دواعي سروري أن ألقاك في أي وقت. فلتوصل تحياتي إلى إليزابيث الجميلة».

«سأوصل تحيتك وستُسر بها».

حالما غادرا المنزل سأل نيد: «لا أفهم! لم قدمت له اقتراحاً بأن يطلب من ماري ستيوارت تقديم ضمانات».

ابتسم سيسيل وقال: «أولاً، لن يسمح ملك فرنسا هنري لزوجته ابنة أن تقدم مثل هذا الوعد».

لم يفكر نيد بهذا. كانت ماري ما تزال في الخامسة عشرة، ولا يمكنها أن تقوم بشيء دون موافقة الملك.

تابع سيسيل كلامه: «وثانياً، لن يكون لضمائنها قيمة، لأنها ستنكث بها بعد وصولها إلى العرش. ولن يعود بالإمكان القيام بشيء لإجبارها على الالتزام به».

«وسيرى الملك فيليبي هاتين العقبتين».

«أو لن يراها. ولكن إن فشل في رؤيتهما سيلفت الكونت فيريا انتباهه إليهما».

«لم اقترح ضمانات إذاً؟».

«إنها الطريقة الأسرع لتحذير فيريا وفيلبي من مخاطر دعم ماري ستيوارت. لن يأخذ فيريا باقتراحي إلا أنه الآن يفكر جدياً بطريقة أخرى لحماية إسبانيا، وعاجلاً أم آجلاً سيفكر فيليبي بالأمر أيضاً».

«ما الذي يفكرون بفعله؟».

«لا أعلم، إلا أنني أعلم ما الذي لن يقوموا به. لن يساعدوا الإيرل سويذن والسير ريجنالد، ولن يضعوا كل ثقلهما في حملة لدعم ماري ستوارت، وهذا سيجعل الأمور واعدة أكثر لنا».

اعتزلت الملكة ماري تودر حياتها الدنيوية تدريجياً وبمهابة كسفينة شراعية عظيمة تقترب من مرساها. وفيما غدت أكثر ضعفاً ولازمت السرير طوال اليوم في جناحها بقصر سانت جيمس تلقت إليزابيث في هاتفيلد الكثير من الزوار. حضر ممثلون عن العائلات النبيلة ليخبروها كم هم متضايقون من الاضطهاد الديني الحالي، وأرسل آخرون رسائل يعرضون القيام بأي شيء من أجلها. قضت إليزابيث نصف وقتها وهي تملّي الرسائل على المساعدين، وترسل أكواماً من الرسائل القصيرة تشكر الناس على إخلاصهم، وتؤكد صداقتها لهم. وكانت الرسالة المُضمنة في كل رسائلها: «سأكون ملكة مفعمة بالحيوية، وسأتذكر كل من ساعدني في البداية».

وقعت على نيد وتوم بيرري مسؤولية القيام بالاستعدادات العسكرية. أخذوا منزلاً مجاوراً يدعى بروكيت هيل وحولاه إلى مركز لعملياتهما. ومن هناك وطدا علاقات إليزابيث مع داعميتها في البلديات الإقليمية، وقاما بكل التحضيرات اللازمة للتعامل مع أيّ عصيان كاثوليكي. جمع نيد أعداد الجنود الذين تمكن من حشدهم، وحسب الفترة الزمنية اللازمة لوصول كل مجموعة إلى هاتفيلد، وكافح لحل مشكلة تأمين أسلحة للجميع.

ثبت أن للتدخل الذي قام به سيسيل مع الكونت فيريا تأثيراً، فقد عاد فيريا إلى إنكلترا في الأسبوع الثاني من شهر تشرين الثاني / نوفمبر، والتقى بمجلس شوري الملك الذي يعدّ أقوى مجموعة استشاريين ملكيين، وأخبرهم أنّ الملك فيلبي يدعم إليزابيث كوريثة للعرش. ولأنّ الملكة ماري عاجزة عن القيام بأي شيء في هذه المرحلة يبدو أنّها قبلت بقرار زوجها، ثم انطلق فيريا إلى هاتفيلد.

كان يسير مبتسماً كرجل يحمل أخباراً سارة إلى امرأة أسيرة. كان الإسبان وقتئذٍ أغنى شعب في العالم. وصل فيريا في صدار أحمر

مفتوح بدقة حتى تظهر البطانة الذهبية، وكانت لعباءته السوداء بطانة حمراء مطرزة بخيوط ذهبية. لم يرَ نيد سابقاً شخصاً سعيداً مثل فيريا.

«أحضرت لك هدية يا سيدتي»، قال فيريا.

كان سيسيل وتوم بيرى في الغرفة مع فيريا وإليزابيث.

كانت إليزابيث تحب الهدايا إلا أنها تكره المفاجآت، ولهذا قالت بحذر: «هذا من لطفك».

«هدية من سيدي وسيدك الملك فيلبي»، تابع فيريا كلامه.

عملياً كان فيلبي ما يزال سيد إليزابيث لأن ملكة إنكلترا ماري تودر ما زالت على قيد الحياة وبالتالي فإن زوجها ملك إنكلترا، إلا أن إليزابيث لم تكن سعيدة لتذكيرها بهذا. رأى نيد بوادر هذا السخط على وجهها فقد رفعت ذقنها وعلا شبح تقطية ما فوق حاجبها الرقيق، وتيبس جسدها على كرسي خشب البلوط المحفور بنقوش بالكاد تُرى، ولكن فيريا فوت كل هذه الإشارات.

«يمنحك الملك فيلبي عرش إنكلترا». قال فيريا وخطا إلى الوراء خطوة، ثم انحنى وكأنه يتوقع تصفيقاً أو قبلةً.

بدأت إليزابيث هادئة، وعرف نيد أنها كانت تفكر بجدية. ها قد أحضر فيريا أخباراً جيدة، ولكنه قدّمها بتعالٍ. وتساءل نيد عما ستقوله إليزابيث. بعد مرور دقيقة أضاف فيريا: «لي الشرف بأن أكون أول مهنتي جلالتك». هزت إليزابيث رأسها بطريقة ملكية ولم تقل شيئاً. علم نيد أن هذا الصمت نذير شؤم.

«لقد أبلغت مجلس شورى الملك بقرار الملك فيلبي»، أضاف فيريا. «أختي تحتضر، وأنا سأصبح الملكة»، قالت إليزابيث. «أشعر بفرحٍ مهزوم. إنه الفرح والحزن في كفتين متساويتين».

فكر نيد أنها على الأغلب قد تدربت على قول هذه الكلمات. «رغم مرض الملكة ماري فإنها تمكنت من المصادقة على قرار زوجها»، قال فيريا.

تغير سلوكه بشكلٍ غير ملحوظ تقريباً، وارتاب نيد من أنّ فيريا الآن قد بدأ يتفوه بالأكاذيب.

«لقد عيتك ورِيثها، ولكن بشرط أن تحافظي على إنكلترا كاثوليكية»، تابع فيريا.

شعر نيد بالإحباط مجدداً. ستكون يدا إيزابيث مقيدتين منذ بداية حكمها إن وافقت على هذا، وسيستمر الأسقف يوليوس والسير ريجنالد بفعل ما يريدانه في كينغزبريدج.

حدّق نيد نحو سيسيل الذي لم يبْدُ مرتعباً. ربما اعتقد أيضاً أن فيريا يكذب. كانت ملامح سيسيل تشي بأنّه مستمتع قليلاً بما يحدث وينظر بترقب إلى إيزابيث.

حلّ صمتٌ طويل، وأخيراً كسره فيريا قائلاً: «هل أخبر الملك والملكة أنك موافقة على قرارهما؟».

عندما تحدثت إيزابيث أخيراً خرج صوتها كفرقة سوط: «لا يا سيدي لا يمكنك».

بدا فيريا وكأنّ أحدهم صفعه: «ولكن..». لم تعطه إيزابيث الفرصة للاحتجاج: «إن أصبحت ملكة فسيكون هذا لأنّه مشيئة الرب وليس الملك فيلبي». أراد نيد أن يهلل لها.

تابعت إيزابيث كلامها: «إن حكمت فسيحدث هذا بموافقة الشعب الإنكليزي وليس لأن أختي المحتضرة وافقت على هذا». كان فيريا مصعوقاً.

أصبح ازدراء إيزابيث لاذعاً: «عندما أتوج ملكة سأقسم القسم المعتاد الذي يقسمه أيّ ملك إنكليزي، ولن أضيف إليه أيّ وعود يقترحها عليّ الكونت فيريا».

ولأول مرة يقف فيريا عاجزاً عن الكلام. أدرك نيد أنّ فيريا لعب اللعبة بشكل خاطئ. كان على فيريا أن يطلب من إيزابيث وعداً ببقاء إنكلترا كاثوليكية قبل الحصول على موافقة مجلس شوري الملك عليها كملكة، ولكن الوقت قد تأخر الآن. وفكر نيد أنّ فيريا خُدع بسلوك إيزابيث الساحر في أول لقاء بينهما، واعتقد أنّها أنشى

ضعيفة يمكن لأي رجل قوي أن يتلاعب بها. ولكنها تلاعبت به بدلاً من أن يتلاعب بها.

لم يكن فيريا غيبياً، وعرف نيد أنه أدرك على الفور ما حدث. وفجأة بدا فيريا ضئيلاً وأشبه بزقٍ خمرٍ فارغ. أراد أن يتكلم إلا أنه غير رأيه عدة مرات. واعتقد نيد أنه لم يستطع التفكير بشيء يمكنه قوله ومن شأنه أن يحدث فرقاً. أراحته إليزابيث من عذابه وقالت له: «شكراً لك على زيارتنا أيها الكونت. من فضلك أوصِل تحياتي إلى الملك فيلبي. ورغم الأمل الضعيف بشفاء الملكة ماري لكننا سنستمر بالصلاة من أجلها».

تساءل نيد إن كانت هذه الـ«نا» تشمل طاقمها أو أنها مجرد «نا» ملكية مفخمة. وبما أنه يعرفها قرر أن غموضها في هذا الشأن مقصود على الأغلب. طلب فيريا الإذن بالمغادرة بكل تهذيب وغادر الغرفة.

ابتسم نيد ابتسامة عريضة وسعيدة. فكر بالإيرل سويذن وقال لسيسيل بهدوء: «حسناً، فيريا ليس أول رجل يدفع ثمن الاستخفاف بإليزابيث». «لا»، قال سيسيل. «ولا أعتقد أنه سيكون الأخير».

عندما كانت مارجوري في التاسعة صرّحت بأنها ستصبح راهبة. كانت مأخوذة بالحياة الوردية التي عاشتها عمته الكبيرة الأخت جوان في الطابق العلوي من المنزل وسط المصلى الخاص بها ومسبحة الصلاة. عاشت جوان بكرامة واستقلالية وبهدفٍ في الحياة.

كانت جميع أديرة الراهبات والرهبان قد ألغيت في عهد الملك هنري الثامن، وفشلت الملكة ماري تودر في استعادتها، إلا أن هذا لم يكن السبب في تخلي مارجوري عن هذا الطموح. في الحقيقة عندما وصلت إلى سن البلوغ عرفت أنها لن تتمكن أبداً من عيش حياة التبتل. لقد أحبّت الفتیان حتى عندما كانوا يتصرفون بغباء. أحبّت جسارتهم وقوتهم ومرحهم، وأثارتهن نظراتهم التواقّة إلى جسدها، بل وأحبّت عماهم للتفاصيل الصغيرة والمعاني الخفية. كان هناك شيء مثير في وضوحهم ولذلك كانت الفتيات يتصرفن بمكرٍ شديد أحياناً.

تخلت عن خطتها بأن تصبح راهبة، إلا أنها بقيت مأخوذة بفكرة تكريس

الحياة لمهمة ما. اعترفت بهذا للأخت جوان في اليوم الذي انتقلت فيه إلى نيوكاسل وعندما كانت تُحمّل ثيابها وكتبها ومجوهراتها على عربة من أجل رحلة الانتقال.

«لا تقلقي حيال الأمر»، قالت الأخت جوان التي جلست على كرسي خشبي بظهر عالٍ وهي بكامل اليقظة رغم عمرها الكبير. «الرّب وضع لوجودك غاية كما وضع لنا جميعاً».

«ولكن كيف يمكنني أن أعرف الغاية التي يريدونها مني؟».

«لا يمكنك أن تعرفي!» قالت الأخت جوان. «عليك أن تنتظريه ليظهرها لك. لا يجب استعجال الرّب».

نذرت مارجوري على نفسها الحفاظ على انضباطها رغم أنّها كانت قد بدأت تشعر بأنّ حياتها لم تكن سوى تمرين على السيطرة على نفسها. خضعت لوالديها وقبلت الزواج ببارت. قضت مع زوجها أسبوعين على جزيرة لير التي يملكها الإيرل، وخلال ذلك الوقت أوضح لها بارت أنّه يتوقع منها أن تخضع له بنفس الطريقة التي خضعت فيها إلى والديها. قرر وحده إلى أين يذهبان وما سيفعلان، وألقى عليها الأوامر ببساطة وكأنّه يلقيها على رئيس الخدم. توقعت أن يكون زواجهما شراكة، ولكن يبدو أن هذه الفكرة لم تخطر ببال بارت. كانت تأمل أن يتغير تدريجياً وبلطف ولكنه كان يشبه والدها جداً.

رافقتها عائلتها الفخورة - السير ريجنالد والليدي جاين ورولو - في رحلتها من كينغزبريدج إلى نيوكاسل. كانوا قد أصبحوا أقرباء الإيرل الآن، ووجدوا متعةً في قرابتهم الحالية بالأرستوقراطية.

كان السير ريجنالد ورولو تواقين للتشاور مع الإيرل سويذن. لقد فشلت رحلتهم إلى بروكسل. ورغم الملك فيليبي قد أصغى إليهم ووافق على وجهة النظر التي قدموها، فإن شخصاً ما قد أقنعه برأي آخر لأنّه في النهاية وضع كامل ثقل دعمه على إليزابيث. رأت مارجوري أن رولو كان يشعر بالخيبة المريرة.

ناقش ريجنالد ورولو ما يجب عليهم القيام به خلال الرحلة إلى نيوكاسل. كان الحل الوحيد أمامهم بدء عصيان مسلح على إليزابيث بعد

وفاة ماري تودر على الفور. كانوا بحاجة لمعرفة عدد الجنود الذين يمكن للإيرل سويذن جمعهم، ومن هم النبلاء الكاثوليكيون الذين يمكن الاعتماد عليهم لدعم سويذن.

شعرت مارجوري بالقلق فالبروتستانتية برأيها هرطقة متعجرفة يفضلها رجالٌ يعتقدون أنفسهم أنهم أذكى بما يكفي للكشف عن عيوب في تعاليم الكنيسة على مدار مئات السنين، ولكنها كانت تؤمن أيضاً أن المسيحيين يجب ألا يقتلوا بعضهم بعضاً. عندما بدأت نيوكاسل تلوح في الأفق انتقلت إلى التفكير في الأمور الدنيوية. كان الإيرل سويذن أرمل ولهذا فإن مارجوري التي أصبح لقبها الآن الفيكونتيسة شايرنغ، ستصبح سيدة المنزل. كانت في السادسة عشرة فقط وبالكاد تعرف ما يلزم لإدارة شؤون قلعة. تحدثت عن الأمر مطولاً مع الليدي جاين ووضعتا بعض الخطط، ولكنها كانت قلقة حيال مواجهة الواقع. مكتبة سُر من قرأ

خرج بارت عندما وصلت عائلة فيتزجيرالد، ووقف معه عشرون خادماً في الفناء. صفقوا وهلّلوا عندما وصلت مارجوري التي شعرت بأنها موضع ترحاب. ربما كرهوا العمل لدى عائلة من الذكور فقط، وتطلعوا إلى لمسة امرأة. كانت مارجوري تأمل أن يكون ظنها هذا في محله.

تقدم سويذن وبارت لتحيّتهم. قبل بارت مارجوري وفعل سويذن المثل وقد توانى قليلاً عن إبعاد شفّيته عن خدها وضغط جسدها على جسده. ثم قدّم سويذن امرأة لها مظهر شهواني في الثلاثين من العمر تقريباً: «سال برندن مدبرة منزلي، وستساعدك في كل شيء». ثم توجه بكلامه إلى سال: «خُذي الفيكونتيسة في جولة يا سال. لدينا نحن الرجال الكثير لتتحدث عنه».

وعندما همّ بالانصراف لإرشاد ريجنالد ورولو إلى داخل المنزل ربّت على مؤخرة سال الكبيرة. لم تبدُ سال متفاجئة أو مستاءة. لاحظت مارجوري والليدي جاين هذا ونظرتا بعضهما إلى بعض. من الواضح أنّ سال كانت أكثر من مجرد مدبرة منزل.

«سأخذك إلى جناحك»، قالت سال. «من هنا».

أرادت مارجوري أكثر من مجرد جولة. لقد زارت المكان قبلاً، وحدث هذا منذ وقت قريب، في اليوم الثاني عشر من عيد الميلاد، ولكن القلعة

كبيرة ويجب أن تعرف كل شيء فيها: «سنرى المطبخ أولاً».

ترددت سال وبدت متضايقه ثم قالت: «كما ترغيبين».

دخلوا المنزل وتوجهوا إلى المطبخ أولاً. كان الجو في المطبخ حاراً ومشبعاً بالبخار. لم يكن المطبخ نظيفاً جداً، وهناك خادم عجوز جالس على كرسي خشبي يراقب أعمال الطبخ ويشرب من إبريق فضي. عندما دخلت مارجوري نهض الخادم ببطء.

«هذا هو الطباخ ميف براون»، قالت سال.

جلست قطة على الطاولة تأكل بهدوء بقايا قطعة لحم. رفعت مارجوري القطة بحركة سريعة وألقت بها على الأرض.

«تلك القطة صيادة فئران ماهرة»، قال ميف براون باستياء.

«ستكون صيادة أفضل إن لم تطعمها اللحم».

بدأ الخادم الأكبر سناً بتحضير طبق من اللحم البارد وإبريق من النبيذ وبعض الخبز ووضعها على صينية. أخذت مارجوري قطعة من اللحم وتناولتها.

«هذا من أجل الإيرل»، قال الرجل.

«وهي شهية أيضاً»، قالت مارجوري. «ما اسمك؟».

«كولي نايت. أعمل لدى الإيرل سويذن منذ أربعين عاماً، أي مذ كنت صبياً»، قال الخادم بلهجة متعالية وكأنه يريد من مارجوري أن تعلم أنها مجرد زائر جديد.

«أنا الفيكونتيسة»، قالت مارجوري. «عليك أن تخاطبني باسم «سيدتي» عندما تتحدث إلي».

حلّ صمتٌ طويل وأخيراً قال كولي: «أجل يا سيدتي».

«والآن سنذهب إلى جناح الفيكونت»، قالت مارجوري.

قادتاهما سال برندن إلى الجناح. عبرتا قاعة مهيبه حيث كانت فتاة في الحادية عشرة تكنس الأرضية بكسل وقد أمسكت المكنسة بيد واحدة. صرخت بها مارجوري قائلة: «امسكي عصا المكنسة بيديك الاثنتين». بدت الفتاة مرتاعة وفعلت ما طُلب منها.

صعدتا الدرج، وسارتا عبر الردهة حتى نهايتها. تقع غرفة النوم عند

زاوية مع أبواب تربطها بغرفٍ جانبية. أحببتَ مارجوري هذا الترتيب، وهذا يعني أنه يمكن لبارت أن يحظى بغرفة ملابس حيث يستطيع خلع أحذيته الملوثة بالطين، ويمكن لمارجوري أن تحظى بغرفة خاصة حيث ستساعدنا الخادמות على ارتداء ثيابها وترتيب شعرها.

كانت جميع الغرف قدرة، وبدت النوافذ كأنها لم تنظف منذ عام. كان هناك كلبان كبيران - كلب طاعنٌ في السن وآخر صغير - مستقلقيان على بطانية. رأت مارجوري براز الكلبين على الأرضية. من الواضح أن بارت يسمح لحيوانيه الأليفين بالتغوط أينما أرادا في غرفته. هناك لوحة لامرأة عارية على الحائط، ولم يكن في الغرفة أزهار أو نباتات خضراء أو صحون فواكه أو زبيب أو أوعية بأعشاب مجففة عطرة وبتلات زهور تعطر الجو بل كومة متشابكة من الملابس المتسخة على كرسي وبينها قميص ملطخ بالدم ويبدو أنه هنا منذ وقتٍ طويل.

«هذا مقرف»، قالت مارجوري لسال. «سننظف المكان قبل أن أفتح صناديقي. فلتذهبي ولتحضري مكنسة ومجرفة. سننظف قذارة الكلاب أولاً».

وضعت سال يدها على وركها في تمرد ثم قالت: «من الأفضل أن نتحدثي إلى سيدي الإيرل سويذن أولاً».

شيء ما في أعماق مارجوري انفجر. أذعنت للناس طويلاً، لوالديها وللأسقف يوليوس ولبارت. ولكنها لن تدعن لسال برندن. وغلى كل الغضب المكبوت في داخلها طوال العام الماضي. رفعت يدها وصدفت سال صفعه رهيبه على وجهها. كان صوت فرقة راحة اليد على الخد عالياً إلى درجة أن أحد الكلاب قفز هلعاً. تراجعت سال إلى الورا وصرخت مصدومة.

«لا تتحدثي معي بهذه الطريقة مجدداً». قالت مارجوري. «أعرف نوعك. إن كان الإيرل يضاجعك عندما يكون ثملاً فهذا لا يعطيك الحق بالاعتقاد أنك الكونتيسة». رأت مارجوري لمعة إقرار بصحة الاتهام في عيني سال. «أنا سيدة هذا المنزل الآن، وستطيعيني. وإن سببت المتاعب ستطردن من هنا بأسرع مما تخيلين لينتهي بك المطاف في بيت الدعارة في كينغزبريدج حيث تنتمين».

من الواضح أن سال شعرت بإغراء تحديها. احمرّ وجهها من الغضب، وكان بوسعها أن تضرب مارجوري في تلك اللحظة، ولكنها ترددت. كان عليها أن تدرك أن اليوم ومن بين كل الأيام لن يتمكن الإيرل من رفض طلب زوجة ابنه طرد أيّ خادمة. أدركت سال هذا وتغير وجهها: «أطلب، أطلب عفوك يا سيدتي»، قالت بتواضع. «سأحضر لك المكانس على الفور».

غادرت سال الغرفة وقالت لليدي جاين لمارجوري: «أحسنت صنعاً». رأت مارجوري سوطاً للجياد على الكرسي الخشبي بالقرب من مهمازين فالتقطته. عبرت الغرفة وتوجهت حيث استلقى الكلبان وقالت: «اخرجاً أيها الوحشان القدران!» ووجهت إلى كل واحد منهما ضربة قوية. ومن الصدمة أكثر مما هو من الألم قفز الكلبان وهرعا خارج الغرفة مغتاظين. «وابقيا في الخارج»، قالت مارجوري في إثرهما.

رفض رولو التصديق أن الرياح تهب في غير مصلحة ماري ستوارت. وسأل نفسه في غضب كيف يُمكن لهذا أن يحدث وإنكلترا كاثوليكية ومآري تحظى بدعم البابا. ولذلك في عصر ذلك اليوم كتب رسالة بالنيابة عن الإيرل سويذن إلى رئيس أساقفة كانتربري الكاردينال بول. طلب في الرسالة مباركة رئيس الأساقفة على العصيان المسلح ضد إليزابيث تودر.

أضحى العنف الآن هو الأمل الوحيد. لقد انقلب الملك فيليبي على ماري ستوارت ودعم إليزابيث، وكان هذا بمنزلة كارثة على كل من رولو وعائلة فيتزجيرالد والعقيدة المسيحية الكاثوليكية في إنكلترا. «هل هذه خيانة؟» سأل سويذن وهو يمسك بالقلم.

«لا»، قال رولو. «لم تصبح إليزابيث الملكة بعد، ولهذا نحن لا نتآمر للتمرد على المملكيّة». علم رولو أنه لو خسر وفازت إليزابيث بالتاج، فإنها ستعتبر الأمر مؤامرة على التاج. لذلك كانوا يخاطرون جميعاً بالتعرض للإعدام. ولكن في مثل هذه اللحظات يجب على الرجال أخذ موقف حاسم. وقع سويذن الرسالة ولكن بصعوبة فهو يجد ترويض حصان بريّ أسهل بكثير من كتابة اسمه.

فكر رولو أنّ الكاردينال سيكون قادراً حتماً على إملاء رسالة رد رغم مرضه، وتساءل عن الجواب الذي سيرسله إلى سويذن. إن بول أكثر الأساقفة الكاثوليكين الإنكليز تعصباً، وكان رولو واثقاً من أنّه سيدعم العصيان، وعندها ستكون عمليات سويذن ومناصريه شرعية بأمر من الكنيسة.

سُلّمت الرسالة إلى رجلين من أخلص رجال سويذن ليحملها إلى قصر لامبيث القريب من لندن وحيث يسكن رئيس الأساقفة.

في هذه الأثناء عاد السير ريجنالد والليدي جاين إلى كينغزبريدج. بقي رولو مع الإيرل، فقد أراد ضمان عدم تراجعهم عن القرار.

وأثناء انتظار جواب رئيس الأساقفة بدأ سويذن وبارت في جمع قوات من الجنود، وافترض رولو أنّ كل إيرل كاثوليكي في إنكلترا يفعل المثل، وبالتالي لن يكون بالإمكان قهر قواهم المشتركة.

كان هناك مئة قرية في مقاطعة شايرنغ وكان الإيرل سويذن السيد وصاحب السلطة المطلقة عليها كما كانت لأجداده قبله خلال العصور الوسطى. زار سويذن وبارت بعض هذه القرى شخصياً، بينما أرسل الإيرل تصاريح إلى قرى أخرى، وأوصل كهنة الأبرشيات رسالته في عظاتهم. تم استدعاء الرجال العازبين ممن تتراوح أعمارهم بين الثامنة عشرة والثلاثين إلى نيوكاسل، وطلب منهم أن يحضروا معهم فؤوساً ومناجل وسلاسل حديدية.

لم يكن لدى رولو خبرة في هذا المجال، ولم يكن بإمكانه معرفة ما قد يحصل.

أثار رد الفعل على هذا حماسه حيث قامت كل قرية بإرسال مجموعة من الفتية التواقين للقتال فخلال شهر تشرين الثاني/نوفمبر لم تكن هناك حاجة كبيرة إلى الأسلحة المؤقتة والفتيان في الحقول. كانت البروتستانتية حركة حضرية، ولم تبسط سيطرتها على الريف المحافظ. كان هذا من أكثر الأمور التي حدثت في الذاكرة الحية إثارة، والجميع تحدث عن الأمر، وبكى صبية يافعون ورجال طاعنون في السن لأنّه لم يكن بوسعهم المشاركة.

لم يكن بإمكان الجيش البقاء في نيوكاسل، ولكن المسير إلى هاتفيلد طويل لهذا انطلقوا رغم أن جواب الكاردينال بول لم يصلهم بعد. وفي

طريقهم سيمرون بكينغزبريدج حيث سيتلقون مباركة الأسقف يوليوس.
قاد سويدن رتل الجنود مع بارت إلى جانبه ورولو خلفه. وصلوا إلى
كينغزبريدج بعد ثلاثة أيام، ولكن عندما دخلوا المدينة عن طريق جسر
ميرتن أوقفهم السير ريجنالد والد رولو الذي كان عمدة كينغزبريدج أيضاً.
كان برفقته شيوخ مجلس المدينة.

«أسف»، قال ريجنالد لسويدن. «ولكن هناك عقبة».

دفع رولو حصانه ليتقدم إلى الأمام وتوقف أمام سويدن وبارت: «ما
الذي يحدث بحق الرب؟».

بدا والده يائساً وقال له: «ترجّل عن حصانك ورافقني لأريك ما
الخطب».

«يا لها من طريقة بائسة للترحيب بحملة صليبية مقدسة!» قال سويدن
بغضب.

«أعلم»، قال ريجنالد. «صدّقني أنا أشعر بالإحراج، ولكن تعال وألقِ
نظرة».

ترجّل القادة الثلاثة عن أحصنتهم. استدعى سويدن نقيب الجيش
وأعطاهم المال وأخبرهم أن يشتروا براميل الجعة من حانة سلوترهاوس
ويرسلوها إلى هنا ليقى الرجال سعداء.

قادهم ريجنالد عبر جسر مزدوج إلى المدينة ثم إلى الشارع الرئيسي
الذي يؤدي إلى ساحة السوق.

وهناك رأوا جميعاً مشهداً غريباً.

كانت أكشاك السوق مغلقة، وقد أزيلت الأبنية المؤقتة وأخلت الساحة.
وهناك أربعون أو خمسون جذعاً خشبياً غليظاً بقطر يصل إلى ستة أو ثمانية
إنشات وقد بُنت جميعها بقوة في التربة الشثائية القاسية. وقف مئات من
الشباب حول الأوتاد، ورأى رولو وبما يدعو للعجب، أنهم يحملون سيوفاً
ودروعاً خشبية.

كان جيشاً في طور التدريب.

وبينما كانوا يراقبون قام أحد قادة هذا الجيش باستعراضٍ على منصة
عالية. أخذ يُهاجم الوتد بسيفٍ ودرعٍ خشبيين واستخدم ساعديه بتناوب

وبتناغم ورأى رولو أنّ هذا التكتيك سيكون فعالاً جداً في ساحة المعركة. عندما انتهى الاستعراض حاول البقية محاكاة ما فعله.

تذكر رولو أنّه رأى مثل هذه التدريبات قبلاً في أوكسفورد عندما كانت الملكة ماري تودر تستعد لإرسال الجيش الإنكليزي إلى فرنسا لدعم الجيش الإسباني. كانت هذه الجذوع تدعى بالأوتاد وهي مثبتة بقوة ومن الصعب إسقاطها. وتذكر رولو أنّ الرجال في البداية كانوا يضربون بشكل طائش ويخطئون الوتد، إلا أنهم سرعان ما تعلموا التصويب بدقة والضرب بقوة. سمع رولو عسكريين يقولون إن بضع ساعات من التدريب على الأوتاد كفيلة بتحويل الفلاح العاجز إلى نصف جندي خطير.

عندما رأى رولو دان كوبلي بين المتدربين اتضحت الصورة أمامه. كان هذا جيش البروتستانتين.

بالطبع لن يقولوا إنهم كذلك، وسيّدعون أنهم يحضرون لمقاومة الاجتياح الإسباني. لن يصدقهم السير ريجنالد والأسقف يوليوس على الأغلب، ولكن ما الذي يمكنهما فعله. لا يمكن لحراس المدينة بعددهم المحدود أن يلقوا القبض على المئات ووضعهم في السجن، حتى وإن كان هؤلاء المتدربون يخرقون القانون رغم أنهم لا يفعلون هذا الآن.

راقب رولو بياس مشهد الرجال يهاجمون الأوتاد وضرباتهم بمرور الوقت تصبح أكثر تركيزاً وفعالية.

«هذه ليست مصادفة»، قال رولو. «لقد سمعوا بأمر قدوم جيشنا، وحشدوا جيشهم لإعاقتنا».

«إن دخلت إلى المدينة أيها الإيرل سويذن فستقع معارك منظمة في الشوارع»، قال السير ريجنالد.

«سيسحق فتيتي القرويون الأشداء هؤلاء البروتستانتين المدنيين الضعفاء».

«لن يسمح الشيوخ بدخول جيشك».

«سيفرض الجيش هذا»، قال سويذن.

«لا أملك الحق. أخبروني أيضاً أنهم سيعتقلونني إن حاولت فعل هذا».

«دعهم يفعلون هذا. سنخرجك من السجن».

«سنضطر للقتال على الجسر اللعين»، قال بارت.

«يمكننا القيام بهذا»، انفجر سويدن غاضباً.

«سنخسر الكثير من الرجال».

«هذا هو سبب وجودهم هنا».

«ولكن من سيبقى لنا أخذه إلى هاتفيلد؟».

راقب رولو وجه سويدن. لم تكن شخصية الإيرل من النوع الذي يرضخ عندما تنقلب الكفة، وارتسمت على ملامحه حيرة شديدة.

«أتساءل إن كان الأمر عينه يحدث في مكان آخر، أعني أن يكون البروتستانتيون يستعدون للقتال»، قال بارت.

لم يفكر رولو بهذا. فعندما اقترح على سويدن حشد جيش صغير كان عليه أن يعرف أن البروتستانتيين سيفكرون بنفس الشيء. توقع أن يكون انقلاباً سلساً، ولكن بدلاً من هذا لاح أمامه خطر حرب أهلية دموية. وشيئاً ما بالفطرة أخبره أن الشعب الإنكليزي لا يريد حرباً أهلية، وقد ينقلبون على الرجال الذين يبدوونها.

يبدو أن عليهم تسريح فتيهم القرويين، وإرسالهم إلى المنزل. هرع رجلان من نزل بيل القريب. عندما رآهما السير ريجنالد تذكر شيئاً وقال: «هناك رسالة لك أيها الإيرل. لقد وصل هذان الرجلان إلى هنا منذ ساعة. أخبرتهما أن ينتظرا هنا بدلاً من المخاطرة وعدم الاهتداء إليك في طريقك إلى هنا».

تعرف رولو على الرجلين اللذين أرسلهما سويدن إلى قصر لامبيث، وتساءل عن جواب رئيس الأساقفة. قد يكون الجواب مصيرياً. ربما بتشجيع من رئيس الأساقفة قد يتابع جيش سويدن طريقه إلى هاتفيلد، ولكن إن لم يكن في الرسالة أي تشجيع فسيكون من الحكمة حلّ الجيش.

تحدث الرجل الأكبر عمراً بين الرجلين: «لا جواب من الكاردينال».

غاص قلب رولو في صدره.

«ما الذي تعنيه أنه لا جواب؟» قال سويدن بغضب. «لا بدّ أنه قال شيئاً».

تحدثنا إلى الكاهن روبنسون الذي يعمل لدى الكاردينال، وقال لنا إن الكاردينال مريض جداً ولا يقوى على قراءة رسالتك فما بالك بالإجابة عليها».

«لماذا؟ لا بدّ أنّه على شفير الموت!» قال سويدن.

«أجل يا سيدي».

فكر رولو بأنّ هذا الخبر كارثي، فأهم شخصية كاثوليكية ملتزمة تحتضر في هذه المرحلة المفصلية من تاريخ البلد. ومع هذه الوقائع الجديدة تغير كل شيء. كانت فكرة خطف إليزابيث واستدعاء ماري ستوارت حتى الآن مغامرة مغرية مع فرصة كبيرة بنجاحها، إلا أنها تبدو الآن خطة انتحارية. أخذ رولو يفكر بأنّ القدر أحياناً يعمل في مصلحة الشيطان.

انتقل نيد إلى لندن ولازم قصر الملك جيمس بانتظار أخبار عن ماري تودر.

كانت صحة الملكة قد تراجعت كثيراً في السادس عشر من تشرين الثاني/ نوفمبر وهو اليوم الذي بدأ البروتستانتيون يطلقون عليه اسم «أربعاء الأمل» حتى قبل أن تغرب شمس. وفي صباح الخميس وقف نيد وسط الحشد المرتجف برداً أمام بيت الحارس العالي ذي الحجارة الحمراء. وقبل أن تُشرق شمس ذلك اليوم هرع أحد الخدم حاملاً رسالة وهمس بها: «لقد توفيت».

ركض نيد إلى حانة كاوتش أند هورسس، وطلب أن يُسرجوا له حصاناً، ثمّ أيقظ الرسول بيتر هوبكنز. وبينما كان بيتر يرتدي ثيابه استعداداً ويشرب زجاجة جعة كبيرة على الفطور كتب نيد رسالة إلى إليزابيث يعلمها فيها أنّ ماري تودر قد توفيت، ثمّ أرسل الرجل إلى هاتفيلد.

عاد نيد إلى منزل الحارس ورأى أن الحشد أمامه قد كبر. راقب على مدار ساعتين رجال حاشية مهمين ورسلاً أقلّ أهمية يهرعون داخلاً وخارجاً. ولكنه عندما ظهر نيكولاس هيث لحق به.

إنّ هيث أقوى رجل في إنكلترا، فقد كان رئيس أساقفة يورك ومستشار الملكة ماري وحامل الختم الأكبر. حاول سيسيل أن يستميله إلى صف إليزابيث، إلا أن هيث فضل البقاء بعيداً. قد يرغب الآن بالانضمام بطريقة أو بأخرى.

ركب هيث مع حاشيته في عربة لمسافة قصيرة حتى ويستمنستر حيث

سيجتمع أعضاء البرلمان من أجل الجلسة الصباحية. لحق بهم نيد وآخرون ركضاً. كان هناك حشد من الناس قد بدأ يجتمع أمام ويستمنستر. أعلن هيث أنه يرغب بالتحدث إلى اللوردات ومجلس العموم معاً ولهذا اجتمعوا في مجلس اللوردات.

حاول نيد أن يدخل مع حاشية هيث، ولكن الحارس منعه. تظاهر نيد أنه متفاجئ وقال: «أنا أمثل الأميرة إليزابيث. لقد أمرتني بأن أحضر وأخبرها بما يجري».

كان الحارس ميالاً إلى افتعال المشاكل ولكن هيث سمع المشاجرة وتدخل: «لقد قابلتك قبلاً أيها الشاب»، قال لنيد. «كنت مع السير ويليام سيسيل كما أعتقد».

«أجل يا حضرة رئيس الأساقفة».

كان هذا صحيحاً رغم أن نيد تفاجأ من أن هيث تذكره.
«دعه يدخل»، قال هيث للحارس.

كان أعضاء البرلمان جالسين وهذا يعني أن إعلان الملكة القادمة قد يحدث بسرعة خاصة إن كان هيث يدعم إليزابيث. كان لإليزابيث شعبية وهي أخت الملكة ماري تودر ولا تبعد سوى عشرين ميلاً. أمّا ماري ستوارت فلا يعرفها الشعب الإنكليزي وهي متزوجة من فرنسي وتعيش في باريس. كانت كل الشروط المطلوبة متوفرة في إليزابيث، إلا أن الكنيسة كانت تفضل ماري ستوارت على إليزابيث.

دوت قاعة المجادلة بمحادثات حيوية فجميع من في الغرفة كان يناقش الأمر نفسه، ثم صمتوا جميعاً عندما وقف هيث وقال:

«في هذا الصباح تغمد الربّ برحمته ملكتنا الراحلة ماري».

أطلق الحشد تنهيدة جماعية. فجميعهم عرف أو سمع إشاعات ولكن لتأكيد الأمر وطأة ثقيلة.

«ولكن لدينا سبب للابتهاج. فبفضل الربّ العظيم تركت لنا الملكة وريثة حقيقية وشرعية ومناسبة للتاج».

غرقت الغرفة في صمتٍ مطبق. كان هيث على وشك تسمية الملكة الحالية، وتساءل نيد من ستكون.

«إنها الليدي إليزابيث صاحبة الحق الشرعي واللقب الذي لا يمكننا الشك به».

عمّ الضجيج الغرفة، إلا أن هيث تابع كلامه رغم أن ما من أحد كان يصغي إليه. لقد دعم رئيس الأساقفة إليزابيث وقال إن حقها «الشرعي» يتعارض صراحة مع قرار البابا، ثم انتهى من كلامه.

علت بضعة أصوات احتجاجية من أعضاء البرلمان، ولكن أغلب الحاضرين هلّلوا. كانت إليزابيث خيار البرلمان. ربما خافوا من كشف موقفهم من الأمر عندما كانت الشكوك ما تزال تحيط بإمكانية حدوث الأمر، إلا أن كل السرية التي تحدثوا بها قبلاً قد سقطت الآن، ورغم وجود بعض الوجوه العابسة في الغرفة فإن الرجال الذين لم يصفقوا أو يهلّلوا واكتفوا بالجلوس صامتين وعاقدين أذرعهم على صدورهم كانوا أقلية، أما البقية فكانوا سعداء لأن الحرب الأهلية لم تعد خطراً محدقاً، ولن يكون هناك ملك أجنبي وستنتهي المحارق. أدرك نيد أنه كان يهلل معهم أيضاً.

غادر هيث القاعة، ولحقه معظم أفراد مجلس شوري الملك، ووقفوا على السلالم خارجاً ليعيدوا الإعلان على الحشد المنتظر خارجاً. ثم أعلن هيث أنه سيذيع الخبر في مدينة لندن. ولكن قبل أن يغادر أوماً إلى نيد وقال له: «أفترض أنك ستذهب إلى هاتفيلد الآن حاملاً الأنباء السارة؟».

«أجل يا سيدي رئيس الأساقفة».

«يمكنك أن تخبر الملكة إليزابيث أنني سأوافيها قبل هبوط الليل».

«شكراً لك».

«لا تتوقف للاحتفال قبل أن توصل الرسالة».

«بالطبع لا يا سيدي».

غادر هيث.

عاد نيد راكضاً إلى حانة كاوتش أند هورسس، وبعد دقائق كان في طريقه إلى هاتفيلد.

كان لديه مُهرة جيدة وسريعة إلا أن نيد جعلها تخبّ وتركض بالتناوب، فقد خاف من أن يدفعها للركض سريعاً فتنهار من التعب قبل أن يصل إلى هاتفيلد. لم تكن السرعة مهمة بقدر الوصول قبل هيث إلى هاتفيلد.

انطلق نيد منتصف الصباح وبحلول منتصف الظهيرة لاح أمامه الجملون
ذي الحجارة الحمراء لقصر هاتفيلد.

رأى نيد هو بكتز هناك وهذا يعني أن الجميع قد عرف بوفاة الملكة ماري.
ولكن لم يعلم أحد منهم من الملكة الجديدة.

وأثناء عبوره الفناء سأله العديد من ساسة الخيل دفعة واحدة: «ما
الأخبار؟».

قرر نيد أن إليزابيث وحدها من سيكون أول العارفين. لم يقل شيئاً
للساسة وحافظ على وجهه خالياً من أيّ تعابير.

جلست إليزابيث في غرفة الجلوس الخاصة بها مع سيسيل وتوم بيرى
ونيل بينسفورد. حدقوا جميعاً إلى نيد في صمتٍ متوتر وهو يتوجه نحوهم
في عباءة الركوب الثقيلة.

توجه نيد نحو إليزابيث. حاول أن يبقى رصيناً، ولكنه لم يتمكن من كبح
ابتسامته. قرأت تعابيره ورأى نيد شفيتها تتحركان قليلاً وترسمان ابتسامه.

«أنتِ ملكة إنكلترا»، قال هذا ثمّ خلع قبعته وركع على ركبتيه وقام
بانحناءة سريعة. «يا صاحبة الجلالة».

كنا سعداء ولم يكن لدينا أدنى فكرة عن حجم المتاعب التي سنسببها. بالطبع لم أكن أنا وحدي في هذا، فقد كنت شريكاً صغيراً مع آخرين أكبر عمراً وأكثر حكمة، إلا أن ما من أحد منا رأى ما الذي يخبئه المستقبل.

لقد حذرونا. أخبرني رولو فيتزجيرالد عن حجم المعارضة التي ستواجه الملكة إليزابيث، وعن القلة من القادة الأوروبيين المثيرين للشفقة الذين سيدعمونها. لم ألقِ بالآ لكلامه ولكن ذلك الوغد المنافق كان على حق.

ما فعلناه في عام 1558 التاريخي قاد إلى نزاع سياسي وعصيان وثورة أهلية وجلب غزواً أجنبياً. في السنوات اللاحقة مررت بلحظات تساءلت فيها، وأنا غارق في اليأس، إن كان الأمر يستحق كل ما بذلناه. جلبت تلك الفكرة البسيطة؛ فكرة أن يكون الناس أحراراً في العبادة، معاناة أكبر من الكوارث العشر التي حلّت بمصر⁽¹⁾.

ولكن إن عرفت آنذاك ما أعرفه الآن، فهل كنت سأقوم به؟

أجل بحق الجحيم.

1- وفق سفر الخروج أنزل الربّ على مصر عشر كوارث لإقناع الفرعون بتحرير بني إسرائيل من العبودية، وبعد الكارثة العاشرة استسلم الفرعون وبدأ خروج الشعب العبري. (المترجمة)

الجزء الثاني
(1563 – 1559)

الفصل التاسع

أثناء نزهتهما على امتداد الجانب الجنوبي من شارع إيل دو لا سيتي في يوم جمعة مشمس من شهر حزيران/ يونيو حيث تطل الكاتدرائية بتماثيلها المجنحة من جهة ومياه النهر البرّاقة من جهة أخرى، سألت سيلفي بالوبيير أوموند: «هل تريد الزواج مني أم لا؟».

شعرت بالرضا عندما رأت ومضة رعب في نظرة عينيه. لم تكن نظرة عادية، لأنه لم يكن من السهل زعزعة تماسكه فهو منضبط على الدوام. تمالك بيير هدوءه بسرعة كبيرة جداً إلى درجة اعتقدت معها سيلفي أنّها تخيلت زلّته.

«بالطبع أريد الزواج منك يا عزيزتي»، قال بيير وبدا مجروحاً. «كيف يمكنك أن تسألني مثل هذا السؤال؟».

شعرت بالندم على الفور، وكرهت أن تراه متضايقاً بأي شكل من الأشكال. بدا محبباً جداً ونسيم النهر يداعب شعره الأشقر، إلا أنّها كبّحت شعورها وأصرّت على سؤالها: «إننا مخطوبان من أكثر من عام، وهذا وقت طويل جداً». كان كل شيء في حياة سيلفي جيداً، فعمل والدها في المكتبة مزدهر، وهو يخطط لفتح متجرٍ آخر على الجانب الآخر من النهر في منطقة الجامعة. كانت تجارته غير الشرعية في بيع الإنجيل المترجم إلى الفرنسية وكتب أخرى ممنوعة تسير بشكل أفضل من غيرها. بالكاد يمر يوم لا تذهب فيه سيلفي إلى المستودع السريّ في شارع دو مير لجلب كتاب أو كتابين وبيعهما إلى إحدى العائلات البروتستانتية. كان عدد رعايا الكنيسة البروتستانتية الجدد قد ازداد في باريس وفي أماكن أخرى كزهور الجريس في الربيع. كانت عائلة بالو تنشر الإنجيل الحقيقي وتكسب أرباحاً منه في آن معاً.

ولكن سلوك بيير حيّرهما وأزعجها.

«يجب أن أنهي دراستي. لقد رفض الأب موينو السماح لي بمتابعة دراستي إن تزوجت»، قال لها. «شرحت لك هذا قبلاً ووافقتِ على الانتظار». «وافقتِ على الانتظار لعام. خلال عدة أيام ستوقف المحاضرات بسبب قدوم فصل الصيف. لدينا موافقة أهلي وما يكفي من المال. يمكننا أن نعيش فوق المتجر حتى ننجب أطفالاً على الأقل. ولكنك لم تقل شيئاً». «أرسلت رسالة إلى أمي».

«لم تخبرني».

«كنت أنتظر جوابها».

«ماذا كان سؤالك لها؟».

«سألتها إن كانت بصحة جيدة تمكنها من السفر إلى باريس من أجل الزفاف».

«وإن لم تكن بصحة جيدة؟».

«ما من داع للقلق حيال الأمر الآن».

لم تكن سيلفي سعيدة بهذا الجواب إلا أنها لم تتوقف عنده وسألت: «أين سنقيم مراسم الزفاف الرسمية؟».

حدّق بيير إلى أبراج كاتدرائية نوتردام. ضحكت سيلفي وقالت: «ليس هناك. فهذا للنبلاء فقط».

«أعتقد أننا سنقيم في كنيسة الأبرشية».

«وسنقيم زفافنا الحقيقي في كنيستنا». كانت سيلفي تعني بكلامها كوخ الصيد القديم في الغابة. ما زال البروتستانتيون غير قادرين على العبادة علناً في باريس رغم أنهم كانوا يفعلون هذا في بعض المدن الفرنسية.

«أعتقد أنه سيتحتم علينا دعوة الماركية»، قال بيير بتكشيرة تشي بالكرهية.

«بما أنّ المبنى ملك لزوجها..».

لسوء الحظ كان بيير قد بدأ مع الماركية لويز بداية خاطئة، ولم يتمكن من كسب ودها مجدداً. في الحقيقة كلما اجتهد أكثر في سحرها غدت أكثر برودةً نحوه. توقعت منه سيلفي أن يضع الأمر جانباً ويأخذه بمرح، ولكن

يبدو أنه لم يفعل. أثار الأمر غضبه، وأدركت سيلفي أن خطيئها وعلى عكس ما يوحي به مظهره، لم يكن واثقاً جداً من نفسه بل كان حساساً لأي نوع من التجاهل الاجتماعي.

وبسبب حساسيته هذه ازداد حياءً لها أكثر. كانت دعوة الماركيوزة تقلقها أيضاً رغم أنها لم تعرف السبب.

«أعتقد أنه لا مناص من الأمر»، قال بيير بلهجة رقيقة رغم العبوس المرتسم على وجهه.

«هل ستشتري ثياباً جديدة؟» سألته سيلفي فقد كانت تعلم كم يحبّ شراء الثياب.

ابتسم وقال: «أعتقد أنّ عليّ شراء معطف داكن باللون الرمادي البروتستانتي، أليس كذلك؟».

«أجل».

كان مؤمناً ملتزماً يحضر المراسم الدينية كل أسبوع، وسرعان ما تعرف على جميع أفراد الأبرشية. حرص على مقابلة البروتستانتين وحضور المراسم الدينية في أبرشيات أخرى في باريس. أراد بشدة أن يذهب إلى الاجتماع الكنسي الوطني في باريس في أيار/ مايو، وهو أول مؤتمر يجرؤ البروتستانتون الفرنسيون على إقامته، ولكن الترتيبات كانت سرية جداً ولم يُدعَ إليه سوى كبار البروتستانتين. وباستثناء هذا الرفض، كان بيير فرداً مقبولاً جداً في مجتمعهم وهذا الأمر كان مبعث بهجة لسيلفي.

«لا بد أن يكون هناك خياط مختص بتفصيل ثياب البروتستانتين»، قال بيير.

«أجل. هناك دوبروف صاحب متجر الخياطة في شارع سان مارتان. يذهب أبي إلى هناك، رغم أنه لا يفعل هذا إلا عندما تجبره أُمي. يمكنه تحمل تكلفة معطف جديد كل عام، ولكنه لا يريد أن ينفق المال على الثياب المبهجة كما يسميها. أعتقد أنه سيشتري لي ثوب زفاف، ولكنه لن يكون سعيداً حيال الأمر».

«إن لم يشتري لك الثوب سأشتريه أنا».

أمسكت بذراعه وأوقفته ثم قبلته وقالت: «أنت رائع».

«وأنت أجمل فتاة في باريس... بل في فرنسا».

ضحكت سيلفي فلم تكن تعتقد أن ما قاله صحيح رغم أنها بدت ساحرة في ثوبها الأسود ذي الياقة البيضاء. كانت تناسبها الألوان البروتستانتية مع شعرها الأسود وبشرتها النضرة. ثم تذكرت الموضوع الذي كانا يتحدثان عنه واستردت رزانتها مجدداً: «متى سيصلك خبر من والدتك...؟».

«ماذا؟».

«يجب أن نحدد موعداً. أياً يكن جوابها لا أريد أن أنتظر أكثر».

«حسناً».

بدت لوهلة غير واثقة من أنه وافق، وترددت في الابتهاج.

«هل تعني ما تقوله؟».

«بالطبع. سنحدد موعداً. أعدك».

ضحكت بابتهاج وقالت له: «أحبك». ثم قبلته مجدداً.

تساءل بيير عندما أوصل سيلفي حتى باب متجر والدها إلى متى يمكنه الاستمرار فيما يفعله. غادرها وتوجه شمالاً على طول جسر نوتردام باتجاه الضفة اليمنى من النهر. ابتعد عن النهر إلا أن الجو كان حاراً ولم يهب أي نسيم لذلك بدأ يقطر عرقاً.

لقد جعلها تنتظر لمدة طويلة، بل وحتى والدها أصبح أكثر تجهماً من العادة ووالدتها التي أحببت بيير بدأت تتحدث معه بفظاظة. وسيلفي نفسها التي كانت مأخوذة به بدأت تشعر بالاستياء. كانوا يشكون بأنه يعذب معها، وبالطبع كانوا على حق في ظنهم هذا.

ولكنها كانت تقدم له حصداً وفيراً من المعلومات؛ فدتر ملاحظاته الجلدي الأسود يحوي مئات أسماء البروتستانتين الباريسيين وعناوينهم والأمكنة التي يقيمون فيها مراسمهم الهرطقية، بل إنها قدمت له اليوم معلومات إضافية عن وجود خياط بروتستانت. تحدث بيير عن وجود خياط بروتستانت كمزحة، وتبين أن تخمينه صحيح والغيبة سيلفي أكدت الأمر له. قد يكون هذا دليلاً لا يقدر بثمن.

كانت ملفات الكاردينال شارل تكبر، ولكن ما يدعو إلى العجب أن

شارل لم يعتقل أياً من البروتستانتين. خطط بيير لسؤاله منذ وقتٍ طويل عن الوقت الذي ينوي فيه بدء الهجوم.

كان في طريقه للقاء الكاردينال شارل إلا أنه ما يزال هناك متسع من الوقت قبل هذا. توجه إلى شارع سان مارتان وعثر على مكان عمل رينيه دوبوف. بدا المكان من الخارج كأبي بيتٍ باريسى عادي رغم أن نوافذه أكبر مقارنة ببقية البيوت وهناك علامة فوق الباب. دخل بيير المنزل.

صُنع بيير من جو الأناقة والترتيب فيه. كانت الغرفة مكتظة إلا أن كل شيء فيها كان منظماً. لفائف الحرير والصوف على الرفوف مرتبة بشكلٍ دقيق، ورتبت عُلب الأزهار حسب اللون ووضعت علامات صغيرة على الأدراج تشير إلى محتوياتها.

انحنى رجلٌ أصلع فوق طاولة يقصّ قطعة قماشٍ بمقصٍ هائل يبدو حاداً جداً. جلست في الخلف تحت ثريا حديدية امرأة جميلة تخطط على ضوء دزينة من الشموع، وتساءل نيد إن كانت ترتدي رقعة كُتب عليها زوجة. قد لا يكون هذان الزوجان البروتستانتين مصدرأ مهماً للمعلومات، ولكن يأمل بيير أن يلتقي ببعض الزبائن.

وضع الرجل مقصه وتقدّم لتحية بيير وقدم نفسه باسم دوبوف. نظر الرجل بإمعان إلى صدّار بيير المفتوح، فمن الواضح أنه كان يعاينه بعين خبير، وتساءل بيير إن كان دوبوف يعتقد أن صدّاره مبهرج جداً بالنسبة إلى بروتستانتني.

قدم بيير نفسه: «أحتاج إلى معطفٍ جديد. لا أريده مبهرجاً جداً بل باللون الرمادي الغامق».

«حسناً يا سيدي»، قال الخياط بحذر. «هل نصحك أحد بالقدوم إلي؟».

«صاحب المطبعة غيلز بالو».

استرخى دوبوف وقال: «أعرفه جيداً».

«إنه والد خطيبي».

«تهاني».

لقد تمّ قبول بيير، وهذه هي الخطوة الأولى.

كان دوبوف رجلاً ضئيل البنية رغم أنه كان يحمل لفائف القماش الثقيلة

من الرفوف بسهولة اكتسبها مع ممارسته للمهنة. اختار بيير قماشاً رماًدياً جداً إلى درجة السواد.

لسوء الحظ لم يأتِ زبائن آخرون، وتساءل بيير كيف يمكن له استغلال هذا الخياط البروتستانتى للحصول على المعلومات. لم يكن بوسع البقاء في المتجر طوال اليوم ليلتقي بالزبائن. يمكنه أن يضع رجلاً لمراقبة المكان، يستطيع غاستون لوبون نقيب حرس عائلة غيز أن يجد رجلاً حذراً للمراقبة ولكنه لن يعرف أسماء الرجال الذين سيأتون إلى هنا، ولهذا لن يكون الأمر مجدياً. عصر بيير رأسه مفكراً. لا بدّ أنّ هناك طريقة لاستغلال هذا الاكتشاف.

أخذ الخياط شريطاً طويلاً من الجلد الفاخر وبدأ يأخذ قياسات بيير، ويضع الدبابيس الملونة على الشريط لتحديد عرض كتفيه وطول ذراعيه ومحيط صدره وخصره.

«جسدرشيق يا سيد أوموند،» قال الخياط. «سيبدو المعطف لافتاً عليك». تجاهل بيير إطراء الخياط فقد كان يفكر بكيفية الحصول على أسماء زبائن دوبوف.

عندما انتهى دوبوف من أخذ قياسات بيير أراد أن يعرف أين يسكن زبونه لأنّه سيكون من السهل على أي أحد طلب معطف وتغيير رأيه وعدم العودة. وحتى إن كان لدوبوف ذاكرة خارقة ويستطيع تذكر كل زبون وكل طلب فإن غياب وثائق مكتوبة قد تقود إلى خلافات على الفواتير. إذاً لا بدّ أنّ دوبوف المهووس بالترتيب يضع ملاحظات.

كان على بيير أن يلقي نظرة على الدفتر، فتلك الأسماء والعناوين تنتمي إلى دفتره ذي الغلاف الجلدي الأسود الذي كتب فيه كل أسماء البروتستانتين الذين اكتشفهم.

«ما هو عنوانك يا سيدي؟» أعاد دوبوف.

«أعيش في كوليج ديزام».

اكتشف دوبوف أن محبرته جافة، وبضحكة محرّجة بعض الشيء قال: «اعذرني للحظة من فضلك بينما أحضر دواة جديدة». واختفى وراء الباب. رأى بيير الفرصة سانحة لينظر إلى الدفتر، ولكن من الأفضل أن يتخلص

من الزوجة الموجودة في المكان. ذهب إلى المكان الذي جلست فيه وتحدث معها. خمن بيير أنها في الثامنة عشرة وأصغر من زوجها الذي كان في الثلاثين.

«أتساءل إن كان بإمكانني الحصول على كأس صغير من النبيذ، فالجو ملوث بالغبار اليوم؟».

«بالطبع يا سيدي».

وضعت القطعة التي كانت تخطيها وخرجت.

فتح بيير دفتر الخياط، ووجد ما كان يتوقعه. كان يحوي على قوائم بأسماء وعناوين الزبائن مع تفاصيل الثياب والقماش الذي طلبوه والمبالغ المالية المدفوعة والمتبقية. عرف بعض هؤلاء البروتستانتين فقد كانت أسماءهم مدونة في دفتره. بدأ يشعر بالحماس. يحوي هذا الدفتر على قائمة بنصف أسماء المهرطقين في باريس، وستكون مصدراً لا يقدر بثمن للكاردينال شارل. تمنى لو كان يستطيع وضع الدفتر في صدّاره، ولكن سيكون هذا عملاً طائشاً. وبدلاً من هذا أخذ يحفظ أكبر عدد من الأسماء.

كان بيير ما يزال يحاول حفظ الأسماء في الدفتر عندما أتاه صوت دوبوف من الخلف.

«ما الذي تفعله؟».

بدا الخياط شاحباً وخائفاً. وفكر بيير بأنّ لديه الحق بأن يكون كذلك فقد ارتكب خطأً رهيباً بتركه للدفتر على الطاولة. أغلق بيير الدفتر وابتسم ثمّ قال: «مجرد فضول فلتسامحني».

«إن الدفتر خاص»، قال دوبوف بقسوة، ورأى بيير أنّ دوبوف قد فقد أعصابه.

«يبدو أنني أعرف معظم زبائنك. يسعدني أن أرى أصدقائي يدفعون فواتيرهم». قال بيير باستخفاف. لم يضحك دوبوف ولكن ما الذي يسعه القيام به.

بعد مرور دقيقة فتح دوبوف الدواة الجديدة وغمس القلم فيها ثمّ كتب اسم بيير وعنوانه.

أتت الزوجة وقالت وهي تقدم الكأس لبيير: «النبيذ يا سيدي».

«شكراً لكِ فرانسواز،» قال دوبوف.

لاحظ بيير أن لفرانسواز جسداً جميلاً، وتساءل عما أعجبها في العجوز دوبوف. ربما فكرة حياة مريحة مع زوج غني، أو ربما الحب.

«هلاً تفضلت بالعودة مجدداً بعد أسبوع من اليوم. سيكون معطفك جاهزاً لتجربه، وستكون كلفته خمسة وعشرين جنياً.»

«رائع.»

عرف بيير أنه لن يعرف المزيد من دوبوف اليوم لذلك شرب النبيذ وغادر. لم يُطفئ النبيذ عطشه، ولهذا توجه إلى أقرب حانة وطلب إبريقاً من الجعة. اشترى أيضاً قطعةً من الورق واستعار ريشةً وحبراً. أخذ يكتب وهو يشرب الجعة: «ربنيه دوبوف خياط يعيش في شارع سان مارتان مع زوجته فرانسواز دوبوف.» ثم أضاف الأسماء والعناوين التي حفظها من الدفتر. جفف الحبر ووضع الورقة داخل صدّاره. سينقل المعلومات إلى دفتره الأسود لاحقاً.

وبينما كان يتجرع شرابه تساءل متى سيستخدم الكاردينال شارل كل هذه المعلومات. ولكن يبدو أن الكاردينال في الوقت الراهن مكتفٍ بتجميع الأسماء والعناوين إلى أن يحلّ الوقت الذي سينقُص فيه، وستقع مذبحه في ذلك اليوم. سيشارك بيير الكاردينال انتصاره. تحرّك بصعوبة على مقعده الخشبي في الحانة بينما فكر بالمئات من الرجال والنساء ممن سيسجنون ويُعذبون بل وحتى يُحرقون أحياءً. كان العديد منهم متزمتين متعالين، وسيكون سعيداً برؤيتهم يتعذبون وخاصة الماركيزة لويز، ولكن هناك آخرين كانوا لطفاء معه، ورحبوا به في كنيستهم في كوخ الصيد، ودعوه إلى منازلهم، وأجابوا على أسئلته الماكرة بأمانة وصراحة جعلته يجفّل عندما فكر بأنّه كان يخدعهم. منذ ثمانية عشر شهراً كان يعيش عالة على أرملة شهوانية، ولكن بدا له كأن هذا حصل منذ زمنٍ بعيد.

أنهى شرابه وغادر. كانت المسافة قصيرة حتى شارع سان أنطوان حيث تقام مباراة المبارزة بالسيف. كانت باريس تحتفل مجدداً بعد توقيع المعاهدة مع إسبانيا. كان الملك هنري الثاني يحتفل بالسلام متظاهراً بأنّه لم يخسر الحرب.

كان شارع سان أنطوان أعرض شوارع باريس، ولهذا السبب استخدموه

لإقامة المباراة. على طول أحد جوانب الشارع امتد قصر تورنيل الهائل والمتهالك، واكتظت نوافذه بالمتفرجين الملكيين والأرستوقراطيين وقد بدت ألوان ثيابهم الغالية الثمن كرف من الصور الزاهية اللون. أما على الجانب الآخر من الشارع فتدافع الناس من العامة من أجل الوقوف، وبدت ثيابهم الرخيصة البنية بكل درجاتها كأرضٍ شتائية محروثة. كانوا يقفون أو يجلسون على كراسٍ خشبية جلبوها معهم أو جلسوا من دون ثبات على حواف النوافذ وسطوح المنازل. كانت المباراة مشهداً عظيماً وما يزيد سحرها احتمال وقوع إصابة أو وفاة أحد المتنافسين الذين يتمون إلى عليّة القوم.

دخل بيير إلى القصر، وقدمت له الخادمة أوديت ذات العشرين ربيعاً والشهوانية رغم قبحها صحناً من الكعك. ابتسمت له في تودد، وكشفت ابتسامتها عن أسنان معقوفة. كانت معروفة بأنها سهلة المنال ولكن بيير لم يكن مهتماً بالفتيات من طبقة الخدم، بل أراد الحصول على إحدى قاطنات قصر تونوس لي جوانفيل، إلا أنه كان سعيداً برؤيتها لأن هذا يعني أن فيرونيك الجميلة في مكان قريب.

«أين سيدتك؟» سألها بيير.

تجهمت أوديت وأجابت: «الآنسة في الطابق العلوي».

تجمع معظم أفراد الحاشية في الطابق العلوي بنوافذه المطلة على ساحة المباراة. كانت فيرونيك جالسة إلى طاولة تضحك كالفتيات الأرستوقراطيات وتشرب مشروباً كحولياً مع عصير فاكهة. رغم أنها نسيبة بعيدة للإخوة غيز ومن بين أفراد العائلة الأقل أهمية إلا أنها كانت نبيلة. ارتدت ثوباً أخضر كامداً من قماش حريري وكتاني. بدا الفستان خفيفاً جداً إلى درجة أنه طفا حول جسدها الرائع. كانت فكرة أن يحظى بامرأة نبيلة مثلها عارية بين ذراعيه كفيلة بجعل رأس بيير يدور. كانت هذه الفتاة التي يريد الزواج منها وليست الابنة البرجوازية لصاحب المطبعة البروتستانتية.

عندما التقاها للمرة الأولى عاملته فيرونيك بشيء من الاحتقار، ولكن مع مرور الوقت بدأت تلين أكثر. لم يعلموا عنه سوى أنه ابن كاهن ريفي، ولكنهم عرفوا أنه قريب من الكاردينال شارل القوي، ومنحه هذا مكانة خاصة.

انحنى لها وسألها إن كانت تستمتع بالمباراة.
«ليس كثيراً،» أجابته.

ابتسم لها بأكثر ابتساماته سحراً وقال: «ألا تحيين رؤية الرجال ينطلقون
بسرعة على الخيول وإيقاع أنفسهم عنها؟ كم هذا غريب.»
ضحكت وقالت: «أفضل الرقص.»
«وأنا أيضاً. لحسن الحظ ستقام حفلة الليلة.»
«بالكاد يسعني الانتظار.»

«أتطلع قدماً لرؤيتك هناك. يجب أن أتحدث إلى عمك شارل. اعذرني.»
انتابه شعور جيد من هذا اللقاء السريع. لقد جعلها تضحك، وعاملته
كصنو لها تقريباً.

كان شارل في الغرفة الجانبية مع صبي صغير بشعرٍ أشقر من عائلة غيز.
كان هذا ابن أخيه هنري البالغ ثمانية أعوام وأكبر أبناء ذي الندبتين. وبما أن
بيير يعلم أن الصبي سيصبح يوماً ما الدوق غيز انحنى له وسأله إن كان يحظى
بوقتٍ ممتع.

«لم يسمحوا لي بالمبارزة،» قال هنري. «ولكنني أراهن بأنني أركب
الأحصنة جيداً.»

«أسرع يا هنري سيكون هناك مباراة أخرى بعد قليل يجب ألا تفوتها،»
قال شارل.

غادرهما هنري وأشار شارل إلى بيير ليجلس على كرسي.
خلال فترة العام والنصف التي عمل فيها بيير جاسوساً لشارل تغيرت
علاقتهما. كان شارل ممتناً له على الأسماء والعناوين التي أحضرها،
وأصبح ملفه السري عن البروتستانتين الباريسيين أكبر مما كان عليه قبل
قدوم بيير. استمر شارل بالتصرف معه باحتقارٍ وتعالٍ، ولكن هذا ما كان
يفعله مع الجميع ولكن يبدو أنه كان يحترم رأي بيير. كانا يتحدثان أحياناً في
القضايا السياسية العامة، وأصغى شارل إلى وجهات نظر بيير حولها.

«لقد وقعت على اكتشاف،» قال بيير. «العديد من البروتستانتين
يستعينون بخياط في شارع سان مارتان. يحتفظ الخياط بدفترٍ صغير بكل
أسمائهم وعناوينهم.»

«هذا منجم ذهب!» قال شارل. «يا إلهي إن هؤلاء الناس يزدادون وقاحة».

«شعرت بإغراء حملة والركض به هرباً في الشارع».
«لا أريدك أن تكشف نفسك بعد».

«لا، ولكن يوماً ما سأخذ ذلك الدفتر». وضع بيير يده في صدّاره. «في هذه الأثناء كتبت العديد من الأسماء والعناوين التي استطعت تذكرها». وسلّم الورقة لشارل.

قرأ شارل القائمة وقال: «إنها قائمة مفيدة جداً».

«اضطرت إلى طلب معطف من الخياط». ورفع بيير من سعر المعطف:
«سيكلف خمسة وأربعين جنيهاً».

أخذ شارل قطعاً نقدية من محفظته. أعطى بيير عشرين عملة كل واحدة منها تساوي جنيهين ونصف الجنيه وقال له: «سيكون معطفاً جميلاً».

«متى سننقض على هؤلاء المنحرفين؟ أصبح لدينا أسماء مئات البروتستانتين الباريسيين».
«كُن صبوراً».

«إن تخلصنا من كل مهرطق سينقص عدد الأعداء. لماذا لا نتخلص منهم».
«عندما نقضي عليهم نريد أن يعلم الجميع أنّ عائلة غيز من فعلت هذا».
بدا هذا الكلام منطقياً لبيير: «أفترض أن الغاية أن تريح العائلة إخلاص الكاثوليكين المتشددين».

«وسيُصنف من ينادون بالتسامح الديني ومن هم غير متحيزين ومن نصفهم بروتستانتني ونصفهم كاثوليكي بالبروتستانتين».

فكر بيير بأن هذه الحركة من جانب شارل تنم عن دهاء. كان أسوأ أعداء عائلة غيز ومن يدعون إلى التسامح الديني قادرين على تقويض قاعدة قوة العائلة بأكملها، ولذلك يجب دفع هؤلاء إلى الانحياز إلى أحد الطرفين. لطالما انبهر بيير ببراعة شارل السياسية.

«ولكن كيف سنكون مسؤولين عن القضاء على المهرطقين».

«سيكون فرانسيس الشاب الملك يوماً ما. لم يصبح بعد ولكن نأمل أن يحقق استقلاله عن الملكة كاترينا، ويصبح تحت التأثير التام لزوجته، نسيبتنا

ماري ستوارت. ولكن عندما يحدث هذا...» لوح شارل بالورقة التي قدمها بيير. «سنستخدم هذه».

شعر بيير بالإحباط وقال: «لم أكن أعلم أنك تفكر على المدى الطويل. إن هذا من شأنه أن يوقعني في متاعب».

«لماذا».

«أنا وسيلفي بالو مخطوبان منذ أكثر من عام، ولم يعد لدي أيّ أعذار لتأجيل الزفاف».

«فلتزوج من العاهرة»، قال شارل.

بدا بيير مرتعباً: «لا أريد أن أتورط مع زوجة بروتستانتية».

هزّ شارل كتفيه: «لم لا؟».

«هناك امرأة أخرى أرغب بالزواج منها».

«حقاً، من؟».

كان الوقت قد حان ليُخبر شارل بالجائزة التي أرادها مقابل عمله معه.

«فيرونيك دي غيز».

ضحك شارل بصوت عالٍ وقال: «أيها المتعجرف حديث النعمة تريد

الزواج من قريبتني؟ هذا غرور شيطان. لا تكن سخيفاً».

شعر بيير بالحرارة تهبط من جبهته وحتى حنجرته. لقد أخطأ في اختيار

الوقت وبالتالي تعرّض للإهانة.

«لم أفكر بالأمر كطموح كبير»، اعترض بيير. «إنها قريبة بعيدة».

«إنها ابنة نسيب ماري ستوارت التي ستصبح ملكة فرنسا يوماً ما! من

تعتقد نفسك؟» لوح شارل بيده في رفض. «هيا اخرج من هنا».

نهض بيير وغادر.

استمتعت أليسون ماكي بحياتها بعد أن أصبحت ماري ستوارت زوجة

فرانسيس بدلاً من أن تكون مجرد خطيبته. ارتفعت مكانة ماري وبالتالي

ارتفعت مكانة أليسون، وأصبح لديهما خدم وفساتين ومال أكثر. انحنى

الناس لماري بقوة أكبر ولوقتٍ أطول. لقد أصبحت الآن ومن دون جدال،

من العائلة المَلَكيّة الفرنسيّة. أحبّت ماري الأمر وأليسون أيضاً. كان المستقبل يُخبئ الكثير من هذا لأنّ ماري ستُصبح يوماً ما ملكة فرنسا.

كانتا اليوم في أفخم غرفة في قصر تورنيل وأمام أكبر نافذة حيث تستقبل حماة ماري الملكة كاترينا الضيوف. ارتدت كاترينا ثوباً من قماش متعدد الطبقات بلون ذهبي وفضي لا بدّ أنّه كلف ثروة. كان الوقت أواخر بعد الظهر، ولكن لم يكن الطقس حاراً والنافذة مفتوحة ليدخل النسيم العليل.

دخل الملك وفاحت منه رائحة عرقٍ حارة وقوية. وقف الجميع باستثناء كاترينا. بدا هنري سعيداً. كان في الأربعين تماماً كزوجته، وفي شبابه كان وسيماً وقوياً ومليئاً بالطاقة. أحبّ المبارزة وكان يربح اليوم بل وأوقع دوق غيز ذا النَّدبتين وأكبر جنرالاته عن أحصنتهم.

«جولة أخرى فقط،» قال لكاترينا.

«لقد بدأ الوقت يتأخر،» احتجت كاترينا بلغة فرنسية مع لكنة إيطالية واضحة لم تفقدها قط. «وأنت متعب. لمَ لا ترتاح الآن؟».

«ولكني أقاتل من أجلك!» قال هنري.

لم تلقَ بادرة الشهامة التي أبداها هنري نحو كاترينا أصدقاءً جيدة فيها هي كاترينا تنظر بعيداً وماري تعبس. لقد رأى الجميع الأشرطة السوداء والبيضاء التي وضعها هنري على رمحه وهي ألوان ديان بوتيه. لقد أغوت ديان هنري بعد عام من زواجه بكاترينا التي قضت السنوات الخمس والعشرين الماضية تتظاهر بأنّها تجهل هذا. كانت ديان أكبر عمراً، وستبلغ الستين خلال بضعة أسابيع ولدى هنري محظيات أخريات الآن ولكن ديان كانت حُبّ حياته. اعتادت كاترينا على الوضع، ولكن ما زال بإمكان هنري أن يجرحها من دون مبالاة.

وضع هنري درعه وغادر. بعد رحيله تعالت أصوات الأحاديث بين السيدات. أومأت كاترينا إلى أليسون حتى تقترب. لطالما عاملت الملكة أليسون بود لأنّها كانت صديقة جيدة لفرانسيس المريضة. أدارت كاترينا نصف ظهرها لبقية المجموعة في إشارة إلى أنّ حديثها مع أليسون خاص، وقالت بصوتٍ خفيض: «لقد مرّ أربعة عشر شهراً».

فهمت أليسون إلى ما أشارت إليه كاترينا. إنّها المدة التي مضت على زواج ماري وفرانسيس.

«إنها ليست حاملاً» قالت أليسون.
«هل من خطب ما؟ لا بد أنك ستعرفين».
«تقول إنه لا يوجد خطب».
«ولكنك لا تصدقينيها».
«لا أعلم ما الذي يجب أن أصدقه».

«واجهت صعوبة في الحمل في بداية زواجي»، قالت كاترينا.
«حقاً؟» بدت أليسون مذهولة. لقد أنجبت كاترينا عشرة أطفال لهنري.
هزّت الملكة رأسها وقالت: «كنت مضطربة جداً خاصة بعد إغواء السيدة
لزوجي». كان هذا الاسم الذي أطلقه الجميع على ديان. «كنت أعشقه وما
زلت، ولكنها فازت بقلبه. اعتقدت أنه يمكنني أن أربحه إن أنجبت طفلاً.
استمر بالنوم معي. لقد أمرته بهذا كما عرفت لاحقاً».
جفلت أليسون فقد كان من المؤلم سماع هذا.
«ولكن لم أحمل».
«ما الذي فعلته؟».

«انتابني اليأس فكنت في الخامسة عشرة وبعيدة عن عائلتي»، ثم
أخفضت صوتها: «ولذلك تجسست عليهما».

صُدمت أليسون وشعرت بالخرج من هذه المعلومة الحميمة، ولكن
كاترينا كانت في مزاج مناسب لقص حكاية. لقد وضعت عبارة «من أجلك
أقاتل» الملكة في مزاج غريب.

«اعتقدت أنني كنت أقوم بالأمر مع هنري بشكل غير صحيح. أردت أن
أعرف إن كانت السيدة تستخدم طرقاً أخرى مختلفة». تابعت كاترينا. «كانا
ينامان بعضهما مع بعض بعد الظهر. عثرت وصيفاتي على مكان يمكنني
مراقبتهما منه».

فكرت أليسون بهذه الصورة المثيرة للذهول. كانت الملكة تحديق في
ثقب ما إلى زوجها في السرير مع عشيقته.

«كان من الصعب عليّ أن أنظر، ولكن عشقه لها كان واضحاً، ولم أتعلم
أي شيء. كانا يلعبان ألعاباً لا أعرفها ولكنه كان يضاجعها في النهاية كما كان
يضاجعني. كان الفرق الوحيد أنه كان يستمتع بصحبتها كثيراً».

تحدثت كاترينا بصوتٍ جافٍ ومرير. لم تكن أليسون عاطفية إلا أنها كادت تبكي. لا بدّ أنّ الأمر حطم قلب كاترينا. أرادت أليسون أن تطرح أسئلة، ولكنها خافت من أن تعكر مزاج الملكة الاعترافي.

«جربت كل أنواع العلاجات وبعضها كان مقرفاً ككمادات الروث على مهبلي. ولكن ما من شيء نفع، ثم قابلت الطبيب فيرنيل وعرفت ما الذي كان يمنعني من الحمل».

بدت أليسون مذهولة وسألت: «ما هو؟».

«إن عضو الملك قصير وسمين، كان جميلاً ولكنه ليس طويلاً. لم يكن يدخله كثيراً وغشاء بكارتي لم يتمزق قط لهذا لم يصل سائله المنوي. مزق الطبيب الغشاء بأداة خاصة وبعد شهر حملت بفرانسيس على الفور.

سُمع صوت هتاف من الحشد خارجاً كأنهم كانوا يصغون إلى القصة وعرفوا بنهايتها السعيدة. تكهنت أليسون أنّ الملك صعد على حصانه من أجل جولة جديدة. وضعت كاترينا يدها على ركة أليسون كأنها تمنعها من المغادرة.

«لقد توفي الطبيب فيرنيل ولكن ابنه طيب ماهر مثله». قالت كاترينا.

«أخبري ماري أن تذهب لزيارته».

تساءلت أليسون عن السبب الذي يمنع الملكة من إيصال الرسالة إلى ماري بنفسها.

يبدو أنّ الملكة قرأت ما يجري في ذهن أليسون وقالت: «لماري كبرياء عالية. إن أعطيتها إحياءً بأنني أفكر بأنّها قد تكون عاقراً فستشعر بالإهانة. من الأفضل أن تأتي هذه النصيحة من صديقتها وليس من حماتها».

«فهمت».

«فلتقومي بهذا كمعروفٍ لي».

كان لطفاً من الملكة أن تطلب شيئاً يسعها أن تأمر به.

«بالطبع»، قالت أليسون.

نهضت كاترينا وتوجهت إلى النافذة، واحتشد جميع من في الغرفة حولها بمن فيهم أليسون وراقبوا المباراة.

على طول الشارع كان هناك سياجان يطوقان مساراً طويلاً وضيقاً. وقف الملك على حصانه مالرورو عند إحدى النهايتين وفي النهاية الأخرى وقف

الكونت غابرييل مونتغمري. وهناك في وسط المسار حاجز لمنع الحصانين من الاصطدام بعضهما ببعض.

كان الملك يتحدث إلى مونتغمري في وسط الميدان. لم يكن بالإمكان سماع كلماتها من نافذة القصر، ولكنهما كانا يبدوان كأنهما يتجادلان. كانت المباراة في نهايتها وبعض المتفرجين قد غادروا، ولكن أليسون فكرت بأن الملك المولع بالقتال أراد أن يقوم بجولة أخيرة. ثم رفع الملك صوته وسمعه الجميع يقول: «هذا أمر».

أحنى مونتغمري رأسه في طاعةٍ ووضع خوذته. فعل الملك الشيء عينه وعاد الرجلان إلى نهاية المسار. أنزل هنري حافة الخوذة الأمامية. سمعت أليسون الملكة تقول: «أحكم إغلاقها يا عزيزي». وأحكم هنري عذقة الجزء الذي يحمي العينين.

كان هنري عجبواً، ولم ينتظر حتى تعلن الأبواق البداية فوكز حصانه وانطلق، وفعل مونتغمري الأمر عينه.

كانا على حصاني حربٍ كبيرين وقويين جداً، وصدر عن حوافرهما صوت يشبه صوت عملاقٍ يضرب الأرض بمضربين هائلين. شعرت أليسون بنبض قلبها يتسارع من الحماس والخوف. زاد الراكبان من سرعتهما. هلل الجمهور بجنون بينما اندفع حصانا الحرب بعضهما باتجاه بعض والأشرطة تتطاير مع الهواء. رفع الرجلان رمحيهما الخشبيين باتجاه العائق في الوسط. كانت نهايتا الرمحين غير حادثين. لم يكن الهدف إصابة الغريم بل إيقاعه عن سرجه. شعرت أليسون بالسعادة لأنها رياضة خاصة بالرجال فقد كانت ستصاب بالرعب لو مارستها.

اقرب الحصانان الضخمان مع الرجلين الراكبين عليهما وخلال جزء من الثانية ضربت النهاية المكسورة من رمح مونتغمري وجه الملك. ترنح الملك عن السرج وكأنه يفقد الوعي. صرخت كاترينا في رعبٍ.

رأت أليسون الدوق ذا الندبتين يقفز فوق السياج ويركض نحو الملك ولحق به المزيد من النبلاء. أوقفوا الحصان ورفعوا الملك عن السرج بجهد كبير بسبب الدرع الثقيل وأنزلوه إلى الأرض.

ركض الكادرينال شارل وراء أخيه ذي الندبتين ولحق به بيير. عندما أزالوا الخوذة بحذر رأوا على الفور أنّ الملك يعاني من جرح خطير. كان وجهه مغطى بالدم. وهناك شظية سميكة عالقة في عينه، وشظايا أخرى في وجهه. استلقى بثبات وكأنّه مخدر من الألم وشبه مغمى عليه. كان طبيبه بين الحاضرين من أجل مثل هذه الحوادث وركع بالقرب من المريض. نظر شارل بعناية إلى الملك لوقتٍ طويل ثمّ ابتعد وهمس لبيير: «سيموت».

كان بيير مأخوذاً بما جرى، فما الذي يعنيه هذا بالنسبة لعائلة غيز التي ارتبط مستقبله بمستقبلها. كانت الخطة طويلة الأمد التي أوضحها له شارل قد ذهبت أدراج الرياح. شعر بيير بتوترٍ أقرب إلى الهلع. «لقد حصل الأمر باكراً جداً،» قال بيير.

أدرك بيير أن صوته كان عالياً بشكل غريب، وجاهد ليتحدث بهدوء أكبر ثمّ قال: «لا يمكن لفرانسييس أن يحكم البلد». ابتعد شارل عن الحشد حتى لا يسمعه أحد رغم أنّ اهتمام الجميع كان منصباً على الملك.

«وفقاً للقانون الفرنسي يمكن للملك أن يحكم في الرابعة عشرة وفرنسييس في الخامسة عشرة».

«صحيح». بدأ بيير يفكر بجدية وقد تراجع فزعه وسيطر المنطق على عقله. «ولكن سيكون لفرانسييس مساعدون، ومن سيصبح أقرب مستشاريه سيكون الملك الحقيقي لفرنسا».

رمى بيير بالحذر أدراج الرياح واقترب من شارل ثمّ تحدث بصوتٍ منخفض وسريع: «يجب أن تكون ذلك الرجل أيها الكادرينال».

ألقي شارل على بيير نظرة ثاقبة من ذلك النوع الذي يعرفه بيير والذي يعني أنّ بيير قال شيئاً تفاجأ به شارل ولم يفكر به قبلاً.

«أنت على حق،» قال شارل ببطء. «ولكن الخيار الطبيعي سيكون أنطوان بوربون. إنه أمير بالدم».

كان الأمير بالدم ذكراً وسليلاً ملكياً مباشراً. يُعتبر مثل هؤلاء الأمراء من

أرقى الأرسطوقراطيين خارج العائلة المَلَكِيَّة نفسها، ولهم الأولوية على بقية النبلاء. كان أنطوان أكبر أمراء الدم.

«لا سمح الله،» قال بيير. «إن أصبح أنطوان المستشار الأول للملك فرانسيس الثاني فإنَّ سلطة عائلة غيز ستنتهي». وأضاف بينه وبين نفسه: «ومهنتي أيضاً».

كان أنطوان ملك نافار البلد الصغير الذي يقع بين فرنسا وإسبانيا. والأهم من هذا كله كان رب عائلة بوربون التي تُعتبر، مع عائلة مونتورنسي، من ألد أعداء عائلة غيز. كانت سياساتهم الدينية مرنة، ولم يكن التحالف بين عائلتي بوربون ومونتورنسي شديدة الوطأة على المهرطقين على عكس موقف عائلة غيز، وبالتالي كان البروتستانتيون يميلون إليهما. ولكن مثل هذا الدعم لم يكن موضع ترحاب على الدوام، فإنَّ تحكُّم أنطوان بالفتى الملك ستفقد عائلة غيز قوتها. لم يكن الأمر بحاجة إلى الكثير من التفكير.

«أنطوان غبي ومتهم بالبروتستانتية،» قال شارل.

«وفوق هذا كله إنه غريب عن المكان.»

«أجل إنه يسكن في بو.»

يقطن ملوك نافار في سفوح جبال البيرينيه التي تبعد مئة ميل عن باريس. «ولكن سيصل الرسل إليه قبل هبوط الظلام». قال بيير بالحاح. «يمكنك تحييد أنطوان إن تصرفت بسرعة».

«يجب أن أتحدث إلى ابنة أختي ماري ستوارت فهي ستصبح ملكة فرنسا. يجب أن تُقنع الملك الجديد برفض أنطوان كمستشار له.»

هزَّ بيير رأسه. كان شارل يفكر ولكن بيير سبقه في التفكير: «ماري طفلة جميلة لا يمكن الاعتماد عليها في أمرٍ بهذه الأهمية.»

«إذاً كاترينا.»

«إنها متعاطفة مع البروتستانتين وقد لا تعترض على أنطوان. لدي فكرة أفضل.»

«تابع.»

كان شارل يصغي إلى بيير وكأنه ندُّ له. شعر بيير بدفقٍ من السعادة. فهذا هي فطنته السياسية تكسبه احترام أهم السياسيين في فرنسا.

«اطلب من كاترينا أن تقبل بك وبأخيك كأهم مستشاري الملك وبالمقابل ستنتفي ديان بوتيه من البلاط لبقية حياتها».

فكر شارل لوقتٍ طويل ثم هز رأسه ببطءٍ ولمرة واحدة فقط.

ابتهجت أليسون سراً بإصابة الملك هنري. ارتدت ثياب الحداد البيضاء بل وتمكنت من اصطناع الدموع بين الحين والآخر. ولكن كل هذا كان مجرد استعراض، فقد كانت في قلبها سعيدة لأن ماري على وشك أن تصبح ملكة فرنسا وستكون الصديقة المقربة للملكة!

حُمل الملك إلى قصر تورنيل واجتمع البلاط في غرفة المريض. احتضر هنري لوقتٍ طويل، ولكن لم يكن هناك شك في موته المحتم. كان من بين الأطباء أمبروز باريه الجراح الذي سحب السهم من خدي الدوق فرانسوا غيز الذي خلف وراءه ندبتين كانتا السبب في اللقب الذي حصل عليه. قال باريه إنه في حال اخترقت الشظية عين الملك فقط فسينجو ما لم تُصب العين بعدوى قاتلة، ولكن كان الوضع أسوأ فالشظية اخترقت الدماغ. أجرى باريه تجارب على أربعة مجرمين مدانين بأن وضع شظية في عيونهم مقلداً جرح الملك، ولكنهم ماتوا جميعاً وبالتالي لم يكن هناك أمل بنجاة الملك.

كان زوج ماري ستيوارت البالغ خمسة عشر عاماً، الذي سيصبح الملك فرانسيس الثاني عما قريب، يتصرف بشكل طفولي فقد استلقى على السرير وأخذ ينوح بصوتٍ مكموم ويرتجف بتواترٍ مجنون، واضطروا إلى تقييده لمنعه من ضرب رأسه بالحائط. حتى ماري وأليسون، صديقتاه منذ الطفولة، امتعضتا من عجزه.

أما الملكة كاترينا التي لم تملك زوجها قط فكانت مضطربة جداً من فكرة خسارته. على أي حال كشرت عن جانبها القاسي من خلال منع غريمته ديان بوتيه من رؤية الملك. ولمرتين رأت أليسون كاترينا مأخوذة بالحديث مع الكاردينال شارل الذي كان يقدم لها العزاء الروحي أو في الغالب يساعدها على وضع خطة من أجل انتقال سلس للعرش. وفي كلتا المرتين كان معهما بيير أوموند الشاب الجميل والغامض الذي ظهر فجأة منذ أكثر من عام ويرافق شارل كثيراً.

في صباح التاسع من يوليو مُسح جسد الملك هنري بالزيت المقدس.
بعد الساعة الواحدة بقليل كانت ماري وأليسون تتناولان الطعام في
جناحهما في القصر عندما أتى بيير أو موند. انحنى بيير بشدة وقال لماري:
«إن الملك يقترب من الموت يجب أن نتصرف بسرعة».

كانت هذه اللحظة التي انتظروها جميعاً.

لم تتظاهر ماري بأنها مضطربة أو هستيرية. ابتلعت طعامها ثم وضعت
سكينها وملعقتها ومسحت شفيتها بمنديل وقالت: «ما الذي يتوجب عليّ
فعله؟» شعرت أليسون بالفخر من التماسك الذي كانت عليه سيدتها.

«يجب أن تساعدي زوجك. إن دوق غيز معه الآن وستوجه جميعاً على
الفور مع الملكة كاترينا إلى اللوفر». قال بيير.

«أنت تتصرف بالنيابة عن الملك الجديد»، قالت أليسون.

نظر بيير بحدة نحوها. أدركت أليسون أنه رجل من ذلك النوع الذي لا
يرى سوى الأشخاص المهمين ويعتبر البقية غير مرتين، ولكنه نظر إليها
الآن باحترام.

«هذا صحيح. لقد وصلت الملكة الأم إلى اتفاق مع خالي سيدتك
فرانسوا وشارل. إنه وقت خطر وسيحتاج فرانسيس إلى مساعدة زوجته
الملكة ماري أكثر من أي أحد آخر».

علمت أليسون أن ما قاله بيير هراء، فقد أراد فرانسوا وشارل من الملك
أن يطلب عونهما، ولم تكن ماري سوى غطاء لهذا. ففي هذه اللحظات
الغامضة التي ترافق دوماً وفاة أي ملك، لا يكون الملك الجديد الرجل
صاحب السلطة بل من يساعده، ولهذا السبب قالت أليسون «بالنيابة» وهذا
أثار انتباه بيير إلى أن أليسون تفهم ما يجري.

فكرت أليسون أن ماري قد لا تفهم ما يجري، ولكن هذا غير مهم فقد
كانت خطة بيير مناسبة لماري التي ستغدو قوية أكثر في تحالفها مع خاليتها،
على العكس مما سيحدث إن سيطر أنطوان بوربون على فرانسيس لأنه وقتئذ
سيقوم بتحييد ماري. عندما نظرت ماري إلى أليسون مستفسرة، أو مأت لها
أليسون إيماة بسيطة.

«حسناً» قالت ماري وهي تنهض.

وبالنظر إلى وجه بيير انتهت أليسون إلى أنه لم يفشل في ملاحظة ما جرى.

توجهت أليسون مع ماري إلى غرفة فرانسيس ولحق بهما بيير. كان هناك جنود على باب الغرفة. عرفت أليسون قائدهم غاستون لوبان من هيئته الخشنة. كان لوبان قائد مجموعة الرجال الأجلاف الذين يعملون تحت إمرة عائلة غيز. استنتجت أليسون أنهم كانوا قادرين على تثبيت فرانسيس بالقوة عند الضرورة.

كان فرانسيس يتحجب وهو يرتدي ثيابه بمساعدة الخدم. كان الدوق ذو الندبتين والكاردينال شارل هناك يراقبان بنفاد صبرٍ وبعد قليل دخلت الملكة كاترينا. أدركت أليسون أنّ هذه المجموعة هي التي تتسلم زمام الأمور. لقد عقدت والدة فرانسيس صفقة مع خالي ماري.

فكرت أليسون بالشخص القادر على إيقافهم. كان المرشح الأساسي دوق مونتورنسي الذي يحمل لقب «شرطي فرنسا». ولكن حليف مونتورنسي الملكي أنطوان بوربون لم يكن أسرع من عائلة غيز فهو لم يصل إلى باريس بعد.

رأت أليسون أن عائلة غيز في وضع قوي وتملك كل الحق في التصرف بعجل، فالأمور تتغير بسرعة، وأيّ أفضلية لن تكون ذات فائدة ما لم تستغل. «سيشغل الملك الجديد والملكة الجناح الملكي في قصر اللوفر على الفور، وسينتقل الدوق غيز إلى جناح ديان بوتيه والكاردينال شارل سيعيش في جناح الدوق مونتورنسي». قال بيير.

فكرت أليسون بأنّ هذه خطوة ذكية وقالت: «إذاً ستحظى عائلة غيز بالملك والقصر».

بدا بيير راضياً عن نفسه وتكهنت أليسون أنّ الفكرة فكرته ثمّ أضافت: «إذاً، لقد نجحت بتحديد الخصوم بفعالية».

«ليس هناك أيّ خصوم»، قال بيير.

«بالطبع لا»، قالت أليسون. «يا لي من غبية».

نظر إليها بشيء من الاحترام، وأشعرها هذا بالرضا، وأدركت أنّها كانت منجذبة إلى هذا الشاب الذكي والواثق من نفسه، وفكرت بأنهما قد يصبحان

حليفين أو ربما أكثر من هذا. بما أن أليسون قد عاشت معظم حياتها في البلاط الفرنسي لم تفكر بالزواج بالطريقة التي فكر فيها النبلاء الذين كانوا يرون الزواج نوعاً من التحالف الاستراتيجي أكثر مما هو رابطة حب. قد تكون هي وببير زوجين مناسبين. في النهاية لن يكون من السيئ حقاً أن تستيقظ صباحاً إلى جانب وجه كهذا الوجه.

هبطت المجموعة الدرج المهيب، وعبرت الردهة، ثم توجهت إلى الدرج الخارجي.

خارج البوابة احتشد الباريسيون بانتظار معرفة ما حدث. هللوا عندما رأوا فرانسيس فهم يعلمون أيضاً أنه سيكون ملكهم عما قريب.

اصطفت العربات في الساحة الأمامية يحرسها المزيد من الرجال الأشداء الذين يعملون لدى عائلة غيز. لاحظت أليسون أن العربات مصفوفة حتى يرى الجميع من سيصعداها.

فتح غاستون لوبان باب العربة الأولى. مشى دوق غيز ببطء إلى الأمام مع فرانسيس، وعرف الجميع أن الملك تحت سيطرة ذي الندبتين. فكرت أليسون أن هذا كله قد تم التحضير له مسبقاً.

توجه فرانسيس إلى العربة وصعد عتبتها الوحيدة ثم دخل دون أن يجعل من نفسه أضحوكة، وشعرت أليسون بالراحة كثيراً على هذا.

لحقت به كاترينا وماري. عند العتبة تراجعت ماري لتسمح لكاترينا بالصعود أولاً، ولكن كاترينا هزت رأسها وانتظرت. وبرأسٍ شامخٍ للأعلى صعدت ماري إلى العربة.

سأل بيير كاهن الاعتراف: «هل يُعتبر الزواج من دون حب خطيئة». كان الأب موينو كاهناً سميناً بوجه مربع في الخمسين من عمره. تحوي مكتبته في الكوليج ديزام على كتبٍ أكثر مما في متجر والد سيلفي. كان مثقفاً نيقاً ويستمتع بصحبة الشبان وله شعبية بين طلابه. كان موينو يعرف بكل العمل الذي يقوم به بيير لمصلحة الكاردينال شارل.

«بالطبع لا»، أجاب بصوتٍ جهوري جداً وخشن بعض الشيء بتأثير ولعه بنبذ الكاناري.

«النبلاء مجبرون على القيام بهذا، وقد يعتبر زواج الملك بدافع الحب خطيئة»، قال ضاحكاً فقد كان يستمتع بالتناقضات كأى معلم.
ولكن بيير لم يكن في مزاج المزاح: «سأدمر حياة سيلفي».
كان موينو مولعاً ببيير ومن الواضح أنه أراد لعلاقتهما أن تصبح حميمة، ولكنه فهم على الفور أن بيير لم يكن من هؤلاء الرجال الذين يحبون الرجال، ولذلك لم يقم بأيّ بادرة سوى التريت على ظهره بمحبة. انتبه موينو الآن إلى نبرة بيير الجادة وقال برزانة: «أفهمك، فأنت تريد أن تعرف إن كنت تنفذ مشيئة الرب».
«بالضبط».

لم يكن ضمير بيير ما يزعجه بهذه الشدة بل حقيقة أنه لم يؤذِ أحداً كما كان على وشك إيذاء سيلفي.
«أصغ إلي»، قال موينو. «منذ أربعة أعوام تمّ اقرار خطأ مريع، وهذا الخطأ معروف باسم تهديئة أوغسبورغ، وهي المعاهدة التي سمحت للأقاليم الألمانية بحق اختيار اعتناق الهرطقة اللوثرية إن رغب حكامها بهذا. وبذلك أصبح هناك، وللمرة الأولى، أمكنة في العالم لا يمكن تجريمك فيها إن كنت بروتستانتيّاً. إنّ هذا أشبه بكارثة تحلّ على العقيدة المسيحية».
وقال بيير باللاتينية: «من يحكم يفرض دينه». كان هذا شعار معاهدة أوغسبورغ.

تابع موينو قائلاً: «كان الإمبراطور شارل الثاني يأمل أن ينهي النزاع الديني بعد توقيع هذه الاتفاقية. ولكن ما الذي حدث؟ في مطلع هذا العام فرضت ملكة إنكلترا البغيضة إليزابيث البروتستانتية على رعيّتها البائسة التي باتت الآن محرومة من نعمة تلقي الأسرار المقدسة. إن التسامح الديني ينتشر، وهذه حقيقة رهيبية».

«وعلينا أن نقوم بأي شيء لإيقافه».

«أنت تختار المصطلحات بدقة. ها قد أصبح لدينا الآن ملك خاضع لتأثير عائلة غيز. لقد أرسلت لنا السماء فرصة لنسيطر على الوضع. أعلم ما الذي تشعر به، فما من رجل حساس سيُحب رؤية الناس يحرقون حتى الموت. لقد أخبرتني عن سيلفي وتبدو فتاة عادية بل وقد تكون شهوانية كثيراً».

ضحك مجدداً ثم تابع بلهجة رصينة: «إن سيلفي المسكينة ضحية والديها الشريرين اللذين ربيها على الهرطقة، ولكن هذا ما يفعله البروتستانتيون. إنهم يستميلون الآخرين ليغيروا دينهم، وبالتالي يفقد ضحاياهم أرواحهم الخالدة».

«إذاً، أفهم من كلامك بأنني لا أقترف خطأ بزواجي من سيلفي ومن ثم حياتها».

«على العكس»، قال موينو. «أنت تنفذ بعملك هذا مشيئة الرب، وأؤكد لك أنك ستكافأ على هذا في الجنة».

«شكراً لك»، قال بيير فقد كان هذا ما أراد سماعه.
«باركك الرب يا بني»، قال الأب موينو.

تزوجت سيلفي من بيير في آخر أحد من شهر أيلول/ سبتمبر. أقاما زواجهما الكاثوليكي يوم السبت في الكنيسة الرعوية، ولكن سيلفي لم تحتسبه زواجاً لأنه مجرد إجراء قانوني لا أكثر. قضيا ليلة السبت منفصلين، وأقاما زفافهما الحقيقي في كوخ الصيد في الغابة الذي يعتبر كنيسة بروتستانتية.

كان الجو معتدلاً وكأنه يجمع بين الصيف والخريف، والسماء غائمة لكن المناخ جاف. ارتدت سيلفي ثوباً بلون الريش الرمادي الفاتح، وقال لها بيير إن اللون جعل بشرتها مضيئة وعينيها مشعتين. كان بيير نفسه وسيماً بشكل خارق في معطفه الجديد الذي طلبه من متجر دوبوف. أقام القسيس برنار مراسم الزفاف وكانت ماركيزة نيم الشاهدة. عندما قدمت سيلفي نذورها طغى عليها شعور بالسكينة وكأن حياتها قد بدأت للتو.

بعد انتهاء المراسم كانت الرعية بأكملها مدعوة إلى متجر الكتب. شغلوا كامل المتجر والمنزل في الطابق العلوي. قضت سيلفي ووالدتها طوال اليوم في تجهيز الطعام المؤلف من حساء اللحم بالزعفران وفتائر لحم الخنزير مع الزنجبيل وكعكات الجبن مع البصل وحلويات بالكسترد وفتائر التفاح وحلوى خثارة السفرجل. تصرف والد سيلفي بود على غير العادة، وسكب النبيذ في كؤوس رفيعة، وقدم أطباق الطعام. تناول الجميع الطعام،

وشربوا واقفين باستثناء العروسين والماركيزة والماركيز اللذين يملكان امتياز الجلوس إلى طاولة العشاء.

رأت سيلفي أن بيير يبدو متوتراً قليلاً وهذا لم يكن من طبعه، لطالما كان مسترخياً جداً في المناسبات الاجتماعية الكبرى حيث يُصغي بانتباه إلى الرجال ويسحر النساء، ولا يفشل في القول إن هذا الطفل أو ذاك يبدو جميلاً بغض النظر عن شكله. ولكنه بدا متوتراً اليوم. توجه إلى النافذة مرتين، وعندما قرعت أجراس الكاتدرائية معلنةً الوقت جفل في مكانه. تكهنت سيلفي أنه يشعر بقلق لأنه في وسط تجمع بروتستانتية في قلب المدينة. «فلتسترخ»، قالت له. «هذا مجرد زفاف عادي. لا أحد يعرف أننا بروتستانتيون».

«بالطبع»، قال لها وابتسم بقلق.

ولكن عقل سيلفي بشكل أساسي، كان مشغولاً بالتفكير بما سيحدث الليلة. كانت تتطلع إلى هذا بتوق، ولكنها كانت متوترة قليلاً. «فقدان العذرية لا يؤلم كثيراً فهو لا يدوم إلا لثانية»، قالت لها والدتها. «وبالكاد تشعر به بعض الفتيات. لا تقلقي إن لم تنزفي فهذا لا يحدث للجميع».

في الحقيقة لم تكن سيلفي قلقة حيال هذا الأمر فقد كانت تتوق إلى الحميمية الجسدية في النوم على سرير مع بيير وتقبيله ولمسه كما يرغب قلبها دون أن يمنعها شيء. كانت خائفة من ألا يحب بيير جسدها، فقد كانت تشعر أنها ليست مثالية بالنسبة إليه. إن جميع تماثيل النساء تصور نديين متناسبين في الحجم في حين أن نديها لم يكونا بنفس الحجم. كان للنساء العاريات في اللوحات أعضاء خاصة شبه خفية وأحياناً مخفية بشعرٍ خفيف ولكن عضوها كان ممتلئاً وبشعرٍ كثيف. وتساءلت عما سيفكر به بيير عندما يراه للمرة الأولى. كانت محرجة جداً من الإفصاح لوالدتها عن هذه المخاوف.

خطر ببالها أن تسأل الماركيزة لويز التي كانت أكبر منها بثلاثة أعوام وتملك نديين كبيرين بشكل ملحوظ. وعندما قررت أنها لا تستطيع سؤال الماركيزة قُطعت سلسلة أفكارها، سمعت أصواتاً عالية في المتجر بالأسفل

ثمّ صراخ أحدهم. وما يدعو للعجب أن يبير توجه إلى النافذة مجدداً رغم أن الضجة أتت من داخل المبنى. سمعت سيلفي صوت كأس يتحطم، وتساءلت عما كان يحدث، فقد بدا الأمر أقرب إلى عراك. هل ثمل أحدهم؟ كيف يمكنهم أن يفسدوا زفافها؟

بدا الماركيز والماركيّة خائفين وشحّب وجه بيير. كان يقف وظهره للنافذة يراقب الباب المفتوح الذي يؤدي إلى الدرج والعتبة المنبسطة أسفلها. ركضت سيلفي باتجاه الدرج ومن النافذة الخلفية رأت الضيوف يهربون من الخلف. نظرت أسفل الدرج ورأت رجلاً لا تعرفه يصعد. كان الرجل في سترة جلدية بلا كُمين ويحمل مضرباً. أدركت في رعب أن هذا أسوأ من شجار ضيفين ثملين من ضيوف حفل الزفاف، كان غارة رسمية. تحول غضبها إلى رعب، وتراجعت في خوف من الرجل الفظ الذي يصعد الدرج ثم ركضت إلى طاولة العشاء.

لحق بها الرجل. كان قصيراً ببنية قوية إلا أنه فقد إحدى أذنيه. بدا مخيفاً جداً، ولكن القسيس برنار الذي كان رجلاً ضعيفاً في الخامسة والخمسين من عمره، وقف أمامه وقال بشجاعة: «من أنت وماذا تريد؟».

«أنا غاستون لوبان نقيب الحرس في منزل عائلة غيز وأنت مهرطق مُجدّف»، قال الرجل. رفع غاستون مضربه وضرب القسيس. حاول برنار تفادي الضربة إلا أنها أصابته بين كتفيه، وسقط على الأرض.

نظر لوبان إلى بقية الضيوف الذين بدؤوا يتراجعون باتجاه الجدران وقال: «هل من سؤال آخر؟» لم يتفوه أحد بكلمة.

صعد رجلان جلفان آخران إلى الغرفة، ووقفا خلف لوبان.

تحدّث لوبان إلى بيير بشكل غير مفهوم وسأله: «من منهم الماركيز».

بدت سيلفي مذهولة وسألت: «ما الذي يحدث؟».

أشار بيير بذهول أكبر إلى ماركيز نيم.

«أعتقد أن العاهرة صاحبة الثديين الكبيرين هي الماركيز».

أوماً بيير بصمت.

شعرت سيلفي كأن العالم انقلب رأساً على عقب، فقد تحول زفافها إلى كابوس مخيف لم يعد فيه أحد يشبه نفسه.

وقفت الماركيزة لويز وأجابت لوبان بتعالٍ: «كيف تجرؤ». صفعها لوبان بقوة على وجهها فصرخت، وسقطت وظهرها إلى الأرض. احمر خدها على الفور، وأخذت تبكي.

نهض الماركيز العجوز المهيب قليلاً عن كرسيه ثم أدرك أن الأمر عبثي فجلس مجدداً.

تحدث لوبان إلى الرجلين المرافقين له: «خذوا هذين الاثنيين ولتحرصا على ألا يهربا».

جر المرافقان الماركيز والماركيزة من الغرفة.

أشار القسيس برنار الذي كان ما يزال على الأرض إلى بيير، قائلاً: «أيها الشيطان! أنت جاسوس».

وفجأة اتضح كل شيء في عقل سيلفي، وأدركت في رعب أن بيير رتب لهذه الغارة. لقد تسلل إلى رعبتهم ليخونهم، وتظاهر أنه واقع في غرامها ليفوز بثقتها فقط. لهذا السبب كان متردداً جداً ولوقتٍ طويل في تحديد موعد الزفاف.

حدقت نحوه بذعرٍ، وبدلاً من أن ترى الرجل الذي أحبته رأت وحشاً. كأن الأمر أشبه بمشاهدة ذراعها مبتورة تنزف بشدة باستثناء أن هذا الموقف كان أكثر إبلاماً. ها هو حفل زفافها وحياتها بالكامل قد أفسدا. وتمنت الموت في تلك اللحظة.

تحركت باتجاه بيير قائلة: «كيف تجرأت؟» اقتربت منه دون أن تكون لديها أدنى فكرة عما تريد فعله وصرخت: «يا يهوذا الأسخريوطي، كيف تجرأت؟». ثم شعرت بضربة على مؤخرة رأسها، واسود العالم من حولها.

«هناك أمر واحد يقلقني بخصوص التتويج»، قال بيير للكاردينال شارل. كانا في قصر عائلة غيز الشاسع في شارع فييل دو تامبل في غرفة الجلوس الصغيرة الباذخة التي قابل فيها بيير الكاردينال وأخاه الأكبر فرانسوا ذا الندبتين للمرة الأولى. كان شارل قد علّق لوحات جديدة، وجميعها مستوحاة من قصص الإنجيل ومرسومة بإيحاء جنسي قوي؛ لوحات لآدم وحواء وسوزانا والحكماء وزليخا زوجة بوتيفار.

كان شارل أحياناً يُظهر اهتماماً بما سيقوله بيير وفي أحيان أخرى يخرسه بحركة عرضية من أصابعه الطويلة والرشيقة. كان اليوم في مزاج جيد لذلك قال لبيير: «تابع».

«فرانسيس وماري، وبمباركة الرب، ملك وملكة فرنسا وإسكتلندا وإنكلترا وإيرلندا»، قال بيير وكأنه يقتبس كلاماً.

«وكما فرانسيس ملك فرنسا فإن ماري ملكة إسكتلندا، وبموجب حق الوراثة وبموافقة البابا، فهي ملكة إنكلترا وإيرلندا أيضاً».

«ولقد نُقشت هذه الكلمات على أثارهما الجديد، وزُينت به صحون الملكة الجديدة ليراها الجميع بمن فيهم سفير إنكلترا».

«ما الذي ترمي إليه».

«إن تشجيع ماري على إخبار العالم بأنها الملكة الشرعية لإنكلترا جعل من الملكة إليزابيث عدوة لنا».

«وماذا في الأمر؟ بالكاد يمكن اعتبار إليزابيث تهديداً لنا».

«ولكن ما الذي حققناه؟ عندما نصنع عدواً يجب أن يكون هناك فائدة من ذلك، أو سنكون قد ألحقنا الأذى بأنفسنا من دون طائل».

ارتسمت نظرة جشع على وجه شارل الطويل.

«سنحكم أعظم إمبراطورية أوروبية منذ عهد تشارلمان. ستكون أعظم من إمبراطورية فيلبي في إسبانيا لأن مقاطعاته متباعدة والسيطرة عليها أصعب، بينما الإمبراطورية الفرنسية الجديدة ستكون متراصة فثروتها وقوتها مركزيتان. سنحكم قبضتنا من إدنبره وحتى مارسيليا وستحكم بالمحيط من بحر الشمال وحتى خليج بيسكي⁽¹⁾».

خاطر بيير بمجادلته قائلاً: «لو كنا جادين لكنا قمنا بما هو أفضل وأخفينا نوايانا عن الإنكليز. فهم الآن يعلمون بما ننوي القيام به».

«وما الذي سيقومون به؟ تحكم إليزابيث بلداً فقيراً وهمجياً لا يملك جيشاً».

«يملكون أسطولا».

1 - خليج على المحيط الأطلسي بين شمال إسبانيا وغرب فرنسا. (الترجمة)

«بالكاد يمكن تسميته أسطولاً».

«ولكن بالنظر إلى صعوبة مهاجمة جزيرة..».

لوح شارل بأصابعه وهذا يعني بأنه فقد اهتمامه بالموضوع.

«فلنتقل إلى موضوع راهن،» قال شارل وسلّم بيير قطعة من الورق ثقيل

الوزن بختم رسمي. «هذه ورقة إبطال زواجك».

أخذ بيير الورقة بامتنان. كانت حجة الإبطال واضحة فالزواج لم يكتمل،

ولكن رغم هذا، يبقى الحصول على إبطال زواج أمراً صعباً. شعر بيير

بالراحة وقال: «كان هذا سريعاً». مكتبة سُرّ مَنْ قرأ

«ليس من العبث أنني الكاردينال، وكان عملاً شجاعاً منك أن تتحمل

مشاق المراسم».

«كان الأمر يستحق كل المتاعب التي مررت بها».

اعتقل مئات البروتستانتين من جميع أنحاء المدينة بعد سلسلة من

الغارات نسق لها شارل وبيير.

«رغم أن معظمهم خرجوا مع غرامات». تابع بيير.

«إن ارتدوا عن معتقداتهم لا يمكننا أن نحرقهم حتى الموت بخاصة إن

كانوا من الأرسطوقراطيين كماركيز نيم وزوجته. سيموت القسيس برنارد

فقد رفض أن يرتد تحت التعذيب. عثرنا على أجزاء من الإنجيل الفرنسي

في المطبعة، ولهذا لا يمكن لوالد زوجتك السابقة أن ينجو من العقاب

بالارتداد. سيُحرق غيلز بالو حتى الموت».

«كل هذا سيجعل من أفراد عائلة غيز أبطالاً كاثوليكين».

«شكراً لك».

أحنى بيير رأسه إقراراً بهذا التقدير واتقد وجهه فخراً. كان رضاه عظيماً

فهذا ما أراد، أن يكون اليد اليمنى لأقوى رجل في البلد. كانت لحظة

انتصار، وحاول ألا يفضح مقدار ابتهاجه.

«هناك سبب آخر لاستعجالي في الحصول على إبطال لزواجك،»

قال شارل.

عبس بيير وتساءل عما يحدث الآن. كان شارل الرجل الوحيد في باريس

الذي كان مخادعاً بقدر بيير.

«هناك امرأة أخرى أريدك أن تتزوج بها،» تابع شارل.

«يا إلهي!» كان بيير مصعوقاً فهو لم يتوقع هذا، وذهب بأفكاره على الفور إلى فيرونيك دي غيز. وتساءل إن غير شارل رأيه حيال السماح له بالزواج منها. امتلأ قلبه بالأمل، فهل يعقل أن تتحقق أحلامه؟

«ابن أخي آلان الذي يبلغ الرابعة عشرة قد أغوى إحدى الخادמות وحملت منه، ومن المستحيل أن يتزوج بها.»

تھاوت معنويات بيير بضربة مؤلمة وقال: «خادمة».

«سيحظى آلان بزواج سياسي مدبر كبقية رجال عائلة غيز باستثناء من يختارون الكهنوت. وأنا أريد أن أتخلص من أمر الخادمة. أنا واثق من أنك ستفهم الأمر بما أنك ولدت في ظروفٍ مشابهة.»

شعر بيير بالغثيان. لقد اعتقد أن النصر الذي تمتع به مع شارل قد يرفع من مكانته ويجعله في مصاف أفراد العائلة. ولكن بدلاً من ذلك، ها هو شارل يذكره بوضاعة نسبه.

«تريد أن تزوجني من خادمة؟».

«لا تتحدث عن الأمر وكأنه حكم بالإعدام!» ضحك شارل.

«بل أقرب إلى الحكم بالمؤبد». وتساءل بيير عما سيقوم به حيال الأمر. لا يحب شارل أن يعارضه أحد، وإن رفض هذا المطلب فقد تنتهي مهنة بيير المزدهرة.

«سنعطيك راتب تقاعد،» قال شارل «خمسین جنيهاً في الشهر..».

«لا يُهمني المال.»

رفع شارل حاجبيه على وقاحة هذه المقاطعة وقال: «حقاً؟ ما الذي يهملك إذا؟».

أدرك بيير أن هناك جائزة وحيدة وكفيلة بتعويضه عن التضحية التي سيقدمها وقال: «أريد الحق بأن أطلق على نفسي اسم بيير أو موند دي غيز». «تزوجها وسننظر في الأمر.»

«لا،» قال بيير وهو يعلم بأنه يخاطر بكل شيء. «يجب أن يكون اسمي على وثيقة الزواج بيير أو موند دي غيز، أو لن أوقعها». لم يكن قط بمثل هذه

الجرأة مع شارل. حبس أنفاسه بانتظار رد الفعل وفي خوفٍ من انفجار شارل في وجهه.

«أنت مصمم أيها اللقيط، أليس كذلك؟».

«أولن أكون مفيداً لك».

«هذا صحيح». قال شارل وصمت مفكراً لدقيقة ثم قال: «حسناً أنا موافق».

شعر بيير بالضعف من الارتياح.

«أنت بيير أوموند دي غيز من الآن فصاعداً»، قال شارل.

«شكراً لك».

«إن الفتاة في الغرفة المجاورة من الردهة. اذهب وقابلها لتتعرفا بعضكما على بعض».

نهض بيير وتوجه إلى الباب.

«كن لطيفاً معها»، أضاف شارل. «وقبلها».

غادر بيير الغرفة من دون أن يجيب. وقف في الخارج لدقيقة يرتجف ويحاول استيعاب ما حدث. ولم يعرف إن كان عليه أن يشعر بالابتهاج أو باليأس. لقد نجا من زواج لا يرغب به ليقع في شباك آخر، ولكنه أصبح الآن فرداً من عائلة غيز.

تمالك بيير نفسه، وقرر أنه من الأفضل أن يلقي نظرة على هذه الزوجة المستقبلية. لا بدّ أنها من طبقة الفقراء ولكن قد تكون جميلة بما أنها أغوت آلان دي غيز. ولكن الفوز بالاهتمام الجنسي لفتى في الرابعة عشرة لا يتطلب الكثير من الجمال، فقد كان القبول عنصر الجذب الأهم.

عبر بيير الردهة إلى الباب التالي ودخل من دون أن يقرع الباب.

جلست فتاة على الأريكة ورأسها بين يديها تتحبب. كانت ترتدي ثياب الخدم العادية. رأى بيير أنها كانت ممثلة حقاً وفكر أنّ هذا قد يكون بسبب الحمل.

عندما أغلق الباب رفعت رأسها.

عرفها بيير. كانت أوديت القبيحة خادمة فيرونيك. ستكون أوديت تذكيراً دائماً له بالفتاة التي لم يُسمح له بالزواج منها.

عرفته أوديت، وابتسمت بشجاعة وسط دموعها، وظهرت أسنانها المعقوفة وقالت: «هل أنت مُخلصي؟».

«فليكن الرَّبُّ في عوني»، قال بيير.

بعد إحراق غيلز بالو حتى الموت غرقت والدة سيلفي في الاكتئاب، وهذا ما اعتبرته سيلفي أقوى صدمة تلقاها، بل وأكثر قوة من خيانة بيير وأكثر إيلاماً من إعدام والدها. كانت تنظر إلى والدتها كحجر لا يمكن تحطيمه وركن أساسي في حياتها. لقد وضعت إيزابيل المراهم على جروحها وهي طفلة، وأطعمتها عندما جاعت، وهدأت غضب والدها الناري، ولكن إيزابيل الآن عاجزة وتجلس على الكرسي طوال اليوم. إن أشعلت سيلفي النار نظرت إليها إيزابيل، وإن حضرت الطعام تناولته إيزابيل بطريقة ميكانيكية، وإن لم تساعدها سيلفي في خلع ثيابها تقضي إيزابيل اليوم كله في ثيابها الداخلية.

لقد قضي على غيلز عندما تم اكتشاف كومة صحائف من الإنجيل بالفرنسية مطبوعة حديثاً في المتجر. كانت الصحائف جاهزة للقطع إلى صفحات ومُنصّدة في مجلدات، وكانت عندما ينتهي العمل عليها ستؤخذ إلى المستودع السري في شارع دو مر، ولكن لم يكن هناك وقت للانتهاء من العمل عليها. لم يكن غيلز مداناً بتهمة الهرطقة فقط بل بالترويج لها، ولم يلقَ أيّ رحمة على هذا.

كان الإنجيل في عين الكنيسة أخطر الكتب الممنوعة خاصة إن كان مترجماً إلى الفرنسية أو الإنكليزية مع هوامش تشرح صحة التفسيرات البروتستانتية لبعض الآيات. يقول الكهنة إن الناس العاديين غير قادرين على تفسير كلام الرَّبِّ بشكل صحيح، ويحتاجون إلى التوجيه، بينما يقول البروتستانتيون إن الإنجيل يفتح عيون الإنسان على أخطاء الكهنة. وبالتالي فإن كلا الطرفين يعتبران قراءة الإنجيل قضية محورية في الصراع الديني الذي اكتسح أوروبا.

ادعى عمال غيلز أنّهم لم يعلموا شيئاً عن هذه الصحائف. قالوا إنهم لم يعملوا سوى على الإنجيل باللغة اللاتينية وعلى كتب أخرى قانونية، وإن غيلز قد عمل وحده على الكتب الأخرى ليلاً بعد أن يغادروا إلى بيوتهم. لقد أجبروا على دفع غرامات، ولكنهم نجوا من عقوبة الإعدام.

عندما أعدم الرجل بتهمة الهرطقة صودرت جميع ممتلكاته. لم يكن تطبيق هذا القانون ثابتاً فتفسيره قد يتفاوت حسب الحالة، ولكن غيلز خسر كل شيء لتبقى زوجته وابنته في فقرٍ مدقع. تمكنتا من الهرب مع المال الذي كان في المتجر قبل أن يستولي عليه صاحب مطبعة منافسة. اضطرتا لاحقاً للذهاب واستجداء الحصول على ثيابهما، وعلمتا أنها بيعت في سوق كبير للثياب المستعملة. وها هما الآن تعيشان في غرفة مستأجرة.

كانت سيلفي خياطة سيئة فقد نشأت على بيع الكتب وليس الثياب، ولذلك لم تستطع تعلم الخياطة التي كانت الملجأ الأخير لنساء الطبقة الوسطى المُعدّمت. كان العمل الوحيد الذي استطاعت الحصول عليه هو غسل ثياب العائلات البروتستانتية. رغم الغارات فإن معظم هذه العائلات التزمت بدينها الحقيقي، وبعد دفع الغرامات سارعوا إلى استعادة الأبرشيات، والعثور على أماكن جديدة للعبادة سراً. من كانوا يعرفون سيلفي في الماضي دفعوا لها سعراً أكبر من السعر المعتاد لغسل الثياب، ولكن هذا المال لم يكن كافياً لتأمين الطعام والوقود لتدفئة شخصين، وبالتدريج صرفتا المال الذي أخذتا من المتجر. لقد انتهى المال في عزّ برد كانون الأول/ ديسمبر والريح الجليدية تقطع الشوارع الباريسية الضيقة والعالية كحد السكين.

في أحد الأيام عندما كانت سيلفي تغسل غطاء سرير جين موريس في مياه نهر السين الباردة، اخترق البرد يديها بشدة وأخذت تبكي من دون توقف. كان هناك رجل يمرّ بالقرب منها فعرض عليها خمس قطع نقدية مقابل لعق قضيبه.

هزّت رأسها بصمت وتابعت غسل غطاء السرير. غادر الرجل ولكنها لم تستطع التوقف عن التفكير بالأمر. كانت القطع النقدية الخمس تساوي ستين بنساً، أي ما يعادل ربع ليرة، وهذا كفيلاً بشراء حمل من الحطب، وفخذ خنزير وخبز لأسبوع. كان كل ما عليها فعله هو وضع عضو الرجل في فمها، كيف يمكن لهذا أن يكون أسوأ مما تفعله الآن؟ قد يكون القيام بهذا خطيئة حتماً، إلا أنه من الصعب على المرء أن يفكر بالخطيئة عندما يقاسي هذا الألم المبرح.

أخذت الغطاء إلى المنزل، وعلقتة على حبل في الغرفة ليجف. كان الحمل الأخير من الحطب على وشك النفاد، وهذا يعني أنها لن تتمكن غداً من تجفيف الثياب. حتى البروتستانتيون لن يدفعوا لها إن سلمتهم الأغطية رطبة.

لم تنم بشكل جيد تلك الليلة، وتساءلت لم قد يرغب بها أحد؟، حتى بيير كان يتظاهر بأنه يرغب بها. لم ترَ نفسها جميلة، وها هي الآن قد غدت نحيلة وقذرة. ولكن على الرغم من هذا، أرادها الرجل الذي مر قرب الضفة، وربما رغب بها آخرون غيره.

في صباح اليوم التالي اشترت بيضتين بما تبقى من مال. وضعت بقايا قطع الخشب في النار وطبخت البيضتين وتناولت مع أمها بقايا الخبز البائت من الأسبوع الماضي. لم تملكاً شيئاً آخر، وهذا يعني أنهما ستموتان جوعاً. لطالما قال البروتستانتيون إنَّ الرّب من يرسل الرزق ولكنه لم يفعل. سرّحت سيلفي شعرها وغسلت وجهها. لم يكن لديها مرآة، ولهذا لم تعرف كيف كانت تبدو. قامت بقلب جوربيها لتخفي الطين العالق بهما وخرجت.

لم تعرف ما الذي ستفعله. مشت على طول الشارع، ولكن لم يقدم لها أحد أي عرض. وفكرت بأنهم لن يفعلوا هذا من تلقاء أنفسهم، لذلك كان عليها أن تعرض نفسها. جرّبت أن تبتسم للرجال الذين مروا بها، ولكن ما من أحد استجاب لها. قالت لأحدهم: «سألحك قضيبك مقابل خمس عملات معدنية». ولكنه بدا محرجاً وأسرع مبتعداً عنها. ربما كان عليها أن تظهر ثدييها ولكن الجو بارد.

رأت سيلفي امرأة شابة في معطفٍ أحمر قديم تمشي بسرعة على طول الطريق وقد تأبطت ذراع رجل حسن الهندام في منتصف العمر وكأنها خائفة من أن يهرب. نظرت المرأة الشابة نحوها نظرة قاسية؛ نظرة امرأة إلى غريمة لها. أرادت سيلفي أن تتكلم معها، ولكن المرأة بدت عازمة على الذهاب إلى مكان ما مع الرجل وسمعتها تقول للرجل: «المكان عند الزاوية يا عزيزي». أدركت سيلفي أنها حتى وإن نجحت في الحصول على زبون لم يكن لديها مكان لأخذه إليه.

وجدت سيلفي نفسها في شارع دو مير على الجهة المقابلة للمستودع الذي خزنت فيه عائلة بالو الكتب الممنوعة. لم يكن شارعاً مزدحماً، وربما هنا في الشوارع الخلفية، قد يرغب الرجال أكثر بالتعامل مع العاهرات. وتأكيداً على ما جال ببالها للتو توقف رجلٌ وتحدث إليها قائلاً: «ثديان جميلان».

قفز قلبها، وعلمت ما الذي عليها قوله بعد هذا: «سألق قضيبك مقابل خمس قطع نقدية». شعرت بالغثيان، وتساءلت إن كان عليها القيام بهذا حقاً، ولكنها كانت جائعة وتشعر بالبرد.

«كم تريدان مقابل مضاجعة؟».

لم تفكر بهذا، ولم تعرف بماذا تجيب.

اغتاظ الرجل من تردها وسألها: «أين تقع غرفتك؟ أهي قريبة؟».

لم يكن بوسع سيلفي أخذه إلى الغرفة التي تسكنها مع والدتها وقالت: «ليس لدي غرفة».

«بقرة غبية»، قال الرجل وسار مبتعداً.

كان بوسع سيلفي البكاء. شعرت أنها بقرة غبية حقاً لأنها لم تفكر بهذا. نظرت إلى الشارع المقابل حيث يقع المستودع. لا بد أن الكتب الممنوعة قد أحرقت، وصاحب المطبعة الجديد يستخدم المستودع، أو ربما يؤجره لشخصٍ آخر. ربما ما يزال المفتاح خلف الحجر المتحرك، وقد تتمكن من تحويل المستودع إلى «غرفتها».

عبرت سيلفي الشارع.

سحبت الحجر المتحرك عند عضادة الباب ومدت يدها. كان المفتاح ما يزال في مكانه. أخذت المفتاح وأعدت الحجر إلى مكانه. أبعدت بعض القاذورات المتراكمة قرب باب المستودع بقدمها. وضعت المفتاح في القفل ثم دخلت. أوصدت الباب خلفها، وأشعلت المصباح.

كان المكان ما يزال على حاله، والبراميل المكدسة حتى السقف في مكانها. بين البراميل والجدار كانت المساحة كافية لتقوم سيلفي بما تخطط له. كانت الأرضية حجرية خشنة. ستكون هذه الغرفة غرفة العار السرية.

بدت البراميل مغبرة وكأنها لم تلمس منذ وقتٍ طويل. تساءلت سيلفي إن كانت البراميل الفارغة في مكانها. حاولت أن تحرك أحدها ورفعته بسهولة.

رأت أنّ صناديق الكتب ما زالت في مكانها خلف البراميل، وخطر لها خاطر غريب.

فتحت الصناديق. كانت مليئة بكتب الإنجيل الفرنسي. كيف حدث هذا؟ لقد افترضت هي ووالدتها أنّ المالك الجديد قد وضع يده على كل شيء، ولكن يبدو أنّه لم يعرف بأمر المستودع. امتقع وجه سيلفي وهي تفكر بكل هذا. لطالما أصّر والدها على السّرية، حتى الرجال الذين عملوا معه لم يعرفوا بأمر هذا المستودع، وطلب من سيلفي ألا تخبر بيير عنه إلى أن يتزوجا.

لم يعرف أحد بأمره سواها هي وأمها. إذاً، لا بدّ أنّ جميع الكتب ما تزال هنا- المئات من هذه الكتب.

كانت كتباً قيمة إن تمكنت من العثور على أناس يملكون الشجاعة لشرائها.

أخرجت سيلفي أحد كتب الإنجيل الفرنسي. كانت قيمته أكبر بخمس مرات مما قد تحصل عليه من عملها في الشارع.

غلّفت الكتاب بقطعة من الكتان الخشن وربطته بخيطٍ تماماً كما كانت تفعل في الماضي. غادرت المستودع وأحكمت إغلاقه وراءها بحذر ثم أخفت المفتاح.

سارت وقد امتلأت بأمل جديد.

عادت إلى الغرفة المستأجرة. كانت إيزابيل تحرق في النار الخادمة. كانت الكتب مكلفة، ولكن إلى من ستبيعه سيلفي؟ إلى البروتستانتين فقط بالطبع. وقعت عينها على غطاء السّرير الذي غسلته البارحة والذي يعود إلى جين موريس التي كانت من الأبرشية التي اعتادت سيلفي الذهاب إليها في كوخ الصيد في ضاحية سان جاك. يعمل لوك زوج جين سمسار بضائع أيّاً يكن معنى هذا. لم تقم سيلفي ببيعه الإنجيل سابقاً رغم أنّه كان قادراً على شرائه بالتأكيد، ولكن هل سيجرؤ على فعل هذا ولم يمضِ سوى ستة أشهر على غارات الكاردينال؟

كان غطاء السّرير قد جف. طلبت من والدتها مساعدتها في طيه، ثمّ لفته حول الكتاب، وأخذت الطرد إلى منزل عائلة موريس.

اختارت الذهاب أثناء اجتماع العائلة على الغداء. نظرت الخادمة إلى ثوبها الرث، وطلبت منها أن تنتظر في المطبخ، إلا أن سيلفي كانت يائسة جداً ولن تسمح لخادمة باعتراض طريقها. دفعت بالخادمة بعيداً، ودخلت إلى غرفة تناول الطعام. شعرت بالألم في معدتها عندما اشتمت رائحة شرائح لحم الخنزير.

جلس لوك وجين مع ابنتهما جورج حول الطاولة. حياً لوك سيلفي بابتهاج. لطالما كان رجلاً مفعماً بالحيوية، أما جين فأشاحت بنظرها بعيداً. كانت جين عمود هذه العائلة، وبدت في كثير من الأحيان متألّمة جداً من الدعابات الهزلية التي يطلقها زوجها وابنها. فيما مضى كان جورج معجباً بسيلفي، إلا أنه الآن لم يعد قادراً حتى على النظر إليها، فهي لم تعد تلك الابنة الأنيقة لصاحب مطبعة مقتدر، بل مجرد فتاة فقيرة وقذرة.

أفردت سيلفي غطاء السرير، وعرضت الكتاب على لوك الذي اعتقدت أنه قد يشتريه.

«كما أتذكر فأنت لا تملك الإنجيل بالفرنسية»، قالت سيلفي. «هذا إصدار جميل بشكل خاص، كان والدي فخوراً به. خُذُه وألقِ نظرة عليه». تعلمت منذ وقتٍ طويل أن فرص شراء الزبون للكتاب تكون أكبر عندما يحمله بين يديه.

تصفح لوك المجلد بإعجاب وقال لزوجته: «يجب أن نحظى بإنجيل باللغة الفرنسية».

«إنّ هذا مخالف للقوانين»، قالت جين. «أن يكون المرء بروتستانتيّاً مخالف للقانون أيضاً»، أجابها زوجها. «يمكننا أن نخبئ الكتاب». ونظر إلى سيلفي ثم سألها: «كم يبلغ ثمنه». «كان والدي يبيعه بست ليرات»، أجابته.

صدر عن جين صوتٌ ينم عن الاستنكار وكأنّ الثمن باهظ جداً. «ولكن بالنظر إلى الوضع الذي أنا فيه الآن»، قالت سيلفي. «يمكنك أن تأخذه مقابل خمس ليرات». وحسبت أنفاسها.

بدا لوك مرتاباً وقال: «إن قلت أربع..». «حسناً»، قالت سيلفي. «الكتاب لك وليبارك الرّب قلبك».

أخرج لوك محفظته وأحصى ثمانية قطع من الفضة وكل واحدة منها تساوي نصف ليرة.

«شكراً لك»، قالت سيلفي. «وعشرة بنسات من أجل غطاء السرير». لم تكن بحاجة إلى البنسات إلا أنها تذكرت كم أَلمتها يداها وهي تغسله وشعرت أنها تستحق هذا المبلغ.

ابتسم لوك وأعطاهما عملة نقدية صغيرة تساوي عشرة بنسات. فتح لوك الكتاب مجدداً وقال: «عندما يراه شريكى راديجيه سيفتأظ من الحسد».

«ليس لدي غيره»، قالت سيلفي بسرعة. ساهمت ندرة كتب البروتستانتية في رفع أسعارها، بالإضافة إلى هذا كان والدها قد أخبرها بالأقول للناس أنها متوفرة بكثرة. تابعت كلامها: «إنّ عثرت على كتاب آخر فسأذهب لمقابلة راديجيه».

«من فضلك افعلي».

«ولكن لا تخبره أنّك حصلت عليه بسعرٍ رخيص».

ابتسم لوك في تواطؤ وقال: «لن أفعل إلى أن يدفع لك». شكرته سيلفي وغادرت.

شعرت بالضعف الشديد من الراحة، لم يكن لديها الطاقة على الشعور بالبهجة. توجهت إلى أقرب حانة وطلبت كأساً كبيراً من الجعة تجرعته بسرعة. ساعدتها الجعة على تخفيف آلام الجوع، وغادرت وهي تشعر ببعض الدوار.

عندما اقتربت من المنزل اشترت لحم خنزير مقدداً وجبناً وزبدة وخبزاً وزجاجة صغيرة من النبيذ. اشترت أيضاً حملاً من الحطب ودفعت للصبوي عشر بنسات ليحمله عنها. عندما دخلت إلى الغرفة المستأجرة حدّقت والدتها إلى مشترياتها في دهشة.

«مرحباً يا أماه»، قالت سيلفي. «لقد انتهت متاعبنا».

في عام 1559 وبعد ثلاثة أيام على عيد الميلاد تزوج بيير بسخطٍ كبير للمرة الثانية.

كان مصمماً على أن يكون الزفاف شأناً روتينياً، فهو لن يحاول التظاهر بأنه محتفٍ به. لم يوجه دعوة إلى أحد، ولم يخطط لإقامة فطور الزفاف. لم يكن يريد أن يبدو كرجل فقير لذلك ارتدى معطفه الرمادي الداكن والجديد الذي كان رزيناً بما يكفي ومناسباً لمزاجه. وصل إلى الكنيسة عندما دقت الساعة للموعد المحدد للزفاف.

شعر بالرعب عندما رأى فيرونيك دي غيز هناك. كانت جالسة في الصف الخلفي للكنيسة الصغيرة مع مجموعة من خادمت عائلة غيز اللواتي كُنَّ على الأغلب صديقات لأوديت.

بالنسبة لبيير لا يمكن أن يكون هناك ما هو أسوأ من أن تشهد فيرونيك على إذلاله. كانت فيرونيك المرأة التي أراد الزواج منها حقاً. لقد تحدث إليها وسحرها بشخصيته، وفعل كل ما بوسعه ليعطيها الانطباع بأنهما ينتميان إلى نفس الطبقة الاجتماعية. ولكن هذا لم يكن سوى مجرد حلم كما أوضح له الكاردينال شارل بكل قسوة. أما بالنسبة لفيرونيك فقد شعرت بألم مضمّن لرؤيتها بيير يتزوج من خادمتها. أراد بيير أن يغادر الكنيسة إلا أنه فكر بالجائزة التي سيحظى بها. ففي نهاية هذه المحنة سيوقع على السجل باسمه الجديد بيير أوموند دي غيز وكانت هذه أعزّ أمنياته. سيُعرف كأحد أفراد عائلة غيز النبيلة، ولن يكون بوسع أحد سلبه هذا. ربما سيتزوج من خادمة بشعة حامل بطفلٍ من شخصٍ آخر، إلا أنه وفي النهاية، سيكون من عائلة غيز. صرّ على أسنانه وأقسم على تحمل الألم.

كانت المراسم قصيرة فالكاهن تلقى أجراً زهيداً على إجراء المراسم. ضحكت فيرونيك والفتيات خلال المراسم، ولم يعرف بيير ما الذي أضحكهن بشدة، وساوره الشك بأنهن كنّ يضحكن عليه. استمرت أوديت بالنظر إليهن بعبوس من فوق كتفيها، وقد ظهرت أسنانها المعقوفة الشبيهة بشواهد قبورٍ متراصة ومائلة جداً في مقبرة قديمة.

عندما انتهت المراسم بدت أوديت فخورة جداً بالخروج من الكنيسة متأبطة ذراع رجل وسيم وطموح. يبدو أنها نسيت أنهم أجبروه على الزواج منها رغماً عنه. هل كانت حقاً تعتقد أنها ربحت حبه وعاطفته؟ وكأن الأمر برمته كان ممكناً.

خرجنا من الكنيسة، وتوجهنا إلى منزل متواضع قدمه لهما الكاردينال شارل. كان المنزل يقع بالقرب من حانة سان إيتيه في الحي المجاور الذي يدعى سوق الهال حيث يتسوق الباريسيون من أجل حاجاتهم اليومية من اللحم والنيذ والثياب المستعملة التي ارتداها الأثرياء سابقاً. ومن دون دعوة لحقت بهما فيرونيك مع الخادومات. حملت إحدهن زجاجة نبيذ، وأصررن على دخول المنزل وتناول نخب العروس والعريس. غادرن في النهاية بعد أن ألقين الكثير من الدعابات القاسية حول استعجال العروسين للقيام بما هو متوقع من عروسين أن يفعلاه في ليلة الزفاف. صعد بيير وأوديت إلى الطابق العلوي، وكانت هناك غرفة نوم واحدة بسرير واحد. حتى هذه اللحظة لم يكن بيير قد فكر بمسألة إقامة علاقة جنسية طبيعية مع زوجته.

استلقت أوديت وقالت: «حسناً، إننا متزوجان الآن». وخلعت ثوبها لتكشف عن جسدها العاري. «هيا تعال ولنستغل هذا».

شعر بيير بالاشمئزاز الشديد منها. أثارت الوضعية السوقية التي اتخذتها قرفه إلى أبعد حد، وشعر بالهلع. عرف في تلك اللحظة أنه لن يتمكن أبداً من ممارسة الجنس معها.

الفصل العاشر

كره بارني وبلارد حياة الجيش فالطعام مقزز والبرد قارس طوال الوقت باستثناء حين يكون الجو حاراً جداً. ولوقتٍ طويل كانت النساء الوحيدات اللواتي رأهن هن العاهرات المرافقات للجيش اللواتي كُنَّ يائسات وحزينات. يدعى القبطان المسؤول عن مجموعة بارني غوميز، وكان رجلاً متمراً ضخماً وعنيفاً يستمتع باستخدام يده الحديدية لمعاقبة من يخرقون النظام. والأسوأ من هذا أنهم لم يدفعوا لأحد منذ شهر.

لم يفهم كيف يمكن لملك إسبانيا فيلبي أن يعاني من متاعب مالية. كان أغنى رجل في العالم إلا أنه في الحقيقة كان مفلساً على الدوام. رأى بارني السفن الشراعية الكبيرة المحملة بالفضة تمخر عباب البحر قادمة من البيرو باتجاه مرفأ إشبيلية، وتساءل إلى أين يذهب كل هذا. حتماً لم يكن يذهب إلى الجيش.

بعد مرور عامين على مغادرة إشبيلية توجهت سفينة خوسيه وماريا إلى مكان يدعى هولندا. كانت هولندا عبارة عن بلد فيدرالي مفكك ومكون من سبعة عشر إقليماً على الشاطئ الشمالي لأوروبا بين فرنسا وألمانيا. ولأسبابٍ تاريخية لم يفهمها بارني قط كان الملك الإسباني يحكم هولندا. تمركز جيش فيلبي هناك، وشارك في حرب إسبانيا مع فرنسا.

كان بارني وكارلوس وإبرما حدادين خبيرين ولذلك عملوا في صنع المدافع وصيانة وتشغيل قطع المدفعية الكبيرة. رغم أنهم شهدوا على بعض المعارك، فإن المدافع لم تكن جزءاً من القتال المباشر، ونجا الثلاثة من الحرب ومن التعرض لأيِّ إصابة.

وقعت إسبانيا وفرنسا معاهدة السلام في نيسان/ أبريل في عام 1559، أي

أن هذا قد حدث منذ سنة، وكان الملك فيلبي قد عاد إلى الوطن تاركاً جيشه وراءه. تكهن بارني بأن الملك فعل هذا كضمان على استمرار الهولنديين الأغنياء جداً بدفع ضرائبهم، إلا أن جيوشه أصيبت بالملل والامتعاض واستشرى العصيان.

أقامت فرقة القبطان غوميز حامية لها في بلدة كورتريك على نهر لبي. لم يكن المواطنون سعداء بوجود الجنود فقد كانوا أجانب يحملون الأسلحة، وعندما يثملون يعلو صخبهم، كما كانوا يسرقون لأنهم لم يتلقوا رواتبهم. كان الهولنديون متمردين جداً بطبيعتهم ولذلك أرادوا من الجيش الإسباني أن يغادر على الفور، وحرصوا على إظهار هذه المشاعر أمام الجنود.

أراد الأصدقاء الثلاثة ترك الجيش. كان لدى بارني عائلة مع منزلٍ مريح في كينغزبريدج وأراد أن يجتمع بعائلته مجدداً. اخترع كارلوس نوعاً جديداً من الأفران ستعود بالثروة عليه يوماً ما، ولذلك كان يريد العودة إلى مزاوله مهنة الحدادة. لم يكن بارني واثقاً من المستقبل الذي يتوقعه إبرما لنفسه، ولكنه حتماً لم يرَ مستقبله في حياة الجندية. لم يكن الهرب سهلاً، ويفرّ الرجال من الجندية كل يوم، ولكن إن تم الإمساك بهم يُعدمون رمياً بالنار. ولشهور عديدة بقي بارني متيقظاً جداً يتحين ظهور أيّ فرصة سانحة. لكن هذه الفرصة لم تأتِ بعد، وبدأ يتساءل إن كان يتصرف بحذرٍ شديد. خلال هذا الوقت الذي مرّ قضاوا الكثير منه في الحانات.

كان إبرما مقامراً وقد أمعن في المخاطرة بالمال القليل الذي كان معه مدفوعاً بحلم الحصول على المزيد، أما كارلوس فكان ينفق المال الذي معه على شراء النبيذ. كانت حانة سان مارتان في السوق القديم لبلدة كورتريك تعني شيئاً واحداً لهم جميعاً: ألعاب الورق والنبيذ الإسباني والنادلات الجميلات.

كان بارني يصغي إلى النادلة أنوك وهي تشتكي بالفرنسية من زوجها، بينما جلس كارلوس يشرب كأس نبيذ ويحرص على أن يكفيه طوال فترة بعد الظهر، وإبرما يربح المال من صاحب اليد الحديدية غوميز وجنديين إسبانيين آخرين. كان بقية الجنود يشربون بإفراط، ويصرخون بصوتٍ عالٍ عندما يفوزون أو يخسرون، إلا أن إبرما نجح في الحفاظ على هدوئه. كان

مقامراً جداً وحذراً على الدوام، ولم يراهن بمبالغ كبيرة أو صغيرة جداً. كان يخسر أحياناً، إلا أنه في أغلب الأحيان يربح لأن الآخرين يقومون بمخاطرات غبية. كان الحظ إلى جانبه اليوم.

اختفت آنوك في المطبخ وقال كارلوس لبارني: «يجب أن يكون هناك مقياس معياري لقذائف المدفعية في الجيش والبحرية الإسبانية تماماً كما في الأسطول الإنكليزي. إن صنع آلاف القذائف الحديدية بقياس واحد أرخص من صنع عشرين قياساً مختلفاً لعشرين نوعاً من المدافع». وكالعادة تحدثا بالإسبانية بعضهما مع بعض.

«عندها لن تجد نفسك تحاول وضع قذيفة أكبر بإنشٍ واحد على ماسورة المدفع كما حدث معنا أكثر من مرة». «تماماً».

وقف إيرما وابتعدت عن الطاولة قائلاً لبقية اللاعبين: «لقد انتهيت. شكراً على اللعبة أيها السادة».

«انتظر قليلاً»، قال غوميز بمزاجٍ سيء. «عليك أن تعطينا فرصة لاستعادة مالنا».

وافق اللاعبان الآخران، وصرخ أحدهما: «أجل!» وضرب الآخر على الطاولة بقبضته.

«ربما في الغد»، قال إيرما. «لقد لعبنا طوال فترة بعد الظهر وأريد تناول مشروب بما أنني أستطيع دفع ثمنه».

«هيا، جولة واحدة، سأضعف المبلغ». «أنت لا تملك ما يكفي من المال لهذا الرهان».

«سأكون مديوناً لك». «الديون تجلب الأعداء».

«هيا». «لا أيها القبطان».

وقف غوميز ورمى بالطاولة على الأرض. كان طول القبطان يصل إلى ستة أقدام وهو عريض ولكن بشكل متناسق. بدا وجهه مُحمرّاً بسبب النييد الذي تناوله ورفع صوته قائلاً:

«قلت ستفعل».

ابتعد بقية الموجودين في الحانة فقد توقعوا ما ستؤول إليه الأمور.
اقرب بارني من غوميز وقال بصوت هادئ: «أيها القبطان دعني أشتري لك مشروباً آخر بما أنك قد أوقعت مشروبك».

«اذهب إلى الجحيم أيها البربري الإنكليزي»، صرخ غوميز. كان الإسبان يعتبرون الإنكليز برابرة شماليين تماماً كما كان الإنكليز يعتبرون الإسكتلنديين. وتابع غوميز: «يجب أن يلعب».

«لا ليس عليه»، قال بارني وقد فتح ذراعيه في حركة تعني «فلنكن عقلانيين» وتابع كلامه: «يجب أن تنتهي اللعبة في وقت ما، صحيح؟».
«أنا من يقرر متى تنتهي. فأنا القبطان».

انضم كارلوس إلى الحديث وقال ساخطاً: «هذا ليس عدلاً». لطالما أثار الظلم غضبه السريع بسبب معاناته السابقة والشديدة منه. «جميعنا متساوون عندما نلعب الورق». كان على حق فقد كانت هذه القاعدة عندما يقامر الضباط مع المجندين. «أنت تعلم هذا أيها القبطان غوميز، ولا يمكنك أن تتظاهر بعكس ذلك».

«شكراً لك يا كارلوس»، قال إيرما، وابتعدت عن الطاولة المقلوبة على الأرض.

«عُد أيها الشيطان الأسود»، قال غوميز.

في المناسبات النادرة التي يواجه فيها إيرما جدالاً كان غريمه عاجلاً أم آجلاً، يشير إلى لون جلده كإهانة ولهذا لم يتفاجأ إيرما. لحسن الحظ يتحكم إيرما بنفسه بشكل كبير، ولم يبتلع الطعم قط. لم يرد على سخريه غوميز باستثناء أنه أدار ظهره.

وكجميع المتتمرين كره غوميز التعرض للتجاهل، فضرب إيرما من الخلف بغضب. كانت ضربة متوحشة وثملة. أصابت الضربة رأس إيرما فقط، إلا أن القبضة في نهاية الذراع كانت مصنوعة من الحديد ولهذا ترنح إيرما وسقط على ركبتيه.

لحق غوميز بإيرما بنية واضحة في ضربه مجدداً. أمسك كارلوس بالقبطان من الورا، وحاول منعه، ولكن غوميز الآن غدا أكثر غضباً وخارجاً

عن السيطرة. صارع غوميز كارلوس الذي كان قوياً ولكن ليس بقوة غوميز فتححرر من قبضته، ثم وبيده الأخرى السليمة سحب خنجره.

انضم إليهما بارني الآن، وحاول بقوة مع كارلوس إيقاف غوميز بينما إبرما يصارع للوقوف على قدميه وهو ما يزال يشعر بالدوار. رمى غوميز ببارني وكارلوس وتوجه نحو إبرما رافعاً السكين عالياً في الهواء.

أدرك بارني بخوف أنّ الأمر لم يعد مجرد شجار في الحانة فقد بدا غوميز مستعداً لارتكاب جريمة.

أمسك كارلوس بساعد غوميز التي حمل بها الخنجر ولكن غوميز دفعه بعيداً بضربة ساحقة من ذراعه ذات القبضة الحديدية، وبعمله هذا تمكن كارلوس من تأخير غوميز لثانيتين، أي ما يكفي من الوقت ليستل بارني خنجره الإسباني الذي يصل طوله إلى قدمين وله مقبض كالقرص.

رفع غوميز يده التي حمل بها السلاح عالياً في الهواء، وبسط يده الأخرى الحديدية ليحافظ على توازنه فبقي صدره دون حماية.

وبينما كان غوميز على وشك إغماد الخنجر في العنق المكشوف لإبرما الدائخ رفع بارني خنجره في حركة دائرية عريضة، وطعن غوميز في الجهة اليسرى من صدره.

كانت ضربة محظوظة أو ربما غير محظوظة. رغم أنّ بارني لوح بخنجره بقوة فإنّ النصل الفولاذي المزدوج انزلق بدقة بين أضلاع غوميز واخترق صدره بعمق. صرخ غوميز بألم شديد ولكن صرخته لم تدم سوى نصف ثانية. أخرج بارني النصل واندفع الدم الأحمر اللامع. أدرك بارني أنّه أصاب قلب غوميز الذي انهار بعد دقيقة وسقطت السكين من بين أصابعه الضعيفة، وارتطم بالأرض كشجرة عملاقة.

حدّق بارني نحوه برعبٍ، وأطلق كارلوس اللعنات وقال إبرما الذي بدأ يصحو: «ما الذي فعلناه؟».

انحنى بارني وتحسس عنق غوميز بحثاً عن نبض. لم يشعر بشيء، وتوقف نزيف الجرح.

«لقد مات»، قال بارني.

«لقد قتلنا ضابطاً»، قال كارلوس.

لقد منع بارني غوميز من ارتكاب جريمة ولكن سيكون من الصعب إثبات هذا. نظر حوله في المكان ورأى أنّ الشهود يهرعون خارج الحانة بأقصى سرعة.

لن يكلف أحد نفسه البت بأمر ما جرى. كان شجاراً في حانة وقد قام فيه أحد المجندين بقتل ضابط، ولن يُظهر الجيش رحمةً حيال الأمر. لاحظ بارني أنّ مالك الحانة يعطي تعليمات بلهجة فلمنكية غريبة إلى صبي هرع خارجاً بعد دقيقة.

«لقد أرسلوا في طلب حراس المدينة»، قال بارني. «إن مركزهم في دار البلدية على الأغلب. خلال خمس دقائق سنكون رهن الاعتقال»، قال كارلوس.

«وسأموت»، قال بارني. «وأنا أيضاً»، قال كارلوس. «فقد ساعدتك». «ولأنني أفريقي لن أعامل بعدالة»، قال إيرما. ومن دون مزيد من النقاش ركضوا باتجاه الباب وخرجوا إلى السوق. رأى بارني أنّ الشمس قد بدأت تغرب وراء سماء غائمة. كان هذا جيداً فالمغيب سيحل خلال دقائق.

«فلنتوجه إلى الرصيف النهري!» صرخ بارني. عبروا الساحة وذهبوا عبر شارع ليسترات الذي يفضي إلى النهر. كان شارعاً مزدحماً وسط مدينة مزدهرة ومكتظة بالناس والأحصنة والعربات الممتلئة والعتالين الراحين تحت وطأة أثقال كبيرة.

«تمهلا لا نريد أن يتذكر الجميع الطريق الذي سلكناه»، قال بارني. رغم عدوهم السريع كانوا واضحين للعيان، وسيعرف الناس من سيوفهم أنهم جنود. كانت ثيابهم غير متناسقة وغير مميزة، ولبارني لحية حمراء كثة وإيرما يبدو أفريقياً بما لا يدعو للشك، ولكن عما قريب سيهبط الليل وستبتلعهم العتمة.

وصلوا إلى النهر فقال بارني: «سنحتاج إلى قارب». يستطيع بارني التعامل مع كل أنواع القوارب فقد أحبّ الإبحار. كان هناك الكثير من السفن على مد النظر وجميعها مربوطة إلى الرصيف النهري أو راسية وسط النهر.

على أيّ حال ما من غبي سيتترك قارباً من دون حماية خاصة في مدينة مليئة بالقوات الأجنبية. كان هناك حراس على جميع القوارب الكبيرة بل وحتى القوارب الصغيرة ذات المجاديف مربوطة وقد أزيلت مجاديفها. «فلنرُكع. لا نريد أن يرانا الناس بأي حال من الأحوال».

ركعوا وسط الطين.

نظر بارني حوله في يأس فلم يكن لديهم الكثير من الوقت، وتساءل متى سيبدأ حراس المدينة في البحث عنهم على ضفة النهر. يمكنهم أن يفكوا أحد القوارب الصغيرة من خلال كسر السلسلة الموصولة بالقارب، ولكن من دون المجاديف لن يكون الأمر مفيداً فسيجرفهم التيار ولن يكونوا قادرين على توجيه القارب، وبالتالي سيكون من السهل القبض عليهم. قد يكون من الأفضل لهم السباحة نحو القارب وتجاوز الحراس ورفع المرساة ولكن كم من الوقت يملكون؟ وكلما غلا ثمن القارب كانت المطاردة أشرس. «لا أعلم ربما علينا أن نقطع الجسر ونسلك أول طريق خارج البلدة»، قال بارني. ثم رأوا طوقاً.

كان الطوف عبارة عن قارب متواضع جداً مصنوع من جذوع خشبية مثبتة بعضها إلى بعض مع خيمة صغيرة لا تتسع إلا لرجل واحد. وقف مالك الطوف على ظهر طوفه، وترك التيار يحمله مستخدماً عصاً طويلة للتوجيه. هناك بجانبه كومة من العدة بدت في ضوء المغيب كجبال ودلاء ربما كان يستخدمها في الصيد.

«هذا هو القارب المنشود»، قال بارني. «سيفي بالعرض».

نزل بارني إلى النهر وهو ما يزال على ركبتيه ولحق به كارلوس وإبرما. غدا الماء عميقاً على الفور وسرعان ما وصل مستواه حتى أعناقهم عندما أصبحوا قريبين من الطوف. أمسك الثلاثة بحافته ورفعوا أنفسهم. سمعوا صوت الرجل العجوز يصرخ مصدوماً وخائفاً. هرع كارلوس إليه وتصارع معه على ظهر المركب وقد غطى فمه حتى لا يصرخ طلباً للنجدة. تمكن بارني من أخذ العصا التي أسقطها الرجل من يده قبل أن تقع في المياه ووجه القارب إلى وسط النهر. رأى بارني إبرما يمزق قميص الرجل ويحشو به فمه لإسكاته ثم أمسك بحبل من الكومة وقيد معصمي وكاحلي الرجل. عمل

الرجال معاً كفريق وفكر بارني بأن السبب هذا يعود إلى الوقت الذي قضوه معاً في توجيه المدافع الثقيلة وإطلاقها.

نظر بارني حوله، ورأى أن ما من أحدٍ شهد على اختطاف القارب ولكن ما الذي سيفعلونه الآن؟.

«يجب علينا...» قال بارني.

«اصمت»، قال إيرما.

«ماذا؟».

«كُن حذراً في قول أيّ شيء فقد يفهم الإسبانية».

فهم بارني ما الذي عناه إيرما، فعاجلاً أم آجلاً سيُخبر الرجل العجوز شخصاً ما بما حدث معه ما لم يقتلوه وهذا ما لم يرده أيّ واحد منهم. سيسألونه عن مختطفيه وكلما كانت معلوماته أقل كان أفضل. كان إيرما أكبر منهما بعشرين عاماً، ولم تكن هذه المرة الأولى التي تكبح حكمتها اندفاعاتها.

«ولكن ماذا سنفعل به؟» قال بارني.

«فلنتركه معنا حتى نصل إلى الحقول، ثم نتركه على ضفة النهر مربوطاً ومكماً. سيكون على ما يرام ولكن لن يعثروا عليه حتى الصباح. بحلول ذلك الوقت سنكون قد ابتعدنا».

فكر بارني بأنّ خطة إيرما تبدو منطقية، وتساءل عما سيفعلونه بعد هذا، هل سيسافرون ليلاً ويختبئون خلال النهار؟ فكلما ابتعدوا عن بلدة كورتريك أصبح من الصعب على السلطات إيجادهم. ولكن ماذا بعد؟ إن لم تخنه الذاكرة فهذا النهر يصبّ في نهر شيلدت الذي يفضي إلى أنتويرب. كان لدى بارني قريب في أنتويرب يدعى جان ولمان وهو نسيب والده، وبعد التفكير بالأمر تذكر بارني أنّ جان ولمان قريب لكارلوس أيضاً. كانت العقدة التجارية مالكومب - أنتويرب - كاليه - إشبيلية من عمل الأبناء الأربعة: والد بارني إدموند ويلارد وأخوه العم ديك ووالد كارلوس وجان. إن تمكن الهاربون الثلاثة من الوصول إلى أنتويرب فمن المرجح أن يصبحوا بأمان.

هبط الظلام. افترض بارني بسعادة أنّ السفر ليلاً سيكون أفضل، ولكن تبين أن توجيه الطوف في الظلمة أمرٌ صعبٌ. لم يكن على طوف الرجل

العجوز أي مصباح، ولم يرغبوا بإشعال ضوء مخافة أن يرصدهم أحد. تخلل ضوء النجوم الضعيف الغيوم، وتمكن بارني في بعض الأحيان من رؤية ما يوجد أمامه وفي أحيان أخرى قاد الطوف كالأعمى ليصطدم بالضفة ثم يدفعه بعيداً عن الضفة مجدداً.

راود بارني شعور بالغرابة، واحتار من شعوره هذا ثم تذكر أنه قتل رجلاً من الغريب حقاً كيف كان لأمر مريع كهذا أن يغيب عن ضميره ليعود صادمًا بقوة. كان في مزاج عصبي وسوداوي كهذه الليلة، وعاد بذاكرته إلى الطريقة التي سقط فيها غوميز مفارقاً الحياة قبل أن يرتطم بالأرضية.

لم تكن هذه المرة الأولى التي يقتل فيها بارني فقد أطلق قذائف المدافع على جيوش اقتربت منهم، ورأى الجنود يسقطون موتى أو مصابين بشكل خطير، ولكن لم يؤثر هذا على روحه، ربما لأنه لم يرَ وجوه الذين قتلهم. ولكنه قتل غوميز بشكل مباشر وبطريقة رهيبية. ما زال بإمكان بارني الشعور بذلك الإحساس في معصمه عندما انغرس الخنجر واخترق جسد غوميز ورأى الدم اللامع المتدفق من قلب نابض بالحياة. كان غوميز رجلاً بغيضاً وموته رحمة للجنس البشري، ولكن لم ينتب بارني شعور جيد حيال ما فعله. ارتفع القمر في السماء وألقى نوراً متذبذباً من بين الغيوم. وعندما غدت الرؤية جيدة ألقوا بالرجل في مكان بدا لهم مناسباً وبعيداً عن السكان. حملة إبرما إلى مكان جاف أعلى النهر وتأكد من أنه مرتاح. سمع بارني الذي كان على الطوف إبرما يتكلم مع الرجل بصوتٍ منخفض ربما كان يعتذر منه. كان هذا منطقياً فالرجل العجوز لم يفعل شيئاً يستحق ما حصل له، وسمع بارني خشخشة نقود.

عاد إبرما إلى الطوف الذي دفعه بارني بالعصا بعيداً عن الضفة. «أعطيته المال الذي ربحته من غوميز، أليس كذلك؟» قال كارلوس لإبرما.

هز إبرما كتفيه بلا مبالاة تحت ضوء القمر وقال: «لقد سرقنا طوفه الذي كان وسيلته لكسب عيشه». «ونحن الآن مفلسون»، قال كارلوس. «أنت كنت مفلساً بالأصل»، قال إبرما بحدة. «وها أنا الآن قد أصبحت مفلساً أيضاً».

أخذ بارني يفكر بهذه المطاردة. لم يكن واثقاً من جدية عملية البحث عنهم. لم تحب سلطات المدينة الجرائم ولكن الضحية والمجرمين من الجنود الإسبان، ولن ينفق مجلس مدينة كورتريك المال في مطاردة أجنبى قتلوا أجنبياً. سيعدمهم الجيش الإسباني إن سنحت له الفرصة، ولكن بارني تساءل مجدداً إن كان الجيش سيكلف نفسه مشقة تنظيم بحث عن المجرمين. قد يقوم الجيش بالتحرك إلا أنه سيستسلم سريعاً. بقي إبرما صامتاً وغازقاً في التفكير لوهلة ثم تحدث برزانة.

«كارلوس هناك أمر يجب أن نوضحه».

«ما هو؟».

«لقد تركنا الجيش الآن».

«أجل تركناه إن لم يقبضوا علينا».

«عندما صعدنا على متن سفينة خوسيه وماريا أخبرت الضابط بأنني رجل حر».

«أعلم»، قال كارلوس.

شعر بارني بالتوتر في الأجواء. كان إبرما طوال عامين جندياً عادياً وربما جندياً غريب المظهر، لكنه لم يكن عبداً، ولهذا تساءل عن صفته الآن.

«هل أنا رجلٌ حر في نظرك يا كارلوس؟» قال إبرما.

انتبه بارني إلى التشديد في عبارة «في نظرك»، وهذا يعني أنّ إبرما يعتبر نفسه رجلاً حراً. لم يكن بارني واثقاً من موقف كارلوس من الأمر، فموضوع عبودية إبرما لم يُناقش منذ تلك اللحظة على متن سفينة خوسيه وماريا.

حلّ صمتٌ طويلٌ ثم قال كارلوس: «أنت رجلٌ حراً إبرما».

«شكراً لك، أنا سعيد لأننا متفاهمان».

تساءل بارني عما كان سيفعله إبرما لو أن كارلوس أجاب بالنفي.

بدأت الغيوم تنفث، ونحت ضوءٌ أفضل تمكن بارني من الحفاظ على سير الطوف مع التيار وتحركوا بشكل أسرع.

بعد مرور فترة سأل كارلوس: «إلى أين يقودنا هذا النهر؟».

«إلى أنتويرب»، قال بارني. «إننا متوجهون إلى أنتويرب».

لم يكن إبرما واثقاً من صدق كلام كارلوس، فلم يكن من الحكمة أن يضع المرء ثقته في كلمات مالكة الودية. هذه هي العقيدة التي آمن بها عبيد إشبيلية. فالرجل الذي يسعده الاحتفاظ بك كسجين وإجبارك على العمل من دون أجر وضربك بتهمة العصيان واغتصابك في أي وقت يرغب لن يتردد في الكذب عليك. كان كارلوس مختلفاً عن البقية ولكن إلى أي درجة؟ سيحدد جواب هذا السؤال مسار حياة إبرما.

كان رأس أبرما يؤلمه من الضربة التي وجهها له غوميز. تلمس جمجمته بحذر، وشعر بكتلة حيث ضربه غوميز بيده الحديدية. ولكنه لم يشعر بالتشويش بل بالدوار، وافترض أنه سيسفى من الضربة.

عندما انبلج الفجر توقفوا في مكان يمر فيه النهر بغیضة من الأشجار. سحبوا الطوف خارج الماء وأخفوه بين الأغصان. تناوبوا على الحراسة أثناء النوم، وحلم إبرما أنه استفاق مكبلاً بالسلاسل.

في صباح اليوم الثالث رأوا من بعيد البرج العالي لكاتدرائية أنتويرب. تركوا الطوف يطفو بحرية، وقطعوا الأميال الأخيرة مشياً على الأقدام. فكر إبرما بأنهم لم يصبحوا في أمان بعد، فقد يلقى القبض عليهم ويرمى بهم في السجن، ثم يُسلمون إلى الجيش الإسباني ليحاكموا ويُعدموا على الفور بتهمة قتل غوميز ذي اليد الحديدية. ولكن على الطرق المكتظة التي تفضي إلى المدينة بدا كأن ما من أحد قد سمع بقصة الجنود الإسبان الثلاثة، ولا أن رجلاً ذا لحية حمراء وآخر أفريقياً قتلاً قبطاناً في كورتريك ثم هرباً.

تنتقل الأخبار من مدينة إلى أخرى بشكل أساسي عبر نشرات التجار التي تحتوي بمعظمها على معلومات تجارية. لم يكن إبرما يجيد القراءة، ولكنه كما فهم من كارلوس فإن مثل هذه النشرات تحوي على تفاصيل جرائم لها أهمية سياسية كالاغتيالات والعصيانات والانقلابات، ولن يكون شجار في حانة بين جنود أجنب مثيراً للكثير من الاهتمام حتى تتداوله هذه النشرات.

أدرك إبرما، وهم يستكشفون الضواحي، أن أنتويرب محاطة بالمياه من جميع الجهات؛ فمن الغرب يمر نهر شيلدت العريض، ومن الجهات الثلاث المتبقية كانت المدينة مفصولة عن البر بقناة مسورة. وهناك جسور

فوق القناة المائية تقود مباشرة إلى بوابات محصنة. يقال إن أنتويرب أغنى مدينة على وجه الأرض، ولهذا من الطبيعي أن تكون محصنة بشكل جيد. حتى وإن لم يعلم الحراس بما حدث في كورتريك فهل سيسمحون لرجال بثياب مهلهلة يحملون السيوف ويتضورن جوعاً بالدخول؟ واقترب الأصدقاء الثلاثة في خوف.

شعر إيرما بالراحة عندما لم يوح مظهر الحراس بأنهم كانوا يبحثون عن ثلاثة هاربين من العدالة، بل كانوا ينظرون شزراً إلى مظهرهم في الثياب التي صعدوا بها على متن سفينة خوسيه وماريا منذ عامين، ثم قال لهم بارني إنهم أقرباء جان ولمان، وعندها أصبحوا بعيدين عن أي شبهة. أعطاهم الحراس الإرشادات ليصلوا إلى منزل جان قرب الكاتدرائية العالية التي رأوها من بعيد.

تخللت الجزيرة أرصفة بحرية طويلة وضيقة وتشابكت فيها الأقنية المتعرجة. وبينما ساروا في الشوارع المكتظة تساءل إيرما كيف سيستقبل جان ولمان نسيبه المفلسين ومعهما رجل أفريقي. قد لا يكون الزوار المفاجئون موضع ترحاب.

عثروا على منزل جان. كان بيتاً جميلاً يقع على صفٍ طويل من المنازل. طرقتوا على الباب في خوفٍ ونظر إليهم الخدم في ارتياب، ثم ظهر جان ورحب بهم بذراعين مفتوحتين ثم قال لبارني: «تبدو تماماً كوالدي المتوفى عندما كان شاباً وأنا مجرد صبي صغير». كان شعر جان أحمر ويملك عينين عسليتين كجميع أفراد عائلة ويلارد.

قرروا ألا يثقوا كاهل جان بكل الحقيقة عن معركتهم في كورتريك، وبدلاً من هذا أخبروه أنهم فرّوا من الجيش الإسباني لأنه لم يدفع لهم مستحقّاتهم. صدّقهم جان بل بدا كأنه يؤمن بأنّ على الجنود الذين لا يتلقون رواتب أن يفروا من الجندية.

قدم لهم جان النبيذ والخبز واللحم البارد فقد كانوا يتضورون جوعاً، ثم سمح لهم بالاستحمام وأعارهم قمصاناً نظيفة بعد أن قال لهم بصراحة ودية أنّ رائحتهم نتنة.

لم يدخل إيرما إلى بيت كبيت جان من قبل. كان بيتاً كبيراً بما يكفي

ليكون قصرأ، ويحوي على كثير من الغرف بالنظر إلى كونه مجرد منزل. كان مكتظاً بالأثاث والأشياء الباهظة الثمن كالمرايا الجدارية المؤطرة والسجاجيد التركية وأوانٍ زجاجية مزخرفة من فينيسا وأدوات موسيقية وأباريق وصحون خزفية رقيقة مناسبة للعرض أكثر منها للاستخدام. لم تكن اللوحات تشبه أيّ شيء سبق أن رآه إبرما. يبدو أنّ الهولنديين يفضلون لوحاتٍ لأناسٍ يشبهونهم مسترخين مع كتب وبطاقات لعب وموسيقى في غرفٍ مريحة كالغرفة التي هم فيها الآن، وكأنهم يعتبرون حيواتهم أكثر إثارة للاهتمام من حيوات الأنبياء الإنجيليين والشخصيات الأسطورية الأكثر شيوعاً في الفن الإسباني.

أعطوا إبرما غرفة أصغر من غرفتي بارني وكارلوس ولم يُطلب منه النوم مع الخدم، واستنتج أنّ جان لم يكن متيقناً من مكانته. جلسوا في تلك الليلة إلى الطاولة مع العائلة المؤلفة من زوجة جان هيني وابنته إمكي وثلاثة صبية صغار- فريتز وجيف ودان.

استخدموا مزيجاً من اللغات إلا أن الفرنسية كانت اللغة الأساسية للتواصل في جنوب وغرب هولندا لتنوع اللهجات الهولندية في بقية الأماكن. كالعديد من التجار كان جان قادراً على التحدث بعدة لغات من بينها الإسبانية والإنكليزية.

كانت ابنته إمكي في السابعة عشرة وهي فتاة جذابة لها ابتسامة كبيرة ومشرقة وشعر أشقر مجعد. كانت نسخة مصغرة عن أمها هيني. انجذبت إمكي على الفور إلى بارني، ولاحظ إبرما أنّ كارلوس صارع ولكن دونما جدوى للحصول على اهتمامها. كان لبارني ابتسامة خبيثة تحبها الفتيات. رأى إبرما أنّ كارلوس الرصين والجدير بالثقة سيكون زوجاً أفضل، ولكن قلة من الفتيات المراهقات سيكن حكيمات بما يكفي لرؤية هذا. لم يكن إبرما مهتماً بالفتيات الصغيرات، ولكنه أحبّ هيني التي بدت له ذكية ولطيفة. سألتهم هيني عن كيفية انضمامهم إلى الجيش الإسباني، وبدأ إبرما يخبرهم القصة بالإسبانية والفرنسية مع بعض الكلمات المحلية التي تعلمها. استغل إبرما القصة جيداً، وسرعان ما حظي باهتمام جميع من على الطاولة. أضاف إليها تفاصيل عن الفرن الجديد، وأكد في كلامه أنّه

كان شريكاً مساوياً لكارلوس في اختراع هذا الفرن. شرح لهم كيف أن تيار الهواء الشديد يجعل الفرن حاراً جداً، وأن الحديد يخرج منه ذائِباً في سيل لا يتوقف، وهذا يعني أن الفرن قادر على إنتاج طن من المعدن يومياً. عندما أخبرهم بهذا لاحظ أن جان ينظر نحوه باحترام.

كانت عائلة ولمان كاثوليكية، ولكنهم صعقوا عندما علموا بالطريقة التي عاملت فيها كنيسة إشبيلية كارلوس. قال جان إن مثل هذا الأمر لن يحدث في أنتويرب، وتساءل إبرما في نفسه إن كان ما قاله جان حقيقياً بما أن البابا يحكم نفس الكنيسة في كلا البلدين.

تحمس جان لفكرة الفرن وقال إن على إبرما وكارلوس مقابلة مزود المعادن الرئيسي لديه الذي يدعى آلبرت ويلمسون بأقصى سرعة، ومن الأفضل أن يكون هذا اللقاء غداً.

في صباح اليوم التالي توجهوا جميعاً إلى حي أقل ثراءً من الحي الذي تسكنه عائلة ولمان ويقع بالقرب من أحواض السفن. عاش آلبرت في بيت متواضع مع زوجته بيتي، وابنته الرزينة درايك التي تبلغ ثمانية أعوام، وأخته الأرملة الجذابة إيفي وابنها ماتيوس الذي كان في حوالي العاشرة من العمر. كان منزل آلبرت يشبه جداً منزل كارلوس القديم في إشبيلية مع ممر يُفضي إلى مكان العمل مع الفرن وأكوام الحديد الخام والكلس والفحم. وافق آلبرت فوراً على بناء كارلوس وإبرما وبارني فرناً في فنائه، ووعدهم جان بإقراضهم المال المطلوب.

على مدار الأيام والأسابيع التالية تعرف كارلوس وبارني وإبرما على المدينة. صُعبق إبرما عندما رأى مدى الجدية التي يعمل بها الهولنديون، ولم يكن الفقراء فقط من يعملون بجد في كل مكان بل والأغنياء أيضاً. ورغم أن جان يعد من أغنى الرجال في البلدة فإنه يعمل ستة أيام أسبوعياً. كان أي إسباني يملك قدراً وافراً من المال سيتقاعد في الريف ويشتري مزرعة، ويعين وكيلاً للمزرعة كي يجمع الإيجارات من الفلاحين حتى لا يلمس بأصابعه البيضاء كالزنبق المال القذر ويسعى في الوقت نفسه لتزويج ابنته زيجة أرستوقراطية على أمل أن يحظى أحفاده بألقاب عليّة القوم. كان جان يشتري الحديد والبرونز والأسلحة والذخيرة المصنّعة، وبتاع الصوف من

إنكلترا ليحوّله إلى قماش صوفي ثم يبيعه مجدداً إلى الإنكليز، ويشتري أيضاً حصصاً مربحة من الحمولات والمتاجر والمزارع والحانات، ويُقرض المال لأعمالٍ مزدهرة، وإلى أساقفة أفرطوا في إنفاق مداخيلهم وكذلك إلى الأمراء. كان يتقاضى الفائدة فهنا في هولندا، لا يبالون بتحريم الكنيسة للربا. كانت الهرطقة قضية أخرى لم يقلق سكان أنتويرب حيالها. فقد اكتظت المدينة باليهود والمسلمين والبروتستانتين، وجميعهم يكشفون عن هوياتهم من خلال ثيابهم ويتعاملون بعضهم مع بعض بتساوٍ. كان هناك أناسٌ ببشرات مختلفة، منهم من كان بلحي حمراء كبارني، ومنهم الأفارقة كإيرما، وهناك الأتراك السمر بشوارب خفيفة، وهناك الصينيون ببشرتهم البنية الفاتحة مع شعر أسود ضارب إلى الزرقة. لم يكره سكان أنتويرب أحداً باستثناء المتهربين من الديون. وأحبّ إيرما المكان جداً.

لم يتطرق أحد إلى موضوع حرية إيرما. كان يذهب كل يوم مع كارلوس وبارني إلى فناء آلبرت، ويتناولون العشاء كل ليلة في منزل جان. ذهب إيرما أيام الأحد إلى الكنيسة مع العائلة وبعد الظهر، عندما ينسحب بقية الرجال لأخذ قيلولة بعد تناول النيذ مع وجبة الغداء، يبحث عن مكان في الريف ليؤدي فيه طقس المياه. لم ينادِ أحد إيرما بالعبد، ولكن من نواحٍ عدة كانت حياته هنا شبيهة بشكل مقلق، بحياته في إشبيلية.

أثناء عملهم في الفناء كانت أخت آلبرت إيفي أغلب الأحيان تجلس معهم أثناء الاستراحة. كانت في الأربعين من عمرها وسمينة بعض الشيء كالعديد من النساء الهولنديات الممثلات في منتصف أعمارهن، ولعينيها الخضراوين الضاربتين إلى الزرقة لمعة خاصة. تحدثت إليهم جميعاً وبخاصة إلى إيرما الذي كان في مثل عمرها. كانت إيفي تملك فضولاً كبيراً، وسألت إيرما عن الحياة في أفريقيا، وأصرت على معرفة التفاصيل التي اضطر معها إلى عصر دماغه ليتذكر بعضها. ولأنها أرملة ولديها طفل فهي على الأغلب تبحث عن زوج، وبما أنّ كارلوس وبارني صغيران جداً ليهتما بها، تسأل إيرما إن كانت تبحث فيه عن زوج لها. لم يقترب من امرأة منذ ترك إيلسا، ولكنه كان يأمل أنّ يكون هذا الوضع مؤقتاً، فهو حتماً لم يكن يرغب بالعيش كناسك.

تطلّب بناء الفرن شهراً، وعندما أصبحوا جاهزين لتجربته أتت عائلة جان وآلبرت للمشاهدة.

تذكر إيرما أنهم جربوا هذا من قبل ولكن لمرة واحدة فقط، ولهذا لم يكونوا واثقين من أنهم قد ينجحون في المرة الثانية. سيبدون ثلاثتهم بمظهر الأغبياء إن فشلوا، أو أسوأ من هذا، فقد يحقّ الفشل بمستقبلهم. جعل هذا إيرما يدرك أنّه كان يأمل من دون أن يدري البقاء هنا وكسب عيشه، وكره فكرة أن يجعل من نفسه أضحوكة أمام إيفي.

أشعل كارلوس النار، ووضع إيرما الحديد والكلس، ولجم بارني الحصانين المربوطين اللذين يحركان الكير. وكما حصل سابقاً، كان الانتظار طويلاً، وباعثاً على التوتر الشديد.

تململ بارني وكارلوس في توتر. جاهد إيرما للحفاظ على لامبالته المعتادة، وشعر كأنّه قامر بكل شيء بورقة لعب واحدة.

انتاب المتفرجين بعض الملل، وبدأت إيفي تتحدث مع هيني عن مشاكل أن يكون للمرء أولاد مراهقون. طارد أبناء جان الثلاثة ابنة آلبرت في الفناء، وقدمت لهم زوجة آلبرت بيتي البرتقال على صينية. كان إيرما متوتراً جداً، ولم يكن بمقدوره تناول أي شيء. ثم بدأ الحديد يسيل.

تدفق المعدن الذائب ببطء عند قاعدة الفرن إلى القنوات الحجرية المُجهزة. كانت حركة التدفق في البداية بطيئة بشكل مضمّن، ولكن سرعان ما أخذت قوة الدفع تزداد، وبدأت تمتلئ الفجوات التي لها شكل السبائك على الأرض. وضع إيرما المزيد من المواد الأولية في أعلى الفرن، وسمع آلبرت يقول متعجباً: «انظروا إلى هذا، إنّهُ لا يتوقف».

«تماماً»، قال إيرما. «إن تابعت تغذية الفرن بالمواد لن ينقطع تدفق الحديد».

«هذا حديد خام، ويجب تنقيته قبل الاستخدام»، قال كارلوس محذراً. «فهمت»، قال آلبرت. «ولكن على الرغم من هذا فإن الأمر مذهل». «إذاً، قلتم إنّ ملك إسبانيا ترفع عن استخدام هذا الاختراع؟» قال جان مشككاً.

«لا أعتقد أن الملك فيلبي سمع به أصلاً، ولكن بقية صانعي الحديد في

إشبيلية شعروا بالتهديد. لا يحب الإسبان التغيير، والناس الذين يديرون صناعتنا محافظون جداً»، أجابه كارلوس.

هزّ جان رأسه وقال: «أعتقد أنّ هذا هو سبب شراء الملك للكثير من المدافع من الأجانب مثلنا. يبدو أنّ الصناعة الإسبانية لا تنتج ما يكفي». «ويشكون من أنّ الفضة التي تصل إلى إسبانيا من أمريكا تختفي على الفور».

ابتسم جان وقال: «حسناً، نحن هنا تجار هولنديون ولسنا نبلاء إسبانيين. فلنذهب إلى المنزل لتناول الشراب، والتحدث في العمل». دخلوا إلى المنزل وجلسوا إلى الطاولة. قدّمت لهم بيتي الجعة والنقانق الباردة، وأعطت إمكي الأولاد زيبياً ليقبوا هادئين. «إنّ الأرباح من هذا الفرن الجديد ستستخدم أولاً لدفع القرض مع الفائدة»، قال جان.

«بالطبع»، قال كارلوس.

«بعد هذا سيُقسّم المال بينكم وبين آلبرت. هل أنتم موافقون؟». أدرك إيرما أنّ كلمة «بينكم» غامضة بشكلٍ مقصود، فجان لا يعلم إن كان إيرما شريكاً مساوياً لكارلوس وبارني.

لم يكن هناك مجال للتصرف بتواضع حيال الأمر ولذلك انبرى إيرما قائلاً: «نحن الثلاثة بنينا الفرن معاً: كارلوس وبارني وأنا».

نظر الجميع إلى كارلوس، وحبس إيرما أنفاسه. تردد كارلوس، وأدرك إيرما أنه أمام الاختبار الحقيقي. فعندما كانوا على الطوف لم يكلف قول كارلوس «أنت رجلٌ حرٌّ يا إيرما» شيئاً، ولكن الأمر الآن مختلف. إن أقرّ كارلوس بأنّ إيرما كفاء له أمام جان ولمان وآلبرت ويلمسون سيلتزم بما أقرّ به، وسيكون إيرما رجلاً حرّاً.

«سنُقسّم المال بيننا نحن الأربعة: آلبرت وبارني وإيرما وأنا»، قال كارلوس في النهاية.

تسارع نبض قلب إيرما، ولكنه حافظ على وجهه خالياً من أيّ تعبير. التفت عينه بعينٍ إيفي، ورأى أنّها بدت مسرورة.

وهنا ألقى بارني بالخبر الصاعق وقال: «لا تحسبوا حسابي».

«ما الذي تتحدث عنه؟» قال كارلوس.

«أنت وإبرما من اخترع الفرن»، قال بارني. «بالكاد قمت بأي شيء. في جميع الأحوال لن أبقى في أنتويرب».

سمع إبرما إمكي تشهق، لا بدّ أنّها أصيبت بخيبة أمل فقد كانت واقعة في غرام بارني.

«إلى أين ستذهب يا بارني؟» سأل كارلوس.

«إلى الوطن»، قال بارني. «لم أتواصل مع عائلتي منذ أكثر من عامين. ومنذ أن وصلنا إلى أنتويرب أكد لي جان أن والدتي خسرت كل شيء عند سقوط كاليه، ولم يعد أخي نيد يعمل في نطاق أعمال العائلة التي توقفت، بل أصبح سكرتيراً في بلاط الملكة إليزابيث. أريد أن أراهما. أرغب بالاطمئنان عليهما».

«كيف ستعود إلى كينغزبريدج؟».

«هناك سفينة متوجهة إلى ميناء كومب راسية هنا في أنتويرب في هذه اللحظة وتدعى ذا هوك يملكها دان كوبلي ويقودها القبطان جوناس بيكون».

«لا تملك ثمن التذكرة فأنت لم تحصل على أي مال».

«تحدثت البارحة إلى مساعد القبطان جوناثان غرينلاند الذي أعرفه منذ كنت صبياً. مات أحد أفراد الطاقم في رحلتهم إلى هنا، كان حداد ونجار السفينة. لقد أخذت عمله من أجل رحلة العودة إلى الوطن».

«ولكن كيف ستكسب عيشك في إنكلترا إن كانت أعمال العائلة قد انتهت؟».

ابتسم بارني ابتسامة غير عابثة كفيلة بتحطيم قلوب الفتيات من أمثال إمكي ثمّ قال: «لا أعلم. سأفكر بشيء ما».

استجوب بارني جوناثان غرينلاند حالما أبحرت سفينة ذا هوك في البحر، وبدأ الرجال يفكرون بأمورٍ أخرى غير توجيه السفينة.

كان جوناثان قد قضى الشتاء الأخير في كينغزبريدج وغادرها لينضم إلى طاقم السفينة منذ عدة أسابيع فقط، ولهذا كان يعرف آخر الأخبار. ذهب إلى والده بارني متوقفاً أن تكون أليس تواقّة لسماع الأخبار من وراء البحار. وجدها

جوناثان جالسة في غرفة الجلوس الأمامية للبيت الكبير تراقب الواجهة الغربية للكاتدرائية ولا تقوم بأي شيء وقد أحاطت بها السجلات القديمة دون أن تفتح أياً منها. من الواضح أنها حضرت اجتماع مجلس المدينة، ولكنها لم تتحدث فيه. كان من الصعب على بارني أن يتخيل والدته غير مشغلة بالأعمال، فمذ كان صغيراً رآها تعيش من أجل الصفقات والنسب والأرباح، وقد تملكها تحدي جني المال من التجارة. كان هذا التغيير نذير شؤم.

قال له جوناثان إن السير ريجنالد الذي تأمر لتدمير عمل أليس، ما زال عمدة كينغزبريدج، ويعيش في قصره الجديد في برايبوري غيت، ولكن الأسقف يوليوس عُزل من منصبه. لقد حثت الملكة إليزابيث بكل الوعود التي قدمتها، وأعدت إنكلترا إلى البروتستانتية. طلبت من جميع الأساقفة أداء قسم الولاء، وأن يكون ولاؤهم لها بوصفها الحاكمة العليا للكنيسة الإنكليزية. وكان رفض أداء هذا القسم يعدّ خيانة. وافق معظم رجال الإكليروس ذوي المراتب الدنيا على أخذ القسم في حين رفضه معظم الأساقفة الكاثوليكين العجائز. كان بإمكانها أن تعمدهم، ولكن إليزابيث أقسمت على عدم قتل الناس من أجل معتقداتهم، وحافظت على وعدتها... حتى الآن. تم عزل معظم الأساقفة من مناصبهم، ولذلك عاش يوليوس مع راهبين أو ثلاثة في منزل ملحق بكنيسة سان مارك في شمال كينغزبريدج. قال جوناثان إنه رآه ثملاً في حانة بيل في إحدى ليالي السبت يقول لأي شخص قد يصغي إن الدين الكاثوليكي الحقيقي سيعود قريباً. أكد جوناثان أن يوليوس قد تحول إلى شخصية محزنة، ولكن بارني رأى أنّ الكاهن العجوز المخادع يستحق مصيراً أسوأ.

تحدث جوناثان إلى بارني عن روعة الحياة في البحر. كان جوناثان قد عاد إلى الوطن على سفينة وقد أحرقت الشمس ونحل جسده وتصلبت يدها وقدماه وغدا رشيماً كسنباب على حبال الأشرعة والصواري. في نهاية الحرب مع فرنسا كانت سفينة ذا هوك قد أسرت سفينة فرنسية، وتقاسم الطاقم الأرباح مع القبطان بيكون ودان كوبلي، وحصل جوناثان على علاوة وصلت إلى ستين جنيهاً فوق راتبه. اشترى بالمال منزلاً لوالدته الأرملة في كينغزبريدج، وانضم مجدداً إلى الطاقم على أمل أن يحالفه الحظ مرة أخرى.

«لم نعد في حالة حرب»، قال بارني. «إن أسرت سفينة فرنسية الآن ستتهم بالقرصنة».

هزّ جوناثان كتفيه وقال: «لن يمضي وقتٌ طويل قبل أن ندخل في حربٍ مع أحدهم». وشدّ حبلاً ليتأكد من قوة العقدة التي كانت أصلاً محكمةً جيداً، ولكن بارني تكهن بأنّ جوناثان لا يريد الإجابة على مزيد من الأسئلة التي تخصّ القرصنة.

غيّر بارني الموضوع وسأل جوناثان عن أخيه.

زار نيد كينغزبريدج في عيد الميلاد في معطفٍ أسود جديد باهظ الثمن، وبدا أكبر من عمره الحقيقي. علم جوناثان أنّ نيد يعمل مع وزير الخارجية السير ويليام سيسيل، وقال الناس في كينغزبريدج إنّ نيد شخصية ذات سلطة في البلاط رغم صغر سنه. تحدث إليه جوناثان في الكاتدرائية في يوم عيد الميلاد، ولكن لم يحصل على كثير من المعلومات، فقد بقي نيد غامضاً حيال ما يفعله لمصلحة الملكة، وتكهن جوناثان أنّه يعمل في العالم السريّ للدبلوماسية الدولية.

«لا يسعني الانتظار لرؤيتهما»، قال بارني.

«أتخيل هذا».

«سنصل خلال يومين من الآن».

تحقق جوناثان من جبلٍ آخر ونظر بعيداً.

لم يتوقع أحد أن تقع معركة في الطريق على طول القناة من أنتويرب إلى ميناء كومب ولكن بارني شعر أن عليه أن يعمل بثمان ركوبه السفينة من خلال الحرص على جهوزية أسلحة سفينة ذا هوك.

كانت السفن التجارية بحاجة إلى الأسلحة كأيّ سفينة أخرى، فالعمل في البحر خطير. في أوقات الحرب يمكن لسفن أحد البلدان المتقاتلة أن تهاجم سفن العدو بشكل قانوني، ومعظم البلدان الكبيرة كانت في حالة حرب أكثر مما كانت في حالة سلام. أمّا في أوقات السلم، فكان يطلق على العمل عينه قرصنة، وكان هذا كثيراً ما يحدث، ولذلك يجب أن تكون كل سفينة قادرة على الدفاع عن نفسها.

كان على سفينة ذا هوك اثنا عشر مدفعاً مع قذائف من البرونز ومدافع

صغيرة تطلق قذائف يصل وزنها إلى أربعة باوندات. كانت قذائف البرونز على منصة المدافع تحت المنصة العليا، وقد وُضعت ست قذائف على كل جهة من المدفع، تُطلق من فتحات مربعة في جسم السفينة. تغير تصميم السفن ليتناسب مع هذه الحاجة. ففي السفن الأقدم كان من شأن مثل هذه الفتحات للمدافع أن تضعف هيكل السفينة بشكل خطير. ولكن سفينة ذا هوك مصممة لتكون خفيفة وسريعة، وقد بُني هيكلها الداخلي من خشبٍ ثقيل يمنحها القوة مع ألواح خشبية تلف بدن السفينة ومثبتة على الهيكل كالجلد فوق الأضلاع. لهذا النوع من الهياكل ميزة إضافية؛ وهي أن قذائف العدو قد تتمكن من إحداث ثقوب عديدة في بدن السفينة من دون أن تغرقها بالضرورة.

نظف بارني المدافع وشحّمها، وتأكد من أنها تتحرك بسهولة على العجلات، وقام ببعض الإصلاحات الصغيرة مستخدماً العدة التي تركها الحداد السابق المتوفى. وتفقد الذخيرة، إذ كان لجميع المدافع فوهات ذات قياس واحد، وتطلق القذائف الحديدية المناسبة لحجم فوهتها.

كانت وظيفة بارني الأساسية الحفاظ على البارود بحالة جيدة، فالبارود يمتص الرطوبة وخاصة في البحر، وحرص بارني على أن تكون هناك أكياس من الفحم معلقة في السقف على منصة المدافع حتى يبقى الهواء جافاً. كانت المشكلة الأخيرة التي قد تواجههم هي انفصال مكونات البارود الأخرى - الملح الصخري والفحم والكبريت - مع الوقت، فكلما غاص الملح الصخري إلى الأسفل أكثر تراجع حجم الأذية التي قد يحدثها. تعلم بارني في الجيش أن يقلب الفوهات رأساً على عقب مرة أسبوعياً، بل وقام بترتيب المدافع. لم يرغب بارني بتبديد الذخيرة إلا أن القبطان سيكون سمح له بإطلاق عدة قذائف. استقرت جميع فوهات المدافع على قضيب دوران يشبه المقابض على الجانبين، ومثبت في دعائم مجوفة على عربة المدفع، وهذا سيسهل عملية إمالة الفوهة للأعلى والأسفل. إن كانت الفوهة بزاوية خمس وأربعين درجة، وهو المدى الأقصى للإطلاق، يمكن للقذائف ذات الأربعة باوندات أن تقطع ميلاً تقريباً، أي ما يعادل ألفاً وستمئة ياردة. يمكن تغيير الزاوية من خلال رفع نهاية الماسورة وتثبيتها بأوتاد. إن كانت

الماسورة مستوية فإن القذيفة ستسقط في الماء على بعد ثلاثمئة ياردة، وهذا يعني أن كل سبع درجات من الميلان الأفقي ستضيف مثني ياردة إلى مجال الإصابة. كان بارني قد أحضر معه من الجيش الإسباني منقلة بخط عمودي وقوسٍ منحني لقياس الزوايا. استطاع قياس زاوية المدفع بدقة من خلال وضع ذراع الأداة الطويلة على الفوهة. كان بالإمكان استخدام التقنية عينها على اليابسة أيضاً. ولكن في البحر وبسبب الحركة المستمرة للسفينة كان الإطلاق أقل دقة.

لم يكن لدى بارني في اليوم الرابع أي شيء ليقوم به، ووجد نفسه على سطح السفينة مع جوناثان مجدداً. كانوا يقطعون خليجاً، وكان الشاطئ، منذ مغادرة سفينة ذا هوك للمصب الغربي لنهر شيلدت، ودخولها القناة الإنكليزية، من جهة ميل صدر السفينة.

لم يكن بارني خبيراً بالملاحة، إلا أنه كان يعتقد أن الساحل الإنكليزي يجب أن يكون من جهة ميل مؤخرة السفينة. عبس بارني وقال: «كم يلزمنا من الوقت لنصل إلى ميناء كومب؟».

هزّ جوناثان كتفيه وقال: «لا أعلم».

وخطر ببال بارني خاطرٌ مزعج.

«إننا متوجهون إلى ميناء كومب، صحيح؟».

«أجل في نهاية المطاف».

ازداد رعب بارني وقال: «في نهاية المطاف؟».

«لا يخبرنا القبطان بكون بناواياه أبداً».

«ولكن يبدو لي أنك تعتقد أننا لن نعود إلى الديار».

«انظر إلى الخط الساحلي».

غدا مظهر بارني أكثر قسوة. بعيداً عن الشاطئ وداخل الخليج برزت جزيرة صغيرة وسط الماء ارتفعت فيها قمة وعرة جثمت فوقها كنيسة كبيرة كنورسي عملاق. كان المشهد مألوفاً، وأدرك بارني بياس أنه قد رآه سابقاً... مرتين. كانت القمة تدعى قمة سان ميتشل، وقد مرّ بها من قبل في طريقه إلى إشبيلية منذ ثلاثة أعوام، ومجدداً في طريقه من إسبانيا إلى هولندا منذ عامين. «نحن ذاهبون إلى إسبانيا؟» قال لجوناثان.

«يبدو أننا كذلك».

«أنت لم تخبرني».

«لم أكن أعلم. علاوة على هذا كنا بحاجة إلى من يعمل على المدافع».
حزر بارني سبب حاجتهم إلى من يعمل على المدافع، وهذا يفسر سبب قبوله ليكون بتوظيفه رغم وجود القليل ليفعله كحداد للسفينة.
«إذاً، خدعتني أنت وبيكون لأصبح عضواً في الطاقم».
هزّ جوناثان كتفيه مجدداً.

نظر بارني شمالاً. كان ميناء كومب يبعد ستين ميلاً في ذلك الاتجاه، ثم حول نظره باتجاه الكنيسة على الجزيرة التي تبعد ميلاً أو ميلين وسط أمواج لا يقل ارتفاعها عن ثلاثة أقدام. علم أنه لا يستطيع قطع هذه المسافة سباحة، وسيكون الأمر أشبه بالانتحار.

بعد مرور وقت طويل قال بارني لجوناثان: «ولكننا سنعود من إشبيلية إلى ميناء كومب، صحيح؟».
«قد نعود»، قال جوناثان. «أو لا نعود».

الفصل الحادي عشر

وضعت أوديت طفلها بكثير من الألم والصراخ فيما كان بيير يخطط للتخلص من الطفل.

كانت أوديت تعاني من عقاب الربّ على خطيئتها، وهي تستحق هذا، وفكر بيير أنه ما زال هناك بعض العدالة على الأرض، فهي ستفقد طفلها حالما تضعه.

جلس بيير على درج المنزل الصغير يتصفح دفتره الجلدي الأسود بينما اهتمت القابلة بأوديت في غرفة النوم. ما زالت بقايا الإفطار الذي قطعه المخاض على الطاولة أمامه؛ الخبز واللحم البارد وبعض الفجل الطازج. كان جو الغرفة بجدرانها العارية وأرضيتها المبلطة والموقد البارد والنافذة الصغيرة المطلّة على شارع ضيق ومظلم، باعثاً على الوحشة. كم كره بيير هذه الغرفة.

في الأحوال العادية يغادر بيير المنزل بعد الانتهاء من فطوره فوراً، وعادة ما يتوجه أولاً إلى قصر عائلة غيز في شارع فييل دو تامبل. كان القصر بأرضيات من الرخام وبلوحاتٍ رائعة على الجدران، وغالباً ما يقضي بيير معظم يومه هناك، أو في قصر اللوفر برفقة الكاردينال شارل أو الدوق فرانسوا. أمّا بعد الظهر فيقوم باجتماعات عديدة مع أفراد شبكة الجواسيس خاصته والمتنامية بشكل سريع، والتي يعرف من خلالها أسماء بروتستانتين جدد ليضيفهم إلى دفتره الأسود. نادراً ما يعود إلى المنزل الصغير في شارع سوق الهال قبل موعد النوم، إلا أنه اليوم بقي في المنزل بانتظار قدوم الطفل. كان يوماً من أحد أيام أيار/ مايو من عام 1560 وقد مضى على زواج بيير وأوديت خمسة أشهر. خلال الأسابيع الأولى حاولت أوديت إغواءه ليكون

بينهما علاقة جنسية طبيعية كأى زوجين، وبذلت ما بوسعها لتكون لعوباً إلا أن هذا لم يكن جزءاً من طبيعتها. وكلما هزت مؤخرتها وابتسمت نحوه، وظهرت أسنانها المعقوفة شعر بيير بالاشمئزاز. أخذت لاحقاً تتهمه بالعجز وبأنه ذو ميول منحرفة، ولكن لم تؤثر به هذه الاتهامات بل كان يعود بذاكرته وفي حنين إلى فترات الظهيرة الطويلة على السرير الريشي للأرملة بوشين. لكن ورغم لامبالاته كانت اتهامات أوديت مزعجة.

مع مرور الأيام تحول امتعاضهما بعضهما من بعض إلى قرفٍ بارد، وانتفخ بطن أوديت كثيراً في نهاية الشتاء الماضي وبداية فصل الربيع الماطر. باتت أحاديثهما مقتضبة ومحصورة بالطعام والغسيل والمال لإدارة المنزل وأداء خادمتها المراهقة النحيلة نات. وجد بيير نفسه اليوم يغلي غضباً، كان تفكيره بزوجته البغيضة يسمم كل شيء. فقد تحولت فكرة اضطراره للعيش ليس مع أوديت فقط بل مع طفلها من رجلٍ آخر، من فكرة بغيضة إلى محالة.

كان يأمل أن يولد هذا الطفل الشقي ميتاً، فهذا سيجعل كل شيء سهلاً. توقفت أوديت عن الصراخ، وخلال بضعة دقائق سمع بيير صوت صراخ طفل. تنهد وعرف أن أمنيته لم تتحقق، فهذا اللقيط يبدو طبيعياً بشكل يدعو للتعزز. فرك بيير عينيه ضجراً فلا وجود لأشياء سهلة، ولا تجري الأمور بالطريقة التي يريها. هناك خيبات على الدوام، وتساءل أحياناً إن كانت فلسفته في الحياة خاطئة.

وضع دفتره في صندوق للمستندات وأغلقه ثم وضع المفتاح في جيبه. لم يكن بوسعها ترك الدفتر في قصر عائلة غيز فهو لا يملك غرفة هناك. كان قد خطط مسبقاً لما سيقوم به الآن. وقف وتوجه إلى الدرج ثم صعد به باتجاه غرفة النوم.

استلقت أوديت بعينين مغمضتين. كانت شاحبة وغارقة في عرقها، ولكنها تنفس بشكل طبيعي، ربما كانت نائمة أو ربما ترتاح فقط. أخذت الخادمة نات تلف الغطاء الملطخ بالدم والمخاط، وحملت القابلة الطفل الصغير على ذراعها اليسرى، وهي تغسل بيدها اليمنى رأسه ووجهه بقطعة قماش، وتغمسها بوعاء من الماء.

كان طفلاً بشعاً أحمر اللون ببشرة مجمعة مع شعرٍ أسود، ويصدر أصواتاً مزعجة.

وقف بيير يراقب القابلة وهي تلف الطفل بغطاء أزرق صغير كان كما يتذكر بيير، هدية إلى أوديت من فيرونيك دي غيز.
«إنه صبي»، قالت القابلة.

لم يكن بيير قد انتبه إلى جنس المولود رغم أنه رآه عارياً.
ومن دون أن تفتح عينها قالت أوديت: «اسمه آلان».

كان بوسع بيير أن يقتلها. لم يكن عليه أن يربي الطفل فقط بل أرادته أن يكون تذكيراً يومياً له بالآن دي غيز، ذلك الولد الأرسوقراطي المدلل الذي كان الوالد الحقيقي لهذا اللقيط. حسناً لا بأس فهناك مفاجأة في انتظارها.

«تفضل احمله»، قالت القابلة وسلمت الطفل إلى بيير. لاحظ بيير أن الغطاء الذي قدمته فيرونيك مصنوع من الصوف الناعم والباهظ.

«لا تعطه الطفل»، تمت أوديت ولكن بشكل متأخر فقد كان بيير قد حمل الطفل. كان خفيف الوزن، وللحظة انتاب بيير شعور غريب أشبه بالرغبة المفاجئة بحماية هذا الكائن البشري العاجز من أي أذى، ولكنه سرعان ما قمع هذا الشعور الطارئ، وقال في نفسه: «لن أسمح لهذا اللقيط التافه بإفساد حياتي».

جلست أوديت في السرير وقالت: «أعطني الطفل».
مدت القابلة يديها نحو الطفل، ولكن بيير منعها ثم قال بلهجة متحدية: «ماذا قلت اسمه يا أوديت؟».

«لا تهتم فقط أعطني إياه»، ثم رفعت الأغطية. من الواضح أنها كانت تنوي النهوض من السرير ولكنها صرخت وكأن موجة ألم قد عصفت بها، وسقطت على الوسادة.

بدأت القابلة قلقة وقالت: «يجب أن يرضع الطفل الآن».
رأى بيير فم الطفل يتغضن وكأنه يريد الرضاعة رغم أنه كان يتنفس فقط، وعلى الرغم من هذا أبقاه بيير على ذراعيه.

قامت القابلة بمحاولة جادة لأخذ الطفل، ولكن بيير الذي حمل الطفل على ذراع واحدة الآن، صفع باليد الأخرى الحرة وجه القابلة بقوة سقطت

معها إلى الورااء. صرخت نات، وجلست أوديت مرة أخرى وقد شحب وجهها من الألم. توجه بيير إلى الباب يحمل الطفل.
«عُد!» صرخت أوديت. «بيير من فضلك لا تأخذ طفلي».
خرج وصدق باب غرفة النوم ورااءه.

نزل بيير الدرج والطفل بين ذراعيه يبكي. كانت أمسية ربيعية لطيفة إلا أنه ارتدى عباءته حتى يتمكن من إخفاء الطفل تحتها، ثم غادر المنزل.
يبدو أن الطفل أحبّ الحركة لأنه، وعندما بدأ بيير يمشي بخطى وثيدة، توقف عن البكاء. كان الأمر باعثاً على الراحة لأن ضجة الطفل أزعجت بيير وكان عليه أن يقوم بشيء حيالها.

توجه بيير إلى منطقة إيل دو لا ستييه. سيكون التخلص من الطفل أمراً سهلاً. هناك مكان خاص في الكاتدرائية، عند قاعدة تمثال القديسة آن والدة ماري والقديسة الراعية للأمهات، حيث يتخلى الناس عن الأطفال غير المرغوب بهم. وكالعادة سيضع الكهنة الطفل في مهد ليراه الجميع، وقد يتبنى كما يحدث غالباً، زوجان عطوفان الطفل كنوع من العمل الخيري، وإن لم يحدث هذا فستربيه الراهبات.

انزلق الطفل من ذراعه، وقمع بيير مجدداً ذلك الشعور المزعج بأن عليه محبة ورعاية هذا الطفل.

كانت المشكلة الأكبر تبرير اختفاء طفل عائلة غيز اللقيط، ولكن بيير جهز القصة التي سيرويها. حالما يعود سيصرف القابلة والخادمة، ثم سيخبر الكاردينال شارل أن الطفل ولد ميتاً، وأن الصدمة قادت أوديت إلى الجنون ورفض حقيقة أن الطفل ولد ميتاً. وأثناء سيره أضاف بيير مزيداً من التفاصيل إلى قصته. سيقول إن أوديت تظاهرت بأنها ترضع جثة الطفل، وأنها ألبسته ثياباً جديدة، ووضعت في المهد وأنها قالت إن الطفل نائم.

سيشكك شارل بهذا، ولكن القصة قابلة للتصديق، ولن يكون هناك دليل على أي شيء. اعتقد بيير أنه سينجو بفعلته، وأدرك إلى حد ما أن شارل لم يحبه خلال الستين الماضيتين وأنه لن يفعل أبداً، رغم أنه يرى في بيير شخصاً مفيداً جداً ومن الصعب الاستغناء عنه. استوعب بيير الدرس جيداً، فما دام الاستغناء عنه مستحيلاً سيكون بأمان.

كانت الشوارع كعادتها مكتظة بالمارة. مرّ بيير بالقرب من كومة قمامة تحوي على أوساخ وعظام سمك وقاذورات الليل وروث الإسطبلات وأحذية مهترئة. خطر بباله أن يترك الطفل على قمة هذه الكومة، ولكن عليه أن يحرص على ألا يراه أحد. ثم رأى جرذاً يقرض وجه قط ميت، وأدرك أن الطفل سيعاني من نفس المصير وأن الجرذ سيلتهمه وهو حي. لم يملك الجرأة على القيام بهذا فهو لم يكن وحشاً.

عبر النهر على جسر نوتردام ودخل إلى الكاتدرائية، ولكنه حالما وصل إلى صحن الكنيسة بدأت تساوره الشكوك حيال خطته. وكالعادة كان هناك أناس في الكنيسة المهيبة - كهنة ومتعبدون وحجاج وباعة متجولون وعاهرات. مشى ببطء صاعداً صحن الكنيسة إلى أن وصل إلى مستوى الكنيسة الصغيرة المسماة باسم القديسة آن. تساءل بيير إن كان بوسعه وضع الطفل على الأرض بالقرب من التمثال من دون أن يراه أحد إلا أنه لم يعرف كيف يقوم بهذا. بالنسبة إلى امرأة تعيش في فقرٍ مدقع بالكاد ستهتم إن شاهدها أحد، لأن ما من أحد سيعرفها، وقد تهرب وتختفي قبل أن يخطر ببال أحد استجوابها. ولكن الأمر مختلف عندما يقوم شاب حسن الهندام بفعل هذا. قد يقع في المتاعب إن بكى الطفل. ضغط على جسد الطفل الدافئ تحت عباءته، وضمّه إليه بهدف كتم أي صوتٍ ينم عنه، وليبقه بعيداً عن الأنظار. أدرك أنّه كان يجدر به المجيء ليلاً أو في الصباح الباكر ولكن ما الذي سيفعله بالطفل أثناء الانتظار؟

التقت عيناه بعيني امرأة في ثوبٍ أحمر، وخطرت بباله فكرة. سيقدم المال إلى عاهرة لتضع الطفل في الكنيسة بدلاً عنه، فهي لن تعرفه وسيبقى الطفل مجهولاً. كان على وشك الاقتراب من المرأة ذات الفستان الأحمر ولصدمة سمع صوتاً مألوفاً يقول: «بيير صديقي العزيز كيف حالك».

كان معلمه القديم موينو وقال بيير مرعوباً: «الأب موينو».

كان هذا نذير شؤم، فإن بكى الطفل فسيضطر بيير إلى شرح ما ينوي القيام به. ابتسم الكاهن وتضغن وجهه الكبير والأحمر.

«تسعدني رؤيتك. سمعت أنك أصبحت صاحب مكانة رفيعة».

«شيءٌ من هذا القبيل»، قال بيير ثمّ أضاف بيأس: «وهذا يعني ولسوء الحظ، أنّ وقتي ضيق ويجب أن أذهب».

بدا موينو مصعوقاً من هذا الرفض الجلف وقال بجفاف: «لا تدعني أقف في طريقك من فضلك».

تاق بيير إلى الاعتراف لموينو بمشكلته، ولكنه شعر بحاجة ملحّة لإخراج نفسه مع الطفل من الكاتدرائية.

«أرجو عفوك أيها الأب»، قال بيير. «سأمّر بك قريباً».

«إن كان لديك الوقت»، قال موينو ساخراً.

«أنا آسف، وداعاً».

لم يرد عليه موينو بل استدار غاضباً.

هرع بيير عبر الباب الغربي نحو صحن الكنيسة. كان يشعر بالوجل لأنّه أهان موينو فهو الشخص الوحيد الذي يستطيع إخباره بمشاكله. كان لبيير سادة وخدم، إلا أنه لم يملك أصدقاء، باستثناء موينو، وها هو قد أهانه الآن. رفض بيير عنه ما حدث بينه وبين موينو، وعاد من طريق الجسر الذي أتى منه. تمنى لو أنّه يستطيع رمي الطفل في النهر، ولكن سيراه الناس. على أيّ حال، لم يكن الأب موينو ليقول له إن مشيئة الرّب تقتضي منه القيام بهذه الجريمة. قد يكون هناك تساهل حيال الخطايا التي ترتكب من أجل قضية جيدة إلا أن هناك حدوداً لهذا التساهل أيضاً.

إن لم يتمكن من ترك الطفل في الكاتدرائية فسيأخذه مباشرة إلى الراهبات. كان يعرف أحد الأديرة التي تعمل كميتيم، وهو يقع في القسم الشرقي والثري من المدينة، ولم يكن بعيداً عن قصر عائلة غيز. التفت بيير في ذلك الاتجاه، ربما كان عليه اختيار هذه الخطة منذ البداية لأنّ قدومه إلى الكاتدرائية لم يكن قراراً صائباً.

يدعى المكان الذي توجه إليه بيير دير العائلة المقدسة، وبالإضافة إلى كونه ميتماً أقامت فيه الراهبات مدرسة للفتيات والصبية الصغار. ومع اقتراب بيير من المكان سمع ذلك الصوت المميز لأطفالٍ يلعبون. صعد بيير الدرج نحو باب طويل بزخارف، ودخل إلى الردهة الهادئة والباردة ذات الأرضية الحجرية.

أخرج الطفل من تحت العباءة، كانت عينا الطفل مغلقتين إلا أنه ما زال يتنفس ويحرك قبضتيه الصغيرتين أمام وجهه وكأنّه يريد إدخال إبهامه في فمه.

بعد مرور عدة دقائق تقدمت راهبة شابة بهدوء عبر الردهة وحدقت بالطفل.

استخدم بيير صوته الأمر وقال: «يجب أن أتحدث مع رئيسة الراهبات على الفور».

«أجل يا سيدي»، قالت الراهبة. كانت مهذبة ولكن دون أن تكون خائفة من بيير، فلا يمكن لرجل يحمل طفلاً على ذراعيه أن يكون مخيفاً. «من فضلك هلاً أخبرني بمن يرغب بلقائها؟».

توقع بيير هذا السؤال: «أدعى الطبيب جين دي لا روتشيللي من كلية الثالث المقدس في الجامعة».

فتحت الراهبة باباً وقالت: «من فضلك انتظر هنا».

دخل بيير إلى غرفة صغيرة لطيفة تحوي تمثالاً خشبياً مطلياً لمريم العذراء ويوسف ويسوع الطفل، ولم يكن في الغرفة أيّ أثاث باستثناء مقعد واحد إلا أن بيير لم يجلس عليه.

بعد مرور عدة دقائق دخلت راهبة أكبر سنّاً وقالت: «الطبيب روتشي».

«دي لا روتشيللي»، صحح لها بيير، ولكن قد يكون خطأها في نطق اسمه مقصوداً، ربما كانت تختبره.

«عذراً، أدعى الأم ليدوا».

«تملّك الشيطان والدة هذا الطفل»، قال بيير بطريقة درامية.

بدأت الأم ليدوا مصدومة تماماً كما أرادها بيير أن تكون. رسمت علامة الصليب على صدرها وقالت: «فليحمننا الرب».

«لا يمكن للأم أن تربي الطفل. سيموت معها».

«والعائلة؟».

«الطفل لقيط».

بدأت الأم ليدوا بالتعافي من صدمتها، ونظرت إلى بيير بقليل من الشك ثمّ قالت: «ماذا عن الأب؟».

«أوكد لك أنني لست الوالد إن كان هذا ما تفكرين به»، قال لها بعجرفة.

بدأت محرّجة وقالت: «بالطبع لا».

«على أيّ حال الأب شابٌ نبيل وأنا طيب العائلة، ولهذا من الطبيعي أنني لا أستطيع الكشف عن اسم العائلة». «فهمت».

بدأ الطفل يبكي، وبطريقة ميكانيكية أخذت الأم ليدوا الطفل من بيير، وقامت بهزه ثمّ قالت: «إنّه جائع».

«لا شك في ذلك»، قال بيير.

«إنّ الغطاء ناعمٌ جداً. لا بدّ أنّه باهظ الثمن».

كان هذا تلميحاً، وأخرج بيير محفظته. لم يكن قد جهز نفسه لهذا الحدث لكنه ولحسن الحظ، كان يملك مالاً. أحصى عشر قطع ذهبية تساوي خمسة وعشرين جنيهاً، أي ما يكفي لإطعام طفل لأعوام».

«طلبت مني العائلة أن أقدم لك عشر قطع ذهبية، وقالوا إنهم سيقدمون المبلغ نفسه كل عام إن بقي الطفل هنا».

ترددت الأم ليدوا، وتكهّن بيير أنّها كانت مترددة في تصديق ما قاله، ولكن الاهتمام بالأطفال غير المرغوب بهم مهمتها في الحياة، ومبلغ عشر قطع ذهبية مبلغ كبير. أخذت المال وقالت: «شكراً لك. سنهتم بالفتى الصغير جيداً».

«سأدفع له ولك».

«أتطلع إلى لقائك العام القادم في مثل هذا اليوم».

شعر بيير بالضيق للحظة، ثمّ أدرك أنها تتوقع منه العودة مع عشر قطع ذهبية كما وعد، وهذا ما لن يحدث.

«سأكون هنا بعد عام من اليوم»، قال بيير.

فتح الباب، وتركه مفتوحاً لتمر الراهبة التي غادرت الغرفة، واختفت بصمتٍ في الدير.

خرج بيير بقلبٍ مرتاح وبخطى سريعة. كان سعيداً جداً فلقد تخلص من اللقيط. ستحدث بلبلة في المنزل عندما يعود، ولكن كل شيء سيكون على ما يرام. لم يعد هناك أيّ شيء يربطه بتلك البغيضة أوديت التي قد يتمكن من التخلص منها أيضاً.

أراد أن يؤجل هذه المواجهة لذلك توجه إلى أقرب حانة، وطلب كأساً من النبيذ الإسباني احتفالاً بنجاح خطته. وبينما جلس وحيداً يرتشف النبيذ ذا اللون الذهبي الضارب إلى البني أخذ يفكر بعمله.

كانت الأمور الآن قد ازدادت صعوبة مما كانت عليه في بدايات عمله، فالملك فرانسيس الثاني قد صعد محاكمات البروتستانتين، ربما بتوجيه من زوجته الإسكتلندية ماري ستيوارت، أو ربما بتأثير أحوالها من عائلة غيز، وجعل هذا الاضطهاد المتصاعد البروتستانتين أكثر حذراً.

كان العديد من جواسيس بيير من البروتستانتين الذين اعتقلوا وهُددوا بالتعذيب ما لم يصبخوا خونة، ولكن المهرطقين أصبحوا أكثر ذكاءً، ولم يعودوا يثقون ثقة عفوية بأفراد جماعتهم، ولم يعودوا الآن يكشفون عن الكنية أو العنوان بل يكتفون بالاسم الأول فقط. كان الأمر أشبه بلعبة، فكلما قامت الكنيسة بأي تحركات كان هناك دوماً رد فعل من قبل المهرطقين. كان شارل صبوراً إلا أن بيير قاسي القلب، واللعبة مميتة.

أنهى كأس النبيذ وعاد سيراً إلى المنزل. عندما وصل إلى هناك تفاجأ بوجود الكاردينال شارل في غرفة الجلوس في صدار حريري. وقفت القابلة وراء الكاردينال وقد طوت ذراعيها تحت صدرها، ورفعت ذقنها في تحدٍ. ومن دون تمهيد سأل شارل: «ما الذي فعلته بالطفل؟».

استفاق بيير من صدمته بسرعة وفكر بجذ. لا بد أن أوديت تصرفت على الفور كما توقعها أن تفعل. لم يأخذ في حساباته سعة حيلة المرأة اليائسة. لا بد أنها تعافت من آلام الولادة بما يكفي لترسل رسالة إلى الكاردينال، ربما أرسلتها مع نات، تتلمس فيها العون والمساعدة. كانت نات محظوظة لأنها عثرت على شارل في المنزل الذي كان مستعداً للقدوم على الفور، وكانت النتيجة وقوع بيير في ورطة.

«في مكان آمن»، قال بيير مجيباً على سؤال الكاردينال.
«إن قتلت طفلاً من عائلة غيز ستلقى حتفك أياً تكن براعتك في القبض على المُجدفين».

«إن الطفل حيّ وبصحة جيدة».

«أين؟».

مرّت لحظة أراد فيها بيير المقاومة إلا أنه استسلم قائلاً: «في دير العائلة المقدسة».

بدت القابلة مبتهجة بهذا النصر. شعر بيير بالخزي، وتمنى في هذه اللحظة أن يصفعها على وجهها مجدداً.
«فلتذهب الآن ولتُعهده».

تردد بيير، فبالكاد كان قادراً على إجبار نفسه على العودة، ولكنه لا يستطيع تحدي الكاردينال من دون أن يدمر كل شيء.
«من الأفضل أن تعيده حياً»، قال شارل.

أدرك بيير أنّه في حال توفي الطفل الآن لأسباب طبيعية، كما يحدث مع المواليد الجدد في الساعات الأولى، فسيقع اللوم عليه وربما سيُعدم بتهمة القتل.

التفت وتوجه إلى الباب.
«انتظر»، قال شارل. «أصغ إليّ. ستعيش مع أوديت وستهتم بها وبطفلها لبقية حياتك. هذه مشيئتي».

بقي بيير صامتاً فلا يمكن لأحد أن يتحدى مشيئة شارل بمن فيهم الملك.
«واسم الطفل الآن»، قال شارل.
هزّ بيير رأسه موافقاً، وغادر المنزل.

سارت حياة سيلفي بشكل جيد لنصف عام، فمع عائدات مبيعات الكتب تمكنت مع أمّها من استئجار منزل صغير ولطيف بغرفتي نوم في شارع دو لا سيربونت الذي يقع في منطقة الجامعة جنوب النهر، وفتحت متجراً في غرفة الجلوس الأمامية المُطلّة على الشارع. باعت الورق والحبر وأغراض الكتابة الأخرى إلى المعلمين والطلاب وعامة المثقفين. اشترت سيلفي الورق من سان مارسيل، وهي ضاحية تقع خارج أسوار المدينة باتجاه الجنوب، حيث يمد نهر بيفر المُصنعين بمصدر مائي لا ينضب من أجل هذه الصناعة. صنعت بنفسها الحبر من عقد أشجار البلوط، وهي تنوءات كالثآليل تجمعها من على جذوع الأشجار في الغابة. كان والدها قد علمها الوصفة. أمّا حبر الطباعة فكان مختلفاً، فهو يُصنع من الزيت حتى يغدو أكثر لزوجة، إلا أنها

تعلمت أيضاً كيف تصنع حبراً خفيفاً من أجل الكتابة العادية. لم يكن المتجر يدر ما يكفي من المال لتعيشا من إيراداته، إلا أنه كان التغطية المناسبة لعملٍ آخر أكثر أهمية.

تعافت إيزابيل من الاكتئاب إلا أنها طعنت في السن كثيراً. يبدو أن الأحوال التي مرّت بها المرأتان قد أوهنت عزيمة الأم، وشدت عود الابنة التي تقدمت الآن في حياتها خطوة إلى الأمام.

عاشت سيلفي حياةً خطيرة كمجرمة ومهرطقة إلا أنها للمفارقة أحبّت هذا. عندما تفكر بكل ما حدث يخطر لها أنه ولأول مرة في حياتها، لا وجود لرجل يملي عليها ما تقوم به. قررت أن تفتح المتجر، واختارت العودة إلى الأبرشية البروتستانتية، واستمرت ببيع الكتب المحظورة. تحدثت مع والدتها عن كل شيء إلا أنها كانت صاحبة القرار النهائي. كانت تشعر بالسعادة لأنها حرة.

ليلاً كانت تتوق إلى رجل يحضنها دون أن يكون ثمن هذا حريتها. يُعامل معظم الرجال زوجاتهم وكأنهن أطفال مع فارق وحيد وهو أن النساء يمكن أن يعملن بجِد أكبر. قد يكون هناك رجال في مكان ما لا يعتبرون زوجاتهم ملكية، إلا أنها لم تلتق قط بأحد منهم.

اخترعت سيلفي اسمين جديدين لها ولوالدتها، حتى لا تربطهما السلطات بغيلز بالو. وهما الآن تُدعيان تيريز وجاكلين سان كوتن. تفهم البروتستانتيون قرارهما وجاروهما فيه. لم يكن للمرأتين أصدقاء خارج دائرة البروتستانتين.

انخدع رجل يعمل في حكومة المدينة باسميهما المستعارين إبان زيارته للمتجر بعد افتتاحه. نظر إلى المكان وطرح الكثير من الأسئلة، وخطر لسيلفي أنه قد يكون أحد مخبري بيير أوموند رغم أن متاجر الورق وبشكل طبيعي، تخضع للتفتيش بحثاً عن أيّ كتب غير قانونية. لم يكن هناك كتب في المكان عدا الدفاتر والسجلات ولهذا غادر المكان راضياً.

كانت كل الكتب الممنوعة في المستودع في شارع دو مير، ولم تأخذ سيلفي أيّ كتاب منها إلا عندما يكون هناك شارٍ، حتى لا يبقى الكتاب الذي قد يُجر مهما في المنزل لأكثر من ساعات معدودة. لكن وفي صباح أحد أيام

الأحد من صيف عام 1560 توجهت سيلفي إلى المستودع لإحضار إنجيل جنيف المترجم إلى الفرنسية، لتكتشف أنه لم يبقَ لديها سوى إنجيل واحد. تفقدت الصناديق، واكتشفت أن معظمها يحوي على نصوص غير مشهورة كأعمال إيراسموس التي تباعها بين الحين والآخر إلى كهنة متحررين، أو طلاب جامعيين فضوليين. وتكهنت أن الكتب ما زالت في المستودع لأنها لا تباع بشكل جيد. إلى جانب الإنجيل فإن الكتاب الثاني الأكثر شعبية إلى حد ما، هو بيان جون كالفن عن مؤسسات العقيدة المسيحية، ولهذا السبب كان والدها يطبع الكثير من الأناجيل في أيلول الماضي عندما قامت عائلة غيز بغاراتها. ولكن تلك الأناجيل التي وجدت في المتجر كانت السبب في تجريم غيلز وإحراقه حياً.

أدرت سيلفي أنها فشلت في وضع خطة بديلة، وتساءلت عما ستفعله الآن. فكرت برعب في المهنة التي كادت أن تتخذها الشتاء الماضي عندما اقتربت مع أمها من حافة التضور من الجوع، وأقسمت أن هذا لن يحدث مجدداً.

في طريق عودتها إلى المنزل مرّت بمنطقة لي إييل التي يعيش فيها بيير. رغم كرهها له فإنها حاولت أن تبقى تحت ناظرها. كان سيده الكاردينال شارل المسؤول عن الحملة المملكيّة على البروتستانتين في باريس، وشعرت سيلفي أن بيير ما زال متورطاً في عملية البحث عنهم. لم يكن قادراً على العودة إلى عمله كجاسوس لأنّ العديد من الناس باتوا يعرفونه، ولكنه على الأغلب أصبح رئيس الجواسيس:

راقبت سيلفي منزل بيير خفية، وتحدثت إلى الناس في حانة سان إيتيه المجاورة، فغالباً ما كان يرتادها أفراد من حرس منزل عائلة غيز، وكانت تسترق السمع أحياناً إلى ثرثرة مفيدة تتعرف من خلالها على ما تخطط له العائلة. علمت أيضاً أن بيير تزوج مجدداً وبسرعة بعد إبطال زواجه منها، ولديه الآن زوجة تدعى أوديت وطفل يدعى آلان وخادمة تدعى نات. كان الحديث في الحانة يوحى بأنّ أوديت ونات كلتيهما تكرهان بيير. لم تتكلم سيلفي مع أوديت أو نات قط، ولكنها كانت متفقة معهما، ورجت أن تقتنعا في يومٍ ما بإفشاء أسراره. في هذا الوقت قابلت ماركيزة نيم بيير في البلاط،

وراقبت الناس الذين رأته يتحدث إليهم. وحتى الآن كان غاستون لوبان قائد حرس عائلة غيز الشهير جداً، الشخصية الوحيدة والمهمة إلى حد ما التي تراها، ولأنه معروف فمن غير المرجح أن يكون منخرطاً في العمل السري. عندما عادت سيلفي إلى المنزل أخبرتها والدتها بأن نسخ الإنجيل قد انتهت فقالت والدتها: «يمكننا أن ننسى أمر الكتب، ونكتفي ببيع القرطاسية». «لا تدرّ القرطاسية ما يكفي من المال»، قالت سيلفي. «على أيّ حال لا أريد أن أقضي حياتي أبيع الورق والحبر. أمانا مهمة تمكين إخوتنا وأخواتنا من قراءة كلام الرب بأنفسهم، والعثور على طريقهم الحقيقي إلى العقيدة الصحيحة. أريد المتابعة فيما أقوم به».

ابتسمت والدتها وقالت: «فتاة صالحة».

«ولكن كيف يمكنني الحصول على الكتب؟ لا يمكننا طباعتها، فقد أصبحت آلة أبي ملكاً لشخص آخر الآن».

«لا بدّ أن هناك بروتستانتين آخرين يملكون مطابع في باريس».

«أجل، هذا صحيح، فقد رأيت كتبهم في منازل الزبائن. كسبنا الكثير من المال من المبيعات السابقة، وهي كافية لشراء مجموعة جديدة. ولكنني لا أعرف مواقع هذه المطابع فهي سرية. على أيّ حال يمكنهم بيع الكتب بأنفسهم فلماذا قد يحتاجون إليّ».

«هناك مكان واحد يمكنك فيه شراء كمية كبيرة من كتب البروتستانتين. وهذا المكان هو جنيف». قالت إيزابيل بطريقة بدت معها جنيف كأنها بعيدة بعد القمر.

ولكن ليس من السهل إحباط معنويات سيلفي التي سألت أمّها: «كم تبعد جنيف؟».

«لا تستطيعين الذهاب! إن الطريق طويل والرحلة خطيرة. وأنت لم تسافري إلى ما هو أبعد من ضواحي باريس».

تظاهرت سيلفي أنّها أقل روعاً مما شعرت به حقاً وقالت: «هناك أناس آخرون يقومون بهذه الرحلة، أتذكرين غيوم؟».

«بالطبع أذكره. كان عليك الزواج منه».

«لم يكن عليّ الزواج بأحد. كيف يذهب الناس من باريس إلى جنيف؟».

«ليس لدي أدنى فكرة».

«ربما لوك موريس يعرف»، قالت سيلفي التي تعرف عائلة موريس جيداً. هزّت إيزابيل رأسها: «إنّه سمسار بضائع». «لم أفهم أبداً طبيعة عمل سمسار البضائع».

«تخليلي قبطاناً قادماً من بوردو إلى باريس عبر نهر السين مع حمولة من النيذ، وعائداً بحمولة من الأقمشة إلى بوردو ولكن الحمولة لا تملأ سوى نصف السفينة. لن يرغب هذا القبطان بالانتظار من أجل نصف حمولة أخرى بل سيرغب بها بأسرع ما يمكن، وهنا يأتي دور لوك الذي يعرف جميع التجار في باريس وجميع مرافئ أوروبا. سيحرص لوك على تأمين نصف حمولة من الفحم أو الجلد أو القبعات الأنيقة التي يريدتها أحد ما في بوردو».

«إذاً، يعلم لوك كيفية السفر إلى أيّ مكان، بما في ذلك جنيف».

«سيخبرك أنّه لا يمكن لامرأة شابة أن تقوم بهذا».

«لقد ولّت تلك الأيام التي كان يخبرني فيها الرجال بما عليّ فعله أو عدم فعله».

حدّقت إيزابيل بها، ولدهشة سيلفي رأت الدموع تترقرق من عيني والدتها. «أنت شجاعة»، قالت إيزابيل. «بالكاد أصدق أنك خرجت مني». تأثرت سيلفي بعواطف والدتها إلا أنها تمالكت نفسها أخيراً وقالت: «ولكنني مثلك».

هزّت إيزابيل رأسها وقالت: «قد يكون الشبه بيننا كالشبه بين الكاتدرائية والكنيسة».

لم تعرف سيلفي كيف تجيب على كلام إيزابيل. لم يكن من الطبيعي أن يتطلع الآباء إلى أطفالهم كقدوة، بل العكس. مرّت لحظة عصيبة قالت سيلفي بعدها: «حان الوقت للذهاب إلى القديس».

عثرت الأبرشية التي كانت تجتمع في كوخ الصيد على موقع جديد ليكون معبدهم. دخلت سيلفي وإيزابيل إلى ساحة كبيرة يمكن فيها استئجار الأحصنة والعربات. كانتا في ثياب مهلهلة حتى لا تلفتا النظر إليهما وهما في طريقهما إلى الكنيسة. كان المكان الذي يعود إلى أحد البروتستانتين

مغلقاً اليوم، إلا أن الأبواب لم تكن موصدة. دخلنا إلى الإسطبل الذي كان عبارة عن مبنى حجري كبير وقف فيه رجل ضخم الجثة يمشط شعر حصان. نظر بقسوة نحوهما وفي استعداد لتحديهما، ثم تعرّف عليهما، وتنحى جانباً لكي تمرا.

خلف الإسطبل باب مفتوح يُفضي إلى درج مخفي يصل إلى عليّة كبيرة. كان هذا المكان الذي مارست فيه المجموعة العبادة. وكالعادة خلت الغرفة من أيّ لوحات أو تماثيل وكان الأثاث بسيطاً، يتكون من كراسٍ ومقاعد فقط. كانت الميزة الأعظم لهذا المكان هي غياب النوافذ، ولهذا كان الصوت معزولاً في الغرفة. وقفت سيلفي في الشارع خارجاً بينما غنى المصلون بأعلى أصواتهم، ولم تسمع سوى لحن موسيقي بعيد قد يكون قادماً من أيّ مبنى من المباني الدينية القريبة، وقد يكون من الكنيسة أو الدير أو الكُلية.

يعرف جميع من في الغرفة سيلفي. كانت عضواً حيويّاً في الأبرشية بسبب دورها كبائعة كتب. علاوة على هذا كانت خلال جلسات المناقشة اللاحقة للقداس، تعبر عن آراءٍ قوية خاصة فيما يتعلق بموضوع التسامح. كانت أفكارها كصوتها؛ لا يمكن أن تمر مرور الكرام. لن تصبح كاهنة، لأنّ هذا الدور مخصص للرجال، ولكنهم كانوا يعاملونها كأنّها قائدة.

جلست مع أمها على مقاعد الصف الأول. أحبّت سيلفي القداس البروتستانتي رغم أنّها وعلى عكس العديد من المصلين هنا، لم تكره الطقوس الكاثوليكية. فهمت سيلفي أنّه بالنسبة للعديد من الناس فإنّ البخور والكلمات اللاتينية والغناء الغريب للكورس جزء من التجربة الروحية، إلا أنّها وعلى الرغم من هذا تأثرت بأمور أخرى كاللغة الواضحة والمعتقدات المنطقية والتراتيل التي تشارك في أدائها. رغم هذا كله وجدت نفسها اليوم تنتظر انتهاء القداس بنفاد صبر. كان لوك موريس اليوم حاضراً مع عائلته، وتاقت إلى طرح الأسئلة عليه.

ولكن سيلفي لم تنسَ أن لديها عملاً لتقوم به. بعد أن نطق المصلون بآخر أمين قدمت الإنجيل الفرنسي إلى فرانسواز دوبوف زوجة الخياط الشابة وأخذت منها خمسة جنيهات. ثمّ تقدمت منها لويز ماركيزة نيم الشابة قائلة: «سينتقل البلاط إلى أورليون».

من الطبيعي بالنسبة إلى ملك أن يتنقل مع حاشيته في أرجاء البلد بين الحين والآخر. «قد يشهد البروتستانتيون فترة استراحة»، قالت سيلفي في أمل ثم تابعت: «لماذا أورليون؟».

«طلب الملك إقامة اجتماع المجلس التشريعي هناك». كان هذا الاجتماع اجتماعاً وطنياً تقليدياً. «سيرافق الكاردينال شارل وبيير أو موند الملك».

امتقع وجه سيلفي وقالت: «ما هو المخطط الشرير الذي يخطط له هذان الشيطانان؟».

«أيّاً يكن مخططهما فلن يكون في مصلحتنا».

«فليحمنا الرب».

«آمين».

تركت سيلفي لويز، وبحثت عن لوك ثم قالت له: «أريد الذهاب إلى جنيف».

كان لوك رجلاً ضئيل الحجم ورغم شخصيته المرححة فقد عبس في استنكار وسألها: «هل يمكنني أن أسأل عن السبب يا سيلفي؟ أو ربما يجب أن أقول تيريز».

«لقد نفذ لدينا الإنجيل بالفرنسية ويجب أن أشتري المزيد منه».

«باركك الرب»، قال ثم تابع: «أحترمك على شجاعتك».

وللمرة الثانية هذا الصباح تتأثر سيلفي بتقدير آخر وغير متوقع. لم تكن شجاعة بل خائفة، وأجابت لوك قائلة: «أقوم فقط بما عليّ القيام به».

«ولكنك لا تستطيعين القيام بهذا»، قال لوك ثم تابع: «فما من طريق آمن إلى جنيف. أنت امرأة شابة ولا يمكنك تحمل تكاليف حارس أو جندي يحميك من اللصوص وأصحاب الحانات النصابين والفلاحين المهتاجين والمسلحين بالمجارف الخشبية».

تجهمت سيلفي عندما فكرت بالفلاحين المهتاجين، وتساءلت عن السبب الذي يدفع الرجال إلى التحدث عن الاغتصاب كأنه دعاية، ولكنها رفضت أن تدع هذا يحبط عزيمتها.

«فلتجارني ولتخبرني كيف يذهب الناس إلى جنيف».

«إن أسرع طريق هو عبر نهر السين إلى مونتيرو التي تبعد ستين ميلاً. أمّا

بقية المسافة، التي تبلغ مئة وخمسين ميلاً، فستكون على اليابسة، وستكونين بخير إن لم يكن لديك بضائع. ستصلين بعد أسبوعين أو ثلاثة ومن دون أي تأخير حقيقي، رغم أن التأخير يحدث على الدوام. سترافقك والدتك بالطبع؟».

«لا، يجب أن تبقى هنا لتهم بالمتجر».

«أتحدث بجدية يا سيلفي. لا يمكنك أن تقومي بهذه الرحلة وحدك».
«قد أضطر للقيام بفعل هذا».

«إذاً، عليك أن تبقى مع المجموعات الكبيرة في كل مرحلة من مراحل الرحلة، وسيكون السفر برفقة العائلات أكثر أماناً لك. تجنبي المجموعات المكونة من الرجال فقط لأسباب لا بد أنك تعرفينها».

«بالطبع». كان كل هذا جديداً على سيلفي. إن الفكرة مرعبة، وشعرت بالحمق لأنها تحدثت عن الذهاب إلى جنيف بكل سذاجة. «ما زلت مصرّة على القيام بهذا»، قالت وهي تحاول أن يعكس صوتها ثقة أكبر مما تشعر بها حقاً.

«في هذه الحالة، ما هي قصتك؟».

«ما الذي تعنيه؟».

«ستكونين محاطة بالناس، ولا يملك المسافرون شيئاً ليفعلوه سوى تجاذب أطراف الحديث. سيطرحون عليك الأسئلة، وبالطبع لن تعترفي لهم أنك في طريقك إلى جنيف لشراء الكتب الممنوعة. في الحقيقة من الأفضل ألا تقولي إنك ذاهبة إلى جنيف أصلاً، بما أنها معروفة كعاصمة المهرطقين. أنت بحاجة إلى حجة لتبرير سفرك».

شعرت سيلفي بالإرباك وقالت: «سأفكر بشيء».

نظر لوك مفكراً وقال: «يمكنك أن تقولي إنك ذاهبة للحج».
«إلى أين؟».

«إلى فيزيه التي تقع في منتصف الطريق إلى جنيف. هناك في الدير آثار مقدسة لمريم المجدلية، وغالباً ما تقصد النساء ذلك المكان».
«ممتاز».

«متى تريدان الذهاب؟».

«قريباً». لم تكن تريد أن تظل قلقة حيال الرحلة لوقتٍ طويل ثم تابعت: «هذا الأسبوع».

«سأجد قبطاناً موثوقاً به ليأخذك إلى مونتيرو، فعلى الأقل يمكنك أن تقطعي تلك المسافة بأمان، ثم عليك أن تعتمد عليّ على حسك السليم بعد هذا». «شكراً لك»، قالت سيلفي، ثم أبدت تردداً وهي تفكر بعبارة مهذبة تقولها له بعد أن أرهقته في التفكير. «كيف حال جورج؟ لم أره منذ فترة». «بخير، شكراً لك. إنه يفتح فرعاً لأعمالنا في الرين الآن». «لطالما كان ذكياً».

ابتسم لوك ساخراً وقال: «أحبّ ابني جداً، ولكنه لم يكن يوماً الشريك المناسب لك يا سيلفي».

كان هذا صحيحاً رغم أنه كان مُخرجاً، ولهذا تمنعت سيلفي عن إبداء أي تعليق وقالت: «شكراً لك على المساعدة. سأمرّ بمكتبك غداً».

«تعالى صباح الثلاثاء فبحلول ذلك الوقت سأكون قد عثرت على القبطان المناسب».

انتزعت سيلفي والدتها من بين مجموعة من النساء، فقد كانت على عجلة من أمرها للعودة إلى المنزل، والبدء بالتحضيرات.

في طريق عودتهما إلى شارع دو لا سيربونت وجدت سيلفي متجر ستائر رخيصاً فاشترت قطعة من القماش الرمادي الخشن. كان قماشاً بشعاً إلا أنه عملي.

«عندما نصل إلى المنزل أريدك أن تحيك لي زي راهبة»، قالت سيلفي لأمها. «بالطبع ولكنني لستُ خياطة ماهرة».

«لا بأس، من الأفضل ألا يكون متقن الصنع ولكن يجب أن يكون متيناً». «حسناً».

«وأريد منك أولاً أن تقصي شعري...كُلّه... يجب ألا يكون طوله أكثر من إنش».

«ولكنك ستبدين مريعة». «تماماً»، قالت سيلفي. «هذا ما أريده».

في أورليون كان بيير يخطط لجريمة قتل، ورغم أنه لن يكون القاتل الذي سيُغمد السكين في جسد المغدور، فإنه سيحرص على أن يكون الموت مصيره. لقد أحضره الكاردينال شارل إلى أورليون من أجل هذه الغاية بالذات. كان شارل ما يزال غاضباً من بيير على محاولته التخلص من طفل أوديت، لكن وكما تكهن بيير، فإن ما أنقذه من غضب شارل كانت المنفعة التي يقدمها له.

في ظروف أخرى، كان بيير سيرفض ارتكاب جريمة. لم يرتكب بيير سابقاً مثل هذه الخطيئة الرهيبة، رغم أنه كاد يقتربها عندما شعر بإغراء قتل الطفل الآن، إلا أنه لم يتجرأ على قتله لأنه لم يعرف كيف ينجو من فعلته. كان بيير المسؤول عن وقوع الكثير من الوفيات بما فيها وفاة غيلز بالو، إلا أن كل هذه الوفيات كانت إعدامات قانونية. كان يعلم أنه بهذه الجريمة التي يخطط لها، يوشك على تخطي حد مخيف، ولكن كان عليه استعادة ثقة شارل به، وهذه هي الطريقة المناسبة لتحقيق هذا الأمر. كان يرجو أن يوافق الأب موينو على ما ستقترفه يداه ويقول له إن هذه مشيئة الرب، ولكن إن لم يفعل فستحل اللعنة على بيير.

كان ملك نافار أنطوان دي بوربون الضحية التي ينوي بيير التخلص منها، وكان الاغتيال عنصراً أساسياً في انقلاب سيهدف في نفس الوقت، إلى تحييد عدوين مهمين آخرين لعائلة غيز: لويس الأخ الأصغر لأنطوان وأمير كونديه، أما الثاني فكان أهم حليف لعائلة بوربون وهو أدميرال فرنسا غاسبار دي كوليني وأكثر أفراد عائلة مونتورانسي نشاطاً.

كان من النادر أن يجتمع هؤلاء الثلاثة معاً في أي مكان مخافة أن يتعرضوا لهذا النوع من المؤامرات، ولكنهم استُدرجوا إلى أورليون بناء على وعد بإقامة مناظرة حول حرية العبادة خلال اجتماع المجلس التشريعي، وبوصفهم قادة الفرقة الداعية إلى التسامح الديني، كان من المستحيل أن يغيبوا عن هذه المناسبة المهمة، ولذلك توجب عليهم القيام بهذه المخاطرة. تقع أورليون على الضفة الشمالية لنهر لور الذي يبعد عن البحر مسافة مئتي متر. كان النهر مكتظاً بالحركة المرورية التي كانت بمعظمها مراكب عريضة بسوارٍ قابلة للطّي ومخصصة للخوض في المياه الضحلة والمرور

تحت الجسور. في قلب المدينة وقبالة الكاتدرائية قصر جديد يدعى شاتو غرولو لصاحبه الشديد الاعتداد به جاك غرولو. وقد اضطر جاك إلى مغادرة منزله الجديد والجميل من أجل هذا الاجتماع الملكي.

رأى بيير أن القصر خلّاب وهو يقترب منه عند انبلاج فجر اليوم الذي ستقع فيه الجريمة. بُني القصر من حجارة حمراء وسوداء لها شكل معين، وهناك صفوف من النوافذ الطويلة. وعند المدخل الرئيسي مطلعاً درج متشابهان كأنهما معكوسان في مرآة. كان تصميم البناء ذكياً ومبتكراً وبطريقة محافظة يحبها بيير.

لن يبيت بيير في القصر، لأنّه وكالمعتاد سينزل مع الخدم رغم أنّ اسمه الآن بيير دي غيز، ولكنه سيحظى في يومٍ من الأيام بقصرٍ كهذا. دخل بيير القصر مع شارل دي لوفزييه، الرجل الذي سيقوم بالاغتيال.

شعر بيير بالغرابة بصحبة دي لوفزييه الذي كان وعلى الرغم من حسن هندامه وسلوكه المهدب يوحى في شكل كتفيه ونظراته بالعنف في شخصيته. بالطبع وقعت الكثير من جرائم القتل، وفي مناسبات عديدة راقب بيير كيف يتسكع هؤلاء الرجال القتلة في قصر دي غريف في باريس، إلا أن لوفزييه مختلف عنهم، فهو ينحدر من طبقة السادة، ولهذا اسمه الكامل يحوي على كلمة «دي». كان مستعداً لقتل أناس من طبقة الاجتماعية. يبدو الأمر غريباً ولكن الجميع متفقون على أنه لا يجوز قتل أمير تربطه صلة دم بالملك كأنطوان دي بوربون على يدي مجرم عادي.

ازدان القصر من الداخل بمظاهر الثروة الجديدة، والتمعت الكسوة الباذخة ذات الأنسجة الغنية بالألوان التي لم تبتهت بعد، وكان الشمعدان الكبير نظيفاً تماماً، أما العمل على طلاء السقف المضلع فقد كان متقناً وجديداً. كان السيد غرولو سياسياً محلياً ورجل أعمال يريد من العالم أن يعرف أنّه بات ثرياً.

قاد بيير لوفزييه إلى جناح تشغله الملكة، وعندما وصل طلب من إحدى الخادמות إخطار وصيفة الملكة أليسون ماكي بوصوله.

كانت مكانة أليسون قد أصبحت عظيمة حقاً بعد أن أصبحت ماري ستوارت ملكة فرنسا. راقب بيير الفتاتين بشياهما النفيسة ومجوهراتهما

المتلاثة تردان على انحناءات النبلاء وتحياتهم بإيماءات عادية، أو ابتسامات متعالية. وفكر كيف أن الناس يعتادون فوراً على المكانة الرفيعة والتقدير العام، وأدرك أنه يتوق بشدة إلى أن يكون موضع تقدير.

كان من الواحة أن يطلب مقابلة أليسون في هذا الوقت المبكر من الصباح، ولكنه بات يعرفها مذ ذاك اليوم الذي التقاها فيه منذ أكثر من عام عندما أوصل إلى ماري خبر اقتراب الملك هنري الثاني من الموت. كان مصير أليسون كمصيره مرتبطاً بمصير عائلة غيز. عرفت أليسون أنه آتٍ كمبعوث للكاردينال شارل ووثقت به، وهي تعرف أنه لن يضيع وقتها.

بعد مرور عدة دقائق أشارت لهما الخادمة بالدخول إلى غرفة جانبية صغيرة. جلست أليسون إلى طاولة مدورة، وبدأت كأنها ارتدت ثيابها على عجل فقد وضعت عباءة من القماش المطرز فوق ثوبها الليلي. وسرّحت شعرها على عجل. وبدأت عيناها الزرقاوان ناعستين. كان مظهرها شعناً بطريفة ساحرة.

«كيف حال الملك فرانسيس؟» سألتها بيير.

«ليس بخير»، قالت «ولكن وضعه الصحي لن يتحسن. أنت تعلم أنه أصيب بالجدري في صغره، وهذا أثر على نموه، وتركه في حالة مرض دائمة».

«والملكة ماري؟ أفترض أنها مازالت في حالة حداد على والدتها». كانت والدة ماري ستيوارت ماري دي غيز قد توفيت في إدنبره في حزيران/يونيو. «من الصعب معرفة المدة التي سيأخذها أي شخص في الحداد على والدته».

«لا شك في أن الملكة ماري ستذهب إلى إسكتلندا».

سببت مسألة ذهاب الملكة قلقاً لبيير وعائلة غيز. إن غيرت ماري رأيها وقررت حكم إسكتلندا، سيكون من الصعب على عائلة غيز أن توقفها لأنها الملكة الشرعية هناك.

لم توافقه أليسون على الفور، وهذا ما زاد من ارتباك بيير ثم قالت: «يحتاج الإسكتلنديون إلى حاكم يضرب بيدٍ من حديد».

لم يكن هذا الجواب الذي أراد بيير سماعه، لكنه كان الجواب الحقيقي

لأن البرلمان الإسكتلندي الذي يسيطر عليه البروتستانتيون مرر قانوناً يُجرّم الاحتفال بالقداس.

«ولكن يبقى واجب ماري الأول هو فرنسا»، قال بيير.

وافقته أليسون على هذا بسعادة قائلة: «يجب أن تبقى ماري مع فرانسيس إلى أن تلد أول ابن ومن الأفضل أن تلد اثنين. إنها تفهم أن إنجاب ورثة للعرش في فرنسا أهمّ من تهدئة الإسكتلنديين المثيرين للمتاعب».

«علاوة على هذا»، قال بيير بابتسامة مسترخية. «لمَ سترغب ملكة فرنسا بالتخلي عن منصبها من أجل أن تصبح ملكة إسكتلندا؟».

«صحيح. لا نملك أنا وماري سوى ذكريات بعيدة عن إسكتلندا. عندما غادرنا كانت ماري في الخامسة وأنا في الثامنة، ولم نعد قادرتين على التحدث بلهجة الإسكتلنديين، ولكنك لم توقظني في هذا الوقت الباكر للتحدث عن إسكتلندا».

أدرك بيير أنه كان يتجنب الموضوع الحقيقي، وقال في نفسه إنه لا يجب أن يخاف فهو بيير دي غيز. «كل شيء جاهز»، قال لأليسون. «أصبح أعداؤنا الثلاثة في البلدة».

عرفت أليسون عمّا كان يتحدث وقالت: «هل نتحرك على الفور؟».

«لقد تحركنا بالفعل. إن لويس دي بوربون في السجن بتهمة الخيانة ويواجه عقوبة الموت». فكر بيير أن الرجل قد لا يكون مذنباً ولكن هذا غير مهم. «ومنزل غاسبار دي كوليني محاصر، ويرافقه الجنود أينما ذهب. إنه سجين بطريقة ما». قام غاستون لوبان بكل هذا بمساعدة حرس عائلة غيز، وهم جيش خاص مكون من مئات الرجال الأشداء. «لقد استدعي أنطوان دي بوربون لرؤية الملك هذا الصباح». وأشار بيير إلى لوفزيبه بإيماءة. «وشارل دي لوفزيبه من سيقتله».

لم تجفل أليسون، وأعجب بيير بهدوئها ثمّ قالت: «كيف يمكنني أن أساعدك؟».

تحدث لوفزيبه للمرة الأولى بصوتٍ مهذب ودقيق وبلكنة تشي بأنه من سادة القوم.

«يجب أن يعطيني الملك إشارة عندما يكون جاهزاً لأقوم بعملتي».

«لماذا؟» سألت أليسون.

«لأنه لا يمكن قتل أمير بالدم من دون أمرٍ من الملك».

ما عناه لوفزيه أنه يجب أن يكون واضحاً لجميع الحاضرين في الغرفة أنّ الملك فرانسيس هو من أعطى الأمر بالقتل، أو سيكون من السهل على الملك لاحقاً أن يتبرأ من عملية الاغتيال، ويدعي أنه بريء منها، ويُعدم لوفزيه وبير والكاردينال شارل وأي شخص له علاقة بالمؤامرة.

«بالطبع»، قالت أليسون وقد فهمت المغزى على الفور.

«يجب أن يحظى لوفزيه ببعض الوقت الخاص والهادئ مع جلالته ليتفقا على إشارة. لقد شرح الكاردينال هذا للملك مسبقاً»، قال بير.

«حسناً»، وقفت أليسون. «تعال معي يا سيد دي لوفزيه».

لحقها لوفزيه إلى الباب، وهناك التفتت وسألته: «هل تحمل سلاحك؟». مدّ لوفزيه يده تحت معطفه، وكشف عن خنجره الذي يبلغ طوله قدمين في غمده، ويتدلى من حزامه.

«من الأفضل أن تتركه مع السيد أوموند دي غيز الآن».

نزع لوفزيه سكينه وغمدها من حزامه ووضعها على الطاولة ثم لحق بأليسون خارج الغرفة.

توجه بير إلى النافذة وحدق عبر الساحة إلى الأقواس الطويلة والمدينة للواجهة الغربية للكاتدرائية. شعر بالتوتر وبالذنب، وقال في نفسه إنه يقوم بما يفعله من أجل تلك الكنيسة، ومن أجل الربّ وهذه الكنيسة، ومن أجل الدين القديم والأصيل.

شعر بالراحة عندما عادت أليسون. وقفت بالقرب منه، ولمست بكتفها كتفه ونظرت في الاتجاه نفسه ثم قالت: «هنا صلتّ جان دارك خلال حصار أورليون، وأنقذت المدينة من بربرية الجيش الإنكليزي».

«يقول البعض إنها أنقذت فرنسا»، قال بير. «إننا نحاول اليوم إنقاذ فرنسا».

«أجل».

«هل كل شيء على ما يرام بين الملك فرانسيس ولوفزيه؟».

«أجل. إنهما يتحدثان».

ارتفعت معنويات بيير ثم قال: «ستخلص من خطر عائلة بوربون إلى الأبد. اعتقدت أنني لن أشهد اليوم الذي سيُقضى فيه على جميع أعدائنا». لم تُجب أليسون، ولكنها بدت قلقة. «ألا توافقين؟» قال بيير. «احذر من الملكة الأم»، قالت أليسون. «لمَ تقولين هذا؟».

«أنا أعرفها. عندما كنا صغاراً اعتنيت بماري وفرانيسيس. ولأنني كنت أرعى فرانيسيس رعاية خاصة لأنه كان ضعيفاً، لطالما شعرت الملكة كاترينا بالامتنان لي على هذا». «ثم...».

«إنها تتحدث معي وهي تعتقد أننا نقترف خطأ». عندما قالت أليسون «أننا» عرف بيير أنها تعني عائلة غيز. «خطأ؟» قال بيير. «كيف؟».

«تعتقد أننا لن نقضي على البروتستانتية من خلال حرق الناس حتى الموت، فهذا يصنع منهم شهداء. وتعتقد أن علينا بدلاً من هذا أن نتخلص من الدافع الذي يصنع البروتستانتين وإصلاح الكنيسة الكاثوليكية». كانت محقة فيما قالته عن الشهداء. فما من أحد أحبّ غيلز بالو في حياته، ولكنه الآن وكما عرف بيير من جواسيسه، أصبح قديساً. ولكن نصيحتها بإصلاح الكنيسة نصيحة مغالية في مثالياتها. «أنتِ تتحدثين عن تجريد رجال من أمثال الكاردينال شارل من ثروتهم وامتيازاتهم، وهذا لن يحدث أبداً لأنهم أقوىاء جداً».

«تعتقد كاترينا أن أصل المشكلة يكمن في هذه النقطة بالتحديد». «سيجد الناس دوماً عيباً في الكنيسة. الحل هو تعليمهم أنهم لا يملكون الحق بتوجيه النقد إليها».

هزت أليسون كتفيها وقالت: «لا أقول إن الملكة على حق، ولكنني أعتقد أننا يجب أن نكون حذرين».

ارتسم تعبير مشكك على وجه بيير ثم قال: «لو كانت الملكة في موقع القوة فسيكون كلامك صائباً. ولكن بعد زواج الملك من نسيبة عائلة

غيز أصبحنا المسيطرين. لا أعتقد أنّ هناك ما يدعو للخوف من ناحية الملكة الأم».

«لا تقلل من شأنها لأنّها امرأة، وتذكر ما فعلته جان دارك».

رأى بيير أن أليسون على خطأ، ولكنه قال: «أنا لا أقلل من شأن أيّ امرأة»، وارتسمت على وجهه أكثر ابتساماته سحراً.

التفتت أليسون قليلاً حتى يلامس صدرها صدر بيير. كان بيير يؤمن وبقوة أنّ النساء لا يفعلن هذا بالصدفة. «نحن، أنا وأنت متشابهان»، قالت أليسون. «لقد كررنا أنفسنا لخدمة الأقوياء. إننا مستشارا العمالقة، وعلينا أن نعمل معاً على الدوام».

«سأحبّ هذا».

كانت تتحدث عن التحالف السياسي إلا أن في كلماتها رسالة خفية، وفضحت نبرة صوتها والنظرة على وجهها انجذابها إليه.

لم يفكر بيير بالحب منذ ما يقارب العام. لم تترك خيبته في عدم الحصول على فيرونيك، واشتمزازه من أوديت المريعة مجالاً في قلبه لأيّ شعور نحو أيّ امرأة أخرى.

كان عاجزاً للحظة عن التفكير بالطريقة التي يجب عليه التصرف بها مع أليسون، ثم أدرك أنّ حديث أليسون عن العمل معاً لم يكن مجرد ثرثرة فارغة لإخفاء اهتمامها العاطفي به، بل على العكس تماماً؛ كانت تغزله لتغريه بشراكة عمل. عادةً كان بيير من يتظاهر بالحب مع النساء للحصول على شيء منهن. ابتسم عندما فكر بهذه المفارقة. أساءت أليسون فهم هذه الابتسامة، واعتقدت أنّها تشجيع. أمالت رأسها إلى الوراء قليلاً بحيث يغدو مائلاً قليلاً باتجاه رأسه. كانت دعوة صريحة، إلا أن بيير ما يزال متردداً، وأخذ يتساءل عن الفائدة التي سيجنيها من هذا. وأتاه الجواب سريعاً: سيتحكم بملكة فرنسا. إن كانت أخلص صديقات ماري ستيوارت عشيقته سيصبح أقوى من الدوق فرانسوا والكاردينال شارل.

أمال رأسه وقبلها. كانت شفتاها رقيقتين ومطواعتين. وضعت يدها وراء رأسه، وقربته منها ثم فتحت فمها ليُدخل لسانه، ثم ابتعدت قائلة: «ليس الآن. ليس هنا».

حاول بيير أن يستوعب الأمر. هل أرادت أن تنام معه في مكان آخر لاحقاً؟ لا يمكن لفتاة عازبة كإليسون أن تُضحى بعذريتها. إن انتشر الخبر وهذا ما يحدث عادة في البلاط، فسيقضي هذا على حظوظها في الحصول على زواج جيد.

ولكن يُمكن لفتاة عذراء من الطبقة العليا أن تسمح لنفسها بالنوم مع رجل إن كانت تتوقع أن تتزوجه. ثمّ صعفته فكرة وقال: «أوه، لا». «ماذا؟».

«أنت لا تعلمين، صحيح؟».

«ما الذي لا أعلمه؟».

«أنني متزوج».

اربدّ وجهها وقالت: «يا إلهي لا».

«كان زواجاً مدبراً من الكاردينال شارل، فقد كان هناك امرأة بحاجة إلى زوج على الفور لأسباب أنت تعرفينها». «من؟».

«الفتاة التي حملت من آلان دي غيز».

«أجل سمعت بهذا... أوه أنت الذي تزوج من أوديت؟».

شعر بيير بالحماقة والخجل وأجاب: «أجل».

«ولكن لماذا؟».

«كانت المكافأة حصولي على الحق بأن أدعو نفسي بيير أو موند دي غيز. إنه مكتوب على وثيقة الزواج».

«اللعنة».

«آسف».

«وأنا آسفة أيضاً رغم أنني كنت لأقوم بالمثل من أجل الحصول على هذا الاسم».

انتاب بيير شعور أفضل قليلاً عندما قالت هذا. كان قد ربح وخسر في آنٍ معاً فرصة مذهلة للتقرب من الملكة، ولكن على الأقل لم تحتقره إليسون على زواجه من أوديت. لو ازدرت له شعر بالحزن.

فُتح الباب، وابتعد بيير وإليسون بعضهما عن بعض وكأنهما كانا يقترفان

جرماً. دخل لوفزييه وقال: «أصبح كل شيء مُرتباً». والتقط سكينه عن الطاولة، ثم ثبت الغمد في حزامه مجدداً، ولف معطفه حوله ليغطي السلاح. «سأذهب لأرتدي ثيابي»، قالت أليسون. «انتظرا في غرفة الاستقبال». ثم غادرت من باب داخلي.

عبر بيير ولوفزييه رواقاً ثم ردهة تفضي إلى غرفة مزخرفة بكسوة مذهبة وورق جدران ملون وسجادة تركية. كانت هذه غرفة الانتظار الوحيدة تليها غرفة الحضور حيث يستقبل الملك الناس، وغرفة الحرس التي فيها عشرون إلى ثلاثين جندياً، وأخيراً غرفة النوم الملكية. كانا قد وصلا باكراً، ولذلك لم يكن هناك سوى بضعة رجال من رجال الحاشية.

«سيصل الملك بعد ساعة أو اثنتين»، قال لوفزييه. «فهو لم يرتد ثيابه بعد». جلس بيير ينتظر ويفكر بحدثه مع أليسون، وشعر بحرقه في المعدة عندما فكر أن أقرب صديقات ملكة فرنسا قد تزوجه لو كان عازباً. كانا سيشكلان فريقاً رائعاً، فكلاهما ذكيان وجميلان وطموحان. ربما كان سيصبح دوقاً. شعر أن فقدان هذه الفرصة أشبه بفقدان شيء عزيز عليه، وزاد كرهه لأوديت أكثر. كانت امرأة سوية من طبقة فقيرة، وجرته معها إلى المستوى الاجتماعي الذي عمل بجد ليهرب منه. لقد أحبط وجودها المهمة التي كرس حياته بأكملها من أجلها.

بدأت الغرفة تمتلئ تدريجياً، ووصل أنطوان دي بوربون في منتصف الصباح. بدا وجهه جميلاً، إلا أنه كان شاحباً بعينين مُثقلتين، وشارب متدل للأسفل، وهذا ما أعطاه مظهر شخص ناعس ومتجهم. ولأن أخاه كان مسجوناً، وكوليني قيد الاعتقال، أدرك أنطوان أن هناك مؤامرة حقيقية حيكت ضده اليوم. راقبه بيير، وانتابه شعور بأن الرجل يعرف أنه قد يموت اليوم، وبدا من خلال تصرفاته كأنه يقول: «افعلوا أسوأ ما يمكنكم فعله فأنا لا أهتم».

وصل الدوق ذو الندبتين والكاردينال شارل. انحنيا يحييان معارفهما، ودخلا إلى الغرف الداخلية على الفور. بعد مرور عدة دقائق أُستدعي رجال الحاشية المنتظرون إلى غرفة الاجتماع بالملك.

جلس الملك فرانسيس على عرش مزخرف ببراعة. جلس بشكل مائل، كأنه بحاجة إلى الاتكاء بذراعه على الكرسي. بدا وجهه شاحباً ورطباً. «إنه متوَعك على الدوام»، كانت أليسون قد قالت له مسبقاً، إلا أنه بدا في أسوأ حالات ضعفه.

وقف الكاردينال شارل إلى جانب العرش، ووقف بيير ولوفزييه في الصف الأمامي للحشد حرصاً على أن يراهما الملك بوضوح. كان أنطوان دي بوربون على بعد عدة خطوات عنهما. كان بيير ولوفزييه، بانتظار إشارة من الملك، ولكن بدلاً من هذا استدعى الملك أحد رجال الحاشية، فتقدم الرجل وأجاب على سؤال عرضي. لم يتمكن بيير من فهم المحادثة بينهما، كان على الملك أن يأمر بالإعدام على الفور. كان غريباً حقاً أنه انخرط في أمور ثانوية منذ البداية، وكأن الجريمة أحد البنود على الأجندة، ولكن الملك انتقل إلى شخصٍ آخر، وسأله عن أمر روتيني آخر.

همس الكاردينال شارل في أذن الملك، وهو على الأغلب يخبره بأن ينتهي من الأمر، ولكن فرانسيس لوح بيده في حركة ازدراء، وكأنه يقول: سأصل إلى هذا لاحقاً.

بدأ أسقف أورليون بإلقاء خطاب، وكان بوسع بيير أن يخلق الرجل. أرجع الملك ظهره إلى الورا على عرشه وأغلق عينيه. تخيل أن الناس سيعتقدون أنه يركز بشدة على ما يقوله الأسقف، ولكنه بدا كأنه سينام... أو يغمى عليه.

بعد وهلة فتح عينيه، ونظر حوله، واستقرت نظرتَه على لوفزييه وشعر بيير أن اللحظة المنشودة قد حانت، ولكن الملك انتقل بنظره بعيداً، وبدأ يرتجف.

حدّق بيير في رعب. كان وباء الحمى الارتعاشية قد اجتاح فرنسا وبلداناً أوروبية أخرى لثلاثة أعوام، وهذا المرض ينتهي بالموت أحياناً. قال بيير في نفسه: «أعطي الإشارة بحق الربّ ثم يمكنك أن تنهار!» ولكن بدلاً من هذا أخذ الملك ينهض. بدا ضعيفاً جداً على النهوض فسقط جالساً. تابع الأسقف خطابه، وكأنه لم يلاحظ أو يهتم بأن الملك بدا مريضاً، ولكن الكاردينال شارل كان سريع البديهة. همس بشيء لفرانسيس الذي هزّ رأسه

بضعف. ارتسم اليأس على وجه شارل الذي ساعد فرانسيس في النهوض على قدميه.

توجه الملك نحو الباب الداخلي متكئاً بذراعه على ذراع الكاردينال. نظر بيير إلى أنطوان دي بوربون الذي بدا مذهولاً كالبقية. كان واضحاً تماماً أن ما حدث لم يكن مؤامرة من قبله. لقد أصبح خارج دائرة الخطر الآن، إلا أنه وكما يبدو، لم يعلم السبب.

أوما شارل إلى أخيه الدوق ذي الندبتين، وتفاجأ بيير من نظرة الاشمئزاز الشديد التي علت وجه الدوق الذي أدار ظهره لشارل والملك. ولو كان الملك ملكاً أقوى لكانت هذه الحركة التي تُظهر قلة احترام، كفيلاً برميهِ في السجن.

غادر الملك فرانسيس الغرفة متكئاً بكامل ثقله على شارل.

غدا الطقس أكثر برودة بينما كانت سيلفي تتسلق سفوح جبال الألب في طريقها إلى جنيف. كان الوقت شتاءً ولهذا كانت بحاجة إلى معطف من الفرو، إلا أنها لم تتوقع هذا.

هناك الكثير من الأمور التي لم تتوقعها، فلم يكن لديها أدنى فكرة أن الأحذية تهترئ بهذه السرعة إن مشى المرء يومياً، وطوال الوقت. صُدمت بجشع أصحاب الحانات بخاصة في المواقع التي تندر فيها، فقد تقاضوا مبالغ باهظة رغم أنها أخبرتهم بأنها راهبة. توقعت أن يتحرش بها الرجال، إلا أنها تعاملت مع الأمر بذكاء، وفوجئت في إحدى الليالي بالمعاملة الخسنة التي تلقتها من إحدى النساء في غرفة النوم العمومية في أحد التزل.

شعرت سيلفي براحة كبيرة عندما لاحت أبراج كنيسة جنيف البروتستانتية في الأفق. شعرت بالفخر من نفسها لأنها نجحت بالوصول، فقد قالوا لها إنها لن تستطيع القيام بالرحلة، ولكنها وبعون الرب، نجحت في إتمام الرحلة.

تقع المدينة على الطرف الجنوبي من بحيرة تحمل الاسم نفسه، وفي المنطقة التي يخرج فيها نهر الرون من البحيرة شاقاً طريقه إلى البحر الأبيض المتوسط البعيد جداً. مع اقترابها اكتشفت أن المدينة صغيرة مقارنة بباريس، ولكن كل المدن التي مرّت بها كانت أصغر من باريس.

كان المنظر جميلاً ويشي بالترحاب أيضاً؛ فالبحيرة صافية والجبال المحيطة بلوني الأزرق والأبيض، والسماء بلون لؤلؤي رمادي. قبل أن تصل إلى بوابة المدينة خلعت سيلفي قلنسوة الراهبات، وأخفت الأيقونة التي ارتدتها تحت ثيابها، ولقت وشاحاً أصفر حول عنقها حتى لا تبدو كراهبة بل كامرأة فقيرة ذات مظهر بشع. سمحوا لها بالدخول، ولم يسببوا لها أيّ متاعب.

عثرت على غرفة في نُزلٍ تملكه امرأة. في اليوم التالي اشترت قلنسوة من الصوف الأحمر، وغطت شعرها المقصوص كالراهبات. وفرت لها القلنسوة دفناً أكثر من الوشاح الأصفر.

عصفت ريحٌ باردة وقاسية من وادي الرون عكرت صفو سطح البحيرة بموجات خفيفة مُزبدة، ونشرت البرد في أنحاء المدينة. اكتشفت سيلفي أنّ الناس في المدينة باردون كمناخها، وأرادت أن تقول لهم إنه ليس عليهم التجهم لكونهم بروتستانتين.

امتلأت المدينة بالمطابع وباعة الكتب. كانوا يطبعون الأناجيل وأدبيات أخرى بالإنكليزية والألمانية والفرنسية، ويرسلون كتبهم لتباع في شتى أرجاء أوروبا.

دخلت إلى أقرب مطبعة للنزل، ووجدت رجلاً مع متدرب لديه يعملان على طباعة، وقد تكومت الكتب حولهما. سألت عن سعر الإنجيل بالفرنسية. نظر صاحب المطبعة إلى ثيابها البالية وقال: «إنّه باهظ الثمن كثيراً».

كبت المتدرب ضحكة.

«أنا جادة»، قالت له.

«لا تبدين جادة»، قال الرجل. «السعر جنيهان».

«وإن اشتريت مئة».

التفت نصف التفاتة تشي بعدم اهتمامه: «لا أملك مئة نسخة».

«حسناً، لن أخاطر بعلمي مع شخصٍ غير مبالٍ»، قالت بشكلٍ لاذع

ثم خرجت.

ولكن صاحب المطبعة التالية لم يكن أفضل من سابقه. كان الأمر باعثاً على الجنون. لم تستطع فهم سبب عدم رغبتهم ببيع كتبهم، وحاولت أن

تخبرهم أنها أتت من باريس، ولكنهم لم يصدقوها. قالت لهم إن لديها مهمة مقدسة وهي إيصال الإنجيل إلى الكاثوليكين الفرنسيين المضللين، فلم يكن منهم إلا الضحك عليها.

بعد يوم غير مثمر عادت إلى النزول والشعور باليأس والعجز يكتنفها، وتساءلت إن كانت قد قطعت كل هذه المسافة من أجل لا شيء. ولأنها كانت متعبة نامت بعمق، واستفاقت عازمةً على اتخاذ منهج جديد.

توجهت إلى كلية القساوسة ممن أخذوا على عاتقهم مهمة نشر الإنجيل، ولذلك قد يرغبون بمساعدتها. وهناك، في ردهة أكثر المباني تواضعاً، رأت شخصاً تعرفه. تطلب الأمر بضع دقائق حتى تتذكر أنه ذلك المبشر الشاب الذي دخل إلى مكتبة والدها منذ ثلاثة أعوام.

«أنا غيوم من جنيف»، قال لها الشاب، وحيته سيلفي بسعادة.

بالنسبة إلى غيوم كان ظهور سيلفي المفاجئ في جنيف أشبه بالهبة الإلهية. لقد قام برحلتين تبشيرييتين في فرنسا، وهو الآن يقوم بتعليم مُبشرين أصغر عمراً حتى يسيروا على خطاه. كان غيوم، مع أسلوب حياته الجديدة والسهلة قد فقد عنفوانه السابق ولم يعد نحيلاً كصبي صغير. في الحقيقة بدا ممتلئاً بشكل جيد، ويبدو أن سعادته قد اكتملت بوصول سيلفي.

صُعق لدى سماعه بخيانة بيير، ولكنه فشل في إخفاء شعوره بالرضا لأن غريمه الساحر لم يكن سوى محتال، وتساقت دموعه عندما أخبرته سيلفي باستشهاد غيلز.

عندما أخبرته بتجربتها مع باعة الكتب في جنيف لم تبد عليه المفاجأة، وقال: «هذا لأنك تعاملينهم وكأنهم مساوون لك».

كانت سيلفي قد تعلمت التظاهر بالشجاعة والقوة، فقد كانت الطريقة الوحيدة لإحباط الرجال الذين قد يحاولون استغلالها، وسألته: «ما الخطأ في هذا؟».

«إنهم يتوقعون من النساء أن يكن متواضعات».

«في باريس أيضاً يحبون النساء المتواضعات، إلا أنهم لا يرفضون خدمة النساء من زبائنهم إن لم يكن كذلك. إن امتلكت امرأة مالاً ولديهم بضاعة للبيع سيقومون ببيعها».

«باريس مختلفة».

فكرت سيلفي أن هذا واضح.

وافق غيوم بلهفة على مساعدتها، وألقى محاضراته لليوم، وأخذها إلى صاحب مطبعة يعرفه. وقفت سيلفي وراء غيوم، وتركته يتحدث.

أرادت سيلفي نوعين من الأناجيل: النوع الرخيص الذي يمكن أن يشتريه عامة الناس، والنوع الفاخر المطبوع والمُجلّد بكلفة باهظة من أجل الزبائن الأكثر ثراءً. وعملاً بتعليماتها فإوض غيوم بقوة، وحصلت على كلا النوعين بسعر يمكنها مضاعفته ثلاث مرات في باريس. اشترت مئة طبعة فاخرة وألف نسخة رخيصة.

شعرت بالحماس عندما رأت في المكتبة نسخاً من المزامير بترجمة الشاعر الفرنسي كليمنت مارو. كان والدها قد حقق أرباحاً كبيرة من بيعه لهذا الكتاب، وعلمت أنها تستطيع بيع الكثير منه أيضاً، لهذا اشترت خمسمئة نسخة.

شعرت بالإثارة عندما رأت الصناديق وهي تخرج من المخزن في نهاية المتجر. لم تنته رحلتها بعد، ولكنها لم تفشل حتى الآن. رفضت أن تتخلى عن مهمتها، وكانت على حق في موقفها هذا. ستؤمن هذه الكتب وصول الدين الحقيقي إلى قلوب مئات الناس، وستؤمن الطعام لها ولوالدتها لعام أو أكثر. كان نصراً بحق، ولكن عليها أولاً أن توصل الكتب إلى باريس وهذا يتطلب بعض الخداع.

اشترت أيضاً مئة رزمة من الورق لبيعها في متجرها في شارع دو لا سيربونت. وبناء على توجيهاتها طلب غيوم من البائع تغطية الصناديق، ووضع في كل واحد منها رزماً من الورق، ففي حال فتح أي صندوق لأي سبب من الأسباب، لن يقع النظر مباشرة على الكتب الممنوعة. طلبت أن يكتبوا على الصناديق الكلمات الإيطالية «كارتا دي فابريانو». كانت بلدة فابريانو مشهورة بصنع ورقٍ عالي الجودة. سيكون هذا الخداع كافياً عند أي تفتيش روتيني، ولكن إن تعرضت الصناديق إلى تفتيش حقيقي فسينتهي أمر سيلفي.

في تلك الليلة أخذها غيوم إلى منزل والديه لتناول العشاء. لم يكن بوسعها رفض الدعوة لأنه كان لطيفاً معها، ولولا مساعدته

لكانت فشلت في مهمتها، ولكنها لم تشعر بالراحة فقد علمت أنه يكن لها مشاعر رومانسية، وأنه ترك باريس فجأة حالما خطبت إلى بيير. من الواضح أن هذه المشاعر عاودته مجدداً، أو ربما لم تفارقه قط.

كان الطفل الوحيد لوالديه اللذين يعشقانه. كانا شخصين دافئين ولطيفين، ومن الواضح أنهما كانا يعلمان بأن ابنهما مغرم بها. اضطرت سيلفي إلى رواية قصة استشهاد والدها مجدداً، وكيف أعادت هي ووالدها بناء حياتهما. كان واند غيوم الذي يعمل صائغاً، فخوراً بسيلفي وكآتها زوجة ابنه، وأعجبت والدته بشجاعتهما، إلا أن عينيها التمعتا بتلك المعرفة الحزينة والراسخة بأن ابنها فشل في الحصول على قلب سيلفي.

دعوها للبقاء عندهم ولكنها رفضت، فهي لم ترغب بإعطائهم آمالاً كاذبة. تساءلت في تلك الليلة عن سبب عدم وقوعها في حب غيوم فقد كان هناك الكثير من القواسم المشتركة بينهما. كلاهما من عائلة موسرة من الطبقة الوسطى، وكلاهما ملتزم بنشر الإنجيل الحقيقي، وجرباً مشاق ومخاطر السفر الطويل. لقد خبرا الخطر وشاهدا العنف، ولكنها رفضت هذا الرجل النزيه والذكي والشجاع من أجل كاذب وجاسوس متحذلق. تساءلت إن كانت تعاني من خطبٍ ما. ربما لم يكن مقدرًا لها الوقوع في الحب والزواج. في اليوم التالي أخذها غيوم إلى حوض السفن وعرفها إلى قبطان سفينة يعتقد أنه أهل للثقة. كان الرجل يرتاد مع زوجته وأولاده، نفس الكنيسة التي يذهب إليها غيوم. وفكرت سيلفي أن الرجل أهل للثقة كأى رجل آخر.

أصبح لديها الآن بضاعة يصعب نقلها برأ بالعربة على الطرقات الريفية، ولهذا كان عليها أن تعود إلى باريس بالسفينة. ستأخذها السفينة المتوجهة إلى مرسيليا حيث ستنقل كتبها إلى سفينة أخرى تعبر المحيطات متجهة إلى مدينة رون على الساحل الفرنسي الشمالي، ومن هناك ستبحر عبر النهر إلى باريس.

حُمِلت صناديقها في اليوم التالي، وفي صباح اليوم الذي تلاه رافقها غيوم إلى السفينة. شعرت بالسوء لأنها قبلت مساعدته الكبيرة دون أن يكون لديها النية بإعطائه ما يريد منها. قالت لنفسها إن غيوم متطوعٌ متحمس وإنها لم تتلاعب به، ولكن على رغم هذا شعرت بالذنب.

«راسليني عندما تنفذ الكتب»، قال لها. «أخبريني بما تريدينه، وسأحضر لك البضاعة إلى باريس بنفسى».

لم تكن ترغب بقدوم غيوم إلى باريس، فهو سيُصر على التودد إليها، ولن تتمكن من التملص من صحبته بسهولة. عبر هذا السيناريو المخرج في ذهنها بشكل خاطف، ولكنها لم تستطع رفض عرضه. سيكون لديها مخزون من الكتب دون أن تضطر إلى القيام بهذه الرحلة الطويلة والصعبة.

هل ستكون مخادعة إن قبلت بعرضه؟ عرفت تماماً سبب قيامه بهذا، ولكنها لم تفكر بأنانية، فقد كانا يقومان بأداء واجب مقدس. «سيكون هذا رائعاً. سأراسلك»، قالت له.

«سأتطلع قديماً لوصول تلك الرسالة»، قال لها. «وسأصلي أن تصل قريباً».

«وداعاً غيوم»، قالت سيلفي.

خافت أليسون من أن يموت فرانسيس، وتصبح ماري أرملة وملكة سابقة، وعندها لن تكون أليسون سوى صديقة ملكة سابقة. إنهما تستحقان البقاء تحت الأضواء لوقتٍ أطول. كان الجميع متوتراً بسبب مرض فرانسيس، لأن موت أي ملك يخلق دوماً لحظات غامضة ورهيبة. سيتنازع الإخوة في عائلة غيز مع عائلة بوربون ومونتورانسى من أجل الهيمنة، وسيخوض الدين الحقيقي معركة مع المهرطقين، وستؤول السلطة والثروة مرة أخرى إلى من يتحرك بشكلٍ أسرع ويفكر بجِد أكبر.

ومع تراجع صحة فرانسيس استدعت الملكة كاترينا أليسون مكي مجدداً. كانت الملكة الأم في ثوب حريري أسود مهيب مزدان بمجوهرات ألماسية لا تقدر بثمن.

«فلتوصلي رسالة إلى صديقك بيير»، قالت كاترينا لأليسون.

كانت كاترينا تملك ذلك الحدس الأنثوي، ولا بدّ أنها تكهنت بأن أليسون تكنّ مشاعر لبيير. كانت الملكة الأم على علم بكل القيل والقال في القصر، وبذلك فهمت أن بيير متزوج، وأن العلاقة بين بيير وأليسون محكومة بالفشل.

كانت أليسون مستاءة من اعتراف بيير، فقد سمحت لنفسها بالوقوع في حبه. كان ذكياً وساحراً كما كان وسيماً وأنيقاً أيضاً. حلمت بأن يصبح زوجين قويين يقفان وراء العرش، ويكرسان نفسيهما للملك والملكة. ولكنها نسيت أمر ذلك الحلم الآن.

«بالطبع يا جلالة الملكة»، قالت أليسون لكاترينا.

«أخبريه أنني يجب أن أقابل الكاردينال شارل والدوق ذا الندبتين في غرفة الاجتماع بعد ساعة».

«وإن سألتني عن الغرض من اللقاء؟».

ابتسمت الملكة وقالت: «إن سألك أخبريه أنك لا تعرفين».

غادرت أليسون جناح كاترينا، وعبرت أروقة قصر غرولو. انحنى الرجال لها، وحيّتها النساء أثناء مرورها. استمتعت باحترامهم، بخاصة الآن بعد أن باتت تعلم أن هذا لن يدوم طويلاً.

تساءلت أليسون أثناء سيرها عما تخطط له كاترينا، فهي تعلم أن الملكة الأم فطنة وقاسية. عندما توفي هنري شعرت كاترينا بالضعف، ولهذا تحالفت مع الأخوين غيز، ولكن يبدو الآن أن هذا التحالف كان غلطة، لأن شارل وفرانسوا قاما بتحييد كاترينا، وسيطرا على الملك من خلال زوجته الملكة ماري. انتاب أليسون شعور أن كاترينا لن تُخدع بسهولة في المرة الثانية. كان للأخوين غيز غرف في القصر مع العائلة الملكية، فهما يفهمان الأهمية العظيمة للبقاء قرب الملك. وبدوره كان بيير مُلزماً بالبقاء قريباً من الكاردينال شارل، لهذا السبب نزل في حانة سان جان بالقرب من الكاتدرائية، ولكن أليسون تعلم أنه لن يأتي إلى قصر غرولو قبل استيقاظ الأخوين غيز صباحاً، ولن يغادر إلى أن يخلد إلى النوم، حتى لا يفوته شيء. عثرت أليسون على بيير في غرفة جلوس الكاردينال مع العديد من المساعدين والخدم. كان بيير في سترة طويلة زرقاء بلا أكمام فوق قميص أبيض مكشكش ومطرز بخيوط زرقاء. لطالما بدا وسيماً، وبخاصة في ثياب زرقاء اللون.

كان الكاردينال ما يزال في غرفة نومه، رغم أنه ومن دون شك قد ارتدى ثيابه وبدأ بمقابلة الناس، فهو لم يكن شخصاً كسولاً.

«سأقاطع»، قال بيير لأليسون ثم وقف. «ما الذي تريده كاترينا؟». «إنها تتصرف بغموض»، قالت أليسون لبيير. «فحص أمبروز باريه الملك هذا الصباح». كان باريه طبيب القصر. «ولكن ما من أحد يعرف ما قاله الطبيب سوى كاترينا».

«ربما قال لها إن الملك يتعافى».

«أو ربما لا». إن سعادة أليسون وماري ستوارت متوقفة على صحة فرانسيس. كانت الأمور ستكون مختلفة لو أنّ ماري حظيت بطفل منه، ولكنها لم تحمل بعد. لقد قابلت الطبيب الذي أوصت به كاترينا، إلا أنها لم تطلع أليسون على ما قاله لها.

قال بيير مفكراً: «إن مات الملك فرانسيس من دون أطفال سيصبح أخوه شارل هو الملك». هزت أليسون رأسها وقالت: «ولكن شارل في العاشرة من العمر، ولهذا سيكون هناك وصي على العرش ليحكم بالنيابة عنه». «وهذا منصب يذهب بشكل أوتوماتيكي إلى أول أمير بالدم؛ أي إلى أنطوان بوربون».

«عدونا الأكبر». عبر بذهن أليسون كابوس تخسر فيه عائلة غيز كل نفوذها، وتتحول هي وماري إلى مجرد نكرتين بالكاد ينحني لهما الناس. كانت واثقة من أنّ بيير يشاركها رؤية هذا الكابوس، إلا أنها رأت أنّه بدأ يفكر بكيفية التعامل مع هذا الأمر. لم يبدُ مرتاعاً وأحبت ذلك.

«إذاً، التحدي الذي ينتظرنا الآن هو كالتالي: إن مات فرانسيس سنقوم بتحديد أنطوان. هل تعتقدين أنّ هذا ما تريد كاترينا مناقشته مع الأخوين غيز؟» قال بيير.

ابتسمت أليسون وقالت: «إن سألك أحد هذا، قلّ إنك لا تعرف».

بعد مرور ساعة كان بيير وأليسون يقفان إلى جانب الدوق ذي الندبتين والكاردينال شارل في غرفة الملك المزخرفة بهاء. كانت النار في مدفأة هائلة تتلظى بقوة. تفاجأت أليسون عندما رأت أنطوان دو بوربون في الغرفة أيضاً. حدّق الخصوم بعضهم ببعض، كان وجه الدوق ذي الندبتين أحمر من الغضب، بينما مسّد شارل لحيته كما يفعل عندما يحتدّ جداً، أمّا أنطوان فقد بدا خائفاً.

لَمَ جمعت كاترينا هؤلاء الأعداء؟ هل ستعرض على إقامة مباراة لتقرر أي طرف سيسيطر على فرنسا في حال توفي فرانسيس؟
كان بقية الحاضرين في الغرفة من علية رجال الحاشية، وجميعهم أعضاء في مجلس شورى الملك، وجميعهم يبدون مرتبكين. يبدو أن ما من أحد يملك أدنى فكرة عما يحدث. هل سيقتل أنطوان أمام كل هؤلاء الناس؟ ولكن لم يكن القاتل شارل دي لوفزويه حاضراً.
من الواضح أن أمراً كبيراً سيحدث، وأن كاترينا جاهدت لتبقيه سراً. حتى ببيير لم يعلم، رغم أنه عادة ما يكون أول العارفين.

فكرت أليسون بأن استلام كاترينا لزمم المبادرة أمر غير عادي، ولكن بوسع الملكة الأم أن تتصرف بمكر. تذكرت أليسون قارورة الدماء الطازجة التي أعطتها لها في ليلة زفاف ماري ستيوارت، وتذكرت القطط الصغيرة أيضاً، وأدركت أن كاترينا يمكن أن تكون قاسية، ولكنها عادة ما تخفي هذه السمة فيها.

دخلت كاترينا وانحنى الجميع لها. لم ترها أليسون من قبل وهي في موقع السيطرة التامة، وأدركت أن اختيارها للثوب الحريري الأسود والمجوهرات الألماسية مدروس حتى توحى بامتلاكها لزمم الحكم. ارتدت غطاءً على الرأس وقد بدا كتاج. دخلت الغرفة ولحق بها أربعة جنود لم ترهم أليسون من قبل وتساءلت من أين أتوا، ولحق بها أيضاً موظفان مع طاولة للكتابة وقرطاسية.

جلست كاترينا على العرش حيث يجلس فرانسيس عادة. شهق أحدهم. كانت كاترينا تحمل ورقتين في يدها اليسرى.
وضع الموظفان طاولة الكتابة، ووقف الحراس خلف كاترينا.
«ابني فرانسيس مريض جداً».

تبادل ببيير وأليسون النظرات. لقد قالت ابني، ولم تقل جلالته.
تابعت كاترينا: «الأطباء عاجزون عن القيام بأي شيء حيال الأمر». اضطرب صوتها في لحظة من الضعف الأمومي، وجفت عينيها بمنديلها المخرم. «أخبرني الطبيب باريه أن فرانسيس سيموت خلال الأيام القادمة». «آها»، فكرت أليسون. «إذاً، للأمر علاقة بوراثنة العرش».

«طلبت من ابني الثاني شارل ماكسميليان، المجيء من قصر سان جيرمان أونلي، وهو هنا الآن».

لم تسمع أليسون هذا الخبر. لقد تحركت كاترينا بسرعة ودهاء. في الأوقات الخطيرة لانتقال وراثة العرش ستكون السلطة بيد من يسيطر على الملك الجديد، وها هي كاترينا قد سبقت الجميع.

نظرت أليسون إلى بيير مجدداً. كان فاغر الفم من الدهشة. همس له الكاردينال شارل بغضب: «لم يخبرني أيُّ من جواسيسك بهذا».

قال بيير مدافعاً عن نفسه: «إنهم يتقاضون مالاً للتجسس على البروتستانتين وليس على العائلة المملكيّة».

أخذت كاترينا إحدى الورقتين في يدها ورفعتها. «بأيِّ حال»، قالت. «لقد وجد الملك فرانسيس القوة الكافية ليقوع على مذكرة قتل أمير كونديه لويس بوربون».

شهو العديد من رجال الحاشية، لقد أُدين لويس بتهمة الخيانة، ولكن الملك أبدى تردداً حتى الآن حيال إعدامه. أن يُقتل أمير بالدم فهذا إجراء راديكالي، وسيعم الهلع أرجاء أوروبا. لم يكن هناك من يرغب برؤية لويس ميتاً أكثر من الأخوين غيز، ويبدو أنهما سيحصلان على ما يريدانه كما يحدث عادة. يبدو أن كاترينا ستحرص على استمرار سيطرة عائلة غيز.

لوحث كاترينا بالورقة، وتساءلت أليسون إن كان الملك قد وقعها حقاً. لم يكن بوسع أحد رؤية شيء.

تحدث أنطوان: «أرجوكِ يا صاحبة الجلالة لا تعدموا أخي. إنه بريء».

«كلاكما مذنبان!» صرخت كاترينا. لم تسمع أليسون كاترينا تستخدم هذه النبذة في الكلام من قبل. «كانت المسألة الأساسية التي واجهت الملك هي قتلكما أنتما الاثنين».

كان أنطوان رجلاً شجاعاً في ساحة المعركة، إلا أنه جبان في بقية الأماكن، وقد بدأ الآن يتذلل لكاترينا: «أرجوكِ يا صاحبة الجلالة، اعفي عنا. أقسم لك أننا مخلصان للملك».

حدّقت أليسون نحو الأخوين غيز اللذين بالكاد أخفيا ابتهاجهما بما يحصل؛ فيها هو عدوهما يدمر في اللحظة المناسبة.

«إن مات الملك فرانسيس فإن ابني الثاني والبالغ من العمر عشرة أعوام سيصبح الملك شارل التاسع، كيف يمكن لك يا أنطوان أن تكون وصياً على العرش، وقد شاركت في مؤامرة على سلفه؟».

لم يكن هناك أي دليل على مشاركة أنطوان أو لويس في مؤامرة على الملك فرانسيس، ولكن أنطوان ركز في جداله معها على نقطة مختلفة: «لا أريد أن أكون وصياً»، قال بياس. «أرفض الوصاية، ولتعفي عني وعن أخي.»
«هل ستخلى عن الوصاية؟».

«بالطبع يا صاحبة الجلالة إن كان هذا ما ترغبين به.».

انتاب أليسون الشك من أن تكون غاية كاترينا منذ بداية الاجتماع دفع أنطوان ليقول ما قاله للتو. وثبتت صحة شك أليسون عندما سمعت جواب كاترينا.

لوححت الملكة الأم بالورقة الثانية وقالت: «في هذه الحالة أريدك أن توقع على هذه الوثيقة وعلى مرأى البلاط هنا اليوم. تنص الوثيقة على أنك ستسلم حقلك بالوصاية إلى... شخصٍ آخر». ثم نظرت بإمعان إلى الدوق ذي النَّدبتين، إلا أنها لم تنطق باسمه.
«سأوقع أيّ شيء»، قال أنطوان.

رأت أليسون أن الكاردينال شارل يتسم ابتسامة عريضة. لقد كان هذا ما أراده الأخوان غيز، فهذا سيضمن لهما التحكم بالملك الجديد، ومتابعة سياسة إبادة البروتستانتيين، إلا أن وجه بيير بدا مكفهراً وهمس لأليسون: «لَمْ قامت بهذا وحدها؟ لَمْ لم تُشرك الأخوين غيز معها في المؤامرة؟».
«ربما تريد إيصال رسالة إليهما»، قالت أليسون. «لقد تجاهلها منذ وفاة الملك هنري.».

قدمت كاترينا الوثيقة إلى الموظف، وتقدم أنطوان.

قرأ أنطوان الوثيقة التي كانت قصيرة، وبينما كان يقرأها بدا متفاجئاً. عندما انتهى من القراءة رفع رأسه لينظر إلى كاترينا.
وقالت له بصوتها الجديد والحاد: «وقعها فقط.».

غمس الموظف الريشة في الحبر، وقدمها إلى أنطوان الذي وقعها بدوره. نهضت كاترينا عن العرش ومذكرة الإعدام في يدها، ثم توجهت إلى

الموقد ورمت الوثيقة بين الفحم المشتعل. تصاعدت ألسنة اللهب لثانية وانطفأت.

أخذت أليسون تفكر الآن أنّ ما من أحد سيعرف إن كان الملك فرانسيس قد وقع الوثيقة أم لا.

عادت كاترينا إلى مكانها على العرش، فمن الواضح أنّ عملها لم ينته بعد.

«ستبدأ، مع حكم الملك شارل التاسع، مرحلة مصالحة في فرنسا». لم تبدُ كلمة «مصالحة» بالنسبة إلى أليسون ككلمة موحدة للصفوف، بل كنصرٍ مدوٍ لعائلة غيز.

تابعت كاترينا: «أنطوان دي بوربون، سيتم تعيينك بمنصب قائمقام فرنسا تقديراً لكّ على تنازلك عن العرش».

فكرت أليسون أنّ هذا المنصب قد يكون جائزة ترضية من أجل منعه من العصيان. نظرت إلى الأخوين غيز اللذين لم يبدوا راضيين بهذا التطور الجديد في الأحداث، إلا أن هذا المنصب ما يزال تافهاً مقارنةً بمنصب وصي العرش.

«من فضلك يا أنطوان اقرأ الوثيقة التي وقعت عليها أمام البلاط»، قالت كاترينا.

رفع أنطوان الورقة، واستدار نحو الجمهور، وقد بدا مسروراً. ربما كان يتوق للحصول على منصب قائمقام فرنسا منذ زمن وبدأ يقرأ: «أنا أنطوان دي بوربون، ملك نافار..».

قاطعته كاترينا قائلة: «انتقل إلى الجزء الأهم».

«أتخلى عن حقي في وصاية العرش، وأنقل كامل سلطتي في هذا الشأن إلى جلالة الملكة كاترينا، الملكة الأم».

شهقت أليسون.

قفز الدوق ذو الندبتين قائلاً: «ماذا؟ ألسْتُ أنا الوصي؟».

«لا لست الوصي»، قال أنطوان بهدوء.

تقدّم ذو الندبتين نحو أنطوان الذي سلّم الوثيقة إلى كاترينا. التفت ذو الندبتين نحو كاترينا، ولكن حراسها اقتربوا في استعداد، من الواضح أنّهم

تلقوا تحذيراً من احتمال حدوث هذا. وقف ذو الندبتين عاجزاً عن القيام بشيء. تحول لون الندبتين إلى الأحمر القاني، واحمرّ وجهه غضباً ثم صرخ: «هذا مشين».

«اصمت»، نهرته كاترينا. «لم أطلب منك التحدث».

كانت أليسون مصعوقة، فكاترينا خدعت الجميع ووضعت يدها على السلطة بأن جعلت نفسها الملك الحقيقي لفرنسا، فالسلطة الحقيقية في فرنسا لن تكون بيد عائلة غيز أو لتحالف بوربون-مونتورانسي، بل بيد كاترينا. لقد دخلت بين عملاقين وجردتهما من السلطة. يا لها من داهية! لم تكن هناك أيّ إشارة تدل على أن الأمور ستصل إلى هذه المرحلة. وها هي بكل مهارة وثقة، قامت بمناورة أقرب إلى الانقلاب. رغم غضب أليسون وإحباطها فإنه لم يكن بوسعها سوى الإعجاب باستراتيجية كاترينا. ولكن كاترينا لم تكن قد انتهت بعد.

«والآن ومن أجل المصادقة على السلام الذي حدث اليوم فإنّ دوق غيز سيحتضن ملك نافار»، قالت كاترينا.

بالنسبة إلى ذي الندبتين فإن هذه إهانة قد يتلقاها.

حدّق ذو الندبتين وأنطوان بعضهما ببعض.

«ها تقدما من فضلكما. إنه أمر»، قالت كاترينا.

تحرك أنطوان أولاً على الأرضية ذات البلاط الملون باتجاه ذي الندبتين. إن التشابه الوحيد بين هذين الرجلين أنهما متقاربان في العمر. عموماً، كان لأنطوان مظهر غير المكترث، ولكن الآن وتحت شاربيه ارتسمت ابتسامة اعتداد، كما يسميها الرجال. أما ذو الندبتين فكان أسمر نحيلاً ومشوهاً وشكس الطبع. لم يكن أنطوان يجهل طبع ذي الندبتين، ولهذا ابتعد مسافة ياردة عنه، وفتح ذراعيه قائلاً: «أنا أطيع جلالة الملكة الأم».

لم يكن بوسع ذي الندبتين أن يقول العكس، وتقدم من أنطوان. تبادل الرجلان أقصر عناق ممكن، ثم انفصلا بسرعة، وكأنهما يخافان من الإصابة بوباء.

ابتسمت كاترينا وشفقت، وحذا بقية الحاضرين من أفراد البلاط حذوها.

في ميناء مارسيليا المزدهم على شاطئ البحر الأبيض المتوسط نقلت سيلفي حمولتها من السفينة النهرية إلى سفينة تجارية عابرة للمحيطات. أخذتها السفينة عبر مضيق جبل طارق، ثم عبرت خليج بيسكاي، حيث أصيبت سيلفي بحالة دوام بحر رهيبه أثناء المرور بالقناة الإنكليزية، ثم عبرت نهر السين إلى مدينة رون التي تعد أهم الموانئ الفرنسية الشمالية.

كان ثلث سكان المدينة من البروتستانتين، وحضرت سيلفي قداس الأحد، الذي أُقيم في العلن وفي كنيسة حقيقية. كان بوسعها أن تباع كل كتبها هنا، إلا أن الحاجة إلى بيعها في باريس الكاثوليكية أعظم، علاوة على هذا كانت الأسعار في باريس أعلى.

كان يوماً من أيام كانون الثاني/يناير من عام 1561 والأخبار القادمة من فرنسا تبدو جيدة. بعد وفاة الملك فرانسيس الثاني تولت والدته الملكة كاترينا زمام السلطة، وعزلت الأخوين غيز من منصبهما السياسي، وأصدرت قوانين جديدة جعلت حياة البروتستانتين أسهل رغم أنها لم تصبح قوانين رسمية. أُطلق سراح جميع المساجين الدينيين، وعُلقت محاكم الهرطقة، وانتهى العمل بعقوبة الإعدام بتهمة الهرطقة. كان البروتستانتون الذين سمعت سيلفي بأنه يُشار إليهم الآن باسمهم الجديد وهو الهوغونيون، يحتفلون.

لكن ورغم هذا، ما زال بيع الكتب الممنوعة يُعتبر هرطقة خطيرة وجريمة.

شعرت سيلفي وهي تبخر مع كتبها عبر النهر باتجاه باريس، بالأمل والخوف معاً. وصلت في صباح بارد من صباحات شهر شباط/فبراير إلى رصيف دو لا غيف، حيث ترسو مجموعة من السفن والقوارب على طول الضفتين أو في وسط النهر.

أرسلت سيلفي رسالة إلى أمها تخبرها بوصولها، وأخرى إلى لوك موريس تقول له فيها إنها تأمل لقاءه قريباً لتشكره شخصياً على مساعدتها في إنجاح رحلتها، ثم توجهت إلى مركز الجمارك في ساحة دي غيف. إن كانت ستواجه متاعب فلا بد أنها ستبدأ هنا.

أحضرت معها إيصالات مزيفة، وقد زورتها بمهارة وبمساعدة غيوم،

تثبت شراءها لمئة وعشرة صناديق من الورق من مُصنِّع وهمي في فابرينو، وجلبت معها محفظتها لدفع ضريبة الاستيراد.

قدّمت الإيصالات إلى الموظف الذي قال: «ورق؟ ورق عادي لم يُكتب أو يُطبع عليه شيء».

«أبيع، أنا ووالدتي، الورق والحبر إلى الطلاب»، شرحت له سيلفي.
«لقد اشتريت الكثير».

حاولت أن تبسم وقالت: «لحسن حظي هناك الكثير من الطلبة في باريس».
«وقطعت مسافة طويلة لشرائه. ألا نملك مصنعين للورق في سان مارسيل».

«الورق الإيطالي أفضل وأرخص».

«يجب أن نتحدثي مع الرئيس». قال لها وأعاد الإيصالات، ثم أشار إلى مقعدٍ قائلاً: «انتظري هنا».

جلست سيلفي وقد انتابها إحساس بالهلاك المحتوم. كل ما عليهم فعله هو فتح الصناديق وتفحصها بدقة. شعرت كأنها أُدينَت وتنتظر الحكم. كان التوتر شديداً ويصعب احتمالها، وتمنت أن تدخل السجن وتنتهي من الأمر. حاولت أن تبعد تفكيرها بالأمر من خلال مراقبة كيفية سير الأعمال هنا، وأدركت أنّ معظم الرجال الداخلين من الباب يعرفهم الموظفون. قدموا أوراقهم بشكل عفوي ودفعوا مستحقاتهم وغادروا. كم هم محظوظون!

بعد مرور ساعة مضية طُلب منها الصعود إلى الطابق العلوي إلى مكتب أكبر يشغله مفوض الجمارك كلود رونسار الذي كان رجلاً له مظهر غاضب، ويرتدي سترة بنية وقلنسوة مخملية. وعندما أعاد طرح كل الأسئلة التي طُرحت عليها من قبل تساءلت إن كان عليها رشوة هؤلاء الناس، لكنها لم ترَ أحداً يرشو أي أحد في الطابق السفلي لذلك افترضت أن هذا يتم في الخفاء. وأخيراً قال رونسار: «يجب أن نفحص حمولتك».

«حسناً»، قالت سيلفي وهي تحاول أن يكون لصوتها نبرة هادئة، وكأن الأمر عائق عرضي، إلا أن قلبها كان يخفق بسرعة. قامت سراً بهزّ النقود في محفظتها في تلميح إلى إمكانية تقديم الرشوة، ولكن يبدو أن رونسار لم يلاحظ هذا، أو ربما لم يكن يتقاضى الرشى إلا ممن يعرفهم جيداً. ووقفت دون أن تعرف كيف تنفذ حمولتها... وربما حياتها.

وقف رونسار وغادرا المكتب. كانت سيلفي ترتجف وترنحت في مشيتها، ولكن رونسار لم يلاحظ علائم اضطرابها. استدعى رونسار الموظف الذي تحدثت معه سيلفي أولاً، وساروا على طول رصيف الميناء. تفاجأت سيلفي برؤية أمها هنا وقد استأجرت حملاً وعربة بأربع عجلات لينقل الصناديق إلى المستودع في شارع دو مير. شرحت سيلفي لأمها ما حدث، وبدأت إيزابيل مرتاعة.

صعد رونسار والموظف على متن السفينة، واختارا صندوقاً لتحميله وتفتيشه. أنزل الحمّال الصندوق على الرصيف، ووضع على أرضية رصيف الميناء. كان الصندوق مصنوعاً من الخشب الخفيف ومغلقاً بالمسامير، وكتب على أحد الجوانب: «كارتا دي فابرينو».

فكرت سيلفي أنهم الآن وبعد أن بذلوا كل هذا الجهد، سيفرغون الصندوق وسيجدون فيه أربعين إنجيلاً بالفرنسية من جنيف مع تعليقات بروتستانتية تحريضية في الهوامش.

فتح الحمّال الصندوق بعته، وظهرت في الأعلى رزم الأوراق البيضاء. في تلك اللحظة وصل لوك موريس.

«صديقي رونسار كنت أبحث عنك»، قال لوك بمرح ولوح بالزجاجة التي في يده. «هناك حمولة نبيذ من خيريز وأعتقد أنّ عليك أن تجرب البعض منه لتأكد من أنّه مطابق للمواصفات كما تعلم»، وغمز بعينه غمزة واضحة. لم تستطع سيلفي أن تُبعد عينيها عن الصندوق، فأسفل رزم الورق ووضعت الأناجيل التي قد تُجرمها.

صافح رونسار لوك بحرارة وأخذ الزجاجة منه، ثمّ قدمها إلى الموظف: «إننا نفحص حمولة هذه السيدة»، قال مشيراً إلى سيلفي.

نظر لوك إلى سيلفي، وتظاهر بأنّه متفاجئ: «مرحباً يا آنسة، هل عدتِ؟ ليس عليك أن تقلق بشأنها يا رونسار. أنا أعرفها جيداً فهي تبيع الورق والحبر للطلبة على الضفة اليسرى لنهر السين». «حقاً؟».

«أجل، وأشهد على هذا. اسمع يا صديقي، لقد وصلتني حمولة من الفرو من البلطيق، وهناك فرو ذئب أشقر سيكون رائعاً على السيدة رونسار. أتخيل

شعرها فوق ياقة الفرو تلك. سيقدمه لك القبطان كبادرة حسن نية، إن كنت تعلم ما أعنيه. تعال معي وألق نظرة».

«حتماً»، قال رونسار بلهفة ثم التفت إلى موظفه وقال له: «وقع أوراقها». ثم ابتعد متأبطاً ذراع لوك.

كاد يغمى على سيلفي من الراحة.

دفعت مستحقات الجمارك إلى الموظف. وفي حركة ابتزاز واضحة طلب منها قطعة ذهبية لقاء الحبر الذي استخدمه، ولكن سيلفي دفعت دون اعتراض وغادرت سعيدة. بعد ذلك بدأ الحمال بتحميل الصناديق في العربة.

في بداية عام 1561 أوكلت إلى نيد ويلارد أول مهمة دولية لمصلحة الملكة إليزابيث. أصيب بالرعب من ثقل هذه المسؤولية، واستمات في حرصه على النجاح فيها.

استدعاه السير ويليام سيسيل إلى منزله الجديد في شارع ستراند. كان سيسيل جالساً عند النافذة الخلفية والمطلة على ساحة غوفينت غاردن حيث تباع الزهور والخضار.

«نريد من ماري ستوارت أن تبقى في فرنسا»، قال سيسيل. «إن ذهبت إلى إسكتلندا كملكة، ستقع المتاعب. إن التوازن السياسي هناك حساس، ووجود ملكة كاثوليكية متشددة سيُشعل حرباً أهلية، وإن هزمت البروتستانتين وربحت الحرب فقد تبدأ بالتدخل في شؤون إنكلترا»، قال سيسيل.

كان نيد يعرف أن ماري ستوارت في نظر معظم القادة الأوروبيين هي الملكة الشرعية لإنكلترا، وأنها ستكون تهديداً لإليزابيث بمجرد عبورها القناة.

«ولهذا السبب أفترض أن عائلة غيز تريدها أن تعود إلى إسكتلندا»، قال نيد.

«تماماً، ولهذا السبب فإن مهمتك هي إقناعها بأنه من الأفضل لها البقاء في مكانها».

«سأبذل قصارى جهدي»، قال نيد رغم أنه وللحظة لم يكن قادراً على تخيل كيفية النجاح في هذا.

«سنرسلك مع أخيها».

«إنها لا تملك إخوة!» يعلم نيد أن ماري ابنة وحيدة لملك إسكتلندا جيمس الخامس وملكته ماري دي غيز.

«لديها العديد من الإخوة»، قال سيسيل ونخر مستنكراً: «لم يكن والدها مخلصاً جداً لزوجته، ولا حتى بمعايير الملوك، ولديه ما لا يقل عن تسعة أولاد غير شرعيين». كان سيسيل حفيد صاحب نزل، ولديه ازدراء أبناء الطبقة الوسطى لحياة العائلات المملكيّة. «يدعى هذا الأخ جيمس ستيوارت، وماري تحبه رغم أنّه بروتستانتي، وهو أيضاً يريد لها أن تبقى في فرنسا حيث لن تُحدث المتاعب. ستكون سكرتيره. لا نريد أن يعرف الفرنسيون أنّ الملكة إليزابيث تتدخل في هذا الشأن».

تبين أن جيمس رجلٌ رزين في الثامنة أو التاسعة والعشرين من عمره بشعرٍ أشقرٍ كامد. كان يرتدي صدرًا كستنائي اللون مزديناً بالجواهر. يتحدث معظم النبلاء الإسكتلنديين بالفرنسية، ولكن بعضهم كان أفضل من غيره. تحدث جيمس الفرنسية بتردد وبلهجة ثقيلة، ولكن نيد سيكون قادراً على مساعدته.

سافرا إلى باريس على متن سفينة، وهي رحلة سهلة نسبياً إن أخذنا بعين الاعتبار أنّ إنكلترا وفرنسا لم تعودا في حالة حرب. هناك خاب أمل نيد عندما علم أنّ ماري ستيوارت توجهت إلى مدينة رام شمالاً من أجل عيد الفصح. «عادة ما يتوجه أفراد عائلة غيز إلى منطقة شامبانيا من أجل التماثل للشفاء بعد أيّ هزيمة»، هذا ما قاله له السفير الإنكليزي السير نيكولاس ثروكمورتن. كان السفير رجلاً ذا بصيرة ثاقبة. ورغم بلوغه الأربعين من العمر فإنّ لحيته ما تزال بلونٍ أحمر ضارب إلى اللون البني. كان يرتدي سترة سوداء ذات كشاكش ناعمة ومطرزة ببراعة حول الياقة والكمين. «لقد ناورتهم الملكة كاترينا بذكاء في أورليون، ومنذئذ لم تواجه أيّ معارضة خطيرة، وهذا بدوره أصاب عائلة غيز باليأس».

«سمعنا أن البروتستانتين قاموا بأعمال شغب في عيد الفصح»، قال نيد. هزّ ثروكمورتن رأسه وقال: «في أنجيه ولومان وبوفيه وبونتوا». كان نيد مذهولاً من إمام ثروكمورتن بالتفاصيل. «وكما تعرف فإنّ الكاثوليكين

المُتطيرين يحبون إقامة مواكب يحملون فيها أشياء مخيفة ويسيرون بها عبر الشوارع. ونحن البروتستانتين المتتورين، نعرف أن توقيير الصور والآثار المقدسة يقع في خانة خطيئة الوثنية، ولذلك قام بعض إخوتنا المتحمسين بمهاجمة هذه المسيرات».

أثار البروتستانتيون العنيفون غضب نيد.

«لَمْ لا يلتزمون بالعبادة من دون أصنام في أماكن عبادتهم؟ يجب أن يدعوا الرَّبَّ ليحكم في أمر من يختلفون معهم»، قال نيد.

«ربما»، قال ثروكمورتن الذي كان بروتستانتيًا متشدداً أكثر من نيد كما هو حال العديد من أبرز رجالات إليزابيث، بمن فيهم سيسيل، رغم أن إليزابيث نفسها لم تكن متشدة.

«ولكن يبدو أن كاترينا تسيطر عليهم»، قال نيد.

«أجل، إنها تتردد في استخدام العنف لمواجهة العنف. تحاول على الدوام تجنب التصعيد. عادةً ما يهدأ الناس بعد عيد الفصح».

«امرأة عاقلة»، قال نيد.

«ربما»، كرر ثروكمورتن مجدداً.

وبينما هم نيد بالمغادرة قال له ثروكمورتن: «في مدينة رام فلتحذر من رجل يدعى بيير أوموند دي غيز وهو شاب أكبر منك بعدة أعوام، ويقوم بكثير من الأعمال القذرة لمصلحة العائلة».

«لَمْ عليّ الحذر؟».

«إنه سامٌ جداً».

«شكراً على التحذير».

سافر نيد وجيمس إلى رام في قارب نهري أخذهما عبر نهر السين ثم إلى مارن. كان السفر بهذه الطريقة بطيئاً إلا أنه أكثر راحة من قضاء ثلاثة أو أربعة أيام على سرج حصان. عندما وصلا أصيبا بخيبة أمل أخرى عندما علما أن ماري ستوارت غادرت لتوها، وهي في طريقها لزيارة نسيها دوق اللورين. لاحقاً بماري ستوارت على صهوة الجياد. تحدث نيد إلى جميع من التقاهم، وكالعادة أخذ يجمع الأخبار. شعر بالإحباط عندما علم أنهما لم يكونا الوحيدين اللذين يطاردان ماري ستوارت. فلقد سبقهما بمسيرة

يوم، الكاهن الإسكتلندي جون ليزلي الذي كان مفوض الكاثوليكين الإسكتلنديين، ومن المفترض أنه يقوم بمهمة تتعارض مع مهمة نيد. وأخيراً لحق نيد وجيمس بماري في القلعة المملكية في سان ديزيه التي كانت عبارة عن حصن يحيطه سورٌ بشمانية أبراج. قدما نفسيهما، وتم إدخالهما إلى قاعة عظيمة. بعد مرور عدة دقائق قابلهما رجلٌ وسيم له سيماء الرجل المتعطر، وبدأ غير مسرور برؤيتهما.

«أنا بيير أوموند دي غيز»، قال الرجل.
وقف جيمس ونيد، وأجاب جيمس على بيير: «أنتَ أحد أنساب أختي الملكة ماري».

«بالطبع»، والتفت بيير إلى نيد. «وأنتَ يا سيدي؟».
«نيد ويلارد سكرتير جيمس ستوارت».
«وما الذي يفعله بروتستانتان إسكتلنديان هنا؟».
سُرَّ نيد لأنَّ بيير صدَّق كذبه. ربما سيكون إقناع ماري سهلاً إن اعتقدت أنَّ الرسالة من نسيب إسكتلندي وليست من غريم إنكليزي.
لم يُبدِ جيمس أيَّ رد فعل على وقاحة بيير، وقال بهدوء: «أتيتُ للتحدث مع أختي».
«في أي شأن؟».

ابتسم جيمس: «أخبرها أن جيمس ستوارت هنا».
رفع بيير أنفه عالياً في الهواء وقال: «سأرى إن كانت الملكة ماري قادرة على استقبال ضيوف». رأى نيد وبوضوح أنَّ بيير سيفعل كل ما بوسعه ليمنع اللقاء.
جلس جيمس وأدار رأسه بعيداً، فهو في نهاية المطاف يحمل في عروقه دماء ملكية، ولقد قدم مجاملات كافية حتى الآن، بل وأكثر مما ينبغي إلى هذا المساعد الشاب.

بدا بيير غاضباً، ولكنه غادر من دون أن يقول المزيد.
جلس نيد منتظراً. كانت القلعة مكتظة، والخدم العاملون لدى الزائرة المملكية يخرجون ويدخلون القاعة العظيمة من دون توقف. بعد مرور ساعة أو اثنتين دخلت امرأة شابة في عمر نيد إلى القاعة. كان واضحاً وبالنظر إلى ثوبها الوردى الحريري وقلنسوتها المرصعة باللالئ التي زينت شعرها

الأسود، أنها لم تكن خادمة. كان في عينيها الزرقاوين نظرة يقظة ماكرة، ولكن عندما رأت جيمس ابتسمت.

«يا لها من مفاجأة!» قالت الشابة. «لورد جيمس، هل تتذكرني؟ أنا أليسون ماكي، التقينا في حفل زفاف ماري.»

وقف جيمس وانحنى لها، وفعل نيد المثل، «بالطبع أتذكرك»، قال جيمس.

«لم نكن نعلم أنك هنا.»

«أعطيت اسمي إلى رجل يدعى بيير أو شيئاً من هذا القبيل.»

«آه، إنه هنا ليُبعد أناساً مثلكما عن ماري، ولكنها ستقابلك حتماً. دعني أخبرها أنك هنا، ثم سأرسل شخصاً لاستدعائك... كما...»، وألقت نظرة فاحصة على نيد.

«سكرتيري نيد ويلارد»، شرح لها جيمس.

انحنى نيد مجدداً، وأومات له أليسون بأقصر إيماءة ممكنة، ثم غادرت.

«ذلك المدعو بيير لم يُخبر ماري بوصولنا حتى»، قال جيمس.

«لقد حذروني منه.»

بعد مرور عدة دقائق قادتهم خادمة من القاعة العظيمة إلى غرفة جلوس صغيرة ومريحة. شعر نيد بالتوتر، فها هو اللقاء الذي سافر كل هذه المسافة من أجله. لقد وضعت ملكته إليزابيث، ومعلمه وناصحه سيسيل ثقتهما به، وكم تمنى لو أنه يملك ثقة بنفسه كثقتهما به.

بعد مرور وقتٍ قصير وصلت ماري ستيوارت.

كان نيد قد رأى ماري ستيوارت سابقاً، إلا أنه فوجئ مجدداً عندما رآها بكل طولها وجمالها الأخاذ. كانت بشرتها شاحبة بشكل درامي. رغم أنها لم تتجاوز الثامنة عشرة إلا أن مشيتها رائعة، وتتحرك كأنها سفينة فوق بحرٍ رائق برأسٍ مرفوع فوق عنقها الطويل والرشيقي. كانت الفترة الصباحية الرسمية لها قد انتهت، وما زالت في ثياب الحداد البيضاء.

سارت أليسون ماكي وبيير أو موند دو غيز خلفها.

انحنى جيمس بشدة، ولكن ماري توجهت نحوه على الفور، وقبّلته:

«أنت ذكي يا جيمس»، قالت له. «كيف عرفت أنني في سان ديزيه؟»

«تطلبت مني موافاتك بعض الوقت»، قال مبتسماً.

جلست ماري على كرسي، وطلبت منهم جميعاً الجلوس، ثم قالت: «أخبروني أن عودتي إلى إسكتلندا ستكون أشبه بإشراقه شمس جديدة ومشرفة ستُبدد سُحب الغليان الديني فوق البلاد».

«أفترض إذاً أنك تحدثتِ إلى جون ليزلي».

هذا ما كان نيد يخاف منه. لقد وصل ليزلي إليها قبلهما، وقال لها كلاماً أثار حماسها.

«أنتَ تعرف كل شيء!» قالت ماري. من الواضح أنها كانت تكن التقدير لأخيها. «قال لي إنني لو أبحرت إلى أبردين فسيجهز جيشاً قوامه عشرون ألف رجل ليرافقني إلى إدنبره، وأطيح بالبرلمان البروتستانتي، وأعيد بريق المجد المسيحي».

«أنتِ لم تصدقي هذا، صحيح؟» قال جيمس.

كانت أكبر مخاوف نيد أن تصدق ماري ما قيل لها، وبدأ يتكون لديه انطباع أن ماري شخص سريع التأثير. كانت مشيتها وقوامها ملكيين إلا أنها، وحتى الآن، لم توح بامتلاكها تلك الحكمة المُشككة بكل شيء، التي تعد من السمات الأساسية لمشاهير الملوك.

تجاهلت ماري بمرح سؤال جيمس وقالت: «عندما أعود إلى إسكتلندا سأجعل منك رئيس الأساقفة».

تفاجأ جميع الحاضرين في الغرفة. لم يكن بوسعها بصفتها ملكة إسكتلندا، تعيين الأساقفة على عكس ملوك فرنسا الذين يملكون السلطة لفعل هذا.

ولكن جيمس وضع أمام خطتها هذه عقبة: «أنا لست كاثوليكياً».

«يجب أن تصبح كاثوليكياً»، قالت ماري بابتهاج.

قاوم جيمس سلوكها المرح، وقال برزانة: «حضرت لأطلب منك أن تصبحي بروتستانتية».

تجهم وجه نيد فلم تكن هذه المهمة التي أتى من أجلها.

كان جواب ماري حازماً: «أنا كاثوليكية وعائلتي كذلك. لا يمكنني أن أغير هذا».

رأى نيد أن بيير أوماً برأسه موافقاً. لم يكن هناك أدنى شك بأن فكرة تحول أحد أفراد عائلة غيز إلى البروتستانتية قد ملأته بالرعب.

«إن لم تصبحي بروتستانتية فهل يمكنك أن تصبحي متسامحة دينياً؟ سيمنحك البروتستانتيون ولاءهم إن تركتهم يعبدون بحرية»، قال جيمس. لم يُحب نيد هذه المحاججة التي أدلى بها جيمس، لأنّ مهمتهما كانت إقناع ماري بالبقاء في فرنسا.

بدا بيير مضطرباً أيضاً ولكن لسبب مختلف. لقد كانت فكرة التسامح الديني شيئاً بغيضاً بالنسبة إلى أي كاثوليكي متشدد. «وهل سيُعامل البروتستانتيون الكاثوليكين بنفس التسامح؟» سألت ماري جيمس.

تحدث نيد لأول مرة: «بالطبع لا. لأن الاحتفال بالقداس في إسكتلندا قد أصبح جريمة الآن». «أنت على خطأ يا سيد ويلارد»، خالفه بيير. «إن القداس ليس جريمة». «لقد مرر البرلمان الإسكتلندي القانون».

«ربما يكون البرلمان الذي يعمل وفق دستور خاص به، قد أقرّ بمشروع القانون»، جادل بيير. «ولكن الملكة فقط من يمكنها تحويل مشروع القانون إلى قانون، وجمالة الملكة ماري لم تُعطِ موافقتها الملكة». «نظرياً أنت على حق»، اعترف نيد. «ولكن لا أريد أن تكون جلالتهام مضملة حيال درجة التسامح السائدة في إسكتلندا».

«وباسم من تتكلم يا سيد ويلارد؟» سأل بيير. بدا بيير كأنه تكهن أنّ نيد أكثر من مجرد سكرتير. لم يُجب نيد على سؤاله، وتحدث بشكل مباشر إلى ماري.

«هنا في فرنسا يا صاحبة الجلالة أنت دوقة، ولديك أراضي وأموال ودعم أقرباء أغنياء وأقوياء، ولكن في إسكتلندا فما ينتظرك هو الصراع». «في فرنسا أنا أرملة ملك أما في إسكتلندا أنا ملكة»، قالت ماري. رأى نيد أنّه كان يفشل في إقناعها.

«ما رأي الملكة إليزابيث يا سيد ويلارد بعودة جمالة الملكة ماري إلى إسكتلندا؟» سأله بيير.

كان سؤالاً مخادعاً. إن أجب نيد إجابة العارف، فسيكشف نفسه كمبعوث من طرف إليزابيث، ولهذا تظاهر بالجهل. «نحن الإسكتلنديين نعلم ما نسمعه فقط. ولا تنس أنك هنا في رام، أقرب إلى لندن مما لو كنت في إدنبره».

لم تكن محاولة تشتيت اهتمام بيير بطرح مسألة المسافة ناجحة، وسأل بيير: «وما الذي تسمعونه أنتم الإسكتلنديين؟».

أجاب نيد بحذر: «ما من ملك يحب أن يسمع أن شخصاً آخر يطالب بالعرش الذي يجلس عليه، ومن الواضح أن الملكة إليزابيث شعرت بالضيق عندما أطلق الملك فرانسيس والملكة ماري على نفسيهما لقب ملكي إنكلترا وإيرلندا بالإضافة إلى فرنسا وإسكتلندا. ولكن فهمنا بأن إليزابيث تؤمن بقوة في حق ماري بحكم إسكتلندا، وهي لن تقف في طريقها».

لم يكن ما قاله نيد صحيحاً. لقد كانت إليزابيث ممزقة بين إيمانها الأيديولوجي بأحقية الميراث الملكي، وخوفها من ماري كغريمة لها على العرش. ولهذا السبب أرادت من ماري أن تبقى في فرنسا بكل هدوء. في أغلب الظن كان بيير على دراية بهذا، ولكنه تظاهر بأنه يأخذ نيد على محمل الجدية.

«من الجيد سماع هذا»، قال بيير. «لأن الإسكتلنديين يحبون ملكتهم». والتفت إلى ماري ثم قال: «وسيستقبلونها بالتهليل والمشاعل». ابتسمت ماري وقالت: «أجل، سيفعلون». فكر نيد في نفسه: «يا لك من غبية مسكينة».

بدأ جيمس يتحدث، كان يريد أن يقول بلباقة ما فكر فيه نيد بصراحة، ولكن ماري قاطعته: «إن الوقت منتصف النهار. فلتناول الغداء، ويمكننا أن نكمل حديثنا». ثم وقفت وفعلت البقية مثلها.

علم نيد أنه فشل في مهمته، ولكنه قام بمحاولة أخيرة: «يا صاحبة الجلالة أعتقد أن فكرة عودتك إلى إسكتلندا ليست حكيمة».

«حقاً؟» قالت ماري بطريقة ملكية. «ولكنني سأعود».

بقي بيير في إقليم شامبانيا لبقية العام التالي، ولكنه كره هذا فهو لم يكن

يتمتع بسُلطة في الريف. كانت عائلة غيز قد خسرت كل نفوذها في البلاط، والملكة كاترينا تحافظ على السلام بين الكاثوليكين والبروتستانتين، ولا يسعه القيام بشيء حيال هذا وهو بعيد عن باريس ما يقارب المئة ميل. علاوة على هذا، لم يكن يحب البقاء قريباً من مسقط رأسه حيث يعرف الناس أصله الوضيع.

في أواخر شهر شباط/ فبراير، وعندما انطلق الدوق ذو الندبتين من مركزه في مقاطعة جوانفيل متوجهاً إلى العاصمة، انضم إليه بيير بحماس، فقد كانت هذه فرصته للانخراط في اللعبة مجدداً.

بدأت الرحلة على طُرقٍ ترابية ضيقة وسط حقول محروثة حديثاً، ومزارع كرمه شتوية عارية من الأوراق. كان يوماً مشمساً وبارداً. اصطحب ذو الندبتين معه مئتي جندي، وعلى رأسهم غاستون لوبان، وقد حمل بعض هؤلاء الجنود سيوفاً طويلة أنيقة تُدعى بالسيوف ذات الحدين. لم يرتدوا زياً موحداً، ولكن العديد منهم ارتدى الأحمر والأصفر: وهما اللونان الرسميان للدوق. كانوا يبدون كجيش غازي.

قضى ذو الندبتين الليلة الأخيرة من شهر شباط/ فبراير في قرية دومارتان. وانضم إليه هناك أخوه الكاردينال لويس المُلقب بالكاردينال الثمل بسبب حُبه للنبيذ. ازداد حجم القوات المسلحة عندما انضم رجال لويس المسلحين بالبنادق ذات المواسير الطويلة التي تسمى أحياناً بالخُطاف لأن لها شكل حرف (L). كانت أسلحة خفيفة على عكس بنادق المُسكيت التي تُحمل على الأكتاف، وتحتاج إلى دعامة تثبتها بالأرض.

انطلقوا باكراً في اليوم التالي، أي في الأول من شهر آذار/ مارس الذي يصادف يوم أحد. كان عليهم أن يوافقوا سرية من الفرسان الأشداء في بلدة فاسي. بحلول الوقت الذي سيصل فيه ذو الندبتين إلى باريس، سيكون لديه ما يكفي من الجنود لمواجهة أيّ حركة يقوم بها أعداؤه.

كانت فاسي بلدة صغيرة تقع على نهر بليز، حيث تتوزع دكاكين الحدادة في الضواحي وتنتشر الطواحين على طول ضفة النهر. أثناء اقتراب جيش غيز من البوابة الجنوبية للبلدة سمعوا صوت أجراس الكنيسة. إن سماع صوت أجراس الكنيسة في غير أوقاتها المعتادة يعني غالباً أنّ هناك متاعب

قادمة، وسأل ذو الندبتين أحد عابري السبيل عما يجري، فقال له الرجل: «إن البروتستانتين يستدعون جماعتهم لإقامة الصلاة».

احمرّ وجه ذي الندبتين من الغضب، وأصبح لون الندبتين على وجهه كامداً، وقال: «أجراس بروتستانتية؟ كيف حصلوا عليها؟».

بدا عابر السبيل مرتعباً، وقال: «لا أعرف يا سيدي».

إن هذا النوع من التحريض البروتستانتية يقود عادة إلى إشعال فتيل العصيان. رأى بيير أن الأمل بدأ يلوح في الأفق، فهذا الفعل قد يقود إلى حدث تحريضي.

«حتى إن أصبح مرسوم التسامح الديني قانوناً وهذا ما لن يحدث، يُفترض بهم أن يؤدوا طقوسهم الهرطقية بسرية، أين السرية في هذا؟».

لم يُجب الرجل، فلم يكن ذو الندبتين يُخاطبه بل يُعبر عن غضبه. وأدرك بيير أن ذا الندبتين غاضبٌ جداً. كانت ملكية بلدة فاسي تعود إلى ماري ستيوارت التي عادت إلى إسكتلندا، ولأنه كان خالها الأكبر فقد كان مسؤولاً عن ممتلكاتها. وبالتالي فإن هذه البلدة تقع في نطاق نفوذه.

أخذ بيير بصبّ النار على الزيت وقال: «لا بدّ أن البروتستانتين كغيرهم، يعلمون أنّ فخامتكم قادم إلى هنا صباح اليوم. إنّ هذا أشبه بإهانة شخصية مقصودة».

أصغى غاستون لوبان إلى الحديث. كان لوبان جندياً يؤمن بتجنب العنف قدر الممكن، وهذا يفسر سبب بقاءه على قيد الحياة وهو في الثالثة والثلاثين.

«يمكننا عدم المرور بالبلدة أيها الدوق. لا نريد أن نخاطر بخسارة رجال قبل الوصول إلى باريس. نحتاج إلى تقديم عرضٍ جيد لقوتنا هناك»، قال لوبان للدوق.

لم يُحب بيير هذه الحجّة فهمس للدوق: «لا يمكننا أن نغض النظر عن هذه الإهانة يا صاحب الفخامة. فهذا سيجعلنا نبدو ضعفاء».

«لا أنوي أن أبدو بمظهرٍ ضعيف»، قال ذو الندبتين بحماسة، وهمز حصانه.

رمى لوبان بيير بنظرة حاقدة، إلا أن جنوده كانوا قد لحقوا بالدوق ذي

الندبتين بلهفة، وقد ارتفعت معنوياتهم لدى تفكيرهم باحتمال وقوع معركة. قرر بيير أن يشجعهم بطريقة دبلوماسية، ولهذا تراجع وأخذ يتحدث إلى مجموعة من الرجال: «أشم رائحة غنيمة». فضحكوا جميعاً. لقد ذكرهم بيير بأنه عندما يقع عنف ما، فهناك غنيمة أيضاً.

ومع دخولهم إلى البلدة توقفت الأجراس.

«أرسل بطلب كاهن الأبرشية»، أمر الدوق.

تحرك المضيف ببطء في طريقه إلى مركز المدينة. وداخل فناء مسور كان هناك محكمة ملكية وقلعة وكنيسة، وفي ساحة السوق الواقعة غربي الكنيسة وجدوا سرية الفرسان بانتظارهم. كانت السرية مؤلفة من خمسين رجلاً، وقد أمسك كل رجل بلباس حصانين حربيين، وحصان آخر لحمل الأسلحة. سهلت الأحصنة الكبيرة، وتحركت في مكانها عندما شمّت رائحة القادمين الجدد.

طلب غاستون لوبان من جنود الدوق التراجع عن أحصنتهم في السوق شبه المسقوف. وكان رجال الكاردينال لويس ينتظرون في المقبرة التي تقع على الجانب الجنوبي من الكنيسة. دخل بعض الرجال إلى حانة سوان في الساحة لتناول فطور من اللحم المقدد والجعة.

حضر كاهن الأبرشية مهرولاً وفتات الخبز ما يزال عالقاً على رداءه الكهنوتي. وركض قائد القلعة بقربه.

«أخبراني الآن»، قال ذو الندبتين. «هل أفام البروتستانتيون طقوسهم المُجدفة في فاسي هذا الصباح؟»

«أجل»، قال الكاهن.

«لا يمكنني إيقافهم»، قال قائد القلعة. «فهم لا يصغون أبداً».

«إن مرسوم التسامح الديني الذي لم يُصادق عليه بعد، ينص على السماح لهم بإقامة هذه المراسم خارج البلدة»، قال ذو الندبتين.

«في الحقيقة أنهم ليسوا في البلدة»، قال قائد القلعة.

«أين هم إذًا؟»

«في ضواحي القلعة. وإن أردنا التحدث بشكل قانوني فإن ضواحي القلعة لا تعتبر جزءاً من البلدة. هذا ما يحتاجون به على الأقل».

«هذه مراوغة قانونية مثيرة للجدل»، علّق بيير.

«ولكن أين هم بالتحديد؟» سأل ذو الندبتين بنفاد صبر.

أشار قائد القلعة باتجاه المقبرة إلى حظيرة كبيرة مُهدّمة لها فتحات في السقف، وتقع قبالة حائط القلعة.

«هنا. هذه الحظيرة تقع ضمن حدود أرض القلعة».

«وهذا يعني أنّها حظيرتي!» قال ذو الندبتين بغضب. «لا يمكن السكوت عن هذا».

وجد بيير طريقة لتصعيد الموقف بقوله: «أيها الدوق يمنح مرسوم التسامح الديني الموظفين الملكيين الرسميين الحق بمراقبة التجمعات البروتستانتية. لذلك فأنت تملك الحق في التحقق من المراسم التي تجري هناك».

ومجدداً حاول لوبان تجنب الصراع: «إن هذا حتماً سيسبب متاعب لا داعي لها».

ولكن قائد القلعة أحبّ الفكرة: «ربما إن تحدثت إليهم أيها الدوق وجنودك خلفك فقد يخافون هذا، ويلتزمون بإطاعة القانون في المستقبل».

«أجل»، قال بيير. «إنه واجبك أيها الدوق».

أخذ لوبان يفرك أذنه المشوهة وكأنّها تحكه: «من الأفضل أن نترك الكلاب النائمة وشأنها».

أخذ الدوق يفكر بالنصيحتين المتضاربتين، وخاف بيير من أن تهدأ ثورة غضبه ويميل إلى نصيحة لوبان بتوخي الحذر، وعندها بدأ البروتستانتيون بالغناء.

كان غناء الكورس جزءاً من الطقوس الكاثوليكية الاعتيادية، إلا أن البروتستانتين أحبوا الغناء، ولهذا أخذوا يغنون المزامير بصوتٍ عالٍ وحماسي بالفرنسية. أتى صوت الغناء المرتفع لمئات الأصوات واضحاً عبر المقبرة ووصل ساحة السوق. احتدم سخط ذي الندبتين وقال: «يعتقدون أنهم كهنة».

«إنّ وقاحتهم لا تحتمل»، قال بيير.

«إنّها كذلك حقاً»، قال ذو الندبتين. «سأخبرهم بهذا».

«في هذه الحالة دعني أذهب أولاً مع بعض الجنود لأخبرهم بقدمك. إن كانوا يفهمون أنك تملك الحق بالتحدث إليهم، وأظهروا استعداداً للإصغاء إليك في سلام فستجنب سفك الدماء»، قال لوبان. «حسناً»، قال ذو الندبتين.

أشار لوبان إلى جنديين يحملان سيفين من النوع المزدوج النصل قائلاً: «راستو... بروكار، الحقا بي».

تعرف بيير على الجنديين اللذين ساقاه عبر شوارع باريس من حانة سان إتييه إلى قصر عائلة غيز. لقد مضت أربع سنوات على الحادثة، إلا أنه لم ينس الإذلال الذي تعرض له. وابتسم عندما فكر بأن مكانته الآن أعلى بكثير من مكانة هذين السفاحين. كم تغيرت حياته! عبروا المقبرة، ورافقهم بيير.

«لم أطلب منك أن ترافقني»، تمتم لوبان.

«لم أسألك عما تريده»، أجابه بيير.

كانت الحظيرة عبارة عن مبنى متداع بجدران فقدت بعض ألواحها الخشبية وبابٍ مخلوع. وهناك كومة كبيرة من الحجارة المحطمة في الخارج، ومع اقترابهم من المكان أدركوا أن الجنود الذين يقفون خارج الكنيسة وفي المقبرة يراقبونهم بعناية.

انتهى المصلون من غناء المزامير، وحل صمت مطبق عندما وصلت المجموعة إلى باب الحظيرة.

طلب لوبان من مرافقيه أن يقفوا خلفه ثم فتح الباب.

كان في الداخل حوالي خمسمئة رجل وامرأة وطفل وجميعهم واقفون فلم يكن هناك مقاعد. وبالنظر إلى ثيابهم بدا واضحاً أن الأغنياء والفقراء اختلطوا بعضهم ببعض، على عكس ما يحدث في الكنيسة الكاثوليكية حيث عليّة القوم لهم مقاعد خاصة. وفي إحدى زوايا الحظيرة رأى بيير منبراً مرتجلاً من أجل العظة. وفيما كان بيير يحرق بالمنبر كان هناك قسيس يلقي العظة.

بعد مرور بعض الوقت لاحظ العديد من الرجال الواقفين عند الباب القادمين الجدد، وتحركوا لمنعهم من التقدم أكثر.

أخذ لوبان بضع خطوات إلى الوراء تجنباً لأيّ مواجهة مباشرة، وفعل

راستو وبروكار المثل، ثم قال لوبان معلناً: «إن الدوق غيز قادم للتحديث معكم، فلتجهزوا الأبرشية للقائه».

«صمتاً!» قال شاب بلحية سوداء. «القسيس موريل يلقي موعظة».

«حاذر»، حذّره لوبان. «إن الدوق غاضب لإقامتكم الطقوس بطريقة غير قانونية في حظيرته. أنصحكم بعدم إغضابه أكثر».

«انتظر إلى أن ينتهي القسيس».

قال بيير بصوت عالٍ: «الدوق لا ينتظر أشخاصاً مثلكم».

نظر عدد أكبر من المصلين نحو الباب.

«لا يمكنك أن تدخل»، قال صاحب اللحية السوداء.

تقدم لوبان إلى الأمام، وبكل هدوء وإصرار اقترب من صاحب اللحية السوداء ثم قال بتأني: «سأدخل».

دفع الشاب بلوبان بعيداً وبقوة مفاجئة مما جعل لوبان يترنح خطوة إلى الوراء.

سمع بيير صرخات سخط تعلو من الجنود الذين يراقبون من ساحة السوق. ورأى من طرف عينه أنّ بعضهم بدأ يتحرك نحو المقبرة.

«لم يكن عليك أن تفعل هذا»، قال لوبان، وبسرعة مباغتة هاجم لوبان الشاب بقبضته وضربه على فكه. لم تؤمن لحية الشاب حماية جيدة له من هذه الضربة القوية، وسقط على الأرض.

«والآن»، قال لوبان. «سأدخل».

وما أثار استغراب وسعادة بيير في آنٍ معاً أنّ البروتستانتيين لم يتصرفوا بحس سليم عندما لم يسمحوا لهم بالمرور، وبدلاً من هذا بدؤوا يلتقطون الحجارة من الكومة. أدرك بيير أنّه كان مخطئاً في افتراضه بأن الكومة عندما رآها للوهلة الأولى، هي بقايا بناءٍ تمّ هدمه. راقبهم في عدم تصديق، وتساءل إن كانوا سيبدؤون قتالاً مع مئات الجنود؟

«ابتعدوا عن طريقي»، قال لوبان، وتقدم إلى الأمام.

بدأ البروتستانتيون برمي الحجارة.

تلقى لوبان الكثير من الضربات، وأصابه أحد الحجارة في رأسه فوق أرضاً. أمّا بيير، الذي لم يحمل سيفاً، فابتعد عن طريقهم.

زأر راستو وبروكار في غضب من هذا الاعتداء على قائدهما، فما كان منهما إلا أن سحبا سيفيهما وتقدما إلى الأمام.

أخذ البروتستانتيون يرمون الحجارة مرة أخرى، وأصيب الجنديان بوابل من الحجارة، وقد جرح بعضها خد راستو، وهو أكبر الجنديين عمراً ولأ يملك أنفاً. أما بروكار فقد أصيب في ركبته، وسقط أرضاً. خرج المزيد من الرجال من الكنيسة لالتقاط الحجارة.

اندفع راستو بسيفه إلى الأمام وجرحه ينزف على وجهه، وغرزه في بطن الشاب ذي اللحية السوداء. صرخ الرجل بشكل رهيب من شدة الألم. كان النصل النحيل قد اخترق جسده، وخرجت النهاية المدببة من الجانب الآخر. وتذكر بيير بشكل خاطف حديث راستو وبروكار عن القتال بالسيف في ذلك اليوم المشؤوم منذ أربع سنوات: «لا تهتم بإصابة القلب»، قال راستو. «قد لا تقتل طعنة في الأمعاء الرجل على الفور ولكنها ستشلّه حتماً. إنها مؤلمة جداً إلى درجة أنه لن يكون قادراً على التفكير بشيءٍ آخر». ثم ضحك وقتها. سحب راستو سيفه من بطن الرجل، وصدر صوتٌ كالمصّ جعل بيير يرغب بالتقيؤ. ثم بدأ البروتستانتيون، ستة أو سبعة رجال بمطاردة راستو وضربه بالحجارة، فراجع راستو في محاولة لحماية نفسه.

كان جنود الدوق الآن يركضون بأقصى سرعة عبر المقبرة، ويقفزون من فوق الأضرحة، ويسحبون أسلحتهم وهم يركضون، ويصرخون مطالبين بالانتقام لرفاقهم الذين سقطوا. كان رجال الكاردينال لويس يجهزون بنادقهم، وخرج المزيد من الرجال من الحظيرة بشجاعة انتحارية، والتقطوا حجارة، وبدؤوا برميها نحو الجنود المتقدمين.

رأى بيير أن لوبان بدأ يتعافى من الضربة التي تلقاها على رأسه ويحاول النهوض. تفادى حجرين طائرين بطريقة عرف معها بيير أن لوبان استعاد وعيه تماماً، ثم سحب سيفه.

شعر بيير بالصدمة عندما رأى لوبان يقوم بمحاولة أخرى لإيقاف حمام الدم. رفع لوبان سيفه عالياً وصرخ: «توقفوا! أنزلوا أسلحتكم! أغمدوا سيوفكم». لم يلقَ كلامه الاهتمام، ورمى أحدهم حجراً كبيراً نحوه فتفاداه، ومن ثم انخرط لوبان في القتال.

ارتاع بيير من السرعة والعنف اللذين هجم بهما لوبان. التمع نصل سيفه تحت الشمس وهو يطعن ويقطع ويضرب، وفي كل مرة يُحرك فيه ذراعه يسقط رجلٌ إما مشوهاً أو مقتولاً.

وصل بقية الجنود، وصرخ بيير مشجعاً القادمين الجدد: «اقتلوا المهرطقين! اقتلوا المُجدفين».

كانت المذبحة قد بدأت تكبر عندما وصل جيش الدوق شاقاً طريقه عبر المقبرة إلى الحظيرة، وبدأ بذبح الرجال والنساء والأطفال. رأى بيير روستو يهاجم امرأة شابة بوحشية مخيفة، ويطعن وجهها بخنجره مراراً وتكراراً.

لحق بيير بالجنود المسرعين، وحرص على أن يكون بعيداً عن الخط الأمامي بضع خطوات، فلم يكن يريد التضحية بحياته في معركة. في الداخل كان بضعة بروتستانتين يقاتلون بالسيوف والخناجر، رغم أن معظمهم لم يكن مسلحاً. صرخ مئات الناس من الرعب أو الألم. وخلال بضع دقائق تلطخت جدران الحظيرة بالدماء.

رأى بيير عند نهاية الحظيرة درجاً خشبياً يفضي إلى عليّة تُستخدم كمخزن للقش. كان الدرج مكتظاً بالناس، وبعضهم حمل أطفالاً. كانوا يحاولون الهروب من العليّة عبر الفتحات في السقف. عندما لاحظ هذا سمع صوت وابل من الرصاص، وسقط شخصان من السقف على أرضية الحظيرة. كان جنود الكاردينال لويس قد بدؤوا باستخدام أسلحتهم النارية.

استدار بيير، واندفع عبر الجنود الذين ما يزالون يتقدمون، وشق طريقه خارج الحظيرة ليرى بشكل أفضل.

كان البروتستانتون يهربون عبر السقف، وبعضهم يحاول شقّ طريقه للأسفل بينما قفز آخرون على سور القلعة. كان رجال الكاردينال المسلحون يطلقون النار على الهاربين. إن البنادق الخفيفة ذات تقنية الإطلاق العصرية سهلة الاستخدام، وإعادة حشوها سريعة، والنتيجة وابل مستمر من الرصاص الذي أسقط تقريباً جميع من غامر بالهرب عبر السقف.

نظر بيير عبر المقبرة إلى ساحة السوق. كان سكان البلدة يركضون في جميع الاتجاهات خائفين من صوت إطلاق النار، وفي الوقت عينه كان المزيد من الجنود الخارجين من حانة سوان قد وصل، وبعضهم ما زال يمضغ

طعام فظوره. كانت المعارك قد احتدمت فيما الجنود يحاولون منع سكان البلدة من إنقاذ البروتستانتين، وأحد رجال الخيالة ينفخ في بوقٍ لحشد رفاقه. انتهى الأمر بالسرعة التي بدأ فيها. خرج غاستون لوبان من الحظيرة مع القسيس وقد أحكم قبضة يده على السجين، ثم لحق بهما جنود آخرون. لم يعد هناك أناس يهربون من الفجوات في السقف، وتوقف الجنود المسلحون عن إطلاق النار. في ساحة السوق كان القادة يعيدون ترتيب رجالهم في فرق حتى يبقوا تحت السيطرة، ويطلبون من سكان البلدة العودة إلى منازلهم.

عندما نظر بيير إلى داخل الحظيرة رأى أن القتال قد انتهى. انحنى البروتستانتيون الذين ما زالوا قادرين على الحركة فوق من كانوا على الأرض في محاولة مساعدة الجرحى أو للبقاء على الموتى. تحولت الأرضية إلى بركة دماء، وبدلاً من الصراخ علت آهات الألم أو حشرات بكاء من الحزن.

لم يكن هذا ما أراده بيير فقط، بل وأفضل مما حلم به. أحصى ما يقارب خمسين قتيلاً بروتستانتياً، وأكثر من مئة جريح. كان معظمهم من الرجال العزل، والبعض الآخر من النساء والأطفال. وخلال بضعة أيام سيحتاج الخبر فرنسا. فكر بيير أنه ومنذ أربعة أعوام، كان سيُصاب بالرعب من هذه المذبحة أما اليوم فهو مسرور بها. كم تغير خلال هذه السنوات الأربع! كان من الصعب عليه أن يعرف إن كان الربّ راضياً عن هذا الجانب الجديد في شخصيته. بدأ خوفٌ مظلمٌ ومبهمٌ كلون الدم القاني على أرضية الحظيرة يتسلل إلى أعماق عقله. ولذلك سارع إلى قمع هذه الفكرة فقد كانت مشيئة الربّ أن يحدث ما حدث... إنها مشيئته من دون أدنى شك.

تخيل الكتيبات ذات الثماني صفحات تخرج بسرعة من المطابع البروتستانتية، وعلى الصفحة الأولى رسم مروع للمذبحة في الحظيرة. ستكون بلدة فاسي المغمورة موضوع آلاف العظات في جميع أنحاء أوروبا، وسيُشكل البروتستانتيون ميليشيات وسيقولون إنهم بأمان أكثر وهم مسلحون، في الحين الذي سيحشد فيه الكاثوليكيون كل قواهم لمواجهتهم. ستقع حرب أهلية... وهذا جُلُّ ما أراده بيير.

في حانة سان إيتيه وأمام صحنٍ من السمك المدخن وكأس من النبيذ، جلست سيلفي يائسةً.

هل سينتهي هذا العنف؟ كان معظم الفرنسيين - بروتستانتين وكاثوليكين - يريدون العيش في سلام مع جيرانهم، ولكن كان يجري إحباط كل محاولة للمصالحة على يد رجال من أمثال الأخوين غيز اللذين يعتبران الدين وسيلة للحصول على السلطة والثروة.

كان أكثر ما تحتاج إليه سيلفي وأصدقائها هو معرفة كمية المعلومات التي تعرفها السلطات عنهم. وكلما تسنت لها الفرصة ذهبت إلى أماكن كحانة سان إيتيه، وتحدثت مع الناس الذين عملوا على الإمساك بالمهرطقين، ومن كانوا أفراداً في ميليشيا المدينة، أو من عاشوا عائلة على عائلة غيز أو أي شخص له علاقة ببيير. حصلت على الكثير من المعلومات من ثرثرتهم، ولكنها كانت تحتاج إلى شخص متعاطف من الداخل.

رفعت سيلفي نظرها عن الطبق ورأت خادمة بيير نات تسير بكدمة على عينيها.

حيّت المرأتان بعضهما بعضاً بإيماءة من الرأس، ولكن على سيلفي الآن التصرف بشكل سريع: «تبدو الكدمة مؤلمة»، قالت لها سيلفي. «دعيني أشتري لك كأساً من النبيذ لتخفيف الألم».

وانخرطت نات في البكاء.

وضعت سيلفي ذراعها حول الفتاة، لم يكن تعاطف سيلفي مزيفاً فقد عانت هي ووالدتها من عنف غيلز الذي كان يضرب بكلتا قبضتيه.

«فلتهديني»، تمتت سيلفي.

أحضرت نادلة الحانة كأساً من نبيذ. أخذت نات جرعة كبيرة منه ثم قالت: «شكراً لك».

«ما الذي حدث لك؟».

«لقد ضربني بيير».

«هل يضرب أوديت أيضاً؟».

هزت نات رأسها بالنفي. «إنّه يخاف منها جداً فهي سترد له الضربة إن فعل».

كانت نات فتاة صغيرة ونحيلة في السادسة عشرة، ولم تكن قادرة على

ضرب رجل كما كانت سيلفي غير قادرة على مقاومة والدها عندما كانت في مثل عمرها. شعرت سيلفي بالغضب عندما تذكرت هذا.

«أشربي المزيد من النبيذ»، قالت سيلفي.

أخذت نات جرعة أخرى وقالت: «أكرهه».

خفق قلب سيلفي بسرعة. لقد كانت تنتظر فرصة كهذه منذ أكثر من عام. كانت متأكدة من أن الفرصة ستأتي، ولم يكن عليها سوى التحلي بالصبر لأن الجميع يكره بيير، وعاجلاً أم آجلاً سيخونه أحدهم.

وها هي الفرصة قد أتت أخيراً، ولكن عليها أن تتعامل معها بشكل صحيح. يجب ألا تبدو متلهفة أو صريحة جداً، ولكن عليها أن تخاطر أيضاً.

«أنت لست الوحيدة التي تكره بيير»، قالت سيلفي بحذر. «يقولون إنه الجاسوس الأساسي والمسؤول عن اضطهاد البروتستانتين». لم تكن المعلومة سرية فنصف باريس تعلم بهذا.

«هذا صحيح»، قالت نات. «لديه قائمة».

شعرت سيلفي فجأة بأنها لا تستطيع التنفس. بالطبع لديه قائمة ولكن ما الذي تعلمه نات عنها؟

«قائمة؟» قالت سيلفي بصوتٍ خفيض أقرب إلى الهمس. «كيف عرفت؟».

«لقد رأيتها، إنها عبارة عن دفتر أسود ممتلئ بالأسماء والعناوين».

كان الوقوع على هذه المعلومة أشبه بالوقوع على كنز، ولكن محاولة الإيقاع بالفتاة نات مسألة خطيرة، إلا أن الجائزة مغرية. قامت سيلفي بقرار سريع بالمخاطرة، وأخذت تتحدث مازحة مع نات: «إن أردت الانتقام منه سلمني الدفتر إلى البروتستانتين».

«سأفعل لو كانت لدي الشجاعة».

وفكرت سيلفي في نفسها: «هل حقاً ستفعلين؟ كيف سيسمح لك ضميرك بفعل هذا؟» ثم قالت لنات: «سيكون هذا مخالفاً لتعاليم الكنيسة. صحيح؟».

«أؤمن بالربّ»، قالت نات. «ولكن الربّ غير موجود في الكنيسة».

حبست سيلفي أنفاسها وقالت: «كيف يمكنك قول هذا؟».

«لقد ضاجعني كاهن الأبرشية عندما كنت في الحادية عشرة. لم يكن شعر عانتني قد ظهر حتى. هل كان الربّ هناك؟ لا أعتقد هذا».

أفرغت سيلفي كوبها ووضعتها على الطاولة ثم قالت: «لدي صديق سيدفع عشر قطع ذهبية إن تمكن من إلقاء نظرة على الدفتر». كان بإمكان سيلفي دفع المبلغ فقد كانت الأعمال مزدهرة، ولن تعارض والدتها إنفاق المال لهذا السبب.

اتسعت عينات وقالت: «عشر قطع ذهبية؟» كان هذا أكثر مما تجنيه في عام أو ربما أكثر.

هزت سيلفي رأسها وأضافت تبريراً أخلاقياً لهذا الدافع المالي: «يعتقد صديقي أنّ هذا من شأنه أن يُنقذ الكثير من الناس من الحرق حتى الموت». كانت نات مهتمة بالمال أكثر من اهتمامها بالتبرير الأخلاقي وقالت: «ولكن هل أنت جادة في أمر القطع النقدية الذهبية العشر؟».

«أوه، بالطبع». تظاهرت سيلفي وكأنها أدركت فجأة أن نات تتحدث بجدية: «ولكنك من كل بد... لا تستطيعين الحصول على الدفتر... هل يمكنك فعل هذا؟».

«أجل».

«أين هو؟».

«إنه في المنزل».

«أين في المنزل؟».

«في خزانة ملفات مقفلة».

«إن كانت الخزانة مقفلة كيف ستمكين من الحصول على الدفتر؟».

«يمكنني فتح الخزانة».

«كيف؟».

«بدبوس»، أجابت نات.

عقد بير كل آماله على اندلاع حرب أهلية. كان الكاثوليكيون، وبعد مرور عام على مذبحه فاسي التي قادها الدوق ذو الندبتين، على أبواب تحقيق النصر. حاصر ذو الندبتين أورليون - آخر معاقل البروتستانتين وحيث يتحصن غاسبار دي كوليني - مع بداية العام 1563. ويوم الخميس

في الثامن عشر من شهر شباط/ فبراير تفقد ذو الندبتين الدفاعات، وأعلن أن الهجوم الأخير سيُشن غداً.

كان بيير برفقته، وقد اجتاحه شعور بأن الانتصار الساحق بات مؤكداً. حلّ الغسق وعادوا إلى مراكزهم في قصر فاسلان. كان ذو الندبتين يرتدي صدّاراً أصفر ضارباً للبرتقالي مع قبعة تزينها ريشة بيضاء طويلة واضحة جداً وغير مناسبة لأرض المعركة إلا أنه كان يتوقع لقاء زوجته أنا الليلة، وسيكون ابنهما هنري الذي يبلغ الآن الثانية عشرة في القصر أيضاً. حرص بيير بشدة على الفوز بحظوة وريث الدوق في أول لقاء لهما منذ أربع سنوات وخلال المباراة التي أصيب فيها الملك هنري الثاني بجرح قاتل في عينه.

كان عليهم قطع نهر على عبارة تحملهم هم الثلاثة فقط. بقي بيير وذو الندبتين وغاستون لوبان في المؤخرة بينما نقل الآخرون في الحاشية الأحصنة إلى الضفة الأخرى.

«إذا، سمعت أن الملكة كاترينا تريد عقد السلام»، قال ذو الندبتين في رغبة ببدء حديث.

ضحك بيير باستهزاء: «ستريد عقد السلام إن كنت تخسر وليس وأنت تربح».

أوما ذو الندبتين برأسه وقال: «غداً سنسيطر على أورليون، ونؤمن نهر لوار، ومن هناك سنتوجه شمالاً إلى النورماندي، ونسحق بقايا الجيش البروتستانتية».

«وهذا ما تخاف منه كاترينا»، قال بيير. «عندما نغزو الريف ونسحق البروتستانتين، ستصبح أيها الدوق أقوى من ملك. ستحكم فرنسا». صمت بيير وقال مفكراً: «وسأكون ضمن دائرة مستشاريك الداخلية».

عندما وصلت الجياد بأمان إلى الضفة المقابلة والبعيدة صعد الرجال الثلاثة إلى العبارة.

«لم أسمع خبراً من الكادرينال شارل»، قال بيير. كان شارل في إيطاليا في مدينة ترينتو يحضر مجلساً دعا إليه البابا بيوس

الرابع..

«يتحدثون ويتحدثون ويتحدثون بينما نحن نوقف المهرطقين»، أجاب الدوق باحتقار.

تجراً بيير على مخالفته قائلاً: «نحتاج إلى ضمان موقف قوي من الكنيسة، أو ستتقوض انتصاراتنا على أيدي رجالٍ ضعفاء مدفوعين بأفكارٍ عن التسامح الديني والتنازل».

بدا الدوق مستغرقاً في التفكير. كان الدوق وأخوه قد اعتادا الإصغاء إلى بيير عندما يتكلم، فقد ثبت في مراتٍ عديدة أن لحكمه السياسي أهمية، وتوقفاً عن معاملته كأنه مُدعٍ وقح. كان التفكير بهذا يمنح بيير الشعور برضا عظيم. وعندما فتح ذو النديتين فاهه ليجيب على ما قاله بيير سمعوا صوت طليقة رصاص.

بدا صوت الطليقة كأنه قادم من ضفة النهر التي غادروها للتو. التفت بيير ولوبان معاً ورغم أن الوقت كان ليلاً فإن بيير رأى وبوضوح تام، خيال شخص على حافة الماء. كان الخيال لرجل ضئيل البنية في منتصف العشرينيات ببشرة داكنة وخصلة شعرٍ مدببة وسط جبهته. هرب الرجل بعد مرور دقيقة، ورأى بيير أنه كان يمسك مسدساً في يده.

وانهار الدوق ذو النديتين.

أطلق لوبان الشتائم وانحنى فوق الدوق.

اكتشف بيير أن الدوق تلقى رصاصة في ظهره. كانت الإصابة من هذه المسافة القريبة سهلة، وما ساعد على حدوث هذا ثياب الدوق الفاتحة اللون. «إنه على قيد الحياة»، قال لوبان ونظر مجدداً إلى الضفة، وتكهن بيير أن لوبان يحتسب المسافة التي سيخوضها في المياه، والiardات التي سيقطعها سباحة إلى الضفة ليمسك بمُطلق النار قبل أن يهرب. ثم سمع صوت حوافر، وأدركا أن الرجل قد ربط حصانه في مكان قريب، بينما كل مطاياهم قد أصبحت على الضفة الأخرى. لم يكن بوسع لوبان الإمساك به الآن. لقد تم التخطيط جيداً لهذه العملية.

صاح لوبان بالمسؤول عن توجيه العبارة: «إلى الأمام، بسرعة إلى الأمام!» وأخذ الرجل يجذف الطوف بنشاطٍ أكبر. لا بد أنه كان يخاف من أن يُتهم بأنه متورط في المؤامرة.

كان الجرح أسفل الكتف اليمنى، ومن المرجح أن الرصاصة لم تُصَب قلب الدوق. تضرَّج صدّاره البرتقالي بالدم وهذه إشارة جيدة، فبيير يعلم أن الرجل الميت لا يتزف. إلا أن الدوق قد لا يتعافى، فحتى الجروح السطحية يمكن أن تلتهب، وتسبب الحمى ثم الوفاة. كان بوسع بيير البكاء، فكيف سيتحملون خسارة قائدهم البطل وهم على أبواب تحقيق النصر في الحرب. وبينما اقتربت العبارة من الضفة انهال الرجال صارخين بوابل من الأسئلة. تجاهلهم بيير، فهو أيضاً لديه أسئلة. فما الذي قد يحدث إن توفي ذو الندبتين؟

سيصبح هنري الدوق وهو ما يزال في الثانية عشرة، أي بعمر الملك شارل التاسع. إنه صغير جداً على المشاركة في الحرب، وها هو الكاردينال شارل بعيد جداً، والكاردينال لويس غارق في الشمال. ستخسر عائلة غيز كل نفوذها بسرعة. كم هي مخيفة هشاشة القوة!

حارب بيير اليأس، وأجبر نفسه على التفكير بالقادم وبشكل منطقي. إن غدت عائلة غيز عاجزة فإن الملكة ستعقد سلاماً مع غاسبار دي كوليني، وسيتم إحياء مرسوم التسامح الديني... اللعنة عليها. وسيعود آل بوربون ومونتورانسي، وسيُسمح للبروتستانتين بغناء المزامير عالياً كما يحبون، وسينتهي كل شيء كفاف بيير من أجله خلال السنوات الخمس الماضية. ومرة أخرى، قمع بيير شعوره بالقنوط والعجز، وتساءل عما سيفعله إن حدث هذا. كانت أولويته هي الحفاظ على مكانته كمستشار أساسي للعائلة. حالما وصلت العبارة إلى الضفة أخذ بيير يلقي الأوامر. في أوقات الكوارث ينحو الناس الخائفون إلى إطاعة أيّ أحد يتصرف كأنه يعرف ما يفعله.

«يجب أن نأخذ الدوق إلى القصر بأقصى سرعة، ومن دون تعريضه للكثير من الاهتزاز على الطريق»، قال بيير. «فأيّ مطب قد يسبب له نزيفاً حتى الموت. نحتاج إلى لوح مسطح»، ونظر بيير حوله وفكر أنه لو تطلب الأمر فسيحطمون خشب الطوف الصغير. ثم رأى كوخاً قريباً، وأشار إلى مدخله. «اخلعوا الباب الأمامي للكوخ، وضعوا الدوق فوقه، وعندها يمكن لسته رجال حمله».

أطاعه الرجال، وسارعوا لتنفيذ ما طلبه بسعادة لأنّ أحداً ما أخبرهم بما عليهم فعله.

لم يكن من السهل إلقاء الأوامر على لوبان، ولهذا قدّم له بيير اقتراحات بدلاً من الأوامر: «أعتقد أنّ عليك أن تصعد العبارة مع رجلين وثلاثة أحصنة، وتقطع النهر وتلاحق القاتل. هل رأيت القاتل جيداً؟».

«بدا ضئيل البنية وببشرة داكنة، ويبدو كأنه في الخامسة والعشرين من العمر، ولديه خصلة شعر صغيرة فوق جبهته».

«وهذا ما رأيته أنا أيضاً».

«سألاحقه»، التفت لوبان نحو تابعيه وقال: «راستو... بروكار أريد أن تضعنا ثلاثة أحصنة على العبارة».

«أريد أفضل حصان»، قال بيير. «أي حصان هو الأسرع من بين جميع الأحصنة».

«حصان الدوق كانون ولكن لمّ تحتاجه؟ فأننا من عليه مطاردة القاتل».

«إن الأولوية شفاء الدوق من إصابته. سأتوجه إلى القصر أولاً من أجل الإرسال بطلب الطبيب».

فهم لوبان الأمر وقال: «حسناً».

ركب بيير الجواد ووكزه لينطلق. لم يكن خبيراً بالأحصنة، ولكن حصان الدوق كانون كان حيويّاً جداً. إلا أنه ولسوء الحظ كان متعباً بعد يوم طويل، ولذلك خضع منهكاً لإرادة بيير. أخذ الجواد يخبُّ، وحثّه بيير بحذر على العدو بسرعة.

وصل بيير إلى القصر خلال بضع دقائق، وقفز عن الحصان ثم ركض إلى الردهة.

«الدوق مصاب!» صرخ بيير. «سيصل قريباً. أرسلوا بطلب الأطباء الملكيين على الفور! ثمّ حضّروا للدوق سريراً في الطابق السفلي». واضطر إلى إعادة الأوامر أكثر من مرة على الخدم المصعوقين بهذا الخبر.

هرعت الدوقة أنا ديست عبر الدرج عندما سمعت حركة غير طبيعية في القصر. كانت زوجة ذي الندبتين امرأة إيطالية عادية وهي في الحادية والثلاثين من العمر. كان زوجها بالدوق زواجاً مرتباً، وكما هو حال رجال

الثروة والسلطة لم يكن الدوق مخلصاً لها إلا أنه كان مغرمًا بها، وهي أيضاً كانت مغرمة به.

وقف هنري الصغير خلفها. كان فتىً وسيماً بشعرٍ أشقرٍ مجعد. لم تتحدث الدوقة أنا إلى بيير سابقاً إلا أنها سمعت عنه، ولهذا كان من المهم أن يقدم نفسه أمامها كشخصية يمكن الوثوق بها والاعتماد عليها في هذه الكارثة. انحنى لها بيير وقال: «سيدتي وسيدي الصغير يؤسفني أن أخبركما أنّ الدوق مصاب».

بدا هنري مرعوباً، وتذكر بيير كيف اشتكى وهو في الثامنة من أنه صغير جداً على المشاركة في المبارزة. كان يملك روحاً مغواراً، وقد يكون خلفاً ناجحاً لوالده المقاتل، إلا أن اليوم الذي سيحدث فيه هذا لا يزال بعيداً.

«كيف؟ أين؟ من فعلها؟» قال الفتى في هلع. تجاهله بيير، وتحدث إلى والدته: «لقد أرسلت في طلب الأطباء الملكيين، وأمرت الخدم بتجهيز سرير هنا في الطابق الأرضي حتى لا يُحمل الدوق إلى الطابق العلوي».

«هل إصابته خطيرة؟» سأله الدوقة.

«لقد أصيب بطلقٍ ناري في ظهره، وكان ما يزال غائباً عن الوعي عندما تركته».

أطلقت الدوقة شهقةً إلا أنّها تمالكت نفسها: «أين هو؟ يجب أن أذهب إليه».

«سيصل إلى هنا بعد دقائق. أمرت الرجال بارتجال نقالة، يجب ألا يتعرض للاهتزاز».

«كيف حدث هذا؟ هل كان في معركة؟».

«لن يتلقى أبي طلقة في ظهره خلال أيّ معركة!» قال هنري.

«صمتاً»، قالت أمّه.

«أنتِ على حق أيها الأمير هنري»، قال بيير. «لم يتوان والدك عن مواجهة عدو في معركة. وأقول لك أنّ الأمر وراءه خائن». وأخبرهما بيير كيف أخفى القاتل نفسه، ثمّ أطلق النار حالما غادرت العبارة ضفة النهر. «أرسلت مجموعة من الرجال لملاحقة ذلك النذل».

«عندما نُمسك به يجب أن نسلخه حياً»، قال هنري باكياً.

ورأى بيير بشكل خاطف منفعة في كارثة موت ذي الندبتين، وقال بمكر: «أجل سيُسلخ... ولكن ليس قبل أن يخبرنا عن الشخص الذي أعطاه الأوامر بهذا. لا أتوقع أن يكون القاتل رجلاً مهماً لأنّ المجرم الحقيقي هو من أرسله ليقوم بهذا». وقبل أن يتمكن من قول اسم الشخص الذي فكر به نظقت الدوقة بالاسم في حقدٍ: «غاسبار دي كوليني».

وبموت أنطوان دي بوربون ووجود أخيه وراء القضبان، كان غاسبار المتهم الأول، ولكن الحقيقة ليست مهمة. سيصبح كوليني شخصية مكروهة إلا أنها مفيدة لعائلة غيز، وبخاصة على الفتى الصغير والتأثير الذي تعرض والده إلى إطلاق نار للتو. كانت خطة بيير تنضج في عقله بكل هدوء. عندما سمعوا صرخات من الخارج عرفوا أن الدوق قد وصل.

لزم بيير جانب الدوقة عندما أدخلوا الدوق ووضعوه على السرير. وفي كل مرة تعبر فيها الدوقة عن رغبة ما يعيد بيير ما قالته بصوت عالٍ وكأنه أمر لكي يوحى للجميع بأنه أصبح مساعدتها الأيمن. كانت الدوقة مضطربة جداً ولم تكن مهتمة بما يخطط له بيير، بل كانت سعيدة لأن هناك شخصاً يعرف ما يجب فعله يقف إلى جانبها.

استرد ذو الندبتين وعيه، وأصبح قادراً على التحدث إلى زوجته وابنه. وصل الأطباء وقالوا إن الجرح لا يبدو مميتاً، ولكن الجميع يعرف كيف أنّ مثل هذه الجروح قد تلتهب بشكلٍ خطير، ولهذا لم يسارع أحد للتهليل بهذا الخبر.

عاد غاستون لوبان ومرافقاه في منتصف الليل خالي الوفاض. أخذ بيير لوبان جانباً وقال له: «عاود البحث صباحاً، فما من معركة ستقع غداً، والدوق لن يتعافى الليلة. وهذا يعني أنّ لديك الكثير من الجنود لمساعدتك. انطلق باكراً، ووسع نطاق البحث. يجب أن تعثر على ذلك الرجل». هزّ لوبان رأسه موافقاً.

لازم بيير سرير الدوق طوال الليل، وعندما انبلج الفجر التقى بيير ولوبان في الردهة.

«إن أمسكت بالنذل سأكون المسؤول عن التحقيق، وقد وافقت الدوقة

على هذا». لم يكن هذا صحيحاً، إلا أن لوبان صدّقه. «اسجنه في مكان ما ثم وافني».

«حسناً»، قال لوبان.

ودعه بيير عندما انطلق مع راستو وبروكار. سيأخذون ما يحتاجونه من مساعدين وهم في طريقهم.

خلد بيير إلى النوم بعد هذا، فكان عليه أن يبقى يقظاً وحازماً في الأيام القليلة القادمة.

أيقظه لوبان في منتصف النهار وقال له في رضا: «لقد أمسكت به».

نهض بيير على الفور وسأله: «من هو؟».

«يقول إن اسمه جون دي بولترو، وهو نبيل من منطقة ميري».

«أنت لم تحضره إلى القصر؟».

«لا، فقد يحاول هنري الصغير قتله. إنه في منزل القسيس وهو مقيد

بالسلاسل».

ارتدى بيير ثيابه على الفور، وذهب مع لوبان إلى القرية المجاورة.

حالما وصل بيير وأصبح وحده مع بولترو: «هل غاسبار دي كوليني من

أمرك بقتل الدوق ذي الندبتين؟».

«أجل»، قال بولترو.

وسرعان ما بات واضحاً أنّ بولترو سيقول أيّ شيء. لقد قابل بيير هذا

النوع من المتوهمين قبلاً. ربما عمل بولترو جاسوساً للبروتستانتين، أو

ربما طُلب منه قتل ذي الندبتين. قد يكون كوليني، كما ادعى بولترو أحياناً،

أو أيّ قائد بروتستانت آخر، أو قد تكون الفكرة من بنات أفكار بولترو.

خلال فترة بعد الظهر من ذلك اليوم وعلى مدار الأيام القليلة التي تلت

تحدث بولترو بحداقة، وكان نصف ما قاله من صنع مخيلته، على الأغلب

من أجل إرضاء المحقق، أمّا النصف الآخر فقد كان تبجحاً حتى يبدو بشكل

أفضل. أخبر بيير في أحد الأيام بقصة متناقضة تماماً مع ما قاله في اليوم

التالي. لم يكن بالإمكان الوثوق بما يقوله، وهنا كانت المشكلة.

كتب بيير اعتراف بولترو بأنّ غاسبار دي كوليني قد دفع له ليغتال دوق

غيز، ووقع بولترو على الاعتراف.

في اليوم التالي أصيب الدوق بالحمى، وأخبره الأطباء بأن يجهز نفسه للقاء خالقه. أقام أخوه الكاردينال لويس الطقوس الأخيرة، وودع الدوق زوجته أنا وابنه الصغير هنري.

عندما خرجت الدوقة والدوق المستقبلي من غرفة المريض باكين قال بيير: «كوليني من قتل الدوق ذي الندبتين»، وعرض عليهما الاعتراف. كان رد الفعل الذي حصل عليه بيير منهما يفوق توقعاته. أخذت الدوقة تكيل السباب وتردد عبارة: «يجب أن يموت كوليني! يجب أن يموت كوليني». أخبرها بيير أن الملكة كاترينا تقدم اقتراحات لعقد السلام مع البروتستانتين، وسينجو كوليني من العقاب كجزء من الاتفاقية. عندما سمع هنري بهذا تملكته الهستيريا، وأخذ يصرخ بصوت صبياني عالٍ: «سأقتله! سأقتله بنفسي».

«أعتقد أنك ستفعل هذا أيها الأمير هنري»، قال بيير له. «وعندما تفعل هذا سأكون إلى جانبك».

في اليوم التالي مات الدوق ذو الندبتين. تكفل الكاردينال لويس بترتيبات الجنازة، إلا أنه لم يكن صاحباً من ثمالة بما يكفي للقيام بالكثير، ولهذا تولى بيير الأمور من دون أن تعترضه أي صعوبة، ورتب بمساعدة أنا جنازة فخمة. سُرسل جثمان الدوق إلى باريس أولاً حيث سيُدفن قلبه في كاتدرائية نوتردام، ثم سينتقل الكفن عبر البلد إلى منطقة شامانيا، وسيُدفن الجثمان في جونفيل. لا تحدث مثل هذه الجنازات المهيبة سوى للملوك. لا شك أن الملكة كاترينا ستُفضل مظاهر أقل بهرجة، ولكن بيير لم يأخذ مشورتها. لطالما تجنبت كاترينا النزاعات قدر الإمكان، وربما أدركت أن ذا الندبتين لن يكون مصدر أذى بعد الآن، حتى وإن حظي بجنازة ملكية.

لم تسر خطة بيير في تحويل كوليني إلى شخصية مكروهة بالسهولة التي أرادها. ومرة أخرى أثبتت كاترينا أنها أدهى من بيير. فقد أرسلت نسخة عن اعتراف بولترو إلى كوليني الذي كان قد تراجع إلى منطقة النورماندي البروتستانتية، وطالبته بردٍ على هذا الاعتراف. كانت تخطط مسبقاً لرد اعتباره، ولكن عائلة غيز لن تُسامح.

توجه بيير إلى باريس، وقبل وصول جثمان الدوق، من أجل الإشراف على الإجراءات الأخيرة. كان قد أرسل بولترو إلى هناك قبلاً، وسجنه في مبنى حكومي، يقع على الطرف الغربي من منطقة إيل دو لا ستييه. أصّر بيير على وضع حراسة مشددة عليه، فقد كان الكاثوليكيون المتشددون في باريس يعبدون ذا الندبتين، وإن أمسك الرعايا ببولترو فسيمزقونه شرّ تمزيق. وفيما كانت جثة الدوق في طريقها إلى باريس قَدَم كولينبي مذكرة ينكر فيها تورطه بالقتل، وأرسل نسخاً من المذكرة إلى كاترينا وإلى أطراف أخرى. كان دفاعه قوياً، واضطر بيير للاعتراف ضمناً أنّ دفاع كولينبي مقنع. كان غاسبار مهرطقاً، لكنه لم يكن أحمق، وإن كان قد خطط لقتل ذي الندبتين فكان سيختار رجلاً أفضل من بولترو المضطرب.

كان القسم الأخير من مذكرة غاسبار على وجه الخصوص خطيراً، فقد أشار في ذلك القسم إلى أن مسار العدالة الطبيعية يعطيه الحق بمواجهة مُتهمه في محكمة عادلة، والتمس من الملكة كاترينا ضمان سلامة بولترو وبقائه حياً حتى يتمكن من تقديم الدليل وأمام تحقيق رسمي.

كان إجراء تحقيق حيادي آخر شيء قد يريده بيير، وما زاد الطين بلة تراجع بولترو عن اعترافه وهو في المبنى الحكومي.

كان على بيير أن يتصرف بسرعة، لذلك توجه إلى المحكمة العليا التي تدعى ببرلمان باريس، وقدم اقتراحاً بمحاكمة بولترو على الفور. أشار إلى أن بقاء المجرم من دون عقاب كفيل بإطلاق أعمال شغب عندما يصل جثمان البطل إلى باريس، ووافق القضاة على اقتراحه.

وفي الساعات الأولى من الثامن عشر من شهر آذار/ مارس وصل جثمان الدوق إلى الضواحي الجنوبية من باريس، وأودع في الدير.

في صباح اليوم التالي وجدت المحكمة بولترو مذنباً، وحكمت بتقطيع أوصاله. نُفذ الحكم في ساحة غيف أمام حشدٍ يهلل بوحشية. ذهب بيير إلى هناك ليتأكد من موت بولترو الذي رُبط من ذراعيه ورجليه إلى أربعة جياذ تتحرك باتجاهات البوصلة الأربعة. نظرياً ستُخلع أطرافه من جذعه، وسيترك الجسد لينزف حتى الموت. ولكن الجلاد لم يكن قد أحكم ربط العُقد، ولذلك فُكّت الحبال. طلب بيير سيفاً، وبدأ الجلاد يقطع ذراعي

بولترو ورجليه بالسيف. أخذ الحشد يحثّ الجلاّد، وجرى الإعدام بطريقة غريبة. وفي مرحلة ما من نصف الساعة الذي استغرقه الأمر، توقف بولترو عن الصراخ، وفقد وعيه. وأخيراً قُطع رأسه بخصلة الشعر المميزة، وُثبت على عمود.

في اليوم التالي نُقل جثمان الدوق ذي الندبتين إلى المدينة.

راقبت سيلفي بالو موكب الجثمان، وشعرت بالتفاؤل.

دخل الجثمان باريس من بوابة سان ميشيل، جنوباً، وعبر منطقة الجامعة حيث يقع متجر سيلفي. بدأ الموكب الجنائزي باثنين وعشرين شخصاً في ثياب حداد بيضاء وهم يقرعون أجراساً صغيرة ويطلبون من المواطنين الحزاني أن يصلوا على روح بطلهم العظيم. ثم تقدم كهنة من جميع أبرشيات المدينة يحملون صلباناً، ولحق بهم مئتا شخص من نخبة المواطنين يحملون مشاعل تطلق دخاناً جنائزياً أسود اللون جعل السماء تبدو كالحبة. أما الجيوش التي حققت الكثير من الانتصارات بقيادة ذي الندبتين فقد كانت ممثلة بستة آلاف جندي يحملون راياتٍ مُنكسة، ويضربون على طبول مكبوبة، وتصدر صوتاً كصوت إطلاق نار قادم من بعيد. ثم تقدمت ميليشيا المدينة حاملة الأعلام السوداء المرفرفة مع رياح آذار/ مارس القادمة من النهر البارد.

اصطفت حشود الباريسيين المفجوعين بهذه الخسارة على طول الشوارع، إلا أن سيلفي تعلم أن بعضهم مسرور سراً مثلها بموت ذي الندبتين. وها هو القاتل بموته يحقق السلام، وإن يكن للوقت الراهن فقط. وخلال أيام ستلتقي الملكة كاترينا بغاسبار دي كوليني، ويناقشان مرسوماً جديداً للتسامح الديني.

لقد ازداد الاضطهاد خلال الحرب الأهلية رغم أن بعض البروتستانتين من دائرة معارف سيلفي تمتعوا ببعض الحماية. جلست سيلفي إلى مكتب ببير في أحد الأيام، عندما كان برفقة ذي الندبتين وأوديت تتناول العشاء مع صديقاتها، ونسخت كل كلمة في دفتره الصغير بينما نات تلاعب آلان الذي يبلغ من العمر عامين وغير قادر على الكلام وإفشاء سر زيارة سيلفي.

لم تعرف معظم الأسماء المدونة في الدفتر، فالعديد منها مزيف، لأنّ

البروتستانتين يعلمون أنّ بيير يتجسس عليهم، ولهذا كانوا يعطون أسماء وهمية ومعلومات مضللة أخرى. أطلقت سيلفي وأمها على نفسيهما اسم تيريز وجاكلين، ولم يخبرا أحداً بمتجرهما. لم يكن بوسع سيلفي معرفة أيّ من هذه الأسماء الغربية حقيقي وأيّ منها مزيف. ولكن الكثير من المذكورين في هذا الدفتر هم من أصدقائها وأفراد أبرشيتها. لقد تمّ تحذير هؤلاء الناس سراً، وبعضهم ترك الأبرشية خوفاً وارتد إلى الكاثوليكية، وهناك آخرون غيروا عناوينهم وأسماءهم، والعديد منهم غادر باريس وتوجه إلى مدنٍ أكثر تسامحاً. ولكن الأهم في هذا وعلى المدى الطويل، أن نأت أصبحت عضوة دائمة في أبرشية السقيفة فوق الإسطل، وهي تغني المزامير بصوتٍ عالٍ ومن دون لحن. فبعد أن حصلت على القطع النقدية العشر، تحدثت عن ترك عملها لدى بيير ولكن سيلفي أفنعتها بالبقاء والتجسس عليه لمصلحة البروتستانتين. عندما يسود الأمان فإنّ الأجواء تصبح مناسبة لبيع الكتب الممنوعة. سرّت سيلفي بالحمولة الجديدة التي أحضرها غيوم من جنيف. إن الفتى المسكين ما يزال مغرماً بسيلفي التي كانت تستلطفه وتشعر بالامتنان لوجوده بقربها، إلا أنها لم تكن قادرة على مبادلتة الحب. شعرت والدتها باليأس من رفضها لهذا الشريك المثالي، فغيوم رجل ذكي ومقتدر ويشاركها الانتماء الديني والمثل العليا نفسها، فما الذي تريده أكثر من هذا. وقفت سيلفي حائرة أمام هذا السؤال تماماً كما وقفت إيزابيل.

وأخيراً مرّ الجثمان الملفوف براية تحمل شعار عائلة غيز مسجى فوق عربة مدفع تجرها ستة جياذ بيضاء. لم تُصلّ سيلفي على روح ذي الندبتين بل شكرت الرّب على موته. وها هي سيلفي الآن تشعر بالأمل بحلول السلام والتسامح الديني في أرجاء فرنسا.

خلف الجثمان سارت الأرملة أنا في ثياب بيضاء مع وصيفاتها على كلا الجانبين، ثم تقدم فتى أشقر الشعر بهي الطلعة. إنه هنري وريث ذي الندبتين، وبجانبه سار رجل وسيم في الخامسة والعشرين بشعرٍ أشقر كثيف، ويرتدي صداراً أبيض وياقة فرائية كالحة اللون. شعرت سيلفي بالصدمة والقرف والرعب في آنٍ معاً عندما ميزت الرجل على يمين دوق غيز الجديد. كان بيير.

الفصل الثاني عشر

لم يزر بارني مكاناً حاراً كجزيرة إسبانيولا الكاريبية من قبل. في صيف عام 1563 كان بارني ما يزال قائد المدفعية على سفينة ذا هوك. وها قد مرّت ثلاثة أعوام على صعوده السفينة من أنتويرب، ولم يكن يرغب بشيء أكثر من الوصول إلى ميناء كومب. كان يتوق للعودة إلى الوطن ورؤية عائلته مجدداً، والغريب في الأمر أنه لم يكن غاضباً لتعرضه للخداع حتى ينضم إلى الطاقم. كانت الحياة في البحر خطيرة وقاسية معظم الأحيان، إلا أنها كانت مناسبة لبارني. فقد كان يحب الاستيقاظ صباحاً من دون أن يكون لديه أدنى فكرة عما يخبئه له اليوم. وشيئاً فشيئاً أخذ يشعر أنّ النهاية المحزنة لتجارة والدته قد جلبت له الخلاص.

كانت مشكلته الوحيدة أنّ الطاقم بأكمله من الذكور. لطالما أحبّ صحبة النساء، والنساء بدورهن اعتقدن أنه جذاب. لم يقم، كبقية طاقم البحارة، بمعاشرة العاهرات في الموانئ البحرية، اللواتي كُنَّ ينقلن أمراضاً مريعة لهم. كان يتوق إلى التنزه في أحد الشوارع مع فتاة إلى جانبه يغازلها، ويبحث عن فرصة مؤاتية لسرقة قبلة منها.

أبحرت سفينة ذا هوك من أنتويرب إلى إشبيلية ثم إلى جزر الكناري. وهناك حققوا أرباحاً من سلسلة الرحلات التي حملوا فيها السكاكين والبلاط الخزفي والملابس من إشبيلية إلى الجزيرة، والعودة ببراميل من نبيذ الكناري القوي. كانت تجارة آمنة ولم تكن خبرة بارني في المدفعية ضرورية رغم أنّه حرص دوماً على بقاء الأسلحة في جهوزية تامة. انخفض عدد أفراد الطاقم من خمسين إلى أربعين بحاراً بسبب الحوادث والأمراض التي كانت تعد من مخاطر الحياة الطبيعية في البحر، ولكن لم يمت أيُّ منهم في قتال.

قرر القبطان بكون أنّ تجارة العبيد تدرّ أموالاً أكثر، وعثر في تعريف⁽¹⁾ على قبطان برتغالي يدعى دوراتي. كان دوراتي مُلمّاً بطريق الساحل الأفريقي وكيفية عبور الأطلسي. وانتاب أفراد الطاقم الملل من هذه المغامرة الخطيرة وشعروا بأنهم أطلوا البقاء في البحر، ولهذا وعدهم بكون بالعودة إلى الديار بعد رحلة واحدة فقط، وبأنه سيمنحهم علاوة.

كانت تجارة العبيد هي التجارة الأكبر في أفريقيا الغربية، وقد اعتاد الملوك وشيوخ القبائل بيع سكان منطقتهم إلى التجار العرب الذين بدورهم يأخذون العبيد إلى سوق النخاسة في الشرق الأوسط، ولهذا السبب كان التجار الأوروبيون متطفلين على هذه التجارة المعروفة أصلاً.

اشترى بيبكون ثلاثمئة وعشرين رجلاً وامرأة وطفلاً من سيراليون، ثم توجهت السفينة غرباً عبر المحيط الأطلسي إلى منطقة كبيرة غير موجودة على الخريطة، وتدعى إسبانيا الجديدة.

لم يُحب الطاقم تجارة العبيد، فقد حُشر الضحايا المساكين في سجن وكُبلوا بالسلاسل وسط أوضاع قذرة. كان بوسع الجميع سماع الأطفال يبكون والنساء ينحن، كانوا يغنون أحياناً أغاني حزينة لرفع معنوياتهم إلا أن هذا أصبح أسوأ من البكاء والنواح. كما كان يموت أحدهم بين الفينة والأخرى، وترمى جثته من على ظهر السفينة ومن دون مراسم وداع.

«إنهم مجرد قطع»، هذا ما يجيب به بيبكون في كل مرة يشتكي فيها أحدهم من الوضع، ولكن القطيع لا يغني مرثيات.

اعتقد الأوروبيون الأوائل الذين عبروا الأطلسي أنهم وصلوا إلى الهند، ولهذا أطلقوا على هذه الجزر اسم جزر الهند الغربية. باتوا الآن يعرفون حق المعرفة أنّ ماجلان وإلكانو أبحرا إلى الجهة الأخرى من العالم، إلا أن الاسم التصق بالمكان.

كانت جزيرة إسبانيولا من بين جزر أخرى، هي الجزيرة الأكثر تطوراً، ولم يحظ سوى البعض منها بأسماء. كانت عاصمة إسبانيولا تدعى سانتو دومينغو، وهي أول مدينة أوروبية في إسبانيا الجديدة وتحوي على كاتدرائية

1- أكبر جزيرة في جزر الكناري وتقع بالقرب من الساحل الشمال الغربي من ساحل أفريقيا. (الترجمة)

أيضاً، ولكن لسوء حظ بارني لم يتمكن من رؤيتها. أشار القبطان دوراتي إلى طاقم سفينة ذا هوك بالإبحار بعيداً عن المدينة لأنّ التجارة التي تقوم بها السفينة لم تكن قانونية فيها. يحكم الملك الإسباني إسبانيولا، ولهذا يُمنع على التجار الإنكليز التجارة هناك. وأشار دوراتي على القبطان بكونه بالتوجه شمالاً وبعيداً قدر الإمكان عن يد القانون.

كانت مزارع السكر في حاجة ماسة إلى عمال. سمع بارني أنّ نصف الأوروبيين الذين أبحروا إلى الهند الغربية ماتوا خلال عامين، وأنّ معدلات الوفاة بين الأفارقة كانت بنفس السوء رغم أنهم كانوا أكثر مقاومة للأمراض، ولكن ليس لكل أمراض إسبانيا الجديدة. ولهذا السبب لم يتردد المزارعون في شراء العبيد من التجار الإنكليز غير الشرعيين، وفي اليوم الذي رست فيه سفينة ذا هوك قبالة بلدة صغيرة لا اسم لها باع بيبكون ثمانين عبداً، وقبض ثمنهم بالذهب واللاّليء والجلود.

اشترى مساعد القبطان جوناثان غرينلاند مؤونة من البلدة، وتمتع أفراد الطاقم بوجبة طعام طازجة لأول مرة منذ شهرين.

في صباح اليوم التالي وقف بارني في القسم الأوسط والمنخفض من ظهر السفينة يتحدث بحماس إلى جوناثان. ومن مكانهما كانا قادرين على رؤية معظم البلدة الصغيرة حيث رست السفينة قبالتها. كان هناك رصيف بحري يُفضي إلى شاطئ صغير ولاحت من البعيد ساحة. كانت جميع المباني خشبية باستثناء قصر صغير بُني من حجر الكلس وطُلي باللون الذهبي الكامد والمرجاني.

«لا أحبّ هذه التجارة غير الشرعية»، قال بارني لجوناثان بكل هدوء. «فقد ينتهي بنا المطاف في سجن إسباني، ومن يعلم متى قد نخرج منه».

«وسيحصل هذا كله من أجل لا شيء»، قال جوناثان. لم يكن أفراد طاقم السفينة يتلقون حصة من أرباح التجارة العادية، بل كانوا يعتمدون على غنائم السفن التي يتم الاستيلاء عليها فقط، وشعر جوناثان بالخيبة لأنّ الرحلة كانت هادئة.

بينما كان بارني وجوناثان يتحدثان خرج رجل في ثياب كهنوتية سوداء من الباب الرئيسي للقصر، وبدا رجلاً مهماً. عبر الرجل الساحة ووصل إلى

الشاطيء، وسار على طول الرصيف البحري. عندما وصل إلى سلم السفينة تردد ثم صعد وعبر ظهر السفينة متوجهاً نحو بارني وجوناثان.

«يجب أن أتحدث مع قائدكما»، قال الرجل بالإسبانية.

أجاب بارني بالإسبانية أيضاً: «القبطان سيكون في قمرة. من تكون؟». بدا الرجل كأنه شعر بالإهانة من هذا الاستجواب: «الأب إغناسيو، وأحمل رسالة من دون ألفونسو».

تكهن بارني أن الدون ألفونسو ممثل السلطة المحلي وأن إغناسيو سكرتيره: «أعطني الرسالة وسأحرص على إيصالها إلى القبطان». «يطلب الدون ألفونسو من قبطانك الحضور لرؤيته على الفور».

حرص بارني على تجنب الإساءة إلى السلطات المحلية، ولهذا تظاهر أنه لم ينتبه إلى سلوك إغناسيو المتعجرف، وقال بلطف: «إن كانت هذه رسالة الدون ألفونسو، فأنا واثق من أن القبطان سيحضر. انتظر قليلاً حتى أذهب للبحث عنه».

توجه بارني إلى قمرة بيكون. كان القبطان في ملابسه يتناول موزاً مقلباً وخبزاً طازجاً. سلمه بارني الرسالة.

«يمكنك أن ترافقني»، قال بيكون. «إن لغتك الإسبانية أفضل من لغتي». بعد مرور عدة دقائق نزلوا ثلاثتهم عن السفينة وتوجهوا إلى الرصيف البحري. شعر بارني بحرارة الشمس المشرقة على وجهه، وعرف أن طقس اليوم سيكون حاراً جداً. لاحقاً بإغناسيو إلى الشاطيء، وباهتمام واضح حدق نحوهم عدد من سكان البلدة الذين استيقظوا باكراً. بدا واضحاً أن الغرباء هنا نادرون جداً، ومثار عجب أيضاً.

وفيما كانوا يعبرون الساحة المغبرة وقعت عينا بارني على فتاة في فستانٍ أصفر. كانت فتاة أفريقية خلّاسية، إلا أنها أنيقة جداً لتكون عبدة. كانت تجر برميلاً صغيراً من مدخل المنزل إلى عربة تقف بالانتظار ثم رفعت عينيها باتجاه الزوار. التقت عيناها بعيني بارني في نظرة جريئة، وتفاجأ بارني عندما اكتشف أن عينيها زرقاوان.

جاهد بارني ليحول اهتمامه بها إلى الاهتمام بالقصر. كان هناك حارسان مسلحان يراقبان بصمتٍ وقد ضيقا أعينهما بفعل وهج الشمس، ولاحقاً

بنظرهما بارني ويكُون وهما يلحقان بإغناسيو عبر البوابة. شعر بارني كأنه مجرم وهذا ما كان عليه في الحقيقة، وتساءل إن كان سيخرج من المكان بنفس السهولة التي دخل بها.

كان القصر في الداخل بارداً بسقوفٍ عالية وأرضيات حجرية، والجدران مغطاة ببلاط ذي لونٍ أزرق زاهٍ وأصفر ذهبي وعرف بارني أنه من عمل مصانع الخزف في إشبيلية. قادهما إغناسيو عبر درجٍ عريض، وطلب منهما الجلوس على مقعد خشبي. أدرك بارني أن صاحب القصر شخصٌ متعجرف، وأن الناس لا يزورونه كل يوم. أجبرهما على الانتظار ليبرهن لهما أنه قادر على جعلهما ينتظران. ورأى بارني في هذا إشارة جيدة. فالمرء لن يكلف نفسه مشقة الاستخفاف بأحد إن كان قادراً على رميه في السجن. بعد مرور ربع ساعة ظهر إغناسيو مجدداً وقال: «الدون ألفونسو سيقابلكما الآن». وأشار إلى غرفةٍ رحبة بنوافذ طويلة مغلقة.

كان ألفونسو رجلاً بديناً في حوالي الخمسين من عمره بشعرٍ رمادي مائل إلى اللون الفضي وعينين زرقاوين. وقد جلس على كرسي يبدو مصنوعاً خصيصاً له ويناسب محيط خصره. كان هناك عكازان متينان على الطاولة بجانبه، وهذا يعني أنه لا يستطيع المشي من دون مساعدة. كان ألفونسو يقرأ مجموعة من الأوراق، وفكر بارني أنه يقوم بهذا للاستعراض فقط. وقف بارني مع بيكون وإغناسيو بانتظار أن يبدأ ألفونسو بالكلام. أحس بارني أن بيكون بدأ يغضب فقد أثرت به هذه المعاملة الوقحة، ولكن بارني أوصاه بالحفاظ على هدوئه.

في النهاية رفع ألفونسو نظره نحوهما وقال: «كنتم تُتاجرون بطريقة غير شرعية».

كان هذا ما خاف منه بارني.

ترجم بارني الكلام لبيكون الذي قال: «إن حاول اعتقالي فستدمر سفينة ذا هوك بلدته عن بكرة أبيها».

كان في كلام بيكون مبالغة، فالمدافع على السفينة من النوع الصغير والقذائف الصغيرة لا يمكنها أن تُدمر بيتاً بُني بشكلٍ جيد. كانت قذائف صغيرة ولم تكن قادرة حتى على إغراق سفينة ما لم يحالفهم حظ خارق.

كانت القذائف التي يصل وزنها إلى أربع باوندات مصممة لتعطيل سفن العدو من خلال تدمير صواريخها وحبالها، وقتل أو تثبيط معنويات الطاقم، وبالتالي تجريد القبطان من أي قدرة على السيطرة. وبالمثل يمكن لسفينة ذا هوك أن تلحق نفس القدر من التدمير المزعج على ساحة البلدة الصغيرة. تمهل بارني باحثاً عن طريقة أكثر لطفاً لصياغة جواب سيكون ثمّ قال لألفونسو بالإسبانية: «يقترح القبطان سيكون أن ترسل رسالة إلى طاقمه تخبرهم فيها إنّه محتجز بطريقة قانونية حتى لا يفتحوا نار مدافع السفينة على بلدتك بدافع الغضب».

«لم يكن هذا ما قاله»، من الواضح أن ألفونسو يفهم القليل من الإنكليزية. «كان هذا ما عناه».

«اسأله عن المبلغ الذي يحتاجه كرشوة»، قال بيكون بنفاد صبرٍ.

ومجدداً ترجم بارني الكلام بطريقة أكثر لباقة: «يسأل القبطان إن كان بالإمكان شراء رخصة للتجارة هنا؟».

حلّ صمّتٌ قصير، وتساءل بارني إن كان ألفونسو سيرفض غاضباً، ويسجنهم بتهمة الفساد والتجارة غير الشرعية.

«ستدفعون لي خمس قطع ذهبية مقابل كل عبد»، قال الرجل السمين.

وشكر بارني السماء في سره.

كان السعر مرتفعاً، ولكنه منطقي. تتألف القطعة النقدية الذهبية الإسبانية من ثمن أونصة ذهبية.

«لا يمكنني أن أدفع أكثر من قطعة واحدة»، أجاب بيكون.

«ثلاثة».

«حسناً اتفقنا».

«هناك شيءٍ آخر».

«اللعنة»، تتمم بيكون وقال: «لقد وافقت بسهولة، وها هو الآن سيطلب

كلفة إضافية».

«لن يدفع القبطان بيكون المزيد»، قال بارني بالإسبانية.

«يجب أن تُهدد بهدم المدينة»، قال ألفونسو.

«ماذا؟» لم يتوقع بارني مثل هذا الطلب.

«إن وجهت لي السلطات في سانتو دومينكو تهمة السماح بتجارة غير شرعية سيكون دفاعي أنني اضطررت إلى هذا لإنقاذ المدينة من غضب القراصنة الإنكليز البرابرة».

ترجم بارني الكلام وقال سيكون: «حسناً».

«أريد أن يكون التهديد مكتوباً».

هزّ بيكون رأسه موافقاً وعبس بارني. لم يُحب فكرة وجود اعتراف خطي بجريمة حتى وإن كانت جريمة حقيقية، ولكن لم يكن هناك مفر من الأمر.

فُتح الباب ودخلت الفتاة ذات الثوب الأصفر. حدّق إغناسيو نحوها دون اهتمام وابتسم ألفونسو بحب. عبرت الغرفة باتجاه كرسيه بكل أريحية وكانت من أفراد العائلة، وقبلته على جبهته.

«ابنة أخي بيلا»، قال ألفونسو.

تكهن بارني أنّ كلمة «ابنة أخ» تورية لكلمة «ابنة غير شرعية»، ويبدو أن ألفونسو أنجب طفلة من عبدة جميلة. تذكر ما قاله إيرما: «يُستغل العبيد جنسياً على الدوام».

كانت بيلا تحمل زجاجة وضعتها على الطاولة إلى جانب العكازين.

«فكرت بأنك قد تحتاج بعض شراب الرُم»، قالت بإسبانية امرأة متعلمة مع لكنة خفيفة جداً لم يميزها بارني. حدّقت بيلا نحو بارني مباشرة، وأدرك أن لعينها لون الأزرق الفاتح كعيني ألفونسو. «اشربه في صحة وعافية»، قالت هذا وغادرت الغرفة.

«كانت أمّها امرأة حادة الطباع جداً فلترقد روحها في سلام»، قال ألفونسو في حنين، وصمت لبعض الوقت كأنه يعود بذاكرته إلى الماضي ثمّ قال: «يجب أن تشتري من شراب الرُم الذي تصنعه بيلا إنّه الأفضل. فلنجره معاً».

بدأ بارني يسترخي. كان الجو قد بدأ يتغير تماماً، فهم لم يعودوا خصوصاً بل شركاء.

أحضر السكرتير ثلاث كؤوس من خزانة الأواني، وفتح سداة الزجاجة ثم سكب بكميات كبيرة لبقية الرجال، وشربوا جميعاً. كان شراب الرُم جيداً جداً، حريفاً إلا أنه سلسٌ مع وخزة خفيفة عند بلعه.

«أسعدني العمل معك أيها الدون ألفونسو»، قال بيكون.
ابتسم ألفونسو وقال: «أعتقد أنك بعث ثمانين عبداً».
بدأ بارني يقدم عذراً: «حسناً لم نكن على علم بالمنع...».
تجاهله ألفونسو: «إذاً، هذا يعني أنك تدين لي بمبلغ مئتين وأربعين قطعة
ذهبية. يمكنك دفع الحساب هنا والآن».

تجهم بيكون وقال: «إن الأمر صعبٌ قليلاً...».
قاطعه ألفونسو قبل أن يتسنى لبارني ترجمة ما قاله بيكون: «حصلت على
أربعة آلاف قطعة ذهبية ثمناً للعبيد».

تفاجأ بارني فلم يعلم أن بيكون حصل على هذا القدر من المال. لقد
تكتم القبطان على الأمر.

«يمكنك أن تدفع لي مئتين وأربعين قطعة ذهبية الآن».
كان الرجل على حق. تناول بيكون محفظته الثقيلة، وعدّ المال بمشقة. كان
في معظمه عملات كبيرة تدعى دويلون، وكل قطعة تحوي على ربع أونصة من
الذهب، وبالتالي تساوي قطعتين ذهبيتين. كثر بيكون وجهه في عدم ارتياح،
وكأنه يعاني من ألم في المعدة. لقد ألمه جداً دفع هذه الرشوة الكبيرة.
تفقد إغناسيو المبلغ، وأوماً برأسه لألفونسو.
وقف بيكون يستعد للمغادرة.

«أريد رسالة التهديد قبل أن تبيع المزيد من العبيد»، قال ألفونسو.
هزّ بيكون كتفيه بلا مبالاة، وجفل بارني فقد كان يعرف أن السلوك
الجلف يُزعج الإسبانين الذين يحبون الإجراءات الشكلية. لم يرغب بارني
أن يفسد بيكون كل شيء بياهاته لألفونسو قبل مغادرتهم. كانوا ما يزالون
تحت حكم القانون الإسباني، وقال بتهذيب: «شكراً لك يا دون ألفونسو
على حسن استقبالنا، ونحن ممتنون لصنيعك معنا».

أوماً ألفونسو إيداناً لهما بالانصراف، وقادهما إغناسيو إلى الخارج.
شعر بارني الآن بشعور أفضل رغم أنه لم يكن واثقاً من أنهما بأمان
تماماً، ولكنه أراد أن يرى بيلا مجدداً. تساءل إن كانت متزوجة أو مخطوبة.
وتكهن أنها في العشرين من العمر أو ربما أقل، ولكن السود يبدو أصغر
عمرًا دومًا. كان يتوق لمعرفة المزيد عنها.

عندما وصلا إلى الساحة قال بارني لبيكون: «نحتاج إلى شراب الرُم على السفينة. يكاد مخزوننا ينفد. هل أشتري برميلاً من تلك المرأة... ابنة أخيه بيلا».

لم يُخدع القبطان بهذا الكلام: «فلتذهب ولتداعب الشابة اللقطة». توجه بيكون عائداً إلى سفينة هوك، بينما توجه بارني إلى مدخل المنزل الذي رأى بيلا تظهر قبالة. كان منزلاً خشبياً يشبه تصميم منزل كارلوس كروز في إشبيلية مع قنطرة رئيسية تُفضي إلى ورشة عمل في الفناء. إنه الشكل التقليدي لبيوت أصحاب المهن.

اشتم بارني الرائحة الترابية لدبس قصب السكر، ودبس قصب السكر الأسود المرّ الذي يتم تصنيعه بعد غلي قصب السكر مرتين، ويستخدم بشكل أساسي لصناعة الرُم. تكهن بارني أن مصدر الرائحة هو البراميل الهائلة المصفوفة على طول أحد جوانب الفناء، أما على الجانب الآخر فقد كان هناك براميل أصغر وزجاجات مصفوفة من أجل الرُم على الأرجح. انتهى الفناء ببستان صغير من شجر الليمون الحامض.

في وسط المكان حوضان كبيران. أحدهما يصل عمقه حتى الخصر، ومصنوع من ألواح خشبية مشدودة بعضها إلى بعض، ومليء بمزيج لزج يحركه رجلٌ أفريقي بمجداف خشبي كبير. كان للشراب المُخمّر رائحة خميرة الخبز، وحزر بارني أنّه حوض التخمير. بجانب الحوض رجلٌ فوق نار مع غطاءٍ مخروطي وميزاب طويل يقطر منه سائل أسود في دلو. تكهن بارني أنّهم يقطرون الشراب المخمر في هذا المرجل لصنع الشراب الكحولي.

كانت بيلا تقف فوق الدلو تشمّه. راقبها بارني وأعجب بتركيزها. بدت رشيقة وقوية برجلين وذراعين قوية من حمل البراميل من دون أدنى شك. وهناك على جبهتها العالية، سمة ذكرته بإبرما، وبدافعٍ ما أخذ يتحدث معها بالماندانية: «كيف حالك؟».

قفزت من هول المفاجأة، والتفتت حولها. بدا أنها استعادت رباطة جأشها، وأخذت تتحدث بالماندانية بسرعة.

أجابها بارني بالإسبانية: «أنا آسف، فأنا لا أتكلم اللغة الماندانية، ولكنني تعلمت بعض الكلمات من صديق».

«كانت والدتي تتحدث الماندانية»، أجابت بيلا بالإسبانية وتابعت:
«والدتي متوفاة. لقد أخفتني».
«أسف».

أمعنت النظر إليه وقالت: «لا يكلف الكثير من الأوروبيين أنفسهم مشقة معرفة بضع كلمات من أي لغة أفريقية».

«نصحنا والدي أن نتعلم قدر الإمكان من أي لغة تصادفنا. يقول إن هذا أفضل من وجود مالٍ في البنك».

«هل أنت إسباني؟ لا تبدو كواحد منهم فشر لحيتك أحمر».
«إنكليزي».

«لم ألتق بإنكليزي من قبل». رفعت الدلو بمساعدة ركبته وأخذت
تشمه، ثم سكبت المحتويات على الأرض.

«هل هناك خطب ما في الرُّم؟».

«يجب التخلص من دفعة التقطير الأولى. إنها سامة. يمكنك أن
تستخدمها في تنظيف الأحذية، ولكن عاجلاً أم آجلاً سيقوم أحد الحمقى
بشربه فيقتل نفسه ولهذا السبب أتخلص منه». لمست بطرف إصبعها النجيل
الميزاب وشمته: «هذا أفضل». ثم وضعت برميلاً فارغاً تحت الميزاب،
وعادت بانتباهها إلى بارني. «هل تريد شراء بعض الرُّم؟».

«أجل، من فضلك».

«رافقتي. أريد أن أريك أفضل طريقة لشربه».

قادته إلى الزاوية القصية من الفناء. قطفت بعض الليمون الحامض
وناولته إياه. راقبها بارني مسحوراً. كانت حركاتها رشيقة وجميلة. توقفت
عن قطف الليمون عندما نظرت إلى يده، وأحصت ما يُقارب اثنتي عشرة
ثمرة، ثم قالت بعد أن نظرت عن كئيب أكثر: «لديك يدان كبيرتان ولكنهما
مشوهتان. ما الذي حدث لهما؟».

«علامات حروق»، قال لها. «كنت أعمل في المدفعية مع الجيش
الإسباني. أنا أشبه بالطباخ الذي يُصاب بالحروق البسيطة على الدوام».
«يا للخسارة»، قالت له. «إن هذا يجعل من منظر يديك قبيحاً».
ابتسم بارني. كانت وقحة، ولكنه أحب هذا.

لحق بها إلى داخل المنزل. كانت أرضية غرفة المعيشة من الطين المعجون، والأثاث مصنوع منزلياً، إلا أن زهور الجهنمية والوسائد الملونة أضفت ألقاً إلى المكان. لم يكن هناك أي دليل على أنها متزوجة فلا أثر لحذاء في الزاوية، ولا لسيفٍ مُعلّق على خطاف، ولا قبعة بريشة طويلة. أشارت إلى كرسي خشبي بسيط، جلس عليه بارني.

أخذت بيلا كأسين طويلتين من خزانة الأواني. تفاجأ بارني فقد كان يعلم أنّ امتلاك الزجاج رفاهية مُكلفة، ولكنها كانت تباع الرُّم وطعم جميع المشروبات يغدو أفضل في الكؤوس الزجاجية.

أخذت ثمرات الليمون الحامض منه، وقطعت كل ثمرة إلى نصفين ثمّ عصرتها في إبريق فخاري. كانت تعلم أنّه يحرق بها ولم تُمانع هذا. وضعت في كل كأس مقدار إنش من الرُّم، وخلطته بملعقة من السكر ثمّ ملأت الكأسين بعصير الليمون.

تناول بارني الكأس وشرب. كان ألد مشروب يتذوقه في حياته. «يا إلهي!» قال لها. «إنّها حقاً أفضل طريقة لشرب الرُّم».

«هل أرسل بعض الرُّم إلى سفينة ذا هوك بعد ظهر اليوم؟. يصل سعر أفضل نوع لدي إلى نصف قطعة ذهبية لبرميل سعته أربعة وثلاثون غالوناً». كان السعر رخيصاً، وفكر بارني بأنّ سعره يعادل سعر الجعة في كينغزبريدج. يعود السبب غالباً إلى أن دبس قصب السكر رخيص على هذه الجزيرة المشهورة بزراعتها.

«أرسلني برميلين»، قال لها.
«اتفقنا».

تجرّع بارني المزيد من هذا المشروب اللذيذ، وسألها: «كيف بدأت العمل في هذا المجال؟».

«عندما كانت والدتي تحتضر عرض عليها الدون ألفونسو تنفيذ أي شيء ترغب به. طلبت منه أن يمنحني حريتي، ويزودني بوسيلة لكسب العيش». «وهذه الوسيلة التي فكرت بها».

ضحكت ضحكة كبيرة: «لا، اقترح عليها أن تعمل في الخياطة. كانت صناعة الرُّم فكرتي. وأنت، ما الذي جاء بك إلى إسبانيولا؟».

«كان الأمر حادثاً».

«حقاً؟».

«حسناً، سلسلة من الحوادث».

«كيف حدث هذا؟».

تذكر بارني سانشو في إشبيلية، وسفينة خوسيه وماريا، وجريمة قتل ذي القبضة الحديدية غوميز، والطوف في نهر ليبي، وعائلة ولمان في أنتويرب، وخديعة القبطان بيكون، ثم قال: «إنها قصة طويلة».

«أحبّ سماعها».

«وأحبّ إخبارك بها، ولكنهم يحتاجونني على ظهر السفينة».

«هل يعطيك القبطان إذناً بالمغادرة».

«في المساء عادةً».

«إن أعددت لكّ العشاء فهل ستخبرني بقصتك؟».

خفق قلب بارني بسرعة، وأجابها: «حسناً».

«الليلة؟».

«أجل». قال هذا، ونهض عن كرسيه.

تفاجأ عندما قبلته على شفثيه بسرعة وبنعومة وقالت له: «تعال عند مغيب

الشمس».

«هل تؤمنين بالحب من النظرة الأولى؟» سأل بارني بيلا بعد ثلاثة أسابيع.

«ربما، لا أعرف».

استلقيا على السرير في منزلها. كانت الشمس قد أشرقت للتو وبدأ أن صباح هذا اليوم الجديد دافئ، ولهذا دفعا بأغطية السرير بعيداً. ناما عاريتين فلم يكن هناك حاجة إلى ثياب النوم في هذا المناخ الحار.

لم تكن عينا بارني قد وقعتا قط على شيء بجمال جسد بيلا الخلاسي على غطاء قطني في ضوء الصباح. لم يملّ من النظر إليها، وهي لم تمنع هذا. «في اليوم الذي ذهبت فيه للتحدث مع الدون ألفونسو، ونظرت عبر الساحة ورأيتك تخرجين من المنزل وأنت تجرين برميلاً ثم رفعتِ نظرك

نحوي والتقت أعيننا، وقعت في غرامك وقتها من دون أن أعرف عنك شيئاً البتة».

«ربما كنت سأصبح ساحرة».

«بماذا فكرتِ عندما رأيتني أحرق بكِ؟».

«حسناً، لا يمكنني قول الكثير الآن فقد ازداد غرورك».

«هيا، فلتخاطري ولتخبريني».

«في تلك اللحظة لم أعد قادرة على التفكير. بدأ قلبي ينبض بسرعة، وبالكاد استطعت التقاط أنفاسي. قلت لنفسي إنك مجرد رجل أبيض بشعرٍ غريب اللون وقرط في أذنه، وليس هناك الكثير لأتحمس حياله. ثم نظرت بعيداً وكأنك بالكاد انتبهت إلي، وأدركت أنه ما من شيء يستدعي الحماس حياله».

كان بارني مغرمًا بها بشدة، وهي بدورها كانت مغرمة به جداً. كانا يعلمان بهذا، ولكن لم يكن لدى بارني أدنى فكرة عمّا سيقوم به حيال الأمر. كان سيكون قد باع معظم العبيد، ومن بقي منهم لم يكن مرغوباً به، فقد كانوا إما مرضى من الرحلة، أو من النساء الحوامل، أو الأطفال الذين أصيبوا بالهزال بعد افتراقهم عن ذويهم. كان سجن سفينة ذا هوك يكاد ينفجر من الذهب والسكر والجلود. عاجلاً ستغادر السفينة إلى أوروبا، ويبدو أن سيكون قد قرر أن يتجه إلى ميناء كومب هذه المرة حقاً.

هل سترافقه بيلا إلى الوطن؟ هذا يعني أن تتخلى عن كل شيء تعرفه بما في ذلك تجارتها الناجحة. خاف من طرح السؤال عليها فهو لا يعلم إن كان سيكون سيسمح بوجود امرأة على متن السفينة في رحلة العودة إلى المنزل. هل هذا يعني أن على بارني التخلي عن حياته القديمة، والاستقرار هنا في إسبانيولا؟ ما الذي سيفعله؟ يمكنه أن يساعد بيلا في توسيع تجارة الرُّم. يمكنه أن يصبح صاحب مزرعة قصب سكر رغم أنه لا يملك رأس مال لتمويل المشروع. كانت أمامه خطوة كبيرة ليأخذها ولم يمضِ على وجوده هنا سوى أقل من شهر إلا أنه كان يعرف أنه يريد قضاء حياته مع بيلا.

كان عليه أن يتحدث معها بخصوص المستقبل. شغلت هذه الأسئلة غير المطروحة رأسه ورأسها، ولهذا كانا عليهما مواجهتها.

عندما فتح فمه ليتحدث دخل جوناثان غرينلاندر.

«بارني»، قال جوناثان. «يجب أن تأتي على الفور!» ثم رأى بيلا وقال: «يا إلهي! إنها جميلة جداً».

كانت ملاحظة خرقاء من قبله، إلا أن لجمال بيلا هذا التأثير على رجل ذي ذكاء عادي كجوناثان حتى عندما تكون في كامل ثيابها. عبس بارني وقال: «اخرج من هنا! هذه غرفة سيدة».

أدار جوناثان ظهره ولكنه لم يغادر ثم قال: «آسف يا سيدتي، ولكن هناك حالة طارئة؟».

«حسناً»، قالت بيلا وهي تسحب الأغطية فوق جسدها. «ما هي الحالة الطارئة».

«هناك سفينة تقترب بسرعة».

قفز بارني من السرير وارتدى سرواله، ثم قال لبيلا وهو يتتعل حذاءه: «سأعود».

«كُن حذراً»، قالت له.

ركض بارني وجوناثان من المنزل وعبرا الساحة. كانت سفينة ذا هوك ترفع مرساتها، ومعظم أفراد الطاقم على سطح السفينة وعلى جبال الصارية ينشرون الأشرعة. كانت الجبال التي ربطت بالرصيف البحري قد فُكت، واضطر القادمان المتأخران إلى القفز مسافة ياردة للوصول إلى سطح السفينة. عندما استقر بارني على سطح السفينة بأمان، نظر إلى البحر ورأى على بعد ميل باتجاه الشرق سفينة شراعية إسبانية أخرجت مدافعها وتبحر بسرعة مع الريح باتجاههم. كان قد غفل طوال الأسابيع الثلاثة الماضية عن الخطر الذي قد يداهمه هو والطاقم، ولكن ها هي قوى النظام قد أتت.

استخدم الطاقم عصا طويلة لدفع السفينة بعيداً عن الرصيف البحري باتجاه المياه العميقة. وجه القبطان ليكون السفينة نحو الغرب وأفردت الريح الأشرعة.

كانت السفينة الشراعية تتحرك بسرعة، وهذا يعني أنها تحمل حمولة خفيفة أو لا تحمل شيئاً. كانت سفينة بأربع صوارٍ وأشعة كثيرة عجز بارني للوهلة الأولى عن عدها، وهذا ما منحها السرعة في الحركة. كان وسط

السفينة عريض ومؤخرتها عالية، وهذا يعني أنها تستطيع القيام باستدارة وإن لم تكن دقيقة تماماً، إلا أنها وفي مطاردة بخطٍ مستقيم، لن تفشل في الوصول إلى سفينة هوك.

سمع بارني ضربة بعيدة وعرف على الفور أنها ضربة مدفع. سُمع صوت تحطم أخشاب قريب، وصرخ رجال الطاقم في صدمة. مرّت قذيفة مدفعية على بعد ياردة من بارني ودمرت مقدمة السفينة ثم اختفت.

كانت قذيفة المدفع أكبر من قذائف سفينة ذا هوك التي يبلغ وزنها أربعة باوندات، وهذا يعني أن السفينة الشراعية تستخدم أسلحة ثقيلة. رغم هذا رأى بارني أنّ المسؤول عن مدفيعتهم قام بضربة حظ لأنه استطاع إصابة هدف ضمن نطاق ميل.

بعد مرور دقيقة بدأت سفينة ذا هوك تميل، وفقد بارني توازنه. وفجأة انتابه الخوف من أن تكون السفينة قد تضررت جداً وخرجت عن السيطرة، أو ربما بدأت تغرق. أخافته فكرة الموت في البحر ولكن هذا الشعور لم يدم سوى دقيقة. رأى القبطان بيكون يدبر الدفة نحو الشمال عن عمد، وأصبحت مقدمة السفينة في وجه الريح. وحلّ الارتباك الآن مكان الخوف. بدا واضحاً أن بيكون أدرك أنّه لا يستطيع مجاراة السفينة الإسبانية، ولكن ما هي خطته البديلة؟

«توقف عن التحديق أيها الأحق اللعين»، صرخ جوناثان نحو بارني. «ولتنزل إلى منصة المدافع حيث يجب أن تكون».

أدرك بارني أنّه على وشك اختبار أول معركة بحرية، وتساءل إن كانت أيضاً معركته الأخيرة. تمنى لو أنّه يستطيع العودة إلى الوطن لمرّة أخيرة قبل أن يموت.

عاش بارني تحت وابل القذائف قبل ذلك وشعر بالخوف، ولهذا يعرف كيف يتحكم بخوفه ويقوم بعمله.

توجه بارني أولاً إلى مطبخ السفينة الذي يقع في المقدمة. كان الطباخ ينزف بتأثير شظية، إلا أن المطبخ لم يُدمر تماماً، وتمكن بارني من إشعال شمعة رفيعة. سُمع صوت إطلاقٍ ثانٍ، وشعر بالتوتر منتظراً تأثير القذيفة وانتابه الفزع مجدداً، ولكن القذيفة أخفقت في الإصابة هذه المرّة.

في سجن السفينة أدرك من تبقى من العبيد ما يجري، وبدؤوا يصرخون هلعاً. كانوا خائفين من الموت وهم مكبلون على سفينة غارقة.

سُمع صوت إطلاق ثالث ولكن لم يحدث شيء، وتأكد بارني من أن تخمينه صحيح. كانت الضربة الأولى ضربة حظ. لا بد أن قائد المدفعية على السفينة الشراعية قام بنفس الحسابات التي قام فيها عند الضربة الأولى، وقرر أن يوفر الذخيرة من أجل فرص أفضل، ولم يُسمع صوت قذيفة رابعة. عاد بارني إلى وسط السفينة، وقد وضع كفه أمام الشمعة ليحمي اللهب. كان معظم الطاقم على السطح، أو على الحبال يعدلون الأشرعة وفقاً للأوامر التي يصرخ بها القبطان بيبكون. هرع بارني باتجاه الدرج ثم إلى الباب الذي يقود إلى القمرات السفلية، ونزل على السلم حاملاً شمعته الرفيعة.

كان الطاقم قد فتح منافذ المدافع وحلّ الحبال عن المدافع التي تُثبت عندما لا تكون قيد الاستخدام. يمكن لحاملات المدافع الآن أن تتحرك على عجلاتها وترتد بعد الإطلاق. يأخذ الرجال العقلانيون حذرهم جيداً ولا يتحركون حول منصة المدافع عند حلّ الحبال عنها، فإن وقف أحدهم وراء منصة مدفع في لحظة الإطلاق، فإن هذا كفيلاً بقتله أو بإعاقته.

كان إلى جانب كل مدفع صندوق يحوي على كل ما يحتاجه لإطلاق القذائف كدلو له غطاءً جلدي من أجل البارود، وكومة من الخرق للحشو، وفتائل بطيئة الاحتراق مصنوعة من حبل قطني مجدول ومنقوع بالملح الصخري، وغسول قلوي وأدوات من أجل حشو المدفع وتنظيفه بعد كل إطلاق ودلو ماء. كانت الذخيرة في خزانة كبيرة وسط سطح منصة المدافع وبجانبها البارود.

وقف رجلان إلى جانب كل مدفع. حمل أحدهما مغرفة طويلة لوضع الكمية المناسبة من البارود، وهي كمية يعادل وزنها وزن قذيفة، رغم أن الرجال الماهرين سيقومون بتعديلات بسيطة عندما يفهمون كيفية عمل السلاح. وقام الرجل الآخر بحشو المدفع بالخرق قبل وضع القذيفة. وخلال بضع دقائق كانت جميع المدافع على الميمنة محشوة وجاهزة. توجه بارني نحوها بشمعته، وأشعل الفتائل البطيئة الاحتراق. معظم الرجال

يقومون بلفّ حبل حول مذراة حتى عندما يكونون على مسافة آمنة من المدفع، عندما يضعون الشعلة في فتحة الإشعال.

نظر بارني من خلال فتحة المدفع في جسم السفينة، ورأى أن سفينة ذا هوك تسير مع التيار الهوائي البحري الشرقي القوي بمعدل ثماني إلى تسع عُقِد، أما السفينة الشراعية السريعة فقد أصبحت على بعد نصف ميل، وهي تتقدم بميمتها بشكل خطير.

انتظر بارني لأنه ومن هذا المدى، يمكنه إصابة السفينة الشراعية، وقد يُلحق بعض الضرر البسيط فيها، ولكنه لن يكون قد استخدم مدفعيته على أفضل شكل. اقتربت السفينة المهاجمة بمقدمتها من سفينة ذا هوك، وبهذا لم تعد قادرة على استخدام مدافعها القوية. سُمع صوت انفجارين وهذا يعني أنّ قائد المدفعية يجرب مدافعه الأمامية، ولكن عندما رأى بارني طرطشة المياه، عرف أنّ القذيفتين سقطتا في البحر ولم تُلحقا أذية. ولكن السفينة السريعة ستصل قريباً، وستستدير بالزاوية المناسبة لإطلاق قذائف من المدافع الأمامية، وعندها ستكون سفينة ذا هوك في ورطة. فقال بارني في نفسه: «ما هي خطة القبطان سيكون اللعينة؟ ربما لا يملك هذا العجوز الغبي أيّ خطة». وتابع بارني عمله في رعبٍ.

صرخ أحد رجال الطاقم ويدعى سيلاس بنفاد صبر: «هل نطلق النار يا سيدي؟».

أمسك بارني أعصابه بجهد، وقال: «ليس بعد». قال هذا بثقة أكبر مما يشعر بها حقاً. «فهم ما يزالون بعيدين جداً».

صرخ القبطان بكون من على ظهر السفينة: «لا تطلق النار يا قائد المدفعية!» من المستحيل أن يكون قد سمع سيلاس، ولكنه شعر بغريزته أنّ الطاقم على منصة الإطلاق يشعر بالتوتر.

وبينما اقتربت السفينة الشراعية أصبحت زاوية الإطلاق أفضل، فأطلقوا من على بعد ستمئة ياردة.

سُمع صوت دوي ورأوا دخاناً متصاعداً. تحركت القذيفة ببطء وكانت مرئية تماماً. رآها بارني تأخذ مساراً عالياً. قاوم بارني إغراء الانبطاح، وقبل أن تقترب القذيفة عرف أنها ستصيبهم، ولكن قائد مدفعية السفينة الإسبانية

وجه ضربة عالية قليلاً، وطارت القذيفة بين الأشرعة والجبال. سمع بارني صوت قماش وحبال تتقطع، ولكن يبدو أنها لم تُلحق ضرراً في جسم السفينة الخشبي.

كان بارني على وشك الرد، ولكنه تردد عندما سمع ببيكون يصرخ بسلسلة من الأوامر. ثم استدارت سفينة ذا هوك باتجاه الريح. ولبعض الوقت هبت الريح من الخلف، ولكن ببيكون تابع الانعطاف بدرجة مئة وثمانين درجة باتجاه الجنوب عائداً إلى الجزيرة. ومن دون أن يأمرهم أحد انتقل الطاقم إلى المدافع على الجهة الأخرى وقاموا بحشو المدافع الستة.

ولكن ما الذي كان يخطط له ببيكون؟

نظر بارني خارجاً ورأى أنّ السفينة الشراعية غيرت مسارها، وها هي مقدمتها تتمايل لتقطع المسار الجديد الذي أخذته سفينة ذا هوك، وفهم ما الذي كان يقوم به ببيكون؛ كان يقدم لبارني الهدف المثالي. وخلال بضع دقائق سيكون عَرَضُ سفينة ذا هوك قبالة مقدمة سفينة الأعداء، وعلى بعد ثلاثمئة ياردة. وعندها سيكون بارني قادراً على الهجوم بضربات متتالية، وسيوجه القذيفة تلو الأخرى إلى مقدمة السفينة الشراعية وسطحها بل وحتى مؤخرتها، وسيقع الضرر على الأشرعة والصواري والطاقم، ولكن هذا مرهون بقيامه بعمله على أكمل وجه.

كان مجال الهدف قريباً ولم يكن بحاجة إلى أوتاد لرفع مواشير المدافع، فهو يستطيع الإطلاق بشكلٍ مستقيم لأن مجالهم مثالي رغم أنه ضيق.

«الآن يا سيدي؟» قال سيلاس.

«لا»، أجاب بارني. «فلتبَقْ مستعداً وهادئاً».

انحنى بارني بالقرب من المدفع الأساسي، وحدّق من الفتحة في جسم السفينة يراقب الزاوية التي تقع فيها السفينة الشراعية، وخفق قلبه بسرعة. كان الأمر أسهل على اليابسة مما هو في البحر فالمدافع والهدف لن ترتفع وتنخفض مع حركة الموج.

بدا وكأن سفينة العدو تقوم بانعطاف بطيء. قاوم بارني إغراء إطلاق النار بشكلٍ مبكر جداً، وراقب صواري السفينة الأربع. سيقوم بإطلاق النار عندما يصبحون على خط مستقيم مع السفينة وحيث ستحجب الضربة الأولى

الضربات التالية. أو ربما سيضرب قبل هذا، ويعطي القذيفة وقتاً حتى تصل إلى هدفها.

«أنا جاهز عندما تكون جاهزاً يا سيدي!» قال سيلاس.

«استعد!» كانت الصواري على خط هدف مستقيم. «أطلق قذيفة الآن!» وربّت على كتف سيلاس.

وضع سيلاس طرف الجبل المشتعل على فوهة الإشعال في ماسورة المدفع. كان صوت الانفجار يصمّ الأذان في هذا المكان الضيق، وارتدّ المدفع إلى الوراء من قوة الضربة.

ألقي بارني نظرة إلى الخارج، ورأى القذيفة تدمر مقدمة السفينة الشراعية. علا صوت هتاف الطاقم على سفينة ذا هوك.

انتقل بارني إلى المدفع التالي، وربت على كتف الرجل: «أطلق».

كانت الضربة أعلى، وحطمت صواري السفينة الشراعية.

سمع بارني صوت تهليل كبير من على سطح السفينة. ثم تحرك باتجاه مؤخرة السفينة وعلى طول خط المدافع محاولاً التركيز على توقيت زمن الضربات بأجزاء من الثواني إلى أن ينتهي من إطلاق القذائف الست.

عاد بارني إلى المدفع الأول، وقد توقع أن يكون سيلاس قد لقم المدفع مجدداً، ولكنه تفاجأ برؤية سيلاس يصافح مساعده ويهتنان بعضهما بعضاً.

«أعد تلقيم المدفع!» صرخ بارني. «فالحنازير لم تمت بعد».

سارع سيلاس إلى التقاط أداة طويلة لها شفرة لولبية، واستخدمها لإخراج الحشوة المتبقية من ماسورة المدفع. كانت البقايا المحترقة تطلق شراراً. وطى سيلاس الجمر بقدمين حافيتين وخشتين، وبدا واضحاً أنه لم يشعر بأي ألم. ثم التقط مساعده عصا طويلة ملفوفة بالكثير من الخرق. غطسها في دلو الماء ثم وضعها داخل الماسورة لإخماد أي شرارات متبقية أو بقايا محترقة قد تُشعل الحشوة التالية من البارود قبل الأوان. سحب المساعد الإسفنجية، وساعدت حرارة الماسورة في تجفيف بقايا الماء على الفور. أعاد الرجلان تلقيم المدفع التنظيف.

نظر بارني خارجاً، كانت مقدمة السفينة الشراعية مثقوبة في مكانين والصاري الأمامي مائلاً. ولأن السفينة لم تكن تبعد عنهم سوى مئتي ياردة

سمع صراخ الجرحى وصيحات الرعب للناجين. رغم هذا كله لم تتعطل الحركة على السفينة، وحافظ قبطانها على رباطة جأشه.

شعر بارني باليأس من الوقت الذي أخذه طاقم المدفعية في تلقيم المدافع. كان يعرف من خبرته في المعارك أنّ وابلًا واحدًا من القذائف لا يضمن ربح المعركة، فالجيوش قد تتعافى من هذا الوابل، ولكن القذائف المتواصلة - الواحدة تلو الأخرى - تدمر القادة، وتُردي رفاقهم في السلاح، وتحبط المعنويات وتدفع الرجال إلى الهروب أو الاستسلام. كان كل شيء يعتمد على الاستمرار والتكرار. ولكن طاقم سفينة ذا هوك بحارة وليسوا جنود مدفعية، ولم يعلمهم أحد أهمية التلقيم السريع والمُنظم.

توجهت السفينة الشراعية بشكلٍ مستقيم نحو سفينة ذا هوك. لم يعد قبطانها راغباً بإطلاق النار من المدافع الأمامية، فقد كان يُفضل أسر السفينة، ومصادرة كنزها غير القانوني. استمروا بإطلاق النار من المدافع التي تقع في مقدمة السفينة، وأصابت بعض القذائف الحبال والصواري، إلا أن سفينة ذا هوك ضيقة، ومن السهل أن تخطئها القذائف. أدرك بارني الآن أن تكتيك السفينة الشراعية قد تغير إلى أسر سفينة ذا هوك والصعود على سطحها.

بحلول الوقت الذي أصبحت فيه مدافع سفينة ذا هوك جاهزة كانت السفينة الشراعية على بعد أقل من مئة ياردة عنهم. كانت أطول من سفينة ذا هوك، وأراد بارني أن يصيب ظهرها بدلاً من بدنها، ولهذا كان بحاجة إلى رفع المدافع عالياً قليلاً، وأخذ يركض على طول صف المدافع يُعدّل من وضعية الأوتاد.

شعر بارني بأن الدقائق التالية تمر ببطء. كانت السفينة الشراعية تتحرك بسرعة تسعة أو عشرة أميال ومقدمتها تشق عباب البحر رغم أنّها بدت كأنها تسير ببطء. اكتظ ظهر السفينة بالبحارة والجنود التواقين كما يبدو للعبور إلى سطح سفينة ذا هوك وقتل جميع من عليها. تابع سيلاس وبقية العاملين على المدفعية توزيع نظراتهم بين السفينة الشراعية وبارني وبالعكس، كانوا متحمسين لإشعال البارود.

«انتظروا أوامري!» صرخ بارني.

سيكون أيّ إطلاق سابق لأوانه أعظم هدية للعدو، وسيسمح له بالاقتراب فيما الطاقم يعيد تلقيم المدفعية.

وعندما أصبحت السفينة الشراعية على بعد مئة ياردة تماماً أمر بارني بإطلاق النار، فقد كان القبطان سيكون قد قدم له فرصة مثالية مجدداً. كانت السفينة الشراعية تتقدم بشكل مستقيم باتجاه مدافع سفينة ذا هوك، ولم يكن بارني ليخطئ ضمن مجال الإطلاق هذا. أمر بإطلاق قذائف المدافع الست بشكل متتالي ثم صرخ: «أعيدوا التلقيح».

نظر بارني إلى الخارج، ورأى أن إصابة القذائف كانت أكبر مما تخيل. ضربت إحدى القذائف الصاري الأساسي، ورآه يسقط إلى الأمام مدفوعاً بقوة الرياح. تباطأت حركة السفينة الشراعية عندما تداعت بعض أشرعتها، فقد سقط الصاري الأساسي على أشرعة الصاري الأمامي الذي بدأ يتداعى بدوره أيضاً. كانت السفينة الشراعية الآن تبعد خمسين ياردة عنهم، ولكنها ما تزال بعيدة، ولا يمكن لطاقتها الصعود على ظهر سفينة ذا هوك. كانت حركة السفينة قد تعطلت، ولكن بارني رأى أنها كانت تتقدم للاصطدام بسفينة ذا هوك، وهذا يعني أن رجالها سيصعدون بأي حال من الأحوال. ولكن القبطان سيكون تصرف بسرعة، وقام بتوجيه سفينة ذا هوك باتجاه حركة الرياح، وعبت الرياح الشرقية الأشرعة فازدادت سرعة السفينة، وخلال بضع دقائق كانت سفينة ذا هوك تتحرك سريعاً باتجاه الغرب، ولم يعد بوسع السفينة الشراعية المحطمة اللحاق بها الآن. فهل انتهى الأمر؟

توجه بارني إلى سطح السفينة وهلل له الطاقم. لقد انتصروا وهزموا سفينة أكبر وأسرع من سفينتهم. كان بارني بطلهم رغم أنه يعلم أن النصر في هذه المعركة يعود إلى مهارة سيكون، وإلى سرعة وخفة سفينته.

نظر بارني إلى الوراء، ورأى السفينة الشراعية تتقهقر عائدة إلى الميناء، وإسبانيولا أيضاً، تتقهقر إلى الوراء ومعها بيلا.

توجه بارني إلى سيكون عند دفة القيادة وسأله: «إلى أين ستوجه أيها القبطان؟».

«إلى الوطن»، قال سيكون. «إلى ميناء كومب». وعندما لم يقل بارني شيئاً أضاف سيكون: «أليس هذا ما كنت تريد؟».

نظر بارني ورائه إلى إسبانيولا وهي تختفي في وهج الشمس الكاريبية: «كنت أريده».

الفصل الثالث عشر

عندما تناولت مارجوري الممكنسة لتنظيف أرضية الكنيسة الصغيرة من أجل القداس كانت تعلم أنها تقترب جريمة خطيرة. لم يكن في بلدة ترينش الصغيرة كنيسة كبيرة، بل مجرد كنيسة صغيرة داخل قصر الإيرل سويذن الذي لم يكن يذهب إلى البلدة إلا فيما ندر، ولذلك كان القصر قذراً ورطباً ويحتاج إلى ترميم حقيقي. عندما انتهت مارجوري من تنظيف الأرضية فتحت نافذة ليدخل الهواء المنعش، وبدأ المكان، في ضوء الفجر يبدو كمكان مقدس.

وضع ستيفن لينكولن على المذبح شموعاً في شمعدانين لهما شكل صليب كان قد سرقهما من كاتدرائية كينغزبريدج إبان بداية حكم إليزابيث، وقبل أن يترك عمله فيها ككاهن. وضع على كتفيه رداءً كهنوتياً فخماً أنقذه من المحرقة البروتستانتية للثياب الكهنوتية. كان الرداء حريراً ملوناً ومطرزاً بشكل جميل بخيوط ذهبية وفضية. وصوّر التطريز على الرداء استشهاد القديس توماس بيكت مع أوراق خضراء، ولسبب ما كان محاطاً بالكثير من البيغاوات. أحضرت مارجوري كرسيّاً خشبياً من الردهة، وجلست تُحضّر نفسها للقداس.

لم يكن بالإمكان معرفة الوقت في قصر ترينش بسبب عدم وجود ساعات، إلا أنه كان بالإمكان رؤية سطوع الشمس. وبينما تسلك الضوء الضعيف لهذا الصباح الصيفي عبر النافذة الشرقية، ومنح حجارة الحائط الرمادية ألقاً ذهبياً، دخل سكان القرية إلى الكنيسة الصغيرة في مجموعات عائلية، وألقوا التحية على جيرانهم. وقف ستيفن وظهره للمصلين الذين حدقوا بدهشة إلى الصور الملونة على عباةته.

كانت ماري تعرف عدد سكان ترينش لأنّ البلدة جزء من ممتلكات الإيرل، وسُرّت عندما رأت أنّ جميع السكان قد حضروا، بمن فيهم كبار السن كالجدة هاربرو التي اضطروا إلى حملها إلى الكنيسة، وقد كانت الوحيدة التي جلست إلى جانب مارجوري في الأمام أثناء المراسم. بدأ ستيفن يصلي فأغمضت مارجوري عينها، وتركت وقع الكلمات اللاتينية المألوفة يخترق عقلها، وتنغمر روحها بالسكينة العظيمة والانسجام مع العالم والرّب.

عندما تسافر مارجوري مع زوجها بارت أحياناً، أو وحدها في أحيانٍ أخرى، عبر مقاطعة شايرنغ تتحدث إلى الناس حول مشاعرهم الدينية. أحبّها الرجال والنساء، وأحبوا التحدث معها بصراحة لأنّها امرأة شابة وغير خطيرة. ولتحقق غايتها استعانت مارجوري بالمسؤول عن أملاك الإيرل الذي كان يتلقى مالاً مقابل خدماته. يعلم المسؤول أنّ عائلة الإيرل من الكاثوليكين المتشددين، وإنّ عاملته مارجوري بلطفٍ فسيخبرها عن موقف القرويين. لم يكن هذا أمراً غريباً في مناطق فقيرة وبعيدة كبلدة ترينش حيث جميع القرويين من الكاثوليكين. وعندما تحصل على المعلومات التي تحتاجها تتوجه مع ستيفن لتجتمع بهم ولتحبي طقس المناولة.

كان ما تقوم به مارجوري يعد جريمة، إلا أنّها لم تكن مدركةً لمدى خطورة الأمر. خلال السنوات الخمس التي مضت على بداية حكم إليزابيث لم يُعدم أحد بتهمة اعتناق الكاثوليكية. يعتقد ستيفن وبناءً على أحاديث مع كهنة سابقين، أنّ مثل هذه المراسم السريّة شائعة، ولكن لم يكن هناك أيّ رد فعل رسمي أو حتى حملة للقضاء عليها.

يبدو أنّ الملكة إليزابيث قادرة على التسامح مع مثل هذه الأمور، وهذا ما كان نيد وويلارد يُلمح إليه كثيراً. يأتي نيد إلى كينغزبريدج مرة أو مرتين في العام، وعادة ما تراه مارجوري في الكاتدرائية، وتتحدث معه رغم أنّ وجهه وصوته يثيران في عقلها أفكاراً شريرة. قال لها إنّ إليزابيث غير مهتمة بمعاينة الكاثوليكين. وأضاف - كأنّه يحذرهما شخصياً - أنّ أيّ شخص سيتحدى سلطتها بوصفها رأس كنيسة إنكلترا أو يشكك بحقها في العرش، فإنّه سيلقى عقاباً قاسياً.

لم تكن مارجوري مهتمة بالمواقف السياسية أياً كان نوعها، إلا أنها لم تكن قادرة على الشعور بالأمان، وفكرت بأنها لا تستطيع ارتكاب خطأ أخذ استراحة من اليقظة؛ فالمملوك يغيرون آراءهم على الدوام.

ما زال الخوف حاضراً في حياتها كصوت جرسٍ بعيد يدعو إلى جنازة، ولكن هذا لم يمنعها من أداء واجبها. كانت سعيدة لأنها اختيرت مسؤولة عن رعاية الدين الحقيقي في مقاطعة شايرنغ، وقبلت بمخاطر المشاركة في هذه المهمة. وإن وقعت يوماً ما في المتاعب بسبب هذا فستجد القوة على التعامل معها، أو هذا ما ظنته.

هنا سيحمي المصلون أنفسهم بالذهاب في وقت لاحق من هذا الصباح إلى قرية مجاورة، حيث سيقوم قسيس بمراسم الصلاة وباستخدام كتاب صادقت عليه إليزابيث، وبنانجيل مترجم إلى الإنكليزية صادق عليه والدها المهترق الملك هنري الثامن. كان لزاماً على الجميع الذهاب إلى الصلاة؛ فغرامة عدم الذهاب إلى الكنيسة تصل إلى شيلنغ، ولم يكن بمقدور أحد في قرية ترينش دفع مثل هذا المبلغ.

كانت مارجوري أول من تلقى المناولة تشجيعاً منها للآخرين، ثم وقفت جانباً لمراقبة بقية المُصلّين. أضاءت وجوه الفلاحين المسفوعة بأشعة الشمس عند تلقيهم المناولة التي حُرِّموا منها لوقتٍ طويل. وأخيراً حملوا الجدة هاربور إلى المنصة وكأنها ستلقى مناولتها الأخيرة على الأرض. غمر الفرح وجه الجدة المتغضن. تخيلت مارجوري ما كانت تفكر به الجدة. لقد أنقذت مارجوري روحها، وهي الآن تشعر بالسلام وبأنها تستطيع الموت بسعادة.

كانت الكونتيسة الأرملة سوزانا بيرنوك مستلقية على السرير صباحاً عندما قالت: «كنت تزوجت منك يا نيد ويلارد لو كنتُ أصغر بعشرين عاماً. كنت سأفعل هذا حقاً».

كانت سوزانا في الخامسة والأربعين، وهي نسبة الإيرل سويذن. يعرفها نيد مُذ كان طفلاً، ولكنه لم يحلم أبداً بأن يكون عشيقها في يوم من الأيام. نامت بقربه ورأسها على صدره، وقد وضعت أحد فخذيها الممتلئين فوق

ركبته. كان يستطيع رؤية نفسه متزوجاً منها فقد كانت ذكية ومرحة وشبقة كهرة فهي تفعل في السرير أشياء لم يسمع بها من قبل، وتمارس معه ألعاباً لم يتخيلها قط. كانت تملك وجهاً شهوانياً وعينين بنيتين وثديين كبيرين طريين. وقد ساعده هذا على إشغال نفسه عن التفكير بأن مارجوري تضاجع بارت.

«ولكنها ستكون فكرة مريعة، فلقد تخطيت العمر الذي أستطيع فيه إنجاب الأطفال. يمكنني أن أساعد أيّ شاب في انطلاقته، ولكن السير وليم سيسيل مُرشدك، ولهذا لا تحتاج إلى مساعدتي، ولا أملك ثروة لأتركها لك». قالت له.

فكر نيد أنهما أيضاً لم يكونا مغرمين بعضهما ببعض إلا أنه لم يقل ما فكر به. كان يحب سوزانا جداً، فقد قدمت له الإحساس بالمتعة طوال عام، ولكنه لم يُغرم بها بل كان واثقاً من أنها غير مغرمة به أيضاً. لم يعلم في السابق أنّ مثل هذه العلاقات موجودة. لقد تعلم الكثير منها.

«علاوة على هذا»، تابعت كلامها: «لا أعتقد أنّك نسيت مارجوري المسكينة».

عرف نيد أنّ هناك مشكلة وحيدة في وجود عشيقه أكبر عمراً، وهي أنّه لا يستطيع إخفاء شيء عنها. لم يعرف كيف عرفت سوزانا بكل شيء، حتى الأمور التي لم يرد أن تعرفها على وجه الخصوص.

«مارجوري فتاة رائعة وهي تستحقك»، تابعت سوزانا: «ولكن عائلتها استماتت لتصبح من طبقة النبلاء، وقد استخدموها لتحقيق هذا الغرض». «إن رجال عائلة فيتزجيرالد حثالة هذه الأرض»، قال نيد بانفعال. «فأنا أعرفهم جيداً».

«لا شك في هذا، ولكن لسوء الحظ لا يقوم الزواج على الحب فقط، فأنا على سبيل المثال أحتاج إلى زوج». بدا نيد مصدوماً وسألها: «لماذا؟».

«إن الوضع الذي تعيشه أيّ أرملة مزعج. يمكنني أن أعيش مع ابني، ولكن ما من رجل قد يرغب بأن تعيش معه أمّه طوال الوقت. الملكة إليزابيث تحبني، ولكن تعتبر المرأة العازبة في البلاط امرأة فضولية وإن كانت جذابة

ستشير توتر النساء المتزوجات. أنا أحتاج إلى زوج وسيكون روبن تويفرد زوجاً مثالياً».

«ستزوجين من اللورد تويفرد؟».

«أجل، أعتقد هذا».

«هل يعلم بهذا؟».

ضحكت سوزانا: «لا، ولكن أعتقد أنني مذهلة».

«أنتِ كذلك، يا لها من خسارة أن تتزوجي شخصاً كروبن تويفرد».

«لا تتكلم بتعالٍ. إنه في الخامسة والخمسين، ولكنه مرح وذكي

ويُضحكني».

أدرك نيد أنّ عليه أن يتصرف بلباقة: «آمل يا عزيزتي أن تكوني

سعيدة جداً».

«باركك الرب».

«هل ستذهبين إلى المسرحية الليلة؟».

«أجل». كانت سوزانا تحب المسرحيات مثله.

«أراك حينها إذًا».

«إن كان تويفرد حاضراً كُنْ لطيفاً، ولا داعي للغيرة السخيفة».

كانت غيرة نيد في مكان آخر، ولكنه لم يقل هذا بل أجابها: «أعدك».

«شكراً لك»، قالت هذا بينما أخذت تعلق حلمة صدره.

«يمنحني هذا شعوراً جميلاً»، سمع جرس كنيسة سانت مارتن إن ذا

فيلدز⁽¹⁾. «ولكن يجب أن أذهب للمثول أمام جلالة الملكة».

«لا، ليس الآن»، ولعقت حلمته الثانية.

«ولكن عاجلاً».

«لا تقلق»، قالت سوزانا بينما صعدت فوقه. «سأكون سريعة».

بعد مرور نصف ساعة كان نيد يمشي بسرعة على طول شارع ستراند.

لم تقم الملكة إليزابيث بعد بتعيين أسقف جديد لكنينغزبريدج بدلاً من

1- كنيسة صغيرة في لندن مشهورة بالأوركسترا الخاصة بها، وهي تستضيف الحفلات الموسيقية أيضاً. (الترجمة)

الأسقف يوليوس، وأراد نيد أن يحصل رئيس الكهنة في كيغزبريدج لوك ريتشاردز على هذا المنصب. كان رئيس الكهنة لوك رجلاً مناسباً للمنصب وصديقاً لعائلة ويلارد.

أراد جميع من في البلاط أن يؤمنوا هذا المنصب لأصدقائهم، ولكن نيد تردّد في إزعاج الملكة بمثل هذا الطلب الشخصي. لقد تعلم بعد خمس سنوات من خدمته لإليزابيث أن أيّ رجل في البلاط معرّض لخسارة مكانته بسرعة إن لم يكن مهذباً معها، ولهذا ارتأى نيد الانتظار. بأي حال كانت الملكة اليوم قد خطت لمناقشة مسألة الأساقفة مع وزير الخارجية السير ويليام سيسيل الذي طلب من نيد أن يكون حاضراً.

كان قصر وايت هول عبارة من مجموعة من الأبنية والأفنان والحدائق بما في ذلك ملعب للتنس. يعرف نيد الطريق إلى الجناح الملكي، ولذلك عبر غرفة الحرس بسرعة باتجاه قاعة انتظار كبيرة. شعر براحة كبيرة عندما اكتشف أنّ سيسيل لم يصل بعد، لقد كانت سوزانا سريعة كما قالت له، ولم تؤخره كثيراً. في الغرفة الخارجية انتظر السفير الإسباني ألفارو دي لا كوادرا أيضاً وقد كان يقطع الغرفة جيئة وذهاباً والغضبُ بادٍ على وجهه. ولكن يعرف نيد أن هذا الغضب مزيف بعض الشيء. إن عمل السفير صعب فقد كان عليه إيصال مشاعر سيده أياً يكن موقفه الشخصي.

لم تمر سوى بضع لحظات حتى وصل وزير الخارجية، واصطحب معه نيد إلى غرفة الزوار.

كانت الملكة الآن في الثلاثين من عمرها وقد فقدت ذلك الألق المحبب الذي جعلها جذابة جداً فيما مضى. فقد اكتسبت وزناً، وقضى حجبها للحلويات على أسنانها، إلا أنها كانت في مزاج جيد اليوم.

«قبل أن ندخل في موضوع الأساقفة لنستقبل السفير الإسباني»، قالت الملكة لهما. تكهن نيد أنها كانت بانتظار سيسيل فهي لم تكن ترغب بمواجهة السفير كوادرا الذي يمثل أقوى ملوك أوروبا وحدها.

حيّاً كوادرا الملكة بسرعة كبيرة تكاد تكون مهينة ثمّ قال: «هوجمت سفينة شراعية إسبانية من قبل قراصنة إنكليز».

«يؤسفني سماع هذا»، قالت الملكة.

«وقُتِل ثلاثة نبلاء! ولقى العديد من البحارة حتفهم، وتضررت السفينة بشكل كبير قبل أن يهرب القراصنة».

قرأ نيد بين السطور، وفهم أنّ السفينة الشراعية قد تلقت الضرر الأكبر في هذه المواجهة، وهذا ما ألمّ كبرياء الملك فيليبي حقاً، وما أثار غضبه من الأمر برمته.

«يؤسفني أنّه ليس بمقدوري السيطرة على رعاياي عندما يكونون في البحر وبعيداً عن الوطن. لا يُمكن لأي ملك أن يفعل هذا».

كان ما قالته إليزابيث نصف الحقيقة، فمن الصعب التحكم بالسفن وهي في البحر، إلا أنه ومن جهة أخرى، لم تقم إليزابيث بأيّ محاولات جادة لمنع هذا. وكانت السفن التجارية قادرة على النجاة من أيّ جريمة قد تقترفها بسبب الدور الذي تلعبه في ضمان أمن مملكتها. يستطيع الملوك في أوقات الحروب الطلب من السفن التجارية الانضمام إلى القوات البحرية المملكيّة، وتشكل هذه السفن وسيلة الدفاع الأساسية لدولة لا تملك جيشاً نظامياً وتقع على جزيرة كإنكلترا. كانت إليزابيث أشبه بمن يملك كلباً مسعوراً يستخدمه لإخافة الدخلاء.

«حسنًا أين حدث هذا؟» تابعت إليزابيث.

«قبالة ساحل إسبانيا».

«ومن أطلق النار أولاً؟» سأل سيسيل الذي درس القانون في غراي إن⁽¹⁾. كان سؤالاً مكرراً، وأجاب كوادرا: «لا أملك هذه المعلومة». وفهم نيد من جوابه أنّ الإسبان من بدؤوا إطلاق النار، وتأكدت شكوكه عندما انفجر كوادرا قائلاً: «على أيّ حال، يحق لأيّ سفينة تابعة لجلالة الملك فيليبي إطلاق النار على أيّ سفينة متورطة بعمل إجرامي».

«ما هو العمل الإجرامي المقصود هنا؟» سأل سيسيل.

«لم يكن لدى السفينة الإنكليزية الإذن بالإبحار إلى إسبانيا الجديدة، ولا يُسمح لأيّ سفينة أجنبية بالإبحار إلى هناك من دون إذن».

1- يعد مجمع غراي إن أحد المجمعات القانونية الأربعة في لندن بالإضافة إلى لينكولن إن وذا إنر تيمبل وذا ميدل تيمبل حيث يتدرب الطلاب على مهنة المحاماة. تأسست جميعها في القرون الوسطى واستمرت حتى القرن التاسع عشر. (الترجمة)

«وهل لديك معلومات عما كان قبطان السفينة الإنكليزية يفعله هناك؟»
«بيع العبيد».

«دعني أفهم ما تقوله»، قالت إليزابيث، وتساءل نيد إن كان كوادرا قد انتبه إلى النبرة الخطيرة في صوتها. «إذاً، هناك سفينة إنكليزية تقوم بأعمال تجارية مع زبائن في إسبانيا بكل سلام، ثم تقوم سفينة شراعية إسبانية بإطلاق النار عليها، وأنت تشتكي الآن من أن الإنكليز ردوا وفتحوا النار عليها».
«إن وجودهم هناك أصلاً جريمة! لا بد أنك يا صاحبة الجلالة تدركين أن البابا قد منح ملوك إسبانيا والبرتغال السيادة على كامل العالم الجديد».
تحدثت الملكة بصوتٍ فاتر: «ويدرك جلالة الملك فيليبي أن البابا لا يملك سلطة منح أراضي الرّب لملك دون آخر، وكما يحلوه».
«أبانا المقدس وبحكمته..».

«إنه ينتحل مكانة الرّب!» انفجرت إليزابيث صارخة، وقد تفوهت بسباب يعتبره الكاثوليكيون من أمثال كوادرا سبأاً سيئاً. «إن أطلقت النار على الإنكليز لأنهم كانوا في العالم الجديد فعلى سفنكم أن تتحمل كلفة هذا! لا تأت لتشتكي من العواقب. يمكنك الانصراف الآن».

انحنى كوادرا وعلت وجهه نظرة ماكرة: «ألا تريدان معرفة اسم السفينة الإنكليزية؟»
«أخبرني».

«تدعى ذا هوك ومركزها ميناء كومب، ويدعى قبطانها جوناس بيكون».
ونظر كوادرا إلى نيد ثم تابع: «وقائد مدفعتها يدعى بارنباس ويلارد».
شهق نيد قائلاً: «أخي».

«أخوك»، قال كوادرا في رضا واضح. «وقرصان وفق القوانين المتعارف عليها». ثم انحنى للملكة وقال: «أتمنى لجلالتك يوماً سعيداً».
بعد أن غادر كوادرا سألت إليزابيث نيد: «هل كنت تعلم بهذا؟».

«لم أكن أعلم بالكثير»، قال نيد الذي حاول جمع شتات أفكاره. «منذ ثلاثة أعوام كتب عمي جان من أنتويرب رسالة يقول فيها إن بارني في طريق العودة إلى الوطن على متن سفينة تدعى ذا هوك، واعتقدنا أنه تاه في البحر، ولكن لم يخطر ببالنا قط أنه قطع المحيط الأطلسي».

«أرجو أن يعود إلى الوطن سالمًا»، قالت الملكة. «والآن فلنناقش أمر كينغزبريدج، من سيكون الأسقف هناك؟».

لم يتبه نيد إلى أن فرصته أتت فقد كان ما يزال مصعوقاً من الأخبار التي سمعها عن بارني، ولكن بعد فترة صمتٍ قصيرة حثّه سيسيل على التحدث قائلاً: «يعرف نيد مرشحاً جيداً».

انتفض نيد وقال: «لوك ريتشاردز. إنه في الخامسة والأربعين وهو رئيس الكهنة».

«وهو أحد أصدقائك كما أعتقد»، قالت إليزابيث بازدراء.

«أجل يا صاحبة الجلالة»،

«كيف هي شخصيته؟».

«إنه رجل بروتستانتي صالح ومعتدل رغم أنه ولاكون صريحاً مع جلالتك، كان كاثوليكياً صالحاً منذ خمسة أعوام».

قطب سيسيل حاجبيه في احتجاج على ما قاله نيد، ولكن الملكة إليزابيث ضحكت بشدة وقالت: «ممتاز، هذا هو النوع الذي أفضله من الأساقفة».

مضى على زواج مارجوري خمسة أعوام، ولم يمضِ يوم واحد من دون أن تفكر في كيفية الهرب من هذا الزواج. عموماً، لم يكن بارت زوجاً سيئاً فهو لم يضربها قط، ورضخت للجنس معه بين الحين والآخر، ولكنه كغالبية النبلاء كان يبحث في معظم الأحيان عن متعته في مكان آخر. شعر بارت بالإحباط لأنهما لم يحظيا بأطفال، وفي مثل هذه الحالة عادة ما يُلقى الرجال باللوم على المرأة، إلا أنه لم يتهمها بالسحر كما فعل بعض الأزواج. وعلى الرغم من هذا كله كانت تكرهه.

أخذ حلمها بالهرب أشكالاً عديدة؛ فكرت أولاً بالذهاب إلى دبرِ فرنسي، ولكن بارت سيعرّ عليها ويعيدها. وفكرت بأن تقصّ شعرها وترتدي ثياب الفتيان وتهرب إلى البحر، ولكن لا خصوصية على متن السفن، وهذا يعني أنهم سيكشفون أمرها على الفور. فكرت أيضاً بركوب جواها المفضل في صباح أحد الأيام مع عدم العودة، ولكنها لم تعرف إلى أين ستذهب. كانت لندن خياراً جيداً، ولكنها لا تعرف كيف ستكسب لقمة عيشها. لم

تكن تعرف حقاً الطريقة التي يسير بها العالم، والجميع يعلم أن الفتيات اللواتي يهربن إلى مدينة كبيرة ينتهي الأمر بهن إلى العمل في الدعارة. ومَرّت أوقات شعرت بإغراء ارتكاب خطيئة الانتحار. ولكن عملها السري من أجل الكاثوليكين المحرومين في إنكلترا هو ما أبقاها على قيد الحياة، ومنح لحياتها معنى ومتعة على الرغم من أنه كان عملاً مخيفاً. ولولا عملها هذا لكانت بقيت مجرد ضحية لظروفها. كانت في عملها هذا مُغامرة وعميلة سرية لمصلحة الربّ.

تشعر مارجوري بالسعادة عندما يكون بارت بعيداً، فقد كانت تحب النوم في السرير وحدها من دون أحد يشخر أو يتجشأ أو ينهض ليلاً للتبول. تمتعت بالبقاء وحدها صباحاً بعد الاغتسال وارتداء ثيابها. أحبّت في غرفة نومها رف الكتب والنباتات المزروعة في قدور فخارية. كانت تعود إلى غرفتها بعد الظهر لتجلس وحدها تقرأ الشعر وتدرس الإنجيل باللاتينية من دون أن يسألها أحد وبكل بازدراء، عن الفائدة من القيام بهذا.

ولكنها لم تحظْ بهذا كثيراً، لأنّ بارت عندما يسافر إلى كينغزبريدج تستغل مارجوري الفرصة فترافقه لرؤية الأصدقاء وللتواصل سراً مع الكاثوليكين هناك. كان بارت هذه المرة مسافراً إلى ميناء كومب، ولهذا استمتعت مارجوري ببقائها وحدها.

نزلت إلى الطابق السفلي لتناول العشاء. كان الإيرل سويذن قد تزوج للمرة الثانية بفتاة أصغر عمراً من مارجوري، ولكن الكونتيسة المراهقة ماتت عندما وضعت مولودها الأول الذي ولد ميتاً أيضاً. وبهذا عادت مارجوري سيدة المنزل مجدداً، وأصبح الاهتمام بالوجبات من مسؤوليتها. واليوم طلبت من الخدم إعداد لحم الضأن بالقرفة والعسل. لم يكن على طاولة العشاء سوى الإيرل سويذن وستيفن لينكولن الذي عاش في القلعة بصفته السكرتير الرسمي للإيرل إلا أنه في الحقيقة عمل كاهناً للإيرل. كان ستيفن يحيي مراسم القداس للعائلة ولخدمها كل أحد في كنيسة صغيرة في القلعة، باستثناء الأحاد التي يذهب فيها الإيرل ومارجوري لحضور القداس في مكانٍ آخر.

رغم أن الجميع تكتّم على هذا، ولكن مثل هذه الأمور لا تبقى سراً إلى

الأبد. بحلول هذا الوقت علم الكثيرون أو تكهنوا، أن هناك مراسم كاثوليكية تُقام في نيوكاسل، وربما في جميع أنحاء إنكلترا. استشاط البيورتانيون في البرلمان غضباً من هذا الأمر، ولكن الملكة إليزابيث رفضت فرض أيّ قوانين. كان هذا حلاً وسطياً، وقد بدأت مارجوري تفهم سلوك إليزابيث النمطي؛ كانت الملكة مُهرطقة إلا أنها كانت امرأة منطقية، وشكرت مارجوري الرّب على هذا.

غادرت مارجوري طاولة العشاء بتهذيب. كان لديها سبب حقيقي لذلك فمدبرة المنزل تحتضر، وأرادت مارجوري الاطمئنان على المرأة المسكينة، والحرص على راحتها قدر الإمكان خلال الليل.

توجهت مارجوري إلى قسم الخدم حيث تقطن سال برندن في غرفة صغيرة ملحقة بالمطبخ. كانت سال قد بدأت بداية متعثرة مع مارجوري منذ خمسة أعوام، إلا أن مارجوري عملت على كسبها كحليفة، وفي النهاية أصبحتا تديران المنزل كفريق. لكن وبما يدعو للأسف، ظهر ورم على ثديي سال، وخلال العام الماضي تحولت من امرأة ممتلئة في منتصف عمرها، إلى هيكل عظمي وجلد.

اخترق ورم سال الجلد ووصل إلى كتفها التي كانت مضمدة الآن لكبح الرائحة النتنة التي تخرج منها. حثتها مارجوري على تناول بعض النيذ الإسباني، وجلست تتحدث معها لبعض الوقت. أخبرتها سال بيأس مرير أن الإبرل لم يُكلف نفسه مشقة القدوم للاطمئنان عليها منذ أسابيع، وأنها تشعر بأنّها أهدرت عمرها وهي تحاول إسعاد رجلٍ جاحد.

عادت مارجوري إلى غرفتها، وأخذت ترفه عن نفسها بقراءة كتاب فرنسي مضحك جداً ويدعى بانتوغرويل⁽¹⁾، وهو يتحدث عن سباق عمالقة حيث يملك بعضهم خصى كبيرة جداً إلى درجة أنّ ثلاثاً من هذه الخصى يمكن أن تملأ كيساً. سيستنكر ستيفن لينكولن مثل هذا الكتاب، ولكن لا ضير في قراءته بما أنه لا يسبب أيّ ضرر حقيقي. جلست قرب شمعتها لساعة تضحك بين الحين والآخر ثم خلعت ثيابها استعداداً للنوم.

1 - قصة للكاتب الفرنسي فرانسوا رابليه (1490-1553) وتحدث عن عملاق يدعى بانتوغرويل ولديه شهية كبيرة للطعام. (الترجمة)

نامت في ثوبٍ ليلي يصل حتى الركبتين. كان للسريـر أربعة أعمدة وستائر، ولكن مارجوري لم تسدل الستائر. سَطع نور القمر الذي كان هلالاً من وراء نوافذ المنزل الطويلة، ليكسرَ من حلـكة الظلمة في الغرفة. اندست مارجوري بين أغطية السريـر، وأغمضت عينيها.

فكرت بأنها ستحب عرض كتاب بانتوغرويل على نيد ويلارد الذي سيتمتع بالإبداع الكوميدي المذهل للكاتب كما استمتع بمسرحية مريم المجдлиـة هنا في نيوكاسل. وكلما صادفت مارجوري أمراً مثيراً للاهتمام أو باعثاً على الدهشة كانت تتساءل عن رأي نيد به.

كانت في بعض الأحيان تفكر بنيد ليلاً. واعتقدت، بكل حماقة، أن هذه الأفكار الشريرة ستكون أكثر سرية فيما لو فكرت بها في العتمة. تذكرت الآن أول قبلة لهما وأخذت تداعب عضوها، وتمنت لو أنهما مارسا الجنس حقاً. أثارت هذه الذكرى شعوراً بالدفع والألفة في نفسها. كانت تعلم أن لمس نفسها بهذه الطريقة خطيئة، ولكن لم يكن بوسعها كبح نفسها عن ضغط فخذيتها معاً، والاستسلام لدفق المتعة.

شعرت بالحزن بعد انتهائها، وفكرت بالمرارة التي شعرت بها سال برندن. تخيلت نفسها على سريـر موتها وتساءلت إن كانت ستشعر بالمرارة كما تشعر سال الآن. انحدرت الدموع على خديها، ومدت يدها إلى صندوق صغير بجانب السريـر حيث احتفظت بأشياء خاصة، وتناولت منديلاً كتانياً مطرزاً ببذور البلوط. كان المنديل ليند وقد احتفظت به. دفنت وجهها فيه، وتخيلت نفسها معه مجدداً يلمس بلطفٍ خديها ويجفف دموعها، ثم سمعت صوت شخص ما يتنفس بالقرب منها.

لم يكن هناك أفعال في نيوكاسل إلا أن مارجوري عادةً ما تُغلق باب غرفتها. لم تسمع الباب يُفتح، وفكرت أنها ربما تركته مفتوحاً قليلاً، ولكن من قد يدخل من دون إحداث أيّ ضجة؟

قد يكون أحد الكلاب. كان يُسمح للكلاب الصيد الخاصة بالإيرل بالتجول في الردهات ليلاً، وربما دخل أحدها بدافع الفضول. أصغت إلى صوت التنفس، وأدركت أنه أشبه بتنفس رجلٍ يحاول الحفاظ على هدوئه. وأدركت أن الكلاب لا تفعل هذا.

فتحت عينيها وجلست في السرير، وقلبا يخفق بسرعة. وفي الضوء
الفضي للقمر رأت خيال رجل في ثياب النوم.

«اخرج من غرفتي»، قالت بحزم إلا أن صوتها خرج مرتعشاً.

مرت دقيقة صمت. كان المكان مظلماً ولذلك لم تتمكن من التعرف
على هوية الرجل. هل عاد بارت إلى المنزل قبل مواعده؟ لا، فلا أحد يسافر
بعد هبوط الظلام. ربما كان أحد الخدم قد دخل إلى غرفتها مخاطراً بحياته
لدخوله إلى غرفة نوم امرأة نبيلة ليلاً. لا يمكن أن يكون ستيفن لينكولن
فهي واثقة من أن النساء لا تجذبنه، فلو أراد ارتكاب الخطيئة فسيرتكبها مع
فتى جميل.

تحدث الرجل قائلاً: «لا تخافي».

كان سويذن.

«اخرج»، قالت مارجوري.

جلس على حافة سريرها وقال لها: «كلانا وحيدان». تحدث متلعثماً
كعادته عند نهاية كل أمسية. تحركت وأرادت النهوض من السرير، ولكنه
أوقفها بذراعه القوية.

«تعلمين أنك تريدين هذا أيضاً»، قال لها.

«لا، لا أريد!» صارعت للتخلص من قبضته، ولكنه كان ضخماً وقوياً،
ويبدو أنه لم يتناول ما يكفي من الشراب لتكون قواه خائرة.

«أحبُّ القليل من المقاومة»، قال لها.

«اتركني!» صرخت.

ويده الحرة رفع الأغذية عنها، كان ثوبها الليلي قد انحسر إلى ما فوق
وركبها وحدث إلى فخذيها بجوع، ومن دون سبب شعرت بالعار، وحاولت
ستر عريها بيديها.

«آه»، قال لها بتلذذ. «أنتِ خجولة».

لم تعرف مارجوري ما الذي يتوجب عليها القيام به للتخلص منه.

أمسكها سويذن من كاحليها بسرعة مفاجئة، وسحبها بقوة فسقطت على
ظهرها على حشية السرير. كانت ما تزال في حالة صدمة عندما قفز على
السرير ونام فوقها. كان ثقباً ورائحة فمه كريهة. أمسك ثديها بيده المشوهة.

خرج صوتها في صرخة طويلة وعالية: «اخرج، أو سأصرخ وسيعرف الجميع».

«سأخبرهم أنك أغويتني»، قال لها. «وسيصدقونني».

تجمدت في مكانها فقد كانت تعلم أن ما قاله صحيح. يقول الناس إن النساء وعلى عكس الرجال، لا يستطعن التحكم برغباتهن، ورأت مارجوري أن الأمر ليس صحيحاً، ولكنها تخيلت مشاهد الاتهام والانتهاكات المعاكسة حيث سيقف الرجال إلى جانب الإيرل، وستنظر النساء إليها في ريبة. وسيحتار بارت الذي يعرف والده جيداً ولكنه لا يملك الشجاعة الكافية للوقوف في وجهه.

شعرت بسويدن يتخبط وهو يحاول رفع ثوبها الليلي، وفكرت بأمل يائس بأن يكون عاجزاً. كان الأمر يحدث أحياناً مع بارت عندما يتناول الكثير من النيذ رغم أنه يلومها على هذا، ويقول لها إنها من أطفأت رغبته. لا بد أن سويدن تناول الكثير من النيذ.

ولكن يبدو أن الإيرل لم يتناول الكثير من المشروب لأنها شعرت بعضوه يضغط عليها، وتلاشى مع هذا الأمل الذي راودها قبلاً.

ضغطت ساقها معاً. حاول سويدن فتحهما، إلا أنه كان يتحرك بطريقة خرقاء وقد اتكأ بكامل ثقله الكبير على مرفقه وهو يحاول وضع يده الأخرى بين فخذيها. شخر في يأس. فكرت مارجوري بأنها تستطيع مقاومته حتى يفقد انتصابه، ويستسلم في قرف.

«افتحي ساقيك أيتها الساقطة»، قال في صوت كالهسيس.

ضغطت ساقها أكثر فقام بصفعها بيده الحرة.

شعرت بالصفعة كالانفجار. كان رجلاً قوي البنية بكتفين عريضتين وذراعين قويتين، كان قد ضرب الكثيرين خلال حياته. لم يكن لديها أدنى فكرة أن مثل هذه الصفعة قد تؤلم لهذه الدرجة، وشعرت كأن رأسها قد سقط عن عنقها. امتلأ فمها بالدم، وخسرت لبعض الوقت القوة على المقاومة/ وفي تلك اللحظة باعد سويدن بين فخذيها وأقحم عضوه في داخلها.

لم يطل الأمر كثيراً بعد هذا. تحملت حركته بعد أن وضع عضوه ولكنها كانت ما تزال ذاهلة. ألمها وجهها جداً إلى درجة أنها بالكاد كانت قادرة على الشعور ببقية جسدها. انتهى سويدن، ونهض عنها وهو يتنفس بجهد.

نهضت عن السرير، وركضت إلى زاوية الغرفة ثم جلست على الأرض وبداها على وجهها حيث تلقت الصفعة. وبعد مرور دقيقة سمعته يخرج من الغرفة وهو ما يزال يلهث.

مسحت وجهها بالمنديل الذي، ويا للمفاجأة، كانت ما تزال تمسكه في يدها بقوة. عندما تأكدت من مغادرة سويذن للغرفة عادت إلى السرير، واستلقت تبكي بهدوء إلى أن أدخلها النوم في أراضي اللاوعي السعيدة. استفاقت صباحاً، وتراءى لها أن كل هذا هو مجرد حلم إلا أن الألم الذي شعرت به على وجهها أعادها إلى الواقع. نظرت إلى المرأة، ورأت ورماً وتغيراً في لون البشرة مكان الصفعة. في الصباح وأثناء الفطور اختلقت قصة وقالت إنها سقطت عن السرير من دون أن تهتم إن صدقوها أم لا، فاتهام الإيرل سيوقعها في متاعب أكثر.

تناول سويذن فطوراً دسماً، وتصرف كأنّ ما من شيء قد حدث. عندما غادر الطاولة طلبت مارجوري من الخدم مغادرة الغرفة ثم نهضت عن كرسيها وجلست إلى جانب ستيفن.

«أتى سويذن إلى غرفتي الليلة الماضية»، قالت في صوتٍ خفيض.
«ما الذي كان يريده؟».

أمعنت النظر إليه. كان ستيفن كاهناً في الثامنة والعشرين من العمر وقد درس في أوكسفورد لذلك لا يمكن أن يكون بريئاً تماماً.
«أوه!» قال بعد دقيقة.

«لقد فرض نفسه علي».
«هل قاومت؟».

«بالطبع، ولكنه أقوى مني»، قالت هذا ولمست وجهها المتورم بأطراف أصابعها في حرصٍ على عدم الضغط كثيراً. «لم أسقط عن السرير بل هذا من فعل صفعته».
«هل صرخت؟».

«هددت بالصراخ. قال لي إنه سيُخبر الجميع بأنني أغويته، وإنهم سيصدقونه ولن يصدقوني. كان على حق عندما قال هذا، وأنت تعرف هذا حق المعرفة».

بدا ستيفن غير مرتاح لدخوله في هذا الحديث.

ثم حل صمّت قطعته مارجوري أخيراً قائلة: «ما الذي علي فعله؟»
«صلي كي يسامحك الرب».

اربدّ وجه مارجوري وسألته: «ما الذي تعنيه؟».

«اطلبي المغفرة على ارتكابك الخطيئة، وسيكون الربّ رحيماً بك».

وعلا صوت مارجوري: «عن أيّ خطيئة تتحدث؟ أنا لم أرتكب خطيئة!
أنا ضحية خطيئة... كيف يمكنك أن تقول لي اطلبي المغفرة؟».

«لا تصرخي! أنا أقول لك إن الربّ سيسامحك على ارتكاب الزنا».

«وماذا عن خطيئة الإيرل؟».

«خطيئة الإيرل؟».

«أجل، لقد ارتكب خطيئة أسوأ من الزنا. ما الذي ستفعله حيال الأمر؟».

«أنا كاهن، ولست شرطياً».

حدقت نحوه في عدم تصديق وقالت: «هل هذا ردك؟ هل هذا جوابك

لهذه المرأة التي تعرضت للاغتصاب من قبل والد زوجها؟ أن تقول لها إنك
لست شرطياً».

أشاح ستيفن بنظره بعيداً.

وقفت مارجوري وقالت: «أنت حشرة... أنت مجرد حشرة». وغادرت

الغرفة.

شعرت مارجوري أنّها تنتفض على إيمانها، إلا أن هذه الانتفاضة لم تدم

مطولاً. فكرت بقصة أيوب الذي وضعت المحن إيمانه على المحك، وما

قالته له زوجته: «فلتلعن الربّ ولتمت»، ولكن أيوب رفض. إن اختار كل

شخص قابل كاهناً جباناً التخلي عن الربّ فلن يبقى الكثير من المسيحيين.

ولكن ما الذي ستفعله؟ بارت لن يعود حتى الغد. ماذا لو أتى سويذن الليلة

مجدداً؟

قضت مارجوري اليوم بأكمله في وضع الخطط. طلبت من خادمة صغيرة

تدعى بيغي النوم في غرفتها على فراش أسفل سريرها. كان من الشائع أن

تطلب النساء العازبات من خادمة النوم معهن ليلاً رغم أن مارجوري لم تكن

تحبذ هذه العادة، إلا أنّها فهمت الآن سبب وجودها.

وحرصت على إحضار كلبٍ أيضاً. كان هناك جراء حديثة الولادة حول القلعة على الدوام، وقد عثرت على جرو صغير بما يكفي لتعلمه الإخلاص لها شخصياً. لم يكن لديه اسم، ولهذا أطلقت عليه اسم ميك. إنه كبير بما يكفي ليصدر ضجة، ومع الوقت ستدربه على حمايتها.

كانت مارجوري مذهولة من سلوك سويذن طوال النهار. فقد رأته مجدداً على الغداء والعشاء، وهو بالكاد قد تحدث معها، ولكن لم يكن هذا بالأمر الغريب، إلا أنه تحدث إلى ستيفن لينكولن عن شؤون راهنة كالعالم الجديد وتصميم السفن وتردد الملكة إليزابيث المستمر في اختيار زوج لها. بدا سويذن كأنه نسي جريمته الشريرة التي ارتكبها في الليل.

عندما ذهبت للنوم، أوصدت الباب جيداً بمساعدة بيغي، ووضعت صندوقاً وراءه. تمتّ لو أن الصندوق كان أثقل وزناً، ولكن لم تكونا هي وبيغي، ولكن لم تكونا هي وبيغي لتقدران على تحريكه. وأخيراً ارتدت حزاماً حول ثوبها الليلي وعلقت فيه سكيناً صغيراً مع غمده. وقررت أن تحصل على خنجرٍ أكبر بأسرع وقت ممكن.

رغم أن المسكينة بيغي كانت مرتعبة إلا أن مارجوري لم تشرح لها شيئاً لأنها بهذا ستتهم الإيرل.

صعدت مارجوري إلى السرير وأطفأت بيغي الشموع ونامت على حشيتها. كان الكلب ميك مشدوهاً لوجوده في مكان جديد، ولكنه تعامل مع التغييرات الجديدة بهدوءٍ كلبّي، ونام قبالة المدفأة.

نامت مارجوري، ولكنها لم تستطع الاستلقاء على جانبها الأيسر حيث تلتفت الصفعة؛ فالنوم على هذا الجانب لم يكن مريحاً حتى على وسادة من الريش، وسبب لها هذا الكثير من الألم في مكان الرّض على وجهها. استلقت على ظهرها وعيناها مفتوحتان. كانت تعلم علم اليقين أنّها لن تتمكن من النوم أبداً، ولم تتمن شيئاً سوى أن تمرّ هذه الليلة بسلام. سيعود بارت إلى المنزل غداً، وبعد هذا ستحرص مارجوري على عدم البقاء وحيدةً مع سويذن. ولكنها عندما فكرت بالأمر أدركت أنّ هذا لن يكون ممكناً لأن بارت صاحب الكلمة الأخيرة في الموضوع، وهو من يقرر إن كانت ستراافقه أم لا، ولم يكن بارت يلبي رغباتها على الدوام. ربما سيتركها وحدها عندما

يخطط لمقابلة إحدى عشيقاته، أو لمرافقة أصدقائه إلى منزل دعارة، أو الانخراط في نوع آخر من التسالي قد يسبب فيه وجود الزوجة إحراجاً. لم يكن بوسع مارجوري معارضته من دون أن تقدم له سبباً واضحاً، ولكنها في الوقت عينه لا تستطيع إخباره بالسبب الحقيقي. كانت محاصرة وسويذن يعرف هذا حق المعرفة.

لم تكن هناك سوى طريقة واحدة للخلاص من هذا: قتل سويذن. ولكنها إن فعلت هذا ستُعدم على فعلتها، ولن ينجيها أي عذر من العقاب... إلا إن جعلت الأمر يبدو كحادث.

هل سيسامحها الرب؟ ربما. لم يكن لديها أدنى شك أن الرب لم يرد لها التعرض للاغتصاب.

وبينما كانت تفكر في وضعها سمعت صوت صلصلة قبضة الباب. كان هناك من يحاول الدخول، وسألت بيغي في صوتٍ مفزوع: «من قد يكون هذا؟».

أديرت قبضة الباب مجدداً، وسمع صوت اصطدام الباب بالصندوق الذي كان خلفه.

«فلتذهب!» قالت مارجوري بصوتٍ عالٍ.

سمعت صوت نخرة وكأنها نخرة رجلٍ يبذل جهداً، وتحرك الصندوق من مكانه.

صرخت بيغي، وقفزت مارجوري عن السرير. تحرك الصندوق على الأرضية، وفتح الباب بما يكفي ليدخل رجل، ودخل سويذن في ثوبه الليلي. نبج ميك على سويذن الذي ركله بقدمه وأصابه في صدره. أخذ ميك يثنّ في رعبٍ، وهرع خارج الغرفة من فتحة الباب.

رأى سويذن بيغي وقال لها: «اخرجي من هنا قبل أن أركلك أيضاً»، وهربت بيغي من الغرفة.

اقترب سويذن من مارجوري فسحبت سكينها وقالت: «إن لم تغادر سأقتلك».

رفع سويذن ذراعه اليسرى، وبحركة ساحقة ضرب معصم مارجوري بقوة كقوة مطرقة. طارت السكين من قبضتها، وأمسك سويذن بمارجوري

من ساعديها ورفعها عن الأرض بسهولة، وألقاها على السّرير، ثم نام فوقها.
«افتحي ساقيك»، قال لها. «أنت تريدين هذا».
«أكرهك»، قالت له.

رفع قبضته وقال: «افتحي ساقيك أو سأضربك في المكان نفسه الذي ضربتك عليه البارحة».

لم تكن قادرة على احتمال أن يلمس سويذن وجهها مجدداً، وشعرت أنّها لو تلقت صفقة جديدة ستموت. بدأت تبكي في يأس وهي تباعد فخذيها.

فعل رولو كل ما بوسعه لمراقبة حركة البيورتانيين في كينغزبريدج. كان مصدر معلوماته الأساسي رئيس العاملين لدى دان كوبلي، دونالد غلوستر. كان لدى دونالد حافزان للعمل لمصلحة رولو؛ الأول أنّه يكره عائلة كوبلي لأنهم رفضوه خطيباً لابنتهم، وثانياً طمعاً بالمال الذي يقدمه له رولو فدان كوبلي لم يكن يدفع له مستحقاته الكاملة.

يتقابل رولو ودونالد بشكل دوري في حانة تدعى كروك آت غالوز كروس. كانت الحانة منزل دعارة أيضاً، وقد اختارها رولو حتى يستأجر غرفة خاصة ويتحدثان من دون أن يشاهدهما أحد. إن ثرثرت إحدى الفتيات حول لقاءاتهما فسيفترض الناس أنهما شاذان، وهذا يعتبر خطيئة وجريمة في آنٍ معاً، ولكن الرجال المتورطين مع هؤلاء الفتيات الثرثارات لم يكونوا في مواقع تسمح لهم بتوجيه أيّ اتهامات.

«إن دان غاضب لأن رئيس الكهنة لوك أصبح أسقفاً»، قال دونالد في أحد أيام خريف 1563. «يعتقد البيورتانيون أنّ لوك يغير معتقداته بما يتوافق مع المرحلة التي يعيش فيها».

«أنت على حق»، قال رولو باحتقار. كان تغيير المعتقدات مع تغير الملوك يدعى «سياسة»، ومن يقومون بهذا يُطلق عليهم اسم «السياسيين»، وكره رولو هؤلاء الناس: «أعتقد أنّ الملكة اختارته بسبب هذه الميزة. ولكن من هو الأسقف الذي يريده دان؟».

«الأب جيرمايا».

هزّ رولو رأسه. كان جيرمايا قسيساً في كنيسة سانت جون في لفرزفيلد

المتاخمة جنوباً لكنينغزبريدج. لطالما كان جيرمايا مُصلحاً رغم أنه بقي على رأس عمله في الكنيسة. كان سيصبح أسقفاً بروتستانياً متشدداً وغير متسامح مع الناس الذين يتوقون إلى عودة الأيام القديمة.

«شكراً للسماء لأنّ دان لم يحصل على مبتغاه».

«ولكنه لم يستسلم بعد».

«ما الذي تعنيه؟ لقد أخذت الملكة القرار وأعلنته. سيتم ترسيم لوك

بعد الغد».

«ولكن لدى دان خططاً ولهذا طلبت رؤيتك. سيُهمك الأمر».

«تابع».

«عندما يتم ترسيم أسقف جديد يستحضر الكهنة آثار القديس أدولفوس».

«آه، أجل». احتفظت كاتدرائية كينغزبريدج برفاتٍ القديس أدولفوس

لقرون، وقد وضعت في صندوق مرّصع بالجواهر وعُرضت على مذبح

الكنيسة. كان الحجاج يأتون من كل أنحاء أوروبا الغربية للصلاة لهذا القديس

طلباً للصحة والثروة. «ولكن قد يترك لوك العظام في مكانها هذه المرة».

هزّ دونال رأسه: «سيُخرج لوك العظام خلال الموكب لأنّ هذا ما يريده

سكان كينغزبريدج. يقول إن ما من أحد يعبد العظام، ولهذا لا يمكن اعتبار

هذا أمراً وثنياً، فهم يحيون ذكرى رجل تقي فقط».

«ذلك الرجل لوك يجد حلاً وسطية على الدوام».

«يعتقد البيورتانيون أن هذا تجديف».

«أنا غير متفاجئ بهذا».

«وسيتدخلون يوم الأحد».

رفع رولو حاجبيه. كان هذا الكلام مثيراً للاهتمام: «وما الذي سيقومون به؟».

«عندما سيتم رفع العظام خلال المراسم سيأخذون الصندوق ويدّرون

رماد القديس، وفي الوقت نفسه سيبتهلون إلى الرّب أن يصعقهم حتى

الموت إن لم يكن موافقاً على فعلتهم هذه».

بدا رولو مصعوقاً وقال: «سيفعلون هذا بالبقايا التي حافظ عليها كهنة

كينغزبريدج منذ خمسمئة عام؟».

«أجل».

حتى الملكة إليزابيث سترفض مثل هذا التصرف. كان الكثير من الأيقونات قد حُطّم خلال حكم إدوارد السادس، ولكن إليزابيث صادقت على قانون يُجرّم تدمير الصور والأغراض التي تعود إلى الكنيسة، ولكن لم يحقق هذا القانون نجاحاً في ردع الناس بسبب وجود الكثير من البروتستانتيين المتشددين. «لا يُفاجئني سماع الأمر»، قال رولو.

«ولذلك اعتقدت أنك قد ترغب بمعرفة هذا».

كان دونالد على حق في كلامه؛ فالأسرار كالأسلحة. ولكن الأهم من هذا السعادة التي يشعر بها رولو من امتلاكه لمعلومات لا يعرفها آخرون؛ فهذه السعادة تسمُح له بالنوم هانئ البال ليلاً وتمنحه الشعور بالقوة أيضاً.

مدّ رولو يده إلى جيبه، وأعطى دونالد خمس قطع ذهبية تسمى بـ«الملائكة»، وكل قطعة تساوي عشرة شلنات أو نصف جنيه.

«أحسنت صنعاً»، قال رولو.

خبأ دونالد النقود والرضا مرتسم على وجهه: «شكراً لك».

وهنا لم يستطع رولو إلا التفكير بقصة يهوذا الأسخريوطي والثلاثين قطعة من الفضة. «فلنبقَ على تواصل»، قال لدونال ثم غادر الحانة. عبر جسر ميرتن إلى مركز المدينة ثم اجتاز الشارع الرئيسي. كان الهواء بارداً يحمل لسعة صقيع خريفي دفع رولو إلى الشعور بحماسٍ أكبر. وبينما كان يحدق في الحجارة العتيقة والمقدسة للكاتدرائية تعاضم حماسه ورعبه عندما تذكر المخطط التجديفي الذي أخبره به دونالد، وأقسم على منع حدوثه.

ثم فكر بأنه يستطيع القيام بما هو أكثر من منع حدوثه، وتساءل إن كان هناك طريقة لاستغلال الحادث لمصلحته؟

مشى ببطء وهو يفكر ملياً، ثم توجه إلى قصر برايبوري غيت حيث يسكن والداه. كان بناء القصر سيؤدي بعائلة فيتزجيرالد إلى الإفلاس، ولكن عائلة ويلارد أفلست بدلاً منهم. وبعد مرور خمسة أعوام بدأ القصر يفقد مظهره اللافت والجديد ويبدو عتيقاً. إن الحجارة الرمادية الكالحة التي تأتي من نفس المقلع الذي بُنيت منه الكاتدرائية قد اسودت قليلاً بفعل الطقس الإنكليزي الماطر ودخان ألفي مدخنة في كينغزبريدج.

كان الإيرل سويذن وبارت ومارجوري في زيارة لهم، وقد أتوا من أجل

حضور موكب ترسيم الأسقف الجديد، لذلك استقروا في منزل الإيرل على جزيرة ليبر، ولكنهم كانوا يقضون معظم الوقت في برايبوري غيت. كان رولو يأمل أن يجدهم في المنزل الآن فقد تاق إلى إطلاع سويدن على ما أخبره به دونال للتو. عندما يسمع الإيرل الأخبار سيكون غضبه أعظم من غضب رولو. صعد رولو الدرج الرخامي، ودخل إلى غرفة الجلوس الخاصة بالسير ريجنالد. رغم وجود غرف أبهى منها في المنزل فإنهم كانوا يجتمعون للتحدث عن الأعمال في هذه الغرفة. أصبح السير ريجنالد الآن طاعناً في السن، ويتأثر جداً بالطقس البارد ولذلك قام بإشعال النار في المدفأة. كان الضيوف مجتمعين، واستقر إبريق من النيذ على طاولة جانبية.

شعر رولو بالفخر عندما رأى إيرل المقاطعة يتصرف بأريحية في منزلهم. علم رولو أن والده يشعر بنفس الفخر، رغم أنه لم يُعبر عن هذا قط، ولكنه كان في حضور سويدن يتحدث بطريقة رزينة وحكيمة وكأنه يمثل دور المستشار الحكيم أو الخبير، ويقمع اندفاعات ذلك الجانب المولع بالقتال في شخصيته.

جلس بارت إلى جانب سويدن، وكان نسخة حيّة عن والده رغم أن شخصيته لم تكن بقوة شخصية الإيرل. كان بارت يُبجل والده القوي والحازم، إلا أنه لم يستطع قط أن يكون ندأ له.

وها هم الحراس القدامى للعقيدة الحقّة ما يزالون حاضرين هنا، ورغماً عن الملكة إليزابيث. لقد مروا بانتكاسات حتماً، إلا أنهم لم يُهزموا.

جلس رولو إلى جانب أخته مارجوري، وأخذ كأس نيذ ناولته إياه والدته. كان يشعر بالقلق على مارجوري فقد كانت في العشرين فقط ولكنها تبدو أكبر عمراً وقد أصيبت بالهزال، وشحب لون وجنتيها بل كان هناك كدمة على فكها. لطالما كانت مارجوري معتدة بمظهرها إلى درجة الغرور، ولكنها كانت اليوم في ثوب كالح، وشعرها أشعث وغير نظيف. كان رولو واثقاً من أنها تعيسة إلا أنه لم يعرف سبب هذه التعاسة. سألتها بشكل مباشر إن كان بارت قاسياً معها، ولكنها أجابت بحزم: «بارت زوج مهذب». ربما كانت تشعر بالأسى لأنها لم تنجب طفلاً بعد. أيًا يكن سبب تعاستها كان يأمل ألا تسبب لهم المشاكل.

أخذ رولو جرعة من النيذ وقال: «لدي بعض الأخبار المزعجة. كنت أتحدث إلى دونالد غلوستر».

«دونال شخص مريع».

«إنه وضع ولكنه مفيد. ومن دونه لما عرفنا أن دان كوبلي وبقية البيورتانيين يخططون لاعتداء يوم الأحد خلال موكب لوك ريتشاردز، الذي يعتبرونه مهرطقاً وغير كفء ولا يناسب ميولهم».

«اعتداء؟» سأل والده. «ما الذي سيفعلونه؟».

أخبرهم رولو بالخبر الصاعق. «سيذرون رفات القديس أدولفوس».

وحلّ صمت مذهل لبعض الوقت.

«لا»، قالت مارجوري في صوتٍ أقرب للهمس.

«سأطعنه في أحشائه بسيفي إن حاول فعل هذا»، قال الإيرل سويذن.

اتسعت عينا رولو عندما فكر بأن العنف قد يكون من الطرفين. لم يكن قد فكر بهذا قبلاً.

تحدثت والدته بحماسة: «إن قتلت رجلاً في الكنيسة يا سويذن فسيتم إعدامك. حتى الإيرل لا يمكنه أن ينجو من هذا». وكان هناك شيء من

الغطرسة في الصراحة التي تحدثت بها الليدي جاين.

بدا سويذن محبطاً وقال: «اللعة، أنت على حق».

«أعتقد أنها قد تكون على خطأ يا سيدي»، قال رولو.

«كيف؟».

«كيف؟»، قالت الليدي جاين وقد رفعت حاجبيها. «أخبرني يا بني كيف يمكن أن أكون على خطأ».

أخذ رولو يتحدث بحذر فقد كانت الخطة ما تزال تختمر في رأسه وهو يتحدث: «إن ارتكاب جريمة عن سابق إصرار وترصد في الكنيسة...

حتى الإيرل لن ينجو من الإعدام على هذا الفعل، ولكن ماذا لو أدلى عمدة كينغزبريدج بقصة مختلفة!».

بدا سويذن حائراً بينما قال ريجنالد لابنه: «تابع يا رولو، هذا مثير للاهتمام».

«يمكننا اعتبار أي فعل عملاً خيراً أو شريراً، إلا أن هذا يعتمد على طريقة مقاربتة. فلتفكروا معي، إن دخلت مجموعة من المسلحين الأشداء إلى مدينة ما، فقتلوا الرجال واغتصبوا النساء، وأخذوا كل ما هو قيم ونفيس فسيعتبرون عندها مجرمين أشراراً، ولكن إن كانت هذه المدينة في العراق والضحايا من المسلمين فلن يكون الرجال مجرمين بل فرساناً وأبطالاً صليبيين».

«أنتَ تمزح، صحيح؟»، قالت مارجوري باشمتراز.

لم يفهم رولو ما عنته بكلامها.

قال السير ريجنالد وقد نفذ صبره: «وماذا بعد؟».

«في يوم الأحد سيقوم البيورتانيون بمهاجمة الكهنة وسرقة الرفات، وسيخالفون بعملهم هذا القانون الذي صادقت عليه الملكة إليزابيث. سيهب المسيحيون المخلصون في الأبرشية دفاعاً عن الأسقف الجديد الذي اختارته إليزابيث، ويحاولون إنقاذ رفات القديس. سيكون الوضع أفضل إن لم تُستخدم السيوف رغم أن الرجال وبشكل طبيعي يحملون معهم سكاكين الاستخدام اليومي كسكاكين تقطيع اللحم على الطعام. لسوء الحظ وخلال هذا الشجار سيُطعن زعيم البيورتانيين في كينغزبريدج دان كوبلي حتى الموت. لكن وبما أنه المحرض الأساسي على هذا العصيان فسيبدو الأمر كأنه مشيئة الربّ، ولن يُعرف صاحب الضربة القاتلة. وأنت يا أبي بصفتك عمدة كينغزبريدج، ستكتب تقريراً إلى جلالة الملكة تخبرها بهذه الحقيقة البسيطة».

«سيكون موت قائد البيورتانيين دان كوبلي هبة من الربّ»، قال السير ريجنالد مفكراً.

«إنه ألد أعداء عائلتنا»، أضاف رولو.

«قد يُقتل الكثير من الناس بسبب هذا»، قالت مارجوري بحدة.

لم يتفاجأ رولو برفضها للأمر، فقد كانت مارجوري ودية لعقيدتها، ولكنها كانت تؤمن بتعزيز الدين الكاثوليكي من دون استخدام العنف.

«إنها على حق»، قال سويذن. «إن في الأمر مخاطرة، ولكن لا يمكن أن ندع هذا يقف في طريقنا» ثم ابتسم وأضاف: «النساء يقلقن حيال مثل هذه الأمور، ولهذا اختار الربّ الرجال ليكونوا قادة».

استلقت مارجوري على السرير تفكر بأحداث هذا اليوم. كانت تكره دان كوبلي والبيورتانيين لأنهم يخططون للقيام بهذا العمل التدنيسي البشع، إلا أنها شعرت باحتقار كبير نحو والدها وأخيها. كانا يريدان استغلال هذا العمل التدنيسي بحق المقدسات لتحقيق ضربة سياسية.

قد يتعرض ريجنالد ورولو إلى الأذى خلال المعركة، إلا أنها بطريقة أو بأخرى، لم تبال بهذا الخطر لأنها فقدت أي شعور نحوهما. لقد استخدمتهما من دون رحمة من أجل تحقيق مكانة اجتماعية تماماً كما كانا يخططان الآن لاستخدام خطة تدنيس المقدسات على يد البيورتانيين لمصلحتهما. لم يعن لهما تدمير حياتها شيئاً، فقد كان اهتمامهما بها عندما كانت طفلة، أشبه باهتمامهما بمهرٍ قد يغدو في يوم ما حصان عربية مفيداً. انحدرت الدموع على خدها عندما تذكرت بحنين أوقات الطفولة، تلك الأوقات التي اعتقدت فيها أنهما يحبانها. لم تكن تبالي أيضاً بتعرض سويذن إلى الأذى بل كانت تتمنى، ومن أعماق قلبها، أن يُقتل أو يشوه بشكل كبير إلى درجة لا يعود فيها قادراً على فرض نفسه عليها. وعندما صلت طلبت من الرب أن يأخذ سويذن إلى الجحيم صباح يوم الأحد. بدأت تغفو وهي تتخيل اقتراب ميعاد التخلص من مُعذبتها، ولكنها استيقظت على فكرة أنها تستطيع تحقيق أمنيتها.

كان سويذن قد وضع نفسه في موقفٍ خطير، ولكن لا بد من وجود طريقة لجعل هذا الخطر حقيقياً وكفيلاً بالحاق ضرر. وبسبب عملها السري مع ستيفن لينكولن، ولأن رولو وريجنالد يعتبرانها حليفة قوية، لم يخطر ببالهما أن يخفيا عنها شيئاً. كانت تعلم السر وهي ستستخدم هذا السر.

نهضت مارجوري باكراً. كانت والدتها في المطبخ تعطي الأوامر إلى الخدم بخصوص وجبات اليوم. كانت الليدي جاين امرأة حادة البصيرة، ولذلك علمت أن هناك خطباً ما خطيراً في حياة مارجوري إلا أنها لم تقل شيئاً. كانت ستقدم لمارجوري النصيحة لو طلبتها، ولكنها لن تتطفل وتتدخل في حياة ابنتها من تلقاء نفسها، أو وربما كانت مدفوعة بالدافع نفسه الذي يجعلها تخفي أموراً في زواجها من السير ريجنالد.

طلبت الليدي جاين من مارجوري التوجه إلى سوق السمك عند النهر، وترى إن كان هناك سمك طازج للبيع. كان صباح السبت مطراً

لذلك ارتدت مارجوري معطفاً قديماً. تناولت سلة من أجل السمك وخرجت، وعندما وصلت كان الباعة في ساحة السوق ما يزالون ينصبون أكشاكهم.

كان عليها أن تحذر البيورتانيين من الفخ الذي بانتظارهم حتى يذهبوا إلى الكاتدرائية مسلحين ويدافعوا عن أنفسهم. ولكنها لم ترغب بقرع باب دان كوبلي لتقول له إن لديها سرّاً تريد الإفصاح عنه لأنه أولاً، سيرأها المارة على الطريق، وسيجدون زيارة مارجوري شايرنغ منزل دان كوبلي أمراً مفاجئاً ومن شأن الخبر أن ينتشر في البلدة خلال دقائق. أما ثانياً فهو أن دان قد لا يصدقها، وربما يشك بوجود خديعة في الأمر، ولهذا كانت بحاجة إلى طريقة سرية لتحذيره.

لم تنجح في التفكير بطريقة للخروج من هذه المعضلة. وبينما كانت غارقة في أفكارها وهي تجتاز الساحة قطع تفكيرها صوتٌ جعل نبضها يتسارع: «تسعدني رؤيتك جداً».

رفعت نظرها عالياً وكانت مصدومة وسعيدة. كان نيد ويلارد يقف أمامها بمعطفٍ أسود باهظ الثمن وبوجهه الذي لم يتغير. رأت مارجوري في نيد ملاكاً مخلصاً أرسله الربّ لمساعدتها.

شعرت باليأس عندما أدركت أنها كانت تبدو مهلهلة المظهر في معطفٍ غير جميل وشعرٍ مرفوع للأعلى تحت قبعة مهترئة. لحسن الحظ لم يبدِ نيد اهتماماً بمظهرها بل وقف في مكانه كأنما السعادة بالنسبة إليه أن يتسم لها إلى الأبد.

«أنت تحمل سيفاً الآن»، قالت له.

هزّ نيد كتفيه بلا مبالاة وقال: «يحمل جميع رجال البلاط سيوفاً. لقد تلقيت بعض الدروس في المبارزة حتى أعرف كيفية استخدامه».

بعد أن تجاوزت مارجوري وقع المفاجأة بدأت تفكر بشكل منطقي. من الواضح أنّ هناك فرصة أخرى لاستخدام السر الذي تعرفه. إن انتبه الناس إلى أنّها تتحدث مع نيد سيثيرون إليها ويقولون إنّها لم تنسّه، وستقول عائلتها الأمر نفسه إن سمعوا بأمر هذا اللقاء.

ولكن مارجوري لم تكن واثقة من أنها يجب أن تخبره بكل شيء.
«سيحدث قتال خلال مراسم ترسيم الأسقف»، بدأت تتحدث.
«سيأخذ دان كوبلي رفات عظام القديس أدولفوس».
«كيف علمت بهذا؟».

«دونال غلوستر أخبر رولو بهذا».
رفع نيد حاجبيه في استغراب. لم يكن يعلم أن مساعد دان كوبلي
جاسوس للكاثوليكين، ولكنه لم يبد أي تعليق حيال الأمر، وبدا كأنه يخشى
هذا الاكتشاف ليفكر به لاحقاً.
«أخبر رولو سويذن بالأمر، وسويذن سيستخدم الأمر كعذر ليفتعل عراكاً
ويقتل دان»، تابعت مارجوري.
«في الكنيسة؟».

«أجل، يعتقد أنه سينجو بفعلته إن قال إن حجته حماية الكهنة والآثار
المقدسة».

«سويذن ليس ذكياً بما يكفي ليفكر بهذا».

«لا، إنها فكرة رولو».

«ذلك الشيطان».

«كنت أحاول التفكير بطريقة لتحذير البيورتانيين حتى يحضروا إلى
الكنيسة مسلحين، ولكن يمكنك أن تقوم بهذا بدلاً عني الآن».

«أجل»، قال لها. «اتركي الأمر لي».

وقاومت مارجوري إغراء احتضانه وتقبيله.

«يجب أن نلغي مراسم الترسيم»، قال رئيس الكهنة لوك عندما أخبره نيد
بما سيحدث.

«ولكن متى سيكون الموعد».

«لا أعلم».

كانا يقفان قرب مذبح الكنيسة إلى جانب أحد الأعمدة العظيمة التي
تحمل برج الكنيسة. نظر نيد إلى الأعلى، وتذكر أنّ هذا البرج سُمي على

اسم ميرتن الذي أعاد بناءه بنفسه بعد أن تداعى البرج القديم. وهذا مذكور في كتاب تيموثي عن تاريخ كينغزبريدج. لا بد أن ميرتن قد أتقن بناءه لأنه ما يزال صامداً حتى بعد مرور مئتي عام.

تحول نيد بنظره إلى وجه لوك القلق وعينه الزرقاوين الفاتحتين. كان كاهناً من النوع الذي يريد تجنب وقوع أي نزاع أياً تكن التكلفة.

«لا يمكننا تأجيل مراسم الترسيم»، قال نيد. «سيكون الأمر أشبه بتوجيه ضربة سياسية إلى الملكة إليزابيث. سيقول الناس إن البيورتانيين في كينغزبريدج قد منعوها من تعيين الأسقف الذي تريده، وسيعتقد البروتستانتيون المتشددون في المدن الأخرى أن لديهم الحق في اختيار أساقفتهم، وقد يبدوون أعمال شغب مشابهة. ستحكم عليك بالصلب لأنك سمحت بحدوث هذا».

«يا إلهي!» قال لوك. «إذاً، علينا ترك رفات القديس أدولفوس في الضريح».

حرق نيد إلى ضريح القديس أدولفوس. كان الضريح مطوقاً بشباك معدنية، وهناك مجموعة صغيرة من الحجاج الراكعين على ركبهم يحدقون من فجوات الشباك إلى الضريح الذي كان عبارة عن تابوت ذهبي على شكل كنيسة بأقواس وأبراج صغيرة وبرج مستدق. كان التابوت الذهبي مرصعاً باللؤلؤ والياقوت الأحمر والأزرق، ويلمع في ضوء الشمس المتموج والقادم من النافذة الشرقية الكبيرة.

«لا أعتقد أن هذا الإجراء كافٍ»، قال نيد. «وبما أنهم خططوا لهذا العمل فقد يكسرون الشباك المعدنية».

بدا لوك مرتعباً: «لا يمكن أن يحدث شغب خلال مراسم ترسيمي كأسقف».

«لا، لا يمكن أن يحدث هذا، فمن وجهة نظر الملكة سيكون هذا سيئاً بقدر سوء إلغاء الحدث نفسه».

«ماذا سنفعل إذاً؟».

كان نيد يعلم ما الذي يريد القيام به إلا أنه كان متردداً. هناك أمر ما آخر أخفته عنه مارجوري، لقد أرادت أن يُسلح البيورتانيين ولم ترده أن يتجنب

الشجار أصلاً. تفاجأ بموقفها هذا، فقد كانت تعارض بقوة أي نوع من العنف الديني. عبرت هذه الفكرة في رأسه بسرعة بينما كان يتحدث إليها ولكنه الآن، وبعد أن فكر بالأمر بدأ يراه بشكل أوضح. كان هناك أمر ما آخر، ولكنه لا يعلم ما هو. لكن، وبغض النظر عن هذا، فلم يكن بوسعته تخطيط أفعاله على أرضية هذه الأفكار المبهمة، ولهذا وضع أفكاره بخصوص مارجوري جانباً لأنه كان بحاجة إلى تقديم حل آمن للوك.

«يجب أن تُفرغ المدافع من البارود»، قال له.

«ما الذي تعنيه».

«يجب أن نتخلص من الآثار المقدسة».

بدا لوك مصعوقاً وقال: «ولكن لا يمكننا أن نرميها».

«بالطبع لن نفعل. يمكننا أن ندفنها وفق مراسم دفنٍ لائقة. فلنقم بمراسم دفنٍ غداً فجرأ بحضور كاهن آخر أو اثنين. ولتطلب الليلة من حفار القبور جورج كوكس حفر حفرة في مكان ما داخل الكاتدرائية ولا تخبر أحداً بمكانها. ادفنوا العظام في التابوت الذهبي، واطلب من جورج تبديل حجارة الأرضية حتى لا يشك أحد أن شيئاً ما تحتها».

أخذ لوك يفكر بالأمر وقد علت وجهه تقطية قلق ثم قال: «عندما يصل الناس إلى مراسم الترسيم سيكون كل شيء قد تم. ولكن ما الذي سيقولونه عندما يكتشفون أن رفات القديس قد اختفت».

«ضع ملاحظة على الشباك المعدنية تقول فيها إن القديس أدولفوس قد دُفن هنا في الكاتدرائية. ثم اشرح لهم خلال العظة أن القديس ما يزال هنا، وبركاته ما تزال حاضرة، ولكنه دُفن في قبرٍ سري لحماية رفاتهِ من الناس الذين قد يرغبون بتدنيسها».

«هذا عمل ذكي»، قال لوك بإعجاب. «سيقتنع الناس، ولن يكون بإمكان البيورتانيين الاعتراض على هذا. سيكون احتجاجهم أشبه بالبارود المنزوع من المدفع».

«هذه تشبيه جيد، ولتستخدمه في عظتك».

هز لوك رأسه موافقاً.

«إذاً، نحن متفقان؟»، قال نيد.

«يجب أن أناقش الأمر مع رجال الكنيسة».

كبح نيد رد فعل سريع يشي بالضيق من لوك ثم قال: «لا ليس عليك، فأنت الآن الأسقف المنتخب». وابتسم ثم تابع كلامه: «يمكنك أن تعطي الأوامر».

بدا لوك غير مرتاح لفعل هذا وقال: «من الأفضل أن تشرح للناس أسباب الأوامر التي تعطيها لهم».

قرر نيد ألا يدخل في معركة افتراضية مع لوك: «فلتقم بما تريده. سأتي إلى هنا عند الفجر لأشهد على مراسم الدفن».

«حسناً».

لم يكن نيد واثقاً من أن لوك سينفذ ما طلبه منه. ربما كان عليه أن يذكره بدينه وبأنه ساعده ليصبح الأسقف ولذلك قال له: «سررت حقاً لأنني تمكنت من إقناع الملكة بأنك الشخص المناسب لمنصب أسقف كينغزبريدج».

«أنا ممتن جداً على إيمانك بي يا نيد».

«أعتقد أننا سنصبح فريقاً جيداً خلال السنوات القادمة وفي عملنا على وضع حد للأحقاد الدينية».

«آمين».

قد يغير لوك رأيه حيال الفكرة برمتها إن أبدى زملاؤه اعتراضاً، إلا أنه لم يعد بوسع نيد الآن القيام بأكثر مما قام به، ولذلك قرر أن يلتقي لوك مرة أخرى عند هبوط الليل ليطمئنه أكثر.

استأذن نيد بالمغادرة وخرج عبر صحن الكنيسة من بين الأعمدة المتراصة والأقواس العالية والنوافذ اللامعة وهو يفكر بكمية الخير والشر اللذين شهد عليهما هذا المكان على مدار أربعمئة عام. عندما خرج من الباب الغربي التقى بمارجوري مجدداً وهي في طريق عودتها إلى المنزل مع سلة على ساعدها وبداخلها سمك طازج. التقت نظراتهما وتوجهت مارجوري لمحادثته.

وقفا في رواق الكنيسة وسألته مارجوري: «هل قمت بالأمر؟».

«أعتقد أنني تجنبت وقوع أحداث عنف»، قال نيد. «لقد أقنعت لوك بدفن الرفات بشكلٍ سري صباح الغد حتى لا يعود هناك ما يدعو للقتال عليه».

توقع نيد أن تكون سعيدة وممتنة لسماع هذا، ولكنه أصيب بالذعر عندما حدثت نحوه مطولاً وفي رعبٍ ثم قالت: «لا، ليس هذا الحل». «ما الذي تتحدثين عنه بحق السماء؟». «يجب أن يحدث قتال».

«ولكنك لطالما عارضتِ استخدام العنف». «يجب أن يموت سويدن».

«صمتاً!» أمسكها من مرفقها وقادها إلى الداخل. في الممر الشمالي للكاتدرائية كان هناك معبد صغير مكرس للقديسة ديمفنا. لم تكن شخصية القديسة مشهورة ولهذا كان المعبد الصغير فارغاً، وقد أزالوا اللوحة التي تصور مشهد قطع رأس القديسة إرضاء للبيورتانيين.

وقف نيد أمام مارجوري ممسكاً بيديها وقال: «من الأفضل أن تقولي لي ما الخطب. لماذا يجب أن يموت سويدن؟».

لم تقل شيئاً، ولكنه رأى على وجهها أنها تقاوم صراعاً في خلدتها، ولذلك انتظرها حتى تتكلم.

وأخيراً بدأت مارجوري تتحدث: «عندما يكون بارت بعيداً عن المنزل يأتي سويدن إلى غرفة نومي».

حذق نحوها نيد مشدوهاً. كانت تتعرض للاغتصاب على يد والد زوجها. كان هذا مشيناً و... وحشياً. تملكه غضب عارم، واضطر للتغلب على مشاعره والتفكير بعقلانية. قفزت الأسئلة إلى عقله إلا أن الأجوبة عليها كانت واضحة.

«لقد قاومته إلا أنه أقوى منك، وقال لك إنك لو صرخت فسيدعي أنك من أغويته، وأن الجميع سيصدقه».

ترقرقت الدموع على خديها وقالت: «عرفت أنك ستفهم الأمر». «هذا الرجل حيوان».

«لم يكن علي إخبارك فقد يأخذ الربّ حياة سويدن غداً». وأقسم نيد في نفسه أنه سيأخذ حياة سويدن بيده إن لم يأخذها الربّ غداً، ولكنه لم يقل هذا بل اكتفى بالقول: «سأتحدث إلى لوك مجدداً وسأحرص على وقوع شجار».

«كيف؟».

«لا أعلم. يجب أن أفكر بالأمر».

«لا تخاطر بحياتك. سيكون هذا أسوأ بكثير من الوضع الذي أنا فيه».

«خذي السمك إلى المنزل»، قال لها.

ترددت لدقيقة طويلة ثم قالت له: «أنت الشخص الوحيد الذي أثق به».

هز رأسه وقال لها: «أعلم، فلتعودي الآن إلى المنزل».

مسحت عينيها بكميها وغادرت الكاتدرائية، ثم غادر نيد بعد برهة وجيزة.

ولو أن نيد التقى بسويدن في تلك اللحظة لكان أطاح به أرضاً ووضع

يديه على رقبتة وخنقه إلى أن يفارق الحياة. قد يقوم الإيرل بطعنه بالسيف

آنذاك، ولكن نيد كان غاضباً جداً وغير خائف من مواجهة أي شيء.

التفت نيد إلى الورااء باتجاه البوابة الغربية للكاتدرائية الرطبة بفعل

المطر الإنكليزي الخفيف والمستمر. يدخل الناس من هذه البوابة ليقابلوا

الرب. كيف أمكنه التفكير بجريمة قتل هنا؟ ولكنه لم يكن قادراً على التفكير

بشيء آخر.

جاهد نيد ليحافظ على رباطة جأشه، وقال في نفسه إن عليه مواجهة

الأمر فهو لا يستطيع التغلب على سويدن في قتال، وإن تغلب عليه فسيُعدم

على قتله رجلاً نبيلاً، لذلك يجب أن يتصرف بذكاء فسويدن غبي، ولهذا

عليه أن يجد طريقة ذكية للقضاء عليه.

استدار نيد وعبر ساحة السوق. كان السبت مزدحماً كأي سبت إلا أنه

اكتظ اليوم بالزوار القادمين من أجل مراسم الترسيم غداً. عادة ما كان يتفقد

الأكشاك ويراقب بشكل أتوماتيكي الأسعار المرتفعة والمنخفضة، والنقص

والوفرة في المواد، وحجم المال الذي ينفقه الناس والأشياء التي يشترونها

ولكنه لم يفعل هذا اليوم. انتبه إلى معارفه الذين كانوا يحيونه إلا أنه كان

غارقاً في التفكير ولم يُجب على سلامهم سوى بتلويحة بسيطة أو إيماءة

ذاهلة. وصل إلى الباب الأمامي لمنزل عائلته ودخله.

كانت والدته قد بدأت تستسلم للشيخوخة بحزن، وقد بدت كأنها

تقلصت داخل جلدها، وباتت تمشي محدودة الظهر. كانت قد فقدت كل

اهتمامها بالعالم خارج المنزل، ولم تطرح على نيد سوى أسئلة روتينية عن

عمله مع الملكة إلا أنها بالكاد أصغت إلى أجوبته. فيما مضى كانت تتوق إلى سماع أخبار المناورات السياسية، وترغب بمعرفة كل شيء عن إدارة إليزابيث للقصر.

ولكن نيد لاحظ تغييراً في المنزل لم يلاحظه عندما غادره هذا الصباح. كانت والدته في القاعة الرئيسية مع الخادمة جانيت فايف وزوجها مالكولم وابتتهما إيلين البالغة من العمر ستة عشر عاماً. بدوا جميعاً مفعمين بالحياة، وتكهن نيد على الفور أن هناك أخباراً جيدة. حالما رآته والدته قالت له: «عاد بارني إلى إنكلترا».

وأخيراً، ها هي بعض الأمور التي تسير كما يجب. فكر نيد بهذا، ونجح برسم ابتسامة على وجهه ثم قال: «أين هو؟».

«في ميناء كومب مع سفينة ذا هوك. وصلتنا رسالة منه. إنه ينتظر أن يدفعوا له رواتبه للأعوام الثلاثة الماضية ثم سيعود إلى المنزل».

«وهل هو بخير؟ أخبرتك أنه توجه إلى العالم الجديد».

«ولكنه عاد سالمًا».

«حسنًا يجب أن نُحضر للاحتفال، فلتذبحي العجل الذي تم تسمينه».

امتقع وجه أليس وقالت: «ليس لدينا عجل».

قالت الشابة إيلين التي كانت مغرمة ببارني عندما كانت طفلة: «لدينا خنزير صغير عمره ستة شهور في الزريبة، وقد كانت أمي قد خططت لاستخدامه من أجل اللحم المقدد في الشتاء. يمكننا أن نشويه فوراً».

كان نيد مسروراً فها هو شمل العائلة سيلتئم مجدداً، ولكن عذاب مارجوري عاد ليطارده عندما كان مع والدته يتناول وجبة الغداء. كانت تتحدث بحيوية، وتحاول توقع نوع المغامرات التي مر بها بارني في إشبيلية وأنتويرب وإسبانيولا. تركها نيد تتحدث فيما غرق هو في أفكاره الخاصة.

أرادت مارجوري تحذير البيورتانيين حتى يأتوا إلى الكنيسة مسلحين على أمل أن يموت سويذن خلال الشجار الناجم بينهم، إلا أن نيد الذي لم يكن يعلم كامل الحكاية افترض أن نواياها صافية. لن يحدث أيّ شجار الآن لأن الرفات المقدس لن يعود موجوداً في مراسم الترسيم، وبالتالي لن يعترض البيورتانيون، ولن يكون لدى سويذن حجة لافتعال شجار.

فكر نيد بطريقة لعكس ما قام به ولكن الأمر مستحيل، فرئيس الكهنة لوك سيرفض رفضاً قاطعاً العودة عن الخطة الأساسية لأن العودة من شأنها أن تؤدي إلى أعمال شغب.

أدرك أنه يستطيع إعادة خلق سيناريو الشجار من خلال إخبار كلا الطرفين بأمر دفن الرفات عند الفجر إلا أن هناك عقبة أخرى تواجهه. عادة ما تكون الشجارات غير متوقعة، وقد يصاب سويدن أو قد لا يصاب. يحتاج نيد إلى ضمان إصابته من أجل مارجوري.

هل توجد طريقة لتحويل مراسم الدفن غداً إلى فخ لسويدن؟ وكيف يمكن لنيد أن يحافظ على خطة رولو الدموية، ولكن من دون التبرير الذي قدمه رولو؟

وبدأت الخطة تبلور في رأسه. ربما يستطيع أن يغري سويدن بالقدوم إلى الكاتدرائية وتقديم معلومات خاطئة. ولكن إن لم يكن الكاثوليكيون يثقون بنيد فبمن يثقون؟

وهنا تذكر نيد ما قالت مارجوري عن أن دونالد غلوستر يعمل جاسوساً لهم. إن رولو يثق بدونال! وبدأ نيد يشعر بالتفاؤل مجدداً.

غادر نيد المنزل بعد الانتهاء من العشاء. تمشى في الطريق الرئيسي، واستدار إلى رصيف سلوترهاوس البحري، وعبر مراسي السفن متوجهاً إلى منطقة المدابغ التي كانت عبارة عن حي على ضفة النهر تشغله صناعات تبعث منها روائح كريهة، ومنازل صغيرة. وهناك قرع باب منزل دونالد غلوستر. فتحت والدة دونالد الباب. كانت والدة سيدة جميلة في منتصف العمر، ولديها شفاه دونالد الممتلئة والشعر الأسود الكثيف.

«ما الذي أحضرك إلى هنا يا سيد ويلارد؟» قالت في حذر.
«صباح الخير أيتها الأرملة غلوستر»، قال نيد بتهذيب. «أرغب بالحديث مع دونالد».

«إنه في العمل، وأنت تعرف أين يقع مقر عمل دان كوبلي».
أوما نيد برأسه، فهو يعرف أن دان يملك مستودعاً قرب الرصيف البحري.
«لا أريد أن أزعج دونالد أثناء عمله. متى تتوقعين عودته إلى المنزل؟».

«ينتهي من عمله عند الغروب، ولكنه عادة ما يذهب إلى حانة سلوترهاوس قبل العودة إلى المنزل».

«شكراً لك».

«ما الذي تريده منه؟».

«لا أنوي إلحاق أي أذى به».

«شكراً لك»، قالت له ولكن بارتياب، وأدرك نيد أنها لم تصدقه.

عاد نيد إلى الواجهة المائية، وجلس على حبل ملفوف يعمل على خطته الخطيرة التي لم تتبلور بعد بينما كان يراقب حركة التجارة والقوارب والعربات التي وصلت وغادرت لتحميل أو تفريغ الحبوب والفحم وحجارة المقلع وخشب الغابة ورزم القماش وبراميل النيذ. بهذه الطريقة ازدهرت أحوال عائلته فيما مضى؛ من خلال الشراء من مكان والبيع في آخر والاحتفاظ بفارق السعر. كانت طريقة بسيطة إلا أنها الطريقة الوحيدة ليصبح المرء ثرياً... إنها الطريقة الوحيدة ما لم يكن المرء من النبلاء، ويكره الناس على دفع إيجار أراضي يزرعونها ويجنون لقمة العيش منها.

بدأ الظلام يحلّ وأغلقت الأبواب وأُقلعت المستودعات، وبدأ الرجال يغادرون الرصيف البحري وقد ارتسم على وجوههم توقُّ للعودة إلى المنزل وتناول العشاء، أو إلى التوجه إلى حانة وسماع أغنية، أو الذهاب مع حبيبة إلى زقاق معتم. رأى نيد دونالد يخرج من المبنى التابع لعائلة كوبلي متوجهاً إلى حانة سلوترهاوس وهو يبدو كشخص غير مكترث لأنه يقوم بنفس العمل كل يوم.

لحق به نيد إلى الحانة وقال له: «هل يمكننا التحدث بهدوء يا دونالد».

في هذه الأيام لم يكن هناك من يرفض تبادل حديث هادئ مع نيد. لقد أصبح نيد صاحب سلطة وعلى قدرٍ من الأهمية، والجميع في كينغزبريدج يعلم هذا، ولكن ما يدعو للاستغراب أنّ هذا لم يمنحه أيّ إحساس بالرضا. هناك رجال يتوقون للحصول على الاحترام، وآخرون يحبون النيذ أو أجساد النساء الجميلات، أو يفضلون حياة التبتل والنظام والطاعة، ولكن ما الذي كان يشتهي نيد حقاً؟ وحضر الجواب في عقله بسرعة وسهولة أثارتا

استغرابه؛ كان يشتهي العدالة. وقال نيد في نفسه إنه سيفكر في هذا الجواب لاحقاً وليس الآن.

دفع نيد ثمن كأسين من الجعة، وتوجه مع دونال إلى إحدى الزوايا. حالما جلسا قال له نيد: «أنت تعيش حياة خطيرة يا دونال».

«نيد ويلارد الفتى الذكي على الدوام»، قال دونال وهو يلوي شفثيه بطريقة غير لطيفة.

«لم نعد في مدرسة النحو حيث كنا نُجلد على اقرار الأخطاء، لقد أصبحنا الآن نتعرض للقتل بسببها».

بدا دونال خائفاً، ولكنه حاول أن يبدو شجاعاً: «إذاً، من الجيد أنني لا أرتكب أيّ أخطاء».

«إن عرف دان كوبلي والبيورتانيون بأمرك أنت ورولو فسقطعونك إرباً إرباً».

شحب وجه دونال.

مرت دقيقة طويلة حاول فيها دونال أن يفتح فمه ليتحدث ولكن نيد أوقفه: «لا تُنكر الأمر فسيكون هذا مضيعة لوقتك ووقتي. ركز على ما يجب عليك القيام به حتى لا أفشي سرّك».

بلغ دونال ريقه، وأوماً برأسه.

«ما أخبرت به رولو البارحة كان صحيحاً ولكن الأمور تغيرت».

فغر دونال فمه مدهوشاً: «كيف...».

«لا تهتم بالطريقة التي عرفت فيها بما أخبرت رولو. كل ما عليك معرفته الآن أن قدسية رفات القديس في الكاتدرائية ستنتهك غداً ولكن الموعد قد تغير. سيجري الأمر فجراً وبحضور عددٍ قليل من الناس».

«لماذا تخبرني بهذا؟».

«حتى تخبر رولو».

«لكنك تكره عائلة فيترجيرالد. لقد دمروا عائلتك».

«لا تحاول فهم الأمر. فلتفعل ما قلته لك ولتتخذ نفسك».

«سيسألني رولو كيف عرفت بهذا التغيير».

«قُلْ له إنك سمعت دان كوبلي يتحدث عن الأمر».

«حسناً».

«اذهب لمقابلة رولو الآن. لا بدّ أن هناك طريقة ما للاجتماع به بشكل طارئ».

«بعد أن أنتهي من تناول الجعة».

«ألا تفضل أن تكون صاحباً عندما تقوم بهذا؟».

نظر دونال إلى كأس الجعة بأسفٍ.

«الآن يا دونال»، قال نيد.

نهض دونال وغادر.

بعد مرور عدة دقائق غادر نيد الحانة، وسار في الشارع الرئيسي إلا أنه كان يشعر بالاضطراب. كانت لديه خطة إلا أنها تعتمد على قيام الكثير من الناس بما هو متوقع منهم أن يقوموا به: رئيس الكهنة لوك ودونال غلوستر ورولو فيتزجيرالد والأهم منهم جميعاً وأكثرهم عناداً الإيرل سويذن. إن تداعت حلقة واحدة في هذه السلسلة فستفشل الخطة، ولذلك كان عليه الآن أن يضيف حلقة جديدة.

تجاوز نيد الكاتدرائية ونُزل بيل وقصر برايبوري غيت وهو في طريقه إلى غيلد هول. قرع على باب غرفة الشريف ماثيوسن، ولكنه دخل من دون أن يسمع الدعوة بالدخول. كان ماثيوسن يتناول عشاءً باكراً ومكوناً من الخبز واللحم البارد. وضع الرجل سكينه من يده ومسح فمه.

«طاب مساؤك سيد ويلارد. أرجو أن تكون بخير».

«أنا بخير أيها الشريف. شكراً لك».

«كيف يسعني أن أخدمك؟».

«يسعك أن تخدم الملكة أيها الشريف. لقد كلفتك صاحبة الجلالة بعمل لتقوم به... الليلة».

وضع رولو يده بتوتر على مقبض سيفه. لم يكن قد دخل في معركة قبلاً، وعندما كان صبيّاً تدرّب على القتال باستخدام سيفٍ خشبي كبقية أولاد العائلات الميسورة، إلا أنه لم يملك أدنى خبرة في القتال الحقيقي.

امتلأت غرفة نوم السير ريجنالد بالناس إلا أنها كانت غارقة في الظلمة،

وما من أحد نام على السرير. لنافذة الغرفة إطلالة ساحرة على الجوانب الشمالية والغربية من كاتدرائية كينغزبريدج. كانت ليلة صافية، ورأى رولو بعينه اللتين اعتادتتا ظلام الغرفة الوميض الضعيف لضوء النجوم وحدود الكنيسة. وتحت أقواس الكنيسة المدببة بدت الأبواب والنوافذ وكأنها برك عميقة من الظلام وأشبه بمحجري رجل أصيب بالعمى لأنه زور مالا. وإلى الأعلى بدت الأبراج بزخارفها والكتل في نهايتها حالكة جداً على أرضية السماء المرصعة بالنجوم.

كان برفقة رولو والده السير ريجنالد وصهره بارت شايرنغ ووالد بارت الإيرل سويذن ورجلان مسلحان من أخلص رجال سويذن. وكان الجميع يحملون سيوفاً وخناجر.

عندما قُرع جرس الكاتدرائية مؤذناً بأن الساعة الآن الرابعة صباحاً. أقام ستيفن لينكولن قداساً، ومنح الغفران للرجال الستة على الجريمة المقبلين عليها، وبعدها عاد الرجال إلى النافذة يراقبون في صمت.

كانت الليدي جاين ومارجوري في السرير، إلا أن رولو كان واثقاً من أنهما لم تكونا نائمتين.

كانت ساحة السوق التي عادة ما تزدهم خلال ساعات النهار، فارغة وهادئة. وفي أقصى الساحة تقع مدرسة النحو وقصر الأسقف اللذان كانا غارقين في العتمة الآن. وبعد المدرسة والقصر تبدأ المدينة بالانحدار باتجاه النهر حيث تبدو أسقف المنازل قريبة جداً كعتبات درج عملاق.

كان رولو يأمل أن يستخدم سويذن وبارت والرجلان المسلحان العنف وينجحون بما طُلب منهم.

أضاءت النجوم السماء، ونزعت عن الكاتدرائية اللون الأسود وكستها باللون الرمادي. همس أحدهم بعد قليل: «انظروا هناك»، وشاهد رولو الموكب الصامت يخرج من قصر الأسقف. كان الموكب مؤلفاً من ستة أشخاص ويبد كل واحد منهم مصباح بداخله شمعة. عبروا الساحة، ودخلوا إلى الكنيسة من الباب الغربي، ثم اختفى ضوء مصابيحهم وكأنهم أطفئوها. امتقع وجه رولو. لا بد أن دان كوبلي وبقية البيورتانيين قد دخلوا إلى الكاتدرائية. ربما تسللوا من أبنية الدير المهتمة، ودخلوا من أحد الأبواب

البعيدة من دون أن يتبهاوا إليهم من قصر برايورى غيت. شعر رولو بالاضطراب، وتردد في التعبير عما يجول في ذهنه في هذه المرحلة المتأخرة مخافة أن يقولوا عنه أنه جبان، ولذلك لزم الصمت.

«سنتظر لدقيقة واحدة فقط حتى منحهم الوقت للبدء بأعمالهم الشيطانية»، همس الإيرل سويذن.

كان الإيرل على حق. سيكون من الخطأ البدء بإطلاق النار، والدخول إلى الكنيسة قبل إخراج الرفات وبدء عملية التدنيس.

تخيل رولو القساوسة يمشون على طول الممر المُفضي إلى النهاية الشرقية، ويفتحون الشباك المعدنية، ويأخذون الصندوق من داخلها. ما الذي سيفعلونه بعد هذا؟ هل سيرمون العظام في النهر؟
«حسناً فلننطلق»، قال سويذن.

قادهم سويذن على طول الطريق، ولحق به الآخرون عبر الدرج باتجاه الباب الأمامي. حالما خرجوا بدؤوا يركضون، وعلا صوت أقدامهم كهدير الرعد وسط هدوء الليل. تساءل رولو إن كان بوسع من في الكاتدرائية سماعهم، وإن كانوا سريعي البديهة بما يكفي لإيقافهم والهرب. فتح سويذن باباً عظيماً، وسحب الجميع سيوفهم ثم دخلوا.

لقد وصلوا في الوقت المناسب. كان رئيس الكهنة لوك يقف في صحن الكنيسة أمام المذبح المنخفض حيث عدد من الشموع، ويرفع الصندوق الذهبي بين يديه عالياً بينما البقية يغنون وكأنه جزء من عبادتهم الشيطانية. وبسبب الضوء الضعيف في الداخل كان من الصعب إحصاء عدد الواقفين في ظلال الكنيسة الواسعة. عندما ركض الدخلاء إلى صحن الكنيسة باتجاه المجموعة التي وقفت قرب المذبح لاحظ رولو وجود حفرة في أرضية الكنيسة وكومة من أحجار البلاط الكبيرة والمصفوفة جانباً عند أحد الأعمدة. بجانب العمود وقف حفار القبور جورج كوكس وقد اتكأ على مجرته. لم يكن هذا المشهد الذي توقع رولو رؤيته، ولكن هذا غير مهم. فهذا الموقف الذي وضع رئيس الكهنة لوك نفسه فيه يفضح نواياه الهرطقة. وبما أن سويذن كان قائد المجموعة فقد اندفع نحو لوك بسيفه. استدار لوك وهو ما يزال يحمل الصندوق عالياً.

رفع جورج كوكس مجرته عالياً، وركض باتجاه الإيرل.
في تلك اللحظة سمع رولو أحداً يصرخ بارتباك: «توقف باسم الملكة!»
وعرف مصدر الصوت.

ضرب سويذن لوك بالسيف، ولكن الأخير تفادى الضربة في اللحظة الأخيرة، إلا أن السيف أصابه في ذراعه اليسرى ومزق ثوبه الأسود، وانغرز عميقاً في لحم ساعده. صرخ لوك من شدة الألم وأوقع الصندوق من يده. ارتطم الصندوق بالأرض فانفلتت بعض الجواهر الثمينة وتدحرجت على الأرضية الحجرية.

رأى رولو بطرف عينه حركة خفية عند الجناح الجنوبي للكنيسة. بعد مرور دقيقة اندفعت مجموعة من عشرة أو اثني عشر رجلاً بالسيف والهراوات عبر صحن الكنيسة. انقضت المجموعة على الدخلاء، وردد الصوت نفسه الأمر بالتوقف عما يفعلونه باسم الملكة. واكتشف رولو أنّ الشريف ماثيوسن هو من صرخ بهذه التعليمات غير المجدية، وتساءل عما يفعله ماثيوسن هنا.

لوح جورج كوكس بمعوله باتجاه رأس الإيرل، ولكن سويذن حاول تفادي الضربة لتصيبه في كتفه اليسرى. انخرط الرجلان في القتال، وقام سويذن بطعن الرجل بسيفه. أصيب رولو بالهلع عندما رأى السيف يخترق بطن حفار القبور ويخرج من ظهره.

انحنى بقية الكهنة حول الصندوق على الأرض وكأنهم يقومون بحمايته. اندفع الشريف ماثيوسن ورجاله نحو الإيرل ومجموعته، ولمح رولو خوذة أوزموند كاتر الجلدية من بين رؤوس الرجال، وشعر أنّه لمح شعر نيد ويلارد المائل للاحمرار بينهم.

كان هناك رجلان في مواجهة كل رجل من رجال الإيرل. وفكر رولو بأنه قد يموت، ولكن الرب سيكافئه. كان على وشك الانخراط في قتال، إلا أنّ فكرة مفاجئة خطرت بباله. جعله وجود نيد ويلارد المفاجئ يشعر بالارتياح من أن الأمر مجرد فخ، وتساءل عن مكان البيورتانيين وإن كانوا يختبئون في الظل، وأنهم قد يندفعون في أي لحظة. ولكن رولو لم ير سوى رجال الإيرل من جهة ورجال الشريف من جهة أخرى بينما وقف الكهنة المرتعبون في المنتصف.

ربما كانت المعلومات التي أخبره بها دونالد غير صحيحة. ولكن ها هم الكهنة قد حضروا مع بزوغ الفجر كما قال له دونالد تماماً، وها هم حقاً يقومون بعمل شريـر بحق رفات القديس. ربما غير دان كوبلي رأيه وقرر أن الاحتجاج في كنيسة فارغة لا يستحق المشقة. ولكن ما يثير الشك في الأمر برمته وجود الشريف ماثيوسن هنا. هل عرف ماثيوسن بنوايا الإيرل؟ يبدو هذا مستحيلاً، فالوحيدون الذين يعرفون بنوايا الإيرل خارج دائرة العائلة، هم الرجال المسلحان وستيفن لينكولن وهم موضع ثقة تامة. ربما قرر رئيس الكهنة لوك أن يلزم الحذر ولهذا استدعاه. إن من يرتكب ذنباً يظل خائفاً على الدوام.

لم يكن يهم إن كان الأمر فحاً أم مغامرة طائشة مصيرها الإخفاق التام لأن القتال قد بدأ فعلاً.

كان الشريف والإيرل أول من انخرط في القتال. وبينما كان سويدن يحاول إخراج سيفه من جسد جورج كوكس، ضرب الشريف بسيفه يد سويدن اليمني. صرخ سويدن من الألم، وأفلت غمد سلاحه. رأى رولو إبهاماً مقطوعاً يقع على الأرض إلى جانب الجواهر المتناثرة.

خرج نيد ويلارد من بين رجال الشرطة، واندفع نحو سويدن رافعاً سيفه فهرع رولو ووقف في طريق نيد ليحمي الإيرل المصاب. توقف نيد وأصبح الشابان وجهاً لوجه.

كان رولو أطول وأثقل وزناً من نيد. وعندما كان نيد صغيراً كان رولو قادراً على إزعاج نيد الصغير إلا أن هذا لم يدم طويلاً. كان هناك شيء ما في الطريقة التي وقف بها نيد ما قوض شعور رولو بالتفوق.

تحركا بعضهما حول بعض وسيفاهما مرفوعان، ويبحثان عن فرصة مناسبة. رأى رولو على وجه نيد تعبيراً أقرب إلى الاشمئزاز، وتساءل عما فعله ليحقد عليه نيد كل هذا الحقد، وأتته الأجوبة كثيرة وسريعة. لقد أجبر رولو مارجوري على الزواج من بارت، واتهم عائلة ويلارد بالربا وساهم في تدمير تجارتها، وحاول إيقاف إليزابيث من الوصول إلى العرش، وفوق هذا كله تتمر رولو على نيد عندما كانا في المدرسة.

سمع رولو وراءه صوت صرخة، ونظر من فوق كتفيه بسرعة ليرى أن

الإيرل سويذن ما زال يقاتل رغم إصابته. ورغم أنّ الإيرل رفع سيفه بيده اليسرى بشكل أخرج فإنه تمكن من إصابة الشريف ماثيوسن في جبهته. كان الجرح سطحياً إلا أنه نزع بغزارة، وأعاق الدم الشريف من الرؤية أمامه. بما أنّ كلا الرجلين كانا مصابين فقد أخذا يقاتلان وكأنهما ثملين.

ارتكب رولو غلطةً بنظره إلى الوراء لأن نيد هاجمه على حين غرة وبكل شراسة.. اندفع نيد نحو رولو بسرعة، وأضاء ضوء الشموع حركة السيف الثقيل. دافع رولو عن نفسه بشدة، وصدّ الضربات وردّها، ثمّ شعر بشيء يتحرك تحت نعل حذائه الأيمن. كان أحد الحجارة الكريمة التي سقطت من الصندوق وأدرك بفرع أنّ قدمه قد زلّت. سقط على ظهره فاتحاً ذراعيه، ووقع السيف من يده، وجعل هذا جسده عرضة لضربات نيد. وخلال أجزاء من الثانية رأى رولو أن موته محتم، إلا أنه تفاجأ عندما رأى نيد يتجاوزَه.

قفز رولو على قدميه ونظر خلفه. كان نيد يهاجم الإيرل بشراسة أكبر بينما وقف الشريف جانباً يمسح الدم عن عينيه. تراجع سويذن إلى الوراء إلى أن أوقفه عمود وراءه، وبضربة سريعة أوقع نيد السيف من يد الإيرل اليسرى، ثمّ وعلى حين غرة استقر رأس سيف نيد عند حلق الإيرل. «اعتقله!» قال الشريف.

اخترق رأس سيف نيد جلد حلق سويذن فبدأ الدم يترقق من الجرح إلا أن نيد كبح نفسه. كانت المسافة بين الإيرل سويذن والموت قريبة جداً، ثمّ قال نيد: «اطلب من رجالك إلقاء أسلحتهم».

«ألقوا الأسلحة! ألقوا الأسلحة!» صرخ سويذن.

تراجع صخب المعركة وحلّ محله صوت السيوف المعدنية المتساقطة على الأرضية الحجرية. نظر رولو حوله، ورأى والده السير ريجنالد يركع ورأسه ينزف بين يديه.

رأى رولو أن نيد ما زال يحدق بسويذن.

«باسم الملكة أعتقلك بتهمة الهرطقة وتدنيس المقدسات وارتكاب جريمة»، قال نيد.

قفز رولو على قدميه وقال: «نحن لسنا مُجدفين».

«حقاً؟» قال نيد في رباطة جأشٍ مفاجئة ثمّ تابع: «ولكنكم هنا في

الكنيسة وسيوفكم مرفوعة. لقد جرحتم الأسقف الجديد، وقتلتم حفار القبور، وسببتم سقوط الرفات المقدس على الأرض». «ولكن ماذا عنكم أنتم؟».

«لقد أتى الشريف مع رجاله لحماية رجال الدين والرفات المقدس. ومن حسن الحظ أننا فعلنا هذا».

كان رولو مدهوشاً من وصول الأمور إلى هذه الدرجة من السوء. «قيدهم يا أوزموند وأودعهم السجن في غيلد هول»، قال نيد، ومن دون أدنى تأخير أخرج أوزموند لفافة من الحبال المتينة بينما تابع نيد إلقاء التعليمات قائلاً: «ثم أحضر الطبيب، واحرص على معالجة رئيس الكهنة لوك».

وبينما كانوا يقيدون يدي رولو خلف ظهره حدّق هذا الأخير إلى نيد ورأى نظرة رضا وحشية على وجهه. ضرب رولو أحماساً لأسداس باحثاً عن تفسير لما جرى، وكيف علم الشريف بنوايا سويذن، وإن كان رئيس الكهنة لوك الجبان قد استدعى الشريف ورجاله لأنه كان متوتراً حيال ما كان سيقوم به، وإن تم تحذير البيورتانيين ولهذا لم يكونوا حاضرين، وإن كان نيد ويلارد العقل المدبر وراء هذه الكارثة، ولكن لم يكن لدى رولو أدنى فكرة عما قاد إلى كل هذا.

أُعدم الإيرل سويدن، وكنْتُ المسؤول عن إعدامه. آنذاك لم يكن لدي أدنى فكرة أنه سيكون الأول من بين الكثيرين لاحقاً.

حصل رولو وبارت والسير ريجنالد على غرامات كبيرة، إلا أن أحداً منهم كان يجب أن يموت، وكان الإيرل من قتل رجلاً في الكنيسة. كانت هذه حجة إعدامه، إلا أن ما جعل هذه النهاية المميتة حتمية هي محاولته تحدي إرادة الملكة إليزابيث. أرادت الملكة من الشعب الإنكليزي أن يفهم جيداً أنها صاحبة الحق الأوحد في تعيين الأساقفة، ومن سيعارض هذا الامتياز سيخاطر بحياته. يعتبر إعدام أي إيرل أمراً مروعاً إلا أنّ إليزابيث كانت بحاجة إلى قتل سويدن، وحرصت على أن يفهم القضاة رغبتها بهذا.

وفيما تجمعت حشود الناس أمام كاتدرائية كينغزبريدج ليشهدوا على حكم الإعدام حذق رولو نحوي بكل قسوة، وعلمت أنه كان ما يزال يشك بوجود فخ ما، ولكن لا أعتقد أنه فهم ما جرى حقاً. وهناك أيضاً كان السير ريجنالد بندبة عريضة على رأسه وحيث لن ينمو الشعر مجدداً. لقد أفسد الجرح شعره ودماغه على حد سواء فهو لم يتمكن من استعادة قدراته العقلية التامة بعد ما جرى، وأعلم أنّ رولو سيلومني على هذا دوماً.

كان بارت ومارجوري حاضرين أيضاً. بكى بارت على والده

الذي ورغم شروره ما يزال من لحمه ودمه. بدت مارجوري كشخصٍ حصل على حرите من زنازة مريعة وخرج إلى الهواء الطلق فقد اختفت عن وجهها تلك السحنة المريضة، وارتدت ثيابها بتلك الثقة القديمة التي امتلكتها رغم أنها كانت في ثياب الحداد. كان بوسعها مع تلك القبعة السوداء والريشة السوداء أيضاً أن تبدو لعبوباً. فها هو مُعذبها في طريقه إلى الجحيم حيث ينتمي، وها هي تتحرر منه إلى الأبد.

أخرجوا سويدن من غيلدهول، ولم يساورني شك في أن أسوأ جزء في عقابه كان مشية العار التي سيقوم بها على طول الشارع الرئيسي باتجاه الساحة وأمام حشود الناس المُهلهلة التي لطالما احتقرها واعتبرها أقل شأناً منه. قُطع رأسه على منصة الإعدام؛ فهذه العقوبة السريعة والرحيمة مخصصة للنبلاء فقط. أعتقد أن هذه النهاية أتت كنوع من الانعتاق.

لقد تحققت العدالة. كان سويدن مجرمًا ومغتصبًا واستحق الموت، إلا أنني اكتشفت أن ضميري لم يكن مرتاحاً. لقد استدرجته إلى كمين، وبسبب هذا توفي جورج كوكس الذي يقع موته على كاهلي. لقد تدخلت في سير أمور كان يمكن للقانون أن يحلها، وإذا لم ينجح في حلها فإن الرب كان سيتكفل بوضعها في نصابها.

قد ألقى الكثير من العذاب في الجحيم بسبب خطيئتي، ولكن إن قُدر لي أن أعيش ذلك مجدداً فسأكرر فعلتي كي أنهى محنة مارجوري، وسأفضل المعاناة على أن تستمر معاناتها. بالنسبة إلي كانت سلامتها أهم من سلامتي.

وعلى مدار حياتي الطويلة تعلمت أن هذا ما يعنيه أن يكون المرء عاشقاً.

الجزء الثالث
(1573 – 1566)

الفصل الرابع عشر

كان إبرما دابو يعيش حلمه فقد أصبح رجلاً حراً غنياً وسعيداً. في أحد أيام الأحاد من صيف عام 1566 خرج إبرما بعد الظهر مع شريكه كارلوس كروز من مدينة أنتويرب باتجاه الريف. كانا قد أصبحا مواطنين ميسوري الحال وحسني الهندام في إحدى أثرى مدن العالم، ويملكان أكبر ورشة لصناعة الحديد في أنتويرب. فكر إبرما بأنه وكارلوس متكافئان في ملكة العقل، إلا أنه كان أكبر عمراً وأكثر حكمة في الوقت الذي امتلك فيه كارلوس مخيلة الشباب الجريئة. تزوج كارلوس من إمكي ابنة نسييه جان ولمان ولديهما الآن طفلان صغيران. أما إبرما، الذي سيبلغ الخمسين من العمر العام القادم، فقد تزوج من إيفي ديريكس الأرملة التي كانت في مثل عمره، وقد قام بتشغيل ابنها المراهق معه في صناعة الحديد.

كثيراً ما يحنّ إبرما إلى حياته في القرية التي ولد فيها. لو عادت به السنوات إلى الوراء، وتجنب الوقوع أسير حرب وتحوله إلى عبد، لكان قضى حياةً هادئة وقانعة في تلك البلدة. عندما يفكر بهذه الطريقة ينتابه الحزن، ولكن عودته إلى القرية لم تكن ممكنة، فهو لم يعد يعرف كيف يصل إليها إلا أن هذا لم يكن كل شيء. لقد علم إبرما الكثير، وتناول ثمرة شجرة المعرفة كحواء في الخرافة التي يؤمن بها المسيحيون، ولم يعد قادراً على العودة إلى الجنة. كان يتحدث الإسبانية والفرنسية ولهجة بوربانت الهولندية، ولم يتلفظ منذ سنوات بكلمة واحدة باللغة الماندانية. كان يُعلّق اللوحات في منزله، ويحب الاستماع إلى الفرق الموسيقية التي تعزف معزوفات معقدة، وكان أنيقاً جداً في اختيار نوعية النبيذ الذي يشربه. لقد أصبح إبرما رجلاً مختلفاً.

وبمساعدة رجاحة عقله وعمله الدؤوب وحظه الجيد بات يعيش حياةً جديدة، ولم يعد يرغب بشيء الآن سوى الحفاظ على ما ربحه، إلا أنه كان خائفاً من الفشل في تحقيق هذا.

لم يكن إيرما و كارلوس الوحيدين اللذين غادرا المدينة، فعادة ما يتوجه سكان أنتويرب إلى الريف عندما يكون الطقس لطيفاً، ولكن حشود مئات الناس على الطريق الريفي الضيق لم تكن حشود مصطافين. كان إيرما يعرف العديد منهم، فمن بينهم رجال يزودونه بالحديد الخام، وآخرون يشترون منه الحديد، وعائلات تعيش في حيّه، وأصحاب متاجر يشتري منهم اللحم والقفازات والأواني الزجاجية. كانوا جميعاً متوجهين إلى المكان نفسه؛ إلى مرج كبير معروف باسم مرج اللورد هيربرت. كان هذا المرج مكان النزهة المفضّل لأولاد كارلوس، إلا أن هذا الحشد الذي يسير على الطريق لم يكن هنا بهدف التنزه: كانوا جميعاً من البروتستانتين.

كان يحمل العديد منهم كتاباً صغيراً وهو المزامير بالفرنسية بترجمة الشاعر كليمنت مارو والمطبوع في أنتويرب. يُعدّ امتلاك هذا الكتاب جريمة وعقوبة بيعه الإعدام، ولكنه كان متوفراً بكثرة وبشمنٍ بخس. بالإضافة إلى هذا الكتاب فقد حمل معظم الشباب أسلحة.

تكهن إيرما أنّه تم اختيار مرج اللورد هيربرت لأنّه يقع خارج نطاق نفوذ مجلس مدينة أنتويرب، ولن يكون لحرس المدينة أيّ سلطة هناك وعلاوة على هذا، لا تملك شرطة الريف العدد الكافي من الرجال لتفريق مثل هذا الحشد. وبأي حال من الأحوال كان خطر وقوع أحداث عنف وارداً على الدوام، فالجميع سمع بمجزرة فاسي، ولا بدّ أن بعض الشباب في مزاج عدائي من دون أدنى شك.

كان كارلوس كاثوليكياً، أما إيرما الذي لو علم المسيحيون ما يؤمن به في قلبه لقالوا عنه إنه وثني، ولكنهم لا يعلمون لأن إيرما كان يتظاهر بأنّه كاثوليكي مخلص ككارلوس. حتى زوجته إيفي لم تكن تعرف بهذا، وإن كانت قد تساءلت عن سبب ذهابه إلى النهر فجراً أيام الأحاد، إلا أنها كانت تتصرف بلباقة ولا تطرح أيّ أسئلة. يذهب كارلوس وإيرما مع عائلتيهما إلى الكنيسة بشكل منتظم، وفي المناسبات العظيمة يذهبان إلى كاتدرائية

أتويرب. وكلاهما يخافان من أن تدمر الحرب الدينية في هولندا سعادتهما، كما حصل مع كثير من الناس الذين يعيشون على طول الحدود مع فرنسا. كان كارلوس رجلاً بسيطاً، ولم يفهم لم قد يرغب أحد بتغيير دينه، إلا أن إبرما اكتشف بكثير من الأسى ودقة الملاحظة، ما الذي جذب الكثير من الهولنديين إلى البروتستانتية. كانت الكاثوليكية عقيدة الحكام الإسبان، والكثير من الهولنديين يكرهون الهيمنة الأجنبية على بلادهم. علاوة على هذا كان الهولنديون خلاقين، في الوقت الذي لم تكن فيه الكنيسة الكاثوليكية تتصرف بتحفظ حيال الأمور الجديدة فقط، بل وسريعة في شجب الأفكار الجديدة وتُظهر عناداً عند التغيير. ولكن الأسوأ في هذا كله كان عدم ترحيب رجال الدين بالنشاطات التجارية التي عادت بالثراء على الكثير من الهولنديين، وعلى البنوك خاصة التي لم تكن لتوجد لو لم يكن هناك تعاملٌ بالربا. وهذا السلوك من قبل رجال الدين الكاثوليكين يتناقض مع ما فعله زعيم البروتستانتين في جنيف جون كالفن الذي سمح حتى وفاته منذ عامين، بتقاضي الربا على القروض.

وفي هذا الصيف أتت موجة جديدة من القساوسة الكالفنيين المتجولين من جنيف، وقاموا بعظات غير رسمية في غابات وحقول هولندا لتنتشر البروتستانتية كالنار في الهشيم.

كان الاضطهاد الديني عنيفاً إلا أنه لم يكن دائماً، لأن مارغريتا حاكمة هولندا ودوقة بارما والأخت غير الشقيقة لملك إسبانيا فيليبي كانت متساهلة مع المهرطقين كي يعم السلام هولندا، ولكن أخاها أصرّ على سحق الهرطقة في مناطق سيطرته. عندما أصبحت مارغريتا متساهلة جداً غدا رئيس المفتشين بيتر تيلمانز متعظشاً لملاحقة البروتستانتين الذين انتقم منهم بالتعذيب أو التشويه أو الحرق حتى الموت. إلا أن هذا الأسلوب القاسي لم يلقَ الكثير من الدعم، حتى من الكاثوليكين أنفسهم. في معظم الأوقات كانت القوانين تُطبق بتساهل، ورجال من أمثال كارلوس لم يكونوا مهتمين إلا بالتصنيع والبيع، ولهذا السبب انتشر هذا الدين الجديد بسرعة.

ولكن إلى أي درجة ينتشر فيها هذا الدين الجديد. وها هما كارلوس وإبرما في طريقهما إلى اجتماع في الهواء الطلق لمعرفة ما يجري. كان

أعضاء مجلس المدينة يرغبون بمعرفة مدى شعبية هذا الدين البديل، إلا أن هذا ليس بالأمر السهل لأن البروتستانتية تعمل بشكل شبه سرّي، وسيكون لقاء اليوم فرصة نادرة لمعرفة العدد الحقيقي للبروتستانتين، ولهذا طلب أحد أعضاء مجلس المدينة وبطريقة غير رسمية من كارلوس وإيرما، اللذين كانا يعتبران كاثوليكين مخلصين ولا يشغلان مواقع رسمية، أن يقوما بإحصاء سرّي لعدد البروتستانتين، وبالنظر إلى أعداد الناس على الطريق فإن الحصيلة النهائية لهذا التعداد ستكون أكبر مما يتوقعانه.

وبينما كانا يسيران سأل إيرما كارلوس: «كيف تسير أمور اللوحة؟».

«تكاد تنتهي».

كان كارلوس قد طلب من أمهر رسام في أنتويرب رسم لوحة للكاتدرائية. يعلم إيرما أن كارلوس يشكر الرّب في صلواته على النعم التي أعطاه إياها ويطلب منه أن يديمها عليه. كلاهما لم يأخذا نجاحهما كأمر مسلم به، وغالباً ما كان كارلوس يذكر قصة أيوب الذي امتلك كل شيء وفقده، ويقول مقتبساً من القصة: «الرّب يعطي والرّب يأخذ».

ذهل إيرما من عدم خروج كارلوس عن الكنيسة الكاثوليكية بعد الاضطهاد الذي عانى منه في إشبيلية. لم يكن كارلوس صريحاً جداً حول حياته الروحية، ولكن مع مرور السنوات فهم إيرما من الملاحظات والتلميحات العرضية أنّ كارلوس يجد سلواناً كبيراً في ممارسة الطقوس الكاثوليكية، وهذا تماماً ما يشعر به إيرما عندما يمارس طقوس عبادة المياه. وكلاهما لم يشعرأ بالسلام خلال الطقوس البروتستانتية الرصينة داخل كنيسة مطلية بالكلس الأبيض.

«ما الموضوع الذي وقع اختيارك عليه من أجل اللوحة؟» سأل إيرما.

«معجزة قانا، عندما حول المسيح الماء إلى نبيذ».

ضحك إيرما: «إنّها القصة الإنجيلية المفضلة لديك، ما السبب يا ترى؟».

كان كارلوس معروفاً بحبه الشديد للنبيذ.

ابتسم كارلوس: «سيُكشف النقاب عنها في الكاتدرائية الأسبوع القادم».

كانت اللوحة هدية من الحدادين في المدينة، إلا أن الجميع يعرف أن كارلوس من دفع ثمنها، وكان هذا مؤشراً على السرعة التي تحول فيها

كارلوس إلى أحد وجهاء مدينة أنتويرب. كان كارلوس دمثاً واجتماعياً وذكياً جداً، وقد يصبح أحد أعضاء مجلس المدينة في يوم من الأيام. أما إبرما فكان رجلاً مختلفاً ومنظوياً على نفسه وحذراً جداً. كان بذكاء كارلوس ولكن من دون طموح سياسي، وأحب الاحتفاظ بالمال لنفسه. «سنقيم بعد ذلك حفلة كبيرة، أمل أن تأتي أنت وإيفي»، أضاف كارلوس. «بالطبع».

تناهى إلى سمعهما أصوات غناء قبل وصولهما إلى وجهتهما. شعر إبرما بالشعر على ظهره يقف من روعة الغناء. لقد اعتاد سماع غناء الكورس في الكنائس الكاثوليكية حيث الجوقات كبيرة إلا أن هذا كان مختلفاً. لم يسمع قبلاً آلاف الأصوات تغني معاً نفس الأغنية.

يختفي الطريق داخل غابة صغيرة ليظهر مجدداً على مرتفع بسيط يمكن مشاهدة كامل المرج من فوقه. تنحدر بعده الأرض باتجاه جدول ضحل يصل إلى نهاية المرج. كان المكان بأكمله الذي تصل مساحته إلى عشرة فدادين مكتظاً بالرجال والنساء والأطفال. وفي إحدى الجهات القصية من المرج وقف القسيس على منصة مرتجلة يقود المغنين.

كانت الترنيمة بالفرنسية:

أيضاً إذا سرتُ في وادي ظلّ الموتِ
لا أخاف شراً، لأنكَ معي.

فهم إبرما الكلمات الفرنسية، وأدرك أنها ترجمة للمزمور الثالث والعشرين الذي سمعه في الكنيسة باللاتينية، إلا أنه لم يشبه ما سمعه في الكنيسة. بدا الصوت كأنه ظاهرة طبيعية عظيمة؛ عاصفة فوق محيط. كانوا مؤمنين حقاً بما يغنون، وبأنهم سيسIRON عبر وادي ظل الموت من دون أن يصيبهم مكروه.

لمح إبرما ابن زوجته ماتيوس في مكان ليس ببعيد عن المكان الذي يقف فيه. ما زال ماتيوس يذهب مع والدته وزوج والدته إلى الكنيسة كل أحد، إلا أنه في الآونة الأخيرة بدأ ينتقد الكنيسة الكاثوليكية. طلبت منه والدته أن يُبقي شكوكه لنفسه ولكنه لم يستطع فعل هذا. كان في السابعة عشرة من عمره ولذلك كان مندفعاً في معتقداته عن الصواب والخطأ. انتاب إبرما شعور بالقلق عندما رآه مع مجموعة شباب يحملون مضارب مخيفة.

رآه كارلوس في نفس الوقت وقال قلقاً: «يبدو أن هؤلاء الفتية يبحثون عن شجار».

ولكن الأجواء في المرح كانت مسالمة وجذلة، وقال إبرما بتفاؤل: «أعتقد أن أملهم سيخيب اليوم».

«إن عدد الناس كبير جداً!» قال كارلوس.

«كم يبلغ عددهم برأيك؟».

«الآلاف».

«لا أعرف كيف سنحصى عددهم».

كان كارلوس ماهراً في الحساب.

«فلنقل أن نصفهم على هذا الجانب من الجدول، والنصف الآخر على الجانب الآخر. تخيل خطأ يبدأ من هنا وحتى الواعظ. كم يبلغ عدد الموجودين في الربع الأقرب؟ وقسمه على أربعة مجدداً».

حاول إبرما أن يخمن قائلاً: «خمسمئة في كل ربع».

لم يُجب كارلوس ولكنه قال: «ها هي المتاعب قد وصلت».

كان كارلوس يحدق من فوق كتف إبرما الذي التفت بدوره ليرى ما الذي يجري، ووقع نظره فوراً على ما جعل كارلوس متأهباً. كانت مجموعة صغيرة من رجال الدين والجنود تتقدم عبر طريق الغابة.

في وسط المجموعة وقف كاهن في منتصف الستينات يرتدي حلية فضية مبهرجة فوق رداؤه الأسود. عندما اقترب الكاهن انتبه إبرما إلى أن عينيه متباعدتان عن وسط أنفه العالي وفمه الذي يبدو قاسياً وصارماً. لم يعرف إبرما الرجل ولكن كارلوس عرفه.

«إنه بيتر تيتلمانز رئيس كهنة كنيسة روزني وكبير المحققين»، قال كارلوس.

نظر إبرما في قلقٍ إلى ماتيوس وأصدقائه الذين لم يروا القادمين الجدد بعد. ما الذي سيفعلونه عندما يدركون أن كبير المحققين قد أتى للتجسس عليهم؟

وفيما اقتربت المجموعة قال كارلوس: «لنبتعد عن طريقه... إنه يعرفني». ولكنه كان قد تأخر كثيراً على هذا فقد التقت عيناه بعيني تيتلمانز الذي تفاجأ بوجود كارلوس وقال: «يؤسفني أن أراك في وكر الهرطقة».

«أنا كاثوليكي صالح!» احتج كارلوس.

أمال تيتلمانز رأسه إلى الورا كصقر لمح حركة ما بين الأعشاب.
«ما الذي يفعله كاثوليكي صالح في حفلة مجون وغناء مزامير بروتستانتية».

كان إيرما من أجا به على هذا السؤال: «يحتاج مجلس المدينة إلى معرفة عدد البروتستانتين في أنتويرب، وقد أرسلونا إلى هنا لنحصى عددهم».
بدا تيتلمانز مشككاً فيما قاله إيرما، وتوجه بالحديث إلى كارلوس: «هل يجب أن أصدق هذا الأثيوبي؟ إنه مسلم على الأرجح».

وفكر إيرما في نفسه: «لو كنت تعلم فقط»، ثم تعرّف على أحد الرجال المرافقين لتيتلمانز، وكان رجلاً في منتصف العمر بشعر ضارب إلى الرمادي وبشرة وردية كالتي يملكها رجل يحب النيذ.

«الأب هيس يعرفني»، قال إيرما. كان الأب هيس قساً مُرتلاً في كاتدرائية أنتويرب.

قال الأب هيس بهدوء: «هذان الرجلان كاثوليكيان صالحان أيها الأب بيتر. إنهما يرتادان كنيسة سان جيمس».

انتهى غناء المزامير وبدأ الواعظ بالكلام. اقترب بعض الناس أكثر ليتمكنوا من سماع كلماته التي صرخ بها عبر الحقل، بينما انتبه آخرون إلى الصليب الفضي الكبير الذي يرتديه تيتلمانز، وعلت همهمات غاضبة.

قال هيس بعصية: «سيدي هناك المزيد من البروتستانتين، وهم أكثر مما نتخيل. إن وقعت أعمال عنف لا نملك ما يكفي من الرجال لحمايتك».

تجاهله تيتلمانز الذي بدا ماكرأ وقال: «إن كنتما من تدعيان، يمكنكما أن تخبرانا بأسماء بعض هؤلاء الرجال الأشرار». وأشار بحركة واسعة من ذراعه إلى حشد المصلين.

لم يكن إيرما ليخون جيرانه ويجعلهم عرضة للتعذيب، ويعلم أن كارلوس يراوده الشعور نفسه أيضاً. انتبه إيرما إلى أن كارلوس كان على وشك الإدلاء باحتجاج غاضب، ولهذا منعه بقوله: «بالطبع أيها الأب بيتر. يسعدنا أن نقدم لك أسماء». ونظر حوله في حركة مسرحية وتابع: «ولكن لسوء الحظ لا أرى أي أحد من معارفي».

«هذا غير ممكن. هنا أكثر من سبعة أو ثمانية آلاف شخص».

«يلغ عدد سكان أنتويرب ثمانين ألف نسمة، ولا أعرفهم جميعاً».

«ولكن لا بد أنك تعرف البعض منهم».

«لا أعتقد هذا. ربما لأن جميع أصدقائي من الكاثوليكين».

لم يُجب تيتلمانز وشعر إبرما بالراحة، فقد نجا من التحقيق.

ثم سمعوا أحدهم يصرخ بلهجة هولندية محلية: «كارلوس! إبرما! طاب يومكما».

التفت إبرما إلى الورا سريماً، ورأى أخا زوجته ألبرت ويلمسون الذي يعمل في الحدادة وهو من ساعدهما عندما وصلا إلى أنتويرب منذ ستة أعوام. بنى ألبرت فرناً كفرنهما، وأبلوا جميعهم بشكل جيد. كانت زوجة ألبرت بيتي معه وابتنهما درايك التي تبلغ الآن الرابعة عشرة ولها وجه ملائكي وقوام رشيق. كان ألبرت وعائلته يعتنقون البروتستانتية.

«ألا تعتقد أن هذا رائع؟» قال ألبرت بحماس. «كل هؤلاء الناس يغنون كلام الرب من دون أن يطلب منهم أحد أن يصمتوا».

«كُن حذراً فيما تقوله»، قال كارلوس بهدوء.

ولكن ألبرت المتحمس لم يلحظ وجود تيتلمانز وصلبيه: «أوه بالله عليك يا كارلوس أنت رجل متسامح دينياً ولست مثل هؤلاء الكاثوليكين المتعصبين. لا يمكن أن تجد شيئاً هنا من شأنه أن يُغضب الرب».

«اصمت»، قال إبرما أمراً.

بدا ألبرت متألماً ومصدوماً، ثم أشارت بيتي إلى المحقق وشحب وجه ألبرت. ولكن آخرين لاحظوا وجود تيتلمانز، ومعظم البروتستانتين القريبين منه التفتوا ليحدقوا. اقترب ماتيوس وأصداؤه منهم والهراوات في أيديهم.

«ابتعدوا أيها الصبية لا أريدكم هنا»، صرخ إبرما.

تجاهل ماتيوس زوج والدته ووقف قرب درايك. كان ماتيوس فتى ضخماً إلا أنه لم يعتد بعد على حجمه الكبير. علت وجهه نظرة ممزوجة بالتهديد والخوف، وأخذ يتصرف كأنه يحمي درايك، وتساءل إبرما إن كان الفتى مغرم بالفتاة، وفكر بأنه سيسأل إيفي عن هذا.

«يجب أن نعود إلى المدينة الآن أيها الأب بيتر»، قال الأب هيس.

بدا تيتلمانز مصمماً على عدم العودة خالي الوفاض، وأشار إلى ألبرت ثم قال: «أخبرني أيها الأب هيس ما اسم هذا الرجل؟». «آسف أيها الأب فأنا لا أعرف الرجل»، قال هيس، وأدرك إبرما أن هيس تصرف بشجاعة.

التفت تيتلمانز إلى كارلوس وسأله: «حسناً من الواضح أنك تعرفه... إنه يتحدث معك كصديق قديم. من هو؟». تردد كارلوس في الإجابة.

برأي إبرما كان تيتلمانز على حق، فلا يمكن لكارلوس الادعاء أنه لا يعرف ألبرت بعد تلك التحية الحماسية.

«هيا... هيا... إن كنت كاثوليكياً جيداً كما تدعي ستكون سعيداً بفضح هذا المهرطق. إن لم تكن سعيداً بذلك فسيتم استجوابك في مكان آخر حيث نملك الأدوات التي ستجعلك صريحاً».

ارتعد كارلوس، وتكهن إبرما أنه كان يفكر ببيدرو روز وهو يقاسي من التعذيب بالمياه في إشبيلية.

تحدث ألبرت بشجاعة: «لا أرضى أن يعاني أصدقائي من التعذيب بسببي. أدعى ألبرت ويلمسون».

«ما هي مهنتك؟».

«حداد».

«ومن هاتان المرأتان؟».

«فلتتركما خارج الموضوع».

«لا يمكننا أن نترك أحداً خارج إرادة الرب».

«لا أعلم من هما»، قال ألبرت بيأس. «إنهما عاهرتان قابلتهما على الطريق».

«لا تبدوان كعاهرتين، ولكنني سأعرف الحقيقة». التفت تيتلمانز نحو

هيس وقال: «سجل الاسم: ألبرت ويلمسون والمهنة حداد». ثم جمع

أطراف ثوبه وسار مبتعداً على الطريق الذي أتى منه فيما لحقت به حاشيته

الصغيرة، بينما يراقبه آخرون وهو يبتعد.

«اللعة!» قال كارلوس.

يبلغ عمر البرج الشمالي لكاتدرائية أنتويرب ما يزيد على أربعمئة عام. كان هناك برجٌ جنوبي أيضاً إلا أن أعمال البناء فيه لم تنتهِ. كان البرج بحد ذاته في نظر إبرما، مذهلاً جداً كأنه إصبع يشير إلى السماء.

لم يستطع إبرما مغالبة الشعور بالرهبة أثناء دخوله صحن الكنيسة. كان للممر الرئيسي الضيق سقف مقنطر وعالٍ جداً، وهذا جعله في بعض الأحيان يتساءل إن كان الربّ المسيحي حقيقي، وعندها يتذكر أن ما من شيء بناه المسيحيون يضاهي قوة وعظمة النهر.

فوق مذبح الكنيسة علّقت لوحة منقوشة تعد مصدر فخر المدينة وتصور المسيح مصلوباً بين لصين. كانت أنتويرب مدينة ثرية وحضارية، وكاتدرائيتها غنية باللوحات والتماثيل والزجاج الملون والأشياء الثمينة، واليوم سيقوم كارلوس صديق وشريك إبرما، بإضافة شيء ثمين إلى هذا الكنز.

كان إبرما يأمل أن يغطي هذا على لقائهما المريع مع بيتر تيتلمانز البغيض. فلم يكن أمراً جيداً أن يصبح كبير المحققين عدواً.

علّقت في الجانب الجنوبي من الكنيسة والمُكرّس للقديس أوربن راعي صنّاع النبيذ، لوحة جديدة إلا أنها كانت مغطاة بقماش مخملي أحمر. حُجزت مقاعد في الكنيسة من أجل أصدقاء وعائلة كارلوس وموظفي نقابة الحدادين، ووقف بالقرب من هذه المقاعد مئة من الجيران وزملاء العمل في أفضل حللهم بانتظار رؤية اللوحة الجديدة.

انتبه إبرما إلى أن سعادة كارلوس كانت غامرة، فها هو يجلس في مكان الشرف في الكنيسة التي تحتل وسط المدينة، وهذه المراسم سترسخ انتماءه إلى هذا المكان. كان يشعر بالحب والاحترام والأمان.

وصل الأب هيس لتأدية مراسم الإهداء. خلال عظته القصيرة تحدث عن أن كارلوس مسيحي صالح في تربيته لأطفاله على التقوى، وفي إنفاق المال لإغناء الكاتدرائية، بل وأشار إلى أن قدر كارلوس أن يلعب دوراً في حكومة المدينة يوماً من الأيام. أحبّ إبرما الأب هيس الذي كان يعظ أحياناً ضد البروتستانتية إلا أنه لم يرق بما هو أكثر من هذا. كان إبرما واثقاً من أن الأب هيس لا يرغب بمساعدة تيتلمانز، وأنه لم يفعل هذا إلا بفعل الضغط. تمللم الأطفال خلال الصلاة، فمن الصعب عليهم الإصغاء إلى شخص

يتحدث بلغتهم لوقتٍ طويل، ولكن ماذا لو تحدث هذا الشخص باللاتينية. وبكل لطف طلب منهم كارلوس الذي كان أباً متسامحاً، التزام الهدوء. عندما شارفت المراسم على الانتهاء طلب هيس من كارلوس الصعود وإزاحة الستار عن اللوحة. عندما أمسك كارلوس بالستار المخملي بدا متردداً. اعتقد إبرما أنّ كارلوس أراد الإلقاء بخطاب، ولكن هذا سيكون خطأ فادحاً فلا يمكن للناس العاديين أن يدلوا بخطاب في كنيسة كاثوليكية، إلا أنه يمكن للبروتستانتين فعل هذا في كنيستهم. سحب كارلوس الستار بتوتر في البداية إلا أنه تحمس أخيراً، وسقط الستار كشلال قرمزي كاشفاً عن اللوحة.

كانت اللوحة تصور حفل زفاف في منزل كبير يشبه منزل صاحب بنك في أنتويرب، وقد جلس المسيح على رأس الطاولة في ثوبٍ أزرق، وجلس بجانبه مضيف هذه الوليمة وكان رجلاً عريض الكتفين بلحية سوداء كثيفة يشبه كارلوس كثيراً، وإلى جانبه جلست امرأة شقراء تبتسم وتشبه إمكي. علت همهمات من الحضور في صحن الكنيسة، وكان هناك ابتسامات وضحكات عندما تعرفوا على وجوه بقية الضيوف في اللوحة. كان هناك وجه إبرما في قبعة عربية الطراز، وقد جلست إلى جانبه إيفي في ثوب يكشف عن ثدييها الكبيرين. وبجانب إمكي جلس رجل يبدو أنّه والدها جان ولمان وإلى جانبه رجل طويل ونحيل وقلق يشبه آدم سميث، أشهر تجار النيذ في أنتويرب، يتفحص أباريق نيذ فارغة.

بدأت اللوحة جميلة في الكنيسة الصغيرة على خلفية الحجارة القديمة للكاتدرائية وقد سقط عليها ضوء الشمس القادم من النافذة المُطلّة على الجنوب. التمتع أردية الضيوف الأغنياء ذات الألوان البرتقالية والزرقة والخضراء الفاتحة قبالة غطاء الطاولة الأبيض والجدران الكالحة لغرفة الطعام.

بدأ كارلوس مسروراً جداً، وهزّ الأب هيس رأسه ثم غادر. أراد بقية الحضور تهنئة كارلوس، وقد التف حوله الجمهور مبتسماً وهو يحني رأسه أمام تصفيقهم. في النهاية أخذ يصفق بيديه وقال: «أنتم جميعاً مدعوون إلى بيتي! وأعدكم بالألا ينغد النيذ أبداً».

مشوا جميعاً في موكب عبر الشوارع المتعرجة للمدينة باتجاه منزل كارلوس. قادهم كارلوس إلى الطابق العلوي حيث كان الطعام والنيذ على الطاولات في قاعة استقبال عظيمة. انقضّ الضيوف على الوليمة في حماس، وانضم إليهم العديد من البروتستانتين الذين لم يذهبوا إلى الكاتدرائية ومن بينهم ألبرت وعائلته.

تناول إيرما قدحاً من النيذ وأخذ جرعة كبيرة منه. لطالما كان نيذ كارلوس جيداً. ثم مسح فمه بكمه. بدأ النيذ الدافئ يفعل فعله وشعر ببعض الثمالة. تحدث بلطف مع جان ولمان عن الأعمال، ومع إمكي عن أطفالها، ومع كارلوس بشكل سريع عن زبونٍ تأخر في دفع حسابه. كان هذا الزبون حاضراً ويتمتع بضيافة كارلوس، ورأى إيرما أنها اللحظة المناسبة لمطالبتها بالمال، ولكن كارلوس لم يرغب بإفساد مزاجه والتحدث إلى الرجل. غدا الضيوف صاخبين بعض الشيء، وبدأ الأطفال يتشاجرون، وحاول الصبية المراهقون التودد إلى الفتيات المراهقات، وغازل الرجال المتزوجون زوجات أصدقائهم، وفكر إيرما أنّ الحفلات تتشابه في كل مكان... حتى في أفريقيا.

ثم دخل بيتر تيتلمانز.

أدرك إيرما أن تيتلمانز قد دخل عندما حلّ الصمت في أرجاء الغرفة وبدأ الصمت بالانتشار من الباب وحتى الزوايا الأربع للغرفة. كان يتحدث مع ألبرت حول فوائد المدافع المصنوعة من حديد الصب مقارنة بالمدافع المصنوعة من البرونز عندما أدرك كلاهما أنّ هناك خطباً ما ورفعا نظرها. وقف تيتلمانز في المدخل بصليبه الفضي الكبير برفقة الأب هيس وأربعة جنود.

«ما الذي يريده الشيطان؟» قال إيرما.

«ربما أتى لتهنئة كارلوس على اللوحة»، قال ألبرت بتفاؤل وتوتر. اندفع كارلوس عبر الحشد الصامت، وبدأ يتحدث مع تيتلمانز بودٍ مزيف. «طاب يومك أيها الأب بيتر. أهلاً بك في منزلي، ما رأيك بكأس من النيذ».

تجاهل تيتلمانز السؤال وقال: «هل يوجد بروتستانتيون هنا؟».

«لا أعتقد هذا»، أجاب كارلوس. «وصلنا منذ قليل من الكاتدرائية حيث كشفنا عن...».

«أعلم ما الذي قمت به في الكاتدرائية»، قاطعه تيتلمانز بوقاحة. «هل يوجد أي بروتستانتيين هنا؟».

«أؤكد لك وحسب معلوماتي...».

«ستكذب علي. أعرف أنا رائحة الكاذبين».

بدأ لطف كارلوس يتراجع وقال: «إن لم تكن تصدقني فلماذا تطرح علي الأسئلة؟».

«لأختبرك. اصمت الآن».

«أنا في منزلي حرٌّ فيما أفعله»، انفجر كارلوس غاضباً.

رفع تيتلمانز صوته ليسمعه الجميع: «أنا هنا من أجل ألبرت ويلمسون».

كان تيتلمانز يعرف أنه لن يستطيع التعرف على ألبرت، فهو لم يره سوى مرة واحدة وبشكل خاطف في مرج اللورد هيربرت. كان إبرما يأمل أن يتظاهر الجميع أن ألبرت غير موجود، ولكن الحشد لم يكن ذكياً بما يكفي، واستدار بعضهم في غباء باتجاه ألبرت.

وبعد قليل من التردد والخوف تقدم ألبرت متظاهراً بالشجاعة وقال: «ما الذي تريده مني؟».

«وزوجتك»، سأل تيتلمانز مشيراً إلى المرأة بجانبه. لسوء الحظ كانت بيتي تقف بقرب ألبرت، ولهذا السبب كان تيتلمانز مصيباً في تكهنه. تقدمت بيتي وقد بدت شاحبة وخائفة.

«وابنتك».

لم تكن درايك برفقة والديها في المرج ذلك اليوم، وعلاوة على هذا لن يتذكر تيتلمانز فتاةً في الرابعة عشرة.

«الفتاة ليست هنا»، كذب كارلوس بشجاعة، وتفاءل إبرما بنجاة الفتاة، إلا أن الفتاة لم تكن ترغب بهذه النجاة وارتفع صوتها قائلة: «أنا درايك ويلمسون».

وغار قلب إبرما في مكانه. نظر إليها حيث تقف بالقرب من النافذة في ثوب أبيض تتحدث إلى ابن زوجته ماتيوس، وتحمل قط كارلوس الأليف على ذراعها.

«إنها مجرد طفلة أيها الأب. بالتأكيد...» ولكن درايك التي لم تنته من كلامها قاطعته: «وأنا بروتستانتية»، قالت في تحدٍ ثم تابعت: «وأشكر الرب على هذا».

وتعالت همهمات إعجاب وأسى بين الضيوف.

«تعالى إلى هنا»، قال تيتلمانز.

عبرت درايك الغرفة برأسٍ مرفوع، وقال إيرما في نفسه: «اللعة».

«خذوهم ثلاثهم»، قال تيتلمانز لحاشيته.

صرخ أحد الحاضرين: «لم لا تدعنا وشأننا».

نظر تيتلمانز بغضب إلى مصدر الصوت ولكنه لم ينجح في كشفه، ولكن

إيرما عرف صاحب الصوت. كان صوت الشاب ماتيوس.

وصرخ شخص آخر: «أجل، وتعود إلى كنيسة رونسي».

انضم بقية الضيوف مهللين، وأطلقوا صيحات الاستهجان. رافق جنود

تيتلمانز عائلة ويلمسون خارج الغرفة، وعندما استدار تيتلمانز للحاق بهم

رماه ماتيوس بقطعة خبز أصابته في ظهره. تظاهر تيتلمانز كأن ما من شيء قد

حصل، ولكن كأساً من النيذ طارت في الهواء، واصطدمت بجدار قريب منه

مُلتصخاً ثوبه. علت صيحات الاستهجان أكثر وباتت أكثر جرأة، وبالكاد كان

تيتلمانز قادراً على حفظ ما تبقى من كبريائه فهرع نحو الباب قبل أن يرموا

عليه شيئاً آخر.

ضحك الحشد وصفق عند خروج تيتلمانز، إلا أن إيرما لم يرَ ما يشير

الضحك في كل هذا.

تحدد موعد إحراق الشابة درايك بعد أسبوعين، وأعلنوا عن هذا في

الكاتدرائية. قال تيتلمانز إن ألبرت وبيتي ارتدّا عن البروتستانتية وطلبا مغفرة

الرب، وتضرعا للعودة إلى حضن الكنيسة. كان تيتلمانز يعلم أنّهما لم يكونا

صادقين في اعترافهما، ولكنه أفرج عنهما بغرامة، إلا أن الجميع أصيب

بالرعب عندما رفضت درايك الارتداد عن دينها.

لم يسمح تيتلمانز لأحد بزيارة درايك في السجن، إلا أن ألبرت قام

برشوة الحراس لكي يزورها. لم ينجح في إقناعها بتغيير رأيها، فقد أصرت

كما يفعل الشباب ذوو النزعة المثالية في مطلع أعمارهم، على استعدادها للموت وألا تخون ربّها.

ذهب إيرما وإيفي لزيارة ألبرت وبيتي في اليوم السابق لموعد الحرق. أرادا أن يقدموا الدعم والعزاء لصديقيهما، إلا أن هذا لم يكن مجدياً. كانت بيتي تنتحب من دون توقف، وبالكاد كان ألبرت قادراً على التفوه بشيء؛ فقد كانت درايك ابنتهما الوحيدة.

نُصب العمود في ذلك اليوم على الرصيف وسط المدينة حيث الكاتدرائية ومبنى السوق الكبير ومجلس المدينة العظيم الذي لم ينته العمل عليه، وكان هناك ما يعادل حمولة عربية من الحطب بالقرب من التود.

حددوا موعد الإعدام عند الفجر، واجتمعت حشود الناس قبل شروق الشمس. لاحظ إيرما أن الكأبة تخيم على الجو العام. فعندما كان يتم إعدام المجرمين المكروهين كاللصوص والمغتصبين كان المتفرجون يسخرون منهم ويهزلون لعذابهم خلال الإعدام، ولكن هذا ما لن يحدث اليوم. كان العديد من الحاضرين من البروتستانتين الذين شعروا بالخوف من أن يلقوا المصير نفسه في يوم من الأيام. أما الكاثوليكيون من أمثال كارلوس، فقد انتابهم الغضب من احتمال قيام البروتستانتين بأعمال شغب، وخافوا من وصول الحروب الفرنسية الدينية إلى هولندا، إلا أن القليل منهم فقط اعتبر إحراق الفتاة عملاً صائباً.

قاد الجلاد درايك خارج مبنى مجلس المدينة. كان الجلاد إيغمونت رجلاً ضخماً، وقد ارتدى ثوباً جليداً فضفاضاً وحمل شعلة في يده، بينما سارت درايك في ثوبها الأبيض نفسه الذي كانت ترتديه عندما ألقى القبض عليها. أدرك إيرما أنّ تيتلمانز المتعجرف لم ينتبه إلى هذه الغلظة التي ارتكبتها. فقد بدت الفتاة في ثوبها الأبيض كعذراء، وهي كانت كذلك في الحقيقة. وكانت بشرتها الشاحبة بلون بشرة مريم العذراء كما تظهر في اللوحات الفنية. أطلق الناس شهقة جماعية عندما رأوها على هذه الهيئة.

«سيتحول هذا الإعدام إلى استشهاد»، قال إيرما لزوجته إيفي، ونظر إلى ماتيسوس الذي بدأت الدموع تتجمع في مقلتيه.

فُتحت إحدى البوابتين الغربيتين للكاتدرائية، وظهر تيتلمانز على رأس مجموعة صغيرة من الكهنة. كانوا يبدون كغربان سوداء.

قيد جنديان درايك إلى العمود، وكوما الحطب حول قدميها. بدأ تيتلمانز يتحدث إلى الناس عن الحقيقة والهزيمة. أدرك إبرما أن الرجل لا يملك أدنى فكرة عن نظرة الناس إليه. كان كل شيء فيه ينضح بالإهانة: لهجته المتعطرسة ومظهره المغرور وحقيقة أنه كان غريباً عن المدينة. ثم أخذت درايك تتحدث، وطغى كلامها بالفرنسية على صراخ تيتلمانز:

الرّب راعيّ

فلا يعوزني شيء

كانت كلمات من المزمور الثالث والعشرين الذي غناه الحشد في مرج اللورد هيربرت. اجتاحت مشاعر جياشة الحشد كموجة مدوية، وتساقطت الدموع من عيني إبرما، وانخرط آخرون في البكاء بصوت عالٍ. كان الجميع يشعرون بأنهم اليوم أمام مأساة مقدسة.

استشاط غيظ تيتلمانز وتوجه بالحديث إلى الجلاد. كان إبرما قريباً بما يكفي لسمع ما قاله: «كان يُفترض بك قلع لسانها».

هناك أداة خاصة تشبه الكلاب مخصصة لقلع اللسان، وكانت تستخدم لمعاقبة الكاذبين، ولكنها تُستخدم أحياناً لإسكات المهرطقين حتى لا يعطوا الحشود وهم يحتضرون.

«ولكن لم يُطلب مني القيام بهذا».

تابعت درايك غناءها:

في مراغ خُضر يربضني

إلى مياه الراحة يوردني

كان رأس درايك مرفوعاً، وشعر إبرما أنها كانت تتخيل المروج الخضراء والمياه الصافية التي تنتظرها في الحياة الأخرى التي تعد بها جميع الأديان. «اخلع فكها!» قال تيتلمانز.

«حسناً»، أجا به إيغمونت.

لم يكن إيغمونت رجلاً حساساً إلا أنه شعر بالانزعاج من هذا الطلب،

ولم يكلف نفسه عناء إخفاء تقززه منه. سلّم الشعلة إلى أحد الجنود، وانطلق لينفذ الأمر.

التفت ماتيوس الذي وقف إلى جانب إيرما وصرخ: «سيخلعون فكها». «اصمت!» قالت والدته بقلق، ولكن صوته العالي وصل بعيداً. ارتفع صراخ جماعي غاضب، وترددت كلمات ماتيوس عبر الحشد إلى أن وصل الخبر إلى الجميع.

«دعوها تصلي!» صرخ ماتيوس. وتكررت الصرخة بين الحشد: «دعوها تصلي! دعوها تصلي!».

«ستقع في المتاعب»، قالت إيفي.

صعد إيغمونت باتجاه درايك، ووضع يده على وجهها. أقحم إبهاميه في فمها، وأحكام قبضته على فكها حتى يتمكن من خلع المفصل. شعر إيغمونت بحركة عنيفة مفاجئة قربة وبضربة حجر رماه ماتيوس على قفا رأسه.

كان حجراً كبيراً صوبه وقذفه فتى بذراع قوية في السابعة عشرة من العمر. سمع إيرما صوت الضربة على جمجمة إيغمونت. ترنح الجلاذ كأنه فقد وعيه لبعض الوقت وسقطت يده عن وجه درايك. أخذ الحشد يهمل. رأى تيتلمانز أنّ الأمور بدأت تفلت من يديه فقال: «حسناً، لا تهتم. أشعل الحطب».

«لاااا!» صرخ ماتيوس وهو يرمي بمزيد من الحجارة إلا أنها لم تصب هدفها.

أخذ إيغمونت الشعلة، ووضعها على الحطب، وأخذت العيدان الجافة تشتعل بسرعة.

تجاوز ماتيوس إيرما، واندفع بسرعة نحو درايك.

«توقف!» صرخت إيفي ولكن ابنتها تجاهل نداءها.

سحب الجنود سيوفهم إلا أن ماتيوس كان سريعاً جداً. أخذ يركل العيدان المشتعلة بعيداً عن قدمي درايك، وركض ليختفي بين الحشود. لاحقه الجنود بسيوفهم، وتفرق الحشد أمامهم في رعب. «سيقتلونه!» ناحت إيفي.

رأى إبرما أنّ الطريقة الوحيدة لإنقاذ الفتاة هي البدء بعصيان عام. لن يكون الأمر صعباً فقد كان الحشد مهتماً بما يكفي.

اندفع إبرما إلى الأمام ولحق به آخرون واحتشدوا حول العيدان التي لم يعد هناك من يحميها الآن. سحب إبرما خنجره، وقطع الحبال التي كُبلت بها درايك، ثم اندفع ألبرت وحملها. كانت خفيفة الوزن. واختفوا جميعاً بين الحشد.

بدأ الناس يدفعون الكهنة بمناكبهم. أوقف الجنود البحث عن ماتيوس وعادوا لحماية رجال الدين. هرع تيتلمانز إلى داخل الكاتدرائية، ولحق به الكهنة جرياً. تركهم الناس يهربون، وسخروا منهم فيما كانوا يراقبونهم وهم يعبرون الممر المقنطر ذا النقوش الدقيقة، ويفتحون باباً خشبياً كبيراً، ويختفون في ظلام الكنيسة.

غادر ألبرت وعائلته أنتويرب في تلك الليلة. كان إبرما أحد القلائل الذين عرفوا أنهم توجهوا إلى أمستردام، البلدة الصغيرة في أقاصي الشمال الشرقي والبعيدة جداً عن مركز القوة الإسبانية في مدينة بروكسل المزدهرة باطراد بفعل الوجود الإسباني.

اشترى إبرما وكارلوس ورشة الحدادة الخاصة بألبرت، ودفعا ثمنها ذهباً حمله معه ألبرت في جرابٍ محكم الإغلاق وعلى حصان صغير قوي. أراد ماتيوس الذي سيُحرم من حبيبته مرافقتهم، وسمح له بذلك إبرما الذي تذكر - وإن كان بشكل ضبابي - الاندفاع العاطفي عند الشباب، ولكن ألبرت قال إن درايك ما تزال صغيرة جداً على الزواج، وإنهم يجب أن ينتظروا عاماً يمكن لماتيوس بعدها أن يذهب إلى أمستردام ويتقدم لها إن كان ما يزال يريد ذلك، وأقسم ماتيوس أنه سيأتي ويتقدم لدرايك فيما قالت له والدته: «سننظر في الأمر».

دخل تيتلمانز في حالة هدنة، ولم تقع أيّ مواجهات أو مزيد من الاعتقالات. لربما أدرك أنّ الكاثوليكين في أنتويرب كرهوا تطرفه، أو ربما كان يأخذ وقته في التفكير.

كان إبرما يأمل أن يهدأ البروتستانتيون أيضاً، ولكن يبدو أنهم أصبحوا

أكثر ثقة، إن لم نقل أكثر غروراً، فقد طالبوا بالتسامح الديني وحرية العبادة إلا أن هذا لم يكن كافياً بالنسبة إليهم. فكر إيرما بكل ما يجري في غضب. لم يكن البروتستانتيون يعتقدون أن خصومهم مخطئون بل أشرار، ونظروا إلى الممارسة الدينية الكاثوليكية التي انتهجها الأوروبيون في عبادتهم لمئات السنين على أنها تجديدية، وقالوا بإلغاء هذه الممارسة، ولم يمارسوا التسامح الديني الذي كانوا يعظون به.

وما أثار قلق إيرما حقاً هو فقدان السادة الإسبان وحلفائهم من الكهنة لقبضتهم على السلطة، وجليان الحقد والعنف تحت ظاهر حياة المدينة. وأراد كجميع أصحاب المهن، السلام والاستقرار حتى يتمكن من تسيير أعماله، وهذا ما كان يفعله بالضبط في العشرين من شهر آب/ أغسطس. كان إيرما يتفاوض مع أحد المشتريين حول شراء الحديد، وقد جعلته شمس الصيف يتعرق قليلاً، عندما بدأت المتاعب تغلي مجدداً.

سمع إيرما صوت جلبة في الشارع: أقدام تترامض وزجاج يكسر وصراخ خشن لرجال متحمسين جداً. هرع خارجاً ليفهم سبب هذه الجلبة، وانضم إليه كارلوس وماتيوس. كان هناك ما يقارب مئتي شاب بينهم مجموعة من الفتيات، يهرعون على طول الشارع حاملين سلاالم وبكرات وحبالاً وأدوات بدائية مصنوعة من الخشب ومطارق ثقيلة وقضباناً حديدية وسلاسل معدنية. «ما الذي تفعلونه؟» صرخ إيرما بهم، ولكن ما من أحد منهم أجاب على سؤاله.

كان صوت الزجاج المتحطم الذي سمعه إيرما قادماً من نافذة في منزل الأب هيس الذي عاش في شارع ورشات الحدادة، ولكن يبدو أن هذه الضربة على نافذة بيته لم تكن مقصودة، لأن الحشد توجه إلى مركز المدينة لغاية واضحة كما يبدو.

«ما الذي يخططون لفعله بحق الجحيم؟» قال كارلوس.

تكهن إيرما بما ينوون فعله، ولكنه كان يرجو أن يكون على خطأ.

لحق الرجال الثلاثة بالحشد إلى ساحة السوق حيث أنقذوا درايك في وقت سابق. تجمع بعض الشباب في مركز الساحة، وطلب أحدهم مباركة الرب. كان الشاب يتحدث بلهجة هولندية محلية. كان البروتستانتيون يتلون

الصلوات بلغتهم الأم بدلاً من اللاتينية. ارتعب إيرما من فكرة أنهم أتوا إلى ساحة السوق حيث تقع الكاتدرائية، وتبين أنه كان محقاً فيما ظنه. عندما انتهت الصلاة احتشدوا معاً، وبدا واضحاً أنهم يعملون وفق خطة قد أعدت مُقدماً، ثم زحفوا باتجاه الكاتدرائية.

كان مدخل الكاتدرائية عبارة عن إطار محني له شكل حرف S وتحتة قوس مدبب على الطراز القوطي، وقد نُقش مشهدٌ للرَّب في الجنة أسفل القسم غير الظاهر من القوس، وامتلات طبقات القوس المتعددة متحدة المركز بنقوش للملائكة والقديسين. أخذ كارلوس الذي وقف بجانب إيرما يشهق من الرعب عندما رأى المجموعة تحطم النقوش بالمطارق والأسلحة الأخرى المرتجلة. حطموا نقوش الاقتباسات الإنجيلية، وشوهوا الآيات المقدسة لتبدو كأنها لعنات.

صرخ كارلوس بهم: «توقفوا! سيقود هذا إلى أعمال انتقامية!» إلا أن ما من أحد التفت إليه.

انتبه إيرما إلى ماتيوس الذي بدا كأنه يتوق للانضمام إليهم. وعندما خطا الصبي خطوة إلى الأمام أمسكه إيرما من ذراعه بقبضته القوية التي تميز أيّ حداد.

«ما الذي ستقوله والدتك إن فعلت هذا؟ إنها تتعبد هنا! توقف وفكر».

«إنهم يقومون بعمل الرَّب!» صرخ ماتيوس.

اكتشف منفذو العصيان أن الكهنة أغلقوا أبواب الكاتدرائية عندما رأوهم قادمين. شعر إيرما بالراحة، فعلى الأقل سيكون الضرر محدوداً، وربما سيهدؤون الآن ولذلك أقلت ذراع ماتيوس.

ولكن الحشد التف باتجاه شمال الكنيسة بحثاً عن مدخل آخر، ولحق بهم المتفرجون. شعر إيرما بالذعر عندما عثروا على باب جانبي غير موصد. لا بد أن الفزع جعل الكهنة ينسون إغلاقه. اندفع الحشد إلى داخل الكنيسة، وركض ماتيوس تاركاً جانب إيرما.

بحلول الوقت الذي دخل فيه إيرما إلى الكنيسة كان البروتستانتيون يركضون في كل الاتجاهات، ويهللون وكأنهم منتصرون وهم يحطمون النقوش أو الصور المرسومة. بدوا ثملين ولكن ليس بفعل النيبد، وسيطر

عليهم سعار التدمير. صرخ بهم كل من كارلوس وإبرما، وطلباً منهم التوقف عما يفعلونه، وانضم إليهما مواطنون طاعنون في السن، وطلبوا الحشد بالتوقف عن التخريب ولكن من دون جدوى.

وقف بضعة كهنة عند مذبح الكنيسة، ورأى إبرما أن بعضهم يهرب عبر الرراق الجنوبي، إلا أن أحدهم توجه نحو الدخلاء رافعاً يديه وكأنه يريد إيقافهم، وميّز إبرما الأب هيس وهو يكرر قائلاً: «أنتم أولاد الرب»، فيما كان يتجه نحو الشباب المندفع، «أوقفوا هذا ودعونا نتحدث». اندفع فتى كبير نحوه، وأوقعه أرضاً بينما وطئه البقية وهم يتابعون سيرهم.

انتزعوا اللوحات الثمينة وكوموها وسط الممر حيث أشعلت فتيات صاخبات النار باستخدام شموع المذبح. ثم حطموا التماثيل الخشبية، ومزقوا الكتب القديمة وأردية كهنوتية باهظة الثمن، ووضعوا كل هذا فوق النار المشتعلة.

شعر إبرما بالهلع ولكن ليس بسبب مشهد التدمير، بل من العواقب الوخيمة التي ستندمج عما يجري. كان تحدياً صارخاً لأقوى رجلين في أوروبا: الملك فيليبي والبابا بيوس. ستلقى أنتويرب العقاب على هذا وقد لا يكون عقاباً فورياً؛ فعجلة السياسة الدولية بطيئة. ولكن عندما يحل العقاب سيكون مروعاً.

كان بعض أفراد الحشد أكثر جديّة من البقية، ومن الواضح أنهم قد خططوا لهذا مسبقاً. احتشد هؤلاء حول المذبح العالي، وبدا أن هدفهم الأساسي التمثال الهائل فوقه. وبسرعة وضعوا السلالم وركبوا البكرات التي يبدو أنهم جهزوها مسبقاً. بدا كارلوس مذعوراً وصاح بهم: «سيستون إلى المسيح المصلوب»، وحدّق إليهم في رعب وهم يُحكمون ربط الحبال حول المسيح، ويضربونه عند قدميه لإضعاف بنية التمثال، ويصرخون منددين بعبادة الأوثان. ولكن ما بدا واضحاً حتى للوثني إبرما، أن البروتستانتيين هنا من يمارسون الهرطقة. قاموا بتشغيل البكرات بعناية كبيرة ثم أخذوا يشدون الحبال إلى أن بدأ تمثال المسيح المحتضر يميل إلى الأمام وركبته تشققان. أخيراً، نجحوا في إزالته من مكانه، ورموه على الأرض ووجهه للأسفل. وكان هذا لم يكن كافياً لهم لأنهم أخذوا ينهالون على التمثال بالمطارق

ويحطمون ذراعيه ورأسه بمرح شيطاني. وبدا تمثالا اللصين المجاورين لتمثال المسيح المصلوب كأنهما ينظران بحزن إلى جسد المسيح المحطم. قام أحدهم بجلب زجاجة النيذ الكبيرة المخصصة للمناولة وكأس القربان الذهبي، وهنؤوا بعضهم، وشربوا النيذ. علت صرخة قادمة من الجهة الجنوبية للكنيسة جعلت كلاً من إبرما وكارلوس يستديران. صُدم إبرما عندما رأى مجموعة صغيرة تتجمع في معبد سان إيرين الصغير وتحقق إلى لوحة معجزة قانا التي قدّمها كارلوس هدية إلى الكنيسة.

«لا!» صرخ كارلوس، ولكن ما من أحد التفت إلى صراخه.

ركض كارلوس وإبرما عبر الكنيسة، ولكن قبل أن يصلا إلى مكان اللوحة كان أحد الصبية قد رفع خنجراً، وطعن اللوحة طعنة مستقيمة. رمى كارلوس بنفسه على الصبي، وأطاح به أرضاً فطار الخنجر من يده، إلا أن رفاق الصبي أمسكوا بكارلوس وإبرما وثبتهما. حاول الرجلان المقاومة إلا أن الأمر لم يكن مجدياً.

نهض الفتى الذي هاجمه كارلوس من دون أن يكون قد أصيب بأي أذى، ورفع خنجره مرّة أخرى، وأخذ يطعن اللوحة دون توقف ممزقاً وجه المسيح وتلاميذه والشخصيات التي تمثل كارلوس وعائلته وأصدقائه وحولهم ضيوف حفل الزفاف.

أحضرت فتاة شمعة ووضعتها تحت اللوحة الممزقة. أخذت اللوحة تحترق من دون دخان في البداية إلى أن بدأ الدخان يتصاعد منها. وبسرعة انتشر اللهب الصغير ليصبح كبيراً ويحرق اللوحة بأكملها.

توقف إبرما عن المقاومة وحدق إلى كارلوس الذي أغلق عينيه. كان السفاحون الصغار قد أفلتوا وانتقلوا لتحطيم شيء آخر. عندما تحرر كارلوس من قبضتهم خرّ على ركبتيه وأخذ ينتحب.

الفصل الخامس عشر

كانت أليسون ماكي وملكة إسكتلندا ماري مسجونتين معاً. كان السجن في قلعة على جزيرة ليفين الإسكتلندية، وتحت حراسة خمسة عشر جندياً ليلاً ونهاراً، وهذه حراسة كبيرة على مجرد سجينتين. ولكن ماري وأليسون ستهربان من السجن.

كانت ماري عنيدة ولا تتمتع بملكة الحكم الجيد. وأقرت أليسون في سرها، في أحلك ساعات الليل، أن كل قرار أخذته الملكة انتهى نهاية وخيمة. ولكن ماري لم تستسلم، وهذا ما أحبته أليسون فيها.

كانت بحيرة ليفين مكاناً موحشاً، والقلعة عبارة عن برج مربع الشكل مبني من الحجارة الرمادية بنوافذ صغيرة عادية لصد الرياح الباردة التي تعصف بشدة فوق مياه البحيرة حتى في فصل الصيف. تقع القلعة على أرض لا تزيد مساحتها على مئة ياردة، ويفصل القلعة عن البحيرة دغل صغير وضيق. عندما يكون الطقس عاصفاً تضرب الأمواج الدغل قاذفةً بالحجارة نحو جدران القلعة. كانت البحيرة واسعة، وسيحتاج رجل قوي البنية إلى التجديف لساعة ونصف الساعة ليصل إلى البر.

كان الهروب من هذا السجن أمراً صعباً، ولكن عليهما المحاولة فقد كانتا في وضع مزير. لم تتخيل أليسون - حتى الآن - أن الملل سيجعلها تفكر بالانتحار. لقد تربيتا في البلاط الفرنسي الباذخ وحول أناس في ثياب جميلة وحلي لا تُقدر بثمن حيث كانت تتم دعوتهما يومياً إلى ولائم ومهرجانات ومسرحيات. كانت أحاديثهما اليومية عن المؤامرات السياسية والدسائس الاجتماعية. وقام الرجال الذين كانوا في أوساطهما بشن الحروب وإنهائها،

فيما كانت النساء ملكات وأمهات ملوك. لذلك لا بد أن تكون بحيرة ليفين بالنسبة لهما الآن أشبه بالمُطهر.

كان عام 1568 وأليسون قد بلغت عامها السابع والعشرين أما ماري فكانت في الخامسة والعشرين. لقد مضى على وجودهما هنا حوالي العام تقريباً، قضت أليسون الكثير من هذا الوقت في التفكير بالخطأ الذي اقترفته هي وماري.

كان الخطأ الأول الذي اقترفته ماري هو الوقوع في غرام نسيب الملكة إليزابيث اللورد هنري دارنلي والزواج به. كان هنري سكيراً فاتناً إلا أنه يعاني من مرض الزهري. وشعرت أليسون بأنها ممزقة بين شعورين: بالسعادة لأن ماري واقعة في الغرام، وبالصدمة من الرجل الذي اختارته.

ولكن وهج الحب سرعان ما بهتَ عندما حملت ماري، وقتل دارنلي سكرتيرها الخاص بعد أن راودته الشكوك بأنه والد الطفل. ورأت أليسون بأنه لو كان هناك رجل نبيل في إسكتلندا أسوأ من دارنلي فسيكون هذا الرجل هو الإيرل بوثويل، وهنا كانت غلطة ماري الثانية عندما شجعت الإيرل على قتل دارنلي. نجح بوثويل في أداء هذه المهمة إلا أن الجميع عرفَ أو تكهنَ بما سيحدث بعد هذا. لم تتوقع ماري، ولا حتى أليسون، رد فعل الإسكتلنديين الذين كانوا يُعتبرون أمةً قويمة. واستهجن الكاثوليكيون والبروتستانتيون على حدٍ سواء هذا الانحلال الملكي. وبلمح البصر خسرت ماري دعم الإسكتلنديين.

شعرت أليسون بعاصفة من الحظ السيئ تضربهما عندما خطفهما بوثويل، وأجبر ماري على قضاء الليلة معه. لو أن هذا الأمر قد حدث في ظروف مختلفة لكانت الأمة غضبت من هذا الهجوم على ملكتهم، وكان الشعب احتشد من أجل الدفاع عنها، ولكن بحلول ذلك الوقت كانت سمعة ماري قد سُوهت، ولم تعد ماري واثقة من أنها ستلقى الدعم الشعبي. قررت ماري وأليسون معاً أن الطريقة الوحيدة لاستعادة اعتبار ماري هي الزواج من بوثويل والتظاهر بأنه لم يغتصبها.

حصلت زوجة بوثويل التي كانت قد ضاقت ذرعاً به، على طلاقٍ سريع لم تعترف به الكنيسة الكاثوليكية، وتزوجا على الفور. وهذه كانت الغلطة الثالثة.

حشد ستة عشر نبيلاً إسكتلندياً ممن أغضبهم ما حدث جيشاً وقضوا على قوات بوثويل وماري، ثم ألقوا القبض عليهما، وأجبروا ماري على التخلي عن العرش لمصلحة ابنتها جيمس البالغ من العمر عاماً واحداً، وسجنوها في قلعة بحيرة ليفين من دون طفلها الصغير.

كانت الملكة إليزابيث، ومن دون أدنى شك، تراقب كل هذه الأحداث عن كثب. ظاهرياً، دعمت إليزابيث ماري كملكة شرعية لإسكتلندا، ولكنها في الحقيقة لم ترسل أي فرقة إنقاذ لمساعدتها. كان موقف إليزابيث مشابهاً لموقف من يسمع رجلين ثملين يتعاركان في الشارع ليلاً دون أن يهتم بمن سيفوز في هذا العراك مادام أي من الرجلين لا يحاولان اقتحام منزله.

عندما تزوجت ماري من دارنلي، تزوجت أليسون من رجل كاثوليكي صالح له عيانان عسليتان وشعر أشقر ذكرها كثيراً ببير أوموند. كان رجلاً لطيفاً وعطوفاً، إلا أنه كان يتوقع أن تقوم أليسون على خدمته وليس على خدمة ماري، وهذا ما رأته أليسون أمراً صعباً رغم أنها عرفت أنه يتوقع منها هذا. حملت أليسون منه ولكنها أجهضت بعد أربعة شهور. توفي زوجها بعد هذا بمدة قصيرة في حادث أثناء الصيد، وشعرت بالراحة عندما عادت للعب دورها القديم كساعد ماري الأيمن. وها هما الآن هنا في السجن على جزيرة ليفين.

«لم يُحبني أحد كما أحببتي»، قالت ماري في إحدى الليالي الإسكتلندية الطويلة والمعتمة في قلعة بحيرة ليفين، وتورد خدّاً أليسون وانتابها شعور غريب وقوي. «توفي والدي عندما كنت طفلة»، تابعت ماري. «وعِشْتُ بعيدة عن أمي معظم الوقت. كان كل واحد من أزواجي الثلاثة ضعيفاً بطريقة مختلفة. لقد كنت الأمّ والأب والزوج بالنسبة لي، أليس الأمر غريباً؟» ودفع كلامها هذا أليسون إلى البكاء.

كان سجانهما يدعى السير ويليام دوغلاس وهو مالك قلعة بحيرة ليفين أيضاً. تملك ماري قدرة استثنائية في الفوز بحب الآخرين، ولذلك وقع السير ويليام في غرامها. كان يتصرف معهما وكأنه مضيفٌ يحاول الترفيه عن ضيف مميز. أغرمت بناته بماري فقد كن يعتقدن أنّ وجود ملكة مسجونة أمر رومانسي جداً، ولكن زوجته الليدي أغنيس لم تقع في شباك ماري. كانت أغنيس تملك حساً عالياً بالواجب، ولم تغفل قط عن مراقبة ماري.

ولكن أغنيس كانت قد وضعت طفلها السابع للتو ومازالت طريحة الفراش، ولذلك كانت هذه اللحظة المناسبة للهروب. كان القائد دريسدل وجنوده مسؤولين عن حراسة ماري، ولكن في يوم الأحد الواقع في الثاني من شهر أيار/ مايو انغمس الجنود في احتفالات مهرجان الربيع وشربوا أكثر من المعتاد. كانت أليسون تأمل أن يتراخوا في مراقبتهما بحلول نهاية منتصف الظهر - أي في الوقت الذي خططت فيه هي وماري للهروب. سيكون الهروب صعباً، ولكن هناك من سيساعدهما في هذا.

ومن بين سكان قلعة بحيرة ليفين الآخرين هناك جورج الأخ الوسيم وغير الشقيق للسير ويليام والمُلقب بجوردي الوسيم، وهناك أيضاً ويلي دوغلاس، وهو فتى يتيم طويل في الخامسة عشرة، وتعتقد أليسون أنه ابن غير شرعي للسير ويليام.

خططت ماري للفوز بقلب جوردي الوسيم. كان قد سُمح لها بجلب ثيابها المملّكية، رغم ورغم عدم تمكنها من استعادة مجوهراتها إلا أنها كانت قادرة على الظهور بأبهى طلة. ولكن لم يكن إغواء جوردي بالتحدي الكبير فلطالما كانت ماري امرأة مغرية، وعلى هذه الأرض الصغيرة لا منافسات حقيقيات لها. ولأن عدد الناس قليل في هذا المكان الضيق فإن المشاعر الرومانسية تشتعل على الفور. رأت أليسون أنه لم يكن من الصعب على ماري لعب هذا الدور لأن جورج ساحر ووسيم في آن معاً، وقد تكون مشاعر ماري نحوه صادقة.

لم تعرف أليسون شيئاً عمّا كان يجري بين ماري وجورج سوى أنهما يتبادلان القُبْل، ففي النهاية جورج في النهاية رجل ناضج ولا بد أنه يرغب بالاتصال الجسدي، ولكن لم يكن هناك أيّ علاقة جنسية بينهما لأن ماري - بسمعتها التي تلطخت - لا يمكن أن تغامر بعار حمل غير شرعي. لم تسأل أليسون ماري عن التفاصيل، لقد مر وقتٌ طويل على تلك الأيام السعيدة في باريس عندما كانتا مجرد فتاتين مراهقتين تخبران بعضهما بكل شيء. ولكن كل ما يهم الآن هو أنّ جورج واقع بجنون في الغرام، ويتوق للعب دور الفارس القروسطي الذي ينقذ حبيبته من قلعة اليأس.

وبدورها أليسون عملت على الإيقاع بالشباب ويلي. لم يكن الأمر تحدياً

بالنسبة لها أيضاً رغم أنها كانت أكبر منه بكثير، ولأنّ ويلي قد دخل طور البلوغ فقد كان مستعداً للوقوع في غرام أيّ امرأة جذابة قد تهتم به. لم يكن على أليسون سوى التحدث إليه وسؤاله عن حياته والوقوف قريباً جداً منه وتقبيله بطريقة، شبه أخوية إن صح القول، والضحك كل ما رآته يحرق إلى صدرها، والقيام بملاحظات خبيثة عن الرجال لتشجعه. لم تكن مضطرة للقيام بأي فعل جنسي مع هذا الفتى الذي بلغ طور الرجولة لتوه. وعميقاً في لاوعيتها شعرت ببعض الندم على قيامها بهذا، وكان من الصعب عليها الاعتراف بهذا، حتى لنفسها، ولكن ويلي خضع بسهولة وأصبح الآن عبدها. منذ بضعة شهور كان جورج وويلي قد بدأ بتهريب رسائل من وإلى السجن ولكن بصعوبة، إلا أن عملية الهرب ستكون أصعب بكثير.

لم يكن بوسع ماري مغادرة هذه الجزيرة الصغيرة خفية لأنّ القلعة كانت منزلاً لما يقارب خمسين شخصاً تقريباً بمن فيهم العائلة والجنود ومساعدو السير ويليام وطاقم كبير من خدم المنزل. كانت البوابة مقفلة، ومن أراد الدخول أو الخروج يتوجب عليه فتحها أو تسلق الجدار. كان هناك ثلاثة أو أربعة قوارب راسية عند الشاطئ، ولكن ماري تحتاج إلى متواطئ قوي جداً ليحذف بها لأنّ المطاردة ستكون سريعة. وعلى البر الرئيسي ستحتاج إلى أصدقاء يملكون جياداً حتى يأخذوها إلى مخبأ آمن من الباحثين عنها. وهناك الكثير من الأمور التي قد تسوء خلال هذا.

وجدت أليسون صعوبة في الجلوس بهدوء خلال الصلاة الصباحية في الكنيسة. كانت تتوق إلى الهرب، ولكنها خافت من العواقب أيضاً إن ألقي القبض عليهما. فقد تُسجن مع ماري في غرفة واحدة، وقد تُحرمان من الزهات على سطح جدران القلعة المتاخمة للدغل التي على الرغم من أنّها كانت موحشة فإنها وفرت لهما الهواء المنعش والمدى المفتوح على العالم الخارجي. لكن الأسوأ من هذا كله هو أن يقوموا بإبعادهما الواحدة عن الأخرى.

كانت ماري جسورة جداً، ومستعدة للمخاطرة بقدر أليسون تماماً إلا أن عواقب الفشل ستكون رهيبة.

بعد انتهاء الصلاة في الكنيسة بدأت الاحتفالات ببداية الربيع. وقد تفوق

ويلي على نفسه عندما لعب دور اللورد مسرول⁽¹⁾ وقام بحركات رجل ثمل مثيرة للضحك فيما حرص بدهاء على البقاء غير ثمل مع قلة آخرين على الجزيرة.

انتظرهم جوردي الوسيم على البر الرئيسي حتى يتوجهوا إلى قرية كينروس المتاخمة للبحيرة. كانت مهمة جوردي تأمين الأحصنة والرجال لنقل ماري وأليسون بعيداً عن المكان قبل أن يقبضوا عليهما. كانت أليسون متوترة جداً حيال نجاحه في المهمة الموكلة إليه، وانتظرت بقلق إشارة منه.

تناولت ماري بعد الظهر غداءً باكراً مع السير ويليام والعائلة، وقد حضرت أليسون وويلي للمساعدة في تقديم الأطباق. تقع غرفة تناول الطعام في الطابق العلوي من البرج ذي الشكل المربع، ولها إطلالة من النوافذ الصغيرة على البر الرئيسي، وهذه تقنية دفاعية أساسية في القلعة. اضطرت أليسون إلى منع نفسها من التحديق بشكل مستمر إلى البر الرئيسي.

غادر ويلي عند نهاية الوجبة. كانت الخطة تقتضي أن يتسلق الجدار، ويتنظر وصول قارب يحمل رسالة من جورج يخطرهم فيها يأتيه بات جاهزاً. عندما كانوا يخططون للهرب، اقترح ويلي أن تقفز ماري من على الجدار إلى أرض الدغل. إن المسافة بين قمة الجدار والأرض تصل إلى سبعة أقدام وكان ويلي يقفزها بسهولة. جرّبت أليسون القفز من هذه المسافة، ولوت كاحلها. لم يكن من الممكن تعريض ماري إلى إصابة من شأنها أن تُبطئ من تقدمها، ولهذا ألغى اقتراح ويلي، وبدلاً من هذا بات عليهم المغادرة عبر البوابة، وهذا يعني أن عليهم الحصول على المفتاح.

كانت أليسون امرأة نبيلة وخادمة في الوقت نفسه، وهذا يعني أنه يُسمح لها بالانضمام إلى الآخرين الذين جلسوا بعد الغداء يتحدثون ويتناولون المكسرات والفواكه فيما السير ويليام يقدم النيذ. لم يكن هناك الكثير من الأحاديث على جزيرة بحيرة ليفين، ولكن بسبب غياب وسائل الترفيه الأخرى كانت الأحاديث الوسيلة الوحيدة.

كانت الليدي مارغريت والدة السير ويليام أول من نظر عبر النافذة ولاحظ شيئاً ما على شاطئ البر الرئيسي.

1- يعد اللورد مسرول رمز المرح الصاخب خلال الاحتفالات المسيحية التقليدية في إنكلترا في القرنين الخامس والسادس عشر. (الترجمة)

«من هؤلاء الرجال على الجياد؟» سألت بلهجة فضولية قليلاً.
تجمدت أليسون في مكانها. كيف يمكن لجورج أن يكون بهذا الإهمال؟
كان يفترض به أن يخفي الرجال بعيداً عن الأنظار! إن بدأ الارتياب يساور
السير ويлияم الآن فقد يحبس ماري في غرفتها وتفسد الخطة. لا، لا يمكن أن
تفسد الخطة بهذه السرعة.

نظر السير ويлияم خارجاً وعبس: «لا سبب لوقوفهم هناك على
حد علمي».

سيطرت ماري على الموقف بذكاء، وقالت بصوتٍ فيه تحدٍ: «أيتها
الليدي مارغريت يجب أن أتحدث إليك عن ابنك جيمس الذي يكون أخي».
أثار ما قالته ماري اهتمام الجميع. كانت الليدي مارغريت في شبابها
إحدى محظيات والد ماري، الملك جيمس الخامس، وحملت منه بابنٍ غير
شرعي. كان جيمس ستيوارت الأخ غير الشقيق لماري، وقد قابلته أليسون
في سان ديزيه مع نيد ويلارد الغامض عندما حاول الرجلان إقناع ماري
بعدم العودة إلى إسكتلندا. لم يكن فتح قصص الماضي تصرفاً لبقاً من
جانب ماري.

«جيمس في فرنسا»، قالت الليدي مارغريت وقد بدت مُخرجةً.

«لزيارة الأدميرال كوليني بطل الهوغونيين⁽¹⁾».

«سيدتي وكما تعرفين جيداً فأنا لا أستطيع فعل أي شيء بخصوص
جيمس».

حرصت ماري على أن ينظر الجميع إليها بدلاً من التحديق إلى النافذة.
«لقد كنت أحبه جداً»، قالت بسخطٍ. «وجعلته إيرل موري».
شعرت مارغريت بالخوف من الغضب المفاجئ للملكة الشابة. وقالت
متوترةً: «وأعلم أنه ممتن جداً على عطفك».
توقف الجميع الآن عن النظر إلى النافذة.
«إذاً، لم تأمر جيمس علي؟» صرخت ماري. علمت أليسون أن غضبها

1- الهوغونيين عضو في جماعة المطالبين بإصلاح الكنيسة أو الطائفة الكالفنية في فرنسا
خلال القرنين السادس والسابع عشر، والهوغونيون تسمية أخرى للبروتستانتين
الفرنسيين. (المترجمة)

لم يكن مزيفاً بل حقيقياً. «منذ أتيت إلى هنا أجبرني على توقيع أوراق التنازل عن العرش، وتوج ابني جيمس السادس ملكاً، وجعل نفسه الوصي على العرش. إنه الآن ملك إسكتلندا الحقيقي وإن لم يكن بشكل شرعي».

شعرت عائلة دوغلاس بالأسف على ماري، إلا أنهم كانوا يؤيدون ما فعله جيمس وبدوا مرتبكين، وفكرت أليسون بأنها حركة جيدة من ماري لأنهم نسوا أمر الرجال على الجياد على البر الرئيسي.

حاول السير ويليام أن يكون مسالماً وقال: «بالطبع، لم يكن هذا ما كنت ترجينه يا سيدتي. ولكن من جهة أخرى، أصبح ابنك الملك وأخوك الوصي عليه، ولهذا فإن هناك شرعية لا يمكن إنكارها في هذا الترتيب».

ألقت أليسون نظرة خاطفة إلى النافذة. كان الرجال على الجياد قد اختفوا. لا بد أن جورج أمرهم بغضب بالابتعاد عن الشاطئ، أو ربما كانوا في بلدة كينروس لساعة أو اثنتين وبدؤوا يتململون ولهذا فقدوا حذرهم، ولكن الأمور الآن عادت إلى مسارها الطبيعي.

انتهت الأزمة رغم أنها أثبتت أن المخاطر تحف بهذه الخطة، وهذا جعلها تشعر بالمزيد من التوتر.

بدت ماري كأنها بدأت تفقد صبرها: «أشعر بالتعب بعد احتفالات مهرجان الربيع»، قالت هذا بينما وقفت وتابعت: «سأذهب لأخذ قسط من الراحة».

رافقتها أليسون. هناك في الخارج درج حلزوني يقود إلى الطوابق العليا والسفلى. صعدتا إلى القسم المخصص للملكة.

لم تكن ماري متعبة بل متحمسة ومهتاجة، ولهذا كانت تتحرك من دون توقف بين كرسيها والنافذة.

تفقدت أليسون ثياب التنكر الخاصة بهما، وطوتها في صندوق ثم وضعت الصندوق تحت فساتين ماري. تمكنتا من الحصول على ثوبين مصنوعين منزلياً من الصوف والقطن الخشن ومن النوع الذي ترتديه الخادמות في القلعة فوق تنورة تحتية، بالإضافة إلى نوع من أغطية الرأس المعروفة باسم القلنسوة الفلمنكية التي تغطي الوجه، وبالتالي يصعب على الآخرين تمييز الوجه ما لم ينظروا إلى الأمام مباشرة. يرتدي الخدم أحياناً

جزماً جلدية قاسية، وقد وجدت ماري وأليسون السير بها صعباً، ولكن لحسن الحظ فإنّ الخادِمات كُنَّ يستخدمن أيضاً أخفاف سيداتهنّ البالية والمصنوعة من الحرير أو الساتان. ثابتت أليسون وماري على المشي بهذه الأحذية القديمة سراً ولأسابيع حتى بُليت بما يكفي وبدت وكأنّها أحذية تمّ التبرع بها.

كانت المشكلة الوحيدة التي لم يكن بالإمكان إخفاؤها هي طول ماري. لم تكن هناك امرأة على الجزيرة تضاهيها في الطول، ولم تعتقد أليسون أنّهما قد تنجوان بسبب هذا. وضعت أليسون الثياب التنكرية جانباً فقد كان عليهما أن تصبرا لساعة أخرى، وفي تمام الساعة السادسة أرسلوا العشاء إلى غرفة ماري. وكم العادة قدّم لها السير ويليام العشاء الذي كان نوعاً من الكياسة التي عامل بها السّجان سجيته. تركت أليسون الغرفة وتوجهت للبحث عن ويلي، واكتشفت ما كان يحدث. في الخارج كانوا قد بدؤوا لعبة كرة اليد بين الجنود والخدم، والمشجعون من كلا الجانبين يصرخون بالهتافات. اكتشفت أنّ دريسدل الذي يُفترض به أن يراقب ماري يقود فريق الجنود، ورأت في هذا إشارة جيدة على أن انتباهه سيكون مشتتاً.

قطع ويلي الباحة باتجاه أليسون، وبدا متحمساً.

«لقد وصل!» همس لها وأخرج قرطاً لؤلؤياً.

كان هذا القرط الإشارة التي أرسلها جورج من البر الرئيسي، وهو يعني أنّهم جاهزون لهروب ماري. اغتبطت أليسون، ولكن ويلي لم يكن يتصرف بحذرٍ كافٍ.

«أغلق قبضتك!» همست له أليسون. «لا نريد أن يطرح أحد أيّ أسئلة.»

لحسن الحظ كان من في الباحة مأخوذِين باللعبة.

«آسف»، قال ويلي وأغلق أصابعه على القرط، ثمّ سلّمه إلى أليسون وكأنه يسلمها غرضاً اعتيادياً.

«اقفز عن الحائط الآن، ودمر كل المراكب عدا واحداً»، قالت أليسون.

«أنا جاهز!» قال هذا وأزاح معطفه جانباً ليكشف عن مطرقة تتدلى من حزامه.

عادت أليسون إلى جناح ماري. لم تأكل ماري الكثير، وحزرت أليسون

سبب هذا. فلقد كانت أليسون متوترة أيضاً مثل ماري ولم تكن لتستطيع ابتلاع الطعام. قدّمت أليسون القرط إلى ماري وقالت: «هذا هو القرط الذي أضعته، لقد عثر عليه أحد الصبية».

فهمت ماري ما الذي يعنيه هذا وقالت بابتهاج: «يسعدني هذا جداً». نظر السير ويليام من النافذة وقال متفاجئاً: «ما الذي يفعله ذلك الصبي الغبي بالقوارب؟» قال هذا بنبرة حانقة ورقيقة في آنٍ معاً.

نظرت أليسون إلى حيث كان ينظر السير ويليام. كان ويلي على شاطئ البحيرة راكعاً أمام ثلاثة قوارب راسية على الشاطئ. لم يكن بإمكان المراقب من بعيد رؤية ما يقوم به ويلي بشكل واضح. ولكن تعلم أليسون أنّه كان يثقب بدن القوارب حتى لا يستخدموها في مطاردة الهاربتين، ومّرت أليسون بلحظة هلع حقيقية، ولم يكن لديها أدنى فكرة عمّا يجب أن تفعله. التفتت إلى ماري ودون أن تخرج صوتاً حركت فمها وكأنها تقول: «ويلي». علمت ماري ما كان على ويلي فعله بالقوارب، ومجدداً أظهرت موهبة في التفكير بسرعة في الحالات الطارئة.

«أشعر بدوار شديد»، قالت هذا، وسقطت على كرسيتها بعينين مغلقتين. أدركت أليسون ما كانت تخطط له ماري وجارتها. «يا إلهي ما الخطب؟» قالت هذا برعبٍ مزيف.

علمت أليسون أنّ ماري تتصنع هذا، إلا أن السير ويليام لا يعلم. لقد بدا خائفاً وهرع نحو ماري. وبدا خائفاً وتوجه على الفور باتجاه ماري. إن ماتت ماري وهي في عهده فسيقع في المتاعب. سيضطر الوصي على العرش جيمس ستوارت إلى إنكار عدم تواطئه في قتل ماري، ولكي يثبت هذا فقد يُعدم السير ويليام.

«ما الأمر؟ ماذا حدث؟» قال السير ويليام.

«تحتاج إلى نبيد قوي لتصحو. هل تملك نبيداً أبيض؟» سألته أليسون.

«بالطبع سأحضره على الفور»، قال السير ويليام وغادر الغرفة.

«أحسنّت»، قالت أليسون بهدوء لماري.

«هل ما يزال ويلي يعمل على القوارب؟» سألت ماري.

نظرت أليسون من النافذة، وكان ويلي ما يزال يقوم بعمله ولكن على قاربٍ مختلف.

«أسرع يا ويلي!» تمتمت أليسون، وتساءلت عن المدة التي يأخذها إحداهما ثقب في قارب.

عاد السير وويليام مع مدير القهرمان حاملاً إبريقاً من النيذ وكأساً. «يديا ترتعشان أيها السير وويليام. هلا قمت بوضع الكأس على شفيتها». نفذ السير وويليام ما قالته أليسون مستغلاً الفرصة ليضع رأس ماري على يده برقة، ولم يفكر حتى بالنظر خارج النافذة. تناولت ماري جرعة من الكأس، وأخذت تسعل مظهرة بأنّها استعادت وعيها.

تظاهرت أليسون أنّها تتحسس حرارة جبهتها، وتجس نبضها. «ستصبحين الآن على ما يرام يا صاحبة الجلالة، ولكن قد يكون عليك أن ترتاحي الليلة». «حسناً»، قالت ماري.

بدا السير وويليام مرتاحاً لسماع هذا وقال: «إذاً، سأغادر. طابت ليلتكما أيتها السيدتان». حدّق وويليام من النافذة وحدّقت أليسون معه. كان ويلي قد غادر الشاطئ، ولم يكن بالإمكان التأكد من نجاحه في ثقب القوارب. غادر السير وويليام من دون أن يدلي بأي تعليق. نظّف القهرمان الطاولة وغادر، وعادت ماري وأليسون لتكونا وحدهما مجدداً.

«هل نجونا؟» سألت ماري. «أعتقد هذا. ربما نسي السير وويليام ما رآه من النافذة. كان يشرب طوال فترة ما بعد الظهر. لا بدّ أنّه ثمل قليلاً الآن». «أرجو ألا يجعل الشك السير وويليام حذراً الآن لأن على ويلي سرقة المفتاح».

احتفظ السير وويليام بمفاتيح البوابة معه. وعندما يغادر أحدهم أو يأتي من البر الرئيسي كان السير وويليام يفتح البوابة بنفسه، أو يعطي المفتاح إلى أحد الحراس ولكن لدقائق معدودة فقط. لم يكن هناك سبب قد يدفع أحداً إلى مغادرة القلعة لأنّه ما من شيء في الخارج سوى القوارب.

كان على ماري وأليسون مغادرة القلعة، وبالنظر إلى تجربة أليسون غير

الناجحة في النزول عن الجدار لم يكن بوسعهما استخدام هذه الطريقة، ولهذا كان عليهما فتح البوابة. أكد ويلي لأليسون وماري أنه يستطيع سرقة المفتاح من دون علم السير وويليام، واعتمدتا عليه في هذا.

«يجب أن نرتدي ثيابنا ونستعد»، قالت أليسون.

خلعتا ثيابهما الثمينة، وارتديتا التنانير الرثة، ثم ارتديتا أحذية مهترئة، ووضعتا أغطية الشعر الفلمنكية على رأسيهما التي نجحت بإخفاء شعر ماري الأحمر والمميز. كان كل ما عليهما فعله الآن هو الانتظار.

كان السير وويليام يحب أن يُقدم له ويلي عشاءه. إن حبه لهذا الفتى اليتيم هو ما قاد الجميع إلى الاعتقاد بأنه والده، إلا أن أليسون قوضت إخلاص ويلي للسير وويليام.

تخيلت أليسون ما كان يجري في الطابق السفلي في هذه اللحظة. كان ويلي يضع ويرفع الأطباق والمناديل والأباريق. وقد يكون المفتاح إلى الطاولة بجانب كأس النبيذ الخاص بالسير وويليام. تخيلت أليسون ويلي يُسقط منديلاً فوق المفتاح ويرفع المنديل والمفتاح معاً. وتساءلت أليسون إن كان سينجح في هذا، وإن كان السير وويليام ثملاً بما يكفي حتى لا يلاحظ. كان عليهما الانتظار لمعرفة كيف ستسير الأمور.

إن نجحت الخطة سيحدث هروب ماري زلزالاً سياسياً. ستقول إنهم أجبروها على التوقيع على أوراق التنازل، وتطالب بحقها الشرعي بالعرش. سيحشد أخوها جيمس جيشاً بروتستانتيّاً، وسيحشد أنصار ماري الكاثوليكين ممن لم يفقدوا الإيمان بها، وستندلع حرب أهلية من جديد. ستحظى ماري بتشجيع ملك فرنسا أخي زوجها السابق، الذي كان يحارب حرباً أهلية طويلة ومشابهة مع الهوغونيين. سيكون البابا الذي يدعمها سعيداً بإبطال زواجها من بوثويل، وستعود التكهنتات بخصوص أزواج محتملين في كل بلاط ملكي من روما إلى إستوكهولم. سيتغير توازن القوى الأوروبية بطريقة زلزالية، وسيغضب هذا ملكة إنكلترا إليزابيث.

ولكن كل هذا يعتمد على الفتى ويلي ذي الخمسة عشر ربيعاً. سمعتا طرقاً خفيفاً ومُلاحاً على الباب. فتحت أليسون الباب، ورأت ويلي مشرق الوجه ويحمل مفتاحاً حديدياً كبيراً.

دخل ويلى، وأغلقت أليسون الباب وراءه.
وقفت ماري وقالت: «لننتقل على الفور».

«ما زالوا يتناولون العشاء، والسير ويليام غفا على الطاولة، ولكن الليدي مارغريت تتحدث مع حفيداتها، وقد يروننا من الباب المفتوح فيما نخرج».
كان الدرج الحلزوني يحفّ بكل باب من كل طابق في القلعة.

«ولكن الوقت مناسب فما يزال الحراس يلعبون كرة اليد»، قالت أليسون.
«يجب أن نخاطر وننتقل»، قالت ماري بحزم.

بدا ويلى محبطاً وقال: «كان علي أن أغلق باب غرفة الطعام. لم أفكر بهذا».

«لا تهتم يا ويلى. لقد قمت بعمل رائع»، قالت أليسون وأعطته قبلة رقيقة على شفتيه، وبدا كأنه صعد إلى الجنة.

فتحت أليسون الباب وخرجوا جميعاً.

سار ويلى في المقدمة وتبعته ماري وأليسون. حاولوا هبوط السلم الحلزوني بهدوء على أمل ألا يلفتوا انتباه أحد. قامت المرأتان بشدّ أغطية الرأس إلى الأمام فيما اقتربوا من باب غرفة الطعام المفتوح. تسلس الضوء من الداخل إلى البهو، وسمعت أليسون أصواتاً نسائية خفيفة. مرّ ويلى بالباب من دون أن ينظر، ووضعت ماري يدها على وجهها عندما مرت في منطقة يتخللها الضوء القادم من غرفة الطعام. أحسّت أليسون أنّها ستسمع صرخة تحذير في أيّ وقت، ولكنها عبرت الباب، ونزلت الدرج وراء ماري ويلى. سمعت دوي ضحك عالٍ، وتخيلت أن الليدي مارغريت تضحك بتقزز من محاولتهما المثيرة للشفقة في تمويه نفسيهما، ولكن يبدو أنّ هناك سبباً آخر لضحكتها. لم يلاحظهما أحد. وفي حال حدثت الليدي مارغريت خارج الغرفة فلن ترى شيئاً مميزاً. سترى بضعة خدم يعبرون البوابة للقيام بعمل ما. خرجوا من باب البرج الذي لا يفصله عن بوابة القلعة سوى بضع خطوات، ولكن المسافة بدت طويلة. امتلأت الباحة بالمتفرجين على المباراة، ولمحت أليسون دريسدل يضرب الكرة بيدين مغلقتين بإحكام وبتركيز شديد.

وصل ويلى إلى البوابة ووضع المفتاح الحديدي في القفل الكبير ثم أداره. أدارت أليسون ظهرها للحشد لتخبى وجهها، وهذا يعني أنّها لا

تستطيع النظر إلى الوراء، والتأكد أن ما من أحد يراهما. تطلب عدم النظر إلى الوراء إرادة على مقاومة الإغراء. عندما دفع ويلى البوابة الخشبية أصدرت صريراً صاخباً. تساءلت أليسون إن كان أحد قد سمع الصوت، وخرج الهاربون الثلاثة من البوابة. لم يلحق بهم أحد وأغلق ويلى البوابة وراءهم. «أغلقها»، قالت أليسون. «فهذا سيؤخرهم».

أقل ويلى البوابة، ووضع المفتاح في فوهة المدفع عند المدخل. لم يرهم أحد. وتوجهوا إلى الشاطئ.

أخذ ويلى القارب الوحيد الذي لم يدمره، ودفعه نحو المياه الضحلة، ثم ثبته ولكن دون أن تلامس عارضته السفلية الشاطئ إلا قليلاً. صعدت أليسون بجهد، ثم ساعدت ماري على الصعود. قفزت الملكة إلى القارب وجلست. دفع ويلى القارب بعيداً عن الشاطئ ثم قفز إليه وبدأ يجدف.

نظرت أليسون إلى الوراء. لم يكن هناك أي إشارة إلى افتضاح غيابهما. لم يكن هناك أحد على الأسوار يراقب أو يحرق من نافذة القلعة وما من أحد يركض باتجاه الشاطئ. وتساءلت إن كانوا نجحوا بالهرب. لم تكن الشمس قد غربت بعد فالأماسي الصيفية تمتد إلى وقتٍ طويل. وعلى الرغم من شدة النسيم فإنه كان دافئاً. جدّف ويلى بقوة فقد كان يملك ذراعين متينتين وساقين طويلتين وممتلئى بقوة الحب. على الرغم من هذا بدا تقدمهم عبر البحيرة العريضة بطيئاً بشكل مزعج. استمرت أليسون بالنظر إلى الوراء، ولكن ما من أحد لحق بهم بعد. حتى لو اكتشفوا أمر هروب الملكة كان عليهم أن يصلحوا القوارب قبل القيام بالمطاردة. وبدأت أليسون تعتقد أنهما تحررتا أخيراً. عندما أخذوا يقتربون من البر الرئيسي رأت أليسون خيال رجل لا تعرفه يقف منتظراً على الشاطئ.

«اللعنة»، قالت أليسون. «من ذاك الرجل».

سيطر عليها خوف رهيب من أنهم قطعوا كل هذه المسافة ليقعوا في فخ مجدداً.

نظر ويلى من فوق كتفي أليسون وقال: «إنه أليستير هوي، وهو برفقة جورج».

وعاد قلب أليسون لينبض بشكلٍ طبيعي مجدداً.

وصلوا إلى الشاطئ وقفزوا من القارب. قادهم أليستير على طريق بين المنازل. سمعت أليسون صوت جياذ تخبط بأقدامها وتشخر بنفاد صبر. خرج الهاربون من الطريق الرئيسي عبر القرية، وهناك وقف جوردي الوسيم يتسم بانتصار ومن حوله وقف الجنود. كانت الجياذ مُسرحة وجاهزة من أجلهم. ساعد جوردي ماري على امتطاء حصانها، ووجد ويلي متعة في وضع يده تحت قدم أليسون لتصعد على الجواد. وانطلق الجميع خارج القرية في طريقهم نحو الحرية.

بعد مرور أسبوعين على هروبهما باتت أليسون على قناعة أنّ ماري ستقوم بارتكاب أكبر خطأ في حياتها.

كانت ماري وأليسون في دير دندرينان أبي على الشاطئ الجنوبي لإسكتلندا وقبالة ممر سولوي فيرث المائي الذي يفصل إنكلترا عن إسكتلندا. كان دير دندرينان أعظم دير في إسكتلندا. وعلى الرغم من نزع السمة الدينية عن الأديرة إلا أنّ الدير ما يزال يحتوي على كنيسة مهيبة مبنية على الطراز القوطي وعلى العديد من الحجرات المريحة. جلست ماري وأليسون وحدهما في جناح كان يوماً من الأيام جناحاً فخماً لرئيس دير الرهبان وهما تفكران بسوداوية بمستقبلهما.

كانت الظروف تعاكس الملكة ماري مجدداً.

اشتبك جيش ماري مع جيش أخيها جيمس ستيوارت في بلدة لانغسايد بالقرب من غلاسكو. رافقت ماري رجالها، وأظهرت شجاعة كبيرة جداً اضطروا معها إلى منعها من قيادة الهجوم. ولكنها تعرضت إلى هزيمة وعادت مجدداً إلى وضع الهروب. توجهت إلى الجنوب عبر المستنقعات الجرداء التي تعصف بها رياح شديدة، وأحرقت الجسور خلفها لتؤخر متعقبها. وفي إحدى الأماسي البائسة قامت أليسون بقصّ شعر ماري الأحمر الجميل حتى لا يتعرف عليها أحد بسهولة، وهي الآن ترتدي شعراً مستعاراً بنياً بشعاً منحها مظهراً أكثر بؤساً.

أرادت ماري الذهاب إلى إنكلترا، وحاولت أليسون أن تقنعها بالعدول عن هذا.

«لا يزال لديك آلاف الأنصار»، قالت أليسون بمرح. «إن معظم الإسكتلنديين كاثوليكيون، فلم تنتشر البروتستانتية سوى بين مُحدثي النعمة والتجار».

«هذه مبالغة رغم وجود بعض الحقيقة فيها»، قالت ماري. «يمكنك إعادة توحيد الصف مجدداً وحشد جيش أكبر. فلتحاولي مجدداً».

هزّت ماري رأسها وقالت: «كان لدي أكبر جيش ممكن في لانغسايد. يبدو أنني لن أتمكن من الفوز في حرب أهلية ما لم أتلق مساعدة خارجية». «إذا فلنعد إلى فرنسا. لدي أراضي وأموال هناك». «في فرنسا أنا ملكة سابقة، وأشعر أن عمري صغير جداً على لعب هذا الدور».

فكرت أليسون أنّ ماري كانت ملكة سابقة في كل مكان، إلا أنها لم تقل لها هذا. «تعد عائلة أقاربك الفرنسيين من أقوى العائلات في البلد، وقد يحشدون جيشاً ويدعمونك إن طلبت منهم هذا شخصياً». «أعرف أنني إن عدت إلى فرنسا الآن فلن أعود إلى إسكتلندا». «إذا أنت عاقدة العزم..». «سأذهب إلى إنكلترا».

أجرتا هذا النقاش مراتٍ عديدة، وفي كل مرة تصل ماري إلى النتيجة نفسها.

«قد تكون إليزابيث بروتستانتية»، تابعت ماري. «ولكنها تؤمن بأنّ الملكة التي تُمسح بالزيت المقدسة، كما حصل معي عندما كان عمري تسعة أشهر، ستحكم بمشيئة ربانية. لا يمكن لإليزابيث أن تمنح الشرعية لذلك الغاصب، أخي جيمس لأنّها مثلي، معرضة لخطر احتلال بلادها أيضاً». لم تكن أليسون على دراية بمدى ثبات مكانة إليزابيث رغم أنّها ومنذ عشر سنين، ما تزال ملكة على عرش إنكلترا من دون أيّ معارضة خطيرة. ربما جميع الملوك يشعرون بالتهديد الدائم.

«يجب أن تساعدني إليزابيث على استعادة عرشي»، تابعت ماري.

«لن يوافقك أحد على ما تقولينه»، قالت أليسون.

كان هذا صحيحاً؛ فجميع النبلاء الذين حاربوا في لانغسايد ومن رافقوا ماري في هروبها يعارضون خطتها.

ولكن ماري كعادتها ستقوم بما عقدت العزم على القيام به: «أنا على حق وهم على خطأ».

فكرت أليسون بأن ماري تتصرف بعناد على الدوام إلا أن ما تنوي فعله الآن ليس عناداً بل انتحار.

وقفت ماري وقالت: «حان وقت الذهاب».

خرجتا إلى حيث انتظرهما جورج وويلي أمام الكنيسة مع مجموعة من النبلاء لوداعهما مع الخدم الذين سيرافقون الملكة. امتطوا الأحصنة وساروا على طريق معشوشب على طول جدول يخرخر بصوت عالٍ في أراضي الدير ليصب في البحر. يدخل الطريق غابة زاهية الخضرة مزدانة بالزهور البرية. ومن هناك يبدأ الغطاء النباتي بالتغير والتحول إلى شجيرات شوكية قاسية بزهور صفراء داكنة. كان هذا التفجر الربيعي يوحى بالأمل، إلا أن أليسون لم تشعر بهذا الأمل قط.

وصلوا إلى شاطئ حصوي واسع حيث يصبّ الجدول في البحر.

كان هناك قارب صيد بانتظارهم عند رصيف بحري خشبي مرتجل.

توقفت ماري على الرصيف البحري لوهلة، والتفتت نحو أليسون تحدثها بشكل مباشر وبصوت خفيض: «يمكنك عدم مرافقتي».

كان هذا صحيحاً. كانت أليسون تستطيع تركها، وإن بقيت وحدها فهي لن تشكل على أعداء ماري أي خطر لأنهم لن يروا في هذه الوصيعة تهديداً بثورة مضادة وهم على حق في هذا. كان لأليسون عمّ دمّ في ستيرلنغ وسيستقبلها من كل بد. يمكنها أن تتزوج مرة أخرى فهي ما تزال شابة. ولكن فكرة الحرية من دون ماري بدت خياراً باعثاً على كثير من الكآبة. لقد قضت حياتها في خدمة ماري، وحتى خلال الأسابيع والأشهر الفارغة والطويلة في قلعة بحيرة ليفين لم تكن تريد شيئاً آخر سوى البقاء معها. لم تكن أليسون آنذاك مسجونة داخل جدران حجرية بل داخل حبها لماري.

«حسناً» قالت ماري. «هل ستأتين؟».

«بالطبع سأفعل»، قالت أليسون. وصعدتا إلى القارب معاً.

«يمكننا الذهاب إلى فرنسا»، قالت أليسون في محاولة يائسة.

ابتسمت ماري وقالت: «يبدو أنك فشلت في رؤية عنصر مهم في كل ما يحدث»، قالت ماري. «يعتقد البابا وجميع ملوك أوروبا أنّ إليزابيث طفلة غير شرعية، وبالتالي فهي لا تملك الحق بعرش إنكلترا». توقفت ماري عن الكلام ونظرت عبر البحر إلى الأراضي التي تقع على بعد عشرين ميلاً من مصب الجدول. رأت أليسون في نظرتها الضبابية انعكاس السهول الإنكليزية الخضراء والمنخفضة. «وإن لم تكن إليزابيث ملكة إنكلترا الشرعية»، قالت ماري. «فأنا الملكة».

«وصلت الملكة الإسكتلندية ماري إلى كارلايل»، قال نيد ويلارد للملكة إليزابيث في غرفة الاستقبال الملكية في قصر وايت هول. توقعت الملكة من نيد أن يعرف مثل هذه الأمور فلقد كان عمله تقديم الأجوبة، ولهذا السبب منحته لقب السير نيد ويلارد. «وانتقلت إلى قلعة هناك»، تابع نيد. «وأرسل لك نائب الحاكم رسالة يسألك فيها عمّا يجب أن يقوم به».

كانت كارلايل تقع في الزاوية الشمالية الغربية من إنكلترا، وهي قريبة من الحدود الإسكتلندية ولهذا السبب يوجد فيها حصن.

أخذت إليزابيث تدرع الغرفة جيئة وذهاباً وفسانها الحريري يصدر حفيفاً بالتزامن مع خطواتها السريعة: «ما الذي يجب أن أقول له بحق الجحيم؟».

كانت إليزابيث في الرابعة والثلاثين، وها هي قد حكمت إنكلترا عشر سنين بيد من حديد، ولديها معرفة قوية بالسياسة الأوروبية، وهي تشق عباب التقلبات الغادرة لميائها بمساعدة قبطانها السير ويليام سيسيل. إلا أنها الآن تقف حائرة أمام ما يتحتم عليها فعله بماري. كانت الملكة الإسكتلندية أشبه بمشكلة حقيقية ومن دون حلٍ شافٍ لها.

«لا يمكنني السماح لماري الإسكتلندية بالتحرك في أرجاء إنكلترا وإثارة النقمة بين الكاثوليكين»، قالت إليزابيث في يأس. «سيقولون إنّها الملكة الشرعية وسنضطر للتعامل مع عصيان قد يشبّ في أي لحظة».

«ليس عليك أن تسمح لها بالبقاء»، قال سيسيل الذي كان يعمل محامياً

أيضاً. «فهي ملكة أجنبية تطأ أرضاً إنكليزية من دون طلب إذن، ويعتبر تصرفها غير لبق ويمكن ترجمته على أنه غزو».

«سيقول الناس إنني متحجرة القلب»، قالت إليزابيث. «وبأنني رميتها إلى الذئاب الإسكتلندية». يعلم نيد أن إليزابيث تستطيع أن تكون متحجرة القلب إن أرادت هذا، ولكنها كانت شديدة الحساسية حيال رأي الناس في تصرفاتها.

«ما تريده ماري هو أن ترسلي جيشاً إنكليزياً إلى إسكتلندا لمساعدتها على استعادة عرشها الشرعي»، قال نيد.

«لا أملك المال لفعل هذا»، أجابت إليزابيث على الفور فهي تكره الحروب وإنفاق المال. لم يثر رفضها السريع لهذا الاحتمال استغراب نيد أو سيسيل.

«إن فشلت في الحصول على مساعدتك»، قال سيسيل. «فقد تطلبها من أقربائها الفرنسيين. ونحن لا نريد جيشاً فرنسياً في إسكتلندا».

«لا سمح الله».

«آمين»، قال سيسيل. «دعينا لا ننسى أنها عندما تزوجت من فرانسيس أطلقا على نفسيهما لقب ملك وملكة فرنسا وإسكتلندا وإنكلترا وإيرلندا. بل وطلبنا نقش هذا اللقب على أدوات المائدة الخاصة بهما، وأرى أن لعائلة ماري الفرنسية مطامح لا تعرف حدوداً».

«إنها كالشوكة في قدمي»، قالت إليزابيث. «يا إلهي ما الذي يجب أن أقوم به؟».

تذكر نيد لقاءه بماري منذ سبع سنوات في سان ديزيه، واستعاد بذاكرته سحرها وطولها وجمالها الرباني. اعتقد نيد وقتها أنها كانت شجاعة إلا أنها مندفعة، وتخيلها تأخذ قرارات جريئة ولكن غير حكيمة. كان قدومها إلى إنكلترا قراراً غير حكيم بالمرّة. وتذكر أيضاً رفيقتها أليسون ماكي التي كانت امرأة في مثل عمر ماري بشعر داكن وعينين زرقاوين. لم تكن بجمال ماري، إلا أنها على الأغلب كانت أكثر حكمة منها. وكان هناك رجل بلاط متعجرف معهما يدعى بيير أوموند دي غيز. كان نيد قد كرهه منذ اللحظة الأولى.

يعلم سيسيل ونيد ما هو القرار الذي يتوجب على إليزابيث اتخاذه،

ولكنهما يعرفانها جيداً، ولم يكونا ليخبراهما بما يجب عليها القيام به. لهذا قاما بعرض الخيارات المتاحة أمامها لتستبعد أسوأها. بدأ سيسيل يتحدث بلهجة عادية وهو يعرض عليها الخيار الذي أرادها أن تأخذه: «يمكنك أن تسجنها». «هنا في إنكلترا؟».

«أجل، دعيها تبقى ولكن كسجينة، وسيعود عليك الأمر بفوائد عديدة». كان سيسيل ويند قد وضعاً قائمة بالفوائد، إلا أن سيسيل أخذ يتحدث عنها وكأنه فكر بها للتو. «أولاً، ستعرفين مكان تواجدتها على الدوام. ثانياً، لن تكون حرة وبالتالي لن تثير أيّ عصيان. وثالثاً، ستضعف قوة الكاثوليكين الإسكتلنديين إن كانت قائدتهم سجينة في بلد أجنبي».

«ولكنها ستكون هنا وسيعرف الكاثوليكين الإنكليز بهذا».

«هذا أحد العوائق»، قال سيسيل. «ولكن يمكنك أن تأخذي خطوات لمنعها من التواصل مع الساخطين أو أيّ شخصٍ آخر». كان نيد يشك في أن يكون إبقاء السجينة بعيدة عن أي اتصال بآخرين أمراً سهلاً إلا أن تفكير إليزابيث قد ذهب في اتجاه مختلف.

«سيكون سجنني لها مُبرراً»، استغرقت إليزابيث في التفكير. «لقد قالت عن نفسها إنها ملكة إنكلترا. ما الذي سيفعله فيلبي لو قام رجلٌ بالإدعاء أنّه الملك الشرعي لإسبانيا».

«سيُعدمه بالطبع»، قال سيسيل على الفور.

«في الحقيقة»، قالت إليزابيث التي كانت تحاول إقناع نفسها بأن هذا ما أرادت القيام به. «إن سجنّت ماري فقط فسأكون قد تصرفت برحمة معها». «أعتقد أن الأمر سيبدو كذلك»، قال سيسيل.

«أعتقد أنّ هذا الحل مناسب»، قالت إليزابيث. «شكراً لك يا سيسيل. ما الذي كنت لأفعله من دونك».

«هذا من لطفك يا مولاتي».

التفتت الملكة إلى نيد وقالت له: «من الأفضل أن تذهب إلى كارلايل، وتحرص على إتمام الأمور على أكمل وجه».

«حسناً يا مولاتي»، قال نيد. «ولكن إن سُئلت عن سبب سجن ماري فماذا أقول؟ لا نريد أن يقول الناس إنها مسجونة لسببٍ غير قانوني».

«فكرة سديدة»، قالت إليزابيث. «لا أعلم ما الذي يجب أن تقوله».
«بالنسبة لهذا الأمر»، قال السير سيسيل. «فأنا لذي اقتراح».

كانت كارلايل عبارة عن حصنٍ متين بجدار دفاعي طويل وبوابة واحدة ضيقة. كانت القلعة مبنية من الحجارة الرملية المحلية ذات اللون الوردي، ومنها بُنيت أيضاً الكاتدرائية الواقعة قبالة القلعة. في الداخل هناك برج له شكل مربع مع مدافع على سطحه، وجميعها موجهة نحو إسكتلندا.

كانت أليسون وماري في برج أصغر يقع في زاوية القلعة، وبدا المكان مقفراً تماماً كقلعة بحيرة ليفين وبارداً جداً حتى في شهر حزيران/ يونيو. كانت أليسون تتمنى لو أن لديهما أحصنة لتتمكننا من الذهاب في جولات فهذا شيء تحبه ماري وقد افتقدته كثيراً في قلعة بحيرة ليفين. ولكن كان عليهما الآن أن تقنعا بالمشي فقط وبرفقة فرقة من الجنود الإنكليز.

قررت ماري ألا تضغط بشكواها على إليزابيث، فكل ما يهم هو أن تساعدنا ملكة إنكلترا على استعادة عرشها الإسكتلندي.

كانتا تنتظران اليوم مبعوثاً من بلاط إليزابيث. لقد وصل في وقت متأخر من الليلة الماضية، وتوجه إلى غرفته ليرتاح على الفور. تمكنت أليسون من إرسال رسائل إلى أصدقاء ماري في إسكتلندا وكنيجة لهذا وصلت بعض الثياب وقطع الشعر المستعار، إلا أن حُلِيها التي قدمها لها الملك فرانسيس الثاني عندما كانت ملكة فرنسا ما زالت بحوزة أخيها البروتستانت غير الشقيق. ورغم هذا كله نجحت ماري هذا الصباح في الظهور بمظهر ملكي. بعد الانتهاء من تناول الفطور جلستا في غرفة صغيرة متواضعة بانتظار معرفة مصيرهما.

لقد تحدثتا ليلاً ونهاراً ولما يقارب الشهر عن إليزابيث وعن قناعاتها الدينية، ومعتقداتها حول الملكة، وسعة معرفتها المشهود بها، وشخصيتها المتطرفة التي اشتهرت بها. وحاولتا التكهن بالقرار الذي ستخذه؛ فهل ستساعد ماري على استعادة عرشها، أم لا؟ ووصلتا إلى نتيجة أو بالأحرى إلى نتائج مختلفة كل يوم، ولكنهما الآن ستعرفان النتيجة الحقيقية.

عندما رأت أليسون رسول إليزابيث تكهنت أنه يصغرها عمراً بقليل، وأنه في حدود الثلاثين من العمر. كان نحيلاً وله ابتسامة جميلة وعينان عسلتان.

كما كان حسن الهندام إلا أن ثيابه لم تكن مبهرجة. عندما أمعنت أليسون النظر إليه أصيبت بالمفاجأة عندما تذكرته. نظرت إلى ماري ورأت تقطية صغيرة على وجهها وكآتها تحاول أن تتذكر أين رآته. عندما انحنى للملكة وحيأ أليسون بإيماءة من رأسه تذكرت أليسون أين قابلته وقالت: «سان ديزيه».

«منذ سبعة أعوام»، أجابها. تحدث نيد بالفرنسية فقد كان يعلم، أو ربما تكهن بأن ماري ستكون مرتاحة أكثر إن تحدثت بالفرنسية بما أن الإسكتلندية لغتها الثانية ولا تملك سوى معرفة بسيطة بالإنكليزية. كان يتصرف بتهديب ولكن ليس بصرامة: «أنا السير نيد ويلارد».

رأت أليسون أن نيد يُخفي تحت سلوكه الحسن والحذر قساوة خطيرة كغميدٍ مخملي لسيفٍ حادٍ. أخذت أليسون تتحدث بدمائه في محاولة لكسب وده: «أصبحت السير! مبارك لك».

«هذا من لطفك».

تذكرت أليسون أن نيد في سان ديزيه تظاهر بأنه مجرد موظف لدى جيمس ستوارت، ولكن أمره كُشف عندما تحدث مع بيير أو موند بتحدٍ.

«حاولت إقناعي بعدم العودة إلى إسكتلندا»، قالت ماري.

«كان يجب أن تأخذي بنصيحتي»، قال لها بجدية.

تجاهلت ماري ما قاله وبدأت تناقش أمرها: «أنا ملكة إسكتلندا، ولا يمكن للملكة إليزابيث إنكار هذا».

«إنها لا تستطيع إنكار هذا حقاً»، قال نيد.

«لقد سُجنت بشكلٍ غير قانوني على يد خائنين في رعيتي، وأثق أن نسييتي إليزابيث متفقة معي في هذا».

لم تكن ماري وإليزابيث نسييتين قريبتين رغم أن قرابة بعيدة تربطهما. كان جد إليزابيث الملك هنري السابع والد جد ماري، إلا أن نيد ارتأى عدم مجادلتها في هذا الشأن.

«أتيت إلى إنكلترا بإرادتي الحرة. كل ما أطلبه هو فرصة التحدث إلى إليزابيث شخصياً لأطلب منها يد المساعدة»، تابعت ماري كلامها.

«سأوصل لها هذه الرسالة من كل بد»، قال نيد.

كبحت أليسون آهة خيبة كادت تفلت منها. كان نيد يتصرف بمراوغة، وهذا يعني أن الأخبار سيئة.

وقفت ماري غاضبة وقالت بازدراء: «توصل لها الرسالة؟ كنت أتوقع أنك هنا لإخباري بقرارها».

لم يرتبك نيد من تصرف ماري، فلم تكن هذه المرة الأولى التي يضطر فيها نيد للتعامل مع ملكة غاضبة.

«لا يمكن لجلالتها أن تأخذ مثل هذا القرار السريع»، قال نيد بنبرة عقلانية.

«لم لا؟».

«لأن هناك أموراً أخرى يجب أن توضع في نصابها أولاً».

لم يكن خداع ماري بالأمر السهل: «ما هي هذه الأمور؟».

قال نيد على مضض: «ما يزال موت زوجك اللورد دارنلي ملك إسكتلندا ونسيب الملكة إليزابيث... غامضاً».

«لا شأن لي في هذا الأمر».

«أصدقك»، قال نيد. ولكن أليسون عرفت أنه لم يكن يصدقها. «وجلالة الملكة إليزابيث تصدقك». وهذا أيضاً لم يكن صحيحاً. «ولكن يجب أن نقطع الشك باليقين قبل أن تستقبلك الملكة في بلاطها. وتأمل جلالتها بأنك كملكة ستفهمين موقفها».

رأت أليسون في هذه الحجة الواهية رفضاً صريحاً، ورغبت بشدة بالبكاء. لم تكن جريمة قتل دارنلي السبب الحقيقي بل مجرد عذر، أما السبب الحقيقي فهو أن إليزابيث لا ترغب بمقابلة ماري، وهذا يعني أنها لا ترغب بمساعدتها. كانت ماري قد وصلت إلى الاستنتاج نفسه أيضاً، وقالت لنيد وهي تنهض على قدميها: «هذا إجحافٌ كبير!» بدا وجه ماري مُحمرّاً وأخذت الدموع تترقق من عينيها. «كيف يُمكن لنسيبتي أن تعاملني بهذه البرودة؟».

«إنها تطلب منك أن تكوني صبورة، وهي ستقدم لك كل ما قد تحتاجينه».

«لن أقبل بهذا القرار. سأعود إلى فرنسا؛ فعائلتي هناك ستؤمن لي المساعدة التي رفضت إليزابيث تقديمها لي».

«لا تريدك الملكة إليزابيث أن تحضري جيشاً فرنسياً إلى إسكتلندا».

«إذاً، سأعود إلى إدنبره، وأجرب حظي في مواجهة أخي غير الشقيق
وصديقك جيمس ستيوارت».

تردد نيد، ولاحظت أليسون أن وجهه بدا شاحباً قليلاً. وضع نيد يديه
وراء ظهره وكأنه يقصد منع نفسه من الارتعاش بسبب الارتباك. لطالما كان
منظر ملكة غاضبة مريعاً، إلا أن نيد يملك الوسائل لمواجهة هذا. تحدث نيد
وخرج صوته قوياً وصلباً: «أعتقد أن هذا غير ممكن».

كانت الأدوار قد انقلبت؛ فهي هي ماري الآن خائفة، وقد تجلى هذا
الخوف على وجهها: «ما الذي تعنيه بحق الرب؟».

«أصدرت الملكة أوامر ببقائك هنا إلى أن تحكم المحكمة الإنكليزية
ببراءتك في جريمة قتل اللورد دارنلي».

شعرت أليسون بأن الدموع تنهمر من عينيها وصرخت: «لا!!!» كان هذا
أسوأ شيء يمكن أن يحدث.

«يوسفني حقاً أنني أتيت إليكما بأخبار مزعجة»، قال نيد وصدقته
أليسون. لم يكن سوى رجل لطيف يحمل رسالة غير لطيفة.

وتحدثت ماري بصوتٍ مرتعشٍ: «إذاً، لن تستقبلني الملكة إليزابيث في
بلاطها أبداً».

«لا»، قال نيد.

«ولن تسمح لي بالعودة إلى فرنسا».

«لا»، أجاب نيد مجدداً.

«ولن أستطيع العودة إلى موطني».

«لا»، أجاب نيد للمرة الثالثة.

«إذاً، أنا سجين».

«أجل»، أجابها نيد.

«مرة أخرى»، قالت ماري.

مكتبة

t.me/soramnqraa

الفصل السادس عشر

عندما توفيت والدة نيد انتابه الشعور بالحزن والفقد والوحدة، إلا أنه أيضاً شعر بغضبٍ طاغ. كان يتمنى لو أن أليس عاشت سنوات حياتها الأخيرة في رفاة وسعادة، ولكن بدلاً من هذا وقعت ضحية الصراع الديني وتوفيت وهي تعتبر نفسها فاشلة.

كان الوقت آنذاك عيد الفصح في عام 1570، وبالمصادفة كان بارني في إجازة وجيزة قبيل انطلاقه في رحلة جديدة. ففي يوم الإثنين من عيد الفصح احتفل الأخوان بقيامة المسيح في كاتدرائية كينغزبريدج، وفي يوم الثلاثاء وقفوا جنباً إلى جنب في المقبرة فيما يتم إنزال تابوت والدتهما في قبرٍ إلى جانب قبر والدهما. شعر نيد باستياء كبير يغلي في معدته. كان شعوراً مريراً وكريهاً، وأقسم للمرة الثانية على بذل كل سني عمره في منع أشخاص كالأسقف يوليوس من الوصول إلى السلطة وتدمير التجار الشرفاء من أمثال أليس وويلارد.

وحالما غادر الأخوان المقبرة حاول نيد أن يشغل عقله بالتفكير في أمور عملية فقال لبارني: «إن المنزل لك طبعاً».

وبما أن بارني الأخ الأكبر فقد أصبح المنزل له الآن. كان بارني قد خلق لحيته الكثة التي كشفت عن تجاعيد مبكرة على وجهه رغم أنه لم يتجاوز الثانية والثلاثين، بفعل الرياح البحرية المالحة والباردة ووهج الشمس.

«أعلم أنك لن تستخدمه كثيراً، ولكن أرجو أن تعيش فيه عندما تكون في كينغزبريدج»، قال بارني لنيد.

«هل ستعيش كبحار لبقية حياتك؟».

«أجل».

كانت أحوال بارني قد ازدهرت، فقد ترك سفينة ذا هوك وأصبح قبطان سفينة أخرى، ومن حصته في الأرباح اشترى سفينته الخاصة. كانت لديه براعة أليس في مجال الأعمال.

نظر نيد عبر ساحة السوق إلى المنزل الذي ولد فيه. كم كان يحب هذا المنزل القديم بإطلالته على الكاتدرائية: «سيسعدني الاهتمام به من أجلك». رغم أن جانيت ومالكوم سيقومان بكل العمل إلا أنني سأشرف عليهما». «إنهما يكبران بالعمر»، قال بارني.

«إنهما في الخمسين، ولكن إيلين في الثانية والعشرين فقط».

«وقد تتزوج من رجل يرغب بأخذ عمل مالكوم».

كان نيد يعلم جيداً أن هذا لن يحصل وقال: «إيلين لن تتزوج أحداً سواك يا بارني».

هزّ بارني كتفيه بلامبالاة. هناك الكثير من النساء اللواتي وقعن في حبه بجنون، وكانت المسكينة إيلين واحدة منهن.

«ألا تشعر بإغراء الاستقرار؟» سأل نيد.

«لا فائدة من الأمر، فالبحار نادراً ما يرى زوجته، ماذا عنك؟».

غرق نيد في التفكير لبعض الوقت. كان موت والدته قد جعله يعي أن الحياة قصيرة. بالطبع كان يعلم هذا من قبل، إلا أنه كان يفكر بالأمر الآن، وهذا دفعه إلى التساؤل إن كانت الحياة التي يعيشها الآن هي الحياة التي أرادها حقاً، وتفاجأ من نفسه عندما أجاب على سؤال بارني: «أريد ما لديهما»، ونظر إلى الوراثة حيث دُفن والداه. «أريد شراكة مدى الحياة».

«لقد بدأ شراكتهم باكراً»، قال بارني. «لقد تزوجا عندما كانا في العشرين، أليس هذا صحيحاً؟ أنت متأخر عنهما بعشر سنوات».

«أنا لا أعيش حياة متبلة...».

«يسعدني سماع هذا».

«ولكنني لم ألتقِ بامرأة أرغب في قضاء بقية حياتي معها».

«باستثناء واحدة»، قال بارني، ونظر من فوق كتفي نيد.

التفت نيد إلى الوراثة ورأى مارجوري فيتزجيرالد. لا بدّ أنّها كانت في الكنيسة خلال مراسم الدفن، ولكنه لم ينتبه إليها بين الحاضرين. بدأ قلبه

يخفق. كانت في ثياب حداد داكنة إلا أنها كانت ترتدي قبعة كما اعتادت أن تفعل دوماً. كانت قبعة مخملية قرمزية اللون ومثبتة بشكل مائل فوق خصلات شعرها الكثيف. كانت تتحدث بجديّة إلى الأب العجوز بول الذي كان راهباً سابقاً في دير كينغزبريدج، وقد أصبح الآن كاهناً مرتلاً في الكاتدرائية وربما ما يزال كاثوليكياً سراً. لم يُثر تمسك مارجوري العنيد بالكاثوليكية نفور نيد بل على العكس أُعجب بمثاليّتها.

«يؤسفني أنه لا يوجد مثيل لها، ولكنها تزوجت من رجل آخر».
فكر نيد أن الخوض في هذا الحديث عقيم وقال: «إلى أين ستوجه في رحلتك البحرية التالية؟».

«سأذهب إلى العالم الجديد مجدداً. لا أحبّ التجارة بالعبيد لأنهم معرضون إلى الموت خلال الرحلة، ولكنهم هناك - في العالم الجديد - يحتاجون إلى كل شيء، باستثناء السكر».
«أتذكر أنك تحدثت عن فتاة»، قال نيد مبتسماً.
«هل فعلت؟ متى؟».

«أفهم من سؤالك أنّ الأمر صحيح؟».
بدا بارني خجلاً وكأنه لم يرغب في الاعتراف بأنّه يكن شعوراً عميقاً لأحد.

«أجل صحيح، لم أقابل امرأة مثل بيلا».
«حدث هذا منذ سبع سنين».
«أعلم، وربما تزوجت من أحد المزارعين الأثرياء الآن ولديها طفلان أو ثلاثة».

«ولكنك تريد السفر إلى هناك والتأكد من هذا»، قال نيد متفاجئاً. «يبدو أننا متشابهان في نهاية المطاف».

توجهها إلى الدير المُهدّم وقال نيد: «لم تفعل الكنيسة شيئاً بخصوص هذه الأبنية القديمة. كانت أمي تحلم بتحويلها إلى سوق داخلي».
«كانت امرأة ذكية. إنّها فكرة جيدة ويجب أن نقوم بها يوماً ما».
«لا نملك ما يكفي من المال للقيام بها».

«سيكون لدي المال الكافي إن لم يعاندني البحر».

اقتربت مارجوري منهما وكان برفقتها وصيفة وجندي. فهي نادراً ما تخرج إلى أي مكان وحدها فقد أصبحت الآن كونتيسة شايرنغ. وقف مرافقها على بعد عدة ياردات عنها فيما صافحت بارني ونيد وقالت لهما: «يا لهما من خسارة».

«شكراً لك يا مارجوري»، قال بارني.

«إن عدد المُعزّين كبير. كانت والدتكما محبوبة جداً».

«حقاً».

«يُرسل بارت اعتذاره على عدم قدومه إلى الجنازة لأنه مضطر للذهاب إلى ونشستر».

«عذراً يا مارجوري، ولكن يجب أن أذهب للتحدث إلى دان كوبلي. أريده أن يستثمر في رحلتي القادمة ونقاسم المخاطرة معاً»، قال بارني ثم غادر تاركاً نيد ومارجوري وحدهما.

خاطبت مارجوري نيد بصوتٍ واطئٍ وحميمي: «كيف حالك يا نيد؟».

«كانت والدتي في الستين من العمر، ولهذا لم تشكل وفاتها صدمة بالنسبة لي»، قال نيد وقد كرر هذا أمام الجميع قبلاً، ولكن هذا لم يكن سوى كلام بلا معنى، وأراد قول المزيد لمارجوري لذلك أضاف بعد هذا في حزين: «ولكن المرء لا يحصل في حياته سوى على أم واحدة».

«أعلم، فأنا لم أكن أحبّ والدي خاصة بعد أن أرغمني على الزواج من بارت، إلا أنني بكيت عندما توفي».

«إن أفراد ذلك الجيل يموتون، الواحد تلو الآخر»، قال نيد ثم ابتسم وتابع: «أتذكرين حفلة نيوكاسل منذ عشرين عاماً عندما أتى ويليام سيسيل؟ في تلك الأيام كان العالم تحت حكم ذلك الجيل - والدك وأمي ووالد بارت».

لمعت عينا مارجوري في خبيث: «بالطبع أتذكر».

علم نيد أنّها كانت تفكر بلحظاتها الحميمة عندما تبادلوا القبل في ذلك المخبز المهجور. ابتسم نيد لتلك الذكرى وقال بتأثير دافع ما: «تعالى معي إلى المنزل من أجل كأس من النبيذ، ولنتحدث عن تلك الأيام القديمة. يبدو أن اليوم يوم استرجاع الذكريات القديمة».

شقا طريقهما ببطء عبر السوق الذي اكتظ بالناس، فلم تتوقف الأعمال

بسبب جنازة أليس. عبرا الشارع الرئيسي، وتوجها إلى منزل عائلة ويلارد. أرشد نيد مارجوري إلى غرفة الاستقبال الصغيرة المُطلّة على الواجهة الغربية للكاتدرائية وحيث اعتادت والدته الجلوس.

صرفت مارجوري الخادمين اللذين كانا معها وقالت لهما: «يمكنكما الذهاب إلى المطبخ».

«ستقدم لكما جانيت فايف كأساً من البيرة وشيئاً لتأكله. اطلبا منها إرسال النبيذ من أجل سيدتكما ومن أجلي»، قال نيد. عندما انصرفا أغلقت باب غرفة الجلوس.

«كيف حال طفلك؟» سألها.

«لم يعد بارتليت طفلاً»، قالت مارجوري. «إنّه في السادسة من العمر ويمشي ويتحدث كالبالغين بل ويحمل سيفاً خشبياً أيضاً».

«وليس لدى بارت أدنى فكرة..».

«لا تفوه بشيء»، قالت مارجوري بصوتٍ خفيض أقرب إلى الهمس. «إن سويذن ميت الآن، ولا أحد سوانا يعرف بالأمر، ويجب أن تُبقي الأمر سراً إلى الأبد».

«بالطبع».

كانت مارجوري واثقة من أنّ سويذن والد بارتليت. ورأى نيد أنّ مارجوري على حق في ثقتها بأبوة سويذن لبارتليت فخلال فترة زواجها التي دامت اثني عشر عاماً لم تُنجب مارجوري سوى مرة واحدة، وحدث هذا عندما اغتصبها والد زوجها.

«هل تغير شعورك بسبب هذا؟» سألها نيد.

«نحو بارتليت؟ لا، لقد أغرمت به من اللحظة الأولى التي رأيته فيها».

«وبارت؟».

«إنّه مغرم بالصبي أيضاً. إنّ شبهه بسويذن ليس مثيراً للاستغراب بالطبع لأن الناس يعتقدون أنه جدّه. يريد بارت أن يحول الفتى إلى نسخة عنه بكل الطرق الممكنة..».

«وهذا طبيعي أيضاً».

«أصغ يا نيد. أعرف رجالاً يعتقدون أنّ المرأة تستمتع بالإنجاب».

«أنا لا أعتقد هذا».

«هذا الاعتقاد غير صحيح، ولتسأل أيّ امرأة».

لاحظ نيد أنّها ترغب بتوضيح الأمر بشدة: «لست بحاجة إلى سؤال أي أحد».

«ألا تعتقد أنني قمت بإغواء سويذن؟».

«بالطبع لا».

«أرجو أن تكون كذلك».

«أثق بأنك لم تغويه أكثر من ثقتي بنفسي».

ترقرقت الدموع من عينيها ثم قالت له: «شكراً».

أخذ نيد يدها، وقالت له بعد برهة من الزمن: «هل يمكنني أن أسألك

سؤالاً؟».

«حسناً».

«هل كانت هناك امرأة أخرى في حياتك؟».

تردد نيد في الإجابة، وكان صمته كافياً بالنسبة لها: «إذاً، كان هناك

امرأة أخرى».

«يؤسفني قول هذا، ولكنني لست راهباً».

«أكثر من واحدة إذا؟».

التزم نيد الصمت.

«منذ سنوات أخبرتني سوزانا أن لديها عشيقاً يصغرها كثيراً. هذا العشيق

هو أنت، أليس هذا صحيحاً؟».

اندھش نيد من دقة تخمينها وسألها: «كيف عرفتِ؟».

«كل شيء تحدثت به سوزانا يوحي بأن هذا العشيق هو أنت. قالت إنه لم

يكن يحبها ولكنها لم تهتم لأنّها تستمتع بالنوم معه».

شعر نيد بالإحراج لأنّ المرأتين تحدثتا عنه بهذه الطريقة.

«هل أنتِ غاضبة؟» سألها.

«لا أملك الحق في هذا. أنا أنام مع بارت، ولا يوجد أي مبرر لتعيش

حياتك في بتل».

«ولكنهم أجبروكِ على الزواج». «وأنت أغوتك امرأة بقلبٍ دافئٍ وجسدٍ ناعم. أنا لست غاضبة بل أشعر بالحسد».

رفع نيد يدها إلى شفثيه.
فُتح الباب وأفلت نيد يدها بسرعة.
دخلت مدبرة المنزل تحمل إبريقاً من النبيذ وصحناً من المكسرات والفواكه المجففة.

«تعازي الحارة لكِ أيضاً يا جانيت»، قالت مارجوري.
أخذت جانيت تبكي وخرجت من دون أن تتفوه بكلمة.
«المسكينة!» قالت مارجوري.

«إنها تعمل لدى أمي مذ كانت فتاة»، قال نيد الذي كان يرغب بإمساك يد مارجوري مجدداً، إلا أنه لجم نفسه، وبدلاً من هذا فتح موضوعاً جديداً.
«أريد التحدث إلى بارت عن مشكلة صغيرة».
«حقاً، ما هي؟».

«لقد عينتني الملكة لورداً على قرية ويغلي».
«تهاني. ستصبح غنياً الآن».

«لن أصبح غنياً بل مكثفياً». سيحصل نيد على المال من الإيجارات التي سيدفعها كل مزارعي القرية. إنها الطريقة التي يُكافئ بها الملوك مستشاريهم، خاصة الملوك المتقشفين من أمثال إليزابيث».

«إذاً، أصبحت الآن السير نيد ويلارد واللورد ويغلي».

«لطالما قال والدي إن ويغلي ملكٌ لعائلتنا. كان يعتقد أننا ننحدر من سلالة ميرتن الذي بنى الجسر. ووفقاً لما جاء في كتاب تيموثي، كان أخو ميرتن لورد ويغلي، وقد بنى ميرتن الطاحونة فيها، وهي لا تزال هناك».
«إذاً، أنتَ ننحدر من سلالة نبلاء».

«من سلالة سادة إن جاز القول».

«إذاً، ما المشكلة التي تريد أن تناقشها مع بارت؟».

«قام أحد المستأجرين لدي بقطع أشجار الغابة التي تقع خلف الجدول، وهذه الغابة تابعة لمملكتكم. إنه حتماً لا يملك الحق بفعل هذا». يحاول

المستأجرون على الدوام وبشكل سري توسيع مساحة أراضيهم الزراعية. «ولكني لا أريد أن أؤذيه، ولهذا أريد أن أصل إلى اتفاق مع بارت لتعويضه عن خسارة بضعة فدادين».

«لَمْ لا تزورنا في نيوكاسل على العشاء في الأسبوع القادم ويمكنك عندها التحدث معه؟».

«حسناً».

«ما رأيك بيوم الجمعة بعد الظهر؟».

انتاب نيد شعور مفاجئ بالسعادة وأجاب: «أجل، إن يوم الجمعة مناسب».

انتاب مارجوري الشعور بالخجل من نفسها لأنها تحمست لزيارة نيد. كانت تؤمن بالإخلاص، ورغم زواجها القسري من بارت فإن واجبها يُملي عليها إخلاصها التام له، ولم تُحدث حقيقة أن بارت ومع مرور الوقت يزداد شبهاً بوالده في سذاجته وتنمره وفسقه أيّ فرق لديها. لم تحاول مارجوري اختلاق أيّ أعذار؛ فالخطيئة تبقى خطيئة.

شعرت بالإحراج من دفع الرغبة الغامر عندما وعدّها نيد بزيارة نيوكاسل، وأقسمت لنفسها أنها ستعامله بلباقة حذرة، وأنها لن تُظهر نحوه أيّ ود زائد عما قد تقدمه أيّ مضيئة لبقة نحو ضيفٍ مميز. كانت تأمل أن يُغرم ويتزوج من امرأة أخرى وأن يفقد اهتمامه بها. ولربما عندها قد يتصرفان بعضهما مع بعض بعقلانية أكبر، كحبيبين سابقين انتهت قصة حبهما منذ زمن بعيد.

في اليوم السابق لزيارة نيد أمرت مارجوري الطباخة بذبح وبتف إوزتين سميتين، وفي صباح يوم الزيارة الموعودة وعندما كانت في طريقها إلى المطبخ لإعطاء التعليمات بخصوص الطعام رأت فتاةً تخرج من غرفة بارت. كانت الفتاة تدعى نورا جوزيفز وهي في الخامسة عشرة من العمر وأصغر الخادِمات في القصر. كان شعرها أشعث، وبدت كأنها ارتدت ثيابها على عجل. لم تكن فتاةً جميلة إلا أنها تملك الجسد الناضج لامرأة شابة، وهذا ما كان يروق لبارت.

تمام مارجوري وبارت في غرفتين منفصلتين منذ خمس سنوات، وقد أحببت مارجوري هذا الترتيب، إلا أن بارت ما زال يزورها بين الفينة والأخرى رغم أن هذه الزيارات باتت متفرقة في الآونة الأخيرة. عرفت أنّ لديه نساءً أخريات، ولكنها أقنعت نفسها بأنّ الأمر لا يهمها لأنها لم تكن مغرمة به، إلا أنها كانت تمني ومن كل قلبها، لو أنّ زوجها كان مختلفاً.

وعلى حد علمها لم تحمل أيّ عشيقة من عشيقات زوجها، ولكن هذا الأمر لم يثر شكوك بارت أو يدفعه إلى التساؤل. لم يكن بارت ذلك الشخص الذي يفكر بشكلٍ منطقي، وإن حدث وفكر بالأمر فسيقول لنفسه إنّها إرادة الربّ.

جهزت مارجوري نفسها للتظاهر بأنها لم تلاحظ شيئاً، ولكن الشابة نورا رمقتها بنظرة وقحة، ورأت مارجوري في هذا إشارة سيئة. لم تكن مارجوري لتقبل التعرض إلى الإذلال، وقررت التعامل مع نورا بشكلٍ فوري. لم تكن المرة الأولى التي وجدت نفسها في هذا الموقف، وكانت تعرف ما الذي يجب عليها القيام به.

«رافقيني يا فتاة»، قالت لها بصوتٍ آمر. ولم تتجرأ نورا على عدم إطاعتها، وتوجهت المرأتان إلى غرفة نوم مارجوري.

جلست مارجوري فيما بقيت نورا واقفة متصنعة الخوف الآن على أمل أن ينجيها هذا التصنع من الموقف.

«أصغي إليّ جيداً لأنّ حياتك بأكملها تعتمد على الطريقة التي ستتصرفين بها الآن»، قالت مارجوري وتابعت: «هل تفهمين ما أقوله؟».

«أجل يا سيدتي».

«يسعك التفاخر بعلاقتك مع الإيرل لو أحببت هذا، ويمكنك أن تلمسيه أمام بقية الخدم، وتعرضي عليهم الهدايا التي يقدمها لك، ويمكنك أن تحرجيني وتقبله في حضوري. وسيعرف جميع من في هذا المنزل ونصف سكان مقاطعة شايرنغ أنك عشيقة الإيرل، وستشعرين بالفخر لأنك كذلك».

لم تتفوه الفتاة بكلمة أو تنظر في عيني مارجوري.

«ولكن ما الذي سيحدث عندما يملّ منك؟ عندما يملّ منك سارميك خارجاً، ولن يهتم بارت لأمرك. ستحاولين العثور على عملٍ كخادمة في

منزلٍ آخر، ولكن ستدرकिन أنّ ما من امرأة ستقبل بك في منزلها لأنها ستعتقد أنك ستغوين زوجها. هل تعلمين أين سينتهي بك المطاف؟».

لم تجب نورا ثمّ قالت بصوتٍ خافت: «كلا يا سيدتي». «في أحد مواخير مرفأ كومب تلعين قضبان عشرة بحارة في الليلة الواحدة وتموتين بمرضٍ مريع».

لم تكن مارجوري تعرف ما الذي يحدث في المواخير، إلا أنها جاهدت حتى يبدو كلامها وكأنها تعرف. قاومت نورا دموعها التي كادت تنهمر.

«أو يمكنك معاملي باحترام»، تابعت مارجوري. «عندما يأخذك الإيرل إلى السرير غادري غرفته حالما يغط في النوم وعودي إلى جناح الخدم، ورفضني الإجابة على أيّ أسئلة يطرحونها عليك. وخلال النهار لا تنظري نحوه أو تتحدثي إليه ولا تلمسيه أمامي أو أمام أيّ أحد. وبالتالي عندما يمل منك لن تفقدي مكانك هنا، وستعودين إلى حياتك الطبيعية. هل تفهمين هذا الخيار المتاح أمامك؟».

«أجل يا سيدتي»، أجابت نورا بصوتٍ خافت.

«غادري الآن»، أمرتها مارجوري. عندما فتحت نورا الباب أضافت مارجوري بمرارة: «وعندما تتزوجين اختاري رجلاً لا يشبه زوجي».

هرعت نورا خارجاً، وتوجهت مارجوري لتتفقد سير عملية طبخ الإوزتين.

عند منتصف النهار وصل نيد في معطفٍ أسود فاخر بياقة بيضاء مخرمة. كانت مارجوري قد لاحظت أنّ هذا النوع من الثياب أصبح أشبه باللباس الرسمي الخاص بالبروتستانتيين الأغنياء. بدا نيد في ثيابه هذه صارماً جداً، وكانت تفضل رؤيته في ثياب ملونة بألوان دافئة كالأخضر والذهبي.

لحق ميك كلب مارجوري يد نيد، وحيّاً بارت نيد بكل ود، وأخرج أفضل نبيذ يملكه من أجل الغداء. كان الجو مريحاً. ربما نسي بارت أنّ مارجوري أرادت في يوم من الأيام الزواج من نيد، أو ربما لم يكن يبالي لأنه حصل عليها بأيّ حال. بالنسبة إلى رجالٍ من أمثال بارت كان الفوز أهم من أي شيءٍ آخر. لم يكن بارت ذكياً بما يكفي، ولهذا السبب ربما لم تساوره أيّ شكوك حيال نيد ودوره في الإيقاع بسويدن وإعدامه. كان لدى بارت نظرية مختلفة

في هذا الأمر، فقد كان مقتنعاً أنّ دان كوبلي - قائد البيورتانيين - هو من نصب الفخ ليتقم من السير ريجنالد ورولو على وقوفهما وراء إعداد والده. لم يكن بارت مخطئاً بالمرّة في هذا لأنّ دان كوبلي ما يزال يحقد بشدة على رولو.

شعرت مارجوري بالتوتر عندما انضم ستيفن لينكولن إليهم على الغداء. لا بدّ أنّ نيد عرف بدور ستيفن في منزل الإيرل، إلاّ أنه اختار عدم التفوه بشيء حيال الأمر. كان وجود الكهنة في منازل النبلاء الكاثوليكيين أمراً شائعاً رغم أنه لم يكن علنياً. لطالما أثار النفاق في المجتمع غضب مارجوري: اليتيم ذو الأب المعروف دون أن يتجرأ أحد على التفوه باسمه؛ وعلاقات الحب الجامحة بين الراهبات التي يتظاهر الآخرون بأنها غير موجودة؛ ومدبرة المنزل التي تنجب أطفالاً يشبهون الكاهن الذي تعمل لديه. إلاّ أن التظاهر في هذه الحالة صبّ في صالح مارجوري، ولكنها لم تكن واثقة من أنّ ستيفن سيتصرف بلباقة كنيدي. كان ستيفن يكره الملكة إليزابيث التي يدين لها نيد بحياته المهنية. علاوة على هذا كان نيد يكره الكنيسة الكاثوليكية لأنها حكمت على والدته بقسوة شديدة بتهمة الربا. وفكرت مارجوري أنّ التوتر سيسود أجواء العشاء.

«إذاً يا نيد»، قال بارت بود، «أخبرني الناس أنك أصبحت أحد أهم مستشاري الملكة الآن». كان في لهجة بارت بعض الازدراء، فقد كان يعتقد أنّ مستشار الملكة يجب أن يكون إيرلاً وليس ابن تاجر، إلاّ أنه كان يعرف حق المعرفة أنّه غير قادر على تقديم النصائح للملكة في شؤون السياسة الأوروبية المعقدة.

«أعمل مع السير ويليام سيسيل، وأنا أقوم بهذا منذ اثني عشر عاماً»، قال نيد. «إنه رجل مهم».

«ولكنها جعلت منك فارساً، وأصبحت الآن لورد ويغلي».

«أنا ممتن جداً لجلالته».

انتاب مارجوري شعور غريب فيما كانت تحديق إلى نيد وهو يتحدث. كان شديد الذكاء، ويتغضن الجلد حول عينيه غالباً عند المزاح. احتست النيذ وتمنّت أن يستمر هذا العشاء إلى الأبد.

«ما هو بالضبط عملك مع إليزابيث يا سير نيد؟» سأل ستيفن لينكولن.

«أحذرها من المشاكل التي تلوح في الأفق».

رأت مارجوري أن نيد أجاب برتابة وكأنه أجاب على هذا السؤال مرات كثيرة.

ارتسمت على وجه ستيفن ابتسامة ماكرة وقال: «هل هذا يعني أنك تتجسس على من يخالفونها الرأي؟».

تأوهت مارجوري في قرارة نفسها؛ يبدو أن ستيفن ينوي القتال وإفساد الأجواء.

أرعى نيد ظهره إلى الوراء وعدّل وضعية كتفيه ثم قال: «إنها لا تهتم إن كان الناس يخالفونها الرأي ما داموا يحتفظون بهذه الآراء لأنفسهم. كنت أتوقع منك يا ستيفن أن تكون على دراية أفضل، فالإيرل بارت يدفع بشكل منتظم غرامة مقدارها شلينغ واحد على كل أسبوع لا يذهب فيه إلى الكنيسة».

«ولكنني أذهب إلى المناسبات الكبيرة في كاتدرائية كينغزبريدج»، قال بارت بتجهم.

«وهذا برأيي تصرف حكيم من قبلك أيها الإيرل، ولكن في إنكلترا، وبعد وصول إليزابيث إلى العرش، لم يُعذب أو يُحرق أحد بسبب معتقداته الدينية. وهنا تكمن المفارقة الصارخة بين حكم الملكة السابقة ماري والملكة الحالية».

«ماذا عن العصيان في الشمال؟» تحدث بارت مجدداً.

كانت مارجوري تعلم ما يقصده بارت بكلامه هذا. فقبل عيد الميلاد قامت مجموعة من النبلاء الكاثوليكين، وجميعهم من الإيرلات، بالتسلح لمواجهة الملكة إليزابيث. كان هذا العصيان الوحيد من نوعه منذ بداية حكمها وحتى الآن. احتفلت المجموعة بالقداس في كنيسة دورهام باللاتينية، واحتلوا بلدات أخرى في الشمال، وزحفوا إلى توتورث حيث كانت الملكة ماري مسجونة بنية تحريرها والمطالبة بحقها كملكة شرعية لإنكلترا. إلا أن ذلك العصيان لم يلق دعماً كبيراً، وقد سحقته قوات الملكة إليزابيث على الفور، وفشل في تحرير ماري ستوارت.

«لقد انتهى»، قال نيد.

«وأعدم خمسمئة رجل!» قال بارت في سخط. «من قبل الملكة نفسها التي كانت تشتكي من قسوة ماري تودر». «في جميع بلدان العالم يتم إعدام من يحاولون الإطاحة بملك»، قال نيد بهدوء.

كان بارت كوالده سويذن لا يجيد الإصغاء، وأجاب وكأنه لم يسمع نيد: «إن الشمال يعاني من الفقر أصلاً، وقد نُهب بلا رحمة وصدورت أراضيها، وسيقت جميع المواشي إلى الجنوب».

تساءلت مارجوري إن كان هذا الجواب قد ذكّر نيد بوالدها الذي نهب عائلة نيد دون رحمة، ولكن إن عبرت هذه الفكرة ذهن نيد فقد نجح في إخفاء ألمه منها. لم يتأثر نيد بخطبة بارت المسهبة وغير اللاتقة، وافترضت مارجوري أنّ نيد الذي عاش حياته بين مستشاري الملكة قد تعلم كيف يحافظ على هدوئه خلال السجلات الحادة.

«لا يمكنني تأكيد أو نفي حصول الملكة على غنيمة كبيرة»، قال نيد بلهجة منطقية. «إلا أنها ومن كل بلد لم تسترد ما دفعته لإجباط هذا العصيان المسلح».

«إن الشمال جزء من إنكلترا، ولا يجوز نهبه وكأنه بلدٌ أجنبي». «إذاً، على الناس هناك أن يتصرفوا كإنكليزيين ويطيعوا الملكة». قررت مارجوري أنّ اللحظة قد حانت لتغيير الموضوع: «نيد أخبر بارت عن مشكلة ويغلي».

«إنّ المسألة بسيطة جداً. قام أحد المستأجرين لدي بالتعدي على أرضك، وقطع ما يعادل فدانين من أشجار الغابة في جهتك الواقعة على النهر». «فلتطرده إذاً»، قال بارت.

«إن كان هذا ما ترغب به سأطالبه بالتوقف عن استخدام الأرض». «وإن رفض إطاعتك؟». «سأحرق محصوله».

علمت مارجوري أنّ نيد يتظاهر بالقساوة ليكسب ثقة بارت. لم ينتبه بارت إلى تلاعب نيد به، وقال بلهجة تنم عن الرضا: «هذا ما

يستحقه. هؤلاء الفلاحون يعرفون حدودهم أفضل من غيرهم، وإن تعدى أحدهم فسيكون قد فعل هذا عن عمد».

«وأففق الرأي، ولكن قد يكون هناك حلُّ أفضل»، قال نيد بحيادية وكأنَّ الأمر بالكاد يعنيه «ولكن عندما تزدهر أحوال الفلاحين تزدهر أحوال أسيادهم أيضاً. فلنترض أنني قدمت لك أربعة فدادين من الغابة في مكان آخر بدلاً من الفدانين اللذين تعدى عليهما الفلاح؟ في هذه الحالة سيكون الربح مشتركاً».

بدا بارت متردداً، إلا أنه لم يملك حجة يُخالف فيها نيد بما قاله للتو، وقال مماطلاً: «لنذهب في جولة إلى ويغلي». تدرك مارجوري أن بارت غير بارع في التفكير المجرد، وأنه يفضل أخذ قراره بعد معاينة الأرض المعروضة. «بالطبع. وسيسعدني إن قمنا بهذا في وقتٍ قريب. فقد انتهيت من مراسم دفن والدتي ويجب أن أعود إلى لندن».

شعرت مارجوري بالخيبة كطعنة، وأدركت أنّها كانت تأمل أن يبقى نيد في كينغزبريدج لوقتٍ أطول.

«ما رأيك بيوم الجمعة القادم؟» قال بارت.

كان نيد قد بدأ يشعر بنفاد الصبر، إلا أنه قمع هذا الشعور. وقد عرفت مارجوري هذا بالنظر إلى وجهه إلا أن الرجلين الآخرين لم يلحظا هذا. من الواضح أنّه كان يفضل تسوية هذا الأمر البسيط على الفور حتى يتمكن من العودة إلى متابعة شؤون الدولة الهامة.

«هل يمكننا الذهاب يوم الإثنين؟» قال نيد.

بدا الانزعاج واضحاً على وجه بارت، وعلمت مارجوري أنّه شعر بالإهانة لأنَّ فارساً طلب منه وهو الإيرل أن يستعجل، وقال بعناد: «لا، أخشى أن هذا غير ممكن».

«حسناً»، قال نيد. «فلتكن الزيارة يوم الجمعة إذاً».

بعد جنازة والدته ببضعة أيام أخذ نيد يفكر بموعد لقائه بخالقه، وسأل نفسه إن كان يفخر بالحياة التي عاشها حتى الآن. كان قد كرس نفسه لرؤية واحدة - رؤية يشترك بها مع الملكة إليزابيث - وهي ألا يكون الموت مصير

أي إنكليزي يدافع عن معتقده الديني الخاص، وتساءل في نفسه إن كان فعل كل ما بوسعه ليدافع عن هذا المبدأ.

يشكل الملك الإسباني فيلبي الخطر الأكبر على هذه الرؤية، لأنه كان في حالة حرب دائمة بسبب الخلافات الدينية في أغلب الأحيان. لقد حارب العثمانيين المسلمين في البحر الأبيض المتوسط، والهولنديين البروتستانتين في هولندا. كان نيد واثقاً من أنه عاجلاً أم آجلاً، سيصوب اهتمامه إلى إنكلترا والكنيسة الأنغليكانية.

تعد إسبانيا أغنى وأقوى بلد في العالم، ولا يعرف أحد كيف ستقوم إنكلترا بالدفاع عن نفسها منها.

تحدث نيد مع أخيه بارني عن هذا الموضوع الذي كان يقلقه أيضاً: «كان بناء أسطول بحري هو الشيء الوحيد الذي أنفقت عليه الملكة إليزابيث المال طواعية»، قال نيد. «إلا أننا لن نملك أبداً أسطولاً كأسطول السفن الشراعية التي يملكها الملك فيلبي».

كانا في غرفة الطعام يتناولان فطورهما فيما بارني يستعد للانطلاق إلى ميناء كومب حيث ستنقل سفينته، التي أطلق عليها اسم «أليس»، الذخيرة على متن رحلة من هناك.

«لا تحتاج إنكلترا إلى سفن شراعية»، قال بارني.

فوجئ نيد بما قاله بارني فيما كان يوشك على رمي قطعة من السمك المدخن إلى قطته المخططة مادي التي كانت حفيذة قطته الأليفة في أيام الطفولة. تجمد نيد في مكانه وقال لبارني: «ما الذي نحتاجه إذا برأيك؟».

«إن غرض الإسبان من امتلاك سفن كبيرة هو نقل مئات الجنود، وهم يعملون وفق تكتيك يقوم على الاقتراب من سفن العدو حتى يصعد جنودهم إلى هذه السفن ويسيطروا على الطاقم».

«يبدو هذا منطقياً».

«ينجح هذا التكتيك في أغلب الأحيان، ولكن للسفن الشراعية أرباحاً عالية بكبائن مخصصة للضباط والنبلاء. إن هذه البنية الضخمة أشبه بشراع لا يمكن تعديله، ويسمح للريح بسحب السفينة معها سواء أراد قبطانها أو لم يرد توجيهها باتجاه الرياح. ما أعنيه بقولي هذا أن توجيه السفينة يغدو أكثر صعوبة».

أخذت القطة التي تنتظر قطعة السمك تخرخر في حزنٍ فرمى نيد السمكة إليها ثم قال: «إن لم نكن بحاجة إلى السفن الشراعية فما الذي نحتاجه لحماية أنفسنا؟».

«يجب أن تبني الملكة سفناً ضيقة ومنخفضة وهذا من شأنه أن يجعلها سريعة في المناورة. يُمكن لسفينة خفيفة الحركة أن ترقص حول سفينة شراعية وتطلق النار عليها من دون أن تتيح للسفينة الشراعية فرصة الاقتراب منها وإنزال جنودها على متنها».

«يجب أن أخبرها بهذا».

«والعامل الأساسي الآخر في هذه الحروب البحرية هو سرعة تلقيم المدافع».

«حقاً؟».

«هذا العامل أهم بكثير من امتلاك مدافع ثقيلة. طاقمي مُدرب على تنظيف المواسير، وإعادة تلقيم المدفع بسرعة وأمان، وقد أصبحوا بعد التدريب قادرين على التلقيم خلال خمس دقائق. فعندما تكون قريباً من سفينة العدو يتوقف نصرك في المعركة على عدد المرات التي تضرب فيها؛ فأبلى وأبل مستمر من القذائف كفيل بإحباط معنويات العدو بسرعة كبيرة».

كان نيد مأخوذاً بكلام بارني. لم تكن إليزابيث تملك جيشاً متكاملًا، ولهذا كان الأسطول البحري الإنكليزي وحده القوة العسكرية المتكاملة في البلاد. وفق المعايير الأوروبية لم تكن إنكلترا بلداً غنياً إلا أنها حققت ازدهاراً من التجارة في أعالي البحار. كان للأسطول البحري الإنكليزي سمعة مرعبة في البحر كفيلة بردع أي أحد يحاول الهجوم على أي سفينة تجارية إنكليزية. وهذا الأسطول الإنكليزي منح إنكلترا السيطرة بشكل خاص في القناة الإنكليزية التي تفصل البلد عن أوروبا. ورغم تقشف إليزابيث فإنها تعرف أولوياتها جيداً، ولهذا أولت اهتماماً جيداً بسفنها.

نهض بارني وقال: «لا أعرف بالضبط متى قد نلتقي مجدداً».

وفكر نيد أنه أيضاً لا يعلم إن كان سيلتقي بأخيه مجدداً. أخذ نيد معطف السفر الثقيل الخاص ببارني وساعده على ارتدائه ثم قال له: «فلتكن بخير يا بارني».

وكما يودع الإخوة بعضهم ودّع بعضهما بعضاً بسرعة.

توجه نيد إلى غرفة الجلوس الأمامية، وجلس إلى طاولة الكتابة الخاصة بوالدته التي استخدمتها لسنوات. كانت المحادثة التي وقعت بينه وبين أخيه ما تزال حديثة، ولهذا كتب ملاحظات بكل شيء قاله بارني حول تصميم السفن الحربية.

عندما انتهى من عمله حذق من النافذة باتجاه الواجهة الغربية للكاتدرائية. كان في الثلاثين من عمره، وعندما كان والده في مثل عمره كان لديه بارني وهو. وفكر أنه بعد ثلاثين عاماً قد يرقد في المقبرة إلى جانب والده ووالدته، وتساءل عن سيقف بقرب قبره.

رأى نيد دان كوبلي قادماً باتجاه منزله فوضع أفكاره الكثيرة جانباً. افترض نيد أن دان قد أتى للتحدث مع بارني عن استثمار ما في رحلته، ولذلك عندما دخل دان قال له نيد: «لقد غادر بارني للتو. سيتوجه إلى ميناء كومب، ولكن إن أسرع يمكنك موافاته عند رصيف السفن».

«لقد انتهيت من تسوية أعمالني مع بارني وكلانا راضٍ عن التسوية»، قال دان ثم تابع: «أتيت لمقابلتك».

«إن كان هذا ما أتيت من أجله فلتفضل بالجلوس».

بدا دان الذي يبلغ الآن الثانية والثلاثين، أكثر امتلاءً عما كان عليه قبلاً. كان ما يزال يملك سمة المدعي بمعرفة كل شيء، وهي السمة التي صدمت نيد به عندما كان مراهقاً. ولكن رغم هذا كله كان دان رجل أعمال بارعاً، وقد توسع في المهنة التي ورثها عن والده، وهو على الأرجح يُعد أغنى رجل في كينغزبريدج. كان يبحث عن منزل كبير، وقد عرض سعراً جيداً لشراء برايبوري غيت رغم عدم رغبة رولو ببيع المنزل. يعدّ دان قائد البيورتانيين في المدينة، ويحب أداء طقوس العبادة في كنيسة سانت جون في ضواحي لوفيرزفيلد.

وها هي مخاوف نيد قد تحققت بقدم دان للتحدث معه في أمور دينية. انحنى دان إلى الأمام بحركة درامية وقال: «هناك كاثوليكيون بين أفراد رجال الدين في كاتدرائية كينغزبريدج».

«حقاً؟» تنهد نيد. «كيف عرفت هذا الأمر؟».

أجابه دان وكأنه يجيب على سؤال مختلف: «يُدعى الأب بول». كان الأب بول واطسون كاهناً كهلاً دمث الخلق، وقد شغل سابقاً منصب رئيس دير كينغزبريدج، وهو على الأرجح لم يقبل حتى الآن بحركة الإصلاح الديني.

«وما هي جريمة الأب بول بالتحديد؟».

«إنه يحتفل بالقداس سراً في سرداب بأبواب موصدة!» قال دان في انتصار.

«إنه رجلٌ عجوز»، قال نيد بضجر. «ومن الصعب على أناسٍ مثله الاستمرار في تغيير قناعاتهم الدينية». «إنه مُجَدَّف».

«أجل إنه كذلك»، كان نيد يوافق دان في اللاهوت، ولكن يختلف معه في التطبيق. «هل شهدت أيّ طقوس دينية غير قانونية؟».

«رأيت أناساً يتسللون خفية إلى الكاتدرائية عبر باب جانبي فجر يوم الأحد، ومن بينهم أناس كنت أشك بأنهم ما يزالون يتعبدون الأوثان من أمثال رولو فيتزجيرالد ووالدته الليدي جاين».

«هل أخبرت الأسقف لوك؟».

«لا! أنا واثق من أنه سيتسامح مع هذا».

«إذاً، ما الذي تقترحه؟».

«عزل الأسقف لوك».

«وأفترض أنك تريد أن يحل الأب جيرمايا من كنيسة سانت جون محله؟». بدا دان متردداً ومتفاجئاً من سرعة تكهن نيد بنواياه. تنحج دان وقال باحترام مزيف: «هذا قرار تأخذه جلالة الملكة. فكما تعرف فإن الملوك وحدهم أصحاب القرار في تعيين وعزل الأساقفة في الكنيسة الأنغليكانية. ولكن أريدك أن تخبر الملكة بما يجري، وإن لم تفعل فسأفعل بنفسني».

«دعني أوضح لك أمراً يا دان رغم علمي بأنك لن تحب كلامي. إن الملكة إليزابيث تزدرى الكاثوليكين، ولكنها أيضاً تكره البيورتانيين. إن أخبرتها بهذه القصة ستطردني من قاعة الاستقبال الملكية، فكل ما تريده إليزابيث هو السلام».

«ولكن إقامة القداس أمر غير قانوني، ويعتبر هرطقة أيضاً».

«ولكن القانون لا يطبق بشكل صارم. كيف لم تلاحظ هذا؟».

«ما الفائدة من وجود قانون لا يُطبق؟».

«إن الغاية هي إرضاء الجميع. أصبح البروتستانتيون سعداء لأنّ القداس لم يعد قانونياً، والكاثوليكيون سعداء لأنّهم يذهبون إليه بكل الأحوال، والملكة سعيدة لأنّ الجميع منصرفون إلى أعمالهم، ولا يقتلون بعضهم بعضاً بسبب الدين. أنصحك بشدة ألا تذهب وتشتكي إليها فهي لن تفعل شيئاً حيال الأب بول، ولكن قد تفعل شيئاً حيالك».

«هذا أمر مشين»، قال دان فيما كان ينهض.

لم يكن نيد يرغب بالشجار معه لذلك قال له: «يؤسفني أن أودعك بهذا الجواب غير المرضي يا دان، ولكن هذه طريقة سير الأمور، ولو قدمت لك جواباً آخر لكنت قد ضللتك».

«أقدّر صراحتك»، قال دان على مضض، وودع بعضهما بعضاً في

وِدْزائف.

غادر نيد المنزل بعد برهة قصيرة على مغادرة دان، وتوجه إلى الشارع الرئيسي وعبر برايبوري غيت - المنزل الذي لطالما ذكره بالمال المسروق من والدته - ورأى رولو فيتزجيرالد يخرج منه. كان رولو في منتصف الثلاثين من عمره الآن وخط شعره الأسود بدأ يتراجع وقد منحه هذا جبهة عريضة. عندما توفي السير ريجنالد تقدّم رولو بطلبٍ لشغل منصب والده في الجمارك في ميناء كومب. ولكن مثل هذه المناصب الدسمة يستغلها الملوك كمكافأة الموالين لهم بإخلاص، ولهذا، وبما لا يدعو للمفاجأة، خسر رولو المنصب لمصلحة بروتستانت مخلص. لكن ما تزال عائلة فيتزجيرالد تتاجر بالصوف، ويدير رولو هذا العمل بشكل جيد، بل وبمهارة تفوق مهارة والده.

لم يتحدث نيد مع رولو بل هرع عبر الشارع الرئيسي باتجاه منزل قديم وكبير قرب كنيسة سانت مارك حيث عاش من تبقى من رهبان كينغزبريدج. كان الملك هنري الثامن قد منح بعض من جردهم من ممتلكاتهم راتباً، وما زال بعضهم على قيد الحياة ويتلقى راتبه التقاعدي. كان الأب بول

رجلاً عجوزاً بظهر محدودب وأنف أحمر وشعر خفيف، وها هو يتوجه إلى الباب لفتحه.

دعا الأب بول نيد إلى غرفة الجلوس وقال له: «عزائي لك بوفاة والدتك»، قال بول ببساطة وتابع: «كانت امرأة صالحة».

كان الأسقف السابق يوليوس يعيش هنا أيضاً، وقد جلس في إحدى زوايا غرفة الجلوس يحرق في الفراغ. كان قد فقد عقله والقدرة على الكلام، إلا أن وجهه مازال يحمل ذلك التعبير الغاضب، وهو يتمتم بكلمات مبهمه غاضبة ووجهه للحائط.

«لطف منك أن تعتني بيوليوس»، قال نيد للأب بول.

«هذا ما يُفترض بالرهبان فعله؛ الاهتمام بالمرضى والفقراء والثكالي». فكر نيد بأنه لو تذكر كثيرون غيره هذه الحقيقة لكانت الأديرة قد بقيت مفتوحة حتى الآن إلا أنه ارتأى عدم التصريح بما فكر به: «بالطبع. لقد كانت كاريس المشهورة بتأسيسها للمستشفى هنا راهبة في دير كينغزبريدج». «فلترقد روحها في سلام»، قال بول وقد أشرق وجهه. «هل تريد كأساً من النبيذ؟».

كان نيد يكره التشويش الذي يسببه له النبيذ في الصباح وأجابه: «لا، شكراً لك. لن أطيل البقاء. أتيت لتحذيرك فقط».

علت تكشيرة قلقة وجه بول وقال: «يا إلهي، يبدو هذا كندير شؤم». «إنه كذلك بعض الشيء. أخبرني أحدهم أن هناك أموراً تجري في سرداب الكاتدرائية أيام الأحاد فجراً».

شحب وجه بول وقال: «ليس لدي أدنى فكرة..».

رفع نيد يده لمنعه من إكمال كلامه وقال: «أنا لا أسألك إن كان الأمر صحيحاً، فليس هناك من حاجة لتبرير الأمر أبداً».

كان بول مهتاجاً، وبدا واضحاً أنه يحاول تهدئة نفسه: «حسناً».

«يجب تحذير من يستخدمون السرداب أياً يكن غرضهم من استخدامه، لأن البيورثانيين في المدينة يراقبونهم في ارتياب. وتجنباً لوقوع أيّ متاعب يجب نقل موقع المراسم إن كان هذا ما يحدث حقاً، إلى مكان مختلف». ابتلع بول ريقه في خوف وقال: «فهمت».

«تؤمن جلالة الملكة أن الدين نعمة على البشر حتى يجدوا العزاء في هذه الحياة والخلاص في الحياة الآخرة، وأنا قد نختلف بشأنه فيما بيننا، ولكنه لا يجب أن يكون سبباً لوقوع أعمال عنف بين الإنكليز».

«أجل».

«قد لا يكون هناك داع لأستمر في الحديث».

«أعتقد أنني فهمت ما ترمي إليه تماماً».

«ومن الأفضل ألا تخبر أحداً بقدمي إلى هنا».

«بالطبع».

صافح نيد بول وقال: «إنه لمن دواعي سروري أن تسنت لي فرصة الحديث معك».

«وأنا أيضاً».

«وداعاً أيها الأب بول».

«باركك الله يا نيد»، قال الأب بول.

في صباح يوم الجمعة أصيب زوج مارجوري بالمرض، ولم يكن الأمر مثار استغراب نظراً إلى العشاء الدسم وكمية النبيذ الكبيرة التي تناولها في الليلة السابقة. ولكن اليوم موعد لقاء الإيرل ونيد ويلارد في ويغلي.

«لا يمكنك أن تعتذر من نيد»، قالت مارجوري. «فهو سيقطع مسافة طويلة على الجواد ليأتي إلى هنا».

«يجب أن تذهبي بدلاً عني»، قال بارت الذي كان ما يزال في سريره.

«ستخبريني لاحقاً بكل شيء». ثم دفن رأسه تحت البطانية.

ارتفعت معنويات مارجوري عندما فكرت باحتمال قضاء ساعة أو ساعتين مع نيد، وشعرت بقلبها يخفق بسرعة وأنفاسها تتسارع، وكانت سعيدة لأن بارت لا يهتم بها، إلا أنها قامت برد فعل يشير إلى أن ذهابها مع نيد قرار غير حكيم.

«لا أريد الذهاب. لدي الكثير من الأمور لأقوم بها في القلعة»، قالت مارجوري.

خرج صوت بارت مكموماً من تحت البطانية إلا أن كلماته كانت واضحة: «لا تكوني غبية. اذهبي».

وكان على مارجوري أن تطيع زوجها.

طلبت تجهيز مَهْرَة تدعى راسيت وكانت أفضل حصان لديهم. واستدعت الوصيفة والجندي اللذين يرافقانها عادة، وفكرت بأنهما كافيان لحمايتها من أيّ متاعب. ارتدت ثياب سفر مكونة من معطف أزرق طويل ووشاح أحمر وقبعة لحماية شعرها من الغبار. أخبرت نفسها أنّ هذه الثياب عمليّة، وحاولت ألاّ تنتقي ألواناً تناسب بشرتها، أو ترتدي قبعة تجعلها تبدو جميلة. قبلت ابنها بارتليت قبلة وداع، وصفّرت لكلبها ميك الذي يحبّ مرافقتها في الجولات ثمّ انطلقت.

كان يوماً ربيعياً جميلاً، وقررت أنها لن تزعج نفسها بالتفكير حيال أي شيء، وأنها سستمع بالشمس والهواء المنعش. كانت في السابعة والعشرين من العمر وتحمل لقب كونتيسة وغنية وبصحة تامة وجذابة، وإن لم يكن كل هذا كفيلاً بجعلها سعيدة فما الذي سيُسعدّها؟

توقفت عند حانة على الطريق لتناول كأس من الجعة وقطعة من الجبن. شرب ميك الذي لا يكل ولا يمل من بركة الماء، وقدم الجندي إلى كل حصان من أحصنتهم حفنة من الشوفان.

وصلوا إلى ويغلي في وقتٍ باكر من فترة بعد الظهر. كانت ويغلي قرية مزدهرة حيث بعض الحقول ما تزال تُزرع بشكل جماعي، وحقول أخرى تُزرع بشكلٍ فردي. كان النهر يجري بقوة ويحرّك طاحونة ميرتن القديمة التي يشتغلون عليها في تنظيف الثياب وكيّها. وفي وسط القرية حانة وكنيسة وقصر مالك ويغلي. كان نيد بانتظارهم في الحانة.

«أين بارت؟» سأل نيد.

«إنّه مريض»، أجابت مارجوري.

في البداية كان متفاجئاً ثمّ سعيداً وبعدها قلقاً، وكل هذا حدث بترتيب سريع وهو يحاول استيعاب هذا الخبر. عرفت مارجوري سبب قلقه؛ لقد كان خطر الغواية وشعرت بالقلق مثله.

«أرجو ألا يكون الأمر خطيراً»، قال نيد.

«لا، إنه ذلك النوع من الأمراض التي يصاب بها الرجل بعد شرب الكثير من النبيذ».

«فهمت».

«وها قد أتيت أنا البديل التعس بالنيابة عن بارت»، قالت مارجوري في تواضع مزيف.

ابتسم نيد بسعادة وقال: «لا يسعني الشكوى».

«هلاً ذهبنا إلى الموقع؟».

«ألا تريدان تناول أو شرب شيء؟».

لم ترغب مارجوري في الجلوس في غرفة خانقة ومكتظة بفلاحين يحدقون بها وأجابت: «لا، شكراً لك».

ركبوا جيادهم واتخذوا طريقاً بين حقول قمح وشعير بلونٍ أخضر زاهٍ.

«هل ستعيش في قصر ويغلي؟» سألت مارجوري.

«لا، فأنا أعشق منزلنا القديم في كينغزبريدج. سأستخدم المكان للمبيت

ليلية أو ليلتين عندما أضطر لزيارة ويغلي».

تخيلت مارجوري نفسها تتسلل إلى منزل نيد ليلاً، وجاهدت لطرد هذه

الفكرة الشريرة من عقلها.

وصلوا أخيراً إلى الغابة. يشكل النهر الذي يحرك الطاحونة أحد حدود

ويغلي، أما الأراضي التي تقع خلفه فهي ملكٌ للإيرل. ساروا على طول

مجرى النهر لمسافة ميل، ووصلوا إلى الموقع المطلوب. رأت مارجوري

على الفور ما فعله الفلاح الذي كان جريئاً أو طمّاعاً، أو ربما كلا الأمرين.

كان قد قطع الغابة التي تعود ملكيتها إلى الإيرل وتقع على الجانب الآخر من

النهر. ورأت فلاحاً يرعى خرافاً في مكان تنمو فيه أعشاب غليظة.

«بعد هذه الأرض تقع الأرض التي عرضتها على بارت بدلاً عن الأرض

التي استخدمها الفلاح»، قال نيد.

عاينت مارجوري الغابة التي تقع في جهة ويغلي. عبروا النهر ونزلوا عن

أحصنتهم، وقادوا الأحصنة عبر الغابة. لاحظت مارجوري وجود أشجار

بلوط ناضجة تصلح كحطب ثمين. توقفوا عند أرض مفتوحة جميلة ومغطاة

بأزهار برية وضافة نهر معشوشبة.

«لا أرى سبباً يمنع بارت من المبادلة»، قالت مارجوري. «في الحقيقة

أعتقد أنّها ستكون صفقة مربحة لنا».

«جيد»، قال نيد. «هلاً جلسنا هنا لبعض الوقت؟».

كانت فكرة مبهجة، وأجابت مارجوري: «أجل، من فضلك».

«يمكننا أن نرسل مرافقك إلى الحانة ليحضروا الطعام والشراب».

«فكرة جيدة»، واستدارت مارجوري لتخاطب الجندي والوصيفة.

«اذهبا أنتما إلى القرية. يمكنكما المشي فالجياذ بحاجة إلى الراحة».

أحضرا إبريقاً من الجعة وبعض اللحم البارد وخبزاً كافياً لنا ولكما أيضاً».

ابتعد الخادمان، واختفيا في الغابة.

جلست مارجوري على العشب بقرب النهر واستلقى نيد بقربها. كانت

الغابة هادئة، وما من صوت سوى خرخرة النهر وحفيف النسيم الخفيف عبر

الأوراق الربيعية. استلقى الكلب ميك وقد أغلق عينيه إلا أنه كان يقظاً بما

يكفي لتحذيرهما في حال اقتراب أحد ما.

«نيد... عرفت بما فعلته للأب بول»، قالت مارجوري.

رفع نيد حاجبيه في دهشة وقال: «تنتقل الأخبار بسرعة».

«أريد أن أشكرك».

«هذا يعني أنك تذهين للقداس».

حارت مارجوري في جوابها على هذا، وأسرع نيد ليضيف: «لا أريد أن

أعرف التفاصيل، ولتني من فضلك أنني قلت هذا».

«سأنسى إن اقتنعت بأنني لن أتأمر على الملكة إليزابيث». أرادته

مارجوري بشدة أن يفهم هذه الحقيقة. «إنها ملكتنا المتوجة بالزيت

المقدس. أساءل أحياناً عن حكمة الرب في اختياره لمهرطقة كملكة لنا،

ولكن لا يحق لي أن أتحدى خياره».

نظر نيد إليها وكان لا يزال مستلقياً وابتسم: «يسعدني أن أسمع هذا»،

ولامس ذراعها.

حدقت إلى وجهه اللطيف والذكي. رأت في عينيه توقفاً قوياً كفيلاً بكسر

قلبها. كانت تعلم أن ما من أحد شعر بمثل هذا الشعور نحوها في السابق،

وبدا لها أن الخطيئة الوحيدة في هذه اللحظة هي رفض عاطفته. أمالت

رأسها وقبّلته.

أغمضت مارجوري عينيها واستسلمت للحب الذي تملكها وملاً

روحها، وجعل الدم يتدفق بقوة في جسدها. كانت تفكر بكل هذا منذ آخر قبلة لهما، وبدا لها كل هذا بعد الانتظار الطويل أكثر حلاوة مما تخيلت. أخذت تمصّ شفته السفلى بفمها، وتداعب شفته العليا بطرف لسانها الذي دفعت به إلى داخل فمه، وشعرت أنّها لا تستطيع الاكتفاء من نيد أبداً.

أمسكها نيد من كتفيها، وجذبها إلى الأسفل إلى أن أصبحت فوقه بكامل ثقلها. شعرت بانتصاب عضوه تحت تنورتها وخشيت أن تؤلمه فتحركت لتنام على ظهرها ولكنه ثبتها في مكانها. بدأت تسترخي مع اقتراب شعورها بانصهارهما معاً، ولم يكن في العالم أجمعه أحد سواهما، وما من شيء آخر سوى جسديهما.

لم يشعرها هذا بالاكْتفاء فكل شيء كانا يفعلانه يغذي رغبتها بالمزيد. ثم ركعت وباعدت بين ساقي نيد، وفتحت فتحة سرواله الأمامية، وحررت عضوه. حدّقت إلى عضو نيد وأخذت تداعبه بحب. كان شاحب اللون ومقوساً قليلاً ومحاطاً بدغل من الشعر الكستنائي المجعد. انحنت فوقه وبدأت تقبله، وسمعت نيد يتأوه من المتعة. ورأت قطرة صغيرة مستقرة في نهايته، ولم تستطع مقاومة هذا الإغراء فأخذت تلعقها.

لم يعد بوسعها الانتظار أكثر. جلست فوق وركيه، وأفردت تنورة فستانها فوق وسطه ثم غرقت وهي تقود بيدها عضوه إلى داخلها. كانت تقطر برطوبة لا تحتمل، ودخل عضوه بسهولة، وانحنت إلى الأمام حتى تقبله مجدداً. أخذاً يهتزان معاً بلطفٍ لوقتٍ طويل، وأرادت أن تبقى على هذه الحالة إلى الأبد.

كان الآن قد حان دور نيد ليرغب بالمزيد، فقام بقلبها دون أن يُخرج عضوه من داخلها. باعدت مارجوري ساقيها ورفعت ركبتيها. كانت تريده أن يغوص في داخلها أكثر ويملاها. بدأت تحسّ بفقدان السيطرة ونظرت في عينيه قائلة: «أنت يا نيد، أنت الوحيد». شعرت برعشة قوية وبدفق سائل ما ثم انتابها إحساس بأنها تسقط من شاهق، وشعرت بالسعادة... سعادة حقيقية لأول مرة منذ سنوات.

كان رولو فيتزجيرالد يفضل الموت على تغيير دينه، وبالنسبة له لم يكن هناك قط مجال للمساومة في هذا الأمر أبداً، إن الكنيسة الكاثوليكية على حق، وجميع الأعداء على خطأ. ورأى أنّ هذه الحقيقة واضحة وضوح الشمس، وأنّ الرّب لن يُسامح الرجال الذين تجاهلوا ما هو واضح. كان ينظر إلى الأمر برمته نظرة رجل يحمل روحه على يده كلؤلؤة، فإن أوقعها في المحيط لن يتمكن من استعادتها أبداً.

لم يكن بوسع رولو التصديق أنّ إليزابيث تودر استمرت ملكة غير شرعية لإنكلترا لاثني عشر عاماً. لقد منحت الناس الحرية الدينية، وما يدعو للعجب أنّ هذا النظام الديني الخاص بها لم ينهَر بعد. فشل نبلاء الكاثوليكين في الإطاحة بها، وأظهر جميع ملوك أوروبا تردداً حيال القيام بأي شيء ضدها لأنها كانت تتظاهر بأنها ستتزوج من رجل كاثوليكي صالح. كان الأمر مدعاة لخيبة أمل رهيبية، وكاد رولو أن يتهم الرّب بالغفلة لو لم يكن هذا العمل بالنسبة له تجديدياً.

ولكن في شهر أيار/ مايو من عام 1570 تغير كل شيء، وليس بالنسبة إلى رولو فقط بل للجميع في إنكلترا.

وصلت الأخبار إلى رولو فيما كان يتناول إفطاره في قصر برايبوري غيت. كانت مارجوري، التي باتت مؤخراً تقوم بزيارات مطولة إلى كينغزبريدج لتتهم بوالدتهما المريضة الليدي جاين، جالسة إلى الطاولة معه. كانت والدتهما قد تعافت بعض الشيء، وقد انضمت إليهما على الإفطار، إلا أنّ مارجوري بدت مستعجلة للعودة إلى منزلها. دخلت الخادمة بيغي وسلمت رولو رسالة، وقالت له إنّ رسولا من لندن قد أحضرها. كانت الرسالة عبارة عن ورقة كبيرة ثقيلة ومطوية من الزوايا باتجاه المركز ومدموغة بشمع أحمر وختم عائلة فيتزجيرالد. كانت الرسالة بخط مدير أعمال عائلة فيتزجيرالد في لندن ديفي ميلر.

عادة ما كانت رسائل ديفي تتناول أسعار الصوف وما إلى ذلك، إلا أنّ هذه الرسالة كانت مختلفة. لقد أصدر البابا إعلاناً رسمياً وكان يدعى بالبيان البابوي. بالطبع لا يتم تداول مثل هذه الرسائل في إنكلترا. كان رولو قد سمع إشاعات عن الأمر ولكن، وكما جاء في رسالة ديفي، قام أحدهم

بتعليق نسخة منه على باب الأسقف في قصر لندن حتى يطلع الجميع عليه. شهق رولو عندما قرأ موجز الأحداث في رسالة ديفي.

لقد أصدر البابا بيوس الخامس قراراً بطرد الملكة إليزابيث من الكنيسة. «هذه أخبار جيدة»، قال رولو. «وأخيراً حدث ما كنت أنتظره! فهذا هو البابا يصف إليزابيث بـ«ملكة إنكلترا المزيفة والمجرمة».

«لا بدّ أنّ إليزابيث تستشيط غضباً»، قالت مارجوري. «أتساءل إن كان نيد ويلارد يعلم بهذا».

«نيد ويلارد يعلم بكل شيء»، قالت الليدي جاين بلهجة غامضة. «هناك المزيد من الأخبار الجيدة»، قال رولو بابتهاج. «لقد حرر البابا جميع الإنكليز من ولائهم لإليزابيث حتى وإن كانوا قد أقسموا على الولاء لها».

عبست مارجوري وقالت: «لا أعتقد أن عليك الابتهاج لهذا الخبر لأن هذا يعني أن المتاعب قادمة».

«ولكن هذا حقيقي! إنّ إليزابيث ملكة مهرطقة وغير شرعية، ولا يجب أن يطيعها أحد».

«إن أختك على حق يا رولو»، قالت الليدي جاين. «قد لا تكون هذه الأخبار جيدة لنا».

تابع رولو القراءة: «في الحقيقة يطلب البابا من الناس عدم إطاعتها، وإن أطاعها أحد سيشملة قرار الطرد الكنسي».

«هذه كارثة!» قالت مارجوري.

لم يفهم رولو ما الذي كانتا تقصدانه: «ولكن هذا هو الكلام الصحيح وقد قاله البابا أخيراً! كيف يمكن أن تكون أخباراً سيئة؟».

«ألا تفهم ما الذي يعنيه هذا يا رولو؟» قالت مارجوري. «لقد حوّل البابا كل إنكليزي كاثوليكي إلى خائن».

«إنّه فقط يوضح ما يعرفه الجميع».

«قد يكون من الأفضل أحياناً عدم توضيح ما يعرفه الجميع».

«كيف يمكن أن يكون هذا ممكناً؟».

«يعرف الجميع أنّ الأب بول يحتفل بالقداس معنا بالإضافة إلى ستيفن

لينكولن وبقية الكهنة السرّيين الآخرين، ولكن ما من أحد يجاهر بهذا، ولهذا السبب ننجو من المتاعب. ولكن بعد هذا القرار البابوي أصبح الأمر خطيراً، وتحولنا إلى خونة مُحتملين».

فهم رولو ما الذي كانتا تتحدثان عنه إلا أنه كان مصراً على أنهما مخطئتان. إن الناس أغبياء والحرية خطيرة جداً، فهناك رجالٌ عرضوا حياتهم إلى الخطر من أجل محاربة هرطقة إليزابيث.

«أنتن النساء لا تفهمن في السياسة»، قال رولو.

دخل ابن مارجوري بارتليت إلى الغرفة. نظر رولو إلى الفتى في فخر. كان بارتليت ابن أخته الذي سيُصبح في يوم من الأيام إيرل شايرنغ.

«هل يمكننا الذهاب واللعب مع القطط الصغيرة اليوم؟» قال بارتليت.

«بالطبع يا عزيزي»، قالت مارجوري وشرحت لأخيها وأمها: «وضعت قطة نيد المخططة صغاراً وبارتليت مفتون بها».

«لو كنت مكانك لما أطلت المكوث في منزل عائلة ويلارد»، قالت الليدي جاين.

تساءل رولو عن السبب الذي دفع والدته إلى التحدث بهذه اللهجة الباردة والجدية ثم تذكر الصراع الذي كابده ليجبروا مارجوري على الزواج من بارت. حدث هذا منذ وقتٍ طويل ولكن قد تكون الليدي جاين خائفة من أن يعتقد الناس أن لمارجوري سبباً خفياً للذهاب إلى منزل نيد، وقد يكون لمارجوري سبب خفي في الذهاب إلى هناك.

رفض رولو إشغال عقله بهذه الفكرة فهناك أفكار أكثر أهمية ليفكر بها.

«يجب أن أذهب إلى اجتماع مجلس المدينة»، قال رولو. «سأراكم على العشاء». ثم قبل والدته وخرج.

يحكم مدينة كينغزبريدج مجلس مؤلف من اثني عشر شيخاً وجميعهم من التجار المحليين، وكان عمدة كينغزبريدج يشغل منصب رئيس المجلس. وكما ورث رولو تجارة الصوف عن والده ورث عنه أيضاً مكانه كشيخ في المجلس، إلا أن العمدة الحالي يدعى إيلايجا كوردوينر وهو صديق مقرب لدان كوبلي. يجتمع المجلس في غيلد هول كما هي العادة منذ مئات السنين. سار رولو عبر الشارع الرئيسي باتجاه تقاطع طرق ثم دخل إلى غيلد هول

وصعد السلالم إلى غرفة المجلس وهو يعي أنه كان على وشك المشاركة في تقليد مهيب. كانت الغرفة مكسوة بخشب بلونٍ دخاني، ورُتبت الكراسي الجلدية حول طاولة المؤتمرات التي نُقش عليها نقش قديم، وعلى طاولة جانبية صحن من اللحم البقري المقدد وإبريق من الجعة من أجل الحاضرين ممن لم يتناولوا فطورهم.

أخذ رولو مكانه. كان الكاثوليكي الوحيد في الغرفة، فلم يكن أيّ شيخ من الشيوخ الآخرين يذهب إلى مراسم القداس السريّة التي يقيمها الأب بول. شعر رولو بخوفٍ مبهم وكأنّه جاسوس بين أعداء. لم يشعر بهذه الطريقة من قبل وتساءل إن كان المرسوم البابوي السبب في شعوره هذا. ربما كانت مارجوري على حق، وتمنى رولو أن تكون مخطئة.

كان المجلس ينظّم حركة التجارة والصناعة في المدينة، وهذه الجلسة الصباحية ستناقش الأوزان والقياسات والأجور والأسعار وأصحاب الأعمال والمتدربين. كان قد وصل تقرير يقول إن مجموعة من التجار الزائرين يستخدمون في السوق أوزاناً أخف من الأوزان المعتمدة. ناقشوا الإشاعات التي تقول إن الملكة إليزابيث قد تغير حساب الميل من خمسة آلاف قدم إلى خمسة آلاف ومئتين وثمانين قدماً. وعندما كانوا على وشك فضّ الاجتماع من أجل وجبة منتصف النهار أعلن العمدة كوردوينر في الدقيقة الأخيرة موضوعاً إضافياً للمناقشة وهو المرسوم البابوي.

شعر رولو بالحيرة، فالمجلس لا يناقش المسائل الدينية أبداً. وتساءل عما سيكون الأمر؟

«لسوء الحظ لقد ارتأى البابا إرسال الأوامر إلى الإنكليز بعدم إطاعة جلالة الملكة»، قال كوردوينر.

«وما علاقة هذا بمجلس المدينة؟» قال رولو بانفعال.

بدا كوردوينر متضيقاً وقال: «حسناً، إن الشيخ كوبلي يشعر أن الأمر قد يشير التساؤل...».

إذاً، كان دان كوبلي يخطط لشيء ما وشعر رولو بالتوتر؛ فما يزال دان يلومه على إعدام فيلبرت ويتوق للحصول على انتقامه.

حدّق الجميع نحو دان.

«سيكون من المحزن أن يحوم شبح الخيانة على مجلس شيوخ كينغزبريدج»، قال دان كوبلي في خطاب يبدو أنه تدرّب عليه. «وأثق بأنكم جميعاً متفقون معي».

سرت همهمة استحسان حول الطاولة. قالت مارجوري أثناء الفطور إن المرسوم سيجعل جميع الكاثوليكين خونة، وشعر رولو بنذير خطر. «ودفعاً لأيّ شكوك»، تابع دان. «سأدلي باقتراح بسيط: يجب أن يُقسم جميع التجار على المادة التاسعة والثلاثين⁽¹⁾».

عمّ الصمت أرجاء الغرفة، فقد علم الجميع ما الذي يعنيه هذا. وكان هذا الاقتراح أشبه بهجوم مباشر على رولو. تدور المادة التاسعة والثلاثون حول عقيدة الكنيسة الأنغليكانية، وأيّ كاثوليكي يقبل بها سيكون قد خان عقيدته. سيفضل رولو الموت على القيام بمثل هذا القسم، وجميع من في الغرفة يعلم بهذا.

لم يكن جميع البروتستانتين في كينغزبريدج متشددين كدان كوبلي، وكان معظمهم مهتمين بتسيير أعمالهم بسلام فقط، ولكن يمكن لدان أن يكون داهية في الإقناع.

بدأ المحامي بول تنسلي الذي يعمل كمسؤول عن الحفاظ على السلام في المدينة الكلام قائلاً: «كان هناك محاولات عديدة من قبل البرلمان لإجبار الموظفين على القيام بهذا القسم، ولكن الملكة رفضت على الدوام المصادقة على مثل هذا التشريع».

«ولكنها لن ترفض الأمر عندما يتم طرحه مرة أخرى... ليس بعد المرسوم البابوي. ستقوم بالالتزام به»، قال دان.

«ربما»، قال تنسلي. «ولكن يمكننا انتظار قرار البرلمان بهذا الشأن بدلاً من التصرف من تلقاء أنفسنا».

«لِمَ الانتظار؟» سأل دان. «بالتأكيد ما من أحد في هذه الغرفة يرفض المادة؟ وإن كان هناك من يرفضها فهل يمكن السماح له بالتجارة في كينغزبريدج بعد المرسوم البابوي؟».

1 - وهي المادة التي تحوي على مجموعة من النقاط العقائدية الأساسية والمتعارف عليها تاريخياً، وتمثل تعاليم كنيسة إنكلترا منذ عام 1571. (الترجمة)

حافظ تنسلي على لهجته المعتدلة: «قد تكون على حق أيها الشيخ كوبلي. أنا فقط أقترح عدم اتخاذ قرارات سريعة».

تحدث رولو قائلاً: «إنّ الشيخ تنسلي على حق. أنا عن نفسي لن أوقع على إعلان ديني يضعه أمامي الشيخ كوبلي». وتابع قوله: «إن طلبت جلالة الملكة هذا سيكون الأمر مختلفاً». هذا لن يحدث ولكن رولو كان يائساً فقد كانت تجارته على المحك.

«ماذا لو انتشر الخبر أننا ناقشنا هذا وقررنا ألا نتصرف؟ ألا يضعنا هذا تحت الشبهات؟» سأل دان.

أوما العديد برؤوسهم حول الطاولة في تردد، وبدأ رولو يعتقد أنّ دان سيحصل على ما يبتغيه.

«أعتقد أننا يجب أن نجري تصويتاً»، قال كوردوينر. «من يوافق على اقتراح الشيخ كوبلي ليرفع يده من فضلكم».

ارتفعت عشر أيدي. كان تنسلي ورولو من المعارضين.

«لقد تم تمرير القرار»، قال كوردوينر.

وقف رولو وغادر الغرفة.

في صباح باكر من صباحات شهر تموز/ يوليو استلقت مارجوري على سريرها في نيو كاسل تستمع إلى تغريد الطيور. كانت تشعر بالسعادة والذنب والخوف.

كانت سعيدة بالحبّ المتبادل بينها وبين نيد الذي بقي في كينغزبريدج طوال شهر أيار/ مايو، والتقى مراتٍ عديدة خلال الأسبوع، ثمّ تمّ استدعاؤه لتفقد الدفاعات على الساحل الجنوبي. اعتادت مارجوري الذهاب مع ستيفن لينكولن مرة في الأسبوع على الأقل للاحتفال بالقداس سراً في قرى بعيدة أو في حظائر في الضواحي. وقد خططت مع نيد حتى تتقاطع سبلهما ويقضيا الليل في نفس البلدة أو بالقرب من القرى. بعد هبوط الظلام وبعد أن يذهب الجميع إلى النوم يلتقيان. إن نزلت مارجوري في نزل يتسلل نيد إلى غرفتها. وفي الليالي الدافئة يلتقيان في الغابة أحياناً. أضفت هذه السرية على لقاءاتهما تشويقاً لا يصدق، وها

هو الآن لا يبعد عن نيوكاسل سوى بضعة أميال، ولهذا كانت تأمل أن تتسلل بحجة ما وتراه اليوم. عاشت مارجوري في حالة إثارة مستمرة إلى درجة جعلت تناول الطعام مستحيلاً، وعاشت على خبز القمح والزبدة والنيذ المخفف.

بدا بارت غافلاً عن كل هذا. لم يخطر بباله قط أن تكون زوجته غير مخلصة له كما لم يخطر بباله أن يعضه كلبه المخلص. ربما كانت والدة مارجوري الليدي جاين تشك في الأمر، ولكنها لن تقول شيئاً خوفاً من التسبب بأيّ متاعب. علمت مارجوري أنّها ونيد لا يستطيعان النجاة بما يفعلانه إلى الأبد. قد يأخذ الأمر أسبوعاً أو عاماً، ولكن عاجلاً أم آجلاً سيعرفون، ورغم معرفتها بهذا لم تكن قادرة على التوقف.

كانت سعيدة إلا أن الشعور بالذنب عذبها، وغالباً ما تعود بتفكيرها إلى القرار الخاطئ الذي أخذته عندما طلبت من وصيفتها والجندي العودة إلى ويغلي لإحضار الطعام. لا بدّ أنها كانت تعلم أنها ستنام مع نيد بين الأزهار البرية قرب النهر، ولم تكن قادرة على مقاومة هذا الخيال الجميل جداً. رأت طريق الجنة شديد الانحدار ومليئاً بالأشواك، ولكنها اختارت طريق الحب المزهّر. كانت ترتكب خطيئة وتتمتع بها وتكررها، ومع مرور كل يوم تقسم على إنهاء الأمر ولكن في كل مرة تقابل فيها نيد يذهب هذا القرار أدراج الرياح. كانت خائفة من العواقب الآن وفي الحياة الأخرى، فالربّ سيعاقبها من كل بد على هذا، وقد يتليها بدء مريع، أو يدفعها إلى الجنون أو يصيبها بالعمى. وبسبب التفكير بهذا كانت تسبب لنفسها الصداع. علاوة على هذا كان لديها أسباب أخرى للخوف. تبين أن مخاوفها من تبعات المرسوم البابوي صحيحة، فقد أصبح بإمكان البيورتانيين الآن القول، وبكل سعادة، إن الكاثوليكيين خطر على الأمن الوطني، ولم يعد هناك عذر للتسامح حيال الأمر الآن.

أصبح لزاماً على بارت الآن دفع مبلغ كبير، أي ما يعادل جنيهاً كل أسبوع بدلاً من شلن واحد، لقاء عدم الذهاب إلى الكنيسة. كان هذا العنيه كفيلاً بشراء بنديّة أو قميص باهظ الثمن أو حصان صغير. وسبب هذا عبثاً على مدخول بارت من الإيجارات قد يصل إلى خمسين جنيهاً أسبوعياً. كان

وكيل الكنيسة يخاف من الإيرل، ولكنه يستجمع شجاعته مرة أسبوعياً، ويأتي إلى القلعة ليطالب بالمال فيضطر بارت إلى الدفع له.

ولكن الأثر الأسوأ كان من نصيب رولو الذي خسر عمله لأنه رفض أداء القسم على المادة التاسعة والثلاثين. أُجبر على بيع قصر برايبوري غيت الذي اشتراه دان كويلي منه بسعادة، وانتقلت الليدي جاين للعيش معها ومع بارت في نيوكاسل، وغادر رولو إلى مكان بعيد لا يعرفه أحد حتى والدته.

استشاط نيد غضباً مما كان يحدث. لقد خاطرت الملكة إليزابيث بكل شيء من أجل الحرية الدينية وقد حافظت عليها لعقد من الزمن، وأثبتت أن الأمر ممكن. انتابه غضب عارم لأنّ البابا، ومن بين جميع الناس، يحاول إضعاف مكائنها. لم تُحب مارجوري الاستماع إليه عندما كان ينتقد البابا رغم أنّها كانت توافقه سرّاً على ما يقوله، ولهذا تجنبت الحديث معه في هذا الموضوع.

في حقيقة الأمر تجنبت مارجوري كل الأفكار الجدية قدر الإمكان وتركت عقلها يعزف على وتر الحب فقط. عندما لا تكون برفقة نيد تحلم بلقائهما القادم وبما سيفعلانه. وبما أنّها كانت تتخيل نفسها معه سمعت في أذن مخيلتها الكلمات الحميمة التي يهمسها وهو يلمسها، وشعرت بذلك الإحساس الأليف بين فخذيهما فوضعت يديها بين ساقيهما حيث تصاعدت اللذة. كانت تستغرب حقاً أنّ لقاءاتها بنيد لا تطفئ هذه الرغبة أبداً بل تزيدها وكأنّ كل خطيئة تُغذي الأخرى.

استفاق قلبها ميك المستلقي بالقرب منها وأخذ يهرّ. همست له مارجوري: «ششش». ولكنه استمر بالنباح، وبعد مرور دقيقة سمعت صوت طرق على باب المنزل.

علمت مارجوري من الصوت أنّ المتاعب قد وصلت. كان طرقاتاً عنيفاً ومُلحاً وأمراً. لم يتجرأ سوى القلة على الطرق على باب الإيرل بهذه الطريقة العنيفة والمتعجرفة. ففزت من السرير وركضت إلى النافذة. رأت في الخارج الشريف ماثيوسن مع مجموعة مكونة من تسعة أو عشرة رجال.

لم تنجح في تكهن سبب قدوم الشريف، ولكن لم يكن لديها أدنى شك أنّ للأمر علاقة بالدين.

خرجت من الغرفة راکضةً وهي تضع دثاراً فوق ثوبها الليلي. خرج بارت من غرفته وأطل من الرواق سائلاً بغلظة: «ما الأمر؟».

«لا تفتح الباب»، قالت مارجوري.

واستمر الطرق على الباب.

هرعت مارجوري إلى غرفة ستيفن لينكولن واقتحمتها. لم يكن هناك وقت للتصرف بتهذيب. لكن ستيفن كان صاحباً وبكامل ثيابه وجائياً عند المصلي.

«إن الشريف عند الباب»، قالت له وتابعت. «رافقني وأحضر معك الأغراض المقدسة».

حمل ستيفن صندوقاً يحوي على كل ما يحتاجه من أجل القداس ولحق بمارجوري.

رأت مارجوري بارتليت في ثياب نومه وقد لحقت به مربية شابة ناعسة. «عد إلى النوم يا بارتلي»، قالت له. «سأتي عندما يجهز الإفطار».

ركضت على السلالم وهي تصلي ألا يكون الخدم قد فتحوا الباب لمايوسن وسمحوا له بالدخول. كادت تصل متأخرة فالخادمة نورا جوزفيز كانت على وشك فتح رتاج الباب وهي تصرخ: «حسناً! حسناً! أنا قادمة».

«انتظري!» قالت مارجوري بصوتٍ كالفحيح.

كان جميع الخدم من الكاثوليكين، وسيفهمون ما الذي يجري ويلتزمون الصمت حيال ما يعرفونه.

تابعت مارجوري الركض عبر الرواق وستيفن خلفها، وعبرت المخزن باتجاه الدرج الحلزوني. صعدت سُلماً ونزلت آخر أقصر منه باتجاه معبر بنهاية مسدودة حيث يقع المخبز المهجور في القلعة القديمة. فتحت باباً حديدياً يقود إلى فرنٍ عظيم كان قد قَبِلت نيد فيه منذ سنوات مضت.

«اختبئ هنا!» قالت لستيفن.

«ألن يبحثوا هنا؟».

«تابع طريقك إلى الخلف وادفع الحائط، وستُفتح أمامك غرفة سرية. أسرع».

دخل ستيفن مع صندوقه، وأغلقت مارجوري الباب وراءه. عادت إلى

القاعة الرئيسية وهي بالكاد قادرة على التقاط أنفاسها. كانت والدتها في القاعة وهي ما تزال في ثياب النوم والقلق بادٍ عليها. أحكمت مارجوري دثارها حول نفسها وأومات لنورا: «يمكنك أن تفتحي لهم الآن». وفتحت نورا الباب.

«صباح الخير أيها الشريف»، قالت مارجوري بابتهاج. «أنت تطرق الباب بشدة! هل أنت مستعجل؟».

كان ماثيوسن رجلاً ضخماً وجلفاً بسبب تعامله مع المجرمين، إلا أنه كان محرّجاً من الكونتيسة. رفع ذقنه عالياً بتحدٍ ثم قال بصوت عالٍ: «بأمر من جلالة الملكة أنا هنا لاعتقال الكاهن ستيفن لينكولن. إنه مشتبه به بتهمة التآمر مع ملكة إسكتلندا».

كانت التهمة سخيفة لأنّ ستيفن لم يلتقِ بالملكة ماري في حياته، وعلاوة على هذا فهو لا يملك الشجاعة على التآمر. كان اتهاماً خيئاً، وارتابت مارجوري بوقوف دان كوبلي وراء هذا، ولكنها ابتسمت وقالت: «لم يكن هناك من حاجة لإيقاظنا في هذا الوقت الباكر جداً لأنّ ستيفن ليس كاهناً، وهو ليس هنا».

«إنّه يعيش هنا».

«كان يعمل لدى الإيرل ولكنه غادر». وتابعت القول وهي ترتجل بيأس: «أعتقد أنه ذهب إلى كانتربري». وقررت مارجوري أنّ هذا التفصيل الإضافي كافٍ.

«بأيّ حال أنا واثقة من عدم تورطه مع ملكة إسكتلندا. يؤسفني أنك أضعت وقتك في الرحلة إلى هنا. وبما أنك هنا هل ترغب أنت ورجالك بتناول الفطور؟».

«لا شكراً»، قال ماثيوسن والتفت إلى رجاله: «فتشوا المنزل».

سمعت مارجوري بارت يقول: «لا، لن تفعل». التفتت إلى الوراء ورآته يهبط الدرج حاملاً سيفه وقد ارتدى سرواله وحذاءه.

«ما الذي تعتقد أنك فاعل بحق الشيطان يا ماثيوسن؟».

«أنفذ أوامر الملكة يا سيدي، وأرجو ألا تُسئ إلى جلالته بمنعني من هذا».

وقفت مارجوري بين بارت والشريف، وتحدثت بصوتٍ منخفضٍ.
«لا تقاتله، ولا تجلب على نفسك الإعدام كما فعل والدك. دعه يفتش
المنزل فهو لن يجد شيئاً».
«اللعنة».

«أنت متهم بإيوائك كاهناً كاثوليكياً خائناً يدعى ستيفن لينكولن. سيكون
من الأفضل لك تسليمه الآن»، قال ماثيوسن.
قالت مارجوري لبارت بصوتٍ عالٍ: «أخبرته للتو أنّ ستيفن ليس كاهناً،
وهو ليس هنا».

بدا بارت حائراً واقترب من مارجوري ثمّ همس لها: «ولكن ماذا عن...».
«ثق بي!» قالت له بصوتٍ كالفحيح، ولزم بارت الصمت.
رفعت مارجوري صوتها مجدداً وقالت: «ربما من الأفضل أن نسمح
للشريف بالتأكد من أننا نقول الحقيقة، وبهذا سيكون الجميع راضين».
وهبط الوحي على بارت فحرك شفثيه في وجه مارجوري قائلاً: «في
المخبز القديم؟».

«أجل هذا ما أعتقد. دعه يفتش المكان»، قالت مارجوري.
نظر بارت إلى ماثيوسن وقال له: «حسناً ولكن لن أنسى هذا... وخاصة
دورك فيه».

«هذا ليس قراري يا سيدي».
أصدر بارت صوتاً ينم عن الاحتقار.
«هيا يا رجال»، قال الشريف. «واحرصوا على تفتيش بقايا القلعة القديمة
جيداً. أنا واثق من أنّها مليئة بأمكن كثيرة صالحة للاختباء». لم يكن ماثيوسن
رجلاً غيباً.

«قدمي الفطور في قاعة تناول الطعام»، قالت مارجوري لنورا. «للعائلة
فقط». لم يعد هناك من داع لإظهار حُسن الضيافة الآن.

ذهب بارت الذي تعكّر مزاجه الآن إلى قاعة تناول الطعام، ولحقت
به الليدي جاين ولكن مارجوري فشلت في التحلي بما يكفي من الصبر
للجلوس وتناول الطعام فيما يقوم الرجال بالبحث عن ستيفن، ولحقت
بالشريف في جميع أرجاء المنزل.

فتش الرجال كل قاعات وغرف المنزل الجديد، إلا أن الشريف كان مهتماً بتفتيش القلعة القديمة ولذلك حمل معه مصباحاً حتى يتمكن من تفتيش الأماكن المظلمة. تفحص الكنيسة أولاً، ولفت انتباهه ضريح أحد الأجداد، ثم أمسك بخوذة تمثال الفارس وحاول تحريكها ليختبر إن كان بالإمكان فتحها، ولكنها كانت مثبتة.

كان الفرن المكان الأخير الذي بحث فيه. فتح ماثيوسن الباب الحديدي، وأضاء داخله بالمصباح. حبست مارجوري أنفاسها وتظاهرت بعدم الاهتمام. انحنى الشريف إلى الأمام إلى أن أصبح رأسه وكتفاه في الفرن، وحرك المصباح في الداخل. حاولت مارجوري أن تتذكر إن كان الباب الخلفي مرثياً أم لا. نمت عن ماثيوسن شخراً، ولكنها عجزت عن تفسير معناها، ثم تراجع ماثيوسن وصفح الباب وراءه.

«أكنت تعتقد أننا نخبي الكهنة في القرن؟» قالت مارجوري بابتهاج ورجاء بألا يلاحظ الارتعاش الخفيف في صوتها.

بدا ماثيوسن منزعجاً، ولم يكلف نفسه عناء الإجابة على سؤالها الزائف. عادوا جميعاً إلى الردهة. كان ماثيوسن غاضباً لأنه كان يشك بأنه تعرّض إلى خديعة ما، إلا أنه لم يعرف ما هي هذه الخديعة. وعندما كان على وشك المغادرة فُتح الباب الأمامي ودخل السير نيد ويلارد.

حدقت مارجوري إلى نيد في رعب فقد كان يعلم سر المخبز القديم، وتساءلت عن سبب قدومه.

رأت خطأ ربيعاً من العرق على جبهته وكان يتنفس بصعوبة. من الواضح أنه أتى إلى هنا بسرعة. تكهنت مارجوري أنه علم بطريقة ما بالمهمة التي أتى من أجلها الشريف ماثيوسن، وتساءلت عن الغرض الذي أتى من أجله. كان قلقاً على مارجوري من دون أدنى شك، إلا أنه كان بروتستانتياً أيضاً. فهل سيرضخ لإغراء الكشف عن مكان الكاهن الهارب؟ كان ولاؤه للملكة كبيراً وأقرب إلى الحب، ألا يمكن أن يتغلب هذا الحب على حبه لمارجوري؟

ألقي نيد على ماثيوسن نظرة عدائية وسأله: «ما الذي يجري هنا؟». أعاد الشريف الشرح الذي قدّمه أولاً: «إن ستيفن لينكولن متهم بالخيانة». «لم أسمع بهذه التهمة»، قال نيد.

«كما فهمت أيها السير نيد فأنت لم تذهب إلى لندن منذ عيد الفصح ولذلك يبدو أنك لم تسمع بالأمر»، تحدث الشريف بلهجة مهذبة إلا أنها كانت تنضوي على شيء من السخرية.

شعر نيد بالغباء وعرفت مارجوري هذا من النظر إلى وجهه. كان نيد يفتخر دوماً بأنه أول العارفين بكل شيء. وها هو قد ارتكب خطأً ولا شك أنها السبب في هذا.

«إن ستيفن لينكولن ليس هنا. لقد فتش الشريف المنزل بعناية شديدة. أتصور أنه لو كان لدينا فأر كاثوليكي في خزانة الطعام لكان الشريف عثر عليه»، قالت مارجوري.

«يسعدني أن أوامر الملكة تُنفذ بهذه الدقة»، قال نيد وبدا واضحاً أنه غير موقفه: «أحسنت أيها الشريف».

شعرت مارجوري بتوترٍ شديد ورغبت بالصراخ، وتساءلت إن كان نيد على وشك القول: «ولكن هل عثرت على الغرفة السرية خلف المخبز القديم؟» ثم قالت بعد أن سيطرت على نفسها بجهدٍ كبير: «إن كان هذا كل شيء أيها الشريف..».

بدا ماثيوسن متردداً فلم يعد هناك سبب يستدعي بقاءه، وخرج من المكان بسرعة وبوقاحة من دون أن يودع سكان المنزل، ولحق به رجاله الواحد تلو الآخر عبر الباب.

خرج بارت من غرفة تناول الطعام وقال: «هل ذهبوا؟». لم تكن مارجوري قادرة على التفوه بكلمة، وانفجرت باكية. وضع بارت ذراعيه حولها وقال لها: «اهدئي... اهدئي. لقد كنت رائعة». نظرت مارجوري إلى نيد من فوق كتفي بارت، ورأت على وجهه نظرة رجل معذب.

كان رولو يوشك على تحقيق انتقامه. عندما وصل إلى منطقة جامعة دوي في الجزء الفرنسي من غرب جنوب هولندا في تموز/ يوليو من عام 1570 كان متعباً ومُعفراً بالتراب ويغلي من الحقد والاستياء. ذكره المكان بجامعة أكسفورد التي درس فيها، فهناك

الكثير من الكنائس والأبنية الجامعية الأنيقة والحدائق والبساتين حيث يُمكن
للأساتذة والطلاب التنزه والتحدث. ومرت بذهن رولو فكرة مريرة وهي أن
ذلك العصر كان عصراً ذهبياً فقد كان والده ما يزال على قيد الحياة وأحواله
مزدهرة، وهناك ملكة كاثوليكية قوية علي عرش إنكلترا، وكل الدلائل تشير
إلى أن رولو سيحظى بمستقبل مضمون.

كان رولو قد سلك طريقاً طويلاً عبر سهول منطقة فلاندرز، إلا أن قدميه لم
تكونا متقرحتين بقدر قلبه، وفكر في غضب بأن البروتستانتيين لن يكتفوا أبداً.
فهناك ملكة بروتستانتية على عرش إنكلترا، وأساقفة خاضعون وإنجيل إنكليزي
وكتاب صلاة تجديدي، وقد أزيلت اللوحات وقطعت رؤوس التماثيل، وأُذيت
الصلبان الذهبية. ومع هذا كله لم يكتفوا أبداً، فها هم قد جردوا رولو من عمله
ومنزله، ودفعوه إلى مغادرة بلده. ولكنهم يوماً ما سيندمون على هذا.

تحدّث رولو مع الناس بمزيج من الفرنسية والإنكليزية، وعثر على
المنزل الذي كان يبحث عنه. كان منزلاً كبيراً إلا أنه لم يكن جميلاً، ويقع في
شارع مليء بالمتاجر والمنازل. لقد وضع رولو كل آماله على ما سيحدث
في هذا البناء العادي جداً؛ سيحظى رولو بانتقامه من أعدائه، وستعود إنكلترا
إلى الدين الحق، ومن هنا ستكون البداية.

فُتح الباب له وظهر من الردهة رجلٌ ذو بشرة وردية نضرة، يبدو كأنه
أصغر بعشرة أعوام من رولو البالغ خمسة وثلاثين عاماً.

«صباح الخير يا سيدي»، قال رولو بتهذيب.

«أنت إنكليزي؟ صحيح؟» قال الرجل الآخر.

«هل هذه الكلية الإنكليزية.»

«إنها كذلك.»

«حمداً للربّ». شعر رولو بالراحة. لقد كانت رحلة طويلة إلا أنه وصل
في نهاية المطاف، وسيكتشف الآن إن كان المكان يرقى إلى مستوى الآمال
التي بناها عليه.

«أدعى ليونارد برايس. يمكنك أن تناديني ليني. ما الذي تفعله هنا؟»

«لقد خسرت مصدر رزقي في كينغزبريدج لأنني رفضت التوقيع على

المادة التاسعة والثلاثين.»

«أحسنَتَ صنْعاً».

«شكراً لك». أريد المساعدة في إعادة إنكلترا إلى العقيدة الدينية الحقّة، وعلمت أنك أخذت على عاتقك هذه المهمة هنا».

«أنتَ على حق مجدداً. نحن هنا ندرّب الكهنة لإرسالهم إلى مواطنهم الأصليّة، سرّاً من كل بد، لإحياء القداس للكاثوليكين المخلصين هناك».

أثارت هذه الفكرة حماس رولو. كانت تصرفات الملكة إليزابيث تفضح طبيعتها الاستبدادية الحقيقيّة لذلك ستحاربها الكنيسة، ورولو أيضاً. لقد تدمرت حياته الآن ولم يكن لديه ما يخسره. كان يجب أن يصبح شيخاً من شيوخ كينغزبريدج الموسرين، ويعيش في أفضل منزل في المدينة فقد كان قدره أن يصبح المحافظ كوالده، ولكن بدلاً من هذا تحول إلى منبوذ يمشي في شوارع مُغبرة في بلدٍ أجنبي. لكنه لا بدّ أن يقلب الطاولة على أعدائه يوماً ما.

أخفض ليني صوته وقال لرولو: «إن سألت المؤسس ويليام آلان فسيقول لك إن مهمتنا الوحيدة هي تدريب الكهنة، ولكن بعضنا يملك أفكاراً أكبر».

«ما الذي تعنيه».

«يجب إزاحة إليزابيث عن العرش ووضع ماري الإسكتلندية بدلاً منها».

كان هذا ما أراد رولو سماعه: «هل تخططون لهذا حقاً؟».

تردد ليني في الإجابة، وربما أدرك أنّه اقترف عملاً طائشاً بقوله هذا أمام رجل غريب لذلك أجاب: «فلنقل أنّه حلم يقظة، ولكنه حلم كثير من الناس».

كان حق ماري بالعرش الإنكليزي أمراً مُسلماً به وموضوع نقاش مستمر حول طاولات العشاء الكاثوليكية.

«هل يمكنني أن ألتقي بوليام آلان؟» سأل رولو بحماس.

«لنذهب ونستطلع الأمر. إنه الآن مع زائر مهم، ولكنهما قد يرغبان بالتحدث إلى مجند جديد. رافقني».

قاد ليني رولو عبر درج إلى الطابق الثاني. كان رولو ممتلئاً بالحماس والتفاؤل لأنه ما يزال يملك فرصاً في الحياة. قرعَ ليني على بابٍ وفتحه، ثم دخل مع رولو إلى غرفة واسعة مضاءة ومليئة بالكتب. وهناك رجلان منغمسان في حديثٍ ما. توجه ليني بالحديث إلى أحدهما، وكان رجلاً له

وجه نحيل ويبدو أكبر عمراً من رولو ببضع سنوات، ويرتدي ثياباً مهلهلة
ذُكرت رولو بثياب أساتذة أو كسفورد.

«عذراً على المقاطعة يا سيدي، ولكن أعتقد أنك قد ترغب بلقاء أحد
القادمين الجدد من إنكلترا».

التفت آلان برأسه إلى ضيفه وقال بالفرنسية: «إن سمحت...».

كان الرجل الآخر أصغر عمراً وفي ثياب باذخة بلون أخضر ومطرزة
بخيوط صفراء. كان رجلاً وسيماً جداً بعينين عسليتين فاتحتين وشعرٍ أشقر
كثيف. هز الضيف كتفيه وقال: «إن كنت ترغب هذا».

تقدّم رولو إلى الأمام ومدّ يده: «أدعى رولو فيتزجيرالد من مدينة
كينغزبريدج».

«أنا ويليام آلان»، وصافحه ثم أشار إلى ضيفه بإيماءة وقال: «هذا صديق
مقرب من الكلية ويدعى السيد بيير أوموند دي غيز من باريس».

أوماً الرجل الفرنسي رأسه لرولو بيروود، ولم يحاول مصافحته.

«خسر رولو مصدر رزقه لأنه رفض التوقيع على المادة التاسعة
والثلاثين»، قال ليني.

«أحسنّت صنّعا»، قال آلان.

«ويريد الانضمام إلينا».

«فالتجلسا».

تحدث السيد أوموند دي غيز بلغة إنكليزية رصينة: «ما هي الدرجة
العلمية التي تملكها يا رولو؟».

«ارتدت جامعة أو كسفورد، ودرست القانون في كلية غراي إن قبل أن
أستلم أعمال والدي. لم أتلق تعليماً دينياً ولكنني أنوي القيام به الآن».

«جيد». وبدأ سلوك أوموند البارد بالذوبان.

«إن المهنة التي تنتظر طلابنا في نهاية تدريبهم هي المخاطرة بحياتهم»،
قال آلان. «أنت تعرف هذا؟ إن أمسك بك فستُعدم. أرجو ألا تنضم إلينا إن
لم تكن مستعداً لملاقاة هذا المصير».

فكر رولو بجواب على ما قاله آلان: «سيكون من الغباء أن أتعامل بخفة

مع هذا الأمر». شعر بالرضا عندما رأى آلان يومئ برأسه موافقاً ثم تابع: «لكن وبمساعدة الرب، أعتقد أن بوسعي المخاطرة».

تحدّث أوموند مجدداً: «ما هو موقفك من البروتستانتين؟ أعني على الصعيد الشخصي».

«شخصياً؟» أخذ رولو يفكر بجواب حكيم، ولكن عواطفه تمكنت منه وأحكم قبضتيه في غضب ثم قال: «أكرههم». كان متأثراً جداً وفشل في العثور على كلمات ليقولها: «أريد أن أمحوهم عن وجه الأرض وأدمرهم وأقتلهم جميعاً. هذا هو شعوري».

كان هناك خيال ابتسامة على وجه أوموند الذي قال: «في هذه الحالة أعتقد أن لدينا مكاناً لك بيننا».

أدرك رولو أنه أجاب بالجواب المطلوب. «حسناً»، قال آلان بحذر أكبر. «أرجو أن تبقى معنا لبضعة أيام على الأقل حتى نوطد معرفتنا بك، ومن ثم نستطيع التحدث أكثر عن مستقبلك».

«إنه بحاجة إلى اسم مستعار»، قال أوموند.

«بهذه السرعة؟» سأل آلان.

«كلما كان عدد الناس الذين يعرفون اسمه الحقيقي قليلاً كان هذا أفضل».

«أعتقد أنك على حق».

«فلنطلق عليه اسم جان لانغليه».

«حسناً، وهذا يعني جون الإنكليزي بالفرنسية». نظر آلان إلى رولو وقال له: «أصبح اسمك الآن جان لانغليه».

«ولكن لماذا؟».

أجابه أوموند قائلاً: «ستعرف هذا في الوقت المناسب».

في ذلك الصيف عاشت إنكلترا حالة هلع من التعرض لغزو. رأى الناس في المرسوم البابوي تحريضاً للبلدان الكاثوليكية على غزو إنكلترا، وتوقعوا في أي وقت وصول السفن الشراعية محملة بالجنود المدرعين حتى أسنانهم والتواقين إلى الحرق والسرقة والاعتصاب. انخرط البناؤون على طول الساحل الجنوبي في إصلاح جدران القلاع المتهاكمة. ونُظِّفت

فوهات المدافع الشاطئية وتمّ تزيتها وتجربتها. انضم صبية مزارعون أشداء إلى الميليشيا المحلية، وتدربوا على رمي السهام خلال فترات ما بعد الظهر من أيام الأحاد المشمسة.

ولكن كونتيسة شايرنغ كانت في حالة حماسية مختلفة. ففي طريقها للقاء نيد تخيلت مارجوري الأشياء التي سيفعلانها معاً، وتخيلت الرطوبة المتوقعة التي ستشعر بها في داخلها لاحقاً. كانت قد سمعت في إحدى المرّات أنّ المحظيات الفرنسيات يغسلن أعضاءهن كل يوم، ويقمن بتعطيها في حال أراد الرجال تقييلهن هناك، ولكن نيد يقوم بهذا طوال الوقت، ولهذا كانت تغتسل الآن كمحظية. كانت تعرف وهي تقوم بهذا بأنها ترتكب خطيئة قاتلة مجدداً، وأنّ عقابها سيحلّ في يوم من الأيام، وجلبت لها هذه الأفكار أوجاعاً في الرأس، ولهذا حاولت ألا تفكر بها.

توجهت إلى كينغزبريدج ونزلت في منزل بارت على جزيرة ليدر. كانت حجتها مقابلة غيوم فونرون الذي كان لاجئاً بروتستانياً من فرنسا ويصنع أفضل قماش قطني في جنوب إنكلترا. كانت تشتري مارجوري منه القمصان لبارت والقمصان التحتانية وثياب النوم لها.

في صباح اليوم التالي غادرت مارجوري المنزل وتوجهت لمقابلة نيد في منزل صديقتها سوزانا التي باتت تدعى الآن الليدي توافرد. ما تزال سوزانا تملك منزلاً ورثته عن والدها في كينغزبريدج، وكانت تبيت هناك عندما يكون زوجها مسافراً. كان نيد قد اقترح منزل سوزانا لأنهما كانا يثقان بتكتم سوزانا على سرهما.

اعتادت مارجوري على فكرة أنّ سوزانا عشيقة سابقة لنيد. وكانت سوزانا قد شعرت بالخجل عندما كشفت لها مارجوري أنّها تعرف بالحقيقة. «أنت تملكين قلبه»، قالت سوزانا. «أنا كنت أملك جسده، ولحسن الحظ كان هذا كل ما أردته».

كانت مارجوري تعيش حالة شغفٍ لا تصدق، وبالكاد كانت قادرة على التفكير بأي شيءٍ آخر.

استقبلتها سوزانا في غرفة الجلوس، ومن ثمّ قبلتها على شفيتها وقالت لها: «هيا اصعدي أيتها الفتاة المحظوظة».

هناك درج من غرفة الجلوس وحتى مخدع سوزانا حيث كان نيد ينتظر مارجوري.

أقلت مارجوري بذارعها عليه، وقبلته بشغف وكأنها كانت تتصور عشقاً، ثم أفلتت نيد وقالت له: «إلى السرير».

توجهنا إلى غرفة نوم سوزانا وخلعنا ثيابهما. كان جسد نيد نحيلاً وبشرته بيضاء وشعر صدره كثيفاً أسود. وكم أحببت مارجوري النظر إليه.

لكن هناك خطب ما لأن عضو نيد لم يكن منتصباً. يحدث كثيراً مع بارت عندما يكون ثملاً، ولكنها المرة الأولى التي تحدث مع نيد. ركعت مارجوري أمامه وأخذت تمصّ عضوه وفق الطريقة التي علمها إياها بارت. كان الأمر ينجح معه أحياناً، ولكنها لم تجد نفعاً مع نيد اليوم. وقفت مارجوري ووضعت يديها على وجهه، ونظرت إلى عينيه العسليتين الفاتحتين. رأت فيهما خجله وقالت له: «ما الأمر يا عزيزي؟».

«هناك شيء يشغل تفكيري».

«ما هو؟».

«ما الذي سنقوم به؟ ما هو مستقبلنا؟».

«لماذا تفكر بالأمر؟ فلنحب بعضنا بعضاً فقط».

هزّ رأسه وقال: «يجب أن أتخذ قراراً». وضع يده في جيب معطفه الذي كان قد رماه جانباً، وأخرج رسالة.

«رسالة من الملكة؟» سألته مارجوري.

«من السير ويليام سيسيل».

شعرت مارجوري وكأنّ ريحاً شتوية مفاجئة عصفت بهذا الصيف وسألته: «هل الأخبار سيئة؟».

رمى نيد الرسالة على السرير وأجابها: «لا أعلم إن كانت أخباراً جيدة أم سيئة».

حدقت مارجوري إلى الرسالة التي استقرت على اللحاف كعصفور ميت، وقد بدت أطرافها المطوية كأجنحة متيبسة والختم الشمعي الأحمر كبصقة مدماة، وانتابها شعور بأنّ الرسالة ستقرر مصيرها. «أخبرني ما الذي جاء فيها؟» سألته بصوتٍ خفيض.

جلس نيد على السّرير وقاطع ساقيه: «إنّ للأمر علاقة بفرنسا. يبدو أن البروتستانتين هناك ومن يُطلق عليهم اسم الهوغونيين، يفوزون بالحرب الأهلية بفضل قرصٍ كبير قدمته الملكة إليزابيث».

كانت مارجوري تعلم بهذا وشعرت بالهلع من النجاح الشديد لهؤلاء المهرطقين، إلا أن نيد كان مسروراً. حاولت مارجوري ألا تفكر في الأمر أو بأي شيء آخر قد يفرقهما.

تابع نيد كلامه: «ولذلك، وبما يدعو للسعادة حقاً، فإن الملك الفرنسي سيجري محادثات سلام مع القائد البروتستاني غاسبار دي كوليني».

كانت مارجوري سعيدة بهذا ويمكنها مشاركة نيد السعادة بهذا الخبر. فكلاهما كان يريد أن يتوقف المسيحيون عن قتل بعضهم بعضاً، ولكن كيف يمكن لهذا أن يجلب النهاية لجهما؟

«قررت الملكة إليزابيث إرسال زميل لنا كوسيط إلى المؤتمر. ويدعى هذا الشخص السير فرانسيس ويلزنهايم».

لم تفهم مارجوري ما قصده وسألته: «هل يحتاج الفرنسيون إلى رجل إنكليزي في محادثات السلام الخاصة بهم؟».

«لا، هذا مجرد عذر». تردد نيد ثمّ تابع: «لا يقول سيسيل الكثير في الرسالة، ولكن يسعني التكهن بالحقيقة. سيسعدني أن أخبرك بما أفكر به، ولكن لا يجب أن تبوح بهذا لأحد».

«حسناً»، قالت مارجوري ببرود فقد كان هذا الحديث يؤخر اللحظة غير المرجوة التي ستعلم فيها مصيرها.

«إن ويلزنهايم جاسوس، وتريد الملكة أن تعلم نوايا الملك الفرنسي تجاه الملكة الإسكتلندية ماري. إن تمكن الكاثوليكيون والهوغونيون من إحلال السلام، فقد يحول الملك الفرنسي اهتمامه إلى إسكتلندا أو حتى إنكلترا. تريد إليزابيث أن تكون على إطلاع دائم بالمؤامرات التي تحاك ضدها».

«إذاً، سترسل الملكة جاسوساً إلى فرنسا».

«عندما تفكرين بالأمر على هذا النحو فإنه لا يعود سراً».

«ولكنني لن أبوح به. بحق الرّب أخبرني عن علاقة هذا بي وبك».

«يحتاج ويلزنهام إلى مساعد يتحدث الفرنسية بطلاقة، ويريدني سيسيل أن أرافقه. أعتقد أنّ سيسيل متزعج بسبب غيابي الدائم عن لندن».

«إذاً ستغادر»، قالت مارجوري بيؤس. إذاً هذا ما يعنيه رمز الطائر الميت الذي رآته عندما رأت الرسالة.

«لستُ مضطراً للذهاب. يمكننا الاستمرار على حالنا هذا ونحبّ بعضنا بعضاً ونلتقي سرّاً».

هزت مارجوري رأسها في رفضٍ، ولأول مرة منذ أسابيع تشعر بأن صفاء ذهنها عاد إليها، وأصبحت قادرة على التفكير بوضوح.

«إننا نقوم بمخاطرة كبيرة في كل مرة نلتقي فيها، وسيفتضح أمرنا في يوم من الأيام. وعندها سيقتلك بارت وسيُطلقني، ويأخذ مني بارتليت».

«فلنهرب إذاً. سنقول للناس إننا متزوجان، وإننا السيد والسيدة ويفر. يمكننا أخذ سفينة إلى أنتويرب. لدي نسيب هناك يدعى جان ولمان، ويمكنه منحي عملاً».

«ماذا عن بارتليت؟».

«سنأخذها معنا فهو ليس ابن بارت على أيّ حال».

«سنكون متهمين بخطف وريث الإيرل، وهذه جريمة كبيرة عقوبتها الإعدام».

«إن توجهنّا إلى ميناء كومب سنكون في البحر قبل أن يعرف أحد بما فعلناه».

كانت مارجوري تتوق إلى الاقتناع بكلامه. فخلال الأشهر الثلاثة الماضية عرفت السعادة لأول مرة في حياتها منذ كانت في الخامسة عشرة. لقد تملكها شوق كالحمى ليمتلك نيد جسدها. ولكنها تعلم حتى لو لم يكن نيد يعلم، أنّه لن يكون سعيداً بالعمل لدى نسيبه في أنتويرب. فمنذ بلوغ نيد سن الرشد كان منخرطاً في حكومة إنكلترا، وأحبّ هذا أكثر من أيّ شيءٍ آخر. كان يعشق الملكة إليزابيث ويقدر ويليام سيسيل، وتأسره التحديات التي تواجههم. إن أبعده عن هذا كله فستدمره.

وهي أيضاً لديها عمل، فعلى مدار الأسابيع الأخيرة استخدمت مهمتها

السرية كغطاء للقاءاتها مع نيد، إلا أنها كرست نفسها للمهمة التي كلفها بها الرب، وإن تخلت عن هذا فسيكون الأمر خطيئة أسوأ من الزنا.

لقد حان الوقت لوضع نهاية للأمر. ستعترف بخطيئتها وستطلب المغفرة من الرب. وستعيد تكريس نفسها لمهمتها المقدسة وهي إيصال السر المقدس إلى الكاثوليكين الإنكليزيين المحرومين منه. ربما مع مرور الوقت ستشعر بأن الرب غفر لها.

وعندما وصلت إلى قرارها انخرطت في البكاء.

«لا تبكي»، قال لها نيد. «يمكننا أن نجد حلاً».

كانت تعلم أنه لا حل لمشكلتهما لذلك احتضنته وضمته إليها. استلقيا على ظهرهما على السرير وهمست له: «نيد، حبيبي نيد». بللت دموعها وجهه فيما كانا يقبلان بعضهما بعضاً. شعرت بعضوه يتصب وقال له: «لنحاول مرة أخرى».

«لن تكون هذه المرة الأخيرة»، قال لها فيما فوقها، ولكنها أحست بأنها المرة الأخيرة لهما حقاً، إلا أنها عجزت عن الكلام، واستسلمت للحزن والمتعة.

بعد مرور ستة أسابيع اكتشفت مارجوري أنها حامل.

الفصل السابع عشر

آمن السير فرانسيس ويلزنهايم بالقوائم كما آمن بالإنجيل . كان يضع قوائم بمن التقاهم بالأمس ومن سيلتقيهم غداً . كان لديه هو والسير نيد ويلارد قائمة بكل رجل إنكليزي مشير للشبهة وصل إلى باريس .

شغل ويلزنهايم في عام 1572 منصب سفير الملكة إليزابيث في فرنسا، وعمل نيد نائباً له . كان نيد يحترم ويلزنهايم كما يحترم السير ويليام سيسيل إلا أنه لم يشعر نحوه بنفس الإخلاص الشديد الذي يكنه للسير سيسيل . كان نيد مخلصاً ومعجباً بإليزابيث ولكن ويلزنهايم كان يعبدها ويجلها . بالطبع كان الرجلان مختلفين بعضهما عن بعض، ولكن نيد الذي أصبح نائب ويلزنهايم الآن لم يعد تلميذ سيسيل ذلك الشاب المتحمس، فقد كبر الآن .

تولى نيد في البداية مهام سرية لمصلحة إليزابيث، ولكنه بعمله مع ويلزنهايم الآن قد أصبح جزءاً من جهاز الاستخبارات السري المتعاضم والموجه لحماية إليزابيث وحكومتها من أي محاولة عنيفة للإطاحة بها .

يجابه السلام الذي ساد بين الكاثوليكين والبروتستانتين طول العقد الأول من حكم إليزابيث خطراً بسبب المرسوم البابوي، بل كانت هناك مؤامرة خطيرة للإطاحة بها . لقد خطط عميل البابا في إنكلترا الدوق روبرتو ريدولفي لقتل إليزابيث، ووضع ماري ستوارت على العرش، ومن ثم تزويج ماري من دوق نورفولك . كشفت الاستخبارات الإنكليزية عن هذه الخطة، وقُطع رأس الدوق بعد عدة أيام، ولكن لم يصدق أحد أن هذه ستكون آخر المؤامرات .

وكحال جميع مستشاري إليزابيث كان نيد خائفاً من المؤامرات، فالخطر يحيق بكل شيء عمل عليه لأربعة عشر عاماً، وبين ليلة وضحاها قد يتحول

الحلم بالحرية الدينية إلى كابوس محاكم التفتيش والتعذيب، ومجدداً ستفوح في إنكلترا تلك الرائحة المقززة لرجال ونساء يُحرقون أحياء.

هرب بعض الكاثوليكيين الأثرياء من إنكلترا، وتوجه معظمهم إلى فرنسا. كان نيد وويلزنهايم يعتقدان أنّ المؤامرة التالية ضد إليزابيث ستحاك في باريس ولذلك كانت مهمتهم هي معرفة هوية المتآمرين ونواياهم وإفساد خططهم.

تمركزت السفارة الإنكليزية في منزل كبير على «الضفة الغربية» من جنوب النهر في منطقة الجامعة. لم يكن وويلزنهايم رجلاً ثرياً وإنكلترا أيضاً لم تكن بلداً ثرياً، ولهذا لم يكن بالإمكان دفع تكاليف مكان أكثر بذخاً على الضفة الأخرى من النهر حيث تقع قصور الأرستوقراطيين الفرنسيين.

سيتوجه نيد وويلزنهايم اليوم إلى البلاط الملكي في قصر اللوفر. كان نيد يتطلع للذهاب إلى هناك لأن اجتماع أقوى سادة وسيدات فرنسا يعد فرصة ذهبية للحصول على معلومات؛ فرجال البلاط يثرثرون، والبعض منهم يفشي أسراراً من دون قصد. سيتحدث نيد مع الجميع ويتبين النوايا السرية.

كان نيد متوتراً بعض الشيء من وضع سيده. رغم أن وويلزنهايم الذي يبلغ من العمر أربعين عاماً رجل ذكي، ولكنه يفتقر إلى اللباقة في سلوكه. كان لقاؤه الأول مع الملك شارل التاسع مُحرجاً، فقد ارتدى البيورتاني المتشدد وويلزنهايم كعادته ثياباً سوداء، ولكن في بلاط فرنسي مبهرج يعتبر هذا السلوك شكلاً من أشكال التقريع البروتستانتية.

في ذلك الحدث تعرّف نيد على بيير أوموند دي غيز الذي التقاه في سان ديزيه مع ماري ستيوارت منذ أحد عشر عاماً، وقد تذكر نيد أنه أحسّ وقتها بأن أوموند الوسيم والأنيق شخص عنيف.

سأل الملك شارل وويلزنهايم بوضوح شديد إن كان قيام إليزابيث بسجن ملكة فرنسا السابقة وملكة إسكتلندا المخلوعة وزوجة أخيه الراحل ماري ستيوارت ضرورياً حقاً. كان من الأجدر بويلزنهايم الاطلاع على كتاب الأمثال الشعبية ليعرف المثل القائل الجواب اللطيف يُذهب الغيظ لأنه أجاب الملك بسخطٍ وعظي، وهذا أحد مكامن ضعف البيورتانيين، مما حدا بالملك لمعاملته ببرود.

ومنذ ذلك الوقت ونيد يبذل جهداً مضاعفاً ليتصرف بهدوء وود حتى يغطي على تصرفات رئيسه العنيد. وتبنى أسلوباً في ارتداء الملابس يناسب منصبه كدبلوماسي عادي من دون أن يوحي بأيّ معتقدات دينية متشددة. ارتدى اليوم صدّاراً باللون الأزرق الفاتح والمفتوح عند الصدر لتظهر البطانة المصنوعة من جلد الغزال. كانت ثيابه غير مبهرجة تشبه ثياب الباريسيين من العامة، وكان يأمل أن يكون أنيقاً بما يكفي كي لا ينتبه أحد إلى ملابس ويلزنهايم السوداء الشديدة الرزانة.

نظر نيد من نافذة العلية إلى نهر السين وأبراج كاتدرائية نوتردام. بالقرب من مرآته غير المجلوة بورترية شخصي صغير أعطته إياه مارجوري. كانت مارجوري قد رُسمت بطريقة مثالية وببشرة بيضاء جداً ووجنتين ورديتين، وقد تمكن الفنان من إتقان رسم خصلات شعرها الكثيف وتلك الابتسامة العابثة التي أحبّها نيد كثيراً.

كان ما يزال يحبها رغم مضي عامين على اضطرابه تقبل فكرة أنها لن تترك زوجها أبداً. وبسبب انعدام الأمل احترق شغفه ببطء، ولكن النار لم تنطفئ قط وربما لن تنطفئ أبداً.

لم تصله أيّ أخبار من كينغزبريدج، ولا من أخيه بارني الذي من المفترض أنّه ما زال في البحر. كان قد اتفق هو ومارجوري على عدم الكتابة بعضهما لبعض. كان آخر عمل قام به نيد هو إبطال مذكرة اعتقال ستيفن لينكولن التي صدرت بناءً على دليل قدمه دان كوبلي. إن شعرت مارجوري أن واجبها المقدس يقتضي تقديم السلوان للكاثوليكيين المحرومين فلن يسمح نيد لدان كوبلي بمنعها من القيام بهذا.

عدّل نيد ياقته المخرمة أمام المرأة، وابتسم متذكراً المسرحية التي شاهدها البارحة والتي تدعى «الأنداد». كانت مسرحية كوميدية مبتكرة عن أناس عاديين يتحدثون بلغة العوام وليس بلغة شعرية، وبطلاها رجلان يريدان اختطاف نفس الفتاة ولمفاجأتها يكتشفان أنها أختهما. تقع الأحداث في مكان واحد وهو شارع قصير، وخلال مدة زمنية لا تتعدى الأربع والعشرين ساعة. لم يرَ نيد عرضاً بهذا الذكاء قبلاً على مسارح لندن أو باريس.

عندما كاد نيد ينتهي من تجهيز نفسه للمغادرة دخل خادم وقال له

بالفرنسية: «هناك امرأة تقول إنها تبيع الورق والحبر بأرخص سعرٍ في باريس. هل أنت مهتم بمقابلتها؟».

يستخدم نيد كمية كبيرة من الورق والحبر الباهظ الثمن في كتابة وتشفير رسائل ويلزنهايم إلى الملكة إليزابيث و سيسيل. كانت الملكة بخيلة مع جواسيسها كما كانت مع الجميع، ولهذا يبحث نيد على الدوام عن أرخص الأسعار.

«ما الذي يفعله السير فرانسيس الآن؟».

«يقرأ في إنجيله».

«إذاً لدي وقت. فلتدخلها».

بعد مرور برهة من الزمن وقفت أمامه امرأة تبدو في الثلاثين من العمر ونظرت إليه باهتمام. كانت امرأة جذابة أكثر مما هي امرأة جميلة ترتدي ثياباً متواضعة، ولديها نظرة حازمة إلا أن عينيها الزرقاوين أضفتا بعض اللين على تلك النظرة. قدّمت نفسها باسم تيريز سان كوتان، وأخرجت من حقيبتها الجلدية نماذج للورق والحبر، ودعت نيد لتجربتها.

جلس نيد إلى طاولة الكتابة، وبداله أن الورق والحبر جيدان.

«من أين تحصلين على بضاعتك؟» سألها.

«الورق مصنوع في ضاحية سان مارسيل خارج باريس»، قالت له. «لدي أيضاً ورق إيطالي جميل من فابرينو في إيطاليا من أجل رسائل الحب».

كانت العبارة الأخيرة توحى بشيء من التودد إلا أنها لم تبدُ لعوباً جداً، وتكهن أنّ ما قالته جزء من عملها لزيادة المبيعات: «والحبر؟».

«أصنعه بنفسى، ولهذا السبب هو رخيص جداً إلا أنه جيد».

قارن بين أسعارها والأسعار التي يدفعها عادة واكتشف أنّ أسعارها أرخص. لهذا أوصى بطليبة.

«سأحضر لك كل شيء اليوم»، قالت له ومن ثمّ أخفضت صوتها: «هل تريد الإنجيل باللغة الفرنسية؟».

ذُهل نيد وتساءل في نفسه إن كانت هذه الشابة ذات المظهر الوقور متورطة في منشورات غير قانونية: «ولكن هذا مخالف للقوانين».

أجابت بهدوء: «ولكن وفقاً لمعاهدة صلح سان جيرمين لم تعد مخالفة القانون تجلب عقوبة الإعدام».

كانت تتحدث عن اتفاق مؤتمر السلام في سان جيرمين الذي حضره نيد وويلزنهام، ولهذا كان نيد على علم تام بتفاصيله. منحت المعاهدة الهوغونيين حرية محدودة للعبادة. بالنسبة إلى نيد فإن البلد الكاثوليكي الذي يُعامل البروتستانتين بتسامح كالبلد البروتستانتي الذي يُعامل الكاثوليكين بتسامح، فما يهم في النهاية هو حرية العبادة. ولكن بالرغم من هذا كانت الحرية هشة، فقد أبرمت فرنسا قبلاً معاهدات سلمية إلا أنها لم تدم طويلاً. كان الوعاظ التحريضيون المشهورون في باريس يشجبون كل محاولة للمصالحة، ولكن ما سيضمن تنفيذ هذه المعاهدة الآن هو زواج أخت الملك الأميرة المشاعبة مارغو بملك نافار البروتستانتي المتساهل هنري بوربون، ولكن ها قد مرّ ثمانية عشر شهراً على خطوبتهما ولم يُقم حفل الزواج بعد.

«قد تنقض المعاهدة في أي وقت وبالتالي قد تقع غارة مفاجئة على أمثالكم».

«لن يكون الأمر مفاجئاً على الأغلب».

كان نيد على وشك سؤالها عن السبب، ولكنها لم تعطه الفرصة وتابعت كلامها: «أعتقد أنني أثق بك. أنت مبعوث إليزابيث، ولهذا لا بدّ أنك بروتستانتي، صحيح؟».

«لماذا تسألين؟» قال نيد بحذر.

«إن كنت تريد إنجياً بالفرنسية فيمكنني أن أحضر لك واحداً».

دُهِش نيد من جرأتها، وللمصادفة كان يريد إنجياً بالفرنسية فقد كان يتحدث الفرنسية بشكل جيد وكأنه فرنسي أصلي، ولكنه أحياناً وخلال المحادثات لا يفهم الاقتباسات الإنجيلية والعبارات الضمنية التي يستخدمها البروتستانتون طوال الوقت، ولهذا كان يعتقد أنّ من الأفضل له أن يقرأ الفصول المعروفة بالفرنسية حتى يعرف ترجمتها.

«كم يبلغ سعره؟» سألتها.

«لدي إصداران، وكلاهما مطبوعان في جنيف. هناك نسخة عادية وسعرها ليرتان، وهذه صفقة جيدة. ولدي نسخة أخرى مُجلّدة بطريقة جميلة بلونين من الحبر مع رسومات وهي بسبع ليرات. يمكنني أن أحضرهما لتراهما».

«حسناً».

«أرى أنك على وشك المغادرة، إلى اللوفر كما أعتقد، في هذا المعطف الجميل».

«أجل».

«هل ستعود على العشاء؟».

«أجل، على الأغلب». وشعر نيد بالإرباك لأنها استلمت دفعة الحديث فيما لم يقدّم هو بشيء سوى إبداء الموافقة على افتراضاتها. كانت قوية إلا أنها صريحة جداً وجذابة إلى درجة لم يكن بوسعها أن يشعر بالإهانة من كلامها.

«سأحضر لك قرطاسيتك والإنجيلين لتختار النسخة التي تفضلها».

لم يكن نيد قد أظهر التزاماً حقيقياً بشراء أحد الأناجيل، ولكنه لم يُبد أي تعليق ثم قال: «أتطلع لرؤيتهما».

«سأعود بعد ظهر هذا اليوم».

كان هدوؤها مثيراً للإعجاب وعلّق نيد: «أنت شجاعة جداً».

«الرّب يمدني بالقوة».

فكر نيد بأن كلامها صحيح من دون أدنى مجال للشك، ولكن لا بد أنّها كانت تملك الكثير من المال لتبدأ بعملها.

«أخبريني بشيء»، قال نيد وقد أخذ زمام الحديث في النهاية، «كيف أصبحت بائعة كتب ممنوعة؟».

«كان والدي يملك مطبعة، وقد أحرق بتهمة الهرطقة في عام 1559، وصدورت جميع ممتلكاته ولهذا أصبحنا أنا وأمّي فقيرتين، ولا نملك شيئاً سوى بضعة أناجيل كان والدي قد طبعها».

«إذاً، أنت تقومين بهذا منذ ثلاثة عشر عاماً».

«تقريباً».

أثارت شجاعتها ذهول نيد إلى درجة خطفت معها أنفاسه: «وخلال هذه الفترة كان يُمكن أن تواجهي عقوبة الإعدام كوالدك».

«أجل».

«ولكن كان باستطاعتكما العيش على بيع الورق والحبر فقط».

«بالطبع، ولكننا نعتقد أنه من حق الناس قراءة كلام الرّب بأنفسهم،

ليقرروا ما هي تعاليم الإنجيل الحقيقية».

كان نيد يؤمن بهذا أيضاً وقال لها: «أنتِ تخاطرين بحياتك من أجل هذا المبدأ». ولم يقل لها إنها لو تعرضت للاعتقال فستعرض إلى التعذيب قبل الإعدام.

«أجل»، قالت له.

حدّق بها نيد في إعجاب، ونظرت إليه بجرأة لبرهة ثم قالت له: «حتى موعدنا بعد ظهر اليوم».

«وداعاً».

عندما غادرت توجه نيد إلى النافذة المطلة على سوق موبير المزدهم حيث تباع الخضار والفواكه. لم تبدُ خائفة حتى من غارة على البروتستانتين، لقد قالت له إن الأمر لن يكون مفاجئاً، وتساءل عن طرقها في التكهن بنوايا الكاثوليكين المتشددين.

بعد مرور عدة دقائق ظهرت من الباب الأمامي في الأسفل، وابتعدت بجسدها الصغير الممشوق وبخطواتها السريعة والثابتة وكأنها مستعدة للموت من أجل إيمانها بالتسامح الديني الذي يؤمن به نيد أيضاً. وفكر نيد بأنها امرأة عظيمة وبطلة.

وأخذ يراقبها وهي تتبعد عن ناظره.

كان بيير أوموند يهذب لحيته الشقراء استعداداً للذهاب إلى قصر اللوفر. لطالما هذب لحيته بشكل مدبب حتى يبدو كسيده الصغير وقريبه البعيد الدوق هنري غيز الذي يبلغ الآن واحداً وعشرين عاماً.

نظر بإمعانٍ إلى وجهه. كان قد أصيب بجفاف في بشرته، وسبب له هذا بقعاً حمراء متقشرة في زوايا عينيه وفمه وعلى جلد رأسه، وظهرت هذه البقع أيضاً في باطن ركبتيه ومرفقيه وكانت تحكه بشكل جنوني. شخص طبيب عائلة غيز الأمر على أنه حساسية ووصف له مرهماً ولكن المرهم جعل الأعراض أسوأ.

دخل ابن زوجته آلان البالغ اثني عشر عاماً الآن إلى الغرفة. كان الفتى قدراً له بنية ضئيلة وخجولاً يشبه الفتيات. كان بيير قد أرسله إلى متجر

الألبان عند الزاوية ليجلب الحليب والجبنه وها هو الآن قد عاد يحمل إبيرقاً وكأساً.

«أين الجبنه؟» سأله بيير.

تردد الفتى ثم أجاب: «ليس لديهم جبن اليوم».

نظر بيير إلى وجه الفتى وقال: «أنت كاذب. لقد نسيت جلب الجبن».

بدا الآن مرتعباً وقال: «لا، صدقني لم أنس!» وبدأ يبكي.

دخلت الخادمة الهزيلة نات وقالت: «ما الأمر يا آلان؟».

«لقد كذب علي وهو الآن خائف من التعرض للجلد. ما الذي تريدينه؟»

قال لها بيير.

«هناك كاهن يدعى جان لانغليه يريد رؤيتك».

كان هذا الاسم المستعار الذي أعطاه بيير إلى رولو فيتزجيرالد أحد

المنفيين الذين يدرسون في الكلية الإنكليزية ومن ينتظره مستقبل زاهر.

«أرسله إلى هنا. خُذي معك هذا الفتى المتباكي ولتحضري بعض

الجبن من أجل الفطور».

منذ لقائهما الأول في الكلية الإنكليزية التقى بيير ورولو مرتين، وفي كل

مرة كان رولو يذهله. كان الرجل ذكياً وملتزماً وفي عينيه ذلك النور المتقدم

لرجل كرس نفسه لمهمة محددة. كان يكره البروتستانتين بشدة، ويعود

السبب من دون أدنى شك إلى الدمار المادي الذي تعرضت له عائلته على

أيدي البيورتانيتين في مسقط رأسه كينغزبريدج. بنى بيير آمالاً كبيرة على رولو.

ظهر رولو بعد قليل في رداء كهنوتي يصل إلى الأرض و صليب خشبي

في سلسلة على صدره.

تصافحا، وأغلق بيير الباب.

«هل تلك السيدة الشابة زوجتك؟» سأل رولو.

«بالتأكيد لا»، أجاب بيير. «كانت السيدة أوموند دي غيز وصيفة فيرونك

دي غيز». لم يكن هذا صحيحاً فأوديت كانت مجرد خادمة ولم تكن يوماً

وصيفة، ولكن لم يرغب بيير في أن يعرف الناس هذا.

«إنها ليست في المنزل». كانت أوديت قد توجهت إلى سوق السمك.

«إن المرأة التي سمحت لك بالدخول هي خادمتنا».

«أرجو المعذرة على هذا الخطأ»، قال رولو محرراً.

«لا تعتذر أبداً، وأهلاً بك في منزلي المتواضع. أقضي الكثير من وقتي في قصر عائلة غيز في شارع فييل دو تامبل، ولكن إن تقابلنا هناك سيرانا عشرون شخصاً على الأقل. لهذا المكان ميزة عظيمة واحدة وهي أنه غير مهم ولن يكلف أحد نفسه عناء التجسس عليه». كان بيير في الحقيقة يتوق للانتقال من هذه الزريبة، ولكنه لم يُفلح بعد في إقناع الدوق الشاب بإعطائه غرفة في القصر. أصبح بيير الآن رئيس مستشاري عائلة غيز، إلا أنهم وكالعادة كانوا بطيئين في منح بيير المكانة التي يستحقها بعمله معهم.

«كيف هي الأمور في دوي؟».

«إن الأمور ممتازة. منذ طرد البابا لإليزابيث من الكنيسة انضم إلينا خمسة عشر شاباً إنكليزياً كاثوليكياً. في الحقيقة أرسلني وليم آلان إلى هنا لكي أطلعك على سير الأمور وأخبرك بأننا أصبحنا جاهزين تقريباً لإرسال مجموعة منهم إلى إنكلترا».

«وكيف سيتم تنظيمهم؟».

«طلب مني الأب آلان تسلم زمام العملية».

فكر بيير بأن هذا القرار قرار جيد. من الواضح أن رولو يملك مقدرات تؤهله ليكون أكثر من مجرد كاهن.

«ما هي خطتك؟».

«سنرسو بهم عند الغسق على شاطئ ناء، وسيسافرون طوال الليل ليصلوا إلى قلعة أختي فهي كونتيسة شايرنغ وتنظم مراسم كاثوليكية سرية لسنوات ولديها شبكة من الكهنة المتخفين، ومن هناك سينتثرون في جميع أرجاء إنكلترا».

«هل يمكننا الاعتماد على أختك؟».

«بالطبع ولكن فقط في الأمور التي لا تقود إلى سفك دماء. يؤسفني أن هذا هو الحد الذي وضعت، وهي لا تفهم أن العنف من أجل خدمة الكنيسة ضروري أحياناً».

«إنها امرأة». كان بيير مسروراً لأن رولو يفهم تماماً الحاجة إلى العنف.

«وفي باريس؟» سأل رولو. «نحن في دوي قلقون من الأخبار التي تصلنا

من هنا».

«لا يمكننا أن ننكر أن معاهدة صلح سان جيرمين هزيمة كبيرة لنا. من الواضح أن سياسة البابا هي حرمان جميع البروتستانتين كنسياً، ولكن الملك شارل التاسع رفض هذا لمصلحة التعايش السلمي».

هز رولو رأسه: «لقد أجبر الملك على القيام بهذا والسبب يعود بدرجة ما إلى الهزيمة العسكرية».

«أجل، من سوء الحظ أن غاسبار دي كوليني أثبت نفسه كجنرال منضبط وموهوب لجيوش الهوغونيين. علاوة على هذا تضغط الملكة الأم كاترينا على الملك من أجل التسامح الديني مع المهرطقين الحقراء».

يشعر بيير أحياناً كأن كل شيء يقف ضده: «كانت هناك مراسيم تسامح ديني سابقة إلا أنها لم تدم طويلاً»، أضاف بيير بتفاؤل.

«هل ستزوج الأميرة مارغو من هنري بوربون؟».

طرح رولو على بيير الأسئلة الصحيحة. كان هنري ابن الراحل أنطوان بوربون، ولأنه ملك نافار فهو يعدّ العضو الأهم في تحالف عائلتي بوربون-مونتورانسي الذي يدافع عن التسامح الديني. إن تزوج هنري من عائلة فالوا الملكيّة فقد يتمكن من الحفاظ على معاهدة صلح سان جيرمين. إن تحالفت عائلة بوربون مع عائلتي مونتورانسي وفالوا سيكون هذا كافياً لسحق عائلة غيز.

«لقد قمنا بكل شيء لتأخير الزفاف»، قال بيير. «إلا أن كوليني يربض في الخفاء كتهديد دائم».

«من المؤسف أن ما من أحد يستطيع طعنه في قلبه».

«صدّقني يريد الكثير من الناس فعل هذا»، قال بيير الذي كان واحداً من هؤلاء الناس. «ولكن كوليني ليس غيباً، وهو لا يقدم هذه الفرصة أبداً ولذلك نادراً ما يزور باريس». سمع بيير صوت أجراس كنيسة سان إيتيان وهذا يعني أن الساعة الآن العاشرة. «يجب أن أذهب إلى البلاط»، قال بيير لرولو. «أين ستبيت؟».

نظر رولو حوله وبدا واضحاً أنه توقع المبيت في منزل بيير، ولكنه أدرك الآن أن المنزل صغير جداً وأجابه: «لا أعلم».

«يُرحب الكونت بيلو بالكاثوليكيين الإنكليز على الدوام. قد تلتقي في منزله بأناسٍ مفيدين لك. ولكن احذر من البروتستانتيين الإنكليز أيضاً».

«هل أعدادهم كبيرة في باريس».

هناك البعض منهم وهم متركزون بشكلٍ أساسي في السفارة. إن السفير الإنكليزي السير فرانسيس ويلزنهايم رجلٌ فطٌ جداً، ولكنه يقظٌ كصقر».

«بالإضافة إلى كونه بيورتاني مجدّف».

«أنا أراقبه، ولكن نائبه أكثر خطورة منه لأنّه فاتنٌ وذكي في آنٍ معاً. وهو يدعى السير نيد ويلارد».

«حقاً؟ هل أصبح نيد نائب السفير؟» تساءل رولو.

«هل تعرفه؟».

«إنّه من مدينة كينغزبريدج. لم أدرك حقاً أنّه مهمٌّ إلى هذه الدرجة».

«أجل إنّه كذلك». واسترجع بيير في ذهنه صورة الشاب الذي ادعى أنّه بروتستانتِي إسكتلندي في سان ديزيه. قرأ بيير لاحقاً في رسالة مُهربة من أليسون ماكي كيف أن ويلارد توجه إلى قلعة كارلايل ليُخبر ماري ستيوارت بأنّها سجينّة الملكة إليزابيث. وها هو الرجل قد أتى إلى باريس الآن.

«لا يمكننا الاستهانة بنيد ويلارد».

«كنت أضربه أيام المدرسة».

«هل فعلت هذا حقاً؟».

«أتمنى لو أنني ضربته حتى الموت».

وقف بيير وقال: «يعيش الكونت بيلو في شارع سان دونيه. سأدلك على الاتجاه الصحيح». قاد بيير رولو عبر الدرج إلى الشارع خارجاً وقال له: «تعال لرؤيتي مجدداً قبل أن تغادر باريس. قد اضطر إلى إرسال رسائل إلى ويليام آلان». وأرشد بيير رولو إلى قصر بيلو ثم تصافح الرجلان.

ابتعد رولو وشد انتباه بيير ظهر امرأة تتحرك في نفس الاتجاه الذي أخذه رولو. بدت مألوفة، ولكنها انعطفت عند الزاوية وغابت عن نظريه قبل أن يتذكرها.

لم تكن المرأة في ثياب باذخة، ولهذا لا يمكن أن تكون شخصاً مهماً ثم عاد إلى الداخل ونسي أمرها. وجد بيير آلان في المطبخ، وتحدث إليه

بلهجة لطيفة أكثر من المعتاد: «آلان لدي شيء لأخبرك به. لقد وقع حادث، فقد ركل حصان والدتك وقد توفيت للأسف».

حدّق آلان نحوه بعينين متسعيتين لوقتٍ طويل، ثمّ تغضن وجهه في ألم وبدأ ينوح: «أمي! أمي! أمي!».

«لا فائدة من مناداتها»، قال بيير وقد استعاد نبرة صوته الجلفة التي يتحدث بها مع الصبي. «لا يمكنها أن تسمعك. لقد ماتت. لقد توفيت ولن نراها مجدداً».

أخذ آلان يصرخ في حزن. كانت الخدعة التي قام بها بيير فعالة جداً إلى درجة أنّه كاد يندم على القيام بها.

بعد مرور دقيقة دخلت أوديت مسرعة ويدها سلة السمك وصرخت: «ما الأمر يا آلان؟».

فتح الولد عينيه عندما رأى أمه، واحتضنها بذراعيه ثم قال وهو ينوح: «لقد قال لي إنك توفيت».

«أيها الخنزير القاسي»، قالت أوديت لبيير. «لماذا فعلت هذا؟».

«لأعلم الصبي درساً»، قال بيير وهو يشعر بالرضا عن نفسه. «لقد كذب عليّ ولهذا كذبت عليه. وهو لن يكذب عليّ بسهولة مجدداً».

يعد قصر اللوفر حصناً قروسطياً ذا أبراج جانبية وقباب مخروطية. عبر ويلزنهايم ونيد جسراً متحركاً فوق خندق مائي. كان نيد بكامل يقظته وحماسه ويتوق إلى زيارة البلاط الذي يُعد من أقوى البلاطات؛ ففي هذا القصر رجال يقودون جيوشاً ويُشعلون حروباً، ورجالٌ يرفعون أصدقاءهم إلى مراتب عالية ويدمرون أعداءهم، رجالٌ يقررون من يموت ومن يعيش. وها هو نيد في طريقه للتحدث معهم.

قام الملك الراحل هنري الثاني بإزالة الجدار الغربي للساحة وبني بدلاً منه قصرًا عصرياً على النمط الإيطالي بأعمدة ذات تيجان ونوافذ طويلة جداً وتمائيل خليعة. وفكر نيد أنّه لا نظير لهذا القصر في لندن. قام ابن هنري شارل التاسع بالتوسع في القصر الجديد وقد أخذ الآن شكل حرف (L).

يجتمع البلاط عادة في سلسلة من الغرف المتصلة بعضها ببعض والمحددة بترابية معينة، فيما يبقى سائسو الخيل والخدمات والحُرَّاس الشخصيون في الفناء بغض النظر عن حالة الطقس. دخل نيد وويلزنهام من الباب الرئيسي إلى قاعة الحفلات التي تشغل الطابق الأرضي الكامل في الجناح الغربي. في هذه الغرفة يلتقي الأشخاص الأعلى مرتبة كالوصيفات. أثناء عبور نيد إلى القسم التالي تفاجأ برؤية امرأة ساحرة تحديق نحوه وقد علا وجهها مزيج غريب من الصدمة والأمل والحيرة.

أمعن نيد النظر إليها. كانت تبدو في مثل عمره، ولها ذلك الجمال التقليدي لسكان البحر المتوسط بشعرها الداكن والغزير والحاجبين اللذين تمت تزجيتهما بعناية وشفقتين شهوانيتين. ارتدت ثوباً بلوناً أسود وأحمر زاهٍ. كانت ثيابها فخمة جداً مقارنة بثياب بقية النساء في الغرفة رغم وجود ثياب باهظة جداً بل وأكثر بذخاً من ثيابها. وفكر نيد أنها تبدو أكثر من مجرد وصيفة.

تحدثت المرأة ولكنه لم تكن فرنسية ولا إنكليزية.

«أنتَ حتماً لست بارني؟»، قالت المرأة.

كان ما قالته يشي بأنها أخطأت بينه وبين أخيه وقد فهم نيد هذا على الفور: «اسم أخي بارني، ولكنه أطول مني وأكثر وسامة».

«لا بد أنك نيد».

وأخيراً ميز نيد لكتتها؛ لقد كانت لكنة إسبانية.

«أنا كذلك أيتها السنيورة»، قال نيد وانحنى لها. «لطالما تحدثت بارني عنك. كان مولعاً بأخيه الصغير».

قاطعتهما ويلزنهام بنفاد صبر وقال: «سأتابع طريقي. لا تتأخر».

«أدعى جيرونيمو رويز».

ذكره الاسم بشيء ما وسألها: «أنت تعرفين بارني في مدينة إشبيلية؟».

«أعرفه؟ كنت أريد الزواج به، ولكنه لم يكن مقدراً لنا».

«وها أنت في باريس الآن».

«أنا نسيبة الكاردينال روميرو، وهو هنا في مهمة دبلوماسية بالنيابة عن

ملك إسبانيا فيليب».

لو كانت مثل هذه المهمة الرسمية حقيقية لكان سمع بها نيد، ولهذا لا بدّ أنها مهمة غير رسمية. وفي رغبة منه بالحصول على المعلومات قال لها: «أفترض أن الملك فيلبي لا يرغب بزواج الأميرة مارغو من هوغوني. ففي لعبة الدبلوماسية العالمية الشبيهة بلعبة الشطرنج دعم ملك إسبانيا الكاثوليكين في فرنسا فيما ساعدت ملكة إنكلترا البروتستانتين».

«لأنني مجرد امرأة فأنا لا أهتم بهذه الأمور».

ابتسم نيد وقال: «تجيبين كدبلوماسية ماهرة».

تابعت تظاهرها بأنها لا تهتم بهذه الأمور وقالت: «إن دوري هو التصرف كمضيفة على طاولة عمي، فالكاردينال لا يملك زوجة كما تعرف». وألقت نظرة مستفزة ثم تابعت: «على عكس الكهنة الإنكليز الذين يُسمح لهم بالقيام بما يريدونه».

اكتشف نيد أنها كانت مغوية فسألها: «لمّ لم تتزوجي أخي؟».

علت وجهها نظرة قاسية وقالت: «توفي والدي أثناء تحقيق محكمة التفتيش، وخسرت عائلتي كل شيء. ودعاني رومير ورئيس الشمامسة آنذاك إلى منزله. لقد أنقذني ولذلك لم أستطع الزواج من بارني».

لقد فهم نيد الأمر الآن؛ لم تكن نسيبة روميرو بل عشيقته. لقد استغلها رجل الدين عندما كان العالم ينهار أمام عينيها. حدّق نيد في عينيها ورأى ألباً عميقاً فيهما.

«لقد عوملتِ بقسوة»، قال لها.

«أنا صاحبة قراراتي».

تساءل نيد إن كانت تجربتها جعلتها تنقلب على الكنيسة الكاثوليكية، وإن كانت هذه الحالة فهل سترغب بالانتقام من خلال دعم القضية البروتستانتية. إلا أن نيد تردد في سؤالها هذا السؤال صراحة.

«أرغب بالتحدث معك مجدداً»، قال لها. حدّقت نحوه وكأنها تقيمه، وانتابه ذلك الشعور المخيف بأنها عرفت ما يدور في ذهنه.

«حسناً»، قالت له.

انحنى لها نيد وتركها، ثم مرّ من تحت شرفة الموسيقين القائمة على أربعة تماثيل أنثوية وصعد الدرج. فكر نيد بأن جيرونيما امرأة جميلة

ومن النوع الذي يفضله بارني. تساءل عن ذوقه الشخصي وسأل نفسه فكان الجواب مارجوري ومن دون أدنى شك.

تجاوز نيد غرفة فرقة الحرس السويسريين المأجورين، والذين كانوا فرقة الحماية الشخصية للملك. ومن ثمّ دخل إلى غرفة كبيرة ومضاءة تدعى الخزانة. هنا ينتظر الناس أن يُسمح أو لا يُسمح لهم بالدخول إلى غرفة الاستقبال المملّكية، وهم عادة من النبلاء العاديين ومقدمي العرائض.

قال ويلزنهام بغضب: «لقد أطلت البقاء مع تلك العاهرة الإسبانية».

«كان الأمر يستحق الوقوف»، أجابه نيد.

«حقاً؟» قال ويلزنهام مشككاً.

«إنها عشيقة الكاردينال روميرو. أعتقد أنني قادر على تجنيدها كمخبرة».

قال ويلزنهام الذي غيّر نبرة صوته الآن: «هذا جيد، فأنا أرغب بمعرفة ما يخطط له ذلك الكاهن الإسباني القدر». ولمعت عينا ويلزنهام عندما رأى الماركيزة لاني، وكانت امرأة سمينّة ودودة وقد غطت رأسها الأضلع بقبعة مرصعة بالجواهر. كانت الماركيزة بروتستانتية ونسيية غاسبار دي كوليني. كان يُسمح بوجود الأرسطوقراطيين الهوغونيين في البلاط إن حافظوا على سلوك مهذب في حضرة الملك.

«تعالم معي»، قال ويلزنهام لنيد فيما كانا يعبران الغرفة.

حيّاً ويلزنهام الماركيزة بلغة فرنسية طليقة ودقيقة. لقد عاش في المنفى طوال فترة حكم أخت إليزابيث الكاثوليكية الملكة ماري تودر، أو ماري «الدموية»، ولهذا فهو يتحدث عدة لغات بطلاقة.

بدأ يتحدث مع الماركيزة في الموضوع الذي على موضع كل لسان وهو هولندا الإسبانية. كان الدوق ألبا المتنفذ وأحد جنرالات الملك فيليبي قد سحق، ومن دون رحمة، المتمردين البروتستانتين الهولنديين. وخرج جيش بروتستانتني فرنسي بقيادة جان أونغيست أو المدعو باللورد جونليز، لمساعدة المتمردين. أخبرته الماركيزة أن كوليني طلب من أونغيست ضمّ قواته إلى قوات أمير مقاطعة أورانج، وكان أمير أورانج قائد الهولنديين.

«طلب أمير أورانج من الملكة إليزابيث قرضاً بثلاثين ألف جنيه»،

وتابعت الماركيزة: «هل ستمنحه الملكة القرض أيها السير فرانسيس؟».

«ربما»، قال ويلزنهايم، وفكر نيد أن الاحتمال ضعيف لأن إليزابيث لا لا تملك مبلغ ثلاثين ألف جنيه فائض عن الحاجة، وإن كانت تملك مثل هذا المبلغ فستنفقه على أمور أخرى أفضل من هذه.

تشتت انتباه نيد عندما أخذت امرأة في منتصف العمر في ثياب باذخة تتحدث إليه: «أيها السير نيدا يا له من صَدَار جميل».

انحنى نيد أمام الكونتيسة ماريان بيلو التي كانت كاثوليكية إنكليزية متزوجة من نبيل إنكليزي. كانت برقتها ابنتها المرححة والممثلة ذات الثمانية عشر عاماً. تدعى الفتاة أفروديت فقد كان والدها مدرساً لليونانية. كانت الكونتيسة تستلطف نيد وقد شجعتة على التحدث إلى أفروديت. بالطبع لن تسمح الكونتيسة لابنتها بالزواج من بروتستانتية، ولكن ما من شك أنها فكرت بأن نيد قد يرتد إلى الكاثوليكية. أحبّ نيد أفروديت ولكن لم يكن لديه أي اهتمام رومانسي بها. كانت أفروديت فتاة مرححة وخالية البال ولا تملك أيّ اهتمامات حقيقية، ولهذا كان يسأم منها على الفور. ولكن على الرغم من هذا غازل نيد الأم والابنة معاً لأنه يتوق إلى دخول قصر عائلة بيلو في شارع سان دونيه حيث يلجأ الكاثوليكيون الإنكليز المنفيون. علاوة على هذا، كان هناك احتمال بأن تحاك المؤامرة التالية على إليزابيث هناك، إلا أنه لم يتلقَ دعوة إلى المنزل حتى الآن.

كانوا يتحدثون الآن عن السر المنتشر في أرجاء باريس، الذي يتحدث عن علاقة بين الأميرة مارغو والدوق هنري غيز. «إن الدوق هنري ليس الرجل الوحيد الذي «يتودد» إلى الأميرة»، قالت الكونتيسة بصراحة.

صُعبت أفروديت وتحمست لفكرة وجود أميرة لعوب. «أميّ!» قالت أفروديت. «لا يجب أن تكرري مثل هذه الافتراءات. إن مارغو مخطوبة لهنري بوربون».

«ربما اختلط عليها أحد الهنريين»، تتمم نيد. ضحكت الكونتيسة وقالت: «إن الاسم منتشر بكثرة في هذا البلد». ولكن نيد لم يُخبرها بالشائعة الصادمة الأخرى والتي تقول إن مارغو على علاقة محرّمة مع أخيها هيركول فرانسيس والبالغ سبعة عشر عاماً.

تشتت انتباه المرأتين عندما وصل برنار هوسي الذي كان أحد رجال البلاط اللامعين ويعرف تماماً كيف يجعل نفسه مفيداً للملك. حيثه أفروديت بابتسامة كبيرة وفكر نيد بأن هوسي الرجل المناسب لها.

ابتعد نيد ووقعت عيناه على ماركيزة نيم الأرسوقراطية البروتستانتية. كانت لويز دي نيم امرأة شهوانية، وهي في مثل عمر نيد والزوجة الثانية لماركيز أكبر منها بكثير. كان والدها تاجراً ثرياً كوالدين. سارعت لويز على الفور إلى إطلاع نيد على آخر الأحاديث.

«اكتشف الملك علاقة مارغو بهنري دي غيز».

«حقاً؟ وما الذي فعله؟».

«جرّها من غرفتها وضربها».

«يا إلهي. إنها في الثامنة عشرة، أليس هذا صحيحاً؟ إنها كبيرة جداً على

التعرض للضرب».

«يُمكن للملك أن يفعل ما يريد».

«قلت هذا ونظرت من فوق كتفي نيد ثم تغيرت سحتها وغابت ابتسامتها وكأنها رأت جرذاً ميتاً».

«كان التغير الذي أصابها واضحاً جداً مما حدا بنيد إلى الالتفات لمعرفة

سببه ورأى بيير أوموند».

«أفترض أنك لا تحبين السيد أوموند دي غيز»، قال لها.

«إنه خبيث وهو ليس من عائلة غيز في الأصل. أنا وهو من نفس المنطقة،

ولهذا أعرف خلفيته».

«أوه فلتخبريني عنها».

«إن والده أحد لقطاء رجال غيز. أرسلت العائلة الفتى اللقيط إلى

المدرسة وجعلته كاهن الأبرشية في تونوس لي جوانفيل».

«إن كان كاهناً فكيف أنجب بيير؟».

«كانت والدة بيير مدبرة منزل الكاهن».

«إذاً بيير الولد اللقيط لأحد أبناء عائلة غيز».

«وفوق هذا كله زوجته من خادمة حملت من رجل شهواني آخر من

عائلة غيز».

«مذهل». التفت نيد مجدداً وأمعن النظر إلى بيير للحظة. كان بيير في

حلة باذخة مؤلفة من سترة بلون الخزامى مفتوحة عند الصدر لتبرز بطانتها الأرجوانية وأضاف: «لا يبدو أن هذا قد منعه من الصعود».

«إنه رجل مريع. لقد كان وقحاً معي في إحدى المرات، ولهذا تجاهلته وقد كرهني منذ ذلك الوقت».

نظر نيد إليه ورآه يتحدث إلى رجل في حلة غير مناسبة لهذا المكان وقال: «لطالما اعتبرت بيير شريراً بعض الشيء».

«بعض الشيء!».

أوما ويلزنهام لنيد فاضطر إلى ترك لويز، وانضم إليه في طريقه إلى الباب الذي يُفضي إلى الغرفة الأخيرة والأهم: غرفة الملك الخاصة.

راقب بيير ويلزنهام يدخل إلى الغرفة الخاصة مع مساعده نيد ويلارد. شعر بيير بموجة من القرف وكأنه على وشك التقيؤ. إنهما العدوان اللذان يقفان وراء كل شيء يقف في طريق قوة وثروة عائلة غيز. لم يكونا من النبلاء بل أتيا من بلدٍ فقير ومتخلف بل هما مهرطقان أيضاً. رغم هذا كله كان بيير يخاف منهما ويبغضهما.

وقف بيير مع رئيس جواسيسه جورج بيرون وهو لورد مونتاني، القرية الصغيرة في بواتيه. كان بيرون نبيلاً عادياً لا يملك دخلاً، وقيمته الوحيدة هي قدرته على تسلق المجتمع الراقي بسهولة، وقد غدا في عمله مع بيير ماكرأ وعديم الرحمة.

«وضعت ويلزنهام تحت المراقبة لمدة شهر، ولكنه لم يتورط في أي شيء يسعنا استخدامه ضده»، قال بيرون. «ليس لديه عشيقات أو عُشاق، وهو لا يُقامر أو يشرب أو يقوم بأي محاولة لرشوة خدم الملك أو أي أحد آخر. وهو إما بريء أو متكتم جداً».

«أعتقد أنه متكتم».

هز بيرون كتفيه.

حدس بيير أخبره أن هذين البروتستانتين الإنكليزيين يخططان لشيء ما ولهذا قال لبيرون: «فلتراقب النائب بدلاً منه».

«ويليلاردا!» كان لفظ اسم ويلارد صعباً بالفرنسية.

«اتبعوا الإجراءات المعتادة. راقبوه على مدار الساعة، واعرفوا نقاط ضعفه».

«حسناً يا سيدي».

ترك بيير بيرون، ولحق بويلزنهام إلى غرفة الاستقبال.

كان بيير فخوراً لكونه من القلة المحظوظة بالدخول إلى الغرفة. ولكن من جهة أخرى تذكر بحنين مريم تلك الأيام التي عاش فيها مع الإخوة غيز في القصر مع العائلة المملكية. كان بيير قد أقسم على العودة إلى القصر يوماً ما. عبر الغرفة وانحنى للدوق هنري غيز. كان هنري في الثانية عشرة عندما أخبره بيير بأمر اغتيال والده، وأكد له وقتها أن غاسبار دي كوليني هو الرجل الذي يقف وراء الاغتيال. وها هو هنري في الحادية والعشرين من عمره، ولم ينسَ قسمه في الحصول على الانتقام، وقد حرص بيير على أن يحصل هنري على انتقامه.

يشبه الدوق هنري جداً والده الراحل، فقد كان شاباً أشقر طويلاً ووسيماً وعنيفاً. ذهب في عمر الخامسة عشرة إلى هنغاريا لمحاربة الأتراك. كان كل ما ينقصه هو التشويه الذي كان على وجه الدوق فرانسيس والذي منحه لقب الدوق ذي الندبتين. علّموا الدوق هنري أن قدره الدفاع عن الكنيسة الكاثوليكية وعن عائلة غيز، ولم يُبدِ هنري أي شكوك حيال هذا.

كانت علاقة هنري بالأميرة مارغو أكبر دليل على شجاعته على حد قول أحد ظرفاء البلاط، فقد كانت الأميرة مارغو شرسة. وتخيل بيير أنهما سيكونان ثنائياً مضطرباً جداً.

فُتح الباب وعلا صوت بوق، ثم صمت الجميع لدى دخول الملك شارل. ها هي عشرة أعوام قد مرت على وصول شارل إلى العرش وخلال هذا الوقت كان أناس آخرون، وبشكل أساسي أمه الملكة كاترينا، يأخذون القرارات عنه. إن شارل الآن في الحادية والعشرين من عمره ويسعه إلقاء الأوامر إلا أن صحته كانت ضعيفة جداً. يقال إنه يعاني من مرض في صدره، وهو حتى الآن ما زال يُقاد بسهولة من قبل أمه أحياناً ومن قبل آخرين في أحيانٍ أخرى، ولكن لسوء الحظ لم تكن عائلة غيز من بين هؤلاء الآخرين

حتى اللحظة الراهنة.

بدأ الملك أولاً بالرد على المجاملات والتحيات، ومن ثم انتقل إلى الأعمال، وبين الحين والآخر يُصدر كحّة جافة ومزعجة وهو على كرسيه المزخرف والملون فيما جميع من في الغرفة واقفون. شعر ببير أن الملك على وشك القيام بإعلان، وأن الأمر لن يطول حتى يقوم به.

«لقد تمّ الاتفاق على زواج أختنا مارغو وملك نافار هنري دي بوربون في آب/ أغسطس من العام الماضي».

شعر ببير بتوتر هنري دي غيز بجانبه، ولم يكن السبب كونه عشيقاً لمارغو بل لأنّ عائلة بوربون ألد أعداء عائلة غيز، فقد تصارعت العائلتان على السلطة في ظل المملّكية الفرنسية منذ زمن بعيد وقبل ولادة كلا الشابين: هنري دي غيز وهنري بوربون.

«سيرُسخ الزواج التسوية الدينية في مملكتنا»، تابع الملك. هذا ما كانت عائلة غيز تخاف منه. شعر ببير بالأفكار السلمية للملكة كاترينا تخرج مع هذه الكلمات الرسمية التي نطق بها الملك الآن. «ولهذا قررت أن يتم الزفاف في الثامن عشر من شهر آب/ أغسطس القادم».

عمّ ضجيجٌ أرجاء الغرفة فقد كان الإعلان خبراً كبيراً. كان البعض يأملون أو يخافون من ألا يحدث ذلك الزفاف، والآن وبعد تحديد موعد للزفاف، انتصرت عائلة بوربون وتلقت عائلة غيز صفعاً.

استشاط هنري غضباً وقال في قرفٍ: «كيف يمكن لمجدفٍ من عائلة بوربون الزواج من العائلة المملّكية الفرنسية».

أصيب ببير بالاكتاب فأبّى تهديد لعائلة غيز هو تهديد شخصي له ولكل ما ربحه حتى الآن.

«عندما تزوجت قريبتك الإسكتلندية ماري ستوارت من فرانسيس كنا أصحاب السلطة المطلقة»، قال ببير بتجهم لهنري.

«ستصبح عائلة بوربون العائلة الأولى الآن».

كانت حسابات هنري سياسية بشكل أساسي، ولكن كان للغيرة الجنسية من هنري بوربون دور في تغذية غضبه. كانت مارغو عشيقة ممتعة ووحشية،

وها هي عائلة بوربون تحرمه منها أيضاً.

كان بيير الأقدَر بينهما على الهدوء والتفكير بصفاء أكبر، ورأى شيئاً لم يره الشاب هنري.

«ما زال هناك طريقة لمنع الزواج»، قال بيير.

كان هنري كوالده غير صبور تجاه المراوغة: «ما الذي تعنيه بحق الشيطان؟».

«سيكون الزفاف أكبر حدث في تاريخ البروتستانتية الفرنسية، وسيكون انتصاراً للهوغونيين».

«وأين الخبر الجيد في هذا؟».

«سيأتون من شتى أنحاء البلاد إلى باريس. سيأتون بالآلاف لرؤية المسيرة والاحتفال».

«سيكون منظراً مريعاً. يمكنني أن أتخيلهم يختالون في الشوارع بشبابهم السوداء».

«وعندها ستقع المتاعب»، قال بيير في صوتٍ منخفض.

لاح على وجه هنري تعبير يوحي بأنه قد بدأ يفهم ما يرمي إليه بيير: «أعتقد أنّ أعمال عنف قد تقع بين الزوار البروتستانتيين المتتصرين والمواطنين الكاثوليكين الممتعضين في باريس؟».

«أجل»، قال بيير. «وستكون هذه فرصتنا».

في طريقها إلى المستودع توقفت سيلفي في حانة سان إتيان لتناول الغداء الذي كان عبارة عن صحن من سمك الحنكليس المُدخن. طلبت إبريقاً من البيرة الخفيفة ثم أعطت الساقى بخشياً وأخبرته بأن يوصل الإبريق إلى الباب الخلفي من بيت بيير أو موند. كانت هذه هي الإشارة المتفق عليها بينها وبين نات خادمة بيير حتى تأتي إلى الحانة. بعد مرور عدة دقائق ظهرت نات.

كانت نات الآن في منتصف العشرينات وما تزال هزيلة إلا أنها لم تعد تنظر إلى العالم بعينين خائفتين، بل من النساء الشجاعَات في الأبرشية البروتستانتية في تلك الغرفة فوق الإسطل، ولديها مجموعة من الأصدقاء

منحوها ثقة وإن كانت متواضعة، وكانت صداقتها بسيلفي خير عونٍ لها. بدأت سيلفي الحديث فوراً وبجدية: «رأيت بيير أو موند هذا الصباح مع كاهن لم أعرفه. كنت مارة قرب الباب عندما رأيتهما يخرجان». كان هناك شيء ما صعقها بقوة في ذلك الرجل؛ فرغم معالم وجهه العادية - بخط شعره الداكن والمترجع ولحيته البنية الضاربة للحمرة - فإن في تعبيره قساوة جعلتها تنظر إليه كمتعصبٍ خطير.

«أجل. كنت سأخبرك عنه»، قالت نات. «إنه إنكليزي».

«أوه. هذا مثير للاهتمام. هل عرفت اسمه؟».

«جان لانغليه».

«لا يبدو اسمه كاسم إنكليزي».

«لم يزر المنزل من قبل ولكن يبدو أن بيير يعرفه ولهذا لا بدّ أنهما قد التقيا في مكان ما».

«هل عرفت عمّا كانا يتحدثان؟».

هزّت نات رأسها بالنفي وقالت: «لا، فقد أغلق بيير الباب».

«خسارة».

بدأت نات قلقة وسألت سيلفي: «هل رأك بيير عندما مررت بهما؟».

فكرت سيلفي أن نات تملك الحق بالقلق حيال الأمر. فهي لا تريد أن يكتشف بيير أن البروتستانتين يراقبونه من بيته.

«لا أعتقد أنه رأي، ولم نر بعضنا وجهاً لوجه. لا أعتقد أنه سيعرفني من الخلف».

«لا يمكن أن يكون قد نسيك».

«من الصعب أن يكون قد فعل فلقد تزوجني». امتقع وجه سيلفي عندما عادت إليها تلك الذكرى المزعجة.

«ولكن من جهة أخرى فهو لا يذكرك البتة».

«يعتقد أنني لم أعد مهمة، وهذا يناسبني تماماً».

انتهت سيلفي من تناول وجبتها، وغادرت المرأتان الحانة كل واحدة على حدة. توجهت سيلفي شمالاً باتجاه شارع دو مير. تكهنت سيلفي أن نيد ويلارد سيكون مهتماً بزيارة الكاهن الإنكليزي.

استلظفت سيلفي نيد. كثير من الرجال يعتبرون النساء اللواتي يبعن شيئاً هدفاً للتحرش الجنسي أو أسوأ من هذا، وكأن المرأة ستعلق قضيب الرجل مقابل شراء علبة من الحبر، ولكن نيد تحدث معها باهتمام واحترام. كان رجلاً على قدرٍ من القوة والأهمية من دون أن يكون متعجرفاً. في الحقيقة كان تواضعه ساحراً، ولكنها لم تشك في أنه لم يكن متساهلاً فقد رأت بجانب معطفه سيفاً إسبانياً طويلاً، ولم يبدُ كسيفٍ للزينة.

عندما لم ترَ سيلفي أحداً في شارع دو مير أخذت المفتاح من تحت قطعة الحجر المتخلخلة، ودخلت إلى الإسطلب القديم الذي كان بلا نوافذ ومكاناً لتخزين الكتب الممنوعة لسنوات.

كان المخزون قد بدأ يتراجع مجدداً، ولذلك ستطلب من غيوم إرسال الكتب من جنيف. تولى عامل في البنك في روين الذي يملك نسيباً في جنيف المراسلات بين غيوم وبينها. يتلقى العامل المال من سيلفي، ومن ثم يطلب من نسيبه الدفع لغيوم. ولكن ما يزال على سيلفي الإبحار عبر السين إلى روين للقيام بالأعمال، وكان هذا أسهل بكثير من السفر إلى جنيف. كانت تستلم بضاعتها شخصياً وتأخذها إلى باريس. وبمساعدة سمسار البضائع لوك موريس دفعت كل الرشى الضرورية حتى لا تخضع صناديق «القرطاسية» إلى تفتيش الجمارك. كان الأمر خطيراً كأى نشاط إجرامي، ولكنها حتى الآن لم تواجه أية مشاكل.

عثرت على إنجيلين ووضعتهما في حقبيتها الجلدية ثم توجهت إلى المتجر في شارع دو لا سيربونت الذي كان شارعاً ضيقاً في منطقة الجامعة. دخلت من الباب الخلفي للمتجر ونادت على أمها: «هذا أنا يا أمي». «أنا مع زبون الآن».

أخذت سيلفي الورق والحبر اللذين أوصى عليهما نيد، وحزمتها في رزمة ووضعتهما على عربة صغيرة. فكرت بإخبار أمها عن هذه الطلبية الكبيرة التي أوصى عليها رجل إنكليزي ساحر، ولكنها وجدت نفسها مترددة حيال الأمر. شعرت ببعض الحماقة لأن نيد نجح بالتأثير عليها بعد لقائها القصير. كان لإيزابيل شخصية قوية وآراء حازمة، وكان على سيلفي أن تكون جاهزة دائماً للاتفاق معها أو تقديم أسباب الخلاف. لم يكن بينهما أي

أسرار. وفي الليالي كانتا تُخبران بعضهما بعضاً كل شيء حدث معهما خلال اليوم. ولكن بحلول المساء ستلتقي سيلفي نيد مرة أخرى، وقد لا تستلطفه في المرة الثانية.

«لدي توصيلة»، أخبرتها بصوت عالٍ، وغادرت المتجر.

دفعت سيلفي العربة على طول شارع دو لا سيربونت، وتجاوزت كنيسة سان سيفين العظيمة ثم عبرت شارع سان جاك العريض على طول كنيسة سان جوليان لوبوف الصغيرة والكالحة ودخلت سوق موبير المزدهم ومن ثم دخلت إلى السفارة الإنكليزية. كان جرّ العربة على الطرقات المرصوفة عملاً شاقاً إلا أنها اعتادت عليه.

لم يأخذ منها الأمر سوى بضع دقائق لتصل إلى السفارة، ولكن نيد لم يكن قد عاد بعد. أفرغت حمولة القرطاسية من العربة، وساعدها أحد الخدم على حملها إلى الطابق العلوي.

انتظرت في الردهة. جلست على مقعد ووضعت حقيبتها الجلدية عند قدميها. كان للحقيبة حزام، وكانت تثبت الحقيبة على خصرها أحياناً حتى لا تُسرق؛ فالكتب باهظة وباريس مكتظة باللصوص، ولكنها شعرت بالأمان في هذا المكان.

بعد برهة وصل ويلزنهايم. كان له وجه قاسٍ وذكي، ورأته سيلفي فوراً كرجل يُحسب حسابه. كان ويلزنهايم في ثياب سوداء بياقة بيضاء قطنية عادية غير مخرمة وقبعة بسيطة من دون ريشٍ أو أيّ زينة أخرى. من الواضح أنه أراد من كل من ينظر إليه أن يعرف على الفور أنه بيورتاني. دخل نيد بعده في صداره الأزرق، وابتسم عندما رآها.

«هذه هي الشابة التي أخبرتك عنها»، قال نيد لويلزنهايم بالفرنسية بدافع اللياقة حتى تفهم سيلفي ما يقوله. «الآنسة تيريز سان كونتان».

صافحها ويلزنهايم وقال لها: «أنت فتاة شجاعة، فلتتبري في عملي». دخل ويلزنهايم إلى غرفة مجاورة فيما قاد نيد سيلفي إلى الغرفة في الطابق العلوي التي كانت مكتبه وغرفة تغيير ملابسه. كانت القرطاسية التي طلبها على طاولة الكتابة.

«لقد حدد الملك موعداً للزفاف الملكي»، قال لها.

لم يكن على سيلفي الاستفسار عن الزفاف الذي يقصده وقالت: «هذه أخبار جيدة! ربما ستدوم هذه المعاهدة».

رفع نيد يده في تحذير وقال: «الزفاف لم يتم بعد إلا أن مواعده حُدد في شهر آب/ أغسطس».

«لا يسعني الانتظار حتى أخبر أمي بهذا».
«اجلسي».

جلست سيلفي وقالت لنيد: «لدي بعض الأخبار التي قد تهلك. هل تعرف رجلاً يدعى بيير أو موند دي غيز».
«بالطبع أعرفه، لماذا؟».

«زاره هذا الصباح كاهن إنكليزي يدعى جان لانغليه».

«شكراً لك»، قال نيد. «أنت محقة. هذا الخبر يهمني».

«مررت بالمصادفة قرب منزله ورأيت الكاهن يخرج من منزله».
«كيف شكله».

«يرتدي رداء كهوتياً وصليباً خشبياً. إنه طويل قليلاً مقارنة بالرجال العاديين، ولكن لم ألاحظ أي شيء مميز فيه فقد لمحته سريعاً».
«هل ستعرفينه إن رأيته مجدداً؟».

«أعتقد هذا».

«شكراً لك على إطلاعي على هذا. أنت شخصٌ مطلعٌ جداً. كيف تعرفين بيير أو موند؟».

سيكون الجواب على سؤاله شخصياً ومؤلماً، وهي لا تعرف نيد جيداً حتى تخبره بالقصة.

«إنها قصة طويلة»، قالت له وقامت بتغيير الموضوع وسؤاله: «هل زوجتك معك في باريس؟».

«أنا لست متزوجاً».

ارتسمت المفاجأة على وجهها.

«كان هناك فتاة في مسقط رأسي في كينغزبريدج أردت الزواج منها».

«هل هي الفتاة نفسها التي في الصورة؟».

بدا نيد مأخوذاً فلم يخطر بباله أن سيلفي رأَت البورتريه الصغير عند المرأة، وأنها وصلت إلى هذا الاستنتاج الواضح.
«أجل ولكنها متزوجة من رجلٍ آخر».
«كم هذا مؤسف».

«حدث هذا منذ وقتٍ طويل».

«منذ متى؟».

«أربعة عشر عاماً».

أرادت سيلفي أن تقول له: «وما زلت تحتفظ بصورتها؟» ولكنها كبحت تعليقها وفتحت حقيبتها الجلدية.

أخرجت الإنجيلين وقالت له: «إن الإنجيل العادي ممتاز وترجمته جيدة ومطبوع بشكل واضح، وهو مناسب جداً للعائلات التي لا تملك فائضاً من المال». ثم فتحت النسخة الباذخة التي كانت تريد أن تبيعها له: «هذه النسخة مذهلة. وهي توحى تماماً بما تحويه: مجلد يحوي على كلمات الرب». استلظفت سيلفي نيد ولكنها كانت تريد جني المال، ومن خلال تجربتها كانت الطريقة للقيام بهذا هي إقناع الرجل أن الكتاب الأغلى سيجعله رجلاً مميزاً في عيون الآخرين.

ولكن رغم تواضع نيد لم يكن حصيناً أمام كلامها واشترى النسخة الأغلى. جمعت الحساب ودفعه لها ثم سار معها إلى الباب الأمامي للمنزل.
«أين متجرك؟» سألها. «قد أمر يوماً ما».

«في شارع دو لا سيربونت وسيُساعدنا مرورك بالمتجر». وكانت تعني ما قالته ثم أضافت: «وداعاً».

شعرت سيلفي بخفة في قلبها وهي تدفع بالعربة الفارغة في طريق عودتها إلى المنزل. هناك أميرة كاثوليكية على وشك الزواج من ملك بروتستانتى هنا في باريس! وربما ستنتهي أيام الاضطهاد حقاً.

عشرت سيلفي على زبون آخر، وعقدت صفقة جيدة، وأخذت نقود نيد الذهبية ترن في جيبها.

كان لطيفاً جداً، وتساءلت سيلفي إن كان سيمر بالمتجر حقاً، وإلى أيّ درجة ما يزال مغرماً بالفتاة التي في الصورة والتي يحتفظ بها منذ وقتٍ طويل.

كانت تتوق إلى إطلاع أمها على خبر الزفاف الملكي، إلا أنها لم تكن واثقة من أنها تريد إخبارها بأمر نيد. كانت إيزابيل وسيلفي مقربتين جداً، ومن دون شك خاضتا مخاطر كثيرة وقاستا الفقر معاً، ونادراً ما شعرت سيلفي بالحاجة إلى إخفاء شيء عن إيزابيل، ولكن المشكلة كانت في أنّ سيلفي لم تكن واثقة من حقيقة مشاعرها.

وصلت إلى المنزل، وركنت العربة في الحظيرة خلف البيت، ومن ثمّ دخلت.

«لقد عدت»، نادى والدتها ودخلت إلى المتجر. كان هناك زبون على وشك المغادرة.

التفتت والدتها ونظرت إليها ثم قالت: «يا إلهي، تبدين سعيدة! هل أنت واقعة في الحب؟».

الفصل الثامن عشر

رسا بارني بسفينة أليس في خليج المدينة التي لا اسم لها على الساحل الشمالي لإسبانيولا. لقد أتى لرؤية بيلا.

لم يربط بارني السفينة بالميناء لأن هذا سيُسهل على أيّ قوات معادية من اليابسة الصعود إلى السفينة. كان قد رسا بالسفينة ووجه مدافع الميمنة بشكل مباشر إلى القصر الصغير المبني من الحجارة الكلسية والقرميد ذي اللون المرجاني والذي ما يزال المبنى الرئيسي في المدينة. كانت مدافع ميسرة السفينة موجهة إلى البحر وجاهزة لمواجهة أيّ سفينة قد تقترب.

تصرّف بارني بحذر ولكنه لم يتوقع وقوع متاعب هنا.

كانت سفينة أليس سفينة تجارية بثلاثة أشرعة وتزن مئة وستين طناً ويبلغ طولها تسعين قدماً. كان بارني قد أجرى تحديثات على تصميمها، وقام بإخفاض المقدمة والمؤخرة، ووضع ستة عشر مدفعاً متوسط الوزن من نوع «كافرين» الذي يُطلق ثمانى عشرة قذيفة. كانت مواسير المدافع مصنوعة وفق الطلب، ويبلغ طولها خمسة عشر قدماً. ولأنّ أعرض نقطة في السفينة تصل إلى ثلاثين قدماً كان عليهم ترتيب المدافع بشكل مائل على منصة المدافع حتى لا ترتطم بعضها ببعض عندما ترتد بفعل الإطلاق. ولكن مدى المدافع ذات المواسير الأطول أبعد وأكثر دقة. علم بارني من التجربة أنّ الطريقة الوحيدة لهزيمة سفينة شرعية إسبانية هي بشلّ حركتها قبل أن تقترب منه.

لا يتجاوز طاقم سفينة أليس عشرين رجلاً رغم أن العدد الطبيعي لطاقم سفينة بنفس حجمها يصل إلى أربعين رجلاً أو أكثر. لم تكن السفينة بحاجة إلى عددٍ أكبر، ولكن قباطنة السفن عادة ما يسمحون

بقدم الكثيرين بسبب موت البحارة خلال الرحلة من الحمى التي غالباً ما تتفشى بين أفراد الطاقم. اتبع بارني منهجية مختلفة. كان يعتقد أن الرجال معرضون لالتقاط العدوى على السفن المكتظة واقتنع بأنه من الأفضل أن يبدأ بعدد أقل من الرجال وفي ظروف أكثر نظافة. حمل معه أيضاً مواشي حية وبراميل من التفاح والإجاص حتى يتناول الرجال طعاماً طازجاً، وهذه هي الاستراتيجية التي اتبعها القرصان السير جون هوكينز الذي كان عندما يفقد رجالاً رغم كل إجراءاته الوقائية، يُبدلهم بمتطوعين جدد متوفرين في المدن الساحلية، ولهذا السبب كان على سفينة أليس ثلاثة بحارة أفرقة أخذهم بارني من أغادير.

مع نهاية فترة ما بعد الظهر أرسل بارني قارباً إلى الشاطئ. أحضروا الدجاج والأناس، ونظفوا السفينة، وملؤوا براميل المياه من نهر المياه العذبة الذي يمرّ في المدينة. أخبروه أنّ السكان أبدوا حماساً عندما عرفوا أن سفينة أليس تحمل مقصات وسكاكين مصنوعة من فولاذ توليدو ولقائف من القماش الهولندي الفاخر والقبعات والأحذية والقفازات وكماليات وأساسيات لا تُصنع على هذه الجزيرة الكاريبية.

قاوم بارني بألم إغراء الذهاب إلى الشاطئ والبحث عن بيلا. خلال رحلته عبر المحيط تحول فضوله الشديد إلى توق، ولكنه أجبر نفسه على الانتظار. لم يكن يعلم ما الذي ينتظره. سيكون محرراً فيما لو توجه إلى المنزل ووقعت عينه على مشهد حميمي. عندما غادر إسبانيولا كانت بيلا صغيرة وجميلة، وقد تكون الآن متزوجة. ولكن من جهة أخرى كان لديها عمل تديره ويدر عليها المال، ولهذا كانت تحتاج إلى رجل بجانبها. كان بارني يأمل بأن تكون بيلا قد ترددت كثيراً قبل أن تتخلى عن استقلاليتها وتزوج. لقد كانت بيلا امرأة قوية بما يكفي لكي تأخذ مثل هذا الموقف.

إن اقترب منها كصديق قديم فقد يتمكن من مواجهة كل ما ينتظره. فإن كان لديها زوج سيُخفي بارني خيبته ويصافحهما، ويُهنئ الرجل على حظه الجيد. وإن كانت ما تزال عازبة ووحيدة - كما كان يرجو - فسيأخذها بين ذراعيه.

في صباح اليوم التالي ارتدى بارني معطفه الأخضر ذي الأزرار الذهبية.

منحه المعطف مظهراً رسمياً، وساعده على إخفاء سيفه المعلق على حزامه؛ لم يُخفِ المعطف السيف تماماً بل جعله يبدو أقل بهرجة، وتوجه بارني مع جوناثان غرينلاندر لزيارة العمدة.

بدأت المدينة أكبر إلا أنها لم تتغير. حدّق بهما الناس - وربما الأشخاص أنفسهم أيضاً - عندما عبروا الساحة الرئيسية تماماً كما حدث منذ تسعة أعوام. ولكن في هذه المرة حدّق بهم بارني باحثاً عن فتاة أفريقية جميلة بعينين زرقاوين لكنه لم يرها.

دخل القصر المعتدل الحرارة طُلب منهما الانتظار لوقتٍ طويل بغية إبهارهم بالمقام العالي للشخصية التي يريدان مقابلتها.

رافقهما إلى الطابق العلوي رجل في رداء كهنوتي وقد يكون الأب إغناسيو أو بديلاً له فبارني لم يعد يتذكر الأب إغناسيو جيداً، ولكنه يتذكر ألفونسو - والديلا - البدين جداً، والشاب الذي رآه بارني في مكتب العمدة لم يكن ألفونسو من كل بد.

«لقد توفي ألفونسو»، قال الشاب الجالس على كرسي ألفونسو. «توفي منذ خمسة أعوام». لم يتفاجأ بارني فقد كان المهاجرون إلى منطقة الكاريبي عرضة للإصابة بأمراض مدارية غريبة. تابع الرجل كلامه قائلاً: «أنا العمدة الآن». كان بديل ألفونسو شاباً، ولكنه قد لا يعيش طويلاً لأن بشرته تميل إلى الاصفرار وهذا أحد أعراض اليرقان. «أدعى دون خورديه. من تكون؟».

قام بارني بالتعريف بنفسه، ومن ثمّ انخرط في الرقصة الشعائرية التي يتظاهر فيها دون خورديه بأنه لا يريد رشوة وبارني يتظاهر بأنه لا يعرضها عليه. وعندما اتفقا على سعرٍ لـ«رخصة تجارة مؤقتة» أحضر الكاهن زجاجة شراب وكؤوساً.

تجرع بارني المشروب وسأل: «هل هذا الرُّم من صنع بيلا؟».

«ليس لدي أدنى فكرة»، قال دون خورديه. «من بيلا؟».

كانت هذه إشارة سيئة.

«كانت بيلا تصنع أفضل رُّم هنا». أخفى بارني خيبة أمله وتابع: «ربما

انتقلت من هنا».

«هذا محتمل جداً. ألا يعجبك طعم هذا الشراب».

«على العكس. نخب الصداقة».

غادر بارني وجوناثان القصر، واجتازا الساحة في طريقهما إلى منزل ومعمل التقطير الخاص ببيلا. عبرا القنطرة الرئيسية للحديقة الخلفية. كان المعمل الآن أكبر وهناك آلتان تقطران الكحول في البراميل.

توجه نحوهما رجل له سيماء صاحب سلطة. بدا في الثلاثين من عمره تقريباً، ولديه بشرة أفريقية داكنة وشعر مسترسل، وهذه السمات توحى بأنه ابن صاحب مزرعة أو عبد. ابتسم لهما الرجل بطريقة ودية.

«طاب يومكما»، قال لهما. «أعتقد أنكما هنا لشراء أفضل رُم في العالم».

فكر بارني في توجس أن الرجل من النوع الذي قد تتزوج منه بيلا.

«بالطبع»، قال بارني. «ويسعنا بيعك زوجاً من المسدسات الإسبانية».

«ادخلا وتذوقا بضاعتي»، قال لهما وتابع: «أدعى بابلو تروخيو وأنا

صاحب المكان».

لم يستطع بارني الصبر أكثر وسأله: «ما الذي حدث لبيلا؟».

«لقد باعنتي معملها منذ عامين ولكنني ما زالت أستخدم وصفتها».

قادهم بابلو إلى المنزل، وأخذ يعصر الليمون كما كانت تفعل بيلا.

«أين هي بيلا الآن؟» سأل بارني.

«إنها تعيش في مزرعة دون ألفونسو. لقد توفي الدون وأصبحت المزرعة

لشخصٍ آخر، ولكن ألفونسو ترك لها المنزل.

شعر بارني أن بابلو يُخفي أمراً.

«هل هي متزوجة؟» سأله بارني.

«لا أعتقد هذا»، قال بابلو وأحضر كؤوساً وزجاجة.

شعر بارني بالحرج من إلحاحه بالأسئلة عن بيلا. لم يكن يريد أن يعتقد

الناس أنه كان رقيق القلب وأنه عبر المحيط الأطلسي من أجل فتاة. كبح

نفسه ولم يطرح المزيد من الأسئلة. تناولوا الرُم واتفقوا على سعرٍ رخيص

جداً لبرميلين منه.

عندما كان بارني وجوناثان على وشك المغادرة ابتلع بارني كبرياءه

وسأل: «أريد زيارة بيلا. هل من أحد في المدينة يمكنه أخذي إليها؟».

«جاري ماوريشيو مارتينيز يأخذ بغلاً مُحملاً بالمؤن إلى المزرعة كل بضعة أيام».
«شكراً لك».

كان المنزل المجاور عبارة عن متجر تفوح من البراميل فيه روائح الأرز والفاصولياء وحُزم الأعشاب العطرية وأواني الطبخ والمسامير والشرائط الملونة. وافق ماوريشيو على إغلاق المتجر على الفور واصطحاب بارني إلى المزرعة.

«يجب أن نذهب على الفور. إنهم بحاجة إلى الطحين وزيت الزيتون»، قال ماوريشيو.

كان يتحدث بجملٍ مختصرة وكأنه يريد قول المفيد في أقصر وقتٍ. طلب بارني من جوناثان العودة للاهتمام بالسفينة. أسرج ماوريشيو حصاناً لبارني أمّا هو فقد اختار المشي خلف الحصان المحمل بالمؤن. سارا على طريق ترابي خارج المدينة باتجاه التلال. لم يكن بارني متحمساً للحديث، ولكن كان لدى ماوريشيو الكثير ليقوله بطريقته المختزلة. لحسن الحظ لم يكن مهتماً بأجوبة بارني أو ربما لم يفهم كلامه، وهذا سمح لبارني بالغرق في الذكريات.

وصلاً أخيراً إلى حقول قصب السكر التي كانت سويقاتها الخضراء بطول بارني. كان العمال الأفارقة يتنقلون بين صفوف المحصول، الرجال في سراويل قصيرة والنساء في قمصان داخلية بسيطة في حين كان الأطفال يركضون عراً في الأرجاء. كان الجميع في قبعات قشية منزلية الصنع ويتعرقون تحت الشمس. رأى بارني مجموعة أخرى تعمل على معصرة خشبية هائلة الحجم تسحق أعواد القصب إلى أن يخرج عصير في حوض بالأسفل، ثم مرّ بارني بمبنى خشبي تخرج منه أصوات طقطقة النار وصفير البخار.

«هنا مبنى لغلي قصب السكر»، شرح له ماوريشيو.
«في مثل هذا الطقس! أتساءل كيف يعيش الناس وهم يعملون في مكان مثل هذا؟»، قال بارني.

«لا يعيشون»، أجاب ماوريشيو. «إنها مشكلة كبيرة، وموت العبيد في مبنى غلي قصب السكر مكلف».

وأخيراً وقع نظر بارني على منزل المزرعة وكان عبارة عن مبنى بطابقين مبني من الحجر الكلسي الأبيض الضارب إلى الصفرة بقرميد مرجاني كالقصر الذي يقع في المدينة. عندما اقتربا أشار ماوريشيو إلى منزل خشبي صغير تحت شجرة نخيل ونادى: «بيلا!» ثم توجه إلى البيت الكبير.

شعر بارني بانقباض في حنجرته عندما نزل عن حصانه وربطه إلى جذع شجرة النخيل، وفكر بأن أموراً كثيرة قد تحدث خلال تسعة أعوام. سار باتجاه المنزل، ووجد الباب مفتوحاً ثم دخل.

كان هناك امرأة مستلقية على سرير ضيق في الزاوية. لم يكن هناك أحد غيرها في الغرفة.

«أين بيلا؟» سأل بارني بالإسبانية.

حدقت المرأة نحوه لوقتٍ طويل ثم قالت: «علمت أنك ستعود».

هزه الصوت عميقاً وحدق إلى المرأة العجوز غير مصدق ما يراه: «بيلا». «أنا أحتضر»، قالت له.

تقدم بارني خطوتين عبر الغرفة وركع بجانب السرير. كان شعر بيلا خفيفاً إلى درجة الصلع وقد تحول لون بشرتها الذهبي إلى لون يشبه لون الورق القديم وجسدها المتين فيما مضى أصيب بالهزال، ولكنه تعرّف على عينيها الزرقاوين.

«ما الذي حدث لك؟» سألها.

«حمى الضنك».

لم يسمع بارني بهذه الحمى، ولكن هذا لم يكن مهماً. وبدا واضحاً أنّها على حافة الموت.

انحنى ليقبلها فأدارت رأسها وقالت: «أنا بشعة».

قبّلها على وجنتها وقال لها: «حبيبي بيلا». شعر بالحزن يجتاحه وأنه بالكاد قادر على الكلام. قاوم دموعاً لا تليق به كرجل إلا أنه في النهاية تمكن من التحدث وقال لها: «هل هناك ما أستطيع القيام به من أجلك؟».

«أجل»، قالت له. «أريد منك معروفاً».

«اطلبي أي شيء».

قبل أن تتمكن من متابعة كلامها سمع بارني صوت طفل خلفه يقول له: «من أنت؟».

التفت بارني ورأى عند الباب صبيّاً صغيراً ببشرة ذهبية وشعر أفريقي مجعد ذي لون بني ضارب إلى الحمرة وعينين خضراوين. نظر بارني إلى بيلا وقال: «إنّه في الثامنة من العمر تقريباً...». هزّت رأسها وقالت له: «يدعى بيرناردو ألفونسو ويلارد. انظر إليه». شعر بارني وكأنه تعرض إلى ركلة حصان هائج، وأنه بالكاد يستطيع التنفس. لقد تعرض لصدمتين: بيلا تحتضر ولديه ابن. وها هي حياته في دقيقة واحد فقط تُقلب رأساً على عقب.

«ألفو... إنّه والدك. لقد أخبرتك عنه»، قالت بيلا. حدّق ألفو نحو بارني، واكتنف وجهه غضب طفولي ثم انفجر قائلاً: «لماذا أتيت إلى هنا؟ كانت تنتظرك... وها هي الآن ستموت». «فلتهداً يا ألفو»، قالت بيلا.

«اخرج!» صرخ الولد. «عدّ إلى إنكلترا! لا نريدك هنا». «ألفو!» قالت بيلا.

«لا بأس يا بيلا»، قال بارني. «دعيه يصرخ». ونظر إلى الصبي ثم قال: «لقد توفيت أمي يا ألفو. أنا أفهمك».

تحول غضب الصبي إلى حزن. انخرط في البكاء ورمى بنفسه على السرير بجانب أمه.

وضعت بيلا ذراعها النحيلة حول كتفيه، ودفن ألفو وجهه في خاصرتها، وبدأ يتحبّب.

مسّد بارني شعره الناعم والمجعد وفكر: «هذا ابني، ابني المسكين». مرّ وقتٌ طويل من دون أن يتحدث أحد، وأخيراً توقف ألفو عن البكاء، وأخذ يمصّ إبهامه ويحدق إلى بارني.

أغلقت بيلا عينيها، وقال بارني في نفسه إنّ هذا جيد فهذا هي الآن تراح. «فلتنامي جيداً يا حبيبتني».

الفصل التاسع عشر

كانت سيلفي مشغولة... بشكلٍ خطير.

اكتظت باريس بالهوغونيين القادمين لحضور الزفاف الملكي، وقد اشتروا الكثير من الورق والحبر من شارع دو لا سيربونت. طلبوا أيضاً الكتب الممنوعة، ولم يطلبوا الإنجيل بالفرنسية فقط بل الأعمال الإشكالية التي تهاجم الكنيسة الكاثوليكية كأعمال جون كالفن ومارتن لوثر. بُلي حذاء سيلفي من التنقل بين المستودع في شارع دي مر وتوصيل الكتب الممنوعة إلى المنازل البروتستانتية في جميع أنحاء باريس.

كان عليها أن تعمل في سرية تامة. ورغم اعتيادها على هذا إلا أن الطلب لم يكن بهذه الشدة قبلاً. كانت تخاطر بالتعرض للاعتقال ثلاث مرات يومياً بدلاً من ثلاث مرات أسبوعياً، وسبب لها الضغط المتزايد إجهاداً.

ولكن قضاء الوقت مع نيد كان أشبه باستراحة في واحة من الهدوء والأمان. لم يُبدِ نيد توجساً منها بل اهتماماً بها، ولم يخف منها بل نظر إليها كامرأة شجاعة، في الحقيقة كان يقول لها دائماً إنها بطلة. كانت سعيدة بإعجابها بها رغم أنها لم تعتبر نفسها سوى مجرد فتاة خائفة.

في زيارته الثالثة إلى المتجر أخبرته أمها باسميهما الحقيقيين وطلبت منه البقاء على الغداء.

لم تستشر إيزابيل سيلفي في موضوع فضح اسميهما الحقيقيين. لقد فعلت هذا من تلقاء نفسها وبوغت سيلفي بهذا. تفهم نيد الأمر بكل سرور، إلا أن سيلفي كانت متفاجئة وسعيدة في آنٍ معاً.

أغلقوا وأقفلوا الباب المطل على الشارع، وانتقلوا إلى الغرفة التي تقع خلف المتجر. حضرت إيزابيل سمك السلمون النهري الطازج الذي تم

اصطياده صباح اليوم، مع القرع والشمار العطر. تناول نيد الطعام بشهية. بعد هذا جهزت إيزابيل صحناً من البرقوق الأخضر والأصفر ذي البقع الحمراء، وأحضرت زجاجة من البراندي البني الضارب للذهبي. لم تكن إيزابيل وسيلفي تشتريان البراندي في العادة؛ فالمرأتان لا تشربان شيئاً أقوى من النبيذ المخفف بالماء. من الواضح أنّ إيزابيل خططت سرّاً لهذه الوجبة. أطلعتهما نيد على الأخبار السيئة القادمة من هولندا.

«بسبب تجاهل أونغيست وأمر كوليني وقع في كمين وهُزم شرّ هزيمة. إنه الآن في الأسر».

كانت إيزابيل مهتمة بنيد وليس بأونغيست.

«إلى متى تعتقد أنك باقٍ في باريس؟» سألته.

«سأبقى ما دامت الملكة إليزابيث ترغب ببقائي هنا».

«ومن ثمّ ستعود إلى إنكلترا؟».

«سأذهب إلى حيث ترغب الملكة بإرسالتي».

«أنت مخلص لها».

«أشعر أنني محظوظ بخدمتها».

انتقلت إيزابيل إلى موضوع آخر وسألته: «هل المنازل الإنكليزية مختلفة عن المنازل الفرنسية؟ منزلك على سبيل المثال هل يختلف عن المنازل الفرنسية؟».

«ولدت في منزل كبير يقع قبالة كاتدرائية كينغزبريدج، وهو الآن ملكٌ لأخي الكبير بارني، ولكن أبيت هناك عندما أزور كينغزبريدج».

«قبالة الكاتدرائية! لا بدّ أن موقعه جميل».

«إنّه موقع رائع. أحبّ الجلوس في غرفة الجلوس الأمامية والتحديث إلى الكنيسة خارجاً».

«ماذا كان عمل والدك؟».

اعترضت سيلفي قائلة: «أمي... أنت تتحدثين كمحقق».

«لا أمانع هذا»، قال نيد. «كان والدي تاجراً ولديه مستودع في كاليه. بعد وفاته قامت والدتي بإدارة أعماله لعشر سنوات». ابتسم نيد بأسف وتابع: «ولكنها خسرت كل شيء بعد استعادة الفرنسيين لكاليه منا، نحن الإنكليز».

«هل في كينغزبريدج فرنسيون؟».

«لجأ الهوغونيون المضطهدون إلى إنكلترا وانتشروا في جميع أرجائها. يملك غيوم فورنيرون معملًا لصناعة القماش في ضاحية لفرزفيلد والجميع يستमित لشراء ثياب فورنيرون».

«وما هي مهنة أخيك؟».

«إنه قبطان بحري، ولديه سفينة تدعى أليس».

«سفينته الخاصة؟».

«أجل».

«ولكن سيلفي أخبرتني أنك تملك قصرًا».

«نصّبتني الملكة إليزابيث سيداً على قرية تدعى ويغلي، وهي لا تبعد كثيراً عن كينغزبريدج. إنَّها قرية صغيرة ولهذا أبيت في قصر صغير مرتين أو ثلاثاً سنوياً».

«في فرنسا سيطلقون عليك اسم سيد ويغليه».

«أجل».

يجد الفرنسيون دائماً صعوبة في لفظ الأسماء الإنكليزية كما يحدث عندما يلفظون اسم ويلارد.

«لقد تعافيت أنت وأخوك من البلاء الذي حلَّ بوالدتك. وها أنت قد أصبحت دبلوماسياً وبارني يملك سفينة».

فكرت سيلفي أن نيد قد أدرك أن إيزابيل تحاول فهم وضعه الاجتماعي والمالي، ولكنه لم يبدُ متضايقاً من هذا. في الحقيقة بدا تواقاً ليُثبت لها أنه جدير بالاحترام، ولكن هذا لم يمنع سيلفي من الشعور بالإحراج. ربما فكر نيد أنهما تتوقعان منه الزواج بها، وقالت في محاولة لوضع حدٍ لهذا التحقيق: «يجب أن نفتح المتجر».

وقفت إيزابيل وقالت: «سأقوم بفتح المتجر. فلتجلسا وتحدثا لبعض الوقت. سأناديك إن احتجت إليك يا سيلفي». وخرجت من الغرفة.

«أنا آسفة لتطفلها عليك بهذه الطريقة»، قالت سيلفي.

«لا تعتذري»، قال نيد مبتسماً. «يحق لأي أم أن تعلم كل شيء عن صديق

لابتئها».

«هذا من لطفك».

«يستحيل أن أكون أول رجل يخضع لاستجوابها بهذه الطريقة».

علمت سيلفي أن عليها إطلاعها على قصتها عاجلاً أم آجلاً.

«كان هناك رجل منذ زمن بعيد، ولكن والدي من استجوبه».

«هل يمكنك أن تخبريني بما جرى؟».

«كان الرجل يدعى بيير أوموند».

«يا إلهي! هل كان بروتستانتيًا آنذاك».

«لا، لقد خدعنا ليتجسس على رعبتنا. تمّ اعتقالنا جميعاً بعد مرور ساعة

على حفل الزفاف».

مدّ يده عبر الطاولة وأمسك بيدها ثمّ قال: «يا له من أمرٍ قاسٍ».

«لقد فطر قلبي».

«لقد تحققت من خلفيته. كان والده كاهناً ريفياً وابناً غير شرعي لأحد

أبناء عائلة غيز ووالدة بيير مدبرة منزل الكاهن».

«كيف عرفت هذا؟».

«أخبرتني ماركيزة نيم بهذا».

«لويز؟ إنها في رعبتنا... ولكنها لم تخبرني بهذا».

«ربما خافت من إحراجك إن حدثتك عنه».

«أخبرني بيير بالكثير من الأكاذيب، ولهذا لم أستطع الوثوق بأحد...».

ألقي نيد نظرة مستفهمة، وعلمت أن نظرتة تعني: وماذا عني أنا؟ ولكنها

لم تكن جاهزة للإجابة عن هذا السؤال.

انتظر بضع دقائق، ومن ثم أدرك أنّها لن تقول المزيد فقال: «كان الطعام

شهيأ... شكراً لك».

نهضت لتودعه وبدا حزيناً. شعرت بقلبها يخفق حنواً، ومن دون أن تفكر

بالأمر استدارت حول الطاولة وقبلته.

كانت تريد أن تقبله قبله ودية، ولكن الأمور لم تسر على هذا النحو.

وجدت نفسها بطريقة ما تقبله على شفّيته. كان الأمر أشبه بتناول طعام حلو

المذاق واشتهاء المزيد منه. وضعت يدها وراء رأسه وضغطت بفمها على

فمه بنهم.

لم يكن نيد بحاجة للمزيد من التشجيع. لفّ ذراعيه حولها وشدها نحوه. اجتاحتها إحساس كانت قد نسيته؛ كان الفرح بحُب جسد شخصٍ آخر، رغم أنها استمرت بالقول لنفسها أنها ستوقف في أي لحظة. وضع نيد كلتا يديه على ثدييها ثم عصرهما بلطفٍ فيما نمّ عنه صوتٌ كالأنين. أنهت سيلفي القبلة ودفعته بعيداً. كانت تلهث وقالت: «لم أقصد أن أفعل هذا».

لم يقل نيد شيئاً، وابتسم في سعادة. أدركت أنها أجابت عن السؤال الذي لم ترغب بالإجابة عليه قبلاً، ولكنها لم تعد تبالي الآن وقالت: «من الأفضل أن تذهب قبل أن يحدث شيء سأندم عليه».

بدا أكثر سعادة بهذه الفكرة وقال: «حسناً. متى سأراك مجدداً؟». «قريباً. فلتذهب الآن ولتودع أُمي». حاول أن يقبلها مرة أخرى، ولكنها منعتة بوضع يدها على صدره قائلة: «لا مزيد من القبل».

لم يعارضها، وتوجه إلى المتجر وسمعتة يقول لإيزابيل: «شكراً لك يا سيدة بالو على حسن ضيافتك». رمت سيلفي نفسها على الكرسي، وبعد مرور بعض الوقت سمعت صوت باب المتجر يُغلق. أتت والدتها إلى الغرفة الخلفية وهي تبدو سعيدة: «لقد غادر ولكنه سيعود».

«لقد قبّلت»، قالت سيلفي. «تكهنت بهذا من الابتسامة التي كانت على وجهه». «لم يكن عليّ فعل هذا». «لا يمكنني التفكير بسبب قد يمنعك من القيام بهذا. لو كنت مكانك وأصغر بعشرين عاماً لقبّلت».

«لا تكوني فظة يا أُمي. ها هو الآن يتوقع مني أن أتزوجه». «لو كنت مكانك لفعلت هذا قبل أن تضع فتاة أخرى يدها عليه». «توقفي. تعلمين جيداً أنني لا أستطيع الزواج منه».

«لا أفهم الأمر. ما الذي تقصدينه؟».

«لدينا مهمة نشر الإنجيل الحقيقي في العالم».

«ربما فعلنا ما يكفي».

بدأت سيلفي مصدومة فوالدها لم تتكلم بهذه الطريقة قط.

لاحظت إيزابيل رد فعل سيلفي ودافعت عن نفسها قائلة: «حتى الربّ

استراح في اليوم السابع بعد انتهائه من خلق العالم».

«عملنا لم ينته».

«وربما لن ينتهي حتى يُنفخ في الصور».

«وهذا سبب إضافي لنستمر في مهمتنا».

«أريدك أن تكوني سعيدة فأنتِ ابنتي الصغيرة».

«ولكن ما الذي يريده الربّ؟ لطالما علّمتني أن أطرح الأسئلة».

تهدت إيزابيل وقالت: «لقد فعلت هذا حقاً. كنت أكثر قسوة عندما كنت

أصغر عمراً».

«كنتِ حكيمة. لا يمكنني الزواج فلدي مهمة».

«ولكن، وبغض النظر عن وجود نيد، علينا أن نعثر في يومٍ ما على طريق

أخرى لتنفيذ مشيئة الربّ».

«لا يمكنني التفكير بطرقٍ أخرى».

«ربما سيتكشف الطريق أمامنا».

«إنّ الأمر بيد الربّ. أليس هذا صحيحاً يا أمي؟».

«أجل».

«ولهذا يجب أن نكون قانعتين».

تهدت إيزابيل مجدداً وقالت: «آمين»، ولكن سيلفي لم تكن واثقة من

أن والدتها عنت ما قالت.

عندما خرج نيد من المتجر، وأثناء عبوره الشارع لاحظ شاباً في حلة رثة

يتسكع خارج حانة قريبة وحده ولا يفعل شيئاً. اتجه نيد شرقاً باتجاه السفارة

الإنكليزية. نظر إلى الوراء، ورأى أن الرجل يسير على الطريق ذاته.

كانت معنويات نيد عالية فقد قبلته سيلفي وكأنها أرادت لهذه القبلة أن تحدث. كان يعشقها فلأول مرة يُقابل فتاة تشبه مارجوري. كانت سيلفي ذكية وشجاعة ودافئة ومثيرة، ولم يكن بوسعه الانتظار حتى يلقاها مجدداً. لم ينسَ مارجوري ولن يفعل، ولكنها رفضت الهرب معه وعليه أن يعيش بقية حياته من دونها. كان من حقه أن يحبّ شخصاً آخر.

أحبّ نيد والدة سيلفي إيزابيل أيضاً، ورغم أنها في منتصف العمر فإنها ما زالت جذابة، وما زال جسدها ممتلئاً ووجهها جميلاً، وأضافت التجاعيد حول عينيها الزرقاوين ميزة إلى مظهرها، وقد أوضحت لنيد أنها موافقة عليه. كان نيد غاضباً من القصة التي أخبرته بها سيلفي عن بيرر أو موند. لقد تزوجها بيرر حقاً! لا عجب من أنها لم تتزوج مجدداً. إن فكرة تعرض سيلفي إلى الخيانة في يوم زفافها جعلت نيد يرغب بخنق بيرر.

ولكن لم يكن نيد يسمح لهذا الشعور بأن يسيطر عليه فهناك أمور كثيرة باعثة على السعادة الآن، ومن بينها الاحتمال الكبير بأن تتبنى فرنسا ثاني أكبر البلدان في العالم، حرية المعتقد.

عبر نيد شارع سان جاك ثم ألقى نظرة خلفه ورأى الرجل ذا الملابس الرثة الذي كان يتبعه منذ شارع دو لا سيربونت. كان عليه أن يقوم بشيء حيال الأمر.

توقف نيد على الجانب الآخر من الشارع لينظر إلى كنيسة سان سيفين المهيبة. ركض الرجل ذو الملابس الرثة عبر الشارع متجنباً لفت الأنظار ودخل أحد الأزقة.

استدار نيد وتوجه إلى منطقة كنيسة سان جوليان لو بوف، ثم عبر المقبرة المهجورة. وعندما انعطف باتجاه النهاية الشرقية من الكنيسة الصغيرة انسَل إلى مدخل خفي واختبأ فيه ثم سحب خنجره، وأمسك قبضته بشكل معكوس بين إبهام وسبابة يده اليمنى.

عندما اقترب الرجل ذو الثياب الرثة من المدخل خرج نيد وضرب وجه الرجل بمقبض خنجره. صرخ الرجل وترنح إلى الورا والدم ينزف بغزارة من أنفه وفمه، ولكنه استعاد توازنه على الفور واستدار ليركض، فلاحق به نيد وأوقعه أرضاً. ركع نيد على ظهر الرجل ووضع نهاية خنجره على عنقه.

«من أرسلك؟» قال نيد.

ابتلع الرجل بعضاً من دمه النازف على وجهه وقال: «لا أعلم ما الذي تقصده بكلامك... لماذا تهاجمني؟».

ضغط نيد بخنجره إلى أن اخترقت نهاية النصل الجلد القدر لخنجرة الرجل، وأخذ الدم يتفرق من الجرح.

«لا أرجوك!» صرخ الرجل.

«لا شهود هنا. سأقتلك وأهرب ما لم تخبرني من طلب منك ملاحظتي».

«حسناً، حسناً! إنه جورج بيرون».

«من جورج بيرون بحق الجحيم؟».

«لورد مونتاني».

ذكره الاسم بشيء ما.

«لم يريد بيرون أن يعرف إلى أين أذهب؟».

«أقسم بالمسيح أنني لا أعرف! لا يخبرنا أبداً بالأسباب بل يرسلنا

فحسب».

إذاً، هذا الرجل فرد في مجموعة، ولا بد أن بيرون قائدهم أو أنه يعمل

لمصلحة أحدهم، وقد طلب منه مراقبة نيد.

«على من تتجسس أيضاً؟».

«كنت أتجسس على ويلزنهايم، ولكنهم طلبوا مني أن أراقبك بدلاً منه».

«هل يعمل بيرون لمصلحة سيد أكبر».

«ربما، ولكنه لا يخبرنا بشيء. أرجوك صدقني».

فكر نيد بأن ما قاله الرجل منطقي. لم يكن هناك من حاجة لتعذيب هذا

البائس وإجباره على الاعتراف بالأسباب التي تقف وراء قيامه بهذا العمل.

وقف نيد وأعاد الخنجر إلى الغمد ثم ابتعد.

عبر سوق موبير باتجاه السفارة الإنكليزية ودخلها. كان ويلزنهايم في

الردهة.

«هل تعرف أي شيء عن لورد مونتاني جورج بيرون؟» سأل نيد.

«أجل»، قال ويلزنهايم. «إنه على قائمة مساعدي بيير أوموند دي غيز».

«آه... هذا يفسر كل شيء».

«يفسر ماذا؟».

«سبب تجسسه عليك وعليّ».

نظر بيير إلى المتجر الصغير في شارع دو لا سيربونت. كان يعرف هذا الشارع جيداً لأنه عاش فيه عندما كان طالباً فيما مضى، وتردد كثيراً على الحانة التي تقع قبالة المتجر الذي لم يكن موجوداً آنذاك.

دفعه وجوده هنا إلى التفكير بحياته في تلك الفترة وحياته الآن. كان طالباً شاباً يتوق للحصول على أشياء كثيرة وقد حصل عليها لاحقاً - كما كان يعتقد - وهو الآن راضٍ عن نفسه. لقد أصبح المستشار الأول لعائلة غيز، ويمتلك ثياباً فاخرة يرتديها عندما يقابل الملك. كان لديه المال وشيء آخر أكثر قيمة؛ كان لديه السُلطة.

ولكن المخاوف لم تبارحه قط، فالهوغونيون لم يُسحقوا بل ازدادت قوتهم أكثر. وبالإضافة إلى مملكة نافار الصغيرة أصبحت بعض البلدات الإسكندنافية وبعض المقاطعات الألمانية البروتستانتية أكثر تشدداً، والمعارك في إسكتلندا وهولندا ما تزال قائمة.

وصلت أخبار جيدة من هولندا: لقد هُزم قائد الهوغونيين أونغيست في مونز، وهو الآن يقبع في زنزانه مع بعض ملازميه، ويتعرضون لتعذيب قاسٍ على يد دوق ألبا. وقد ابتكر الكاثوليكيون الفرنسيون المبتهجون بهذا الانتصار أغنية يتردد صداها في الحانات كل ليلة:

أونغيست!

ها! ها! ها!

أونغ-ست!

ها! ها! ها!

ولكن معركة مونز لم تحسم المعركة أو تسحق العصيان. والأسوأ من هذا كله أن فرنسا أصلاً تسير مترنحة كسكير يحاول التقدم إلى الأمام ولكنه يتعثر ويرتكس باتجاه تسوية مقززة كالتى بدأتها الملكة إليزابيث في إنكلترا، وهذه التسوية مزيج ما بين الكاثوليكية والبروتستانتية. وها هو الزواج الملكي سيُقام بعد عدة أيام دون أن يستفز أيّ أعمال شغب كفيلة بالغاثة.

ولكن هذا سيحدث، وعندما يحدث سيكون بير جاهزاً. ففي كتابه الأسود الذي يحوي على أسماء البروتستانتين الباريسيين ازداد عدد أسماء ضيوف حفل الزفاف. وفي الأيام الماضية وضع مع الدوق هنري دي غيز خططاً إضافية، لقد عملاً معاً على قائمة مماثلة لقائمة أسماء البروتستانتين وتحوي على أسماء النبلاء الكاثوليكين المتشددين والقادرين على القتال. عندما يبدأ عصيان الهوغونيين سيُقرع جرس كنيسة سان جيرمان لو سيغوا باستمرار، وستكون هذه الإشارة التي ينتظرها كل نبيل كاثوليكي حتى يقتل البروتستاني الذي كُلف بقتله.

كانوا جميعاً متفقيين من حيث المبدأ، ولكن يعلم بير أنهم لن يحافظوا على وعودهم جميعاً ولكن بعضاً منهم سيفعل وسيكون هذا كافياً. حالما يثور الهوغونيون سيوجه الكاثوليكون ضربتهم، وسيقتلون الوحش بقطع رأسه، وستكفل ميليشيا المدينة بالتخلص من الجنود العاديين. ستُشل حركة الهوغونيين، وقد يكون هذا الشلل قاتلاً. سيضع هذا نهاية للسياسة الملكيّة الشريرة الداعية إلى التسامح مع البروتستانتية، وستعود عائلة غيز لتكون العائلة الأقوى في فرنسا.

وها قد أصبح في كتاب بير الأسود عنوان جديد.

«لقد وقع الرجل الإنكليزي في الحب»، قال له جورج بيرون.

«مع من؟ هل يمكننا أن نبتزها؟» سأله بير.

«مع امرأة صاحبة متجر قرطاسية على الضفة اليسرى من النهر».

«ما اسمها؟».

«تيريز سان كوتان. إنها تدير المتجر مع والدتها جاكلين».

«لا بدّ أنهما من البروتستانتين. إنّ الإنكليزي لن يعث مع فتاة كاثوليكية».

«هل أتتحقق من أمرهما؟».

«قد أقوم بهذا بنفسى».

رأى بير الآن أنّ عائلة سان كوتان تملك منزلاً متواضعاً بطابق واحد وممر لا يتجاوز عرضه عرض عربة تُجر باليد ومن المفترض أنّه يُفضي إلى حديقة خلفية. تمّ إصلاح واجهة المبنى بشكل جيد، ويبدو طلاء الأجزاء الخشبية جديداً، وهذا يعني أنّ عملهما مزدهر. كانت أبواب المتجر مفتوحة

بسبب حر شهر آب / أغسطس، وظهرت من نافذة العرض مجموعة من الأوراق البيضاء المعروضة على شكل مروحة وباقات أقلام في مزهرية ومحابر بأحجام مختلفة.

«انتظر هنا»، قال بيير لحارسه الشخصي.

دخل بيير إلى المتجر، وذهل عندما رأى سيلفي بالو.

إنها سيلفي بلحمها ودمها. كانت في الحادية والثلاثين إلا أنها بدت أكبر عمراً، ولا بد أن هذا يعود إلى كل ما مرت به. كانت أكثر نحولاً، وخسرت بعضاً من ألق الشباب. هناك بعض التجاعيد التي بدأت تظهر حول فكّها القوي لكن عينيها ما زالتا بذلك اللون الأزرق المميز. كانت في ثوبٍ قطني أزرق بسيط وتحت الثوب ما يزال جسدها الممشوق قوياً ومتناسقاً.

شعر بيير للحظة كأنه تحت تعويذة سحرية انتقل بفضلها إلى تلك الحقبة منذ أربعة عشر عاماً، إلى سوق السمك حيث تحدث مع سيلفي لأول مرة، وإلى متجر الكتب في ظل الكاتدرائية، وإلى الكنيسة غير القانونية في كوخ الصيد، وإلى بيير الأصغر والأقل معرفة الذي لم يملك شيئاً ولكنه أراد الحصول على كل شيء.

كانت سيلفي وحدها في المتجر تقف وراء طاولة وتقوم بحساب أرقام في سجل ما. لم ترفع نظرها في البداية.

أمعن بيير النظر إليها. يبدو أنها نجت بعد وفاة والدها ومصادرة عمله، وأخذت اسماً مستعاراً، وبدأت عملاً جديداً وحدها وهذا العمل مزدهر. لطالما شعر بيير بالحيرة وتساءل كيف يمكن للرب أن يسمح بنجاح العديد من المجدفين البروتستانتيين في الأعمال والتجارة. فقد كانوا يستخدمون أرباحهم للدفع للكهنة، وبناء أماكن التجمعات وبيع الكتب المحظورة. كان بيير يجد صعوبة أحياناً في فهم خطة الربّ.

وها هي سيلفي الآن لديها معجب هو من ألد أعداء بيير.

«مرحباً يا سيلفي»، قال بيير بعد مرور بعض الوقت.

رغم لهجته الودودة فإن سيلفي أطلقت صرخة فزعة وطويلة. لا بدّ أنها عرفت صوته حتى بعد مرور كل تلك السنوات.

تمتع بيير برؤية الخوف يرتسم على وجهها.

«لماذا أنت هنا؟» قالت بصوتٍ مرتجف.

«الصدفة البحتة. يا لها من مفاجأة سارة».

«لستُ خائفة منك»، قالت له، ولكنه علم وبكل سرور أنها تكذب.

«ما الذي يمكنك أن تفعله بي؟» تابعت كلامها. «لقد دمرت حياتي».

«يمكنني أن أدمرها مجدداً».

«لا، لا يمكنك هذا. لدينا اتفاقية سان جيرمين».

«ولكن بيع الكتب المحظورة ما يزال عملاً مخالفاً للقانون».

«نحن لا نبيع الكتب المحظورة هنا».

ألقى بيير نظرة حوله. لم يكن هناك كتب ممنوعة بل مجرد سجلات فارغة

كالسجل الذي كانت سيلفي تكتب فيه، وكتيبات تدعى كتب الحكمة. ربما

ساهم منظر والدها وهو يُحرق حتى الموت في كبح حماسها الأنغليكاني،

وهذا ما كانت ترجوه الكنيسة بالضبط. ولكن في بعض الأحيان قد يكون

لهذه الإعدامات تأثير مُعاكس، وتُلهم أناساً ليستشهدوا في سبيل القضية.

ربما كَرست حياتها لمتابعة مهمة والدها، وتملك متجراً آخر في مكان ما

ليبيع الكتب المحظورة. يمكن أن يطلب من أحدهم مراقبتها ليلاً ونهاراً

لاكتشاف حقيقة الأمر، ولكن لسوء الحظ باتت تعرف الآن أنه يعرف، ولهذا

ستأخذ إجراءات احترازية إضافية.

«كنت تحبيني»، قال لها وقد غيّر تكتيكه الهجومية.

شحب لون سيلفي وقالت: «فليسامحني الربّ على هذا».

«بالله عليك. كنت تحبين تقبيلي».

«سَمِّ في العسل».

تقدّم خطوة إلى الأمام. لم يكن يرغب بتقبيلها فهو لم يرغب بهذا قط، بل

كان منظرها وهي خائفة أكثر إثارة.

«أعرف أنك ترغبين بتقبيلي مجدداً».

«سأقضم أنفك بدلاً من هذا».

انتابه شعور أنها كانت تعني ما تقوله ولكنه تابع مزاحه قائلاً: «علمت كل

شيء عن الحب».

«علمتني أن الرجل يمكن أن يكون مسيحياً وكاذباً حقيراً في نفس الوقت».

«جميعنا خطأون، ولهذا نحتاج إلى رحمة الرب».

«بعض الخطائين أسوأ من غيرهم... وبعضهم مصيره الجحيم».

«هل تُقبلين معجبك الإنكليزي».

شعرت بالخوف عند سماعها هذا، وشعر بيير برضا كبير عندما رأى خوفها. من الواضح أنه لم يخطر ببالها أنه قد يعرف شيئاً عن السير نيد ويلارد.

«لا أعرف عنن تتحدث؟» قالت له.

«بل تعرفين».

تمالكت نفسها بجهد وقالت: «هل أنت سعيد بجائزتك يا بيير؟» وأشارت إلى معطفه. «تملك ثياباً فاخرة الآن، ورأيتك راكباً على جواد بجانب دوق غيز. لقد حصلت على ما تريده. هل كان الأمر يستحق كل الشرور التي قمت بها».

لم يقاوم إغراء التبجح بما حصل عليه: «أملك المال والسلطة وهذا أكثر مما حلمت به يوماً».

«لم يكن هذا ما كنت تتوق إليه. يبدو أنك نسيت أنني أعرفك جيداً».

شعر بيير بالقلق فجأة.

تابعت سيلفي كلامها بقسوة: «كل ما أردته يا بيير أن تصبح واحداً منهم - فرداً من عائلة غيز التي رفضتك وأنت طفل».

«وها أنا قد أصبحت فرداً منهم»، قال لها.

«لا لم تصبح، فجميعهم يعرفون أصلك الحقيقي. أليس هذا صحيحاً؟».

أخذ شعور بالهلع يدب في أوصال بيير: «أنا أخلص مستشاري الدوق».

«ولكنك لست نسبيته. ينظرون إلى ثيابك الفاخرة ويتذكرون أنك ابن غير

شرعي لابن غير شرعي أيضاً، ويضحكون عليك وأن تحاول ادعاء العكس.

أليس هذا صحيحاً؟».

«من أخبرك بهذه الأكاذيب؟».

«ماركيزة نيم تعلم بكل هذا. فأنتما من المنطقه نفسها. لقد تزوجت

مجدداً، صحيح».

جفل بيير عند سماعه هذا، وتساءل إن كانت تتكهن أم تتحدث عن معرفة.

«زواجاً غير سعيد؟» تابعت كلامها. لم يكن بيير قادراً على إخفاء مشاعره، وقرأت سيلفي هذه المشاعر بشكل صحيح. «ولكنك لم تتزوج من امرأة نبيلة بل من امرأة ذات أصل حقير، ولهذا السبب تكرهها».

كانت سيلفي على حق. فلو نسي بيير يوماً من الأيام الطريقة التي حصل فيها على حق استخدام اسم عائلة غيز، فلا يزال لديه زوجة بغیضة وابنها المزعج ليذكرها بالثمن الذي دفعه لقاء هذا. لم يكن قادراً على كبح الامتعاض الذي ارتسم على وجهه.

رأت سيلفي هذا وقالت: «يا لها من امرأة مسكينة».

أراد بيير الالتفاف حول الطاولة وإيقاعها أرضاً ثم استدعاء حارسه الشخصي من الخارج ليضربها، ولكنه لم يتمكن من استجماع القوة على القيام بهذا. وبدلاً من هذا شلّه الخوف، وأعجزه الشك بنفسه عن القيام بشيء. كانت على حق فهي تعرفه حق المعرفة. لقد آذته بكلامها، وأراد الزحف خارجاً ولعق جروحه كحيوانٍ جريح.

وبينما كان يهم بالخروج دخلت والدتها إلى المتجر من الخلف وعرفته على الفور. بدت مصدومة جداً برؤيته، وتراجعت خطوة إلى الوراء في خوفٍ وقرق وكآتها رأت كلباً مسعوراً. ثم وبسرعة كبيرة تحولت صدمتها إلى غضب وأخذت تصرخ: «أيها الشيطان! لقد قتلت زوجي غيلز، ودمرت حياة ابنتي». ارتفع صوتها وتحول إلى صراخ وكأن نوبة جنون تملكها. تراجع بيير إلى الباب فيما تابعت إيزابيل كلامها: «لو كان بيدي سكين لكنت قطعتم أحشاءك اللعينة!» ثم أخذت تصرخ: «أيها القدر! يا ابن العاهرة! أيها اللعين سأخنقك بيدي».

هرع بيير خارجاً ووقف الباب وراءه.

خيم على الزفاف ومنذ البداية، جوٌّ يُنذر بالسوء.

تجمع الحشد في وقتٍ باكر من صباح يوم الإثنين؛ فالباريسيون لن يفوتوا هذا الحدث. أقيم مدرج في الساحة أمام كاتدرائية نوتردام، وكان مصنوعاً من الخشب ومغطى بقطعة قماشية ذهبية بالإضافة إلى ممرين مرتفعين باتجاه الكنيسة وقصر الأسقف المجاور لها. وبصفته شخصية

رفيعة ولكن ثانوية جلس نيد في مقعده المخصص له قبل ساعات على بدء المراسم. كان يوماً صافياً من أيام شهر آب/ أغسطس، والجميع يشعر بالحر، وقد اكتظت الساحة عند المدرج المؤقت بالمواطنين المتعرقين. وهناك عدد أكبر من المتفرجين من النوافذ وعلى أسطح المنازل المجاورة. كان الجو هادئاً ينذر بالشؤم. لم يرغب الكاثوليكيون الباريسيون المتشددون أن تتزوج أميرتهم المشاكسة من بروتستانتية بغيض، وتعاضم غضبهم خلال صلوات الأحد بفعل تحريض الوعاظ الذين قالوا لهم إن هذا الزواج أمر رهيب.

لم يكن نيد قادراً على تصديق أن الزفاف سيحدث حقاً، فقد يقوم الحشد بعصيان، ويوقفون المراسم. وهناك إشاعات تقول إن الأميرة مارغو تهدد بالرفض في آخر لحظة.

امتلاً المدرج شيئاً فشيئاً خلال النهار، وبحلول الثالثة من بعد الظهر وجد نيد نفسه يجلس بجانب جيرونيما رويز. خطط نيد للتحدث معها مجدداً بعد حديثهما الشيق في قصر اللوفر، ولكنه لم يحظَ بفرصة خلال الأيام الماضية. حياتها بحرارة وقالت له في حين: «ابتسامتك تشبه ابتسامة بارني».

«لا بد أن الكاردينال روميرو يشعر بخيبة الأمل»، قال نيد. «يبدو أن الزواج سيتم».

أخفضت جيرونيما صوتها قائلة: «لقد أخبرني روميرو بأمر قد يهملك». «أمر جيد؟!» كان نيد يأمل أن يُقنع جيرونيما بتسريب معلومات، ولكن يبدو أنها لم تكن بحاجة إلى أي إقناع.

«يملك دوق غيز قائمة بأسماء وعناوين أهم البروتستانتين في باريس، وقد كُلف كل نبيل كاثوليكي موثوق به بقتل بروتستانتية من هؤلاء البروتستانتين على اللائحة. إن وقع أي عصيان فسيقتل الهوغونيون».

«يا إلهي! هل يعقل أن يكونوا قساةً إلى هذه الدرجة؟»
«عائلة غيز كذلك».

«شكراً لك على إخباري بهذا».

«أرغب بقتل روميرو ولكنني لا أستطيع لأنني أحتاجه، رغم أن موته سيكون أفضل شيء قد يحدث لي».

حدّق نيد نحوها مسحوراً وخائفاً بعض الشيء. لم تكن عائلة غيز العائلة الوحيدة التي قد تقتل بدم بارد.

سرت مهمة بين الحشود قطعت المحادثة بينهما. التفت نيد وجيرونيما لمشاهدة موكب العريس قادماً من قصر اللوفر على جسر نوتردام من الضفة اليمنى باتجاه الجزيرة. ارتدى ملك نافار هنري دي بوربون حلة ساتانية صفراء فاتحة مطرزة بالفضة واللاّلي والأحجار الكريمة. رافقه نبلاء بروتستانتيون بمن فيهم ماركيز نيم. راقب مواطنو باريس هذا الموكب في صمتٍ وتجهّم.

استدار نيد ليتحدّث مع جيرونيما، ولكنها كانت قد غادرت وجلس ويلزنهام في مكانها بقربه.

«سمعت أمراً مرعباً»، قال نيد وأخبر ويلزنهام بما أخبرته به جيرونيما. «ربما لا يجب أن تتفاجأ»، قال ويلزنهام. «لقد وضعوا خططاً من كل بد». «وأصبحنا الآن نعلم بخطّهم وهذا بفضل تلك العاهرة الإسبانية». ابتسم ويلزنهام ابتسامة نادرة وقال: «حسناً يا نيد فهمت مقصدك».

خرج الملك شارل من قصر الأسقف وأخته العروس متأبطة ذراعه. كان الملك يرتدي حلة ساتانية صفراء فاتحة كحلة هنري دي بوربون في بادرة للتشديد على التعاضد الأخوي، ولكن الملك تقلّد حلياً أكبر وأكثر. عندما اقتربا مال ويلزنهام نحو نيد وقال في ازدراء: «علمتُ بأنّ كلفة حلة الملك وصلت إلى خمسمئة ألف ليرة».

لم يكن نيد قادراً على تصديق هذا وقال: «هذا يساوي مئة وخمسين ألف جنيه».

«أي ما يعادل نصف الميزانية السنوية للحكومة الإنكليزية».

ارتدت الأميرة مارغو ثوباً مخملياً بلونٍ بنفسجي براق وعباءة زرقاء، وقامت ثلاث وصيفات بحمل ذيل فستانها الطويل، وفكر نيد أنّ الأميرة ستشعر بالحرّ في هذا الفستان. يقولون إنّ جميع الأميرات جميلات، ولكن مارغو جميلة بحق. كانت تملك وجهاً شهنائياً وعينين كبيرتين وحاجبين داكنين وشفيتين حمراوين وكانهما دعوة للتقيل. ولكن هذا الوجه الجميل اليوم اكتسى بامتعاض شديد.

«إنها ليست سعيدة»، قال نيد لويلزنهايم.

هز ويلزنهايم كتفيه وقال: «إنها تعرف مذ كانت طفلة أنها لا تستطيع اختيار زوجها. هناك ثمن يجب دفعه مقابل الحياة الباذخة جداً التي تعيشها العائلة الملكية الفرنسية». مكتبة سُر من قرأ

تذكر نيد زواج مارجوري المُدبر وقال: «أتعاطف مع مارغو».

«إن صدقت الإشاعات عنها فهي لن تدع نذور الزواج تمنعها من التصرف على طبيعتها».

مشى خلف الملك إخوته وجميعهم في أردية ساتانية صفراء. كانوا جميعاً يريدون إيصال رسالة إلى الحشد؛ وهي أن عائلتي فالوا وبوربون تأختا منذ الآن فصاعداً. سارت وراء العروس مئة امرأة نبيلة على الأقل. لم يرَ نيد من قبل مثل هذا العدد من الجواهر في مكان واحد، فقد كانت كل امرأة منهن ترتدي جواهر أكثر مما تملكه الملكة إليزابيث.

على الرغم من هذا كله لم يهلل أحد من الحشد.

تحرك الموكب ببطء على طول الممر العالي باتجاه المدرج، وهناك أخذت العروس مكانها بقرب العريس. كانت هذه هي المرة الأولى التي تتزوج فيها امرأة كاثوليكية من رجل بروتستانتي في حفل زفاف ملكي، وقد تمّ الإعداد لمراسم معقدة تجنباً لأيّ إساءة إلى أي طرف من الأطراف.

وفقاً للتقاليد يجب أن تقام طقوس الزفاف خارج الكنيسة. أشرف الكاردينال بوربون على طقوس تبادل النذور. ومع مرور الدقائق والكلمات التي قيلت شعر نيد بوقار هذه اللحظة مع انتقال هذا البلد العظيم شيئاً فشيئاً نحو الحرية الدينية المثالية. كان هذا ما تاق إليه نيد، وما أرادته الملكة إليزابيث، وما احتاجته سيلفي بالو.

وأخيراً سأل الكاردينال مارغو إن كانت تقبل بملك نافار زوجاً لها.

حدّقت مارغو إلى الكاردينال بشفتين مزمومتين وبوجه خالٍ من أيّ تعابير.

فكر نيد أنّ مارغو لن تُفسد حفل الزفاف بعد وصوله إلى هذه المرحلة، ولكن الناس يقولون عنها إنها عنيدة.

نقل العريس وزنه من رجلٍ إلى رجلٍ أخرى بنفاد صبر.

حدّقت الأميرة والكاردينال بعضهما ببعض لوقتٍ طويل .
تقدم الملك الذي وقف خلف أخته ووضع يده على رأسها من الورااء ودفعه .
بدت الأميرة مارغو كأنها هزّت برأسها .
فكر نيد أنّ هذه لم تكن موافقة، وأن الرّبّ والحشد الذي كان يراقب
يعلمان بهذا، ولكنها كانت موافقة كافية للكاردينال الذي سارع إلى إعلانهما
زوجاً وزوجة .

لقد تزوجا الآن، ولكن إن وقع خطبٌ ما قبل إكمال الزواج فسيتم إبطاله .
توجه موكب العروسين إلى الكاتدرائية من أجل قداس الزفاف . غادر
العريس أثناء المراسم الكاثوليكية ولكنه عاد فوراً بعد انتهائها .

وقف هنري خارج الكنيسة مع جنرال الهوغونيين غاسبار دي كوليني . لم
يقصدا توجيه أيّ إساءة، ولكن سلوكهما أوحى بأنهما كانا يتحدثان بازدراء
عن الطقوس التي تحدث في الداخل . هذا حتماً ما شعر به الحشد الذي بدأ
يصرخ معترضاً، ويغني أغنية الانتصار :

أونغ-ست!

ها! ها! ها!

أونغ-ست!

ها! ها! ها!

كانت الأغنية مزعجة جداً للهوغونيين لأن قائدهم يتعرض إلى التعذيب
في زرنانات دوق ألبا .

كان النبلاء يتحركون على المنصة ويتحدثون ولكن عندما ارتفع صوت
الغناء توقفوا عن الحديث ونظروا حولهم في خوف .

قامت مجموعة من الهوغونيين على سطح أحد البيوت المجاورة
بالانتقام وغناء أحد المزامير وبدأت مجموعات أخرى بالانضمام إليهم، ثم
انطلقت مجموعة من الحشد في الأسفل نحو المنزل .

كان هذا المشهد يحمل كل علائم بداية عصيان، وإن وقعت أعمال
شغب فلن يعود للزفاف أي تأثير سلمي .

لمح نيد صديق ويلزنهاام الماركيز لاني بقبعته المطرزة بالجواهر فتوجه
نحوه بعجل .

«ألا يمكنك أن توقف الهوغونيين عن الغناء؟» قال له نيد. «إنهم يشيرون غضب الحشد، وسنخسر كل ما عملنا من أجله إن وقعت أعمال شغب». «لا يمكنني أن أوقف الغناء إن لم يتوقف الكاثوليكيون عن الغناء»، قال لاني.

نظر نيد حوله بحثاً عن صديق كاثوليكي ورأى أفروديت بيلو. أخذها نيد جانباً وتحدث إليها: «ألا يمكنك أن تطلبي من أحد القساوسة أو من أي شخص آخر أن يوقف الحشد عن غناء هذه الأغنية؟ إن الأمور تتطور باتجاه أعمال شغب رهيبية».

كانت أفروديت فتاة ذكية وقد رأت الخطر المحقق في هذا الوضع: «سأدخل إلى الكنيسة وأتحدث إلى والدي».

لمعت عينا نيد وهو ينظر إلى هنري بوربون وغاسبار دي كوليني، وأدرك أنهما سبب المشكلة. عاد نيد إلى لاني وقال له: «هل يمكنك أن تخبر هذين الاثنين أن يختفيا؟ أنا واثق من أنهما لا يقصدان ما فعلاه، ولكنهما يستفزان الحشد».

هز لاني رأسه وقال: «سأتحدث إليهما فهما حتماً لا يرغبان بأيّ متاعب». وسرعان ما اختفى الرجلان في قصر الأسقف. خرج كاهن من الكاتدرائية، وأخبر الحشد أنهم كانوا يشوشون على مراسم القداس فتوقف الغناء بين الكاثوليكين في الحشد وبين الهوغونيين على أسطح المنازل، وعمّ الهدوء الساحة مجدداً.

اعتقد نيد أن الأزمة انتهت... ولكنها لم تنتهِ إلا مؤقتاً.

بعد حفل الزفاف استمرت الاحتفالات الباذخة لثلاثة أيام من دون وقوع أيّ أعمال شغب، وشعر بيير بخيبة كبيرة.

وقعت مشاجرات في الشوارع والحانات، واشتبك البروتستانتيون المبتهجون مع الكاثوليكين الغاضبين ولكن من دون أن يتحوّل أي من هذه الاشتباكات إلى معركة كبيرة على مستوى المدينة كما كان يأمل بيير.

لم يكن بوسع الملكة كاترينا احتمال وقوع أيّ مواجهات عنيفة، وآمن كوليني كبقية الهوغونيين الأكثر دهاء، بأن أفضل استراتيجية هي تجنب

سفك الدماء. وبجهود المعتدلين من الطرفين لم يُعكر شيء صفو الجو السلمي في المدينة.

شعرت عائلة غيز باليأس وهي ترى نفسها تخسر السلطة والمكانة شيئاً فشيئاً وإلى الأبد، ولكن لدى بيير خطة.

والخطة هي اغتيال غاسبار دي كوليني.

في يوم الخميس وأثناء اجتماع النبلاء لحضور المباراة، التي كانت أهم احتفالية وسط هذه الاحتفالات، وقف بيير مع جورج بيرون في إحدى الغرف القروسطية القديمة في قصر اللوفر. كانت الأرضية قدرة وحجارة الجدران من النوع الخشن.

حرك بيرون الطاولة ونقلها باتجاه نافذة من أجل إضاءة أفضل. وأخرج من كيس كتاني بندقية بماسورة طويلة.

«إنها بندقية قديمة الطراز»، قال بيير. «ولكن بماسورتين».

«فإن لم يُصب كوليني بأول طلقة سيكون لدينا فرصة ثانية لإصابته».

«جيد جداً».

أشار بيرون إلى آلية الإطلاق وقال: «إنها تعمل بآلية القدح».

«إذاً، هي تقدح من تلقاء نفسها! ولكن هل ستقتله».

«أجل، ومن مسافة تصل إلى مئة ياردة».

«سيكون من الأفضل لو استخدمت بندقية المسكيت». إن المسكيت بندقية إسبانية أكبر وأثقل وزناً وستكون أيّ طلقة كفيفة بإحداث إصابة قاتلة. هز بيرون رأسه بالنفي وقال: «سيكون إخفاؤها أمراً صعباً جداً، وسيعرف الجميع عند رؤيتها ما الذي يخطط له حاملها. علاوة على هذا فإن لوفزیه ليس شاباً، ولست واثقاً من أنه سيكون قادراً على التعامل مع بندقية إسبانية.» يتطلب حملها قوة كبيرة، ولهذا السبب كان حملة هذا النوع من البنادق من أصحاب البنية الضخمة».

كان شارل لوفزیه قد بقي في أورليون بعد فشل محاولة اغتيال أنطوان دي بوربون بسبب تردد الملك فرانسيس الثاني وليس بسبب خطئه. خلال السنوات التي تلت تلك المحاولة اغتال لوفزیه قائداً هوغونياً يدعى القائد لوزيه، وربح جائزة وصلت إلى ألفي ليرة. إن لوفزیه من طبقة النبلاء، ولهذا

السبب اعتقد بيير أن لوفزييه لن يحث بوعده كما سيفعل أي قاطع طريق شعبي قد يغير موقفه مقابل زجاجة من النبيذ. كان بيير يأمل بأنه قام بالقرار الصائب بجلب لوفزييه إلى باريس.

«حسناً»، قال بيير. «لنلق نظرة على الطريق».

أعاد بيرون البندقية إلى الكيس وخرج إلى الفناء. كان هناك جداران في الفناء يشبهان جدران القلاع القروسطية وآخران كجدران القصور الإيطالية الحديثة.

«عادةً عندما يخرج كوليني من مسكنه هنا ويعود يرافقه حراس شخصيون يصل عددهم إلى عشرين رجلاً مسلحاً»، قال بيرون.
«هذه مشكلة».

سار بيير على الطريق الذي سيسير عليه كوليني، والذي يبدأ من البوابة القروسطية إلى شارع دي بوليه. تملك عائلة بوربون قصرًا قبالة قصر اللوفر وبجانبه قصر أخي الملك هركيول فرانسيس. نظر بيير على طول الشارع وقال: «أين يسكن كوليني؟».

«عند الزاوية في شارع دي بيتزيه وعلى بعد بضع خطوات».
«لنلق نظرة».

سارا باتجاه الشمال مُبتعدين عن النهر.

كان التوتر في الشوارع ما يزال شديدًا، وبوسع بيير رؤية الهوغونيين في أريدتهم السوداء والرمادية الرزينة ولكن الباهظة يسيرون في الأرجاء وكأنهم يملكون المدينة. ولو كان لديهم ذرة عقل لما نظروا كأنهم منتصرون، ثم فكر بيير أنهم لو كانوا يملكون ذرة عقل لما أصبحوا بروتستانتين أصلاً.

كره الكاثوليكيون الباريسيون المتعصبون هؤلاء الزوار، وكان تسامحهم هشاً أشبه بجسرٍ من القش ينوء تحت عربة بعجلات معدنية.

وبوجود ذريعة جيدة سيغدو كلا الطرفين مسعورين وسيقتل أناس كثر، وستندلع الحرب الأهلية مجدداً، وتنتهي اتفاقية صلح سان جيرمين على الرغم من هذا الزواج الملكي.

وكان بيير سيُقدم هذه الذريعة.

تفحص بيير الشارع بحثاً عن نقطة أفضلية يمكن لرجل مسلح أن يقف

فيها ويطلق النار على أي عابر. بحث عن برج أو شجرة كبيرة أو نافذة في عليه، ولكن المشكلة الحقيقية أن الرجل المسلح سيحتاج إلى طريق ليهرب منه فالحراس الشخصيون سيطاردهونه.

وقف بيير في الخارج وأدرك أنه أمام المنزل الذي يعود إلى والدة هنري دي غيز، آنا ديست. تزوجت آنا مرة ثانية بعد وفاة زوجها، وأصبحت الآن دوقة نيمو، إلا أنها ما زالت تكره كوليني وتعتقد أنه المسؤول عن وفاة زوجها الأول. في الحقيقة لقد بذلت آنا جهوداً كبيرة، تماماً كما فعل بيير، لإبقاء توك الدوق الشاب هنري إلى الانتقام مشتعلاً، ولذلك لن تتردد في التعاون مع بيير في هذا الأمر.

تفحص بيير واجهة المنزل ونوافذ الطابق العلوي والنباتات المتسلقة التي تدلت منها. كانت هذه النباتات لمسة جميلة من قبل الدوقة، ووجد بيير أن الغسيل قد نُشر على هذه التعريشات ليجف مما يعني أن الدوقة ليست في المنزل، وفكر بيير أن غيابها أفضل من وجودها.

قرع بيير الباب. فتح له خادم تحدث معه بلهجة تنم عن الاحترام والخوف عندما عرف من يكون.

«طاب يومك مسيو دي غيز. أرجو أن أكون ذا عونٍ لك».

أحبّ بيير هذه اللهجة التي توحى بالتبعية، إلا أنه كان يتظاهر على الدوام بأنه لا يلاحظها، واندفع إلى داخل المنزل من دون أن يجيب على الرجل. صعد بيير الدرج، ولحق به بيرون الذي ما زال يحمل بيده الكيس وبداخله البندقية.

كان في القسم الأمامي من الطابق العلوي غرفة جلوس كبيرة. فتح بيير النافذة. ورغم أن الغسيل كان يتحرك مع النسيم تمكن بيير من الرؤية وبوضوح، لجهتي الشارع المفضي إلى قصر اللوفر.

«أعطني البندقية»، قال بيير لبيرون.

أخرج بيرون البندقية من الحقيبة. وضعها بيير على إفريز النافذة ثم نظر عبر الماسورة. رأى زوجين حسني الهندان يقتربان وقد تأبط أحدهما ذراع الآخر. صوب بيير البندقية نحو الرجل، وفوجئ عندما عرف أنه ماركيز نيم العجوز. أبعد بيير نظره عن مرمى البندقية، وتفحص المرأة في الثوب

الأصفر الزاهي. إنها المركيزة لويز التي سببت له الإحراج مرتين. حدثت المرة الأولى منذ زمنٍ بعيد عندما تصرفت معه بتعالٍ، أما المرة الثانية فكانت في شارع دو لا سيربونت عندما واجهته سيلفي بأسراره التي أخبرتها لويز بها. يستطيع بيير الانتقام منها الآن، وليس عليه أن يفعل شيئاً سوى الضغط على الزناد، وصوبَ البندقية إلى صدرها. رغم أنها كانت في منتصف الثلاثينات فإنها ما زالت مثيرة وثديها أكبر من أي وقتٍ مضى. تاق بيير إلى تلطيخ ثوبها الأصفر بدمها الأحمر الزاهي.

سيحصل على انتقامه في يومٍ من الأيام، ولكن الوقت لم يحن بعد. هزّ رأسه ونهض ثم قال لبيرون: «هذه نقطة جيدة»، وسلّمه البندقية. خرج بيير من الغرفة، ورأى الخادم يقف عند مطلع الدرج بانتظار أيّ أوامر منه.

«لا بدّ أن يكون للمنزل باب خلفي؟»، قال بيير له.

«أجل يا سيدي. هل تريدني أن أدلّك عليه؟».

هبط الرجلان الدرج ودخلا من المطبخ إلى غرفة الغسيل، ومن ثمّ إلى فناء ببوابة. فتح بيير البوابة ووجد نفسه في كنيسة سان جيرمان لو سيغوا. «هذا ممتاز»، قال بيير لبيرون بصوتٍ خفيض ثم تابع: «يمكنك أن تترك حصاناً مُسرجاً هنا كي يهرب لوفزييه بسرعة بعد إطلاق النار».

هزّ بيرون رأسه موافقاً وقال: «سينجح الأمر».

عادا إلى المنزل، وقدم بيير إلى الخادم ليرة ذهبية ثم قال له: «أنت لم ترني هنا اليوم، ولم ترّ أحداً أو أي شيء».

«شكراً لك يا سيدي»، قال الخادم.

وقف بيير يفكر لبعض الوقت وقد أدرك أن المال وحده لا يكفي ثم قال: «أنت تعرف أن عائلة غيز تعاقب من لا يتصرفون بولاء».

بدا الرجل مرتعباً وقال: «فهمت يا سيدي. لقد فهمت حقاً».

هزّ بيير رأسه وغادر. أن يكون المرء مرهوب الجانب أفضل من أن يكون محبوباً.

سار بيير على طول الشارع إلى أن وصل إلى مقبرة صغيرة خلف جدار

واطئ تطوقه أشجار، وعبر الشارع ثم نظر إلى الخلف وألقى نظرة واضحة على منزل عائلة نيمو.
«ممتاز»، قال مجدداً.

في صباح يوم الجمعة كان على كوليني الذهاب إلى اجتماع المجلس الملكي في قصر اللوفر. إن حضور الاجتماع إلزامي، وسيُنظر إلى غيابه كتمرد وإهانة للملك. إن ادعى أنه مريض جداً ولا يسعه النهوض من السرير وأرسل اعتذاراً تافهاً على عدم تمكنه من حضور الاجتماع فسيستهزئ به الملك ويقول إنه لو كان مريضاً إلى هذه الدرجة فلماذا لم يمت بعد.
إن اتخذ كوليني طريقه المعتاد إلى القصر فسيمر بمنزل عائلة نيمو في طريق عودته من القصر.

بحلول منتصف النهار تمركز لوفزييه في موقعه عند نافذة الطابق العلوي. ووقف بيرون عند البوابة الخلفية ممسكاً بلجام حصان سريع وجاهز، أما بيير فانظر في المقبرة خلف الأشجار ليراقب ما سيحدث من وراء الجدار الواطئ. ولم يكن بوسعهم ثلاثتهم فعل أي شيء الآن سوى الانتظار.
أعطى هنري دي غيز موافقته على خطة بيير، وكان ندمه الوحيد في هذه الخطة هو أنه لن يكون الشخص الذي سيحظى بفرصة إطلاق الرصاصة التي ستقتل الرجل المسؤول عن قتل والده.

ظهرت مجموعة مؤلفة من خمسة عشر أو عشرين رجلاً عند نهاية الشارع، وبدأ بيير يشعر بالتوتر.

كان كوليني رجلاً وسيماً في منتصف الخمسين من عمره بشعرٍ فضي مجعد ومرتب بعناية ولحية تتماشى مع شعره. مشى كوليني باستقامة جندي، ولكنه كان يقرأ وهو يمشي ولهذا سار ببطء، وفكر بيير بحماس وترقب أن هذا سيكون مفيداً للوفزييه. أحاط بكوليني رجال مسلحون ومرافقون آخرون إلا أنهم لم يبدو متيقظين جداً، فقد كانوا يتحدثون ويحدقون حولهم بفضول من دون أن يبدو عليهم خوف كبير على أمان قائدهم. لقد غدوا متراخين في عملهم.

سارت المجموعة وسط الشارع، وفكر بيير أن الوقت لم يحن بعد

ليُطلق لوفزيه النار. ما زالت المسافة بعيدة، وسيكون صعباً على لوفزيه إصابة كوليني مع كل هؤلاء الناس من حوله، ولكن مع اقتراب المجموعة من المنزل منحتة نقطة الأفضلية في الطابق العلوي زاوية ممتازة لتحقيق إصابة مميتة.

اقرب كوليني أكثر، وفكر بيير أنه وخلال بضع ثوانٍ ستغدو الزاوية أفضل، وأن كوليني قد أصبح على مرمى نظر لوفزيه الآن. وها هو الوقت قد حان. فكر بيير أن الوقت المناسب قد حان الآن، وأن على لوفزيه ألا يتأخر أكثر...

وفجأة توقف كوليني عن السير، وأخذ يتحدث إلى أحد المرافقين. في تلك اللحظة سُمع صوت طلقة نارية. حبس بيير أنفاسه، وتجمد أفراد جماعة كوليني في أمكتهم. في تلك اللحظة من الصمت الذاهل أطلق كوليني شتيمة ثم أمسك ذراعه اليسرى بيده اليمنى. لقد جُرح.

تعاضم يأس بيير عندما أدرك أن توقف كوليني المفاجئ أنقذ حياته. ولكن بندقية لوفزيه بماسورتين وها هي الطلقة الثانية تخرج فوراً بعد الطلقة الأولى. سقط كوليني هذه المرة ولم يعد بيير قادراً على رؤيته. هل مات كوليني؟

طوّق المرافقون كوليني وعمّت الفوضى. كان بيير يائساً لمعرفة ما حدث، ولكنه لم يكن قادراً. ولاح شعر كوليني الفضي وسط الحشد. هل يقومون برفع جثته؟ ثم رأى بيير كوليني صاحبياً ويتحدث مع من حوله. لقد وقف وهو حي!

فكر بيير: «هيا يا لوفزيه فلتعد تلقيم البندقية ولتطلق النار بسرعة». ولكن بعض حراس كوليني كانوا قد استوعبوا ما حدث وأخذوا ينظرون حولهم، وأشار أحدهم إلى الطابق العلوي لمنزل عائلة نيمو حيث تحركت الستارة البيضاء للنافذة المفتوحة، وركض أربعة رجال باتجاه المنزل. تساءل بيير إن كان لوفزيه يعيد تلقيم سلاحه الآن. كان الرجال قد دخلوا إلى المنزل. وقف بيير ونظر من فوق جدار المقبرة وقد تجمد في مكانه بانتظار سماع دوي طلقة أخرى، ولكن لم يتناه إلى سمعه أي صوت. إن كان لوفزيه ما يزال في مكانه فلا بدّ أنهم أمسكوا به الآن.

عاد بيير بنظره مجدداً إلى كوليني الذي كان يقف الآن بمساعدة رجاله. رغم أن الرجل جرح فقط فإنه قد يموت. وبعد مرور بعض الوقت أخذ يُبعد رجاله من حوله، وطالبهم بمنحه بعض المساحة فابتعدوا عنه. تمكن بيير من رؤية كوليني بشكل أفضل وهو يقف من دون مساعدة وقد قاطع ذراعيه على صدره والدم يغطي كُميه وسترته. خاب أمل بيير عندما أدرك أن جروح كوليني سطحية، وأنه بدأ يمشي بعد أن أفسح له رجاله الطريق، وهو متوجه الآن إلى المنزل وحده قبل أن يُسلم نفسه لعناية الطبيب.

ظهر الرجال الذين دخلوا إلى منزل نيمو مجدداً وأحدهم يحمل البندقية بيده. لم يسمع بيير ما كانوا يقولونه، ولكنه تمكن من قراءة حركاتهم عندما هزوا رؤوسهم في نفي أو رفعوا أكتافهم في إشارة إلى انعدام الحيلة، أو لوحوا بأذرعهم في إشارة إلى هروب القاتل بسرعة. إذاً، لقد هرب لوفزييه. اقتربت المجموعة من المكان الذي اختبأ فيه بيير الذي التفت إلى الورااء وهرع خارج المقبرة عبر البوابة مبتعداً يأكله الشعور بالمرارة والخيبة.

حالما وصلت الأخبار إلى نيد وويلزنهام عرفا أن هذا سيضع نهاية لكل ما كانا والملكة إليزابيث معهما، يطمحون إليه.

هرعا على الفور إلى شارع بيتزيه، ووجدا كوليني ممدداً على السّرير وقد أحاط به بعض من أبرز الشخصيات الهوغونية ومن بينها الماركيز لاني. حضر العديد من الأطباء ومن بينهم الجراح الملكي أمبروز باريه الذي كان في الستين من عمره بخط شعرٍ متراجع ولحية سوداء طويلة منحنه مظهراً وقوراً.

يعلم نيد أن الطريقة التقليدية في تعقيم الجروح هي الكي إما باستخدام الزيت المغلي أو قطعة معدنية حامية. كان الأمر مؤلماً وقد تسبب الصدمة موت المريض أحياناً. ولكن باريه فضل استخدام مرهم يحوي على زيت التريبتين لإيقاف التهاب الجرحين. كان باريه قد وضع كتاباً حول هذا بعنوان طريقة علاج جروح البنادق والسهام. لكن ورغم النجاح الذي حققه لم تحقق طرقة انتشاراً واسعاً فقد كانت الممارسات الطبية ما تزال تقليدية.

بدا كوليني شاحباً ومتألماً بشدة، إلا أنه كان في كامل قواه العقلية. شرح

لهما باريه أن إحدى الرصاصتين قطعت طرف سبافته اليمنى، أما الثانية فقد استقرت في مرفقه الأيسر. كان باريه قد أخرج الرصاصة، وبالنظر إلى شدة شحوب وجه كوليني يبدو أن العملية كانت مضية جداً. عرض عليهما باريه الرصاصة التي تشبه كرة رصاصية عرضها نصف إنش.

قال لهما باريه إن كوليني سيعيش، وشعرا براحة كبيرة لسماعهما هذا، ولكن الهوغونيين سيستشيطنون غضباً بسبب محاولة قتل بطلهم، وسيكون إيقافهم عن القيام بأي شغب تحدياً حقيقياً.

تحلق العديد ممن كانوا يتوقون إلى القتال حول السيرير. كان أصدقاء كوليني متعطشين للثأر، وجميعهم على ثقة أن دوق غيز وراء محاولة الاغتيال، وأرادوا الذهاب إلى قصر اللوفر حالاً لمواجهة الملك، ومطالبته باعتقال هنري دي غيز فوراً، وتهديده بثورة بروتستانتية على مستوى البلد، بل قدم أحدهم اقتراحاً غيبياً بأخذ الملك سجيناً.

حثهم كوليني على ضبط النفس إلا أنه تحدث بذلك الصوت الضعيف الذي سيكون لرجل مجروح طريح الفراش.

جاهد ويلزنهايم لكبح جماحهم قائلاً: «لدي معلومات قد تهمكم». ولأن ويلزنهايم يمثل الدولة البروتستانتية الكبرى والوحيدة في العالم فقد أصغى إليه النبلاء الهوغونيون بعناية.

«إن الكاثوليكيين المتطرفين قد استعدوا لمواجهة عصيانكم. لدى الدوق غيز خطة للقضاء على أي محاولة بروتستانتية عنيفة قد تحدث بعد حفل الزفاف، وكل شخص في هذه الغرفة...» نظر حوله بعناية وتابع: «تم تعيين قاتل شخصي من بين الأرستوقراطيين الكاثوليكيين المتشددين لكل شخص في هذه الغرفة».

كانت أخباراً صادمة، وتعالى همهمات فزع وسخط.

خلع ماركيز لاني قبعته المزدانة بالجواهر وأخذ يحك رأسه الأصلع وقال مشككاً: «عذراً أيها السفير ويلزنهايم ولكن كيف لك أن تعرف أمراً كهذا».

شعر نيد بالتوتر رغم أنه كان واثقاً تمام الثقة بأن ويلزنهايم لن يكشف اسم جيرونيما رويز، فقد يكون لديها معلومات إضافية ومهمة لهما، ولم يُرد نيد خسارة هذا المصدر.

لحسن الحظ لم يُفصح ويلزنهايم عن مصدر نيد وكذب قائلاً: «بالطبع لدي جاسوس في منزل عائلة غيز».

كان الماركيز لاني رجلاً مسالماً في الأحوال العادية إلا أنه تحدى لويلزنهايم قائلاً: «إذاً، علينا أن نتحضر جميعاً للدفاع عن أنفسنا».

«إن الهجوم أفضل دفاع»، قال أحد الحاضرين.

وأبدي الجميع موافقتهم على هذا الكلام.

رغم أن نيد كان أصغر الحاضرين فإنه كان يملك شيئاً يستحق القول، ولهذا تحدث بصوت عالٍ: «الدوق غيز يتبنى حدوث عصيان بروتستانتية مسلح حتى يجبر الملك على إلغاء اتفاقية صلح سان جيرمين. إن قمتم بهذا ستقعون في فخه».

ولكن ما قاله نيد لم يلقَ صدى لأنّ دماء الحاضرين كانت تغلي من الغضب. وفي هذه اللحظة وصل الملك شارل.

شكّل وصول الملك صدمة لهم فلم يتوقع أحد قدومه. وها هو الملك يصل من دون سابق إنذار وبرفقته الملكة الأم كاترينا. توقع نيد أن هذه الزيارة المفاجئة ليست فكرة الملك بل كاترينا. كان برفقة الملك حشد من رجال البلاط من بينهم نبلاء كاثوليكيون يكرهون كوليني، ولاحظ نيد أن دوق غيز لم يكن برفقتهم.

جلس الملك شارل على العرش منذ أحد عشر عاماً، ولكنه ما زال في الحادية والعشرين من العمر. نظر إليه نيد ولاحظ أنه يبدو صغيراً وضعيفاً جداً بشكل خاص اليوم. ارتسم على وجهه الشاحب بشاربيه الخفيفين ولحيته التي بالكاد ترى، كربٌ وقلق.

ارتفعت معنويات نيد قليلاً لأنّ قدوم الملك بهذه الطريقة يُعد بادرة تعاطف غير مألوفة، وبالكاد يستطيع الهوغونيون تجاهلها.

«قد يكون الألم أملك ولكن الغضب غضبي»، قال الملك.

بدا واضحاً أن الملك قد جهز نفسه لقول هذا مسبقاً بنية أن يتكرر صداه في جميع أرجاء باريس ولكن لا ضير في هذا.

أحضروا بسرعة كرسيّاً من أجل الملك الذي جلس قبالة السرير: «أقسم لك أنني سأجد الشخص المسؤول...».

«إنه هنري دي غيز»، تمتم أحد الحاضرين.

«... أياً يكن هذا الشخص»، وتابع الملك: «لقد قمت بتعيين لجنة تحقيق، والمحققون الآن يقومون باستجواب الخدم في المنزل الذي تمركز فيه القاتل».

من وجهة نظر نيد كان ما قاله الملك شكلياً؛ فالتحقيق الرسمي لا يعد محاولة صادقة للوصول إلى الحقيقة. فما من ملك عاقل سيسمح لرجال مستقلين بالتحكم في تحقيق قد تُفضي نتائجه إلى وقوع أعمال شغب. يعد تعيين لجنة استقصاء تكتيكياً للمماطلة حتى تُكشف الحقائق ويُكبح الغضب، إلا أنه كان تكتيكاً جيداً.

«أرجو منك»، قال الملك وتابع: «أن تأتي إلى قصر اللوفر وتبقى قريباً من العائلة الملكية حيث ستكون بأمان وبعيداً عن أي أذى».

فكر نيد أن هذا الاقتراح ليس بالاقترح الجيد. لم يكن كوليني بأمان في أي مكان، ولكنه سيكون بأمان أكبر هنا بين أصدقائه مما قد يكون وهو تحت الحماية غير المضمونة للملك شارل.

وعلت وجه كوليني علائم تشكيك أيضاً، إلا أنه لم يكن قادراً على قول هذا خوفاً من إهانة الملك.

سارع أمبروز باريه إلى إنقاذ كوليني قائلاً: «يجب أن يبقى هنا يا جلالة الملك فأني حركة كفيلة بفتح جروحه، ولا يمكنه تحمل خسارة المزيد من الدماء».

أبدى الملك موافقته على كلام الطبيب بإيماءة من رأسه وقال: «في هذه الحالة سأرسل اللورد كوسان مع فرقة من خمسين جندياً من حملة الرماح والبنادق لتعزيز مجموعة حراسك الشخصيين الصغيرة».

تجهم نيد فقد كان اللورد كوسان رجل الملك، ولم يكن للرجال ممن يدينون بالولاء لرجل آخر قيمة كبيرة ومضمونة، وتساءل نيد إن كان شارل يتصرف بكرم ساذج ويأثس حتى يُرضي كوليني؟ كان يافعاً وبريئاً جداً على إدراك أن عرضه لن يلقي ترحاباً.

ولكن بعد رفض البادرة الأولى من الملك فرضت قواعد اللباقة على كوليني قبول الثانية: «هذا من لطفك يا جلالة الملك».

وقف شارل استعداداً للمغادرة وقال بكل غضب: «سأنتقم على هذه الإهانة».

نظر نيد حوله إلى قادة الهوغونيين، ولاحظ من طريقة وقوفهم والتعبير التي ارتسمت على وجوههم أن العديد منهم ينحون إلى تصديق الملك ومنحه فرصة لمنع سفك الدماء.

وخرج الملك من الغرفة على عجل. لحقت به الملكة كاترينا وقد التقت عينها بعيني نيد الذي أوماً برأسه إيماءة بسيطة في شكرٍ لها على إحضار الملك إلى هنا وإحلال السلام، ولمح نيد سريعاً عند زاوية فمها ابتسامة بالكاد ترى وكأنها تقول له بها: «أنتَ على الرحب والسعة».

قضى نيد معظم يوم السبت في تشفير رسالة طويلة من ويلزنهايم إلى الملكة إليزابيث يسرد فيها بالتفاصيل أحداث أسبوعٍ مضمّنٍ وصراع الملكة كاترينا للحفاظ على السلم. أنهى الرسالة في وقتٍ متأخر من بعد الظهر، وغادر السفارة متوجهاً إلى شارع دو لا سيربونت.

كانت أمسية دافئة احتشد فيها الشباب خارج الحانات يشربون ويسخرون من المتسولين ويصفرون للفتيات. وبالأموال في جيوبهم والطاقة التي تفور منهم لم يكونوا مختلفين عن الشباب في كينغزبريدج. ستحدث شجارات لاحقاً لأن هذا ما يحدث دوماً في ليالي السبت. لم يرَ نيد بينهم أي هوغونيين فلربما اختاروا الابتعاد عن الشوارع، واكتفوا بتناول العشاء خلف أبوابهم الموصدة. وبمساعدة الحظ لن تندلع أيّ أعمال شغب الليلة، وغداً سيكون يوم الأحد.

جلس نيد في القسم الخلفي من المتجر مع سيلفي وإيزابيل. أخبرته أن بيير أوموند قد زارهما.

«اعتقدنا أنه نسي أمرنا»، قالت إيزابيل بقلق. «لا نعلم كيف عثر علينا».

«أنا أعلم»، قال نيد وهو يشعر بالذنب. «كان أحد رجاله يلاحقني، ولا بد أنه لحق بي إلى هنا عندما أتيت لتناول العشاء الأسبوع الماضي. أنا آسف جداً. لم أكن أعلم أنني مراقب إلا أنني اكتشفت هذا بعد أن غادرت».

«كيف علمت أن الرجل الذي يراقبك يعمل مع بيير؟» سألت سيلفي.

«ضربته ووضعت سكينى على رقبته وقلتُ له إننى سأنحر عنقه ما لم يخبرني». «حقاً!!».

صمتت المرأتان لدقيقة، وأدرك نيد أنهما لم تتخيلاه حتى الآن منخرطاً في عمل عنيف. أخيراً كسر نيد الصمت قائلاً: «ما الذي سيفعله بيير برأيكما؟». «لا أعلم»، قالت سيلفي. «يجب أن أكون أكثر حذراً لبعض الوقت». أخبرهما نيد بزيارة الملك لكوليني الجريح، وانتبهت سيلفي فوراً إلى فكرة أن هناك قائمة بأسماء البروتستانتين وقاتليهم. «إن كان لدى الدوق غيز مثل هذه القائمة فلا بد أن بيير من أعدها»، قالت سيلفي.

«لا أعلم ولكن الأمر وارد»، قال نيد وتابع: «من الواضح أنه رئيس جواسيس الدوق».

«في هذه الحالة»، قالت سيلفي. «أعلم أين هي هذه القائمة».

استقام نيد في جلسته وقال: «حقاً؟ أين؟».

«لدى بيير دفتر يحتفظ به في منزله، وهو يعتقد أن منزله أكثر أماناً من قصر عائلة غيز».

«هل رأيته؟».

هزت سيلفي رأسها بالإيجاب وقالت: «رأيته لمراتٍ كثيرة، ولهذا السبب أعرف أسماء البروتستانتين المعرضين للخطر».

أثار الأمر اهتمام نيد فقد عرف الآن من أين تحصل سيلفي على معلوماتها.

أضافت سيلفي: «ولكنها لا تحوي قائمة بأسماء القتلة».

«هل يمكنني أن أراه؟».

«ربما».

«الآن».

«لست واثقة من هذا، ولكن عادة ما تكون ليلة السبت مناسبة لرؤيته. لنحاول»، قالت سيلفي هذا ووقفت.

احتجت إيزابيل قائلةً: «الشوارع ليست آمنة فهي مكتظة بالرجال
الخطيرين ولا بد أنهم ثملون. فلتبقيا في المنزل».
«أمي قد يتعرض أصدقاؤنا إلى القتل. علينا أن نقوم بتحذيرهم».
«إذاً، أرجو كما كونا حذرين».

لم يكن الظلام قد حلّ بعد عندما غادر نيد وسيلفي المتجر وعبرا جزيرة
إيل دو لا ستيه حيث غطت الكتلة المظلمة للكاتدرائية المدينة المضطربة
تحت سماءٍ ليلية. عندما وصلا إلى الضفة اليمنى قادت سيلفي بيير عبر
المنازل المتراسة في شارع لي إيل باتجاه الحانة المجاورة لكنيسة سان
إيتيان.

طلبت إيصال إبريق من الجعة إلى الباب الخلفي للمنزل المقابل، وفهم
نيد أنها إشارة. كان المكان مكتظاً ولم يكن هناك مكان للجلوس، ولهذا
وقفا في الزاوية فيما كان نيد في حالة ترقب وقلق، ويتساءل في نفسه إن كان
سيتمكن من إلقاء نظرة على لائحة بيير أوموند السرية.

بعد مرور عدة دقائق انضمت إليهما امرأة قبيحة ونحيلة في العشرين
من عمرها. قدمتها سيلفي له باسم نات وهي خادمة في منزل بيير: «إنها من
أبرشيتنا».

فهم نيد أنّ سيلفي قد استمالت خادمة بيير، وبالتالي أصبحت قادرة على
الوصول إلى أوراقه. يالها من امرأة ذكية!
«هذا نيد»، قالت سيلفي. «ويمكننا أن نثق به».

ابتسمت نات وقالت من دون تفكير: «هل ستزوجين به؟».
كبح نيد نفسه كي لا يبتسم.

بدت سيلفي محرجة إلا أنها واجهت الموقف بالمزاح: «ليس الليلة»،
وغيرت الموضوع على الفور: «كيف هي الأمور في المنزل؟».
«بيير في مزاج سيئ، لا بدّ أنّ خطباً ما قد حدث البارحة».
«كولينني لم يمت»، قال نيد. «هذا هو خطب بيير».
«على أيّ حال إنه في قصر عائلة غيز هذه الليلة».
«هل أوديت في المنزل؟» سألتها سيلفي.
«لقد ذهبت لزيارة والدتها وأخذت آلان معها».

شرحت سيلفي الأمر لنيد قائلة: «أوديت زوجة بيير وآلان ابناها». أثارت هذه المعلومة عن الحياة الخاصة لهذا الشرير المشهور اهتمام نيد وقال: «لم أكن أعرف أنّ لزوجته ابناً».

«إنها قصة طويلة. سأخبرك بها لاحقاً». التفتت سيلفي إلى نات وقالت: «يريد نيد أن يطلع على دفتر بيير».

«رافقاني، الآن هو أفضل وقت».

دار ثلاثتهم حول الحي الفقير حيث يقع منزل بيير على أحد صفوف المنازل. تفاجأ نيد من بساطة المنزل. لطالما حرص بيير على أن يبدو بشيابه ومجوهراته الباهظة ميسور الحال، ولكن النبلاء من أمثال دوق غيز يحبذون أحياناً إبقاء مستشاريهم في أحياء بسيطة حتى لا تكبر طموحاتهم كثيراً، علاوة على هذا، سيكون هذا المنزل مكاناً جيداً للاجتماعات السرية.

قادتتهما نات بشكل سري عبر باب خلفي. كان الطابق الأرضي مؤلفاً من غرفتين وغرفة معيشة ومطبخ. بالكاد كان نيد قادراً على التصديق أنه في منزل بيير أو موند الرهيب، وشعر كأنه أيوب في بطن الحوت.

كان على أرضية غرفة الجلوس صندوق لوضع الوثائق. أخذت نات كيساً فيه معدات خياطة، وأخرجت دبوساً محنياً بعناية على شكل خطاف، واستخدمت الدبوس لفتح الصندوق.

فكر نيد بأن هذه الحيلة مذهلة، وفتح قفل الصندوق بكل سهولة.

فتحت نات غطاء الصندوق.

كان فارغاً.

«أوه!» قالت نات. «لقد اختفى الدفتر».

وحلّ صمّتٌ مذهل.

تحدثت سيلفي أخيراً قائلة: «لقد أخذه بيير معه إلى قصر عائلة غيز»، ثم أضافت وهي مستغرقة في التفكير: «ولكن لماذا؟».

«لأنه على الأرجح سيقوم باستخدامه، وهذا يعني أنه سينفذ خطته بقتل كل بروستانتني في باريس وقد يحدث هذا الليلة»، قال نيد.

اكتسى وجه سيلفي بالخوف وقالت: «فليكن الربّ في عوننا».

«علينا تحذير الناس».

«يجب أن يحاولوا الخروج من باريس».

«إن لم يكن بمقدورهم الخروج اطلبي منهم التوجه إلى السفارة الإنكليزية».

«هناك المئات ومن بينهم زوار أتوا لحضور الزفاف. لن تتسع لهم السفارة».

«لا، لن تتسع لهم. ولكن لا يمكننا تحذير الناس جميعاً لأن هذا سيستغرق أياماً».

«ما الحل؟».

«لا يسعنا القيام إلا بما هو ممكن، وهو إنقاذ أكبر عدد ممكن من الناس».

مكتبة

الفصل العشرون

t.me/soramnqraa

بحلول ليلة السبت كان الدوق هنري وسط نوبة غضبٍ عارم، وقد تملكه ذلك الغيظ الذي ينتاب أيّ شاب لا تسيّر أموره على هواه. «اغرب عن وجهي!» صرخ في وجه بيير. «يمكنك أن تنصرف فأنا لا أريد رؤيتك مجدداً».

ولأول مرة يخاف بيير من هنري كما خاف من والده الدوق ذي الندبتين، وانتابه شعورٌ بألم في بطنه وكأنه تعرّض للطعن. «أتفهم غضبك»، قال بيير في يأس. كان يعلم أنه سيخسر مهنته ما لم يعثر على الكلمات المناسبة لتخليص نفسه. «لقد توقعت حدوث أعمال شغب»، زأر هنري في وجهه. «ولكنها لم تقع».

فتح بيير ذراعيه في حركة تعني أنّ ما باليد حيلة وقال: «لقد نجحت الملكة الأم في الحفاظ على السلم مجدداً».

كانا في قصر عائلة غيز في شارع فييل دو تامبل، وفي الغرفة الفارهة نفسها التي قابل فيها بيير الدوق ذا الندبتين والكاردينال شارل لأول مرة. وها هو اليوم يشعر بالإهانة في هذه الغرفة تماماً كما شعر بها منذ أربعة عشر عاماً عندما كان مجرد طالب متهم بالكذب وباستغلال اسم عائلة غيز. وها هو الآن على وشك خسارة كل شيء كسبه منذ ذلك الوقت. تخيل السرور والازدراء على وجوه أعدائه، وقاوم دموعاً كادت تنحدر على خديه.

تمنى بيير لو أنّ الكاردينال شارل هنا الآن؛ فالعائلة بحاجة إلى دهائه السياسي الصارم، ولكن شارل لم يكن هنا فقد ذهب إلى روما من أجل أمور تخص الكنيسة وترك بيير وحده.

«حاولت اغتيال كوليني وفشلت!» احتد هنري وتابع: «أنتَ غير كفء أبداً».

شعر بيير بالارتباك وقال: «أخبرت بيرون أن يعطي لوفزييه بندقية كالتي يحملها جنود المشاة، ولكنه قال إنها ستكون كبيرة جداً».

«قُلْتُ إن الهوغونيين سينتفضون بكل الأحوال حتى وإن كان كوليني مجروحاً فقط».

«لقد هدأتهم زيارة الملك إلى كوليني».

«إن كل ما تقوم به لا يجدي نفعاً! وعاجلاً سيُغادر الزوار الهوغونيون باريس، ويعودون إلى مدنهم يملؤهم الشعور بالنصر، وستكون الفرصة قد ضاعت لأنني أصغيت إليك، لكن هذا لن يتكرر مجدداً».

لم يكن بيير قادراً على التفكير بوضوح تحت رحمة نوبة غضب هنري. كان يعلم ما عليه القيام به، ولكن هل سيُصغي إليه هنري وهو في هذا المزاج؟ «كنت أتساءل في نفسي عن النصيحة التي قد يقدمها عمك شارل في مثل هذه الحالة»، قال بيير.

صُعبق هنري من هذا التلميح، وتراجعت ملامح الغضب على وجهه قليلاً وبدأ مهتماً: «حسناً ما الذي كان سينصح به؟».

«أعتقد أنه كان سيقترح علينا التصرف وكأنّ العصيان البروتستانتي قد بدأ حقاً».

لم يستوعب هنري الفكرة وسأله: «ما الذي تعنيه؟».

«فلنقرع أجراس كنيسة سان جيرمان لو سيغوا»، ورفع بيير دفتره الجلدي الأسود الذي كتب فيه أسماء القتلة وضحاياهم. «سيعتقد أخلص نبلائنا أنّ الهوغونيين قد انتفضوا، وسيسارعون لقتل قادتهم ظناً منهم أنهم ينقدون حياة الملك».

بوغت هنري من جراءة هذه الخطة إلا أنه لم يرفضها على الفور، وعادت آمال بيير لترتفع مجدداً.

«سينتقم الهوغونيون».

«فلنسلح الميليشيا».

«لا يمكن أن يحدث هذا من دون أمر رئيس التجار». كان العمدة يحمل

لقب رئيس التجار أيضاً. «وهو لن يفعل هذا بطلب مني».

«دعني أتكفل بأمره». بالكاد كان لدى بيير أدنى فكرة عن الطريقة التي سيتعامل فيها مع العمدة، إلا أنه كان الآن يحرز تقدماً مع هنري، ولم يكن ليسمح لنفسه بالتعثر أمام التفاصيل.

«كيف يمكننا التأكد من أن الميليشيا ستهزم الهوغونيين؟» سأل هنري. «هناك الآلاف منهم وهم يسكنون في الضواحي. ماذا لو أتوا إلى المدينة لنجدة إخوتهم؟ سيتحول الأمر إلى قتال بين قوتين متكافئتين.»

«سنغلق أبواب المدينة».

كانت باريس محاطة بسورٍ وبقناة مائية تحيط بها من جميع الجهات تقريباً. وكل بوابة في المدينة تفتح على جسرٍ فوق القناة، وإن أغلقت البوابات ستصبح الحركة من وإلى المدينة أمراً صعباً.

«وأنا أكرر قولي لك إنَّ العمدة فقط من يملك صلاحيات السماح بهذا.»

«وأنا أيضاً أكرر قولي بأن تدعني أتكفل بأمره». في هذه المرحلة كان بيير مستعداً لقطع أي وعدٍ على هنري لكسب ودهِ مجدداً. «كل ما عليك فعله الطلب من رجالك الاستعداد للتوجه إلى منزل كوليني وقتله حالما أخبرك بأن كل شيء قد أصبح جاهزاً».

«إن كوليني تحت حماية رجال اللورد كوسان الذين يبلغ عددهم خمسين رجلاً من حراس الملك بالإضافة إلى حراسه الشخصيين».

«إن كوسان رجل الملك».

«هل سيستدعيه الملك».

وقال بيير أول شيء خطر بباله: «سيعتقد أن الملك قد استدعاه».

أمعن هنري النظر إلى بيير طويلاً ثم قال: «هل أنت واثق من أنك قادر على فعل كل هذا؟».

«أجل»، كذب بيير فقد كان عليه انتهاز هذه الفرصة بأي شكل من الأشكال. «ولكنك لن تُخاطر بأي شيء»، قال بيير بجديّة ثم تابع: «وإن فشلت في هذا فلن تكون قد خسرت شيئاً سوى أنك حشدت رجالك عبثاً».

كان هذا الكلام كفيلاً بإقناع الدوق الذي سأله: «كم من الوقت تحتاج؟».

وقف بيير وقال: «سأعود قبل منتصف الليل».

كان هذا وعداً آخر لم يكن واثقاً من أنه سيتمكن من الإيفاء به.
غادر بيير الغرفة وأخذ معه دفتره الأسود.

كان جورج بيرون بانتظاره في الخارج وقال له بيير: «أسرج حصانين فلدينا عمل لنقوم به».

لم يكن بوسعهما المغادرة عبر البوابة الرئيسية لأنّ هناك حشداً من الهوغونيين الغاضبين في الخارج. كانوا قد احتشدوا لاعتقادهم أن هنري هو المسؤول عن محاولة الاغتيال تماماً كما كان الجميع يعتقد. كانوا ينادون بقتل هنري إلا أنهم لم يفعلوا أي شيء سيئ بما يكفي ليفتح عليهم رجال هنري النار. لحسن الحظ كان المنزل كبيراً جداً، ويشغل شارعاً بأكمله وهناك طرق بديلة للدخول والخروج منه. غادر بيير وبيرون من بوابة جانبية.

توجهوا إلى ساحة دو غييف الرئيسية حيث يعيش العمدة. وفي الطريق إليها أخذت شوارع باريس الضيقة والمتعرجة تلتف وتتشابك إلى ما لا نهاية وبالتزامن مع تشابك خطة بيير في عقله بإحكام. لقد خطط بيير لهذه اللحظة طويلاً، إلا أنها تحققت بطرق غير متوقعة، ولهذا كان عليه أن يرتجل. تنفس بعمق ليُهدئ نفسه. كانت هذه الخطة أخطر مقامرة يقوم بها في حياته، وقد تسوء فيها الكثير من الأمور. إن فشل جزء واحد فيها فسيضيع كل شيء، ولن يكون قادراً على إيجاد الكلام المناسب لإنقاذ نفسه من كارثة أخرى. وستصل حياة الثراء والسلطة التي يعيشها كمستشار لعائلة غيز إلى نهاية مخزية.

حاول بيير عدم التفكير في الأمر.

كان العمدة صاحب مطبعة وبائع كتب ثرياً يدعى جان لو شارون. عندما وصل بيير كان يتناول العشاء مع عائلته، وأخبره أنّ الملك يريد مقابله.

بالطبع لم يكن هذا الاستدعاء حقيقياً، ولكن هل سيصدق له شارون؟ لم يمضِ على تقلد لو شارون منصب العمدة وقتٌ طويل، وذهل تماماً من زيارة بيير أو موند دي غيز الشهير. تحمس العمدة كثيراً لأن الملك قد استدعاه ومنعه حماسه الشديد من التشكيك بصدق ما قاله بيير لذلك وافق على الذهاب فوراً. وها قد تمّ تخطي أول عقبة.

أسرج لو شارون حصانه، وانطلقوا ثلاثتهم تحت ضوء المغيب الضارب

للحمرة باتجاه قصر اللوفر.

بقي بيرون في ساحة القصر فيما رافق بيير لو شارون إلى الداخل. كانت مكانة بيير تتيح له الدخول إلى غرفة الملابس فقط التي كانت أشبه بغرفة انتظار مجاورة لغرفة الاجتماع بالملك.

كانت هذه اللحظة لحظة خطيرة أيضاً فالملك شارل لم يطلب مقابلة بيير أو لو شارون، ولم تكن مكانة بيير الاجتماعية عالية بما يكفي لتخوله مقابلة الملك من دون إذن.

ترك بيير لو شارون في غرفة جانبية، وتحدث إلى الحاجب بصوتٍ واثق وهادئ لا يشي بأي تمرد: «من فضلك أخبر جلالته أنني أحضرت رسالة من الدوق هنري دي غيز».

لم يرقم الملك شارل بالتحدث أو الالتقاء بهنري منذ محاولة الاغتيال الفاشلة. راهن بيير على أن الملك سيسهر بالفضول لمعرفة ما يريد هنري قوله دفاعاً عن نفسه.

كان الانتظار طويلاً ولكن في النهاية تلقى بيير دعوة بالدخول. طلب بيير من لو شارون انتظاره في غرفة الملابس إلى أن يتم استدعاؤه، ومن ثم دخل إلى غرفة الملك.

كان الملك شارل والملكة كاترينا جالسين إلى الطاولة يتناولان العشاء. تضايق بيير عندما رأى الملكة كاترينا فهذا يعني أنه لن يستطيع خداع شارل بسهولة بوجود الأم الأكثر ذكاءً وريبةً منه.

بدأ بيير كلامه قائلاً: «سيدي النبيل دوق غيز يطلب وبكل تواضع المغفرة من جلالتك لأنه لم يستطع القدوم بنفسه إلى البلاط».

هزّ شارل رأسه في قبول للاعتذار، ولكن كاترينا التي جلست قبالة بدت غير راضية عما قاله بيير.

«ما سبب عدم قدومه؟» سألت بحدّة. «هل يؤنبه ضميره».

توقع بيير هذا السؤال، ولهذا كانت إجابته جاهزة: «يخاف الدوق على حياته يا جلالة الملكة. هناك حشدٌ من الهوغونيين المُسلحين والمرابطين أمام بوابات قصره ليلاً ونهاراً. لا يمكنه مغادرة منزله من دون المخاطرة بحياته. إن الهوغونيين يخططون للانتقام منه، هناك الآلاف منهم في المدينة

والضواحي وهم مسلحون ومتعطشون للدماء..».

«أنت مخطئ فيما تقوله»، قاطعته الملكة. «لقد نجح الملك بتهدئة النفوس، وطلب التحقيق في حادثة إطلاق النار، ووعد بإنزال أشد العقاب بالفاعلين، وزار كوليني في بيته. قد يكون هناك بعض المتهورين في شارع فييل دو تامبل، ولكن قادتهم راضون».

«هذا ما أخبرتُ به الدوق هنري بالضبط»، قال بيير. «ولكنه يعتقد أن الهوغونيين على وشك بدء ثورة، ويخشى أن تكون فرصته الوحيدة هي القيام بضربة استباقية وتدمير قدرتهم على تهديده».

«قل له إن الملك شارل التاسع يضمن سلامته».

«شكراً لك يا جلالة الملك. سأحرص على إيصال هذا التطمين القوي جداً». في الحقيقة لم يكن لهذا التطمين أي قيمة. سيكون أي ملك قوي ومرهوب الجانب من قبل رجاله قادراً على حماية كوليني، ولكن شارل ضعيف جسدياً ونفسياً وغير قادر على حمايته. وإن لم يفهم شارل هذا الأمر فستفهمه كاترينا، ولهذا السبب وجه بيير كلامه إليها: «ولكن الدوق هنري يتساءل إن كان لديك أي اقتراح آخر؟» وحبس بيير أنفاسه. كان في تصرفه هذا جرأة كبيرة؛ فالملك قد يصغي إلى نصيحة من أحد النبلاء ولكنه لن يُصغي إلى نصيحة مُبطنة في رسالة يحملها تابع ما.

حل صمتٌ شعر فيه بيير بالخوف من التعرض للطرد بتهمة إهانة الملك. نظرت إليه كاترينا بمكرٍ، وقد فهمت الآن السبب الحقيقي لزيارة بيير ولكنها لم توبخه، وهذا بحد ذاته دليل على ضعف قبضتها، وعلى اقتراب المدينة من حافة الفوضى.

قال الملك في النهاية: «ما الذي تريده؟».

«بعض الإجراءات الأمنية الاحترازية البسيطة التي ستمنع العنف من قبل الطرفين».

بدأت كاترينا مرتابة وقالت: «مثل ماذا؟».

«فلتُغلق أبواب المدينة حتى لا يدخل الهوغونيون الذين يعيشون في الضواحي أو تصل أي تعزيزات كاثوليكية». وتوقف بيير عن الكلام. كانت التعزيزات الكاثوليكية ضرب خيال جامع، وما أرادته بيير حقاً هو إبعاد

الهوغونيين. ولكن هل ستفهم كاترينا مقصده؟
«في الحقيقة هذه فكرة جيدة»، قال الملك شارل.
لم تقل كاترينا شيئاً.

تابع بيير كلامه وكأنه حصل على الموافقة: «ثم اطلب تقييد جميع القوارب الراسية عند الرصيف النهري، وأغلق النهر بالأغلال الحديدية لمنع السفن المعادية من الاقتراب من المدينة، وبالتالي لا يعود بإمكان مثيري المتاعب الدخول إلى باريس عبر النهر». وفكر بيير أن الهوغونيين بهذه الطريقة لن يتمكنوا من الخروج من المدينة أبداً.
«هذا إجراء وقائي منطقي أيضاً»، قال الملك.

شعر بيير أن خطته بدأت تنجح وتابع كلامه: «اطلب من العمدة تسليح الميليشيا، ووضِع حراس على مفارق الطرق الرئيسية للمدينة، وأن يكون لديهم الأمر بعدم السماح لأيّ مجموعة كبيرة من المسلحين بالمرور بغض النظر عن دينهم».

ورأت كاترينا على الفور في هذه الحركة مناورة غير حيادية فقالت:
«ولكن كل رجال الميليشيا من الكاثوليكين».

«بالطبع»، قال بيير موافقاً وتابع: «ولكنها طريقتنا الوحيدة للحفاظ على النظام». ولم يُضف شيئاً. كان بيير يفضل عدم الدخول في أيّ نقاش حول عدالة التوزيع، ولكن في الحقيقة لم يكن هناك ما هو حيادي في خطته. على الرغم من هذا كله كان همّ كاترينا الوحيد هو الحفاظ على النظام.

«لا أرى أيّ ضرر في اتخاذ هذه الإجراءات الدفاعية البسيطة»، قال شارل لوالدته.

«قد تكون كذلك»، أجابت كاترينا. لم تكن تثق بأيّ فردٍ من أفراد عائلة غيز ولكن ما اقترحه بيير بدا عقلانياً.

«لدى الدوق اقتراح أخير»، قال بيير. لم يقدم الدوق هنري أيّاً من هذه الاقتراحات، ولكن آداب السلوك فرضت على بيير الادعاء أنّ الأفكار أفكار سيده الأرسطوقراطي. «وهو نشر مدفعية المدينة. إن قُمنّا بوضع المدافع في ساحة دو غييف فستكون جاهزة للدفاع عن مجلس المدينة في أي وقت، أو يمكن وضعها في مكان آخر إن كان هذا ضرورياً». وفكر بيير أن هذا سيكون

ضرورياً لإبادة الحشود البروتستانتية.

هز الملك برأسه: «يجب أن نقوم بكل هذه الأمور. إن الدوق غيز مخطط حربي عقلاني. فلتُبلغه شكري له على النصيحة». أوماً بيير برأسه.

قالت كاترينا لشارل: «يجب أن تستدعي العمدة من أجل كل هذا». لا شك أنها اعتقدت أنّ الطلب وراء العمدة سيمنحها الوقت للتفكير في اقتراحات بيير والبحث عن عقبات لوضعها في طريق هذه الخطة.

ولكن بيير لم يكن ليمنحها هذه الفرصة: «سمحت لنفسي يا جلالة الملك بإحضار العمدة معي، وهو في الخارج ينتظر أوامرك». «أحسنّت صنعاً»، قال شارل وتابع: «اطلب منه الدخول».

دخل لو شارون وهو ينحني بشدة، وقد بدا متحمساً وخائفاً لوجوده في حضرة الملك.

أخذ بيير على عاتقه التحدث بالنيابة عن الملك، وأشار على لو شارون بما عليه فعله تماماً كما اقترح على الملك. خلال هذا الوقت وفيما كان بيير يُلمي على لو شارون ما عليه القيام به شعر بالخوف من أن يفكر شارل، أو كاترينا على وجه الخصوص، بالموضوع ملياً إلا أنهما أوماً برأسيهما في موافقة. بدت كاترينا كأنها لم تصدق رغبة الدوق هنري بحماية نفسه فقط، ومنع وقوع أيّ أعمال شغب، ولكن يبدو أنها فشلت في معرفة الدافع الخفي لدى بيير، ولهذا لم تعارضه.

قدم لو شارون شكره للملك على شرف إعطائه هذه التعليمات، وأقسم على تنفيذها بكل دقة، وبعد هذا انصرف بيير ولو شارون. وفيما كان بيير ينحني منصرفاً لم يكن قادراً على التصديق أنه نجح فيما خطط له، وتوقع في أيّ لحظة أن تناديه كاترينا. وعندما أصبح خارجاً، وأغلقت الأبواب كان قد اقترب خطوة أخرى من تحقيق النصر.

عبر بيير مع لو شارون غرفة الملابس ومن ثمّ غرفة الحرس ونزلا الدرج. كان الظلام قد حلّ عندما وصلا إلى الساحة حيث ينتظرهما بيرون مع حصانئهما.

وقبل أن يذهب لو شارون وبيير في طريقتين مختلفتين كان على بيير أن

يقوم بخدعة أخيرة: «لقد نسي الملك أن يقول لك شيئاً».

إن مثل هذه العبارة كفيلة بإثارة شكوك أي رجل بلاط خبير، ولكن لو شارون كان مأخوذاً بقرب بيير الواضح من العائلة المملكية ولذلك كان يتوق إلى إرضائه.

«أي شيء بالتأكيد»، قال لو شارون.

«إن كانت حياة الملك في خطر فستقرع أجراس كنيسة سان جيرمان لو سيغوا من دون توقف، وستقوم بالمثل كنائس أخرى بقيادة كهنة كاثوليكين مؤتمنين في جميع أنحاء باريس. ستكون أصوات الأجراس بمنزلة إشارة تحذير لك بأن الهوغونيين تمردوا على الملك، بالتالي عليك مهاجمتهم».

«هل سيحدث هذا حقاً؟» سأل لو شارون بشرود.

«قد يحدث هذا الليلة. فلتكن مستعداً».

لم يخطر ببال لو شارون أن بيير قد يكون مثيراً للشكوك، وقيل بما قاله وكأنه حقيقة، وأجابه وكأنه يُقسم: «سأكون مستعداً».

أخذ بيير دفتره الجلدي الأسود من سرج حصانه، ومزق الأوراق التي تحمل أسماء القتلة النبلاء وضحاياهم. أما بقية الصفحات فكانت تحوي على أسماء الهوغونيين الباريسيين العاديين. سلم بيير الدفتر إلى لو شارون وقال له: «ها هي قائمة بالبروتستانتين المعروفين في باريس مع عناوينهم». بدا لو شارون مذهولاً وقال: «لم يكن لدي أدنى فكرة أن مثل هذه الوثيقة موجودة».

«كنت أحضرها منذ سنوات عديدة»، قال بيير بشيء من التفاخر. «وستحقق هذا الوثيقة هدفها اليوم».

أخذ لو شارون الدفتر بوقار وقال: «شكراً لك».

أجابه بيير برزانة: «إن سمعت الأجراس فسيكون واجبك قتل كل شخص مذكور في هذا الدفتر».

ابتلع لو شارون ريقه من الخوف فلم يكن قادراً على التصديق حتى الآن أنه سيتورط في مجزرة، ولكن بيير قاده إلى هذه المرحلة بعناية شديدة وعبر مراحل متدرجة ومنطقية، ولم يكن أمام لو شارون سوى الإيماء برأسه في قبول بل وأضاف اقتراحاً: «في حال وقع أي قتال سأطلب من رجال الميليشيا

ارتداء شرائط بيضاء على أذرعهم حتى يميزوا بعضهم بعضاً». «إنها فكرة جيدة جداً»، قال بيير. «وسأخبر جلالة الملك أنك من اقترحها».

تحمس لو شارون لدى سماعه بهذا وقال: «سيكون هذا شرفاً عظيماً لي». «من الأفضل أن تنطلق الآن. لديك الكثير لتقوم به». «أجل»، قال لو شارون، وامتطى جواده وهو ما يزال ممسكاً بالدفتر. ولكنه وقبل أن ينطلق ساوره شيء من القلق فقال: «فلنأمل ألا نحتاج إلى كل هذه الإجراءات الاحترازية».

«أمين»، قال له بيير في تصنع.

انطلق لو شارون على جواده مبتعداً، وامتطى بيرون حصانه.

توقف بيير برهة ينظر إلى القصر المبني على الطراز الإيطالي الذي غادره للتو. لم يكن بوسع التصديق أنه نجح في خداع ساكنيه الملكيين. ربما عندما يكون الحُكام خائفين إلى هذه الدرجة سيفعلون أي شيء، وستتوقون للموافقة على أي خطة واعدة ولو قليلاً.

على أي حال لم يكن عمل بيير قد انتهى بعد. في الأيام القليلة الماضية فشلت كل الجهود التي بذلها، ولكن ما يزال احتمال أن تسوء هذه الخطة المعقدة التي أعدها لهذه الليلة كبيراً.

امتطى بيير حصانه وقال لبيرون: «فلننطلق إلى شارع دو بيتزيبه».

كان منزل كوليني قريباً، وقد وقف حراس الملك خارج البوابة. كان بعضهم يقف في صف واحد باستعداد مع بنادقهم ورماحهم، أما الآخرون فقد جلسوا في مكان قريب على الأرض. يبدو أنهم في استراحة رغم أن أسلحتهم ما زالت في أيديهم. كانوا أشبه بحاجزٍ منيع.

اقرب بيير بجواده من حارس وقال له: «لدي رسالة من جلالة الملك إلى اللورد كوسان».

«سأسلمها له بنفسي»، قال الحارس.

«لا لن تفعل. فلتذهب ولتنادِه».

«إنه نائم».

«أتريدني أن أعود إلى قصر اللوفر وأخبرهم أن سيدك لم ينهض من

سريره ليتلقى رسالة من الملك؟».

«لا ياسيدي. بالطبع لا. أرجو العفو منك»، قال الرجل وهرع إلى الداخل ثم عاد بعد دقيقة مع اللورد كوسان الذي يبدو كأنه كان نائماً في ثيابه. «هناك تغيير في الخطة»، قال بيير لكوسان. «لقد حاك الهوغونيون مؤامرة لإلقاء القبض على الملك والسيطرة على الحكومة. أحبط رجال الملك هذه المؤامرة، ولكن الملك يريد إلقاء القبض على كوليني».

لم يكن كوسان ساذجاً كما كان لو شارون وبدا مرتاباً. ربما كان يفكر بأن الملك لن يرسل مستشار عائلة غيز كرَسُول باسمه.

«هل هناك ما يؤكد على صحة هذا الكلام؟» سأل بانزعاج.

«ليس عليك أن تعتقله بنفسك فالملك سيرسل أحداً للقيام بهذا».

ولأن هذا يعني أنه غير مضطر للتورط في أي شيء هز كوسان كتفيه بلامبالاة وقال: «حسناً».

«فلتكن على أهبة الاستعداد»، قال بيير وانطلق على جواده مبتعداً.

لقد قام بكل شيء أمكنه القيام به، ومهدّ بمجموعة كاملة من الخدع الصغيرة والمقنعة الطريق أمام المعركة الحاسمة. وليس أمامه الآن سوى الانتظار على أمل أن يتصرف جميع من خدعهم، بدءاً بالملك وحتى الكاهن في كنيسة سان جيرمان لو سيغوا، وفقاً للخطة التي وضعها.

بحلول الليل تراجعت أعداد الجموع التي احتشدت في شارع فييل دو تامبل، إلا أنه ما يزال هناك عدد لا بأس به من الهوغونيين الغاضبين ولذلك دخل بيير وبيرون من الباب الجانبي للقصر.

كانت القضية الأولى التي واجهت بيير عند دخوله القصر هي جهوزية الدوق هنري. عادة ما يُبدي الدوق الشاب حماساً شديداً للقيام بأي عمل إلا أنه فقد الثقة ببيير، ومن المحتمل أنه قد غير رأيه وقرر عدم حشد رجاله. شعر بيير بالراحة والحماس عندما رأى خمسين رجلاً مسلحاً في الفناء الداخلي للقصر، والسائسون يمسكون بأحصتهم المُسرّجة. انتبه بيير إلى راستو، الرجل الذي لا يملك أنفاً، وإلى جانبه رفيقه الدائم بروكار. وانعكست أضواء المشاعل على دروع وخوذات الرجال. كانوا مجموعة من النبلاء والرجال المسلحين المنضبطين، وقد التزموا الهدوء وهم بانتظار

اقتراب الخطر.

اندفع بيير عبر الحشد حتى منتصفه حيث يقف الدوق هنري الذي سارع إلى القول حالما رأى بيير: «إذاً؟».

«كل شيء جاهز»، قال بيير. «لقد وافق الملك على كل شيء أردناه. يقوم العمدة بتسليح الميليشيا، ونشر مدفعية المدينة في هذه اللحظة». وفكر بيير في نفسه: «أمل أنه يقوم بهذا الآن».

«وماذا عن اللورد كوسان».

«أخبرته أنّ الملك سيُرسل شخصاً لاعتقال كوليني. وإن لم يصدقني فستضطر للقتال والدخول إلى منزله».

امتطى الجميع جيادهم، وسلّم أحد السائسين بيير حزاماً بسيفٍ في غمده. أحكم بيير الحزام، وسارع إلى امتطاء الجواد. سيحاول قدر المستطاع عدم التورط شخصياً في القتال، ولكن من الجيد أن يكون جاهزاً في أي حالٍ من الأحوال.

نظر بيير عبر الممر الخارجي المُقنطر، ورأى خادمين يفتحان البوابات الحديدية الكبيرة. بوغت الحشد في الخارج لوهلة فلم يخطر ببال أحد منهم أن يحدث هذا، بل ولم يتوقعوا أن تُفتح البوابات أصلاً. همز الدوق هنري جواده، وانطلقت وراءه سرية الخيالة بسرعة. علا وقع حوافر الأحصنة كالهزة الأرضية. تفرق الحشد في هلع، ولكن لم ينجح الجميع في الفرار. ووسط الصراخ هجمت الأحصنة الكبيرة على الحشد، ولوح الركابون عليها بسيوفهم، وسقط العشرات جرحى وقتلى.

وهكذا انطلقت شرارة عمليات القتل.

اندفعت سرية الخيالة عبر الشوارع بسرعة خطيرة. لم يكن هناك الكثير من الناس في الخارج في مثل هذا الوقت، وهرب الموجودون في الشوارع خوفاً على حياتهم. شعر بيير بالحماس والقلق. لقد كانت هذه اللحظة التي خطط لها منذ توقيع الملك شارل على اتفاقية صلح سان جيرمين المشينة. بعد هذا العمل الليلة سيعلم الجميع أن فرنسا لن تتسامح مع الهرطقة، وأنه لا يمكن تجاهل عائلة غيز. كان بيير مرتعباً إلا أنه كان يفور بتوقٍ كبير.

كان بيير قلقاً بشأن كوسان فقد أراد وعداً منه بالتعاون، ولكن الرجل

لم يكن غيباً وإن قاوم الآن فستقع مناوشات عنيفة، وسيكون لدى كوليني الوقت ليهرب، وستفشل الخطة بأكملها بسبب هذا التفصيل.

يقع قصر عائلة غيز في الجانب الشرقي من المدينة، فيما يقع منزل كوليني في الجانب الغربي، ولكنهما لا يبعدان عن بعضهما كثيراً، علاوة على هذا، لن يواجهوا الكثير من العوائق في الليل. وخلال بضع دقائق وصلت سرية الخيالة إلى شارع دو بيتزويه.

وصل وقع حوافر الخيول القادمة من بعيد إلى مسامع رجال كوسان، وتمكن بيير من رؤية منزل كوليني بفضل ضوء النجوم. كان الحراس قد اصطفوا أمام البوابات برماحهم وبنادقهم وبشكل أكثر تنظيماً ومنعاً مما كانوا عليه قبل نصف ساعة.

دفع الدوق هنري بحصانه إلى الأمام وصرخ: «أتيت لاعتقال غاسبار دي كوليني. افتحوا البوابة باسم الملك».

تقدم كوسان إلى الأمام، وأضاءت المشاعل التي يحملها رجال غيز وجهه بنور شيطاني، ثم قال: «لم يصلني هذا الأمر».

«كوسان، أنت كاثوليكي صالح وخادم مخلص لجلالة الملك شارل ولكنني لا أقبل بالرفض. لدي أوامر من الملك، وسأنفذها حتى لو اضطرت إلى قتلك أولاً».

بدا كوسان متردداً، وفكر بيير أنه كان في موقفٍ صعب حقاً. لقد تم تعيينه لحماية كوليني، ولكن من الوارد أن يكون الملك قد غير رأيه وأمر باعتقاله. وإن قاوم كوسان هنري الآن فسيشتبك رجالهما وستُسفك دماء كثيرة، وقد تكون دماء كوسان من بينها.

وقرر كوسان كما كان بيير يأمل، أن يُنقذ حياته الآن ويتحمل العواقب لاحقاً، فصرخ برجاله قائلاً: «افتحوا البوابات».

فُتحت البوابات، واندفع رجال غيز بجيادهم بكل حماس إلى فناء المنزل.

كان لمدخل المنزل الرئيسي باب كبير بمصراعين من الخشب الثقيل ودعامات معدنية. عندما دخل بيير رآه موصداً، وافترض أن حراس كوليني سيكونون على الجهة الأخرى من الباب. بدأ رجال الدوق بمهاجمة الباب

بالسيوف، وبضربة واحدة خلعوا القفل. فكر بيير أن من الغباء حقاً أنهم لم يحضروا معهم بضع مطارق، وخطر بباله مجدداً أن التأخير قد يسمح لكوليني بالهرب. ولم يفكر أحد بتفقد المدخل الخلفي.

ولكن الباب في النهاية انهار أمام هذه القوة وانفتح. وقعت معركة شرسة أعلى السلم عندما حاول ستة حراس ردع رجال عائلة غيز الأكثر عدداً فخرّوا صرعى على الأرض خلال دقائق.

قفز بيير عن حصانه وركض باتجاه السلم. كان الجنود يفتحون الأبواب وصرخ أحدهم: «من هنا!» ولحق بيير بمصدر الصوت ليدخل إلى غرفة نوم مهيبة.

كان كوليني راكعاً عند أسفل السرير في ثياب النوم وشعره الرمادي مغطى بقبعة ويده المصابة رُبطت إلى عنقه. كان يصلي بصوت عالٍ.

تردد الرجال في قتل رجل يصلي، ولكنهم كانوا قد اقترفوا أموراً أفظع من هذا، ولهذا صرخ بهم بيير: «مّم أنتم خائفون؟ اقتلوه، اللعنة عليكم».

غرز رجلٌ من عائلة غيز يدعى بيم سيفه في صدر كوليني، وعندما أخرجه اندفع من الجرح دمٌ أحمر زاهٍ، وسقط كوليني على وجهه.

هرع بيير إلى النافذة وفتحها، ثم نظر في الفناء الأمامي بحثاً عن هنري الذي كان ما يزال على جواده.

«أيها الدوق هنري!» صرخ بيير. «يسعدني إخبارك أن كوليني قد مات».

«فلترني الجثة!» صرخ هنري.

عاد بيير إلى الغرفة وقال: «بيم أحضر الجثة إلى هنا».

وضع الرجل يديه تحت ذراعي كوليني، وجرّ الجثة عبر الأرضية.

«ارفعه إلى النافذة»، قال بيير.

وأطاعه بيم.

«لا يمكنني أن أرى وجهه!» صرخ هنري.

كان صبر بيير قد بدأ ينفد لذلك حمل الجثة من منطقة الوركين ودفعها من النافذة. سقطت الجثة من فوق إفريز النافذة وتهاوت لتصطدم بالأرض.

المرصوفة بصوت عالٍ ووجه كوليني للأسفل.

ترجل هنري عن جواده وفي حركة فيها كثير من الاشمئزاز قلبَ

«إنه هو»، قال هنري. «إنه الرجل الذي قتل والدي».

أخذ الرجال حوله يهللون.

«لقد حققنا الهدف الذي أتينا من أجله»، قال هنري. «فلتقرعوا أجراس كنيسة سان جيرمان لو سيغوا الآن».

تمت سلفي لو أنها كانت تملك جواداً.

كانت تنتقل من منزل إلى آخر، وتحدث إلى أفراد الرعية الذين يلتقون سرّاً في الإسطنبول، إلا أنها كانت تشعر بآس شديد يكاد يصل إلى درجة الهستيريا. كان عليها في كل مرة أن تبحث عن المنزل الصحيح، وتشرح الموقف للعائلة، وتقنعها أن ما تقوله ليس من نسج خيالها، ومن ثمّ تهرع إلى المنزل البروتستانتي التالي. كانت قد رسمت خطة منطقية فقد اتخذت الطريق المتوجه شمالاً إلى شارع سان مارتان الذي يعد الشريان الأساسي وسط المدينة وله منافذ قريبة تفضي إلى شوارع فرعية. ولكن رغم هذا لم تنجح إلا بتغطية ثلاثة أو أربعة منازل كل ساعة. لو كانت تملك حصاناً لتضاعف هذا العدد.

علاوة على هذا، لو كانت تملك جواداً لما كانت عرضة للخطر. سيكون من الصعب على رجل ثمل أن يوقع امرأة قوية عن الحصان، لكن ولأنها سارت على قدميها وحيدة في شوارع باريس المظلمة خافت أن يحدث لها شيء وألا يكون هناك شهود.

وفيما اقتربت من منزل الماركيز لاني الذي لم يكن بعيداً عن المستودع الذي تخبئ فيه الكتب بالقرب من سور المدينة سمعت صوت أجراس بعيدة، وتساءلت عما يعنيه هذا. عادة ما يكون صوت الأجراس في مثل هذه اللحظة غير المتوقع إشارة على وقوع كارثة. علا صوت الأجراس، وأدركت أن كنائس أخرى قد انضمت إلى الجوقة. وهناك معنى واحد لحالة الطوارئ الشاملة هذه وهو أن ما كانت تخشاه هي ونيد عندما لم يعثر على دفتر بيير، قد تحقق.

بعد مرور عدة دقائق وصلت إلى منزل الماركيز وقرعت الباب. فتح

الماركيز الباب بنفسه، وهذا يعني أنه كان مستيقظاً وخدمه نيام. وأدركت سيلفي أنها المرة الأولى التي تراه فيها من دون قبعته المرصعة بالجواهر. كان أصلاً باستثناء غرة تشبه غرة راهب.

«لماذا يقرعون الأجراس؟» سألتها.

«لأنها سيقتلوننا جميعاً»، قالت له ودخلت إلى المنزل.

قادها إلى غرفة الجلوس. كان الماركيز أرمل وأولاده البالغون قد استقلوا في منازل خاصة بهم، ولهذا السبب بقي في المنزل وحيداً مع خدمه. اكتشفت أنه كان يقرأ قرب شمعدان معدني مزخرف على شكل شجرة في كتاب كانت قد باعتها إياه. ورأت بقرب كرسيه قارورة نبيذ عرض عليها البعض منه. أدركت سيلفي أنها كانت جائعة وعطشى فهي تركض منذ ساعات. شربت كأس النبيذ بسرعة، ورفضت تناول كأس أخرى.

شرحت له كيف اكتشفت أن الكاثوليكيين المتعصبين على وشك شنّ هجوم، وأنها كانت تركض في جميع أنحاء باريس تحذر البروتستانتين، وأنها تخشى الآن أن الهجوم قد بدأ، وأن الوقت قد تأخر على تحذير الناس.

«يجب أن أعود إلى المنزل»، قالت له.

«هل أنت واثقة من هذا؟ قد تكونين بأمان أكبر لو بقيت هنا».

«يجب أن أحرص على سلامة أمي».

سار معها إلى الباب. وبينما كان يدير مقبض الباب قرع أحدهم من الخارج.

«لا تفتحه!» قالت له محذرة إلا أن الأوان كان قد فات.

رأت سيلفي من فوق كتفي لاني رجلاً نبيلاً عند عتبة الباب ووراءه العديد من الرجال. عرف لاني الرجل وقال متفاجئاً: «فيكونت فيلنوف».

كان فيلنوف في معطف أحمر باهظ الثمن. وانتاب سيلفي الخوف عندما انتبهت إلى السيف الذي يحمله في يده.

حافظ لاني على هدوئه وقال: «ما سبب زيارتك لمنزلي في مثل هذا الوقت من الليل أيها الفيكونت؟».

«جئت لأقوم بعمل المسيح»، قال فيلنوف وبحركة سريعة أغمد سيفه في بطن لاني.

صرخت سيلفي.

صرخ لاني في ألم، وخرّ على ركبتيه.

صارع فيلنوف ليُخرج سيفه من بطن لاني، وفي أثناء هذا ركضت سيلفي عبر الردهة باتجاه القسم الخلفي من المنزل، ثم فتحت باباً واندفعت عبره لتجد نفسها في مطبخ كبير.

في باريس، كما في أي مكان آخر، لم يكن الخدم قادرين على تحمل تكلفة الحصول على أسرة، ولهذا السبب ناموا على أرضية المطبخ. استفاقت مجموعة من الخدم وأخذوا يسألونها بأصواتٍ خائفة عما كان يحدث.

ركضت سيلفي عبر الغرفة متجنبة الرجال والنساء الذين استفاقوا للتو لتصل إلى آخر باب في المنزل. كان الباب مقفلاً، ولم يكن هناك أي أثر لأي مفتاح له.

لمحت سيلفي نافذة مفتوحة حتى يدخل الهواء منها إلى الغرفة المكتظة في هذه الليلة من ليالي شهر آب/ أغسطس. ومن دون أدنى تردد خرجت سيلفي منها على عجل.

وجدت نفسها في فناء فيه قن دجاج وزريرة خنازير. وفي أقصى زاوية من الفناء كان هناك جدار عالٍ مع بوابة. حاولت أن تفتح البوابة ولكنها اكتشفت أنها مقفلة. كادت تبكي من اليأس والرعب.

سمعت أصوات صراخ في المطبخ وتكهنت أن فيلنوف ورجاله قد دخلوا المطبخ. لا بدّ أنهم افترضوا أن جميع الخدم من البروتستانتين كسيدهم، فهذا ما يحدث في العادة وسيقومون بقتلهم جميعاً قبل أن ينطلقوا في إثرها.

صعدت بسرعة على سطح قن الدجاج لتعلو من داخل القن جوقة قرقرة ناشزة. كانت المسافة بين سطح القن وجدار الفناء تُعادل ياردة تقريباً وقفزتها سيلفي. عندما استقرت على الجدار الضيق فقدت توازنها وسقطت على ركبتيها بشكل مؤلم، ولكنها استعادت توازنها واستقرت في زقاق نتن.

ركضت على طول الزقاق الذي يقود إلى شارع دو مير متجهةً بأقصى سرعتها إلى المستودع الذي تضع فيه كتبها. وصلت إليه دون أن ترى أحداً في الجوار. فتحت الباب ودخلت، ثم أحكمت إغلاقه خلفها وأقفلته.

أصبحت بأمان الآن. استندت بخدها إلى الباب، وفكرت بابتهاج غريب

أنها نجحت بالفرار، ومرت ببالها فكرة سريعة أثارت استغرابها: لم تكن ترغب بالموت الآن بعد أن قابلت نيد ويلارد.

أدرك ويلزنهايم على الفور أهمية الدفتر وما يعنيه اختفاؤه، وأوكل إلى نيد وآخرين معه مهمة الذهاب إلى منازل بروتستانتيين إنكليز بارزين في باريس، ونصحهم باللجوء إلى السفارة الإنكليزية. لم يكن هناك أحصنة كافية واضطر نيد للسير على قدميه. كان يرتدي حذاء ركوب عالياً وسترة جلدية ضيقة من دون أكمام رغم الطقس الدافئ في هذه الليلة، وحمل سيفاً وخنجرأ بطول قدمين وبنصل حاد.

أكمل نيد مهمته وعندما غادر آخر المنازل التي كان مكلفاً بإنذارها سمع صوت الأجراس تُقرع.

شعر نيد بالقلق على سيلفي. كانت خطة بيير هي اغتيال البروتستانتين الأرستوقراطيين فقط، ولكن عندما يبدأ الرجال بالقتل فمن الصعب إيقافهم. لو أن هذا حدث قبل أسبوعين لما كانت سيلفي في خطرٍ محقق لأنها عاشت سرّاً كبائعة كتب بروتستانتية، ولكن في الأسبوع الماضي قاد نيد بيير إلى منزلها، لذلك لا بدّ وأنها قد أصبحت على قائمة بيير الآن. أراد نيد أن يحضرها مع أمها إلى السفارة لحمايتهما.

شقّ نيد طريقه إلى شارع دو لا سيربونت، وقرع باب المتجر. فُتحت النافذة في الطابق العلوي وظهر أحد منها: «من؟» كان صوت إيزابيل.

«نيد ويلارد».

«انتظرنني، سأنزّل».

أغلقت إيزابيل النافذة وبعد عدة دقائق فُتح الباب الأمامي وقالت له: «ادخل».

دخل نيد وأغلقت إيزابيل الباب خلفه. كانت هناك شمعة واحدة تضيء رفوف السجلات والمحابر.

«أين سيلفي؟» سأل نيد.

«ما زالت تحذر الناس».

«لقد تأخر الوقت على التحذير الآن».

«ربما لجأت إلى مكان ما».

أصيب نيد بالخيبة والقلق: «أين تعتقدين أنها موجودة؟».

«اتجهت شمالاً نحو شارع سان مارتان إلى منزل الماركيز لاني. قد تكون هناك أو ربما...» ترددت إيزابيل.

«أو ماذا؟ إن حياتها في خطر!» قال نيد بنفاد صبر.

«هناك مكان سري. عليك أن تقسم بأنك لن تكشف عنه البتة».

«أقسم لك».

«في شارع دي مير وعلى بعد ممتي ياردة من زاوية شارع سان دونيه إسطنبول حجري قديم بباب واحد ومن دون نوافذ».

«هذا جيد»، تردد نيد وتابع: «هل ستكونين بخير».

فتحت إيزابيل دُرجاً في الطاولة، وأرته مسدسين صغيرين يعملان بآلية قذح الزناد مع نصف دزينة من الذخيرة وصندوق من البارود.

«أحتفظ بهما من أجل مواجهة السكارى في الحانة المقابلة للمكتبة ومن قد يعتقدون أنفسهم قادرين على نهب متجر تديره امرأتان».

«هل أطلقت النار على أحد من قبل».

«لا، فقد كان التهديد باستخدام المسدس كافياً على الدوام».

وضع نيد يده على مقبض الباب وقال: «أحكمي إغلاق الباب خلفي».

«بالطبع».

«أحرص على إغلاق النوافذ وإيصادها جيداً من الداخل».

«أجل».

«أطفئي الشمعة ولا تفتحي الباب لأحد. إن قرع أحد الباب لا تتحدثي. دعهم يعتقدون أنه لا أحد في المنزل».

«حسناً».

«سنعود أنا وسيلفي من أجلك، وستوجه ثلاثتنا إلى السفارة الإنكليزية».

عندما فتح نيد الباب أمسكت إيزابيل بذراعه وقالت: «فلتعتني بها»، قالت

هذا برنة غريبة في صوتها. «إن حدث أي شيء اعتنِ بفتاتي الصغيرة».

«هذا ما أنوي القيام به»، قال نيد وهرع خارجاً.

لم يتوقف قرع الأجراس، ولم يكن هناك الكثير من الناس على الضفة اليسرى من النهر. عبر نيد كاتدرائية نوتردام والمتاجر الباهظة، وتفاجأ عندما رأى جثتين في الشارع. لقد طعن رجل وامرأة، وهما في ثياب النوم، شعر نيد بالغيثان من ألفة مشهد الزوج والزوجة بعضهما بجانب بعض وكأنهما نائمان في السرير، باستثناء أن ثياب نومهما مُسبحة بالدم. كان باب متجر المجوهرات القريب مفتوحاً، ورأى نيد رجلين يخرجان وهما يحملان كيسين ممتلئين بأشياء ثمينة مسروقة من كل بد. حدق الرجلان نحو نيد بقسوة وتجاوزاه بسرعة. لم يرغب نيد في أن يؤخره أي صدام معهما، ولا بدّ أنهما شعرا بالمثل ولهذا لم يطارداه.

على الضفة اليمنى من النهر رأى مجموعة من الرجال يخلعون باباً. كانوا يرتدون شرائط بيضاء حول أذرعهم وتكهن نيد أنه نوع من التعريف بهويتهم. كانوا معظمهم يحملون خناجر وهرافات باستثناء رجل واحد، في ثياب أفضل من ثياب البقية، يحمل سيفاً.

«افتحوا أيها البروتستانتيون المُجدّفون!» صرخ الرجل. كان صوته يشبه صوت رجل متعلم.

كانوا رجالاً كاثوليكيين وقد شكلوا فرقة بقيادة ضابط. أدرك نيد أنهم من ميليشيا المدينة. قالت له جيرونيما إن مجزرة جماعية لنبلاء بروتستانتين ستقع، ولكن المنزل الذي مرّ بالقرب منه منزل عادي لأحد الحرفيين أو ربما لتاجر صغير. لقد وقع ما كان يخشاه نيد، وها هي عمليات الاغتيال تتوسع، ولم تعد محصورة فقط بالأهداف الأرستوقراطية المحددة أصلاً. ستكون نتائج هذا العمل مهولة حقاً.

شعر نيد أنه شخصٌ جبان عندما تسلل بالقرب من هذا المشهد على أمل ألا يراه الرجال ذوو الأربطة البيضاء. لم يكن هناك ما يسعه القيام به، فهو لا يستطيع بمفرده إنقاذ سكان المنزل من ستة معتدين. إن واجههم فسيفقتلونه، ومن ثم سيقضون على من في المنزل. كان عليه أن يعثر على سيلفي.

في شارع سان مارتان العريض والمتجه شمالاً سار نيد بحذر ويقظة على ضوء النجوم يتفقد الشوارع الجانبية، ويأمل بأن يرى امرأة ضئيلة الحجم

بقامة ممشوقة وخطوات سريعة تتجه نحوه وعلى وجهها ابتسامة تنم عن الراحة. عندما نظر إلى أحد الأزقة رأى مجموعة أخرى من الرجال بأربطة بيضاء حول أذرعهم إلا أن عددهم هذه المرة أقل. كانوا ثلاثة رجالٍ بمظهرٍ خشن، ولم يكن بحوزتهم أيّ سيوف. كان نيد على وشك تجاوزهم بسرعة عندما لفت نظره شيء ما في المشهد جعله يتسمر في مكانه.

كان الرجال يديرون ظهورهم إلى الشارع، وينظرون إلى شيء ما على الأرض. حدق نيد إلى هذا الشيء الذي كانوا ينظرون إليه، كان ذلك الشيء يشبه ذلك الشكل الرشيق لقدم امرأة.

وقف نيد وأخذ يحدق. كان المكان مظلماً إلا أن أحد الرجال يحمل مصباحاً. عندما اقترب نيد أكثر رأى فتاةً مستلقية على الأرض وبين قدميها يركع رجل آخر. كانت تثنّ وبعد مرور دقيقة فهم نيد ما كانت تقول الفتاة: «لا، لا، لا..».

شعر بدافع قوي للهرب، ولكنه لم يستطع. وبدا له أن عملية الاغتصاب لم تبدأ بعد حقاً. إن قام بالتدخل خلال اللحظات القليلة القادمة فقد يمنع حدوث الأمر... أو قد يتعرض للقتل.

ولأن اهتمام الرجال منصبّ على المرأة لم يروه، ولكن في أيّ لحظة قد ينظر أحدهم إلى الخلف ويراه. لم يكن هناك وقت للتفكير بالأمر. وضع نيد مصباحه وسحب سيفه.

تسلل نيد خلف المجموعة، وقبل أن يشلّه الخوف غرز سيفه في فخذ أقرب رجل إليه.

صرخ الرجل من الألم.

أخرج نيد سيفه من فخذ الرجل. وبينما كان الرجل التالي يلتفت لينظر إلى ما كان يحدث ضربه نيد بالسيف. كانت ضربة موفقة فقد اخترقت نهاية السيف وجه الرجل من ذقنه وحتى عينه اليسرى. صرخ الرجل من الألم ووضع يديه على وجهه والدم يسيل من بين أصابعه.

نظر الرجل الثالث إلى رفيقيه المجروحين وارتعب فركض هارباً عبر الزقاق. وبعد برهة لحق به الرجلان اللذان جرحهما نيد.

نهض الرجل الرابع بسرعة ولحق بهم وهو يرفع سرواله.

أغمد نيد سيفه الملوث بالدم وركع بجانب الفتاة وغطى ساقها العاريتين بفستانها، وهنا فقط ألقى نظرة على وجهها، وأدرك أنها أفرو ديت بيلو.

لم تكن أفرو ديت بروتستانتية، وتساءل نيد عما كانت تفعله في الشارع ليلاً وحدها فوالداها لا يسمحان لها بالتجول وحدها حتى أثناء النهار. لا بد أنها كانت في موعد غرامي، وتذكر نيد كيف ابتسمت بسعادة عندما رأت برنار هوسي في قصر اللوفر. كانت ستعود سالمة من مواعدها هذه الليلة لو لم يقرر أحدهم إطلاق كلاب الحرب.

نظرت إليه وقالت: «نيد ويلارد؟ شكرًا للرب! ولكن كيف...».

أمسك يدها وسحبها لتقف على قدميها ثم قال: «لا وقت للشرح». لم يكن قصر عائلة بيلو بعيداً عن شارع سان دوني. «دعيني أوصلك إلى المنزل». أخذ مصباحه وتأبط ذراعها.

بدت مصدومة جداً ولم تكن قادرة على التحدث أو حتى البكاء. نظر نيد حوله في قلق وهما يسيران في الشارع، فلم يعد أحد بمأمن مما يحدث.

كانا على وشك الوصول إلى منزلها عندما خرج أربعة رجال بأربطة بيضاء حول أذرعهم من شارع فرعي، وبدأوا يتحدثون معهما. «هل أنت هارب أيها البروتستانتية؟» قال أحدهم.

تجمد قلب نيد من الخوف. فكر بسحب سيفه ولكنهم كانوا أربعة رجال وجميعهم يحملون سيوفاً أيضاً. كان قد نجح في مباغته الرجال السابقين وإخافتهم، ولكنه الآن أمام أربعة رجال يقفون قبالة أيديهم على أغمدة سيوفهم في استعداد. لم يكن أمامه أيّ فرصة على الإطلاق.

لم يكن أمامه طريقة أخرى سوى الاستعانة بالكلام لتخليص نفسه. بالطبع سيشكون على الفور بأنه أجنبي فلم تكن لهجته جيدة بما يكفي لخداع الناس رغم أن الباريسيين اعتقدوا أنه من كاليه إلا أنه أحياناً يرتكب أخطاء قواعدية بسيطة، وأخذ يصلي في قرارة نفسه كيلا يفضح نفسه عندما يقول كلمة «قصر».

استجمع كل شجاعته وقال بسخرية: «هذه الآنسة بيلو أيها الغبي». «إنها

كاتوليكية صالحة، وقصر والدها الكونت بيلو هناك. ضَع إصبعاً واحداً عليها وسأوقظ البيت بأكمله». لم يكن هذا التهديد فارغاً فقد كان البيت على مرمى السمع، ولكن أفروديت شدت على ذراعه بقوة أكبر، وتكهّن أنها لم تكن ترغب بأن يعرف والدها أنها كانت في الخارج.

نظر قائد المجموعة بمكرٍ وقال: «إن كانت سيدة كاثوليكية نبيلة فما الذي تفعله في مثل هذا الوقت من الليل في الشارع».

«ما رأيك أن نسأل والدها؟» حافظ نيد على وضعية المتعجرف والواثق من نفسه، ولكن الأمر لم يكن سهلاً عليه بل كان صراعاً حقيقياً. «وعندها سيسألك عما دفعك بحق الشيطان للتعرض لابنته». أخذ نيد نفساً عميقاً، ورفع رأسه وكأنه على وشك الصراخ.

«حسناً، حسناً»، قال قائد المجموعة. «ولكن الهوغونيين انتفضوا على الملك، ووصلت الميليشيا أوامر بالبحث عنهم وقتلهم. من الأفضل لكما أن تدخلا إلى المنزل وتلازماه».

حاول نيد ألا تظهر على وجهه علائم استرخاء وقال: «من الأفضل أن تكون أكثر حذراً عندما تخاطب النبلاء الكاثوليكين»، ثم سار مع أفروديت متجاوزاً الرجال من دون أن يتفوه القائد بأيّ كلمة أخرى.

عندما أصبحا بعيدين عن مرمى السمع قالت أفروديت: «يجب أن أدخل من الباب الخلفي».

أوما برأسه موافقاً. إذاً، كانت أفروديت في موعدٍ غرامي. «هل هناك باب مفتوح؟».

«خادمتي بانتظاري».

إنها القصة نفسها؛ فها هي خادمة أفروديت تساعد سيدتها في علاقتها الرومانسية التي لا يوافق عليها والدها. حسناً، هذا ليس من شأن نيد. رافقها إلى القسم الخلفي من المنزل حيث قرعت أفروديت على بوابة خشبية عالية فتحتها على الفور فتاة شابة.

أحكمت أفروديت قبضتها بقوة على يد نيد وقبلت أصابعه ثم قالت: «أدين لك بحياتي». ومن ثم انسلت إلى الداخل، وأغلقت البوابة خلفها.

توجه نيد إلى منزل الماركيز لاني، وقد غدا أكثر قلقاً مما كان عليه لأنه أصبح وحده الآن وبالتالي أكثر عرضة للشكوك. وضع يده على غمد سيفه بتوتر واستعداد.

كان العديد من البيوت مضاء الآن فقد استيقظ السكان فزعين على وقع أصوات الأجراس وأشعلوا الشموع، وظهرت وجوههم الشاحبة من وراء النوافذ وهم يحدقون إلى الخارج في خوف.

لحسن الحظ لم يكن قصر لاني بعيداً. وفيما كان نيد يصعد درج الباب الأمامي انتبه إلى أن المنزل غارق في الظلمة والصمت. ربما كان لاني وخدمه يتظاهرون بأن المنزل خالٍ كما طلب نيد من إيزابيل أن تفعل.

عندما قرع نيد الباب تحرك الباب من مكانه. يبدو أنه لم يكن موصداً. فتح نيد الباب لتمتد أمامه ردهة مظلمة. اشم نيد رائحة مقرفة كالتّي تنبعث من متجر الجزار ثم رفع مصباحه عالياً وشهق.

كانت الجثث متناثرة في أرجاء المكان وقد لطخت الدماء الأرضية المرصوفة والجدران المكسوة بالألواح الخشبية. رأى نيد جثة الماركيز ملقاةً على ظهرها والطعنات تغطي بطنه وصدره. شعر نيد بقلبه يتوقف من المشهد الذي أمامه. رفع مصباحه عالياً ليرى وجوه الجثث الأخرى وهو خائف من أن تقع عيناه على وجه سيلفي. كانوا غرباء تكهّن نيد من ملابسهم أنهم خدم. دخل المطبخ وعثر على المزيد من الجثث. رأى مصراعي النافذة المُطلة على الفناء مفتوحتين، وتمنى أن يكون بعض سكان المنزل قد نجحوا بالهرب. بحث في المنزل وبمساعدة ضوء مصباحه تفقد كل وجه من وجوه الجثث. شعر براحة كبيرة عندما لم ير وجه سيلفي بينها.

يجب عليه الآن أن يجد مكانها السري، وإن لم يعثر عليها هناك فسيكون أكبر مخاوفه قد تحقق.

قبل أن يغادر المبنى مزق الياقة المخرمة لقميصه وربطها حول ذراعه اليسرى حتى يبدو كواحد من الميليشيا. أصبح الآن عرضة لخطر آخر وهو أن يتحده أحد رجال الميليشيا، ويكتشف أنه منتحل، ولكن بعد التفكير ملياً بدا له أن الأمر يستحق المخاطرة.

كان نيد قد بدأ يشعر باليأس. فخلال الأسابيع القليلة التي مرت على

معرفة سيلفي باتت تعني له كل شيء، وفكر بأنه خسر مارجوري إلا أنه لن يخسر سيلفي أيضاً، ولكن ما الذي سيفعله؟

شق طريقه عبر شارع دو مير، ورأى مبنى حجرياً عادياً من دون نوافذ. توجه إلى الباب وقرعه ثم قال بصوتٍ منخفض ولجوج: «أنا نيد. هل أنت في الداخل يا سيلفي».

لم يكن هناك سوى الصمت جواباً على سؤاله. شعر بنبض قلبه يتباطأ ثم سمع صوت مزلاج الباب وخشخشة المفتاح. فُتح الباب ودخل. أقفلت سيلفي الباب وراءه وأحكمت إغلاق المزلاج ثم التفتت نحوه. رفع مصباحه عالياً ونظر إلى وجهها. بدت شديدة الاضطراب وخائفة ودامعة العينين ولكنها كانت حية وسليمة.

«أحبك»، قال لها نيد.

ورمت نفسها بين ذراعيه.

تفاجأ بيير من النتيجة التي عادت بها مكائده. كانت ميليشيا باريس تنفذ مجزرة بالبروتستانتين بقوة وحقد أكبر مما كان يحلم.

علم أن ذكاه لم يكن السبب الحقيقي وراء هذا فقد كان الباريسيون مغتاضين جداً بشأن حفل الزفاف، وقد أخبرهم أشهر الوعاظ بأن لديهم حق الشعور بهذا. كانت المدينة على حافة الانفجار من الحقد ولا تحتاج سوى إلى فتيل لإشعاله. ولم يفعل بيير شيئاً سوى إشعال هذا الفتيل.

ومع انبلاج صباح يوم الأحد، الذي يُصادف عيد القديس بارثولوميو أيضاً، كان هناك مئات الهوغونيين الموتى والمحتضرين في شوارع المدينة. إذاً، كان قتل كل البروتستانتين في باريس أمراً ممكناً. ويحساس بالنصر الممزوج بالدهشة أدرك بيير أنه وبعد هذا الأمر لن تكون هناك أي حلول للإصلاح بين الطرفين.

حشد بيير حوله مجموعة صغيرة من الرجال الهمجيين، ووعدهم بأنه سيسمح لهم بسرقة أي شيء يريدونه ممن سيقتلونهم. ومن بين هؤلاء الرجال بروكار وراستو ورئيس جواسيسه بيرون ومجموعة من قاطعي الطرق الذين كان بيرون يستخدمهم لتقفي أثر المشتبه بهم.

كان بيير قد أعطى العمدة لو شارون الدفتر الأسود، إلا أنه كان يتذكر العديد من الأسماء والعناوين فقد كان جاسوساً لأربعة عشر عاماً. توجهوا أولاً إلى منزل الخياط رينيه دويوف في شارع سان مارتان. «لا تقتلوه أو تقتلوا زوجته إلى أن أمركم بهذا»، أمرهم بيير. خلعوا الباب ودخلوا المتجر، وصعد بعض الرجال إلى الطابق العلوي. فتح بيير الدرج وعثر على سجل الخياط بأسماء وعناوين جميع زبائنهم. لطالما أراد بيير الحصول عليه. ها قد أصبح الدفتر معه وسيستخدمه الليلة. جرّ الرجال الخياط وزوجته عبر الدرج وهما في ثياب النوم. كان رينيه رجلاً ضئيل الحجم في الخمسين من عمره، وهو أصلع مذرأه بيير لأول مرة، أي منذ ثلاثة عشر عاماً. أما زوجته فكانت يافعة وجميلة وما تزال جذابة حتى وهي خائفة الآن. ابتسم بيير لها وقال: «اسمك فرانسواز إن لم تخني الذاكرة»، ثم استدار إلى راستو وقال له: «اقطع لها إصبعها». أطلق راستو قهقهة عالية.

وفيما انخرطت المرأة في البكاء، أخذ زوجها يلمس العفو عنها. رفع الرجال المسلحون يدها اليسرى على الطاولة وقطع راستو إصبعها الصغير وبعضاً من الإصبع الذي يليه. تدفق الدم على الطاولة ولطخ لفة من الصوف الرمادي الكامد. صرخت فرانسواز وأغمي عليها. «أين تُخبي أموالك؟» سأل بيير. «في الخزانة خلف المبولة»، قال الخياط وتابع: «من فضلك لا تؤذيها أكثر».

أوما بيير إلى بيرون ليذهب إلى الطابق العلوي. انتبه بيير إلى أن فرانسواز قد فتحت عينيها الآن: «اجعلوها تقف». عاد بيرون يحمل كيساً جلدياً، وأفرغ كومة من العملات المعدنية المتنوعة على الطاولة فوق بركة من دم فرانسواز. «لديه مال أكثر»، قال بيير. «مزقوا ثياب نومها». كانت فرانسواز أصغر من زوجها وصاحبة جسدٍ رشيق. التزم الرجال الصمت.

«أين بقية المال؟» سأل بيير الخياط.

تردد دوبروف.

«هل أقطع حلمتي ثديها؟» قال راستو بحماس.

«في الموقد أعلى المدخنة. دعها وشأنها من فضلك»، قال دوبروف.

وضع بيرون يده في المدخنة الباردة رغم أن الوقت صيف ومن أحرّ أيام شهر آب/ أغسطس. أخرج بيرون صندوقاً خشبياً مقفلاً، وكسر القفل بنهاية سيفه، ثم أفرغ كومة كبيرة من العملات الذهبية على الطاولة.

«انحروهما وقسموا المال بينكم»، قال بيير وخرج من دون أن يقف لي شاهد.

لم يكن بيير يريد قتل أحد كما أراد قتل الماركيز نيم وزوجته الماركيزة. أراد أن يقتل الرجل أمام زوجته. سيكون انتقاماً جميلاً! ولكن الماركيز والماركيزة يعيشان خارج باريس في ضاحية سان جاك، والبوابات مغلقة الآن، ولهذا كانا بمأمن من غضب بيير... ولكن إلى الآن فقط.

ولأن بيير لم يكن قادراً على الوصول إليهما الآن توجه إلى منزل عائلة بالو.

عندما زار بيير المتجر منذ بضعة أيام اقترفت إيزابيل بالو ما هو أسوأ من الإهانة. لقد أخافته، ورأت سيلفي المتيقظة هذا، لقد حان الوقت لينتقم منهما.

كان رجاله ينهبون المال في هذه الأثناء، وتكهن بيير أنهم كانوا يغتصبون الزوجة قبل قتلها أيضاً. لطالما لاحظ بيير أن الرجال عندما يقتلون في الحروب الأهلية يغتصبون أيضاً. يبدو أن ارتكاب خطيئة معينة يفتح الباب أمام ارتكاب غيرها.

وأخيراً، خرج الرجال من المتجر وقادهم بيير عبر شارع سان مارتان وجزيرة إيل دو لا سيتي. تذكر بيير كل الكلمات التي نعتت بها إيزابيل: القذر... ابن العاهرة... واللعين. سيذكرها بهذه الكلمات وهي تحتضر.

رأى نيد أن سيلفي قد خبأت الكتب الممنوعة بذكاء. أي شخص سيدخل المستودع لن يرى سوى أكداش من البراميل التي تصل إلى السقف. كانت معظم البراميل ممتلئة بالرمل، ولكن سيلفي عرضت على نيد كيف أن بعضاً

منها كان فارغاً ويمكن تحريكه بسهولة لتظهر وراءه صناديق كُتب مُخبأة. أخبرته أن ما من أحد اكتشف سرها أبداً.

أطفأ المصباح الذي حملة نيد خوفاً من أن يتسلل أيّ ضوء من شقوق الباب إلى الخارج، وأمسك أحدهما بيد الآخر، وجلسا في العتمة. قرعت الأجراس بجنون، ووصلت إلى مسامعهما أصوات القتال والصراخ والصياح الخشن لرجال يتقاتلون وإطلاق رصاص بين الفينة والأخرى. شعرت سيلفي بالقلق على أمها، ولكن نيد أقنعها أن إيزابيل أكثر أماناً في منزلها مما ستكون عليه سيلفي فيما لو خرجت إلى الشارع.

جلسا لساعات يصيخان السمع ويتظران. بدأت أصوات الضجيج في الشارع تتراجع بحلول الوقت الذي بدأ فيه ضوء الفجر يتسرب من بين شقوق الباب وكأنه يؤطره كلوحة.

«لا يمكن أن نبقى هنا إلى الأبد؟» قالت سيلفي.

فتح نيد الباب قليلاً وأخرج رأسه بحذر ونظر عبر شارع دو مير المضاء بأشعة شمس الصباح.

«المكان آمن»، قال نيد وخرج.

لحقت به سيلفي وأقفلت الباب وراءها ثم قالت: «ربما انتهت عمليات القتل».

«ربما يخافون من ارتكاب الفظائع في ضوء النهار».

ردت سيلفي بآية من إنجيل يوحنا: «وأحب الناس الظلمة أكثر من النور، لأن أعمالهم كانت شريرة».

سارا عبر الشارع بسرعة جنباً إلى جنب. كان بيير ما يزال يرتدي العصابة البيضاء حول ذراعه من أجل حمايتهما، وقد وضع ثقته بسيفه ويده لم تبارح الغمد ليشعر بالطمأنينة. توجهها جنوباً باتجاه النهر.

رأيا عند أول منعطف جثتي رجلين أمام متجر يبيع السروج. ذهل نيد عندما رأى أن الرجلين كانا شبه عاريين. لم تكن الجثتان واضحتين لهما فقد انحنت امرأة بشعر رمادي في معطفٍ قدر فوق الجثتين. وبعد برهة أدرك نيد أنها كانت تنزع الثياب عنهما.

كانت الثياب المستعملة قيمةً فالأغنياء فقط هم من يستطيعون شراء

الثياب الجديدة. حتى الثياب الداخلية القذرة يمكن أن تباع كخُرُق للوراقين. أدرك نيد أن هذه المرأة البائسة كانت تسرق ثياب الموتى لتبيحها. نزعت السروالين وركضت وهي تحمل كومة من الثياب تحت ذراعها. جعل عراء الجثتين المطعونتين المشهد أكثر بذاءة، ولاحظ نيد أن سيلفي أشاحت بعينها عندما مرا بالقرب من الجثتين.

تجنبنا الشوارع الرئيسية العريضة والمفتوحة، وانسلا عبر الأزقة الضيقة والوعرة في منطقة لي إيل. شاهدنا جثثاً في الشوارع الخلفية أيضاً. كانت معظم هذه الجثث عارية وفي بعض الأماكن كُدست بعضها فوق بعض وكأنهم أرادوا إفساح الطريق أمام الناس حتى يعبروا. رأى نيد وجوه عمال لוחتها الشمس، وأيدي بيضاء ناعمة لنساء ثريات، وأذرع وأرجل أطفال نحيلة. لم يعد قادراً على إحصاء عددهم، وبدا الأمر أشبه بمشهد الجحيم مرسوماً في كنيسة كاثوليكية إلا أن هذا المشهد حقيقي، وها هو أمام أعينهما في إحدى أعظم مدن العالم. شعر نيد بإحساس كبير بالهلع الممزوج بالغثيان، وكان على وشك التقيؤ لو لم تكن معدته فارغة. حذق إلى وجه سيلفي ورأى وجهها شاحباً وقد علاه تعبير عناد ضارٍ. ولكن الأسوأ لم يأت بعد.

على حافة النهر وقف أفراد الميليشيا يتخلصون من الجثث. كانوا يرمون الموتى والجرحى المساكين في نهر السين من دون أي مراسم وكأنهم جردان مسمومة. طافت بعض الجثث وبالكاد تحركت أخرى واكتظت الحافة الضحلة من النهر بالجثث. هناك رجل بعصا طويلة يقف عند الحافة يدفع بالجثث إلى وسط النهر حتى يُفسح المجال أمام المزيد من الجثث التي بدت هامة وكأنها لا تريد أن تغادر. كان الرجال مشغولين جداً فيما يقومون به ولم يلاحظوا نيد وسيلفي اللذين هرعاً فوق الجسر.

شعر ببير بحماسة يزداد وهو يقترب من متجر القرطاسية الصغير في شارع دولا سيربونت. تساءل إن كان سيُشجع الرجال على اغتصاب إيزابيل. بداله هذا العقاب عقاباً مناسباً لها. ولكن خطرت بباله فكرة أفضل وهي تشجيعهم

على اغتصاب سيلفي أمام والدتها؛ فالناس يشعرون بألم أكبر عندما يعاني أولادهم. لقد تعلم هذا من زوجته أوديت. خطر بباله أن يغتصب سيلفي بنفسه، ولكن قد يؤثر هذا على هيئته أمام رجاله. لذلك قرر أن يترك لهم هذا العمل القذر لهم.

لم يقرع باب المتجر فلم يعد أحد في باريس يجيب على الباب الآن. إن قرعوا على الباب فسيمنح هذا سكان المنزل الوقت لإنذار أحدهم الآخر. حطم رجال بيير الباب بالمطارق وهرعوا إلى الداخل.

حالما دخل بيير تنهى إلى سمعه صوت طلقة وأصيب بالصدمة. لم يكن رجاله يحملون أسلحة نارية فقد كانت باهظة الثمن ومحصورة بالأرستوقراطيين عادة. بعد مرور عدة دقائق رأى بيير إيزابيل واقفة في القسم الخلفي من المتجر، وقد تمدد أحد رجال بيير - ميتاً على الأرجح - عند قدميها. وبينما راقبها بيير رفعت مسدساً آخر ووجهته بعناية نحو بيير. وقبل أن يتنسى له الوقت ليتحرك ضربها رجل آخر من رجاله بسيفه فسقطت من دون أن تطلق النار من مسدسها الثاني.

أطلق بيير لعنة فقد خطط للانتقام أكبر، ولكن ما زال أمامه الانتقام من سيلفي.

«هناك امرأة أخرى»، صرخ برجاله وتابع: «فتشوا المنزل». لم يأخذ تفتيش المنزل وقتاً طويلاً. هرع بيرون صاعداً السلالم وعاد بعد دقيقة: «لا أحد هنا».

نظر بيير إلى إيزابيل، وبسبب الظلام عجز عن التأكد من أنها حيّة أو ميتة. «فلتجروها خارجاً»، قال آمراً رجاله.

رأى في ضوء النهار أن إيزابيل تنزف بشدة من كتفها. ركع قريباً منها وصرخ بغضب: «أين سيلفي؟ أخبريني أيتها العاهرة».

رغم أن إيزابيل كانت تتألم فإنها ابتسمت ابتسامة هازئة وقالت همساً: «فلتذهب إلى الجحيم حيث تنتمي أيها الشيطان».

زأر بيير في غضب ثم وقف على قدميه وركلها من كتفها المجروحة. ولكن لم يكن هناك فائدة فقد توقفت عن التنفس وعيناها المفتوحتان تحدقان به.

لقد فرت سيلفي.

عاد بيير إلى الداخل، ورأى رجاله يبحثون عن المال. كان المتجر ممتلئاً بكل أنواع الورق. تجول بيير وأخذ دفاتر السجلات عن الرفوف وأفرغ الخزائن والأدراج وكدس الأوراق على الأرض وسط المكان. أخذ المصباح الذي حمله بروكار وفتحه وقرب الشعلة من الأوراق. اشتعلت الأوراق بسرعة وانتشرت النيران.

شعر نيد أنه وسيلفي محظوظان بوصولهما إلى الضفة اليسرى من النهر من دون أن يعترض أحد طريقهما. عموماً لا يُهاجم رجال الميليشيا الناس بشكل عشوائي. يبدو أنهم كانوا يستخدمون قائمة الأسماء والعناوين التي قدمها لهم بيير، ولكنهم أوقفوا نيد واستجوبوه قبلاً عندما كان برفقة أفروديت بيلو وقد يحدث هذا مجدداً، ولهذا شعر بالراحة عندما وصل إلى شارع دو لا سيربونت مع سيلفي إلى جانبه، وهرعا إلى المتجر.

رأى نيد الجثة في الشارع، وانتابه شعور مريع عندما تعرف على الجثة. وهذا أيضاً ما شعرت به سيلفي التي صرخت وركضت. ركعا بالقرب من الجثة الهامدة على الطريق المرصوف والداامي. علم نيد على الفور أن إيزابيل ميتة. لمس وجهها وشعر به دافئاً. لم تمت منذ وقتٍ طويل، ولهذا السبب لم تُنهب ثيابها بعد.

«هل يمكنك أن تحملها؟» قالت سيلفي وهي تنتحب.

«أجل»، قال نيد وتابع: «إن ساعدتني على رفعها على كتفي».

ستكون الجثة ثقيلة على نيد ولكن السفارة ليست بعيدة، وخطر بباله أنه سيبدو كأحد رجال الميليشيا الذين يتخلصون من الجثث، وبالتالي سيكون بعيداً عن شبهتهم.

وضع يديه تحت ذراعي إيزابيل الرخوتين، وعندما اشتم رائحة الدخان توقف. نظر إلى داخل المتجر ورأى حركة في الداخل. تساءل إن كان هناك حريق في الداخل. اشتعلت النار وأضأت المنزل من الداخل، ورأى رجالاً يتحركون وكأنهم يبحثون عن شيء ما، ربما كانوا يبحثون عن أشياء قيّمة.

«لا يزالون هنا!» قال لسيلفي.

في تلك اللحظة رأى نيد رجلين يخرجان من الباب. كان لأحدهما وجه مشوه وأنفه عبارة عن فتحتين في الوجه يحيط بهما نسيج ندبة أبيض. أما الشخص الآخر فكان بشعرٍ أشقر كثيف وذقنٍ مدبية وتعرف نيد إلى بيير على الفور.

«يجب أن نتركها.. هيا!» قال نيد.

ترددت سيلفي المصعوقة حزناً للحظة ومن ثم ركضت. ركض نيد خلفها ولكن بيير تعرف عليهما، وسمع بيير يصرخ: «ها هي! إلحق بها يا راستو». ركض نيد وسيلفي جنباً إلى جانب حتى نهاية شارع دو لا سيربونت. وعندما كانا يركضان بالقرب من نوافذ كنيسة سان سيفين حذق نيد إلى الوراء ورأى راستو يلحق به فرفع سيفه.

سارع نيد وسيلفي عبر شارع سان جاك العريض إلى داخل مقبرة سان جوليان لو بوف، ولكن سيلفي قد بدأت تشعر بالتعب وراستو لحق بهما. فكر نيد جيداً بحثاً عن حل. كان راستو في الثلاثين من عمره، ولكنه ضخم وقوي وقد فقد أنفه في مشاجرة ما. كان على الأغلب مبارزاً متمرساً، ويملك خبرة طويلة في القتال. سيكون خصماً عنيداً، وفي أي معركة سريعة سيتفوق بحجمه ومهارته. إن أمل نيد الوحيد هو مفاجأته بطريقة ما والقضاء عليه بسرعة. كان نيد واعياً لمحيطه جيداً وقرر محاصرة الرجل الذي يلاحقه. استدار عند النهاية الشرقية للكنيسة، وغاب عن نظر راستو لدقيقة. توقف فجأة وسحب سيلفي إلى مدخل طويل لأحد المنازل.

كانا يلهثان وقد تقطعت أنفاسهما. سمع نيد صوت خطوات الجري الثقيلة لراستو. أمسك بيمينه سيفه وبيساره خنجره. كان عليه أن يدرس الموقف بدقة فلا يمكنه أن يسمح للرجل بتجاوزهما. ولكن لم يكن هناك وقت للتفكير. عندما بدا له أن راستو قد بات قريباً منه خرج من مدخل المنزل.

لم يكن توقيته مناسباً تماماً لأن راستو أبطأ فجأة متوقفاً أن يكون هناك كمين بانتظاره وبذلك كان بعيداً عن متناول نيد. لم يكن بوسعه التوقف، ولكنه كان قادراً على التنحي، وتجنب ضربة سيف نيد.

تحرك نيد بسرعة مندفعاً إلى الأمام واخترقت نهاية سيفه جنب راستو. دفع زخم الضربة بالرجل بعيداً عن نيد الذي أخرج سيفه من جسد الرجل.

استدار راستو نصف استدارة إلى الورا وتعثرت ثم وقع أرضاً بقوة. ومن دون أن يفكر أخذ نيد يطعنه بوحشية إلا أن راستو ضرب بسيفه ضربة سريعة، وأوقع سيف نيد. طار السيف عالياً في الهواء وسقط على أحد القبور.

نهض راستو على الفور، وتحرك بسرعة كبيرة بالنسبة إلى رجل ضخمة مثله. حذق نيد إلى سيلفي التي انطلقت من مدخل المنزل وقال لها: «اركضي يا سيلفي، اركضي!» واندفع راستو نحوه ينوي طعنه وتقطيعه. تراجع نيد وباستخدام خنجره تفادى الطعنة وضربة أخرى بالسيف ومحاولة طعن. لم يكن واثقاً من أنه قادر على المتابعة. تظاهر راستو بأنه يلوح بسيفه للأسفل ولكنه وبسرعة مفاجئة عدل مسار الضربة إلى طعنة خرقت دفاع نيد. وفي هذه اللحظة بالضبط ثبت راستو في مكانه وخرجت نهاية سيف ما من بطنه. تراجع نيد إلى الورا متفادياً سيف راستو إلا أن حركته هذه لم تكن ضرورية لأن ضربة راستو قد فقدت زخمها وأخذ راستو يصرخ من الألم وسقط على بطنه. انتبه نيد إلى أن وراء راستو يقف شخص ما. كانت سيلفي بينيتها الصغيرة تسحب من ظهر راستو السيف الذي أسقطه نيد.

لم ينتظرا للمراقبة راستو وهو يموت. أمسك نيد بيد سيلفي وركضا عبر سوق موبير والأحياء الفقيرة في طريقهما إلى السفارة. وقف رجلان مسلحان أمام باب السفارة. لم يكونا من موظفي السفارة ولم يكن نيد قد رآهما قبلاً. تقدم أحد الرجلين المسلحين وقال لنيد: «لا يمكنك أن تدخل».

«أنا نائب السفير وهذه زوجتي. ابتعد عن طريقي الآن»، قال له نيد. ومن الطابق العلوي أتى صوت ويلزنهام أمراً: «إنهما تحت حماية الملك. دعهما يمران».

تنحى الحارس جانباً، وصعد كل من نيد وسيلفي الدرج. فُتح لهما الباب قبل أن يصلا إليه ودخلا. لقد أصبحا في مأمن الآن.

تزوجنا أنا وسيلفي مرتين. في المرة الأولى تزوجنا في كنيسة سان جوليان لو بوف الكاثوليكية الصغيرة حيث قتلت سيلفي الرجل المقطوع الأنف. وفي المرة الثانية وفق مراسم بروتستانتية في كنيسة صغيرة في السفارة الإنكليزية.

بعمر الحادية والثلاثين كانت سيلفي ما تزال عذراء. ولأنها أرادت أن تعوض عن كل الوقت الذي ضاع مارسنا الحب لأشهر، صباحاً ومساءً. عندما كنت أستلقي فوقها كانت تتشبث بي وكأنني أنقذها من الغرق، وغالباً ما تبكي بعد أن تنتهي إلى أن تغفو بين ذراعي.

لم نعثر على جثة إيزابيل، وبالتالي كان من الصعب على سيلفي الحداد على والدتها. في النهاية تعاملنا مع المتجر المحترق وكأنه قبر وكنا نقف أمامه كل أحد ممسكين أحداً بيد الآخر نتذكر هذه المرأة القوية والشجاعة.

وما أثار دهشتي حقاً هو أن البروتستانتيين تعافوا من أحداث مجزرة سان بارثولوميو. قُتل ثلاثة آلاف شخص في باريس، وآلاف آخرون في مجازر مشابهة في أماكن أخرى، ولكن الهوغونيين ردوا هذه الضربات. في البلدان ذات الأغلبية البروتستانتية أخذ الهوغونيون حشوداً من اللاجئين، وأغلقوا بوابات المدينة أمام ممثلي الملك. ومع اندلاع الحرب الأهلية مجدداً رحبت الأوساط المملكية بعائلة غيز مرة أخرى.

استمر أداء الطقوس الدينية سرّاً في الإسطنبول وفي مواقع سرية
أخرى من البلد.

تم استدعاء ويلزنهايم ليعود إلى لندن ورافقناه أنا وسيلفي. وقبل
أن يغادر باريس أخذت سيلفي نات إلى مخزن الكتب في شارع
دو مير، وتولت نات أمر بيع الكتب الممنوعة إلى البروتستانتين
في باريس. أعلنت سيلفي أنها ستستمر بطلب الكتب من جنيف،
وأنها ستبحر عبر القناة الإنكليزية إلى مدينة رون لملاقاة السفن
ومرافقتها إلى باريس ودفع الرشاوى الضرورية وإيصال الشحنة
إلى شارع دو مير.

كنت قلقاً عليها ولكنني تعلمت من الملكة إليزابيث أن بعض
النساء يرفضن أن يحكمهن رجل. بأي حال لم أكن واثقاً من
قدرتي على إيقافها حتى لو أردت هذا فقد أخذت على عاتقها
تأدية مهمة مقدسة، ولم يكن بوسعي حرمانها مما تريده. إن
استمرت بعملها هذا لوقتٍ طويل فسُيقبض عليها في النهاية
حتماً، وأعلم أنها ستموت عندئذٍ.
ولكن هذا كان قدرها.

الفصل الواحد والعشرون

وقف رولو على ظهر سفينة الشحن بتيت فلور فيما كانت تقترب من ساحل إنكلترا. كانت هذه اللحظة لحظة الخطر الأعظم.

غادرت السفينة مدينة شيربورغ إلى ميناء كومب وكانت محملة ببراميل براندي التفاح وقطعاً كبيرة جداً من الجبن وثمانية كهنة شبان من الكلية الإنكليزية في دوي.

ارتدى رولو رداء كهنوياً ووضع طوقاً طويلاً بصليب في نهايته. كان خط شعره قد بدأ يتراجع ولهذا قام بترك لحيته تنمو. وضع على كتفيه عباءة بيضاء على غير عادة الكهنة إلا أنه كان يرتديها لغاية ما. كانت العباءة إشارة تم الاتفاق عليها مسبقاً.

لقد جهز رولو بعناية فائقة لكل هذه التحضيرات، ولكن هناك الكثير من الأمور التي قد تسوء عندما يتم تطبيقها على أرض الواقع. لم يكن واثقاً من أي شيء بما في ذلك قبطان هذه السفينة. وقد يكون الرجل قد تقاضى مبلغاً جيداً من المال إلا أن أي أحد آخر، ربما نيد ويلارد أو أي رجل من رجال الملكة إليزابيث، يمكن أن يدفع له مبلغاً أكبر ليخون رولو.

كان يتمنى فقط لو أنه لم يعول على أخته كثيراً. فعلى الرغم من ذكائها وتنظيمها وشجاعتها فإنها امرأة في نهاية المطاف. لكن لم يرغب رولو بالعودة إلى إنكلترا الآن ولهذا السبب كان مضطراً للاستعانة بها.

عند هبوط الليل ألقى القبطان بالمرساة في خليج على بعد ثلاثة أميال من الوجهة المقصودة. لحسن الحظ كان البحر هادئاً. وفي الخليج القريب من الشاطئ رسا قارب صيد صغير بحواف مدورة وسارية ومجاديف. كان رولو يعرف هذا القارب مذ كان والده المسؤول الجمركي عن ميناء كومب، وكان

يُعرف آنذاك بقارب سانت آفا إلا أنه الآن معروف باسم آفا فقط. بعيداً عن الشاطئ وعلى أحد الصدوع استقر كوخ متين مبني من أحجار كالحة اللون والدخان يتصاعد من مدخته.

أخذ رولو يراقب الكوخ بقلق منتظراً الإشارة. كان يترقبها بتوتر شديد شعر معه كأنه على وشك التقيؤ لفرط خوفه من الفشل. كانت هذه بداية النهاية؛ فالشبان الذين يرافقونه عملاء سريون للرب، وكانوا أول مجموعة من بين مجموعات كثيرة قادمة. ويوماً ما ستصل هذه الأعوام السوداء إلى نهايتها، وتتخلى إنكلترا عن فكرة الحرية الدينية الحمقاء، وستعود الحشود العظيمة من الفلاحين والعمال الجهلة إلى الانحناء بسعادة أمام سلطة الكنيسة الواحدة والحقة، وستستعيد عائلة فيتزجيرالد مكانتها المستحقة، بل وقد تحصل على مكانة أفضل. وقد يُصبح رولو أسقفاً وصهره بارت دوفاً، وقد تقع مجزرة باليورتانيين في كينغزبريدج كما حدث في باريس في عيد القديس بارثولوميو. ولتحقيق هذا حرص رولو على عدم إفشاء الجزء الأخير من الحلم لمارجوري التي سترفض المشاركة فيه إن علمت بأنه يخطط لأعمال عنف.

وأخيراً رأى رولو الإشارة المنتظرة التي ظهرت عندما خرج بعباءته البيضاء. رأى أحداً يلوح بشرشف أبيض من نافذة الطابق العلوي للكوخ. فكر رولو أن الأمر قد يكون مجرد خدعة. ربما تعرض مال روبر الصياد الكاثوليكي المخلص وصاحب الكوخ، إلى الاعتقال على يد نيد ويلارد وتعرض للتعذيب كي يقدم معلومات. ربما كان هذا الشرشف الأبيض طعماً له ليقع في مصيدة ما. ولكن لم يكن باليد حيلة لأنه والشباب المرافقين له، يعرفون حق المعرفة أن عليهم المخاطرة بحياتهم.

كانت السماء الليلية قد ازدادت حلكة عندما جمع رولو الكهنة على ظهر السفينة وكل واحد منهم حمل كيساً يحوي حاجياته الشخصية وما سيحتاجه لإقامة القداس للعائلات الإنكليزية المحرومة كرقاقات الخبز والنيذ والزيت من أجل العمداء والماء المقدس.

«حافظوا على الهدوء إلى أن تصلوا إلى المنزل»، أشار عليهم رولو همساً. «يمكن للمياه أن توصل أقل صوت. ورغم أنه خليج مهجور لا

يسكنه أحد باستثناء عائلة الصياد فإنه لا يمكن لأحد أن يعرف ما الذي قد يحصل، فقد تنتهي مهمتكم قبل أن تصلوا إلى إنكلترا».

كان ليني برايس الكاهن المتحمس وأول رجل التقاه رولو في الكلية في دوي من بين الكهنة الحاضرين وأكبرهم عمراً.

«ستكون المسؤول عن المجموعة حالما تصلون إلى اليايسة يا ليني»، قال رولو.

أنزل القبطان قارباً إلى المياه، وأخذ الكهنة ينزلون على سلم مصنوع من الحبال. كان رولو آخر من نزل. أمسك بحاران بمجدافين وأخذ المركب يمزج الأمواج. ميز رولو بصعوبة شكل امرأة ضئيلة الحجم وبجانبتها كلب على الشاطئ. إنها مارجوري. وأخيراً يستطيع رولو تنفس الصعداء.

رسا القارب عند مرتفع بسيط على الشاطئ، ونزل الكهنة من القارب إلى المياه الضحلة. صافحتهم مارجوري ولم تقل شيئاً، وبقي كلبها المُدرب جيداً ساكناً في مكانه.

لم يغادر رولو القارب. نظرت مارجوري إليه والتقت عيونهما فابتسمت له، ثم لامست مارجوري ذقنها وكأنها تمسك لحية ما فهي لم تره على هذه الهيئة قبلاً. فكر رولو في نفسه وقال: «يا لها من حمقاء!» وأشاح بنظره بعيداً فلا يجب أن يعرف الكهنة أنها أخته فهم لا يعرفون عنه شيئاً سوى أن اسمه جان لانغليه.

دفع البحاران بالقارب بعيداً عن الشاطئ وأخذوا يجدفان عائدين إلى سفينة بتيت فلور. نظر رولو من حيث وقف في مؤخرة القارب، وراقب مارجوري تقود الكهنة عبر الطريق المليء بالحصى إلى الكوخ، ومن ثمّ اجتمعوا أمام الباب الأمامي وبعدها اختفوا عن الأنظار.

ركع مال روبر وزوجته بيغ وأبناؤهما الثلاثة الضخام الجسم على الأرضية الحجرية في الغرفة الوحيدة في الطابق السفلي بينما أقام ليني برايس طقوس القداس. كادت مارجوري تبكي عندما رأت الفرع الذي غمر هؤلاء المؤمنين البسطاء أثناء المناولة، وفكرت بأن هذه اللحظة بالذات تستحق كل هذه المخاطرة بحياتها.

كانت مارجوري تفكر أحياناً بعمتها جوان قبل أن تتوفى. تذكرت مارجوري كيف أنها العروس المضطربة ذات الستة عشر عاماً، صعدت إلى الطابق العلوي في منزل والدها حيث حولت جوان العجوز الغرقتين الصغيرتين إلى حجرة رهبنة وكنيسة، وهناك أخبرتها جوان أن الرب قد اختارها لغاية ما، ولكن عليها الانتظار حتى يكشفها لها. يبدو أن جوان كانت على حق. وها هي مارجوري قد انتظرت وها هو الرب يكشف لها عن الغاية التي رسمها لها.

كان الطلب على الكهنة الكاثوليكيين كبيراً. وفي كل مرة ترافق فيها مارجوري بارت إلى البرلمان تتحدث إلى الأرسطوقراطيين والأثرياء الكاثوليكيين في لندن. تحدثت عن الأمر بسرية وسرعان ما اكتشفت أن الكثيرين كانوا يتوقون إلى إقامة طقوس القداس. حرصت مارجوري في لندن على الابتعاد عن السفارتين الفرنسية والإسبانية خشية إثارة الشكوك بالتآمر، وأقنعت بارت بأن يكون حذراً أيضاً. كان بارت يدعم المهمة التي أخذتها مارجوري على عاتقها ويكره البروتستانتية، إلا أنه أصبح كسولاً وسليماً بعد أن بلغ منتصف عمره، وكان سعيداً بتركها تقوم بكل العمل ما دام هذا يشعرها بأنها بطلة، ولم تمنع مارجوري هذا.

بعد الانتهاء من مراسم القداس قدّمت لهم بيغ روبر يخنة سمك شهية في صحون خشبية مع خبز مصنوع منزلياً. سُعدت مارجوري عندما رأت الكهنة يأكلون بشهية فما يزال بانتظارهم طريق طويل ليقطعوه قبل بزوغ شمس الصباح.

لم تكن عائلة روبر غنية إلا أن مال رفض أخذ المال قائلاً: «شكراً لك يا سيدتي، ولكن لا أريد أخذ المال مقابل تنفيذ مشيئة الرب». ورأت مارجوري أنه شعر بالفخر وهو يقول هذا ولهذا لم تُصر عليه. عندما غادروا الكوخ كان الوقت منتصف الليل.

أحضرت مارجوري مصباحين. حملت أحدهما وقادتهم على الطريق فيما سار ليني برايس في المؤخرة وقد حمل المصباح الثاني. قادتهم شمالاً عبر طريق تعرفه، فهي لم تكن تريد أن يراهم أو يسمعون أحد. ستكون مجموعة مؤلفة من تسعة أشخاص يسرون ليلاً مثاراً للشبهة والعداء لأي أحد قد يراهم. توخت مارجوري الحذر الشديد أثناء مرورهم بالقرب من

منازل الملكيات الكبيرة التي فيها رجال مسلحون، وقد يأتون بالمشاعل وي طرحون الأسئلة على المسافرين.

كان الطقس معتدلاً والطريق جافاً، إلا أن مارجوري جاهدت أثناء المشي؛ فمنذ ولادة طفلها الثاني روجر أصبحت تعاني أحياناً من آلام الظهر خاصة عندما تسير لمسافاتٍ طويلة. ولم يكن بوسعها القيام بشيء سوى كبح الألم وتحمله.

كانت تختار كل ساعتين أو ثلاثاً بقعة معينة بعيدة عن المناطق المأهولة ليستريحوا فيها ويشربوا الماء من جدول ما أو يتناولوا بعضاً من الخبز الذي قدمته لهم بيغ روبر من أجل الرحلة قبل الانطلاق مجدداً.

كانت مارجوري حذرة جداً وبقيت متيقظة لأي صوت قد يأتي من أناس آخرين على الطريق. في المدن يحدث أن يتسلل الناس إلى الطرقات من أجل القيام بأعمال إجرامية، ولكن هنا في الريف، لا يوجد الكثير ليُسرق وبالتالي هناك القليل من المجرمين. ورغم هذا كان عليها أن تتحرك بحذر.

بكت مارجوري ليوم كامل عندما سمعت بمجزرة عيد القديس بارثولوميو. لقد قُتل جميع هؤلاء الناس على يد الكاثوليكين! وهذا أسوأ من موتهم في المعارك حيث الجنود يقتلون الجنود. في باريس قُتل آلاف المواطنين من نساء وأطفال عاجزين، وتساءلت في نفسها كيف يمكن للرب أن يسمح بحدوث هذا. ولتزيد الأمور سوءاً أرسل البابا رسالة تهتئة إلى ملك فرنسا. لا يمكن أن تكون هذه مشيئة الرب. وقد وجدت صعوبة في تصديق أن البابا قد يرتكب عملاً خاطئاً.

كانت مارجوري تعلم أن نيد كان في باريس أثناء وقوع المجزرة، وخافت من أن يكون قد تعرض للقتل ولكنها شعرت بالراحة عندما جاء إعلان بأن جميع من في السفارة الإنكليزية قد نجوا، إلا أنها تلقت بقسوة خير زواجه من فتاة فرنسية. انتاب مارجوري الحزن لدى سماعها بالخبر رغم أنها قالت في نفسها إن شعورها هذا غير منطقي. أتاحت لها الفرصة للهرب معه ولكنها رفضت، ولم يكن من المنطقي أن يقضي بقية حياته يتوق لها فهو يريد زوجة وعائلة. يجدر بها أن تشعر بالفرح لأنه عثر على السعادة من دونها، إلا أنها لم تستطع إجبار نفسها على الشعور بالسعادة من أجله.

تساءلت مارجوري في نفسها كيف تبدو السيدة نيد ويلارد. يقول الناس إن النساء الفرنسيات أنيقات جداً. هل ترتدي السيدة ويلارد ثياباً أنيقة جداً والكثير من المجوهرات؟ وجدت مارجوري نفسها تأمل أن تكون الفتاة ثرثارة وغبية جداً حتى يضجر منها نيد. ياله من أمل تافه! وفكرت في نفسها بأن عليها أن تتمنى له السعادة فهي تريد هذا حقاً.

مع اقترابهم من نيوكاسل سطع نور ضعيف من جهة الشرق، وكان بوسع مارجوري رؤية حدود شرفات القلعة على أرضية سماء الفجر المُنبج، واجتاحتها شعور براحة منهكة. كان المسير طويلاً بحق.

انتهى بهم الطريق إلى مدخل القلعة مباشرة. وكعادتها ألقطت الطيور الجائمة على الجدران تحية ساخرة على الزائرين.

قرعت مارجوري على البوابة، ورأت لوهلة وجهاً من وراء نافذة ضيقة في بيت الحارس، وبعد دقيقة فتح حارس ناعس البوابة الخشبية الثقيلة. دخلوا وأحكم الحارس إغلاق البوابة خلفهم. وأخيراً شعرت مارجوري بالأمان الكامل.

قادت مارجوري الكهنة عبر الفناء إلى الكنيسة الصغيرة.

«خلال بضع دقائق سيُحضر لكم خدم القلعة الفطور والأغطية»، قالت لهم مارجوري ثم تابعت: «سيكون بوسعكم النوم طوال النهار والليل إن أردتم. ولكن تذكروا الحاجة إلى السرية. جميع سكان القلعة من الكاثوليكيين ولكن يجب ألا تسألوهم عن أسمائهم ولا تخبروهم بأسمائكم أيضاً. لا تسألوهم أي أسئلة عن مكانكم أو عن صاحب القلعة. ما لا تعرفونه لن يسعكم الكشف عنه». كان رولو قد أخبرهم بهذا سابقاً ولكن تكرر التحذير واجب.

ستصحبهم مارجوري غداً في أزواج، وتضعهم على الطرق التي ستقودهم إلى وجهاتهم المختلفة. سيتوجه كاهنان منهم إلى مدينة إكزيتير، واثنان شمالاً إلى وولز، واثنان إلى مدينة سالزبيري في الشمال الشرقي، واثنان إلى الشرق إلى بلدة إيرندل. وحالما تودعهم جميعاً سيتابعون طريقهم وحدهم.

غادرت مارجوري الكنيسة وعبرت الفناء باتجاه المنزل. لقد سبب

وصول الكهنة حركة كبيرة في القلعة، وبقي الخدم صاحين ومنشغلين. صعدت مارجوري إلى الطابق العلوي إلى غرفة الصبيين. كان الصبيان نائمين في سريرين متلاصقين. انحنى فوق بارتليت الذي كان في السابعة وضخماً جداً بالنسبة لعمره وقبلته على رأسه، ثم انتقلت إلى روجر الصغير الذي يبلغ العامين وله شعرٌ أشقر ثم قبلته على خده الطري. فتح روجر عينيه وكانتا بلون عسلي فاتح كعيني نيد.

كانت سيلفي تتطلع قدماً إلى زيارتها الأولى إلى كينغزبريدج فقد كانت البلدة التي ربّت الرجل الذي تحبه. لم يمضِ على زواجهما سوى أقل من عام ولكنها شعرت أن هناك الكثير مما عليها أن تعلمه عن نيد. علمت أنه كان شجاعاً ورفيقاً وذكياً، وباتت تعرف كل إنش من جسده الذي تعبده. عندما كانا يمارسان الحب كانت تشعر أنها في رأسه وتعرف بما يفكر به، ولكن ما تزال هناك أمور لا تعلمها عنه، ومواضيع لم يتحدث عنها نيد كثيراً، وفترات في حياته لا يشير إليها إلا نادراً. كان قد حدثها كثيراً عن كينغزبريدج ولذلك تاقت لزيارتها. ولكن الأهم من هذا كله تاقت إلى لقاء الناس المهمين بالنسبة إليه، والناس الذين أحبهم وكرههم وبخاصة المرأة في اللوحة الصغيرة التي وضعها بجانب مرآة الحلاقة في غرفته في باريس. حددا موعد زيارتهما لكينغزبريدج بعد وصول رسالة أخيه. أخبرهما بارني في الرسالة أنه وصل إلى كينغزبريدج مع ابنه.

«لم أكن أعلم أن لديه ابناً»، قال نيد وهو يقرأ الرسالة في غرفة الجلوس في منزلهما الصغير الذي استأجراه قريباً من كاتدرائية سانت بول. «هل لديه زوجة؟» سأته سيلفي.

«أفترض هذا وإلا كيف سيكون له ابن. ولكن من الغريب حقاً أنه لا يذكر زوجته».

«هل ستمكن من الحصول على إذن ويلزنهايم بمغادرة لندن؟» سألت سيلفي التي تعلم أن نيد وويلزنهايم مشغولان بتوسيع نطاق استخبارات الملكة إليزابيث ووضع قوائم بأسماء الرجال الذين قد يتآمرون لإزاحة الملكة عن عرشها ووضع ماري ستيوارت مكانها.

«أجل»، قال نيد. «يريدني أن أقوم ببعض التحريات السرية عن الكاثوليكين في مقاطعة شايرنغ وبخاصة التحري عن الإيرل بارت، ولكن يمكنني أن أتدبر أمورٍ بسهولة».

انطلقا من لندن إلى كينغزبريدج على الأحصنة، وقد قررا أن يسافرا من دون عجلة وفي رحلة لخمسة أيام. لم تكن سيلفي حاملاً ولهذا لم يكن هناك أي خطر في ركوبها الخيل. كانت تشعر بالإحباط بسبب تأخرها في الحمل، ولكن لحسن الحظ لم يشتك نيد من الأمر.

كانت سيلفي معتادة على العيش في العواصم، فلطالما عاشت في باريس ولم تغادرها إلى أن تزوجت نيد، ومنذ قدومها إلى إنكلترا عاشت معه في لندن. تبعث البلدات الريفية الشعور بأمان وهدوء أكبر من دون ذلك الهياج الذي تمتاز به العواصم، ولهذا السبب أحبت سيلفي كينغزبريدج على الفور. صدمت سيلفي عندما رأت الملاك الحجري أعلى برج الكاتدرائية. أخبرها نيد أن الأسطورة تقول إن للملاك وجه الراهبة كاريس التي أسست المستشفى. تساءلت سيلفي في استنكار عن سبب عدم قطع رأس التمثال كما حدث لجميع التماثيل التي تمجد القديسين والملائكة.

«لا يمكن لأحد أن يصل إليه»، شرح لها نيد وتابع: «سيضطرون لبناء سقالة ليصلوا إليه». تحدث إليها بخفة فهو لا يأبه كثيراً لمثل هذه الأمور. ثم أضاف قائلاً: «لكن عليك صعود البرج في يوم ما فمنظر البلدة من فوق ساحر».

ذكرت كينغزبريدج سيلفي بمدينة رون، بأحواض السفن على ضفاف النهر والكاتدرائية الهائلة في الوسط، علاوة على هذا كانت سمة الرخاء الحيوي تكتسي كلتا المدينتين. جعلها التفكير بمدينة رون تتذكر خطتها في متابعة تهريب الكتب البروتستانتية إلى باريس. وصلتها رسالة من نات عن طريق السفارة الإنكليزية، وكانت رسالة خطية حماسية؛ فقد كانت أحوال نات مزدهرة في عملها كبائعة كتب سرية ولديها الآن مخزون جيد من الكتب، ولكن حالما يبدأ مخزونها بالتراجع ستكتب إلى سيلفي بخصوص الأمر.

في هذا الوقت أخذت سيلفي تفكر بخطة أخرى. كان هناك آلاف

اللاجئين الهوغونيين في لندن والعديد منهم يجدون صعوبة في تعلم اللغة الإنكليزية، ولهذا فكرت ببيعهم الكتب باللغة الفرنسية. أخبرها نيد أنه لا يسمح لأجنبي بفتح مكتبة داخل مدينة لندن، ولهذا بحثت عن أماكن أخرى خارج المدينة كضاحية ساذريك حيث يعيش الكثير من اللاجئين.

أحبّت سيلفي بارني على الفور، وأخبرها نيد أن معظم النساء يحبينه من أول نظرة. كان بارني في سروال واسع كالذي يرتديه البحارة وجزمة بأربطة مشدودة وقبعة فرائية. كانت لحيته الحمراء غزيرة وتغطي معظم وجهه الذي لوحته الشمس، وابتسم ابتسامة خبيثة كفيفة - كما تكهنت سيلفي - بإيقاع الكثير من الفتيات في حباله. عندما وصلا إلى المنزل الذي يقع قبالة الكاتدرائية عانق بارني نيد بحرارة، وقبل سيلفي بحماس يكاد لا يكون لائقاً. توقع نيد وسيلفي أن يكون ابن بارني طفلاً، ولكنه كان في التاسعة من العمر. ارتدى ألفو نسخة مصغرة عن ثياب البحارة التي كان يرتديها والده بما في ذلك القبعة الفرائية. كان للطفل بشرة بنية فاتحة وشعر أحمر مجعد كشعر بارني وعينان حضراوان. كان أصله الأفريقي واضحاً إلا أن شبهه ببارني كان أكثر وضوحاً.

قرفصت سيلفي حتى تتمكن من التحدث إليه وسألته: «ما اسمك؟».

«اسمي بيرناردو ألفونسو ويلارد».

«نناديه باسم ألفو»، قال بارني.

«مرحباً يا ألفو. أنا عمّتك سيلفي»، قالت سيلفي.

«أسعدني لقاءك»، قال الصبي بلهجة رسمية، لا بد أن أحدهم لقنه آداب

حسن السلوك.

«ماذا عن والدته؟» وجه نيد السؤال إلى بارني.

بدأت الدموع تترقق من عيني بارني وقال: «كانت أروع امرأة

التقيت بها».

«أين هي؟».

«في مقبرة في إسبانيا الجديدة».

«يؤسفني جداً سماع هذا يا أخي».

«إيلين تعطني بي»، قال ألفو.

ما تزال عائلة فايف تعتني بالمنزل، وقد أصبح الزوجان الآن عجوزين أما ابنتهما إيلين فقد كانت في العشرين من عمرها.

ابتسم نيد وقال: «وقريباً سترتاد مدرسة النحو في كينغزبريدج كما فعل والدك وأنا، وستتعلم الكتابة باللاتينية وكيف تُحصي المال».

«لا أريد الذهاب إلى المدرسة»، قال ألفو وتابع: «أريد أن أصبح بحاراً كالقبطان».

«سننظر في الأمر»، قال بارني ثم تابع يشرح لنيد: «إنه يعلم أنني والده ولكنه على السفينة تعلم أن يناديني بالقبطان كما يفعل بقية الرجال».

بعد مرور يوم على وصولهما أخذ نيد سيلفي لزيارة عائلة فونرون التي تعد من أهم العائلات الهوغونية في كينغزبريدج. أثناء الزيارة تحدث الجميع بالفرنسية. كانت سيلفي تحرز تقدماً واضحاً في تعلم اللغة الإنكليزية إلا أن التحدث بلغتها من دون الحاجة للبحث عن الكلمات المناسبة في لغة أخرى كان أمراً باعثاً على الراحة والاسترخاء. لدى عائلة فونرون ابنة في العاشرة وهي تبدو أكبر من عمرها. كانت الفتاة تدعى فاليري وقد أخذت على عاتقها تعليم سيلفي بعض العبارات الإنكليزية المفيدة التي أمتعت جميع الحاضرين بها.

أرادت عائلة فونرون أن تعرف كل شيء عن مجزرة عيد القديس بارثولوميو التي ما زالت أصدائها المرعبة تتردد في جميع أرجاء أوروبا. كان جميع من التقت بهم سيلفي يسألونها عن الأمر.

في اليوم الثالث على وصولهما تلقت سيلفي هدية باهظة وكانت عبارة عن لفافة من قماش أنتويرب الفاخر تكفي لصنع ثوب. كانت الهدية من دان كوبلي أثرى رجل في المدينة. سمعت سيلفي باسمه من قبل فقد أبحرت مع نيد على إحدى سفنه من باريس إلى لندن.

«يحاول أن ينال حظوتي في حال احتاج إلى خدمة ملكية»، قال نيد. زارهم دان في اليوم التالي. أخذته سيلفي إلى غرفة الجلوس الأمامية التي تطل على الكاتدرائية وقدمت له النبيذ والكعك. كان دان رجلاً سميناً ومغروراً وتحدث معه نيد بلهجة مقتضبة على غير عادته. وعندما غادر دان سألته سيلفي عن سبب عدم استلطافه لدان فأجابها: «إنه رجل منافق. فهو

يرتدي ثياباً سوداء ويتذمر من تبادل القبل في المسرحيات في الوقت الذي يخدع فيه الناس في العمل».

تمكنت سيلفي من الإجابة على أهم سؤال في حياة نيد عندما تلقيا دعوة على العشاء في منزل الليدي سوزانا توافرد التي كانت امرأة مثيرة في الخمسين من عمرها. لم تأخذ سيلفي وقتاً طويلاً لتدرك أن سوزانا عشيقة سابقة لنيد فقد تحدثت معه بحميمية خفية لا يمكن أن تأتي إلا من علاقة جنسية. بدا نيد سعيداً ومسترخياً معها وهذا أزعج سيلفي جداً. كانت تعلم أن نيد لم يكن بتولاً عندما تزوجا ولكن رؤيته وهو يتسم بحنان لعشيقة سابقة لم تكن بالأمر السهل قط.

انتبهت سوزانا إلى قلق سيلفي لذلك جلست بالقرب منها وأمسكت بكلتا يديها.

«إن نيد سعيد جداً بزواجه منك يا سيلفي ويمكنني أن أفهم السبب»، قالت سوزانا ثم تابعت: «لطالما كنت أتمنى أن يلتقي نيد بامرأة فاتنة وذكية وجميلة أيضاً. إنه رجلٌ مميز ويستحق امرأة مميزة».

«يبدو مفتوناً جداً بك».

«أجل»، اعترفت سوزانا. «وأنا مفتونة به أيضاً، ولكنه مغرم بك وهذا أمرٌ مختلف. آمل حقاً أن نصبح صديقتين».

«آمل هذا أيضاً»، قالت سيلفي. «قابلت نيد عندما كنت في الثانية والثلاثين وسأكون امرأة غبية لو اعتقدت أنني أول امرأة يقع في غرامها».

«من الغريب حقاً كيف نتخيل أموراً سخيفة عندما نكون واقعين في الغرام».

أدركت سيلفي أنّ سوزانا امرأة حكيمة ولطيفة ولذلك شعرت بالاطمئنان.

دخلت سيلفي إلى الكاتدرائية لأول مرة في الأحد السابع بعد عيد الفصح خلال احتفالات يوم العنصرة. «هذا مذهل»، قالت سيلفي وهما يسيران عبر صحن الكنيسة.

«إنها كنيسة مذهلة»، قال نيد. «لا يمكنني الاكتفاء من تأملها أبداً».

«إنها كذلك ولكن هذا ليس ما كنت أعنيه. أعني أنه ليس فيها تماثيل رخامية أو لوحات مزخرفة أو صناديق تحتوي على عظام قديمة».

«إنها شبيهة بكنائسكم وقاعاتكم الهوغونية».

أخذت سيلفي تتحدث بالفرنسية لتعبر عن نفسها بشكل أفضل: «ولكن هذه كاتدرائية! إنها ضخمة وجميلة وعمرها مئات السنين ومبنية كما يجب أن تبنى الكنائس وهي بروتستانتية أيضاً. في فرنسا تجري الطقوس الهوغونية بسرية في مكان ما مرتجل وغير مناسب حقاً. ويسعدني حقاً حضور مراسم بروتستانتية في مكان عبد فيه الناس الربّ لقرونٍ من الزمن».

«أنا سعيدٌ جداً بهذا الكلام»، قال نيد ثم تابع: «لقد عشت في بؤسٍ أكثر مما قد يعيشه خمسة أشخاص. وأنت تستحقين بعض السعادة».

اقتربا من رجل طويل بعمر سيلفي وبوجه جميل مورّد بفعل الشراب. كان يرتدي معطفاً أصفر باذخاً فوق جسده القوي.

«سيلفي انظري. هذا بارت إنه إيرل مقاطعة شايرنغ. إن مكانة الإيرل في إنكلترا توازي مكانة الكونت في فرنسا»، قال نيد.

تذكرت سيلفي أن على نيد متابعة أخبار الكاثوليكين المحليين وكان بارت أبرزهم. انحنى سيلفي لبارت.

ابتسم بارت وأحنى رأسه انحناء سريعة ثم ألقى نظرة ماكرة على سيلفي وقال: «كم أنت رجل ماكر يا نيد. عدت إلى الديار ومعك فلاحه فرنسية جميلة».

تعرف سيلفي تماماً أن كلمة «فلاحه» لم تكن لائقة، ولكنها قررت أن تتجاهل ما سمعت. رأت سيلفي إلى جانب الإيرل صبي صغير في ثياب باذخة فقالت له: «وأنت أيها الشاب الصغير من تكون؟».

«ابني الفيكونت بارتليت»، قال بارت. «لقد أتمّ عامه التاسع، صافحها يا بارتليت وأخبرها بأحوالك».

أطاع الفتى الصغير والده، وعلى رغم صغر سنه كان يملك ذلك الحضور الحيوي الذي لو والده. وابتسمت سيلفي عندما رأت سيفاً خشبياً معلقاً بحزامه. «وهذه هي الكونتيسة مارجوري»، قال نيد.

نظرت سيلفي وصدمت عندما رأت المرأة نفسها التي رأتها في اللوحة التي كانت مع نيد في السفارة. شعرت بصدمة أخرى عندما أدركت أن المرأة أكثر جمالاً في الحقيقة رغم أنها بدت أكبر عمراً مما كانت عليه في اللوحة،

وهناك بعض التجاعيد الخفيفة حول عينيها وفمها، وتكهنت سيلفي أنها تبلغ الثلاثين من العمر. كانت المرأة تفور بالنشاط وشخصيتها تشبه ذلك الطقس المشحون قبل هبوب عاصفة، وشعر كثيف مجعد رتبته على عجل وارتدت قبعة صغيرة حمراء بشكلٍ مائل. وفكرت سيلفي أنه لا عجب في أن نيد قد وقع في غرامها.

ألقت مارجوري التحية على سيلفي وهي تدرس تفاصيلها باهتمام صريح ثم نظرت إلى نيد، ورأت سيلفي الحب في عينيها. توهجت مارجوري من السعادة عندما ألقت التحية على نيد. فكرت سيلفي في نفسها أن نيد لم ينسها كما لم تنسه هي. لقد كان نيد حب حياتها.

نظرت سيلفي إلى نيد الذي بدا سعيداً. لم يكن هناك أدنى شك أن لمارجوري مكانة في قلب نيد.

شعرت سيلفي بالإحباط. كان اكتشافها لأمر سوزانا توأيفرد مفاجئاً قليلاً ولكن المرأة كانت معجبة به فقط، أما مارجوري فكانت مشاعرها أقوى وهذا جعل سيلفي تفقد ثقته بنفسها وفكرت أن مارجوري تريد أخذ زوجها منها. حسناً ولكنها لن تحصل عليه.

ثم لاحظت سيلفي طفلاً يبلغ العامين ما يزال غير قادر على الوقوف بشكل ثابت على قدميه وقد أخفى نفسه خلف تنورة ثوب مارجوري الأحمر. تتبعت مارجوري نظرات سيلفي وقالت: «هذا ابني الثاني روجر». ثم انحنت ورفعت الطفل بحركة سريعة.

«روجر، هذا هو السير نيد ويلارد»، قالت مارجوري ثم تابعت: «إنه شخصٌ مهم وهو يعمل لدى الملكة».

أشار روجر إلى سيلفي وقال: «هل هذه الملكة؟». ضحكوا جميعاً.

«إنها ملكتي»، قال نيد.

شكرت سيلفي في نفسها نيد على قوله هذا.

«هل أخوك هنا؟» سأل نيد مارجوري.

«لا نرى رولو كثيراً في هذه الأيام»، قالت مارجوري.

«أين هو؟».

«لقد أصبح مستشار الإيرل تاین».

«أنا واثق من أن الإيرل سيستفيد من دراسته القانونية وخبرته في مجال الأعمال. هل يعيش في قلعة تاین؟».

«إن مركزه هناك، ولكن للإيرل ممتلكات في جميع أنحاء شمال إنكلترا، ولهذا أعتقد أن رولو يسافر كثيراً بالنيابة عنه».

كان نيد ما يزال يتفقد أحوال الكاثوليكيين المحليين إلا أن سيلفي ركزت نظرها على الطفل الصغير روجر. كان هناك شيء فيه أزعجها. حدقت به جيداً ثم أدركت أن للطفل مظهراً مألوفاً.

كان يشبه نيد.

نظرت سيلفي إلى نيد ورائته ينظر بإمعان إلى روجر وقد علت تقطية غير ملحوظة على وجهه. لقد لاحظ شيئاً ما أيضاً. كانت سيلفي قادرة على قراءة وجهه بسهولة، وعرفت من تعابير وجهه أنه لم يفهم بعد ما حيره في أمر الطفل الصغير. لم يكن الرجال بذكاء وسرعة بديهة النساء في ملاحظة الشبه. التقت عينا سيلفي بعيني مارجوري وفهمت كلتا المرأتين بعضهما بعضاً على الفور، إلا أن نيد كان ما يزال محتاراً فيما الإيرل بارت غافل تماماً. بدأت المراسم بالترانيم وتوقفت جميع الأحاديث حتى نهاية المراسم. زار نيد وسيلفي ضيوفاً على العشاء ولسبب أو لآخر لم تحظ سيلفي بوقت خاص مع نيد إلى أن حلّ موعد النوم.

كان الوقت ربيعاً ولذلك ناما عاريتين. أخذت سيلفي تتلمس شعر صدر نيد ثم قالت: «مارجوري تحبك».

«إنها متزوجة من الإيرل».

«ولكن هذا لن يمنعها».

«كيف يسعك قول هذا؟».

«لأنها نامت معك».

بدا نيد غاضباً ولم يقل شيئاً.

«لا بد أن الأمر حدث منذ ثلاثة أعوام قبل أن تأتي إلى باريس».

«كيف عرفت؟».

«لأن روجر في الثانية».

«لقد لاحظت الأمر».

«له عينان كعينيك». ثم نظرت سيلفي إلى عيني نيد وقالت: «نفس اللون العسلي الرائع».

«هل أنتِ غاضبة؟».

«عندما تزوجت منك كنت أعلم أنني لست أول امرأة تحبها ولكن...».

«تابعي».

«ولكن لم أعلم أنك ما تزال تحبها وأنها أنجبت طفلك».

أخذ نيد يدي سيلفي بين يديه وقال: «لا يسعني الكذب عليك والقول إنها لا تهمني أو إنني لا أبالي بأمرها. ولكن من فضلك افهمي أنني لا أريد أحداً آخر سواك».

كان ما قاله مناسباً إلا أن سيلفي ترددت في تصديقه، ولكنها كانت تعرف أنها تحبه ولم تكن لتدع أحداً يأخذه منها.

«مارس الحب معي»، قالت له سيلفي.

قبلها ثم قال لها مماًزحاً: «يا إلهي كم أنت متسلطة». ثم قبلها مجدداً.

ولكن هذا لم يكن كافياً فقد أرادت أن تشاركه في شيء لم يتشاركه قبلاً مع سوزانا توأيفورد ومارجوري شايرنغ.

«انتظر»، قالت مفكرة وتابعت: «هل لديك أيّ خيالات جنسية أردت فعلها مع امرأة؟» لم تتحدث سيلفي معه أو مع أي شخص بهذه الطريقة من قبل. «شيء ما يثيرك عندما تتخيله، ولكنك لم تفعله قط؟» ثم حبست أنفاسها مترقبة وهي تتساءل عما سيقوله.

بدا نيد غارقاً في التفكير ومخرجاً بعض الشيء.

«هناك شيء»، قالت بزهو وتابعت: «أرى هذا». كانت تشعر بالسعادة لأنها تستطيع قراءة وجهه بسهولة. «ما هو؟».

«أخجل من قوله».

بدا نيد خجلاً بحق. ورأت سيلفي خجله كشيء جميل. اقتربت منه وضغطت بجسدها على جسده ثم قالت بصوتٍ منخفض: «فلتهمسه لي إذاً».

وهمس في أذنها.

نظرت إليه وابتسمت. بدت متفاجئة بعض الشيء إلا أنها شعرت بقليل من الإثارة أيضاً: «حقاً؟».

هز رأسه وقال: «لا. فلتنسي الأمر. لم يكن علي الإفصاح عنه». شعرت بالحماس وأحست به يتحمس أيضاً.
«لا أعلم»، قالت ثم تابعت: «ولكن بوسعنا المحاولة».

الجزء الرابع
(1589 – 1583)

الفصل الثاني والعشرون

أمعن نيد النظر إلى وجه ابنه روجر، وشعر بغبطة كبيرة عجز معها عن الكلام. كان روجر في بداية سن البلوغ وقد بدأت قامته تطول أكثر مع أنه ما زال محتفظاً بخديه الطريين وصوته العالي. كان قد أخذ عن مارجوري الشعر الأسود المجعد والمظهر المشاغب أما عن نيد فقد أخذ لون العينين العسلي.

اجتمعوا في غرفة الجلوس في منزل نيد قبالة الكاتدرائية. كان الإيرل بارت قد حضر إلى كينغزبريدج من أجل الاجتماع الربيعي الدوري للمحكمة وقد أحضر معه الولدين اللذين يعتقد أنهما ابناه. كان بارتليت في الثامنة عشرة وروجر في الثانية عشرة. حضر نيد الاجتماع أيضاً لأنه أصبح الآن عضواً في برلمان كينغزبريدج.

لم يكن لنيد أي أولاد آخرين رغم أنه وسيلفي يمارسان الحب منذ ما يزيد على عشر سنوات بنفس الشبق الذي لم تتراجع شرارته ولكنها لم تحمل منه، وقد سبب لهما الأمر الحزن، وأصبح روجر بسبب هذا عزيزاً جداً على نيد.

في الوقت ذاته عاد نيد بذاكرته إلى أيام مراهقته، وأخذ يفكر وهو ينظر إلى روجر: أعلم ما الذي ينتظرك؟ أتمنى لو كنت أستطيع التحدث معك عن هذا كله وتهوين الأمر عليك. عندما كنت في عمرك لم أو من بما قاله الكبار بأنهم يعرفون كيف هي حياة الشباب، وأعلم أنك تؤمن بهذا أيضاً.

كان روجر يعامل نيد معاملة عادية، فقد كان نيد بالنسبة له صديق والدته وبمكانة خاله ولكن غير الحقيقي. لم يكن بوسع نيد إظهار عاطفته نحو روجر، ولكنه كان يصغي إلى ما يقوله الصبي بعناية ويأخذ كلامه بجدية،

ويجب بلطفٍ على كل ما يقوله، ولهذا السبب يتحدث معه الفتى أحياناً بصراحة ويجد نيد سعادة كبيرة في الأمر.

«أيها السير نيد أنت تعرف الملكة. هل تعرف لماذا تكره الملكة الكاثوليكين؟» سأله روجر.

لم يتوقع نيد أن يطرح عليه روجر هذا السؤال رغم أنه كان سؤالاً متوقعاً. يعرف روجر أن والديه كاثوليكيان ويعيشان في بلد بروتستانتى، وقد أصبح كبيراً بما يكفي الآن ليتساءل حيال هذه الأمور.

حاول نيد أن يكسب بعض الوقت وقال: «إن الملكة لا تكره الكاثوليكين».

«ولكنها تجبر والدي على دفع غرامة لعدم ذهابه إلى الكنيسة». لاحظ نيد أن روجر لَمَّاحٌ، وأحس برعشة سعادة مصحوبة بشعورٍ عظيم ومؤلم بالأسى لأنه كان مضطراً لإخفاء فخره به، وأمامه بالتحديد.

أجاب نيد على سؤال روجر بالإجابة التي يقدمها للجميع: «قبل أن تصبح ملكة أخبرتني إليزابيث أنها إن أصبحت ملكة فلن تسمح بموت أي إنكليزي بسبب دينه».

«ولكنها لم تحافظ على هذا الوعد»، أجابه روجر بسرعة.

«لقد حاولت». وبحث نيد عن الكلمات المناسبة لشرح الأمور السياسية المعقدة لفتى في الثانية عشرة. «من جهة هناك البيورتانيون في البرلمان الذين يقولون لها إنها متساهلة جداً وعليها إحراق الكاثوليكين حتى الموت كما فعلت الملكة السابقة ماري تودر عندما أحرقت البروتستانتين. ومن جهة أخرى عليها أن تواجه الخونة الكاثوليكين من أمثال دوق نورفولك الذي يريد قتلها».

«ولكن الكهنة يُعدمون لأنهم يحاولون إعادة الناس إلى العقيدة الكاثوليكية، أليس هذا صحيحاً؟» جادل روجر في عناد.

أدرك نيد أن روجر قد جهز هذه الأسئلة مسبقاً، وربما خاف من أن يتحدث أهل بطرحها عليهم. سُرَّ نيد لأن الفتى يَأْتَمَنُه ويشاركه مخاوفه، ولكنه تساءل عن سبب اهتمامه الشديد، وتكهن نيد أن ستيف لينكولن مازال يقطن في نيوكاسل سرّاً، ولا بد أنه يعلم بارتليت وروجر، ويحيي القداس

للعائلة بشكلٍ منتظم. يبدو أن روجر يخاف أن يكتشف أحدهم أمر أستاذه ويُعدم.

هناك الكثير من الكهنة الكاثوليكين بل وكان عددهم أكبر من ذي قبل. كان ستيفن أحد الكهنة القدامى العنيدين ومن بقوا بعد ثورة الملكة إليزابيث الدينية، ولكن هناك العديد من الكهنة الجدد وربما يصل عددهم إلى المئات. ألقى ويلزنهام ونيد القبض على سبعة عشر كاهناً، وحُكم عليهم جميعاً بالإعدام بتهمة الخيانة.

كان نيد قد حقق معهم قبل إعدامهم، ولم يصل إلى معلومات أكثر مما كان لديه، وقد لا يكون السبب أنهم مدربون على مقاومة أساليب التحقيق ولكن لأنهم وبشكلٍ أساسي لا يعرفون الكثير. يعمل المسؤول عنهم تحت اسم «جان لانغليه» المستعار كما هو واضح، الذي لم يطلعهم إلا على أقل قدر من المعلومات عن العملية التي يشاركون فيها. لم يكن لديهم علم بالمكان الذي وصلوا إليه، ولا بأسماء الناس الذين رحبوا بهم وساعدوهم في الانطلاق إلى وجهاتهم.

«لقد تلقى هؤلاء الكهنة تدريباً في الخارج ودخلوا إلى إنكلترا سراً بطريقة غير شرعية. إن ولاءهم للبابا وليس لملكتنا، وبعضهم من الكاثوليكين المتعصبين المعروفين باسم اليسوعيين، وتخشى الملكة أنهم يخططون للإطاحة بها».

«وهل هم متآمرون حقاً؟» سأل روجر.

لو أن نيد يُحدث بالغأ لجادله في هذه الأسئلة، ولتعامل باستهزاء مع أي أحد قد يفترض بكل سذاجة أن الكهنة السريين أبرياء من الخيانة، ولكن لم تكن لديه الرغبة بالفوز في جدال مع ابنه، فقد أراد أن يعرف الحقيقة فقط. يعتقد جميع الكهنة أن إليزابيث ابنة غير شرعية وأن الملكة الشرعية لإنكلترا هي الملكة الإسكتلندية ماري ستيوارت إلا أنهم لم يقوموا بأي شيء حيال الأمر... حتى الآن على الأقل. فهم لم يحاولوا التواصل مع ماري ستيوارت في سجنها، ولم يستدعوا النبلاء الكاثوليكين الغاضبين، ولم يتآمروا لاغتيال إليزابيث.

«لا»، قال نيد لروجر. «على حد علمي لم يتآمروا على إليزابيث».

«إذاً، تلقوا عقوبة الإعدام لأنهم كهنة كاثوليكيون».

«أنتَ على حق من الناحية الأخلاقية»، قال نيد. «وأجد عدم التزام إليزابيث بوعدھا القديم أمراً محزناً بحق. ولكن من الناحية السياسية وجدت إليزابيث صعوبة في ممارسة التسامح الديني مع رجال يدينون بولائهم إلى حاكم أجنبي كبابا الفاتيكان الذي أعلن عن معاداته لإليزابيث. ولن يتحمل أي ملك على وجه الأرض مثل هذا الأمر».

«إن خبأت كاهناً في منزلك ستكون العقوبة الموت».

إذاً، هذا هو أصل كل مخاوف روجر. إن ألقى القبض على ستيفن وهو يقوم بمراسم القداس أو وجد بحوزته أغراض مقدسة في نيوكاسل فسيلقى بارت ومارجوري عقوبة الإعدام.

ولكن نيد كان خائفاً على مارجوري أيضاً، وقد لا يتمكن من حمايتها من القانون الذي لا يتسامح مع هذا.

«أعتقد أننا يجب أن نعبد الرب بالطريقة التي نعتقد أنها مناسبة وألا نقلق حيال ما يفعله الآخرون. أنا لا أكره الكاثوليكين فأنا كنت صديق والدتك... والدتك... طوال حياتي. لا أعتقد أن على المسيحيين قتل بعضهم بعضاً بسبب خلافهم الديني»، قال نيد.

«ليس الكاثوليكيون فقط من يحرقون الناس. لقد أحرق البروتستانتيون ميشيل سيرفت في جنيف».

فكر نيد بأن يجيبه بأن اسم سيرفت معروف في جميع أنحاء أوروبا لأن إحراق البروتستانتين للناس حتى الموت لم يكن أمراً معتاداً، ولكنه قرر ألا يستخدم هذه المعلومة لمجادلة روجر. وبدلاً من هذا قال له: «هذا صحيح وسيبقى الأمر وصمة عار على جبهة جون كالفن إلى يوم القيامة. ولكن هناك قلة من الناس ومن كلا الطرفين، يحاربون من أجل التسامح كالمملكة الكاثوليكية كاترينا والمملكة إليزابيث».

«ولكنهما تأمران بقتل الناس».

«إنهما ليستا قديستين. هناك شيء عليك فهمه يا روجر. ليس في السياسة قديسون، ولكن ما يزال بوسع الناس غير المثاليين تغيير العالم نحو الأفضل». قام نيد بأفضل ما بوسعه لإقناع روجر ولكن الأخير بدا غير راضٍ عن

أجوبته. لم يكن يريد أن يُخبره أحد عن تعقيدات الحياة فقد كان في الثانية عشرة من عمره ويبحث عن يقينيات خالصة ولكنه كحال الجميع سيتعلم على مهل.

دخل ألفو وتوقف روجر عن الحديث فوراً، وخلال بضع دقائق طلب الإذن بالمغادرة.

«ما الذي كان يريده؟» سأل ألفو نيد.

«تراوده شكوك الكبار ويتعامل معي كصديق للعائلة. كيف هي المدرسة؟». جلس ألفو الذي يبلغ الآن التاسعة عشرة ويملك أطرافاً كأطراف بارني الطويلة ويبدو مسترخياً مثله أيضاً. «في الحقيقة لقد قدمت لي المدرسة كل ما بوسعها أن تقدمه لي خلال هذا العام، وأنا أقضي وقتي الآن في القراءة وتعليم الأطفال».

«أوه حقاً؟» يبدو أن نيد سيقضي يومه في التحدث إلى الشباب وإرشادهم. كان في الثالثة والأربعين، ولذلك لم يكن طاعناً في السن كفاية ليأخذ على عاتقه هذه المسؤولية. «ربما عليك ارتياد جامعة أوكسفورد والدراسة. تستطيع العيش في كلية كينغزبريدج». لم يكن نيد مصراً جداً على هذه الفكرة فهو لم يدرس في الجامعة، ولا يعتقد أنه عانى الكثير بسبب هذا. كان ذكياً كمعظم رجال الدين الذين التقى بهم، إلا أنه ومن جهة أخرى كان يلاحظ أحياناً أن الرجال ممن تلقوا تعليماً جامعياً سريعوا البديهة أكثر منه في الجدالات. وأدرك أنهم تعلموا هذا خلال المناظرات الطلابية.

«لا أملك المقومات اللازمة لأصبح رجل دين».

ابتسم نيد. كان ألفو يعشق الفتيات وهن بدورهن أحبينه أيضاً فقد ورث عن بارني جاذبيته الطبيعية. لم تُحبه الفتيات الهادئات بسبب مظهره الأفريقي ولكن الجريئات منهن أظهرن اهتماماً به.

اكتشف نيد أن سلوك الشعب الإنكليزي مع الأجانب غير منطقي. فقد كانوا يكرهون الأتراك، ويعتقدون أن اليهود أشرار، ويعتبرون الأفارقة غرباء غير مؤذين. إن الرجال من أمثال ألفو ومن انتهى بهم المطاف في إنكلترا تزوجوا من المجتمع البريطاني وقد بدأت سماتهم الأجنبية تختفي بعد ثلاثة أجيال أو أربعة.

«إن ارتياد الجامعة لا يعني أن تصبح رجل دين. ولكنني أرى أنك تملك خططاً أخرى».

«كان لجدتي أليس حلم وهو أن تحول الدير القديم إلى سوق داخلي».
«هذا صحيح». حدث هذا منذ وقتٍ طويل وقد نسي نيد أنه ذهب في يوم من الأيام مع أمه إلى الدير المهدم، وتخيّل أكشاك الباعة المصفوفة في الرواق المسقوف. «إن الفكرة ما تزال جيدة».
«أيمكنني استخدام مال القبطان لشراء المكان؟».

فكر نيد في الأمر فقد كان المسؤول عن أموال بارني في غيابه. رغم أنه أبقى معظم المال على شكل سيولة إلا أنه قام ببعض الاستثمارات أيضاً. فقد اشترى بستاناً في كينغزبريدج ومزرعة ألبان في لندن وكسب مالياً لأخيه. «أعتقد أنه يمكننا فعل هذا إن كان السعر معقولاً»، قال نيد بحذر.
«هل أتحدث إلى رجال الدين بشأن هذا؟».

«فلتستقصِ عن الأمر أولاً. اسأل عن أسعار الأبنية في كينغزبريدج وكم يبلغ سعر الفدان الواحد».
«سأفعل هذا»، قال ألفو بحماس.

«افعل هذا بسرية، ولا تخبر الناس بما تخطط له. قلّ لهم إنك تبحث عن مبنى من أجلي. وبعدها سنناقش المبلغ الذي سندفعه مقابل الدير».
دخلت إيلين فايف إلى الغرفة تحمل طرداً. ابتسمت بحبٍ لألفو وسلمت الطرد لنيد.

«أحضر رسول من لندن هذا الطرد لك أيها السير نيد. إن الرسول في المطبخ إن كنت تريد مقابلته».
«قدمي له شيئاً ليأكله»، قال نيد.

«لقد فعلت هذا»، قالت إيلين بسخطٍ لأن نيد اعتقد أنها نسيت واجب الضيافة.

«لا بد أنك قمتِ بهذا، أعذر منك»، وفتح نيد الطرد. كان هناك رسالة من نات إلى سيلفي مكتوبة بخط طفولي. لا بد أن السفارة الإنكليزية في باريس قد حولت الطرد إلى لندن، وعلى الأرجح تطلب فيه نات المزيد من الكتب، وقد حدث هذا ثلاث مرات خلال السنوات العشر الماضية.

يعلم نيد من رسائل نات ومن زيارات سيلفي السابقة إلى باريس أن نات لم تأخذ دور سيلفي في بيع الكتب فقط بل استمرت في عملها كخادمة لعائلة بيير أو موند دي غيز كي تستمر بمراقبته ونقل المعلومات إلى البروتستانتين الباريسيين. انتقل بيير إلى قصر عائلة غيز مع أوديت وابنها آلان الذي أصبح الآن طالباً في الثانية والعشرين وانتقلت نات معهم أيضاً. أتاحت هذه الفرصة لنات التجسس على الكاثوليكين الإنكليز في باريس، وقد نجحت نات في استمالة آلان ليرتد إلى البروتستانتية من دون أن تعلم أوديت أو بيير. وكانت جميع هذه المعلومات تصل إلى سيلفي في رسائل من هذا النوع.

وضع نيد الرسالة جانباً لتقرأها سيلفي لاحقاً.

كانت الرسالة الأخرى موجهة إليه ومكتوبة بذلك الخط الواضح والمائل والعجول لرجل عملي. وعرف نيد على الفور أن الرسالة من سيده فرانسيس ويلزنهايم. لم يكن بالإمكان قراءتها الآن فهي مشفرة.

«أحتاج لبعض الوقت حتى أجيب على الرسالة. جهزي سريراً للرسول من أجل الليلة»، قال نيد لإلين.

وقف ألفو وقال: «سأبدأ بمشروعنا الجديد! شكراً لك أيها العم نيد». بدأ نيد يفك تشفير الرسالة المكونة من ثلاث جمل. كان مغرباً بحق أن يفك التشفير فوق الجمل نفسها ولكن هذا ممنوع منعاً باتاً. فإن عثر الشخص الخطأ على رسالة فُكَّت شيفرتها على الورقة نفسها فسيحصل العدو على مفتاح فك جميع الرسائل المكتوبة بهذه اللغة المشفرة. استفاد مخترقو الشيفرات الذين عملوا مع نيد، ومن اخترقوا مراسلات السفارات الأجنبية في لندن أكثر من مرة، من إهمال الناس الذين تجسسوا عليهم. فك نيد الشيفرة باستخدام قلم معدني ولوح يمكنه مسح ما كُتِب عليه بقطعة قماشية رطبة.

يعرف نيد كيفية فك الشيفرة عن ظهر قلب، ولهذا فك تشفير الجملة الأولى بسرعة:

أخبار من باريس

شعر بنبضات قلبه تتسارع فقد كان نيد وويلزنهايم يتوقان لمعرفة ما سيفعله الفرنسيون بعد المجزرة. خلال الستينات والسبعينات نجحت الملكة

إليزابيث في التعامل مع أعدائها من خلال التظاهر بأنها تفكر بعروض الزواج من أمراء كاثوليكين، وقد كان أخو الملك الفرنسي هنري الثالث هيركول فرانسيس آخر ضحاياها. ستبلغ إليزابيث الخمسين هذا العام إلا أنها مازالت تملك القدرة على سحر الرجال، وقد أوقعت هيركول في شباكها رغم أنه في العشرين من العمر بل كانت تناديه بلقب: «ضفدعي الصغير». تلاعبت به لثلاثة أعوام إلى أن وصل إلى القناعة نفسها التي وصل إليها جميع الخاطبين السابقين وهي أنها لا نية لها بالزواج من أحد. شعر نيد أن إليزابيث تلاعبت بورقة الزواج لفترة طويلة، وأصبحت تتابه مخاوف أن يُقدم أعداؤها الآن على تنفيذ ما ينوون فعله منذ وقتٍ طويل ويحاولون التخلص منها بجد. وبينما كان نيد يعمل على الجملة الثانية من الرسالة المشفرة فُتح الباب ودخلت مارجوري.

«كيف تجرأت؟ كيف تجرأت؟» قالت له.

بدا نيد مصعوقاً. يخاف خدم مارجوري من نوبات غضبها المفاجئة إلا أن نيد لم يواجه هذه النوبات من قبل فقد كانت علاقتهما ودية بسبب الحب. «ما الذي فعلته بحق الجحيم؟» قال نيد.

«كيف تتجرأ على حشو رأس ابني بهرطقات بروتستانتية؟».

امتقع وجه نيد وقال وهو يحاول التحكم بسخطه: «طرح روجر أسئلة علي وحاولت إجابته بكل أمانة».

«سأربي ولديّ على دين أجدادهما، ولن أسمح لك أن تفسدهما بمعتقداتك».

«حسناً»، قال نيد بشيءٍ من السخط، «ولكن عاجلاً أم آجلاً سيخبرهما أحد أن هناك وجهة نظر مختلفة. اشكري السماء أن هذا الشخص هو أنا وليس بيورتانياً متعصباً كدان كولي». رغم انزعاج نيد من مارجوري فإنه لم يستطع تجاهل الطريقة التي تحرك بها شعرها الكثيف والغضب يتطاير شرراً من عينيها. في الأربعين من عمرها كانت تبدو أجمل بكثير مما كانت عليه في الرابعة عشرة عندما قبلها وراء ضريح فيليب رئيس الدير.

«سيدركان أن كولي مجدف عنيد، ولكنك تُسمم عقليهما بكلامٍ عقلائي»، قالت مارجوري.

«آه، فهمت الآن. أنت لا تعترضين على أفكار البروتستانتية بل على قدرتي في الإقناع. لا تريد أن يعرف ابنك أنه يمكن للرجال مناقشة الدين بهدوء والاختلاف من دون محاولة قتل بعضهم بعضاً». وفيما كان نيد يجادلها أدرك أنها لم تعتقد حقاً أنه يسمم عقل روجر. في الحقيقة كانت غاضبة من القدر الذي فرق بينهما، ومنعهما من تربية طفلهما معاً. ولكن مارجوري كانت أشبه بحصانٍ هائج لا يُمكن إيقافه.

«أتحاول التصرف بتذاكٍ؟» قالت مارجوري مهتاجة.

«لا، ولكنني لا أحاول التظاهر بأنني غبي كما تفعلين الآن».

«لم أتِ إلى هنا لأجادلك. أتيت لأقول لك أن تتوقف عن التحدث إلى أطفالي».

أخفض نيد نبرة صوته وقال: «روجر ابني أيضاً».

«ولكنه لا يجب أن يعاني بسبب خطاياي».

«إذاً، لا تفرضي عليه دينك بعنف. أخبريه بما تؤمنين به، وبأن الرجال الصالحين يختلفون في هذا الشأن أيضاً، وسيزداد احترامه لك وقتئذٍ».

«لا تتجراً على إخباري كيف أربي أولادي».

«إذاً، لا تقولي لي ما يجب علي قوله أو عدم قوله لابني».

توجهت مارجوري إلى الباب وقالت: «سأقول لك أن تذهب إلى الجحيم ولكن لا داعي لهذا لأنك في طريقك إليه». غادرت الغرفة وبعد دقيقة سمع نيد صوت الباب الأمامي يُغلق بقوة.

نظر نيد من النافذة وحدث إلى الكاتدرائية إلا أنه لم يستمتع بجمالها هذه المرة. كان يشعر بالأسى لوقوع هذا الجدل بينه وبين مارجوري.

على الرغم من خلافاتهما فإنهما كانا متفقين على عدم إخبار روجر بالحقيقة التي لن تكون مزعجة جداً للفتى الآن فقط بل لاحقاً أيضاً عندما يُصبح رجلاً ويعلم أنه كان مخدوعاً طوال حياته. لن يكون بوسع نيد أبداً تذوق متعة الاعتراف بابنه الوحيد بل عليه التضحية من أجل مصلحته. كانت مصلحة روجر بالنسبة لنيد أكثر أهمية من مصلحته الخاصة؛ فهذا هو جوهر الأبوة في النهاية.

نظر نيد إلى الرسالة أمامه وفك تشفير الجملة الثانية:

عاد الكاردينال روميرو مع عشيقته.

هذه معلومة مهمة لأن روميرو كان المبعوث غير الرسمي للملك الإسباني، ولا بدّ أنه يخطط لأمرٍ ما مع الكاثوليكيين المتشددين في فرنسا. تجسست عشيقته جيرونيما رويز عليه لمصلحة نيد أثناء مجزرة عيد القديس بارثولوميو، وربما ستكون على استعداد للكشف عما يخطط له روميرو الآن. وفيما كان نيد يفك تشفير الجملة الثالثة دخلت سيلفي إلى غرفة الجلوس. سلمها نيد الرسالة التي وصلتها من نات إلا أنها لم تفتحها على الفور. «سمعت بعضاً من حديثك مع مارجوري»، قالت سيلفي ثم تابعت: «سمعت ما كتتما تصرخان به فقط وبدا لي أن الكلام لم يكن لطيفاً». أخذ نيد يدها وهو يشعر بالارتباك: «لم أكن أحاول جعل روجر يرتد. أردت فقط أن أجيبه على أسئلته بكل أمانة». «أعلم».

«يؤسفني تعرضك للإحراج من قبل حبيبة سابقة». «لم أتعرض للإحراج»، قالت سيلفي. «أدركت ومنذ وقتٍ طويل أنك تحبنا كلتينا».

تفاجأ نيد بما سمعه فقد كانت الحقيقة التي لم يعترف بها صراحةً. قرأت سيلفي ما دار في ذهنه: «لا يمكنك إخفاء مثل هذا الأمر عن أيّ زوجة». وفتحت الرسالة الموجهة إليها من نات.

عاد نيد بنظره إلى رسالته وعقله ما يزال مشغولاً بكلمات سيلفي وفك شيفرة الجملة الأخيرة: ستحدث جيرونيما ولكن معك فقط.

رفع نيد نظره إلى سيلفي بعد أن فكر بالكلمات المناسبة ليرد عليها: «ما دمت تعلمين أنني أحبك».

«أجل، أعلم. إن الرسالة من نات وهي تطلب المزيد من الكتب. يجب أن أسافر إلى باريس». «وأنا أيضاً»، قال نيد.

لم تكن سيلفي قد سعدت بعد إلى برج الكاتدرائية لتأمل منظر المدينة من أعلى. بعد انتهاء مراسم قداس الأحد وأشعة شمس الربيع تتسلل من

النوافذ ذات الزجاج الملون نظرت سيلفي إلى درج البرج وقررت الصعود. كان هناك باب صغير في جدار الجناح الجنوبي للكاتدرائية يُفضي إلى سلم حلزوني. وفيما كانت تتساءل إن كانت بحاجة إلى طلب إذن للصعود، أو أنها تستطيع الصعود من دون إذن اقتربت منها مارجوري.

«لم يكن لدي الحق بدخول منزلك بتلك الطريقة وإثارة جلبة. أنا محرجة منك»، قالت مارجوري.

أغلقت سيلفي الباب الصغير، فما يحدث الآن أهم والمنظر من فوق البرج سيبتظرها.

شعرت سيلفي بأنها كانت محظوظة أكثر من مارجوري ولهذا تصرفت معها بشهامة.

«أتفهم سبب انزعاجك، أو على الأقل أعتقد أنني أفهم وأنا لا ألومك أبداً»، قالت سيلفي.

«ما الذي تعنيه؟».

«كان يجدر بكما أنتِ ونيد أن تريا روجر معاً، ولكنكما غير قادرين وهذا يفطر قلبي».

بدت مارجوري مصعوقة وقالت: «لقد أقسم نيد أنه لن يُخبر أحداً».

«لم يخبرني نيد وقد تكهنت بالأمر بنفسي ونيد لم ينكره. ولكن سر كما في أمان معي».

«سيقتلني بارت إن اكتشف الأمر».

«لن يكتشف الأمر».

«شكراً لك»، وانحدرت الدموع من عيني مارجوري.

«لو تزوجتما أنتِ ونيد لكان منزله مكتظاً بالأولاد الآن. يبدو أنني غير قادرة على الإنجاب رغم أننا حاولنا كثيراً».

لم تفهم سيلفي سبب حديثها الصريح هذا مع المرأة التي تحب زوجها، ولكن التظاهر لم يكن مجدياً.

«يؤسفني سماع هذا... رغم أنني تكهنت بأن هناك مشكلة في الأمر».

«إن مُت قبل نيد وتوفي بارت قبلك يمكنك أن تتزوجي من نيد».

«كيف يسعك قول مثل هذا الأمر؟».

«سأنظر إليكما من السماء وأبارك زواجكما».

«هذا لن يحدث... ولكن شكراً لكِ على قول هذا. أنتِ امرأة طيبة».

«وأنتِ أيضاً»، ابتسمت سيلفي وتابعت: «أليس محظوظاً؟».

«من؟ نيد؟».

«أن تحبه امرأتان مثلنا».

«لا أعلم»، قالت مارجوري. «ربما».

أصيب رولو بالذهول عندما رأى قصر عائلة غيز. كان القصر بأفنيته وحدائقه التي تمتد على مساحة فدانين على الأقل أكبر من قصر اللوفر، وأكثر اكتظاظاً بالخدم والجنود والأقرباء البعيدين لعائلة غيز والمتطفلين وجميعهم يأكلون وينامون في القصر كل ليلة. كان إسطنبول الأحصنة وحده أكبر من منزل رولو الذي بناه والده في كينغزبريدج في قمة ثرائه.

تلقى رولو دعوة لزيارة القصر ولقاء دوق غيز في حزيران/ يونيو عام 1583. كان الدوق فرانسيس ذو الندبتين قد توفي منذ زمن طويل وأخوه شارل أيضاً. يشغل هنري بن فرانسيس الذي يبلغ الثانية والثلاثين الآن منصب الدوق. تفحص رولو هنري بافتتان. وبفضل صدفة رآها الفرنسيون إشارة ربانية جُرح هنري في وجهه كوالده. كان وجه فرانسيس قد تشوه بفعل رمح أما هنري فقد تلقى رصاصة، إلا أنهما حصلا على علامتين فارقتين ووأضحيتين، وبات هنري الآن معروفاً باسم صاحب الوجه ذي الندبة كوالده. أما بالنسبة للكاردينال الشهير والمخادع شارل فقد حلّ مكانه في مجالس العائلة متدربه وقريبه الوضيع بيير أوموند دي غيز. شغل بيير أيضاً منصب راعي الكلية الإنكليزية، وهو من منح رولو اسمه المستعار والمعروف به منذ انخراطه في العمل السري: جان لانغليه.

قابل رولو الدوق في غرفة صغيرة ولكن مترفة ومزدانة بلوحات تصور مشاهد من الإنجيل برجالٍ ونساء عراة. ساد الغرفة جو يشي بالانحلال، وهذا ما جعل رولو يشعر بعدم الراحة فيها.

ولكن رولو شعر أيضاً بالإطراء لتلقيه هذه الدعوة وبيعض الرهبة من رفعة مكانة الحاضرين الآخرين؛ فقد حضر الكاردينال روميرو ممثلاً عن الملك

الإسباني وجيوفاني كاستيلي ممثلاً عن بابا الفاتيكان وكلود ماتيو رئيس قساوسة اليسوعيين. كان هؤلاء الرجال أشبه بأسلحة العقيدة المسيحية الكاثوليكية الثقيلة، وشعر رولو بالذهول والرهبة في حضرتهم.

كان بيير جالساً إلى جانب الدوق هنري. مع مرور السنوات ازداد وضع بشرة بيير سوءاً، وغزت بقع حمراء ذات قشور يديه وعنقه وزاويتي عينيه وفمه، ولم يكن بوسعه التوقف عن الحكاك.

قام ثلاثة خدم لدى عائلة غيز بتقديم النبيذ والحلويات إلى الرجال المهمين فيما كانوا يأخذون مواقعهم على الكراسي، وعادوا ليقفوا عند الباب بانتظار أيّ أوامر أخرى. افترض رولو أن هؤلاء الخدم موضع ثقة كبيرة، ولكن لو أنه الأمر هنا لطلب منهم الانتظار خارجاً. لقد أصبح رولو مهووساً بالسرية، ولم يكن أحد في الغرفة يعرف اسمه الحقيقي سوى بيير. أما الوضع في إنكلترا فكان العكس؛ فالجميع يعلم أنه رولو فيتزجيرالد إلا أنهم لا يعلمون أنه جان لانغليه، بمن فيهم أخته مارجوري. والجميع يعلمون أنه يعمل لدى الإيرل تاين الكاثوليكي الجبان الذي ورغم إخلاصه، يخاف من التآمر. كان الإيرل يدفع له راتباً ويمنحه إجازات مفتوحة ولا يطرح عليه أيّ أسئلة.

بدأ هنري الحديث بإعلان أثار حماس رولو: «اجتمعنا اليوم لمناقشة أمر غزو إنكلترا».

كان غزو إنكلترا حلم رولو. ورغم عمله المهم خلال السنوات العشر الماضية على تهريب الكهنة إلى إنكلترا فإن هذا لم يكن سوى جهد متواضع للإبقاء على شعلة الإيمان الحقيقي حية، فلن يغير هذا العمل أي شيء في الوضع الراهن لأن قيمته الحقيقية هي التجهيز والتحضير للغزو. سيعيد غزو الدوق هنري لإنكلترا المجد للكنيسة الكاثوليكية والمجد لعائلة فيتزجيرالد أيضاً التي ستستعيد مكانتها الحققة بين النخبة الحاكمة.

كان رولو يتخيل الأمر حيث قوات الغزو بأعلامها المرفرفة والرجال المسلحون يهبطون على السواحل، وتخيل دخولهم الظافر إلى مدينة لندن وتهليل الحشود لهم، وتوزيع ماري ستوارت ملكة على البلاد، وهو في ثياب أسقف يحتفل بالقداس في كاتدرائية كينغزبريدج.

فهم رولو من حديثه مع بيير أن عائلة غيز ترى في الملكة إليزابيث مصدر

إزعاج كبير. وفي الوقت الذي أصبح فيه الكاثوليكيون المتشدّدون أصحاب اليد الطولى في فرنسا، لجأت حشود الهوغونيين إلى إنكلترا، ولاقوا ترحاباً حاراً هناك بسبب مهاراتهم الحرفية وتجارتهم. ومع ازدهار أعمالهم هناك أرسلوا المال إلى أبناء طائفتهم هنا. تدخلت إليزابيث أيضاً في شؤون هولندا التي تسيطر عليها إسبانيا من خلال السماح للمتطوعين الإنكليز بالذهاب إلى هناك والقتال في صفوف المتمردين.

إلا أن هنري له دافع آخر لغزو إنكلترا.

«من غير المعقول أن تحكم إليزابيث التي أعلن البابا أنها ابنة غير شرعية، إنكلترا فيما تقبّع الملكة الحقيقية والشرعية ماري ستيوارت في السجن».

كانت ماري ستيوارت نسيبة الدوق هنري. وإن أصبحت ماري ملكة إنكلترا فإن عائلة غيز ستغدو أقوى عائلة في أوروبا، ولم يكن هناك أدنى شك في أن هذا هو الدافع الأقوى لكل من هنري وبيير.

انتاب رولو القلق لوهلة عندما فكر بخضوع بلاده إلى سيطرة عائلة أجنبية، ولكن هذا ثمن صغير مقابل استعادة العقيدة الحقّة.

«أعتقد أن الغزو يجب أن يكون من جهتين»، قال هنري وتابع: «ستقوم قوة قوامها اثنا عشر ألف رجل بالإنزال في ميناء على الساحل الشرقي، وتحشد النبلاء الكاثوليكين المحليين هناك، ثم تحكم السيطرة على الجزء الشمالي من البلاد. وستنزل قوة أخرى ولكن أقل عدداً على الساحل الجنوبي وتحشد الكاثوليكين ثم تسيطر على ذلك الجزء من البلد. وبعد هذا ستحتشد القوتان مع المناصرين الإنكليز ويزحفون باتجاه لندن».

«هذا جيد جداً، ولكن من سيدفع التكلفة؟» قال رئيس قساوسة اليسوعيين. جاء الجواب من الكاردينال روميرو: «وعد الملك الإسباني بتحمل نصف التكاليف فقد ضاق ذرعاً من القراصنة الإنكليز الذين يهاجمون سفنه العابرة للمحيط الأطلسي وينهبون حمولات الذهب والفضة القادمة من إسبانيا الجديدة».

«ومن سيتحمل كلفة النصف الآخر».

«أعتقد أن البابا سيسأهم خاصة إن كان هناك خطة حرب مضمونة»، قال كاستيلي.

يعلم رولو أنّ الملوك والبابوات يقدمون الوعود بأسهل مما يقدمون المال. ولكن المال الآن ليس بالقضية الكبيرة فالدوق هنري ورث نصف مليون ليرة عن جدته، ويستطيع أن يتكفل ببعض المصاريف إن تطلب الأمر. «ستحتاج قوات الغزو إلى خطط تتناسب مع جغرافية الموانئ التي ستنزّل فيها»، قال هنري.

أدرك رولو أن بيير قد خطط لكل هذا بل إنه يملك الجواب على كل سؤال. إن الهدف من الاجتماع أن يعرف الحاضرون أن الجميع مستعد للعب الأدوار التي كُلفوا بها. «سأجهز الخرائط»، قال رولو. نظر هنري إلى رولو وقال: «وحدك؟».

«لا أيها الدوق، ليس وحدي. لدي شبكة كبيرة من الأثرياء الكاثوليكين في إنكلترا». كانت الشبكة التي تحدث عنها رولو هي شبكة معارف مارجوري، ولكن ما من أحد من بين الحاضرين هنا يعلم هذا. لطالما أصرّ رولو على معرفة الوجهات التي يتخذها الكهنة الذين يرسلهم بحجة حرصه على ضمان توافقهم مع الأشخاص الذين سيقدّمون لهم الحماية. «هل يمكنك الاعتماد على هؤلاء الناس؟» سأل هنري.

«إنهم ليسوا مجرد كاثوليكين يا سعادة الدوق بل رجال يخاطرون بالتعرض لعقوبة الإعدام بتهمة إيواء كهنة قمت أنا بتهريبهم إلى إنكلترا خلال السنوات العشر الماضية. إنهم موضع ثقة تامة». بدا الدوق منبهراً وقال: «فهمت».

«ولن يقدموا الخرائط فحسب بل سيشكلون نواة العصيان التي ستدعم الغزو».

«هذا جيد جداً»، قال هنري.

وهنا تحدث بيير لأول مرة قائلاً: «ولكن يبقى لدينا عنصر أساسي ومهم وهو الملكة ماري ستوارت. لا يمكننا أن نمضي قدماً بخطتنا ما لم نحصل منها على التزام واضح بأنها ستدعم العصيان، وستعطينا التفويض بإعدام إليزابيث وتسليم العرش».

أخذ رولو نفساً طويلاً وقال: «سأتكفل بمهمة الحصول على التزامها». وأخذ يصلي في داخله من أجل النجاح في الحفاظ على وعده الطموح. «ولكنها في السجن»، قال هنري: «ورسائلها تخضع للرقابة». «يمكنني تذليل هذه العقبة».

بدا الدوق راضياً عما قاله رولو، وأخذ ينظر حوله في أرجاء الغرفة بنفاد صبر الرجال المتنفذين ثم قال: «أعتقد أن هذا كل شيء يا سادة، شكراً لكم على حضوركم».

حدّق رولو نحو الباب، وتفاجأ عندما وجد شخصاً رابعاً قد انضم إلى الخدم الواقفين قرب الباب. كان في أوائل العشرينات بتسريحة شعر قصيرة ورائجة بين الطلاب. بدا شكل الشاب مألوفاً بعض الشيء ولكن هذا لم يكن مهماً بل حقيقة أنه سمع رولو يقدم وعداً بخيانة بلده، ولذلك أشار رولو نحوه وقد احتاج عند رؤيته ثم قال: «من هذا الرجل؟».

«إنه ابن زوجتي»، أجاب بيير: «ما الذي تفعله هنا بحق الشيطان يا آلان؟». وعرفه رولو الآن. لقد رآه كثيراً خلال السنوات الماضية فهو يملك الشعر واللحية الشقراء التي تميز أفراد عائلة غيز. «أمي مريضة»، قال آلان.

راقب رولو في اهتمام تعاقب التعابير التي مرت على وجه بيير. في البداية كان هناك نظرة أمل سريعة ولكن بيير كبحها على الفور، ومن ثم اكتسى وجهه بتعبير ينم عن القلق ولكن رولو لم يقتنع بأدائه، وأخيراً علا تعبير يوحى بأن بيير يريد فعل أي شيء وقال: «استدع الطبيب على الفور. فلتوجه بسرعة إلى قصر اللوفر ولتأتِ بالطبيب أمبروز باريه أيّاً تكن التكلفة، يجب أن تحصل حبيبتي أوديت على أفضل رعاية. بسرعة يا فتى اذهب!» التفت بيير إلى الدوق وقال: «إن لم تكن بحاجة إليّ هل يمكن لسعادتك...».

«اذهب يا بيير»، قال هنري.

بعد أن غادر بيير الغرفة أخذ رولو يتساءل في نفسه ويفكر بهذه المسرحية التي حدثت أمامه للتو.

وصل نيد ويلارد إلى باريس بهدف مقابلة جيرونيما رويز ولكن كان عليهما توخي الحذر؛ فإن حامت أي شكوك حول جيرونيما بأنها تقدم معلومات فستواجه هي ونيد عقوبة الإعدام.

دخل نيد إلى متجر كتب ملاصق لكاتدرائية نوتردام، وقد كان فيما مضى مُلكاً لوالد سيلفي. لم يكن نيد يعرف سيلفي آنذاك، ولكنها أطلعتة على هذه المعلومة عندما كانا مخطوبين في عام 1572. أصبح المتجر الآن مُلكاً لشخصٍ آخر إلا أنه كان المكان المناسب ليتسكع فيه نيد.

أخذ نيد يتفحص عناوين الكتب ولكن، وفي الوقت نفسه، لم يُبعد عينيه عن المدخل الغربي الكبير للكنيسة ذات البرجين. ولكنه حالما رأى الأبواب العالية للكنيسة تُفتح تخلى عن تظاره بأنه يريد شراء كتاب وغادر المتجر.

كان هنري الثالث أول من خرج من الكاتدرائية وقد أصبح ملك فرنسا بعد أخيه شارل التاسع الذي توفي منذ تسعة أعوام. راقبه نيد بيتسم ويلوح لحشود الباريسيين في الساحة. كان الملك في الواحدة والثلاثين، ويملك عينين داكنتين وشعراً داكن اللون أيضاً وقد تراجع خط الشعر عند البصدين فقط. كان هنري كما يقول الإنكليز والفرنسيون، رجل سياسة، وهذا يعني أنه يأخذ قرارات تتناسب مع تصوره لما هو مفيد لبلده وليس العكس.

سارت إلى جانبه وقريباً منه والدته الملكة كاترينا التي أصبحت الآن عجوزاً بدينة وقصيرة في الرابعة والستين من العمر بقبعة ترتديها الأرامل فقط. أنجبت كاترينا خمسة أولاد وجميعهم لم يكونوا بصحة جيدة، وقد مات منهم ثلاثة حتى الآن. علاوة على هذا لم ينجب أي واحد منهم، ولهذا السبب خلف الأخوة بعضهم بعضاً على عرش فرنسا، إلا أن سوء الحظ هذا جعل من كاترينا أقوى امرأة في أوروبا. وكالملكة إليزابيث استخدمت كاترينا سلطتها لإيقاف النزاع الديني من خلال تقديم حلول وسطية بدلاً من اللجوء إلى العنف، وكإليزابيث، لم تحقق نجاحاً كبيراً.

عبرت الحاشية المَلَكِيَّة الجسر إلى الضفة اليمنى من النهر واختفت بعيداً عن الأنظار، وعندها خرج الناس من الأبواب الثلاثة والمقنطرة للكاتدرائية. انضم نيد إلى حشود المتفرجين على أمل ألا يتعرف عليه أحد وهو وسط الناس الذين أتوا للرؤية الملك.

لمح نيد جيرونيما على الفور، فلم يكن التعرف عليها وسط الحشود أمراً صعباً. كانت في ثوب أحمر كعادتها، وهي الآن في الأربعين من العمر وقد غدا جسدها الذي كان له شكل الساعة الرملية في صباها أثقل. لم يعد شعرها كثيفاً جداً وفقدت شفتاها امتلاءهما. وعلى الرغم من هذا كانت تمشي بغنج ونظراتها من تحت رموشها السوداء تفور بالإغراء. كانت تشع بطاقة جنسية أقوى من طاقة أي امرأة أخرى في المكان. وأدرك نيد أن هذه الطاقة التي كانت طبيعية لديها في وقت ما باتت تبرز الآن بفعل جهد واع.

التقت عيونهما والتمعت عيناها في نظرة تشي بأنها عرفته، ومن ثم أشاحت بنظرها بعيداً.

لم يكن بوسعه الاقتراب منها علناً لأن لقاءهما يجب أن يبدو كأنه بمحض الصدفة وأن يكون وجيزاً.

حاول أن يفكر بطريقة للاقتراب منها. كانت برفقة الكاردينال روميرو، وبداعي الحفاظ على المظاهر، لم تتأبط ذراعه بل سارت خلفه بمسافة قصيرة. عندما توقف الكاردينال عن الحديث مع الفيكونت فيلنوف تقدم نيد منها بطريقة عرضية.

حافظت جيرونيما على ابتسامتها التي لم تكن موجهة إلى أحد بعينه وقالت: «أنا أخاطر بحياتي. لا يمكننا التحدث سوى لبضع ثوانٍ».

«حسناً»، قال نيد ونظر حوله وكأنه يتفحص المكان بفضولٍ طبيعي إلا أنه كان متيقظاً لأي أحد قد يراها.

«إن الدوق هنري غيز يخطط لغزو إنكلترا»، قالت جيرونيما.

«يا إلهي!» قال نيد. «كيف..؟».

«الزم الهدوء وأصغِ إلي»، قاطعته جيرونيما ثم تابعت: «أو لن أخبرك بأي شيء».

«أسف».

«سيكون هناك غارتان؛ واحدة على الساحل الشرقي وأخرى على الساحل الجنوبي».

«كم يبلغ عدد الجنود؟» اضطر نيد لسؤالها.

«لا أعلم».

«تابعي من فضلك».

«ليس لديّ الكثير من المعلومات، ولكن ما أعلمه أن كلا الجيشين سيحصلان على الدعم المحلي ويزحفان باتجاه لندن».

«هذه معلومات لا تُقدر بثمن»، قال نيد وشكر الرّب في سره لأن جيرونيما تكره الكنيسة الكاثوليكية على تعذيبها لوالدها، وخطر له في تلك اللحظة أنهما كليهما يملكان الدافع نفسه، وأنهما يكرهان سلطوية الدين. لن ينسى نيد كيف جلب الأسقف يوليوس وأصدقاؤه الدمار لعائلته، وكلما انتابه فتور في عزمته فكر بهم وكيف أنهم سرقوا كل شيء عملت والدته من أجله طوال حياتها، وكيف أن تلك المرأة القوية والذكية ذوت في آخر سنوات حياتها إلى أن تغمدها الموت برحمته. كانت هذه الذكرى المؤلمة تتهيج في داخله كجرح قديم وتزيده عزماً...

حدق نيد بطرف عينيه إلى جيرونيما، ومن موقعه القريب منها استطاع رؤية خطوط وجهها، واستشف سخرية قاسية كامنة تحت هذا الوجه الشهواني. أصبحت جيرونيما عشيقة روميو مذ كانت في الثامنة عشرة من عمرها، وقد أبلت جيداً في الحفاظ على اهتمامه بها رغم دخولها عقدها الرابع، ولكن لا بدّ أن الأمر كان مُجهداً لها.

«شكراً لكِ على إخباري بهذا»، قال نيد. كان امتنانه نابعاً من قلبه، إلا أنه كان بحاجة إلى معرفة شيء آخر. «لا بدّ أن للدوق غير عملاء إنكليزيين؟».

«أنا واثقة من هذا».

«هل تعرفين من هم؟».

«لا. لا تنس أن مصدر معلوماتي أحاديث السّرير، ولا يحق لي طرح أيّ أسئلة وإلا سأكون عرضة للشبهة».

«بالطبع. أنا أتفهم هذا».

«ما أخبار بارني؟» قالت وشعر نيد بنبرة حزينة ترن في صوتها.

«قضى حياته في البحر ولم يتزوج قط، ولكن لديه ابن في التاسعة عشرة».

«في التاسعة عشرة»، قالت باستغراب. «كم تمر السنون».

«اسمه ألفو، ويملك ذكاء والده فيما يتعلق بجني المال».

«فتى ذكي كجميع رجال عائلة ويلارد».

«أجل، إنه ذكي».

«أوصل سلامي إلى بارني يا نيد».

«هناك أمر أخير».

«بسرعة فرومير و قادم».

يحتاج نيد إلى قناة تواصل دائمة مع جيرونيما ولهذا أخذ يرتجل على عجل: «عندما تعودين إلى مدريد سيزورك رجل في منزلك بحجة أنه يريد بيعك كريماً من أجل الحفاظ على شباب وجهك». كان نيد واثقاً من أنه سيتمكن من تدبير هذا الأمر مع أحد التجار الإنكليزي في إسبانيا.

ابتسمت جيرونيما بأسى وقالت: «أستخدم الكثير من هذه الكريزمات».

«سيقوم بإيصال أيّ معلومة تعطيه إياها إلى لندن».

«فهمت»، قالت وأشاحت بعيداً عن نيد، وابتسمت للكاردينال وهي ترفع صدرها للأعلى. سارا معاً و جيرونيما تهز مؤخرتها. نظر إليهما نيد وهما يتتعدان. كم كانا مثيرين للحزن! عاهرة لم تعد شابة تستخدم كل سحرها الأفل للحفاظ على اهتمام كاهن عجوز فاسد وسمين.

لطالما أحسّ نيد أنه يعيش في عالم فاسد.

تحمس بيير لمرض أوديت أكثر مما تحمس لغزو إنكلترا.

كانت أوديت عاتقه الوحيد للوصول إلى العظمة، فهو يشغل الآن منصب المستشار الأول للدوق الذي يُصغي إليه بعناية ويثق به أكثر من ذي قبل. عاش بيير في جناح بغرفٍ عديدة في قصر غيز في شارع فييل دو تامبل مع أوديت وآلان وخادمتهم نات، وأصبح لورداً على قرية صغيرة في إقليم شامبانيا وهذا سمح له بحمل لقب السيد مينيل وهذا يعني أنه بات الآن من السادة، ولكن لم يصبح بعد من النبلاء. ربما لن يمنحه هنري لقب الكونت ولكن الأرسوقراطية الفرنسية تملك الحق بتعيين الرجال في مناصب دينية عالية من دون الرجوع إلى روما، ويمكن لبيير أن يطلب من الدوق هنري أن يعينه في منصب رئيس دير للرهبان أو أسقفاً ولكن زواجه يقف في طريقه أمام تحقيق هذا.

لكن أوديت قد تموت الآن.

وملأته هذه الفكرة بأمل كبير كاد يشعر معه بالألم من شدة فرحه به. سيتحرر ويصبح قادراً على صعود سلم العظمة ومن دون أن يعيق وصوله أي أحد.

كانت الأعراض التي تعاني منها أوديت هي آلام بعد تناول الطعام وإسهال ودماء مع البراز وشعور بالإرهاق. لطالما كانت سمينه، ولكن كل الدهون في جسدها قد ذابت بسبب الألم الذي يمنعها من تناول الطعام على الأغلب. شخّص الطبيب باريه مرضها بحمى في المعدة بسبب الهواء الجاف وقال إن عليها شرب الكثير من الجعة الخفيفة والنيذ المخفف بالماء.

لم يخش بيير شيئاً أكثر من تعافي أوديت من مرضها. لكن لسوء الحظ أخذ آلان يعتني بها عناية جيدة، وقد ترك دروسه ولزم جوارها. كره بيير الفتى آلان الذي وبما يدعو للمفاجأة كان محبوباً من العاملين في القصر بسبب شعورهم بالأسى عليه لمرض والدته. كان آلان قد رتب أمر إرسال وجباته إلى جناحهم ونام على الأرضية في غرفة أمه.

ولكن بيير حرص في كل مناسبة سانحة على إطعام أوديت كل الأطعمة التي قال باريه إن عليها تجنبها كالبهارات والطعام المالح والبراندي والنيذ القوي. وهذا ما سبب لها في كثير من الأوقات مغصاً ووجعاً في الرأس ورائحة نفس كريهة. لو أنه كان المسؤول الوحيد عن العناية بها لقتلها بهذه الطريقة، ولكن آلان لا يفارقها طويلاً بما يكفي حتى ينفذ خطته.

عندما بدأت صحة أوديت تتحسن، رأى بيير أن فرصته في أن يصبح أسقفاً تتراجع وانتابه شعور باليأس.

وفي الزيارة الثانية للطبيب قال باريه إن المريضة تتحسن وأصيب بيير بالكمد. كان الأمل بالتحرر من هذه المرأة السوقية قد بدأ يتلاشى، وشعر بالخيبة وكأنها جرحٌ.

«يجب أن تشرب دواءً مقويًا الآن»، قال الطبيب، وطلب قلمًا وقطعة ورق وحبيراً، فهرع آلان لإحضارها له. «يمكن للعطار الإيطالي غيغلو قبالة الشارع أن يجهزها لك خلال بضع دقائق، إنها مكونة من العسل وعرق السوس وإكليل الجبل والنعناع». كتب الطبيب الوصفة على قطعة ورق وسلمها إلى آلان.

وعبرت خاطر بيير فكرة جنونية، ومن دون أن يفكر جيداً بالتفاصيل قرر أن يتخلص من آلان فأعطاه قطعة نقود معدنية وقال له: «اذهب الآن وأحضرها».

بدا آلان متردداً ونظر إلى أوديت التي غطت في النوم على وسادتها المحشوة بالريش: «لا أحبذ فكرة تركها وحدها».

تساءل بيير إن كان آلان قد تكهن بالفكرة الجنونية التي جالت في ذهنه، ثم أكد لنفسه أنه من المستحيل أن يفعل.

«سأرسل في طلب نات»، قال آلان.

«ذهبت نات إلى سوق السمك. اذهب أنت إلى العطار وأنا سأهتم بأوديت. لن أتركها وحدها، لا تقلق».

كان آلان ما يزال متردداً في الذهاب. ورغم خوفه من بيير كما هو حال معظم الناس، فإنه يمكن أن يكون عنيداً أحياناً.

«هيا يا فتى اذهب. كلما أسرعنا بتقديم الدواء لها تعافت بسرعة أكبر»، قال باريه.

لم يكن بوسع آلان أن يتحدى أوامر الطبيب ولذلك غادر الغرفة.

«شكراً لك أيها الطبيب على اهتمامك. أقدّر لك هذا كثيراً»، قال بيير بلا مبالاة.

«إنه لمن دواعي سروري أن أكون ذا عونٍ لأي فرد من أفراد عائلة غيز».

«سأحرص على إخبار الدوق هنري بهذا».

«كيف هي أحوال الدوق».

أراد بيير بشدة أن يغادر باريه الغرفة قبل أن يعود آلان وأجاب الطبيب: «إنها جيدة جداً». أصدرت أوديت أنيناً ضعيفاً في نومها وقال بيير: «أعتقد

أنها تريد أن تتبول».

«سأترككما وحدكما»، قال باريه وغادر.

كانت هذه فرصة بيير، وشعر بضربات قلبه تتسارع بقوة من شدة التوتر، فهو الآن قادر على حل كل مشاكله وخلال بضع دقائق فقط... يمكنه أن يقتل أوديت ويتخلص منها.

كان هناك أمران منعا بيير من قتل أوديت قبل أن تقع صريعة المرض؛

الأول قوتها البدنية فهو لم يكن واثقاً من أنه سيتمكن من إحكام السيطرة عليها، وثانياً الخوف من غضب الكاردينال شارل. هدده شارل بأنه سيُدمره إن توفيت أوديت بغض النظر عن ظروف الوفاة.

ولكن أوديت الآن مريضة وشارل ميت.

تساءل بيير إن كان سينجو من الشبهة. لقد جاهد كثيراً في لعب دور الزوج المخلص، ولكنه لم يتمكن من خداع شارل ولا آلان، ولكن آخرين ومن بينهم هنري، صدقوه لأنهم لا يعلمون شيئاً عما حدث في الماضي. قد يوجه آلان أصابع الاتهام إلى بيير ولكن بوسع بيير القول إن آلان فُجع ب وفاة والدته ويلوم زوج والدته بهستيرية على موتها الطبيعي، وسيُصدق هنري القصة. أغلق بيير الباب.

نظر بيير بحقدٍ إلى أوديت النائمة. كان إجباره على الزواج منها أكبر امتهان تعرض له. وشعر بنفسه يرتعش تحت وطأة رغبته القوية بالتخلص منها. سيكون قتلها انتقامه الحقيقي على كل ما حصل معه.

جرّ كرسيّاً ثقيلاً عبر الغرفة ودفعه نحو الباب حتى لا يتمكن أحد من الدخول. استيقظت أوديت بفعل الضجة، ورفعت رأسها لتقول بقلق: «ما الذي يجري؟».

حاول بيير أن يتحدث بصوتٍ هادئٍ وهو يجيئها: «ذهب آلان ليُحضر لك دواءً مقويّاً من متجر العطار».

شعرت أوديت بالخطر وقالت بصوتٍ خائف: «لماذا أوصدت الباب؟». «حتى لا يزعجك أحد»، قال بيير وأخذ الوسادة المحشوة بالريش بسرعة من تحت رأسها ثم وضعها على وجهها. كان قد تحرك بسرعة كافية وكنتم صرختها التي كانت قد بدأت تتصاعد من حنجرتها.

قاومته بقوة مفاجئة، وتمكنت من سحب رأسها من تحت الوسادة وشهقت برعبٍ قبل أن يتمكن من إعادة الوسادة فوق أنفها وفمها مجدداً. تلوت بشدة مما اضطر بيير إلى الصعود إلى السرير والركوع فوق صدرها، ولكنها كانت قادرة على استخدام ذراعيها في توجيه اللكمات على أضلعه. وعلى الرغم من الألم الشديد جراء هذه الضربات استمر بيير بضغط الوسادة على وجهها.

انتابه شعور بأن أوديت قد تتغلب عليه، وأنه قد يفشل في القضاء عليها، ومنحته هذه الفكرة المرعبة قوة إضافية ولذلك أخذ يضغط بكل قوته.

وأخيراً بدأت قواها تخور ويفتر عزم ضرباتها، وتراخت ذراعاها على كلا الجانبين بلا حول ولا قوة. ركلت بقدميها بضع ركلات إلى أن سكنت حركة قدميها أخيراً، ولكن بيير تابع الضغط بالوسادة على وجهها، فهو لم يرغب بالمخاطرة في عودة أوديت إلى الحياة فيما كان يرجو في أعماقه ألا يعود آلان الآن. لا بد أن العطار غيغلو سيأخذ وقتاً طويلاً في صنع الخليط. لم يقتل بيير أحداً من قبل رغم أنه كان مسؤولاً عن موت آلاف المهرطقين والأبرياء ممن لا ذنب لهم، وما زالت كوابيس أكوام الجثث العارية في شوارع باريس خلال مجزرة عيد القديس بارثولوميو تراوده حتى الآن وهو في خضم التخطيط لحربٍ مع إنكلترا، من شأنها أن تؤدي بحياة الآلاف أيضاً، ولكنه وعلى الرغم من هذا لم يقتل أحداً بيديه حتى الآن. كان الأمر مختلفاً. شعر بروح أوديت تغادر جسدها وهو يحاول منعها من التنفس. كان الأمر رهيباً.

عندما رآها ساكنة لبضع دقائق رفع الوسادة بحذر ونظر إلى وجهها الكامد بسبب المرض. لم تكن تتنفس، ووضع يده على صدرها فلم يشعر بأي نبض... لقد ماتت.

تملكه شعور بالسعادة. فهي هي أوديت قد ماتت!

وضع بيير الوسادة تحت رأسها. بدت أوديت هادئة جداً في موتها، ولم يكن هناك أي إشارة على وجهها تشي بأن نهايتها كانت عنيفة. عندما بدأ الشعور بالنصر ينحسر أخذ يفكر بخطر انكشاف أمره. توجه إلى الباب وأزال الكرسي. لم يتذكر أين كان موضعه قبل أن يأخذه ولكن لن يلاحظ أحد هذا من كل بد.

أخذ ينظر حوله باحثاً عن أي دليل قد يثير الشكوك حوله، ورأى غطاء السرير مجعداً بطريقة لا تبدو طبيعية، ولذلك قام بتسويته فوق جثة أوديت. ثم وقف لا يدري ما عليه فعلة الآن.

أراد أن يغادر الغرفة ولكنه وعد آلان بالبقاء، وسيبدو مذنباً إن هرب الآن. ولذلك رأى أنه من الأفضل لو أنه يتصنع البراءة، ولكن بالكاد كان

قادراً على البقاء في الغرفة مع جثة. لطالما كره أوديت، ويشعر الآن بالسعادة لأنها ماتت، ولكنه ارتكب خطيئة رهيبة.

أدرك أن الربّ سيُعلم ما اقترفت يدها حتى لو لم يعلم الآخرون؛ لقد قتل زوجته، كيف له أن يحصل على المغفرة على هذه الخطيئة؟

كانت عيناها ما تزالان مفتوحتين، وخاف بيير من النظر إليهما وأن تنظرا إليه بالمقابل. كم أراد أن يغلقهما ولكنه ارتعب من فكرة لمس الجثة.

حاول أن يتمالك أعصابه. لطالما أكد له الأب موينو أن المغفرة مضمونة لأنه يقوم بعمل الربّ. هل ما قام به الآن عمل الربّ؟ بالطبع لا. لقد اقترفت يدها عملاً أنانياً وما من عذرٍ قد يبرره.

شعر بأنه هالك، وأخذت يدها اللتان ثبتتا الوسادة فوق وجه أوديت بقوة كبيرة وخنقتها ترتعشان. جلس على المقعد بقرب النافذة، وحدث إلى الخارج حتى لا يضطر إلى النظر إلى أوديت، ولكنه اضطر للالتفات والنظر إليها ليتأكد من أنها ما تزال مستلقية في سكون، فقد تخيل أن جثتها جالسة في السرير تنظر إليه بعينين ميتتين ومفتوحتين، وتشير إليه بإصبعها وبصمّتها تحرك شفّتها لتقولاً: «لقد قتلني».

فُتح الباب أخيراً ودخل آلان، وانتابت بيير لحظة هلع حقيقية وكاد يصرخ: «أنا الفاعل!» قبل أن يعود إلى هدوئه الطبيعي. «صمتاً»، قال بيير رغم أن آلان لم يصدر ضجة كبيرة. «إنها نائمة».

«لا، إنها ليست كذلك»، قال آلان. «ما زالت عيناها مفتوحتين». ثم قال عابساً: «لقد سويت أغطية السرير؟».

«كانت غير مرتبة».

بدا آلان متفاجئاً بعض الشيء وقال: «من اللطف أن تفعل هذا»، ثم ارتسنت تكشيرة على وجه آلان وقال: «لماذا حرّكت الكرسي؟».

شعر بيير بالإحباط لأن آلان لاحظ هذه التفاصيل التافهة. لم يكن بوسعه أن يفكر بسبب بريء قد يدفعه لتحريك الكرسي، ولهذا قال في إنكار: «لطالما كان الكرسي هنا».

بدا آلان مرتبكاً ولكنه لم يتابع حديثه مع بيير. وضع زجاجة الدواء على الطاولة الصغيرة قرب السرير، وأعطى بيير حفنة من القطع النقدية، ثم أخذ

يتحدث إلى الجثة: «أمي، أحضرت لكِ الدواء. يمكنك أن تشربي البعض منه الآن، ولكن يجب مزجه مع قليل من الماء أو النبيذ».

أراد بيير أن يصرخ ويقول له: «انظر إليها... إنها ميتة».

كان هناك إبريق من النبيذ وكوب على الطاولة الصغيرة. صبَّ آلان الدواء في الكوب وأضاف إليه بعض النبيذ من الإبريق ثم حرَّك المزيج بسكين، وأخيراً اقترب من السرير قائلاً: «سأساعدك على الجلوس». حدق بها وامتنع وجهه ثم قال: «أمي؟» ثم أصبح صوته كالهمس: «يا مريم المباركة، لا!» وأسقط الكوب على الأرض لينسكب الدواء كالزيت على البلاط.

راقب بيير المشهد باستمتاع رهيب، وبعد مرور عدة دقائق من الصدمة انحنى آلان فوق الجثة الساكنة ثم صرخ: «أمي!» وكأن الصراخ سيعيدها إلى الحياة.

«هل هناك خطبٌ ما؟» قال بيير.

أمسك آلان بأوديت من كتفها ورفعها ليسقط رأسها إلى الوراء.

توجه بيير إلى السرير وبهدوء وقف على الجهة المقابلة من السرير بعيداً عن آلان. لم يكن خائفاً من آلان، ولكن من الأفضل تجنب وقوع أي عراك. «ما الأمر؟» قال بيير.

حدَّق آلان إليه في حقدٍ وقال: «ما الذي فعلته؟».

«لا شيء سوى العناية بها»، قال بيير وتابع: «يبدو أنها غائبة عن الوعي». مدد آلان الجثة على السرير بكل رقة ليستقر الرأس على الوسادة التي قُتلت بها. أخذ آلان يتحسس صدرها ويجسّ نبضات قلبها، ومن ثم تفحص العنق ليرى إن كان هناك نبض، وأخيراً وضع خده على أنفها ليتأكد من أنها تتنفس ثم توقف عما كان يفعله وكبح صرخة.

«إنها ميتة».

«هل أنت متأكد؟» قال بيير ولمس صدرها ثم هزَّ رأسه في أسى وقال:

«إنه لأمر رهيب. ونحن كنا نعتقد أنها أخذة بالتحسن».

«كانت تتحسن! لقد قتلتها أيها الشيطان».

«أنت مستاء يا آلان».

«أجهل تماماً ما الذي فعلته، ولكنك قتلتها».

توجه بيير إلى الباب وصرخ في طلب خادم: «تعالوا إلى هنا! أي أحد! بسرعة».

«سأقتلك»، قال آلان.

كان تهديد آلان مثيراً للضحك.

«لا تقل أموراً لا تعنيها».

«سأقتلك»، كرر آلان. «لقد تجاوزت حدك هذه المرة. قتلت أمي وأنا سأقتلك بدوري. ومهما طال الزمن سأقتلك بيدي، وسأراقبك وأنت تموت». وانتابت بيير لبرهة رعشة خوف إلا أنها لم تستمر سوى لثوانٍ فالآن لن يقتل أحداً.

نظر بيير إلى الردهة ورأى نات تقترب ويدها سلة. يبدو أنها عادت من السوق للتو.

«تعالى إلى هنا يا نات»، قال بيير. «بسرعة! لقد حدث أمر محزن».

ارتدت سيلفي قبعتها السوداء ذات الخمار الثقيل وتوجهت إلى جنازة أوديت أو موند دي غيز.

أرادت أن تقف إلى جانب نات وآلان اللذين كانا حزينين جداً على فقدان أوديت. علاوة على هذا، كانت تشعر برابطة عاطفية غريبة مع أوديت؛ فكلتاها تزوجتا بيير.

لم يرافقها نيد فقد توجه إلى كاتدرائية نوتردام ليتفقد الكاثوليكيين الإنكليز البارزين في باريس على أمل أن يكون المتعاونون مع دوق غيز أغبياء بما يكفي ليفضحوا أنفسهم.

كان يوماً ماطرًا والمقبرة موحلة. حدّق معظم الحاضرين الذين كانوا أفراداً غير مهمين من عائلة غيز وخدمهم إلى سيلفي. كانت أبرزهم فيرونيك التي تعرف أوديت منذ أيام الصبا، وبيير الذي كان يحاول التظاهر بأنه حزين جداً.

راقبت سيلفي بيير بتوتر رغم أنها كانت واثقة من أنه لا يستطيع التعرف عليها في تنكرها. كانت على حق في تخمينها هذا، فهو لم ينظر إليها حتى. لم يبك أحد أوديت باستثناء آلان ونات.

عندما انتهت المراسم وغادر بيير مع بقية الحاضرين، وقفت سيلفي ونات وآلان في ظل شجرة بلوط لتبادل الحديث.

«أعتقد أنه قتلها»، قال آلان.

لاحظت سيلفي أن آلان على رغم عينيه المُحمرتين من البكاء، يتمتع بجمال أفراد عائلة غيز.

«ولكنها كانت مريضة»، قالت سيلفي.

«أعلم. ولكنني تركته معها لوضع دقائق فيما كنت أحضر الدواء من متجر العطار، وعندما عدت اكتشفت أنها ميتة».

«يوسفني سماع هذا»، قالت سيلفي. لم يكن لديها أدنى فكرة إن كان ما يقوله آلان صحيحاً ولكنها كانت واثقة من أن بيير قادر على ارتكاب جريمة.

«سأغادر القصر»، قال آلان. «لم يتبقَّ سبب يدفعني للبقاء الآن هناك بعد وفاتها».

«إلى أين ستذهب؟».

«يمكنني الانتقال للسكن في الجامعة».

«يجب أن أغادر أنا أيضاً»، قالت نات وتابعت: «لقد طردني بيير فلطالما كان يكرهني».

«يا إلهي! ما الذي ستفعلينه».

«لا أحتاج إلى عمل، فبيع الكتب بأي حال كفيلاً بإعالتني». كانت نات قد غدت قوية جداً، فمنذ أن حولتها سيلفي إلى جاسوسة لمصلحتها أصبحت نات قوية وواسعة الحيلة كثيراً.

ولكن سيلفي كانت قلقة الآن: «هل عليك مغادرة القصر حقاً؟ أنتِ أهم مصدر للمعلومات عن بيير وعائلة غيز».

«لا أملك الخيار. لقد طردني».

«ألا يمكن تقديم التماس بألا يطردك؟» قالت سيلفي بيأس.

«أنت تعرفينه».

أجل، كانت سيلفي تعرف بيير، وتعرف أنه لن يتراجع عن أي عمل دنيء مهما كانت درجة الالتماس.

كان هناك مشكلة حقيقية، إلا أن سيلفي رأّت حلاً واضحاً لها. التفتت نحو آلان وقالت: «يمكنك أن تبقى مع بيير، صحيح؟».

«لا».

«نحتاج إلى معرفة ما يفعله».

بدا آلان محتاراً وقال: «لا يمكنني العيش مع رجل قتل والدتي».

«ولكنك تؤمن بالدين البروتستانتي الحق».

«بالطبع».

«ومن واجبنا كمؤمنين أن ننشره».

«أعلم».

«إن أفضل طريقة لخدمة قضيتنا هي إطلاعي على ما يخطط له زوج أمك».

بدا آلان محتاراً أكثر وقال: «هل هذا صحيح؟».

«فلتصبح سكرتيره الذي لا يمكنه الاستغناء عنه».

«ولكنني في الأسبوع الماضي أقسمت له أنني سأنتقم منه وأقتله».

«عاجلاً أم آجلاً سينسى هذا. أناسٌ كثير أقسموا على قتل بيير. ولكن الطريقة الأفضل للانتقام لأوديت، الطريقة التي تُرضي الربّ، أن نعيق جهوده في منع انتشار الدين الحق».

«سيكون هذا تكريماً لذكرى أُمِّي»، قال آلان مفكراً.

«تماماً».

بدا آلان أكثر حيرة من ذي قبل وقال: «يجب أن أفكر بالأمر».

حدقت سيلفي إلى نات التي أشارت إلى نفسها بما معناه أن تترك الأمر لها. وفكرت سيلفي أن نات قد تنجح في هذا فلطالما كانت بمنزلة الأمّ الثانية لآلان.

«لا يمكنني أن أشدد كفاية على أهمية معرفتنا بالكاثوليكين الإنكليز الذين يتواصلون مع عائلة غيز»، قالت سيلفي لآلان.

«كان هناك اجتماع كبير في القصر الأسبوع الماضي»، قال آلان وتابع:

«كانوا يتحدثون عن غزو إنكلترا».

«هذا رهيب». لم تقل سيلفي أنها علمت بأمر الاجتماع. لقد علمها نيد

الحرص على أن لا يعلم الجاسوس أن هناك مصادر أخرى للمعلومات؛
فهذه أهم قاعدة في هذه اللعبة.

«هل كان هناك أي إنكليز في اللقاء».

«أجل، واحد فقط. إنه كاهن من الكلية الإنكليزية وقد التقى به زوج أمي
مراتٍ عديدة. قال إنه سيتواصل مع ماري ستوارت ويحرص على الحصول
على دعمها للغزو».

لم تعرف جيرونيما رويز هذه المعلومة الحساسة، ولم يكن بوسع سيلفي
الانتظار حتى تخبر نيد، ولكن ما زال هناك حقائق أخرى مهمة يجب أن
تعرفها.

«من هو هذا الكاهن؟» قالت وهي تحبس أنفاسها.

«إنه معروف باسم جان لانغليه»، أجابها آلان.

تنفست سيلفي في رضا وقالت: «حقاً؟ حسناً، حسناً».

مكتبة

t.me/soramnqraa

الفصل الثالث والعشرون

كانت قلعة شيفيل أكثر السجون إزعاجاً لكل من أليسون وماري ستوارت خلال السنوات الخمس عشرة الماضية. يبلغ عمر القلعة ثلاثمئة عام وهي توحى بهذا فهي تقع على مفترق نهرين، ويحيط بها خندقان من الجهتين، ولن يكون القول إنها شديدة الرطوبة تصريحاً جائراً. تجادل صاحبها إيرل شروزبيري مع الملكة إليزابيث حول الإيجار البخس الذي قدمته له مقابل الاحتفاظ بماري رهينة، ونتيجة لهذا الجدل قدم لهما شروزبيري أرخص أنواع الطعام والشراب.

كان المتنفس الوحيد لهما في هذا المكان هو حديقة غزلان تصل مساحتها إلى أربعة أميال وتقع قبالة الخندق.

سُمح لماري بركوب الخيل في الحديقة ولكن برفقة حراس مسلحين. وفي الأيام التي لم تكن ترغب فيها بركوب الخيل لسبب ما، يُسمح لأليسون بالتجول في الحديقة وحدها، فلا أحد يهتم بأمرها. كان لديها حصان أسود قزم يدعى غارسون وهو وديع معظم الوقت.

وحالما تصل أليسون إلى نطاق أشجار الجوز تهمز لغارسون حتى يسرع العدو لمسافة ربع ميل كي يُفرغ طاقته الفائضة، وبعدها يصبح غارسون أكثر وداعة.

أعطاه ركوب الحصان بسرعة شعوراً بالحُرية وإن كانت وجيزة ووهمية. وعندما تهمز غارسون ليُبطئ العدو تتذكر عندها أنها تعيش في سجن، وتتساءل في نفسها عن سبب بقائها هنا. لن يمنعها أحد من العودة إلى إسكتلندا أو فرنسا، ولكن أليسون كانت سجيناً الأمل.

عاشت حياتها على الأمل... وعلى الخيبة أيضاً. انتظرت على أمل أن

تصبح ماري ملكة فرنسا ولكن هذا لم يدم سوى عامين. وعندما عادت ماري لتحكم إسكتلندا لم يقبلوا بها كملكة بل قادوها في النهاية إلى فخ الاختطاف. إنها الآن ملكة إنكلترا الشرعية باعتراف الجميع باستثناء الإنكليز. ولكن هناك الآلاف بل الملايين من الكاثوليكين المخلصين هنا ممن يريدون القتال في سبيلها وفي سبيل المطالبة بحقها كملكة. وها هي أليسون الآن تنتظر على أمل قدوم تلك اللحظة التي سيتمكنون فيها من فعل هذا.

ولكن الوقت طال.

وبينما كانت أليسون تعبر جدولاً خرج رجلٌ لا تعرفه من وراء شجرة بلوط كبيرة ووقف أمامها.

أجفل الرجل بخروجه من وراء الشجرة غارسون الذي انحرف عن مساره. وبسرعة أحكمت أليسون السيطرة على الحصان الصغير، ولكن ليس قبل أن يقترب منها الغريب بما يكفي ليمسك باللجام.

«دع حصاني أو سأمر بجلدك»، قالت أليسون بحزم.

«لا أنوي أذيتك»، قال الرجل.

«إذا، دغ جوادي».

ترك الرجل اللجام وتراجع إلى الوراء.

كان رجلاً ضئيل الحجم ويبدو أنه لم يبلغ الخمسين من العمر. كان خط شعره قد بدأ يتراجع في الأعلى رغم أن لحيته الحمراء كانت كثة. لم يبدو كشخصٍ خطير، وربما أمسك باللجام ليساعدها في السيطرة على الحصان. «هل أنتِ أليسون ماكي؟» قال لها.

رفعت ذقنها في حركة تنم عن الفوقية وقالت: «عندما تزوجت أصبح اسمي الليدي روس، ولكن اسمي السابق كان أليسون ماكي، من تكون؟». «جان لانغليه».

نمت عن أليسون ردة فعل توحى بأن الاسم مألوف: «سمعت باسمك، ولكنك لست فرنسياً».

«أنا رسول من فرنسا. ولأكون أكثر دقة أنا رسول بيير أوموند دي غيز».

«أعرفه»، قالت أليسون وهي تستعيد ذكرى شابٍ بشعرٍ أشقر مجعد وله

هيئة تشي بأنه على قدر كبير من الكفاءة. أرادته آنذاك أن يكون إلى جانبها، وأن يعمل كفريق ولكن لم يكن هذا قدرهما. بالطبع لم يعد بيبير شاباً الآن. «كيف حال بيبير؟».

«توفيت زوجته مؤخراً».

«حقاً؟ إذاً، سنراه يرتقي المناصب وقد يصل إلى الكرسي البابوي. ما هي رسالته لي؟».

«يقول لك إن فترة سجنك هناك قاربت على الانتهاء».

خفق قلب أليسون من التفاؤل، ولكنها كبحت ابتهاجها. أن يقول لها «إن فترة سجنك هناك قاربت على الانتهاء» أمر سهل ولكن تحقيقه ليس بهذه السهولة. حافظت على ملامح وجهها حيادية وهي تقول: «هل هذا ممكن؟». «يخطط دوق غيز لغزو إنكلترا بدعم من الملك فيليبي والبابا غريغوري الثالث عشر. يجب أن تكون ماري ألقائدة الرمزية لهذا الجيش الذي سيحررها ويضعها على العرش».

تساءلت أليسون إن كان ما يقوله حقيقياً، وبالكاد تجرأت على التفكير بالأمر، ثم أخذت تفكر بما عليها قوله، ولتكتسب الوقت تظاهرت بأنها مستغرقة في التفكير: «في آخر مرة رأيت فيها هنري دي غيز كان مجرد صبي صغير أشقر يبلغ من العمر عشرة أعوام، وها هو الآن يريد أن يغزو إنكلترا». «تعد عائلة غيز ثاني أهم عائلة في فرنسا بعد العائلة المالكية. ولذلك إن قال إنه يريد غزو إنكلترا فإنه سيفعل هذا، ولكننا نحتاج للتأكد من أن نسيبته ماري ستلعب دورها بالكامل في هذه الثورة».

تفحصته أليسون مجدداً. كان وجهه هزياً وجميلاً، ولكن مظهره يوحي بقساوة شديدة. كان يذكرها قليلاً بيبير، وأخيراً أخبرته بقرارها: «أقدم لك الضمانة في هذا المكان وهذه اللحظة».

هزّ جان لانغليه رأسه وقال: «لن يأخذ الدوق هنري بوعذك أو بوعدي بل يريده وعداً مكتوباً... وبخط ماري».

تبخرت آمال أليسون مجدداً لأن تحقيق هذا سيكون صعباً: «أنت تعلم أن كل الرسائل الصادرة والواردة يقرؤها رجلٌ يدعى السير نيد ويلارد». كانت أليسون قد قابلت نيد ويلارد الشاب في سان ديزيه وقد كان برفقة

أخي ماري غير الشقيق جيمس ستيوارت آنذاك، وقابلته مرة أخرى في قلعة كارلايل. كان نيد قد شق طريقه ليصل إلى هذه المكانة العالية التي وصل إليها اليوم.

لمعت عينا لانغليه في إقرار، وتكهنت أليسون أنه يعرف نيد أيضاً. «نحتاج إلى بناء قناة سرية للتواصل بيننا»، قال لها. «يمكننا أن نلتقي أنا وأنت هنا. يمكنني أن آتي على الحصان وحدي مرة أسبوعياً».

هز رأسه وقال: «قد يجدي هذا نفعاً في الوقت الراهن. كنت أتفقد القلعة، وأرى أن الحراسة على الملكة ماري متراخية، ولكنها قد تصبح مشددة. نحتاج إلى طريقة لا يمكن كشفها بسهولة».

هزت أليسون رأسها، فما قاله لانغليه صحيح: «وما الذي تقترحه؟». «كنت سأطلب منك اقتراحاً. هل هناك خادم أو شخص ما يدخل ويخرج من قلعة شيفيلد ويمكن إقناعه بتهرب الرسائل؟».

أخذت أليسون تفكير. لقد فعلت هذا قبلاً عندما كانتا في منطقة بحيرة ليفين، ويمكنها أن تقوم بهذا مجدداً. يزور القلعة العديد من الناس يومياً من أجل مؤن الطعام والشراب وكل شيء قد تحتاجه الملكة ماري وحاشيتها المكونة من ثلاثين شخصاً - حتى الملكة المسجونة لديها حاشية. هذا بالإضافة إلى عائلة الإيرل ومن يعتاشون على حسابه. ولكن أي من هؤلاء الداخلين والخارجين يمكن إجباره أو رشوته ليقوم بهذه المهمة الخطيرة؟

سرعان ما استقر تفكير أليسون على بيغ برادفور الفتاة النحيلة والقييحة التي تبلغ من العمر ثمانية عشر عاماً وتقوم بأخذ الملابس المتسخة إلى منزلها وغسلها. لم ترَ بيغي ملكة من قبل، ولهذا كانت علناً تعبر عن حبها الشديد لماري ستيوارت. تجاوزت ماري الأربعين الآن وذوى جمالها مع التقدم في العمر، وقد أصبحت سمينة بسبب سنوات السجن ولم يعد شعرها كثيفاً كما كان في الماضي فاضطرت إلى ارتداء شعرٍ مستعار بلونٍ ضارب إلى الحمرة، ولكن ماري ما تزال تلك الشخصية الخارجة من القصص الخيالية، والملكة ذات المصير المشؤوم التي تواجه المعاناة والظلم والمرأة المغوية جداً لبعض الناس. كانت ماري ودودة مع بيغي

ومن دون أيّ غاية، فأمام أشخاصٍ كييفي كانت ماري تتصرف بشكلٍ ملكي ولكن ودود، ولهذا السبب اعتقدوا أنها ودودة وإنسانية جداً. ولكن أليسون تعرف جيداً أنه عندما يكون المرء ملكاً فهو لا يحتاج ليقوم بالكثير حتى يحبه الناس.

«هناك فتاة الغسيل بيغي برادفور»، قالت أليسون. «تعيش في شارع بريك بجانب كنيسة سانت جون».

«سأتواصل معها، ولكن عليك أن تجهزها لهذا الدور».

«بالطبع».

لن يكون الأمر صعباً. وتخيلت أليسون ماري وهي تمسك بيد بيغي وتحدثها بصوتٍ واطئٍ وواثق. تخيلت السعادة والإخلاص المرتسمين على وجه بيغي عندما تؤتمن على مهمة خاصة لمصلحة الملكة.

«أخبرها أنّ رجلاً غريباً يحمل كيساً من النقود الذهبية سيزورها للتحدث إليها»، قال جان.

في شورديتش خارج الأسوار الشرقية لمدينة لندن يعلو بين مسلخ وترعة ماء مخصصة للخيل مبنى يُطلق عليه اسم «المسرح».

عندما تم بناء «المسرح» لم يكن أحد في إنكلترا قد رأى مثل هذا البناء من قبل. كان فناؤه مرصوفاً بالأحجار وتحيط به ثمانية أروقة مكسوة بألواح خشبية يعلوها سقفٌ قرميدي. تبرز من أحد هذه الأروقة الثمانية منصة تسمى الخشبة وهي تصل إلى الفناء. بُني المسرح من أجل عرض المسرحيات وقد كان مناسباً لهذا الغرض أكثر مما كانت أفنية وقاعات التزل حيث تُقام هذه العروض في العادة.

دخل رولو فيتزجيرالد إلى هناك بعد ظهر أحد الأيام الخريفية في عام 1583 متعباً فرانسيس ثروكمورتن. كان رولو ما يزال بحاجة إلى حلقة تواصل إضافية في سلسلة قناة التواصل بين الدوق غيز والملكة الإسكتلندية. لا تعرف أخته مارجوري أنه في إنكلترا، وهو يفضل أن تبقى الأمور على هذا النحو، فلا يجب أن تساورها الشكوك حيال ما يفعله. وعلى الرغم من استمرارها في تهريب كهنة الكلية الإنكليزية إلى البلد فإنها ما تزال تكره فكرة

اقتال المسيحيين. وإن عرفت بأن رولو يدبر لتمرّد ستسبب له المتاعب بل وقد تفضح خطته، فهي تؤمن بقوة بعدم اللجوء إلى العنف.

كان كل شيء يسير على ما يرام، ولم يكن قادراً على التصديق أنّ ما من عراقيل تعترض خطته؛ لا بدّ أن مشيئة الرّب ترعاها.

تبين أن إقناع فتاة الغسيل بيغي سهل كما توقعت أليسون تماماً. قامت بيغي بتهديب الرسائل مع ثياب الغسيل كما أرادت الملكة ماري تماماً، ويبدو أن الرشوة التي قدمها لها رولو لم تكن ضرورية. لم يكن لديها أدنى فكرة أن ما تفعله قد يؤدي بها إلى السجن، وشعر رولو بتأنيب الضمير قليلاً لأنه أقنع فتاة بسيطة وطيبة بأن تصبح خائنة.

ومن جهة أخرى كان بيير أوموند دي غيز قد رتب أمر إيصال رسائله إلى ماري عبر السفارة الفرنسية في لندن، وكل ما يحتاجه رولو الآن هو إيجاد من يستلم الرسائل من السفارة ليوصلها إلى بيغي في شيفيلد. ووقع اختياره على ثروكمورتن لهذه المهمة.

كان ثمن تذكرة الدخول إلى المسرح بنساً، وقد دفع ثروكمورتن بنساً إضافياً من أجل أن يجلس في الرواق المسقوف، واستأجر كرسيّاً بنسٍ ثالث. لحق به رولو إلى الداخل ووقف خلفه يتحين الفرصة المناسبة للتحدث معه بهدوء وسرية.

كان ثروكمورتن يرتدي ثياباً باهظة بكشاكش بيضاء مترفة. وعلى الرغم من أنه لم يدخل عامه الثلاثين فإن الشعر في منتصف رأسه بدأ يتراجع، وقد منحه هذا بالإضافة إلى أنفه الحاد وذقنه المدببة، مظهر طير. بعد انتهائه من الدراسة في أوكسفورد سافر ثروكمورتن إلى فرنسا، وتواصل مع المنفيين الإنكليز الكاثوليكين، ولهذا السبب كان يعرف رولو بأمره. لم يلتقِ الرجلان من قبل كما لم يكن رولو واثقاً أنه سيتمكن من إقناع ثروكمورتن بالمخاطرة بحياته. كانت المسرحية بعنوان «رالف الصاحب» وهو اسم الشخصية الرئيسية في المسرحية التي تتحدث عن أحد المتبجحين ممن يقولون أكثر مما يفعلون. تفضح شخصية تحمل اسم ماثيو ميريجريك تبججه من خلال إيقاعه في مواقف سخيفة، وهذا جعل المكان يهتز من شدة ضحك الجمهور. ذكرته هذه المسرحية بالكاتب المسرحي الأفريقي تيرنس الذي كان يكتب باللاتينية في القرن الثاني للميلاد.

كان على جميع الطلاب قراءة مسرحيات تيرنس. كان رولو قد بدأ يستمتع بالمسرحية كثيراً إلى درجة أنه ولو هلة نسي أمر مهمته الخطيرة. أخيراً وعندما تم الإعلان عن فترة استراحة تذكر سبب حضوره إلى هذا المكان.

لحق رولو بثروكمورتن إلى الخارج ووقف خلفه عندما كان يشتري كأساً من النبيذ. وفيما كان رولو يقترب أكثر من ثروكمورتن قال له بصوت هادئ: «باركك الرب يا بني».

بدأ ثروكمورتن كأنه بوغت.

لم يكن رولو في رداء كهنوتي ولكنه وضع يده داخل ياقة قميصه خفية وأمسك بصليب ذهبي ارتداه تحت ثيابه وأظهره أمام ثروكمورتن لثانية ثم أخفاه مجدداً عن الأنظار. إبرازه للصليب يعني أنه عرف بنفسه ككاثوليكي، فالبروتستانتيون يعتقدون أن ارتداء الصليب محض إيمان بالخرافات.

«من تكون؟» قال ثروكمورتن.

«جان لانغليه».

خطر ببال رولو أن يستخدم اسماً مستعاراً آخر حتى تزداد صعوبة تعقبه. ولكن اسم جان لانغليه بدأ يكتسب هالة ما، وكأنه يمثل شخصية نافذة وغامضة أشبه بالشبح تنتقل بصمت بين إنكلترا وفرنسا، وتعمل بسرية من أجل القضية الكاثوليكية. لقد أصبحت هذه الشخصية مصدر قوة حقيقية.

«ما الذي تريده؟».

«يريد الرب أن تقوم بعمل من أجله».

ظهرت الحماسة والخوف في آن معاً على وجه ثروكمورتن وهو يفكر بما قد يكون هذا العمل.

«ما هو هذا العمل؟».

«بعد هبوط الظلام يجب أن تتوجه إلى السفارة الفرنسية متخفياً تحت عباءة، وتساءل عن رسائل من السيد دي غيز، ومن ثم عليك إيصال هذه الرسائل إلى شيفيلد، وتسلمها إلى فتاة تغسل الملابس تدعى بيغي برادفورد. وبعدها يجب أن تنتظر بيغي حتى تسلمك رسائل أيضاً وتعود بها إلى السفارة. هذا كل ما في الأمر».

أوما ثروكمورتن برأسه على مهل وقال: «إن ملكة إسكتلندا ماري سجينه في شيفيلد؟».

«أجل».

حلّ صمّتٌ طويل قطعته ثروكمورتن أخيراً بقوله: «سأواجه عقوبة الإعدام إن فعلت هذا».

«إذا، لن تدخل إلى الجنة في وقتٍ أقرب».

«لم لا تقوم بهذا بنفسك؟».

«لأنك الوحيد الذي اختاره الربّ ليقوم بعمله. هناك آلاف الشباب أمثالك في إنكلترا يتوقون إلى التغيير. ومهمتي هي إخبارهم بما عليهم فعله في الصراع من أجل إعادة البلد إلى الدين الحق. وأنا مثلهم، قد أصدد إلى الجنة عاجلاً وليس آجلاً».

وصلوا إلى نهاية صف الانتظار واشتريا الشراب. قاد رولو ثروكمورتن بعيداً عن الحشود، ووقفا على حافة ترعة المياه المخصص للأحصنة ينظران إلى الماء الأسن.

«يجب أن أفكر بالأمر»، قال ثروكمورتن.

«لا، لا يجب». لقد كان هذا آخر شيءٍ قد يريده رولو؛ فقد أراد التزام ثروكمورتن الفوري: «لقد طرد البابا الملكة غير الشرعية إليزابيث من الكنيسة، وحرّم على الشعب الإنكليزي إطاعتها. لذلك فإن واجبك المقدس هو مساعدة ملكة إنكلترا الشرعية على استعادة العرش وأنت تعلم هذا، صحيح؟».

أخذ ثروكمورتن جرعة كبيرة من شرابه وقال: «أجل، أعلم بهذا».

«إذا، هاتِ يدك وقل لي إنك ستؤدي الدور».

تردد ثروكمورتن لدقيقة طويلة، ومن ثم نظر إلى رولو في عينيه وقال: «سأقوم بالأمر».

وتصافح الرجلان.

تطلب وصول نيد إلى شيفيلد أسبوعاً.

يُمكن قطع مثل هذه المسافة الكبيرة، التي تبلغ مئة وسبعين ميلاً، بسرعة إن تم تغيير الأحصنة بشكلٍ دائم في مراكز الاستراحة على طول الطريق

حيث يمكن للشخص أن يغير حصانه مرات عديدة خلال النهار. ولكن هذه الطريقة لا يتبعها سوى التجار الذين كانوا بحاجة مثل هذه الخدمات الثابتة للرسل المنتظمين بين مدن كباريس وأنتويرب لأن الأخبار بالنسبة لهم كالمال. ولكن هذه الخدمة لم تكن متوفرة بين لندن وشيفيلد. أخذت منه هذه الرحلة وقتاً طويلاً وضاعفت من شعوره بالقلق.

يبدو أن كابوسه كان قد بدأ يتحقق؛ فها هم المتعصبون الكاثوليكيون الفرنسيون والملك الإسباني والبابا قد اتفقوا أخيراً على القيام بعمل مشترك. وهم يشكلون خليطاً خطيراً فهم يملكون السلطة والمال لبدء عملية غزو إنكلترا، وقد بدأ جواسيسهم بالفعل في وضع مخططات الموانئ التي سينزلها الغزاة. لم يملك نيد أدنى شك أن النبلاء الكاثوليكين الغاضبين كالإيرل بارت سيشحذون سيوفهم ويلمعون دروعهم استعداداً لهذا الغزو. ولكن أسوأ ما في الأمر حالياً تورط ماري ستيوارت.

تلقى نيد رسالة من آلان دي غيز في باريس عبر السفارة الإنكليزية هناك. كان آلان يعيش الآن مع بيير ويتجسس عليه، فهو يرى في عمله هذا انتقاماً لموت أمه. أما بيير فقد كان يعامل ابن زوجته كموظف غير مؤذٍ يقوم بالمهام الموكلة إليه، ويبدو أنه بدأ يحب وجوده بجانبه كتابع له.

جاء في رسالة آلان أن بيير سعيد بنجاح عملية التواصل مع الملكة ماري ستيوارت.

كانت هذه الأخبار سيئة. إن موافقة ماري على المشروع الخائن ستكسبه احتراماً مقدساً من الكاثوليكين، فالكثير من الناس يعتقدون أنها الملكة الشرعية لإنكلترا، ويعتبرون وجود إليزابيث على العرش احتلالاً. وها هي ماري أعطت وعداً إلى عصابة من المجرمين الأجانب الذين تحولوا في عيون الناس إلى جيش يسعى لإحلال العدل.

كان الوضع جنوبياً، فبعد كل ما حققته إليزابيث من سلام ديني وازدهار تجاري في إنكلترا الخمسة وعشرين عاماً، ما زالوا يسعون خلفها.

وكما في عالم السياسة كانت مهمة نيد بتأمين الحماية لإليزابيث أصعب بوجود منافسين في البلاط. اصطدم سيده البيورتاني ويلزنهايم مع إيرل ليستر روبرت دولي المحب للمرح.

«الشيفرات السرية والحبر الخفي!» يقول ليستر هازناً كلما التقى ويلزنهايم في قصر وايت هول أو حديقة هامبتون كورت. «تؤخذ القوة بالأسلحة والرصاص وليس بالأقلام والحبر!» لم يتمكن ليستر من إقناع الملكة بالتخلص من ويلزنهايم فقد كانت أذكي من ارتكاب هكذا حماقة، ولكن شكوكه عززت من بخلها، ولهذا لم يحصل ويلزنهايم ورجاله على تمويل كافٍ.

كان بوسع نيد أن يصل إلى شيفيلد في نهاية اليوم السادس من رحلته، ولكنه لم يرغب بالوصول وجواربه ملطخة بالوحل متعباً من السفر، وإلا فلن يتمكن من فرض سلطته في حال اضطر إلى فعل هذا، ولذلك توقف في نزلٍ على بعد ميلين من شيفيلد. وفي صباح اليوم التالي نهض باكراً وارتدى قميصاً نظيفاً ليصل إلى بوابة قلعة شيفيلد في تمام الساعة الثامنة صباحاً.

كانت قلعة شيفيلد حصينة ولكن نيد احتاج غضباً عندما رأى أن الحراسة لم تكن مشددة كفاية. عبر الجسر فوق الخندق مع ثلاثة أشخاص آخرين: فتاة تحمل دلوين بغطاءين، لا بد أنهما يحويان على الحليب، وبناءً مقتول العضلات يحمل لوح خشبٍ طويل على كتفه من أجل إصلاح شيءٍ ما على ما يبدو، ورجل يجرّ عربة بحملٍ كبير من القش. تقدم هؤلاء الأربعة على الجسر ولم يعترض طريقهم أي من الحراس الواقفين عند البوابة وهم يتناولون قطع اللحم ويرمون العظام في الخندق.

وقف نيد وهو على جواده وسط الفناء الداخلي ينظر حوله بحثاً عن وجهته. رأى منزلاً له شكل البرج، وتكهن أن ماري مسجونة هناك. تهادت العربة التي تحمل القش وهي تدخل مبنى يبدو كإسطبل. أما المبنى الثالث الذي يبدو بمظهر مزعج فلا بد أنه منزل الإيرل.

سار نيد وهو على ظهر حصانه إلى الإسطبل، ومن ثم استجمع كل الصفاقة التي يمكن لصوته أن يعكسها وصرخ بوجه سائس شاب: «يا هذا خذ حصاني»، ونزل عن الجواد.

أخذ الفتى المتفاجئ اللجام.

قال نيد وأشار إلى المبنى الثالث: «أفترض أن الإيرل يعيش في ذلك المبنى؟».

«أجل يا سيدي، هل يمكنك أن تطلعني على اسمك».

«السير نيد ويلارد، ومن الأفضل ألا تنساه»، قال نيد وخرج من الإصطبل. دفع نيد الباب الخشبي للمنزل، ودخل القاعة الصغيرة حيث تشتعل نار يتصاعد منها الدخان. ورأى في إحدى الجهات باباً مفتوحاً يُفضي إلى قاعة قروسيطة كبيرة وكثيبة ولكن لا أحد فيها.

على عكس السائس الشاب لم يكن من السهل التحدث بتعالٍ مع الحاجب العجوز، فقد وقف الحاجب في طريق نيد وقال: «طاب يومك يا سيدي». كان سلوكه مهذباً بالنسبة إلى خادم إلا أنه فاشل كحارس فقد كان بوسع نيد الإطاحة به أرضاً بضربة واحدة من يده.

«أنا السير نيد ويلارد ولدي رسالة من الملكة إليزابيث. أين الإيرل شروزبيري».

أخذ الحاجب دقيقة ليتفحص فيها نيد. بالنسبة لشخصٍ يحمل لقب «السير» فإن هذا اجتماعياً، أدنى بكثير من مرتبة الإيرل، ولكن لم يكن من الحكمة إهانة رسول الملكة.

«إنه لشرف لنا أن نرحب بك هنا أيها السير نيد»، قال الحاجب بدبلو ماسية. «سأذهب على الفور وأرى إن كان الإيرل مستعداً لاستقبالك».

فتح الحاجب باب القاعة ولمح نيد غرفة الطعام. أغلق الباب وسمع نيد الحاجب يقول: «سيدي هل تريد أن تقابل السير نيد ويلارد الذي يحمل رسالة من جلالة الملكة إليزابيث».

لم يكن بوسع نيد الانتظار فلم يكن منه إلا أن فتح الباب واقتحم الغرفة متجاوزاً الحاجب المذهول. وجد نيد نفسه في غرفة صغيرة بطاولة مستديرة ونار كبيرة - غرفة أكثر دفئاً وراحة من القاعة الكبيرة. كان هناك أربعة أشخاص يتناولون طعام الفطور، وقد عرف نيد اثنين منهم. هناك امرأة طويلة جداً وسمينة تبدو في الأربعين من عمرها بشعر مستعار أحمر. إنها ماري ملكة إسكتلندا. لم يرها نيد منذ خمسة عشر عاماً عندما كانت في قلعة كارلايل وأخبرها أنها أصبحت سجيناً الملكة إليزابيث. أما المرأة الأخرى والأكبر عمراً بقليل وتجلس بقرب ماري فقد كانت رفيقتها الليدي أليسون روس التي لم تكن معها في كارلايل فحسب بل في سان ديزيه أيضاً. أما الشخصان الآخران الجالسان إلى الطاولة فلم يعرفهما نيد ولكنه تكهن

بمن يكونان. لا بد أن الرجل الأصلع الذي يبدو في الخمسين من عمره وله لحية كالمجرفة هو الإيرل، أما المرأة الضخمة التي في مثل عمره فلا بد أنها زوجته الكونتيسة والمعروفة باسم بيس هاردويك.

استشاط غضب نيد عندما رأى هذا المشهد. إن الإيرل وزوجته غيان جاهلان ويخاطران بكل شيء حققته إيزابيث.

«ما هذا بحق الشيطان...؟» قال الإيرل.

«أنا جاسوس يسوعي وقد أرسلني ملك فرنسا لاختطاف ماري ستوارت. لدي تحت عباة تي مسدسان، سأقتل الإيرل بأحدهما والكونتيسة بالآخر. في الخارج هناك ستة رجال مسلحين بأسلحة ثقيلة ويختبئون تحت حمل من القش.»

بدا الجميع مذهولين، ولم يعرفوا إن كان عليهم أخذ كلام نيد على محمل الجد: «هل هذه مزحة؟» قال الإيرل.

«هذا تفتيش»، قال نيد. «لقد أرسلتني جلالة الملكة إيزابيث لأتفقد الحراسة على ماري. فبماذا علي إخبارها يا سيدي؟ هل أخبرها بأنني تمكنت من الوقوف في حضرة ماري من دون أن يوقفني أحد أو يفتشني، وأنه كان بوسعي أن أدخل ستة رجالٍ معي.»

«لا بد لي من القول إنه من الأفضل لو أنك لا تخبرها بهذا»، قال الإيرل الذي بدا غيباً بكلامه هذا.

«كيف تتجرأ على التصرف بهذه الطريقة في حضرتي؟» قالت ماري بصوت ملكي أمر.

تابع نيد كلامه مع الإيرل: «من الآن فصاعداً ستتناول ماري وجباتها في البرج.»

«إن وقاحتك لا تحتمل»، قالت ماري.

تجاهلها نيد فهو غير مضطر للتصرف بلباقة مع امرأة تريد قتل ملكته.

وقفت ماري وتوجهت إلى الباب، ولحقت بها أليسون.

تحدث نيد إلى الكونتيسة وقال: «من فضلك رافقيهما. لا يوجد أي جواسيس يسوعيين في الفناء الآن، ولكن لا يمكنك أن تعرفي متى يدخلون. ما حدث الآن مفيد حتى يصبح الحذر عادة لدى الجميع.»

لم تكن الكونتيسة معتادة على أن يُملي عليها أحد ما عليها فعله، إلا أنها أدركت أنهم في ورطة، ولهذا ترددت لدقيقة قبل أن تطيع نيد. سحب نيد كرسيّاً إلى الطاولة: «والآن يا سيدي. دعنا نتحدث عما عليك فعله قبل أن أقدم للملكة تقريراً مفيداً».

في لندن وفي منزل ويلزنهايم أفاد نيد أن ماري ستيوارت أصبحت الآن تحت حراسة أفضل مما كانت عليه سابقاً.

ولكن دخل ويلزنهايم إلى صلب الموضوع مباشرة: «هل يمكنك أن تقدم لنا ضماناً أنها لا تتواصل مع العالم الخارجي؟».

«لا»، قال نيد في بأسٍ. «لا يمكنني ما لم نتخلص من جميع العاملين هناك ونبقوها وحيدة في زنزانه».

«كم أتمنى لو أننا نستطيع القيام بهذا»، قال ويلزنهايم بانفعال. «ولكن الملكة إليزابيث لن تسمح بمثل هذا العمل القاسي». «إن ملكتنا رقيقة القلب».

إلا أن رأي ويلزنهايم في إليزابيث كان أكثر سخرية: «أنت تعلم أنها تتأثر بالقصص التي تتحدث عن قسوتها مع أقربائها الملكيين».

لم يرغب نيد بمجادلته: «في كل الأحوال لا يمكننا القيام بالمزيد من الإجراءات في شيفيلد».

مسّد ويلزنهايم لحيته وقال: «إذاً، علينا أن نركز على الجانب الآخر لخط التواصل. لا بدّ أن السفارة الفرنسية متورطة في هذا. لدينا قائمة بمن يدخلها ويخرج منها، فلتبحث عن أي زائرين كاثوليكين إلى السفارة». «سأعمل على هذا فوراً».

صعد نيد إلى الطابق العلوي حيث غرفة مقفولة يُبقي فيها ويلزنهايم كل الوثائق الثمينة، وجلس ليدرسها.

كانت القائمة الأطول تلك التي تضم أسماء كل الكاثوليكين الإنكليز ذوي الأصول العريقة. تطلب منه وضع هذه القائمة جهداً كبيراً، لأن جميع العائلات، التي ازدهرت أحوالها تحت حكم ماري تودر وخسرت هذا في عهد إليزابيث، كانت عرضة للشبهة بشكل طبيعي. دفع الكثير منهم غرامات

حتى لا يذهبوا إلى الكنيسة، وارتدوا ثياباً مبهرجة في احتقار للثياب السوداء والرمادية الرزينة التي يرتديها البروتستانتيون الوردون. ولم يكن هناك إنجيل باللغة الإنكليزية في أي منزل كاثوليكي. كانت هذه المعلومات تصل إلى ويلزنهايم عن طريق الأساقفة والقائمقام على المناطق. كان الإيرل بارت ومارجوري على القائمة.

القائمة طويلة، ومعظم من عليها بريثون من تهمة الخيانة. شعر نيد أحياناً أنه يملك الكثير من المعلومات، ويصعب عليه فصل المهم من غير المهم فيها. انتقل بعد هذا إلى قائمة مرتبة أبجدياً بأسماء الكاثوليكين في لندن. لم تكن القائمة كافية حتماً ولهذا وبالإضافة إلى هذه القوائم كانت تصل ويلزنهايم تقارير يومية بدخول وخروج الكاثوليكين من المدينة. عادة ما يبيت الكاثوليكون الزائرون للمدينة عند سكان المدينة الكاثوليكين، أو في نُزل يرتادها كاثوليكون آخرون. إن لندن مدينة يصل عدد سكانها إلى مئة ألف شخص، ولهذا من المستحيل وضع جاسوس في كل شارع، ولكن لدى ويلزنهايم ونيد مخبرين في كل مكان يتردد عليه الكاثوليكون كثيراً، ولهذا كانا قادرين على معرفة معظم ما يجري هناك.

أخذ نيد يُقلب في السجل. كان يعرف المئات من هذه الأسماء؛ فوضعُ القوائم عمله في الحياة، ولكن من الجيد أن يقوم بقراءتها وتنشيط ذاكرته. ومرة أخرى ظهر أمامه اسم بارت ومارجوري في تقرير عن زيارتهما للمدينة ونزولهما في منزل عائلة شايرنغ في منطقة ستراند خلال جلسة البرلمان.

انتقل نيد إلى سجل الزائرين اليوميين إلى السفارة الفرنسية في سالزبيري سكوير. كانت السفارة مراقبة ليلاً ونهاراً من حانة سالزبيري التي تقع قبالتها، وهي على هذه الحال منذ عودة ويلزنهايم من باريس في عام 1573. بدأ نيد يراجع أسماء الزائرين من البارحة وللوراء، وتفقد كل اسم ظهر معه على سجل الأسماء المرتبة ترتيباً أبجدياً.

لم يظهر اسم مارجوري. في الحقيقة لم يكن هناك أي تقرير يفيد بأن مارجوري أو بارت قد تواصلوا مع سفراء أجنبان أو شخصيات مشبوهة أثناء تواجدهما في لندن. بالطبع كانوا يختلطون بكاثوليكين آخرين، وخدمهم

يرتادون حانة كاثوليكية بالقرب منزلهما تدعى حانة «آيريش بوي»، ولكن لا شيء يربطهم بأيّ نشاطات تخريبية.

لكن وعلى الرغم من وجود هذه القوائم بالزائرين إلى السفارة الفرنسية كان من الصعب معرفتهم بالاسم. وما يدعو لليأس حقاً أن السجل يحوي على مُدخلات كثيرة كـ «رجل غير معروف يحمل الفحم»، و«حامل رسائل مجهول»، و«امرأة غير مرئية جيداً في الظلام». لكن ورغم هذا ثابر نيد في بحثه على أمل العثور على أي دليل.

وأخيراً، صُنع نيد باسم مُسجل منذ أسبوعين: السيدة أفروديت هوسيه زوجة نائب السفير.

في باريس تعرّف نيد على الأنسة أفروديت بيلو التي كانت تبدو حينها مغرمة بأحد رجال البلاط الشبان ويدعى برنار هوسيه. لا بدّ أنها أفروديت نفسها، وإن كان الأمر كذلك فهي من أنقذها نيد من عصاة المغتصبين خلال مجزرة عيد القديس بارثولوميو.

عاد نيد إلى القائمة المرتبة أبجدياً وعرف أن منزل نائب السفير الفرنسي السيد برنار هوسيه يقع في منطقة ستراند. ارتدى نيد معطفه وخرج.

انشغل نيد بالتفكير في سؤالين وهو في طريقه باتجاه منزل السفير. أولاً، هل تعلم أفروديت اسم حامل الرسائل إلى شيفيلد؟ وإن علمت، هل ستكون مدينة بما يكفي لنيد وتخبره بالسر؟

وها هو في طريقه الآن ليكشف الجواب على هذين السؤالين.

خرج نيد من مدينة لندن إلى منطقة لودغيت وعبر نهر فليت التّن، ثم عثر على منزل عائلة هوسيه المتواضع على الجانب الشمالي الأقل بذخاً من منطقة ستراند. قرع الباب وأعطى الخادم اسمه. انتظر نيد لبضع دقائق وهو يفكر باحتمال بعيد وهو أن يكون برنار هوسيه قد تزوج من امرأة أخرى تدعى أفروديت. وأخيراً، أُدخل نيد إلى غرفة جلوس صغيرة ومريحة.

يتذكر نيد أفروديت فتاةً مغناجاً ولديها من العمر ثمانية عشر عاماً، إلا أنه رأى أمامه الآن امرأة لبقة في التاسعة والعشرين بقامة توحى بأنها أنجبت

طفلاً مؤخراً وربما ما تزال ترضع الطفل حتى الآن. حيثه أفروديت بحرارة بالفرنسية: «إنه أنت، بعد كل هذا الوقت».

«إذاً، تزوجت من برنار؟»، قال نيد.

«أجل»، أجابت بابتسامة رضا.

«هل لديك أطفال؟».

«ثلاثة... حتى الآن».

جلسا إلا أن نيد لم يكن متفائلاً. إن من يخونون أوطانهم عادة ما يكونون أناساً مضطربين وغاضبين ويحملون أحقاداً هائلة كآلان دي غيز وجيرونيم روي. كانت أفروديت امرأة سعيدة في زواجها ولديها أطفال وزوج يبدو أنها تحبه. كانت فرصة أن تبوح له بأي سر ضئيلة جداً، ولكن كان عليه أن يحاول.

أخبرها نيد أنه تزوج من فتاة فرنسية وأنه أحضرها معه إلى إنكلترا، وعبرت أفروديت عن رغبتها بمقابلة زوجته. أطلعت على أسماء أولادها الثلاثة، وحفظهم نيد لأنه تدرّب على حفظ الأسماء. بعد مرور عدة دقائق من الأحاديث العامة وجه نيد دفعة الحديث إلى الاتجاه الذي أراده: «أنقذت حياتك في باريس».

امتقع وجه أفروديت وقالت: «سأكون ممتنة لك إلى الأبد. ولكن من فضلك... برنار لا يعرف هذا».

«أنا الآن أحاول إنقاذ حياة امرأة أخرى».

«حقاً؟ من؟».

«الملكة إليزابيث».

بدت أفروديت محرّجة وقالت: «لا يجب أن نناقش أموراً سياسية يا نيد». أصر نيد على المتابعة وقال: «إن الدوق غيز يخطط لقتل الملكة إليزابيث ووضع نسيبته ماري ستيوارت على العرش بدلاً منها. لا يمكنك أن توافقني على جريمة قتل».

«بالطبع لا، ولكن..».

«هناك رجل إنكليزي يزور سفارتكم ويأخذ الرسائل التي يرسلها هنري دي غيز إلى ماري ستيوارت في شيفيلد». كره نيد كشف المعلومات التي

يعرفها، ولكن هذه فرصته الوحيدة لإقناعها. «ويحمل جواب ماري على الرسائل». نظر نيد بعناية إلى أفروديت وهو يتكلم ودرس رد فعلها، واعتقد أنه رأى في عينيها إقراراً بصحة كلامه ثم تابع بإصرار: «وأنتِ على الأرجح تعرفين الرجل».

«هذا ليس عدلاً يا نيد».

«يجب أن أعرف اسمه»، قال نيد الذي شعر بالخيبة عند سماعه رنة اليأس في صوته.

«كيف يمكنك أن تفعل هذا بي؟».

«يجب أن أحمي الملكة إليزابيث من الرجال الأشرار كما قمت بحمايتك قبلاً».

وقفت أفروديت وقالت: «يؤسفني قدومك إلى هنا إن كان غرضك من الزيارة الحصول على معلومات مني».

«أنا أطلب منك أن تنقذي حياة الملكة».

«أنت تطلب مني أن أخون زوجي وبلدي ورجلاً حلّ ضيفاً على منزل والدي».

«أنت تدينين لي».

«أدين لك بحياتي ولكن ليس بروحي».

علم نيد أنها هزمته، وشعر بالعار على قيامه بهذا أصلاً. لقد تجرأ على محاولة إفساد امرأة صالحة جداً كانت تستلطفه. كم كان يكره عمله أحياناً! وقف نيد وقال: «سأغادر».

«يؤسفني القول إنه عليك المغادرة».

كان هناك شيء يلحّ في رأسه، وشعر أنّ أفروديت قالت له شيئاً مهماً لم ينتبه إليه عندما احتدم الجدل بينهما. أراد أن يطيل مكوثه أكثر، ويسألها المزيد من الأسئلة إلى أن تكرر ما قالت، ولكنها كانت تنظر إليه في غضب، وبدا واضحاً أنها لم تكن تطيق صبراً حتى تراه يغادر المنزل. وعلم أنه إن لم يغادر المنزل على الفور فإنها ستغادر الغرفة.

غادر نيد منزل هوسيه محبطاً وعاد إلى المدينة. صعد إلى لودغيت هيل وعبر كاتدرائية سانت بول القوطية الطراز، وقد اسودت حجارتها الرمادية

بفعل سخام آلاف المداخن في لندن. وعندما أصبح على مقربة من منطقة تاور حيث يستجوب الخونة ويعذبون، التف وسار في شارع سيدينغ. عندما وطئ نيد بقدمه منزل ويلزنهايم تذكر ما قالتة أفروديت: «أنت تطلب مني أن أخون زوجي وبلدي ورجلاً حلّ ضيفاً على منزل والدي!»... «رجلاً حلّ ضيفاً على منزل والدي».

كانت القائمة الأولى التي وضعها نيد إبان وصوله إلى باريس مع ويلزنهايم منذ أحد عشر عاماً قائمة بأسماء الكاثوليكين الإنكليز الذين زاروا منزل الكونت بيلو في شارع سان دونيه. وويلزنهايم لا يتخلص من أيّ وثيقة لديه.

ركض نيد إلى الغرفة المقفلة، وعثر على السجل الذي يحوي قائمة باريس في قعر الصندوق. سحبه ونفخ الغبار عنه.

لا بدّ أن أفروديت تعني منزل والدها في باريس. يملك الكونت منزلاً ريفياً في فرنسا ولكن وعلى حد علم نيد، لم يكن مكاناً للقاء المنفيين الإنكليز، علاوة على هذا لم يظهر اسم بيلو على قائمة الكاثوليكين الذين يعيشون في لندن.

لم يكن هناك أي دليل حاسم.

فتح نيد السجل بحماس، وبدأ يقرأ بروية الأسماء التي دونها بخط يده منذ عقدٍ من الزمن. أجبر نفسه على القراءة على مهل محاولاً تذكر وجوه هؤلاء الإنكليز الغاضبين الذين غادروا إلى فرنسا لأنهم شعروا بالغرابة في وطنهم. وأثناء قراءته للأسماء اجتاحت ذكرياته في باريس: بهرجة المتاجر والثياب الجميلة ونتاجة الشوارع والحفلات المملّكية الباذخة ووحشية المجزرة.

تفاجأ نيد باسم أسفل القائمة فهو لم يلتق بهذا الرجل قبلاً، ولكنه يعرف الاسم. شعر بقلبه وكأنه توقف، وعاد إلى القائمة المرتبة أبجدياً بأسماء الكاثوليكين القاطنين في لندن. أجل، هناك رجلٌ واحد زار منزل الكونت بيلو في باريس وهو في لندن الآن.

كان يدعى السير فرانسيس ثروكمورتن.
«أمسكت بك أيها الشيطان»، قال نيد.

«أياً يكن ما يحدث لا تقم باعتقاله»، قال ويلزنهايم.

بوغت نيد وقال: «اعتقدت أن هذا ما يجب أن نفعله».

«فكر مجدداً. سيكون هناك من أمثال ثروكمورتن الكثيرين. سنفعل كل ما بوسعنا لحماية الملكة إليزابيث بالطبع، ولكن أحد هؤلاء الخونة سيتمكن دوماً من الإفلات من أيدينا».

أعجب نيد بقدرة ويلزنهايم على التفكير ببعده في هذا الموقف الحالي، ولكن لم يفهم ما رماه بقوله هذا: «ما الذي يسعنا فعله غير البقاء يقظين دوماً».

«فلتكن مهمتنا الآن إثبات تورط ماري ستيوارت في مؤامرة للإطاحة بإليزابيث».

«قد تمنح إليزابيث الإذن بتعذيب ثروكمورتن بما أنه اقترف عملاً يهدد الملكية، وسيعترف ثروكمورتن، ولكن الجميع يعلم أن الاعترافات ليست دليلاً دامغاً».

«تماماً. يجب أن نحصل على دليل دامغ».

«ونحاكم ماري ستيوارت».

«تماماً».

بدا نيد مستمعاً لكلام ويلزنهايم إلا أنه لم يفهم ما الذي يدور في عقله المخادع.

«ما الذي سيحققه هذا؟».

«ستخسر ماري ستيوارت شعبيتها لدى الشعب الإنكليزي على أقل تقدير، وسيرفض الجميع باستثناء الكاثوليكيين المتشددين، أن يطيح أحد بملكة محبوبة جداً».

«ولكن هذا لن يمنع القتلة».

«ولكنه سيُضعف الدعم الذي سيتلقونه، وسيقوي من حجتنا في تشديد الحراسة على ماري ستيوارت».

أوماً نيد رأسه موافقاً: «ولن تقلق إليزابيث كثيراً حيال اتهامها بالتصرف بقسوة شديدة مع نسيبتها، ولكن...».

«بل سيكون من الأفضل لو تمكنا من إثبات تأمر ماري للإطاحة بالملكة إليزابيث واغتيالها في الوقت عينه».

وحالما بدأ نيد يرى الاتجاه الذي يذهب فيه تفكير ويلزنهايم دُهل من القساوة الكامنة فيه: «هل تريد أن يُحكم على ماري بالإعدام؟».

«أجل».

وجد نيد كلام ويلزنهايم مخيفاً؛ أن تُعدم ملكة تدنيس للمقدسات: «ولكن الملكة إليزابيث لن تُعدم ماري أبداً».

«حتى وإن أثبتنا أنها تأمرت لقتل إليزابيث».

«لا أعلم»، قال نيد.

«وأنا أيضاً»، قال ويلزنهايم.

وضع نيد ثروكمورتن تحت مراقبة كاملة.

لا بد أن أفروديت أخبرت زوجها عن زيارة نيد، وبالتالي فإن السفارة الفرنسية قد حذرت ثروكمورتن. وبالتالي بات نيد يعرف أن ثروكمورتن يعرف الآن بأن نيد يشك بوجود مراسلات مع ماري، ولكن بالنظر إلى حديثه مع أفروديت، فإن ثروكمورتن يعتقد أن نيد لا يعرف هوية ناقل الرسائل.

كان الفريق الذي يتعقب ثروكمورتن يتغير مرتين يومياً، إلا أن خطر اكتشافه أنه مراقب ما زال قائماً. ولكن يبدو حتى الآن أن ثروكمورتن لم يكتشف هذا بعد، وتكهن نيد أنه لم يكن معتاداً على العمل السري، ولم يفكر في التحقق من هذا بكل بساطة.

كتب له آلان دي غيز من باريس ليقول له إن بيير أرسل رسالة هامة إلى ماري ستيوارت مع حامل رسائل، وأنه سيتم تهريب هذه الرسالة إلى ماري المسجونة عن طريق ثروكمورتن. إن أمسك نيد بثروكمورتن ويده رسالة بيير، فسيكون هذا دليلاً دامغاً يثبت خيائته.

ولكن ويلزنهايم أراد أن يوقع بماري وليس بثروكمورتن، ولهذا قرر نيد أن ينتظر ليرى إن كان ثروكمورتن سيحمل جواباً من ماري. إن وافقت على المشاركة في المؤامرة، وبخاصة إن كتبت كلمات تشجع عليها، فسيكون هذا دليلاً يدينها.

في أحد أيام تشرين الأول/ أكتوبر وفيما كان نيد ينتظر بترقب ما سيفعله ثروكمورتن، وصل رجلٌ من البلاط ويدعى رالف فينتنور إلى شارع سيدينغ، وأخبر نيد وويلزنهايم أن الملكة إليزابيث تريدهما على الفور. لم يكن فينتنور يعلم سبب استدعائهما.

ارتدى الرجلان معطفيهما على الفور وتوجها إلى برج قريب من المنزل حيث انتظرهما فينتنور بجانب قارب على الرصيف المائي ليأخذهما إلى قصر وايت هول.

فيما كان المركب يشق عباب النهر انتاب نيد شعور بالضيق فمن النادر أن تحمل الاستدعاءات المفاجئة أي أخبار طيبة. علاوة على هذا، لطالما كانت إليزابيث صاحبة مزاج متقلب، فيمكن لقبولها الهادئ بشيء أن يتحول في دقيقة إلى رفضٍ غاضب.

عندما وصلا إلى قصر وايت هول، قادهما فينتنور عبر غرفة الحراسة الممتلئة بالجنود ومن ثم إلى غرفة الاجتماع الملكي حيث ينتظر رجال البلاط، وأخيراً إلى القاعة السرية.

كانت إليزابيث جالسة على كرسي خشبي محفور ومطعم بالذهب. كانت في ثوبٍ أبيض وأحمر وفوقه عباءة فضية فاتحة والأكمام مفتوحة وتبرز من تحتها بطانة من قماش التافتا الأحمر. كانت ثياباً زاهية وشبابية لم تنجح في إخفاء تقدم العمر. لقد تجاوزت إليزابيث عامها الخمسين، ويفضح وجهها عمرها الحقيقي رغم البودرة البيضاء الكثيفة التي تستخدمها، وعندما تحدث تظهر أسنانها الصفراء وغير المتناسقة وقد فقدت العديد منها.

كان الإيرل ليستر في الغرفة وهو في مثل عمر إليزابيث، وقد ارتدى ثياباً باهظة وشبابية أيضاً. كان في حلة حريرية زرقاء ورمادية مطرزة بخيوط ذهبية مع كشاكش عند نهاية الأكمام وحول الياقة أيضاً. رأى نيد أن ثياب الإيرل تبدو باذخة أكثر من اللازم.

شعر نيد بالانزعاج عندما لاحظ السعادة على وجه ليستر؛ لا بد أنه على وشك أن يحقق انتصاراً على ويلزنهايم.

وقف ويلزنهايم ونيد جنباً إلى جنب، وانحنيا للملكة معاً.

تحدثت الملكة بصوتٍ بارد كبرودة شهر شباط / فبراير: «تمّ اعتقال رجل في حانة في أوكسفورد لأنه قال إنه في طريقه إلى لندن لقتل الملكة». «اللعة! لقد فشلنا بالإمساك بواحد منهم»، قال نيد في نفسه، وتذكر كلمات ويلزنهايم: «يوماً ما سيهرب أحد هؤلاء الخونة من بين أيدينا».

تحدث ليستر بلهجة متعالية توحى بأن كل شيء سخيف: «كان الرجل يحمل مسدساً من العيار الثقيل، وقال إن الملكة ماكرة وإنه سيقطع رأسها ويضعه على عمود».

وأخذ نيد يفكر بأن ليستر سيتبجح بالأمر حتماً. ولكن في الحقيقة لا يبدو القاتل خطيراً جداً بما أنه عبّر عن نواياه جهاراً، وتم إيقافه قبل أن يصل إلى لندن بمسافة تصل إلى ستين ميلاً.

«لماذا أدفع لكما المال إن لم تحمياني من أمثال هؤلاء الناس؟». كان هذا مثيراً للغضب، فهي لم تكن تدفع لهم سوى سبعة وخمسين جنيهًا سنوياً ولم يكن هذا كافياً أصلاً، ولهذا اضطر ويلزنهايم إلى تمويل العمل من ماله الخاص. ولكن لم يكن على الملكات أن يكن عادلات.

«ما اسم هذا الرجل؟» قال ويلزنهايم.

«جون سومرفيلد»، قال ليستر.

تذكر نيد الاسم فقد كان على اللائحة: «إننا نعلم بأمر سومرفيلد يا جلالة الملكة. إنه كاثوليكي من وارويكشاير، وهو رجل مجنون».

ضحك إيرل ليستر بسخرية وقال: «إذاً، هذا يعني أنه لا يشكل خطراً على الملكة، صحيح؟».

احمر نيد خجلاً وقال: «هذا يعني أن احتمال اشتراكه في مؤامرة بعيد يا سيدي».

«يا إلهي، إذاً في هذه الحالة لن تقتل رصاصته أحداً، صحيح؟».

«لم أعنِ..».

قاطع ليستر نيد وقال: «يا جلالة الملكة، أتمنى أن تكلفني شخصاً آخر بحماية شخصك الكريم»، ثم أضاف بصوتٍ مدهن: «فهذا أهم عمل في المملكة».

كان ليستر مدعياً بارعاً، ولسوء الحظ وقعت إليزابيث تحت قوة سحره. وأخذ ويلزنهايم الآن زمام الحديث: «لقد خذلتك يا جلالة الملكة. لم

أدرك الخطر الكبير الذي يشكله سومرفيلد. لا شك أن هناك العديد من الرجال في إنكلترا ممن يستطيعون القيام بهذا العمل بل وأفضل مني. أرجو منك أن تكلفني أحداً غيري بهذه المسؤولية. سأكون سعيداً بإزاحة هذا الحمل الذي أخذته على عاتقي منذ وقتٍ طويل، وأريح عظامي المتعبة».

لم يكن ويلزنهايم يعني هذا حقاً، ولكنها كانت الطريقة الوحيدة للتعامل مع الملكة وهي في مزاجها الحالي. أدرك نيد أنه تصرف بحمق عندما جادل ليستر؛ فإن كانت الملكة منزعجة فستغتاظ أكثر عند إخبارها بأنه يجب عليها ألا تقلق. ولذلك من المحتمل أن يرضيها التصرف بتواضع وتذلل.

«أنتَ في عمري»، ردت عليه الملكة وقد بدا عليها أنها هدأت بعد اعتذار ويلزنهايم، أو ربما تذكرت بأنه لا يوجد رجل في إنكلترا سيعمل بجِد وبضمير حي كما يفعل ويلزنهايم لحمايتها من العديد من الناس المجانين والعاقلين منهم على حد سواء، ممن كانوا يريدون اغتيالها. ولكن يبدو أنها لم تكن مستعدة بعد لترك ويلزنهايم وشأنه: «ما الذي ستفعله لضمان سلامتي أكثر؟» سألته بشكلٍ أمر.

«يا جلالة الملكة، أنا بصدد إحباط مؤامرة مُحكمة تستهدفك ومن قبل أعداء أشدَّ خطراً من جون سومرفيلد. إن هؤلاء الناس لن يلوحوا بأسلحتهم في الهواء، أو يتفاخروا بنواياهم في الحانات؛ إنهم متحالفون مع البابا وملك إسبانيا، وأؤكد لك أن سومرفيلد ليس من بينهم. إنهم جادون وممولون بشكل جيد ويعملون بسرية كبيرة، إلا أنني أتوقع اعتقال قائدهم في الأيام القليلة القادمة».

كان دفاعاً جريئاً في مواجهة خبث ليستر، إلا أن نيد شعر بالقنوط فقد كان هذا الكلام سابقاً لأوانه. إن القيام باعتقالات الآن سيضع حداً باكراً للمؤامرة، وبالتالي لن يحصلوا على دليل تواطؤ ماري ستيوارت. وها هي العداوات الشخصية مرة أخرى تؤثر على سير العمل.

«من هؤلاء الناس؟» سألت الملكة.

«أخشى أن يؤدي الإفصاح عن أسمائهم إلى أن يصلهم ويجعلهم يقظين يا جلالة الملكة، ولهذا أتردد في كشف أسمائهم لـ...» ونظر ويلزنهايم بحدة إلى ليستر ثم تابع: «للعن».

كان ليستر على وشك الاعتراض في سخط ولكن الملكة قالت: «صحيح، لم يكن علي سؤالك. حسناً جداً يا سير فرانسيس، من الأفضل أن تغادر الآن وتعود إلى عملك».

«شكراً لك يا صاحبة الجلالة»، قال ويلزنهايم.

كان رولو فيتزجيرالد قلقاً من وضع فرانسيس ثروكمورتن. لم يكن ثروكمورتن مُدرباً كرجال الكلية الإنكليزية الذين تعهدوا بحياتهم من أجل الكنيسة، ويفهمون معنى الطاعة والتفاني. لقد غادروا إنكلترا وقضوا سنواتٍ في الدراسة ونذروا أنفسهم للقضية وعادوا إلى الوطن للقيام بالعمل الذي كانوا يتحضرون من أجله. هم يعلمون أن حياتهم على المحك في كل مرة يُمسك بها ويلزنهايم بأحدهم ويُعدمه، إلا أن الكلية كانت تحتفي بشهادتها.

لم يقدم ثروكمورتن أيّ نذور، بل كان مجرد شاب أرستوقراطي ثري تربطه صلة عاطفية بالكاثوليكية. فهو لم يقض حياته في سبيل إرضاء الرب بل في سبيل ملذاته الشخصية، ولا يعرف معنى الشجاعة والعزم، ولهذا من المحتمل أن يقرر التراجع.

ولكن حتى وإن لم يتراجع فهناك أخطار أخرى. إلى أي درجة سيكون متكتماً وهو لا يملك تجربة في العمل السري. قد يشمل في إحدى المرات ويتباهى أمام أصدقائه بعمله السري.

كان رولو قلقاً بشأن بيع برافورد أيضاً. ادعت أليسون أن بيع قد تفعل أي شيء من أجل الملكة ماري، ولكن أليسون قد تكون على خطأ، وربما لا يمكن الاعتماد على بيع.

أما خوفه الأعظم فقد كان من ماري نفسها. وتساءل إن كانت ستعاون معهم لأن المؤامرة من دونها لا قيمة لها.

قال رولو في نفسه إن عليه التعامل مع هذه المشاكل تباعاً، وأنه سيبدأ مع ثروكمورتن أولاً.

كان يفضل عدم التواصل مع ثروكمورتن مجدداً لأسباب أمنية، ولكن لم يكن هذا ممكناً فقد كان على رولو التأكد من أن كل شيء يسير وفقاً

للخطة. وعلى مضض قرر زيارة منزل ثروكمورتن الذي يقع على رصيف سانت بول النهري أسفل الكاتدرائية وعند الغسق حيث يغدو تمييز الوجوه صعباً.

لسوء الحظ لم يكن ثروكمورتن في المنزل كما قال خادمه. فكر رولو بالمغادرة والعودة في وقتٍ آخر، ولكنه كان يتوق جداً ليعرف مسار الأمور، ولذلك أخبر الرجل بأنه سينتظر سيده.

قاده الخادم إلى غرفة جلوس صغيرة لها نافذة مُطلّة على الشارع. في نهاية الغرفة هناك باب بمصراعين بدا موارباً قليلاً. نظر رولو خلفه إلى الغرفة الكبيرة المريحة والمؤثثة ببذخ إلا أن رائحة دخان قوية وصلت إلى أنفه؛ كان الخادم يحرق شيئاً ما في الفناء.

وبانتظار عودة ثروكمورتن قبل رولو تناول كأس من النبيذ، واستغرق في التفكير بأمر عملائه السرّيين، فحالما ينتهي من تأسيس قناة التواصل بين بير في باريس وماري في شيفيلد، سيقوم بجولة في إنكلترا يزور فيها كهنته السرّيين. يجب أن يجمع الخرائط منهم أو من الذين يؤوونهم، ويأخذ ضمانات بدعم الجيش الغازي. كان لديه الوقت، فالغزو لن يحدث قبل ربيع العام القادم، وما زال هناك الكثير مما يجب القيام به.

وصل ثروكمورتن عند هبوط الظلام. سمع رولو الخادم يفتح الباب ويقول: «هناك رجل لم يفضل الإفصاح عن اسمه بانتظارك في غرفة الجلوس يا سيدي».

سُرّ ثروكمورتن عندما رأى رولو، وأخرج من جيب معطفه رزمة صغيرة وضعها على الطاولة بضربة قوية توحى بالانتصار: «رسائل للملكة ماري!» قال ثروكمورتن بابتهاج. «لقد أتيت للتو من السفارة الفرنسية».

«رجلٌ صالح!» قام رولو من مكانه وبدأ يتفحص الرسائل. انتبه إلى ختم دوق غيز وختم سكرتير ماري في باريس جون ليزلي، وتاق لقراءة ما جاء فيها، ولكن لم يكن بوسعه كسر الختم من دون التعرض إلى المتاعب: «متى ستمكن من إيصالها إلى شيفيلد؟».

«غداً»، قال ثروكمورتن.

«ممتاز».

سُمع صوتُ قرعٍ قوي على الباب الأمامي. تجمد الرجلان في مكانهما وأصاخا السمع. لم يكن القرع على الباب قرع زائر ودود بل شخص وقع وعنيف. توجه رولو إلى النافذة ورأى تحت ضوء المصباح فوق الباب رجلين حسني الهندام. التفت أحدهما برأسه نحو الضوء وتعرف رولو فوراً على نيد ويلارد.

«اللعنة»، قال رولو. «رجال ويلزنهام».

أدرك رولو بسرعة أن نيد كان يراقب ثروكمورتن، وأنهم كانوا يلحقون به إلى السفارة الفرنسية، وأن نيد قد أدرك سبب ذهابه إلى هناك. ولكن كيف وصل نيد إلى ثروكمورتن بالأصل؟ أدرك رولو أن استخبارات ويلزنهام أقوى مما تخيل. وبعد دقيقة من الآن سيقع رولو في أيديهم.

«سأطلب من خادمي أن يخبرهم أنني غير موجود»، قال ثروكمورتن، وفتح باب غرفة الجلوس إلا أنه كان قد تأخر. سمع رولو الباب الخارجي يُفتح وأصوات امرأة تعلقو، وكل شيء يحدث بسرعة كبيرة. «فلتذهب وتؤخرهم»، قال رولو.

توجه ثروكمورتن إلى ردهة الاستقبال وهو يقول: «مهلاً، مهلاً، ما كل هذه الجلبة».

نظر رولو إلى الرسائل على الطاولة التي كانت دليلاً تجريمياً، وإن كانت تحوي على ما يعتقد أنها تحويه، ستكون كفيلاً بإيصاله هو وثرؤكمورتن إلى الإعدام.

كانت الخطة بأكملها في خطر ما لم يسارع رولو إلى التخلص من الرسائل فوراً.

أخذ رولو الرسائل ودخل من الباب الموارب إلى الغرفة الخلفية حيث توجد نافذة مطلة على الفناء. فتح رولو النافذة بسرعة وخرج منها. وفيما كان رولو يخرج من النافذة سمع صوت نيد ويلارد المألوف منذ الطفولة قادماً من غرفة الجلوس.

في وسط الفناء كان الخادم قد أشعل ناراً بالأوراق الجافة ونفايات المطبخ والقش الملوث من الإسطبل. حدق رولو إلى أقصى الفناء وعلى ضوء النار المشتعلة رأى خيال رجلٍ يقرب من بين الأشجار. تكهن رولو أنه

لا بد أن يكون أحد رجال نيد الذي كان ماكراً جداً ولم يكن ليفوته أمر تغطية المخرج الخلفي للمنزل.

صرخ الرجل نحو رولو: «قِف».

وخلال أجزاء من الثانية قام رولو بكل حساباته.

إن أمر ثروكمورتن قد انتهى، وسيُعتقل ويُعذب وسيُعرف بكل شيء قبل أن يتم إعدامه. ولكن ثروكمورتن لا يعرف هوية جان لانغليه الحقيقية، ولن يتمكن من الوشاية بأحد سوى بغاسلة الثياب بيغي برادفورد التي لم تكن سوى عاملة جاهلة لا قيمة لحياتها سوى في إنجاب المزيد من العاملين الجاهلين. لن يتمكن ثروكمورتن من تجريم ماري ستوارت، والدليل الوحيد الذي سيكون ضدها هو الرسائل التي يحملها رولو في يده.

عصر الأوراق في يده ثم رماها في النار المتأججة بالسنة لهبٍ أصفر.
ركض الرجل الثالث باتجاهه.

بقي رولو في مكانه لبضع ثوانٍ حتى يتأكد من أن الأوراق قد احترقت واسودت وبدأت تتحول إلى رماد.

عندما تأكد من أن الدليل قد دُمّر قام رولو بحركة مفاجئة فقد ركض باتجاه الرجل الذي يركض نحوه ودفعه بعنف مما أدى إلى سقوطه، ومن ثم هرب.

قطع رولو الفناء الذي ينتهي عند شاطئ موحل على نهر التايمز، وتابع الركض على طول الرصيف المائي.

في ربيع عام 1584 ذهب بيير لمشاهدة ماركيزة نيم تُطرد من منزلها. لقد نجا زوجها الماركيز من تهمة اعتناق البروتستانتية لِعقود من الزمن، ولكن بيير كان صبوراً. واستمر منزلهاما الريفي في ضاحية سان جاك مركزاً للنشاطات المهرطقة حتى بعد الإغارة العظيمة التي قام بها بيير في عام 1559 واعتقال الأبرشية بأكملها. ولكن باريس الآن في عام 1584، تحت سيطرة مجموعة غير رسمية تدعى الحلف الكاثوليكي الذي كرس نفسه للقضاء على البروتستانتية. وتمكن بيير من إيصال ماركيز نيم إلى المحكمة العليا التي تدعى «برلمان باريس»، ولعب دوراً في صدور حكم إعدام بحقه.

لم يكن بيير مهتماً بالماركيز العجوز بل بالماركيزة لويز التي أصبحت الآن أرملة وهي في الأربعين من عمرها. وكحال جميع من يُتهمون بالهرطقة تمت مصادرة جميع ممتلكات الماركيز وأصبحت الماركيزة لويز الآن فقيرة. كان بيير قد انتظر قدوم هذه اللحظة خمسة وعشرين عاماً.

وصل بيير إلى منزل الماركيز نيم ورأى الماركيزة تواجه حاجب المحكمة في ردهة الاستقبال. ووقف بين رجال حاجب المحكمة ولذلك لم تلاحظه الماركيزة.

وقفت الماركيزة وسط علائم الثروة التي فقدتها للتو؛ لوحات زيتية لمشاهد ريفية معلقة على الجدران المكسوة بألواح خشبية، وكراسي بنقوش لامعة وصقيلة، وأرضيات رخامية وثيريات متدلية من السقف. كانت لويز في فستان حريري أخضر بدا كأنه يطفو حول وركيها العظيمين. عندما كانت في شبابه حدق جميع الرجال إلى صدرها الكبير الذي ما يزال كبيراً حتى الآن. «كيف تجرؤ؟» قالت لحاجب المحكمة بصوتٍ آمر. «لا يمكنك أن تجبر امرأة نبيلة على ترك منزلها».

من الواضح أن حاجب المحكمة قد قام بهذا العمل من قبل، ولهذا تحدث بتهديب ولكن بإصرار: «سيدتي أنصحك بالمغادرة بكل هدوء. إن لم تفعلي فسيتم حملك وسيكون هذا مهيناً لك».

اقتربت الماركيزة من الحاجب وأعدت كتفيها إلى الوراء حتى يبرز صدرها ثم قالت: «أنصحك بالعودة إلى رشدك»، وتابعت في صوتٍ أكثر ودية: «فلتعد خلال أسبوع عندما أكون قد انتهيت من كل الترتيبات اللازمة». «لقد منحتك المحكمة كل الوقت اللازم يا سيدتي، وهذا الوقت قد انتهى الآن».

وعندما فشلت في استخدام تعاليها وسحرها في هذا الموقف سمحت لنفسها بأن تبدو يائسة وقالت وهي تنتحب: «لا يمكنني أن أترك منزلي فليس لدي مكان آخر أذهب إليه. ولا يمكنني أن أستأجر غرفةً فأنا لا أملك مالاً. والداي توفيا ولا يريد أي أحد من أصدقائي مساعدتي خوفاً من أن يُتهموا بالهرطقة».

أمعن بيير النظر إليها وهو يستمتع بالدموع على وجهها وبرنة الخوف في صوتها. كانت الماركيزة نفسها التي تحدثت بفوقية مع بيير منذ خمسة

وعشرين عاماً عندما قدمته سيلفي بفخرٍ إليها وقام بيير بإطراء لم يعجبها. لقد قالت له آنذاك: «حتى في منطقة شامبانيا يعلمون الشباب احترام من هم أعلى مقاماً منهم»، ثم أدارت ظهرها له في احتقار، وما زال بيير يرتعش من الغضب في كل مرة يتذكر فيها ما حدث.

كان بيير يستمتع بانقلاب الأدوار الآن. لقد تم تعيينه مؤخراً رئيساً لدير هولبي تري الذي يمتلك آلاف الفدادين من الأراضي في شامبانيا. استولى على عائدات الدير، وترك الرهبان ليعيشوا في فقرٍ نذروا أنفسهم له. كان غنياً وقوياً الآن ولويز فقيرة وعديمة الحيلة.

«إن الطقس دافئ، ويمكنك أن تنامي في الغابة، وإن أمطرت يمكنك اللجوء إلى دير سانت ماري مادلاين في شارع دي لا كروا الذي يستقبل النساء المشرذات»، قال لها حاجب المحكمة.

بدأت لويز مصعوقة بحق وقالت: «تعيش العاهرات في ذلك المكان». هزّ حاجب المحكمة كتفيه بلا مبالاة. بدأت لويز تبكي وأرخت كتفيها، وغطت وجهها بيديها، وارتفع صدرها وانخفض وهي تشهق.

أثار كربها احتياج بيير، وفي تلك اللحظة تقدم لينقذها. خرج بيير من بين رجال المجموعة قرب الباب، ووقف بين الحاجب والماركيزة.

«هدئي نفسك يا سيدتي»، قال بيير. «لن تسمح عائلة غيز لامرأة نبيلة بأن تنام في الغابة».

أنزلت يديها من على وجهها ونظرت إليه من بين دموعها ثم قالت: «بيير أوموند. هل عدت لتهزأ بي».

وقرر بيير أنها ستلقى معاناة أكبر لأنها لم تقل بيير أوموند دي غيز: «أنا هنا لمساعدتك. إن كنت مهتمة بمرافقتي فسأخذك إلى مكان آمن».

بقيت لويز في مكانها وقالت: «إلى أين؟». «توجد شقة بإيجار مدفوع وخادمة في حي هادئ. الشقة غير باذخة ولكنها مريحة. تعالي معي وعائنيها. أنا واثق من أنها ستكون مناسبة لك، مؤقتاً على الأقل».

بدا واضحاً أنها لم تكن واثقة من أنها تريد تصديقه أم لا، فعائلة غيز تكره البروتستانتيين، فلماذا ستساعدهم الآن؟ ولكن بعد مرور وقتٍ طويل من التردد أدركت أنها لا تملك خياراً آخرأ وقالت: «سأوضب بعض المتاع في حقيبة». «لا تضعي أيّ جواهر، لأنني سأفتش الحقيبة قبل أن تغادري»، قال لها الحاجب.

لم تُجب الحاجب بل استدارت إلى الداخل مغادرة ردهة الاستقبال برأسٍ مرفوع. لم يكن بيير قادراً على التحكم بصبره حتى تصبح هذه المرأة تحت سيطرته.

لم تكن الماركيزة نسيبة لعائلة غيز بل كانت العدو في حربهم الدينية، ولكن في عقل بيير كان هو ولويس متشابهين. لقد استغلته عائلة غيز كمستشار ورجل مكائد، ولكنهم حتى الآن يحتقرونه اجتماعياً. كان خادمهم الأقوى والأهم إلا أنه بقي خادماً في نظرهم. كان يُدعى إلى مجالس الحروب دوماً، ولكن لم تتم دعوته أبداً إلى عشاء عائلي. لم يكن بوسعه الانتقام على رفضهم له إلا أنه يستطيع الانتقام من لويز.

عادت لويز تحمل حقيبة جلدية ممتلئة. وكما وعدھا الحاجب قام بفتح الحقيبة وأخرج كل شيء منها. كانت قد وضبت ثياباً داخلية حريرية جميلة مطرزة ومزينة بالشرائط. وعندما رأى بيير هذه الثياب أخذ يفكر بالثياب الداخلية التي كانت ترتديها اليوم تحت ثوبها الأخضر.

ناولت لويز حقيبتها إلى بيير بعجرفة واضحة وكأنه خادمها. لم يحاول أن يفهمها أنها أهانته بفعلتها هذه لأنه سيفعل هذا في الوقت المناسب.

قادها خارج المنزل حيث ينتظره بيرون وبروكار مع الأحصنة. كانوا قد أحضروا حصاناً إضافياً للماركيزة. ركبوا جميعاً وغادروا ملكية نيم ثم دخلوا باريس من بوابة سان جاك وقطعوا الشارع الذي يحمل اسم البوابة باتجاه بيت بوينت، ثم عبروا جزيرة إيل دو لا سیتیة وتابعوا الطريق إلى منزل متواضع بعيد عن قصر عائلة غيز. صرف بيير بيرون وبروكار، وأخبرهما بأن يعيدا الأحصنة إلى القصر ثم رافق لويز إلى الداخل.

«إن الشقة في الطابق العلوي لك»، قال لها.

«من يعيش هنا أيضاً؟» قالت لويز بقلق.

أجابها بيير بصدق: «هناك مستأجر في كل طابق، وجميعهم قاموا بأعمال لمصلحة عائلة غيز في الماضي: معلم متقاعد أو خياط ببصر ضعيف أو امرأة إسبانية تترجم للعائلة أحياناً. جميعهم أناس محترمون... ولا يرغبون بالمخاطرة في خسارة مكانهم بإزعاج بيير.

بدأت لويز مطمئنة بعض الشيء.

صعدا الدرج وكانت لويز تلهث عندما وصلا إلى الطابق العلوي.

«إن هذا الدرج سيُعبني»، قالت متذمرة.

كان بيير مسروراً فهذا يعني أنها قبلت العيش هنا.

فتحت خادمة الباب وانحنت لهما باحترام. عرض بيير على لويز غرفة الجلوس والمطبخ وحجرة الغسيل وأخيراً غرفة النوم. كانت لويز سعيدة ومتفاجئة. لقد قال لها بيير إن المكان لم يكن مترفاً، ولكنه في الحقيقة قام بتأثيث الشقة الصغيرة ببذخ فقد كان يخطط لقضاء الوقت هنا.

بدأت لويز مرتبكة بشكل واضح؛ لأنه وبالنسبة إلى شخص تعتبره عدواً كان بيير يتصرف بسخاء. ورأى بيير في هذا الارتباك على وجهها إشارة جيدة. أغلق بيير باب الغرفة خلفه وعندما بدأت لويز تفهم الأمر.

«أتذكر كيف كنت أهدق بهما»، قال بيير ووضع يديه على ثديها.

تراجعت لويز إلى الوراء وقالت في احتقار: «هل تتوقع مني أن أصبح عشيقتك؟».

ابتسم بيير وقال: «أنتِ عشيقتي». قال هذا وقد شعر بالغبطة من هذه الكلمات التي تفوه بها للتو. «اخلعي ثوبك».

«لا».

«سأمزقه إذا».

«سأصرخ».

«هيا اصرخي. إن الخادمة تتوقع صراخك». ودفعها دفعة قوية أوقعتها على السرير.

«أرجوك لا»، قالت له.

«أنتِ لا تتذكرين»، قال بيير مكشراً عن أسنانه. «أنتِ قُلْتِ: حتى في منطقة شامبانيا يعلمون الشباب احترام من هم أرفع مكانة منهم. هذا ما قُلْتِه لي منذ خمسة وعشرين عاماً».

حدقت إليه مرتعبة وغير مصدقة: «ولهذا السبب أنتِ تعاقبني بهذه الطريقة؟». «افتحي ساقيك»، قال لها وتابع: «إن العقاب قد بدأ للتو».

غادر بيير الشقة متوجهاً إلى قصر عائلة غيز وهو يختبر ذلك الشعور بالثخمة والقليل من التقزز الذي يشعر به عادة بعد وليمة دسمة. لطالما أحب رؤية أرسطوقراطي يُهان، ولكن ما حدث كان أكبر مما توقع. سيعود بالطبع ولكن ليس قبل مرور بضعة أيام، فالماركيزة أشبه بطعامٍ دسم سيحتاج بعض الوقت لهضمه.

عندما وصل إلى المنزل وجد رولو فيتزجيرالد، الرجل الإنكليزي الذي يلقب نفسه بجان لانغليه، بانتظاره في غرفة جلوس جناحه.

اغتاظ بيير، فقد أراد أن يكون وحده لبعض الوقت حتى يستوعب ما قام به للتو، ويُهدئ من روع أفكاره المضطربة مجدداً، ولكن بدلاً من هذا فهو مضطر للعمل على الفور.

كان رولو يحمل حقيبة قماشية وعندما فتحها أخرج مجموعة من الخرائط ثم قال: «لدي خريطة لكل مرفأ على السواحل الجنوبية والشرقية لإنكلترا»، قال هذا باعتزاز ثم وضع الخرائط على طاولة بيير.

تفحص بيير الخرائط واكتشف أنها مرسومة بأكثر من يد، وكان بعضها مرسوماً بفتية أكبر من غيرها، إلا أنها جميعها واضحة بشكلٍ مثير للإعجاب وتبرز بدقة أمكنة رسو السفن والأرصفة البحرية والمياه الضحلة.

«إنها جيدة»، قال بيير ثم تابع: «رغم أنها وصلت متأخرة».

«أعلم وأنا آسف»، قال رولو. «ولكن اعتقال ثروكمورتن أخرنا».

«ما الذي حدث له».

«أدين بتهمة الخيانة وحُكِم عليه بالموت».

«شهيد آخر».

«أرجو ألا يذهب موته هباءً»، قال رولو بحدة.

«ما الذي تعنيه».

«هل ما زال الدوق غيز مزماً على غزو إنكلترا».

«بالطبع. ما زال يريد كمعظم القادة الأوروبيين المُهمين، أن يضع ماري ستوارت على العرش الإنكليزي».

«هذا جيد. لقد عزز سجانو ماري مستوى الحراسة عليها، ولكنني سأجد طريقة لفتح قناة للتواصل معها».

«حتى تتمكن من التخطيط للغزو في عام 1585».

«بالطبع».

دخل آلان إلى الغرفة وقال: «وصلتنا أخبار من بيكاديلي. لقد توفي هيركول فرانسيس».

«يا إلهي!» قال بيير. كان هيركول فرانسيس أصغر أبناء الملك هنري والملكة كاترينا. «هذه كارثة»، قال بيير لرولو. «إنه وريث العرش».

عبس رولو وقال: «ولكن الملك هنري الثالث لا يعاني من خطب. لماذا أنت قلق على وريثه؟».

«ورث الأخ الثالث هنري العرش عن أخويه اللذين ماتا شابين ومن دون أولاد، ولهذا قد ينتهي الأمر بهنري مثلهما».

«بما أن هيركول فرانسيس قد توفي من سيكون وريث العرش؟».

«وهنا الكارثة. إنه ملك نافار وهو بروتستانتي».

«ولكن لا يُمكن لملك بروتستانتي أن يحكم فرنسا»، قال رولو بسخطٍ.

«بالطبع لا يمكن أن يحدث هذا». كان ملك نافار أحد أفراد عائلة بوربون التي تعتبرها عائلة غيز ألد وأقدم أعدائها، وهذا سبب آخر قوي لإبعاده عن العرش. «يجب أن نفتح الباب بإسقاط مطالبة ملك نافار بالعرش». كان بيير يفكر بصوت عالٍ. سيدعو الدوق هنري إلى مجلس حربي قبل نهاية هذا اليوم، ويجب أن تكون لديه خطة جاهزة.

«ستندلع الحرب الأهلية مجدداً، وسيقود الدوق غيز القوات الكاثوليكية. يجب أن أذهب لمقابلة الدوق الآن»، قال بيير ونهض.

أشار رولو إلى الخرائط وقال: «وماذا عن غزو إنكلترا؟».

«يُمكن لإنكلترا أن تنتظر»، قال بيير.

الفصل الرابع والعشرون

في اليوم الذي أتمت فيه ماري عامها الثالث والأربعين خرجت أليسون معها لركوب الأحصنة. كان الجو صباحاً بارداً جداً وخرج زفيرهما كسحبٍ ضبابية، وشعرت أليسون بالامتنان على دفء جسد حصانها الصغير غارسون تحتها. رافقتها كتيبة من الجنود، فقد كان ممنوعاً على ماري وحاشيتها التحدث إلى أي شخص خارج هذه الكتيبة، حتى وإن عرض طفل تفاحة على الملكة فسيسارع جندي إلى أخذها منه.

كان السير أمياس بوليت سجانهم الجديد، وهو بيورتاني متشدد جداً لدرجة يبدو معها ويلزنهايم فاسقاً مقارنة به. كان بوليت أول رجل تلتقيه أليسون ولا يتأثر بسحر ماري، فعندما كانت ماري تلامس ذراعه أو تبتسم له بطريقة ساحرة، أو تتحدث بخفة عن أمور كالقُبَل أو الأثداء أو الأسرّة، يحدق بوليت نحوها وكأنها مجنونة من دون أن يدلي بأي رد.

لم يتردد بوليت في قراءة رسائل ماري، وسلّمها الرسائل مفتوحةً بعد قراءتها ومن دون اعتذار. كان بوسعها أن تكتب إلى أقاربها وأصدقائها في فرنسا وإسكتلندا ولكن في ظل هذه الشروط لم يكن بوسعها قول أي شيء عن غزو إنكلترا وتحريرها من سجنها، أو إعدام إليزابيث ووضعها على العرش.

أثناء الجولة على الأحصنة شعرت أليسون بالنشاط، ولكن عندما استداروا عائدين إلى المنزل عاودها ذلك الاكتئاب المألوف. كان هذا عيد الميلاد العشرين على التوالي الذي تقضيه ماري في السجن، وأليسون التي تبلغ الآن الخامسة والأربعين، قد قضت كل أعْياد الميلاد تلك مع ماري على أمل أن يكون كل منها آخر عيد ميلاد لهما في الأسر. كانت أليسون تشعر

بأنهما قضتا حياتهما في الانتظار وعلى الأمل. وبدا أن وقتاً طويلاً قد مر على تلك الفترة التي كانتا فيها أكثر فتاتين أناقة في باريس.

كان ابن ماري وملك إسكتلندا في الواحدة والعشرين الآن، ولم تره ماري منذ عشرين عاماً. لم يُبَدِ جيمس أي اهتمام بوالدته ولم يفعل شيئاً لمساعدتها فما من دافع قد يدفعه للقيام بهذا فهو لا يعرفها. كانت ماري غاضبة جداً من إليزابيث لأنها حرمتها من رؤية ابنها الوحيد إلى الأبد.

اقتربت ماري وأليسون من الوصول إلى المكان الذي كانتا مسجونتين فيه حالياً. وباستثناء الخندق والأسوار فإن قصر تشارتلي أقرب إلى منزل منه إلى قلعة. كان أشبه بقصر مكسوٍ بألواح خشبية على الجدران في الداخل والعديد من المدافع الجميلة وصفوف النوافذ التي أنارت المكان بقوة من الداخل. لم يكن المكان كبيراً كفاية لحاشية ماري بالإضافة إلى عائلة بوليت، ولهذا كان على الجنود أن يعيشوا في بيوت بجوار القصر. رغم أن ماري وأليسون لم تكونا محاصرتين بالجنود طوال الوقت، فإن المكان بقي سجنًا بالنسبة إليهما.

عبروا الجسر فوق الخندق ودخلوا الفناء الواسع، واستقروا بالقرب من البئر في الوسط. ترجلت أليسون عن جوادها وتركت غارسون يشرب من التربة المخصصة للخيل. توقفت في الفناء عربة براميل جعة، وأخذ رجال ينزلون البراميل منها إلى جناح الملكة عبر مدخل المطبخ. لاحظت أليسون وجود حشد من الخادmates بالقرب من الباب الرئيسي. وقفت الليدي مارغريت بوليت مع بعض الخادmates حول رجل بمعطف سفرٍ متسخ. كانت الليدي مارغريت أكثر لطفاً من زوجها. وقطعت أليسون الفناء نحوهن لتفهم ما الخطب.

وسط الحشد الصغير وقف رجل مع حقيبة سفرٍ ممتلئة بالشرائط والأزرار والمجوهرات الرخيصة. لحقت ماري بأليسون ووقفت وراءها. كانت النساء يتفحصن البضائع المعروضة للبيع ويسألن عن سعرها، ويتحدثن بحيوية عن الأشياء التي لاقت إعجابهن. قالت إحداهن بمكرٍ: «هل لديك خلطة للحب؟».

كان سؤالاً مغتاجاً. في العادة كان الباعة المتجولون ماهرين في فتن

زبائنهم من النساء، لكن هذا البائع بدا محرراً، وتمتم بشيء عن أن الشرائط أفضل من الخلطات.

ظهر السير أمياس بوليت من الباب الأمامي، وتقدم نحو الحشد ليستقصي الأمر. ففي الخمسين من العمر كان بوليت رجلاً أصلع بالكامل باستثناء غرة رمادية وشارب كث ضارب للحمرة.

«ما هذا؟» قال بوليت.

بدت الليدي مارغريت وكأنه أمسك بها وهي تقترف ذنباً: «أوه، لا شيء». «إن الليدي مارغريت غير مهتمة بأغراضك المبهرجة»، قال بوليت للرجل. ابتعدت مارغريت ووصيفاتها على مضض، ثم أضاف بوليت بازدراء: «فلتعرضها على الملكة الإسكتلندية، فهي تحب هذه الأشياء التافهة».

تجاهلت ماري ونساء حاشيتها هذه الملاحظة الوقحة التي لم تكن بالأمر الغريب على بوليت. كانت وصيفات ماري يتقن إلى حصول هذا، ولهذا عندما ابتعدت وصيفات الليدي مارغريت عن البائع احتشدن حوله. وهنا نظرت أليسون عن كئيب إلى الرجل، وكبحت شهقة صدمة عندما عرفت. كان شعره خفيفاً ولحيته حمراء داكنة وكثيفة. إنه الرجل نفسه الذي تحدث معها في قلعة شيفيلد والمدعو جان لانغليه.

نظرت أليسون إلى ماري وتذكرت أن الملكة لم تره قط، فهو لم يتحدث إلا إلى أليسون. شعرت برعشة من الأمل والحماس، لا بد أنه أتى إلى هنا ليتحدث إليها مجدداً.

علاوة على هذا شعرت بالحماس عندما تذكرت تلك الرغبة الصغيرة التي انتابتها، فمذ لقائهما في الحديقة أخذت تحلم بأنهما متزوجان وأنهما أهم زوجين في البلاط الملكي عندما تصبح ماري ملكة إنكلترا. علمت أنه من السخف أن تراودها مثل هذه الأفكار عن رجل قابلته للتو، ولكن ربما يحق للسجناء أن يحلموا أحلاماً سخيفة.

كان عليها أن تبعد لانغليه عن الفناء المفتوح أمام جميع الناس إلى مكان يمكنه أن يتخلى فيه عن تنكره كبائع متجول ويتحدث بصراحة.

«أشعر بالبرد»، قالت أليسون. «فلندخل إلى المنزل».

«ما زلت أشعر بالدفء بعد جولة ركوب الحصان»، قالت ماري.
«من فضلك يا سيدتي تذكري أن صدرك ضعيف ولهذا يجب أن تدخلني». بدت ماري كأنها أهينت من جرأة أليسون وإصرارها، إلا أنها شعرت بأن صوت أليسون لجوج بعض الشيء ولذلك رفعت أحد حاجبيها في استغراب، وأخيراً نظرت بشكل مباشر إلى أليسون، وتلقت الرسالة التي في عيني أليسون الواسعتين ثم قالت: «بالنظر إلى الأمر مجدداً، أعتقد أنه علينا الدخول». أخذوا لانغليه مباشرة إلى غرفة ماري الخاصة، وصرفت أليسون جميع الوصيفات، ثم قالت بالفرنسية: «يا جلالة الملكة هذا جان لانغليه، رسول الدوق غيز».

بدا الاهتمام واضحاً على ماري وسألت بحماس: «ما هي رسالة الدوق إلي؟».

«أن الأزمة قد انتهت»، قال لانغليه بالفرنسية ولكن بلكنة إنكليزية. «تم التوقيع على معاهدة نيمور، وعادت البروتستانتية غير قانونية في فرنسا مجدداً».

لوحث ماري بيدها في دلالة على نفاذ صبرها: «هذه أخبار قديمة». لم يلق لانغليه بالآ إلى نفاذ صبر الملكة، وتابع كلامه برباطة جأش: «تعد المعاهدة انتصاراً للكنيسة ولدوق غيز ولبقية أفراد عائلتك الفرنسية يا جلالة الملكة».

«أجل، أعلم هذا».

«وهذا يعني أن نسيبك الدوق هنري يستطيع الآن أن يعاود العمل على الخطة التي يعمل عليها منذ وقتٍ طويل وهي إعادة حقك الشرعي وبأن تكون جلاتك ملكة إنكلترا».

ترددت أليسون بالشعور بالفرح لدى سماعها بهذا، فلطالما شعرت بفرح سابق لأوانه، ولكن رغم هذا خفق قلبها أملاً، ورأت وجه ماري يُشرق.

تابع لانغليه كلامه: «وأكرر مجدداً أن مهمتنا الأولى هي إنشاء قناة للتواصل بين الدوق وبين جلاتك. وقد عثرت على فتى كاثوليكي صالح سيعمل على حمل الرسائل، ولكن يجب أن يكون لدينا طريقة لإدخال وإخراج الرسائل من المنزل من دون أن يقرأها بوليت».

«لقد قمنا بهذا من قبل ولكن الأمور تزداد صعوبة في كل مرة. لا يمكننا أن نستعين بالفتيات المسؤولات عن الغسيل بعد الآن، فقد اكتشف ويلزنهايم أمرنا»، قالت أليسون.

أوما لانغليه برأسه وقال: «وربما أفشى ثروكمورتن بالسر قبل أن يموت». صُغقت أليسون من البرودة التي تحدث بها لانغليه عن استشهاد السير فرانسيس ثروكمورتن، وتساءلت في نفسها عن عدد المتآمرين الآخرين مع لانغليه الذين تعرضوا للتعذيب والإعدام.

نفضت أليسون هذه الفكرة من رأسها وقالت: «على أي حال، لا يسمح لنا بوليت بإرسال غسيلنا خارجاً، وعلى خدم الملكة أن يغسلوا الثياب في الخندق».

«يجب أن تفكروا بطريقة أخرى»، قال لانغليه.

«لا يُسمح لأحد في حاشيتنا بأي تواصل غير مراقب مع العالم الخارجي»، قالت أليسون بتجاهم. «تفاجأت حقاً بأن بوليت لم يطرده خارج القصر».

«انتبهت إلى براميل الجعة التي أدخلت إلى هنا».

«آه»، قالت أليسون. «هذه فكرة. أنت سريع البديهة».

«من أين تأتي؟».

«من نزل لايون هيد وهو أقرب نزل إلى البلدة».

«هل يفتشها بوليت؟».

«يفتش الجعة؟ لا».

«جيد».

«ولكن كيف يمكننا وضع الرسائل في الجعة؟ سيتبلل الورق ويزول الحبر...».

«يمكننا أن نضع الأوراق في زجاجات محكمة الإغلاق».

هزّت أليسون رأسها ببطء وقالت: «ويمكننا أن نقوم بالمثل مع رسائل

الملكة».

«يمكنك أن تضعي رسائل الجواب في الزجاجات نفسها، وتعيدي

إحكامها باستخدام الشمع».

«ولكن الزجاجات ستتحرك داخل البراميل الفارغة، وقد يحاولون

تقصي مصدر الضجة».

«يمكنك أن تفكري بطريقة لمنع هذا. قومي بملء البراميل بالقش، أو فلتلفي الزجاجات بالخرق وتثبيتها إلى جدار البرميل الداخلي لمنعها من التحرك».

بدأت أليسون تشعر بحماس أكبر وقالت: «سنفكر في طريقة لحل الأمر، ولكن علينا أولاً أن نُقنع صاحب الحانة بالتعاون معنا».

«أجل»، قال لانغليه. «سأتكفل أنا بهذا الأمر».

كان مظهر غيلبرت غيفورد يوحي بالبراءة ولكن نيد وويلارد رأى أن هذه البراءة خادعة. بدا الرجل أصغر من أن يكون في الرابعة والعشرين فلم يكن هناك على وجهه سوى شعيرات متناثرة مكان اللحية والشارب، ويبدو أنه لم يحاول الحلاقة قط. ولكن آلان دي غيز أخبر سيلفي في رسالة وصلت عبر السفارة الإنكليزية في باريس أن غيفورد التقى ببيير أوموند في باريس مؤخراً. وبرأي نيد كان غيفورد عميلاً خطيراً لأعداء الملكة إليزابيث.

لكن على الرغم من مخاوف نيد كان غيفورد يتصرف بسذاجة. في كانون الأول/ ديسمبر من عام 1585، عبر غيفورد القناة من فرنسا ونزل في بلدة راي الصغيرة. لم يكن يحمل التصريح الملكي الذي يجب أن يحمله أي مسافر إنكليزي إلى الخارج، ولهذا قام غيفورد برشوة ضابط المرفأ. فيما مضى كان يمكن أن ينجو بفعلةته ولكن الزمن تغير. نظرياً يُمكن أن يواجه أي موظف رسمي في المرفأ عقوبة الإعدام على السماح لشخصٍ مثير للريبة بالدخول إلى البلد، ولذلك قام ضابط المرفأ باعتقال غيفورد، وطلب نيد إرساله إلى لندن للتحقيق معه.

بدا نيد محتاراً جداً أمام هذه المعضلة عندما كان هو وويلزنهايم، يحققان مع غيفورد من وراء طاولة كتابة في منزل ويلزنهايم في سيدينغ لاين.

«ما الذي دفعك إلى الاعتقاد بأنك تستطيع النجاة بفعلةتك؟» سأل ويلزنهايم. «إن والدك كاثوليكي سيئ السمعة، والملكة إليزابيث تساهلت معه جداً، بل وقامت بتعيينه شريفاً لمقاطعة ستافوردشاير إلا أنه رفض حضور المراسم الكنسية حتى أثناء تواجد الملكة في كنيسة مقاطعته».

بالنسبة إلى شخص يواجه محققاً مسؤولاً عن إعدام الكثير من

الكاثوليكيين لم يبد على غيفورد التوتر الشديد، وتكهن نيد أن الفتى لا يدرك هول الورطة التي أوقع نفسه فيها.

«بالطبع كنت أعرف أنني أقترف خطأ بمغادرة إنكلترا من دون تصريح»، قال غيفورد بلهجة شخص يعترف باقتراه هفوة. «أرجو منك ألا تنسى أنني كنت في التاسعة من العمر في ذلك الوقت». ابتسم ابتسامة مأكرة وتابع: «ألم تقم بأشياء خرقاء في شبابك يا سير فرانسيس».

لم يبادل ويلزنهام الابتسامة بل أجاب بلا مبالاة: «لا، لم أفعل».

كاد نيد يضحك فقد اعتقد أن ويلزنهام صادق فيما قال.

«لماذا عدت إلى إنكلترا؟ ما هدف رحلتك؟» سأل نيد.

«لم أرَ والدي منذ خمس سنوات».

«ولكن لماذا الآن؟» ألح نيد في سؤاله. «وليس العام الماضي أو القادم».

هزّ غيفورد كتفيه بلا مبالاة وقال: «بدا لي أن هذا الوقت مناسب كأى

وقتٍ آخر».

غير نيد مسار الاستجواب وسأله: «أين كنت تخطط للمبيت في لندن لو

لم نسجنك في البرج؟».

«في نزل بلاوه».

يقع نزل بلاوه بعد مدخل تيمبل بار غرب المدينة ويزوره الكاثوليكيون

كثيراً. كان رئيس النزل هناك أحد جواسيس ويلزنهام الذي يقدم له تقارير

موثوقة بالداخلين والخارجين إلى النزل.

«وإلى أين ستسافر أيضاً داخل إنكلترا؟» قال نيد.

«إلى تشيلنغتون هول حتماً».

كانت تشيلنغتون هول موطن والد غيفورد في ستافوردشاير، وتبعد مسير

نصف يوم على الحصان عن تشارتلي حيث تقبع ماري ستوارت سجيناً

حالياً. يا لها من مصادفة! إلا أن نيد لم يكن يؤمن بالمصادفات.

«متى رأيت الكاهن جان لانغليه آخر مرة».

لم يُجب غيفورد.

منحه نيد وقتاً ليجيب، فقد كان يتوق جداً لمعرفة المزيد عن تلك

الشخصية الغامضة. رأت سيلفي لانغليه بشكلٍ سريع في باريس عام 1572،

وعلمت وقتها أنه إنكليزي. وفي السنوات اللاحقة رأتها نات وآلان أيضاً بضع مرات، ووصفوه بأنه رجل أطول من المتوسط بلحية حمراء داكنة وشعرٍ خفيف ويتحدث الفرنسية بطلاقة ولكن بلكنة إنكليزية واضحة. وأفشى كاهنان سريان كان نيد قد حقق معهما بأن المدعو جان لانغليه هو من نظم دخولهما السريّ إلى إنكلترا. هذا كان كل ما عرفه نيد، فلا أحد يعرف اسمه الحقيقي ولا مسقط رأسه في إنكلترا.

«إذا؟» قال نيد.

«أنا أفكر، ولكنني لست واثقاً من أنني أعرف رجلاً بهذا الاسم.»

«أعتقد أنني سمعت ما يكفي»، قال ويلزنهايم.

توجه نيد إلى الباب واستدعى كبير الخدم: «خذ السيد غيفورد إلى غرفة الجلوس وابق معه من فضلك.»

بعد أن غادر غيفورد قال ويلزنهايم: «ما رأيك؟»

«إنه يكذب»، أجاب نيد.

«أوافقك الرأي. أرسل تحذيراً لجماعتنا في تشارتلي ليقوا حذرين منه.»

«جيد جداً»، قال نيد. «وربما يكون الوقت قد حان لأزور تشارتلي.»

خلال الأسبوع الذي قضاه نيد ويلارد في قصر تشارتلي اكتشفت أليسون أنه رجل لطيف جداً. كان نيد في الأربعين من عمره الآن وهو مهذب وساحر حتى عندما كان يقوم بأفطع الأمور. تفقد جميع أرجاء المكان واطلع على كل شيء. وفي الصباح عندما كانت أليسون تنظر من النافذة تراه في الفناء جالساً بقرب البئر يتناول الخبز ويراقب المكان بعينين لا يفوتهما شيء. لم يكن يقرع الأبواب بل يدخل إلى غرف نوم الجميع، رجالاً ونساءً، وهو يقول بكل تهذيب: «أمل أنني لا أسبب لكم الإزعاج». وإن أجابه أحد بأنه كان مزعجاً فسيقول معتذراً: «سأغادر على الفور.» إلا أنه كان يطيل البقاء بأي حال، وإن جلس أحد لكتابة رسالة فسيقف وراءه ويقرأ ما يكتبه. كان يقاطع الملكة ماري ومرافقها أثناء الوجبات ويصغي إلى أحاديثهم. ولم يكن يتحدث بالفرنسية مجدداً لأنه يتحدث الفرنسية بطلاقة. وإن أبدى أحد أي احتجاج فسيقول له نيد: «آسف، ولكن كما تعلم لا يحق للسجناء بأيّ

خصوصية». وقالت جميع النساء عنه إنه لطيف جداً، واعترفت إحداهن بأنها تسير في غرفتها عارية على أمل أن يدخل نيد إلى الغرفة ويراهن.

كان إصراره على التدقيق في كل شيء أمراً باعثاً على الإحباط بشكل خاص، لأن ماري في الأسابيع الماضية قد بدأت تتلقى رسائل في براميل من نزل لا يون هيد في بورتن، ويبدو أن أكواماً هائلة من المراسلات السرية المتأخرة قد تجمعت في السفارة الفرنسية في لندن منذ اعتقال ثروكمورتن من أكثر من عام. وقامت ماري وسكرتيرها الدائم كلود نو بالعمل على هذا السيل من البريد يوماً بعد يوم وعلى تجديد أو اصر علاقات ماري مع أنصارها الأقوياء في إسكتلندا وفرنسا وإسبانيا وروما. كان عملاً مهماً فآليسون وماري تعرفان حق المعرفة أن الناس ينسون البطل الذي يغيب عن الأنظار. وها هو كل بلاط في أوروبا يستقبل تذكيراً ملموساً بأن ماري ما تزال على قيد الحياة وتملك الإرادة والجهوزية للجلوس على عرشها الشرعي.

ولكن عندما وصل نيد وويلارد توقف كل هذا. لم يعد بالإمكان كتابة أي رسائل أو فك تشفيرها أصلاً، خوفاً من دخوله المفاجئ إلى الغرفة وافتضاح الدليل وهو في طور الكتابة. تم وضع العديد من الرسائل في قوارير، وأُحْكِمَ إغلاقها بالشمع ثم وضعت في براميل فارغة وجاهزة للتحميل على عربة باتجاه نزل لا يون هيد. تحدثت ماري وآليسون لوقتٍ طويل حيال ما يجب القيام به بخصوص هذا، وقررتا أنهما قد تثيران الشبهة إن فتحتا البراميل وأخذتا القوارير منها ولهذا تركتا البراميل في مكانها، لم تفتحها الرسائل فيها ولم تضعها رسائل جواب ماري بدلاً منها.

أخذت آليسون تصلي أن يغادرهم نيد قبل موعد تسليم الطلبة القادمة. إن الرجل المدعو جان لانغليه هو من اقترح إخفاء الرسائل في البراميل عندما رأى رجال نزل لا يون هيد يُفرغون الحمولة. هل يمكن أن تخطر لنيد الفكرة نفسها وبالسرعة نفسها أيضاً؟
إلا أن صلوات آليسون لم تلقَ أذناً صاغية.

كانت آليسون وماري واقفتين عند إحدى النوافذ تراقبان نيد في الفناء عندما وصلت العربة الثقيلة تحمل ثلاثة براميل سعة الواحد منها اثنان وثلاثون غالوناً. «فلتذهبي ولتحدثي معه»، حثتها ماري. «قومي بإلهائه».

هرعت أليسون إلى الخارج واقتربت من نيد ثم بادرت بالكلام بطريقة بدت عليها وكأنها ترغب بفتح حديث معه: «إذاً، أيها السير نيد، هل أنت راضي عن الإجراءات الأمنية للسير أمياس بوليت؟»
«إنه دقيق في عمله أكثر من الإيرل شروبيري».

أطلقت أليسون ضحكة رنانة وقالت: «لن أنسى كيف دخلت علينا في قلعة سيفيلد أثناء تناول الفطور. كنت أشبه بملاكٍ منتقم. كنت مرعباً».
ابتسم نيد، ورأت أليسون في ابتسامته إقراراً بعلمه بهذا. كان يعلم أنها تتودد إليه، ويبدو أنه لم يمانع هذا، ولكنها شعرت أنه لم يصدق توددها حقاً.
«كانت المرة الثالثة التي ألتقيك فيها، ولكنني لم أرك على تلك الحال من قبل. لماذا كنت غاضباً وقتها».

بقي نيد صامتاً لبعض الوقت فيما كان ينظر إلى الرجال وهم يُفرغون حمولة براميل الجعة من العربة ويقومون بدحرجتها باتجاه جناح ماري. كاد قلب أليسون يخرج من مكانه، فهذه البراميل تحوي على رسائل سرية دامغة من أعداء الملكة إليزابيث، ولم يكن على نيد سوى إيقاف الرجال بأسلوبه الصارم ولكن المهذب، ويطلب منهم فتح البراميل حتى يتفقد محتوياتها، وعندها ستكون اللعبة قد انتهت وسيعرض متأمر آخر إلى التعذيب والإعدام.

ولكن نيد لم يبارح مكانه، بل لم تختلف تعابير وجهه عما كانت عليه عندما وصلت حمولة الفحم. استدار نيد ونظر إلى أليسون ثم قال: «هل يمكنني أن أسألك سؤالاً؟»
«حسناً».

«لم أنت هنا؟»

«ما الذي تعنيه؟»

«إن ماري ستوارت هي السجينة ولست أنت؛ فأنت لا تهددين التاج الإنكليزي، ولا تطالين بالعرش، ولا تملكين أقارب نافذين في بلاط الملك الفرنسي، ولا تكتبين رسائل إلى البابا وملك إسبانيا. يمكنك أن تغادري قصر تشارتلي ولن يهتم أحد لأمرك. ما سبب بقائك هنا؟»

كانت أليسون تطرح على نفسها هذا السؤال أحياناً.

«أنا والملكة ماري معاً منذ كنا صغيرتين. ولأنني أكبرها قليلاً اعتدت على العناية بها. ومن ثم كبرت ماري وتحولت إلى شابة جميلة ومغرية، ووقعت نوعاً ما في حبها. عندما عدنا إلى إسكتلندا تزوجت ولكن زوجي توفي بعد حفل الزفاف بفترة قصيرة. ولذلك يبدو أن قدرتي هو خدمة الملكة ماري إلى الأبد».

«فهمت».

«حقاً؟».

ومن زاوية عينها رأت الرجال يخرجون بالبراميل الفارغة التي تحوي على زجاجات الرسائل السرية، ويحملون البراميل على العربة. مجدداً، كان كل ما على نيد فعله هو إعطاء الأوامر بفتح البراميل وعندها سيفتضح أمرهم، ولكن نيد لم يحاول التحدث إلى الرجال.

«فهمتك»، قال نيد لأليسون ثم تابع: «لأنني أشعر بنفس الشعور حيال الملكة إليزابيث، ولهذا السبب غضبت عندما اكتشفت أن الإيرل شروبير ييخذلها في عمله».

توجه الحمالون إلى المطبخ لتناول غدائهم قبل العودة إلى النزل. وها هي الأزمة قد انتهت، وتنفست أليسون الصعداء.

«لقد حان الوقت لأغادر المكان. يجب أن أعود إلى لندن. وداعاً أيها الليدي روس»، قال نيد.

لم تعرف أليسون أنه مغادر وقالت له: «وداعاً أيها السير نيد».

وتوجه نيد إلى المنزل.

عادت أليسون إلى جناح الملكة ماري، ومن وراء النافذة راقبت المرأتان كيف خرج نيد من المنزل وبحوزته جعبتين من المفترض أنهما تحويان على أشياءه الضرورية. تحدث إلى سائس خيل، وجلب له الأخير حصاناً.

غادر نيد المكان قبل أن ينتهي الحمالون من تناول طعامهم.

«إن هذا مدعاة للراحة»، قالت الملكة ماري. «الحمد لله».

«أجل»، قالت أليسون. «يبدو أننا نجونا بفلتتنا».

لم يغادر نيد إلى لندن بل توجه إلى بلدة بورتون وطلب غرفة في نزل لايون هيد.

بعد أن سلم حصانه إلى سائس هناك أفرغ حقايبه وأخذ يتفقد النزل. هناك بار له باب على الشارع، وكان مدخل النزل كبيراً بما يكفي لدخول العربات إلى الفناء حيث الإسطبلات من جهة وغرف النزلاء على الجهة الأخرى. في القسم الخلفي من النزل مصنع للجمعة وعبقت في الأجواء رائحة الخميرة. كان المكان ممتلئاً حيث اكتظت الحانة بالزبائن والمسافرين القادمين والخارجين، والعربات التي تدخل وتخرج باستمرار.

لاحظ نيد أن البراميل الفارغة التي تأتي على العربات توضع في زاوية حيث يقوم فتى بإزالة أعطيتها وتنظيفها من الداخل بالماء والفرشاة، ثم يقوم بتكويم البراميل جانباً حتى تجف.

كان مالك المكان رجلاً ضخماً ويبدو من بطنه الكبير أنه يشرب كثيراً من الجعة التي ينتجها. سمع نيد الرجال ينادونه باسم هال. كان الرجل يتحرك باستمرار بين مصنع الجعة والإسطل ويحث العاملين ويلقي عليهم الأوامر بصوت عالٍ.

عندما حفظ نيد مخطط المكان في ذهنه جلس على مقعد في الفناء مع زجاجة جعة كبيرة منتظراً. ولأن الفناء مكتظٌ بالناس لم يهتم أحد بأمره.

كان واثقاً من أن الرسائل تأتي وتخرج من قصر تشارتلي. نزل في القصر لمدة أسبوع وراقب كل ما يجري هناك، ولهذا لم يجد سوى هذا الاحتمال. فعندما وصل الرجال مع عربة الجعة قامت أليسون بمحاولة إلهائه. قد يكون اختيارها لذلك الوقت محض صدفة، ولكن نيد لا يؤمن بالصدف.

لم يتوقع نيد أن يصل الرجال من قصر تشارتلي بالسرعة التي وصل فيها فحصانه بكامل نشاطه فيما أحصنة العربة متعبة من رحلة الذهاب. وعند هبوط الظلام وصلت العربة ودخلت إلى فناء لايون هيد. بقي نيد في مكانه يراقب. ذهب أحد الرجال وعاد مع هال فيما انشغل بقية الرجال في حل أربطة الخيول، ومن ثم دحرجوا البراميل الفارغة إلى حيث يقف الفتى مع فرشاته.

كان الفتى يزيل أغطية البراميل باستخدام عتلة فيما راقبه هال وهو متكئ إلى الجدار ويبدو غير مبالي. ربما لم يكن مبالياً. لا بد أنه درس الموضوع، وفكر بأنه لو فتح البراميل سراً عن العاملين فقد يثير شكوكهم بأنه يقوم بجرم خطير، ولكن إن تظاهر بأنه غير مبالي فلن يشكوا بشيء.

عندما فتح الفتى الأغطية نظر هال داخل كل برميل. انحنى فوق أحدها ومدّ يده للدخول ثم أخرج ما يشبه زجاجتين ملفوفتين بالخُرق ومربوطتين بخيط.

وهنا تنهد نيد في رضا.

أوما هال إلى الفتى ثم عبر الفناء إلى مدخل لم يره نيد يدخل منه قبلاً. لحق به نيد على الفور.

يُفضي المدخل إلى مجموعة من الغرف، ويبدو أن صاحب النزل يسكن هناك. عبر نيد غرفة الجلوس إلى غرفة النوم. وقف هال عند خزانة مفتوحة ووضع الغرضين اللذين أخذهما من البرميل. ولدى سماعه وقع خطوات نيد على الأرضية الخشبية التفت بسرعة إلى الوراء وقال بغضب: «أخرج من هنا، هذا المكان خاص».

«أنت الآن على وشك أن تحصل على حكم بالإعدام»، قال نيد بهدوء. تغيرت تعابير هال على الفور وشحب لونه وفغر فاه في دهشة. بدا مصعوقاً ومرعوباً. كان التحول الذي أصاب هذا الرجل الضخم والهائج مفاجئاً، واستنتج نيد أن هال على عكس الفتاة المسكينة بيغ برادفورد، يعرف حق المعرفة الجريمة التي كان يرتكبها. وبعد فترة تردد طويلة قال بصوت خائف: «من أنت؟».

«أنا الرجل الوحيد في العالم الذي يمكنه أن ينقذك».

«الرحمة يا ربي».

«قد يرحمك إن ساعدتني».

«ما الذي علي القيام به؟».

«أخبرني عن الشخص الذي يأتي لأخذ الزجاجات القادمة من تشارتلي، ويحضر لك زجاجات جديدة إلى هنا».

«لا أعرف اسمه... أقسم لك أنني لا أعرف».

«متى سيأتي إلى هنا».

«لا أعلم... إنه لا يبلغني مسبقاً بقدومه وزياراته غير منتظمة».

فكر نيد بأن الرجل يتصرف بهذه الطريقة لأنه حذر.

«يا إلهي، كم كنتُ أحمق!» أخذ الرجل يثن.

«كنت كذلك حقاً. لماذا فعلت هذا؟ هل أنت كاثوليكي؟».

«ديني غير مهم».

«إذاً، طمعاً بالنقود».

«فليسامحني الرب».

«لقد غفر ما هو أسوأ من فعلتك. ولكن أصنع إلي الآن. كل ما عليك القيام به هو الاستمرار فيما تفعله. سلم الزجاجات إلى حامل الرسائل، واقبل منه زجاجات جديدة ومن ثم أرسلها إلى تشارتلي وأحضر الجواب كما كنت تفعل. ولا تخبر أحداً بأمرى ولا تتحدث عني في أي مكان».

«لم أفهم».

«ليس عليك أن تفهم. فلتنس فقط أنك التقيت بي. هل هذا واضح؟».

«أجل وشكراً لك لأنك كنت رؤوفاً بي».

«أنت لا تستحق هذا أيها الخائن الجشع»، فكر نيد في نفسه ثم قال:

«سأبقى هنا إلى أن يأتي حامل الرسائل أياً يكن».

وصل الرجل بعد مرور يومين وعرفه نيد على الفور... إنه غيلبرت

غيفورد.

كان تجنيد الرجال للتأمر على قتل الملكة عملاً خطيراً، وعلى رولو أن يتوخى الحذر دوماً؛ فإن استعان بالشخص الخطأ فسيقع في أسوأ المتاعب.

كان قد تعلم البحث عن نظرة معينة في العيون؛ تلك النظرة التي تجمع

بين مزيج الهدف النبيل واللامبالاة الشديدة بالمخاطر. لم تكن نظرة جنون

بل نظرة تشي باللاعقلانية. وكان رولو أحياناً يتساءل في نفسه إن كان هو

نفسه يمتلك هذه النظرة، ورأى أنه لا يمتلكها لأنه كان حذراً إلى درجة

الهوس. ربما كان يمتلك تلك النظرة في شبابه ولكنه فقدها. ولو أنه لم

يفقدها لكان أعدم وبقرت أمعاؤه وقُطعت أوصاله منذ زمن كما حصل مع

فرانسيس ثروكمورتن والعديد من الشباب الكاثوليكيين المثاليين ممن ألقى

نيد ويلارد القبض عليهم. لو لا هذا الحذر لكان رولو الآن برفقتهم في الجنة،

ولكن لا يمكن للرجل أن يختار اللحظة التي سيصعد فيها إلى السماء.

عندما وقع نظر رولو على أنتوني بينغتون رأى تلك النظرة في عينيه.

راقب رولو بينغتون لثلاثة أسابيع ولكن من بعيد، ولم يحاول التحدث إليه حتى الآن، ولم يذهب إلى المنازل والحانات التي يتردد عليها بينغتون لأنه يعلم أن جواسيس نيد ويلارد يراقبونها. لم يقترب من الرجل سوى في الأمكنة الخاصة بالكاثوليكيين ووسط حشود كبيرة جداً لا يمكن فيها تمييز أحد من أحد، وفي أمكنة لعب البولينغ، وساحات قتال الديكة وعروض الدببة وبين جمهور المتفرجين على الإعدامات العامة. ولكن في النهاية لم يكن قادراً على الاستمرار في التزام الحذر لأن الوقت قد حان للمخاطرة بحياته والتحدث إلى بينغتون.

كان بينغتون شاباً من عائلة كاثوليكية ثرية في ديريشاير التي كانت تؤوي أحد كهنة رولو السريين. قابل بينغتون ماري ستوارت قبلاً عندما عمل خادماً في منزل سجانها القديم الإيرل شروبيري، وقد وقع الفتى في شباك سحر الملكة السجينة. ولكن هل سيكون هذا كافياً لتجنيدِه؟ لم يكن هناك سوى طريقة واحدة للتأكد من هذا.

في النهاية تقدم رولو للتحدث معه في ساحة مصارعة الثيران. وقع اللقاء في حلبة باريس غاردنز في منطقة ساوث وارك جنوب النهر. كان رسم الدخول لمشاهدة المصارعة بنسأ، ولكن بينغتون دفع بنسين من أجل مكان على الشرفة حتى يبقى بعيداً عن الناس العاديين المتدافعين والتنين في المقاعد الأمامية.

رُبطَ ثور إلى حلبة إلا أن حركته لم تكن مقيدة بالكامل. أُطلق سراح ستة كلاب صيد نحو الثور أخذت تعضه من قائمته. تحرك الثور الضخم بخفة واضحة، وأخذ يهز رأسه وعنقه المفتول ويقاثل الكلاب بقرنيه. تفادت الكلاب الضربات بنجاح أحياناً؛ والمحظوظة منها طارت في الهواء أما غير المحظوظة فقد علقت على القرنين إلى أن رماها الثور بعيداً في نهاية المطاف. وعقب الهواء برائحة الدم.

كان الجمهور يصيح ويصرخ مهلاً، ويراهن على فوز الثور، وأنه سيقتل الكلاب قبل أن يموت متأثراً بجروحه. كانت أنظار الجميع إلى الحلبة.

وبدأ رولو تحركه وفق الطريقة التي يتبعها دوماً: التظاهر بأنه كاهن

كاثوليكي. بدأ حديثه مع بينغتون بهدوء قائلاً: «باركك الرب يا بني». حذق نحوه بينغتون مدهوشاً وأخرج رولو الصليب الذهبي. بدا بينغتون مصعوقاً ومتحمساً: «من أنت؟». «جان لانغليه».

«ما الذي تريده مني؟».

«لقد حان الوقت لتحرير ماري ستوارت».

اتسعت عينا بينغتون: «ما الذي تعنيه؟».

فكر رولو أنه كان يعني ما قاله بالضبط وتابع كلامه: «إن الدوق غيز مستعد ولديه جيشٌ قوامه ستون ألف رجل». كانت هذه مبالغة فالدوق لم يكن جاهزاً ولم يكن لديه جيش مكون من ستين ألف رجل، ولكن رولو كان بحاجة إلى بث الثقة في كلامه. «لدى الدوق خرائط بكل المرافئ الكبرى على السواحل الجنوبية والشرقية حيث سينزل قواته، ولديه أيضاً قائمة بالنبل الكاثوليكين المخلصين بمن فيهم زوج والدتك الذي سيعتمد عليه للانضمام إلى الغزاة والقتال من أجل إعادة إنكلترا إلى الملكية والدين الحق». كان ما قاله رولو في النهاية حقيقياً.

«هل يمكن لكل هذا أن يكون صحيحاً؟» قال بينغتون في توق لتصديق الأمر.

«هناك شيء واحد ينقصنا؛ نحتاج إلى رجلٍ صالح ليسد هذه الثغرة».

«فلتتابع كلامك».

«يجب أن يقوم كاثوليكي من أصلٍ نبيل بتشكيل مجموعة من أصدقاء كاثوليكين وتحرير الملكة ماري من سجنها في لحظة الحسم. وأنت يا أنتوني بينغتون، قد تم اختيارك لتكون هذا الرجل».

أشاح رولو بوجهه بعيداً عن بينغتون حتى يمنحه وقتاً لاستيعاب كل ما قاله. في الحلبة كان الثور والكلاب الميتة أو المحتضرة قد سُحبت، ووصل الترفيه ظهر هذا اليوم إلى ذروته بدخول حصان عجوز إلى الحلبة مع قرْدٍ يقف على سرجه. هلل الجمهور فقد كانت هذه الفقرة مفضلة لديهم. بعد دخول الجواد أُطلقت ستة كلاب أخرى، ولم تكن كلاباً طاعنة في السن. هاجمت الكلاب الجواد الذي حاول بيأس الهرب من بين أسنانها. انفجر

المتفرجون في الضحك عندما حاول القرد المذعور جداً الهرب من هجوم الكلاب بالقفز من جهة إلى أخرى على ظهر الجواد ومحاولة الوقوف على رأسه.

نظر رولو إلى وجه بينغتون الذي لم يبدو كأنه يستمتع بالعرض الآن بل يشع فخراً وابتهاجاً وخوفاً. كان بوسع رولو قراءة تعابير وجهه؛ فالفتى في الثالثة والعشرين وهذه اللحظة بالنسبة إليه لحظة فخريّة.

«الملكة ماري مسجونة في قصر تشارتلي في ستافوردشاير. يجب أن تذهب إلى هناك وتستطلع المكان، ولكن لا تحاول لفت الأنظار إليك بمحاولة التحدث إليها. عندما تضع الخطط اللازمة لتحريرها ستكتب إليها وتخبرها بالتفاصيل وتسلمني الرسالة، فأنا أملك وسيلة سرية لإيصال الرسائل إليها».

لمعت عينا بينغتون وكأنه رأى قدره ثم قال: «سأقوم بالأمر... وبكل سعادة».

في هذه الأثناء سقط الجواد في الحلبة وأطبقت الكلاب على القرد ومزقته إرباً.

وصافح رولو يد بينغتون.

«كيف سأتواصل معك؟» سأل بينغتون.

«أنت لن تتواصل»، أجاب رولو وتابع: «أنا سأتواصل معك».

ساق نيد غيفورد إلى برج لندن وذراعه اليمنى مربوطة بالمعصم الأيسر للحارس.

«هنا يتعرض الخائنون للتعذيب»، قال نيد محادثاً غيفورد وهم يصعدون السلم الحجري، وبدا غيفورد مرتعباً لدى سماعه هذا. دخلوا إلى غرفة فيها طاولة ومدفأة ويبدو أنها باردة في الصيف. جلس نيد قبالة غيفورد الذي ما يزال مربوطاً بمعصم الحارس الواقف بجانبه.

سُمع صوت صراخ رجل في الغرفة المجاورة.

شحب وجه غيفورد وقال: «من يصرخ».

«خائن يدعى لانسوت»، قال نيد. «كان قد وضع مخططاً لاغتيال الملكة

إليزابيث في طريقها على جوادها إلى سانت جيمس بارك. كان الرجل قد فضح مخططه الإجرامي أمام كاثوليكي آخر، ولكن هذا الأخير كان من رعايا الملكة المخلصين». كان هذا الرجل الكاثوليكي الآخر من عملاء نيد. «نعتقد أن لانسلوت رجل مجنون وهو يعمل وحده على الأغلب، ولكن السير فرانسيس ويلزنهايم يريد التأكد من صحة الأمر».

غدا وجه غيفورد الطفولي الرقيق شاحباً شحوب الأموات، وأخذت يدها ترتعشان.

«إن كنت لا ترغب بمواجهة نفس المعاناة التي يواجهها لانسلوت حالياً فمن الأفضل لك أن تتعاون معي. ولا أعتقد أن الأمر سيكون صعباً». «أبدأ»، قال غيفورد بصوتٍ مرتعشٍ.

«بعد أن تجمع الرسائل من السفارة الفرنسية عليك أن تحضرها إلي حتى أنسخها قبل أن توصلها إلى تشارتلي».

«لن تتمكن من قراءتها»، قال غيفورد. «فحتى أنا لم أستطع قراءتها. إنها مشفرة».

«ترك الأمر لي»، قال نيد الذي كان لديه مخترق شيفرات عبقري يدعى فيليبس.

«سترى الملكة ماري الأختام المكسورة على الرسائل وستعرف الحقيقة».

«ستعود الأختام إلى حالتها الطبيعية». كان فيليبس مزوراً ماهراً أيضاً. «ولن يلحظ أحد الفرق».

بوغت غيفورد عند سماعه بهذه الأسرار، فهو لم يكن يتوقع أن تكون استخبارات الملكة إليزابيث على هذه الدقة والاحترافية. وكما توقع نيد تماماً لم يكن لدى غيفورد أدنى فكرة عما كان يقوم به.

«وستقوم بالمثل عندما تأخذ الرسائل من تشارتلي. ستحضرها إلي وسأنسخها قبل أن تُسلمها إلى السفارة الفرنسية»، قال نيد.

«لن أخون الملكة ماري أبداً».

صرخ لانسلوت مجدداً، وعندما تراجع وقع الصرخة أخذ غيفورد يبكي ويستجدي الرحمة.

«أنتَ رجلٌ محظوظ»، قال نيد لغيفورد.

نخر غيفورد في عدم تصديق.

«أجل»، قال نيد. «فكما ترى أنت لا تعرف الكثير، ولا تعرف حتى اسم الرجل الإنكليزي الذي جئتُك في باريس».

لم يقل غيفورد شيئاً إلا أن نيد تكهن، بالنظر إلى تعابير وجهه، أنه يعرف اسم الرجل الإنكليزي.

«يُطلق هذا الرجل على نفسه اسم جان لانغليه»، قال نيد.

لم يكن غيفورد ماهراً في إخفاء دهشته التي بدت واضحة على وجهه. «إنه اسم مستعار بلا شك، ولكنه الاسم الوحيد الذي قدم نفسه به أمامك».

ومجدداً لاحت الخيبة على وجه غيفورد من حجم المعلومات التي يعرفها نيد.

«أنتَ محظوظ لأنني أريد استخدامك. إن فعلت ما يُطلب إليك فلن تُعدم».

«لن أفعل ما تطلبه مني».

صرخ لانسلوت مجدداً وكأنه يتعذب في الجحيم. أشاح غيفورد بعيداً وتقياً على الأرض الحجرية، وملأت رائحة القيء الحامضية الغرفة الصغيرة.

وقف نيد وقال: «قمت بترتيبات التعذيب الخاصة بك بعد ظهر اليوم. سأعود وأراك غداً صباحاً، وستكون قد غيرت رأيك».

«لا، لا، من فضلك توقف»، قال غيفورد وقد تناهى إلى مسامعه صوت لانسلوت وهو يشهق.

مسح غيفورد فمه وقال بصوتٍ أقرب للهمس: «سأنفذ ما طلبته».

«لا أسمعك جيداً»، قال نيد.

تحدث غيفورد بصوتٍ أعلى: «اللعنة عليك قلت لك إنني سأنفذ ما طلبته».

«جيد»، قال نيد وتحدث إلى الحارس. «فك الحبل عنه ودعه يذهب».

لم يكن غيفورد قادراً على التصديق: «هل يمكنني الذهاب حقاً؟».

«طالما أنك ستفعل ما طلبته منك. ستكون مُراقباً ولهذا لا تفكر أبداً
بخداعي».

بدأ لانسلوت يصرخ طالباً والدته.

«وفي المرة القادمة التي تزور فيها هذا المكان لن يكون لديك فرصة
للنجاة»، قال نيد.

«فهمت».

«أذهب».

غادر غيفورد الغرفة، وسمع نيد صوت وقع أقدامه المسرعة على الدرج
الحجري. أو ما نيد للحارس حتى يغادر. جلس نيد على كرسيه وأغلق عينيه،
ولكن بعد مرور دقيقة صرخ لانسلوت مجدداً ولم يكن أمام نيد خيار سوى
مغادرة المكان.

غادر نيد برج لندن وسار على طول الحافة النهرية للتايمز. أزال النسيم
العليل رائحة القيء النتنة التي علقت في منخره. نظر حوله إلى عمال القوارب
والصيادين والباعة المتجولين، والناس المشغولين والعاطلين عن العمل،
ومئات الوجوه التي تتحدث وتصرخ وتضحك وتتأب وتغني ولكن لا تصرخ
في ألم أو تتسبب عرقاً من الخوف. كانت هذه الحالة الطبيعية للحياة.

عبر جسر لندن إلى الضفة الجنوبية حيث يعيش الهوغونيون الذين
أحضروا معهم تقنية نسيجية معقدة من هولندا وفرنسا وازدهرت أحوالهم
سريعاً في لندن، وكانوا جميعهم زبائن جيدين لسيلفي.

يقع متجر سيلفي في الطابق الأرضي من بناء سكني مكسو بالألواح
الخشبية على صفٍ من الأبنية السكنية الأخرى الشبيهة به. كان منزلاً لندنياً
تقليدياً حيث يتأ الطابق العلوي إلى الأمام أكثر من الطابق السفلي. كان
الباب الأمامي مفتوحاً فدخل نيد منه. شعر بالسكينة عندما رأى صفوف
الكتب وشم رائحة الورق والحبر.

كانت سيلفي تُفرغ محتويات صندوق وصل من جنيف. استقامت عندما
سمعت وقع خطواته. نظر نيد إلى عينيها الزرقاوين وقبلها على فمها الطري.
أبعدته عنها وتحدثت بالإنكليزية ولكن بلكنة فرنسية لطيفة: «ما الخطب؟».
«كنت أقوم بواجب مزعج. سأخبرك به ولكن يجب أن أغتسل أولاً».

خرج نيد وتوجه إلى الفناء الخلفي ثم أخذ وعاء ووضع فيه برميل مياه المطر وغسل وجهه بالمياه الباردة.

عاد نيد إلى المنزل وصعد إلى الطابق العلوي حيث يسكنان ثم رمى بنفسه على كرسيه المفضل. أغلق عينيه وسمع في رأسه لانسوت يصرخ منادياً والدته.

لحقت به سيلفي إلى الطابق العلوي، ثم توجهت إلى حجرة المؤن وأخذت زجاجة من النيذ وسكبت كأسين منه. ناولته إحدى الكأسين وقبلته على جبهته ثم جلست بالقرب منه ولا مست بركبتيها ركبته. تجرع النيذ من كأسه وأمسك بيدها.

«أخبرني بما حصل»، قالت له.

«كان هناك رجلٌ يُعذب في البرج اليوم بسبب تهديده بقتل الملكة. لم أعذبه فأنا لا أستطيع القيام بهذا العمل ولا أملك الجرأة على فعله، ولكني رتبت لإجراء تحقيق في الغرفة المجاورة حتى يتسنى للمتهم معي سماع الصراخ».

«هذا رهيب».

«ولقد نجحت، وحولت عميل العدو إلى عميل مزدوج. إنه يخدمني الآن، ولكنني ما أزال أسمع تلك الصراخات». شدت سيلفي على يده ولم تقل شيئاً، وبعد برهة من الزمن قال: «أكره عملي أحياناً».

«بسبب أناسٍ مثلك لا يمكن لرجال كالدوق غيز وبيير أوموند أن يفعلوا في إنكلترا ما يفعلونه في فرنسا... هنا لا يموت المرء حرقاً بسبب معتقداته». «ولكن لكي أهما أهما أصبحت مثلها».

«لا، لم تصبح مثلها»، قالت سيلفي. «فأنت لا تقاثل من أجل فرض البروتستانتية كما يقاثلان لفرض الكاثوليكية. أنت تساند التسامح الديني».

«كنا كذلك في البداية، ولكن عندما نقلني القبض على كهنة سريين نقوم بإعدامهم سواء كانوا تهديداً للملكة أم لا. هل تعرفين ما الذي فعلناه بمارغريت كليثيرو».

«أليست المرأة التي أعدمتم في يورك لإيوائها كاهناً كاثوليكياً».

«أجل. لقد عُريت من ملابسها وربطت وألقي بها على الأرض، ثم

وضعوا الباب الأمامي لمنزلها عليها وحملوا صخوراً على الباب إلى أن ماتت سحَقاً».

«يا إلهي! لم أعلم هذا».

«هذا مشير للغثيان».

«ولكن لم تكن نيتك أن تؤول الأمور إلى هنا! لقد أردت للناس ذوي المعتقدات الدينية المختلفة أن يعيشوا معاً في سلام ووثام».

«أجل، ولكن يبدو أن تحقيق هذا مستحيل».

«أخبرني روجر بشيء كنت قد أخبرته به مرة. أتساءل إن كنت تتذكر جوابك عندما سألتك عن سبب كره الملكة للكاثوليكين».

ابتسم نيد وقال: «أتذكر».

«لم ينسَ روجر ما أخبرته به».

«ربما قلت ما هو صائب آنذاك، ما الذي قلته لروجر».

«قلت له إنه لا وجود للمثاليين في السياسة، ولكن يمكن للناس غير المثاليين أن يجعلوا من العالم مكاناً أفضل».

«هل قلتُ هذا؟».

«هذا ما أخبرني به روجر».

«جيد»، قال نيد. «أمل أن يكون هذا حقيقياً».

حلّ الصيف وجلبَ معه أملاً جديداً لأليسون التي ابتهجت بتحسن حالة الطقس. وفي قصر تشارتلي لم يعلم أحد خارج الحلقة الداخلية للحاشية بالمراسلات السرية مع أنتوني بينغتون ولكن معنويات ماري المرتفعة نشرت البهجة على وجوه الجميع.

شعرت أليسون بالتفاؤل إلا أنه لم يكن تفاؤلاً أعمى، ولم تتمن شيئاً سوى أن تعلم المزيد عن بينغتون. لم تعرف عنه سوى أنه ينحدر من عائلة كاثوليكية صالحة. كان في الرابعة والعشرين من العمر فقط، وتساءلت إن كان سيتمكن من قيادة التمرد على الملكة إليزابيث التي تسيطر بقبضة من حديد على البلاد منذ سبعة وعشرين عاماً. أرادت أليسون أن تطلع على الخطة التي وضعها بينغتون.

وصلت تفاصيل هذا المخطط في تموز/ يوليو من عام 1586.

بعد عدة رسائل أولية هدفها فتح قناة للتواصل وتطمين الطرفين إلى أن قناة التواصل مفتوحة أرسل بينغتون مخطظه. أتت الرسالة في برمبل جعة، وقام كلود نو سكرتير ماري بفك شيفرة المخطط. جلست أليسون مع ماري وكلود في غرفة نوم ماري في قصر تشارتلي وانكبوا على دراسة الرسالة.

كان هذا العمل باعثاً على البهجة.

«كتب بينغتون: إن هذا العمل العظيم هو آخر أمل لنا باستعادة دين أجدادنا، ولكنه يتابع كلامه قائلاً إنه...»، قرأ كلود وهو ينظر إلى الكلام المشفر. «خطط لسته أعمال متفرقة ولكن ضرورية لإنجاح العصيان. سيكون العمل الأول غزو قوات أجنبية لإنكلترا وثانياً، يجب أن تكون تلك القوات الأجنبية كبيرة بما يكفي لضمان النصر العسكري».

«أخبروني أن الدوق غيز يملك ستين ألف رجل»، قالت ماري.

كانت أليسون تأمل أن يكون هذا الرقم صحيحاً.

«وثالثاً، يجب اختيار الموانئ التي يمكن للقوات أن تقوم بالإنزال فيها والتزود بالمؤن».

«أعتقد أن هذا الأمر قد سوي منذ زمن، وقد أرسلت الخرائط إلى نسيبي دوق هنري»، قالت ماري. «رغم أن بينغتون قد لا يعلم هذا».

«رابعاً، عندما تصل القوات يجب أن تستقبلها قوات محلية قوية لتحمي مواطن الإنزال من أي هجوم معاكس ومباشر».

«الناس سيبتفضون بشكل عفوي»، قالت ماري.

فكرت أليسون بأن الناس سيحتاجون إلى تشجيع ولكن يمكن تدبير هذا في وقته.

«يركز بينغتون على هذا النقطة بالتحديد»، قال كلود وتابع: «واختار رجالاً وصفهم «بالملازمين» في غرب وشمال وجنوب شمال ويلز ومقاطعات لانستر وديربي وستافورد».

رأت أليسون أن الخطة منظمة جداً وبشكل يدعو للدهشة.

«خامساً، يجب تحرير الملكة ماري»، قرأ كلود بصوت عالٍ وتابع:

«سأتولى أنا وعشرة رجال نبلاء مع مئة رجلٍ من أتباعنا مهمة تحرير جلالتك من أيدي أعدائك».

«هذا جيد»، قالت ماري. «إن عدد حراس السير أمياس بوليت لا يصل حتى إلى مئة رجل ومعظمهم يسكنون خارج القصر، وسيطلب حشدهم وقتاً طويلاً».

بدأت أليسون تشعر بطاقة تكبر في داخلها.

«سادساً، يجب قتل الملكة إليزابيث. كتب بينغتون: (ومن أجل القضاء على الملكة التي احتلت العرش، والتي تحررنا من طاعتها بفضل المرسوم البابوي، سيكون هناك ستة رجال جميعهم من أصدقائي المقربين والمتحمسين للدفاع عن الدين الكاثوليكي وخدمة جلالتك، ممن سيأخذون على عاتقهم القيام بإعدامها). أعتقد أن هذه هي الخطة بأدق تفاصيلها».

فكرت أليسون أن الخطة دقيقة حقاً، وشعرت بالحماس للحظة عندما فكرت بقتل الملكة.

«يجب أن أكتب رداً على هذه الرسالة فوراً»، قالت ماري.

بدا كلود قلقاً وقال: «يجب أن نحذر فيما نقوله».

«هناك أمر واحد يمكنني قوله وهو الموافقة».

«إن وقعت رسالتك في أيدي خطأ..».

«ستصل إلى أيدي أمينة وستكون مشفرة».

«ولكن إن ساءت الأمور..».

احمرت ماري غضباً. علمت أليسون أنه غضب ويأس السنوات العشرين الماضية.

«يجب أن أنتهز هذه الفرصة أو لن يعود لدي أي أمل»، قالت ماري.

«سيكون جوابك على رسالة بينغتون دليلاً على الخيانة».

«ليكن كذلك»، قالت ماري.

في تموز/ يوليو 1586 كان نيد يفكر بأن الجاسوسية تتطلب الكثير من الصبر.

في عام 1583 كان لدى نيد أمل بأن يقوده فرانسيس ثروكمورتن إلى دليل

حقيقي على خيانة ماري ستيوارت، ولكن أمله خاب عندما أُجبر نيد بسبب خداع الإيرل ليستر إلى اعتقال ثروكمورتن قبل الأوان. وفي عام 1585، عثر على ثروكمورتن جديد والمتمثل بشخصية غيلبرت غيفورد. لم يكن الإيرل ليستر في إنكلترا في هذا الوقت ليشير المتاعب فقد أرسلته الملكة إليزابيث إلى هولندا الخاضعة للحكم الإسباني على رأس جيش ليقاوم إلى جانب المتمردين البروتستانتين الهولنديين في وجه سادتهم الإسبانيين الكاثوليكين. كان ليستر فاشلاً في مهمته لأن براعته لم تكن في القتال بل في المغازلة، وهذا ما جعله يفشل في الإطاحة بويلزنهايم.

ولأن لانستتر بعيد عن البلاط كان نيد في موقع قوي. فقد كانت ماري تعتقد أنها ترسل وتلقى رسائل سرية إلا أن نيد قرأ كل شيء. وها هو شهر تموز/ يوليو قد حل ولم يعثر بعد على ما كان يبحث عنه رغم المراقبة الدائمة منذ ستة أشهر.

في مراسلات ماري مع بيير أوموند أو الملك الإسباني كانت جميع الرسائل التي تتلقاها أو تكتبها تلمح إلى الخيانة، ولكن نيد أراد دليلاً دامغاً على الخيانة. كانت الرسالة التي أرسلها بينغتون إلى ماري في بداية شهر تموز/ يوليو واضحة وكفيلة بإعدامه. انتظر نيد بشوق جواب ماري على رسالة بينغتون. ولا بدّ أنها في هذه المرحلة ستوضح نواياها في رسائلها. وكانت كلمات معينة في جوابها كفيلة بتجريمها.

وأخيراً في التاسع عشر من شهر تموز/ يوليو وقع جوابها في يدي نيد. كانت رسالة مؤلفة من سبع صفحات مكتوبة بخط سكرتيرها كلودنو ومشفرة كالعادة. قدم نيد الرسالة إلى فيليبس ليفك التشفير وانتظر بنفاد صبر شديد. اكتشف أنه لم يكن قادراً على التركيز على أي شيء آخر. كانت أمامه رسالة طويلة من جيرونيما رويز من مدريد تخبره فيها عن السياسة الداخلية في البلاط الإسباني، وقد قرأها ثلاث مرات من دون أن يفهم منها كلمة واحدة. استسلم أخيراً وغادر منزل ويلزنهايم في منطقة سيدينغ لاين ثم عبر الجسر باتجاه منزله في ساوث وارك من أجل تناول الغداء. لطالما شعر بالطمأنينة عندما تكون سيلفي بجواره.

أغلقت سيلفي المتجر، وأعدت بعض السلمون مع النيذ وإكليل الجبل.

وفيما كانا يتناولان الطعام في حجرة الطعام فوق المتجر أخبرها عن رسالة بينغتون وجواب ماري. لم يُخفِ نيد عن سيلفي أي أسرار فكلاهما يعملان في الجاسوسية.

وفيما كانا على وشك إنهاء وجبتهما وصل أحد مساعدي نيد مع الرسالة بعد فك الشيفرة.

كانت الرسالة بالفرنسية. لم يكن نيد ماهراً في القراءة بالفرنسية ولهذا اطلع عليها مع سيلفي.

بدأت ماري رسالتها بالثناء على نوايا بينغتون.

«هذا وحده دليلٌ كافٍ على إدانتها بالخيانة»، قال نيد في رضا.

«إنه لأمر مؤسف»، قالت سيلفي.

نظر إليها نيد مذهولاً. كانت سيلفي مناضلة بروتسنتية، وقد خاطرت بحياتها مراتٍ عديدة من أجل الدفاع عن معتقداتها ولكن ها هي تشعر بالأسى على ماري ستوارت.

لاحظت دهشته وقالت له: «أتذكرها في يوم زفافها. كانت مجرد فتاة جميلة بمستقبل رائع. كانت ستصبح ملكة فرنسا. وبدت كأكثر الشابات حظاً في العالم، ولكن انظر إلى أين انتهى بها المطاف».

«هي من أوقعت نفسها في هذه المتاعب».

«هل كانت قراراتك حكيمة عندما كنت في السابعة عشرة؟».

«لا أفترض هذا».

«عندما كنت في التاسعة عشرة تزوجت من بيير أوموند. ألم أجلب على رأسي مصيبة بسبب هذا القرار؟».

«فهمت وجهة نظرك».

تابع نيد قراءة الرسالة، وكانت سيلفي قد تجاوزت كليشيه الثناء العام. قدمت ماري جواباً على كل تفصيل من خطة بينغتون، وحثته على القيام بتحضيرات أكثر دقة للترحيب بالغزاة وحشد الثوار المحليين من أجل دعم الغزو وتسليح الجميع. وطلبت منه أن يقدم لها خطة أكثر تفصيلاً لعملية تحريرها من سجن قصر تشارتلي.

«هذا أفضل بكثير».

والأهم من هذا كله حثت ماري بينغتون على التفكير بعناية أكبر في الكيفية التي سيقوم فيها قتلة الملكة إليزابيث بعملهم. عندما قرأ نيد الجملة شعر وكأن جِملاً كبيراً قد أزيح عن كاهله. لقد أصبح لديه الآن دليل دامغ على تورط ماري في عملية التخطيط لقتل الملكة. كانت ماري مذنبة... جداً.
بطريقة أو بأخرى كان أمر ماري ستوارت قد انتهى.

وجد رولو أنتوني بينغتون يحتفل. كان بينغتون في منزل روبرت بولي الكبير في لندن مع عدد من أصدقائه المتأمرين أيضاً وقد تحلقوا حول طاولة عامرة بالدجاج المشوي وأطباق البصل الساخن المطبوخ بالزبدة وأرغفة الخبز الطازج وأباريق النبيذ الإسباني.

اضطرب رولو عند رؤيته لهذا المشهد الأرعن. لا يُفترض بالرجال الذين يخططون للإطاحة بملك أن يشملوا في منتصف النهار. لكن وعلى عكس رولو، لم يكونوا متأمرين حقيقيين بل مجرد هواة مثاليين مقبلين على مغامرة عظيمة، وجعلتهم الثقة الكبيرة بشبابهم ونبل أصولهم متهورين.

خرق رولو بقدمه إلى منزل بولي أحد القوانين التي يلتزم بها في عمله، فهو عادة ما يتعد عن الأماكن التي يتردد عليها الكاثوليكيون بانتظام؛ فجميع تلك الأماكن مراقبة من نيد وويلارد. كان رولو مضطراً للقدوم إلى منزل بولي ومقابلة بينغتون فهو لم يره منذ أكثر من أسبوع ويريد أن يعرف آخر التطورات.

نظر رولو إلى الغرفة والتقت عيناه بعيني بينغتون وأوماً له. ولأنه كان في منزل كاثوليكي معروف لم يشعر رولو بالراحة في إخراج بينغتون منه. خارج المنزل حديقة رحة تظللها أشجار توت وتين من شمس آب/ أغسطس. ولكن بالنسبة لرولو حتى هذه الأشجار لم تكن آمنة بما يكفي فلم يكن يفصلها سوى جدار منخفض عن الشارع المزدهم بالعربات الصاخبة والباعة وأصوات الطرق والصراخ في موقع البناء على الجهة الأخرى من الطريق. أصّر رولو على مغادرة الحديقة والتوجه إلى رواق ظليل في كنيسة مجاورة.

«ما الذي حدث؟ يبدو أن هناك ركوداً»، قال رولو أخيراً.

«اسمح لأسايريك بالانفراج يا مسيو لانغليه»، قال بينغتون بحوية وتابع: «فهناك أخبار طيبة». وأخذ قطعة من الورق من جيبه وسلمها له متبهاياً.

كانت رسالة مشفرة مع نص فك التشفير بخط بينغتون. انتقل رولو بنظره إلى أعلى الورقة وقرأها في ضوء النهار. كانت الرسالة بالفرنسية وموجهة من ماري ستوارت إلى بينغتون توافق فيها على كل الخطط التي وضعها، وتحثه على القيام بالمزيد من الترتيبات الدقيقة.

عندما قرأ رولو الرسالة ذهبت كل مخاوفه. إنها الرسالة التي انتظرها لوقتٍ طويل، والعنصر الأخير والحاسم في خطته. سيأخذ رولو الرسالة الآن إلى دوق غيز الذي سيحشد جيشه ويغزو إنكلترا. وها هو طغيان إليزابيث الذي دام لثمانية وعشرين عاماً قد شارف على نهايته.

«أحسنتم عملاً»، قال رولو ووضع الرسالة في جيبه. «سأسافر إلى فرنسا غداً، وعندما أعود سأكون مع جيش الربّ لنحرر إنكلترا».

رَبَّت بينغتون على ظهر رولو وقال: «رجل صالح. ولكن هيا بنا الآن لتناول الطعام معاً».

كان رولو على وشك رفض هذه الدعوة، ولكن قبل أن يتمكن من التفوه بكلمة استشعر اقتراب خطرٍ ما وعلت تقطيةً وجهه. كان هناك خطب ما؛ فالشارع المزدهم هدأ على حين غرة، وتوقفت العربات عن الحركة، وكف الباعة عن الصراخ ببضائعهم وتوقف العمل في المبنى المجاور. تساءل رولو عما حصل.

أمسك رولو بمرفق بينغتون وقال: «يجب أن نغادر المكان».

ضحك بينغتون وقال: «لماذا بحق الجحيم؟ في غرفة الطعام بمنزل بولي نصف برميل من أجود أنواع النبيذ».

«اصمت أيها الغبي والحق بي إن كانت حياتك تهمك»، قال رولو ودخل إلى الكنيسة الهادئة والمعتمة ثم عبر صحنها بسرعة نحو مدخل صغير عند الجدار القصي من الكنيسة. فتح باباً يفضي إلى الشارع واسترق النظر خارجاً.

إن منزل بولي يتعرض للإغارة كما كان يخشى.

كان هناك جنود يأخذون مواقعهم على طول الشارع فيما البناؤون والباعة والمارة يراقبونهم في صمتٍ وتوتر. عند بوابة الحديقة وعلى بعد عدة ياردات من رولو وقف رجلان ضخمان يحملان سيفين للقبض على كل من يحاول الهروب. راقب رولو المشهد ورأى نيد ويلارد يقترب ويقرع على باب منزل بولي.

«اللعة»، قال رولو ورأى أحد الجنود يسير باتجاه مخبئهم فأغلق الباب بسرعة وقال: «لقد كشفوا أمرنا».

بدا بينغتون مرتعباً وقال: «من اكتشفنا؟».

«ويلارد. إنه الذراع اليمنى لويلزنهايم».

«يمكننا أن نختبئ هنا».

«لا يمكننا الاختباء هنا لوقتٍ طويل فويلارد ماهر جداً في عمله وسيعثر علينا إن بقينا هنا».

«ما الذي يمكننا فعله الآن؟».

«لا أعلم». ألقى رولو نظرة أخرى إلى الخارج ورأى باب منزل بولي مفتوحاً وقد اختفى ويلارد داخل المنزل على الأغلب. بدا الجنود متوترين ومستعدين لأيّ أوامر وهم يراقبون المكان بحذر. أغلق رولو الباب مجدداً وقال: «هل يمكنك أن تركز بسرعة».

بدا وجه بينغتون شاحباً ثم قال معترضاً: «سألازم مكاني وأقاتل» ثم تلمس مكان سيفه الذي لم يكن معه، وتكهن رولو أن السيف معلق على خطاف في مدخل ردهة منزل بولي.

ثم سمع رولو صوت ثغاء خروف.

علت تقطية وجهه، وعندما أصاخ السمع أدرك أنه لم يكن خروفاً واحداً بل قطعياً من الخراف، وتذكر وجود مسلخ في الشارع. كان هناك مزارع يقود قطعياً من الخراف إلى المسلخ وهذا أمر طبيعي يحدث في أي بلدة من العالم.

نظر رولو خارجاً للمرة الثالثة، وأصبح قادراً على رؤية قطع الخراف وشم رائحته المميزة. كان عدد الخراف يصل إلى المئة، وقد اكتظ بها الشارع على كلا الجانبين. أخذ المارة يلقون بالشتائم والتجؤوا إلى مداخل المنازل

للابتعاد عن الطريق. اقترب رعاة القطيع من بوابة منزل بولي الأمامية، وفي هذه اللحظة خطر لرولو استخدام القطيع لإنقاذهما. «استعد»، قال رولو لبيينغتون.

كان الجنود غاضبين لأنهم اضطروا للتنحي جانباً حتى تمر الخراف، ولكن لم يكن بوسعهم فعل أي شيء حيال الأمر. فلو كانت بشراً لاستخدموا أسلحتهم معها، إلا أنه لا يمكن إجبار هذه الخراف الخائفة أصلاً على القيام بأي شيء فهي تسير بعضها وراء بعض في طريقها إلى الموت. ولو لم يكن رولو خائفاً على حياته لضحك على هذا المشهد.

وعندما مرّ الراعيان بالقرب من الرجلين الواقفين عند بوابة الحديقة كانت الخراف قد حاصرت الجنود تماماً. وفي هذه اللحظة صرخ رولو: «اركض!» وفتح الباب.

خرج رولو راكضاً وبيينغتون في أعقابه. فلو تأخرا لثانيتين لكانت الخراف قد سدّت عليهما الطريق. ركض رولو على طول الشارع وسمع وقع خطوات بيينغتون وراءه.

علت من الجنود صرخة: «توقفا! توقفا!» حدق رولو إلى الورا ورأى بعض هؤلاء الجنود يصارعون لإبعاد الخراف وملاحقتهما.

ركض رولو وقطع الطريق ثم تجاوز بوابة الحانة. حاول أحد مرتادي الحانة الذي كان يحمل في يده كأساً من البيرة وضع قدمه أمام رولو إلا أن رولو تفادى القدم. أما البقية فقد اكتفوا بالمشاهدة. عموماً لم يكن سكان لندن متعاطفين مع الجنود الذين يتنمرون على الناس خاصة عندما يكونون سكارى، وهلل بعض الموجودين في الشارع للهاربين.

بعد وهلة سمع رولو صوت طلقة من بندقية، ولكنه لم يشعر بأي شيء، ولم يتغير وقع خطوات بيينغتون أيضاً، وهذا يعني أن الطلقة أخطأت هدفها. سمع رولو صوت طلقة أخرى ولكن دون أن يحدث أي شيء أيضاً، باستثناء دخول الناس إلى منازلهم لحماية أنفسهم فهم يعلمون أن الرصاصات لا تنطلق دوماً في الاتجاه الذي تم التصويب إليه.

التف رولو ودخل إلى شارع جانبي. رأى رجلاً يحمل مضرباً ويرفع يده في إشارة له ليقف ويصرخ: «شرطة المدينة توقف!» كانت شرطة المدينة

تملك الحق في إيقاف ومساءلة أي شخص مشبوه. حاول رولو أن يتفاداه إلا أن الرجل ضربه بعصاه. شعر رولو بالضربة تستقر على كتفه، وفقد توازنه ثم سقط. وفيما كان يتدحرج على الأرض نظر إلى الوراء ورأى ذراع بينغتون تدور في نصف دائرة وتنتهي على شكل ضربة قوية على جانب رأس الشرطي وتطرحة أرضاً.

حاول رولو النهوض إلا أنه كان يشعر بالدوار الشديد ولهذا أخذ يحبو على الأرض. ساعده بينغتون على الوقوف وتابعا الركض.

انعطفا عند زاوية أحد الشوارع، ودخلا إلى زقاق، ثم خرجا إلى شارع فيه سوقٌ وتوقفا عن الركض وأخذا يسيران. أخذوا بدفع الزبائن الواقفين قرب الأكشاك. حاول أحد الباعة بيع رولو كتيباً عن خطايا البابا، وعرضت إحدى البغايا النوم مع كليهما بسعرٍ واحد. نظر رولو إلى الوراء ولم ير أحداً في إثرهما. لقد نجحا في الهرب، وربما نجح الآخرون في الهرب أيضاً وسط هذه المعمعة.

«لقد أرسل لنا الرب ملائكته لمساعدتنا»، قال رولو بوقار.

«ملائكة على شكل خراف»، قال بينغتون وضحك من قلبه.

ذهلت أليسون عندما عرض السير أمياس بوليت النكد على ماري ستيوارت الانضمام إليه في رحلة لصيد الغزلان. كانت ماري تحب ركوب الأحصنة والاختلاط الاجتماعي، ولهذا انتهزت هذه الفرصة لتلبي هاتين الحاجتين.

ساعدت أليسون ماري على ارتداء ثيابها، فقد أرادت ماري أن تبدو جميلة كالمملكات أمام الناس الذين سيصبحون رعاياها عاجلاً، ووضعت شعرها المستعار فوق شعرها الأشيب ثم ثبتته بقبعة.

سُمح لأليسون والسكرتير كلود بمرافقة ماري. ركب الجميع على الأحصنة، وغادروا قصر تشارتلي، ثم عبروا الخندق باتجاه منطقة المستنقعات حيث القرية التي ستم فيها عملية الصيد.

كانت أليسون سعيدة جداً بالشمس والهواء العليل وبأفكارها عن المستقبل. هناك الكثير من الخطط لتحريرهما، وعانت أليسون من سلسلة

خبيات مريرة عند فشل كل خطة من هذه الخطط، ولكن يبدو أن هذه العملية ستكون مختلفة عن غيرها لأن كل شيء فيها كان مدروساً.

ها قد مرّت ثلاثة أسابيع على إرسال ماري لجوابها إلى أنتوني بينغتون وعلى موافقتها على خطته. ولكن إلى متى سينتظرون؟ حاولت أليسون أن تحسب عدد الأيام التي سيحتاجها الدوق غيز لحشد جيشه. هل سيحتاج إلى أسبوعين؟ إلى شهر؟ ربما ستسمع هي وماري إشاعات عن الغزو. ففي أي يوم من الأيام القادمة قد تصل أخبار إلى إنكلترا بأن جيشاً يحتشد على الساحل الشمالي لفرنسا، وأن آلاف الجنود بأحصنتهم وأسلحتهم قادمون على السفن، أو ربما سيتصرف الدوق بسرية ويخفي جيشه في الأنهار والمرافئ حتى اللحظة الأخيرة ليُفاجئ الأعداء.

وفيما كانت أليسون تفكر بهذه الاحتمالات رأت مجموعة من الرجال على صهوات الأحصنة تقترب منهم بسرعة، وتساءلت إن كانوا فرقة الإنقاذ. اقتربت المجموعة أكثر، ورأت أليسون أنها مؤلفة من ستة رجال، وبدأ قلبها يخفق بسرعة. تساءلت إن كان بوليت سيقاتلهم. لقد أحضر معه جنديين ولكن المجموعة تفوقهما عدداً.

لم تتعرف أليسون على الرجل الذي يقود المجموعة، ولاحظت رغم حماسها الشديد، أن الرجل في حلة فاخرة من الصوف الأخضر ومطرزة بأبهة. لا بدّ أنه أنتوني بينغتون.

نظرت أليسون إلى بوليت وتساءلت عن سبب عدم مبالاته باقتراب المجموعة منهم. عادة ما يكون الاقتراب السريع لمجموعة من الرجال على صهوات الأحصنة في الريف المفتوح أمراً باعثاً على القلق، ولكن يبدو أن بوليت يتوقع حضورهم.

نظرت أليسون إلى المجموعة مجدداً، وصدّمت بشدة عندما رأت في المؤخرة جسد نيد ويلارد الرشيق، وهذا يعني أنهم ليسوا مجموعة الإنقاذ. كان نيد ويلارد أشبه بألثة انتقام تلاحق ماري منذ أكثر من ربع قرن رغم أنه الآن على أعتاب عقده الخامس، وقد بدأ شعره يشيب والتجاعيد تظهر على وجهه. رغم أنه لم يكن في مقدمة المجموعة فإنه كان القائد الحقيقي لها.

قدّم لهما بوليت الرجل في البذلة الخضراء باسم السير توماس جورج

المبعوث الرسمي للملكة إليزابيث. وعندما سمعت أليسون بهذا تملكها خوف قاتل.

أخذ جورج يتحدث وكأنه أعد مسبقاً لما سيقوله موجهاً حديثه إلى ماري: «سيدتي، تعتقد مولاتي الملكة أنه لمن الغريب حقاً وخلافاً للاتفاقية بينكما، أن تتأمري عليها وعلى دولتها، وهذا أمر لم تكن قادرة على تصديقه لو لم ترَ الدليل بأمّ عينها وتؤكد منه».

أدركت أليسون أنها لم تكن رحلة لصيد الغزلان، وقد اخترع بوليت هذه الحجة لإبعاد ماري عن بقية حاشيتها.

بدت ماري متفاجئة جداً، وشعرت بتماسكها يخونها وبأنها ترتبك وتحدث بشكل غير مفهوم: «لم أقم قط... لطالما كنت أختاً صالحة... أنا صديقة إليزابيث...».

لم يلتقِ جورج بالآلهذا الكلام وقال: «وخدمك المذنبون في هذا أيضاً سيُعدون عنك».

«يجب أن أبقى معها»، قالت أليسون.

نظر جورج إلى ويلارد الذي هزّ رأسه في رفض.

«ستبقين مع الخدم الآخرين»، قال جورج.

التفتت ماري إلى كلود وقالت: «لا تدعهم يفعلون هذا بي».

بدا كلود مرتعباً وتعاطفت أليسون معه فهو مجرد سكرتير ولا يستطيع فعل شيء.

ترجلت ماري عن حصانها وجلست على الأرض قائلة: «لن أذهب معكم».

تقدم ويلارد وتحدث للمرة الأولى موجهاً كلامه إلى أحد أفراد المجموعة: «فلتذهب إلى البيت»، وأشار إلى مزرعة كبيرة شبه مخفية بين الأشجار وتبعد عنهم ميلاً. «لا بد أن لديهم عربية. أحضرها إلى هنا. وإن اضطرتهم اربطوا ماري ستيوارت وضعوها في العربة».

وقفت ماري ستيوارت مجدداً بكل استسلام ثم قالت بإحباط: «سأرافقكم». وعادت لتمتطي حصانها.

سلم جورج بوليت ورقة يفترض بها أن تكون مذكرة الإيقاف. قرأ بوليت

الورقة وأوماً برأسه موافقاً. احتفظ بوليت بالورقة كدليل في حال ساءت الأمور واحتاج إلى إثبات بأنه تلقى أوامر بتحرير ماري من عهده. بدت ماري شاحبة الوجه وأخذت ترتعش ثم قالت بصوتٍ مضطرب: «هل سأعدم».

أرادت أليسون أن تبكي عندما سمعت هذا.

حدّق بوليت إلى ماري باحتقار، وبعد فترة صمت طويلة وقاسية أجاب على سؤالها: «ليس اليوم».

استعدت الفرقة للتحرك، وقام أحدهم بضرب حصان ماري على مؤخرته فجفل الحصان وترنحت ماري على ظهره، إلا أنها كانت ماهرة في ركوب الخيل، ونجحت في الحفاظ على ثباتها على السرج وتقدمت وأفراد المجموعة تحيط بها.

انخرطت أليسون في البكاء وهي تراقب ماري تغيب عن ناظرها في طريقها إلى سجنٍ آخر على ما يبدو. وتساءلت في نفسها كيف لهذا أن يحدث؛ ولم يكن هناك من تفسير سوى أن نيد ويلارد اكتشف مؤامرة بينغتون.

التفتت أليسون إلى بوليت وسألته: «ما الذي سيفعلونه بها؟».

«ستحاكمم بتهمة الخيانة».

«وماذا سيحدث بعدها؟».

«وبعدها ستلقى العقاب على جرائمها»، قال بوليت. «وستنفذ مشيئة

الرب».

اكتشف نيد أن بينغتون شخص مراوغ، فقد بحث عن هذا المتآمر في كل أرجاء لندن وفي كل بيت نزل فيه من دون أن يصل إلى نتيجة، وأطلق حملة بحث وطنية للعثور عليه، وعمم أوصاف بينغتون وشركائه على كل شريف ورئيس مرفأً وقائمقام في كل المقاطعات. وأرسل رجلين إلى منزل بينغتون في ديربيشاير، وهدد جميع من حقق معهم بعقوبة الإعدام إن فكروا بمساعدة أي متآمر.

لم يكن نيد مهتماً بينغتون على وجه الخصوص، فالرجل لم يعد

مصدر خطر بعد تدمير مخططه. لقد تم نقل ماري، واعتقل معظم المتآمرين الآخرين ويتم التحقيق معهم حالياً في برج لندن، وأصبح بينغتون فاراً من العدالة، وأعاد كل النبلاء الإنكليز الذين كانوا يستعدون للغزو أسلحتهم إلى مخازنهم.

رغم هذا كله يعلم نيد من تجارب طويلة ومحبطة أن مؤامرة جديدة ستنبثق من رماد المؤامرة القديمة، ولهذا حرص على منع حدوث الأمر، وفكر بأن أفضل طريقة هي بجعل محاكمة ماري ستيوارت بتهمة الخيانة كافية لنزع الثقة عنها في عيون معظم مناصريها المتعصبين.

ولكن هناك رجل واحد أراد نيد بشدة القبض عليه، وقد ذكره كل سجين استجوبه؛ إنه جان لانغليه. أكدوا جميعاً أنه لم يكن فرنسياً بل إنكليزياً، وبعضهم التقى به في الكلية الإنكليزية. قالوا عنه إنه رجل طويل في حدود الخمسين من العمر وقد يبدأ خط شعره يتراجع في المقدمة وأن ما من شيء مميز في مظهره، ولم يعرف أحد اسمه الحقيقي أو أصله.

إن حقيقة أن ما من أحد عرف الكثير عن شخص بهذه الأهمية جعلت نيد يصل إلى الاستنتاج أنه رجل ماهر جداً وبالتالي فإنه خطير.

بعد استجوابه روبرت بولي بات نيد يعلم أن لانغليه وبينغتون كانا في منزله قبل دقائق من الإغارة، وأنهما على الأغلب قد يكونان الرجلين اللذين شاهدهما الجنود يهربان من الكنيسة المجاورة تحت غطاء قطع الخراف. لم يتمكن نيد من الإمساك بهما، ومن المرجح أنهما ما يزالان معاً برفقة متآمرين آخرين هارين أيضاً.

احتاج نيد إلى عشرة أيام ليتمكن من تحديد مكانهما.

في الرابع عشر من شهر آب/ أغسطس وصل إلى منزل ويلزنهايم في سيدنيغ لاین رجل خائف على ظهر حصان متعرق من شدة الركض. كان شاباً من عائلة بيلامي، وهي عائلة كاثوليكية معروفة إلا أنها لم تكن متهمة بالخيانة. كان بينغتون وأصدقاؤه الذين فروا معه في منزل أوكرن هول التابع للعائلة والقريب من قرية هارو أون ذا هيل التي تبعد اثني عشر ميلاً غرب لندن. كان بينغتون وجماعته قد وصلوا مرهقين وجائعين وبحاجة إلى مأوى. اضطرت عائلة بيلامي إلى تقديم الطعام والشراب لهم خوفاً

على حياتهم كما ادعوا، ولكنهم أصرروا على أن يغادروا المنزل ويتابعوا طريقهم. ولأن العائلة تخاف من أن تُتهم بالتآمر ويحكم عليها بالإعدام فقد حرصت على إظهار ولائها من خلال مساعدة السلطات بالإبلاغ عن المتآمرين.

طلب نيد تجهيز الأحصنة على الفور.

ركب نيد وجنوده الأحصنة وانطلقوا بأقصى سرعة، وفي أقل من ساعة وصلوا إلى قرية هارو أون ذا هيل. كان موقع القرية يفسر سبب تسميتها بهذا الاسم فقد استقرت على قمة هضبة وسط حقول من حولها⁽¹⁾ وكانت القرية تُفاخر بمدرسة صغيرة فيها أنشأها مزارع محلي. حط نيد رحاله في نزل القرية، وعلم أن مجموعة من الغرباء المعفرين بالتراب والمريبين قد عبروها مؤخراً سيراً على الأقدام في طريقهم شمالاً.

قاد الفتى الشاب من عائلة بيلامي نيد وجنوده إلى كنيسة هارو المميزة بحجارتها الرملية العتيقة وحتى حدود القرية التالية التي تدعى هارو ويلد كما قال لهم الفتى. خارج تلك القرية وفي نزل يدعى ذا هيير أمسكوا بالرجال المطاردين.

دخل نيد ورجاله إلى النزل بسيوفهم المرفوعة والجاهزة للقتال، ولكن مجموعة بينغتون الصغيرة لم تُظهر أي مقاومة.

تفحصهم نيد جيداً، واكتشف أن مظهرهم مثير للشفقة فشعورهم مقصوفة كيفما اتفق، ووجوههم ملطخة بشراب ما في محاولة بائسة لتمويه أنفسهم. كانوا نبلاء معتادين على النوم في أسرة مريحة ولذلك كانت آثار النوم بشكل سيئ لعشرة أيام واضحة على وجوههم. وبدا لنيد أنهم شعروا بالراحة لأنه أمسك بهم.

«من منكم يدعى جان لانغليه؟» قال نيد.

لم يُجب أحد، وساد الصمت لبعض الوقت.

وأخيراً قال بينغتون: «إنه ليس هنا».

1- الاسم هارو أون ذا هيل يعني حرفياً محراث فوق الهضبة. (الترجمة)

في الأول من شهر شباط/ فبراير من عام 1587 كان نيد على شفا الانهيار. كان قد أخبر سيلفي أنه يفكر بترك خدمة الملكة، وأنه سيتقاعد من حياة البلاط، ويتابع عمله كعضو في برلمان كينغزبريدج، ويساعد سيلفي في إدارة متجرها. ستكون حياة مملّة ولكنها أكثر سعادة. كانت إليزابيث نفسها سبب سخطه.

لقد قام نيد بكل ما بوسعه لتحرير إليزابيث من خطر ماري ستوارت. وها هي ماري الآن مسجونة في قلعة فورنغي كاسل في نورثهامبشاير، وقد سُمح لخدمها بالانضمام إليها أخيراً، وحرص نيد على أن يرافقها السير أمياس بوليت المتشدد حتى يفرض حراسة مشددة عليهم جميعاً. في شهر تشرين الأول/ أكتوبر جُمعت الأدلة وقدمت في محاكمة ماري التي أدينّت بتهمة الخيانة. وفي شهر تشرين الثاني/ نوفمبر حكم عليها البرلمان بالإعدام. ومع بداية شهر كانون الأول/ ديسمبر عمّت أخبار حكم الإعدام أرجاء أوروبا وسط فرح عارم. وسارع ويلزنهايم إلى صياغة مذكرة الإعدام ولم يكن على إليزابيث سوى توقيعها حتى يتم التنفيذ. وقد أبدى معلم نيد القديم ويليام سيسيل الذي أصبح الآن اللورد بورلي موافقته على صياغة المذكرة.

ولكن ها هما شهران يمران وإليزابيث لم توقع المذكرة بعد.

وما فاجأ نيد حقاً كان التعاطف الذي أبدته سيلفي نحو إليزابيث.

«إنها لا تريد قتل ملكة»، قالت سيلفي. «فهذا سيسكل سابقة سيئة. قد

تكون ملكة ولكنها ليست الوحيدة التي تشعر بأن هذا الفعل سابقة سيئة. إن أعدمت ماري سيستشيط كل ملوك أوروبا غضباً، ولا يعلم أحد كيف سينتقمون منها».

لم يكن نيد قادراً على رؤية الأمور بهذه الطريقة، فقد كرّس حياته لحماية

إليزابيث، وانتابه شعور بأنها ترفض الجهود التي يبذلها في سبيلها.

وتأكيداً على صحة وجهة نظر سيلفي توجه سفيراً فرنسا وإسكتلندا إلى

قصر غرينويش بالاس في الأول من شهر شباط/ فبراير لمقابلة إليزابيث والتماس عفوٍ عن ماري. لم تكن إليزابيث ترغب بالدخول في مشاكل مع كلا البلدين فقد وقعت مؤخراً على معاهدة سلام مع ملك إسكتلندا وابن ماري جيمس السادس، ولكن من جهة أخرى ما تزال حياة إليزابيث في خطر،

ففي شهر كانون الثاني / يناير اعترف رجلٌ يدعى ويليام ستافورد بالتخطيط لتسميم الملكة. أذاع ويلزنهايم الخبر، وجعل الأمر يبدو كأن ستافورد كان على وشك النجاح في فعلته كي يحشد دعماً شعبياً لقرار إعدام ماري. وإن وضعنا المبالغة جانباً فإن كل ما يحدث أشبه بتذكير مرعب للإليزابيث بأنها لن تشعر بأمان حقيقي ما دامت ماري على قيد الحياة.

بعد مغادرة السفيرين قرر نيد أن يقدم مذكرة الإعدام إلى إليزابيث مجدداً، وقد تكون اليوم في مزاج جيد لتوقعها.

يعمل نيد مع ويليام ديفيسون الذي ينوب عن وزير الخارجية ويلزنهايم بسبب مرض الأخير. وافق ديفيسون على خطة نيد فقد كان جميع مستشاري إليزابيث يستमितون للانتهاء من هذا الأمر. قام ديفيسون ونيد بوضع مذكرة الإعدام وسط كومة من الأوراق كان على إليزابيث توقيعها.

يعلم نيد أنه لا يمكن خداع إليزابيث بهذه الحيلة الصغيرة، ولكنها قد تتظاهر بأنها خدعت، فقد شعر بأنها تبحث عن مخرج لتوقيع المذكرة والادعاء لاحقاً بأنها لم تكن تنوي توقيعها. وإن كان هذا ما تريده فسيحرص نيد على تحقيقه.

شعر نيد بالراحة عندما دخل غرفة الاجتماع الملكية، ورأى إليزابيث في مزاج جيد.

«الطقس معتدل رغم أننا في شهر شباط / فبراير»، قالت الملكة التي كانت تشعر بالحر الشديد مؤخراً. قالت سيلفي إن السبب هو عمرها فقد كانت في الثالثة والخمسين. «هل أنت بخير يا ديفيسون؟ هل تتمرن بما يكفي؟ أنت تعمل بجِد كبير».

«أنا بخير يا مولاتي، من اللطف أن تسألني»، قال ديفيسون. لم تحاول إليزابيث المزاح مع نيد فقد كانت تعلم أنه منزعج من مراوغتها. لم يكن نيد قادراً على إخفاء مشاعره عنها، وهي بدورها تفهمه جيداً. ربما كانت تفهمه كما تفهمه سيلفي.

كانت إليزابيث تملك حدساً مذهلاً وها هي تثبت وجوده حقاً بقولها لنيد وهي ما تزال توجه حديثها إلى ديفيسون: «هل تحوي هذه الكومة من الأوراق التي تحتضنها كطفلٍ محبوب على مذكرة الإعدام؟».

شعر نيد بالغباء. لم يكن لديه أدنى فكرة كيف وصلت إلى هذا الاستنتاج.
«أجل»، اعترف ديفيسون.
«أعطني إياها».

أخرج ديفيسون الورقة من بين الأوراق في المجموعة وسلمها للملكة وهو ينحني لها. شعر نيد بأنها ستقوم بتوبيخهما على محاولة تمرير المذكرة بهذه الطريقة، ولكنها لم تفعل بل أخذت المذكرة ورفعتهما بعيداً عن وجهها قليلاً بسبب نظرها السيئ ثم أخذت تقرأها: «أحضر لي قلماً وحبراً».
توجه نيد المذهول إلى طاولة جانبية وجلب لها ما أرادته.

هل ستوقع على المذكرة؟ أم ستحاول التلاعب به كما تلاعبت بكل هؤلاء الأمراء الأوروبيين الذين أرادوا الزواج منها؟ لم تتزوج إليزابيث قط، وربما لن توقع على مذكرة إعداد ماري ستوارت أيضاً.

وضعت إليزابيث الريشة في المحبرة التي حملها نيد. ترددت ثم نظرت إلى نيد بابتسامة عجز عن فهمها ووقعت المذكرة بكل أناقة.

ووسط ذهول حقيقي على توقيع المذكرة أخيراً أخذ نيد الوثيقة منها وسلمها إلى ديفيسون.

بدأت إليزابيث حزينة وقالت: «ألا تشعر بالأسى عند رؤيتك لمثل هذا العمل».

«أفضل رؤية جلالتك على قيد الحياة حتى لو كان الثمن حياة ملكة أخرى»، قال ديفيسون.

وفكر نيد في نفسه بأن جواب ديفيسون مناسب وسيذكر إليزابيث بأن ماري كانت تريد قتلها.

«خذ المذكرة إلى اللورد تشانسلر واطلب منه ختمها»، قالت إليزابيث.
فكر نيد بأن الأمور بدأت تتخذ مساراً أفضل فإليزابيث تبدو جادة بطلبها هذا.

«أجل يا جلالة الملكة»، قال ديفيسون.

«ولكن اعمل بسرية»، أضافت إليزابيث.

«أجل يا مولاتي».

كان تصرفاً حكيماً من ديفسون أن يوافقها على ما طلبت، ولكن لماذا أخبرته أن يتصرف بسرية؟ وقرر نيد ألا يسألها.

التفتت إليزابيث إليه وقالت له: «فلتُخبر ويلزنهام بما فعلت»، ثم أضافت بسخرية: «سيشعر براحة كبيرة قد يموت من شدتها».

«الحمد لله أن مرضه ليس خطيراً جداً»، قال نيد.

«أخبره أن عملية الإعدام يجب أن تتم داخل قلعة فورنغي كاسل وليس خارجها على الملأ».

«حسناً».

وهنا بدت الملكة وكأنها غرقت في التأمل.

«فقط لو أن أحد الأصدقاء المخلصين يقوم بالعمل سراً»، قالت بهدوء ومن دون أن تنظر إليهما. «عندها لن يلومني سفيرا فرنسا وإسكتلندا على الأمر».

بدا نيد مصعوقاً. كانت تقترح عليهما ارتكاب جريمة. وأدرك على الفور أنها لا تريد يداً في الأمر ولا تريدهما أن يذكرها هذا أمام الآخرين. سيكون من السهل على ملكة أن تنكر أنها أدلت بهذا الاقتراح، وستثبت وجهة نظرها بإعدام القاتل.

نظرت إليزابيث مباشرة إلى نيد، ويبدو أنها أحست باستهجانها لاقتراحها، ثم انتقلت بنظرها إلى ديفسون الذي لم يقل شيئاً أيضاً. تنهدت وقالت: «اكتب إلى السير أمياس في فورنغي، وأخبره بأن الملكة تأسف لأنه لم يتمكن من جعل حياة ماري ستوارت أقصر بالنظر إلى الخطر العظيم الذي يتهدد إليزابيث كل دقيقة».

كانت هذه قسوة كبيرة حتى بمعايير إليزابيث نفسها. فبالكاد كانت عبارة «جعل حياة ماري ستوارت أقصر» هي تورية مناسبة. ولكن نيد يعرف بوليت جيداً؛ إنه بلا شك سجان قاسٍ، ولكن قيمه الأخلاقية المتشددة التي قادته لمعاملة سجينته بتلك القسوة تمنعه من قتلها، ولن يتمكن من إقناع نفسه بأن هذه الجريمة هي مشيئة الرب. سيرفض طلب إليزابيث، وسيلقى عقابه على هذا على الأرجح. إن إليزابيث لا تحتمل الرجال الذين لا يطيعونها.

ثم منحت الإذن لديفسون ونيد بالانصراف.

في الخارج تحدث نيد إلى ديفسون بهدوء.

«عندما تختم المذكرة أقترح أن تأخذها إلى اللورد بورلي الذي سيدعو إلى اجتماع عاجل لمجلس الشورى الملكي على الأغلب. أنا واثق من أنهم سيصوتون على إرسال المذكرة إلى قلعة فورنغي من دون استشارة إضافية للملكة. فالجميع يريد الانتهاء من الأمر».

«ما الذي ستفعله أنت؟» قال ديفسون.

«أنا؟» قال نيد. «سأقوم بالبحث عن جلاد».

كانت ماري ستيوارت الوحيدة بين أفراد حاشيتها التي لم تنخرط في البكاء.

أحاطت النساء بسريرها طوال الليل. لم ينم أحد تلك الليلة. ومن الردهة الكبيرة خارجاً سمعوا أصوات مطارق النجارين وهم ينون المقصلة. خارج جناح ماري المزدهم لم يتوقف وقع الأحذية الثقيلة طوال الليل. كان بوليت يخشى وصول فرقة إنقاذ، ولهذا وضع حراسة مشددة على جناحها.

نهضت ماري في تمام الساعة السادسة صباحاً، والظلام ما يزال مخيماً في الخارج. ألبستها أليسون ثيابها على ضوء الشموع. اختارت ماري سترة قصيرة بلون أحمر داكن وصدراً من الساتان بياقة منخفضة، ثم ارتدت تحتها تنورة ساتانية سوداء وعباءة من دون أكمام من نفس القماش ومطرزة بخيوط ذهبية والأكمام مفتوحة على بطانة أرجوانية.

ارتدت طوقاً فرائياً لالتقاء برد قلعة فورنغي كاسل. ساعدتها أليسون على تثبيت غطاء رأس أبيض بخمار طويل مخرم ينسدل على طول ظهرها ويصل إلى الأرض، وذكرها هذا بالخمار المخملي الأزرق والرمادي الجميل الذي حملته في حفل زفاف ماري في باريس منذ سنتين بعيدة وحزينة.

دخلت ماري إلى المصلى الصغير فيما بقيت أليسون والآخرون في الخارج. انبلج الفجر وهم ينتظرون. نظرت أليسون من النافذة ورأت أن الطقس سيكون لطيفاً ومشمساً اليوم، ولسبب ما أثار هذا التفصيل البسيط غضبها.

دقت الساعة معلنة أن الوقت قد أصبح الثامنة صباحاً، وبعد هذا بقليل

سَمِعَ صَوْتَ طَرِيقٍ شَدِيدٍ عَلَى بَابِ مَخْدَعِ مَارِي، وَأَتَى صَوْتَ رَجُلٍ مِنَ الْخَارِجِ: «إِنَّ السَّادَةَ بَانْتَظَارِ الْمَلِكَةِ».

حَتَّى هَذِهِ اللَّحْظَةَ لَمْ تَسْتَطِعِ أَلَيْسُونَ التَّصَدِيقَ بِأَنَّ مَارِي سَتُقْتَلُ، وَتَخِيلْتَ أَنَّ الْأَمْرَ مَجْرَدُ خَدْعَةٍ أَوْ مَسْرَحِيَّةٍ أَعَدَّ لَهَا بُولِيْتُ بِسَبَبِ ضَعْفِ مَاءٍ، أَوْ أَنَّ إِيْزَابِيْثَ قَدْ تَصَدَّرَ عَفْوًا مَلِكِيًّا فِي اللَّحْظَةِ الْأَخِيْرَةِ. تَذَكَّرْتُ أَنَّ وَيْلِيَامَ أِبْلَتْرِي الَّذِي أَطْلَقَ النَّارَ عَلَى إِيْزَابِيْثَ عِنْدَمَا كَانَتْ فِي مَوْكَبٍ عَلَى نَهْرِ التِّيْمَزْ قَدْ نَالَ عَفْوًا مَلِكِيًّا وَهُوَ عَلَى الْمَقْصَلَةِ. وَلَكِنْ إِنْ كَانَ السَّادَةُ هُنَا لِيَشْهَدُوا عَلَى الْإِعْدَامِ فَلَا بَدَّ أَنَّ كُلَّ هَذَا حَقِيْقِي. شَعَرْتُ أَلَيْسُونَ بِقَلْبِهَا يَغْوِرُ عَمِيْقًا فِي صَدْرِهَا وَبِالْعَجْزِ فِي قَدَمِيْهَا. أَرَادَتْ أَنْ تَسْتَلْقِي وَتَغْلُقَ عَيْنِيْهَا وَتَنَامَ إِلَى الْأَبَدِ. وَلَكِنْ كَانَ عَلَيْهَا أَنْ تَعْتَنِي بِمَلِكْتِهَا.

قَرَعْتُ عَلَى بَابِ الْمَصْلِيِّ وَأَلْقَيْتُ نَظْرَةً إِلَى الدَّاخِلِ. كَانَتْ مَارِي رَاكِعَةً أَمَامَ الْمَذْبُوحِ وَبِيَدِهَا كِتَابَ الصَّلَوَاتِ بِاللَّاتِيْنِيَّةِ.

«فَلْتَمْنَحِيْنِي بَعْضَ الْوَقْتِ لِأَنْهِيَ صَلَوَاتِي»، قَالَتْ مَارِي.

عِنْدَمَا أَغْلَقْتُ أَلَيْسُونَ الْبَابَ أَخْبَرْتُ الرِّجَالَ بِرِسَالَةِ مَارِي، وَلَكِنْهُمْ لَمْ يَكُوْنُوا فِي مَزَاجٍ إِعْطَاءِ مَارِي أَيِّ امْتِيَازَاتٍ. فُتِحَ بَابُ الْمَخْدَعِ عَنُودًا وَكَانَ الشَّرِيْفُ أَوَّلَ الدَّاخِلِيْنَ.

«أَمَلْ أَلَا تَجْبِرُنَا عَلَى جَرِّهَا إِلَى هُنَاكَ»، قَالَ الشَّرِيْفُ بِصَوْتٍ مَمْزُوجٍ بِالْخَوْفِ وَشَعَرْتُ أَلَيْسُونَ فِي لَحْظَةٍ تَعَاظَفَ لَمْ تَتَوَقَّعُهَا بِأَنَّهُ هُوَ أَيْضًا، يَشْعُرُ بِالْحَزَنِ.

فَتَحَ الشَّرِيْفُ بَابَ الْمَصْلِيِّ مِنْ دُونِ أَنْ يَقْرَعَ بَابَهُ أَوَّلًا. نَهَضَتْ مَارِي عَلَى قَدَمِيْهَا فَوْرًا. بَدَتْ شَاحِبَةً إِلَّا أَنَّهَا كَانَتْ هَادِئَةً وَأَلَيْسُونَ الَّتِي تَعْرِفُهَا حَقَّ الْمَعْرِفَةِ، شَعَرْتُ بِالْأَطْمِنَانِ لِأَنَّهَا وَفِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ، سَتَحَافِظُ عَلَى شَخْصِيَّتِهَا الْمَلِكِيَّةِ طَوَالَ الْمَحْنَةِ الْقَادِمَةِ. شَعَرْتُ أَلَيْسُونَ بِالرَّاحَةِ عِنْدَمَا رَأَتْ هَذَا. كَانَتْ سَتَشْعُرُ بِالْحَزَنِ لَوْ أَنَّهَا رَأَتْ مَارِي تَفْقِدُ كِبْرِيَاءَهَا وَحَيَاتِهَا فِي آنٍ مَعًا.

«فَلْتَلْحَقِي بِي»، قَالَ الشَّرِيْفُ.

التفتت ماري إلى الورااء بسرعة وأخذت الصليب العاجي عن الخطاف المعلق على الحائط فوق المذبح. وبالصليب على صدرها الكبير وكتاب الصلوات في يدها الأخرى سارت ماري خلف الشريف ولحقت بها أليسون.

بدت ماري أطول بقليل من الشريف. لقد جعلها المرض وسنوات السجن الطويلة أكثر سمنة وأفقدتها استقامة كتفيها، إلا أن أليسون رأت وبكل فخرٍ حزين، أنها قررت المحافظة على استقامة مشيتها، والكبرياء على وجهها وثبات خطوها.

توقفوا في حجرة الانتظار خارج القاعة وقال الشريف: «يجب أن تدخل الملكة إلى هنا وحدها».

احتج خدم ماري ولكن الرجل كان حازماً: «إنها أوامر الملكة إليزابيث». تحدثت ماري بصوت عالٍ ولكن ثابت: «لا أصدقك. إن إليزابيث ملكة عذراء ويستحيل أن تحكم على امرأة أخرى بالموت من دون وصيفات يهتمن بها».

تجاهل الشريف كلامها، وفتح باب القاعة. ألقت أليسون نظرة إلى المنصة المرتجلة التي يبلغ ارتفاعها قدمين والمغطاة بقماش أسود، فيما تحلق حشد من النبلاء حولها.

عبرت ماري الباب، ومن ثم توقفت في منتصف الطريق حتى لا يُغلق الباب وقالت بصوتٍ مكروب تردد صدها في أرجاء القاعة: «أرجو من سيادتكم أن تسمحوا لخدمي بمرافقتي حتى يتمكنوا من إخبار الناس عن الطريقة التي مُت بها».

«قد يغمسون مناديلهم في دمك ويستخدمه الأغبياء المؤمنون بالخرافات كأثار مقدسة»، قال أحد الحاضرين.

أدركت أليسون أن أحدهم كان مهتماً برأي العامة في إعدام ماري. ولكن مهما فعلوا يبقى، جميع من شارك في هذا العمل الخسيس، موضع كره واحتقار إلى أبد الأبد.

«لن يفعلوا هذا»، قالت ماري. «أعدك».

تجمع السادة وسمعتهم أليسون يتهامون ومن ثم علا صوت أحدهم قائلاً: «حسناً، ولكن ستة خدم فقط».

رضخت ماري وأشارت إلى الخدم الستة الواحد تلو الآخر، وبدأت بأليسون أولاً. وعندما انتهت تقدمت إلى الأمام.

أصبحت أليسون الآن قادرة على رؤية القاعة بأكملها. ارتفعت منصة

في الوسط مع كرسيين جلس عليهما الإيرل كينت والإيرل شروبيري أما الكرسي الثالث فقد وضعت عليه وسادة ويبدو أنه من أجل ماري. أمام المنصة المغطاة بقماش أسود امتدت منصة الإعدام، وعلى الأرض فأس كبيرة ويبدو أن نصلها قد سُحذ حديثاً.

كان أمام المنصة كرسيان. جلس بوليت على أحدهما فيما جلس رجل لم تعرف عليه أليسون على الكرسي الآخر. وإلى جانب المنصة وقف رجل مفتول العضلات في ثياب عامل. كان الرجل الوحيد في الغرفة الذي يرتدي مثل هذه الثياب، وأدركت أليسون بعد لحظة من الحيرة أنه الجلاد. تحلقت مجموعة من الجنود المدججين بالأسلحة في حلقة حول المنصة، وخلف الجنود وقف المتفرجون؛ فقد كان وجود شهود على عملية الإعدام أمراً ضرورياً.

رأت أليسون نيد ويلارد بين الحشد. يتحمل نيد مسؤولية هذا الحدث الرهيب أكثر من أي أحد آخر. لقد تفوق على أعداء إليزابيث في كل خطة وضعوها. لم يبدو عليه أنه يشعر بالانتصار. في الحقيقة بدا مذعوراً من منظر المنصة والفأس والملكة التي انتهى أمرها. كانت تفضل أليسون أن تراه فخوراً بما فعله حتى تتمكن من كرهه أكثر.

احترقت جذوع الخشب في المدفأة الكبيرة، ولكنها لم تنشر الدفء المطلوب في المكان، وبدا لأليسون أن القاعة أبرد من الفناء المضاء بأشعة الشمس كما يبدو من النوافذ.

اقتربت ماري من المنصة. وفيما كانت تقترب وقف بوليت وقدم يد المساعدة لها.

«شكراً لك»، قالت ماري ولكن لم تخفَ عليها السخرية القاسية في هذه البادرة لأنها أضافت بعد هذا وبمرارة: «لن أسبب لك المزيد من المتاعب بعد الآن».

ثم صعدت الدرجات الثلاث برأسٍ مرفوع، وأخذت مكانها على كرسي الإعدام.

وفيما كانوا يقرأون عليها مذكرة الإعدام جلست من دون أدنى حركة وبوجه يخلو من أي تعبير، ولكن عندما بدأ الكاهن بالصلاة بصوتٍ عالٍ

ومُفاخر سائلاً الرَّبَّ أن يهديها إلى العقيدة البروتستانتية في اللحظة الأخيرة أبدت احتجاجها: «أنا عازمة على البقاء مخلصاً للكنيسة الرومانية الكاثوليكية»، ثم أضافت بثبات ملكي: «وأرغب ببذل دمي في سبيل الدفاع عنها».

لم يُلقِ الرجل بالآلما قالته وتابع.

استدارت ماري جانباً وهي ما تزال على كرسيها حتى أصبح ظهرها للكاهن ثم فتحت كتاب الصلاة اللاتيني. أخذت تقرأ من الكتاب بصوت عالٍ وإنما هادئ في الوقت الذي تابع فيه الكاهن صلاته. شعرت أليسون بالفخر، وفكرت بأن ماري تصرفت بلباقة أكثر منه، ثم ركعت ماري على ركبتيها واستندت بمرفقيها إلى الكرسي وتابعت الصلاة قبالة مكان الإعدام وكأنه مذبح.

وأخيراً انتهت الصلاة، وكان على ماري الآن أن تخلع عباءتها. صعدت أليسون إلى المنصة لتساعدتها. بدت ماري كأنها ترغب بخلع ملابسها بسرعة، وكأنها تستعجل الخلاص من الأمر. ساعدتها أليسون على خلع معطفها وتنورتها بأقصى سرعة ممكنة، ومن ثم أزال غطاء الرأس والخمار أيضاً. وقفت ماري على المنصة في ثياب داخلية بلونٍ أحمر قانٍ. كانت ثيابها تجلياً حقيقياً للشهيدة الكاثوليكية، وأدركت أليسون أنها اختارت هذا اللون لهذه الغاية بالضبط.

كان خدماها يبكون ويصلون بصوتٍ عالٍ، ولكن ماري نهتهم عن فعل هذا قائلة لهم بالفرنسية: «لا تبكوا علي».

حمل الجلاد الفأس.

أحضرت خادمة أخرى من خادما ماري شريطاً أبيض وعصبت عيني الملكة.

ركعت ماري. لم تكن قادرة على رؤية خشبة الإعدام إلا أنها تحسستها بيدها، ومن ثم أخفضت رأسها في وضعية ظهر معها عنقها الأبيض العاري. بعد قليل ستقطع الفأس هذا اللحم الطري. وارتعدت فرائص أليسون من الخوف عندما فكرت بهذا.

وبصوتٍ عالٍ صرخت ماري: «إلى يدك يا مولاي أسلم روحي».

رفع الجلاد الفأس عالياً وأنزلها بقوة.

لم ينجح الجلاد في تحقيق ضربة قاتلة؛ فالضربة لم تقطع عنق ماري بل أصابت مؤخرة رأسها. لم تكن أليسون قادرة على ضبط نفسها، وأفلتت منها شهقة عالية. كان هذا أفظع منظر شاهدته في حياتها.

لم تتحرك ماري، ولم تعرف أليسون إن كانت ما تزال فاقدة للوعي فهي لم تصدر أي صوت.

رفع الجلاد فأسه مجدداً وأنزلها، وضرب هذه المرة بشكل أفضل. اخترق النصل الفولاذي العنق في المكان الصحيح وتابع حتى النهاية باستثناء وتر بقي عالقاً في النهاية ومنع رأسها من السقوط.

وفي حركة مرعبة أمسك الجلاد برأس فأسه بين يديه وقطع الوتر. وأخيراً سقط رأس ماري عن خشبة الإعدام على حصيرة من القش مخصصة له.

رفع الرجل الرأس بيده ليراه الجميع وقال: «فليحفظ الربّ الملكة». ولكن ماري كانت ترتدي شعراً مستعاراً. سرى الهلع والتقرز في أوصال أليسون عندما رأت الشعر المستعار ينفصل عن الرأس. وقع رأس ماري على المنصة كاشفاً عن شعر رمادي قصير فيما بقي الشعر المستعار الأحمر والمجعد بيد الجلاد.

كان هذا آخر إذلال فظيع تمر به ماري، ولم يكن بوسع أليسون فعل شيء سوى إغلاق عينيها.

الفصل الخامس والعشرون

انتاب سيلفي شعور بالغيثان عندما فكرت بالغزو الإسباني، إذ تخيلت وقوع مجزرة أخرى كتلك التي وقعت في عيد القديس بارثولوميو، واستعادت في ذهنها أكوام الجثث العارية بجروحها القبيحة في شوارع باريس معتقدة أنها هربت من كل ما حصل. حتماً لا يمكن لهذا أن يتكرر.

غير أعداء الملكة إليزابيث تكتيكمهم، فبدلاً من حياكة المؤامرات السرية باتوا يفضلون القيام بأعمالهم علناً، حيث شرع فيلبي ملك إسبانيا بجمع أسطوله البحري بعد مناقشة خطة الغزو مطولاً، وقد أعطى قطع رأس ماري ستيوارت هذا الغزو شرعيةً كاملة في أعين القادة الأوروبيين، كما أصيب البابا سكتوس البائس بصدمة شديدة جراء إعدام ماري ووعد بمليون قطعة ذهبية لتغطية كلفة الحرب.

كان نيد قد علم مسبقاً بأمر الأسطول الذي أمسى الآن أسوأ سر في أوروبا، كما سمعت سيلفي به عندما جرت مناقشته في الكنيسة البروتستانتية الفرنسية في لندن. لم يتمكن الملك فيلبي من إخفاء مئات السفن وآلاف الجنود في المحيط وداخل ميناء الانطلاق في لشبونة حيث قامت القوات البحرية التابعة لفيلبي بشراء ملايين أطنان المؤن من طعام وبارود وقذائف مدفعية وجميع البراميل الضرورية لتخزين كل شيء، كما أُجبر وكلاء الشراء التابعون لفيلبي على تمشيط أوروبا بحثاً عن المؤن، حتى إنهم اشتروا متاجر في إنكلترا، الأمر الذي عرفت به سيلفي عندما تم شنق تاجر من كينغزبريدج يُدعى إيلايجا كوردوينر إثر بيعه متجراً لهم.

استمات نيد لمعرفة خطة معركة الملك الإسباني، أما سيلفي فقد طلبت من معارفها في باريس أن يبقوا متيقظين في حال وجود أي مؤشرات جديدة.

وصلت في هذه الأثناء رسالة من بارني الذي رست سفينته أليس لفترة وجيزة في دوفر أثناء توجهها إلى ميناء كومب، فاغتتم الفرصة لمراسلة أخيه وإخباره بأنه سيصل إلى كينغزبريدج في غضون بضعة أيام، ولسبب معين كان يحدوه الأمل برؤية نيد هناك.

كان لدى سيلفي مساعدٌ يتمتع بالكفاءة والقدرة على تسيير أمور المكتبة أثناء غيابها، وكان نيد قادراً على مغادرة لندن لبضعة أيام. بلغ كلاهما كينغزبريدج قبل وصول بارني، ولأنه لم يخطرهما بموعد وصوله ذهباً إلى الرصيف البحري كل يوم لملاقة السفن القادمة من كومب، ورافقهم ابن بارني ألفو الذي يبلغ الآن الثالثة والعشرين وفاليري فورنيرون.

جمعت ألفو وفاليري علاقةً حب. كانت فاليري الابنة الجذابة للمهاجر صانع الملابس الهوغوني غيوم فورنيرون. كانت واحدةً من بين العديديات من فتيات كينغزبريدج اللواتي فتنهنّ سحر ألفو ويلارد ووسامته. تساءلت سيلفي في نفسها إن ساورت غيوم أيّ هواجس بشأن هذا المتودد الذي يبدو مختلفاً جداً عن أي شخص آخر، لكن يبدو أن كل ما يهم غيوم هو أن ألفو بروتستانتية، فلو أن فاليري أغرمت بشاب كاثوليكي لكان الأمر أشبه بالكارثة. أسرّ ألفو لسيلفي أنه وفاليري مخطوبان بشكل غير رسمي ويستعدان للزواج. «هل تعتقدين أن القبطان سيمانع؟» سأل ألفو بقلق. «لم تسنح لي فرصة سؤاله».

فكرت سيلفي لبرهة ثم قالت: «قل له إنك آسف لعدم تمكنك من طلب موافقته بما أنك لم تره منذ ثلاث سنوات، ولكنك تعرف أن الأمر يروق له، ولذلك لا أعتقد أنه سوف يمانع».

وصل بارني في صباح اليوم الثالث حاملاً مفاجأة لهم، نزل من السفينة بصحبة امرأةٍ أربعينية ذات شعر أشقر مجعد تشوب خديها الحمرة وابتسامة عريضة تعلو وجهها: «هذه هيلغا»، ثم أردف بسرور: «إنها زوجتي».

توجهت هيلغا على الفور نحو ألفو، وأخذت يده بيديها وتحدثت معه بلكنة ألمانية: «أخبرني والدك بكل شيء عن أمك وأعلم أنني لن أحل محلها أبداً، لكنني أمل أن نحب بعضنا بعضاً، وسأحاول ألا أكون زوجة الأب الشريرة التي نسمع عنها في القصص».

لقد تفوهت بما هو صائب حقاً، فكرت سيلفي.

عرفوا القصة الكاملة على أجزاء. كانت هيلغا أرملة من هامبورغ ولكن لم يكن لديها أولاد، وهي تاجرة ثرية تعمل في مجال النييد الألماني الذهبي اللون الذي كان يطلق عليه الإنكليز اسم رينش. في البدء كان بارني زبوناً ثم عاشقاً فخطيباً، وللزواج منه باعت هيلغا شركتها، وخططت لتأسيس شركة جديدة هنا في كينغزبريدج واستيراد النييد نفسه.

تلعثم ألفو عندما قدّم فاليري وهو يبحث عن الكلمات المناسبة ليقول إنهما مخطوبان، إلا أن بارني عاجله بالقول: «إنها رائعة يا ألفو، فلتتزوجها في الحال».

ضحك الجميع وعندها فقط تمكن ألفو من القول: «هذا ما أخطط له أيها القبطان».

استمتعت سيلفي بهذه المناسبة كثيراً فالجميع يتعانقون ويتصافحون، والأحاديث مستمرة وأشخاصٌ كثر يتكلمون في الوقت نفسه. عمّت البهجة والضحك أرجاء المكان، وكالعادة وفي مناسبات كهذه، لم يكن بوسعها التوقف عن مقارنة عائلتها بعائلة نيد.

لقد كانوا ثلاثة فقط، هي ووالداها، ثم توفي والدها وبقيت وحدها مع والدتها. في البداية شعرت بالارتباك من هذا الحشد الكبير لعائلة نيد، إلا أنها أحببت ذلك لاحقاً وهذا جعلها تشعر بضالة عائلتها الأصلية.

أخيراً، ساروا جميعاً إلى مسافة قصيرة في الشارع الرئيسي، وعندما وصلوا إلى المنزل نظر بارني إلى ساحة السوق وقال: «يا للعجب، ماذا حلّ بأطلال الدير؟».

ردّ ألفو: «تعال وشاهد».

سار ألفو بالمجموعة نحو المدخل الجديد في الجدار الغربي للدير حيث قام برصف الباحة المربعة حتى لا يوحلها الحشد، وأصلح الأقواس والقناطر أيضاً، ووضع أكشاكاً عند كل منفذ في الدير. وأصبح المكان برمته يعج بالمتسوقين.

قال بارني: «إنه حلم أمي! من قام بهذا؟».

«أنتَ أيها القبطان» قال ألفو.

وشرح نيد الأمر لبارني قائلاً: «لقد اشترت هذا المكان بأموالك، وحوله ألفو إلى هذا السوق الداخلي الذي خططت له أمنا منذ ما يقارب الثلاثين عاماً».

«رائع» قال بارني.

قال ألفو بفخر: «كما أنه يدرّ عليك مالاً وفيراً».

كانت سيلفي قد أسدت نصائح جمة لألفو بشأن السوق الداخلية إذ كانت على دراية باحتياجات أصحاب المتاجر. وكما هو حال الشبان، لم يتكلم ألفو كثيراً عن المساعدة التي تلقاها، وكشأن العمات اللطيفات لم تذكره سيلفي بذلك.

وللإنصاف تمتع ألفو بغريزة تجارية جيدة، وافترضت سيلفي أنه ورثها عن والدته الجريئة التي كانت على ما يبدو تصنع أفضل روم في إسبانيا الجديدة. «المكان مكتظ هنا»، قال بارني.

«أريد التوسع إلى قاعة الطعام القديمة الخاصة بالرهبان»، قال ألفو ثم أضاف على عجل: «إن كنت توافق على هذا أيها القبطان». «تبدو فكرة جيدة»، قال بارني. «سنلقي لاحقاً نظرة على الأرقام معاً، فلدينا متسع من الوقت».

عادوا عبر الساحة ودخلوا المنزل أخيراً، ثم تحلّقت العائلة حول مائدة الطعام لتناول الغداء، ليتحول الحديث بشكل تلقائي إلى الغزو الإسباني المتوقع.

«بعد كل ما فعلناه»، قال نيد بكآبة أرخت سدولها على أوتار قلب سيلفي، «جلّ ما نريده هو أن نحظى ببلدٍ يمكن فيه للمرء أن ينعم بالسكينة مع ربّه بدلاً من ترديد الصلوات كالبيغاوات، لكنهم لن يسمحوا لنا بذلك».

توجه ألفو لبارني قائلاً: «هل توجد عبودية في إسبانيا أيها القبطان؟».

وتساءلت سيلفي عن سبب طرح ألفو لهذا السؤال.

وتذكرت اللحظة التي بات فيها ألفو على دراية بالعبودية. حصل هذا عندما كان في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمره. كانت والدته قد أخبرته أن جدته كانت عبدة، وأن العديد من العبيد كانوا ذوي بشرة داكنة مثله. وقد شعر بالاطمئنان لعلمه أن العبودية لا يمكن تطبيقها من الناحية القانونية في

إنكلترا، ولم يأتِ على ذكر هذا الموضوع منذ ذلك الحين، إلا أن سيلفي أدركت أن هذا الأمر لم يفارق تفكيره قط فإنكلترا بالنسبة له تعني الحرية، وأثار احتمال الغزو الإسباني مخاوفه حيال هذا الموضوع مجدداً.

«أجل»، قال بارني «هناك عبودية في إسبانيا، ففي إشبيلية حيث كنت أعيش تمتلك كل عائلة غنية بعض العبيد».

«وهل هؤلاء العبيد من ذوي البشرة الداكنة».

تنهد بارني: «القلة منهم أسرى حرب أوروبيين كانوا في أغلب الأحيان من مجدفي المراكب الشراعية، إلا أن معظم العبيد هناك من الأفارقة أو الأتراك».

«هل سيغير الإسبان قوانيننا إن قاموا بغزونا؟».

«بكل تأكيد. سيجعلوننا نعتنق الكاثوليكية وهنا بيت القصيد».

«وهل سيسمحون بالعبودية؟».

«قد يفعلون».

هز ألفو رأسه في تجهم، وتساءلت سيلفي إن كان شبح العبودية سيبقى مهيمناً عليه طيلة حياته، ثم قالت: «أليس بوسعنا فعل شيء لإيقاف هذا الغزو؟».

«أجل»، قال بارني. «يجب ألا نقبع بانتظار وصولهم، علينا أن نضربهم أولاً».

قال نيد: «لقد اقترحنا على الملكة بالفعل أن نقوم بضربة استباقية..».

«ونوقفهم قبل أن يبدووا».

كان نيد أكثر اعتدالاً وأردف قائلاً: «نهاجمهم قبل أن يبحروا بغية إحداث ضررٍ كافٍ يجعل الملك فيلبي يعيد التفكير في الأمر».

وسأل بارني في لهفة: «هل وافقت الملكة إليزابيث على ذلك؟».

«لقد قررت إرسال ست سفن: أربع سفنٍ حربية وقاربان شراعيان. كان هذان القاربان أصغر وأسرع، ويستخدمان عادة للاستطلاع والمراسلة ولا يستخدمان كثيراً في القتال».

«أربع سفنٍ حربية في مواجهة أقوى وأغنى بلد في العالم»، احتج بارني قائلاً «هذا غير كافٍ».

«لا يمكننا المخاطرة بأسطولنا كاملاً فهذا من شأنه أن يترك إنكلترا بلا حماية، إلا أننا نقوم الآن بدعوة السفن التجارية المسلحة للانضمام إلى أسطولنا، وستكون هناك غنائم في حال نجحت المهمة».

«سوف أنضم إلى الأسطول» قال بارني على الفور.

«أوه»، قالت هيلغا التي لم تنضم إلى الحديث حتى الآن، وبدت مذعورة حين قالت: «هل سترحل قريباً؟».

شعرت سيلفي بالأسى عليها، لكن هيلغا تزوجت بحاراً وحياة البحارة محفوفة بالأخطار دوماً.

«سأخذ السفينتين» تابع بارني الذي يمتلك سفينتين الآن: أليس وبيلا. «من المسؤول عن الحملة؟».

«السير فرانسيس دريك» أجاب نيد.

وهنا قال ألفو بحماس: «إنه الرجل المناسب لهذه المهمة». كان دريك بطلاً في أعين الشبان الإنكليز، فقد أبحر حول الأرض، وهو القبطان الثاني الذي يفعل هذا في التاريخ البشري. وفكرت سيلفي أن هذا النوع الجريء من المآثر هو ما يستحوذ على خيال الشباب. «ستكون على ما يرام إن كان دريك معكم»، أضاف ألفو.

«ربما» قالت سيلفي، «لكنني سأصلي ليكون الربّ معكم أيضاً».

«آمين» قالت هيلغا.

لا ينبغي لأحد أن يحب البحر، لكن بارني أحبه. كانت تعتريه نشوة الإبحار والرياح التي تنهش الأشرعة والأمواج التي تتلأأ تحت ضوء الشمس. ثمة ما يبعث على الجنون في هذا الشعور. كان البحر خطيراً حقاً، فعلى الرغم من أن الأسطول الإنكليزي لم يشترك مع العدو بعد فإنه كان قد فقد إحدى سفنه وتدعى ميرانغو أثناء هبوب عاصفة خطيرة في خليج بيسكي، إذ إنهم حتى في الطقس الجيد كانوا عرضةً لخطر دائم إما من هجوم تشنه سفنٌ دولٍ عدوة، أو من قبل قراصنة يتظاهرون حتى اللحظة الأخيرة بأنهم أصدقاء. قلةٌ من البحارة فقط من عاش طويلاً.

أراد ابن بارني المشاركة في هذه المهمة البحرية مدفوعاً بالرغبة في الدفاع

عن بلده من الخطوط الأمامية. أحب إنكلترا وأحب كينغزبريدج على وجه الخصوص، لكن بارني رفض ذلك بشدة، فشغف ألفو الحقيقي هو التجارة وهنا كانت نقطة اختلافه عن والده الذي لطالما كره دفاتر الحسابات. إلى جانب ذلك، فإن مخاطرة بارني بحياته شيء وتعرض حياة ابنه الحبيب للخطر شيء آخر تماماً.

أصبحت أمواج الأطلسي الغادرة أكثر هدوءاً مع اقتراب الأسطول من مياه البحر المتوسط الدافئة. وحسب تقديرات بارني، كان الأسطول يبعد حوالي عشرة أميالٍ عن قادس بالقرب من جبل طارق على الطرف الجنوبي الغربي من إسبانيا، عندما تم إطلاق الإشارة ورفع راية الاجتماع على سفينة القيادة إليزابيث بونافيتشر، تدعو جميع القباطنة إلى عقد مجلس حربي مع نائب الأدميرال السير فرانسيس دريك.

كانت الساعة الرابعة من عصر يوم الأربعاء الواقع في التاسع والعشرين من نيسان/ أبريل عام 1587، والرياح الجنوبية الغربية تدفع بالسفن الست والعشرين مباشرة نحو وجهتها بسرعة خمس عقدٍ بحرية.

أنزل بارني أشرعة السفينة أليس على مضض، فقباطت السفينة وتهادت فوق الأمواج بطريقة كفيلة بإصابة سكان البر بالدوار.

كان الأسطول يضم ست سفنٍ حربية ملكية فقط، أما السفن العشرون المتبقية، بما فيها سفينتا بارني، فقد كانت سفناً تجارية مسلحة. وفكر بارني بأن الملك فيليبي سيقول إنها سفن قراصنة، وهو مصيب في هذا. لكن على عكس الملك فيليبي لم يكن لدى إليزابيث مناجم فضة هائلة في إسبانيا الجديدة لتمويل أسطولها، وكانت تلك هي الطريقة الوحيدة التي تمكنت فيها من حشد أسطولٍ مهاجم.

أمر بارني طاقمه بإنزال قاربٍ إلى المياه ليأخذه إلى سفينة القيادة إليزابيث بونافيتشر كما فعل باقي القباطنة، وما هي إلا دقائق حتى وصل قارب بارني إلى سفينة القيادة، وتسلق سلم الجبال ليصعد على متنها.

كانت إليزابيث بونافيتشر سفينةً كبيرة يبلغ طولها مئة قدم، وتحوي كميات هائلة من السلاح - سبعة وأربعين مدفعاً من بينها مدفعان ضخمان قادران على إطلاق قذائف تزن ستين رطلاً - لكن لم يكن هناك أي قاعة اجتماعات

كبيرة تتسع لجميع القباطنة، لذلك وقف الجميع على سطح السفينة متحلقين حول كرسي مزخرف لم يجروا أحد منهم على الجلوس عليه. كانت بعض سفن الأسطول متأخرة عنهم بميلٍ أو أكثر، فلم يكن جميع القباطنة قد وصلوا عندما ظهر دريك غير الصبور.

كان دريك رجلاً قوي البنية في الأربعينات من عمره، ذا شعرٍ أحمر مجعد وعينين خضراوين وبشرة بيضاء ووردية يطلق عليها الناس أحياناً اسم البشرة «النضرة»، كما بدا رأسه صغيراً مقارنةً بجسده.

خلع بارني قبعته وفعل مثله بقية القباطنة. كان دريك رجلاً معتداً بنفسه، ربما لأنه بلغ ذروة المجد بعد أن بدأ مسيرته من مزرعة فقيرة في ديفون، لكن احترام القباطنة له كان نابعاً من القلب فجميعهم يعرفون تفاصيل رحلته حول العالم التي امتدت لثلاث سنوات.

جلس دريك على الكرسي المزخرف وقال وهو ينظر إلى السماء: «قد نبلغ قادمين قبل غروب الشمس».

لم تكن لشبونة مقصده بل قادمين حيث يحتشد الأسطول الإسباني، وكوالدة بارني المتوفاة كان دريك مهووساً بمعرفة الأخبار ولذلك استجوب قبطني سفينتين تجاريتين هولنديتين صادفهما قبالة ساحل لشبونة، وعلم منهما أن سفن إمداد الغزو تقوم بتحميل الإمدادات في قادمين واغتنام هذه المعلومة. إذ كان من السهل هزيمة سفن الإمداد، ولعل أكثر ما يهم دريك الجشع هو هذه الحمولات التي ستجعل عملية النهب تستحق كل الجهد المبذول من أجلها.

ويشغل منصب نائب دريك الملاح الشهير وليام بورو الذي ألف كتاباً عن البوصلة.

«ولكن لم يكتمل عددنا بعد، فهناك سفن عديدة ماتزال وراءنا وعلى بعد أميالٍ عنا»، قال بورو.

فكر بارني بأنه ما من رجلين متناقضين في العالم أكثر من دريك و بورو، فالنائب رجل متعلم ومتعمق وحذر ويستند في عمله إلى الوثائق والسجلات والجداول، أما دريك فقد كان رجلاً مندفعاً يؤمن بالأفعال ويزدري الجبن.

«الريح والطقس موافقان. علينا أن نغتني الفرصة»، قال دريك.

«ميناء قادس كبير ومدخل الخليج غادر»، قال بورو وفتح خريطة لم يهتم دريك بالنظر إليها. تابع بورو بإصرار: «يوجد ممرٌ واحد فقط في المياه العميقة بالقرب من شبه الجزيرة حيث توجد قلعةٌ مليئةٌ بالمدافع.»
«لن نرفع الأعلام عند دخولنا» قال دريك ثم تابع: «لن يدركوا من نكون إلا بعد فوات الأوان.»

«لكن لا فكرةً لدينا عن السفن الموجودة في الميناء» احتج بورو.
«سفنٌ تجارية كما قال القبطانان الهولنديان.»
«قد تكون هناك سفن حربية أيضاً.»
«جميع السفن الحربية في لشبونة ولهذا نحن ذاهبون إلى قادس.»
بالنسبة لبورو كانت لامبالاة دريك مثيرة للجنون. «ما هي خطة المعركة إذا؟» ألح بورو بغضب.

«خطة المعركة؟» قال دريك بلا اكتراث ثم تابع: «اتبعني.»
بدأ في الحال بتوجيه الأوامر إلى طاقمه. اندفع بارني وبقية القباطنة وعاد الجميع إلى مراكزهم يضحكون مبتهجين على شجاعة دريك التي جعلتهم تواقين للعمل أيضاً. همس عفريتُ القلق في عقل بارني الباطني قائلاً إن بورو قد يكون محقاً في توخيهِ الحذر، إلا أن روح دريك القتالية أصابته بالعدوى.

وحالما عاد بارني إلى سفينة أليس أمر طاقمه بتجهيز الأشرعة. كان هناك ستة أشرعة مربعة الشكل؛ شرعان على كل سارية. تسلق البحارة الصواري كالقروود وسرعان ما ملأ الهواء الأشرعة لتنتقل السفينة تمخر عباب البحر والغبطة تغمر بارني.

حدق إلى الأمام حيث لاحت بقعةٌ ما في الأفق، ليتبين شيئاً فشيئاً أنها القلعة.

كان بارني يعرف قادس، فهي تقع بالقرب من مصب نهر غودافالكفير، وعلى بعد ثمانين ميلاً من إشبيلية حيث عاش مع كارلوس وإبرما قبل حوالي ثلاثين عاماً. وعلى بعد عدة أميال في اليابسة كانت تقع مدينة خيريز التي تنتج النيذ القوي الذي يدعوهُ الإنكليز بالنيذ المعتق. تستقر مدينة قادس بقلعتها عند نهاية شبه الجزيرة الطويلة ويحيطها ميناء طبيعي كبير

حيث ينتهي النهران إلى خليجٍ واسع تحفه قرىً ومستوطنات مطلة على
الواجهة البحرية.

تحركت سفنُ الأسطولِ بهدوءٍ خلف سفينة دريك، السفن الحربية في
المقدمة ثم السفن التجارية.

ومن دون أوامر من دريك شكلت السفن ما يُعرف بـ«الخط الأمامي» أو
«الطابور» بحيث يمكن للعدو الموجود أمامهم مباشرة - أي الإسبان حالياً-
أن يطلق النارَ على سفينةٍ واحدة فقط في كل مرة. وكان اختيار التشكيلة هذه
يعني أنه في حال عثر دريك على الممر الصحيح عبر المياه الضحلة، فإنهم
جميعاً سيجدونهُ أيضاً.

كان بارني خائفاً، ولكن كان لخوفه هذا تأثيرٌ غريبٌ عليه: لقد أثار حماسه
ومنحه شعوراً أفضل مما قد يمنحه النيذ المعتقد. ففي حالات الخطر يشعر
بأنه مفعمٌ بالحياة أكثرَ من أي وقتٍ آخر، إلا أنه لم يكن أحق؛ فقد خبر
ألم الجروح المبرح ورأى ذعرَ الرجالِ الغرقى عندما تتحطم السفن. لكن
وبطريقة ما لم يخفف أيُّ من هذا الإثارة التي أحسَّ بها وهو يتوجه إلى
المعركة وعلى استعداد لأن يقتل أو يُقتل.

وحسب تقديره ستدخل إليزابيث بونافينتشير ميناءً قادم قبل ساعة من
غروب الشمس.

أمعن بارني النظر إلى القلعة فلم يجد أثراً لأيِّ حركةٍ حول المدفعية
تشبه بأن هناك من يلقيها بالقذائف أو يهرول لجلب البارود ودلاء المسح
أو أدوات تنظيف السلاح الطويلة ذات الشكل الحلزوني المسماة لولب
السلاح. جلَّ ما رآه هو بضعة جنود متكئين على السور، ينظرون بفضولٍ
عادي إلى الأسطول المجهول الذي يقترب، لذا بدا من الواضح أن الإنذار
لم يطلق بعد.

عندما دخلت أليس الميناء خلفَ سفينة القيادة أشاح بارني بنظره صوبَ
المدينة. رأى ما بدا أنه ميدانٌ رئيسي يكتظ بالناس، فلم تكن هناك أسلحةٌ
لسببٍ واضح هو أنهم كانوا سيصيبون السفن الكثيرة الراسية جنباً إلى جنب
على طول الواجهة البحرية.

شعر بارني بالحيرة عندما رأى أن بعض السفن قد نزعت أشرعتها

تاركة صواريخها عارية، وتساءل عن سبب قيامهم بهذا. تحتاج الأشرعة إلى الإصلاح بين الفينة والأخرى، ولكن ليس جميعها في الوقت عينه. تذكر ما قاله نيد عن أن الملك فيليبي وضع يده على عشرات السفن الأجنبية من أجل أسطوله رغماً عن إرادة مالكيها، وتكهن بارني أن الأشرعة كانت منزوعة لمنع هذه السفن من الفرار. ولكن ها هي الآن راسية وعاجزة عن الفرار من نيران المدافع الإنكليزية، يا لسوء حظها الشديد!

وبمساعدة أضواء بداية المساء استطاع بارني رؤية معظم الناس في الميدان وقد أداروا ظهورهم للبحر. كانوا منقسمين إلى مجموعتين، ومع اقتراب الأسطول رأى بارني أن المجموعة الأولى بدت كأنها تشاهد مسرحية تُعرض على منصة، فيما أحاطت المجموعة الأخرى بفرقة ألعاب بهلوانية. على حد علم بارني لم تشهد قادم أي معركة، وافترض أن الناس هنا يشعرون بالأمان.

كان قدوم السفن أمراً اعتيادياً ولذلك لم يهتموا به.

سيعانون في الدقائق القليلة المقبلة من صدمة مروعة.

جال بنظره حول الخليج، وقدّر أن هناك حوالي ستين مركباً في الميناء نصفها تقريباً من سفن الشحن الكبيرة، أما بقيةها فكانت مجموعة من الزوارق الأصغر حجماً التي رست عند رصيف الميناء أو في عرض البحر. كان معظم أفراد طواقمها على الشاطئ يأكلون الطعام الطازج، ويشربون في الحانات، ويستمتعون بصحبة النساء. لا شك أن العديد منهم كانوا بين الحشود في الساحة الرئيسية. كانت السفن الإنكليزية على وشك الانقضاض كالثعالب في خمّ الدجاج. دغدغ بارني شعوراً بالنشوة، ستلقى خطة الملك فيليبي ضربة ساحقة إن تمكن الأسطول الإنكليزي من تدمير كل هذه السفن.

جال بارني ببصره في كل الاتجاهات ورأى المراكب الشراعية في الشمال.

كان هناك اثنان منها يخرجان من ميناء سانت ماري عند مصب نهر غوداليه. يعرف بارني هذه المراكب من جوانبها المنخفضة وصفوف المجاديف المائلة على جانبيها التي تعلو وتهبط فوق الماء بتناغم تام. قد

تنقلب هذه المراكب الشراعية جراً عاصفة في المحيط الأطلسي، إلا أنها كثيراً ما تُستخدم في مياه البحر المتوسط الهادئة، كما تمتعت هذه المراكب ذات طواقم العبيد بالسرعة والقدرة على المناورة من دون الحاجة إلى الرياح، ما منحها ميزة على السفن الشراعية.

راقب بارني المركبين يبحران في الخليج. كانت مدافعهما مثبتة في المقدمة لذا لن يتمكننا من إطلاق النار إلا إلى الأمام. عادةً ما تكون هذه المراكب مجهزةً بحواف مديبة أو مصدّ نحاسي من أجل دكّ المراكب الأخرى بعد أن يُجهز حملة الرماح والبنادق على طواقمها. لكن لن يقوم أحدٌ بإرسال مركبين شراعيين لمهاجمة ستٍ وعشرين سفينةً، لذا خلّص بارني إلى أنهما قادمان في مهمة استطلاعية لاستجواب قائد الأسطول القادم.

إنهما هالكان لا محالة.

أدار دريك دفة اليزابيث بونافيتشر نحو المراكب في مناورة نفذها بشكل مثالي، فلو كانت الرياح خفيفة أو معدومة في الخليج لوقع في ورطة لأن السفن الشراعية ستصبح حينها بلا فائدة، في حين أن هذه المراكب لا تحتاج إلى الرياح. لكن دريك كان محظوظاً.

تبعَت السفن الحربية الأخرى سفينة دريك بدقة.

بقيت السفن التجارية على المسار الصحيح. عبرت ممر المياه العميقة متجاوزة القلعة ثم انتشرت في الميناء.

راقب بارني المركبين الشراعيين اللذين، حسب تقديره، ضمّا على متنها حوالي أربعة وعشرين مُجدفاً. وعلى كل مجدافٍ خمسةٌ من العبيد. لا يعيش هؤلاء العبيد طويلاً، فها هم قابعون في قذارتهم ومقيدون بالسلاسل تحت أشعة الشمس الحارقة والأمراض المعدية تنهشهم.

يصمد الضعفاء منهم لبضعة أسابيع، بينما يستمر الأقوياء لعامٍ أو اثنين، وعندما يلقون حتفهم تُرمى جثثهم في البحر من دون أيّ مراسم.

عندما اقتربت السفنُ الشراعية من إليزابيث بونافيتشر، ترقب بارني بدء دريك بعملية الهجوم. وفي اللحظة التي انتابه فيها إحساسٌ بالخوف من أن نائب الأدميرال قد بالغ في انتظاره، ارتفعت سحابةٌ من الدخان من سفينة

القيادة تلاها بعد لحظات صوت دوي المدافع عبر الخليج. سقطت القذيفة الأولى في الماء من دون إحداث ضررٍ يُذكر حيث كان الرامي يقيس المسافة، فالمدفعية تقنيةٌ غير دقيقةٌ وبارني يعرف هذا من عمله سابقاً كقائد مدفعية. لكن القذيفتين اللاحقتين أخطأتا هدفهما أيضاً، قد يكون قائد مدفعية دريك غير كفء.

لم يردّ المركبان على إطلاق النار، فمدافعُهما الصغيرة كانت ماتزال خارج مدى الإطلاق.

لم يكن رامي دريك عاجزاً تماماً؛ فالقذيفة الرابعة حطمت وسط المركب، وأصابت الخامسة مصدّه.

كانت طلقاتٍ قاتلة بالذخيرة الثقيلة وسرعان ما بدأ المركب بالتداعي. سمع بارني صراخ الجرحى وصيحات المدعورين الذين كانوا محظوظين بما يكفي ليقوا سالمين. ألقى الجنود أسلحتهم وقفزوا في المياه ليسبحوا إلى القارب الثاني، أما من لم يتمكنوا من السباحة فقد تشبثوا بقطع من الأخشاب العائمة، وما هي إلا لحظات حتى قام أفراد الطاقم بالمثل. دوت عاصفةٌ من صيحات واستغاثات المجدفين الذين توسلوا فك قيودهم، ولكن لم يلتفت إليهم أحد وتروكوا وحدهم يصرخون بأسى ويغرقون مع الحطام. خفف المركب الثاني من سرعته وبدأ بإنقاذ الناجين. أوقف حينها دريك إطلاق النار، ربما بدافع النبل من أجل أولئك الرجال البائسين في المياه، إلا أن السبب الحقيقي على الأرجح هو الحفاظ على الذخيرة.

وعلى الفور ظهر مزيد من المراكب القادمة من مرفأ سانت ماري وهي تضرب بمجاديفها الماء صعوداً وهبوطاً وبانسجام كقوائم خيول السباق. أحصى بارني ستة قوارب تتجه نحوهم بسرعة عبر مياه الميناء الهادئة. أثنى بارني في نفسه على من كان يتولى القيادة؛ فأرسل ستة مراكب لمواجهة ست وعشرين سفينة عمل قائدٍ شجاع.

أتبعت هذه المراكب تكتيك المجاورة، وذلك لحماية الجوانب الضعيفة لكلّ سفينتين متجاورتين.

استدارت السفن الحربية الأربع مرة أخرى وبدأت بإطلاق النار في آنٍ واحد حالما أصبحت المراكب في مدى إطلاقها.

ومع استمرار المعركة رأى بارني عدة سفن في الخليج تقوم برفع أشرعتها وسحب مراسيها، وتكهن بأن أفراد طواقم هذه السفن لم ينزلوا إلى الشاطئ، وأن قباطتها أدركوا على الفور أن قادمين لتعرض للهجوم فسارعوا إلى الفرار.

لكن معظم السفن كانت عالقة لأنها لا تملك الوقت الكافي لجمع أفراد طواقمها من الحانات والمواخير؛ فلا يمكن لسفينة أن تبحر من دون طاقم. أصاب الهلع جميع من كان في ساحة البلدة. قام البعض بالركض بعيداً عن الواجهة البحرية باتجاه منازلهم، فيما هرعت الغالبية إلى القلعة طلباً للحماية.

انصب اهتمام بارني على تلك السفن التي لم تتحرك من مراسيها في الخليج، والتي يحرسها على الأغلب حارس أو اثنان. بدأ يتفحصها وثبت نظره على سفينة صغيرة ذات أطراف مستديرة وثلاث صوار، وبدا له أنها كانت مصممة للشحن بدلاً من القتال، لكنه لم يلمح أي حركة على متنها.

أمر طاقمه بإنزال الأشرعة لإبطاء تقدم السفينة أليس والاقتراب من هذه السفينة. حين رأى بارني رجلين يقومان بإخلاء السفينة وينزلان على جبل إلى قارب صغير في الماء ثم يفكان الجبل ويجدفان سريعاً نحو اليابسة تأكد من صحة ظنونه، وبأن هذه السفينة باتت مهجورة الآن.

نظر مرة أخرى ناحية الخليج إلى السفن الحربية، ورأى أنها قد أجبرت المراكب على التراجع.

بعد بضع دقائق كانت السفينة أليس قريبة من سفينة الشحن بما يكفي لتنزل أشرعتها وتتوقف. ثم قام رجال بارني بربط السفينتين بالخطافات والحبال، ليتمكنوا من القفز من سفينة إلى أخرى.

لم يكن هناك أحد على متن سفينة الشحن.

نزل جوناثان غرينلاند نائب بارني الأول إلى العنابر لتفقد الحمولة. ثم عاد وعلامات الغضب تعلو وجهه حاملاً بإحدى يديه قطعاً خشبية وبالآخرى حلقات معدنية. «أخشاباً لصنع البراميل» قال باشمئزاز «وحلقات حديد التدعيم».

خاب أمل بارني، فلم تكن تلك غنيمة تستحق العناء، لكن من ناحية

أخرى سيضعف تدمير هذه الشحنة الغزو من خلال إنقاص براميل الإمداد.
«أحرقوا السفينة» قال بارني.

أحضر أفراد الطاقم زيت التريبتين من السفينة أليس ورشوا هذا السائل القابل للاشتعال على سطح سفينة الشحن وفي داخلها، ثم أشعلوا النار في عدة أماكن وقفزوا على عجل عائدين إلى سفينتهم.

كان الظلام قد حلّ لكن سفينة الشحن المشتعلة ألقّت بضوئها على السفن القريبة، فاختر بارني هدفاً ثانياً. اقتربت أليس مجدداً من سفينة هرب منها حراسها فصعد طاقم أليس على متنها. هذه المرة خرج جوناثان غرينلاند فرحاً: «نبذ من خيريز!» ثم تابع: «طوفان من النبيذ المعتق».

كان البحارة الإنكليز يشربون الجعة، فيما كان الإسبان المحظوظون يشربون النبيذ الذي يحتاج أسطول الغزو إلى آلاف الغالونات منه ولكن بارني قرر أنهم لن يحصلوا على هذه الشحنة وصاح: «خذوا كل شيء».

أشعل الطاقم المشاعل وبدؤوا العمل الشاق بنقل البراميل من العنابر إلى السفينة أليس. عملوا مبتهجين لعلمهم أنهم سيحصلون على نصيبهم من بيع هذه الحمولة الباهظة.

كانت سفينة العدو مزودةً بكل المؤن من أجل الغزو، فاغتم طاقم بارني ذلك وأخذوا كل اللحم المملح والجبن والبسكويت ووضعوها في مخازن أليس، بالإضافة إلى هذا كانت سفينة الشحن هذه مزودةً بالأسلحة، فقام بارني بالاستيلاء على البارود ورمى قذائف المدفعية في الماء إذ لم تكن تناسب حجم مدفعيته وسيضمن بهذا أيضاً عدم إطلاقها على السفن الإنكليزية.

حالما أفرغت العنابر أمر بارني بإحراق السفينة.

عندما جال يبصره في أرجاء الميناء رأى خمسة أو ستة مراكب أخرى تحترق. أما على الشاطئ فقد رأى المشاعل تُضاء على طول الواجهة البحرية، ورأى مدافع تجرها الخيول من القلعة إلى رصيف الميناء. سيبقى المغيرون الإنكليز خارج نطاق هذه المدافع لكن بارني قدّر أن الغاية هي إخافة المهاجمين حتى لا يقتربوا من الشاطئ. كما تمكن أيضاً من رؤية قواتٍ تحتشد في الميدان، واعتقد أن سكان البلدة توقعوا أن الهجوم على

المراكب مجرد مقدمة لغزو المدينة، فقرروا بدهاء الاهتمام بأمر دفاعاتهم البرية. لم يعلموا أن أوامر دريك كانت تدمير السفن الإسبانية، وليس غزو المدينة الإسبانية.

لكن في النهاية لم تكن هناك أي مقاومة تذكر باستثناء سفينة ضخمة ردت بإطلاق النار على عدة سفن إنكليزية مهاجمة، وما عدا هذا بالكاد وقع أي إطلاق نار متبادل. وتمكن الغزاة من النهب والحرق من دون أي عوائق. وبحث بارني عن سفينة أخرى ليدهرها.

هلل الإنكليز لخبر تسلل دريك وهجومه على قادس، لكن الإيرل بارت زوج مارجوري لم يشارك في الاحتفالات.

كانت التقارير متباينة إلا أن الجميع قال إنهم دمروا حوالي خمس وعشرين سفينة كبيرة، بالإضافة إلى نهب آلاف الأطنان من الإمدادات أو إغراقها. لقد تم تعطيل الأسطول الإسباني حتى قبل أن ينطلق، كما أنه لم يُقتل أي من البحارة الإنكليز ما خلا إصابة واحدة لأحدهم برصاصة انطلقت من أحد المراكب. حتى إن الملكة إليزابيث حققت أرباحاً من هذه الحملة. «لقد كان يوماً شائناً» احتد بارت أثناء جلوسه على طاولة العشاء في نيو كاسل. «مجموعة من القراصنة المتغطرسين يمارسون القتل والسرقة من دون تحذير أو إعلان حرب».

كان بارت، الذي يبلغ الخمسين من العمر الآن، يعيد إلى ذهن مارجوري تلك الذكرى المؤلمة لوالد زوجها الذي اغتصبها رغم أن بارت سكير أكثر من والده وأكثر بدانة منه أيضاً.

قالت مارجوري بحدة: «تلك السفن كانت في طريقها إلى هنا لقتلنا جميعاً بمن في ذلك ولداي، أنا سعيدة لغرقها». وقف بارتليت الشاب ذو الثلاثة والعشرين ربيعاً إلى جانب والده كالعادة. كان بارتليت يشبه والد مارجوري فقد كان طويل القامة ويغطي النمش وجهه، ولسوء الحظ اعتنق أفكار بارت جميعها. كانت تحبه ولكنه حبّ يشقّ عليها ما جعلها تشعر بالذنب. قال بارتليت: «إن كل ما يريده الملك فيلبي هو إعادة إنكلترا إلى الكاثوليكية، سيرحب معظم الإنكليز بذلك».

«قد يرحب الكثيرون بذلك، ولكن ليس عن طريق غزوٍ من قِبَل بلد أجنبي». احتجت مارجوري.

صُدِّم ستيفن لينكولن قائلاً: «كيف يمكنك قول شيء كهذا يا سيدتي؟ لقد وافق البابا على خطة الملك الإسباني».

لم يثبت ستيفن نفسه صديقاً لمارجوري، إلا أنها كانت تتعاطف معه رغم ذلك. فقد قضى ثلاثين عاماً ككاهن متخفٍ يقيم الطقوس السرية تحت جناح الظلام، ويناول الأسرار المقدسة في مخابئ مهينة كما لو أنه يقوم بفعلٍ شائن. لقد كرس حياته للربِّ لكنه قضاها كمجرم ارتسمت التجاعيد على وجهه المُضنى واعتصرت روحه المرارة. لكن مارجوري رأت أن ستيفن والبابا مخطفان حيال الغزو لذلك قالت بوهن: «أعتقد أن هذا الغزو خطأ كبير لأنه سيُنفر الناس من الكاثوليكية وسيربطونها بالهيمنة الأجنبية».

«كيف لك أن تعرفي ذلك؟» قال ستيفن وقد عنى بكلامه أنه كيف لامرأة أن تعرف مثل هذه الأمور، لكنه لم يجروء على قول هذا صراحةً. «أعرف لأن الأمر نفسه حدث في هولندا»، أجابت مارجوري ثم تابعت: «قاتل الهولنديون الوطنيون من أجل البروتستانتية ليس لأنهم مهتمون بها كعقيدة بل لأنهم يريدون الاستقلال عن إسبانيا».

وهنا انضم روجر للحوار. لطالما رأت مارجوري روجر طفلاً جميلاً. إنه الآن في السابعة عشرة من عمره وله لحيّة داكنة مجعدة تنمو بسرعة. تجلت تلك النظرة الشقية التي تمتعت بها مارجوري في ابنها روجر الذي كان فتىً قصيراً واثقاً بنفسه مفعماً بالحيوية، ولطالما أشاع الفرحة بين الآخرين بعينه العسليتين اللتين ورثهما عن والده البيولوجي نيد. لحسن الحظ أن بارت شأنه شأن جميع أمثاله من الرجال، لا يلحظ أبداً لون أعين الناس، وأن الخوف من بطشه منع الناس من التشكيك في نسب روجر. «إذاً يا أمي، كيف يمكننا أن نجعل بلدنا يعتنق الكاثوليكية مجدداً؟» قال روجر

شعرت مارجوري بالفخر بأن تملك ابناً قادراً على طرح أسئلة عميقة وصعبة كهذه، وأنه بذهنه الوقاد يخطط للالتحاق بكلية كينغزبريدج في أوكسفورد. كان روجر كاثوليكياً مخلصاً وقد شارك بحماس في تهريب

الكهنة، ومع ذلك لم يكن معلمه ستيفن قادراً على قمع تلك الاستقلالية التي ورثها هذا الصبي عن نيد.

«سيعود الإنكليز إلى إيمانهم القديم بتأنٍ وهدوء إذا ما تُركوا وشأنهم»، ردت مارجوري.

غير أنه لم يكن مُقدراً للإنكليز أن يُتركوا وشأنهم.

لم يقم الإسبان بغزوهم عام 1587، ولكن مع حلول الخريف أدركت مارجوري والجميع أنهم تعجلوا في الاحتفال ظناً منهم أن دريك قد منع الغزو، لكن الغارة على قادس قامت بتأجيله فحسب، وببساطة فقد بدأ الملك فيليبي الفاحش الثراء ببناء سفنٍ جديدة وشراء مؤنٍ بديلة وهذا ما أثار ذعر الإنكليز.

بدأت الملكة إليزابيث وحكومتها في الاستعداد لمعركةٍ حتى الموت. شرعوا بترميم دفاعاتهم على طول الساحل في ذلك الشتاء، كما بدأوا بتحسين القلاع وإقامة المتاريس حول المدن التي لم تشهد أيّ معارك منذ قرون، فضلاً عن إعادة بناء أسوار كينغزبريدج التي ابتلعها توسع الضواحي منذ زمن بعيد. أما في ميناء كومب فقد تم تنظيف المدافع القديمة الصدئة واختبار قدرتها على إطلاق النار، بالإضافة إلى بناء سلسلةٍ من الفنارات على طول الساحل حتى لندن لتكون جاهزةً لنقل الخبر المروع عن اقتراب السفن الإسبانية الغازية.

أصيبت مارجوري بالذعر فها هم الكاثوليكيون والبروتستانتيون يذبحون بعضهم بعضاً. لا ينبغي للإيمان بالمسيح أن يكون مدفوعاً بالرغبة في القتل والتشويه، فأعداء المسيح في الإنجيل هم من يسفكون الدماء لا المسيحيون. ما انفكت مارجوري تفكر بالحقيقة التي آمنت بها هي ونيد، حقيقة أنه لا يجب أن تكون العقيدة سبباً لاقتتال. زعم نيد أن الملكة إليزابيث آمنت بذلك أيضاً على الرغم من أنها لم تكن مخلصاً دائماً لقيمها كما قال.

قاست مارجوري الكرب واللوعة في الأشهر الأولى من عام 1588 مع وصول الأخبار عن قوة وضخامة الأسطول الإسباني الجديد الذي ترددت إشاعات عن أنه يضم أكثر من مئة سفينة، وهو رقمٌ أثار الرعب في نفوس الإنكليز فعدد سفن أسطولهم البحري لا يزيد على الثماني والثلاثين سفينة.

بدأت الحكومة في اعتقال الكاثوليكيين ذوي السمعة السيئة كإجراء احترازي، وتمنت مارجوري أن يعتقل أبناؤها حيث سيكونون بأمان. على أي حال لم يشكل بارت أي خطر ولم يكن جزءاً من أي مؤامرة، وحدها مارجوري من عمل بشكلٍ سري في نيوكاسل، ولطالما حرصت على ألا يشك بها أحد.

أخيراً وصلت الأسلحة.

تهادت داخل القلعة عربتان محملتان بالقش وقد حُبِئت فيهما ست فؤوس وحوالي أربعين سيفاً وعشر بنادق وكيس مليء بالرصاص وبرميل بارودٍ صغير.

راقبت مارجوري الذخيرة التي كانت تُنقل إلى المنزل وتُخبأ في المخبز القديم، ثم قالت لبارت: «ما هذه الأشياء؟».

كانت صادقةً في سؤالها، فهي لا تعرف إن كان زوجها سيحارب من أجل الملكة والوطن أم من أجل الكنيسة الكاثوليكية.

سرعان ما أوضح بارت الأمور قائلاً: «سأحشد جيشاً من النبلاء والفلاحين الكاثوليكيين المخلصين وأقسمهم إلى مجموعتين، سأقود المجموعة الأولى إلى ميناء كومب لاستقبال المحررين الإسبان، فيما سيقود بارتليت المجموعة الثانية للتوجه إلى كينغزبريدج والاستيلاء عليها وإقامة قداسٍ باللاتينية في الكاتدرائية».

أرادت أن تنطق باحتجاج مذعور لكنها كتمته، فإن علم بارت بشعورها هذا فإنه لن يتفوه بأي معلومةٍ أمامها.

اعتقد بارت أنها كانت شديدة الحساسية بشأن سفك الدماء، لكنها كانت أكثر جديةً بهذا الشأن، فما كانت لتقف مكتوفة اليدين إذ توجب عليها فعل شيءٍ ما لمنع حدوث ذلك.

وبدلاً من الاحتجاج قامت بتقصي المزيد قائلةً: «لا يمكنك القيام بكل هذا وحدك».

«لن أكون وحدي، فالنبلاء الكاثوليكيون في كل أنحاء البلاد سيقومون بالمثل».

«كيف لك أنت تعرف ذلك؟».

«أخوك هو المسؤول».

«رولو؟» كان هذا خبراً جديداً لمارجوري. «إنه في فرنسا».

«لم يعد كذلك، إنه يقوم بحشد النبلاء الإنكليز الآن».

«لكن من أين له أن يعرف من سينظم؟» ما إن نطقت بالسؤال حتى علمت مارجوري الجواب مدعورة. أكد بارت مخاوفها قائلاً: «كل من خاطر من

النبلاء بحياته لإيواء كاهن متخفي، مستعد للقتال ضد إليزابيث تودر».

عجزت مارجوري عن التنفس كما لو أن هناك من لكمها على معدتها. قاومت لإخفاء مشاعرها عن بارت الذي لم يكن ولحسن الحظ دقيق الملاحظة.

«إذا...»، قالت من جديد بعد أن بلعت ريقها وأخذت نفساً عميقاً:

«استغل رولو شبكتي الخاصة من الكهنة السريين لتنظيم تمرّد مسلح ضد الملكة إليزابيث».

«أجل» قال بارت. «واعتقدنا أن من الأفضل عدم إخبارك».

بالطبع ستعتقدون هذا، فكرت مارجوري بكل مرارة.

«تكره النساء الحديث عن سفك الدماء» تابع بارت كما لو أنه كان خبيراً

بمشاعر النساء. «لكن من المؤكد أنك ستعلمين في النهاية».

شعرت مارجوري بالحنق والاشمئزاز، لكنها لم ترد أن يشعر بارت بهذا،

ثم سألته سؤالاً عادياً: «أين ستضع هذه الأسلحة؟».

«في المخبز القديم».

«لكنها لا تكفي لجيش».

«هناك المزيد وهو في الطريق إلينا، كما تتوافر مساحة كافية خلف الفرن

لوضعها».

استدار بارت ليعطي تعليماته إلى الخدم، فانتهزت مارجوري الفرصة

وابتعدت.

هل كانت غبية؟ لقد كانت تعرف جيداً أن رولو لن يتردد في الكذب

عليها، شأنه شأن بارت. لكنها اعتقدت أن رولو مثلها، وأن كل ما يريد هو

مساعدة الكاثوليكيين المخلصين على تناول الأسرار المقدسة. وتساءلت

إن كان عليها آنذاك مساءلة نواياه الحقيقية.

ربما ستفهم نواياه لو تمكنت من الحديث معه، إذ إن أقصى ما قامت به هو التلويح له عبر الشاطئ في كل مرة يحضر فيها مجموعة جديدة من الكهنة من الكلية الإنكليزية. لقد مكنته قلة التواصل من خداعها.

وحسنت مارجوري أمرها بشأن مسألة واحدة، وهي أنها لن تقوم بتهريب الكهنة إلى إنكلترا عن طريق رولو بعد الآن. أخذت هذا القرار متجاهلةً دورهم الآخر الذي أتوا من أجله وهو إحياء الطقوس الدينية الكاثوليكية، ولكن الآن وبعد أن علمت الحقيقة فهي لن تتورط في هذا الأمر أو بأي شيء آخر يريده أخوها. وعند أول فرصة متاحة سترسل له رسالة مشفرة تعلمه فيها بقرارها. وهي واثقة من أنه سيستشيط غضباً ولكن هذا سيمنحها بعض الرضا.

بقيت مستيقظةً تلك الليلة ولعدة ليالٍ متتالية، ثم قررت أن تتوقف عن لوم نفسها وأن تتخذ خطوةً ما. لم تكن ملزمةً بحفظ أسرار رولو أو بارت، ولكنها أرادت أن تفعل شيئاً لمنع سفك الدماء وضمأن أمن ولديها. ولذلك عقدت العزم على التحدث إلى نيد ويلارد.

سيحلّ عيدُ الفصح بعد بضعة أيام، وكالعادة ستذهب مارجوري إلى كينغزبريدج مع بارت والأولاد لحضور معرض العيد، وسيحضرون جميعهم الشعائر الدينية الخاصة بالعيد في الكاتدرائية. لم يعد بإمكان بارت تجنب حضور المراسم البروتستانتية لأن الأمور بات خطيرةً ومُكلفاً جداً فقد وصلت غرامة عدم ارتياد الكنيسة إلى عشرين جنيهاً.

شعرت مارجوري بتأنيب ضمير كبير عندما لاح برج الكاتدرائية من خلف الأشجار واقتربت العائلة من الوصول إلى كينغزبريدج. ألا ينبغي لها أن تدعم هذا الغزو الإسباني والتمرد الكاثوليكي المؤيد له؟ فالنتيجة ستكون عودة إنكلترا إلى اعتناق الكاثوليكية مجدداً كما هي مشيئة الربّ.

أصبح عيد الفصح مملاً في عهد البروتستانتين، فلم تعد عظام القديس أدولفوس تُحمل لتجوب شوارع كينغزبريدج في موكبٍ بهيج، كما لم تعد تعرض مسرحيات الأسرار في الكاتدرائية. وبدلاً من ذلك، كانت هناك مجموعة من الممثلين الذين يقومون مساءً كل يوم بتأدية مسرحية تدعى «إيفري مان» في فناء نُزل بيل. لم يفهم البروتستانتون حاجة الناس للألوان والمسرحيات في الكنيسة.

لكن في الخامسة والأربعين من العمر لم تعد مارجوري تعتقد أن البروتستانتية سيئة والكاثوليكية مثالية.

ما كان يهمها فعلاً هو الحد الفاصل بين الاستبداد والتسامح، بين أولئك الذين يحاولون أن يفرضوا آراءهم على غيرهم، وأولئك الذين يحترمون إيماناً من اختلفوا معهم. انتمى كل من رولو وبارت إلى أولئك الاستبداديين الذين كانت تزديريهم، أما نيد فقد كان من بين القلائل الذين آمنوا بالحرية الدينية، فكان محل ثقتها.

لم تصادف نيد في يومها الأول في كينغزبريدج ولا في اليوم الثاني. ربما لن يأتي هذا العيد، لكنها رأت ابن أخيه ألفو الذي تزوج من فاليري فورنيرون، كما رأت زوجة أخيه الألمانية هيلغا. لكنها لم ترَ بارني الذي عاد من قادس وبحوزته ثروة صغيرة أخرى مما غنمه ثم عاد إلى البحر بعد إجازة صغيرة. ترددت مارجوري في سؤال الأسرة عن خطط نيد، فلم تكن راغبة في إعطائهم الانطباع بأنها كانت تحتاج بشدة إلى التحدث معه، رغم أنها كانت كذلك.

ذهبت مارجوري في سبت الفصح إلى سوق الدير القديم الذي بات مسقوفاً الآن. كانت تقيس قطعة قماش بلونٍ خمري داكن اعتقدت أنها قد تلائمها رغم أنها لم تعد شابة لارتداء هذا اللون، حينها نظرت عبر الساحة المربعة ورأت سيلفي زوجة نيد القوية وقامتها القصيرة.

كانت سيلفي ومارجوري متشابهتين، وكلاهما تدركان هذا التشابه بينهما. لم تكن مارجوري تقلل من شأن نفسها عندما ترى أنها وسيلفي سيدتان جذابتان تتمتعان بالذكاء والإصرار. في حقيقة الأمر كانتا تشبهان والدة نيد العظيمة بشكلٍ كبير. صحيح أن سيلفي بروتستانتية وقد حاربت من أجل عقيدتها إلا أن مارجوري وجدت في هذا الأمر نقطة تشابه أخرى بينها وبين سيلفي؛ فكلاهما تحملتا مخاطرَ جمّة في سبيل إيمانهما.

أرادت مارجوري التحدث إلى نيد وليس إلى سيلفي، ولكن ها قد تلاقت أعينهما فابتسمت سيلفي لها وسارت نحوها.

جال في خاطر مارجوري فكرة أن توصل رسالةً إلى نيد عن طريق سيلفي. في الواقع، قد يكون هذا أفضل من التحدث مباشرة إلى نيد، لأنه

حينئذٍ لن يكون بإمكان أحد أن يثير الشبهات حولها بأن يُخطر بارت بأنها تحدثت إلى نيد.

«يا لها من قبةٍ جميلة» قالت سيلفي بلكنتها الفرنسية اللطيفة.

«شكراً لك» كانت مارجوري ترتدي قبة مخملية زرقاء. أرتها قطعة القماش التي كانت تفكر بشرائها. «ما رأيك بهذا اللون؟».

«أنتِ صغيرة جداً على ارتداء اللون الخمري»، قالت سيلفي مبتسمةً.
«هذا لطفٌ منك».

«لقد رأيتُ ولديك، أصبح لروجر لحية الآن».
«إنهما يكبران بسرعة».

«أحسدك على هذا فأنا لم أنجب قط، وأعلم أن نيد محبط مع أنه لم يشتكِ من ذلك مطلقاً».

أثارت حميمية سيلفي تجاه مشاعر نيد الخفية وهي تكشفها بشكل عرضي شعوراً لا ذعاً بالغيرة، وفكرت مارجوري: «صحيح أنك لم تنجبي أطفالاً لكنكِ حظيتِ بنيد».

قالت مارجوري: «أنا قلقة على ولدي، فإن غزانا الإسبان سيتعين عليهما القتال».

«قال نيد إن سفن الملكة ستحاول منع الجنود الإسبان من الوصول».
«لست متأكدة من وجود سفنٍ كافية».
«قد يكون الربّ إلى جانبنا».

«لم أكن واثقة قط من الجانب الذي يقف الربّ في صفه».
«ولا أنا»، ابتسمت سيلفي بحزن.

رأت مارجوري بطرف عينها بارت وهو يدخل السوق الداخلية، وفكرت بأن عليها اتخاذ قرار سريع. «هلاً أوصلتِ رسالةً مني لنيد».
«بالطبع، لكنه هنا في الجوار».

«أنا آسفة ولكنني لا أملك الوقت. اطلبي منه مداهمة نيوكاسل واعتقال بارت وبارتليت وروجر. سيجد في المخبز القديم أسلحةً مخبأةً لدعم الغزاة». كانت خطتها محفوفة بالمخاطر إلا أنها كانت تثق بنيد.

«سأخبره بذلك» قالت سيلفي في ذهول. «ولكن لماذا تريدان أن يتم القبض على ولدك؟».

«حتى لا يُقتالا؛ فالسجن أفضل من المقبرة».

أصبحت سيلفي بالدهشة، فلم تتخيل قط أن يكون الأبناء مصدرراً للألم كما الفرح.

نظرت مارجوري إلى بارت الذي لم يكن قد لاحظ وجودها بعد. إن ابتعدت عن سيلفي الآن فلن يعرف أنهما كانتا تتحدثان معاً. «شكراً لك»، قالت مارجوري وابتعدت.

في اليوم التالي رأت مارجوري نيد في الكاتدرائية يحضر شعائر الفصح. كانت هيئته النحيلة والأليفة ما تزال عزيزة على قلبها بعد كل هذه السنوات. شعرت بأن دقات قلبها تتباطأ، ويغمرها مزيج من الحب والندم. كان الأمر يبعث فيها الشعور بالحب بقدر ما يبعث فيها الألم. كانت سعيدة لأنها ارتدت معطفاً أزرق جديداً هذا الصباح، لكنها لم تتحدث معه مع أن الإغراء كان قوياً وتوقها للنظر إلى عينيه بزواياهما التي تتغضن عندما يقول شيئاً ساخراً. قاومت إغراء الحديث معه بشدة.

غادرت كينغزبريدج يوم الثلاثاء بعد الفصح وعادت إلى نيوكاسل بصحبة عائلتها، وفي يوم الأربعاء جاء نيد ويلارد.

كانت مارجوري في فناء المنزل عندما صاح أحد حراس السور: «هناك خيالة على طريق كينغزبريدج، اثنا عشر..... خمسة عشر.... ربما عشرون». هرعت إلى المنزل، حيث كان بارت وبارتليت وروجر في القاعة الكبيرة يجهزون سيوفهم.

قال بارت: «إنه على الأرجح شريف كينغزبريدج».

ظهر حينها ستيفن لينكولن الذي قال بصوتٍ خائف: «المخبأ مليء بالأسلحة، ما الذي عليّ فعله؟».

كانت مارجوري قد فكرت بذلك مسبقاً وقالت: «خذ صندوق الأسرار المقدسة وغادر من الباب الخلفي، توجه إلى حانة القرية وانتظر هناك حتى تأتيك الأخبار بأن المكان آمن». كان جميع القرويين من الكاثوليكيين الذين لن يخونوه أبداً.

وغادر ستيفن من الباب الخلفي.
قالت مخاطبةً ولديها: «الزما الصمت ولا تأتي بأي حركة، أسمعان؟
اتركا الأمر لأبيكما واجلسا بلا حراك».
«إلا إن أمرتكما بخلاف ذلك»، قال بارت.
«إلا إن أمركما والدكما بخلاف ذلك» كررت مارجوري.
لم يكن بارت والد أي من الصبيين، إلا أنها نجحت في إخفاء هذا السر جيداً.

أدركت مارجوري أن ثلاثين سنة قد مضت منذ التقت هي ونيد في هذه القاعة بعد عودته من كاليه. وقتئذٍ كانا يشاهدان مسرحية مريم المجدلية، وهي المتشبية جداً بقبلته شاهدت العرض دون أن تستوعب ما كانت تراه. كانت وقتها مفعمةً بأمل قضاء حياة سعيدة مع نيد، وفكرت في نفسها بأنها لو عرفت إلى ما ستؤول إليه حياتها الآن لكانت ألقت بنفسها من فوق أسوار القلعة آنذاك.

سمعت جلبة الجياد وهي تدخل الفناء، ثم بعدها بلحظات دخل القاعة الكبرى الشريف روب ماثيوسن ابن الشريف العجوز الراحل ماثيوسن. كان روب ضخماً كوالده، وقد ورث عنه عزمه على عدم تلقي الأوامر من أحد باستثناء الملكة.

تبع ماثيوسن مجموعة كبيرة من الرجال المسلحين من بينهم نيد وويلارد. لاحظت مارجوري عند رؤية نيد عن قرب أن خطوطاً بدأت تظهر على وجهه وحول أنفه وفمه، وأن هناك شعيرات رمادية قد بدأت تظهر في شعره. ترك نيد الشريف يقوم بكل شيء.

«يجب أن أفتش منزلك أيها الإيرل بارت»، قال ماثيوسن.
قال بارت: «ما الذي تبحث عنه بحق الشيطان أيها الكلب الوقح؟».
«لدي معلومات تفيد بوجود كاهن كاثوليكي يدعى ستيفن لينكولن هنا، لذا عليك أنت وعائلتك البقاء في هذه الغرفة فيما أبحث عنه».
«لن أذهب إلى أي مكان، فهذا بيتي»، أجاب بارت.

خرج الشريف مرة أخرى وفي إثره خرجت حاشيته. توقف نيد لبرهة عند الباب وقال: «أنا آسف للغاية على هذه الجلبة أيتها الكونتيسة مارجوري».

جارته فيما قال وردت: «لا، أنت لستَ أسفاً». قالت هذا كما لو أنها كانت غاضبةً منه.

تابع نيد «ولكن مع استعداد ملك إسبانيا لغزونا، لا يمكننا ضمان ولاء أحد».

شخر بارت باشمئزاز. اكتفى نيد بما قاله ثم خرج.

بعد بضع دقائق سمعوا صيحات النصر، وأدركت مارجوري أن نيد قد قاد ماثيوسن إلى المخبأ.

نظرت إلى زوجها الذي بدا أنه عرف ما يجري أيضاً.

ارتسم الذعر والغضب على وجه بارت، وعلمت مارجوري أن المشاكل ستقع.

بدأ رجال الشريف بإخراج الأسلحة إلى القاعة الكبيرة، وقال الشريف: «عشرات السيوف والبنادق والذخيرة، فؤوسٌ وأقواسٌ وسهام، وجميعها مخبأة في غرفة سرية. أيها الإيرل بارت، أنت رهن الاعتقال».

استشاط بارت غضباً فقد تم كشف أمره. وقف وبدأ يصرخ على الشريف: «كيف تجرؤ، أنا إيرل شايرنغ، لا يمكنك فعل هذا والبقاء حياً بعدها». امتقع وجه بارت من الغضب وصرخ قائلاً: «أيها الحراس، إلى هنا». ثم سحب سيفه.

حذا الصبيان حذو والدهما.

«لا»، صرخت مارجوري التي فعلت كل هذا لإبقاء ولديها بأمان، لكنها بدلاً من ذلك ها هي تعرض حياتهما للخطر. «توقفا».

استلَّ الشريف ورجاله سيوفهم أيضاً.

لم يستلَّ نيد سيفه إنما رفع ذراعيه في الهواء صارخاً: «توقفوا جميعاً، لن نحقق شيئاً بالقتال، وأي شخص يهاجم رجال الشريف سوف يُشنق».

وقفت المجموعتان وجهاً لوجه في القاعة الكبيرة. وقف رجال بارت المسلحون خلفه وتدقق المزيد من رجال الشريف إلى القاعة. لم تصدق مارجوري سرعة تدهور الموقف، فلو اشتبكت المجموعتان لوقعت مجزرة. «اقتلوهم جميعاً»، صرخ بارت.

ثم هوى على الأرض.

سقط كشجرة تهادت في سقوطها وارتطم بالأرض بكل قوةٍ وصخب.
لطالما رأته مارجوري يختر ثملاً، لكن اليوم كان الأمر مختلفاً.
تجمد الجميع في أمكتهم.

جثت مارجوري بجوار بارت ووضعت كفها على صدره، ثم تحسست
معصمه ورقبته، لم تكن هناك أي علامة تشير إلى أنه حي.

حدقت مارجوري إلى زوجها الذي لطالما كان رجلاً أنانياً منغمساً في
ملاذاته، وجل ما فعله هو إرضاء رغباته الخاصة غافلاً عمّن سواه طوال سني
حياته الخمسين.

«لقد مات»، قالت مارجوري.

وكان الإحساس الوحيد الذي غمرها حينها هو الشعور بالراحة

ذهب بيير أوموند إلى الشقة التي احتجز فيها لويز ماركيزة نيم كعشيقة له
على مدار السنوات الأربع الماضية. كانت لويز في ثياب أنيقة وقد صفت
شعرها بإتقان كما لو أنها ذاهبة إلى البلاط، الأمر الذي لم يُسمح لها بالقيام
به قط. كان دائماً ما يجبرها على ارتداء ملابس رسمية مما يزيد من متعته في
إذلالها. يمكن لأي شخص إذلال الخدم ولكن لويز كانت ماركيزة.

لم يسأم من هذه اللعبة، وشعر أنه لن يسأم أبداً، حتى أنه لم يضربها كيلا
يؤذي يديه ولم يكن يضاجعها كثيراً. كان هناك طرق أكثر من رائعة لإيلاها؛
فأكثر ما كان يروقه هو إهانة كرامتها.

تمكنت من الفرار مرةً وضحك عندها لأنه كان يعرف ما سيجري.
سيمنع الخوفُ أصدقاءها ومعارفها على قلتهم، من إيوائها كيلا يتم الاشتباه
بهم بالهرطقة، لذا لم يكن لديها مكان تأوي إليه. ولأنها لم تعد من عائلة
ميسورةٍ لم يكن بوسعها إعالة نفسها بمفردها، ولذلك، وكغيرها من النساءِ
المعدومات، انتهى بها الأمر إلى ممارسة البغاء حتى لا تموت جوعاً، إلا أنها
وبعد ليلةٍ واحدة في بيت الدعارة طلبت منه إعادتها.

وللمتعة فقط، تظاهر بيير بالتردد في إعادتها، وأجبرها على الركوع على
ركبتيها والتوسل إليه، ولكنه لم يرغب بخسارتها فقد كانت صيداً ثميناً.

ولكن اليوم فوجئ بيير نوعاً ما برؤية ابن زوجته آلان في الشقة جالساً بالقرب من لويز على أريكة يتحدثان بحميمية.

«آلان ولويز»، قال بيير.

وقف كلاهما

«ماذا تفعل هنا؟» سأل بيير.

أشار آلان إلى فستانٍ ملقَى على كرسي وقال: «طلبتَ مني أن أحضر لها هذا الفستان».

تذكر بيير أن هذا ما حصل فعلاً وقال: «لكنني لم أطلب منك قضاء فترة الظهيرة والثرثرة هنا، عُد إلى القصر وأخبر الدوق هنري أنني في طريقي لرؤيته وأني قد عرفت بخطة معركة ملك إسبانيا لغزو إنكلترا».

رفع آلان حاجبيه وقال «من أخبرك بذلك؟».

«لا يهم. اذهب وانتظرنى خارج شقة الدوق في القصر، ويمكنك تدوين الملاحظات».

توجه بيير إلى لويز وداعب صدرها بهدوء.

ثم غادر آلان.

يخاف كل من آلان ولويز من بيير الذي كان يعي أن هذا الخوف هو ما يدفعه لإبقائهما بجواره. ليس بسبب دور آلان كأجير أو بسبب جاذبية لويز الجنسية، فهذه أشياء ثانوية. كان يحب خوفهما منه وهو ما يمنحه شعوراً بالقوة.

هل يهمه إن كانا صديقين؟ لا، فلم يرَ ضيراً في ذلك، بل تفهم سبب تعاطف آلان مع لويز. كانت لويز امرأة أكبر من آلان عمراً، ولذلك كانت بمنزلة أم بديلة.

عصر بيير ثديها بقوة أكثر وقال: «لطالما كانا أكثر ما يميزك».

علت وجهها للحظة تكشيرة تتم عن النفور إلا أنها سرعان ما أخفتها ولكن بيير لاحظها فقام بصفعها: «أشبحي بتلك النظرة عن وجهك». قال لها.

«أنا آسفة» قالت بخنوع. «هل تريد أن أداعبك؟».

«لا، فلا وقت لدي لذلك، جئت لأخبرك أنني دعوت أحدهم لتناول العشاء هنا غداً، أريد مكافأة الرجل الذي أخبرني بخطة المعركة الإسبانية. ستقدمين العشاء له».

«حسناً».

«عارية».

«عارية؟» حدقت به قائلة «أمامَ رجل غريب».

«ستتصرفين بشكل طبيعي تماماً، لكن من دون ملابس. أعتقد أنه سيحب ذلك».

اغرورقت عيناها بالدموع وقالت: «من دون ملابس على الإطلاق؟».

«بإمكانك ارتداء حذائك».

كافحت لمنع نفسها من البكاء ثم قالت: «هل من طلباتٍ أخرى؟».

«كلا، فلتقومي بخدمتنا فقط».

«حسناً».

كان بؤسها يثيره ويغريه بالبقاء مدة أطول، لكنه أراد مقابلة الدوق هنري في أقرب وقت ممكن. استدار وغادر الغرفة، وفيما كان يغلق الباب سمع صوتها تنتحب، فابتسم بلذّة وهو يهبط الدرج.

سُرّ نيد لتلقيه خطاباً من آلان دي غيز في باريس يشرح له خطة معركة ملك إسبانيا.

كان الأسطول الإسباني سيبر القناة الإنكليزية ويرسو قبالة دانكريك، حيث سيلتقون بالجيش الإسباني في هولندا بقيادة أليساندرو فارنسيه من بارما، وهو أمهر جنرال أرسله ملك إسبانيا إلى هولندا على الإطلاق. وبعد ذلك سيعود الأسطول المدعوم ويبحر غرباً باتجاه مصب نهر التيمز.

تلقى نيد رسالةً من جيرونيما رويز تفيد بامتلاك الأسطول الإسباني مئةً وتسعاً وعشرين سفينةً.

كانت جيرونيما في لشبونة، ورأت الأسطول بعينها وأحصت عدد السفن في الميناء. ذهبت إلى هناك برفقة الكاردينال روميرو الذي توجه مع مجموعة كبيرة من الكهنة لمباركة السفن ومنح الغفران لكل البحارة والجنود البالغ عددهم ستة وعشرين ألفاً على الخطايا التي سيرتكبونها في إنكلترا.

كانت الملكة إليزابيث تشعر باليأس؛ فأسطولها لا يتعدى قوامه ثماني

وثلاثين سفينة. لم تعرف هي أو نيد كيف سيتمكنان من صد هذا الغزو، فالملك فيلبي سيدمر الملكة ويحكم إنكلترا وسيهيمن الكاثوليكيون المتشددون على أوروبا.

شعر نيد بالخزي، وأحس أن كل ما يجري هو خطأه لأنه شجع على إعدام ماري ستيوارت.

دعمت تقارير جواسيس آخرين المعلومات التي قدمتها جيرونيما مع فارق بسيط في الأرقام بين تقرير وآخر.

أرادت إليزابيث معرفة عدد قوات دوق بارما في هولندا، وكيف يخطط لنقلها عبر القناة. وقد وردت نيد تقارير من عدة جواسيس إلا أن هذه التقارير كانت متضاربة، لذلك قرر الذهاب إلى هناك للتأكد بنفسه.

كان نيد يخاطر بحياته، فإن قبض عليه واكتُشف أنه جاسوس إنكليزي فسيكون الإعدام أفضل مصيرٍ يمكن أن يتطلع إليه. لكن ولأنه ساهم في خلق هذه الكارثة التي تلوح في الأفق، كان من واجبه فعل كل ما بوسعه لتجنبها، بما في ذلك المخاطرة بحياته.

ركب نيد سفينةً متوجهةً إلى أنتويرب. اكتشف أن تلك المدينة العالمية حيوية حيث الجميع موضعَ ترحاب طالما أنهم يدفعون ديونهم، وكما قال له كارلوس كروز: «لا يوجد أيُّ من ذلك الهراء حول خطيئة الربا».

كان نيد متحمساً للقاء كارلوس، نسيه البعيد الذي سمع عنه الكثير، والذي كان قد بلغ عامه الواحد والخمسين بلحيته الشعثاء التي يخطها بعض الشيب. رأى نيد أنه كان يشبه الفلاحين المرحين في تلك اللوحات الهولندية التي تصور احتفالات القرويين. كان من الصعب تخيل أن كارلوس وبارني قد قتلا ضابطاً إسبانياً في شجارٍ نشب بسبب لعبة ورق.

عاش كارلوس في منزلٍ كبيرٍ بالقرب من الواجهة البحرية، وتشغل ورشة حدادة فناء الخلفي. رحبت به إمكي زوجة كارلوس بابتسامةٍ عريضة، بالإضافة إلى ابنته وصهره وحفيديه الذين كانوا يعيشون معهما. ارتدى الرجال ثياباً داكنة فيما تألقت السيدتان بثيابٍ ملونةٍ وخرابطة، فأحدهما ارتدت الأزرق الفاتح والقرمزي والأخرى لون الدراق والخزامى. كان المنزل مزيناً بكثيرٍ من القطع النفيسة كاللوحات الزيتية المؤطرة والآلات

الموسيقية والمرايا، بالإضافة إلى أباريق الزينة والأواني الزجاجية والكتب المُجلدة والسجاد والستائر.

بدا الهولنديون أناساً يقدرون الحياة المنزلية ويستعرضون ثروتهم بطريقة بيتية خاصة لم يرها نيد في أي مكان آخر.

احتاج نيد إلى مساعدة كارلوس لإنجاز هذه المهمة، إلا أنه لم يكن متأكداً من أنه سيحصل على المساعدة التي يحتاجها؛ فكارلوس ما يزال إسبانيا وكاثوليكياً. ولكن من ناحية أخرى، كانت الكنيسة قد أجبرت كارلوس على الفرار من وطنه. فهل سيعمل ضد الأسطول الإسباني؟ سيعرف نيد ذلك قريباً.

في اليوم الذي وصل فيه نيد، حضر أيضاً شريك كارلوس القديم إيرما دابو لتناول العشاء مع زوجته إيفي التي ارتدت طوقاً ذهبياً مزداناً بحجر ألماسي. كان إيرما في السبعين من عمره بشعر أبيض مجعد. تذكر نيد حديث بارني عن إيرما وبأنه كان عبداً وعشيق العمّة بيتسي. يالها من حياة هذه التي عاشها هذا الرجل. أولاً، كان مزارعاً في غرب أفريقيا، ثم جندياً فسجين حرب، وأصبح بعدها عبداً في إشبيلية، وجندياً مرة أخرى في هولندا، وأخيراً صانع حديد غنياً في أنتويرب.

سكب كارلوس النبيذ بسخاء وشرب الكثير منه، وتبين لنيد وهم يأكلون أن كلاً من كارلوس وإيرما قلقان بشأن الأسطول الإسباني. قال كارلوس بالفرنسية حتى يفهم الجميع: «إن الملكة إليزابيث مسؤولة بشكل ما عن فشل الإسبان في تهدئة الوضع في هولندا، فبمجرد أن يغزو ملك إسبانيا إنكلترا، سيتحرر من تدخلها هنا».

قال إيرما: «ستتأثر التجارة سلباً إن تولى الكهنة إدارة الحكومة».

قال كارلوس: «وإذا هُزمت حركة استقلالنا، فما من شيء يمكنه إيقاف محاكم التفتيش الدينية».

تشجع نيد حينها، فقلقهم هذا مؤشرٌ جيد، وقرر أنها اللحظة المناسبة ليقدم اقتراحه.

كان قد فكر بالأمر ملياً. سيكون بأمان أكبر إن سافر مع كارلوس، فهو يتحدث الهولندية بطلاقة ويعرف البلاد جيداً، كما أنه هو نفسه معروف لدى

مئات الأشخاص في المنطقة. ولكن كارلوس سيعرض حياته للخطر إن قام بهذا.

أخذ نيد نفساً عميقاً ثم قال: «إذا أردتَ مساعدة إنكلترا، فهناك ما يمكنك القيام به».

«تابع»، قال كارلوس.

«أنا هنا لتقييم قوة القوات الإسبانية التي تستعد للتوجه إلى إنكلترا».

«حقاً؟»، قال إيرما بنبرة من استنار فجأة. «فهمت الأمر الآن».

قال كارلوس: «لقد وصل الجيش الإسباني إلى مشارف دانكيريك ونيوبورت تقريباً».

«وأتساءل إن كنت تفكر في بيع الإسبان شحنة من قذائف المدفعية، لا بد أنهم سيحتاجون الآلاف منها في معركتهم المقبلة. وإن ذهبنا أنا وأنت وبحوزتنا حمولات من الذخيرة، سنكون حينها موضع ترحيب بدلاً من الشبهة».

قال إيرما: «لا تورطني معكما فقد كبرت على هذا النوع من المغامرات. أتمنى لكما كل التوفيق».

وفكر نيد بكآبة أن تلك بداية سيئة لأن جواب إيرما سيُشجع كارلوس على التراجع.

لكن كارلوس ابتسم ابتسامة عريضة وقال: «ستكون مغامرة كالأيام الخوالي».

استراح نيد وشرب المزيد من النبيذ.

في اليوم التالي حمل كارلوس مخزونه الكامل من قذائف المدفعية على العربات، ثم توجه إلى أنتويرب لجلب المزيد منها. وفي النهاية تمكن من جمع ثماني حمولات. قام بربط كل عربتين معاً في نسقٍ واحد، وسحب زوجٍ من الشيران العربتين معاً. وانطلقوا جميعاً في اليوم الثالث.

يمتد الطريق الذي يصل إلى نيوبورت على طول الساحل، وسرعان ما بدأ نيد برؤية استعدادات الغزو. كان هناك قوارب جديدة غير عالية راسية على طول الشاطئ، وكان كل حوضٍ بحري مشغولاً ببناء المزيد منها. كان بناء هذه القوارب حرفةً بسيطة لأنها غير عملية، فقد كانت مصممة لغاية

واحدة فقط ألا وهي نقل أعداد كبيرة من الرجال. بدا أن هناك مئات من هذه القوارب. وقد نريد أن بإمكان كل قارب حمل خمسين إلى مئة جندي. وتساءل نيد عن عدد الجنود الذين ينتظرهم دوق بارما. يعتمد مصير بلد نيد على إجابته على هذا السؤال.

وعاجلاً ما بدأ نيد يرى الجنود جالسين في معسكراتهم الداخلية حول نيران المعسكر يلعبون النرد وأوراق اللعب ضجرين كحال الجيوش عادةً. تجاوزتهم مجموعة من الجنود ممن رأوا العربات المحملة على الطريق وقاموا بتحتيتهم. شعر نيد بالارتياح فهذا دليل على أن قذائف المدفعية ستكون سبيل عبورهم.

بدأ يقدر أعدادهم داخل هذه المخيمات التي بدا أن لا نهاية لها، وهي تظهر أمامهم ميلاً بعد ميل، ومع تقدم العربات التي تجرها الثيران متثاقلة الخطى رأى المزيد والكثير من هذه القوات.

تجاوزوا نيوبورت، وتابعوا طريقهم باتجاه دانكريك، ولكن المشهد لم يتغير.

لم يواجهوا أي مشكلة في الدخول إلى بلدة دانكريك المحصنة، حيث شقوا طريقهم إلى السوق المُطل على الواجهة البحرية. وفيما كان كارلوس يتجادل مع قبطان في الجيش حول سعر قذائف المدفعية، ذهب نيد إلى الشاطئ ونظر عبر المياه وهو يفكر.

افترض نيد أن عدد القوات هنا يجب أن يتطابق إلى حد ما مع الأعداد التي وصلته من لشبونة، أي يجب أن يكون هناك ما مجموعه أكثر من خمسين ألف رجل وهم على وشك غزو إنكلترا.

لقد كان جيشاً مهولاً وأكبر من أي جيش رآته أوروبا منذ عقود. كانت أكبر معركة يتذكرها نيد هي حصار مالطا الذي شارك فيه ثلاثون أو أربعون ألف مهاجم تركي. شعر بالإرهاق تحت وطأة إحساسه بتلك القوة الهائلة والعزيمة على تدمير وطنه.

لكن على هذه القوة أن تصل إلى إنكلترا أولاً.

هل يمكن لهذه القوارب المسطحة أن تنقل القوات عبر البحر المفتوح وصولاً إلى إنكلترا؟ ستكون تلك مجازفة كبيرة، وباستثناء المياه الهادئة فإن

أي شيء قد يطيح بهذه القوارب. قد يكون الغرض منها نقل الجنود إلى سفن أكبر راسية بالقرب من الشاطئ، وهي عملية قد تستغرق أسابيع في حال اضطرت جميع المراكب إلى الرسو بشكل طبيعي.

حدق نيد إلى المرفأ، وتخيل آلاف الرجال يُنقلون على متن المراكب عند المرسى قبالة الساحل، وأدرك أن هذه كانت نقطة الضعف في خطة معركة ملك إسبانيا. بمجرد بدء الجيش بالتحرك، سيشكل الغزاة قوة لا يمكن ردعها.

يا لها من رؤية قاتمة لما هو قادم! إن نجح الغزو ستعود عمليات الحرق من جديد. لن ينسى نيد أبداً صراخ فيلبرت كوبلي المروع وهو يُحرق حياً أمام كاتدرائية كينغزبريدج. لن تعود إنكلترا أبداً إلى كل هذا مرة أخرى.

إن أملهم الوحيد هو إيقاف الأسطول في القناة قبل أن تتمكن القوات من التحرك. كان عدد سفن أسطول إليزابيث البحري أقل من عدد سفن الأسطول الإسباني، لذلك كانت فرصتهم في ردع العدو ضعيفة. ولكن هذا كل ما لديهم.

مكتبة

t.me/soramnqraa

الفصل السادس والعشرون

عند تمام الساعة الرابعة من بعد ظهر يوم الجمعة في التاسع والعشرين من شهر تموز/ يوليو 1588 رأى رولو فيتزجيرالد إنكلترا مجدداً وشعر بقلبه يطير فرحاً.

وقف على سطح سفينة القيادة الإسبانية سان مارتن بكل ثبات ومن دون جهد فيما الأمواج تعلو وتهبط. كانت إنكلترا مجرد بقعة تلوح في الأفق شمالاً، إلا أن للبحارة طرقهم الخاصة في التحقق من مكان وجودهم. عند مؤخرة السفينة أسقط عامل السبر حبلأ في نهايته ثقل، وقام بقياس طوله وهو يسحبه. بلغ العمق مئتي قدم عند ملامسة الثقل للقاع، وكان الرمل الأبيض الذي تم سحبه مع الثقل الدليل بالنسبة لأي ملاح خبير بأنهم كانوا يعبرون المدخل الغربي للقناة الإنكليزية.

كان رولو قد فر من إنكلترا بعد فشل مؤامراته لتحرير ماري ستوارت. ولعدة أيام لاحقة ومشحونة بالتوتر نجح رولو في مراوغة نيد ويلارد إلى أن تمكن أخيراً من الهرب قبل أن يُمسك به.

هرب مباشرة إلى مدريد حيث سيتم تقرير مصير إنكلترا هناك، وأطلق على نفسه الاسم نفسه: جان لانغليه. عمل هناك بلا هوادة على تشجيع ودعم الغزو الإسباني، كما أنه كان يتمتع بقدر كبير من المصداقية. وقد أوضحت تقارير الدون بيرناردينو دي ميندوزا سفير إسبانيا في لندن أولاً ثم في باريس، للملك فيليبي أن لانغليه عمل أكثر من أي شخص آخر للحفاظ على العقيدة الكاثوليكية حية في إنكلترا البروتستانتية. وفي المنزلة الثانية هناك ويليام آلن الذي وعدوه بمنصب رئيس أساقفة كانتربري بعد نجاح الغزو.

أجلوا انطلاق الأسطول مراراً وتكراراً، إلا أن الأسطول أبحر أخيراً في الثامن والعشرين من أيار/ مايو عام 1588 وكان رولو على متنه.

برر ملك إسبانيا هذا الغزو على أنه حرب دفاعية من هجمات القراصنة الإنكليز على القوافل التجارية العابرة للمحيط الأطلسي، ورداً على مساعدة الملكة إليزابيث للمتمردين الهولنديين، وعلى غارة الأدميرال دريك على قادس. لكن رولو شعر كأنه محارب صليبي جاء ليحرر بلاده من الكفار الذين استولوا عليها قبل ثلاثين عاماً. كان واحداً من بين الكثير من الكاثوليكين الإنكليز العائدين مع الأسطول، بالإضافة إلى مئة وثمانين كاهناً كانوا على متن السفن. يعتقد رولو أن الإنكليز الذين بقوا مخلصين في أعماقهم للإيمان القديم سيرحبون بالمحررين. كان رولو قد حصل على وعدٍ بمنحه منصب أسقف كينغزبريدج مكافأةً له على كل تلك السنوات من العمل السري الشاق والخطير تحت أنظار نيد ويلارد. وستشهد كاتدرائية كينغزبريدج مرة أخرى طقوساً كاثوليكية حقيقية وستعقب برائحة البخور ومشاهد الصلبان، وسيترأس رولو كل هذه الطقوس برداء كهنوتي بهي مناسب لمكانته.

تقلد الدوق ميدينا سيدونيا ذو الثمانية والثلاثين عاماً منصب أدميرال الأسطول الإسباني. كان الرجل قد أصبح أصلع في عمر مبكر، كما كان أغنى مالك أراضٍ في إسبانيا ولكن خبرته البحرية لم تكن واسعة، ولذلك تبنى شعارَ الحذر.

عندما استتبت أمور الأسطول، رفع الدوق ميدينا سيدونيا علماً خاصاً على الصارية الرئيسية، وهو العلم الذي باركه البابا وحُمل في موكبٍ عبر كاتدرائية لشبونة. ثم رُفع علم الملك ذو الصليب الأحمر المائل على الصارية الأمامية. ارتفعت المزيد من الأعلام على السفن الأخرى وكلها تحمل شعارات قلاع قشتالة وتنانين البرتغال، هذا بالإضافة إلى الأعلام المثلثة الخاصة بالنبلاء على متن كل سفينة وشعارات القديسين الشفعاء لها. ارتفعت هذه الأعلام خفاقةً مع الريح ومحتفيةً بقوة وشجاعة هذا الأسطول. أطلقت السفينة سان مارتن ثلاث طلقات من أجل أداء صلاة الشكر ثم أنزلت مرساتها وأشرعتها، ودعا ميدينا سيدونيا إلى عقد مجلسٍ حربي.

جلس رولو الذي تعلم ما يكفي من الإسبانية في العامين الماضيين لمتابعة النقاشات بل والمشاركة فيها إن لزم الأمر.

كان الدون خوان مارتينيز دي ريكالدي الوسيم نائب الأدميرال ميدينا سيدونيا وقائد سفينة سان خوان دي بورتغال. عمل الدون ضابطاً بحرياً طيلة حياته، وهو الآن في الثانية والستين من عمره ولذلك كان الأكثر خبرةً في قيادة الأسطول.

استولى الدون في وقت سابق على سفينة صيد إنكليزية واستجوب طاقمها، واكتشف أن الأسطول الإنكليزي يختبئ عند مصب نهر بليموث وهو أول ميناء كبير على الساحل الجنوبي.

«إذا انطلقنا نحو بليموث الآن وباغتناهم هناك ستمكن حينها من تدمير نصف البحرية الإنكليزية، وسيكون هذا انتقاماً على هجوم دريك على قادس»، قال ريكالدي.

ارتعش قلب رولو طرباً، وتساءل في نفسه إن كان الأمر سينتهي بهذه السرعة.

بدا القائد ميدينا سيدونيا متردداً وقال: «لدينا أوامر صارمة من جلالة الملك فيليبي بالتوجه مباشرة للقاء دوق بارما والجيش الإسباني في هولندا عند دانكريك وألا ننحرف عن مسارنا أبداً؛ فالملك يريد غزواً وليس معركةً بحرية».

جادله ريكالدي قائلاً: «الأمر سواء، فنحن نعلم أننا سنواجه سفناً إنكليزية ستحاول منعنا من الالتقاء بقواتنا، وها هي فرصتنا المثالية لتدميرها. سيكون من الغباء تفويت هذه الفرصة».

استدار ميدينا سيدونيا إلى رولو وقال: «أتعرف هذا المكان؟». «أجل».

سيعتبر الكثير من الإنكليز رولو خائناً، ولو أتاحت لهم فرصة رؤيته وهو على متن سفينة قيادة القوات الغازية يقدم لها النصيح والمساعدة، لحكموا عليه بالإعدام. لن يفهموا غايته، ولكن بالنسبة لرولو كان الرب من سيحاكمه وليس عباده.

«إن مدخل ميناء بليموث ضيق»، قال رولو ثم تابع: «إذ يمكن لسفینتين

أو ثلاث سفن متجاورة على الأكثر دخوله. علاوة على هذا تغطي المدخل مدافع، لكن عندما نعبّر المدخل يمكن لبضعة مراكب شرعية أن تدمر هذه المدافع، وحينها لن يجد هؤلاء المهرطقون مهرباً».

كانت السفن الإسبانية مزودة بمدافع ثقيلة ذات مواشير قصيرة. كانت هذه المدافع عديمة الجدوى في إصابة الأهداف البعيدة إلا أنها مدمرة للأهداف القريبة. علاوة على هذا كانت سفن الأسطول تعج بالجنود التواقين للقتال، في حين لم يكن هناك سوى بحارة بشكل أساسي على السفن الحربية الإنكليزية. وفكر رولو بسعادة في المجزرة التي ستقع.

أنهى كلامه قائلاً: «يقطن بلدة بليموث حوالي ألفي نسمة - أي أقل من عُشر قواتنا البشرية، وهذا يعني أنه لن تقوم لهم قائمة».

صمت ميدينا سيدونيا وفكر لفترة طويلة ثم قال: «لا. سنتظر هنا ليمكن البقية من اللحاق بنا».

خاب رجاء رولو. لكن ربما كان ميدينا سيدونيا على حق؛ فالإسبان يفوقون الإنكليز قوةً لذلك لم يكن مضطراً للمخاطرة. لا يهم متى أو أين سيشتبكون مع قوات إليزابيث البحرية لأن انتصار الأسطول الإسباني أمر محتوم.

كان ويلارد في منتزه بليموث الواقع على المنحدرات المطلة عند مدخل ميناء بليموث برفقة مجموعة صغيرة من الرجال وأدميرال الأسطول الإنكليزي اللورد هاورد. من مكان وقوفهم في المنتزه كانوا قادرين على رؤية أسطولهم والمراكب التي تنقل إليه إمدادات الطعام والمياه العذبة. تم تعزيز السفن الحربية القليلة التابعة للبحرية الملكية بسفن تجارية أصغر حجماً، بما في ذلك سفيتا بارني، أليس وبيلا، وأصبح هناك الآن حوالي تسعين مركباً في الميناء.

كانت الرياح جنوبية غربية عابقة برائحة البحر التي لطالما رفعت من معنويات بارني، إلا أن اتجاهها ولسوء الحظ، كان مثالياً للأسطول الإسباني الذي دخل القناة من المحيط الأطلسي في طريقه شرقاً.

كانت الملكة إليزابيث قد قامت بمقامرة كبيرة، ففي اجتماع مع قادتها

البحريين - اللورد هاورد والسير فرانسيس دريك والسير جون هوكينز - قررت إرسال معظم قواتها البحرية لملاقاة الأسطول الإسباني غرب القناة. أما الطرف الشرقي أو ما يسمى بالبحر الضيق حيث يعتزم دوق بارما عبوره بجيشه الغازي فقد تُرك بلا حماية تقريباً باستثناء بعض السفن الحربية. كانوا جميعاً واعين لحجم المخاطرة في هذه الخطة.

ساد التوتر الشديد أجواء بليموث، فمضير إنكلترا يقع بين أيديهم وهم يواجهون عدواً جباراً. يعي بارني أن الحظوظ في المعارك البحرية تتغير مع تغيرات الطقس، إلا أن جميع الاحتمالات الآن لم تكن في مصلحتهم. كانوا قلقين جميعاً باستثناء رجل واحد وهو دريك نائب الأدميرال، الذي تجسد هدوؤه المشهور به بانضمامه إلى مجموعة من السكان المحليين للعب البولينغ العشبي.

وفيما كان بارني ينظر بقلبي إلى البحر رأى مركباً شراعياً يتقدم عبر المضيق. كان المركب صغيراً ولا يتجاوز وزنه الخمسين طناً ويشقّ عباب الماء بأشرعته المرفوعة كطائر. عرف بارني السفينة.

«إنها سفينة غولدن هيند»، قال بارني.

أثار وصولها اهتمام المجتمعين؛ فسفينة غولدن هيند واحدة من السفن السريعة المخصصة للقيام بدوريات في أقصى الغرب الإنكليزي ورصد الغزاة. وفكر بارني في خوفٍ بأنه لا يوجد سوى سبب واحد فقط قد يدفع غولدن هيند للعودة إلى هنا.

راقب السفينة وهي تدخل الميناء وتنزل أشرعتها وترسو على الشاطئ. وقبل أن يتم ربطها إلى الرصيف البحري نزل منها رجلان وهرعا باتجاه البلدة. بعد بضع دقائق، ظهر جوادان يعدوان بسرعة فوق المنحدر باتجاه المنتزه. ترك دريك لعبة البولينغ وتوجه إلى الرجلين لسمع ما لديهما وهو يعرج بسبب عيارٍ ناري كان قد أصيب به في ربله ساقه اليمنى.

قدّم الرجل الأكبر سنّاً نفسه باسم توماس فليمنج، قبطان سفينة غولدن هيند.

«لقد قابلنا الإسبان عند الفجر لذلك أتينا إلى هنا بسرعة الريح»، قال فليمنج بأنفاسٍ متقطعة.

كان الأدميرال تشارلز هاورد رجلاً قوياً في الثانية والخمسين من العمر وبلحية استحالت إلى اللون الفضي.

«رجلٌ صالح»، قال هاورد لفليمغ ثم تابع: «أخبرنا ما رأيت». «هناك خمسون سفينةً إسبانيةً بالقرب من جزر سيلبي». «ما نوعها».

«معظمها سفن شراعية كبيرة، بالإضافة إلى بعض سفن الإمداد وعدد من السفن العسكرية المدججة بالسلاح والمجهزة بالمجاديف والأشعة». تملك بارني فجأة شعور غريب بالهدوء، فهذا هو التهديد الذي كان يخشاه يحدث الآن حقاً، وها هي أقوى دولة في العالم تهاجم إنكلترا. منحته واقعية الحدث شعوراً غريباً بالارتياح. ولم يعد أمامهم الآن سوى القتال حتى الموت.

سأل هاورد: «في أي اتجاه يبحر الإسبان».

«لم يكونوا يبحرون يا سيدي، فأشرعتهم غير مرفوعة وكأنهم ينتظرون البقية ليلحقوا بركبهم».

قال اللورد بارمنتر أحد النبلاء الحاضرين: «هل أنت متأكد من عددهم؟». «لم نتمكن من الاقتراب خوفاً من أن يتم أسرنا فنعجز عن إيصال هذه الأخبار إليكم».

«أحسنَت يا فليمغ» قال اللورد هاورد.

قدّر بارني أن جزر سيلبي تبعد مئة ميل عن بليموث، إلا أن فليمغ قطع هذه المسافة في أقل من يوم. لن يتمكن الأسطول من الإبحار بالسرعة نفسها. وتابع حساباته في قلق. ولكنهم قد يصلون إلى هنا قبل هبوط الظلام خاصةً إذا تركوا وراءهم سفن الإمداد البطيئة.

كان بارمنتر يفكر بنفس الطريقة وقال: «يجب أن نبحر حالاً. علينا أن نواجه الأسطول مباشرة قبل أن يتمكن من بلوغ اليابسة».

لم يكن بارمنتر بحاراً، وكان بارني يعرف أن المعركة المباشرة هي آخر ما يريده الإنكليز.

أوضح هاورد بصبرٍ ولباقة: «المدُّ قادم والرياح جنوبية غربية، من الصعب على السفينة الخروج من المرفأً عكس الرياح والمد، فما بالك

بأسطولٍ كامل. لكن حركة المد ستتغير عند العاشرة من هذا المساء، وهو الوقت المناسب للخروج إلى البحر».

«لكن قد يصل الإسبان إلى هنا بحلول العاشرة».

«ربما، لكن من الجيد أن قائدكم قرر الانتظار وإعادة تنظيم القوات».

تحدث دريك للمرة الأولى: «ما كنتُ لأنتظر أبداً». ثم تابع من دون أن يفوت فرصةً للتباهي: «يخسر من يتردد».

ابتسم هاورد. لقد كان دريك شخصاً متبجحاً إلا أنه كان بارعاً في القتال.

«لقد تردد الإسبان ولكن للأسف لم يخسروا»، قال هاورد.

قال دريك: «ولكننا في وضع سيء، إن أسطولهم يسير مع الريح وهذا يمنحهم أفضليةً علينا».

أوماً بارني برأسه موافقاً. فوقفاً لخبرته البحرية يدرك أن الرياح تلعب دوراً حاسماً في أي معركة بحرية.

قال هاورد: «وهل يمكننا الإبحار عكس اتجاه الريح لملاقاتهم؟».

كان بارني يعلم مدى صعوبة الإبحار عكس اتجاه الريح؛ فعندما تبحر السفينة مع الريح وأشرعتهما بزواوية معينة، يمكنها الانتقال سريعاً بزواوية تسعين درجة باتجاه الريح. لذلك، وبوجود ربح شمالية، يمكن للسفينة الإبحار شرقاً وغرباً وجنوباً بكل سهولة.

يمكن لسفينة قوية بطاقم خبير أن تقوم حتى بما هو أفضل من هذا؛ أي أن تنتقل إلى الشمال الشرقي أو الشمال الغربي بأشعة منخفضة أي «عكس اتجاه الريح». كان ذلك يدعى الإبحار بمحاذاة الريح، ولكن هذا يعدّ تحدياً كبيراً لأن أي خطأ بسيط في الحسابات قد يؤدي بالسفينة إلى الدخول في منطقة ميتة فتتباطأ سرعتها ثم تتوقف. أما الآن فإن أراد الأسطول الإنكليزي التوجه نحو الجنوب الغربي بمواجهة الريح الجنوبية الغربية المعاكسة، فسيستعين عليه الإبحار جنوباً أولاً ثم غرباً في خط متعرج، وهي عملية بطيئة ومرهقة تدعى بالمسار المتعرج.

بدا دريك متردداً وقال: «لن تكون مشكلتنا الوحيدة السير عكس الريح فحسب، بل علينا أن نبقي بعبيدين عن أعين العدو، وإلا فقد يغيرون مسارهم ويعترضوننا».

«لم أسألك إن كان الأمر صعباً، سألتك إن كان ممكناً؟».

ابتسم دريك الذي كان يحب هذا النوع من الأحاديث وقال: «بلى إنه ممكن».

سُرَّ بارني جداً من شجاعة دريك لأنها كانت كل ما يمتلكون.
وقال اللورد هاورد: «فلنقم بذلك إذا».

قضى رولو يوم السبت واقفاً على متن السفينة سان مارتن التي تبحر مع اتجاه الرياح على طول القناة الإنكليزية باتجاه بورتسموث. سار الأسطول الإسباني على شكل عمودٍ عريضٍ احتلت فيه أفضل السفن القتالية المقدمة والمؤخرة، فيما احتمت سفن الإمداد بينها.

وفيما كان يراقب شواطئ ممر كورنول الصخري، اجتاحت رولو مشاعر متضاربة بين الغبطة والذنب. كان هذا وطنه وها هو يهاجمه. كان يعلم أنه ينفذ مشيئة الرب، لكن ثمة شيئاً يهمس في داخله ويقول له إنه لن يجلب بما يفعله الآن الشرف لنفسه أو لعائلته. لم يأبه بالرجال الذين سيموتون في المعركة، فلم تشغل باله أمورٌ كهذه قط لأن الرجال يموتون طيلة الوقت، تلك هي سيرورة الحياة، ولكن لم يكن بوسعها التخلص من الخوف من فشل الغزو. حينها سيدخل التاريخ بصفته خائناً، وهذا ما كان يقض مضجعه.

وحلّت تلك اللحظة التي انتظرها المستطلعون الإنكليز. فها هي النيران تشتعل في كل المنارات على قمم التلال، واحدة تلو الأخرى، مرسلّة إشاراتٍ ناريةً على طول الساحل وبشكلٍ أسرع مما قد ترسله السفن. خشي رولو أن يبحر الأسطول الإنكليزي الذي تلقى الإنذار من ميناء بليموث ويتجه شرقاً ليفلت من الحصار. لقد فوت ميدينا سيدونيا بحذره على الأسطول الإسباني هذه الفرصة الذهبية.

ومع اقتراب الأسطول من الشاطئ، رأى رولو حشوداً من الناس على المنحدرات تحديق بصمتٍ وذهولٍ كما لو أن التاريخ لم يشهد هذا العدد الهائل من السفن المُبحرة معاً.

مع اقتراب المساء، لاحظ البحارة الإسبان المياه الضحلة والصخور

السوداء المتوعدة في حيد إيديستون البحري فانعطفوا لتجنبها. كان الخطر المتوقع بانتظارهم جنوب بليموث. وبعد مرور بعض الوقت لاحت أشرعة بعيدة من جهة الشرق عاكسة ضوء شمس الغروب. شاهد رولو الأسطول الإنكليزي وشعر بقلبه ينفطر لأول مرة في حياته.

أمر ميدنا سيدونيا أسطوله بالرسو حتى تبقى سفنه في مواجهة السفن الإنكليزية؛ فالمعركة ستحدث غداً بالتأكيد ولم يرغب بمنح العدو أي أفضلية.

على متن سفينة سان مارتن تلك الليلة لم ينم سوى قلّة من الرجال، إذ شرعوا جميعاً في شحذ الأسلحة وصقل الدروع، والتحقق من البنادق وقوارير البارود مراراً وتكراراً. كدس رجال المدفعية القذائف في الخزائن، وأوثقوا الحبال التي تثبت المدافع في مكانها، كما ملؤوا البراميل بمياه البحر لإخماد الحرائق، وأزالوا سائر العقبات من على جوانب السفينة ليتمكن النجارون من الوصول بسرعة إلى الثقوب في هيكل السفينة وإصلاحها.

كان القمر عالياً في السماء عند الثانية صباحاً عندما وقف رولو على متن السفينة يحدق في الأفق بحثاً عن الأسطول الإنكليزي، إلا أنه لم ير سوى أشكالٍ ضبابية بعيدة. صلّى من أجل الأسطول ومن أجل نفسه لينجو من معركة الغد، ويعيش طويلاً بما يكفي ليصبح أسقف كينغزبريدج.

كشف ضوء الفجر الصيفي الذي بزغ باكراً وجودَ خمس سفن إنكليزية، ومع انبلاج ضوء النهار صُدم رولو صدمة مروعة. كان الأسطول الإنكليزي خلف الأسطول الإسباني، ولكن كيف حدث هذا بحق الشيطان؟

لا بد أن السفن الإنكليزية في المقدمة كانت مجرد فخ، وأن الأسطول الرئيسي تمكن من الالتفاف حول الأسطول الإسباني متحدياً الريح وها هو يقف الآن في موقع مثالي لبدء القتال.

تملّك البحارة الإسبان الدهول. لم يتوقع أحدٌ أن التصميم الجديد الأكثر ضيقاً وانخفاضاً للسفن الإنكليزية قد أحدث هذا الفرق في قدرتها على المناورة. أصيب رولو بالإحباط. يا لها من انتكاسة مبكرة في هذه المعركة! إلى الشمال رأى رولو آخر سفينة إنكليزية تشق طريقها على طول الساحل لتنضم إلى البقية، وتقوم بانعطافات سريعة وحادة شمالاً وجنوباً في

الممر الضيق المفتوح. وما أثار دهشة رولو، أنه عندما وصلت سفينة القيادة في سيرها المتعرج إلى أقصى الجنوب أطلقت النار على الجهة الشمالية من الأسطول الإسباني، وعندما أفرغت مدافعها سارعت إلى العودة باتجاه الشمال. لقد ذهبت كل تلك القذائف الإنكليزية هباءً إذ لم تُصب أيّاً من السفن الإسبانية. إلا أن ذهول الإسبان كان مضاعفاً بسبب براعة الإنكليز في الملاحاة أولاً، وجرأة قائدهم ثانياً. وها هم الإنكليز قد أطلقوا الآن أولى الطلقات في هذه المعركة.

أمر ميدينا سيدونيا برفع راية الحرب واتخاذ وضعية القتال.

حان الآن دور الإنكليز للإصابة بالذهول؛ فقد قامت السفن الإسبانية المتجهة شرقاً بعيداً عن أسطول هاورد، بتشكيل دفاعي دقيق لن يتمكن أي أسطول إنكليزي من تحقيقه أبداً. كما لو أن الإسبان استعانوا بيد إلهية لإرشادهم فقد قامت سفنهم بتشكيل منحني مثالي كهلالٍ بقرنين يلوحان في تهديد ووعيد للإنكليز.

راقب نيد ويلارد الوضع من على متن سفينة القيادة أرك رويال بصفته ممثل ويلزنهايم. كانت سفينة أرك عبارة عن سفينة ذات أربعة صواري، وبطول يزيد على مئة قدم بقليل. كان المستكشف السير والتر رالي قد بناها ثم باعها إلى الملكة البخيلة إليزابيث التي بدلاً من أن تدفع له ثمنها، اقتطعت ثمنها البالغ خمسة آلاف جنيه من دين. قالت إنه يدين به لها. كانت هذه السفينة مدججةً بالسلاح؛ فهناك اثنان وثلاثون مدفعاً موزعاً على سطح السفينة وفي مقدمتها. لم يكن لدى نيد مقصورة خاصة به، ولكنه حصل على رفاهية النوم على سريرٍ بعدة طوابق مع أربعة رجال آخرين. أما البحارة فقد ناموا على الأسطح، فيما كافح الطاقم المكون من ثلاثمئة فرد بالإضافة إلى أكثر من مئة جندي لإيجاد متسع لهم على السفينة التي لا يتجاوز عرض أوسع نقطة فيها سبعة وثلاثين قدماً.

أثناء مراقبته لهذه المناورة غير المعقولة، لاحظ نيد أن سفن الإمداد متمركزة في الوسط، وأن السفن القتالية في المقدمة أو عند الأطراف. رأى نيد في الحال أنه لا يمكن للإنكليز سوى استهداف قرني الهلال، لأن أيّ

سفينة ستدخل المنحنى ستكون عرضةً للمباغطة والهجوم من الخلف. كانت كل سفينة تحت حراسة السفينة التي خلفها ما عدا السفينة الأخيرة. كان تشكياً مدروساً بعناية.

ولكن الأسطول الإسباني أزعج نيد بشكلٍ آخر؛ إذ تألقت سفنه بالألوان الزهية واستطاع نيد من مسافة بعيدة رؤية الرجال على متنها وهم بأبهي حللهم في سراويل وصدارٍ قرمزية وكحلية وأرجوانية وذهبية، وحتى المجدفون العبيد كانوا في ستراتٍ حمراء زاهية. أي نوع من الناس أولئك الذين يرتدون ملابس للحرب كما لو أنهم كانوا ذاهبين إلى حفلة؟ أما على السفن الإنكليزية، فإن النبلاء وحدهم كانوا في ملابس فاخرة، حتى القادة من أمثال دريك وهوكنز كانوا في سراويل صوفية رمادية وسترات جلدية.

وقف اللورد هاورد على مؤخرة السفينة آرك وهو الجزء المرتفع خلف السارية الرئيسية حتى يتمكن من رؤية معظم سفنه وسفن العدو. وقف نيد بالقرب منه، وخلفهم شكّل الأسطول الإنكليزي خطاً متعرجاً غير مترابط. رأى نيد بحاراً ينثر نشارة الخشب على سطح السفينة. وتطلب منه الأمر بعض الوقت ليدرك أنه كان يفعل هذا لمنع الأرضية من أن تصبح زلقة بفعل الدماء التي ستراق.

صاح هاورد بأوامره عالياً ثم انطلقت السفينة آرك في مقدمة الأسطول نحو المعركة.

توجه هاورد إلى الطرف الشمالي للهِلال، فيما قاد دريك السفينة ريفنج باتجاه الطرف المعاكس.

أصبحت السفينة آرك عند مؤخرةٍ آخرِ سفينة إسبانية، وقد كانت سفينة عظيمة اعتقد هاورد أنها السفينة راتا كورونادا. وفيما كانت السفينة آرك تتجاوز مؤخرة السفينة راتا، استدار القبطان الإسباني بالسفينة وأصبحت السفينتان جنباً إلى جنب ثم بدأتا تطلقان النيران بعضهما على بعض.

شعر نيد بدويّ المدافع عن قرب وكأنه انفجار، وكان دخان البارود أسوأ من الضباب. ولكن عندما انجلت الرؤية وجد أن أياً من السفينتين لم تصب الأخرى. كان هاورد يعلم أن أكثر ما يريده الإسبان هو الاقتراب بما فيه الكفاية من بدن السفينة، ولكنه حرص على تجنب هذه الكارثة بالإبقاء

على مسافة كبيرة بينهما بحيث لا يحدث هذا أبداً، أما نيران المدافع الإسبانية الأثقل والأقصر فلم تستطع إلحاق أي أذى.

وها هو نيد يختبر أولى مناوشاته في عرض البحر، ولكن التشويق لم يكن كبيراً كما توقع.

هاجمت السفن التي لحقت بالسفينة آر ك السفينة رانا و ثلاث أو أربع سفن قريبة منها ولكن من دون أن تُلحق بها أي أذى يُذكر. ألحقت بعض القذائف الإنكليزية الضرر بحبال الأشرعة والصواري، ولكن لم يقع أي ضررٍ جسيم على أيٍّ من الطرفين.

نظر نيد جنوباً ورأى أن هجوم دريك على الطرف الجنوبي حقق النتيجة نفسها.

انتقلت المعركة شرقاً حتى خسر الإسبان كل فرصهم بمهاجمة بليموث، ومع تحقيق هذا الهدف، انسحب الإنكليز.

فكر نيد بكآبة أن هذا لم يكن سوى نصر صغير؛ فالأسطول الإسباني سيتابع تقدمه من دون أضرار تذكر للالتقاء مع بقية القوات الإسبانية في هولندا قرب دانكريك، وهذا يعني أن الخطر على إنكلترا ما يزال قائماً.

شعر رولو بتفاؤل كبير طيلة ذلك الأسبوع.

ها هو الأسطول الإسباني يتابع طريقه شرقاً بكل مهابة، ورغم ملاحقة الأسطول الإنكليزي وإزعاجه للأسطول، لكنه لم يتوقف أو يتأخر، فالكلب الذي ينبج عند أقدام الحصان قد يسبب الإزعاج ولكن الحصان سيركله على رأسه عاجلاً أم آجلاً.

خسر الإسبان سفينتين خلال المناوشات، ولم يفاجأ أحدٌ عندما ترك دريك موقعه لفترة طويلة للاستيلاء على غنائم من السفينة روزاريو الثمينة. ولكن يبدو أن ما من شيء قد يوقف الأسطول الإسباني.

ويوم السبت الموافق في السادس من آب/ أغسطس نظر رولو إلى الأفق من فوق الصاري الأمامي للسفينة سان مارتن ورأى الشكل المألوف لميناء كاليه الفرنسي.

قرر ميدينا سيدونيا التوقف هنا، فالأسطول لا يزال بعيداً مسافة أربعة

وعشرين ميلاً عن دانكريك حيث يفترض بالدوق بارما أن يكون بانتظارهم مع جيشه وأسطولٍ صغير من المراكب الجاهزة للانضمام إلى الغزو، إلا أن هناك مشكلة تعترضهم؛ فالى الشرق من كاليه هناك المياه الضحلة والحواجز الرملية داخل البحر لمسافة تقارب خمسة عشر ميلاً، وهذه مشكلة خطيرة لمن لا يعرف التعامل معها. علاوة على هذا كان الأسطول معرض لخطر الانحراف عن مساره بعيداً في ذلك الاتجاه بفعل الرياح الشرقية والمد الربيعي. ومجدداً، قرر ميدينا سيدونيا التزام الحذر وعدم المخاطرة.

أطلقت السفينة سان مارتن إشارةً لباقي السفن حتى تُنزل أشرعتها في آنٍ واحد، وتتنظم بطريقة معينة، ثم تنزل مراسيها.

توقف الإنكليز وراءهم على بعد نصف ميل ولكن بطريقة أقل انتظاماً. أثناء الإبحار على طول القناة، كان رولو يراقب القوارب الإنكليزية الصغيرة بحسد وهي تجلب المؤن للأسطول الإنكليزي. شاهد كيف كانت براميل من البارود واللحم المقدد تُنقل إلى السفن. لم يتلق الإسبان الإمدادات منذ معركة كورونا، وكان لدى الفرنسيين أوامر بعدم التعامل مع الأسطول الإسباني لأن ملكهم أراد التزام الحياد في هذه الحرب. مر رولو بكاليه مراتٍ كثيرة أثناء تنقلاته، وكان يعلم أن سكان كاليه يكرهون الإنكليز، حيث فقد حاكم البلدة ساقه قبل ثلاثين عاماً في معركة لاستعادة كاليه من المحتلين الإنكليز. نصح رولو ميدينا سيدونيا بإرسال وفدٍ صغير إلى الشاطئ محملاً بالتحيات والهدايا الكافية للسماح لهم بشراء ما يريدونه. لسوء الحظ لم يكن ذلك كافياً، فلم يكن هناك ما يكفي من البارود في كاليه لتعويض عُشر ما استخدمه الأسطول في الأسبوع الماضي.

استشاط ميدينا سيدونيا غضباً عندما وصلته رسالة تقول إن دوق بارما لم يكن مستعداً لأن سفنه لم تزود بالإمدادات بعد ولم يبدأ تحميل الجنود عليها، وسيحتاجون إلى عدة أيام للاستعداد والإبحار إلى كاليه.

لم يفهم رولو سبب غضب القائد، إذ لم يكن من المتوقع أن ينقل دوق بارما جيشه على قوارب صغيرة، ويطلب منهم الانتظار هناك لفترة غير محددة، بل كان من المنطقي الانتظار إلى أن يتأكد من وصول الإسبان.

في وقت متأخر من بعد ظهر ذلك اليوم، فوجئ رولو برؤية أسطول إنكليزي ثانٍ يبحر باتجاه كاليه من الشمال الشرقي.

كان هذا هو القسم الآخر من أسطول إليزابيث المثير للشفقة، الذي لم تُرسله إلى بليموث لمواجهة الأسطول الإسباني. لم تكن تلك السفن التي رآها رولو سفناً حربية، بل سفناً تجارية صغيرة بسيطة التسليح ولا تضاهي السفن الإسبانية العظيمة.

لم يرَ رولو في تأجيل انطلاق الأسطول الإسباني أمراً كارثياً؛ فالأسطول الإسباني مازال أقوى بكثير، وقد سبق له أن صدَّ هجوم البحرية الإنكليزية لمدة أسبوع. وما عليهم فعله الآن هو انتظار دوق بارما ويمكنهم تدبر هذا، ومن ثم سيكون النصر من نصيبهم.

أدرك نيد أن البحرية الإنكليزية قد فشلت، فالأسطول الإسباني الذي ما يزال سليماً تقريباً ومزوداً بالإمدادات على وشك الالتقاء بدوق بارما وجيشه الهولندي، ولن يفصلهم عن الساحل الإنكليزي حينها سوى مسير أقل من يوم واحد.

صباح يوم الأحد، دعا اللورد هاورد إلى عقد مجلسٍ حربي على متن السفينة آرك رويال. كانت هذه فرصته الأخيرة لوقف الغزو.

سيكون الهجوم المباشر أشبه بالانتحار فلدى الأسطول الإسباني الكثير من السفن والأسلحة، بالإضافة إلى افتقار الإنكليز لأفضلية المناورة. لكن عندما تحركوا في عرض البحر، بدا لهم أن شكل الهلال الذي اتخذته القوات الإسبانية غير محكم التحصين تماماً.

هل هناك ما يمكنهم القيام به؟

تحدث العديد من الرجال في وقت واحد مقترحين إرسال السفن الحارقة.

شعر نيد أن التضحية بالسفن القيّمة بإشعال النيران فيها وإرسالها نحو العدو إجراءً يائس حيث يمكن للرياح المتقلبة والتيارات العشوائية أن تحرفها بسهولة عن مسارها، لذا لم يكونوا على يقين من أنها ستصل إلى هدفها وتشعل النار في أسطول العدو.

لكن لم يكن لدى أحدهم فكرة أفضل.

تم اختيار ثماني سفن قديمة للتضحية بها ووضعوها في منتصف الأسطول الإنكليزي على أمل إخفاء التحضيرات. ملئت حاويات السفن بالقار والخرق والأخشاب القديمة بينما طُليت الصواري بالقطران.

تذكر نيد حديثه مع كارلوس عن حصار أنتويرب حيث استخدم المتمردون الهولنديون تكتيكاً مشابهاً، واقترح على هاورد أن يتم تلقيم مدافع السفن الحارقة، بقليل من الحظ ستشعل النيران البارود وتطلق المدافع حينما تصل السفن الحارقة إلى منتصف أسطول العدو. راقبت الفكرة لهاورد وأعطى الأمر بالتنفيذ.

أشرف نيد على تلقيم المدافع بالطريقة التي أوضحها له كارلوس، وازعماً كمية مضاعفة من البارود بالإضافة إلى قذيفة وكمية أصغر من المتفجرات. تم ربط قاربٍ صغير في مؤخرة كل سفينة حارقة، وذلك حتى يتمكن أفراد الطاقم الشجعان الذين سيبحرون باتجاه العدو من الهرب في اللحظة الأخيرة.

ولكن فشلت محاولة إخفاء العمل على السفن الحارقة وأثار هذا الخوف في نفس نيد. لم يكن الإسبان أغبياء واكتشفوا ما كان يجري. رأى نيد العديد من القوارب والمراكب الإسبانية التي يتم توجيهها لتشكيل حاجزاً بين الأسطولين، وخمن أن ميدينا سيدونيا لديه خطة لحماية أسطوله، إلا أن نيد لم يستطع فهم هذه الخطة.

عندما حل الليل بدأ اتجاه الرياح والمد يتغيران، وعند منتصف الليل أصبح المد واتجاه الرياح مثاليين. رفع أفراد الطاقم الأشرعة، ووجهوا السفن الحارقة من دون أي مصاييح باتجاه أضواء الأسطول الإسباني.

ولأن نيد كان متوتراً جداً والقمر لم يرتفع في السماء بعد لم يتمكن من رؤية ما يجري. وغلقت العتمة المراكب فوق مياه البحر المظلمة. كانت المسافة بين الأسطولين نصف ميل فقط، إلا أن هذا الانتظار بدا كأنه بلا نهاية. شعر نيد بنبضات قلبه تتسارع؛ فكل شيء معلق على هذه العملية. لم يكن يصلي كثيراً إلا أنه ناجى السماء مناجاةً محمومة.

اشتعلت النيران فجأة، وأخذت السفن الثماني تحترق الواحدة تلو الأخرى. وعلى ضوء النيران المتأججة تمكن نيد من رؤية البحارة وهم يقفزون إلى قوارب النجاة. وسرعان ما بدا أن كتل النيران المنفصلة الثماني تلتحم معاً في جحيم واحد وهائل. قامت الرياح بدورها ودفعت هذه القنبلة المشتعلة بقوة باتجاه أسطول العدو.

شعر رولو بأنفاسه تتقطع وبقلبه يتحطم وهو يراقب السفن الحارقة تقترب من حاجز المراكب الصغيرة الذي وضعه ميدينا سيدونيا لإعاقة تقدمها. وعبقت في منخريه رائحة دخان وخشب وقار، وأحس بحرارة ألسنة النيران.

انفصل اثنان من القوارب عن الحاجز، وتحركا باتجاه طرفي الخط الذي سارت عليه السفن الحارقة، ثم قام أفراد الطواقم بالمخاطرة بحياتهم ورمي خطاطيف حديدية على مركبين مشتعلين، وحالما تمكنوا منهما قاموا بجرهما بعيداً. وفي ذروة ارتعاد رولو خوفاً على حياته، تملكه الذهول من شجاعة وبراعة البحارة الإسبان. قاموا بجرّ السفينتين الحارقتين نحو البحر المفتوح لتحترقا بعيداً وتتحولاً إلى رماد من دون إحداث أي ضرر.

بقيت ست سفن حارقة. اقترب قاربان من الحاجز ليكررا العملية نفسها ويجرا سفينتين من بين السفن الست. وفكر رولو أنه وبقليل من الحظ يمكن فصل السفن الست المتبقية إن تم فصل كل سفينتين معاً وباستخدام نفس الطريقة.

كان تكتيك ميدينا سيدونيا ناجحاً، فارتفعت معنويات رولو مجدداً. ثم أصيب رولو بالصدمة عندما سمع صوت المدافع. من المؤكد أنه لم يكن هناك أحدٌ على متن السفن الحارقة، إلا أن مدافعها تبدو كأنها تنفجر بفعل سحر ما. هل كان الشيطان هناك يلقم المدافع ويساعد المهرطقين والنيران تتراقص من حوله؟ ثم أدرك رولو أن المدافع قد تم تلقيمها مسبقاً، وأنها انفجرت عندما اشتعل البارود بفعل النيران.

أسفر كل هذا عن مذبحة. وعلى ضوء النيران البرتقالية تمكن رولو من رؤية الهياكل السوداء للرجال على متن القوارب المترنحة وكانت أشبه

بشياطين تتلظى في الجحيم تحت وابل من النيران. لا بد أن المدافع قد تم حشوها بالرصاص والحجارة. كان الرجال يصرخون، لكن ما من صوت علا على هدير النار وانفجارات المدافع.

فشلت محاولة الاستيلاء على سفن الحرق، وإبعادها عن الأسطول مع سقوط الطواقم جرحى وقتلى من على متن قواربهم إلى البحر. وساعد المد باقي السفن الحارقة على إكمال طريقها نحو الأسطول.

وفي وضع كهذا لم يكن لدى الإسبان خيار آخر سوى الفرار.

أطلق ميدينا سيدونيا على متن سفينة سان مارتن إشارة لسحب المراسي والابتعاد، ولكن لم يكن هناك داع لذلك؛ فعلى ضوء النيران البرتقالية رأى رولو الرجال على متن كل سفينة وهم يندفعون باتجاه الصواري ويرفعون الأشرعة. وفي غمرة ما يجري، لم يرفع الكثيرون منهم المراسي، إنما قاموا بكل بساطة بقطع الحبال السميكة بالفؤوس تاركين المراسي في أعماق البحر.

في البداية تحركت السفينة سان مارتن ببطء شديد. ولأنها، وعلى غرار باقي السفن قد أنزلت مرساتها من الأمام لتثبيت السفينة في مكانها، كان عليها أولاً أن تستدير بطريقة شاقة وبأشعة صغيرة. وبدا لولو أن اشتعال النيران في السفينة قبل ابتعادها أمر حتمي لذلك استعد للقفز في الماء ومحاولة السباحة نحو الشاطئ.

أرسل ميدينا سيدونيا بهدوء مركباً يحمل أوامر لجميع السفن بالإبحار شمالاً وإعادة التجمع، لكن رولو لم يكن متأكداً من أنهم سيطيعونه، فقد كان وجودهم بين ألسنة اللهب مرعباً جداً إلى درجة لم يفكر معظم البحارة في شيء سوى الفرار.

عندما استداروا أخيراً وعبت الرياح أشرعتهم، كان عليهم التركيز على الهروب من دون الاصطدام بعضهم ببعض. وحالما توضحت الرؤية فرت معظم السفن بكل السرعة التي زودتها بها الرياح والمد بغض النظر عن الاتجاه. ثم اقتربت سفينة حارقة بشكل خطير من سفينة سان مارتن فأشعل الشرر المتطاير النار في أشرعتها الأمامية.

نظر رولو إلى المياه الداكنة وتردد في القفز.

لكن السفينة كانت مجهزةً لمكافحة الحرائق، حيث تكومت على سطحها الدلاء وبراميل من مياه البحر. أمسك أحد البحارة دلواً وأفرغ مياهه على القماش المشتعل. أمسك رولو دلواً آخرَ وقام بالمثل، وسرعان ما انضم إليهما آخرون وتمكنوا من إطفاء النيران.

ثم تمكنت السفينة من الإبحار والابتعاد عن الخطر.

توقفت السفينة بعد أن قطعت ميلاً واحداً. نظر رولو من فوق مؤخرة السفينة إلى الأسطول الإنكليزي ورآه واقفاً بكل أمان بعكس اتجاه النيران ويراقب ما يجري. كان الأسطول الإسباني ما يزال يتخبط في حالة من الرعب والارتباك. على الرغم من أن أياً من السفن الإسبانية لم تشتعل فيها النيران، إلا أن الخطر كان محدقاً جداً إلى درجة استحالة فيها على أي أحد التفكير بشيء آخر غير إنقاذ نفسه.

عندما حل الظلام كانت السفينة سان مارتن تقف وحيدةً ومكشوفة، فلم يكن بإمكانهم القيام بأي شيء آخر. في الصباح كان على ميدينا سيدونيا أن يضطلع بمهمة شاقة وهي إعادة تشكيل الأسطول؛ فالسفن الإسبانية قد نجت ومن الممكن للغزو أن يستمر.

مع بزوغ فجر اليوم التالي على كاليه، رأى بارني ويلارد من على متن السفينة أليس، أن السفن الحارقة قد فشلت في مهمتها، حيث تناثرت بقاياها المشتعلة على طول شاطئ كاليه دون أن تُحرق أياً من السفن الأخرى الراقية. وحده حطام سفينة سان لورينزو فقط انجرف بلا حولٍ ولا قوة باتجاه المنحدرات.

شمالاً وعلى بعد ميل تقريباً، تمكن بارني من رؤية خيال سفينة القيادة الإسبانية سان مارتن وأربع سفن أخرى، لكن بقية الأسطول الكبير ما يزال بعيداً عن الأنظار. لقد تبعثرت سفنهم وتغيرت تشكيلتها إلا أنها كانت سليمة. رأى بارني خمس سفنٍ تبحر شرقاً وبسرعة مطردة فيما كان ميدينا سيدونيا يجول بين شتات سفنه المبعثرة، وحالما ينجح في إعادة تجميع السفن سيعود إلى كاليه بقوة ويجتمع مع دوق بارما.

مع ذلك، أحسّ بارني أن الإنكليز ما زالوا يملكون فرصة للنصر وإن

كانت ضئيلة؛ فأسطول الإسبان ضعيف وقيادتهم مضطربة وسفنهم مبعثرة، إلا أنهم قد يعيدون تجميعها الواحدة تلو الأخرى.

لو كان بالإمكان فقط دفعهم نحو الشواطئ الرملية الهولندية، سيكون الوضع أفضل بكثير. يعرف بارني هذه الشواطئ الرملية فقد مرّ بها أثناء إبحاره إلى أنتويرب، ودريك خَبَرها أيضاً، ولكنها بالنسبة للإسبان كانت عبارة عن مياه مجهولة. لدى الإنكليز فرصة هنا، ولكنها ليست متاحة لوقتٍ طويل.

كان هاورد قد توصل إلى نفس النتيجة، ومنح هذا بارني الشعور برضا عميق.

أطلقت سفينة آرك رويال مسدس الإشارة، فرفعت سفينة ريفينج التي يقودها دريك مرساتها وأشرعتها. أعطى بارني الأوامر لأفراد طاقمه الذين ورغم نعاسهم هبوا إلى العمل على الفور كجوقةٍ مدربةٍ جيداً على غناء قصيدة غزلية.

وانطلق الأسطول الإنكليزي في مطاردةٍ حثيثةٍ خلف السفن الخمس. وقف بارني على سطح السفينة بتوازن تلقائي رغم أمواج البحر العاتية التي تضرب السفينة. كان طقس شهر آب / أغسطس عاصفاً بأقطاره الغزيرة والمتفرقة، ورياحه التي تغير اتجاهها وشدتها باستمرار، إضافةً إلى الرؤية الضبابية كما هو الحال دوماً في القناة. استمتع بارني بالشعور الذي منحه إياه السباق فوق الماء، وملأ الهواء المالح رثتيه، وأنعش المطر البارد وجهه، وأثارت إمكانية نيل الغنائم آخر اليوم حماسه.

اقتربت السفن الإنكليزية بسرعة من السفن الإسبانية، لكن هروب الإسبان لم يكن بلا جدوى، فقد تمكنوا من عبور المضيق نحو بحر الشمال وجمعوا المزيد من سفن أسطولهم المبعثر. ومع ذلك، بقي الإنكليز الذين اقتربوا منهم كثيراً أكثر عدداً.

عند الساعة التاسعة صباحاً، ووفقاً لتقديرات بارني، كانوا على بعد سبعة أميال عن بلدة غريفلاينز الهولندية عندما قرر ميدينا سيدونيا أن الهرب لم يعد مجدياً فاستدار لمواجهة عدوه.

نزل بارني إلى منصة المدافع. كان رجل المدفعية الرئيسي لديه شابٌ

أسمر من شمال أفريقيا يدعى بيل كوري. كان بارني قد علم بيل كل ما يعرفه، إلى أن أصبح بيل بارعاً كمعلمه، وربما أفضل منه. أمر بارني بيل بتجهيز طاقم مدفعية أليس تمهيداً لخوض معركة.

شاهد بارني سفينة دريك تقترب من سفينة سان مارتن. كانت كلتا السفينتين تقتربان بعضهما من بعض وتكادان تصبحان جنباً إلى جنب كما حدث كثيراً في الأيام التسعة الماضية إلا أن هذه المرة كانت مختلفة. ازداد شعور بارني بالقلق عندما اقتربت سفينة دريك بشكل خطير من السفينة الإسبانية. يبدو أن دريك اشتم رائحة الدماء أو ربما الذهب. خشي بارني على حياة البطل الإنكليزي إذ إنه أصبح على بعد مئة ياردة فقط من هدفه. إن قُتل دريك في أول اشتباك في المعركة، فإن هذا كفيل بالقضاء على معنويات الأسطول الإنكليزي تماماً.

أطلقت كلتا السفينتين النيران من مدافعهما الأمامية التي كانت صغيرة ومزعجة وكفيلة بإرباك طاقم العدو وبث الرعب فيه، ولكن من دون أن تكون قادرة على شل حركة السفينة تماماً. وعندما أصبحت السفينتان العظيمتان بعضهما بمحاذاة بعض، بدت أفضلية الرياح جلية؛ فالسفينة الإسبانية، التي أبحرت مع اتجاه الرياح، مالت بشدة حتى أصبحت فوهات مدافعها وهي في أدنى نقطة لها، موجهة نحو السماء. أما السفينة الإنكليزية التي أبحرت بعكس اتجاه الرياح فقد مالت نحو سفينة العدو، ومن هذا المدى القريب باتت مدافعها قبالة سطح سفينة سان مارتن وبدنها السفلي المكشوف.

بدأت السفينتان بإطلاق النيران، وأصدرت مدافعهما أصواتاً مختلفة؛ فمدافع السفينة ريفينج أطلقت النيران بطريقة إيقاعية كقرع الطبول، حيث أطلق كل مدفع نيرانه عند وصوله للوضعية الأمثل بانضباط أرضى رجل المدفعية الذي كان في داخل بارني. فيما كان الصوت الصادر عن سفينة سان مارتن متقطعاً وأكثر عمقاً كما لو أن الرماة كانوا يوفرون الذخيرة.

تهادت كلتا السفينتين فوق الأمواج كقطعتي فلين. كانتا قريبتين جداً بعضهما من بعض ولم تكن مدافعهما لتخطئ في الإصابة حتى وسط هذا البحر الهائج.

أصيبت السفينة ريفينج بعدة قذائف كبيرة. وبسبب الزاوية التي أطلقت

منها القذائف نحوها أصيبت جبال الأشرعة، ولكن حتى إصابة كهذه قد تشل حركة السفينة في حال وصل الضرر إلى الصواري. عانت السفينة سان مارتن من نوع مختلفٍ من الإصابات؛ فقد أطلقت بعض مدافع دريك مجموعة متنوعة من الذخيرة غير التقليدية كرزم تحوي مكعبات حديدية صغيرة تدعى طلقات الترد كفيلة بتمزيق اللحم، بالإضافة إلى زوج من قذائف المدفعية المربوطة معاً والتي ستلتف حول جبال الأشرعة وتُسقط عوارضها، وشظايا قاتلة من الخرذة المعدنية الكفيلة بتمزيق الأشرعة.

حجب الدخان والضباب الرؤية إلا أن بارني تمكن من سماع صراخ الجرحى وسط أصوات الانفجارات، كما شعر بالبارود يدخل فمه وأنفه. وفيما كانت السفينتان تبتعدان بعضها عن بعض أخذتا تطلقان النيران من مدافعهما الخلفية. ومع انجلاء الدخان وجد بارني أن دريك لم يبطئ من سرعته ليلتف ويعاود الهجوم على سفينة سان مارتن بل كان يتقدم مباشرة نحو السفينة الإسبانية التالية، وأدرك بارني وقتها أن إصابة السفينة ريفينج لم تكن شديدة.

قامت سفينة أخرى في الأسطول الإنكليزي تدعى سفينة نبيرال بالانقضاض على السفينة سان مارتن. استخدم قائد هذه السفينة تكتيك دريك نفسه في الاقتراب بشدة من سفينة العدو ولكن بما لا يسمح للإسبان برمي الجبال والصعود عليها، وأخذت المدافع تهدر مجدداً. تراءى لبارني أن الإسبان أطلقوا عدداً أقل من القذائف هذه المرة، واعتقد أنّ رجال المدفعية كانوا بطيئين في التلقيم.

كان بارني قد راقب بما فيه الكفاية، فقد حان وقت المشاركة. وكان من الضروري أن تتم رؤية السفينة أليس وهي تهاجم السفن الإسبانية حتى يكون لبارني وطاقمه حصّة من الغنائم.

كانت السفينة سان فيلبي التالية في نسق السفن الإسبانية وقد باتت محاصرة الآن من قِبَل السفن الإنكليزية التي أخذت تقصفها بلا رحمة. ذكّر هذا المشهد بارني بالتسلية المفضلة لدى الشعب الإنكليزي، وهي إطلاق مجموعة من كلاب الصيد نحو دب. كانت السفن قريبة جداً بعضها من بعض إلى درجة أن بارني رأى رجلاً إنكليزياً مجنوناً يقفز عبر فجوة إلى

سطح سان فيلبي ولكن سرعان ما مزقته السيوف الإسبانية. وأدرك أنها المرة الوحيدة على مدار الأيام التسعة الماضية التي يصعد فيها أي شخص على متن سفينة العدو، وهذا دليل على نجاح الإنكليز في منع الإسبان من استخدام تكتيكاتهم المفضلة.

عندما اشتركت أليس في الهجوم خلف سفينة حربية تدعى «آنتلوب»، نظر بارني إلى الأفق وذعر عندما رأى مجموعةً جديدةً من السفن الإسبانية المتسابقة للانضمام إلى المعركة. يتطلب القدوم وإنقاذ أسطول يفوق العدو عدداً شجاعاً، ويبدو أن الإسبان يتمتعون بالكثير منها.

صرّ بارني على أسنانه في حنق وهو يصيح بأوامره لقائد الدفة حتى يقترب مسافة مئة ياردة من السفينة سان فيلبي.

أطلق الجنود الموجودون على متن السفينة الإسبانية النار من بنادقهم إذ كانوا قريبين بما يكفي لتحقيق إصابات بين البحارة على متن السفينة أليس. جثا بارني على ركبتيه ونجا من الإصابة، إلا أن ستة من رجاله سقطوا وسط بركٍ من دمائهم على سطح السفينة. بدأ بيل كوري بإطلاق النار، وهدرت مدافع أليس مجدداً. حطمت قذيفة صغيرة سطح السفينة الإسبانية وأطاحت بالبحارة والجنود، فيما أصابت قذائف أكبر هيكل السفينة.

أطلقت السفينة الإسبانية قذيفةً كبيرة رداً على قذائف أليس الثماني الصغيرة فحطمت مؤخرتها. أحس بارني حينها بالانفجار وكأنه وقع في أعماق جوفه. هرع نجارو السفينة الذين كانوا ينتظرون هذه اللحظة لمحاولة إصلاح الأضرار.

شارك بارني في معارك من قبل وأحس بالخوف؛ فالرجال الذين لا يخافون لا يعيشون طويلاً في البحر، لكنه وبمجرد بدء القتال وجد نفسه مشغولاً بأمورٍ كثيرة لم تتح له الوقت للتفكير بالخطر إلا لاحقاً. أحس بطاقة هائلة تملكه وأخذ يصرخ بالأوامر على طاقمه، متنقلاً بين جانبي السفينة من أجل رؤية أفضل، وكان ينزل إلى منصة المدافع باستمرار لإصدار أوامره ولتحفيز رجال المدفعية المتعرقين. أخذ يسعل من دخان المدافع الذي استنشقه، كما انزلق بسبب الدم على سطح السفينة، وتعرش بجثث القتلى والجرحى.

استدار بسفينته خلف السفينة أنتلوب، وتبع هذه السفينة الأكبر حجماً من سفينته وهي تعبر مرة ثانية، وقد فتح نيران مدافع الميسرة هذه المرة. أطلق الشتائم عندما أصابت قذيفة أطلقتها سفينة العدو على الصاري الخلفي للسفينة. بعد جزء من الثانية، شعر بألم حادٍ ولاسع في فروة رأسه. مد يده وسحب شظية من الخشب كانت قد علقت في شعره، ثم أحس بلزوجة الدم الدافئ، ولكنه أدرك أنه لم يكن ينزف بشدة وهذا يعني أنه لم يُصب سوى بخدشٍ.

لم يسقط الصاري وسارع النجار إلى تثبيته بركائز التدعيم. عندما انجلى الدخان لاحظ بارني أن الأسطول الإسباني يتحرك ببطء وفق تشكيلة الهلال نفسها.

أذهلته قدرة القادة والطواقم على التجمع بهذا الانضباط بعد تلقي مثل هذه الضربة الساحقة. أثبتت السفن الإسبانية أنها عصية على الغرق. وها هي تعزيزات الأسطول الإسباني في طريقها للوصول الآن. استدار بارني بسفينته للقيام بهجوم آخر.

استمرت المعارك طيلة اليوم، وقبيل العصر كان اليأس قد نال من رولو. تلقت السفينة سان مارتن مئات الضربات، وخرجت ثلاثة مدافع من الخدمة، لكن ما يزال هناك الكثير منها على متن السفينة. يعود الفضل في إبقاء السفينة المثقوبة طافية إلى الغواصين الشجعان الذين نزلوا إلى البحر حاملين صفائح الرصاص وسدادات القنب لسد الثقوب مع احتدام المعركة. رأى رولو جثث الرجال القتلى منهم والجرحى، وكان بعضهم يناشدون الربّ أو قديسيهم المفضلين لإراحتهم من آلامهم المبرحة. وشعر رولو بطعم الدم والدخان في الهواء الذي يتنفسه.

تعرضت السفينة ماريا خوان لأضرارٍ جسيمة لم تتمكن معها من البقاء عائمة. راقب رولو السفينة الرائعة بيأس وهي تغرق ببطء لتبتلعها أمواج بحر الشمال الباردة وتختفي عن الأنظار إلى الأبد. كما كانت السفينة سان ماتيو تشارف على الغرق أيضاً، وفي محاولة منهم لإبقائها عائمة، قام الطاقم برمي كل شيء متحرك على متنها كالبنادق والمشابك والأخشاب المكسورة،

وحتى جثث رفاقهم القتلى. أما سفينة سان فيلبي فقد أصيبت بأضرارٍ جسيمة إلى درجة لم يعد بالإمكان توجيهها وأخذت تنجرف بلا حولٍ ولا قوة بعيداً عن مكان المعركة باتجاه الشواطئ الرملية.

لم يكن الإسبان متفوقين بالعدد فقط بل كان جنودهم شجعاناً جداً وبحارتهم مهرة بحق. كانوا معتادين على ربح معاركهم من خلال صدم السفن الأخرى بقوة وصعود جنودهم إليها، إلا أن الإنكليز اكتشفوا كيفية منعهم من ذلك، وأجبروهم على الدخول في معارك يتم فيها تبادل إطلاق النيران، وهذا ما لم يكن في مصلحتهم، فقد طور الإنكليز أسلوباً سريعاً في إطلاق النار لم يتمكن الإسبان من مجاراته. كان من الصعب إعادة تلميم المدافع الإسبانية الكبيرة، حيث تطلب الأمر من رجال المدفعية في بعض الأحيان التعلق بالحبال والتدلي خارج بدن السفينة لإدخال القذيفة، وفي خضم معركة محتدمة كان هذا الأمر شبه مستحيل.

وكانت النتيجة كارثية.

وإمعاناً في الهزيمة التي لحقت بالإسبان تغير اتجاه الريح نحو الشمال ولم يكن الهرب في ذلك الاتجاه ممكناً. وإلى الشرق والجنوب كانت هناك حواجز رملية فيما ضغط عليهم الإنكليز من الغرب. صمد الإسبان بشجاعة، إلا أنهم كانوا عالقين ولم يكن أمامهم سوى خيارين: إما الغرق تحت وابل نيران المدافع الإنكليزية، أو الجنوح نحو الحواجز الرملية.

كان وضعاً ميثوساً منه حقاً.

تغير الطقس عند الساعة الرابعة بعد الظهر.

هبت رياحٌ ماطرة ومفاجئة من الجنوب الغربي. على متن سفينة أرك رويال بقيادة اللورد هاورد كانت الريح تتقاذف نيد ويلارد على سطح السفينة وتتشعب ثيابه بمياه المطر. كان نيد سيتحمل هذا الوضع برحابة صدر، إلا أن ما أزعجه هو اختباء الأسطول الإسباني خلف ستارة من المطر. تحرك الأسطول الإنكليزي إلى المكان الذي يفترض أن يتواجد فيه الإسبان ولكنهم كانوا قد غادروا.

لن يهربوا الآن بالتأكيد.

انجلت العاصفة بعد نصف ساعة وبالسّعة نفسها التي عصفت فيها، ومع ظهور شمس الظهيرة شاهد نيد في حيرة كيف أن السفن الإسبانية تبجر مسرعةً، وقد أصبحت على بعد ميلين شمالاً.

رفعت السفينة آرك رويال أسرعتها وبدأت بالمطاردة، وتبعها بقية السفن. ولأن الوصول إلى الأسطول الإسباني يتطلب وقتاً أدرك نيد أن ما من معركة ستقع قبل حلول المساء.

لازم كل من الأسطولين الساحل الشرقي لإنكلترا. عندما حل الليل كان نيد مرهقاً فذهب لينام على سريره وبكامل ملبسه. ومع بزوغ فجر اليوم التالي رأى أن الإسبان ما زالوا بعيدين عنهم المسافة نفسها، وأنهم يتجهون شمالاً بأقصى سرعة.

كان اللورد هاورد يقف في مكانه المعتاد على سطح السفينة ويشرب الجعة الخفيفة: «ما الذي يجري يا سيدي؟» سأل نيد بلباقة، «يبدو أننا لا نلاحقهم».

«لا حاجة لذلك»، أجاب هاورد ثم تابع: «انظر، إنهم يهربون».

«إلى أين سيذهبون».

«سؤال جيد. بحسب خبرتي أعتقد أنهم سيُجبرون على الالتفاف حول الطرف الشمالي لساحل إسكتلندا، ثم سيتجهون جنوباً عبر البحر الأيرلندي، إذ لا خرائط للمكان كما تعلم».

لكن نيد لم يكن يعلم بهذا.

«كنت برفقتك طوال الوقت ولأحد عشر يوماً ومع ذلك لم أفهم كيف حدث كل هذا».

«في الحقيقة أيها السير نيد إن غزو الجزر أمرٌ صعب. إن الغزاة الآن في وضع سيئ جداً، ويعانون من نقص في الإمدادات، كما أنهم معرضون للخطر أثناء تحميل وإنزال قواتهم، فضلاً عن أنهم تائهون في مناطق وبحار لا يعرفونها. فما فعلناه بشكل أساسي هو أننا أنهكنا العدو إلى درجة لم يعد فيها قادراً على مواجهة المصاعب الأخرى المرافقة لعملية الغزو».

هز نيد رأسه في إشارة إلى أنه فهم ما قاله اللورد هاورد وقال: «لقد كانت الملكة إليزابيث مصيبة في إنفاق المال على أسطولها».

«هذا صحيح».

نظر نيد نحو الأسطول الإسباني المتفهمق وقال: «لقد انتصرنا إذاً». لم يكن قادراً على تصديق الأمر.

كان يعلم أن عليه أن يقفز فرحاً، إلا أنه سيفعل هذا عندما ينتشر الخبر، أما الآن فلم يكن بوسعه فعل شيء سوى الشعور بالذهول.

ابتسم هاورد وقال: «نعم، لقد انتصرنا».

«يا للهول!» قال نيد.

الفصل السابع والعشرون

استيقظ بيير أوموند على صوت ابن زوجته آلان وهو يقول: «هناك اجتماع طارئ للمجلس الخاص». كان آلان يتحدث بتوتر خوفاً من يكون قد أقلق راحة سيده النزق.

استيقظ بيير بانزعاج، فقد كان هذا الاجتماع مفاجئاً وهو لا يحب المفاجآت. كيف لم يعلم بأمره مسبقاً؟ ما هي حالة الطوارئ تلك؟ هرش ذراعيه مفكراً فتساقطت قشور الجلد الجاف على السرير المطرز ثم سأل آلان: «ماذا تعلم أيضاً؟».

قال آلان: «وصلتنا رسالة من دو».

كان صاحب هذا الاسم الغريب هو فرانسوا دو المسؤول المالي للملك هنري الثالث.

«ويريد منك الحرص على حضور دوق غيز»، تابع آلان.

نظر بيير عبر النافذة. لم يكن الفجر قد انبج بعد ولذلك لم يتمكن من رؤية أي شيء في الخارج، لكنه كان يسمع جلبة المطر الغزير ينهمر على السطح وعلى النوافذ. لن يعلم المزيد إن بقي مستلقياً في السرير لذلك قرر النهوض. في عام 1855 وقبل عيد الميلاد بيومين اجتمعوا في قصر بلوا الملكي الذي يبعد مئة ميل جنوب غرب باريس. كان قصرأ ضخماً يضم ما لا يقل عن مئة غرفة، وقد شغل بيير فيه جناحاً رائعاً بحجم جناح سيده دوق غيز، وجناح الملك تقريباً.

على غرار الملك والدوق، أحضر بيير معه بعضاً من أثائه الفاخر، بما في ذلك سريره المريح جداً ومكتبه الكبير جداً. بالإضافة إلى ممتلكات نفيسة أخرى كزوج من المسدسات التي تعمل بآلية القمح وملحقاتها الفضية

قدمهما له الملك هنري. كانت تلك هي المرة الأولى والوحيدة التي يحصل فيها على هدية من ملك، واحتفظ بهما بجانب سريره من أجل الاستخدام. كان لديه حاشية من الخدم على رأسها آلان دو غيز. يبلغ عدد أفراد هذه الحاشية حتى الآن ثمانية وعشرين خادماً وقد نجح في ترويضهم بالكامل وتحويلهم إلى مساعدين أمناء، بالإضافة إلى عشيقته الذليلة والجميلة لويز ماركيزة نيم.

لعب بيير دوراً كبيراً في جعل هنري دوق غيز واحداً من أهم رجالات أوروبا، بل وأقوى من ملك فرنسا نفسه، وهذا الأمر رفع مكانة بيير إلى جانب مكانة سيده.

كان الملك هنري محباً للسلام كوالدته الملكة كاترينا لذلك حاول أن يسترضي البروتستانتين الفرنسيين المهرطقين المعروفين باسم الهوغونيين. أحس بيير بالخطر الكامن في هذا التساهل منذ البداية فشجع الدوق على تأسيس الرابطة الكاثوليكية، وهي اتحاد من الأخويات الكاثوليكية المتشددة، لمكافحة الانجراف نحو الهرطقة. تجاوز نجاح الرابطة سقف توقعات بيير، إذ أصبحت الآن القوة المهيمنة على السياسة الفرنسية، كما سيطرت على باريس والمدن الكبرى الأخرى. ازدادت قوة الرابطة إلى درجة أنها كانت السبب في مغادرة الملك هنري باريس اليوم وقدمه إلى قصر بلوا بنفسه. كما نجح بيير في تعيين الدوق غيز برتبة القائد العام للجيش الملكي، وبهذا لم يعد الملك المسيطر الفعلي على جيشه.

كان المجلس العام لفرنسا أي البرلمان الوطني الفرنسي، في حالة انعقاد هنا منذ تشرين الأول/ أكتوبر. نصح بيير دوق غيز بالتحدث وكأنه ممثل عن الشعب في المفاوضات مع الملك، رغم أنه في الحقيقة كان زعيم المعارضة للسلطة الملكية. كان هدف بيير الحقيقي هو ضمان خضوع الملك لجميع المطالب التي قدمتها الرابطة.

كان بيير قلقاً من أن يكون سيده قد تمادى في غطرسته، فقبل أسبوع وخلال مأدبة أقامتها عائلة غيز، قام لويس شقيق الدوق هنري وكاردينال لورين برفع نخبٍ قال فيه: «نخب أخى، ملك فرنسا الجديد». وصل خبر الإهانة هذه إلى الملك هنري في الحال. لم يعتقد بيير أن الملك هنري

يمتلك الشجاعة للرد على هذه الإهانة، ولكن من ناحية أخرى فإن التباهي يغوي الموت.

ارتدى بيير سترة بيضاء باهظة تظهر من تحتها بطانة من الحرير الذهبي. كان قد اختار اللون الأبيض لإخفاء القشرة البيضاء التي تتساقط باستمرار من فروة رأسه الجافة.

تسلل ضوء النهار في الشتاء على مضض كاشفاً عن سماء سوداء ومطر متواصل. اصطحب بيير معه خادماً ليحمل شمعةً تضيء عتمة ممرات وأروقة القصر الواسع ليصل إلى جناح الدوق هنري.

استقبله قائد الحرس الليلي لدى الدوق، وهو رجلٌ سويسري يدعى كولي كان بيير قد حرص على رشوته دائماً. حياه بيير مبتسماً ثم قال: «لقد قضى نصف ليلته مع السيدة سوف ثم عاد إلى هنا عند الثالثة».

كانت المومس الشهوانية شارلوت سوف عشيقة الدوق الحالية. ربما أراد الدوق النوم حتى وقت متأخر هذا الصباح.

«يجب أن أوقفه»، قال بيير. «أرسل له كأساً من الجعة، فلن يكون لديه وقتٌ لأي شيء آخر».

ودخل بيير إلى غرفة النوم. كان الدوق وحده فزوجته في باريس لوضع طفلهما الرابع عشر.

هز بيير كتف الدوق النائم. لم يكن الدوق قد بلغ الأربعين بعد وما يزال قوياً ولذلك استيقظ سريعاً.

تذمر الدوق قائلاً: «ما هذا الأمر المُلح الذي يمنع المجلس من انتظار الرجال حتى يتناولوا إفطارهم؟» ثم أمسك برداء رمادي من الساتان ووضع فوق ملابسه الداخلية.

لم يرغب بيير بالاعتراف بأنه يجهل السبب لذلك قال: «يشعر الملك بالقلق إزاء المجلس العام».

«كنت لأتظاهر بالمرض كي لا أذهب ولكن قد يستغل الآخرون غيابي ليحيكوا المؤامرات ضدي».

«لا تقل قد، بل سوف». كان هذا ثمن النجاح. فقد أدى ضعف الملكة الفرنسية الذي بدأ مع الموت المبكر للملك هنري الثاني قبل ثلاثين عاماً إلى

منح عائلة غيز فرصاً هائلة، لكن كلما ازدادت سلطتهم ازدادت محاولات الآخرين لانتزاعها منهم.

جاء خادمٌ يحمل إبريقاً من الجعة شربه الدوق دفعةً واحدةً، ثم تجشأ بصوت عالٍ، وقال: «هذا أفضل».

لم يكن رداؤه المصنوع من الساتان يبعث على الدفء كما كانت ممرات القصر باردة، لذلك جلب له بيير عباءةً ليرتديها أثناء توجههما إلى قاعة المجلس، وأخذ الدوق قبةً وقفازاتٍ ثم مضيا.

سار كولي أمامهما، فلم يكن الدوق يتحرك من دون حارسٍ شخصي حتى عند انتقاله من قسم إلى آخر داخل القصر. لكن ولأنه لا يُسمح للرجال المسلحين بالدخول إلى قاعة المجلس بقي كولي واقفاً أعلى الدرج الكبير فيما دخل الدوق وبيير إلى قاعة المجلس.

كانت نار المدفأة قوية فخلع الدوق هنري رداءه وجلس إلى الطاولة بجانب المستشارين الآخرين، ثم قال لأحد الخدم: «أحضر لي بعض الزبيب الدمشقي، فأنا لم أتناول شيئاً بعد».

انضم بيير إلى المستشارين الواقفين بمحاذاة الجدار، ثم بدأ المجلس بمناقشة أمر الضرائب.

استدعى الملك المجلس العام لأنه كان بحاجة إلى المال، حيث كان التجار الأغنياء، الذين يشكلون طبقةً ثالثة بعد طبقتي الأرستقراطيين ورجال الدين، مترددين بإعطائه المال الذي حصلوا عليه بشق النفس، وقاموا بوقاحة بإرسال محاسبيهم للتحقق من الشؤون المالية المملكية، ثم أعلنوا بعدها أن الملك ليس بحاجةً لفرض ضرائبٍ أعلى بل إلى إدارة أمواله بشكل أفضل.

دخل المدير المالي للملك، فرانسوا دو في صلب الموضوع مباشرة قائلاً: «يجب على الطبقة الثالثة أن تصل إلى تسوية مع الملك». قال هذا وهو يحدق مباشرةً في عيني الدوق هنري.

«سيفعلون»، أجب الدوق. «امنحهم بعض الوقت فقط فكبرياؤهم تمنعهم من الاستسلام فوراً».

وفكر بيير بأن كل شيء يجري على ما يرام؛ فعندما يتم التوصل إلى التسوية النهائية سيكون الدوق بطلها.

«ولكن هذا لن يحصل على الفور، أليس هذا صحيحاً؟ قال دو بعناد.
«إنهم يتحدثون الملك منذ شهرين».

«سيمثلون للأمر الواقع في النهاية».

أخذ بيير يحك إبطيه، وتساءل عن سبب استدعاء المجلس الخاص بهذا الشكل العاجل فمسألة الضرائب قضية نقاش مستمر، ولا يبدو أن شيئاً جديداً قد استجد بخصوصها.

قدم الخادم طبقاً إلى الدوق وقال: «لا يوجد زيبب يا سيدي، لذا أحضرت لك بعض الخوخ البروفانسي المجفف».

«ضعه هنا، فأنا جائع ويمكنني أن ألتهم أي شيء يوضع أمامي»، قال الدوق.

لم يشتت كلام الدوق تركيز دو حيث تابع قائلاً: «في كل مرة نطلب فيها من طبقة التجار أن يكونوا عقلانيين أتعرف بماذا يردون علينا؟ يقولون إنهم ليسوا بحاجة لتسوية لأنهم يحظون بدعم دوق غيز». ثم توقف لبرهة ونظر حول الطاولة.

خلع الدوق قفازيه وبدأ بحشر الخوخ في فمه.

وجه دو الكلام إلى الدوق هذه المرة قائلاً: «يا سيدي، أنت تدعي أنك صانع سلام بين الملك والشعب، لكنك أصبحت عقبة أمام هذه التسوية».

لم تعجب نبرة حديث دو بيير، إذ بدا الأمر وكأنه يُصدر حكماً.

ابتلع الدوق هنري حبة خوخ وبدأ أن الكلمات قد خذلته للحظة.

فُتح أحد الأبواب ودخل الوزير ريفول من جناح الملك المجاور. اقترب ريفول من الدوق هنري وقال بصوت واضح ومنخفض: «يود الملك التحدث معك يا سيدي».

أصيب بيير بالحيرة، فقد كانت هذه ثاني مفاجآت هذا الصباح. هناك شيء ما يجري لا علم له به، وأحس بالخطر.

استجاب الدوق لرسالة الملك ببطء وقح. أخرج من جيبه صندوقاً من الفضة المطلية بالذهب له شكل قوقعة، ثم وضع بعض الخوخ المجفف فيه ليأخذه معه، كما لو أنه أراد تناول وجبة خفيفة أثناء حديث الملك معه. ثم وقف وأخذ رداءه، وبإيماءة من رأسه أمر بيير باللحاق به.

في الغرفة المجاورة لقاعة المجلس وقفت فرقة من حراس الملك الشخصيين بقيادة رجل يدعى مونسيريه. ورمق قائد الحرس الدوق بنظرة عدائية. كان يُطلق على هؤلاء الحراس ذوي الأجور المرتفعة اسم فرقة الخمسة والأربعين، وكان الدوق هنري قد اقترح بتشجيع من بيير، أن يتم حلهم لتوفير المال، ولإضعاف الملك أكثر بالطبع. لم تكن هذه إحدى أفضل أفكار بيير فقد تم رفض الاقتراح، وكانت النتيجة الوحيدة هي أن فرقة الخمسة والأربعين كرهت الدوق.

«انتظرنى هنا في حال احتجت إليك». قال الدوق هنري لبيير.

توجه مونسيريه لفتح الباب للدوق.

سار الدوق هنري نحو الباب ثم توقف واستدار نحو بيير مجدداً وقال: «بالنظر إلى الأمر مجدداً أعتقد أنه من الأفضل أن تعود إلى المجلس الخاص حتى تُعلمني بما يقولونه في غيابي». «حسناً يا مولاي»، قال بيير.

فتح مونسيريه الباب ليظهر الملك هنري واقفاً في الجهة الأخرى من الغرفة. إنه ملك منذ خمسة عشر عاماً، وها قد بلغ السابعة والثلاثين. كان يملك وجهاً سميناً شهوانياً إلا أنه كان ينضح بهدوء السلطة. نظر إلى الدوق هنري وقال: «إذاً، ها هو الرجل الذي يدعونه ملك فرنسا الجديد». ثم أوما إلى مونسيريه إيماءة قصيرة ولكن واضحة.

في تلك اللحظة، أدرك بيير الكارثة التي كانت على وشك الوقوع. وبحركة سريعة ورشيقة، سحب مونسيريه خنجرًا طويلاً وطعن الدوق. مزق النصل الحاد الرداء الساتاني للدوق، واستقر عميقاً في صدره القوي. تجمد بيير في مكانه من الصدمة.

فتح الدوق فمه كما لو أنه أراد الصراخ لكنه لم يتمكن من إصدار أي صوت، وأدرك بيير حينها أن الطعنة قتلته.

لم يكتفِ الحراس بهذا فقد قاموا بمحاصرة الدوق وطعنه دون توقف بالسكاكين والسيوف. سال الدم من أنفه وفمه، بل من كل مكان.

حدق بيير بعجزٍ ورعبٍ لثانية أخرى، وها هو الدوق هنري يخر على الأرض وينزف من جروح كثيرة.

نظر بيير إلى الملك الذي كان يشاهد ما يجري بهدوء.
استفاق بيير من صدمته أخيراً. لقد قُتل سيده، وقد يكون هو التالي
فانسحب عبر الباب بهدوء، وتوجه بسرعة نحو قاعة المجلس.
حدق به مستشارو المجلس الجالسون حول الطاولة الطويلة بصمت،
فأدرك بلمح البصر أنهم كانوا يعرفون بما كان سيحدث. كان هذا الاجتماع
«العاجل» ذريعة للإلقاء القبض على دوق غيز على غفلةٍ منه. كانت تلك
مؤامرةً اشتركوا فيها جميعاً.

أرادوا منه أن يقول شيئاً، لأنهم لم يعرفوا بعد ما إذا كانت جريمة القتل قد
تمت أم لا. استغل حالة عدم اليقين اللحظية تلك ليهرب منهم. عبر الغرفة
بسرعة من دون أن يتحدث إلى أحد ثم خرج. سمع خلفه ضجيجاً قطعته
بإغلاق الباب بكل قوة.

نظر حارس الدوق الشخصي كولي إلى بيير بحيرة، لكن بيير تجاهله
ونزل الدرج الكبير من دون أن يحاول أحد إيقافه.

كان يشعر بالذعر ويتنفس بصعوبة ويتعرق رغم الجو البارد. لقد مات
الدوق... بل قُتل. وبدا واضحاً أن عملية القتل حدثت بناءً على أوامر
الملك. بالغ الدوق هنري في ثقته بنفسه، وكذلك فعل بيير. لقد كان هنري
واثقاً من أن الملك الضعيف هنري لن يتمتع بالشجاعة أو الحسم، إلا أن
ذلك كان خطأ كارثياً وقاتلاً.

لقد كان محظوظاً لأنه لم يُقتل هو أيضاً. قاوم شعوره بالذعر وهو يبحث
الخطى عبر القصر. ربما لم يخطط الملك والمتعاونون معه لما هو أبعد من
عملية الاغتيال، لكنهم الآن وبعد موت الدوق سيفكرون في كيفية تعزيز
انتصارهم. سيعملون بداية على التخلص من إخوة الدوق، الكاردينال لويس
ورئيس أساقفة ليون، ثم سيحولون انتباههم إلى مستشاره الرئيسي بيير.

إن الدقائق التالية ستشهد حالةً من الفوضى والارتباك، ولم يكن لدى بيير
سوى فرصة ضئيلة لإنقاذ نفسه.

وفيما كان يركض في أحد الممرات فكر بيير بأن تشارلز الابن الأكبر
للدوق هنري قد أصبح دوق غيز الجديد. يبلغ الصبي سبعة عشر عاماً وهو
كبير بما يكفي ليشغل مكان والده، فهنري نفسه كان في عمر الثانية عشرة

عندما أصبح دوقاً. إن تمكن بيير من الخروج من هنا، فسيفعل بالضبط ما فعله مع هنري: سوف يتودد إلى الأم ليصبح المستشار الأساسي للشاب، ويغذي فيهما الرغبة بالانتقام، ثم يوماً ما سيجعل الدوق الجديد قوياً كالدوق القديم.

لقد عانى من نكسات من قبل، ولطالما عاد قوياً بل وأقوى من ذي قبل. وصل إلى جناحه وهو يتنفس بصعوبة. وجد ابن زوجته آلان في غرفة الجلوس فقال له: «أسرح ثلاثة خيول وحضر المال والأسلحة فقط. يجب أن نغادر هذا المكان على الفور».

«إلى أين سنذهب؟» سأل آلان.

وفكر بيير في نفسه أن هذا الفتى الغبي يطرح أسئلة غبية.

«لم أقرر بعد، تحرك فحسب»، صرخ بيير.

دخل إلى غرفة النوم فوجد لويز في ثياب النوم جاثيةً على كرسي الصلاة تصلي والسبحة في يدها. «ارتدي ملابسك بسرعة»، قال بيير، «إن لم تكوني جاهزة فسأذهب من دونك».

نهضت ثم اقتربت منه ويداها ما زالتا مضمومتين وكأنها تصلي ثم قالت «أنت واقع في مشكلة؟».

«بالطبع أنا واقع في مشكلة ولهذا أنا أهرب»، قالها بنفاد صبرٍ ثم تابع: «ارتدي ملابسك».

فتحت لويس يديها وسحبت خنجرًا قصيراً ثم ضربت به وجه بيير.

«يا إلهي!» صرخ بيير من الألم إلا أن صدمته كانت أسوأ. كان مصدوماً جداً بما حصل. فها هي لويز، الفأرة المذعورة والمرأة العاجزة التي أساء معاملتها من أجل المتعة فقط، تسبب له جرحاً، وليس مجرد خدش فحسب بل جرح عميق في خده، جرح ينزف بغزارة على ذقنه ورقبته. «أيتها العاهرة، سأجز عنقك»، صرخ واندفع نحوها ليمسك بالسكين.

إلا أنها تراجعته بخفة وقالت: «أيها الشيطان، لقد انتهى كل شيء وأنا حرة الآن»، ثم طعنته في رقبته.

لم يكن قد صدق بعد ما كان يجري إلى أنه أحس بألم النصل يخترق

لحمه. ما الذي يجري؟ لماذا ظنت أنها حرة الآن؟ ها هو ملكٌ ضعيفٌ يقتل الدوق، وها هي امرأةٌ ضعيفةٌ تطعنه. شعر بيير بالحيرة.

إلا أن لويز لم تكن قاتلةً محترفة، ولم تكن تدرك أنها يجب أن تقتله من الضربة الأولى، لقد أخفقت وستموت الآن.

اندفع بيير وقد تملكه الغضب واضعاً يده اليمنى على حلقة المصاب، فيما ضرب بيساره يدها التي تحمل السكين. كان بيير مصاباً إلا أنه كان حياً وسوف يقتل لويز. ركض نحوها واصطدم بها قبل أن تتمكن من طعنه مجدداً، ففقدت توازنها وسقطت على الأرض وقد أفلتت السكين من يدها.

أمسك بيير بالسكين متجاهلاً آلامه، جلس فوق لويز ورفع السكين، ثم توقف للحظة محتاراً في المكان الذي سيطعنها فيه. في وجهها أم في صدرها أم حنجرتها أم في بطنها؟

أحس بضربة قوية تهوي على كتفه اليمنى أطاحت به يساراً. وشعر للحظات بخدرٍ في يده اليمنى وأفلت السكين من يده ثم سقط فوق لويز بقوة وانقلب على ظهره.

رفع بصره فرأى آلان...

كان الشاب يحمل في يديه المسدسين الذين أهداهما إليه الملك هنري ويصوبهما نحوه.

حذق بيير إلى المسدسين بياس. لقد أطلق بهما النار عدة مرات ويعرف مدى دقتهما. لم يكن يعرف مدى براعة آلان في التصويب، ولكن من الصعب أن يخطئ وهو يقف على بعد خطوتين منه.

وفي لحظةٍ من الصمت سمع بيير صوت المطر، ثم أدرك أن آلان كان على علمٍ مسبقٍ باغتيال الدوق ولهذا سأل عن المكان الذي سيذهبون إليه وليس عن سبب مغادرتهم. كانت لويز على علمٍ أيضاً. لقد تأمرا معاً لقتل بيير في لحظة ضعفه وسوف ينجيان بفعلتهما، لأن الجميع سيعتقد أن بيير قد قُتل كما قُتل الدوق، بناءً على أوامر الملك.

كيف يمكن لهذا أن يحصل معه هو، بيير أوموند دي غيز، سيد التلاعب لثلاثين عاماً؟ نظر إلى لويز ثم مجدداً إلى آلان، ورأى نفس التعبير على

وجيههما، تعبیر يشي بكره ممزوج بالمتعة. كانت تلك لحظة انتصارهما وكانا سعيدين بها.

قال آلان: «لم تعد تلزمني في شيء». ثم أحكم أصابعه على القبضة المحنية المتدلّية أسفل المسدسين.

ما الذي يعنيه بقوله هذا؟ لطالما كان بيير من يستغل آلان وليس العكس. أولم يكن الأمر كذلك؟ ما الذي فاته؟ شعر بيير بالحيرة مجدداً.

فتح فمه ليصرخ طلباً للنجدة، لكن لم تسعفه حنجرتة المصابة. تحرّك زند القدح الآلي للمسدسين، ثم تطاير الشرر منهما، وانطلقت رصاصتان في آن معاً.

لقد كان الألم مبرحاً لدرجة أن بيير أحس كما لو أن مطرقة ثقيلة ضربت صدره.

تناهى إلى مسمعه صوت لويز كما لو أنها تتحدث من مسافة بعيدة: «فلتعد إلى الجحيم من حيث أتيت». ثم أطبق الظلام.

كان الإيرل بارتليت كاثوليكيّاً متعصباً فقد سُمي ابنه الأول سويدن تيمناً باسم جده الأكبر، وسُمي ابنه الثاني رولو تيمناً باسم خاله. كان بارتليت يرى أن هذين الرجلين حاربا البروتستانتية بكل شجاعة.

لم يرق هذان الاسمان لمارجوري، فقد كان سويدن رجلاً بغيضاً، أما رولو فقد خدعها وخانها. ومع بداية تشكل شخصيتي الولدين تغير اسماهما بما يتناسب مع صفاتهما المميزة؛ فقد أصبح سويدن الذي كان يزحف بسرعة سويفتي، فيما لُقّب رولو الممتلئ باسم رولي.

كانت مارجوري تحب مساعدة زوجة بارتليت صباحاً. وكانت اليوم تُطعم سويفتي البيض المخفوق، فيما تقوم سيسيليا بإرضاع رولي. كانت سيسيليا دائماً القلق على طفليها، ولكن وجود مارجوري جلب ذلك التأثير المهدئ الذي تنعم به كل الجدات كما تعتقد مارجوري.

جاء ابنها الثاني روجر إلى غرفة الأطفال ليرى ابني أخيه وقال: «سأفتقدكما عندما أذهب إلى أوكسفورد».

لاحظت مارجوري أن المربية دوت تتأق في حضرة روجر الذي كان شاباً ساحراً بابتسامة ساخرة وفاتنة. لا بد أنها كانت تريد إيقاعه في شباكها. ربما كان من الجيد أنه سيغادر إلى الجامعة لأن دوت فتاة جميلة ولطيفة مع الأطفال، لكنها ضيقة الأفق جداً بالنسبة لفتى كروجر.

وهذه الفكرة بالتحديد ما دفعت مارجوري للتساؤل عن آفاق روجر نفسه فسألته: «هل فكرت بما ستفعله بعد أكسفورد؟».

«أريد أن أدرس القانون». أجاب روجر

أثار هذا اهتمامها فسألته: «لماذا؟».

«لأن القوانين ضرورية، فهي الأساس الذي تقوم عليه البلاد».

«إذاً، أنت مهتم بالعمل الحكومي؟».

«نعم أفترض هذا. لطالما كنت مفتوناً بما يقوله والدي عند عودته من الجلسات البرلمانية، كيف كان الناس يناورون ويفاوضون، ويقفون مع هذا الطرف وليس الآخر».

لم يجد الإيرل بارت البرلمان مثيراً للاهتمام، وكان يحضر جلسات مجلس اللوردات بدافع الواجب. لكن والد روجر الحقيقي نيد ويلارد، كان رجلاً سياسياً بحق. كم هي مذهلة الوراثة!

قالت مارجوري: «قد تصبح عضواً في البرلمان ممثلاً كينغزبريدج، وتجلس في مجلس العموم».

«سيكون أمراً وارداً لأصغر أبناء الإيرل، ولكن السير نيد ممثل كينغزبريدج في البرلمان».

«سيتقاعد عاجلاً أم آجلاً». فكرت مارجوري أنه سيكون سعيداً إن تمكن من تسليم ابنه منصبه من بعده.

سمعوا فجأة أصواتاً عاليةً قادمة من الطابق السفلي. خرج روجر وعاد ليقول: «لقد جاء خالي رولو».

صدمت مارجوري ثم قالت غير مصدقة: «رولو؟ لم يأتِ إلى نيو كاسل منذ سنوات».

«حسناً، لقد أتى الآن».

سمعت مارجوري صيحاتٍ سعيدة في القاعة الكبرى بينما يستقبل بارتليت بطله.

تحدثت سيسيليا بفرح مع طفليها قائلة: «هيا لنقابل خالكما الرائع رولو». لم تكن مارجوري في عجلة من أمرها لتحية رولو. أعطت سوفيتي لروجر ثم قالت له: «سوف أنضم إليكم لاحقاً».

غادرت مارجوري غرفة الأطفال وتوجهت إلى غرفتها وكلبها ماكسيموس في إثرها. كان بارتليت وسيسيليا يشغلان أفضل الغرف في نيوكاسل، ولكن هناك جناحاً جميلاً بغرفة نوم ومخدع للكونتيسة الثرية. دخلت مارجوري إلى مخدعها وأغلقت الباب وراءها.

أحست بغضبٍ باردٍ ينتابها. فبعد اكتشافها أن رولو استخدم شبكتها لإثارة تمرد عنيف، بعثت إليه برسالة قصيرة مشفرة تقول له فيها إنها ستوقف عن مساعدته في تهريب الكهنة إلى إنكلترا.

لم يرد على رسالتها ولم يتواصل بعدها. كانت قد أمضت ساعاتٍ طويلةً في تأليف الخطاب الغاضب الذي ستوبخه به إن رآته مرةً أخرى، ولكنها الآن وبعد أن أصبح هنا شعرت بالعجز عن معرفة ما الذي ستقوله له.

تمدد ماكسيموس قبالة موقد النار فيما وقفت مارجوري قرب نافذتها تنظر إلى الخارج. كانوا في شهر كانون الأول/ ديسمبر، والخدم يعبرون الفناء ملفعين بمعاطفهم الثقيلة. خارج جدران القلعة بدت الحقول باردةً وطينيةً وصلبة، وبدت الأشجار العارية كأنها تشير بأغصانها المتشعبة والمدببة نحو السماء الرمادية. أرادت أن تستعيد ثباتها لكن الشعور بالصدمة لم يفارقها، فأمسكت بسبحة الصلاة لتهدئة نفسها.

سمعت صوت الخدم وهم يحملون الأمتعة الثقيلة على طول الممر خارج بابها، وخنمت أن رولو سيستخدم غرفة نومه القديمة التي تقع قبالة غرفة نومها الجديدة. ما هي إلا لحظات حتى سمعت صوتَ طرقٍ على بابها ثم دخل رولو معلناً بفرح: «لقد عدت».

كان قد أصبح أصلع وبدأ الشيب يغزو لحيته. نظرت إليه ببرود وقالت: «لماذا أنتَ هنا؟».

«أنا سعيدٌ برويتك أيضاً» قال بنبرةٍ ساخرة.

زمر ماكسيموس بهدوء.

«ما الذي تتوقعه بحق الرب؟» قالت مارجوري، «لقد كذبت عليّ لسنوات. كنت تعرف موقفي من قيام المسيحيين بقتل بعضهم بعضاً بسبب خلافات عقائدية ومع ذلك استغللتني لهذا الغرض بالذات. لقد حولت حياتي إلى مأساة».

«كنت أنفذ مشيئة الرب».

«أشك في ذلك. فكر بكل الذين ماتوا بسبب مؤامراتك، بما في ذلك موت ماري ملكة إسكتلندا».

«إنها قديسة في الفردوس الآن».

«على أي حال، لن أساعدك بعد الآن، ولا يمكنك استخدام نيوكاسل مجدداً».

«أعتقد أن زمن المؤامرات قد انتهى، وملكة إسكتلندا ماري ماتت، والأسطول الإسباني هُزم. ولكن إن سنحت لي فرصة أخرى، فهناك أماكن أخرى غير نيوكاسل لأذهب إليها».

«أنا الوحيدة في إنكلترا التي تعرف أنك جان لانغليه، يمكنني أن أشي بك إلى نيد ويلارد».

ابتسم رولو وقال بثقة: «لن تفعل ذلك. يمكنك أن تشي بي، ولكن أستطيع أن أشي بك أنا أيضاً. حتى لو لم أكن راغباً في هذا فربما أفعل هذا تحت التعذيب. كنت تخفين الكهنة منذ سنوات، وهذه جريمة كبيرة كفيلة بإعدامك، وربما بنفس طريقة إعدام مارغريت كليثرو التي سُحقت ببطء حتى الموت».

حدقت مارجوري إليه في رعب فلم تكن قد وصلت بتفكيرها إلى هذا الحد. تابع رولو: «ولست وحدك في هذا فروجر وبارتليت ساعدا في تهريب الكهنة أيضاً. لذا فإن وشيت بي فستسببين بالإعدام لولديك».

لقد كان محققاً، وشعرت مارجوري بأنها محاصرة. فعلى الرغم من أن رولو شخص سيئ، لم يكن بوسعها إلا حمايته. وشعرت بغضب يشوبه الإحباط والعجز. حدقت مطولاً في تعابير العجرفة في وجهه ثم قالت: «اللعنة عليك، فلتذهب إلى الجحيم».

في اليوم الثاني عشر بعد عيد الميلاد أقيم عشاءً عائلي كبير في منزل ويلارد في كينغزبريدج.

بحلول هذا الوقت كان تقليد عرض مسرحيات في نيوكاسل قد انتهى مع تراجع ثروة الإيرل بشكل كبير أثناء سنوات التمييز ضد الكاثوليكية، لذلك لم يعد بإمكان إيرل شايرنغ إقامة الولائم الكبيرة، فاكثفت عائلة ويلارد بإقامة حفلتهم الخاصة.

تخلّق ستة أشخاص حول الطاولة. كان بارني في المنزل ينتشي بالانتصار على الأسطول الإسباني وقد جلس على رأس الطاولة وزوجته هيلغا إلى يمينه، وإلى يساره جلس ابنه ألفو الذي لاحظت سيلفي أن وزنه ازداد بسبب حياة الرخاء، وإلى جانبه جلست زوجته فاليري وهي تحمل فتاةً صغيرة بين ذراعيها. جلس نيد على الطرف المقابل وسيلفي إلى جانبه. أحضرت إيلين فايف طبقاً كبيراً من لحم الخنزير المحمّر مع التفاح وشربوا نبيذ هيلغا رينش الذهبي.

ما انفك بارني ونيد يستذكران أحداثاً من المعركة البحرية العظيمة، فيما تحدثت سيلفي وفاليري بالفرنسية. كانت فاليري ترضع الطفلة وهي تناول اللحم من طبقها حين قال لها بارني إن الطفلة ستشبه جدتها بيلا. فكرت سيلفي بأنه من غير المرجح أن تشبه الطفلة جدتها فهي لا تملك سوى جدة واحدة من أصول أفريقية، وللطفلة الآن بشرة زهرية فاتحة. وأطلع ألفو بارني على المزيد من الخطط لتحسين السوق الداخلية.

شعرت سيلفي بالأمان وسط أفراد أسرتها الثرائين وهم ينعمون بالطعام والدفع. لقد هُزم أعداء إنكلترا في الوقت الحالي، ولا شك أنه سيكون هناك الكثير منهم في قادم الأيام. سمع نيد من أحد الجواسيس أن بيبير أوموند قد مات، وأنه قُتل في نفس اليوم الذي قُتل فيه سيده هنري غيز. هذه هي عدالة الحياة. نظرت سيلفي إلى كل تلك الوجوه المبتسمة حول الطاولة، وأدركت أن الشعور الذي يغمرها الآن هو السعادة.

بعد العشاء ارتدوا معاطفهم الثقيلة وخرجوا. فبعد إلغاء عرض المسرحية في نيوكاسل قام نزل بيل بإحضار مجموعة من الممثلين لتأدية مسرحية على منصة مرتجلة في الفناء الكبير للحانة. دفع آل ويلارد النقود وانضموا للحشد.

كانت مسرحية «إبرة غيمر غيرتن»⁽¹⁾ مسرحية كوميدية تتحدث عن امرأة عجوز أضعفت إبرتها الوحيدة فلم تعد قادرة على الحياة. ومن بين الشخصيات الأخرى مهرجٌ يدعى ديكون يدعي أن بإمكانه استدعاء الشيطان، بالإضافة إلى خادم يدعى هودج الذي كان دائم الخوف من أن يلوث سرواله. شاهد الجمهور المسرحية وضحكوا بشكلٍ صاخب.

غادر بارني ونيد الذي كان في مزاجٍ مرح، وتوجها إلى الحانة لشرب النبيذ. على المنصة، كانت العجوز غيمر قد بدأت عراكاً مضحكاً بالأيدي مع جارتها السيدة الثرثرة. وقعت عينا سيلفي على رجل يقف في الفناء ولكنه لا يضحك. شعرت على الفور أنها رأت من قبل هذا الوجه بنظرته المتعبة التي تشي بعزيمة صلبة لن تنساها. التقت أعينهما وبدا أنه لم يعرفها.

ثم تذكرت أحد شوارع باريس وبيير أوموند يقف خارج منزله الصغير يعطي توجيهات إلى كاهن ذي شعرٍ بدأ يتراجع ولحية حمراء. «جان لانغليه!!؟» تمتت في نفسها غير مصدقة. هل يمكن أن يكون الرجل الذي يطارده نيد منذ زمن؟

أدار الرجل ظهره للمسرحية ثم غادر الفناء. كان على سيلفي التأكد من أنه جان لانغليه بعينه ولذلك قررت ألا تجعله يغيب عن ناظرها. لم تكن لتسمح له بالاختفاء فقد كان جان لانغليه عدو العقيدة البروتستانتية وعدو زوجها أيضاً.

جال في بالها أنه قد يكون خطيراً، وبحثت عن نيد لكنه لم يكن قد عاد من الحانة، وإلى حين عودته قد يختفي هذا الرجل الذي تعتقد أنه لانغليه. لم يكن بوسعها الانتظار.

لم تتردد سيلفي يوماً في المخاطرة بحياتها في سبيل ما آمنت به. ولحقت به.

1- مسرحية ألفها الواعظ الديني وأسقف باث وويلز جون ستيل في عام 1575 وكانت من أول الأعمال الدرامية الكوميدية الإنكليزية. (الترجمة)

قرر رولو العودة إلى قلعة تاین. كان يعلم أنه لم يعد بإمكانه استخدام نيو كاسل من أجل أي عمل سري. لم تكن مارجوري لتشي به عن عمد، فلن تخاطر بإعدام ولديها، لكن قد يخونها حذرهما فتصبح مصدر خطر عليه، لذا من الأفضل ألا تعرف شيئاً.

كان رولو ما يزال يتقاضى راتباً من الإيرل تاین، وفي الواقع كان ما يزال يقوم بمهام قانونية للإيرل من وقتٍ لآخر حتى يمنح مصداقية للغطاء الذي يعمل تحته. لم يكن واثقاً من الواجبات السرية الجديدة التي يتوجب عليه القيام بها الآن، فالتمرد الكاثوليكي قد فشل، ولكنه كان يأمل بشدة أن يتم عاجلاً أو آجلاً بذل جهدٍ جديد لإعادة إنكلترا إلى العقيدة الحقة، وأن يشارك في هذا العمل.

في طريقه إلى قلعة تاین توقف في كينغزبريدج وانضم إلى مجموعة من المسافرين المتجهين إلى لندن، وكان هذا في اليوم الثاني عشر من عيد الميلاد حيث عُرضت مسرحية في فناء نزل بيل فشاهد العرض معهم قبل أن ينطلقوا في صباح اليوم التالي.

اكتفى رولو بمشاهدة العرض لدقيقة إذ إنه وجد المسرحية سوية. وفي لحظةٍ من لحظات الضحك الصاخب التفت عيناه بعيني امرأةٍ صغيرة الحجم في منتصف العمر تقريباً. كانت تقف بين الجمهور وتحقق إليه كما لو أنها تحاول التعرف عليه.

لم يسبق له أن رآها، ولا يملك أدنى فكرة عمّن تكون، لكن لم يُرق له كيف عبست كما لو أنها كانت تحاول أن تتذكره. وضع قلنسوة معطفه على رأسه ثم استدار وخرج من الفناء.

نظر وهو في ساحة السوق إلى الواجهة الغربية للكاتدرائية، وفكر بمرارة بأنه كان يجب أن يكون أسقفاً لهذه الكاتدرائية.

وانتاب رولو حزنٌ قاتل. فها هي الكنيسة قد أضحت مكاناً باهتاً كالحأ في ظل حكم البروتستانتين الذين قاموا بقطع رؤوس منحوتات القديسين والملائكة في مواضعها الحجرية بحجة أنها تمجيد أصنام، أما اللوحات الجدارية فبالكاد كانت ظاهرة تحت طبقةٍ رقيقة من الطلاء الأبيض. وما أثار دهشته أكثر أنهم تركوا تلك النوافذ الرائعة على حالها، ربما لأن تكلفة

استبدال الزجاج ستكون باهظة، إلا أن ألوانها لم تبدُ بأفضل حالٍ عصر ذلك اليوم الشتوي.

وفكر رولو بأنه لو كان صاحب القرار لفعل غير هذا، وأنه كان سيقدم إلى الناس ديناً يحتفي بالألوان والملابس والمجوهرات الثمينة بدلاً من هذا الترميم العقلي البارد. شعر بألم في معدته لمجرد التفكير بما قد خسره. كانت الكنيسة فارغة، وفكر بأن جميع الكهنة في المسرحية، ولكن عندما استدار ونظر إلى الوراء على طول صحن الكنيسة، رأى أن المرأة التي كانت تحرق به في ساحة السوق قد تبعته إلى الكاتدرائية. عندما تقابلا تحدثت معه بالفرنسية، وتردد صدى كلماتها في القبة كما لو أنه صوت الموت.

«هل أنت جان لانغليه؟»

استدار بعيداً والأفكار تتقاذفه كالأمواج. إنه في خطرٍ محقق؛ فهذه المرأة عرفت أنه جان لانغليه ولكنها لم تعرف أنه رولو فيتزجيرالد أيضاً، إلا أنها ستكتشف هذا عما قريب. وفي أي لحظة قد تخبر عن لانغليه شخصاً يعرف بأنه رولو، نيد ويلارد مثلاً، وحينها سينتهي أمره.

عليه أن يتعد عنها.

سارع عبر الممر الجنوبي. كان هناك بابٌ في الحائط يُفضي إلى الدير. ارتعشت يده على مقبض الباب الذي كان مغلقاً بإحكام، أدرك أنهم سدّوا الباب عندما قام ألفو ويلارد بتحويل الساحة إلى سوق.

سمع خطوات المرأة الخفيفة تجري عبر صحن الكنيسة، وخمّن أنها أرادت أن تراه عن قرب لتتأكد من هويته، ولكن عليه أن يتجنب حدوث هذا. اندفع رولو عبر الممر باتجاه نقطة تقاطع يبحث عن مخرج، وعلى أمل أن يختفي في البلدة قبل أن تتمكن المرأة من رؤيته مجدداً. في الجناح الجنوبي للكنيسة، عند قاعدة البرج الكبير كان في الجدار بابٌ صغيرٌ اعتقد أنه يؤدي إلى السوق الجديد، لكن عندما فتحه رأى درجاً لوليباً ضيقاً يؤدي إلى الأعلى. وفي جزء من الثانية عبر الباب وأغلقه خلفه وبدأ في الصعود.

كان يأمل أن يوصله الدرج إلى بابٍ يُفضي إلى الرواق الممتد على طول الممر الجنوبي، لكن كلما صعد أكثر أدرك أنه مخطئ في تخميناته. سمع وقع خطواتٍ خلفه، لذا لم يكن لديه خيار سوى الاستمرار في الصعود.

أخذ رولو الآن يتنفس بصعوبة. كان في الثالثة والخمسين من عمره، وبات صعود درج طويل أكثر صعوبة من ذي قبل. على أي حال لم تبدُ المرأة التي تطارده أنها تصغره بكثير.

من هي تلك المرأة؟ وكيف عرفته؟

من الواضح أنها فرنسية، ثم أنها استخدمت كلمة «أنت» وليس «حضرتك» مما يعني أنها إما تعرفه عن كثب، أو أنه لا يستحق المخاطبة باحترام. لا بد أنها رأته سابقاً وربما في باريس أو دوي.

إن كل امرأة فرنسية في كينغزبريدج هي لاجئة هونغونية من كل بد. وهناك عائلة تدعى فورنيرون، لكنهم كانوا من مدينة ليل ورولو لم يزر هذه المدينة قط.

زوجة نيد ويلارد كانت فرنسية على أي حال.

لا بد أنها المرأة التي تلهث على الدرج خلف رولو وتذكر اسمها؛ إنها تدعى سيلفي.

كان يأمل أن يجد عند أحد منحنيات الدرج مدخلاً يُفضي به إلى أحد الممرات الكثيرة والخفية في هذه الكتلة الحجرية الضخمة، لكن بدا له أن الدرج لا نهاية له كما لو أنه كابوس.

كان يلهث وقد أنهكه الصعود عندما وصل أخيراً باباً صغيراً واطئاً ما إن فتحه حتى لفحه الهواء البارد. انحنى ودخل من الباب ثم أغلقه خلفه. وجد نفسه في ممر ضيق مرصوف بالحجارة أعلى البرج الرئيسي فوق نقطة التقاطع التي تجاوزها قبل قليل. لم يكن هناك سوى جدار صغير لا يزيد ارتفاعه على ارتفاع ركبتيه ويفصل بينه وبين السقوط لمئات الأقدام. نظر إلى الأسفل نحو القسم المسقوف المخصص لجوقة الكنيسة، إلى يساره كانت المقبرة وإلى يمينه ساحة الدير القديم التي تم سقفها من أجل السوق الداخلي.

أخفى اتساع قمة البرج عن ناظره السوق الذي يقع خلفه، وضربت الرياح معطفه بقوة.

كان الممر يلتف حول قاعدة البرج، وفي الأعلى عند قمة البرج استقر الملاك الحجري الضخم الذي بدا بحجم إنسان عند النظر إليه من الأرض.

سار عبر الممر بسرعة على أمل أن يجد درجاً آخرَ أو سلماً أو بضع درجاتٍ تقوده إلى الخارج. نظر إلى الجانب البعيد من السوق الذي كان مهجوراً تقريباً فقد كان الجميع في نُزُل بيل يشاهدون المسرحية.

لم يعثر على طريقٍ للنزول، وعندما عاد من حيث انطلق وجد المرأة عند الباب.

أرخت الريح بشعر المرأة على عينيها فأزاحته ونظرت إليه: «أردت التأكد من أنه أنت. الكاهن الذي شاهدته مع بيير أوموند».

«هل أنتِ زوجة ويلارد؟».

«إنه يبحث عن جان لانغليه منذ سنوات. ما الذي تفعله في كينغزبريدج؟».

لقد صدق حدسه. لم تكن لديها أدنى فكرة أنه رولو فيتزجيرالد، فهما لم يتقابلا في إنكلترا من قبل... حتى اليوم.

ها قد عرفت سره الآن، وسيتم اعتقاله وتعذيبه وإعدامه بتهمة الخيانة.

ثم أدرك أنه يملك بديلاً آخر بسيطاً.

تقدم نحوها ثم قال: «أيتها الحمقاء الصغيرة، ألا تعلمين الخطر الذي أقحمت نفسك به؟».

«لست خائفةً منك»، قالت ذلك ثم اندفعت نحوه.

أمسكها من ذراعيها، فبدأت تصرخ وتقاوم. كان أكبر حجماً منها لكنها كانت مهتاجة وتركل وتتلوى. تمكنت من تحرير إحدى ذراعيها، فانقضت بها على وجهه لكنه تفادها.

دفعها على طول الممر باتجاه الزاوية، بحيث أصبح ظهرها للجدار المنخفض، وبطريقة ما تمكنت من الالتفاف حوله، وأصبح ظهره للجدار. حاولت دفعه بكل قوتها إلا أنه كان قوياً جداً فأجبرها على التراجع. كانت تصرخ طالبة النجدة، لكن الريح كتمت صرخاتها. كان متأكداً من أن ما من أحد سيسمعها. قام بدفعها من كلا الجانبين ليفقدها التوازن، ثم دفعها من جانب واحد ووصل بها إلى الحافة تقريباً، ولكنها أحبطت محاولته بأن تظاهرت بأنها تعرج وانزلت على الأرض فأفلتت من قبضته ونهضت على قدميها ثم هربت.

تبعها مسرعاً على طول الممر متجنباً الزوايا حيث لا يفصله شيء عن السقطة القاتلة سوى زلّة قدم واحدة. لكنه لم يتمكن من الإمساك بها.

وصلت إلى المدخل، لكن الباب كان قد أغلق مجدداً وكان عليها أن تتوقف لفتحه، في ذلك الجزء من الثانية أمسك بها. أمسكها من ياقتها بإحدى يديه، وأمسك بقبضة يده الأخرى ما أمكنه من تنورة معطفها ثم دفعها باتجاه الباب وأعادها إلى الممر.

جرها من الخلف وذراعاها تتأرجحان وكعباها يضربان الأرضية الحجرية. حاولت أن تعيد حيلة العرج لكنها لم تفلح هذه المرة، إنما سهلت عليه جرها إلى أن وصل إلى الزاوية.

وضع إحدى قدميه على الجدار وحاول رميها. عند مستوى الأرض كان الجدار مثقوباً بفتحات لتصريف مياه المطر. فتمكنت من وضع يدها في إحدى الفتحات والإمساك بالحافة ولكنه ركلها على ذراعها فأرخت قبضتها.

نجح في جرها حتى منتصف الحافة، كان وجهها للأسفل وهي تحدق إلى المكان الذي ستسقط فيه وتصرخ برعب شديد. أفلت ياقتها وحاول جرها من كاحليها لإيقاعها. تمكن من الإمساك بكاحل واحد فقط، ثم رفع قدمها للأعلى بأقصى قوته. وها هي على وشك السقوط الآن رغم أنها ما تزال متشبثة بحافة الجدار بكلتا يديها.

أمسك ذراعها وانتزع يدها عن الحائط لتميل إلى الوراء إلا أنها أمسكت بمعصمه في اللحظة الأخيرة، وأوشك على السقوط معها، إلا أن قوتها خذلتها فأفلتته.

ترنح للحظة وذراعاها تتأرجحان في الهواء ثم خطا إلى الخلف ليحمي نفسه من السقوط.

اختل توازنها في الاتجاه المعاكس له فانزلقت ببطءٍ مخيف وسقطت عن حافة الجدار. راقبها بمزيج من الانتصار والرعب وهي تسقط ببطءٍ وتقلب مراراً في سقوطها فيما الريح تكتم صرخاتها.

سمع صوت ارتطامها بسقف المكان المخصص لجوقة الكنيسة. عندما اصطدمت بالسقف ارتد جسدها، وتابعت سقوطها وقد أخذ رأسها شكلاً غريباً. خمن رولو أن عنقها قد كسر. تدرجت للأسفل من على منحدر السقف لتسقط من الحافة وترطم بالدعائم المرتفعة، ثم لتسقط بعدها على

السقف المائل للممر الشمالي وتقع عن حافته وتستقر أخيراً في المقبرة
جثة هامة.

لم يكن هناك أحد في المقبرة. نظر رولو في الاتجاه المعاكس، فلم ير
سوى أسطح المنازل، وما من أحد رأى العراك.

دخل من الباب المنخفض وأغلقه خلفه، ثم نزل عبر الدرج الحلزوني
بأسرع ما أمكنه. تعثر مرتين وكاد يسقط ولكنه لم يخفف من سرعته.

عندما وصل للأسفل، توقف وأنصت جيداً، لكنه لم يسمع شيئاً. فتح
الباب بشكلٍ موارب ولم يسمع أيّ صوت أو وقع أقدام. اختلس النظر
للخارج وبدأت الكاتدرائية فارغة.

خرج إلى جناح الكنيسة، وأغلق الباب خلفه.

سار مسرعاً على طول الممر الجنوبي، وقد غطى رأسه بقلنسوة معطفه.
وصل إلى الطرف الغربي للكنيسة وفتح الباب. كان هناك أناسٌ في ساحة
السوق لكن ما من أحد كان ينظر باتجاهه. خطا إلى الخارج وسار جنوباً من
دون توقف متجاوزاً مدخل السوق الداخلي من دون أن ينظر حوله، فلم يكن
يرغب بلقاء أحد.

دار حول الجزء الخلفي من قصر الأسقف، وشق طريقه إلى الشارع الرئيسي.
جال في خاطره أن يغادر البلدة في الحال وألا يعود إليها مطلقاً، ولكن
هناك عدة أشخاص يعرفون أنه هنا وأنه يخطط للسفر صباحاً مع مجموعة من
المسافرين، لذا إن غادر الآن على عجل، فستحوم حوله الشبهات. وقد يرسل
حرس البلدة الخيالة للحاق به وإعادته، لذا من الأفضل أن يبقى ويتصرف ببراءة.
وانعطف باتجاه ساحة السوق.

كانت المسرحية قد انتهت والحشود بدأت تخرج من فناء النزل.
شاهد رولو من بينهم ريتشارد غريمز الذي كان بناءً ثرياً من كينغزبريدج
ونائباً في مجلس المدينة. «عمتَ مساءً أيها النائب»، حياه رولو بأدب.
سيذكر غريمز أنه رأى رولو في الشارع الرئيسي قادماً من جهة النهر وسيبدو
كأنه لم يقترب من جهة الكاتدرائية قط.

فوجئ غريمز برؤيته بعد مرور سنواتٍ عديدة، وكان على وشك بدء

محادثةٍ معه عندما سمعوا صرخات مصدومة وفزعة قادمة من جهة المقبرة. ذهب غريمز باتجاه مصدر الصوت وتبعه رولو.

تجمع حشدٌ من الناس حول جثة سيلفي التي بدت أطرافها مكسورة بشكل واضح، وعلى أحد جانبي رأسها بقعة هائلة من الدم. جثا أحدهم بجانبها ليستشعر نبضها، لكن بدا واضحاً أنها ماتت. اندفع النائب غريمز من بين الحشود قائلاً: «هذه سيلفي ويلارد، كيف حدث هذا».

«سقطت من على السطح»، قالت سوزان وايت إحدى حبيبات رولو السابقات. كانت فتاةً جميلةً فيما مضى وبوجه له شكل قلب، وها هي الآن ممرضة في الخمسينات من عمرها وقد غزا الشيب شعرها.

سألها غريمز: «هل رأيتها تسقط».

توتر رولو، لقد كان متأكداً من أن ما من أحد شاهده، لكن إن نظرت إليه سوزان فقد تتعرف عليه.

«لا، لم أرها»، قالت سوزان. «ولكن هذا واضح، أليس كذلك».

أفسح الحشد الطريق لنيد ويلارد.

حدق نيد في الجسد المسجى على الأرض للحظة ثم صرخ كثورٍ جريح: «لا!!!!!!!!!!!!!!». جثا على ركبتيه قرب جسد سيلفي ورفع رأسها برفق، ورأى أن جانباً من وجهها قد تهشم. شرع يبكي وهو ما يزال يردد بهدوء: «لا، لا» من بين التنهدات الخارجة من أعماقه.

نظر غريمز حوله وسأل: «هل رآها أحد تسقط».

استعد رولو للهرب ولكن لم يتكلم أحد. فلا شهود على الجريمة.

لقد نجا بفعلته.

وقفت مارجوري عند قبر سيلفي فيما كان يتم إنزال التابوت إلى القبر. كان يوماً هادئاً وبارداً وتسلمت من بين الغيوم أشعة الشمس الضعيفة، إلا أن مارجوري شعرت كأنها في قلب إعصار.

شعرت مارجوري بالحزن الشديد على نيد الذي كان ينتحب في منديله غير قادر على الكلام فيما وقف بارني إلى يمينه وألفو إلى يساره. كانت

مارجوري تعرف نيد، وتعرف أنه أحب سيلفي بكل جوارحه، وها هو قد فقد توأم روحه.

لم يعرف أحدٌ سبب صعود سيلفي إلى البرج، إلا أن مارجوري تعرف أن أختها رولو كان في البلدة ذلك اليوم. وجال في خاطرها أنه يعرف الجواب على هذا السؤال، لكنه كان قد غادر البلدة في اليوم التالي على وفاة سيلفي. سألت مارجوري وبشكل عرضي عدداً من الأشخاص إن كانوا قد شاهدوا رولو قبل مغادرته، وكانت أجوبة ثلاثة منهم من قبيل: «نعم لقد رأيته في المسرحية، كان يقف بالقرب مني». قال نيد إن سيلفي لطالما رغبت بمشاهدة المنظر من أعلى البرج، وربما عندما لم تعجبها المسرحية اختارت أن تحقق أمنيتها. واعتقدت مارجوري أن هذا التفسير منطقي.

وما زاد من ألم مارجوري في حزنها على نيد معرفتها بأن هذه المأساة قد تحققت لها ما كانت تتوق إليه طوال ثلاثين عاماً. واعتراها حُجلاً شديداً من نفسها عندما فكرت بالأمر، ولكنها لم تستطع أن تتغاضى عن حقيقة أن نيد أصبح الآن رجلاً عازباً ويستطيع الزواج منها.

لكن حتى لو كان هذا صحيحاً، فهل سينتهي عذابها؟ لديها سرٌّ لا يمكنها إخبار نيد به. فإن وشت برولو فستُدين ولديها، فهل تحتفظ بالسر وتخدع الرجل الذي تحب؟ أم تكون السبب في إعدام ولديها؟
ومع تلاوة الصلوات على جسد سيلفي المُهشم، تضرعت مارجوري إلى الرَّبِّ أن لا يمتحنها بهذا الاختبار.

كانت الحالة التي عشتها أشبه بحالة بتر. لن أستعيد أبداً ذلك الجزء الذي تلاشى مني مع موت سيلفي. عرفتُ حينها شعور الرجل الذي يحاول المشي بعد فقدانه لساقه. لن أتخلص أبداً من ذلك الشعور بأن شيئاً ما يجب أن يكون هناك، في مكان الطرف المفقود. أصبحت هناك فجوة في حياتي، فجوة كبيرة لن تغلق أبداً.

لكن من ماتوا يحيون في مخيلتنا. أعتقد أن هذا هو المعنى الحقيقي للروح. رحلت سيلفي عن هذه الأرض، لكنني أراها كل يوم في مخيلتي، بل وأسمع صوتها أيضاً. أسمعها تحذرنني من زميل لا يمكن أن يكون موضع ثقة، أو تسخر مني عندما أعجب بجسد فتاة شابة، أو تضحك معي على نائب المجلس الضخم، أو تبكي على طفلٍ مريض.

أحياناً، يخمد بركان الغضب والأسى في داخلي، وتتملكني سكينه حزينة وهادئة. عادت مارجوري إلى حياتي كصديقي قديم يعود من مكان بعيد. جاءت إلى لندن ذلك الصيف، وانتقلت إلى منزل شايرنغ في ستراند، وسرعان ما صرت أراها كل يوم. لقد عرفت الآن معنى كلمة «الحلو المر»، وأن طعم الخسارة اللاذع وحلاوة الأمل قد يجتمعان معاً في ثمرة واحدة بهية. شاهدنا المسرحيات، وركبنا الجياد في حقول ويستمنستر، وقمنا برحلات وتزهننا في ريتشموند. مارسنا الحب أحياناً في الصباح، وأحياناً

عند العصر، وأحياناً أخرى في المساء. وبين الفينة والأخرى كنا نقوم بهذا في الأوقات الثلاثة.

في البداية أبدى ويلزنهايم ارتياباً حياًل مارجوري، ولكنها بددت شكوكه بمزيج لا يقاوم من اللطف ورجاحة العقل.

في الخريف همس لي طيف سيلفي بأن أتزوج مارجوري. «بالطبع ليس لدي مانع»، قال لي الطيف. «لقد حظيت بحبك عندما كنت حية، فلتحظّ به مارجوري الآن. كل ما أريده هو أن أنظر إليك من السماء وأن أراك سعيداً».

بعد عام على وفاة سيلفي، تزوجنا أنا ومارجوري في كاتدرائية كينغزبريدج في عيد الميلاد وسط مراسم هادئة، فحفلات الزفاف للشبان الذين يبدوون حياتهم، لكن زفافنا كان أقرب للخاتمة. أنا وويلزنهايم أنقذنا الملكة إليزابيث، وقاتلنا من أجل قيمها العليا في الحرية الدينية، وهزمتُ أنا وبارني والبحارة الإنكليز الأسطول الإسباني، وفي النهاية تزوجت أنا ومارجوري. يبدو لي أن خيوط حياتنا جميعاً قد تقاطعت معاً الآن.

لكنني كنتُ مخطئاً في هذا؛ فالأمر لم ينته بعد... لم ينته تماماً.

الجزء الخامس

1606-1602

الفصل الثامن والعشرون

عاش رولو فيتزجيرالد العقد الأخير من القرن السادس عشر في حالة من الغضب الممزوج بالإحباط والخيبة، إذ أصبحت حياته سلسلة من الإخفاقات، فكل ما سعى إليه باء بالفشل. لقد أصبحت إنكلترا بروتستانتية، بل وأكثر من أي وقت مضى.

ومع نهاية القرن أدرك أنه ما يزال هناك أملٌ أخير.

كانت الملكة إليزابيث في السادسة والستين عندما بدأ القرن الجديد، وفي هذا العمر ازدادت كرباً وشحوباً وضعفاً، ورفضت التحدث عن المستقبل، واعتبرت مناقشة مسألة من سيخلفها على العرش خيانةً. «لطالما قدس البشر الشمس الساطعة لا الغاربة»، قالت، وقد كانت مصيبةً في قولها هذا. لكن رغم رفضها الحديث عن وراثة العرش فإن الجميع كانوا يتحدثون عما سيحدث بعد وفاتها.

في أواخر عام 1602، جاء زائرٌ من روما لرؤية رولو في قلعة تايين. كان الزائر هو ليني برايس الذي كان طالباً مع رولو في الكلية الإنكليزية في سبعينات القرن الماضي. كان الرجل الذي فاض وجهه بحيوية الشباب في تلك الأيام قد أصبح رجلاً أشيب في الخامسة والخمسين من عمره. قال ليني: «لقد أوكلتكَ الكنيسة بمهمة، نريدك أن تذهب إلى إدنبرة».

كانا يقفان على سطح أحد أبراج القلعة المشرفة على الأراضي الزراعية من جهة بحر الشمال. تسارعت دقات قلب رولو عند سماع كلمات ليني. كان ابن ماري ستيوارت الملك جيمس السادس يحكم إسكتلندا.

«مهمة؟» قال رولو.

قال ليني: «ليس للملكة إليزابيث وريث، إذ لم ينجب أي من أبناء هنري

الثامن الثلاثة، فإن الملك جيمس سيكون المرشح المحتمل لخلافة إليزابيث على عرش إنكلترا».

أوما رولو برأسه موافقاً ثم قال: «لقد نشر كتاباً يشرح فيه حقه في العرش». آمن جيمس بقوة الكلمة المكتوبة، وهي فلسفة مفيدة لملك على بلدٍ فقيرٍ صغيرٍ مثل إسكتلندا.

«من الواضح أنه يناور للفوز بالعرش، كما أنه يسعى لنيل الدعم. لذا تعتقد روما أنها اللحظة المناسبة لاتزاع الوعود منه».

شعر رولو بدفقة أملٍ دافئٍ تسري فيه، لكنه أجبر نفسه على أن يكون واقعياً.

«على الرغم من أن والدته ماري ستوارت، فإن جيمس ليس كاثوليكياً. لقد ائزع من بين يديها عندما كان عمره عاماً واحداً، ومنذ ذلك الحين وهو يتشرب سم البروتستانتية».

«لكن هناك ما تجهله»، قال ليني. «هناك أمرٌ لا يعلمه أحد ويجب ألا تبوح به». ثم أخفض صوته رغم أنهما كانا وحيدين: «زوجة جيمس كاثوليكية». صُعق رولو. «آن الدنماركية، ملكة إسكتلندا كاثوليكية؟ لكنها نشأت كبروتستانتية».

«أرسل الرّب لها رجلاً مؤمناً ليتحدث معها فاستنارت».

«تقصد أن أحدهم جعلها تتحول عن البروتستانتية».

قال ليني بما يقارب الهمس: «لقد تم قبولها في الكنيسة».

«المجد للرّب. هذا يغير كل شيء».

رفع ليني يده بطريقة تحذيرية قائلاً: «لا نعتقد أنها ستكون قادرة على تحويل زوجها».

«ألا يحبها؟».

«من الصعب التكهن بهذا. يقول مخبرونا في إسكتلندا أنهما مغرمان بعضهما ببعض ولديهما الآن ثلاثة أطفال. لكنهم يقولون أيضاً إن جيمس يمارس الرذيلة».

رفع رولو حاجبيه مستفسراً.

«أقصد مع شبانٍ آخرين». شرح ليني.

كان حبّ الرجال للرجال خطيئةً كبيرة، ولكن هذا كان شائعاً بين الكهنة فلم يُصدم رولو كثيراً لدى سماعه بهذا.

تابع ليني قائلاً: «يعلم جيمس أن زوجته قد أصبحت كاثوليكية، وقد تقبّل حقيقة هذا الأمر. إن لم نستطع إقناعه في إعادة إنكلترا إلى العقيدة الكاثوليكية الحقّة، فقد ننجح في إقناعه بالتسامح».

شعر رولو بالاشمئزاز لدى سماعه كلمة تسامح. بالنسبة إليه كان ذلك فساداً، ودليلاً على الانحلال والانحطاط. كيف يمكن للكنيسة الكاثوليكية الآن أن تطالب بالتسامح؟

لكن ليني لم يلاحظ التقزز على وجه رولو وقال: «يجب أن نتحرك الآن لنستغل هذا الوضع، وهنا يأتي دورك. عليك أن تحمل رسالةً إلى إدنبرة من الكنيسة الكاثوليكية في إنكلترا، تنصّ على أنه إن وعدنا بحرية العبادة، فلن نعارض سعيه للوصول إلى عرش إنكلترا».

رأى رولو على الفور أن هذا هو الشيء الصحيح الذي ينبغي فعله وشعر بأمل كبير، ولكن كانت هناك عقبة. «لست صاحب مقام رفيع بما يكفي ليقابلني ملك إسكتلندا».

«لكن الملكة ستفعل»، قال ليني. «إنها واحدةٌ منا الآن، لذا يمكننا ترتيب هذا الأمر».

«هل وقت بعهودها معنا؟».

«أجل».

«رائع»، قال رولو. «بالطبع سوف أذهب».

«رجلٌ صالح»، قال ليني.

بعد ستة أسابيع وصل رولو إلى قصر هوليرود في إدنبرة عند سفح تلّ يسمى آرثر سيت. إلى الغرب امتد الطريق لمسافة ميل باتجاه تلّ آخر استقرت عليه قلعةٌ إدنبرة التي لم تكن مريحة بقدر قصر هوليرود لذا فضل الملك جيمس والملكة أن البقاء في هوليرود.

ارتدى رولو ملابس كهنوتية وعلّق صليباً حول عنقه ثم توجه إلى الجهة الغربية من القصر، وقدم نفسه لأحد المساعدين باسم جان لانغليه وقدم له رشوة. تم أخذه إلى غرفةٍ صغيرة جميلة بنوافذ طويلة ونار كبيرة. وفكر رولو

أن إسكتلندا لم تكن بلداً سيئاً ما دام المرء غنياً. كان الوضع سيختلف تماماً لو أن المرء كان أحد هؤلاء الأطفال الحفاة في هذه الرياح الباردة الذين رأهم رولو في البلدة.

مرت ساعة ولم يأت أحد. كان معلوماً لدى الجميع أن جميع الخدم الملكيين يتظاهرون بأنهم يملكون نفوذاً لينالوا نصيبهم من الرشوة، سواء أكانوا مؤثرين فعلاً أم لا. إلا أن رولو لم يعتمد على الرشوة التي قدمها للخدام فمن المفترض أن يقوم الكاهن الذي حوّل الملكة آن إلى الكاثوليكية بإخبارها أنها سترى رولو. لكن يجب إخبارها أولاً بأن جان لانغليه هنا.

لم تكن المرأة التي دخلت هي الملكة ذات السبعة والعشرين عاماً بل سيدة لطيفة ومألوفة وتبدو كأنها قد تجاوزت الستين من عمرها. «مرحباً بك في إسكتلندا أيها الأب لانغليه. هل تتذكرني؟ لقد مر ما يقارب العشرين عاماً منذ آخر لقاء بيننا».

عندما تحدثت تعرف عليها. إنها أليسون وصيفة ماري ستوارت. كان شعرها قد استحال رمادياً الآن، إلا أن عينيها الزرقاوين بنظرتهما الحذرة لم تتغيرا. وقف وصافحها قائلاً: «السيدة روس».

«أنا السيدة ثيرستن الآن».

«لم أتوقع رؤيتك».

«لقد كانت الملكة آن طيبة جداً معي».

فهم رولو ما يجري الآن. بعد إعدام ماري ستوارت، عادت أليسون إلى إسكتلندا وتزوجت مرة أخرى. وأثبتت نفسها مفيدة للملكة آن فأصبحت إحدى وصيفاتها. لا شك أن أليسون هي التي قدمت آن للكاهن الكاثوليكي الذي حولها إلى الكاثوليكية. قال رولو: «أعتقد أنك أنت من اقترح قيامي بهذه المهمة».

«ربما»، قالت أليسون.

كانت تلك أخباراً جيدة وتعزز فرص رولو في النجاح بمهمته: «شكراً لمساعدتك».

«أدينُ لك بالكثير». قالت أليسون بنبرة دافئة. وخطر لرولو أنها تكن له مشاعر في قلبها، لكنه لم يكن قط مهتماً بالرومانسية، ويبدو أن عاطفة الحب

لم تعرف طريقها إليه يوماً. وفيما كان يفكر بما سيقوله لأليسون دخلت الملكة آن.

كانت آن ذات وجهٍ بيضوي طويل وجبهة عالية وشعرٍ مجعد بلونٍ بني فاتح. بدا قوامها جميلاً في فستان بياقة منخفضة كانت قد اختارته لتُبرز صدرها الكبير. «سعيدةٌ برؤيتك أيها الأب لانغليه»، قالت بسرور. انحنى رولو وقال: «هذا شرفٌ عظيمٌ لي يا صاحبة الجلالة». «الشرف للكنيسة التي تمثلها»، صححت له.

«بالطبع». كانت الآداب الملكيّة صعبةً ومزعجةً. «أرجو عفوك». «دعونا نجلس ونتكلم». وسحبت آن كرسيّاً بنفسها، كذلك فعل رولو وأليسون. نظرت الملكة إلى رولو بفضولٍ منتظرة منه أن يبدأ الحديث. دخل رولو في صلب الموضوع مباشرةً. «يعتقد قداسة البابا كليمنت أن جلالتك قد تصبحين ملكة إنكلترا قريباً».

«بالطبع» قالت، «فأحقية زوجي في العرش لا جدال فيها». لا جدال فيها بالتأكيد، ولكن تم إعدام ماري ستوارت بتهمة الخيانة، وكما هو معروف فإن أبناء الخونة لا يرثون الألقاب.

«مع ذلك قد يكون هناك من يعارضه»، قال رولو بلباقة. أومأت برأسها موافقةً فقد كانت تعرف هذه الحقيقة. تابع رولو: «وقد أمر صاحب القداسة الكاثوليكين الإنكليز بدعم مطلب الملك جيمس، شريطة أن يتعهد لنا بحرية العبادة».

«إن جلالة الملك زوجي متسامح»، قالت الملكة. نخر رولو باشمئزاز لدى سماعه كلمة متسامح البغيضة، فكتم الصوت الذي صدر عنه بالسعال.

لم تلاحظ الملكة ذلك ثم تابعت قائلة: «لقد قبل الملك جيمس تحوّلي إلى العقيدة الحقّة».

«رائع»، تتمم رولو. «يسمح الملك جيمس لعلماء اللاهوت الكاثوليكين بالحضور في بلاطه، وغالباً ما يُشركهم في النقاش».

لاحظ رولو أن أليسون كانت تومئ بهدوءٍ مؤكدةً هذا الكلام.

«أؤكد لك ومن دون أدنى شك»، قالت الملكة آن بثقة، «أنه عندما يصبح ملكاً لإنكلترا، سيسمح لنا نحن الكاثوليكيين بحرية العبادة».

«هذا يسعدني جداً»، قال رولو ما شعر به ولكنه سمع في رأسه صوت ليني برايس يقول: «لكن هل هذا صحيح؟» كان رولو بحاجة إلى سماع هذا التأكيد من الملك جيمس نفسه.

ثم فُتح الباب ودخل جيمس.

نهض رولو على الفور ثم انحنى.

كان الملك جيمس في السادسة والثلاثين من عمره، ذا وجهٍ سمين مكتنز ومترف، وعينين مثقلتين بنظرات مخادعة. دخل وقبّل خد زوجته بحبّ.

قالت له الملكة آن: «جاء الأب لانغليه إلينا ليخبرنا أن قداسة البابا يدعم مطالبتك بعرش إنكلترا».

ابتسم جيمس لرولو وتحدث بلهجة إسكتلندية قوية: «شكراً لإخبارنا بهذه الأخبار الرائعة أيها الأب». سال لعبه قليلاً وهو يتكلم كما لو أن لسانه كان كبيراً جداً على فمه.

قالت آن: «كنت أؤكد له أنك ستمنح حرية العبادة للكاثوليكيين الإنكليز».

«رائع»، قال الملك. «كانت أُمي كاثوليكية كما تعلم أيها الأب لانغليه».

«فلترقد روحها بسلام»، قال رولو باللاتينية كما يحبذ الكاثوليكون.

«آمين»، قال الملك جيمس.

بكي نيد ويلارد عندما ماتت الملكة إليزابيث.

توفيت الملكة في قصر ريتشموند في الرابع والعشرين من آذار/ مارس عام 1603، في الساعات الأولى من فجر يوم خميسٍ مطر. كان نيد في الغرفة التي اكتظت بالحاشية ورجال الدين والوصيفات؛ فالمملكة شخصية مهمة جداً ولا يمكن أن تترك وحدها وهي تموت.

كان نيد قد أصبح في الثالثة والستين، وقد مات رئيساه ويليام سيسيل وفرانسيس ويلزنهايم، لكن المَلَكِيَّة ما تزال بحاجةٍ إلى خدمة الاستخبارات السرية وقد واصل نيد تقديم هذه الخدمة. على فراش موت إليزابيث وقف

نيد إلى جانب وزير الخارجية الضئيل المحدود روبرت سيسيل الذي يبلغ من العمر أربعين عاماً وهو ابن ويليام الكبير. «يا قزمي»، نادى إليزابيث روبرت بفظاظة ملكية معتادة، إلا أنها كانت تنصت إليه لأنه كان ذكياً كوالده. لطالما قال ويليام العجوز عن ولديه: «بالكاد يمكن لتوماس أن يدير ملعب تنس، لكن روبرت يستطيع أن يحكم إنكلترا».

جميعنا أفرام الآن، فكر نيد بأسى. كانت إليزابيث هي العملاقة بيننا ولم تكن سوى مجرد خدم لها.

مكثت إليزابيث في السرير ثلاثة أيام، عاجزة عن الكلام معظم الوقت. كانت قد نامت حوالي الساعة العاشرة من مساء اليوم السابق، وها هي الساعة الآن الثالثة صباحاً وقد توقفت عن التنفس.

لم يتمكن نيد من كتم نشيجه؛ فالمرأة التي هيمنت على حياته ماتت. وللمرة الأولى منذ سنوات، استرجع في ذاكرته تلك اللحظة التي لمح فيها الأميرة الشابة إليزابيث خارجة من حمامها، وشعر بالألم لمجرد التفكير بأن الفتاة الجميلة التي رآها آنذاك قد استحالت الآن إلى كتلة من الجلد الداوي والممدد فوق سرير.

غادر روبرت سيسيل الغرفة في اللحظة التي أعلن فيها الأطباء موتها، وتبعه نيد الذي مسح وجهه المبلل بالدموع بكم معطفه. لم يكن لديهم وقت للحداد فهناك الكثير للقيام به.

ركبوا سفينةً أبحرت ببطءٍ محزون إلى لندن تحت جناح الظلام، وعلى الرغم من الحظر الملكي على مناقشة أمر وراثة العرش، فإن المجلس وافق منذ فترة طويلة على أن جيمس ملك إسكتلندا يجب أن يكون ملك إنكلترا القادم. ولكن يجب أن يحصل كل ذلك بسرعة؛ فالمتعصبون الكاثوليكيون كانوا على علم بأن الملكة تحتضر، وربما قاموا أيضاً بوضع مخطط لما سيجري بعد وفاتها.

لم يكن هناك منافس على العرش أقوى من جيمس، ولكن هناك طرقاً أخرى يمكن من خلالها تعطيل الخلافة. كان السيناريو الأكثر احتمالاً هو أن يحاول المتعصبون الكاثوليكيون اختطاف جيمس وابنه الأكبر الأمير هنري، ثم يقومون بقتل جيمس أو إجباره على التنازل ويعلنون ابنه ملكاً.

وهي نفس الطريقة التي اعتلى فيها جيمس نفسه عرش إسكتلندا وهو طفل. كان الأمير هنري في التاسعة من العمر فقط ولذلك لا بد أن يقوموا بتعيين شخص بالغ وصياً على العرش، وسيكون هذا الشخص بالطبع أحد كبار النبلاء الكاثوليكيين، ربما ابن زوجة نيد، بارتليت إيرل شايرنغ.

ثم سيشكل البروتستانتيون جيشاً، وتندلع حرب أهلية، وستختبر إنكلترا الرعب وسفك الدماء الذي شهدته حروب الدين في فرنسا.

قضى نيد وسيسيل الأشهر الثلاثة الماضية بالعمل على أخذ الاحتياطات اللازمة لمنع هذا السيناريو المخيف، حيث قام نيد بوضع قائمة بأقوى الرجال الكاثوليكيين، ووضعهم جميعاً، وبعد موافقة سيسيل، في السجن، كما تم وضع حارس مسلح عند الخزينة العامة، وتم تجربة المدافع في قصر وايت هول.

وفكر نيد أن أعظم ثلاث نساء في القرن السادس عشر قد متن الآن: إليزابيث، كاترينا ملكة فرنسا، ومارغريتا ملكة بارما وحاكمة هولندا. جميعهن حاولن منع الناس من الاقتال بسبب الدين. وبالعودة إلى الورا، بدا له أن إنجازاتهن كانت محدودة جداً، إذ لطالما أحبط الرجال الأشرار جهود صانعي السلام. اندلعت الحروب الدينية الدامية لعقود في فرنسا وهولندا، وإنكلترا هي وحدها التي تمتعت بالسلام إلى حد ما.

كان الحفاظ على هذا السلام كل ما يرغب نيد بفعله لبقية حياته. بزغ ضوء النهار وهم ما زالوا على متن السفينة. عندما وصلوا إلى قصر وايت هول استدعى سيسيل المجلس الخاص.

وافق المجلس على الإعلان الذي كتبه روبرت سيسيل بخط يده، ثم خرج المستشارون إلى المنطقة الخضراء المقابلة للفناء المغلق حيث تجمع حشد من الناس كانوا قد سمعوا بالشائعات.

قرأ الناطق نبأ إعلان وفاة إليزابيث وتنصيب ملك إسكتلندا جيمس ملكاً على إنكلترا.

توجهوا بعد ذلك إلى المدينة حيث تجمعت الحشود مرة أخرى في الأماكن التي تُنشر فيها البلاغات عادة. قرأ الناطق الإعلان أمام كاتدرائية القديس بولس ثم قرأه مجدداً في منطقة تشيسايد كروس.

أخيراً توجه المجلس إلى برج لندن واستحوذ رسمياً على الحصن باسم الملك جيمس الأول ملك إنكلترا.

لاحظ نيد أن رد فعل سكان لندن كان القنوط، وهذا ما بعث الراحة في نفسه. لقد كانت إليزابيث محبوبة والناس حزاني عليها. ازدهر عمل تجار لندن في عهد إليزابيث، وكانت رغبتهم الرئيسية هي عدم حدوث أيّ تغييرات. لم يكن جيمس شخصيةً معروفةً فهو ملكٌ أجنبي، على الرغم من أن الإسكتلنديين كانوا أفضل من الإسبان، كما أنه بروتستانتى ولكن زوجته كاثوليكية، ويشاع أن لديه ميولاً غير سوية.

أقيمت جنازة الملكة إليزابيث فيما كان جيمس على طريق رحلته الطويلة من إدنبرة إلى لندن.

وافق ألف مشيع رسمي النعش في رحلته القصيرة إلى دير ويستمنستر، وقدّر نيد أن مئة ألف شخص على الأقل قد شاهدوا الموكب. كان التابوت مغطى بالمخمل الأرجواني يعلوه تمثال شمع ملون لإليزابيث بلباسها الرسمي.

كان لنيد مكان محدد في الموكب، لكن عندما وصلوا إلى الكاتدرائية انسل من بين الحشد وذهب للبحث عن مارجوري. أمسك يدها أثناء المراسم ليستمدّ منها القوة كمن يستمدّ الدفء من النار. كانت حزينَةً أيضاً إذ تشاركت مع نيد نفس القناعة بأن السلام بين المسيحيين أهم من الخلافات العقائدية، وأن إليزابيث كانت رمزاً للعقيدة المحبة للحياة.

عندما أنزل التابوت إلى القبر في كنيسة السيدة بكى نيد من جديد. لقد بكى عل مثل إليزابيث العليا التي كانت مثله أيضاً. بكى لأن تلك المثل كانت عرضة للمساومة القذرة على مر السنين من أجل متطلبات السياسة اليومية. كانت الملكة إليزابيث قد قتلت من الكاثوليكين بقدر ما قتلت الملكة ماري تودر أو «ماري الدموية» من البروتستانتين إلا أن ماري قتلتهم بسبب معتقداتهم، بينما قتلتهم إليزابيث بتهمة الخيانة، ولكن غالباً ما كان الخط الفاصل بينهما بالكاد يرى. لم تكن إليزابيث شخصاً بلا عيوب، وكانت فترة حكمها عبارة عن خليطٍ من كل شيء، ومع ذلك أعجب بها نيد أكثر من أي شخص آخر على الأرض.

أعطته مارجوري منديلاً ليمسح دموعه. كان المنديل مطرزاً ببذور البلوط. تذكره نيد بقليل من الدهشة والصدمة لأنه يشبه منديلاً كان قد أعطها إياه لنفس الغرض قبل نصف قرن تقريباً. مسح وجهه، لكن الأمر كان كمن يحاول تجفيف الشاطئ في ميناء كومب فقد استمرت دموعه في التدفق كمياه مد قادم.

ثم قام كبار الضباط الملكيين بطقوس تمزيق شاراتهم البيضاء ورمي المِزق في القبر فوق التابوت.

ومع مغادرة الحشود المقبرة، باغت نيد شعور بأن لحياته قيمة بسبب وجود الناس الذين أحبوه، ومن بينهم أهم أربع نساء في حياته: أمه أليس، الملكة إليزابيث، سيلفي، ومارجوري. كان يشعر بحزنٍ كبير الآن لأن إليزابيث كانت المرأة الثالثة التي تموت من بينهم. أمسك نيد بمارجوري بقوة فيما كانا يسيران مبتعدين عن الكاتدرائية العظيمة فقد أدرك حينها أنها كل ما بقي لديه.

بعد عامٍ على موت الملكة إليزابيث أقسم رولو فيتزجيرالد على قتل الملك جيمس.

نكث جيمس بعهوده التي كان قد قطعها على نفسه للكاثوليكين، حيث قام بتجديد قوانين إليزابيث ضد الكاثوليكية، وفرضها بوحشية إضافية، كما لو أنه لم يقطع قط وعداً بالتسامح أو حرية العبادة. لن يعرف رولو أبداً إن كانت التعهدات التي قدمتها الملكة آن صادقة، لكنه كان يشك بأنها كذلك. خدع كل من جيمس وأن رولو والكاثوليكين الإنكليز والبابا نفسه. كان غضب رولو نابعاً من علمه بأنه تعرض للخداع، وأنه استخدم كأداة لخداع الآخرين.

لكن رولو لم يكن ليستسلم، ولن يعترف بالنصر لجيمس الكاذب، ولا لأولئك المتزمتين الحاقدين والمجدفين الذين تمردوا على العقيدة الحقة. لم ينته الأمر بعد.

كانت فكرة إطلاق النار على جيمس أو طعنه تنضوي على مخاطرة، فعند الاقتراب من الملك سيواجه القاتل خطر تدخل الحراس أو العاشية

قبل أن تتم عملية الاغتيال. ومن على سطح برج قلعة تايين فكر رولو ملياً بكيفية القيام بعميلة الاغتيال، وكلما أمعن في التفكير ازدادت حدة شهوته للانتقام وازدادت خططه وحشية. كما سيكون الوضع أفضل بكثير إذا ما تم القضاء على الملكة آن أيضاً، وعلى أطفالهما هنري وإليزابيث وتشارلز، بالإضافة إلى كبار الحاشية وخصوصاً نيد وويلارد. تمنى رولو لو أنه يستطيع إطلاق النار عليهم جميعاً بمدفع ذي قذائف مزدوجة كالتي استخدمت ضد الأسطول الإسباني.

تذكر السفن الحارقة، وتساءل إن كان يستطيع إحضار النار في القصر وهم مجتمعون معاً.

وبهدوء بدأت الخطة تتبلور في رأسه.

سافر رولو إلى نيوكاسل ووضع الخطة أمام الإيرل بارتليت وابنه الأكبر سويفتي، الذي يبلغ من العمر الآن ثمانية عشر عاماً ويعتبر خاله رولو، الذي يتمتع بتأثير كبير عليه، قدوة له. تم تلقين سويفتي منذ نعومة أظفاره أن ثروات إيرل شايرنغ قد تقلصت في ظل حكم إليزابيث. وشعر الأب وابنه بخيبة أمل شديدة من جيمس الذي سار على خطى إليزابيث في اضطهاد الكاثوليكين. لم يكن روجر أخو بارتليت الأصغر يقيم معهم، فقد كان يعمل في لندن مع روبرت سيسيل، ولم يعد يعيش في نيوكاسل. اعتبروا غياب روجر أمراً جيداً فقد كان متأثراً بأمه مارجوري وزوجها نيد، وقد يعترض على خطة رولو.

«عند افتتاح البرلمان»، قال رولو بعد أن رحل الخدم وبقي الرجال الثلاثة وحدهم، «سيكونون مجتمعين: الملك جيمس والملكة آن ووزير الخارجية روبرت سيسيل والسير نيد وويلارد وأعضاء ذلك البرلمان المهترق المجدف، ثم سيموتون جميعاً بانفجار قاتل».

بدا بارتليت محتاراً وقال: «إنها فكرة مغرية حتماً، ولكن لا أعرف كيف يمكننا أن نحقق هذا».

«أنا أعرف»، قال رولو.

الفصل التاسع والعشرون

كان نيد ويلارد على أهبة الحذر والاستعداد وهو يتفقد الكنيسة الصغيرة وضيوف حفل الزفاف باحثاً عن أيّ إشارة خطر. من المتوقع أن يحضر الملك جيمس المراسم، ولذلك كان نيد خائفاً على حياة الملك كما خاف فيما مضى على حياة إليزابيث، فلا يمكن للاستخبارات الآن أن تتراخى في مهامها.

إنه العام 1604 وقد مضى على عيد الميلاد ثلاثة أيام.

لم يكن نيد يحب الملك جيمس كثيراً؛ فقد تبين أن الملك الجديد أقل تسامحاً من إليزابيث، ولم يكن عدم تسامحه تجاه الكاثوليكين فقط بل وضع نصب عينه ملاحقة الساحرات، وكتب كتاباً عن الموضوع، وأصدر تشريعاً قاسياً جداً بحقهن. ولكن نيد لم يكن يعتبر أولئك النسوة سوى عجائز لا يشكلن أي خطر. كان نيد عازماً على حماية جيمس للحيلولة دون وقوع الحرب الأهلية التي كان يخشى حدوثها كثيراً.

كان العريس شاباً في العشرين يدعى فيليب هيربرت وهو ابن إيرل بيمبروك. التقت عينا فيليب بعيني الملك جيمس، وكم كانت مُخرجةً تلك النظرة التي رمت بها هذا الملك الذي يبلغ الثامنة والثلاثين هذا الشاب الوسيم. وقد عبر أحد ظرفاء البلاط عن الأمر بقوله: «لطالما تصرفت إليزابيث كملك، وها هو جيمس الآن يتصرف كملكة»، وترددت هذه الدعابة في جميع أرجاء لندن. كان الملك جيمس قد شجع فيليب الشاب على الزواج ليثبت أن اهتمامه بالشباب بريء، إلا أن ما من أحد صدق هذا.

كانت العروس سوزان دي فيير، حفيدة ويليام سيسيل الراحل ونسيبة وزير الخارجية روبرت سيسيل الذي كان صديق وزميل نيد. ولأن الملك

كان قادماً اضطرت العروسان لانتظاره عند المذبح؛ فالملك يجب أن يكون آخر الواصلين. أقيم حفل الزفاف في كنيسة صغيرة في قصر وايت هول التي ستكون هدفاً سهلاً لأي قاتل يحاول اغتيال الملك.

سمع نيد إشاعات من جواسيسه في باريس وروما وبروكسل ومدريد تفيد بأن المنفيين الكاثوليكين الإنكليز في جميع أرجاء أوروبا يتآمرون للتخلص من الملك جيمس لشعورهم بأنه قد خانهم. ولكن نيد لم يتوصل بعد إلى معرفة تفاصيل هذه المؤامرات، ولذلك لم يكن بوسعها فعل شيء سوى البقاء متيقظاً.

لو أن الشاب نيد كان قادراً على تخيل حياته في الخامسة والستين من العمر لافترض أنه عندما يصل إلى ذلك العمر سيكون قد تقاعد؛ فإما أن يكون قد نجح هو وإليزابيث في جعل إنكلترا أول بلد في العالم يسمح بحرية العبادة، أو فشل في تحقيق هذا واستمر حرق الإنكليز بسبب معتقداتهم الدينية. لم يتوقع قط أنه عندما يصبح عجوزاً وتموت إليزابيث، أن يستمر هذا الصراع بل وبعنف أكبر من ذي قبل، وأن البرلمان سيضطهد الكاثوليكين، وأن الكاثوليكين سيستمرون بمحاولة قتل الملك. وتساءل في نفسه متى سينتهي كل هذا.

حدق إلى مارجوري التي وقفت بجانبه في قبعة زرقاء زاهية مائلة فوق شعرها الفضي. التقت نظراتهما وسألته: «ما الأمر؟».

«لا أريد أن يراك العريس»، همس لها نيد محاولاً إغاضتها. «فقد يرغب بالزواج منك بدلاً من العروس».

قهقهت مارجوري وقالت: «أنا امرأة عجوز».

«أنت أجمل امرأة في لندن». وكان صادقاً فيما قاله.

نظر نيد حوله في قلق. كان يعرف معظم الحاضرين، فقد كان على علاقة وطيدة مع جميع أفراد عائلة سيسيل لما يقارب نصف قرن، ويعرف عائلة العريس جيداً أيضاً، ولكنه لم يتعرف على الجالسين في الصف الأخير، وتكهن أنهم من أصدقاء العروسين. فمع مرور السنين بات صعباً على نيد تمييز الجيل الشاب.

جلس نيد ومارجوري في المقاعد الأمامية إلا أن نيد لم يكن مرتاحاً في

مكانه، واستمر بالنظر إلى الوراء. اضطر أخيراً إلى ترك مارجوري والتوجه إلى الخلف. بات قادراً من موقعه هناك على مراقبة الجميع كحمامة تراقب الطيور الأخرى، وتبحث عن الغراب الذي قد يفتك بفراخها.

حمل معظم الرجال الحاضرين سيوفاً، ونظرياً قد يكون أي واحد منهم هو القاتل. لم يكن الاشتباه بالجميع مفيداً، لذلك أعمل نيد تفكيره في طريقة بحث أفضل.

وأخيراً وصل الملك والملكة بأمان وسلامة، وشعر نيد بالراحة عندما رأى أن هناك ما يقارب اثني عشر جندياً برفقتهما. سيكون من الصعب على أي قاتل اختراق هذا الدرع من الحراس الشخصيين، وجلس نيد مسترخياً بعض الشيء.

أخذ الملك والملكة وقتها في عبور ممر الكنيسة وهما يحييان الأصدقاء والمقربين، ويردان على انحناء آخرين بكل لباقة. عندما وصلا إلى القسم الأمامي أو ما جيمس برأسه للكاهن ليبدأ مراسم الزفاف.

ومع بداية مراسم الزفاف وصل زائر متأخر إلى الكنيسة، وغريزياً شعر نيد بالخطر.

وقف القادم الجديد في الخلف. تفحصه نيد من دون أن يهتم إن كان الرجل سينتبه إليه وهو يحدق به. كان رجلاً طويلاً عريض المنكبين ويبدو في الثلاثين من العمر وله هيئة جندي. ولكن على الرغم من هذا لم يبدُ عليه التوتر أو حتى القلق، بل اتكأ إلى الجدار وهو يمسد شاربه ويشاهد المراسم. كان وجهه يطفح بثقة متعجرفة.

قرر نيد أن يتحدث إليه، لذلك نهض عن كرسيه وتوجه إلى الخلف. وفيما كان يقترب منه أو ما القادم الجديد ليند بشكل عرضي وقال: «طاب يومك يا سيدي».

«أنت تعرفني...؟».

«الجميع يعرفك أيها السير نيد». كانت ملاحظته تنضوي على شيء من المجاملة والسخرية المضمنة.

«... أنا لا أعرفك»، قال نيد.

«أدعى فوكس»، قال الرجل. «غاية فوكس، وأنا في خدمتك».

«ومن دعاك إلى هنا؟».

«إن كان هذا الأمر يهمك فأنا من أصدقاء العريس».

إن الرجل الذي سيحاول قتل الملك لن يكون قادراً على التحدث بهذه الطريقة الساخرة، ولكن نيد لم يرتح له فقد كان هناك شيء في هدوئه وقلة احترامه الواضح واللهجة الساخرة يشي بنوايا سيئة. تابع نيد تفحص الفتى قائلاً: «ولكنني لم أقابلك قط».

«أتيت من يورك. إن والذي هو المشرف على المجلس الكنسي هناك».

«آه»، قال نيد. كان المجلس الكنسي بمنزلة محكمة ولذلك سيكون المشرف محامياً، ولكي يحصل والد فوكس على هذا المنصب لا بد أن يكون بروتستانتياً أباً عن جد، وأدى قسم الولاء الذي يزدريه الكاثوليكيون، وأدرك نيد بشكل شبه يقيني أن فوكس لم يكن خطراً.

إلا أن نيد قرر وهو في طريق عودته إلى كرسيه أن يستمر بمراقبته.

استطلع رولو منطقة ويستمنستر بحثاً عن منطقة قابلة للاختراق.

كانت هناك مجموعة من الأبنية الصغيرة والكبيرة المتكتلة حول ساحة تدعى ويستمنستر يارد. شعر رولو بالتوتر من التجول خلسة في المكان رغم أن ما من أحد كان مهتماً لأمره. كانت الساحة منطقة كثيفة تتجول فيها العاهرات، لذلك لا بد أن أموراً شنيعة تحدث هنا بعد هبوط الظلام. كان المجمع السكني مطوقاً بسورٍ وبوابات لم تكن موصدة حتى خلال الليل. وداخل هذا المجمع مباني البرلمان والعديد من الحانات ومخبز وأقبية نبيذ واسعة يملكها أحد التجار.

كان مجلس اللوردات الذي يزوره الملك عند افتتاح البرلمان له شكل حرف H. تعد القاعة الكبرى المخصصة للوردات أكبر الغرف والخط الفاصل بين حجرتين: في الجهة الأعلى تقع «حجرة الأمير» وهي الحجرة المخصصة لتبديل الملابس، أما الحجرة الأخرى فكانت تدعى «الحجرة المطلية» وهي مخصصة لاجتماعات اللجنة. ولأن هذه الحجرات الثلاث تقع في الطابق العلوي، لم يكن رولو مهتماً بها، بل انصب اهتمامه على الحجرات الأرضية تحتها.

تحت حجرة الأمير يقع مسكن البواب ومسكن أمين خزانة الملك. وعلى طول المسكنين ممر ضيق يدعى «البرلمان» يُفضي إلى رصيف يدعى «سلام البرلمان» على الضفة اليسرى من نهر التيمز.

توجه رولو إلى حانة بوتمان المجاورة، وتظاهر أنه تاجر حطب يبحث عن مخزن فارغ ومستعد لشراء الشراب لأي أحد قد يقدم له معلومات مفيدة. حصل رولو على معلومتين مثيرتين: الأولى، أن أمين خزانة الملك لا يحتاج إلى مسكنه وهو مستعد لتأجيرها؛ والثانية، أن المكان يحوي على قبو ولكنه مخصص لرجال البلاط ولا يمكن للتجار استئجاره. تظاهر رولو بالحزن، وقال إنه سيبحث في مكان آخر. شكره مرتادو الحانة الدائمون على الشراب الذي اشتراه لهم، وتمنوا له حظاً أفضل.

إلا أن رولو كان قد جند رجلاً من البلاط يدعى توماس بيرسي. ولأن بيرسي كاثوليكي فهو لن يصبح مستشاراً للملك أبداً، لكن الملك جيمس عينه كأحد أفراد الحراس الملكيين وهم مجموعة من الحراس الملكيين الرسميين. كانت الاستعانة ببيرسي أشبه بنعمة وبنقمة في آن معاً. فقد كان صاحب شخصية زبئية؛ يفيض بالطاقة الجنونية أحياناً، وتشله الكآبة في أحيان أخرى، كان يشبه جدّه هنري بيرسي الملقب هوتسيرر كما تجسده مسرحية شهيرة عن الملك هنري الخامس في شبابه، إلا أن توماس أثبت نفسه شخصاً مفيداً لرولو. وبناء على اقتراح من رولو ادعى بيرسي أنه بحاجة إلى مسكن أمين خزانة الملك من أجل زوجته عندما يتواجد في البلاط، وبعد مفاوضات طويلة نجح في استئجار المكان.

كانت هذه خطوة كبيرة إلى الأمام.

كان لوجود رولو في لندن غطاء رسمي فهو يتابع قضية الخلاف الطويل بين الإيرل تاين وجار له حول ملكية الطاحونة. وكانت هذه القصة هي الغطاء الذي برر به وجوده، أما غرضه الحقيقي فكان اغتيال الملك، ولهذا السبب كان بحاجة إلى المزيد من الرجال.

كان غاية فوكس الرجل المناسب الذي يبحث عنه رولو، فوالده بروتستانت متشدد وقد توفي عندما كان غاية في الثامنة، وربته أمّه وزوج أمه الكاثوليكيان. وعلى الرغم من أنه شاب ثري فإنه رفض حياة الكسل

والخمول فقام ببيع الملكية التي ورثها عن والده، وانطلق بحثاً عن المغامرة. غادر إنكلترا، وحارب إلى جانب الإسبان في معركتهم مع المتمردين البروتستانتين في هولندا حيث تعلم الهندسة خلال فترة الحصارات. وها قد عاد الآن إلى لندن، وأصبح متفرغاً وجاهزاً للمغامرة جديدة. لسوء الحظ كان فوكس مراقباً.

كان فوكس عصر هذا اليوم في مسرح غلوب على الجانب الجنوبي من نهر التيمز يشاهد مسرحية جديدة تدعى «الصاع بالصاع»⁽¹⁾. وعلى بعد مقعدين من مقعده جلس نيك بيلوس الذي كان رجلاً عادياً في ثياب رثة، إلا أن رولو يعرفه كأحد جواسيس نيد ويلارد. وقف رولو مع جمهور الواقفين، وتابع المسرحية في امتعاض. كانت المسرحية تناول قصة حاكم قوي يكسر علناً وقصداً القوانين التي يضعها كتشجيع على عدم احترام السلطة. كان رولو يبحث عن فرصة للتحدث إلى فوكس دون أن يلفت انتباه بيلوس، ولكن الأمر كان صعباً؛ فقد لحق بيلوس بفوكس سراً عندما غادر مقعده لشراب كأس من النبيذ، وعندما توجه إلى النهر ليتبول.

شارفت المسرحية على الانتهاء، وبدأ الجمهور يغادر المكان ورولو لم يجد الفرصة بعد للتحدث مع فوكس. اكتظ المخرج بالناس وتدافعوا وهم يخرجون. تمكن رولو من المناورة حتى أصبح وراء فوكس، وتحدث بصوت خفيض في أذنه مباشرة قائلاً: «لا تلتفت إلى الوراء أيا يكن السبب وأصغ إلي».

ربما كان فوكس فيما مضى منخرطاً في نشاط سري لأنه نفذ ما طلبه منه رولو، ولم يقم سوى بإيلاء سريعة وغير واضحة تعني أنه فهم ما طلبه منه رولو.

«لدى نيافة البابا عمل لك»، قال رولو بنفس النبرة الخفيفة. «ولكن أحد جواسيس الملك جيمس يلاحقك، ولهذا عليك أن تتخلص منه أولاً. توجه إلى الحانة وتناول كأساً من النبيذ حتى تتيح لي المجال لأسبقك. ومن ثم سر على حافة النهر بعيداً عن الجسر. ولتنتظر هناك حتى لا يعود هناك سوى

1 - Measure for Measure مسرحية كوميدية ألفها ويليام شكسبير بين عامي 1603 و 1604. (المترجمة)

مركب واحد عند ضفة النهر، ومن ثم استأجره وتخلص من الجاسوس. عندما تصل إلى الضفة الأخرى توجه بسرعة إلى شارع فليت وقابلني في حانة يورك».

أوما فوكس برأسه مجدداً.

سار رولو مبتعداً وتوجه إلى جسر لندن، ثم قطعه إلى الجانب الآخر من المدينة وتوجه إلى شارع فليت. وقف قبالة حانة يورك متسائلاً إن كان فوكس سيأتي أم لا. تكهن رولو أن فوكس لن يقاوم نداء المغامرة، وكان مصيباً في ذلك. ظهر فوكس وهو يمشي مشية متفاخرة جعلته يبدو كمقاتل. راقب رولو المكان لدقيقة أو دقيقتين ولم يرَ أثراً لبيلوس أو لأي أحد آخر. دخل فوكس إلى الحانة.

دخل رولو الحانة ورأى فوكس جالساً في الزاوية مع إبريق من النبيذ وكأسين. جلس رولو قبالته وقد أدار ظهره لبقية الموجودين في المكان؛ لقد أصبح إخفاء وجهه عن الحاضرين عادة متأصلة فيه. «من الذي يلاحقني؟» سأل فوكس.

«نيك بيلوس وهو رجل صغير البنية في معطف بني. كان يجلس قريباً منك على بعد مقعدين».

«لم أنتبه إليه».

«إنه يبذل جهداً كبيراً كيلا يلاحظه أحد».

«بالطبع سيفعل هذا. ما الذي تريده مني؟».

«لدي سؤال بسيط»، قال رولو. «هل تملك الشجاعة على قتل الملك».

أمعن فوكس النظر نحو رولو. كانت نظراته كفيلة ببث الرعب في قلوب رجالٍ كثير، ولكن رولو كان أيضاً يتمتع بالاعتداد بالنفس مثل فوكس ولهذا لم يخف من نظراته.

وأخيراً قال فوكس: «أجل».

أوما رولو برأسه في رضا؛ فهذا النوع من الكلام الواضح والصريح هو ما كان يريده: «كنت جندياً وتفهم معنى الانضباط».

ومجدداً أجاب فوكس: «أجل».

«اسمك الجديد هو جون جونسون».

«ألا يبدو كاسم مستعار صريح؟».

«لا تجادل. ستكون المسؤول عن مسكن قمنا باستجاره. سأخذك إلى هناك الآن. لا يمكنك أن تعود إلى منزلك لأنه مراقب».

«لدي مسدسان في منزلي ولا أرغب بأن أتركهما هناك».

«سأرسل أحداً ليجمع أشياءك عندما لا يكون هناك من يراقب المكان».
«حسناً».

«يجب أن تغادر الآن».

«أين هذا المسكن؟».

«في ويستمنستر»، قال رولو ثم تابع: «في مجلس اللوردات».

في إحدى الأماسي المطرة وبعد هبوط الظلام وإشعال حانات لندن ومتاجرها المصاييح والمشاعل اعتقدت مارجوري أنها رأت وسط هذه الأضواء المتوهجة أخاها رولو في الشارع المقابل. كان يقف خارج حانة تدعى وايت سوان، ويبدو كأنه يودع رجلاً طويلاً اعتقدت مارجوري أنها تعرفه.

لم تر مارجوري أخاها منذ سنوات، ورأت في هذا أمراً مناسباً لها فلم تكن تريد أن تتذكر حقيقة أن أخاها هو جان لانغليه نفسه، وأنها بسبب هذا السر الرهيب كادت ترفض عرض الزواج من نيد منذ خمسة عشر عاماً، ولو رفضته فعلاً آنذاك فلم تكن لتتمكن من إخباره بسبب رفضها الحقيقي. كانت تحبه جداً، ولكن ما قلب موازين الأمور في النهاية كان حبه لها وليس حبها له. كان نيد يتوق إليها بشدة وهي تعلم بهذا، وإن رفضته من دون سبب مقنع لكان أمضى بقية حياته حائراً ومجروحاً. كانت تملك السلطة على حياته، ولم تتمكن من مقاومة الرغبة في إسعاده.

لم تكن سعيدة بإخفاء الأسرار عنه. كان الأمر أشبه بذلك الصداع الذي ينتابها منذ ولادة روجر؛ لم يتوقف عن إزعاجها ولكنها تعلمت العيش معه. وبينما كانت تعبر الشارع غادر الرجل الآخر والتفت رولو عائداً إلى الحانة.

«رولو»، قالت مارجوري.

تسمر رولو فجأة عند الباب وحدّق وبدأ للحظة خائفاً جداً إلى درجة شعرت معها بالقلق عليه.

«هذه أنتِ»، قال رولو بحذر بعد أن تعرّف عليها.

«لم أكن أعلم أنك في لندن»، قالت مارجوري. «أليس الرجل الذي كنت تتحدث معه هو توماس بيرسي».

«أجل، إنه توماس بيرسي».

«توقعت هذا. لقد عرفته من شعره الأشيب قبل أوانه». لا تعرف مارجوري العقيدة التي يدين بها بيرسي ولكنها تعرف أن بعض أفراد عائلته المشهورة كاثوليكيون، ولهذا بدأت الشكوك تساورها.

«أنت لم تعاود حيلك القديمة يا رولو».

«بالطبع لا. لقد طويت تلك الصفحة».

«أمل هذا»، قالت مارجوري ولكن لم تصدقه تماماً: «إذاً، ما الذي تفعله هنا؟».

«أحل قضية قضائية قديمة لمصلحة الإيرل تاین. هناك خلاف بينه وبين جاره حول ملكية المطحنة».

علمت مارجوري أن ما قاله صحيح فابنها روجر ذكر الموضوع أمامها: «يقول روجر إن الأجور والرشاوى القضائية تكلف أكثر من ثلاثة مطاحن».

«إن ابن أختي الذكي على حق، ولكن الإيرل عنيد. فلتدخلي».

دخلا إلى الحانة وجلسا فيها. أحضر رجلٌ بأنفٍ أحمر كبير كأساً من النبيذ لرولو دون أن يطلب منه رولو، وتكهن مارجوري من هيئته الواثقة أنه مالك المكان.

«شكراً لك هودجكنسن»، قال رولو.

«هل تريد السيدة شيئاً».

«كأساً صغيراً من البيرة؟» قالت مارجوري.

عندما ذهب هودجكنسن سألت مارجوري رولو: «هل تبيت هنا؟».

«أجل».

بدت محتارة وقالت: «ألا يملك الإيرل تاین منزلاً في لندن؟».

«لا، بل يستأجر منزلاً أثناء جلسات البرلمان».

«إذاً، كان يجب عليك أن تنزل في منزل شايرنغ، سيكون بارتليت سعيداً باستضافتك هناك».

«عندما لا يكون بارتليت في لندن لا يبقى في المنزل سوى الحاجب».
«لو طلبت من بارتليت استخدام المنزل لكان أرسل لك وبكل سرور خادمين من نيوكاسل إلى هنا للاهتمام بك».

بدا رولو مغتاضاً وقال: «سيقومان عندها بإنفاق مال بارتليت على شراء اللحم والنبيد ولن يقدموا لي سوى اللحم المقدد والجمعة، وإن أبدت أي شكوى فسيخبران بارت بأنني متعالٍ ومتطلب. لذلك وبكل صراحة فضّلت الحانة».

لم تكن مارجوري واثقة من أن رولو مغتاض منها أم من فكرة الخادمين الكاذبين، ولهذا قررت إنهاء هذا الموضوع. فإن كان يريد البقاء في الحانة فليفعل ما يشاء.

«كيف هي أحوالك؟» سألت مارجوري.
«لا جديد. إن الإيرل تاين سيدٌ صالح. كيف هي أحوالك؟ هل نيد بحال جيدة».

«إنه في باريس حالياً».
«حقاً؟» قال رولو باهتمام وتابع: «ما الذي يفعله هناك؟».
«ربما يقوم بعمله»، أجابت بغموض. «لست واثقة مما يفعله هناك».
علم رولو أنها كانت تكذب: «يتجسس على الكاثوليكين كما أفترض. الجميع يعرف أن هذا عمله».

«بالله عليك يا رولو، لقد أخطأت بمحاولتك اغتيال ملكته. لا تتظاهر بأنك ناغم».

«هل أنت سعيدة مع نيد».
«أجل. إن الرّب بحكمته منّ عليّ بحياة غريبة ولكن منذ خمسة عشر عاماً أعيش في سعادة حقيقية». لاحظت مارجوري أن حذاءه وجواربه ملطخة بالوحل فسألته: «لماذا أنت متسخ؟».

«اضطرت للسير على حافة النهر».
«لماذا؟».

«قصة طويلة. لدي موعد»، قال وهو ينهض عن كرسية.

أدركت مارجوري أن هذا يعني أن اللقاء انتهى. قبلت أخاها على وجنتيه، وغادرت من دون أن تسأله عن هذا الموعد. وفيما كانت تتعد عن الحانة سألت نفسها عن سبب عدم سؤالها له عن هذا الموعد، وجاءها الجواب سريعاً: لم يكن رولو ليُخبرها بالحقيقة.

فرض رولو رقابة صارمة على مسكن أمين خزانة الملك فقد كان الجميع يصلون قبل الفجر حتى لا يراهم أحد أثناء دخولهم، وقد أحضروا طعامهم معهم حتى لا يخرجوا خلال النهار، ثم يغادرون مجدداً عندما يهبط الظلام. كان رولو في السبعين من العمر تقريباً، ولهذا ترك الأعمال الشاقة للشباب كفوكس وييرسي اللذين صارعا أيضاً للقيام بها. كانوا جميعاً أبناء عائلات نبيلة وثرية، ولم يقم أي أحد منهم بمثل هذه الأعمال من قبل.

كان عليهم أولاً هدم الجدار الحجري للقبو ودفع البقايا خلفه. يجب أن يكون النفق كبيراً بما يكفي لإدخال براميل بارود يصل وزنها إلى اثنين وثلاثين غالوناً، ولكنهم أرادوا توفير الوقت لذلك لم يحفروا نفقاً كبيراً، وبسبب هذا اضطروا للانحناء كثيراً أو الاستلقاء أثناء العمل، ومع المساحة المغلقة غدا الجو في الداخل خانقاً.

خلال النهار عاشوا على السمك المملح واللحم المجفف والزبيب. لم يسمح لهم رولو بإرسال أحد لإحضار وجباتهم المعتادة خوفاً من لفت الأنظار إليهم.

كان عملاً قذراً ولهذا السبب عندما رأت مارجوري رولو بدت ثيابه متسخة بشكلٍ مثير للإحراج. كان عليهم تحميل التراب الذي يجرفونه وإخراجه تحت جناح الظلام من «ردهة البرلمان» باتجاه «سلام البرلمان» والتخلص منه في النهر. اغتاض رولو عندما سألته مارجوري عن سبب اتساخ جواربه، ولكن يبدو أنها اقتنعت بتفسيره.

عمل حفارو النفق بتكتم ولكن ليس بسرية. ففي الظلام كان بالإمكان رؤيتهم أحياناً غادين وذاهبين ويرفقتهم أناس يحملون المصابيح، ولإبعاد الشبهات عنهم أخطر فوكس الجميع أن لديه بنائين يعملون على بعض

التعديلات التي طلبتها زوجة سيده. كان رولو يأمل ألا تساور أحد الشكوك بأن هذه الكميات من التراب هائلة جداً، ولا يمكن أن يكون مصدرها تعديلات بسيطة فقط.

ولكن واجهتهم عقبة خطيرة جداً، وخاف رولو من أن تدمر هذه العقبة خططهم بالكامل. عندما كانوا يحفرون وصلوا إلى حائط حجري صلد، وأدرك رولو أن هذا الحائط جزء من أساسات البناء الذي فوقهم، وأنه كان عليهم توقع هذا. أصبح العمل أكثر صعوبة وبطئاً، ولكن كان عليهم الاستمرار فهم لم يصلوا بعد إلى «قاعة المجادلة» حيث سيزرعون المتفجرات تحتها وستقتل جميع من فيها.

تبين لهم أن الأساسات الحجرية للبناء سميكة جداً. وخشي رولو ألا يتمكنوا من إنهاء العمل على النفق قبل مراسم الافتتاح. ومن ثم توقفت أعمال البرلمان بسبب انتشار وباء الطاعون في لندن، وأصبح لدى الحفارين المزيد من الوقت.

على الرغم من هذا كان رولو يشعر بالضيق؛ فلم يكن العمل يتقدم بالسرعة المطلوبة. وكلما أخذوا وقتاً أطول، ازداد خطر اكتشاف أمرهم. ولكن لم يتوقف الأمر على هذا فقد كانت هناك عقبة أخرى، فمع استمرارهم بالحفر وتقويض الأساسات خاف رولو من انهيار المبنى. كان فوكس قد جهز دعائم خشبية قوية لدعم السقف، وقال إنه فعل هذا أثناء الحفر تحت المدينة خلال الحصارات في هولندا. ولكن رولو لم يكن واثقاً من حجم معرفة هذا الرجل المقاتل بحفر الأنفاق، فقد ينهار النفق ويقتلهم جميعاً، وقد يسبب انهيار المبنى بأكمله، وهذا لن يعود عليهم بفائدة ما لم يكن الملك فيه.

في أحد الأيام وخلال استراحة لهم أخذوا يتحدثون عن من سيكون في القاعة عند تفجيرها. كان لدى الملك جيمس ثلاثة أبناء: الأمير هنري الذي يبلغ أحد عشر عاماً، والأمير تشارلز وهو في الرابعة، وقد يرافق الأميران والدهما إلى مراسم الافتتاح.

«وإن افترضنا أنهم سيموتون جميعاً، فستكون الأميرة إليزابيث الوريثة»، قال بيرسي. «وهي تبلغ من العمر تسعة أعوام».

إلا أن رولو كان قد فكر بأمرها مسبقاً وقال: «يجب أن نكون جاهزين للسيطرة عليها. فمن سيطر عليها سيكون العرش من نصيبه».

«إنها تعيش في كومب أبي في ويريوكشاير».

«ستحتاج إلى وصي، وهذا الوصي سيصبح من دون أدنى شك الحاكم الحقيقي لإنكلترا».

«أقترح أن يكون هذا الشخص نسيبي الإيرل نورثامبرلاند».

أوما رولو برأسه موافقاً فقد كان الاقتراح جيداً. إذ يعدّ نورثامبرلاند من أعظم نبلاء المملكة ومن المتعاطفين مع الكاثوليكين، ولكن كان لدى رولو فكرة أفضل: «أقترح أن يكون هذا الشخص إيرل شايرنغ».

لم يُبدِ الآخرون أيّ حماسة لهذا الاقتراح، وعلم رولو بما دار في أذهانهم. كان بارتليت شايرنغ كاثوليكياً صالحاً، ولكنه لا يملك مكانة نورثامبرلاند. ثم قال بيرسي بلهجة مهذبة جداً محاولاً ألا يبدو كلامه عن ابن أخت رولو سيئاً: «يجب أن نخطط لانتفاضات عامة وفي مناطق النبلاء الكاثوليكين الأقوياء. لا يجب أن نقدم للبروتستانتين أيّ فرصة لترشيح منافس لنا على العرش».

«يمكنني ضمان هذا في مقاطعة شايرنغ»، قال رولو.

«سيموت الكثير من الناس»، قال أحد الحاضرين.

لطالما ضاق ذرع رولو من الناس الذين يقلقون من عمليات القتل. ستكون الحرب الأهلية أشبه بالتطهير.

«يستحق البروتستانتيون الموت»، قال رولو. «ولكن الكاثوليكين سيصعدون إلى الجنة فوراً».

وهنا سمعوا صوت ضجة غريبة. في البداية بدت كأنها ضجة مياه تتدفق فوق رؤوسهم، ثم تحولت إلى ضجة حجارة تتحرك. وأحس رولو بشعور مفاجئ بالخوف من حدوث انهيار. وبدا واضحاً أن بقية الرجال شعروا بهذا أيضاً لأنهم لاذوا بالفرار خوفاً على حياتهم، وهرعوا عبر السلم الحجري الذي يصل القبو بالطابق الأرضي فوقه.

وهناك وقفوا وأصغوا جيداً. استمرت الضجة ولكن بشكل متقطع.

وعندما رأى رولو أن الأرض لم تتحرك، أدرك أنهم بالغوا في رد فعلهم؛ فالبناء لم يكن على شفا الانهيار إلا أن هناك شيئاً ما قد حدث حتماً.

أشار رولو إلى فوكس وقال: «فلترافقني، سنستطلع الأمر. وأنتم ابقوا في أماكنكم هادئين».

قاد رولو فوكس إلى الخارج ودارا حول المبنى. كانت الضجة قد توقفت، واعتقد رولو أن مصدر الضجة قادم من النفق بشكل أساسي.

خارج المبنى من الخلف هناك صف من النوافذ في الطابق العلوي كي يدخل ضوء الشمس إلى داخل قاعة المجادلة. ووسط هذا الصف من النوافذ باب صغير مفتوح على سلم خشبي خارجي، ويبدو أنه مهمل لأن المدخل الأساسي يقع على الجهة الأخرى من المبنى. تحت السلم وعلى مستوى الأرض باب خشبي بمصراعين لم يلاحظه رولو من قبل. ولو رآه قبلاً لافترض عند رؤيته أنه يفضي إلى مخزن يحتفظ فيه البستانيون بأدواتهم. ولكنه رآه مفتوحاً الآن على مصراعيه وقد توقفت خارجه عربة يجرها حصان. دخل رولو وفوكس عبر الباب.

كان مخزناً كبيراً جداً، وتكهن رولو أنه بطول وعرض قاعة المجادلة التي تقع فوقه تماماً. إلا أنه لم يكن واثقاً من دقة تخمينه لأن المخزن يفتقر إلى النوافذ، ولا يصله أي ضوء باستثناء الضوء القادم من الباب. بدا له المكان أشبه بسرداب كنيسة بأعمدة هائلة تصل إلى السقف الخشبي المنخفض الذي يشكل أرضية الغرفة التي تقع فوقه، وأدرك رولو بأسى أن الحفارين قد أصابوا أحد الأعمدة هنا، ويبدو أن خطر الانهيار أكبر مما توقع.

كان المخزن فارغاً تقريباً باستثناء بعض القطع الخشبية والأكياس المتناثرة في الأرجاء، بالإضافة إلى طاولة مربعة الشكل مع فتحة في منتصفها. وفهم رولو على الفور سبب الضجة. كان هناك رجل بوجهٍ سوده الغبار يجرف الفحم من كومة إلى عربة. إذًا، هذا هو مصدر الضجة.

حدق رولو إلى فوكس وعلم أنهما كانا يفكران بالأمر نفسه؛ إن وضعاً أيديهما على هذه الغرفة، سيكون بوسعهما وضع البارود على مقربة من الملك، والتوقف عن الحفر أيضاً.

كانت هناك امرأة في منتصف العمر تراقب تحميل الفحم إلى العربة.

وعندما اكتمل تحميل العربة، قام الرجل بإحصاء قطع من النقود المعدنية وأعطائها إياها، وبدا واضحاً أنه ثمن الفحم الذي أخذه. توجهت المرأة حاملة القطع النقدية إلى مدخل المخزن لتفتحصها في ضوء الشمس قبل أن تشكر الرجل. وبينما كان الرجل يقوم بإرجاع حصانه إلى الورا حتى يربطه بالعربة، التفتت المرأة نحو رولو وفوكس وقالت بتهذيب: «طاب يومكما أيها السيدان. هل يمكنني أن أقدم لكما أيّ خدمة».

«ما هي هذه الغرفة».

«أعتقد أنها كانت مطبخاً فيما مضى عندما كانت تقام الولاتم في القاعة الكبرى فوقها. ولكنها الآن مخزن الفحم الخاص بي. إن الربيع على الأبواب وأنا أحاول التخلص مما لدي من فحم. هل تريدان شراء البعض منه، إنه أفضل فحم قاسٍ من على ضفاف نهر تايين ويحترق بقوة...».

قاطعها فوكس قائلاً: «لا نريد الفحم ولكننا نبحث عن مكان لتخزين كميات كبيرة من الخشب. أدعى جون جونسون، وأنا المسؤول عن مسكن أمين الخزانة».

«أدعى ألين سكينر، وأنا أرملة تاجر فحم».

«سرتني التعرف إليك يا سيدة سكينر. هل المكان متاح للإيجار».

«لا، لقد استأجرته حتى نهاية هذا العام».

«ولكنك تقومين بتصفية ما لديك لأن فصل الربيع على الأبواب، ولهذا السبب لن يشتري الفحم سوى عدد قليل من الناس».

«قد أستخدم المكان لأغراض أخرى»، قالت المرأة بحذاقة.

كانت تتظاهر باللامبالاة ولكن رولو رأى الجشع في عينيها. لم تكن حججها سوى تكتيكات للتفاوض، ورأى رولو في هذا أمراً باعثاً على التفاؤل.

«سيدفع لك سيدي بسخاء»، قال فوكس.

«سأتخلى عن عقد الإيجار مقابل ثلاثة جنيهاً، ولكن عليك أيضاً أن تدفع لصاحب المكان أربعة جنيهاً لقاء استئجاره لعام كامل كما فعلت أنا».

قاوم رولو كيلاً يندفع بقوله: «اتفقنا». لم يكن يهمه السعر، ولكن إن شوهوا وهم ينفقون المال بهذه الطريقة فسيثيرون الشبهة حولهم.

أخذ فوكس يساوم حفاظاً على المظاهر: «هذا كثير يا سيدتي. بالتأكيد يكفي جنيه واحد بدلاً لعقد الإيجار خاصتك». «يمكنني أن أحتفظ بالمكان لنفسي لأنني سأحتاجه لتخزين الفحم في أيلول القادم».

«ما رأيك أن نتقاسم الفرق؟» قال فوكس. «جنيه وعشرة شلنات». «إن دفعت جنيهين يمكننا أن نتصافح على الفور». «حسناً»، قال فوكس ورفع يده.

«سرّني التعامل معك يا سيد جونسون»، قالت المرأة. «أؤكد لك يا سيدة سكينز أن السرور لي أنا»، قال فوكس.

توجه نيد إلى باريس في محاولة يائسة لمعرفة ما يحدث في لندن. استمر نيد بسماع إشاعات عن مؤامرات كاثوليكية على الملك جيمس، وبدأت شكوكه تزداد عندما تخلص فوكس من مراقبه ببراعة وتوارى عن الأنظار. إلا أن هذه الإشاعات التي وصلت نيد ينقصها الكثير من التفاصيل. كان الكثير من مؤامرات الاغتيال الملكية تحاك في باريس ومعظمها بمساعدة عائلة غيز الكاثوليكية المتعصبة، ولكن البروتستانتين هناك حافظوا على شبكة الجواسيس التي أنشأتها سيلفي، وكان نيد يأمل أن يكون أحدهم قادراً على ملء هذه الفراغات في تفاصيل المؤامرات. كان آلان دي غيز المرشح الأكبر لأداء هذه المهمة.

بعد موت الدوق هنري وبيير أوموند خشي نيد أن يتوقف آلان عن العمل ولا يعود مصدراً لتقديم المعلومات حول الكاثوليكين الإنكليز المنفيين، إلا أن آلان كان قد أخذ عن زوج والدته بعضاً من مكره، فتقرب من أرملة الدوق وعقد صداقة مع الدوق الجديد الشاب، وبالتالي بقي قريباً من منزل عائلة غيز في باريس وعمل لمصلحة العائلة. ولأن المتأمريين الإنكليز وثقوا بعائلة غيز الكاثوليكية المتشددة، علم آلان الكثير عن خططهم، وأرسل المعلومات إلى نيد في رسائل مشفرة عبر قنوات موثوقة وسرية. ولسنوات لم تُفصّل أحاديث المنفيين الإنكليز إلى أي فعل، ولم تؤدّ المعلومات التي قدمها آلان إلا إلى القيام باعتقالات.

قرأ نيد كل رسائل آلان، إلا أنه كان يأمل أن يعرف المزيد من خلال زيارة شخصية. إن المحادثات المباشرة قد تكشف عن تفاصيل اعتباطية ولكنها قد تكون مهمة.

على الرغم من شعوره بالقلق فإن الرحلة إلى باريس ملأته بالحنين وذكرته بنفسه شاباً، وبويلزنهام الذي عمل معه لعقدين من الزمن ولكن الأهم من هذا كله، ذكرته بسيلفي. لذلك وفي طريقه للقاء آلان، عرّج على شارع دو لا سيربونت، ووقف قبالة متجر الكتب الذي كان في يوم من الأيام منزل سيلفي، وتذكر ذلك اليوم الجميل الذي دُعي فيه إلى تناول العشاء وقبلها في الغرفة الخلفية، واليوم الرهيب الذي قُتل فيه إيزابيل. لقد تحول المنزل إلى متجر جزار الآن.

عبر نيد الجسر إلى منطقة إيل دو لا ستيه، ودخل إلى الكاتدرائية وصلى لروح سيلفي. كانت كنيسة كاثوليكية ونيد بروتستانتي، إلا أن نيد وصل منذ زمن إلى قناعة بأن الرب لا يهتم بمثل هذه الاختلافات.

وهذا بالضبط ما شعر به ملك فرنسا. كان هنري الرابع قد وقع مرسوم نانيت الذي حصل فيه البروتستانتيون على حرية ممارسة معتقدتهم. كان دوق غيز الجديد ما يزال طفلاً، ولهذا لم تتمكن عائلة غيز من تقويض السلام هذه المرة، وبالتالي وصلت الحرب الأهلية التي استمرت لأربعين عاماً إلى نهايتها. وقدّم نيد في صلاته أيضاً الشكر على وجود هنري الرابع. ربما ستشق فرنسا طريقها نحو التسامح الديني كإنكلترا.

على الرغم من هذا كانت ممارسة الطقوس البروتستانتية ما تزال سرية، وتقام معظم الأحيان خارج أسوار المدينة لتجنب إثارة الكاثوليكين المتشددين. توجه نيد جنوباً على طول جادة سان جاك باتجاه بوابة المدينة ومن ثم إلى الضواحي. كانت العلامة التي يبحث عنها رجل يطالع إلى جانب طريق، وهذا الطريق يمرّ بالغابة وينتهي عند كوخ صيد. عادت الآن هذه الكنيسة السرية التي ذهبت إليها سيلفي قبل لقاءها بنيد، والتي فضح بيير أوموند أمرها وتفرقت رعيتهما، إلى سابق عهدها كمكان للعبادة.

كان آلان هناك مع زوجته وأطفاله وصديقه منذ وقتٍ طويل الماركيزة الأرملة لويز نيم. كلاهما كانا في قصر بلوا عندما قتل الدوق هنري وبيير،

وكان نيد يشك بأن قتلها ناجم عن مؤامرة لم يجرؤ أحد على التحقيق في أمرها بسبب احتمال تورط الملك في الأمر. والتقى نيد أيضاً نات التي أخذت عن سيلفي عملها في بيع الكتب الممنوعة. كانت نات الآن سيدة عجوز ميسورة في قبعة من الفرو.

جلس نيد إلى جانب آلان، ولكنهما لم يتحدثا خلال التراتيل لأن الجميع غنى بصوت عالٍ ولذلك كان من الصعب عليهما التحدث.

«يعبر الجميع عن عدائهم لجيمس»، همس آلان بالفرنسية وتابع: «يقولون إنه حث بوعوده».

«إنهم ليسوا مخطئين فيما يقولونه»، اعترف نيد. «ولكن يجب أن أمنعهم من قتله، أو ستضع الحرب الأهلية نهاية للسلام والازدهار الذي بذلت من أجلهما إليزابيث جهوداً هائلة. ماذا لديك أيضاً من أخبار؟».

«يريدون قتل العائلة الملكية بأكملها باستثناء الأميرة الصغيرة التي سينصبونها ملكة».

«العائلة بأكملها»، كرر نيد في رعبٍ. «يا لهم من أجلاف متعطشين للدماء».

«وسيقتلون أهم الوزراء واللوردات».

«لا بد أنهم يخططون لحرق القصر أو شيء من هذا القبيل. يمكنهم أن يقوموا بهذا خلال مأدبة أو مسرحية».

كان نيد أحد أبرز الوزراء وهذا يعني أن حياته وحياة الملك في خطرٍ على حد سواء، وسرت رعشة خوف في أوصال نيد عندما فكر بهذا.

«أين سينفذون الأمر؟» سأل نيد.

«لم أتمكن من الوصول إلى هذه المعلومة».

«هل سمعت باسم غاية فوكس من قبل؟».

هز آلان رأسه نائياً ثم قال: «لا. ولكن هناك مجموعة زارت الدوق، إلا أنني لم أعرف من كانوا».

«ألم تسمع أيّ أسماء فيها».

«لم تكن أسماء حقيقية».

«ما الذي تعنيه بكلامك هذا».

«ذكر اسم واحد فقط، وكان اسماً مستعاراً».

«وما كان هذا الاسم؟»
«جان لانغليه»، قال آلان.

انتاب مارجوري شعور بالقلق بعد لقائها برولو. رغم أن أجوبته كانت مقنعة فإنها لم تكن تثق به، ولم تعرف ما الذي عليها فعلة حيال هذا الأمر. بالطبع كان بوسعها إخبار نيد أن رولو هو جان لانغليه، ولكنها إن فعلت هذا فستكون السبب في إعدام أخيها وذلك فقط لأن جواربه المتسخة أثارت ريبتها.

وفيما كان نيد في باريس قررت مارجوري أخذ حفيدها جاك ابن روجر في زيارة إلى نيوكاسل. شعرت بأن من واجبها فعل هذا، فأياً يكن الطريق الذي سيأخذه جاك في حياته، ستكون صلوات القراة الأرسوقراطية مهمة له في يوم من الأيام. لم يكن عليه أن يحب هذه الصلوات إلا أنه يجب أن يعلم بأمرها. أحياناً قد يكون وجود عم بمكانة إيرل مفيداً أكثر من المال. فعندما يتوفى بارتليت سيصبح سويفتي أبن عم جاك إيرل شايرنغ.

كان جاك صبيّاً في الثانية عشرة ويحب طرح الأسئلة والمجادلة، وينخرط بحماس في أحاديث جدلية مع روجر ونيد، ويتبنى دوماً الرأي المخالف لرأيهما. قال نيد إن جاك يشبه مارجوري تماماً، إلا أنه كان من الصعب عليها التصديق أنها كانت متعالية إلى هذه الدرجة. كان جاك ضئيل البنية كمارجوري ولديه نفس الشعر الأسود المجعد. كان وسيماً في هذا العمر، ولكنه بعد عام أو عامين من الآن سيبدأ بالتحول إلى رجل، وسيغدو مظهره أكثر خشونة. إن متعة وسحر مراقبة الأبناء والأحفاد يكبرون ويتغيرون قد حوّل الشيخوخة إلى مرحلة مبهجة جداً لمارجوري.

وكعادته جادل جاك جدته في الحاجة إلى القيام بهذه الزيارة: «أريد أن أصبح مغامراً كالعم بارني. لا يهتم النبلاء بالتجارة فهم لا يقومون بشيء سوى الجلوس وجمع الإيجارات من الناس».

«يحافظ النبلاء على السلام ويفرضون القوانين»، حاججته مارجوري. «لا تستطيع العمل في التجارة من دون قوانين ومعايير. فما هي كمية الفضة في البنس الواحد؟ وكم يبلغ عرض ياردة من القماش؟ وما الذي يحدث عندما لا يدفع الرجال ديونهم؟».

«إن النبلاء يضعون القوانين التي تناسبهم»، قال جاك ثم تابع: «ولكن نقابة تجار كينغزبريدج هي التي تفرض الأوزان والقياسات وليس الإيرل». ابتسمت مارجوري وقالت: «ربما يجب أن تصبح سياسياً كالسير نيد بدلاً من أن تصبح مغامراً». «لماذا؟».

«لديك أفكار هامة عن عمل الحكومة، ويمكن أن تصبح رئيس حكومة. إن بعضاً من أقوى الرجال في البلاط كانوا طلاباً أذكياً مثلك». بدا جاك غارقاً في التفكير. كان في ذلك العمر الجميل حيث يبدو فيه كل شيء ممكناً.

إلا أن مارجوري أرادت أن يتصرف بأدب في نيوكاسل ولذلك قالت له عندما شارفا على الوصول: «فلتكن مهذباً، ولا تجادل العم بارتليت. نحن هنا لنصنع أصدقاء وليس أعداء». «حسناً يا جدتي».

لم تكن واثقة تماماً من أنه أخذ تحذيرها على محمل الجد، إلا أنها بذلت ما بوسعها؛ فأى طفل سيتصرف على هواه وليس وفق ما يمليه الآخرون. رحب بهما ابنا الإيرل بارتليت. كان الآن في الأربعين من عمره، وقد امتلأ وجهه بالنمش كوالد مارجوري إلا أن أسلوبه في ارتداء الثياب يشبه أسلوب والده بارت - أو من يعتقد أنه والده. رغم أن بارتليت ثمره اغتصاب الإيرل سويذن لمارجوري إلا أن هذه الحقيقة وبما يدعو للعجب، لم تسمم العلاقة بين الأم وابنها. وفيما انطلق جاك لاستكشاف القلعة، جلست مارجوري في القاعة مع بارتليت يشربان النبيذ.

«أمل أن تتوطد العلاقة بين جاك وسويفتي»، قالت مارجوري. «أشك بأنهما سيصبحان مقربين»، قال بارتليت. «هناك فارق عمري كبير بين الثانية عشرة والعشرين».

«التقيت بخالك رولو في لندن وهو ينزل في حانة. لا أعلم لماذا لم يستخدم منزل شايرنغ؟».

هز بارتليت كتفيه وقال: «لو طلب مني استخدام المنزل لسمحت له بكل سرور، فقد يدفع هذا وكيل الكسول إلى القيام بشيء ما على سبيل التغيير».

سكب أحد الخدم المزيد من النبيذ لمارجوري: «ستذهب إلى لندن في وقت ما من هذا العام عند افتتاح جلسة البرلمان؟»
«ليس بالضرورة».

تفاجأت مارجوري وسألته: «لماذا؟».

«سأدعي أنني مريض». كان لزاماً على كل إيرل في البلاد حضور جلسات البرلمان، وإن أرادوا التخلص من هذا الواجب كان بوسعهم ادعاء المرض الشديد وبالتالي عدم قدرتهم على السفر.
«ولكن ما هو عذر الإيرل الحقيقي؟»
«لدي الكثير لأقوم به هنا».

لكن مارجوري لم تقتنع بهذا الكلام: «ولكنك منذ أصبحت إيرلاً لم تفوت أيّ جلسة للبرلمان كما فعل والدك وجدك، ولهذا السبب بالتحديد تم شراء المنزل في لندن».

«الملك الجديد غير مهتم بآراء إيرل شايرنغ».

كان من الغريب حقاً أن يتكلم بارتليت بهذه الطريقة فهو كبارت وسويذن، لا يتردد في التعبير عن آرائه بصوت عالٍ سواء كان هناك من يهتم بسماعها أم لا.

«ألا تريد معارضة أيّ تشريعات أخرى مناهضة للكاثوليكيين؟»
«أعتقد أننا خسرنا هذه المعركة».

«لا أعرفك شخصاً انهزامياً».

«من المهم حقاً أن يعرف المرء متى يتابع القتال ومتى يتوقف»، قال بارتليت ثم وقف: «ربما ترغبين بالتوجه إلى غرفتك وترتيب أمورك قبل العشاء. هل لديك كل ما تحتاجين إليه؟».

«أجل، أعتقد هذا». قبلته مارجوري وتوجهت إلى الطابق العلوي وهي مأخوذة بكلام بارتليت. قد لا يكون بارتليت كبارت وسويذن اللذين لا تسمح لهما كبرياؤهما بقول أشياء كـ: «أعتقد أننا خسرنا تلك المعركة». فهما لن يعترفا البتة بخطئهما.
ربما نضج بارتليت.

كان نقل براميل البارود الستة والثلاثين إلى ويستمنستر الجزء الأصعب والأخطر في خطة رولو. قطع رولو مع اثنين من المتأمرين النهر، وتوجهوا إلى رثيريت، الحي الذي يقع عند الرصيف النهري وأحواض السفن. وتوجهوا من هناك إلى أحد الإسطبلات، وطلبوا من سائس خيل استئجار عربة متينة ومسطحة مع حصانين لجرها.

«نريد نقل خشب سفينة قديمة محطمة»، قال رولو. «لاستخدامه في بناء حظيرة». كان تدوير أخشاب السفن القديمة بهذه الطريقة أمراً شائعاً. لم يكن سائس الخيل مهتماً بقصة رولو، واكتفى بعرض عربة وحصانين قويين عليه.

«حسناً، هذا ما أريده بالضبط»، قال رولو. «سيقوم رجل يدعى ويستن بقيادة العربة»، قال سائس الخيل. امتقع وجه رولو، فلا يمكنه أن يقبل بمثل هذا الاقتراح لأن السائق سيشهد على ما يفعلونه.

«أفضل قيادتها بنفسى»، قال رولو وهو يحاول ألا يبدو منفعلاً بكلامه. «لدي مساعدون».

هزّ سائس الخيل رأسه في رفض وقال: «إن لم يذهب معك ويستن فسيكون عليك دفع عربون أو ضمانة بأنك ستعيد العربة».

«كم المبلغ؟» سأل رولو وهو مازال متقمصاً الدور الذي يؤديه. لقد كان مستعداً لدفع أي مبلغ من أجل أي شيء.

«خمسة جنيهات عن كل حصان وجنيه عن العربة».

«أريد منك وصلاً بالمبلغ».

عندما انتهى من عقد الصفقة، خرجوا بالعربة من فناء الإسطبل، وتوجهوا إلى بائع حطب يدعى بيرس. اشترى رولو أحمالاً من الحطب المتفاوت الطول والمربوط في حُزم، وقطعاً خشبية أقرب للجذوع المتساوية الأطوال والمربوطة معاً. قاموا بتحميل الأخشاب على العربة، وأبدى بيرس فضولاً حيال إصرار رولو على تكديس الأخشاب بكل دقة على شكل مربع فارغ في المنتصف.

«لا بد أنك تريد تحميل شيء آخر؟»، قال بيرسي.

«لن تكون حمولة مهمة»، قال رولو بطريقة أوحى فيها بأنه يخاف من اللصوص.

حك بيرس طرف أنفه وقد فهم ما رمى إليه رولو: «فهمت».

قادوا العربة إلى غرينويش حيث التقى رولو بالقبطان رادكليف.

أجرى غاية فوكس حساباته حول كمية البارود اللازمة لتدمير مجلس اللوردات وقتل جميع من فيه. يستطيع أي رجل يملك مسدساً أو بندقيّة شراء صندوق من البارود للاستعمال الشخصي من دون أن يثير الشكوك حوله، ولكن لم يكن هناك سبب شرعي يبرر شراء رولو لهذه الكمية من البارود دون إثارة الشبهات حوله.

ولذلك كان الحل الوحيد هو الاستعانة بمجرم.

كان رادكليف أمين الإمدادات والتمويل في البحرية الملكية إلا أنه كان أميناً فاسداً، ولا يصل إلى السفن نصف ما يشتريه من مؤن، لأنه يقوم بشكل سري ببيع ما اشتراه والاحتفاظ بالمال لنفسه. كانت مشكلة رادكليف الوحيدة أنه لم يكلف نفسه عناء إخفاء مدى ثرائه.

أما الأمر الجيد في شخصيته من وجهة نظر رولو، أنه لا يثرثر ويتحدث عن بيع البارود، لأنه إن فعل هذا فسيعدم بتهمة السرقة من الملك، ولهذا كان عليه أن يلتزم الصمت حفاظاً على حياته.

قابل رولو رادكليف في فناء إحدى الحانات، ثم قاموا بتحميل ثمانية براميل إلى العربة، وكدسوها في صفيين في المربع الفارغ بين الحطب. سيعتقد أي مراقب أن البراميل تحوي على الجعة.

«لا بد أنك تتوقع حرباً»، قال رادكليف.

كان لدى رولو جواب جاهز: «إننا تجار بحر، وعلينا أن نحمي أنفسنا».

«أنت على حق»، قال رادكليف.

«ولكننا لسنا قراصنة».

«لا»، قال رادكليف. «بالطبع لا».

كان رادكليف مثل بيرسي ميالاً إلى تصديق كل ما قد يقوله رولو. عندما انتهوا من تحميل البراميل وضعوا حطباً فوقها حتى لا يراها أحد من فوق.

قاد رولو العربة عائداً إلى ويستمنستر بكل حذر. كان اصطدام العربات في الشارع شائعاً، وعادة ما يقود إلى عراقك بالأيدي قد يتطور أحياناً إلى أعمال شغب في الشارع. ولم تكن الحشود اللندنية لتفوت فرصة السرقة من حمولات العربات عندما يكون السائقون غير متبهين. إن حدث هذا فسيتهي أمره، ولذلك قاد رولو العربة بحذر، وفتح الطريق أمام العربات الأخرى مما دفع بقية السائقين إلى النظر إليه بريبة.

نجح رولو بالعودة إلى ويستمنستر من دون وقوع أي حادث. كان فوكس بانتظاره وقد فتح له باب المخزن على مصراعيه أثناء اقترابه حتى يتمكن من إدخال العربة إلى المخزن على الفور. أغلق فوكس البوابة وراء العربة وانهار رولو من الراحة. لقد نجا بحياته.

ولكن كان عليه أن يكرر هذا لثلاث مرات أخرى. أشار فوكس إلى الباب الجديد في الجدار غير الظاهر تماماً حتى مع الضوء الضعيف للمصباح.

«صنعت ممرأ من هنا وحتى مسكن أمين الخزانة»، قال فوكس. «يمكننا الآن أن ندخل ونخرج من دون أن نخاطر بأن يرانا أحد». «أحسنتم صنعاً»، قال رولو. «ماذا عن القبو؟». «لقد أغلقت النفق». «فلترني».

دخل الرجلان من الباب الجديد إلى مسكن أمين الخزانة ثم هبطا الدرج إلى القبو. كان فوكس قد سدّ الفجوة التي أحدثوها في الجدار، إلا أن ما قام به كان واضحاً حتى على ضوء الشموع. «فلتُحضر بعض الوحل أو السخام ولتقم بطلاء الحجارة الجديدة»، قال رولو. «ولتضرب الجدار بمعول حتى يبدو كأنه متضرر بفعل مرور السنوات».

«هذه فكرة جيدة». «لا أريد أن يبدو هذا الجدار مختلفاً عن بقية الجدران». «بالطبع. ولكن لن يأتي أحد إلى هنا».

«فلتفعل هذا من باب أخذ الحيلة»، قال رولو. «يجب أن نكون حذرين جداً».

وعادا إلى المخزن.

كان الرجلان الآخران يُفرغان حمولة براميل البارود في النهاية القصية من المكان. طلب منهما رولو أن يضعوا أحمال الحطب أمام البراميل ويقوما بترتيبها بعناية حتى تبقى ثابتة في مكانها. وقف أحد الرجلين على الطاولة المكسورة متجنباً وضع قدمه في الفجوة التي في الطاولة فيما ناوله الرجل الآخر الأحمال ليضعها فوق البراميل.

عندما انتهيا من عملهما تأمل رولو ما قاما به بعناية. لن يشك أحد بوجود شيء تحت أكداس الحطب، وشعر بالرضا.

«حتى لو فتشوا هذا المكان»، قال رولو برضا. «فلن يعثروا على البارود».

عاش نيد ومارجوري في منطقة كاتدرائية سانت بول في منزل يقع على صفي من المنازل الجميلة وفي حديقته الخلفية شجرة إجاص. لم يكن منزلاً مهيباً إلا أن مارجوري أضافت السجاجيد واللوحات وجعلته مكاناً حميماً. وكان لديهما مدفأة تعمل بالفحم حتى يبقى المنزل دافئاً في الشتاء. أحب نيد المنزل لأنه يستطيع رؤية الكاتدرائية من النافذة وذكره هذا بمنزل كينغزبريدج.

عاد نيد من باريس في وقت متأخر من إحدى الأماسي. كان متعباً وقلقاً. حضرت مارجوري عشاء خفيفاً وذهبا إلى غرفة النوم ثم مارسا الحب. وفي صباح اليوم التالي أخبرها عن رحلته. صُغت مارجوري جداً بما قاله لها، وصارعت لإخفاء مشاعرها. لحسن الحظ كان نيد في عجلة من أمره ليقدم تقريره إلى روبرت سيسيل لذلك غادر بعد تناول الإفطار على الفور تاركاً إياها لتفكر في سلام.

كان هناك خطة لاغتيال العائلة الملكية بأكملها باستثناء الأميرة إليزابيث، بالإضافة إلى كل الوزراء البارزين وهذا يعني على حد قول نيد إحراق القصر بأكمله، ولكن مارجوري لديها معلومات إضافية. فهي هو بارت سيفوت جلسة افتتاح البرلمان لأول مرة مذ أن أصبح إيرل شايرنغ. أصيبت

مارجوري بالحيرة عندما سمعت قراره، ولكنها فهمت الأمر الآن. إن المتأمرين يخططون لمهاجمة ويستمنستر.

ستكون مراسم افتتاح البرلمان بعد عشرة أيام.

ولكن كيف لبارتليت أن يعرف بالأمر؟ أخبرها نيد أن جان لانغليه متورط في الأمر، ومارجوري تعلم أن جان لانغليه هو رولو. إذاً، لا بد أن رولو قام بتحذير بارتليت وطلب منه البقاء بعيداً.

فهمت مارجوري الأمر برمته، ولكن ما الذي يجب عليها فعله الآن؟ يمكنها أن تخبر نيد بأمر رولو، وقد يكون هذا ما ستقوم به في نهاية المطاف، ولكن رعشة هلع سرت في أوصالها عندما فكرت بأنها سترسل أخاها إلى حتفه. قد يكون هناك طريقة أفضل. يمكنها الذهاب ومقابلة رولو فهي تعرف أين يبيت، ويمكنها أن تخبره بأنها تعرف كل شيء وتهدده بفضح أمره لنيد. وعندما يعلم نيد بكل شيء ستفشل المؤامرة، ولن يكون أمام رولو خيار آخر سوى التخلي عن الأمر برمته.

ارتدت معطفاً ثقيلاً وحذاءً متيناً وخرجت إلى شوارع لندن الخريفية.

توجهت إلى حانة وايت سوان وعثرت على مالكةها الشمل.

«صباح الخير يا سيد هودجكنسن. أتيت إلى هنا قبل بضعة أسابيع»، قالت مارجوري.

كان صاحب الحانة في مزاج سيئ، ربما لأنه تجرع الكثير من النبيذ الذي صنعه الليلة الماضية. نظر إليها بلا مبالاة وقال: «لا أتذكر جميع من يشتري النبيذ هنا».

«لا تهتم. أرغب برؤية رولو فيتزجيرالد».

«لا يوجد أحد بهذا الاسم هنا»، قال لها باقتضاب.

«كان ينزل هنا».

نظر إليها بعدائية وقال لها: «ومن تكونين؟».

اتخذت مارجوري هيئة أرسطوقراطية متعالية وقالت: «أنا أرملة إيرل

شايرنغ، وأرجو أن تتصرف معي بتهديب».

غير الرجل نبرة صوته، فلم يكن الجدال مع أرسطوقراطي أمراً جيداً.

«أستمح العفو منك يا سيدتي، ولكنني لا أتذكر أحداً بهذا الاسم».

«أتساءل إن كان أي من أصدقائه ينزل هنا. ماذا عن جان لانغليه؟».

«أجل»، قال هودجكنسن ثم تابع: «الاسم فرنسي ولكن الرجل يتحدث بإنكليزية ممتازة. لقد غادر النزل».

«أتعلم إلى أين ذهب؟».

«لا، فالسيد لانغليه ليس من النوع الذي يدلي بمعلومات إضافية يا سيدتي. إنه متكتم».

بالطبع كان متكتماً.

غادرت مارجوري النزل وهي تتساءل عما يجب عليها القيام به الآن. لم يكن لديها أدنى فكرة عن مكان رولو، ولن تحقق أيّ فائدة الآن بإفشاء سره إلى نيد، لأن نيد لن يتمكن من العثور عليه أيضاً. أخذت مارجوري تفكر بجذ ف هناك أناس يخططون لارتكاب عمل وحشي وعليها إيقافهم.

وتساءلت إن كان بوسعها تحذير أحدهم. ربما ستمكن من إنقاذ الناس من دون أن يُقبض على رولو ويُحكم عليه بالموت. فكرت بإرسال رسالة باسم مجهول. يمكنها أن تكتب إلى نيد وتموه خط يدها حتى تبدو الرسالة وكأنها مرسلة من أحد المتآمرين، ولن يكون عليها ذكر اسم رولو بالضرورة. ستقوم في الرسالة بكل بساطة بتحذير نيد من الذهاب إلى مراسم افتتاح البرلمان.

ولكن نيد لن يصدق هذا، فما الذي قد يدفع متآمراً كاثوليكياً إلى إنقاذ حياة رجل بلاط بروتستانتي مشهور؟

ومن جهة أخرى قد تصل الرسالة إلى كاثوليكي موافق على المؤامرة ويمتنع عن نشر الخبر.

كانت تحتاج إلى شخص يجمع بين العالتين؛ رجلٌ مخلص للملك، إلا أنه ودود بما يكفي مع الكاثوليكين ومن دون أن يكون مثاراً للشبهات. هناك العديد من هؤلاء الناس في البلاط، وفكرت مارجوري باللورد مونتيجل وهو كاثوليكي من أنصار السلام مع البروتستانتين في إنكلترا. لم يكن الناس من أمثال رولو وبارتليت يهتمون بأشخاص مثل اللورد مونتيجل إلا أن مارجوري تراه رجلاً عقلانياً، وإن تمّ تحذيره فسيقوم بتحذير الجميع.

قررت مارجوري أن تكتب رسالة له.

توجهت إلى أحد متاجر القرطاسية العديدة في حي كاتدرائية سانت بول، واشترت نوعاً من الورق لا تستخدمه عادة. عادت إلى المنزل وشحذت طرف الريشة بسكين ثم استخدمت يدها اليسرى لتمويه خط يدها وبدأت تكتب. «سيدي، بدافع الحب الذي أكنه لبعض الأصدقاء فأنا مهتم بأمر سلامتك».

فكرت بأن ما كتبه مبهم بشكل جيد. «وبناء على ما سبق أنصحك بخلق عذر لعدم حضورك جلسة البرلمان». لم تبالغ فيما كتبه فحياته كانت حقاً في خطر. وفكرت مارجوري بما قد يكتبه رولو في مثل هذا النوع من الرسائل. لا بدّ أنه سيكتب بشكل وعظي. «لأن الرّب والبشر متفقون على محاربة شرور هذا الزمن». كانت هذه اللهجة التحذيرية والوعظية المناسبة. «ولا تستخف بهذا التحذير، والزم منزلك حيث يمكنك أن تنتظر ما سيحدث بأمان».

كان عليها أن تضيف شيئاً عن الطريقة التي ستم فيها عملية الاغتيال، ولكنها لا تعرف أي تفاصيل سوى ما أخبرها به نيد عن إحراق مبنى البرلمان. ربما يجب أن تلمح إلى هذا في الرسالة. «قد لا تكون هناك أي مظاهر تحرك إلا أنني أؤكد لك أن البرلمان سيتعرض إلى ضربة قوية، وسيحرصون على ألا يكشفهم أحد». وأخذت مارجوري تفكر فيما سيفكر به أيضاً أي متآمر؟ تدمير الدليل؟ «لا يجب أن تتجاهل هذه النصيحة التي أقدمها لك لأنها تصب في مصلحتك، وكلي لا يلحقك أي ضرر من الرسالة من الأفضل أن تحرقها بعد قراءتها».

وفكرت بالطريقة التي ستُنهي بها الرسالة، وقررت أن تنتهيها بكلمة صادقة. «وأرجو من الرّب الذي أودعته أمانك، أن يمنّ عليك بنعمة معرفة كيفية استخدامها».

طوت الرسالة ودمغت الشمع الطري بقطعة نقدية ثم حرّكتها قليلاً حتى لا تبدو طبعة القطعة النقدية واضحة وكأن الختم وضع كيفما اتفق.

وفكرت أن سكان منزل مونتيغل بل ومونتيغل نفسه، قد يرونها ويعرفونها، ولهذا كان يجب أن تذهب متخفية.

كان نيد ومارجوري قد وظفا خادمة من أجل المهام المنزلية، وكانت الخادمة في هذه الأثناء تغسل الشراشف في الفناء الخلفي. طلبت مارجوري من الخادمة أن تأخذ بقية اليوم إجازة، وأعطتها ستة بنسات لتذهب لمشاهدة مصارعة الدببة.

توجهت مارجوري إلى خزانة نيد وأخذت سروالاً ثم طوت تنورتها ودستها تحته حتى يبدو ممتلئاً عند منطقة الفرج، ثم ارتدت سترة قديمة ومهترئة. رغم أن نيد كان نحيلاً، فإن ملابسه كانت واسعة جداً عليها. فلا أحد يتوقع من رسول مهمته إيصال الرسائل أن يكون حسن الهندام. وانتعلت حذاء مهترئاً من أحذية نيد بعد أن قامت بحشوه بالخرق حتى يصبح على مقاسها. اكتشفت أن كاحليها نحيلان جداً مقارنة بكاحلي رجل. وأخيراً، رفعت شعرها ووضعت إحدى قبعات نيد غير المفضلة.

سيكون الموقف محرراً إن دخل نيد إلى المنزل الآن ورآها، إلا أنه سيغيب عن المنزل طوال اليوم لأن لديه الكثير من الأعمال المتركمة بسبب سفره إلى باريس، ومن المفترض أن يتناول العشاء في منزل سيسيل، ولذلك كانت فرصة عودته المفاجئة بعيدة جداً.

عندما نظرت إلى نفسها في المرأة لم تبد كرجل. كانت جميلة جداً ويدها صغيرتين. وضعت مجرفة في المدفأة، وأخرجت بعض السخام ثم استخدمته لتلطix يديها ووجهها. نظرت إلى نفسها في المرأة ورأت أن وضعها قد تحسن، وبدأت الآن أقرب إلى رجل عجوز قدر من النوع الذي يعمل رسولاً. غادرت من الباب الخلفي على عجل وأملت ألا يتعرف عليها أحد من الجيران. اتجهت شرقاً نحو بوابة آداد وخرجت من المدينة. عبرت الحقول باتجاه بلدة هوكستن حيث يسكن مونتيغل في منزل ريفي وسط حديقة كبيرة. وعندما وصلت توجهت إلى الباب الخلفي للمنزل كما يفعل الرُّسل المهلهلي الشكل.

تقدم رجل يمضغ طعاماً إلى الباب فسلمته الرسالة وقالت له بصوت أجش: «هذه رسالة شخصية ومهمة جداً من أجل اللورد مونتيغل».

تابع الرجل مضغ طعامه ثم ابتلعه: «ممن الرسالة».

«من رجل أعطاني بنساً».

«حسناً أيها العجوز. إليك بنس آخر».

مدت يدها الصغيرة والقدرة وأخذت القطعة النقدية ثم انصرفت.

جلس نيد وويلارد وبقية أعضاء المجلس الملكي حول طاولة العشاء في منزل روبرت سيسيل عندما دخل خادم ليُخبر سيسيل أن اللورد مونتيغل يرغب بالتحدث معه بشكلٍ عاجل.

استأذن سيسيل من ضيوفه وطلب من نيد اللحاق به. كان مونتيغل في غرفة جانبية والقلق بادٍ على وجهه ويحمل بين يديه ورقة وكأنها شيءٌ على وشك الانفجار. استهل مونتيغل كلامه بعبارة جاهزة كما يبدو: «يبدو أن كاتب هذه الرسالة يعتقد أنني خائن. آمل يا وزير الخارجية أن أثبت لك بإحضاري الرسالة بعد مرور ساعة على تلقيها بأنني لست خائناً».

صُعق نيد من سخريّة المشهد أمامه. بدا اللورد مونتيغل، الشاب الطويل والضحخم العجته، خائفاً جداً من سيسيل قصير القامة.

«إن ولاءك ليس موضع شك»، تتمم سيسيل بهدوء.

فكر نيد بأن هذا ليس صحيحاً إلا أن سيسيل كان يتصرف بتهذيب.

قدّم مونتيغل الرسالة إلى سيسيل. وعندما بدأ الأخير قراءتها أخذت جبهته البيضاء والعالية تتغضن.

«يا إلهي، ياله من خطٍ أخرق»، قال سيسيل.

قرأ سيسيل الرسالة حتى نهايتها ومررها إلى نيد. كانت يدا سيسيل طويلتين ورفيعتين كأيدي النساء الطويلات.

سأل سيسيل مونتيغل: «كيف وصلتك الرسالة؟».

«أحضرها لي خادمي بعد العشاء. أوصلها رجل دخل من باب المطبخ، وأعطاه خادمي بنساً لقاء تعبه».

«بعد أن قرأت الرسالة هل أرسلت أحداً ليبحث عن الرسول؟».

«بالطبع، ولكنه اختفى. بصراحة أعتقد أن خادمي أنهى طعامه قبل أن

يسلمني الرسالة رغم أنه أقسم أنه لم يفعل هذا، وعندما بحثنا عن الرسول في الجوار ولم نجده امتطيت حصاني وأتيت إلى هنا مباشرة».

«لقد قمت بالعمل الصائب يا سيدي».

«شكراً لك».

«ما هو رأيك يا نيد؟».

«إن الأمر برمته يبدو مزيفاً».

تفاجأ مونتيغل بكلام نيد وقال: «حقاً؟».

«انظر. يقول كاتب الرسالة إنه مهتم بسلامتك بسبب محبته لبعض أصدقائك. يبدو هذا الكلام غريباً قليلاً».

«إن الرسالة دليل على الخيانة. إن علم أي شخص بوجود مؤامرة على الملك فمن واجبه إخبار المجلس الملكي، وإن لم يفعل هذا فسيلقى عقوبة الإعدام. هل سيخطر أي رجل بحياته من أجل صديق لصديقه؟».

بدا مونتيغل مضطرباً وقال: «لم أفكر بهذا. اعتقدت أن الرسالة تبدو مهمة».

ابتسم سيسيل ابتسامة العارف وقال: «إن السير نيد لا يأخذ بظاهر الأمور».

«في الحقيقة»، تابع نيد. «أشك في أن يكون كاتب هذه الرسالة مقرباً منك أو من أي شخص قد تطلعه عليها».

ومجدداً بدا مونتيغل حائراً: «لماذا تقول هذا؟».

«لا أحد يكتب بهذه الطريقة سوى طالب مدرسة لم يتعلم بعد كيفية استخدام القلم بشكل جيد رغم أن طريقة الصياغة بلاغية كطرق البالغين، وهذا يعني أن الكتابة مموهة عن قصد حتى لا يعرف من سيقراً الرسالة المرسل من خط يده».

«هذا رهيب»، قال مونتيغل. «أتساءل من يكون هذا الشخص؟».

«إن الجملة التي تتحدث عن شرور هذا الزمن مجرد حشو»، تابع نيد وهو يفكر بصوت عالٍ. «ولكن المهم في هذه الرسالة يأتي في الجملة التي تليها والتي تحضّ مونتيغل على عدم حضور جلسة افتتاح البرلمان حتى لا يُقتل. أعتقد أن هذا الجزء من الرسالة صحيح ومتوافق مع المعلومات التي حصلت عليها في باريس».

«ولكن كيف سيتم الاغتيال؟» سأل سيسيل.

«هذا سؤال جوهري. أعتقد أن كاتب الرسالة لا يعرف. انظر إلى غموض الرسالة: «أؤكد لك أن البرلمان سيتعرض إلى ضربة قوية، وسيحرصون على ألا يكشفهم أحد». هذا يعني أن الخطر سيكون من بعيد، قد يكون ضربة مدفع، إن الغموض يكتنف هذا الجانب».

أوما سيسيل برأسه: «أو قد يكون الأمر من بنات أفكار ومخيلة أحد المجانين».

«لا أعتقد هذا»، قال نيد.

هز سيسيل كتفيه: «ما من دليل ملموس، ولا يمكننا أن نتحقق من الأمر. إن رسالة من مجهول هي مجرد قطعة من الورق لا قيمة لها».

كان سيسيل على حق؛ فالدليل لم يكن قوياً، ولكن نيد شعر بأن الخطر حقيقي.

«رأينا غير مهم، يجب أن نُطلع الملك على الرسالة».

«بالطبع»، قال سيسيل. «إنه يصيد الآن في هيرتفوردشاير، ولكن حالما يعود إلى لندن سيكون هذا أول أمرٍ نطلعه عليه».

لطالما شعرت مارجوري أن هذا اليوم الرهيب قادم لا محالة. كانت قد نجحت لسنوات في نسيان الأمر وعاشت خلالها بسعادة، إلا أنها كانت تدرك، وفي الصميم، أن يوم تصفية الحسابات آتٍ. لقد خدعت نيد لعقود من الزمن، ولكن الكذبة تلف وتعود لتذكر صاحبها بها سواء كان هذا عاجلاً أم آجلاً، وها قد أتى وقت هذه الكذبة لتظهر مجدداً.

«أعلم أن جان لانغليه ينوي قتل الملك»، قال نيد لها في قلق ويأس. «ولكن لا يسعني القيام بشيء حيال الأمر لأنني لا أعرف من يكون لانغليه ولا أين يمكنني إيجاداه».

شعرت مارجوري وكأنها مصلوبة من الشعور بالذنب. كانت تعلم أن ذلك الرجل المراوغ الذي يلاحقه نيد طوال حياته هو رولو، ولكنها قررت أن تحتفظ بهذه المعلومة لنفسها.

لكن يبدو الآن أن رولو سيقتل الملك والملكة وابنيهما بالإضافة إلى أبرز

الوزراء بمن فيهم نيد. لم يكن بوسعها السماح بحدوث هذا إلا أنها لم تكن تعرف ما الذي يتوجب عليها القيام به لمنع هذا، فحتى لو كشفت السر فهذا لا يعني بالضرورة أن هذا سيُنقذ حياة كل هؤلاء. كانت تعلم هوية لانغليه ولكنها تجهل مكانه، ولا تعلم ما الذي خطط له من أجل عملية الاغتيال.

في منزلهما في منطقة كاتدرائية سانت بول كان نيد ومارجوري قد تناولا طعام الإفطار المؤلف من البيض والجةة المخففة. ثم ارتدى نيد قبعته استعداداً للمغادرة إلى منزل روبرت سيسيل. وعادة ما كان يتلأ قليلاً في مثل هذه اللحظات ليقف بالقرب من المدفأة ويشارك مارجوري همومه. «لطالما كان لانغليه حذراً جداً».

كانت مارجوري تعرف أن هذا الكلام صحيح. كان الكهنة الذين ساعدت رولو على تهريبهم إلى إنكلترا يعرفونه باسم لانغليه، ولم يعلموا أنها كانت أخته. والأمر عينه ينطبق على الناس الذين تأمر معهم على تحرير ماري ستوارت وتنصيبها ملكة. جميعهم كانوا يعرفونه باسم لانغليه وليس رولو فيتزجيرالد. لقد كان حذراً جداً على عكس كل المتأمرين معه، ومن أودت روح التحدي لديهم بحياتهم. كان رولو يعرف نوعية الناس الذين يواجههم وخاصة نيد، ولهذا لم يُقحم نفسه في أي مخاطر غير ضرورية.

«ألا يمكنك أن تلغي جلسة افتتاح البرلمان؟» قالت مارجوري لنيد. «لا، يمكننا أن نؤجلها أو نقلها إلى موقع مختلف، رغم أن الأمر سيبدو سيئاً بما يكفي، وسيقول أعداء جيمس إنه مكروه جداً من قبل شعبه، ويخشى الذهاب إلى جلسة افتتاح جلسة البرلمان خوفاً من التعرض للاغتيال. هذا يعني أن القرار بيد جيمس. ولكن يجب أن تتم المراسم في وقت ما وفي مكان ما، فالبلاد بحاجة إلى إدارة».

لم تعد مارجوري قادرة على الاحتمال وقالت: «نيد، لقد اقترفت عملاً رهيباً».

لم يعرف نيد في البداية كيف يتعامل مع ما قالت: «ما هذا العمل؟». «لقد كذبت عليك وأخفيت سراً عنك. اعتقدت أنه يجب عليّ إخفاؤه وما زلت أعتقد هذا. سيغضبك الأمر كثيراً». «لماذا بحق السماء تتحدثين بهذه الطريقة؟».

«أعلم من يكون جان لانغليه».

بدانيد مضطرباً على غير عادته: «ماذا؟ كيف تمكنت...؟ من يكون؟»
«إنه رولو».

وقع الأمر على نيد كخبر وفاة أحدهم. شحب لونه وفغر فاه من الدهشة ثم ترنح وانهار جالساً ليقول أخيراً: «وكنت تعلمين».
لم تكن مارجوري قادرة على التفوه بكلمة، وشعرت كأن أحداً يخنقها. أدركت أن الدموع تنحدر على وجنتيها، وأومات برأسها.
«منذ متى؟».

أخذت تشهق وتجهش بالبكاء إلا أنها تمكنت أخيراً من قول: «منذ البداية».

«وكيف استطعت إخفاء الأمر عني».

بحثت عن الكلمات المناسبة وعندما وجدتها أجابته: «في البداية اعتقدت أنه لا يقوم بشيء سوى تهريب الكهنة إلى إنكلترا من أجل إحياء المراسم الكاثوليكية، ولكن عندما اكتشفت أنه كان يتآمر لقتل الملكة إليزابيث وتحرير ماري ستيوارت كان قد غادر البلد. عاد بعد هجوم الأسطول الإسباني، ولكنه قال إنه لم يعد منخرطاً في أي مؤامرات، وإنني إن خنته سيفضح تورط بارتليت وروجر في تهريب الكهنة».

«أنت من كتب الرسالة إلى مونتيغل؟».

أومات برأسها وقالت: «أردت أن أحذرك من دون أن أورط رولو».
«كيف عرفت بالأمر؟».

«أخبرني بارتليت أنه لن يحضر مراسم افتتاح جلسة البرلمان، ولأنه لم يفوت هذا الحدث قبلاً فهمت أن رولو قد حذره».

«وكل هذا يحدث من وراء ظهري أنا، رئيس الجواسيس. أنا، تخدعني زوجتي».

«نيد!».

نظر إليها نيد وكأنه أمام مجرم خطير ثم قال: «كان رولو في كينغزبريدج عندما توفيت سيلفي».

خرجت كلماته كالرصاص، واكتشفت مارجوري أنها لم تعد قادرة على

الوقوف فانهارت راکعة على رکبتها على السجادة وقالت: «أنت تريد قتلي، أعرف هذا. هيا، فلتقتلني. لا يمكنني الاستمرار بالعيش الآن».

«غضبت جداً من الناس الذين قالوا إنه لم يعد بالإمكان ائتماني على العمل لمصلحة الملكة إليزابيث لأنني تزوجت من كاثوليكية، واعتقدت أنهم أغبياء. ولكن يبدو الآن أن الغبي الوحيد هنا هو أنا».

«لا، لم تكن غيباً».

حرق نحوها بنظرة غاضبة جداً كسرت قلبها ثم قال: «بل كنت كذلك».

ثم غادر المنزل.

رأى نيد و سيسيل الملك جيمس في الأول من شهر تشرين الثاني / نوفمبر. استقبلهما في الغرفة الطويلة التي تمتد من الجناح الخاص بالملك حتى البستان خارجاً في قصر وايت هول والمزدانة جدرانها بمشاهد مرسومة على أقمشة مقصبة بالخيوط الذهبية والفضية، ومن النوع الذي يفضله جيمس.

علم نيد أن سيسيل يشك بمصداقية رسالة مونتيجل ويعتبرها مجرد مشكلة ثانوية. لم يتغير موقف سيسيل حتى عندما أخبره نيد أن الإيرل بارتليت الكاثوليكي يخطط لعدم حضور مراسم افتتاح جلسة البرلمان من دون سبب وجيه، وربما يكون السبب في أنه تلقى تحذيراً.

كانت خطة سيسيل تتمحور حول أخذ كل الاحتياطات الممكنة من دون تأجيل المراسم، ولكن كان لدى نيد خطة مختلفة.

أراد نيد أن يقوم بما هو أكثر من منع عملية الاغتيال المخطط لها. كان يتعقب الخونة غالباً من أجل إخافتهم ولكنهم يعودون للتخطيط لمؤامرة أخرى في يوم آخر. هذه المرة أراد نيد إلقاء القبض على المتآمرين، وعلى رولو بالتحديد.

قدّم سيسيل رسالة مونتيجل إلى جيمس وقال: «لا يمكن للمرء أن يخفي عن جلالتك مثل هذا الشيء، ولكن من جهة أخرى لا يمكن أخذ هذا التحذير بجدية لأنه يفتقر إلى الأدلة».

«ما من أدلة دامغة يا جلالة الملك، ولكن هناك دلالات تدعم هذا التحذير فقد وصلتني إشاعات من باريس»، أضاف نيد.

هزّ جيمس كتفيه وقال: «إشاعات».

«لا يمكنك أن تأخذ بها ولكن لا يمكن تجاهلها»، قال نيد.

«تماماً». أخذ جيمس يقرأ الرسالة على ضوء المصباح فضاء النهار

الشتائي القادم من النوافذ ضعيف.

أخذ جيمس وقته في قراءة الرسالة، وذهب نيد بأفكاره إلى مارجوري،

فهو لم يرها منذ أن باحت له بالسِر. كان ينام في الحانة، فلم يكن قادراً على

تحمل رؤيتها أو الحديث إليها. كان الأمر مؤلماً له. لم يكن قادراً على

تحديد المشاعر التي تختلجها، ولم يعرف إن كانت مشاعر غضب أم كره أم

حزن. ولم يكن بوسعه فعل شيء سوى إشغال نفسه في التفكير بشيء آخر.

ترك الملك ليده المزدانة بالخواتم تسقط جانباً ووقف ساكناً لدقيقة أو

أكثر ينظر ولكن ليس إلى شيء محدد. رأى نيد ذكاءً يشع من عيني جيمس

وحزماً يرتسم على شفثيه، إلا أن شيئاً من التساهل كان واضحاً على بشرته

الشاحبة وعينيه المتفتختين. وتكهن نيد أنه من الصعب أن يكون المرء

منضباً ومعتدلاً عندما يملك مثل هذه القوة المطلقة.

قرأ جيمس الرسالة مجدداً وقال لسييل: «ما رأيك؟».

«يمكننا إرسال تعزيزات من الجنود والمدافع إلى ويستمنستر على الفور،

ونقوم بإغلاق البوابات وتفتيش المكان بعناية، وبعدها يمكننا أن نراقب كل

شخص يدخل ويخرج إلى أن تنتهي مراسم افتتاح جلسة البرلمان بأمان».

كانت هذه خطة سييل المفضلة، ولكنه هو ونيد يعلمان أن عليهما

تقديم خيارات للملك وليس تعليمات.

لطالما كان جيمس واعياً بصورته العامة، ويتحدث دوماً عن الحق

الإلهي للملوك.

«يجب أن نكون حريصين على عدم إثارة رعب العامة حول أمر قد لا

يحدث»، قال جيمس. «فهذا يجعل الملوك يبدون ضعفاء وخائفين».

«إن سلامة جلالتك هي الأهم. ولكن لدى السير نيد اقتراحاً بديلاً».

نظر جيمس إلى نيد مستفسراً.

كان نيد جاهزاً.

«فلتأخذ جلالتك ما أقوله الآن بعين الاعتبار. إن كان هناك مؤامرة، فمن

المرجح أن التحضيرات لها لم تكتمل بعد، ولهذا إن تحركنا الآن قد نفضل في إيجاد ما نبحث عنه، أو قد يحدث ما هو أسوأ: قد نكتشف تحضيرات غير مكتملة، وسيكون دليلنا ناقصاً أمام الناس، وسيدعي مؤلفو الكتيبات الكاثوليكية أن التهم ملفقة وأنها حجة لاضطهادهم».

لم يفهم جيمس بعد ما كان نيد يرمي إليه وقال: «يجب أن نقوم بشيء حيال الأمر».

«بالطبع. لذلك ومن أجل الإمساك بالمتمارين والحصول على أكبر كم من الأدلة الدامغة يجب أن ننقض عليهم في اللحظة الأخيرة، وهذا كفيل بتأمين حماية لجلالتك الآن وفي المستقبل أيضاً». حبس نيد أنفاسه لأنه كان على مشارف لحظة حاسمة.

نظر جيمس إلى سيسيل وقال: «أعتقد أنه على حق».

«إن الأمر بيد جلالتك».

التفت الملك إلى نيد مجدداً وقال: «حسناً، ابدؤوا التحرك في الرابع من شهر تشرين الثاني / نوفمبر».

«شكراً لك يا جلالة الملك»، قال نيد بارتياح.

تراجع نيد وسيسيل إلى الورا وهما ينحنيان، ثم وعلى حين غرة، خطرت للملك فكرة وقال: «هل تعرف من يقف وراء هذا العمل الشرير؟».

عاد كل غضب نيد من مارجوري ليضربه كموجة مدية، وبذل جهداً كبيراً ليقمع ارتجاف جسده من الغضب وهو يقول: «أجل يا جلالة الملك»، وتابع في صوت لم ينجح في التحكم بارتعاشه: «إنه رجل يدعى رولو فيتزجيرالد من شايرنغ. وأشعر بالعار الشديد في إخبارك إنه أخوزوجتي».

«في هذه الحالة»، قال جيمس بلهجة متوعدة صريحة: «وبحق دم المسيح، من الأفضل لك أن تقبض على ذلك الحقيير».

الفصل الثلاثون

عندما سمع المتآمرون بأمر رسالة مونتيغل يوم الأحد الواقع في الثالث من شهر تشرين الثاني / نوفمبر أخذوا يتهمون بعضهم بعضاً بالخيانة، وأصبح الجو مسموماً في مسكن أمين الخزانة.

«أحد منا قام بهذا!!» قال غاية فوكس بحدة.

وخشي رولو أن يبدأ هؤلاء الشباب بالقتال فيما بينهم.

«لا يهم من قام بالأمر»، قال رولو على عجل. «لا بد أن هذا الرجل أحرق أكثر مما هو خائن».

«كيف يمكنك أن تكون واثقاً من هذا؟».

«لأن الخائن كان سيفضح أسماءنا جميعاً، ولكن هذا الغبي لم يقم بشيء سوى تحذير مونتيغل».

هدأ فوكس وقال: «أفترض أن كلامك منطقي».

«ولكن الأهم من هذا هو حجم الأذى الذي ألحقه بنا».

«تماماً»، قال توماس بيرسي ثم تابع: «هل علينا الآن الاستمرار بخططنا أو التخلي عنها».

«بعد كل ما قمنا به؟ لا».

«ولكن سيسيل وويلارد يعلمان..».

«سمعت أن الرسالة كانت مبهمة ومن دون تفاصيل، وأن سيسيل لا يعرف ما الذي عليه القيام به»، قال رولو. «مازلنا نملك فرصة قوية. لا يمكن أن نستسلم بسهولة فالنجاح قاب قوسين أو أدنى».

«كيف يمكننا التأكد من هذا؟».

«يمكننا أن نتحقق»، قال رولو لبيرسي. «غداً صباحاً أريدك أن تذهب في

جولة استطلاعية. قُمّ بزيارة قريبك إيرل نورثمبرلاند، ولتفكر بحجة للقاءه كأن تطلب منه قرصاً مثلاً».

«وما الغاية من هذا؟».

«إنها مجرد حجة حتى لا يفكر بأنك تحاول معرفة كم المعلومات التي يعرفها المجلس الملكي».

«وكيف لي أن أعلم هذا».

«بالنظر إلى طريقة سلوكه معك. إن كنت مشتبهاً بتهمة الخيانة، فإن الإيرل سيكون قد سمع بهذه الإشاعة بحلول هذا الوقت، وسيصرف في حضورك بتوتر ويتوق لإخراجك من منزله بأسرع ما يمكن، وقد يمنحك القرض ليتخلص منك سريعاً».

هز بيرسي كتفيه وقال: «حسناً».

انصرف الجميع وتركوا فوكس ليهتم بالمسكن. وفي صباح اليوم التالي انطلق بيرسي لمقابلة نورثمبرلاند، وعند عودته التقى مع رولو في حانة بالقرب من بوابة بيشوب. بدا بيرسي جزلاً.

«عثرت عليه في سيون بليس»، قال بيرسي. يعرف رولو منزل الإيرل الريفي غرب لندن وهو ليس ببعيد جداً. «لقد رفض منحي قرصاً ونعتني بالنذل، ثم دعاني إلى تناول العشاء».

«إذاً، لا تساوره أيّ شكوك».

«إما أنه لا يشك بشيء أو أنه ممثل أفضل من ريتشارد بريديج».

«أحسنتم عملاً».

«ولكن هذا ليس دليلاً قاطعاً».

«ولكنه دليل قوي. سأذهب وأطلع فوكس على هذه الأخبار الجيدة».

عاد رولو إلى لندن. كان قد غادره الشعور بالأمان وقد بات قريباً جداً من قبضة نيد ويلارد، ولكن ما زالت الفريسة تتقدم كلب الصيد، وعليها أن تبقى كذلك لبعض الوقت... لبضع ساعات فقط. بحلول هذا الوقت غداً سيكون كل شيء قد انتهى.

ولكن عندما أصبح مجلس اللوردات على مرمى بصر رولو أصيب بصدمة رهيبية.

خلف المبنى وحيث يقع المخزن اندفعت مجموعة من الرجال الأثقيين من «غرفة المجادلة» عبر الباب الخلفي وهبطوا درجاً خشبياً داخلياً، ولم يتذكر رولو أنه لمح هذا الباب من قبل.

عرف رولو الرجل الذي يقود المجموعة. كان الإيرل سوفولك الذي يشغل منصب كبير أمناء البلاط والمسؤول عن التحضيرات من أجل افتتاح جلسة البرلمان.

كان اللورد مونتيغل برفقته.

هذه إشارة سيئة، فأطلق رولو شتيمة.

تراجع رولو وتوارى خلف إحدى الزوايا بعيداً عن الأنظار، وقاوم الرغبة بالهرب فقد كان عليه معرفة ما يجري؛ فما يفعله هؤلاء الرجال يهدد خطته. أخذ يراقب في مكمته شبه الخفي وقد استعد للهرب والنجاة بحياته في أي لحظة.

هبط الرجال الدرج وتوجهوا إلى باب المخزن ذي المصراعين حيث أخفى رولو البارود. لاحظ رولو أن الرجال يتحركون بهدوء وحذر. أخذ سوفولك يجرب فتح الباب واكتشف أنه موصلد. وبعد التداول مع بقية الرجال أمر خادماً بكسر الباب.

وهنا أدرك رولو أنهم كانوا فرقة تفتيش. كان الأمر مثيراً للغضب بحق، فلا يمكن لخطته أن تُحبط بهذه السهولة.

استخدم خادم سوفولك عتلة لكسر الباب. لم يكن رولو قد عزز الباب فالمكان ليس سوى مخزن وليس خزانة أموال، ولو قام بوضع مزاليج معدنية أو أقفال لأثار بهذا الشبهات، ولهذا السبب خلع الباب من دون جهد كبير. دخلت المجموعة إلى الداخل.

هرع رولو إلى مسكن أمين الخزانة، وعبر الممر الذي صنعه فوكس ثم فتح الباب المفضي إلى المخزن ونظر عبره. كانت الغرفة الواسعة مظلمة ولم تضيئها مصابيح مجموعة البحث الخاصة بسوفولك إلا بشكلٍ ضعيف. إلا أنهم شاهدوا غاية فوكس.

أخذ رولو يصلي للرب لينقذهم أو سينتهي أمرهم.

كان فوكس واقفاً في إحدى جهات المخزن في عباءة وقبعة طويلة

ويحمل مصباحاً. وبدا كأن سوفولك قد رآه في تلك اللحظة ثم سمع رولو الإيرل يقول مُجفلاً: «من أنت يا رجل؟».

حبس رولو أنفاسه.

«أنا جون جونسون يا سيدي»، قال فوكس وقد بدا صوته هادئاً. كان فوكس جندياً ولذلك اختبر الخطر قبلاً.

تمنى رولو لو أنه لم يختر اسماً يبدو مستعاراً بشكل واضح. «وما الذي تفعله هنا بحق الشيطان يا جونسون؟».

«إن سيدي مستأجر هذا المخزن والمسكن القريب منه. يمكنك القول إنني مجرد أمين على المكان عندما لا يكون سيدي حاضراً».

فكر رولو بأن القصة مقنعة جداً، وتساءل إن كان ما قد يمنع سوفولك من تصديقها.

«ولأي أغراض يستخدم سيدك هذا المكان».

«لتخزين الحطب كما ترى».

نظر أفراد المجموعة إلى أحمال الحطب وكأنهم لم يلحظوها من قبل، ولأن المكان غارق في العتمة فقد كان هذا وارداً جداً.

«كل هذا الحطب من أجل منزل واحد؟» سأل سوفولك.

لم يُجب فوكس على سؤال سوفولك البلاغي، وأدرك رولو بكل أسى أنه نسي أن يتكفل بأمر هذا السبب غير المقنع.

«من يكون سيدك بأي حال؟» سأل سوفولك.

«توماس بيرسي».

سرت مهمة سريعة بين أفراد مجموعة البحث. كانوا يعلمون أن بيرسي من حراس الملك، ولكنهم يعلمون أيضاً أن لديه أقرباء كاثوليكين.

شعر رولو بهلع عظيم كاد معه أن يتقيأ فقد كانت هذه اللحظة خطيرة جداً. وتساءل إن كان أحدهم سيفكر بالبحث داخل كومة الحطب، وتذكر كيف قال بلا مبالاة: «حتى وإن أتوا وفتشوا هذا المكان فلن يعثروا على البارود». ولأن رولو كان على وشك اكتشاف صحة اعتقاده انتابه شعور بتوتر قاتل.

أخذ سوفولك مونتيجل جانباً، واقترب الرجلان من المكان الذي يقف

فيه رولو خلف باب موارد. سمع رولو مونتيغل يقول جزءاً: «هذا يعني أن إيرل نورثمبرلاند متورط».

«أخفض صوتك»، قال سوفولك بهدوء أكبر. «لا يمكننا أن نتهم أحد أهم نبلاء المملكة بسبب حملِ حطب كبير».

«يجب أن نتصرف».

«لا يجب أن نفعل شيئاً باستثناء إطلاع المجلس الملكي على ما رأيناه».

واستتج رولو أن سوفولك لم يفكر بالبحث في كومة الحطب بعد.

كان مونتيغل قد بدأ يهدأ: «أجل بالطبع، أنت على حق. فلتسامحني. أخاف أن ألام على كل هذا لأنني تلقيت رسالة من مجهول».

تجرأ رولو على الأمل بأن يساهم قلق مونتيغل في تشتيت انتباه سوفولك عن التفتيش بين الحطب.

رَبَّت سوفولك على كتف مونتيغل وقال: «أفهمك».

وعاد الرجلان للانضمام إلى المجموعة.

كان هناك بعض المحادثات المتقطعة، ومن ثم غادرت فرقة البحث المبنى. أغلق فوكس الباب المخلوع بكل قوته.

دخل رولو المخزن وقال لفوكس: «لقد سمعت كل شيء. كنت أقف خلف الباب».

نظر فوكس إليه وقال: «نَجِنَا يا يسوع»، ثم تابع: «كانوا على وشك الإمساك بنا».

كانت مارجوري تعيش في بؤس شديد، وتشعر بأنها فقدت الأرضية التي يقوم عليها عالمها بأكمله. بعد مغادرة نيد أخذت تشرب قليلاً، ولم تتناول طعاماً لأسبوع، وفقدت الرغبة في النهوض من السرير صباحاً. وإن أُجبرت نفسها على النهوض كانت تجلس بقرب المدفأة وتبكي إلى أن يهبط الظلام لتعود إلى سريرها مجدداً. كانت حياتها قد انتهت. كان بوسعها الذهاب إلى منزل ابنها روجر، ولكن عليها عندئذ أن تقدم شروحاً، ولم يكن بوسعها مواجهة كل الأسئلة التي ستنهال عليها.

وقبل يومين من افتتاح جلسة البرلمان تملكها الخوف، وتساءلت إن كان

نيد قد ألقى القبض على رولو، وإن كانت المراسم ما تزال قائمة وأن نيد سيحضرها، وإن كان جميع الحاضرين سيموتون.

ارتدت معطفها وسارت على ضفة النهر باتجاه قصر وايت هول. لم تدخل إلى القصر، إلا أنها وقفت خارجاً متوارية في الضوء الشتائي الخافت في فترة ما بعد الظهر وهي تراقب زوجها. رأت رجال البلاط يدخلون القصر في قبعاتهم الفرائية، وشعرت بالوهن من الجوع فاضطرت للاتكاء إلى جدار لتحافظ على ثباتها. وتصاعد في النهر ضباب بارد إلا أنها واهنة جداً على المبالاة بأي شيء.

تمنت من أعماق قلبها لو أنها لم تخفي سر رولو لوقتٍ طويل. كان الأجدر بها إخبار نيد بالحقيقة منذ سنوات، ولكن الأمر ما كان ليختلف كثيراً وسيظل كارثة أياً يكن الوقت الذي تخبره فيه بالسر. ولكن هذا الوقت الذي اختارته كان الأسوأ خاصة بعد أن أصبح نيد جزءاً لا يتجزأ من كينونتها، ولم تعد قادرة على الاستمرار بحياتها من دونه.

تمكنت على الأقل من رؤيته برفقة مجموعة صغيرة من رجالٍ في معاطف ثقيلة، وهم على الأرجح مستشارو المجلس الملكي. كان وجهه يبدو متجهماً، أو ربما توهمت هذا، إلا أنه بدا كأنه كبير كثيراً خلال أسبوع، وقد ارتسمت على وجهه تجاعيد القلق، ونما شعر رمادي على وجنتيه الداويتين.

وقفت أمامه فتوقف. راقبت وجهه في محاولة لقراءة مشاعره. كان في البداية مأخوذاً، ثم بدا غاضباً. شعرت أنه كان يحاول نسيان أمرها وما اقترفته، وأنه الآن لم يكن مسروراً برؤيتها لأنها ذكرته بها. بحثت عن أيّ بارقة رحمة أو شفقة، ولكنها لم تجدها.

طرحت السؤال الذي أتت من أجله على الفور: «هل عثرت على رولو؟». «لا»، قال نيد وتجاوزها ثم دخل إلى القصر. وغمرها الحزن. كانت تحبه جداً.

ابتعدت عن بوابات القصر، وأخذت تتجول وسط دوامة من الحزن على شاطئ نهر التيمز الطيني. كان مد النهر عالياً وهناك تيار سريع جعل سطح الماء مضطرباً.

فكرت بالسير نحو الماء. كان الظلام قد هبط الآن تقريباً، وربما لن يراها أحد. لم تتعلم السباحة قط، وحياتها ستنتهي بعد عدة دقائق. سيكون الماء بارداً، وستمر لحظة طويلة من الهلع إلا أن وجعها سينتهي.

كان الانتحار خطيئة مميتة، ولكن لا يمكن أن يكون الجحيم أسوأ من هذا، وفكرت بمسرحية رأتها عن فتاة تُغرق نفسها بعد أن رفضها أمير الدنمارك، وعن حفاري قبور كوميديين يناقشان إن كان عليهما القيام بدفنٍ مسيحي لها. إن أغرقت نفسها في النهر الآن لن تحظى بجنازة. سيسحب تيار النهر السريع جثتها، وربما ستصل إلى البحر حيث ستغرق بهدوء حتى القاع، وتستقر جثتها إلى جانب جث البحارة الذين قتلوا في المعركة مع الأسطول الإسباني.

ولكن من سيقوم بالقداس على روحها؟ البروتستانتيون لا يؤمنون بالصلوات على الموتى، والكاثوليكيون لا يصلون على المنتحرين. ستكون ملعونة وميتة في آنٍ معاً.

وقفت هناك لوقتٍ طويل، يتقاذفها بشكلٍ مؤلم ومتضارب توقها إلى سلام الموت ورعبها من إثارة غضب الرب حتى يوم الدينونة. وتراءت لها عمّة والدها الأخت جوان، قادمة نحوها وهي تسير عبر أوحال النهر. ولكن الأخت جوان لم تبدُ كما تتذكرها مارجوري، بل كانت تمشي بقامة منتصبّة ومن دون عكازات. على الرغم من الظلام الذي حل الآن، إلا أن مارجوري استطاعت رؤية جوان وهي تبدو أكثر شباباً وبابتسامة على وجهها. لم تتحدث جوان بل أمسكت ذراع مارجوري بهدوء وسحبته بعيداً عن المياه. سارتا نحو قصر وايت هول، ورأت مارجوري شايبين يمشيان جنباً إلى جنب ويضحكان بصوتٍ خشن على شيء ما. التفتت مارجوري لتسأل جوان إن كانا يستطيعان رؤيتها أيضاً إلا أن جوان كانت قد اختفت، وعادت مارجوري لتكون وحيدة مجدداً.

خلال فترة بعد الظهر من يوم الإثنين في الرابع من تشرين الثاني / نوفمبر جلس رولو مع غاية فوكس على أرضية المخزن ليقدم له التعليمات الأخيرة قبل تنفيذ العملية.

أخرج رولو عود ثقاب كبيراً مصنوعاً من خشب جاف سريع الاشتعال، بالإضافة إلى علبة من حجارة القدح. أخرج سكينه وقام بتقسيم القطعة الخشبية إلى أجزاء بسماكة إبهامه ثم قال: «فوكس، استخدم حجر القدح ثم اتل صلاة ولكن ليس بسرعة أو ببطء، بل كما تتلوها في الكنيسة». أشعل فوكس عود الثقاب وبدأ الصلاة قائلاً: «أبانا». وأكمل صلاته باللاتينية.

عندما انتهى من الصلاة كان عود الثقاب قد احترق حتى العلامة الأولى التي وضعها رولو عليه. ونفخ رولو على عود الثقاب. «والآن»، قال رولو. «كم مرة عليك أن تعيد الصلاة قبل أن تخرج من هنا بأمان؟».

عبس فوكس وأجاب: «لأغادر المكان وأغلق الأبواب وأتوجه إلى النهر يجب أن أعيد الصلاة مرتين، ولكي أصل إلى النهر وأفك حبل القارب وأمسك المجاديف يلزمني أن أصلي مرتين إضافيتين، وست مراتٍ أخرى حتى أجدف بعيداً وأكون بأمان من الانفجار. فلنقل عشر مرات». «إذاً يجب أن نقطع عود الثقاب إلى عشر قطع بسماكة إبهام اليد». أو ما فوكس برأسه.

«حان الوقت لنفتح براميل البارود».

سحب فوكس الطاولة ووقف عليها، ثم أخذ يزيل أحمال الحطب من الأعلى ويناولها لرولو بدلاً من رميها على الأرض، لأنها يجب أن تبقى سليمة قبل وضعها في مكانها وإعادة بناء الحاجز حولها في حال عادت فرقة البحث. انتاب رولو شعور غريب في أعماق بطنه. فها هي الأمور الآن تسير كما خطط لها، وسيتمكنون أخيراً من قتل الملك.

كان رولو يحمل عتلة وأداة بستنة تشبه المجرفة الصغيرة. أزال رولو غطاء أحد براميل البارود ثم أماله وسكب البودرة الرمادية الداكنة على الأرض، وباستخدام المجرفة صنع ذبلاً من البارود يبدأ من البرميل وحتى بداية أحمال الحطب. سيكون هناك بمنزلة الفتيل، وحرص على استخدام مجرفة خشبية بدلاً من مجرفة معدنية قد تطلق شرراً عندما تضرب الأرضية الحجرية وتفجر المكان بأكمله بلمح البصر.

بات كل هذا الآن واقعياً جداً وبدرجة مرعبة، وشعر رولو بأنه منتشر لإدراكه أن الأمور بدأت تتحقق؛ فهذا هو البارود وعود الثقاب، والقاعة فوق المخزن، وغداً هو اليوم الموعود. سيَهز الانفجار المملكة بأكملها، ويقضي على البروتستانتية الإنكليزية. بات النصر الذي كان يصبو إليه رولو منذ أكثر من خمسين عاماً وشيكاً، فخلال ساعات قليلة سيكون قد نفذ المهمة التي كرس حياته من أجلها.

«علينا توخي الحذر أثناء إعادة البارود»، قال رولو. «ويجب أن تكون نهاية خط البارود تحت أحمال الحطب تماماً».

قاما معاً بإعادة ترتيب الحمل وتعديله إلى أن أبدى رولو رضاه عن النتيجة النهائية.

قال رولو لفوكس: «اليوم ستتوجه جميعنا إلى المقاطعات للتحضير من أجل الثورة».

أوماً فوكس برأسه.

«غداً صباحاً وحالما تتأكد من أن الملك وصل إلى القاعة قُم بإشعال عود الثقاب، وضعه على الأرضية، ولتحرص أن تكون نهايته عند بداية خط البارود ومن ثم غادر».

«أجل»، قال فوكس.

«ستسمع صوت الانفجار عندما تصل إلى النهر».

«أجل»، قال فوكس مجدداً. «سيصل صوت الانفجار إلى باريس».

في القاعة الطويلة في قصر وايت هول التي تبعد مسافة عدة دقائق عن فناء ويستمنستر، عمّ الهدوء المكان إلا أن غريزة نيد كانت أشبه بجرس إنذار يدق بقوة وعناد.

لم يرَ زوبرت سيسيل في توماس بيرسي شخصاً أهلاً للثقة إلا أنه لم يعتبر وجود أحمال الحطب أمراً مثيراً للريبة. كان اللورد سوفولك قلقاً من الهياج السياسي الذي قد يسببه أي اتهام باطل للإيرل نورثمبرلاند. رغم هذا كان نيد واثقاً من أن هناك من يرغب بقتل الملك، إلا أنه لم يتمكن بعد من العثور على هذا الشخص.

لحسن الحظ، كان الملك جيمس يشارك نيد شعوره بقرب وقوع خطر عظيم. كان لدى الملك قميص داخلي معدني يرتديه في المناسبات التي يشعر فيه أنه معرض للخطر، ولذلك قرر أن يرتدي هذا القميص لمراسم افتتاح جلسة البرلمان غداً. لكن هذا لم يكن كافياً برأي نيد، ولذلك تمكن في تلك الليلة من الحصول على إذن من الملك بتفتيش مجلس اللوردات مرة ثانية.

أما المستشارون الملكييون الذين كانوا ما يزالون قلقين من إثارة حالة هلع غير ضرورية فقد أصروا على أن يقود فرقة البحث الثانية قاضي الصلح في ويستمنستر توماس نيفيت وأن تكون حجته البحث عن بعض الثياب الملكية الرسمية المفقودة. لم يكن نيد مهتماً بالحجة طالما أنه كان جزءاً من فرقة البحث.

حمل آخرون المصاييح ولكن نيد حمل مشعلاً، وأثار هذا حفيظة من أرادوا الحفاظ على سرية البحث.

«إنه تفتيش»، قال نيد بعناد. «إن لم تكونوا قادرين على الرؤية جيداً، فلن تجدوا شيئاً».

وفيما كانوا يقطعون المسافة القصيرة بين قصر وايت هول وفناء ويستمنستر، وأضواء مصاييحهم تلقي بظلال متراقصة، فكر نيد بمارجوري. لم تفارق باله قط، حتى عندما كان يحاول إنقاذ حياة الملك. كان غاضباً منها بشدة، إلا أنه كان مشتاقاً إليها بشكل مؤلم. كره الذهاب إلى الحانات الصاخبة كل ليلة والنوم وحده على سرير غريب. أراد أن يخبرها بأمور وأن يسألها عن رأيها. كان قلبه يؤلمه عليها. إلا أنه كان سعيداً لأنه يعيش حالة طوارئ خطيرة وعقله مشغول بشيء آخر غير بؤسه.

دخلت فرقة البحث إلى مجلس اللوردات من الباب الرئيسي، وأخذت تبحث في القاعة الكبرى والمسكنين المتاخمين لها وفي «غرفة الأمير» و«الغرفة المطلية».

لسوء الحظ، لم يكن نيد يعرف عما كان يبحث. هل كان يبحث عن قاتل متخفي؟ أم مدفع خفي؟ ولكنه لم يعثر على أيّ من هذا. وتساءل نيد كيف سيكون شعوره فيما لو كان هذا مجرد إنذار كاذب. سيشعر بالغباء، لكن الملك سيعيش وهذا كل ما يهم في الأمر.

في الطابق الأرضي كان هناك العديد من المساكن. بحثوا في مسكن البواب وفي مسكن أمين خزانة الملك الذي استأجره توماس بيرسي، ومن ثم دخلوا إلى المخزن عبر الباب الذي أمر سوفولك بخلعه سابقاً. فوجئ نيد باتساع المكان، ولكنه كان مطابقاً لوصف سوفولك، حتى الحارس في العبادة والقبعة الذي يحرس المكان كان مطابقاً لأوصاف سوفولك.

«لا بد أنك جونسون»، قال نيد للرجل.

«في خدمتك يا سيدي».

امتقع وجه نيد فقد كان هناك شيء مألوف في مظهر جونسون: «هل تقابلنا من قبل؟».

«لا يا سيدي».

لم يكن نيد واثقاً من أنه التقى بالرجل من قبل، وكان من الصعب عليه تمييز وجهه في ضوء المشعل.

والتفت نيد إلى أحمال الحطب.

كان هناك الكثير من الحطب، وتساءل نيد إن كان توماس بيرسي ينوي إشعال حريق كبير. كان الحريق كفيلاً بإشعال السقف الخشبي للمخزن الذي يشكل أرضية قاعة مجلس اللوردات. إلا أن هذه الطريقة في الاغتيال غير مضمونة. فعلى الأرجح سيشم أحد رائحة الدخان، وسيتم إخراج العائلة الملكية من المبنى بسرعة وبأمان قبل أن يحترق المكان بأكمله. ولكي يكون الحريق خطيراً يجب أن يشتعل المكان بأكمله بسرعة باستخدام القطران أو الزيت كما يحدث في السفن التي يتم اشعالها ودفعها باتجاه سفن الأعداء. سيكون هذا كفيلاً بتحويل المكان إلى جحيم قبل أن يتمكن أي أحد من الخروج. تساءل نيد إن كان في المكان أي قطران أو زيت، ولكنه لم ير شيئاً.

وفيما كان نيد يقترب من أحمال الحطب، سمع جونسون يكبح كلمة احتجاجية. التفت نيد ونظر إلى الرجل وقال: «هل هناك حطب ما؟».

«عذراً يا سيدي، ولكن شعلتك تطلق شراراً. فلتحاذر من فضلك حتى لا يشتعل الخشب».

بدا جونسون مهتماً أكثر من اللزوم، «إن اشتعل الحطب يمكنك أن

تدوس عليه وتطفئه»، قال نيد غير عابئ برد فعل الرجل وتابع الاقتراب من الأحمال.

كانت الأحمال مرتبة بعناية كبيرة، وشعر نيد أن شيئاً في ذاكرته يصارع ليخرج. ذكره هذا المشهد بمشهد آخر حدث منذ وقتٍ طويل، ولكنه فشل في استعادته. شعر بأنه في وقتٍ ما من حياته وقف بهذه الطريقة في مخزن مظلم وهو ينظر إلى كومة ما، ولكنه لم يتذكر أين ومتى حدث هذا. التفت ورأى أن الجميع يراقبونه في صمتٍ. كانوا يعتقدون أنه مجنون، إلا أنه لم يكن يبالي برأيهم.

نظر مجدداً إلى جونسون ولاحظ أنه يرتدي حذاءً بمهماز. «هل أنت ذاهب إلى مكان ما يا جونسون؟» سأله نيد. «لا، يا سيدي».

«إذاً، لماذا ترتدي مهمازين في حذائك؟»
«كنت على صهوة جواد قبل قليل».

«فهمت، ولكن بالنسبة إلى رجل يمتطي حصاناً في شهر تشرين الثاني / نوفمبر فإن حذاءك يبدو نظيفاً جداً». ومن دون أن ينتظر منه جواباً عاد نيد بنظره إلى أحمال الحطب.

كان هناك طاولة بثقبٍ في أعلاها قرب الأحمال، وتكهن نيد أن أحداً ما وقف على الطاولة ليرتب بعناية الأحمال من فوق. وتذكر فجأةً.

كانت ليلة مجزرة عيد القديس بارثولوميو المريعة في باريس، وقد لجأ هو وسيلفي إلى مخزن شارع دو مير، حيث خزنت فيه سيلفي الكتب الممنوعة، فيما الشغب الدائر في المدينة يصلهم على شكل أصواتٍ مكبوتة، وصراخ خشن لرجال يقاتلون، وعويل جرحي وأصوات رصاص، ورنين مجنون لمئات أجراس الكنائس. في المخزن وعلى ضوء المصباح، رأى نيد أكوام البراميل التي ملأت المخزن من كلا الجانبين ومن الأرضية حتى السقف.

ولكن كان بالإمكان تحريك أحد البراميل وإخراج صناديق الكتب الممنوعة من ورائها.

«يا إلهي!» قال نيد بهدوء.

سلم نيد مشعله إلى رجل آخر في فرقة التفتيش، وصعد على الطاولة بحذر كيلا يضع قدمه في الفجوة.

وعندما وقف بثبات على الطاولة مد يده وأزال حمل حطب من الأعلى ثم رماه أرضاً، ومن ثم تناول حملاً آخر.

سمع أحداً يجر جر قدميه على الأرضية، والتفت نيد إلى الوراء. كان جون جونسون يحاول الهرب عبر المخزن باتجاه أقصى زاوية من المكان.

أطلق نيد صرخة تحذيرية، ولكن أحد مرافقيه كان قد تصرف على الفور. كان هذا الرجل يدعى إدموند دبلدي وقد رآه نيد يركض خلف جونسون.

وصل جونسون إلى باب في زاوية قصية من المخزن. لم يكن هذا الباب مرئياً في الضوء الضعيف للمصابيح. ثم فتح جونسون.

وفي تلك اللحظة اندفع دبلدي بسرعة، وألقى بنفسه على جونسون ووقعا معاً على الأرضية بقوة.

حاول جونسون أن يقاوم إلا أن دبلدي أمسكه من قدمه، ثم ركل جونسون دبلدي في وجهه، إلا أن بقية الرجال كانوا قد حاصروه. وفيما كان جونسون يحاول تحرير قدمه دفعوه أرضاً مجدداً، وجلس عليه أحدهم وأمسك آخر بذراعيه، بينما جلس آخر على رجليه.

وتوقف جونسون عن المقاومة.

عبر نيد المخزن ونظر إلى جونسون. كان وجهه واضحاً الآن تحت ضوء مصابيح عديدة.

«أتذكرك الآن»، قال نيد. «أنت غاية فوكس».

«فلتذهب إلى الجحيم».

«اربطوا يديه خلف ظهره، وقيدوا كاحليه بقوة ولكن بما يسمح له بالمشي وليس الركض».

«لا يوجد حبل»، قال أحدهم.

«انزعوا سرواله ولتمزقوه إلى شرائط. لن يحاول رجل من دون سروال الهرب إلى أي مكان».

لا بد أن شيئاً ما قد دفع جونسون للهرب فجأة.

«مما أنت خائف؟» قال نيد بهدوء.

ولكن جونسون لم يجب.

وفكر نيد أن ما دفع جونسون إلى الهرب هو إنزال الحمل الثاني من الحطب. وتساءل عن أهمية هذا الأمر.

«فتشوا جيوبه»، قال نيد.

ركع دبليدي قرب جونسون وفتشه. كان هناك بقعة حمراء كبيرة على وجه دبليدي بسبب الركلة التي تلقاها، وقد بدأت تتورم إلا أنه بدا كأنه لم يلاحظها بعد.

عثر دبليدي في عباءة جونسون على علبة قذح وعود ثقاب.

وفكر نيد أن جونسون كان يريد إشعال شيء. كان عود الثقاب مثلوماً وكأن الغرض منه توقيت الإشعال، أو ربما حتى يتمكن من الهرب قبل... قبل ماذا؟

نظر نيد إلى أحمال الحطب، ومن ثم إلى الرجل الذي يحمل مشعله، ومر بذهنه خاطر مرعب.

«خذ مشعلي خارجاً على الفور من فضلك، ولتقم بإطفاء النار»، قال نيد وهو يحاول أن يحافظ على الهدوء في صوته. «الآن».

خرج الرجل الذي يحمل مشعل نيد بسرعة، وسمع نيد صوت هسيس إطفاء النار في الماء، ربما في ترعة مخصصة للجياذ. وتنفس نيد الصعداء قليلاً.

كان المخزن ما يزال مضيئاً بأضواء مصابيح فرقة التفتيش ولكن بشكل ضعيف.

«والآن»، قال نيد. «دعونا نر إن كانت هذه الأحمال من الحطب تخفي ما أخشاه».

بدأ الرجال الأصغر عمراً بإزالة الأحمال. ووقع نظر نيد فوراً على بودرة رمادية داكنة على الأرضية. كانت بلون يشبه لون الأرضية، وبدت أشبه بالبارود.

ارتعدت فرائصه عندما فكر بقربه منه وهو يحمل المشعل ذا الشرارات المتطايرة. لا عجب أن جونسون بدا متوتراً.

وكما في مخزن سيلفي كانت هناك مساحة مفتوحة خلف أحمال الحطب ولكن لم يكن هناك أناجيل مخفية بل براميل... الكثير من البراميل، وقد مال أحدها وانسكب منه البارود على الأرضية. رفع نيد المصباح ليرى بشكل أوضح وبدا مصعوقاً. كان هناك ما لا يقل عن ثلاثين برميلاً بأحجام مختلفة. هناك ما يكفي من البارود لإزالة مجلس اللوردات من أساسه وقتل كل من بداخله.

بمن فيهم نيد ويلارد.

فوجئ نيد من حجم غضبه لدى تفكيره بأن رولو خطط لقتله وقتل العائلة الملكية وبقيّة أفراد المجلس الملكي وأعضاء البرلمان.

ولكنه لم يكن الوحيد الذي شعر بهذا.

«كانوا سيقتلوننا جميعاً!» قال دبلدي، وعلت أصوات أخرى تؤيد قوله.

قام أحد الرجال الواقفين بالقرب من فوكس بركله على منفرجه بقوة، وتلوى فوكس من الألم.

تفهم نيد دافع الرجل إلى ركل فوكس إلا أنه سارع إلى وضع حد للعنف بقوله: «نحتاجه واعياً وقادراً على التكلم. فهو سيعطينا أسماء جميع المشاركين».

«يا لها من خسارة»، قال أحد الرجال. «كم أرغب بضربه حتى الموت».

«لا تقلق»، قال نيد. «خلال ساعات قليلة سيكون ممدداً على المخلعة،

وسيعاني من ألم لا يُطاق قبل أن يخون أصدقاءه، وعندما يفعل هذا سيُعدم

وستُقطع أوصاله». ثم حدق إلى الرجل الممدد على الأرض وأضاف:

«أعتقد أن هذا سيكون عقاباً كافياً».

انطلق رولو طوال الليل وغير ما أمكنه من أحصنة حتى يصل بسرعة.

وصل إلى نيوكاسل في صباح يوم الثلاثاء في الخامس من شهر تشرين

الثاني / نوفمبر، وهناك انتظر بقلق مع الإيرل بارتليت وصول الرسول من

لندن الذي سيحمل لهم الأخبار المفرحة بموت الملك.

كانوا قد خزنوا في الكنيسة الصغيرة التي كانت جزءاً من القلعة مجموعة

من السيوف والمسدسات والدروع، وحالما يصلهم خبر موت الملك،

سيستدعي بارتليت الكاثوليكيين المخلصين ويسلحهم، ثم سينطلقون إلى كينغزبريدج حيث سيحيي رولو القداس باللاتينية في الكاتدرائية.

ولكن إن وقع خطب ما ولم تصل الأخبار المتوقعة من لندن، سينفذ رولو الخطة البديلة. كان هناك حصان سريع جاهز وجعبتان مجهزتان بالأساسيات. سيتوجه رولو إلى كومب هاربر، ويصعد على أول سفينة متجهة إلى فرنسا، وبمساعدة الحظ سيهرب قبل أن يتمكن نيد ويلارد من إغلاق المرافئ الإنكليزية في إطار حملة اعتقال المتآمريين الذين وضعوا البارود.

كان من المستحيل أن يصلهم أي خبر يوم الخميس إلا أن رولو وبارت سهرتا حتى وقت متأخر. قضى رولو ليلة مؤرقة، ونهض مع انبلاج فجر يوم الأربعاء متسائلاً إن كان العالم قد تغير، وإن كانت إنكلترا في خضم ثورة. سيصلهم الخبر اليقين قبل هبوط الظلام هذا اليوم.

ولكنهم عرفوا الخبر اليقين قبل ذلك بكثير.

كان رولو يتناول الفطور مع بارتليت والعائلة عندما سمعوا وقع حوافر خارجاً. نهضوا جميعاً عن الطاولة، وهرعوا عبر المنزل إلى الباب الرئيسي في تويك يانس لمعرفة ما الذي جرى.

كانت هناك مجموعة من الرجال مع أحصنتهم وقد طوقوا الفناء الخارجي. ولبرهة لم يكن واضحاً من يقودهم. تفحص رولو الوجوه بحثاً عن وجه مألوف. كانوا رجالاً مدججين بالأسلحة: سيوف وخناجر، وبعض منهم يحملون بنادق.

ثم وقع نظر رولو على نيد ويلارد.

تجمد رولو في مكانه، وأخذ يتساءل عما يعنيه هذا. هل وقع خطب ما لخطته؟ هل بدأت الثورة؟ هل كان نيد جزءاً من الحامية العسكرية اليائسة لبقايا الحكومة البروتستانتية المُشرذمة؟

إلا أن نيد قدم له الجواب على الفور: «عثرت على البارود».

وقعت هذه الكلمات على رولو كطلقات رصاص. شعر كأنه أصيب في قلبه. لقد فشلت المؤامرة، وبدأ الغضب يغلي في داخله وهو يفكر كيف أن نيد وعلى مدار سنوات، أحبط خطته الواحدة تلو الأخرى. ولم يرغب بشيء سوى وضع يديه على عنق نيد وإخراج الحياة من جسده.

حاول رولو أن يجمع مشاعره ويفكر بشكل سليم. إذًا، اكتشف نيد أمر البارود، ولكن كيف له أن يعرف أن رولو المسؤول عن هذا.

«هل خاننتي أختي؟» قال رولو.

«لقد حافظت على شرك لثلاثين عاماً ولأطول مما يجب».

لقد خانته امرأة. لم يكن عليه الوثوق بها.

فكر رولو بالحصان الجاهز للانطلاق، وتساءل إن كان لديه فرصة الهرب

من هذا الحشد من الرجال الأقوياء والوصول إلى الإسطنبول.

بدا أن نيد قد قرأ ما يجول في رأسه فأشار إلى رولو قائلاً: «راقبوه بحذر.

لقد نجح لسنوات بالفرار من قبضتي».

رفع أحد الرجال بندقية بماسورة طويلة وصوبها إلى أنف رولو. كانت

بندقية قديمة من ذلك النوع الذي يحوي على فتيل، وكان رولو قادراً على

رؤية الفتيل الجاهز للاشتعال في مخزن البارود.

في تلك اللحظة عرف رولو أن أمره قد انتهى.

بدأ الإيرل بارتليت يحتج باهتياج، وشعر رولو بنفاد الصبر وأراد أن

ينتهي كل هذا على الفور. كان في السبعين من العمر، ولم يكن لديه ما يعيش

من أجله. لقد أفنى حياته بأكملها ليدمر الملكية المهرطقة في إنكلترا، ولكنه

فشل، ولن يحصل على فرصة أخرى.

كان الشريف ماثيوسن، حفيد الشريف ماثيوسن الذي يتذكره رولو من

أيام صباه، يتحدث إلى بارتليت بصوتٍ حازم ولكن هادئ: «دعنا لا نُثر أي

متاعب من فضلك يا سيدي. فهذا لن يصب في مصلحة أحد».

بدأت لهجة الشريف الحازمة وصياح بارتليت كضجة في الخلفية،

وشعر رولو كأنه في حلم، أو ربما في مسرحية. وضع يده داخل سترته

وأخرج خنجره.

قال له المأمور الذي يحمل البندقية بصوتٍ مرتعب: «ألقِ بالسكين!»

واهتزت البندقية في يديه، ولكنه تمكن من إبقائها مصوبة إلى وجه رولو.

ساد صمتٌ ونظر الجميع إلى رولو.

«سأقتلك»، قال رولو للمأمور.

لم يكن لدى رولو أدنى نية بفعل هذا. رفع سكينه عالياً ولكن بحذر كيلا يحرك رأسه ويبعده عن بندقية المأمور.
«جهز نفسك للموت»، قال رولو.
ومن خلف المأمور تحرك نيد.

سحب المأمور الزناد، واشتعل الفتيل ولامس البارود في المخزن. رأى رولو نوراً خاطفاً، وعلم على الفور أنه سيموت موتاً سهلاً. وخلال لحظات كان نيد قد أطاح بماسورة البندقية بعيداً. شعر رولو بألم حاد في جانب وجهه، وشعر بالدم يسيل على أذنه، وعرف أن الرصاصة خدشته فقط.
أمسك نيد بذراعه وأخذ السكين منه ثم قال: «لقد اكتفيت منك».

تم استدعاء مارجوري لمقابلة الملك.
ستكون هذه المرة الأولى التي تقابله فيها شخصياً. فخلال فترة حكمه التي دامت لعامين حتى الآن، كانت قد حضرت احتفالات ملكية عديدة مع نيد: ولائم ومهرجانات ومسرحيات. كان نيد يعتبر جيمس شخصاً شهوانياً ولا يهتمه شيء سوى المتعة الحسية، إلا أن مارجوري رأت فيه شيئاً من القسوة.

لا بد أن أذاها رولو قد اعترف بكل شيء تحت التعذيب، وبالتالي اعترف بمشاركتها في تهريب الكهنة إلى إنكلترا. ولهذا افترضت أنهم سيوجهون إليها تهماً، ويُقبض عليها وستعدم مع رولو.

أخذت مارجوري تفكر بالشهيدة الكاثوليكية الشجاعة ماري ستيوارت. أرادت مارجوري أن تموت بوقار كما ماتت الملكة ماري، ولكن ماري ملكة ولهذا قُطع رأسها بكل رحمة أما الخائئات لبلادهن فمصيرهن الحرق. وتساءلت مارجوري إن كانت ستحافظ على وقارها، وتصلي لمعذبيها وهي تموت، أو أنها ستصرخ وتبكي وتشتم البابا وتطلب الرحمة. لم تعلم حقاً كيف ستتصرف عندئذٍ.

ولكن الأسوأ من هذا كان احتمال أن يلقي كل من بارتليت وروجر المصير نفسه.

ارتدت أفضل ثيابها، وتوجهت إلى قصر وايت هول.

فوجئت عندما رأيت نيد في ردهة الانتظار.

«سندخل معاً»، قال لها.

«لماذا؟».

«ستعرفين لماذا؟».

بدا متوتراً... متوتراً بشدة، ولم يكن بوسعها التأكد من أنه ما زال غاضباً منها.

«هل سأعدم؟» سألته.

«لا أعلم».

شعرت مارجوري بالدوار وخشيت من السقوط. رآها نيد تترنح فأمسك بها. وقعت بين ذراعيه بارتياح كبير لم تكن قادرة معه على الوقوف باستقامة مجدداً، ثم ابتعدت عنه بسرعة. لم يكن لديها أي حق بمعانقته.

«سأكون بخير»، قالت له.

بقي نيد ممسكاً بذراعها لوقتٍ أطول ثم أفلتها عندما أصبحت قادرة على الوقوف بمفردها، ولكنه استمر بالنظر إليها بتلك النظرة الغاضبة، وتساءلت عما يعنيه هذا.

ولم تتح لها الفرصة لتفكر بالأمر فقد أوماً أحد الخدم الملكيين لنيد كي يدخل.

دخلا إلى القاعة الطويلة جنباً إلى جنب. سمعت مارجوري أن الملك جيمس يحب إجراءات اللقاءات في هذه الغرفة لكي يتمكن من النظر إلى الصور الموجودة عندما يصاب بالسأم.

انحنى نيد ومارجوري في تحية للملك وقال جيمس: «الرجل الذي أنقذ حياتي».

عندما يتحدث جيمس يسيل اللعاب من فمه قليلاً، ويبدو أن هذا العيب البسيط دلالة على انغماسه الشديد في اللذات.

«هذا من لطف جلالتك»، قال نيد. «وبالتأكيد أنت تعرف الليدي مارجوري، كونتيسة شايرنغ الأرملة وزوجتي منذ خمسة عشر عاماً».

أوماً جيمس برأسه ولم يقل شيئاً، وفهمت مارجوري من بروده أنه عرف بميولها الدينية.

«أريد أن أطلب من جلالتك معروفاً»، قال نيد.

«أشعر بإغراء القول «اطلب ما تشاء حتى لو نصف مملكتي»، ولكن هذا التعبير لم يكن موفقاً جداً تاريخياً. كان الملك جيمس يقصد بكلامه قصة سالومي التي طلبت رأس بطرس المعمدان على طبق كبير.

«لا أعتقد أنني طلبت من جلالتك أي شيء رغم أن خدمتي أكسبتني ثقتك».

«أنقذتني من شياطين البارود. أنقذتني أنا وعائلي وجميع أفراد البرلمان»، قال جيمس. «بالله عليك فلتقل لي ما تريده».

«خلال التحقيق أدلى رولو فيتزجيرالد بالكثير من الاتهامات حول جرائم ارتكبت منذ سنوات عديدة بين الأعوام 1570 و1580 خلال حكم الملكة إليزابيث».

«ما نوع الجرائم التي تتحدث عنها؟».

«لقد اعترف بتهريب كهنة كاثوليكين إلى إنكلترا».

«ولكنه سيلقى عقوبة الإعدام بأي حال».

«وهو يدعي أنه كان يملك متواطئين معه».

«من كانوا؟».

«إيرل شايرنغ الراحل بارت، وزوجته مارجوري، التي أصبحت زوجتي الآن، وولديهما، وهما الإيرل الحالي بارتليت واللورد روجر».

اربدّ وجه الملك وقال: «هذه تهمة خطيرة».

«أطلب من جلالتك أن تأخذ بعين الاعتبار أن المرأة قد يهيمن عليها زوج متسلط وأخ قوي أيضاً، وأنها وأطفالها لا يمكن أن يلاموا على جرائم ارتكبت تحت هذا التأثير الذكوري المهيمن».

علمت مارجوري أن هذا الكلام لم يكن دقيقاً. لقد كانت قائدة ولم تكن تابعة. ولو كانت حياتها هي فقط على المحك لكانت أنكرت هذا الكلام، ولكن حياة ولديها على المحك أيضاً، ولهذا التزمت الصمت.

«أطلب من جلالتك أن تغفو عنهم. إنها الجائزة الوحيدة التي أطلبها منك لإنقاذ حياتك»، قال نيد.

«لا يمكنني القول إنني سعيد بهذا الطلب»، قال الملك.

لم يقل نيد شيئاً.

«ولكنك تقول إن تهريب الكهنة قد حدث منذ وقتٍ طويل».

«لقد انتهى مع هجوم الأسطول الإسباني. ومنذ ذلك الوقت توقف رولو عن توريث عائلته في جرائمه».

«لم أكن سأخذ هذا بعين الاعتبار لولا خدماتك المذهلة للتاج الإنكليزي ولسنوات عديدة».

«بذلت حياتي من أجل هذا يا جلالة الملك».

بدا الملك منزعجاً إلا أنه أوماً أخيراً وقال: «حسناً. لن يلقي أي من المتعاونين معه قصاصاً».

«شكراً لك».

«يسعكما الآن الانصراف».

انحنى نيد ومارجوري وغادرا.

سارا في صمتٍ عبر ردهات الانتظار في القصر ثم خرجا إلى الشارع. التقيا شرقاً وعبرا كنيسة سانت مارتين إن ذا فيلدز في شارع ستراند. لم تشعر مارجوري بشيء سوى الراحة. لقد انتهى كل الكذب والخداع الآن.

مرّاً بالقرب من قصور على ضفاف نهر التيمز، ثم دخلا شارع فليت الأقل ترفاً. لم تعلم مارجوري ما الذي كان يدور في عقل نيد في هذه اللحظة، ولكن يبدو كأنه يسير معها إلى المنزل. وتساءلت إن كانت تبالغ في الأمل.

دخلا إلى المدينة من بوابة لود وبدأ بصعود الهضبة التي استقرت على قممها كاتدرائية سانت بول فوق صفوف من البيوت ذات السقوف القشية الواطئة. كانت الكاتدرائية أشبه بلبوة مع أشبالها. استمر نيد على صمته، ولكن مارجوري شعرت بأن مزاجه قد تغير. بدا وجهه أكثر استرخاءً، وتجاعيد التوتر والغضب قد اختفت، بل عاد ظل ابتسامته القديمة والقلقة، وتجرات على أخذ يده في يدها.

ولبرهة من الزمن استسلم ليدها ولكن من دون أن يشدّ عليها. وأخيراً، شعرت به يضغط على أصابعها بلطف ولكن بقوة، وعلمت أن الأمور ستكون على ما يرام.

أعدمناه أمام كاتدرائية كينغزبريدج.

لم ننضم أنا ومارجوري إلى الحشود، ولكن لم يكن بوسعنا التغيّب عن هذا الحدث، ولهذا راقبناه من نافذة منزلنا القديم. انخرطت مارجوري في البكاء عندما جلبوا رولو من غيلدهول إلى الشارع الرئيسي ومن ثم إلى ساحة السوق، وقادوه إلى منصة الإعدام. عندما ركلوا الدعامة التي وقف عليها، بدأت مارجوري تصلي من أجل روجه. ولأنني بروتستانتية لم أكن أوّمن بالصلاة على الأرواح الميتة، ولكنني أخذت أصلي من أجل خاطرها. وقمت بأمر آخر أكثر عملية من أجلها أيضاً. كان من المفترض أن يتم تقطيع رولو وتنتزع أحشاؤه وهو ما يزال حياً، ومن ثم يقطع إلى قطع، ولكنني رشوت الجلاد لكي يسمح لرولو بالاختناق حتى الموت قبل أن يتم تقطيع جسده، الأمر الذي كان مدعاة لإحباط الحشود التي أرادت رؤية الخائن يعاني.

بعد ذلك تقاعدت من حياة البلاط، وعدت مع مارجوري إلى كينغزبريدج بشكلٍ دائم. أما روجر الذي لم يعرف قط أنه ابني فقد أخذ مكاني كممثل كينغزبريدج في البرلمان. أما ابن أخي ألفو فقد أصبح أغنى رجل في كينغزبريدج. بقيت محتفظاً بلقبتي: لورد ويغلي، وأصبحت تربطني بسكان قريتي الصغيرة علاقة قوية.

كان رولو آخر الرجال الذين أرسلتهم إلى حتفهم، ولكن هناك جزءاً آخر من الحكاية لم يحكّ بعد...

الخاتمة

1620

في الثمانين من عمره قضى نيد معظم وقته في النوم. كان يأخذ قيلولة في فترة ما بعد الظهر، ويخلد إلى النوم باكراً، ويسهو قليلاً بعد الفطور في غرفة الجلوس الأمامية في منزله في كينغزبريدج.

كان البيت ممتلئاً على الدوام: ألفو بن بارني، وروجر بن نيد، وأولادهما وأحفادهما. كان روجر قد اشترى البيت المقابل لمنزل نيد، وتعامل الأطفال مع المنزلين كمنزل واحد.

كان أحدهم قد أخبرهم أنّ الجد نيد يعرف كل شيء، وغالباً ما كان أحفاده يأتون راكضين إلى غرفة الجلوس بالأسئلة. وكان مهتماً على الدوام بما لديهم من أسئلة له: كم نحتاج من الوقت لنصل إلى مصر؟ وهل كان للمسيح أخت؟ وما هو أكبر رقم؟

كان يراقبهم بمتعة كبيرة وهو مسحور بعشوائية التشابه العائلي بينهم؛ لأحدهم شعر بارني الضارب إلى الحمرة، وللآخر عزم أليس الذي لا يلين، وهناك فتاة صغيرة بينهم كانت تدفعه إلى البكاء كلما رأى ابتسامتها التي تشبه ابتسامة مارجوري.

إلا أن هذه السمات الموروثة عبرت عن نفسها بطرق أخرى أيضاً. أصبح ألفو عمدة كينغزبريدج كما كان جده إدموند قبل وقتٍ طويل. أصبح روجر عضواً في مجلس شوري الملك جيمس. وفي قلعة نيوكاسل تصرف سوفييتي بتنمر وتبجح كسويذن وبارت وبارتليت.

كبرت العائلة كشجرة وارفة، وراقبها نيد ومارجوري وهي تكبر إلى أن انتهت حياة مارجوري بسلام منذ ثلاثة أعوام. ما زال نيد يتحدث إليها أحياناً عندما يكون وحيداً: «لقد اشترى ألفو حانة سلوترهاوس». كان يقول لها مثل

هذه الأمور وهو في طريقه إلى السرير في نهاية اليوم، أو يقول لها: «إيدي الصغير أصبح بمثل طولي الآن». ولم يكن يهمه إن أجابته أم لا، فقد كان يعرف ما الذي ستفكر به. كانت ستجيبه قائلة: «إن النقود تلتصق بيد ألفو كالعسل على الأصابع» وإن «إيدي سيبدأ بمطاردة الفتيات من الآن فصاعداً». لم يزر نيد لندن منذ سنوات، وهو لن يزورها مجدداً. من الغريب حقاً أنه لم يبد اهتماماً بملاحقة الجواسيس والخونة، ولا بتحديات ومؤامرات الحكومة. ولكن ما افتقده حقاً كان المسرح. لقد أحب المسرحيات منذ رأى قصة مريم المجدلية في نيوكاسل منذ وقتٍ طويل. ولكن المسرحيات كانت حدثاً نادراً في كينغزبريدج، ولا تزورها الفرق المسرحية سوى مرة أو مرتين في العام، وتقوم بالعروض في فناء نُزل بيل. كان عزاء نيد أن بعضاً من مسرحياته المفضلة مكتوب وبالتالي يستطيع قراءتها. هناك كاتب بعينه يستمتع بأعماله، رغم أنه لم يتذكر قط اسم الكاتب. كان ينسى كثيراً في هذه الأيام.

كان على خضنه كتاب وقد غفا فوقه. استيقظ وبحث حوله عنم أيقظه ليري شاباً لديه شعر مارجوري الأسود والمجعد. كان حفيده جاك بن روجر وابتسم نيد لحفيده. كان جاك يشبه مارجوري في نواح أخرى: فقد كان وسيماً وساحراً وعنيداً وجاداً جداً في المسائل الدينية إلا أن تطرفه الديني قد ذهب في منحى مختلف عن المنحى الذي ذهبت فيه مارجوري. لقد غدا بيورتانياً متطرفاً، وكان هذا سبباً لجدالات مستعرة مع والده البراغماتي.

كان جاك في السابعة والعشرين من عمره وما يزال عازباً، وقد تفاجأت عائلته عندما أعلن أنه يريد أن يصبح بناءً وازدهرت أحواله. كان هناك بناؤون شهيرون في ماضي عائلته، وها هو الإرث العائلي يظهر مجدداً.

جلس جاك أمام نيد وقال له: «لدي أخبار مهمة يا جدي. سأسافر».

«لماذا؟ إن عملك مزدهر هنا في كينغزبريدج».

«لقد جعل الملك الحياة غير مريحة لأمثالنا ممن يأخذون تعاليم الإنجيل

بجدية».

ولكن ما عناه جاك بكلامه أنه هو وأصدقاؤه البيورتانيين يختلفون بقوة على نقاط عقائدية عديدة مع الكنيسة الإنكليزية، وأن الملك جيمس لم يكن متسامحاً معهم كما لم يكن متسامحاً مع الكاثوليكين.

«سيؤسفني رحيلك يا جاك»، قال نيد. «أنت تذكرني بجدتك». «أنا حزين لوداعك. ولكننا نريد أن نعيش في مكان يمكننا فيه تنفيذ مشيئة الرب من دون تدخل أحد».

«قضيت حياتي وأنا أحاول تحويل إنكلترا إلى مثل هذا المكان». «ولكنها ليست كذلك، صحيح؟».

«على حد علمي أنها أكثر تسامحاً من أي مكان آخر. إلى أين ستوجه بحثاً عن حرية أكبر».

«إلى العالم الجديد».

«اللعنة!» كان نيد مصعوقاً. «لم أتصور أنك ستذهب بعيداً جداً. اعذرني على الشتيمة ولكنك فاجأتني».

أوما جاك بما معناه أنه قبل بالاعتذار. كان يفرض كجميع الكاثوليكين، الشتائم التجديفية التي تعلمها نيد من الملكة إليزابيث، إلا أنه لم يقل شيئاً. «هناك مجموعة منا قررت الإبحار إلى العالم الجديد وبدء مستعمرة هناك».

«يا لها من مغامرة! إن ذلك النوع من المغامرات التي كانت جدتك مارجوري تحب القيام به». شعر نيد بالحسد من شباب وجرأة جاك، فهو لن يتمكن من السفر مجدداً. لكن ولحسن الحظ فإنه يملك ذكريات كثيرة عن كاليه وباريس وأمستردام. إنه يتذكر كل تفصيل من تفاصيل رحلاته حتى عندما أصبح في عمرٍ لم يعد فيه قادراً على تمييز أيام الأسبوع.

«نظرياً، سيظل جيمس ملكنا، ولكننا نأمل ألا يهتم كثيراً بطريقتنا في العبادة بما أنه من المستحيل أن يفرض علينا قوانينه من بعيد».

«أجرؤ على القول إنك محق فيما تقوله. أتمنى لك كل الحظ في رحلتك». «أرجوك صل من أجلنا».

«سأفعل. أخبرني باسم سفيتك حتى أطلب من الرب أن يحميها». «إنها تدعى ماي فلاور».

«سفينة ماي فلاور. سأحاول تذكر هذا الاسم».

توجه جاك إلى طاولة الكتابة ثم قال: «سأكتبه على روقة. أريد أن تذكرنا في صلواتك».

«شكراً لك». كان اهتمام جاك بصلوات نيد مؤثراً بشكل غريب.
كتب جاك على قصاصة ورقية ووضع القلم على الطاولة: «يجب أن
أغادر الآن. لدي الكثير لأقوم به».

«بالطبع. وأنا أشعر بالتعب، سأغفو قليلاً».

«فلتتم جيداً يا جدي».

«فليكن الربّ معك أيها الفتى المحبوب».

غادر جاك وحقق نيد من النافذة إلى الواجهة الغربية المهيبه للكاتدرائية.
كان قادراً من مكانه على رؤية مدخل المقبرة حيث دُفنت سيلفي ومارجوري.
لم ينظر إلى الكتاب الذي كان في حجره فقد كان سعيداً بأفكاره التي غالباً ما
باتت تكفيه في هذه الأيام.

كان عقله أشبه بمنزلٍ قضى معظم حياته في تأثيثه حيث الطاولات
والأسرة فيه أغان غناها، ومسرحيات شاهدها، وكاتدرائيات رآها، وكتب
قرأها بالإنكليزية والفرنسية واليونانية. وشارك هذا المنزل الخيالي مع
عائلته، الأحياء منهم والأموات: أهله وأخوه والنساء اللواتي أحبهن،
والأطفال. كانت هناك غرف للزوار المهمين كالسير فرانسيس ويلزنهايم،
ويليام وروبرت سيسيل، وفرانسيس درايك وبالطبع الملكة إليزابيث. وكان
أعداؤه في المنزل أيضاً: رولو فيتزجيرالد، وبيير أوموند دي غيز وغاية
فوكس، إلا أنهم كانوا جميعاً محبوسين في زنزانه حتى لا يسبوا له الأذى.

أما اللوحات التي علقت على جدران هذا المنزل فكانت للأوقات التي
كان فيها نيد شجاعاً أو ذكياً أو رقيقاً، وأضفت هذه اللوحات على المنزل
جواً من السعادة، أما الأشياء السيئة التي اقترفها، والأكاذيب التي تفوه بها،
والناس الذين خانهم، والأوقات التي تصرف فيها بجنون فقد كانت مكتوبة
بحروف بشعة على جدارٍ مرحاض خارجي.

أما ذاكرته فكانت بمنزلة مكتبة المنزل. كان بوسعه اختيار أي مجلد
والانتقال على الفور إلى أي مكان وزمان: كينغزبريدج، مدرسة النحو أيام
طفولته البريئة، قصر هانفيلد خلال عام 1558 الحماسي، ضفاف نهر السين
في الليلة الدموية لعيد القديس سانت بارثولوميو، والقناة الإنكليزية خلال
هجوم الأسطول الإسباني. من الغريب حقاً أن شخصية نيد التي عاشت تلك

القصص لم تبَقَ على حالها. ويبدو له أحياناً أن شخصاً مختلفاً عنه تعلم اللاتينية، وآخر وقع تحت تأثير سحر الأميرة الشابة إليزابيث، وآخر طعن رجلاً بلا أنف في مقبرة كنيسة سان جوليان لو بوف وشخصاً آخر راقب السفن المحترقة وهي تتوجه نحو السفن الشراعية وتبعدها عن كاليه. بالطبع كانوا جميعاً مجرد نسخ مختلفة عنه هو - صاحب المنزل.

ويوماً ما سيتداعى هذا المكان كما يحدث للأبنية القديمة، ويتحول كل شيء فيه إلى رماد بلمح البصر.

ومع هذه الفكرة أسلم نيد نفسه للنوم شيئاً فشيئاً.

شكر وتقدير

أقدم شكري إلى مستشاري التاريخيين في رواية عمود نار وهم: ميرسيدس غارسيا أرينال (إسبانيا)؛ رودريك غراهام الراحل (إسكتلندا)؛ روبرت هاتشنسون (إنكلترا)؛ غايت لو تتيك (فرنسا)؛ جيفري باركر (هولندا). وتلقيت عوناً أيضاً من: آن لوري بياتركس، وبياتريس فينتغير (متحف اللوفر، باريس)؛ ديرموت بوركي (منزل هاتفليد)؛ ريتشارد داب وتيموثي لونغ (متحف لندن)؛ سيمون لينوكس، تريشا ميور وريتشارد ووترز (قلعة بحيرة ليفين)؛ ساره باتنسن (قلعة كارلايل)؛ لي ريد (المسرح الإنكليزي في القرن السادس عشر)؛ إليزابيث تايلور (ناشونال بورترية غاليري في لندن).
أقدم شكري أيضاً إلى المحررين: شيريس فيشر، ليزلي غيلمان، فيليس غران، نيل نايرن، براين تارت، وجيرمي ترفيشن.
كل الشكر لأصدقائي وعائلي ممن قدموا لي النصيحة: جون كلير، باربرا فوليت، إيمانويل فوليت، توني ماكوالتر، كريس مانرز، شارلوت كوليش، جون ستادزنسكي، جان ترنر وكيم ترنر.
كنتم جميعاً خير عون لي في تأليف هذا الكتاب بشكل أفضل، ولكم مني خالص الشكر.

الشخصيات الحقيقية في الرواية

يسألني القراء أحياناً عن الشخصيات التاريخية الحقيقية والمتخيلة في رواياتي. ولمن يملكون هذا الفضول أقدم لهم هذه القائمة بالشخصيات التاريخية الحقيقية في رواية عمود نار:

إنكلترا

ماري تودر، ملكة إنكلترا
إليزابيث تودر، أختها غير الشقيقة والملكة اللاحقة
توم باري، أمين خزانة إليزابيث
السير ويليام سيسيل، مستشار إليزابيث
روبرت سيسيل، ابن ويليام
السير فرانسيس ويلزنهايم، رئيس الجواسيس
روبرت دادلي، إيرل لانستر
السير نيكولاس ثروكمورتن
نيكولاس هيث، رئيس مجلس اللوردات
السير ويليام دريك، قبطان بحري
السير جون هوكنز، قائد بحري ويقال أيضاً إنه كان قرصاناً
السير فرانسيس ثروكمورتن
جورج تالبوت، إيرل شروبيرري
بيس هارويك
السير أمياس بوليت
غيلبرت غيفورد، جاسوس

ويليام ديفيسون، وزير خارجية مؤقت في عهد الملكة إليزابيث
أنتوني بينغتون، خائن
مارغريت كليثيرو، شهيدة كاثوليكية
اللورد هاورد إيفنهام، أدميرال الأسطول الإنكليزي
فيليب هيربرت، إيرل بيمبروك، وإيرل مونتغمري
إدموند دبلدي
غاية فوكس
توماس بيرسي

فرنسا

فرانسوا، دوق غيز
هنري، ابن فرانسوا
شارل، كاردينال اللورين وأخو فرانسوا
ماري دي غيز، أخت فرانسوا ووالدة ماري ملكة إسكتلندا
لويس دي غيز، الكاردينال الثمل
آنا ديست، دوقة غيز وزوجة فرانسوا
هنري الثاني، ملك فرنسا
كاترينا دي ميديتشي، ملكة فرنسا
ديان دي بواتيه، عشيقة الملك هنري الثاني

أطفال الملك هنري والملكة كاترينا:

فرانسيس الثاني، ملك فرنسا
شارل التاسع، ملك فرنسا
هنري الثالث، ملك فرنسا
مارغو، ملكة نافار

ماري ستيوارت، ملكة إسكتلندا وفرنسا

أنطوان، ملك نافاز

هنري بوربون، ابن أنطوان والملك هنري الرابع

لويس، ملك كوندية

غاسبار دي كوليني، قائمقام فرنسا

شارل دي لوفزيبه، قاتل

ويليام آلان، قائد الكاثوليكين الإنكليز المنفيين

أمبروز باريه، طبيب ملكي

جون دي بولترو، قاتل

جان أونغيست

جان لو شارون، عمدة باريس

إسكتلندا

جيمس ستيوارت، الأخ غير الشقيق وغير الشرعي لماري ملكة إسكتلندا

جيمس ستيوارت، ابن الملكة ماري والملك جيمس السادس /

إسكتلندا، الملك جيمس الأول / إنكلترا

آن الدنماركية، زوجة جيمس السادس وملكة إسكتلندا

جون ليزلي، أسقف روس

السير ويليام دوغلاس

الليدي أغنيس، زوجته

ابنهما جورج والملقب بـ «جورج الوسيم».

ويلي دوغلاس، ابن السير ويليام غير الشرعي

إسبانيا

الملك فيلبي الثاني

الكونت فيريا، دبلوماسي

الأسقف ألفارو دي لا كوادرا

بيرناردينو دي ميندوزا، السفير الإسباني في لندن
ألونسو بيريز دي غوزمان، دوق ميدينا سيدونيا السابع وأدميرال الأسطول
الإسباني

هولندا

مارغريتا بارما، الأخت غير الشقيقة وغير الشرعية للملك فيليبي الثاني
وحاكمة هولندا
بيتر تيتلمانز، رئيس المحققين

مكتبة
t.me/soramnqraa

متوفر للكاتب رواية عالم بلا نهاية
من مكتبة
انضم إلى مكتبة على تلجرام
وأقرأ قبل الجميع

telegram @soramnqraa

telegram @soramnqraa

أعدمناه أمام كاتدرائية كينغزبريدج حيث تُنفذ الإعدامات عادة؛ فإن لم تكن قادراً على قتل رجلٍ أمام الربِّ لن تنجح في قتله أبداً.

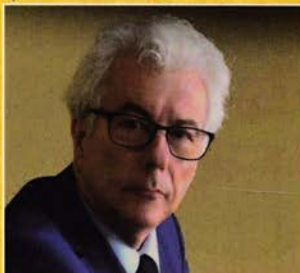
أحضره الشريف من الزنزانة أسفل مبنى غيلد هيل ويده مُقيّدتان خلف ظهره. مشى بانتصابٍ وبوجهٍ شاحبٍ يفور بالتحدي والشجاعة.

سخر منه الحشد وشتمه، ولكنه بدا وكأنه لا يرى أحداً سواي. تلاقت عيوننا، وفي هذا التبادل اللحظي للنظرات مرَّ عمرٌ بأكمله.

كنتُ المسؤول عن إعدامه وهو يعلمُ بهذا.

طارده لعقودٍ من الزمن، فقد كان مَنْ زرع المتفجرات، ولو لم أوقفه لكان قتل نصف حُكّام بلدي - بمن فيهم العائلة المملكيّة - بكل وحشية وتعطشٍ للدماء.

قضيت حياتي في تقفي أثر المجرمين أمثاله، وقد أوصلت الكثيرين إلى المقصلة. لم يُعدموا فحسب بل أُغرقوا وقُطّعوا، أمّا أحكام الموت الأكثر ترويعاً فقد كانت من نصيب أسوأ المجرمين.



قمتُ بهذا مرّاتٍ عديدة، وراقبتُ كل رجل يموت وأنا على علم تام أنّي - وأكثر من أيّ أحدٍ آخر - مَنْ أوصله إلى هنا لينال عقاباً رهيباً وعادلاً في آنٍ معاً. قمتُ بهذا خدمةً لبلدي الغالي، ومن أجل المملكيّة التي أعمل لمصلحتها، ومن أجل مبدأٍ آخر وهو الإيمان بأنّ أيّ شخص يملك حق اختيار طريقه إلى الربِّ.

كان آخر الرجال الكُثُر الذين أرسلتهم إلى الجحيم، ولكنه جعلني أعتقد أنه أولهم...

ISBN 978-9933-6040-7-3

